

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

الفصل الثاني

ما قامت به روما من جلائل الأعمال

إن تعليل سقوط روما لأيسر من تعليل طول حياتها- وأهم عمل قامت به روما هو أنها، بعد أن استولت على عالم البحر الأبيض المتوسط، تنقفت بثقافته، ووهبته النظام، والرشاء، والسلم مدى مائتي عام، وصدت عنه غارات البرابرة قرنين من الزمان، وأورثت الغرب قبل موتها تراث اليونان والرومان. وليس لروما منافس قط في فن الحكم. نعم إن الدولة الرومانية قد ارتكبت ألقاً من الأخطاء السياسية، فقد أقامت صرحها على الجركية أنانية، وكهنوت ذي طقوس غامضة خفية، وأنشأت ديمقراطية من الأحرار ثم قضت عليها بالعنف والفساد، واستغلت ما فتحته من البلاد لتزود بخيراتها إيطاليا الطفيلية، فلما عجزت عن الاستغلال تقوضت دعائمها وانهارت، وخلفت في أماكن متفرقة في الشرق والغرب قفاراً وسمت هذا سلاماً. ولكنها أقامت وسط هذا الفساد كله نظاماً فخماً من الشرائع أمن الناس في أوربا كلها تقريباً على أنفسهم وأموالهم وكان باعثاً قوياً على الجد والمثابرة من أيام المشترعين العشرة إلى أيام نابليون. وشكلت حكومة انفصلت فيها السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية، وظل ما فيها من ضوابط وموازين مصدرأ ملهماً لوضعي الدساتير إلى عهد الثورتين الأمريكية والفرنسية. ولقد جمعت زماً ما بين النظم الملكية والأرستقراطية والديمقراطية، ونجحت في عملها هذا نجاحاً أتى عليه الفلاسفة، والمؤرخون، ورعاياها وأعداؤها على السواء. ووضعت أنظمة الحكم البلدي المحلي، وأمكنت نصف ألف مدينة من أن تستمتع بالحرية زماً طويلاً، وأدارت شؤون

صفحة رقم : 4114

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

إمبراطوريتها في أول الأمر بشره وقسوة، ثم بدلتهما تسامحاً وعدالة رضيت بهما الدولة العظيمة رضاً لم تعرف له نظير فيما تلا ذلك من الزمان، وجعلت الصحراء تزدهر بالحضارة، وكفرت عن ذنوبها بما بسطته على بلادها من سلم دائمة طويلة، وها نحن أولاء في هذه الأيام نبذل أعظم الجهود لنحيي السلم الرومانية في هذا العالم المضطرب. في هذا الإطار الذي لم يسم عليه إطار غيره شادت روما صرح حضارة يونانية في أصلها، رومانية في تطبيقها ونتائجها، ولسنا ننكر أن انهماكها في شؤون الحكم قد شغلها عن أن تنتج من الأعمال الذهنية مثل ما أنتجت بلاد اليونان؛ ولكنها استوعبت التراث الصناعي، والعقلي، والفني الذي تلقتة عن قرطاجنة ومصر وبلاد الشرق، وقدرته أعظم التقدير، واستمسكت به اشد الاستمسك. ولسنا ننكر كذلك أن العلوم لم تتقدم على يديها، ولم تدخل شيئاً من التحسين الآلي على الصناعة، ولكنها أغنت العالم بتجارة كانت تسير في بحار آمنة، وأنشأت شبكة من الطرق الباقية

حتى الآن أضحت شرايين يجري فيها دم الحياة الجياش. ولقد مرت فوق هذه الطرق، وفوق ألف من الجسور الجميلة إلى عالم العصور الوسطى والعالم الحديث أساليب الزراعة والصناعات اليدوية، والفنون، وعلم إقامة المباني التذكارية وأعمال المصارف والاستثمار، وتنظيم الأعمال الطبية والمستشفيات العسكرية، ونظام المَدن الصحي، وأنواع مختلفة من الفاكهة، أشجار النقل، ونباتات الحقول والزينة، التي جاءت بها من الشرق لتتأقلم في الغرب، وحتى سر التدفئة المركزية قد انتقل من الجنوب الدافئ إلى الشمال البارد. ولقد خلق الجنوب الحضارات ثم غلبها الشمال على أمرها فدمرها أو استعارها من أهلها. ولم تبتدع روما نظم التربية، ولكنها أنمتها ووسعتها إلى حد لم يُعرف له مثيل من قبل، وأمدتها بمعونة الدولة، ووضعت المنهاج الذي ظل باقياً يعذبنا في

صفحة رقم : 4115

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

أيام شباننا. وفي العمارة لم تبتدع الأقواس أو العقود أو القباب، ولكنها استخدمتها بجرأة وفخامة جعلت بعض الطرز من عمائرها أرقى من جميع نظائرها إلى هذه الأيام؛ ولقد أخذت الكنائس الكبرى في العصور الوسطى جميع عناصرها من الباسلغا الرومانية. ولم تبتدع روما التماثيل، ولكنها وهبتها قوة واقعية، فلما سما إليها اليونان أصحاب هذه النزعة؛ ولم تبتدع الفلسفة ولكن لكريشوس وسنكا هما اللذان وجدت فيهما الأبيقورية والرواقية صورتيهما النهائيتين المصقولتين أعظم صقل. ولم تنشئ الأنماط الأدبية إنشاءً، لا نستثنى من ذلك الهجاء نفسه، ولكن مَنْ منا يستطيع أن يقدر حق التقدير ما كان لشيخرون من أثر في فنون الخطابة، والمقالة، وأسلوب النثر، أو أثر فرجيل في دانتي، أو تسو Tasso في ملتن... أو ليفي وتاستس في كتابة التاريخ، أو هوراس وجوفنال في دريدن، وسوفت، وبوب؟.

وقد أضحت لغتها بفضل ما دخل عليها من مسخ يثير الإعجاب لغة إيطاليا، ورومانيا، وفرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، وأمريكا اللاتينية، أي لغة نصف عالم الرجل الأبيض؛ وقد ظلت تلك اللغة حتى القرن الثامن عشر اللغة الدولية للعلم والتبحر في الدرس، والفلسفة في بلاد الغرب. وكانت هي المعين الذي اغترفت منه مفردات دولية سهلة لعلمي الحيوان والنبات. ولقد بقيت حية في الطقوس المنعمة والوثائق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية، ولا تزال تكسب بها تذاكر الأطباء، وتتردد كثيراً في المصطلحات القانونية؛ ودخلت عن طريق اللغات الرومانسية مثل (royal yegal, reyalis, وpessant, pagan, paganus؛ لتزيد من اللغة الإنجليزية ومرورها. وملاك القول أن ما ورثناه من الرومان يظهر أمامنا آلاف المرات في كل يوم. ولما أن فتحت المسيحية روما انتقل إلى الدين الجديد بناء الدين الوثني

صفحة رقم : 4116

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> ما قامت به رومة من جلائل الأعمال

القديم، انتقل إليه لقب الحبر الأعظم pontifex meximus، وعبادة الأم العظمى، وعدد لا يحصى من الأرباب التي بنت الراحة والطمأنينة في النفوس، والإحساس بوجود كائنات في كل مكان لا تتركها الحواس، وبهجة الأعياد القديمة أو وقارها، والمظاهر الخلابة للمواكب القديمة التي لا يعرف الإنسان بدايتها، نقول ان هذه كلها انتقلت إلى المسيحية كما ينتقل دم الأم إلى ولدها، وأسرت روما الأسيرة فاتحها، وأسلمت الإمبراطورية المحتضرة أزمة الحكم والمهارة

الإدارية إلى البابوية القوية، وشحذت الكلمة الموسمية بقوة سحرها ما فقدته السيف المفلول من قوته؛ فحل مبشرو الكنيسة محل جيوش الدولة، وأخذ هؤلاء يجوبون الأفاق في جميع الجهات منتبحين الطرق الرومانية، وعادت الولايات النائرة بعد أن اعتنقت المسيحية إلى الاعتراف بسيادة روما. وحافظت العاصمة القديمة على سلطانها، خلال الكفاح الطويل الذي دام في عصر الإيمان، وما زال ينمو هذا السلطان، ينمو ويقوى حتى خيل إلى العالم في عصر النهضة أن الثقافة القديمة قد انبعتت من قبرها، وأن المدينة الخالدة أضحت مرة أخرى مركز حياة العالم وثرائه وقمة تلك الحياة ودينك الثراء والفن. وقد احتفلت روما في عام 1963 بمضي 2689 عاماً على تأسيسها، وكان في وسعها أن تعود بنظرها إلى ما تمتاز به حضارتها من استمرار رائع في تاريخ الإنسانية. ألا ليتها تعود إلى حياتها الماضية. شكراً لك أيها القارئ الصبور

صفحة رقم : 4117

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> مقدمة -> مقدمة المترجم

المجلد الرابع

عصر الإيمان

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

باسم الله نبدأ الجزء الأول من المجلد الرابع من مجلدات قصة الحضارة السبعة، وقد صدر منها بعد هذا مجلد خامس في حضارة عصر النهضة. أما هذا المجلد فيروي قصة حضارة العصور الوسطى من قسطنطين إلى دانتى، وهي فترة دامت أكثر من ألف عام. وقد أطلق المؤلف على هذا العهد اسم عصر الإيمان لأنه كان عصر العقيدة الدينية القوية، ولأن فيه أضحت المسيحية دين الدولة الرومانية، وفيه ظهر الدين الإسلامي وانتشر في آسيا وأفريقية وأوروبا، وبلغت الحضارة الإسلامية فيه ذروة مجدها في الشرق والغرب على السواء. وهذا المجلد الرابع - وإن لم يشمل من الزمن إلا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العالم - من أكبر مجلدات هذه القصة؛ فهو في الأصل الإنجليزي يبلغ نحو ألف ومائتي صفحة مقسمة إلى خمس "كتب" سنصدرها باللغة العربية في ستة أجزاء.

وهذه الفترة من أهم الفترات وأبقاها أثراً في تاريخ العالم، وحسبنا أن نعيد ما قلناه من قبل وهو أن فيها ثبتت دعائم المسيحية، وظهر الإسلام، وقام الصراع بين اليهودية والمسيحية. وفيها بدأت أوربا تتشكل، وتحطمت الإمبراطورية الرومانية وظهرت الأمم الأوربية الحديثة، ونشبت الحروب الصليبية، وظهر الإسلام وعم نوره الأفاق، ولاحت تباشير عصر النهضة

صفحة رقم : 4118

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> مقدمة -> مقدمة المترجم

وسيجد القارئ ذلك كله مفصلاً في هذا الجزء والأجزاء التالية إن شاء الله. ونرى مرة أخرى أن نكرر الشكر للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية وللجنة التأليف والترجمة والنشر وللقرء الكرام الذين كان إقبالهم على الأجزاء السابقة أكبر مشجع لنا على مواصلة الجهد في ترجمة هذا المجلد الضخم ونرجو ألا يطول انتظارهم لبقية الأجزاء.

صفحة رقم : 4119

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> مقدمة -> إلى القارئ

مقدمة

إلى القارئ

إن الغرض الذي أبعغه من تأليف هذا الكتاب هو أن أعرض على القارئ قصة حضارة العصور الوسطى من عام 325 م إلى عام 1300 م كاملة بقدر ما تتسع لها صفحاته، بعيدة عن الهوى بقدر ما تسمح له الطبيعة البشرية، والطريقة التي اتبعتها في تأليفه هي النظر إلى التاريخ كله على أنه وحدة شاملة يكمل بعضها بعضاً، أي تصوير جميع مظاهر حضارة من الحضارات أو عصر من العصور في صورة جامعة شاملة، وإيراد قصة تلك الحضارة وذلك العصر بهذه الطريقة عينها. ولذلك كان اضطرارنا إلى الإحاطة بجميع النواحي الاقتصادية، والسياسية، والقانونية، والحربية،

والأخلاقية، والاجتماعية، والدينية، والتربوية، والعلمية، والطبية، والفلسفية، والدبية، والفنية لأربع حضارات متباينة- البيزنطية، والإسلامية، واليهودية، والأوربية الغربية، مما جعل وحدة المنهج والإيجاز من أشق الأمور. فأما من حيث الوحدة فإن التقاء الحضارات الأربع واصطراعها أيام الحروب الصليبية قد خلع على هذا المنهج شيئاً منها، وأما الإيجاز ففي وسع القارئ المتعب، الذي يرهقه طول الكتاب، أن يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن المخطوط في صورته الأصلية كان يزيد على هذا النص الذي بين يديه بقدر نصف طوله. ذلك أننا لم نبق من المخطوط الأصلي إلا ما كان في رأينا لا غنى عنه لفهم تلك الفترة من تاريخ العالم على الوجه الصحيح، أو لجعل القصة حية واضحة زاهية. على أن في وسع القارئ غير المتخصص أن يمر ببعض الفقرات العويصة

صفحة رقم : 4120

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> مقدمة -> إلى القارئ

دون أن يقف عندها طويلاً، ولن يخل هذا بسياق القصة أو يشوه الصورة. وهذا المجلد هو القسم الرابع من قصة الحضارة التي ستكون بعد تمامها مؤلفة من ستة أقسام : القسم الأول هو "تراث الشرق" (1935)، وقد أحطنا فيه بتاريخ مصر والشرق الأدنى من أقدم العهود إلى أن فتحهما الإسكندر حوالي 330 ق.م، وبتاريخ الهند والصين واليابان إلى الوقت الحاضر؛ والقسم الثاني "حياة اليونان" (1939)، يروي تاريخ اليونان والشرق الأدنى ويصف حضارتهما إلى أن فتح الرومان بلاد اليونان في عام 146 ق.م؛ والقسم الثالث "قيصر والمسيح" (1944) يروي تاريخي روما والمسيحية من بدايتهما، وتاريخ الشرق الأدنى من عام 146 ق.م، إلى مجمع نيقية الذي عقد في عام 325 م. ويواصل هذا الكتاب دراسة حياة الرجل الأبيض حتى موت دانتلي في عام 1321. ويشمل القسم الخامس "النهضة والإصلاح" تاريخ الفترة الواقعة بين 1321، 1648، ونعتزم إصداره في عام 1955؛ وأما الجزء السادس "عصر العقل" الذي يصل بالقصة إلى الوقت الحاضر، فيصدر بمشيئة الله في عام 1960 وفي هذا الوقت يكون المؤلف قد قرب من الشيوخوخة قرباً يضطره إلى أن يتخلى عن ميزة تطبيق الطريقة الجامعة التي سار عليها في الأقسام الستة على الأمريكتين.

والخطة التي اتبعناها في هذه الأقسام الستة هي أن يكون كل منها وحدة مستقلة بذاتها، ولكن القراء الذين درسوا "القيصر والمسيح" سيجدون أن من السهل عليهم أكثر من غيرهم أن يمسكوا بخيوط القصة التي نرويها في هذا الكتاب. وسيضطرنا تاريخ الحوادث وتسلسلها إلى أن نبدأه بأقل ما يعني به الناس عادةً من نواحي حضارة العصور الوسطى الرباعية وهو الحضارتان البيزنطية

صفحة رقم : 4121

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> مقدمة -> إلى القارئ

والإسلامية؛ وسيددهش القارئ المسيحي من كثرة الصحف التي اقتصصنا بها الثقافة الإسلامية كما أن العالم الذي درس حضارة الإسلام سيأسف أشد الأسف للحيز الضيق الذي خصصنا به حضارة المسلمين الزاهرة في العصور الوسطى ولاضطرارنا إلى اختصار تاريخها هذا الاختصار الشديد. ولقد بذلنا جهدنا على الدوام في أن نكون بعيدين عن الهوى والتحيز، وأن ننظر إلى كل دين وكل ثقافة كما ينظر إليهما أهلها؛ ولكننا مع هذا لا ندعي العصمة من الهوى، ولا ننكر انه قد بقي في قصتنا شيء من التحيز في اختيار مادة الكتاب وفي توزيع صحفه على موضوعاته المختلفة إن لم يكن في غير هاتين الناحيتين. ذلك أن العقل كالجسم سجين في جلده لا يستطيع الفكك منه. ولقد أعدنا كتابة المخطوط ثلاث مرات، وكنا في كل مرة نكشف فيه عن أخطاء جديدة، وما من شك أنه ما يزال به كثير منها، غير أننا قد ضحينا بتحسين الجزء بغية إكمال الكل، وإنا لنرحب بكل ما يبلغ إلينا من هذه الأخطاء. ولقد كان من الواجب أن نهدي هذا الكتاب إلى زوجتي كما أهديت إليها الكتب السابقة، فلقد ظلت سبعة وثلاثين عاماً تحبوني في صبر جميل بقدر من تسامحها، وحمایتها، وإرشادها، وإلهامها لا تقي به هذه المجلدات جميعها. ولكنها هي التي أشارت عليّ بأن أهدي هذا الكتاب إلى ابنتنا، وإلى زوجها، وإلى حفيدنا.

ول ديورانت
في الثاني والعشرين من نوفمبر سنة 1949

صفحة رقم : 4122

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

الكتاب الأول

الدولة البيزنطية في أوج مجدها

325 - 565

الباب الأول

الفصل الأول

تراث قسطنطين

لما أحس الإمبراطور قسطنطين بدنو أجله جمع حوله في عام 335 أبناءه وأبناء أخيه وقسم بينهم حكم الإمبراطورية الضخمة التي استولى عليها، وكان عمله هذا مثلاً من أمثلة الحمق الذي تدفع إليه معزة الأبناء. وقد خص ابنه الأكبر قسطنطين الثاني بالغرب بريطانيا، وغالة، وأسبانيا؛ وخص ابنه قنسطنطيوس Constantius بالشرق -بأسية الصغرى، وسوريا، ومصر؛ وخص ابنه الأصغر قنسطانس Constans بشمالي أفريقيا وإيطاليا، والبركم، وتراقية بما في ذلك العاصمتان الجديدة والقديمة -القسطنطينية وروما- وأعطى ابني أخ له أرمنية ومقدونية وبلاد اليونان. وكان الإمبراطور المسيحي الأول قد بذل حياته وحيوانات كثيرة غير حياته، إعادة الملكية، وتوحيد العقيدة الدينية في الدولة الرومانية؛ فلما مات في عام 337 تعرض هذا كله للخطر الشديد، ولم يكن أمامه إلا واحدة من اثنتين ليس فيهما حظ لمختار، فإما أن تقسم حكومة البلاد وإما أن تتعرض لخطر الحرب الأهلية؛ ذلك أن حكمه لم يدم حتى يخلع عليه القداسة طول الزمن، ولم يكن يضمن والحالة هذه أن تنعم البلاد بالسلم إذا خلفه

صفحة رقم : 4123

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

على العرش وارث واحد، ولهذا بدا له أن شر تقسيم البلاد بين عدة حكام أهون من شن الحرب الأهلية. غير أن البلاد مع هذا لم تنج من الحرب الأهلية، ويسر الاغتيال حل مشكلة التقسيم. ذلك أن الجيش رفض كل سلطان عدا سلطان أبناء قسطنطين، واغتيل جميع الذكور من أقارب الإمبراطور السابق عدا جالس Dallus ويوليان Julian ابني أخيه، فأما جالس فكان عليلاً يرجي أن لا يطول حياته كثيراً، وأما يوليان فكان في سن الخامسة، ولعل سحر الطفولة هو الذي رقق قلب قنسطنطيوس الذي تعزو إليه الروايات المتواترة، ويعزو إليه أمنيوس، هذه الجرائم(1). وأوقد قنسطنطيوس مرة أخرى نار الحرب مع بلاد الفرس وهي حلقة من النزاع القديم بين الشرق والغرب، ذلك النزاع الذي لم تخمد جذوته في واقع الأمر من أيام مرثون، وأجاز لآخوته أن يبيد بعضهم بعضاً بسلسلة من

الاجتياالات الأخوية. ولما أنفر بالملك (353) عاد إلى القسطنطينية، وحكم الدولة التي وجدت من جديد حكماً بذل فيه كل ما أتصف من عجز يصحبه الإخلاص، واستقامة شديدة، ولم يكن يهنأ له عيش لارتياحه في الناس وسوء ظنه بهم، ولا يحبه أحد لقسوته، ولا يرقى إلى مصاف العظماء لكبريائه وغروره.
وكانت المدينة التي سماها قسطنطين روما الجديدة Nova Roma، والتي سميت باسمه في أثناء حياته، قد أقامها على مضيق البسفور جماعة من المستعمرين اليونان حوالي عام 657 ق.م، وظلت ما يقرب من ألف عام تعرف باسم بيزنطية، وسيظل لفظ بيزنطى عنواناً لحضارتها وفنها على مر الأيام، ولم يكن ثمة موضع آخر في الأرض كلها أصلح منها لإقامة عاصمة لدولة ما. وقد أطلق عليها نابليون في نلزت Tilsit عام 1807 اسم إمبراطورية العالم، وأبى أن يسلمها إلى روسيا التي كانت تتوق إلى السيطرة عليها مسوقة إلى هذا باتجاه ما يخترق بلادها من أنهار. وتستطيع الدولة المسيطرة عليها أن تغلق

صفحة رقم : 4124

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

في أي وقت نشاء باباً رئيسياً بين الشرق والغرب، وفيها تجتمع تجارة ثلاث قارات، وتفرغ غلات مائة من الدول، وهنا يستطيع جيش أن يصمد ليصد الفرس المتحضرين، والهون الهمح الشرقيين، وصقالبة الشمال، وبرابرة الغرب. وتحميها المياه الدافقة من جميع الجهات إلا جهة واحدة يستطيع حمايتها بالأسوار المنيعة، وتستطيع الأساطيل الحربية والسفن التجارية أن تجد في القرن الذهبي -وهو خليج صغير من خلجان البسفور- مرفأ أميناً يقيهها هجمات السفن المعادية والأعاصير المدمرة. ولعل اليونان قد سموا هذا الخليج قرناً Keras لشكله الذي يشبه القرن، أما وصفه بالذهبي فقد أضيف إليه فيما بعد ليوحي إلى سامعيه بما ينعم به هذا المرفأ من ثروة عظيمة يأتي إليه بها السمك والحبوب والتجارة. ورأى الإمبراطور المسيحي أنه واجد في هذا المكان، بين السكان الذين تدين كثرتهم بالمسيحية، والذين طال عهدهم بالملكية والأبهة الشرقيتين، من تأييد الشعب ما لا يستطيع أن يجده في روما: وما يضمن به عليه مجلس شيوخها المتعطرس وسكانها الوثنيين. وهنا عاشت الدولة الرومانية ألف عام بعد وفاته رغم هجمات جحافل البرابرة التي أغرقت روما فيما بعد، فقد هدد القوط، والهون، والوندال، والأفار، والفرس، والعرب، والبلغار، وللروس العاصمة الجديدة، وعجزوا جميعاً عن الاستيلاء عليها، ولم تسقط في تلك القرون العشرة إلا مرة واحدة، وكان سقوطها في أيدي الصليبيين المسيحيين الذين كان حبههم للذهب يزيد قليلاً على حبههم للدين. وظلت بعد ظهور الإسلام ثمانية قرون تصد جيوش المسلمين التي اكتسحت أمامها آسية وإفريقية، وأسبانيا. وفيها ظلت الحضارة اليونانية قائمة لا ينضب معينها تحتفظ للعالم بشعلة أنقذته فيما بعد من الهمجية، وعضت بالنواجذ على كنوزها القديمة، حتى أسلمتها آخر الأمر إلى إيطاليا في عصر النهضة، ومنها إلى العالم الغربي.
وفي عام 324 سار قسطنطين الأكبر على رأس جماعة من قواده الجند،

صفحة رقم : 4125

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> تراث قسطنطين

والمهندسين والقساوسة، وانتقل بهم من مرفأ بيزنطية، واجتاز ما حوله من التلال، ليرسم حدود العاصمة التي كان يعترزم إنشائها. ولما عجب بعضهم من اتساع رفعتها رد على هؤلاء بقوله: "سأوصل السير حتى يرى الله الذي لا تدركه الأبصار أن من الخير أن أفق(2)". وكانت هذه سنته التي جرى عليها طوال حكمه، فلم يكن يتردد قط في القيام بأي عمل، أو النطق بأي لفظ، يمكن أن تتال به خطه أو دولته ذلك التأييد القوي الذي ينبعث من عاطفة الشعب الدينية وولائه للكنيسة المسيحية.

ثم جاء "إطاعة لأمر الله"(3) بألاف الصناع والفنانين لإقامة أسوار المدينة، وحصونها، ودور المصالح الحكومية، وقصورها، ومنازل سكانها. وزين الميادين والشوارع بالفساقي، والأبهاء ذات العمدة، والنقوش التي جاء بها من مختلف المدن في دولته الواسعة بلا تمييز بينها؛ وهدهاء حرصه على تسليية العامة وإيجاد متنفس ينصرف فيه شعبيها واضطرابها، فأنشأ مضماراً للسباق تستطيع فيه الجماهير أن تشبع غريزة اللعب والمقامرة على نطاق لم ير له مثيل إلا في روما أيام انحلالها. وأعلنت روما الجديدة عاصمة للدولة الشرقية في اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة 330: واتخذ ذلك اليوم بعدئذ عيداً يحتفل به في كل عام بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة. وكان ذلك إيذاناً بانتهاء عهد الوثنية من الجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إذا صح ذلك التعبير. وبذلك انتصر الشرق في معركته الروحية على الغرب الظافر بقوته المادية الجسمية، وسيطر على الروح الغربية مدى ألف عام.

وما كان يمضي على اتخاذ القسطنطينية عاصمة للدولة حتى أصبحت أغنى مدائن العالم وأجملها وأعظمها حضارة، وظلت كذلك مدى عشرة قرون كاملة. وبينما كان عدد سكانها في عام 337 لا يزيد على 50.000 نسمة إذا هم يبلغون في عام 400 حوالي مائة ألف، وفي عام 500 ما يقرب من مليون(4). وثمة وثيقة

صفحة رقم : 4126

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> تراث قسطنطين

رسمية (يرجع تاريخها إلى حوالي عام 450) تقول إنه كان بالمدينة وقت كتابة هذه الوثيقة خمسة قصور إمبراطورية وستة قصور لسيدات الحاشية، وثلاثة لعظماء الدولة، و4388 من الدور الفخمة، و322 شارعاً، و52 مدخلاً ذا عمد؛ هذا فضلاً عن نحو ألف حانوت، ومائة مكان للهو، وكثير من الحمامات الفخمة، والكنائس المزدانة بالنقوش الجميلة، والميادين الواسعة العظيمة التي كانت متاحف حقه لفن العالم القديم(5). وقد أنشئت على التل الثاني من التل التي كانت تعلق بالمدينة فوق ما يحيط بها من المياه سوق قسطنطين، وهي ساحة رحبة إهليلجية الشكل يدخل الإنسان إليها من كلا جانبيها تحت قوس من أقواس النصر. وكان يحيط بالساحة مداخل ذات عمد، وتماميل، وكان من ناحيتها الشمالية بناء فخم لمجلس الشيوخ، وفي وسطها عمود من حجر السماق يعلو فوق الأرض 120 قدماً، ويتوجه تمثال لأبلو، ويقال إن هذا العمود من صنع فدياس نفسه.

وكان يمتد من السوق العامة في اتجاه الغرب طريق وسط تقوم على جانبيه قصور وحوانيت، وتظلل طائفة من العمدة، ويخترق المدينة إلى الأوغسطينوم Augusteum، وهو ميدان واسع طوله ألف قدم وعرضه ثلاثمائة، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى هيلينا Helena أم قسطنطين بوصفها Augusta (العظيمة). وعند الطرف الشمالي من هذا الميدان قامت في صورتها الأولى كنيسة أيا صوفيا Sophia - أي كنيسة الحكمة القدسية. وكان عند طرفه الشرقي قاعة ثانية لمجلس الشيوخ؛ وعند طرفه الجنوبي شيد القصر الرئيسي للإمبراطور، كما شيدت حمامات زيوكسيس Zeuxippus

الضخمة التي كانت تحتوي على مئات من التماثيل المنحوتة من الرخام، أو المصبوبة من البرنز. وعند الطرف الغربي للطريق الأوسط كان يقوم بناء ضخّم مكون من عقود يعرف باسم المليون Million

صفحة رقم : 4127

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

أو شاخص الميل- ومنه تنتشعب الطرق العظيمة الكثيرة (التي لا يزال بعضها باقياً للآن)، والتي تربط عاصمة الدولة بمختلف ولاياتها. وهنا أيضاً في غرب الأوغسطينوم أنشئ ميدان السباق العظيم، وبينه وبين كنيسة أياصوفيا كان يمتد القصر الإمبراطوري أو القصر المقدس، وهو بناء معقد من الرخام تحيط به مائة وخمسون فدناً من الحدائق والأبواب ذات العمدة. وانتشرت في أنحاء مختلفة من المدينة وضواحيها بيوت الأشراف. وفي الشوارع الجانبية الضيقة الملتوية المزحمة بالسكان كانت حوانيت التجار ومساكن العامة على اختلاف أنواعها. وكان الطريق الأوسط ينتهي عند طرفه الغربي "بالباب الذهبي" في سور قسطنطين، ويطل من هذا الباب على بحر مرمرة. وكانت القصور تقوم على الشواطئ الثلاثة وتضطرب ظلّالها الفخمة في أمواج البحار.

وكان جل أفراد الطبقة العليا من سكان المدينة من الرومان، أما الكثرة الساحقة من غير هذه الطبقة فكانوا من اليونان. وكان هؤلاء وأولئك وغيرهم من السكان يسمون أنفسهم "يوناناً". وكانت اللاتينية لغة الدولة الرسمية، ولكن اليونانية ظلت لغة الشعب حتى حلت قبيل مستهل القرن السابع محل اللاتينية في المصالح الحكومية نفسها. وكانت تلي طبقة كبار الموظفين وأعضاء مجلس الشيوخ طبقة من الأشراف قوامها ملاك الأراضي الذين يقيمون في المدينة تارة وفي ضياعهم في الريف تارة أخرى. وكانت هناك طبقة أخرى هي طبقة التجار تحتقرها الطبقات السالفة الذكر ولكنها تنافسها في الثراء. وكان هؤلاء التجار يستبدلون ببضائع القسطنطينية والإقليم الذي من خلفها غلات بلاد العالم. ويلي طبقة التجار في المدينة طبقة أخرى مطّردة الزيادة من موظفي الحكومة، ومن تحتهم أصحاب الحوانيت ورؤساء الصناع الذين يعملون في مختلف الحرف، وتليهم طبقة يعد أفرادها عمالاً أحراراً من الوجهة الرسمية الشكلية، لاحق لهم في الانتخابات العامة، جبلوا على الشغب والاضطراب، أدلهم الجوع وخضعوا

صفحة رقم : 4128

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

عادة لرجال الشرطة، يشتري هدوؤهم بالألعاب وسباق الخيل، وبما يوزع عليهم في كل يوم من الخبز أو الحبوب التي تبلغ ثمانين ألف مكيال، ليظلوا هادئين مسالمين. وكانت أخط طبقات المجتمع في القسطنطينية، كما كانت أحطها في سائر أنحاء الإمبراطورية، طبقة الأرقاء، وكان عددهم وقتئذ أقل من عددهم في روما أيام قيصر، وكانوا يلقون

من المعاملة خيراً مما كانوا يلقونه في أيامه بفضل شرائع قسطنطين وتأثير الكنيسة التي خفت عن كاهلهم كثيراً من الأعباء، وأشعرت سادتهم الرحمة بهم والإشفاق عليهم. وكان السكان الأحرار يخرجون من أعمالهم في مواسم معينة، ويجتمعون في ميدان السباق، فيُعص بهم على سعته. وكان في هذا الميدان مدرج طوله خمسمائة وستون قدماً وعرضه ثلثمائة وثمانون، وتتسع القاعدة لعدد من النظارة يتراوح بين ثلاثين ألفاً وسبعين (7)، يحميهم عن المجتاد خندق ذو شكل إهليلجي؛ وكان في وسعه خلال الفترات التي بين الألعاب أن يتنزهوا في طريق ظيل ذي خطر من الرخام طوله 2766 قدماً (8). وكان يخترق مضمار السباق جدار منخفض يمتد في وسطه في أكبر طوليه من إحدى نهايتيه إلى الأخرى ويسمى الأسبينا Spina أو عموده الفقري؛ وقد صفت التماثيل على جانبيه، وقامت في وسطه مسلة من مسلات الملك تحتس الثالث جيء بها من مصر. وكان في طرفه الجنوبي عمود مكون من ثلاث جهات من البرنز ملتوية بعضها على بعض. أقيم في بادئ الأمر في دلفي تخليداً لذكرى معركة بلاثيه (Plataea 479 ق.م)؛ ولا تزال المسلة والعمود قائمين حتى الآن. وقد ازدانت الكاترما Rathisma أي مقصورة الإمبراطور في القرن الخامس بتمائيل لأربعة جياذ من البرنز المذهب من عمل ليسيوس في الزمن القديم. وفي هذا المضمار كان يحتفل بالأعياد القومية العظيمة فتسير فيه المواكب، وتقام المباريات الرياضية، والألعاب البهلوانية، وتقتل الحيوانات وتصاد، وتعرض الوحوش والطيور الأجنبية الغربية. وبفضل التقاليد

صفحة رقم : 4129

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

اليونانية والعاطفة المسيحية كانت أسباب التسلية واللهو في القسطنطينية أقل قسوة من نظائرها في روما، وشاهد ذلك أننا لا نسمع في العاصمة الجديدة عن قتال المجالدين؛ ومع هذا فإن أشواط سباق الجياذ والعربات البالغة أربعة وعشرين شوطاً، وهي الجزء الأهم من مناهج الاحتفالات كانت تثير في نفوس الجماهير ما تثيره حفلات الأعياد الرومانية في نفوس الرومان من حماسة بالغة. وكان ركاب الخيل والعربات المحترفون يقسمون إلى فئات زرق، أو خضر، أو حمر، أو بيض حسب من يستخدمونهم من أصحاب الخيل والعربات؛ وحسب ما يرتدون من ثياب؛ وعلى هذا النحو أيضاً يسقم النظارة، بل وينقسم سكان المدينة على بكرة أبيهم. وكان الحزبان الرئيسيان -الزرق والخضر- يقتتلان بالخناجر في المضمار وبالخنجر أحياناً في شوارع المدينة. ولم يكن في وسع السكان أن يعيروا عن مشاعرهم إلا في أثناء هذه الألعاب والمباريات، ففيها كانوا يطالبون بحقهم في أن ينالوا رعاية الحكام، أو في ما يريدونه من ضروب الإصلاح، أو في الشكوى من ظلم الحكام، كانوا في بعض الأحيان يعتبون على الإمبراطور نفسه وهو جالس في مقعده الأمين الرفيع الذي كان يتصل بقصره بمخرج يقوم عليه حراس مدججون بالسلاح. أما فيما عدا هذا فقد كانت جمهرة السكان لا حول لها ولا طول من الناحية السياسية. ذلك أن دستور قسطنطين، الذي لم يكن في واقع الأمر إلا استمراراً لدستور دقلديانوس، كان دستور دولة ملكية مطلقة سافرة. وقد كان في وسع مجلسي الشيوخ في القسطنطينية وفي روما أن يناقشا المسائل المعروضة عليهما، وأن يشرعا، ويفصلان في بعض القضايا، ولكن هذا كله كان يخضع لحق الرفض المخول للإمبراطور. وقد استحوذ على حقوقهما التشريعية مجلس الحاكم الاستشاري المعروف باسم المجلس التشريعي الأعلى المقدس. يضاف إلى هذا أنه كان من حق الإمبراطور أن يسن القوانين بمراسيم يصدرها بنفسه، كما أن إرادته كانت هي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> تراث قسطنطين

القانون الأعلى. وكان الأباطرة يرون أن الديمقراطية قد أخفت في تحقيق أغراضها، وأنها قد قضت على الإمبراطورية التي ساعدت هي على إقامتها. نعم أنه قد يكون في وسعها أن تحكم المدينة، ولكنها عجزت عن حكم مائة ولاية مختلفة الأوضاع. ولقد أسرفت في الحرية حتى جعلتها إباحية، ثم أسرفت في الإباحية حتى أصبحت فوضى، وحتى هددت حروبها الأهلية وحروب الطبقات الحياة الاقتصادية والسياسية لعالم البحر المتوسط، وانتهى دقلديانوس وقسطنطين إلى أن النظام لا يمكن أن يعود إلا بقصر المناصب العليا على الأشراف ما بين كنت Conites ودوق Duces. لا يختارون على أساس مولدهم، بل يعينهم الإمبراطور الذي يتحمل تبعه الحكم كاملة، ويستمتع بالسلطة كاملة، والذي تحيط به هالة رهيبية من المهابة، والترفع، والعزلة عن الشعب والأبهة الشرقية، وما تخلعه عليه الكنيسة من مراسم التتويج، والتقديس، والتأييد. ولعل هذا النظام كان له ما يبرره من الظروف المحيطة بالدولة في ذلك الوقت، ولكنه لم يفرض على إرادة الحاكم قيوداً إلا مشورة أعوان يهتمهم أن يرضوه، وإلا خوفه من الموت المفاجئ. نعم إن هذا النظام قد أوجد أداة إدارية وقضائية قديرة إلى أقصى حدود القدرة، وأطال حياة الإمبراطورية البيزنطية نحو ألف عام كاملة، ولكنها اشترت هذه الحياة بالركود السياسي وبالجمود في كل مناحي الحياة العامة، وبمؤامرات الحاشية، ودسائس الخصيان، وحروب الوراثة، وبعشرات الثورات التي شبت نارها في القصر، والتي رفعت إلى العرش أباطرة كفاة في بعض الأحيان، ولكنها قلما رفعت إليه أباطرة ذوي استقامة خلقية؛ وما أكثر من رفعت إليه من المغامرين الذين لا ضمير لهم، أو من العصابات الأجركية، أو من الحمقى البلهاء.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

الفصل الثاني

المسيحيون واليهود

في القرن الرابع الميلادي كانت الشؤون الكنسية، في عالم البحر المتوسط الذي تعتمد فيه الدولة اعتماداً كبيراً على الدين، قلقاً مضطربة إلى حد شعرت الحكومة معه أن لا بد لها من أن تتدخل في أسرار الدين وخفاياه. ذلك أن مجمع نيقية الذي عقد في عام 325 لم يضع حداً للنقاش الحاد الذي احتدم أواره بين أنثاسيوس وأريوس، بل ظل كثير من

الأساقفة كانوا هم الكثرة الغالبة في الشرق (9)- يناصرون أريوس، سرّاً أو جهراً؛ أي أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله، ولكنه لا يشترك مع الأب في مادته ولا في خلوده. ولم يستنكف قسطنطين نفسه، بعد أن قبل قرار المجمع، وطرد أريوس من البلاد، أن يدعو إلى اجتماع شخصي معه (331)؛ فلما اجتمع به لم يجد في أقواله ما يستطيع أن يعده خروجاً على الدين، وأوصى بأن ترد إلى أريوس وأتباعه كنائسهم. واحتج أثناسيوس على ذلك، فاجتمع في صور مجلس من أساقفة الشرق وقرر خلع من كرسي الإسكندرية الديني (335)، وظل عامين طريداً في غاله. أما أريوس فقد زار قسطنطين مرة أخرى، وأعلن قبوله للعقيدة التي قررها مؤتمر نيقية بعد أن أضاف إليها تحفظات دقيقة لا ينتظر من إمبراطور أن يفهمها. وأمن قسطنطين بأقواله، وأمر الإسكندر بطريق القسطنطينية أن يقبله في العشاء الرباني. وفي هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسي هذه القصة المحزنة المؤلمة:

"كان ذلك يوم السبت، وكان أريوس يتوقع أن يجتمع بالمصلين في اليوم الذي يليه، ولكن القصاص الإلهي عاجله فأحبط عمله الإجرامي الجريء. ذلك

صفحة رقم : 4132

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

أنه لما خرج من القصر الإمبراطوري... واقترب من العمود السماقي المقام في سوق قسطنطين، تملكه الرعب، وأصيب بإسهال شديد... خرجت فيه أمعاؤه من بطنه، وأعقبه نزيف حاد، ونزلت أمعؤه الدقاق. ومما زاد الطين بلة أن طحاله وكبداه قد انفصلا من جدة النزيف ومات لساعته (10)".

ولما بلغ هذا التطهير العاجل مسامع قسطنطين بدأ يسأل نفسه: ألم يكن أريوس في واقع الأمر كافراً زنديقاً؟ لكنه لما مات في السنة التالية تلقى مراسيم التعميد على يد صديقه ومشيره يوسبيوس أسقف نقوميديا، وهو من أتباع أريوس نفسه.

وعني قسطنطين بشؤون الدين عناية أكثر جدية من عناية أبيه، فشرع يبحث بنفسه أبوة المسيح، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب أريوس، وشعر بأن واجبه الأدبي يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحي. وطرد أثناسيوس من كرسي الإسكندرية مرة أخرى (339)، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين. ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد، وأيدت تشابه المسيح والأب دون اتحادهما في المادة. وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم، وكان الغوغاء في بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح. وكان أثناسيوس في هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه أنه يقف وحده في وجه العالم كله، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه، بل إن أتباع كنيسة الإسكندرية خرجوا عليه واضطر في خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسيه معرضاً حياته في معظمها لأشد الأخطار، وأن يهيم على وجهه في البلاد الأجنبية. وظل خمسين عاماً (323-373) صابراً يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته، مستعيناً على ذلك بمهارة الدبلوماسي وعنف الرجل البليغ، ولم تثن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا

صفحة رقم : 4133

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

ليبريوس واستسلم. وإليه يرجع معظم الفضل في استمساك الكنيسة بعقيدة الثالوث. وعرض أنثاسيوس قضيته على البابا يوليوس الأول (340)، فرده يوليوس إلى كرسيه، ولكن مجمع من أساقفة الشرق عقد في أنطاكية (391)، وأنكر على البابا حقه في هذا الحكم، ورشح جريجوري، وهو رجل من أتباع أريوس، أسقفاً لكرسي الإسكندرية. لكن جريجوري لم يكد يصل إلى تلك المدينة حتى أثارت أحزابها المتنافسة فتنة صماء قتل فيها عدد كبير من الأهلين، واضطر أنثاسيوس على أثرها إلى التخلي عن كرسيه حقناً للدماء (342)(11). وثارت في القسطنطينية فتنة أخرى من نوعها، كان سببها أن قسطنطيوس أمر أن يستبدل ببولس، الرجل الوطني المستمسك بالدين القويم، مقدونيوس الأريوسي، فهب جماعة من مؤيدي بولس يقاومون جند الإمبراطور، وقتل في الاضطرابات التي أعقبت هذه المقاومة ثلاثة آلاف شخص، وأغلب الظن أن الذين قتلوا من المسيحيين بأيدي المسيحيين في هذين العامين (342-343) يزيد عددهم على من قتلوا بسبب اضطهاد الوثنيين للمسيحيين في تاريخ روما كله. واختلف المسيحيون وقتئذ في كل نقطة عدا نقطة واحدة، هي أنه يجب إغلاق الهياكل الوثنية، ومصادرة أملاكها، واستخدام أسلحة الدولة التي كانت توجه من قبل لقتال المسيحية في قتال هذه المعابد وقتال من يتعبدون فيها(12). وكان قسطنطين قد قاوم القرايين والاحتفالات الوثنية وإن لم يكن قد حرّمها تحريماً باتاً؛ فلما جاء قنسطانس حرّمها وأندّر من يعصى أمره بالموت؛ ثم جاء قنسططيوس فأمر بإغلاق جميع الهياكل الوثنية في الدولة، ومنع جميع الطقوس الوثنية، وأندّر من يعصى أمره بقتله ومصادرة أملاكه، كما فرض هاتين العقوبتين بعينهما على حكام الولايات الذين يهملون تنفيذ هذا الأمر(13)، ومع هذا كله فقد بقيت جزائر وثنية متفرقة في بحر المسيحية الأخذ في الاتساع، فكان في المدن القديمة -أثينة، وأنطاكية، وأزمير، والإسكندرية

صفحة رقم : 4134

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

وروما- وبخاصة بين الأشراف وفي المدارس طوائف كبيرة من الوثنيين متفرقين في أحيائها المختلفة. وظلت الألعاب تقام في أولمبيا إلى أيام ثيودوسيوس الأول (379-395)، والطقوس الخفية يحتفل بها في إلويسيس: حتى جاء أليك فهدم هيكلها في عام 396؛ ولم تنقطع مدارس أثينة عن إذاعة تعاليم أفلاطون، وأرسطو، وزينون، وإن فسرتها تفسيرات تلطف من وثنيته. (أما تعاليم أبيفور فقد حرمت وأصبح اسم هذا الفيلسوف مرادفاً للكفر). وظل قسطنطين وولده يوديان ما كان مقرراً من رواتب لرؤساء المدارس الفلسفية وأساتذتها الذين يكونون ما يمكن أن نسميه ببعض التساهل جامعة أثينة؛ كما ظل المحامون والخطباء يهرعون إلى تلك المدينة ليتعلموا فيها أساليب الخطابة وحيلها؛ وكان السفسطائيون الوثنيون -أو معلمو الحكمة- يعرضون بضاعتهم على كل من يستطيع شرائها. وكانت أثينة كلها مولعة ومعجبة ببروهيرسيوس Prohaeresius، الذي جاء شاباً فقيراً، واشترك مع طالب آخر في فراشه وردائه، ومازال يرتقي حتى شغل كرسي البلاغة الرسمي، واحتفظ حتى سن السابعة والثمانين بوسامته، وقوته، وفصاحته، احتفاظاً جعل تلميذه يونيبوس يرى أنه "إله لا يهرم ولا يموت"(14).

ولكن حامل لواء السوفسطائيين في القرن الرابع هو ليبانيوس Libanius وكان مولده في أنطاكية عام 314؛ ولكنه انتزع نفسه من أمه المولعة به، ووفد إلى أثينة للتعلم والدرس، ولما عرض عليه في بلده أن يتزوج من وارثة غنية إذا بقي فيها قال إنه يرفض الزواج من إلهة إذا حال بينه وبين رؤية دخان أثينة(15). ولم يكن يرى أن معلميه في هذه

المدينة أنبياء ملهمون بل كان يراهم مجرد منبهين إياه للتأمل والتفكير، ولهذا فقد علم هو نفسه وسط متاهة من الأساتذة والمدارس. وبعد أن ظل يحاضر وقتاً في القسطنطينية ونقوميديا عاد إلى أنطاكية (354)، وأقام فيها مدرسة ظلت مدى أربعين عاماً أشهر مدارس الإمبراطورية وأكثرها طلاباً. وقد بلغ من الشهرة (كما يؤكد لنا هو نفسه) حداً جعل الناس يتغنون بالفقرات الأولى من تعاليمه (16). وكان من بين تلاميذه أمياتس مرسلينس

صفحة رقم : 4135

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

Ammianus Marcellinus والقديس يوحنا كريستوم St. John Chryaostom والقديس باسيلي St. Basil. وكان يستمتع برضاء الأمراء المسيحيين، وإن كان يخطب ويكتب في الدفاع عن الوثنية، ويقرب القرابين في الهياكل. ولما أضرب خبازو أنطاكية عن العمل اختاره الطرفان المتنازعان حكماً بينهما؛ ولما ثارت أنطاكية على ثيودوسيوس الأول اختارته المدينة المعذبة ليدافع عن قضيتها أمام الإمبراطور (17). وقد طالت حياته ما يقرب من جيل كامل بعد أن اغتيل صديقه يوليان، وبعد أن انهارت دعائم النهضة الوثنية. وتشكلت وثنية القرن الرابع بأشكال مختلفة: فكان منها المثراسية، والأفلاطونية الجديدة، والرواقية، والكلبية، وكان منها الطقوس المحلية التي تقام لآلهة المدن أو الريف، ثم فقدت المثراسية مكانتها، ولكن الأفلاطونية الجديدة ظلت ذات قوة وأثر في الدين والفلسفة. وكان للعقائد التي كساها أفلوطين ظلاً من الحقيقة كقول بوجود نفس ثلاثية تؤلف بين الحقائق كلها وتربطها برباط واحد؛ وبالعقل أو الإله الوسيط الذي قام بعملية الخلق، والروح وهي بوصفها الجزء القدسي، والمادة وهي الجسم ومبعث الشر، وبمناطق الوجود التي هبطت على درجاتها غير المنظورة النفس البشرية من الله إلى الإنسان، والتي تستطيع أن ترقى عليها من الإنسان إلى الله- كان لهذه العقائد والأفكار الصوفية الخفية أثرها في آراء الرسولين بولس ويوحنا وفي كثير ممن حذوهما من المسيحيين، وفي تشكيل كثير من العقائد المسيحية الخارجية على الدين القويم (18). وقد ضم أيمبلقوس Lamblichus من أهل خلقيس Chalcis السورية المعجزات إلى الشعائر الخفية في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، فقال أن الرجل المتصوف لا يكتفي بإدراك الأشياء التي لا تدرکہا الحواس بل أنه بفضل اتصاله بالله في أثناء نشوئه- قد أصبحت له مواهب ربانية من السحر والإطلاع على الغيب. ثم جمع مكسموس الصوري تلميذ أيمبلقوس بين دعوى المواهب الصوفية

صفحة رقم : 4136

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> المسيحيون واليهود

والوثنية المؤمنة المخلصة الفصيحة التي انتصرت على يوليان وأخضعته لسلطانها. وإلى القاريء فقرة من أقوال مكسموس يدافع فيها عن استخدام الأوثان في العبادات الوثنية ويرد على استهزاء المسيحيين بها:

"الله الأب الذي صور كل ما هو كائن أقدم من الشمس ومن السماء، وأعظم من الزمان، ومن الخلود ومن مجرى الكينونة، لا يستطيع أن يسميه مشترع أو أن ينطق به صوت، أو أن تراه عين، لكننا نحن لعجزنا عن إدراك جوهره نستعين بالأصوات، والأسماء، والصور، وبالذهب المطروق، والعاج، والفضة، وبالنبات، والأنهار، وبالسيول، وقلل الجبال في إشباع حنيننا إلى معرفته؛ ونداري عجزنا بأن ننحت من الطبيعة أسماء لكل ما هو جميل في هذا العالم... فإذا ما تاق يوناني لأن يتذكر الله حين يبصر تحفة فنية من عمل فدياس أو تافت نفس مصري لهذه الذكرى فعبد الحيوان، أو مجد غيرهما ذكراه بعبادة نهر أو نار، فإن اختلافهم عني لا يغضبني؛ وكل ما أطلبه إليهم أن يلاحظوا وأن يذكروا، وأن يحيوا(19).

وكانت فصاحة لبيانيوس ومكسموس من الأسباب التي جعلت يولييان يرقد من المسيحية إلى الوثنية، ولما أن اعتلى تلميذهما عرش الإمبراطورية هرع مكسموس إلى القسطنطينية، وأنشد لبيانيوس في أنطاكية نشيد النصر والفرح: "ها نحن أولاء قد عدنا حقاً إلى الحياة، وهب على الأرض كلها نسيم السعادة لما أن حكم العالم إله حق في صورة إنسان"(20).

صفحة رقم : 4137

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> قيصر الجديد

الفصل الثالث

قيصر الجديد

ولد فلافيوس كلوديوس يوليانيوس Flavius Claudius Julianus في القصر الإمبراطوري في القسطنطينية في عام 332، وكان ابن أخي قسطنطين. وقد قتل أبوه، وأخوه الأكبر، ومعظم أبناء عمه، في المذبحة التي حدثت أيام حكم أبناء قسطنطين. وأرسل هو إلى نفوميديا ليتلقى فيها العلم على الأسقف يوسبيوس؛ ولقن من علوم اللاهوت المسيحية أكثر ما يطيقه عقله، وظهرت عليه سمات تدل على أنه سيكون قديساً. ولما بلغ السابعة من عمره بدأ يدرس الآداب القديمة على مردونيوس Mardonius، وسرى حب هومر وهزIOD والتحمس لأدائهما من الخصي الهرم إلى تلميذه، وهل يولييان إلى عالم الأساطير اليونانية الشعري الزاهر بدهشة وبهجة عظيمتين.

وفي عام 341 نفي يولييان وأخوه جالوس Gallus إلى كبدوكيا لأسباب لا نعلمها الآن، وظلا ست سنين يكادان أن يكونا فيها سجينين في حصن ماسلوم Macellum ولما أطلق سراحهما سمح ليولييان أن يعيش وقتاً ما في القسطنطينية ولكن مرح الشباب، وما امتاز به من إخلاص وذكاء حباه إلى الشعب حباً أقلق بال الإمبراطور؛ فأرسله مرة أخرى إلى محاضرات لبيانيوس حرم عليه هذا، ولكنه استطاع أن يحصل على مذكرات وافية لدروس هذا المعلم وكان وقتئذ شاباً في السابعة عشرة من عمره، بهي الطلعة، جيش القلب بالعواطف، متأهباً لأن يبهره سحر الفلسفة الخطر، وبينما كانت الفلسفة، وبينما كان التفكير الحر يأتیان إليه بكل ما فيهما من إغراء، كانت المسيحية تُعرض عليه بوصفها مجموعة من العقائد التعسفية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> قيصر الجديد

التي لا تقبل الجدل؛ وكنيسة تمزقها الفضائح، منقسمة على نفسها بسبب منازعات أريوس وأتباعه، وبسبب تبادل اللعنات بين الشرق والغرب، وتكفير كل منهما الآخر.

وفي عام 351 جعل جالوس قيصر أي ولياً للعهد- وعهد إليه حكم أنطاكية؛ وأحسن يوليان وقتاً ما بأنه آمن من ربيبة الإمبراطورية فأخذ ينتقل من نيقوميديا إلى برجموم ثم إلى إفسوس، يدرس فيها الفلسفة على إدسيوس Edssius، ومكسموس، وكريسنثيوس Chrysanthius وقد أتم هؤلاء تحويله سرّاً إلى الدين الوثني. وفي عام 354 استدعى قسطنطين جالوس ويوليان إلى ميلان حيث كان يعقد محكمة للنظر في أمرهما. ذلك أن جالوس تعدى حدود السلطة المخولة له، وحكم الولايات الآسيوية حكماً بلغ من استبداده وقسوته أن ارتاع له قسطنطين نفسه. وحوكم الرجل أمام الإمبراطور، ووجهت إليه عدة تهم، وأدين، وصدر عليه الحكم بالإعدام، ونفذ على الفور. وأما يوليان فقد ظل تحت الحراسة في إيطاليا عدة أشهر، حتى أفلح أخيراً في أن يقتنع الإمبراطور المرتاب أن السياسة لم تكن له على بال في يوم من الأيام، وأن اهتمامه كله موجه إلى الفلسفة. واطمأن قسطنطيوس إذ عرف أن غريمه ليس إلا رجلاً فيلسوفاً، فنفاه إلى أثينة (355). وإذ كان يوليان قبل هذا النفي يوقع الإعدام، فإنه لم يجد صعوبة في الرضا بالنفي إلى بلد هو منبع العلم، والدين، والتفكير الوثني.

وقضى في تلك المدينة ستة أشهر، كانت من أسعد أيام حياته، يدرس الفلسفة في الغياض التي استمعت إلى صوت أفلاطون في الزمن القديم، وعقد فيها أوامر الصداقة مع ثامسطيوس Themistius وغيره من الفلاسفة المخلدن والمنسيين. الذين أعجبوا بشغفه بالعلم، وكسب قلوب أهل المدينة برقة شمائله، وتواضعه، وجميل مسلكه. وكان يُسبّه هؤلاء الوثنيين المثقفين المهذبين الذين ورثوا ثقافة قرن عشرة بعلماء الدين الوقورين الذين كانوا يحيطون به في نيقوميديا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> قيصر الجديد

أو بأولئك الساسة والحكام الأتقياء الذين رأوا من الواجب عليهم أن يقتلوا أباه واخوته وكثيرين غيرهم من خلق الله؛ وخلص من هذا كله إلى أنه ليس ثمة وحوش أكثر تعطشاً للدماء من المسيحيين (21). وكان إذ سمع أن معابد مشهورة قد دمرت، وأن كهنة وتبنيين قد حكم عليهم بالإعدام، وأن أملاكهم قد وزعت على الخصيان وأشياح السلطان أجهدش بالبكاء (22). وكان هذا في أغلب الظن هو الوقت الذي قبل فيه أن يتعلم سرّاً وفي حذر شديد طقوس إليسير الخفية وأسرارها؛ وكانت المبادئ الأخلاقية الوثنية تتجاوز عما لجأ إليه في ارتداده من مخادعة ورياء. هذا إلى أن أصدقاءه ومعلميه على سره لم يكونوا يوافقون على أن يجهر بهذا الارتداد، فقد كانوا يعرفون أنه إذا فعل سيتوجه قسطنطيوس

في غير الوقت الملائم، بتاج الشهداء. وكانوا هم يتطلعون إلى الوقت الذي يرث فيه صنيعتهم عرش الإمبراطورية، ويعيد إليهم رواتبهم وألتهم. ولهذا قضى يوليان عشر سنين كاملة يؤدي جميع الشعائر والعبادات المسيحية الظاهرة، بل لقد بلغ من أمره أن كان يقرأ الكتاب المقدس علناً في الكنيسة (23). وفي وسط هذا التخفي والخوف استدعى مرة أخرى إلى المثول بين يدي الإمبراطور في ميلان؛ وتردد أول الأمر في الذهاب خشية العقاب، لكن الإمبراطورة يوزيبيا أرسلت إليه بتلغته أنها دافعت عنه لدى الإمبراطور، وأنه لن يصاب بمكروه، وما كان أشد دهشته حين زوجه الإمبراطور من أخته هيلينا Helena، وخلع عليه لقب قيصر، وعهد إليه حكم غالة (355). وارتدى الرجل الأعزب الحي الذي قدم على الإمبراطور في ثياب الفيلسوف الخشنة حلة القائد الرسمية على مضض، وقام بواجبات الزوجية. وما من شك في أنه قد ضابقه فوق هذا وحيه أن يعرف أن الألمان قد اغتتموا فرصة اشتعال نيران الحرب الأهلية التي كادت تقضي على ما للإمبراطورية في الغرب من قوة حربية، فغزوا الولايات الرومانية الممتدة على ضفاف الرين، وشتتوا شمل جيش روماني، ونهبوا المستعمرة الرومانية

صفحة رقم : 4140

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> قيصر الجديد

القديمة في كولوني، واستولوا على أربعين مدينة غيرها، وفتحوا الأساس كلها، وتقدموا مدى أربعين ميلاً في غالة، ولما أن واجه قنسطيوس هذه الأزمة العصبية، طلب إلى الشاب الذي يرتاب فيه ويزدرية أن يبذل نفسه من فوره فيجعل منها نفس جندي حازم وإداري حازم، وأعطى يوليان حرساً مؤلفاً من ثلثمائة وستين رجلاً، وكلفه بإعادة تنظيم الجيش المرتبط في غالة، وأمره بعبور جبال الألب. وقضى يوليان الشتاء في فين Vienne ويانه على نهر الرون، يدرّب نفسه التدريب العسكري، ويدرس فنون الحرب دراسة الرجل المجد المتحمس لأداء واجبه. وفي ربيع عام 356 جمع جيشاً عند ريمس Reims صد به الغزاة الألمان واسترد منهم كولوني؛ ولما حاصرته قبيلة الألمان -التي أصبح اسمها علماً على ألمانيا كلها- في سنس Sens ظل يصد هجمات المحاصرين ثلاثين يوماً، واستطاع أن يحصل على ما يحتاجه جنوده وأهل المدينة من المؤن حتى نفذ صبر الأعداء. ثم زحف نحو الجنوب والتقى بجيش قبيلة الألمان الأكبر عند استرسبورج، ونظم جيشه على شكل إسفين هلال، وقاده قيادة الرجل العارف بأفانين الحرب المملوء القلب بالشجاعة، فاننصر نصراً على قوات العدو التي تفوق قواته عدداً (24)، وتنفست غالة الصعداء بعد هذا النصر المؤزر؛ ولكن قبائل الفرنجة الضاربة في الشمال كانت لا تزال تعيث فساداً في وادي الموز Meuse، فزحف عليها يوليان بنفسه، وأوقع بها هزيمة منكرة، وأرغمها على عبور الرين، ثم عاد إلى باريس عاصمة الولاية متوجاً بأكاليل النصر، ورحب به أهل غالة وشكروا له حسن صنيعه ورأوا في القيصر الصغير يوليوساً Julius جديداً؛ وما لبث جنوده أن هجروا بأملهم في أن يجلس عما قريب على عرش الإمبراطورية. وبقي في غالة خمس سنين، يعمر الأرض المخربة بالسكان، ويعيد وسائل الدفاع عن نهر الرين. ويمنع استغلال الأهليين الاقتصادي والفساد

صفحة رقم : 4141

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> قيصر الجديد

السياسي، ويعيد الرخاء إلى الولاية، ويملاً خزائنها بالمال، ويخفض في الوقت عينه ما كان مفروضاً على البلاد من الضرائب. وعجب الناس كيف استطاع هذا الشاب الغارق في التفكير، الذي لم ينتزع من بين كتبه إلا من وقت قريب، أن يبذل نفسه فيجعل منها كأنما قد مسته عصا ساحر - قائداً محنكاً، وحاكماً عظيماً، وقاضياً عادلاً رحيماً (25). وكان هو الذي وضع في القضاء ذلك المبدأ القائل بأن المتهم يعد بريئاً حتى تثبت إدانته. وكان سبب تقرير هذا المبدأ أن نومريوس Numerius أحد حكام غالة النربونية السابقين اتهم باختلاس الأموال التي عهد إليه تحصيلها؛ ولكنه أنكر التهمة، ولم يكن من النستطاع دحض حجة من الحجج التي أدلى بها. وأعتاظ القاضي Delfedius لنقص الأدلة التي تثبت التهمة عليه فصاح قائلاً: "أي قيصر عظيم! هل يمكن أن يدان إنسان إذا كان مجرد إنكاره التهمة يكفي لبراعته؟" فكان جواب يولييان. "وهلا يمكن أن يبرأ إنسان إذا كان كل ما في الأمر أنه اتهم؟" "وكان هذا" كما يقول أميانيوس شاهداً من الشواهد الكثيرة، الدالة على رحمته (26).

غير أن إصلاحاته قد خلقت له أعداء. فالموظفون الذين كانوا يخشون بحثه وتنقيبه، أو يحسدونه لحب الناس له، أخذوا يتهمونه سراً لدى قنستنتيوس بأنه يعمل للاستيلاء على عرش الإمبراطورية. فلما علم بذلك يولييان رد عليهم بأن كتب يمتدح الإمبراطور مدحاً فيه كثير من المبالغة. ولكن ذلك لم يبديد شكوك قنستنتيوس، فاستدعى إليه سالست Sallust الذي كان من أخلص أعوان يولييان. وإذا جاز لنا أن نصدق أميانيوس فإن الإمبراطورة يوزيبيا، التي لم يكن لها ولد، والتي كانت الغيرة من يولييان وزوجته تأكل قلبها، قد رشت بعض حاشية زوجة يولييان بأن يعطوها عقاراً مجهضاً كلما حملت. ولما أن وضعت هليينا. على الرغم من هذا، طفلاً ذكراً، قطعت القابلة حبل سرتة قريباً من جسمه إلى حد

صفحة رقم : 4142

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> قيصر الجديد

نزف من الدم حتى مات (77). وبينما كانت هذه المتاعب كلها تحيط بيولييان تلقى في عام 360 أمراً من قنستنتيوس بأن يبعث بخير عناصر جيوشه في غالة لينضموا إلى الجيش الذي يحارب فارس. وكان لعمل قنستنتيوس هذا ما يبرره. فقد طالب شابور الثاني أن ترد إليه بلاد النهرين وأرمينية (358)، فلما رفض قنستنتيوس هذا الطلب حاصر شابور أميدا Amida (ديار بكر الحالية في ولاية كردستان التركية). ونزل قنستنتيوس الميدان وأمر يولييان أن يمد جيوش الإمبراطورية بثلاثمائة رجل من كل فيلق من الفيالق الغالبة لتشارك في هذه الحرب الأسيوية. ورد يولييان على هذا الطلب بأن هؤلاء الجنود قد تطوعوا في تلك الفيالق على ألا يدعوا إلى الخدمة وراء حدود جبال الألب؛ وحذر الإمبراطور من عاقبة هذا العمل قائلاً أن غالة لن تأمن على نفسها إذا ما تعرض جيشها لهذا النقص الكبير، (وقد حدثت أن عجز الألمان في غزو غالة بعد ست سنين من ذلك الوقت) ولكنه مع ذلك أمر جنوده أن يطيعوا رسل الإمبراطور، غير أن الجنود عصوا هذا الأمر، وأحاطوا بقصر يولييان، ونادوا به أغسطس Augustus أي إمبراطوراً، ورجوه أن يستبقيهم في غالة، فنصحهم مرة أخرى بإطاعة أمر الإمبراطور، ولكنهم أصروا على الرفض، وأحس يولييان، كما أحس قيصر آخر من قبله، أن الأقدار قد قررت مصيره، فقبل اللقب الإمبراطوري، واستعد للقتال لإنقاذ الإمبراطورية وإنقاذ حياته، وأقسم الجيش الذي أبي قبل أن يغادر غالة أن يزحف على القسطنطينية ويجلس يولييان على العرش.

وكان قنسطنطيوس في كليكية حين بلغته أنباء الفتنة، وظل عاماً آخر يقاتل الفرس، معرضاً عرشه للضياع في سبيل الدفاع عن بلاده. ثم عقد هدنة مع شابور وزحف بفيالقه غرباً لملاقاة ابن عمه. وتقدم يولييان نحوه ومعه قوة صغيرة، ثم وقف بعض الوقت عند سرميوم Sirmium (بالقرب من بلغراد الحالية)، وفيها

صفحة رقم : 4143

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> قيصر الجديد

أعلن إلى العالم اعتناقه الوثنية، وكتب إلى مكسموس رسالة حماسية قال فيها: إننا الآن نجهر بعبادة الأرباب، وكذلك يخلص في عبادتها جميع الجنود الذين اتبعوني(28). وقد ساعده الحظ فأجابه من مأزق حرج: ذلك أن قنسطنطيوس توفي في نوفمبر من عام 361 على أثر حمى أصيب بها في طرسوس، وكانت وفاته في الخامسة والأربعين من عمره. وبعد شهر من وفاته دخل يولييان القسطنطينية وجلس على العرش دون ان يلقي مقاومة، وأشرف على جنازة ابن عمه قنسطنطيوس بجميع مظاهر الحب.

صفحة رقم : 4144

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> الإمبراطور الوثني

الفصل الرابع

الإمبراطور الوثني

وكان يولييان وقتئذ في الحادية والثلاثين من عمره ويصفه أميانوس الذي كان يراه كثيراً بقوله: كان متوسط القامة، وكان شعره مرسلأ ناعماً كأنه قد عني بتمشيطه، وكانت لحيته كثة مستدقة، وعيناه برأقتين تومضان ناراً، وتكشفتان عن حدة ذهنه. وكان حاجباه دقيقين وأنفه معتدلاً، وفمه كبير بعض الشيء، وشفته السفلى ممثلة، ورقبته غليظة منحنية، ومنكباه كبيرين عريضين. وكان جسمه كله من أعلى رأسه إلى أطراف أصابع قدميه حسن التناسب، ولهذا كان قوياً سريع العدو(29).

غير أن الصورة التي يصور هو بها نفسه لم تكن بهذا الحسن فهو يقول: إن الطبيعة لم تخلع على وجهي كثيراً من الوسامة، ولم تهبه نضرة الشباب، ومع هذا فإني بعنادي قد أضفت إليه هذه اللحية الطويلة... ولم أعياً بالقمل الذي كان يسرح فيها ويمرح كأنها أجمة للوحوش البرية... أما رأسي فمكوش، لأنني قلما أقص شعري أو أقلم أظفاري، وأصابعي لا تكاد ترى إلا سوداء ملوثة بالخبير(30).

وكان يفخر بأنه يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط. وما كاد يجلس على تخلص من الخصيان، والحلاقين، والجواسيس، الذين كانوا في خدمة قنسطنطيوس. ولما ماتت زوجته في شبابها صمم على ألا يتزوج بعدها أبداً، ولهذا لم يكن في حاجة إلى الخصيان، وكان يشعر أن في وسع الحلاق واحد أن يعنى بجميع موظفي القصر؛ أما الطهارة فلم يكن في حاجة إليهم لأنه لم يأكل

صفحة رقم : 4145

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

إلا أبسط الأطعمة التي يستطيع أن يعدها أي إنسان(31). وكان هذا الإمبراطور الوثني يعيش عيشة الرهبان ويلبس كما يلبسون، ويلوح أنه لم يتصل اتصالاً جنسياً بالنساء بعد أن ماتت زوجته، وكان ينام على قش خشن في حجرة غير مدفأة(32)، ولا يسمح بتدفئة أية حجرة من حجراته طوال فصل الشتاء "الذي يعتاد تحمل البرد". ولم يكن يميل إلى اللهو والتسلية، فكان يهاب دور التمثيل، وما فيها من مسرحيات صامتة مثيرة للغريزة الجنسية، وأثار غضب العامة بالابتعاد عن ميدان السباق؛ فقد كان في الاحتفالات الكبرى يقضي فيه قليلاً من الوقت، ولكنه يجد أن لا فرق بين سباق وسباق، فلا يلبث أن يغادره. وقد أكبر الشعب في بادئ الأمر فضائله، وزهده، وانهماكه في العمل، وفي أزمات الحكم؛ وكانوا يشبهونه بتراجان في حسن قيادته العسكرية، وبأنطونينس بيوس في تقواه وصلاحه، وبماركس أورليوس في الجمع بين الملكية والفلسفة(33). وإنما ليدهشنا أن نرى هذا الوثني الشاب قد رضت عنه على الفور مدينة ودولة لم تعرف منذ جيل من الزمان إلا أباطرة مسيحيين.

وقد أَرْضَى مجلس شيوخ بيزنطية بمحافظته على تقاليده وحقوقه دون أن يفخر بذلك أو يمن به عليه. وَاكُنْ يَقُومُ مِنْ مَقْعَدِهِ لِيَحِي الْقُنَاصِلَ، وَيُمَثِّلُ جَمِيعَ الْمَظَاهِرِ الَّتِي يَنْصَفُ بِهَا الْإِمْبَرَاطُورُ مِنَ الْوَجْهَةِ النَّظَرِيَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُ خَادِمٌ لِشِيُوخِ الْأُمَّةِ وَشَعْبِهَا وَمَنْدُوبٌ عَنْهُمْ. وَقَدْ حَدِثَ أَنْ اعْتَدَى مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ عَلَى أَحَدِ الْإِمْتِيَازَاتِ الْخَاصَةِ بِمَجْلِسِ الشِّيُوخِ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا حُكْمٌ عَلَى نَفْسِهِ بِغَرَامَةِ قَدْرِهَا عَشْرَةَ أَرْطَالٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ يَخْضَعُ كَمَا يَخْضَعُ كُلُّ الْمَوَاطِنِينَ لِجَمِيعِ قَوَانِينِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ وَتَقَالِيدِهَا. وَكَانَ يَقْضِي وَقْتَهُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ يَكْدَحُ فِي آدَاءِ وَاجِبَاتِ الْحُكْمِ، لَا يَنْقَطِعُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا فِتْرَةً صَغِيرَةً بَعْدَ الظُّهْرِ، يَخْصُهَا بِالْمَدْرَسِ. وَيَحْدِثُنَا الْمُؤْرَخُونَ أَنَّ مَا كَانَ يَتَنَاوَلُهُ مِنْ طَعَامٍ خَفِيفٍ قَدْ أَكْسَبَ جِسْمَهُ وَعَقْلَهُ نَشَاطًا عَصَبِيًّا، كَانَ يَسْتَطِيعُ بِفَضْلِهِ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ وَاجِبٍ إِلَى وَاجِبٍ

صفحة رقم : 4146

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

ومن زائر إلى زائر، وأن يرهق بالعمل ثلاثة من أمناء السر في كل يوم، وكان يظهر في قيامه بواجبات القاضي منتهى النشاط والجد والاجتهاد؛ ويكشف في أثناء ذلك عن سفسطة المحامين، ويخضع في تواضع وأدب جم لأراء القضاة المدعمة بالبراهين والتي تخالف آراءه هو، وأعجب الناس جميعاً بعدالة أحكامه. ومن أعماله أنه خفض الضرائب المفروضة على الفقراء، ورفض التيجان الذهبية التي كانت التقاليد تقضي بأن تقدمها كل ولاية للإمبراطور الجديد، وألغى ما تجمع على إفريقية من الضرائب المتأخرة، وتجاوز على الجيزة الباهظة التي كانت مفروضة حتى ذلك الوقت على اليهود(34). وأصر على إلزام كل من يريد ممارسة مهنة الطب أن يحصل على ترخيص بممارستها، واشتد في تنفيذ ذلك كثيراً، وقصارى القول أنه توج انتصاراته العسكرية بنجاحه في الأعمال الإدارية. ويقول أميانوس إن "شهرته أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً حتى عمت بقاع العالم"(35).

ومع هذا النشاط الجم في شؤون الحكم كان أهم ما يولع به هو الفلسفة، وكانت غايته التي لم يغفل عنها يوماً ما هي أن يعيد الشعائر الدينية القديمة إلى سابق عهدها. ولكي يحقق هذه الغاية أمر بإصلاح الهياكل الوثنية وفتحها، ورد ما صودر من أملاكها، وإعادة ما كان لها من موارد. كذلك بعث بالرسائل إلى كبار الفلاسفة في عهده يدعوهم إلى القدوم إليه ليعيشوا ضيوفاً عليه في بلاطه. ولما أن قدم مكسموس، وكان يولييان يلقي خطبة في مجلس الشيوخ، قطع خطبته، وجرى بأسرع ما يستطيع ليجي أستاذة، وقدمه إلى المجلس، وأثنى عليه الثناء المستطاب، وعبر له عن شكره واعتزافه بفضلها. واعتتم مكسموس تمس الإمبراطور فارتدى أحسن الثياب، وعاش عيشة الترف حتى أثار حوله الريب، ولما أن مات يولييان حوسب حساباً عسيراً على الوسائل التي جمع بها تلك الثروة الطائلة في هذا الوقت القصير(36). لكن يولييان لم يكن يلقي بالاً إلى المتناقضات التي بدت في حياة الرجل لأن حب الفلسفة قد ملك عليه كل تفكيره. ولهذا

صفحة رقم : 4147

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> الإمبراطور الوثني

لم يصرفه عنها أي نقص في سلوك الفلاسفة.. وقد كتب في ذلك إلى يومنيوس يقول: "إذا جاءك أحد من الناس ليقنعك بأن ثمة شيئاً أعظم نفعاً للجنس البشري من دراسة الفلسفة على مهل ومن غير أن يعوقه عن دراستها عائق، فاعلم أنه مخدوع يريد أن يخذلك"(37).

وكان مولعاً بالكتب، يحمل معه مكتبته في حروبه، وقد وسع دار الكتب التي أنشأها قسطنطين، وأنشأ غيرها من الدور. وكتب في ذلك يقول: "من الناس من هو مولع بالخيل، ومنهم من هو مولع بالطير أو بالوحوش البرية؛ أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفاري مولعاً أشد الولع باقتناء الكتب"(38). وكان يفخر بأنه مؤلف وحاكم سياسي معاً، فصرف غير قليل من جهده في تبرير خطته السياسية بمحاورات على طريقة لوشيان Lucian، أو خطب من طراز خطب لباتيوس، أو رسائل لا تكاد تقل سحراً وطرافة عن رسائل شيشرون، أو مقالات فلسفية طوال. وقد شرح عقيدته الوثنية الجديدة في "ترنيمة لابن الملك"؛ وأوضح في مقاله "ضد أهل الجليل" الأسباب التي من أجلها ارتد عن المسيحية، وكتب في مقال له من النقد العالي يقول أن الأناجيل يناقض بعضها بعضاً، وإن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل؛ فإنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الثلاثة الأناجيل الأخرى في روايتها وفيما تحويه من أصول الدين، وقصة الخلق التي جاءت في سفر التكوين تقتض تعدد الآلهة.

" فإذا لم تكن كل قصة من هذه القصص (الواردة في سفر التكوين) أسطورة لا أكثر، وإذا لم يكن لها، كما أعتقد بحق؛ تفسير يخفى عن الناس، فهي مليئة بالتجديف في حق الله. ذلك أنها تمثله، أول ما تمثله، جاهلاً بأن التي خلقها لتكون

عوناً لأدم ستكون سبب سقوطه. ثم تمثله ثانياً إلهاً حقوداً حسوداً إلى أقصى الحد والحسد، وذلك بما تعزوه إليه من أنه يأبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر (وهي دون غيرها المعرفة التي تُولف بين عناصر

صفحة رقم : 4148

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

العقل البشري وتجعله وحدة متناسقة)، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة. ولم يكن الهكم غبوراً حسوداً إلى هذا الحد فيأخذ الأبناء بذنوب الآباء؟... ولم يغضب الإله العظيم ذلك الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والأدميين؟ ألا فوازوا بين سلوكه وسلوك ليقورغ نفسه والرومان أنفسهم إزاء من يخرجون على القوانين. يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما تقرأها وتتطلبها الوثنية)... ولم لا تقبلون الشريعة التي نزلها الله على اليهود؟... تقولون إن الشريعة الأولى... كانت مقصورة على زمان ومكان معينين، ولكن في وسعي أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف - لا العشرات فقط - من الفقرات التي تقول إن الشريعة نزلت ليعمل بها في جميع الأزمان (39)".

ولما أراد يوليان أن يعيد الوثنية وجد أنها لا تناقض بعضها بعضاً في العقائد والعبادات فحسب، بل أنها فوق ذلك تحتي في جميع أجزائها من المعجزات والأساطير التي لا يقبلها العقل أكثر مما تحتويه المسيحية؛ وأدرك من ثم أنه ما من دين يأمل أن يستميل إليه النفس البشرية العادية ويحركها إلا إذا خلع على مبادئه الأخلاقية غلالة من خوارق العادات، والقصص والطقوس التي تبهر العقول. ولشد ما تأثر بقدم الأساطير وبانتشارها بين أمم العالم أجمع. ومن أقواله في هذا: "إن الإنسان لعاجز عن أن يعرف متى اخترعت الأساطير أول الأمر... عجزه عن أن يعرف من هو أول رجل عطس (40)، ولهذا كله أسلم نفسه لدراسة الأساطير، ولم يرى عيباً في أن تستخدم في غرس المبادئ الأخلاقية الفاضلة في عقول غير المتعلمين (41)؛ ولم يستنكف هو نفسه أن يكرر قصة سيبيل Cybele، وكيف جيء بالأوم العظيم في صورة حجر أسود من فريجيا إلى روما؛ وليس في مقدور أي إنسان يقرأ قصته أن يظن أنه يشك في ألوهية الحجر، أو في مقدرته على أن يستحيل أمأ عظمى. ولقد تبين شدة الحاجة إلى الرموز الحسية لتنتقل إلى الناس

صفحة رقم : 4149

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

المبادئ الروحية. وكان يعيد العبادة المثراسية للشمس ديناً يحل عند عامة الشعب محل إجلال الفلاسفة للعقل والاستتارة. ولم يكن عسيراً على هذا المليك -الشاعر أن يكتب ترنيمة هليوس الملك، الشمس مصدر الحياة كلها، وواهب النعم التي لا تحصى للخلق. ويقول إن هذا هو الكلمة المقدسة التي خلقت العالم والتي هي الآن سنده ودعامته؛

وقد أضاف يولييان إلى هذا المبدأ الأسمى والعلة الأولى، في الأديان الوثنية القديمة من أرباب وجن يخطئهم الحصر، وكان يظن أن الفيلسوف المتسامح لا يجد حرجاً من قبولهم بقضيتهم وقضيضهم. وإنا لنخطئ إذا صورنا يولييان في صورة الرجل الحر التفكير الذي يستبدل العقل بالأساطير؛ ذلك أنه كان يشنع بالكفر ويعده من الحيوانية(42)، ويعلم الناس مبادئ لا تقل بعداً عن الأمور الطبيعية المعقولة عما نجده في أي دين من الأديان؛ وقلما كتب إنسان من السخف مثل ما كتب يولييان في ترنيمة للشمس؛ وقد قبلت التثليث الذي تقول به الأفلاطونية الحديثة، وقال إن الأفكار الخلاقة الأولى التي يقول بها أفلاطون هي بعينها عقل الله؛ وكان يرى أنها هي الحكمة التي صنعت كل شيء، وينظر إلى عالم المادة والجسم كأنه عقبة من فعل الشيطان يضعها في طريق الفضيلة المؤدي إلى تحرير الروح السجينة؛ وفي اعتقاده أن النفس البشرية، إذا ما سلكت طريق التقى والصلاح والفلسفة، قد تتحرر من سجنها هذا وتسمو إلى آفاق التفكير في الحقائق والشرائع الروحية، وتتدمج بهذا في الحكمة الإلهية، بل ربما اندمجت في الله الأزلي نفسه. ولم تكن أرباب الشرك الكثيرة، في اعتقاد يولييان، إلا قوى غير شخصية؛ كما أنه لم يكن في وسعه أن يؤمن بها في صورها المجسدة البشرية كما يؤمن عامة الناس، ولكنه كان يعرف أن الناس قلما تسمو بهم أفكارهم إلى التجريدات التي تسمو إليها عقول الفلاسفة، أو إلى الرؤى الصوفية التي يراها القديسيون؛ وكان يمارس الشعائر القديمة في السر والعلن، وبلغ ما ضحى به من الحيوانات للآلهة من

صفحة رقم : 4150

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> الإمبراطور الوثني

الكثرة حدًا جعل المعجبين به أنفسهم يعضون أبصارهم حياء من هذه المجازر(43). وكان في أثناء حروبه ضد الفرس يستشير مهابط الوحي، ويتفاعل ويتطير كما كان يفعل القواد الرومان، ويعنى أشد العناية بالاستماع إلى تفسير الأحلام، ويبدو أنه كان يؤمن بسحر مكسموس. وكان يرى كما يرى كل مصلح أن العالم في حاجة إلى تجديد من الناحية الأخلاقية؛ ولكي يصل إلى هذه الغاية لم يقصر همه على سن القوانين الخارجية بل سعى إلى أن يتقرب عن طريق الدين إلى قلوب الناس وسرائرهم. وقد تأثر أشد التأثر بطقوس إليوسيز وإفسوس الرمزية، وكان يرى أنه ليس ثمة طقوس أصلح منها لأن تبعث في قلوب الناس حياة جديدة أنبل من حياتهم السابقة، ويأمل أن المراسم المتبعة مع من يريد الاندماج في أصحاب هذه الطقوس وفي رسامتهم يمكن أن تنتعش فتتعدى القلة الأرستقراطية إلى طائفة كبيرة من الشعب. ويحدثنا ليبانيوس أنه "كان يفضل أن يسمى قساً من أن يسمى إمبراطوراً(44)". وكان يحسد السلطة الكهنوتية المسيحية، على نظمها الحسنة وعلى إخلاص قساوستها ونسائها، وروح المساواة التي تسود المصلين والمتعبدين في كنائسها، والصدقات التي تؤلف بين قلوب أهل ذلك الدين وتستميل نفوسهم إليه. ولم يكن يترفع عن أن يأخذ خير ما في الدين الذي يرجو أن يقوض أركانه ويستبدل به غيره، وقد أدخل عناصر جديدة في الكهانة الوثنية، ونظم كنيسة وثنية وضع نفسه على رأسها، وألح على من دونه من الكهنة أن يجادلوا رجال الدين المسيحيين ويتفوقوا عليهم في تعليم الشعب، وتوزيع الصدقات على الفقراء، وفي استضافة الغرباء، وفي ضرب أحسن الأمثلة في التقى والصلاح(45). وقد أنشأ في كل مدينة مدارس تلقى فيها المحاضرات في الدين الوثني وتعرض فيها مبادئه. وكان يكتب لكهنوته الوثنيين كما كتب من بعده القديس فرنسيس لاتباعه من الرهبان فيقول:

"عاملوني بما تظنون أني سأعاملكم به، ودعونا نتعاهد فيما بيننا على أن أبين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

لكم آرائني في جميع شئونكم، وأن تفعلوا أنتم معي في مقابل هذا نفس العمل فيما يختص بأقوالي وأعمالي، وفي اعتقادي أن ليس ثمة أعظم قيمة من تبادل الرأي على هذا النحو....(46) ومن واجبتنا أن نقسم مالنا مع الناس جميعاً، وعلى الأخص مع الصالحين، والضعفاء والفقراء. وأصارحكم القول، وإن بدا لكم أن في قولي هذا تناقضاً، إن من الأعمال الدالة على التقى والصلاح أن نقسم ثيابنا وطعامنا مع الأشرار؛ ذلك أننا حين نعطي إنما نعطي الإنسانية الممثلة في الناس، ولا نعطي خلقه طبيين كانوا أو خبيثين(47).

والحق أن هذا الرجل الوثني كان مسيحياً في كل شيء عدا عقيدته؛ ونحن إذا ما قرأنا ما كتبه، وعضنا النظر عن أساطيره المجردة من الحياة، خيل إلينا أنه مدين بكثير من تطورات خلقه إلى المبادئ الأخلاقية المسيحية التي لفتها في طفولته وشبابه المبكر. فكيف كان مسلكه إذن إزاء الدين الذي ربي في أحضانه؟ لقد ترك للمسيحية كامل حريتها في الوعظ، والعبادة، وممارسة جميع شعائرها، وأعاد الأساقفة المستمسكين بدينهم القديم، والذين نفاهم قنستنتيوس. لكنه منع عن الكنيسة المسيحية ما كانت تقدمه لها الدولة من إعانات مالية، وحرم على المسيحيين أن يشغلوا كراسي البلاغة، والفلسفة، والأدب في الجامعات، وكانت حجته في ذلك أن هذه الموضوعات لا يمكن أن تجد مدرسين يعطون عليها إلا من بين الوثنيين(48)؛ ووضع حداً إعفاء رجال الدين المسيحيين من الضرائب وغيرها من الفروض المدنية المرهقة، ولحق القساوسة في أن ينتقوا من غير أجر بالمزايا والتسهيلات المخولة للموظفين العموميين. كذلك حرم الوصية بالمال للكنائس، كما حرم المناصب الحكومية على المسيحيين(49)، وأمر الجماعات المسيحية في كل بيئة أن يعوضوا الهياكل الوثنية تعويضاً كاملاً عما أنزلوه بها من الأضرار في أثناء حكم الأباطرة السابقين؛ وأجاز هدم الكنائس المسيحية المقامة على الأراضي التي اغتصبت ظلماً وعدواناً من المزارات والأضرحة الوثنية. ولما أن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> الإمبراطور الوثني

وقع الاضطراب والظلم والشغب نتيجة لهذا المنطق المتهور حاول يوليان أن يرد الأذى عن المسيحيين، ولكنه أبى أن يلغى ما سنه من القوانين. ولقد أظهر قدرته على السخرية التي قلما تليق بفيلسوف مثله، حين ذكّر بعض المسيحيين الذين وقع عليهم العدوان بأن "كتابهم المقدس يهيب بهم أن يصبروا على الأذى(50)" وعوقب المسيحيون الذين ردوا على هذه القوانين بالعنف أو الإهانات عقاباً صارماً، أما الوثنيون الذين لجأوا إلى الإهانة في معاملتهم للمسيحيين فقد عوملوا باللين(51). من ذلك أن العامة من الوثنيين أهل الإسكندرية كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج، الأسقف الأريوسي الذي أغتصب كرسي أثناسيوس، لأنه أثار حفيظتهم بموكب عام سخر فيه من الطقوس المثراسية، فقبضوا عليه ومزقوا جسمه إرباً؛ ومع أن المسيحيين، إلا قلة منهم لا تستحق الذكر، لم يهتّموا بالدفاع عنه، فقد قتل أو جرح كثيرون من المسيحيين فيما صحب هذه الفتنة من اضطراب(362). وأراد يوليان أن يعاقب من أحدثوا الشغب، ولكن مستشاريه أقتعوه بأن يكتبي برسالة خطاب احتجاج شديد إلى أهل الإسكندرية. وفي هذا الوقت خرج أثناسيوس من

مخبئه واستعاد كرسي أسقفيته، ولكن يولييان أنكر عليه هذا العمل قائلاً إنه لم يؤخذ فيه رأيه، وأمر أثناسيوس أن يعتزل منصبه. وصدع الأسقف الشيخ بالأمر، ولكن الإمبراطور توفي في السنة التالية، وعاد البطرق رمز أهل الجليل المنتصرين إلى كرسيه، وليث فيه إلى أن مات في الثمانين من عمره، بعد عشر سنين من ذلك الوقت، متقللاً بمظاهر الشرف ومثخناً بالجراح.

وكان اندفاع يولييان ومثابرتة الشديدة على تنفيذ منهجه سبباً في إخفاقه آخر الأمر. ذلك أن من أساء إليهم يقاومونه بإصرار ومعاودة، ومن اجتباهم لم يستجيبوا له في حماسة. ومرد هذا أن الوثنية كانت قد ماتت من الناحية الروحية، ولم يبق فيها ما يجدد شبابها، أو يواسيها في أحزانها، أو يبعث في

صفحة رقم : 4153

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> الإمبراطور الوثني

أهلها الأمل في الدار الآخرة، نعم إن بعض الناس قد اعتنقوها في تلك الأيام الأخيرة، ولكن معظمهم لم يفعلوا ذلك إلا لما كانوا ينتظرون أن ينالوه من المطامع السياسية أو الذهب الإمبراطوري. كذلك عادت بعض المدن إلى تقديم القرابين الرسمية، ولكنها كانت تؤدي بهذا الثمن ما تتاله من العطف عليها والعناية بمصالحها. وقد اضطر يولييان في بسينس Pcssinus نفسها، وهي بيت سيبيل، أن يرشو أهلها لكي يعظموا الأم العظمى. وقام كثير من الوثنيين يفسرون الوثنية بأنها مراعاة الذمة والضمير في انتهاب المذات؛ وساءهم أن يجدوا يولييان أكثر تزمناً من المسيح، فقد كان هذا الرجل الحر في التفكير أتقى رجل في الدولة، وكان أصدقائه أنفسهم يجدون من أصعب الأشياء عليهم أن يجاروه في ورعه، ومنهم من كانوا منشككة يسخرون سراً من أربابه الذين ولي زمانهم ومن الذبائح التي كان يستعطف بها أولئك الأرباب. ذلك أن عادة التضحية بالحيوان على المذبح كانت قد ماتت أو كادت أن تموت في الشرق، وفي كل ما عدا روما من بلاد الغرب، وشرع الناس ينظرون إليها على أنها عمل يجلل صاحبه العار، أو أنها في القليل طعام يشترك في أكله الناس. وكان يولييان يسمي حركته هذه "الهلبينية"، ولكن هذه التسمية قد اشمأزت منها نفوس الوثنيين الطليان، الذين كانوا يحنقون كل شيء يوناني غير ميث. وكان يفرط في الاعتماد على الجدل الفلسفي الذي لم يصل في يوم من الأيام إلى أن يكون الأساس العاطفي للدين؛ كذلك لم يكن أحد يفهم مؤلفاته إلا الفئة المتعلمة، التي كان تعليمها يحول بينها وبين قبول ما في هذه المؤلفات من الأفكار، ولم تكن عقائده إلا توفيقاً مصطنعاً بين متناقضات، وكانت خالية من الجذور التي تمتد إلى آمال الناس أو خيالهم. ولقد لاحت بوادر إخفاقه حتى قبل وفاته، ولم يستتكف الجيش الذي أحبه وحزن عليه أن يرشح مسيحياً ليخلفه على العرش.

صفحة رقم : 4154

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> خاتمة المطاف

وكان حلمه الأخير العظيم أن يفعل ما فعله الإسكندر وتراجان: فيرفع العلم الروماني على العواصم الفارسية، ويقضي القضاء النهائي على الخطر الفارسي الذي كان يهدد أمن الدولة الرومانية وسلامتها. وللوصول إلى هذه الغاية عني أعظم عناية بتنظيم الجيش، وباختيار ضباطه، وترميم الحصون المشيدة على التخوم وخرن المؤن في المدن القائمة على طريق نصره. فلما تم له ذلك جاء إلى إنطاكية في خريف عام 362، وجمع فيها جنوده؛ واعتتم تجار المدينة احتشاد الجنود فيها فرفعوا أسعار الحاجيات، وشكا الناس قائلين "إن كل شيء موفور ولكن كل شيء غالي الثمن". فما كان من يولييان إلا أن استدعى إليه رؤساء الأعمال الاقتصادية وأخذ ينصحهم بالحد من مكاسبهم، فوعده بذلك ولكنهم لم يوفوا بوعدهم؛ فلما يئس منهم "حدد ثمناً عادلاً لكل سلعة وأعلنه للناس جميعاً"، ثم عمل على استيراد أربعمائة ألف مودبوس من القمح من بلدان سوريا ومصر (52) وأحتج التجار بأن الأثمان التي حددها لم تترك لهم شيئاً من الأرباح، وابتاعوا في الخفاء القمح المستورد، ونقلوه هو وبضاعته إلى مدن أخرى، ووجدت إنطاكية نفسها تزخر بالنقود وتفتقر إلى الطعام. وسرعان ما قام العمة ينددون بيولييان لتدخله في هذه الشؤون، وأخذ الفكهون يسخرون من لحيته ومن انهماكه في خدمة الآلهة الأموات. ورد عليهم يولييان بنشرة أصدرها سماها "كاره اللحى" (Misopogon) حوت من الفكاهة والمتعة ما لا يتفق مع مقام إمبراطور. فقد اعتذر في سخرية عن لحيته، وعنف أهل إنطاكية على وقاحتهم،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يولييان المرتد -> خاتمة المطاف

وطيشهم، وإسرافهم، وفساد أخلاقهم، واستخفافهم بالهة اليونان. وكانت الحديقة الشهيرة المعروفة باسم دافني Daphne، والتي كانت من قبل مزاراً مقدساً لأبلو، قد حولت إلى مكان للهو والتسلية، فأصدر يولييان أمره أن يمنع اللهو منها وإن تعود مزاراً مقدساً كما كانت من قبل؛ وما كاد هذا العمل يتم حتى التهمت النيران؛ وظن يولييان أن الحريق من فعل المسيحيين فأغلق كنيسة إنطاكية، وصادر أملاكها، وعذب كثيرين من الشهداء، وقتل أحد القساوسة (53). ولم يجد الإمبراطور في إنطاكية سلوى إلا "وليمة العقل" التي اجتمع فيها بلبانيوس. وأخيراً تاهب الجيش للنزول إلى الميدان، وبدأ يولييان الحرب في شهر مارس من عام 363، فسار على رأس جيوشه وعبر نهر الفرات، ثم نهر دجلة، وطارد الفرس المتقهقرين، ولكنه لاقى الأمرين، وكاد يلاقي الهزيمة من جراء "إجداب الأرض" وهي الخطة التي اتبعتها الفرس وأرادوا بها إحراق جميع المحصولات في كل جزء يخلونه من البلاد، حتى كان الجنود يولييان يموتون من الجوع مرة بعد مرة، وقد أظهر الإمبراطور في هذه الحروب المضنية أحسن ما اتصف به من خلال، فكان يشارك جنوده كل ما يعترضهم من صعاب، ويكتفي مثلهم بالقليل وبأقل من القليل ويسير مثلهم على قدميه في القبط، ويخوض مجاري المياه، ويحارب في الصفوف الأولى في جميع المعارك. وكان من بين الأسرى فارسيات ذوات جمال في نضرة الشباب؛ ولكنه لم يقتحم عليهن خلوتهن، ولم يسمح لإنسان أن يمسه

بأذى شرفهن. وتقدم الجنود تحت قيادته القديرة حتى طرقت أبواب طشقونة Ctesiphon، وضربوا عليها الحصار، ولكنهم اضطروا إلى الارتداد عنها لعجزهم عن الحصول على الطعام. واختار شابور الثاني رجلين من أشرف الفرس وجدع أنفيهما وأمرهما أن يذهبا إلى يوليان ويدعيا أنهما قد فرّا من عند الملك لقسوته عليهما واعتدائه الصارخ على كرامتهما، ثم يقودانه هو وجيشه إلى صحراء جدباء. وفعل الرجلان ما أمرا به، وصدقهما يوليان وسار خلفهما هو

صفحة رقم : 4156

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> خاتمة المطاف

وجيشه مسافة عشرين ميلاً حتى وجد نفسه في صحراء جدباء لا ماء فيها ولا نبات، وبينما كان يحاول إنقاذ رجاله من هذا الفج الذي نصب له هاجمته قوة من الفرس، ولكنه صد هجومها وردّها على أعقابها، وفر الفرس لا يلوون على شيء. وكان يوليان في مقدمة المطاردين غير عابئ بأنه ليس على جسمه دروع: فأصابته حربة في جنبه نفذت إلى كبده، فسقط على ظهر جواده وحمل إلى الخيمة، وأنذره طبيبه بأنه لن تطول حياته أكثر من بضعة ساعات. ويقول لبيانيوس إن الذي رماه بالحربة رجل مسيحي، ومما هو جدير بالذكر أن أحداً من الفرس لم يطالب بالمكافأة التي وعد بها شابور من يقتل الإمبراطور. ومن المسيحيين من يؤيد رواية لبيانيوس ويثني على القاتل "الذي أقدم على هذا العمل الجريء حياً في الله وفي الدين" (54)، ومن هؤلاء سوزومين Sozomen. وكانت الساعة الأخيرة من حياة يوليان خليفة بتقاليد سقراط وسنكا، وقد وصفها أميانوس فقال: إن يوليان وهو مسجى في خيمته خاطب رفاقه المحزونين الذين ملك الأسى قلوبهم بقوله: "أيها الأصدقاء، إن هذه الساعة لهي أنسب الأوقات التي أغادر فيها هذه الحياة، وأردّها إلى الطبيعة بعد أن طلبت ردها إليها"... وبكى جميع الحاضرين فلامهم على بكائهم محتفظاً حتى في تلك الساعة بسلطانه عليهم، وقال لهم أنه لا يليق بهم أن يحزنوا من أجل زعيم دعي للاتحاد بالسماء وبالنجوم. ولما أن أسكنهم بقوله هذا دخل مع الفيلسوفين مكسموس وبرسكوس في حوار دقيق عن شرف النفس ونبلها. وفي أثناء هذا النقاش اتسع الجرح الذي في جنبه فجاءه، وحال ضغط الدم المتدفق بينه وبين التنفس؛ وبعد أن تناول جرعة من الماء البارد طلبها إلى الحاضرين أسلم الروح وكان في الثانية والثلاثين من عمره.

صفحة رقم : 4157

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> يوليان المرتد -> خاتمة المطاف

وكان الجيش لا يزال معرضاً للخطر وفي حاجة إلى قائد، فاختار زعماءه جوفيان Jovian قائد الحرس الإمبراطوري. وعقد الإمبراطور الجديد الصلح مع فارس، بأن رد إليها أربعاً من الولايات الخمس التي انتزعتها منها دقلديانوس منذ سبعين عاماً. ولم يضطهد جوفيان إنساناً، ولكنه لم يلبث أن حول تأييده من الهياكل الوثنية إلى الكنيسة

المسيحية. واحتفل مسيحيو أنطاكية بموت الإمبراطور الوثني احتفالاً عاماً أظهروا فيه الفرح والابتهاج(57)، وإن كان زعماء المسيحيين المنتصرين كانوا في معظم الأحوال يحضون جماعات المصلين أن يكونوا كراماً، وأن ينسبوا ما أصاب المسيحية من أذى(58). وانقضت بعد ذلك أحد عشر قرناً قبل أن تشهد المسيحية يوماً آخر كهذا اليوم.

صفحة رقم : 4158

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهددة

الباب الثاني

انتصار البرابرة

476-325

الفصل الأول

التخوم المهددة

لم تكن بلاد الفرس إلا قطاعاً من تخوم يبلغ طولها عشرة آلاف ميل تتعرض فيها الإمبراطورية الرومانية المؤلفة من مائة أمة مختلفة للغزو في أية نقطة وفي أية ساعة على أيدي قبائل لم تفسدها الحضارة، ولكنها تطمع في ثمارها. وكان الفرس وحدهم مشكلة مستعصية على الحل، فقد كانوا يزدادون قوة لا ضعفاً؛ ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى استعادوا كل ما كان داراً الأول يبسط عليه سلطانه قبل ألف عام من ذلك الوقت - إلا قليلاً منه. وكان في غرب بلادهم العرب، ومعظمهم من البدو الفقراء؛ ولو إن إنساناً في ذلك الوقت قد قال إن أولئك الأقوام الرحل الواجمين قد كتب لهم أن يستولوا على نصف الإمبراطورية الرومانية وعلى بلاد الفرس كلها لسخر من قوله هذا أحكم الساسة وأنفذهم بصيرة. وكان في جنوب الولايات الرومانية الإفريقية الأحباش، واللوبيون، والبربر، والنوميديون، والمغاربة، وكان

هؤلاء كلهم يتربصون بالإمبراطورية الدوانر، وينتظرون على أحر من الجمر تداعي الحصون الإمبراطورية أو قوى البلاد المعنوية. ولاح أن أسبانيا سنظل رومانية آمنة من الغزو وراء جبالها المنيعة وبحارها التي لا يستطيع المغربون اجتيازها؛ ولم يكن أحد يظن أنها

صفحة رقم : 4159

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهدة

ستصبح في هذا القرن الرابع ألمانية، وفي القرن الثامن بلاداً إسلامية. أما غالة فقد كانت وقتئذ تفوق إيطاليا اعتزازاً برومانيتها، كما تفوقها في النظام وفي الثراء، وفي الآداب اللاتينية من شعر ونثر؛ ولكنها كان عليها في كل جيل أن تدفع عن نفسها غارات النيوتون الذين كانت نساؤهم أعظم خصباً من حقولهم. ولم يكن في وسع الدولة الرومانية أن تستغني إلا عن حامية قليلة لتدفع بها عن بريطانيا غارات الاسكتلنديين والبيكتيين من الغرب والشمال؛ وغارات أهل الشمال والقراصنة السكسون من الشرق أو الجنوب؛ فقد كانت شواطئ النزويج بجميع أجزائها معشاشاً لهؤلاء القراصنة، وكان أهلها يرون الحرب أقل مشقة من حرث الأرض، ويعتقدون أن الإغارة على السواحل الأجنبية عملاً شريفاً لذوي البطون الخاوية وفي أيام الفراغ. ويدعي القوط أن موطنهم الأول هو جنوبي السويد وجزائرها الصغرى، ولا يبعد أن يكون ذلك الموطن هو الإقليم المحيط بنهر الفستيو لا Vistula؛ ولكنهم أياً كان موطنهم انتشروا باسم القوط الغربيين نحو نهر الدانوب الجنوب، واستقروا باسم القوط الشرقيين بين نهري الدنيستر Dniester والدون Don. وفي قلب أوربا -الذي تحده انهار الفستيو لا والدانوب، والرين- كانت تجول قبائل قدر لها أن تغير خريطة أوربا وتبدل أسماء أممها: هي قبائل الثورنجيين Thuringians، والبرغنديين، والإنجليز، والسكسون، والجوت، والفريزيين Frisians، والجبيديين Gipidae، والكوادي Quadi، والوندال، والألماني، والسوفي Suevi، واللمبارد، والفرنجة. ولم يكن للإمبراطورية كلها -عدا بريطانيا- أسوار تصد تيار هذه الأجناس، وكل ما كان لها من هذا القبيل هو حصون أو حاميات في أماكن متفرقة على طول الطرق البرية أو مجاري الأنهار التي كانت في أطراف الدولة الرومانية. وكانت تفوق البلاد الخارجية عن حدود الدولة الرومانية في نسبة مواليدها: وتفوقها هي على هذه البلاد في مستوى معيشة أهلها، مما جعل الهجرة

صفحة رقم : 4160

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهدة

إليها أو الإغارة عليها قضاء محتوماً لا مفر لها منه في ذلك الوقت، كما أنهما الآن قضاء محتوم على أمريكا الشمالية. ولعل من واجبتنا أن نعدل بعض التعديل تلك الرواية التي تصف تلك القبائل الألمانية بأنها قبائل متبربرة. نعم إن اليونان والرومان حين أطلقوا على أولئك الأقوام لفظ برابرة Barbari لم يكونوا يقصدون بذلك الثناء عليهم، وأكبر

الظن أن هذا اللفظ يقابل لفظ فرفار Varavar في اللغة السنسكريتية، ومعناه الفظ الجلف، غير المثقف (1)؛ وهو شديد الصلة أيضاً بلفظ بربر Berber؛ ولكن اتصال الألمان مدى خمسة قرون بالحضارة الرومانية عن طريق التجارة والحرب كان لا بد أن يترك فيهم أثراً قوياً؛ وقيل أن يحل القرن الرابع بزم من طويل كانوا قد تعلموا الكتابة وأقاموا لهم حكومة ذات قوانين ثابتة وكانت مبادئهم الأخلاقية من الناحية الجنسية أرقى منها عند الرومان واليونان إذا استثنينا منهم قبائل الفرنجة المروفنجيين؛ وكثيراً ما كانوا يفوقون الرومان في الشجاعة، وكرم الضيافة، والأمانة، وإن كانت تعوزهم رقة الحاشية ودمائة الخلق، وهما الحلطان اللتان يتصف بهما المثقفون. (لسنا ننكر أنهم كانوا قساة القلوب، ولكنهم لم يكونوا أشد قسوة من الرومان؛ وأكبر الظن أنهم قد روعهم أن يعرفوا أن الشريعة الرومانية كانت تجيز تعذيب الأحرار لتنتزع منهم الشهادات أو الاعترافات (3). وكانت نزعتهم فردية إلى حد الفوضى، على حين أن الرومان كانوا في الوقت الذي نتحدث عنه رُوضوا على حسن المعاشرة

صفحة رقم : 4161

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهدة

والميل إلى السلم. وكان أهل الطبقات العليا منهم يقدرون الآداب والفنون بعض التقدير، وقد اندمج منهم استلكو Stilicho، ورسمر Ricimer، وغيرهما من الألمان في الحياة الثقافية العليا التي كانت تسود المجتمعات في روما، وكتبوا أدباً لاتينياً أقر سيماكوس Simmachus أنه وجد فيه كثيراً من المتعة. وكان الغزاة بوجه عام وخاصة القوط- يبلغون من الحضارة درجة تمكنهم من أن يعجبوا بالحضارة الرومانية ويعترفوا أنها أرقى من حضارتهم، ويسعون لاكتسابها لا لتدميرها؛ وظلوا قرنين من الزمان لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بالدخول في بلاد الإمبراطورية والاستقرار في أراضيها المهملة؛ وطالما اشتركوا في الدفاع عنها بجد ونشاط. ولهذا فإننا إذا ما ظللنا نستخدم لفظ البراءة في حديثنا عن القبائل الألمانية في القرنين الرابع والخامس، فإننا نعمل ذلك بحكم العادة التي جعلت هذا اللفظ يجري به القلم، مع مراعاة هذه التحفظات والاعتذارات السالفة الذكر.

وكانت هذه القبائل التي تكاثر أفرادها قد دخلت بلاد الإمبراطورية في جنوب نهر الدانوب وجبال الألب بطريق الهجرة السلمية وبدعوة من الأباطرة في بعض الأحيان. وقد بدأ أغسطس هذه السياسة، فسمح للبرابرة أن يستقروا داخل حدود الإمبراطورية ليعمروا ما خلا من أرضها، ويسدوا ما في فيالقها من ثغرات بعد أن عجز الرومان عن تعمير أولها وسد ثانيها لقلّة تناسلهم وضعف روحهم العسكرية. وجرى على هذه السنة نفسها أورليوس، وأوليان، وبروبوس. وقبل أن ينصرم القرن الرابع كانت كثرة السكان في بلاد البلقان وفي غالة الشرقية من الألمان. وكذلك كان الجيش الروماني، وكانت مناصب الدولة السياسية منها العسكرية في أيدي التوتون. وكانت الإمبراطورية في وقت من الأوقات قد صبغت أولئك الأقوام بالصبغة الرومانية، أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإنهم هم الذين بربروا الرومان (5)؛ فقد أخذ الرومان أنفسهم يرتدون

صفحة رقم : 4162

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهدة

ملابس من الفراء على طراز ملابس البرابرة، وأخذوا كذلك يرسلون شعورهم مثلهم، ومنهم من لبسوا السراويل، (البنطلون)، واستثاروا بذلك غضب الأباطرة، فأصدروا في غيظهم مراسيم بتحريم هذه الثياب. (6)(397،416). وجاءت القوة التي دفعت هذه القبائل إلى غاراتها الكبرى على الإمبراطورية الرومانية من سهول المغول النائية. وتفصيل ذلك أن الزيونج-نو Hsiung-nu أو الهيونج-نو Hung-nu أو الهون Hun-وهم فرع من الجنس الطوراني، كانوا في القرن الثالث الميلادي يحتلون الأصقاع الواقعة في شمال بحيرة بلكاش وبحر آرال. وكانت سحتتهم، كما يقول جردانيس Jordanes هي أقوى أسلحتهم: فقد كانت ملامحهم الرهيبة تلقي الرعب في قلوب أعدائهم؛ ولعلمهم هم لم يكونوا أقدر على الحروب من هؤلاء الأعداء. فقد كان أعداؤهم يستول عليهم الفزع فيفرون من أمامهم لأن وجوههم الكالحة كانت تقذف الرعب في القلوب.. ولأنهم كانت لهم في مكان الرأس كومة لا شكل لها فيها ثقبان بدل العينين. وهم يقسون على أولادهم من يوم مولدهم، لأنهم يقطعون خدود الذكر بالسيف حتى يعودهم تحمل ألم الجروح قبل أن يدوقوا طعم اللبن، ولهذا فإنهم لا تثبت لهم لحى إذا كبروا وتشوه ندب جروح السيوف وجوههم. وهم قصار القامة، سريعو الحركة، خفاف مهرة في ركوب الخيل، بارعون في استعمال الأقواس والسهام، عراض الأكتاف صلاب الرقاب؛ منتصبو الأجسام على الدوام (7).

وكانت الحروب صناعتهم، ورعاية الماشية رياضتهم، وبلادهم كما ورد في أحد أمثالهم "هي ظهور خيلهم" (8). وتقدم أولئك الأقوام إلى روسيا حوالي عام 355، مسلحين بالأقواس والسهام، مزودين بالشجاعة والسرعة، يدفعهم من خلفهم جذب بلادهم وضغط أعدائهم الشرقيين، فهزموا في زحفهم قبائل الألاني Alani، وعبروا نهر الفلجا (372؟)، وهاجموا في أوكرانيا القوط الشرقيين الذين كادوا أن يصبحوا أقواماً متحضرين. وقاومهم إرنريك

صفحة رقم : 4163

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهدة

Ermanaric المعمر ملك القوط الشرقيين مقاومة الأبطال، ولكنه هزم زمات بيده لا بيد أعدائه كما يقول بعض المؤرخين. واستسلم بعض القوط الشرقيين وانضوا تحت لواء الهون، وفر بعضهم متجهين نحو الغرب إلى أراضي القوط الغربيين الواقعة شمال الدانوب. والتقى جيش من القوط الغربيين بالهون الزاحفين عند نهر الدنيستر، فأوقع به الهون هزيمة منكرة، وطلب بعض من نجوا من القوط الغربيين إلى ولاية الأمور الرومان في البلاد الواقعة على نهر الدانوب أن يأذنوا لهم بعبور النهر والإقامة من مؤيزيا Moesia وتراقية. وأرسل الإمبراطور فالنز Valens إلى عماله أن يجيبوهم إلى طلبهم على شرط أن يسلموا أسلحتهم ويقدموا شبانهم ليكونوا رهائن عنده. وعبر القوط الغربيين الحدود، ونهب موظفو الإمبراطورية وجنودها أموالهم غير مباينين بما يجلبهم عملهم هذا من عار. واتخذ الرومان الذين افنتتوا ببناتهم وغلماهم، أولئك الغلمان والبنات عبيداً لهم وإيماء، ولكن المهاجرين استطاعوا بفضل الرشا التي نفحوا بها ولاية الأمور الرومان أن يحتفظوا بأسلحتهم. وبيع لهم الطعام بما يباع به في أيام القحط، فكان القوط الجياح يبتاعون شريحة اللحم أو رغيف الخبز بعشرة أرتال من الفضة أو بعبد، بل إن القوط قد اضطروا في آخر الأمر أن يبيعوا أطفالهم ببيع الرقيق لينجوا من هلاك جوعاً (9). ولما بدت عليهم أمارات التمرد دعا القائد الروماني زعيمهم فرتجيرن Fritigern إلى وليمة وفي نيته أن يقتله؛ ولكن فرتجيرن نجا وأثار حمية القوط المستبئسين وحرصهم على القتال، فأخذوا ينهاون، ويحرقون، ويقتلون، حتى أصبحت تراقية كلها تقريباً خراباً يباباً تعاني الأمرين من جوعهم وغيظهم. وأسرع فالنز من بلاد الشرق لملاقاتهم والتحم بهم في سهول هدر يانوبل

Hadrianople، ولم يكن معه إلا قوة صغيرة معظم رجالها من البرابرة الذين كانوا في خدمة روما (378). وكانت النتيجة، كما يقول أميانوس "أشنع هزيمة حلت بجيوش الرومان منذ واقعة كانى Cannae" التي حدثت قبل ذلك اليوم

صفحة رقم : 4164

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> التخوم المهددة

بخمسمائة وأربع وتسعين سنة(10). وفيها تفوق الفرسان القوط على المشاة الرومان، وظلت حركات الفرسان وفنونهم العسكرية من ذلك اليوم حتى القرن الرابع عشر هي المسيطرة على فن الحرب الأخذ في الاضمحلال. وهلك في هذه المعركة ثلثا الجيش الروماني، وأصيب فالنز نفسه بجرح بالغ، وأشعل القوط النار في الكوخ الذي أوى إليه، ومات الإمبراطور ومن كان معه محترقين بالنار. وزحفت الجموع المنتصرة إلى القسطنطينية، ولكنها عجزت عن اختراق وسائل الدفاع التي أقامتها ومنيكا أرملة فالنز. وأخذ القوط الغربيون، ومن انضم إليهم من القوط الشرقيين والهون الذين عبروا الحدود غير المحمية عند نهر الدانوب، يعيثون فساداً في بلاد البلقان من البحر الأسود إلى حدود إيطاليا.

صفحة رقم : 4165

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

الفصل الثاني

الأباطرة المنقذون

408-364

ولم تقف الإمبراطورية في هذه الأزمة من الحكام القادرين. فقد نقل الجيش ومجلس الشيوخ تاج الإمبراطورية إلى فلننتيان وهو جندي فظ مقطوع الصلة بالثقافة اليونانية يذكرنا بفاسبازيان. وعين فلننتيان أخاه الأصغر فالنز، بموافقة مجلس الشيوخ، أوغسطس وإمبراطوراً على الشرق، واختار هو لنفسه الغرب الذي كان يبدو أشد خطراً من الشرق. ثم أعاد تحصين حدود إيطاليا وغاللة، وأعاد إلى الجيش قوته ونظامه، وصد مرة أخرى الغزاة الألمان إلى ما وراء نهر الرين، وأصدر من عاصمته ميلان تشريعات مستنيرة حرم فيها على الأبناء قتل الأبناء، وأنشأ الكليات الجامعية، ووسع نطاق المساعدات الطبية الحكومية في روما، وخفض الضرائب، وأصلح النقد الذي انخفضت قيمته، وقاوم الفساد السياسي، ومنح جميع سكان الإمبراطورية حرية العقيدة والعبادة. وكان لهذا الإمبراطور عيوبه ونقاط ضعفه. من ذلك كان يقسو أشد القسوة على أعدائه؛ وإذا جاز لنا أن نصدق سقراط المؤرخ فإنه شرع الزواج باثنتين لكي يجيز لنفسه أن يتزوج جستينا(11)، التي غالت زوجته في ووصف جمالها له. ومع هذا كله فقد كان موته العاجل (375) مأساة كبرى حلت بروما. وخلفه ابنه جراتيان Gratian على عرش الإمبراطورية في الغرب، وسار فيها سيرة أبيه عاماً أو عامين، ثم أطلق العنان للهو والصيد، وترك أزمة الحكم إلى موظفين فاسدين عرضوا جميع المناصب والأحكام للبيع. لهذا خلعه القائد لكسموس عن العرش وغزا إيطاليا ليحاول تحية فلننتيان الثاني خلف

صفحة رقم : 4166

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

جراتيان وأخيه غير الشقيق عن ولاية الملك، ولكن ثيودوسيوس الأول الأكبر الإمبراطور الجديد على الشرق زحف غرباً، وهزم الغاصب، وثبت الشاب فلننتيان على عرشه في ميلان (388). وكان ثيودوسيوس من أصل أسباني، أظهر مواهبه الحربية ومهارته في القيادة أسبانيا، وبريطانيا، وتراقية. وكان قد أقنع القوط المنتصرين بالانضواء تحت لوائه بدل أن يحاربوه، وحكم الولايات الشرقية بحكمة وروية في كل شيء إلا في عدم تسامحه الديني؛ فلما تولى الملك روع نصف العالم بما اجتمع فيه من صفات متناقضة هي جمال خلقه، ومهابتة، وغضبه السريع ورحمته الأسرع، وتشريعاته الرحيمة، وتمسكه الصارم بمبادئ الدين القويم. وبينما كان الإمبراطور يقضي الشتاء في ميلان حدث في تسالونيكي (سالونيك) اضطراب كان من خصائص تلك الأيام. وكان سببه أن بثر يك Botheric نائب الإمبراطور في ذلك البلد قد سجن سائق عربية محبوب من أهل المدينة جزاء له على جريمة خلقية فاضحة، فطلب الأهلون إطلاق سراحه، وأبى بثر يك أن يجيبهم إلى طلبهم، وهجم الغوغاء على الحامية وتغلبوا عليها، وقتلوا الحاكم وأعوانه ومزقوا أجسامهم إرباً، وطافوا بشوارع المدينة متظاهرين يحملون أشلاءهم دلالة على ما أحرزوه من نصر. ولما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع ثيودوسيوس فاستشاط غضباً وبعث بأوامر سرية تقضي بأن يحل العقاب بجميع سكان تسالونيكي. فدعى أهل المدينة إلى ميدان السباق لمشاهدة الألعاب، ولما حضروا انقض عليهم الجند المترصدون لهم وقتلوا منهم سبعة آلاف من الرجال والنساء والأطفال، (390)(12). وكان ثيودوسيوس قد بعث بأمر ثان يخفف به أمره الأول ولكنه وصل بعد فوات الفرصة. وارتاع العالم الروماني لهذا الانتقام الوحشي وكتب الأسقف أمبروز Ambrose الذي كان يجلس على كرسي ميلان ويصرف منه على شؤون الأبرشية

صفحة رقم : 4167

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

الدينية بالجرأة والصلابة الخليقتين بالمسيحية الحقه، كتب إلى الإمبراطور يقول إنه (أي الأسقف) لا يستطيع بعد ذلك الوقت أن يقيم القداس في حضرة الإمبراطور إلا إذا كفر ثيودوسيوس عن جرمه هذا أمام الشعب كله. وأبى الإمبراطور أن يحط من كرامة منصبه بهذا الإذلال العلني وإن كان في خبيثة نفسه قد ندم على ما فعل، وحاول أن يدخل الكنيسة، ولكن أمبروز نفسه سد عليه الطريق، ولم يجد الإمبراطور بداً من الخضوع بعد أن قضى عدة أسابيع يحاول فيها عبثاً أن يتخلص من هذا المأزق، فجرد نفسه من جميع شعائر الإمبراطورية، ودخل الكنيسة دخول التائب الذليل، وتوسل إلى الله أن يغفر له خطاياه (390). وكان هذا الحادث نصراً وهزيمة تاريخيين في الحرب القائمة بين الكنيسة والدولة.

ولما عاد ثيودوسيوس إلى القسطنطينية تبين أن فالنتينيان الثاني؛ وهو شاب في العشرين من عمره، عاجز عن حل المشاكل التي تحيط به. فقد خدعه أعوانه وجمعوا السلطة كلها في أيديهم المرتشية، واغتصب أربوجاست Arbogast الفرنسي الوثني قائد جيشه المرابط السلطة الإمبراطورية في غالة، ولما قدم فلنتينيان إلى فين ليؤكد فيها سيادته قتل غيلة (292). ورفع أربوجاست على عرش الغرب تلميذاً وديعاً سلس القيادة يدعى أوجينوس Eugenius وبدأ بعمله هذا سلسلة من البرابرة صانعي الملك. وكان أوجينوس مسيحياً؛ ولكنه كان وثيق الصلة بالأحزاب الوثنية في إيطاليا إلى حد جعل أمبروز يخشى أن يصبح يوليانياً ثانياً. وزحف ثيودوسيوس مرة أخرى نحو الغرب ليعيد إلى تلك الأنحاء السلطة الشرعية ويردها إلى الدين القويم. وكان تحت لوائه جيش من الهون والقوط، والألاني، وأهل القوقاز، وأيبيريا، وكان من بين قواده جيناس Gainas القوطي الذي استولى فيما بعد على القسطنطينية، واستلكو الوندالي الذي دافع في المستقبل عن روما، وألريك القوطي الذي نهبها. ودارت بالقرب من أكويليا معركة

صفحة رقم : 4168

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

دامت يومين، هزم فيها أربوجاست وأوجينوس (394)؛ فأما أوجينوس فقد ذبح بعد أن أسلمه جنوده، وأما أربوجاست فقد قتل نفسه بيده. واستدعى ثيودوسيوس ابنه هونوريوس Honorius وهو غلام في الحادية عشرة من عمره ليقمه إمبراطور على الغرب، ورشح ابنه أركاديوس Arcadius البالغ من العمر ثماني عشر سنة ليكون إمبراطور معه على الشرق ثم مات بعدئذ في ميلان منهوكاً من كثرة الحروب (395) ولما يتجاوز الخمسين من عمره. وانقسمت بعد موته الإمبراطورية التي طالما وحدها، ولم يجتمع شملها مرة أخرى بعد ذلك الوقت إلا في فترة قصيرة تحت حكم جستنيان.

وكان ولداً ثيودوسيوس شخصين ضعيفين مخنثين، درجا في مهد الأمن والدعة الموهن للعزيمة، فلم يكونا خليقين بأن يوجها سفينة الدولة فيما يحيط بها من عواصف، وإن كانت أخلاقهما لا تقلان طيبة عن نواياهما. وسرعان ما أفلت زمام الأمور من أيديهما، وأسلما أعمال الدولة الإدارية والسياسة - إلى وزيرهما - إلى روفينوس Rufinus المرتشي الشره في الشرق، وإلى استلكو القدير المجرد من الضمير في الغرب. ولم يلبث هذا الشريف الوندالي أن زوج ابنته مارية Maria بهونوريوس في عام 398 راجياً أن يصبح بهذا الزواج جداً لإمبراطور وصهراً لآخر. ولكن

هونوريوس أثبت أنه مجرد من العاطفة تجره من الفطنة، فكان يقضي وقته في إطعام الدجاج الإمبراطوري ويحبو هذا الدجاج بحبه وعطفه، حتى ماتت مارة عذراء بعد أن لبثت زوجة عشرة سنين (13). وكان ثيودوسيوس قد جعل القوط يجنحون إلى السلم باستخدامهم في الحرب، وبتقديم معونة سنوية من المال لهم بوصفهم حلفاء له؛ ولكن خلفه قطع عنهم هذه المعونة، ولما جاء استلكو سرح جنوده الوط؛ وقام المحاربون المتعطلون يطلبون المال والمغامرات وهيا لهم ألريك زعيمهم الجديد كليهما واستعان على ذلك

صفحة رقم : 4169

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

بمهارة بزَّ بها الرومان في الحرب وفي السياسة على السواء، وقال لأتباعه إنه لا يدري كيف يخضع القوط ذور الأنفة والرجولة ويعملون أجزاء عند الرومان أو اليونان الضعفاء المنهوكين، بدل أن يعتمدوا على بسالتهم وقوة سواعدهم فيقتطعوا من الإمبراطورية المتداعية المحتضرة مملكة لهم؟ وقاد ألريك في السنة التي مات فيها ثيودوسيوس قوط تراقية كلهم تقريباً وزحف بهم على بلاد اليونان، واجتاز ممر ترموبيلي دون أن يلقي مقاومة، وذبح كل من لقي في طريقه من الرجال الذين في سن العسكرية، وسبى النساء، وخرّب بلاد البلوبونيز، ودمر هيكل دمنتر في إليوسيز، ولم يبق على أثينة إلا بعد أن افتدت نفسها بقدية استنفدت معظم ثروتها غير العقارية (393). وجاء استلكو لينقذها ولكنه وصل إليها بعد فوات الفرصة، فاستدرج القوط إلى موقع غير حصين، ولكن ثورة شبت في إفريقية اضطرتة إلى أن يعقد معهم هدنة عاد بعدها إلى العرب. ثم وقع ألريك ميثاق حلف مع أركاديوس أجاز فيه ثانيهما للأول أن يستقر أتباعه من القوط في إبيروس، وبسط السلم لواءه بعدئذ على الإمبراطورية أربع سنين. وفي هذه السنين الأربع ألقى سينيوس القوريني، وهو أسقف نصف مسيحي ونصف وثني، خطاباً في القسطنطينية أمام حاشية أركاديوس المترفة وصف فيها في وضوح وقوة المشكلة التي تواجهها روما وبلاد اليونان والتي لا بد لها أن تختار فيها واحدة من اثنتين. وكان مما قاله في هذه الخطبة: كيف تستطيع الإمبراطورية البقاء إذا ظل أهلها يتهربون من الخدمة العسكرية، ويكلون الدفاع عنها إلى الجنود المرتزقة، تجندهم من الأمم التي تهدد كيائها؟ وعرض على الولاة الأمور أن يضعوا حداً للترف والنعيم، وأن يجيشوا جيشاً من أهل البلاد بالتطوع أو التجنيد الإجباري يدافع عنها وعن حريتها؛ وأهاب بأركاديوس وهونوريوس أن ينفضا عنهم غبار الخمول وأن يوجها ضربة قاصمة إلى جموع البرابرة الوقحين الذين في داخل الإمبراطورية، وأن يردوهم إلى مراتبهم

صفحة رقم : 4170

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

وراء البحر الأسود ونهري الدانوب والرلين. وصفق رجال الحاشية إعجاباً بما حواه خطاب سينيبيوس من عبارات منمقة بليغة، ثم عادوا من فورهم إلى ولائهم (14) وكان أليك في هذه الأثناء يرغم صناع الأسلحة في أبيروس على أن يصنعوا لرجاله القوط كل ما هم في حاجة إليه من الحراب والسيوف والخوذ والدروع. وفي عام 401 غزا إيطاليا، بعد أن نهب كل ما مر ب في طريقه من البلاد، وهرع آلاف من اللاجئين إلى ميلان ورافنا، ثم فروا منهما إلى روما. واحتفى الزراع في داخل المدن المسورة، وجمع الأغنياء كل ما استطاعوا نقله من ثروتهم، وحاولوا وهم في شدة الذعر أن يعبروا البحر إلى كورسكا، وسردينية، وصقلية. ووجد استلكو ولايات الدولة من حامياتها ليجمع منها جيشاً يستطيع صد تيار القوط الجارف، وانقض به عليهم في بولنتيا Pollentia في صباح يوم عيد القيامة من عام 402 حين وقفوا أعمال النهب ليؤدوا الصلاة. ونشبت بين الجيشين معركة لم تكن فاصلة، ارتد على أثرها أليك إلى روما التي لم تكن فيها من يدافع عنها، ولم يغادر إيطاليا إلا بعد أن نفحه هونوريوس برشوة سخية.

وكان الإمبراطور الوجل قد فكر أثناء زحف أليك على ميلان أن ينقل عاصمته إلى غالة، أما الآن فقد أخذ يبحث له عن مكان آخر أعظم منها أمناً، فوجد ذلك المكان في رافنا، التي جعلها المناقع والبحيرات الضحلة، منيعة من البر، والشواطئ الرقافة مستعصية على العدو من جهة البحر. ولكن العاصمة الجديدة أخذت ترتجف من الخوف كالعاصمة القديمة حين زحف رديسيوس Radagaisus البربري بجيش تبلغ عدته مائتي ألف مقاتل من الألائي، والكوادي، والقوط الشرقيين، والوندال، وعبر بهم جبال الألب، وهاجم مدينة فلورنتيا الناشئة. وفي هذه العصيبة برهن استلكو مرة أخرى على براعته في القيادة، فهزم الجحفل المختلط بجيش أقل منه عدداً، وساق رديسيوس مكبلاً بالأغلال أمام هونوريوس، وتنفست إيطاليا الصعداء مرة أخرى، وعادت

صفحة رقم : 4171

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> الأباطرة المنقذون

حاشية الإمبراطور، من أشرف وأميرات، وأساقفة، وخصيان، وطيور داجنة وقواد إلى ما ألفتته من ترف، وفساد، وفساد. وكان أولمبيوس وزير الإمبراطور، يغار من استلكو ويرتاب في نواياه. فقد ساءه أن يتغاضى القائد العظيم، كما بدا له، عن هرب أليك المرة بعد المرة. وخيل إليه أنه قد كشف ما بين القائد الألماني والغزاة الألمان من عطف كامن. واحتج على الرشا التي نفع بها أليك أو وعد بها بناء على طلب استلكو. وتردد هونوريوس في إقصاء الرجل الذي لبث ثلاثة وعشرين عاماً يقود جيوش روما من نصر إلى نصر، والذي أنجى الغرب مما كان يتهدده من أخطار؛ فلما أن أفتعه أولمبيوس بأن استلكو ياتمر به ليجلس ابنه هو على العرش، وافق الشاب الوجل على قتل قائده، وأرسل أولمبيوس من فوره سرية من الجند لينفذوا قرار الإمبراطور. وأراد أصدقاء استلكو أن يقاوموا ولكنه أمرهم ألا يفعلوا ومد رقبته للسياق (408). وبعد بضعة أشهر من هذا الحادث عاد أليك إلى إيطاليا.

صفحة رقم : 4172

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

الفصل الثالث

ما كان يحدث في إيطاليا

كانت الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الرابع تطالعا بصورة معقدة مركبة من الانتعاش والاضمحلال، ومن النشاط والعقم الأدبي، ومن الأبهة السياسية والانحلال العسكري. وكانت غالة في هذه الأثناء تزدهر ويعمها الرخاء، وتنازع إيطاليا في جميع الميادين؛ فقد كان عدد الغالين في الإمبراطورية عشرين مليوناً أو يزيدون من سكانها الذين يقرّبون من سبعين مليوناً، في حين أن الإيطاليين لا يكادون يبلغون ستة ملايين (15)؛ وأما من عدا هؤلاء وأولئك فكانت كثرتهم من الشرقيين الذين يتكلمون اللغة اليونانية. وقد استحوذت روما نفسها منذ بداية القرن الثاني بعد الميلاد مدينة شرقية من الأجناس التي تسكنها. لقد كانت روما من قبل تعتمد في حياتها على الشرق كما كانت أوروبا الحديثة تعتمد في حياتها على فتوحها ومستعمراتها إلى أواسط القرن العشرين، وكانت الفيالق الرومانية تستحوذ على غلات ولاياتها التي تزيد على عشرة، وتنتزع منها معادنها الثمينة التي كانت تنساب في قصور الظافرين وخزائنهم. أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد انقضى عهد الفتوح وبدأ عهد التقهقر والتراجع، واضطرت إيطاليا إلى الاعتماد على مواردها البشرية والمادية التي اضمحلت اضمحلالاً يندب بأشد الأخطار من جراء تحديد النسل، والقحط والوباء، والضرائب الفادحة، والإتلاف والحرب. ولم تزدهر الصناعة يوماً ما في شبه الجزيرة الصقلية؛ ولأن وقد أخذت تقف أسواقها في الشرق وفي غالة، لم يعد في وسعها أن تعول سكان المدن الذين كانوا يحصلون على الكفاف من العيش بالكدح في الحوانيت وفي البيوت. وكانت الكلجيا Cellegia أو نقابات أصحاب الحرف تعاني الأمرين

صفحة رقم : 4173

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

من جراء عجز أفرادها عن بيع أصواتهم في دولة ملكية مطلقة كان التصويت فيها نادراً. وكسدت التجارة الداخلية، وانتشر قطاع الطرق، وأخذت الطرق التي كانت من قبل مضرب الأمثال في العظمة تضمحل وتتحطم وإن ظلت وقتئذ أحسن من أي طريق في العالم كله قبل القرن التاسع عشر. وكانت الطبقات الوسطى قبل ذلك الوقت عماد حياة المدن في إيطاليا؛ أما الآن فقد ضعفت هي الأخرى من جراء الانحلال الاقتصادي والاستغلال المالي؛ فقد كان كل ذي مال يخضع لضرائب مطردة الزيادة لإعالة بيروقراطية أخذة

في الاتساع، وأهم ما تقوم به من الأعمال هو جباية الضرائب. وكان الهجاءون الفكهون حين يشكون من هذه الحال يقولون إن "الذين يعيشون على الأموال العامة أكثر عدداً من الذين يمدونهم بهذه الأموال" (16). وكانت الرشا تستنفد الكثير مما يجبي من الضرائب؛ وسن ألف قانون وقانون لمقاومة اختلاس إيرادات الحكومة أو أملاكها، والكشف عن هذه الاختلاسات ومعاقبة مرتكبيها، وكان الكثير من الجباة يفرضون على البسطاء أكثر مما يجب أن يؤديه؛ ويحتفظون بالزيادة لأنفسهم؛ وكان في وسعهم في مقابل هذا أن يخففوا الضرائب عن الأغنياء نظير جعل يأخذونه منهم (17).

وكان الأباطرة يبذلون غاية جهدهم لكي تراعى الأمانة في جبايتها؛ من ذلك أن فلنتيان الثاني عين في كل بلدة موظفاً يسمى "المدافع عن المدينة" ليحامي أهلها من حيل الجباة، وأعفى هونوريوس المدن التي كانت تعاني الأزمات المالية مما كان متأخراً عليها من الضرائب. ومع هذه فإن بعض سكان المدن - إذ صدقنا قول سلفيان - Salvian - كانوا يفرون إلى خارج الحدود ليعيشوا تحت حكم الملوك البرابرة الذين لم يتعلموا بعد فن جباية الضرائب كاملاً؛ فقد بدا لهم أن عمال الخزنة أشد رهبة من العدو" (18). وكان من أثر هذه الظروف أن قلت الرغبة في النسل فأخذ عدد السكان النقصان، وبقيت آلاف الأفدنة من الأراضي

صفحة رقم : 4174

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

الصالحة للزراعة بوراً لا تجد من يفلحها، فنشأ من ذلك فراغ اقتصادي اجتمع إلى ما بقي في المدن من ثروة فأدى إلى اجتذاب البرابرة الذين كانوا في أشد الحاجة إلى تلك الأرض. ووجد كثيرون من أصحاب الأراضي الزراعيّة أنهم عاجزون عن أداء الضرائب أو الدفاع عن مساكنهم ضد الغزاة أو اللصوص، فتخلوا عن أملاكهم لمن هم أكبر منهم من الملاك أو أعظم قوة، وعملوا عندهم زراعاً (Coloni)، وأخذوا على أنفسهم يقدموا لسادتهم قدراً معيناً من غلة الأرض ومن العمل والوقت، وعلى أن يضمن لك أولئك السادة ما يكفيهم من العيش، ويحموهم في وقتي السلم والحرب. وبهذا كانت إيطاليا، التي لم تعرف فيما بعد الإقطاع بمعناه الكامل، من أوائل الأمم التي عدت أسس هذا الإقطاع. وكانت خطة شبيهة بهذه تحدث في مصر وإفريقية وغالة.

وكان الاسترقاق أخذاً في الزوال على مهل، وسبب ذلك ألا شيء في الحضارة الراقية يعدل أجر الرجل الحر أو مرتبه أو مكتسبة من حيث هو دافع اقتصادي للعمل والإنتاج. ولم يكن كدح الأرقاء مجزياً من هذه الناحية إلا حين يكثر عددهم؛ وكانت أعباء الاحتفاظ بهن قليلة؛ ولكن نفقات الحصول عليهم زادت حين لم تعد الفيالق الرومانية تنقل إلى بلادها ثمار النصر من الأدميين؛ يضاف إلى هذا أن فرار الأرقاء من سادتهم أصبح الآن أمراً يسيراً بسبب ضعف الحكومة؛ هذا إلى أنه كان لا بد من العناية بهم إذا مرضوا أو تقدمت بهم السن. ولما أن زادت تكاليف الأرقاء رأى سادتهم أن يحافظوا على الأموال التي استثمروها فيه بحسن معاملتهم له؛ ولكن أولئك الأسياد كان لا يزال لهم على عبيدهم حق الحياة والموت، وإن كان هذا الحق مقيداً ببعض القيود (19)، كما كان في مقدور السيد أن يستعين بالقانون للقبض على العبد الأبق، وأن يشبع شهوته الجنسية مع من يهوى منهم رجالاً كانوا أو نساءً؛ وهل أدل على هذا من أن بولينوس البلاتي Paulinus of Pella كان يفخر بطهارة ذيله في شبابه

صفحة رقم : 4175

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

حين "كبحت جماح شهواتي... فلم أستجيب لعشق امرأة حرة... واكتفيت بالإماء اللاتي كن في بيتي" (20). وكان معظم الأغنياء يعيشون الآن في بيوتهم الريفية بمنجاة من ضجيج المدن وغوغائها، غير أن الجزء الأكبر من ثروة إيطاليا كان لا يزال ينصب في روما؛ ولم تكن المدينة العظيمة، كما كانت من قبل، عاصمة الدولة، ولما كانت ترى الإمبراطور، ولكنها ظلت مركز الحياة الاجتماعية والذهنية في الغرب. وفي روما كانت أعلى درجات الطبقة الأرستقراطية الإيطالية الجديدة. ولم تكن هذه، كما كانت من قبل، طبقة وراثية، بل كانت طائفة يختارها الأباطرة بين الفينة والفينة على أساس الملكية العقارية. وكان أعضاء مجلس الشيوخ يعيشون بأعظم مظاهر الأبهة والفخامة وإن كان مجلسهم قد فقد بعض هيئته وكثيراً من سلطانه. وكانوا يشغلون بعض المناصب الإدارية الهامة ويظهرون فيها كثير من المقدرة والكفاية، ويقومون الألعاب العامة على نفقتهم الخاصة. وكانت بيوتهم غاصة بالخدم مملوءة بالأثاث الغالي الثمن، وليس أدل على ذلك من أن طنفسة واحدة قد كلفت صاحبها ما قيمته أربعمائة ألف ريال أمريكي (21). وتكشف رسائل سيماركوس Symmacus وسيدنيوس Sidonius. كما يكشف شعر كلوديان عن الناحية الطبية من حياة أولئك الأشراف الجدد، وما تمتاز به من نشاط اجتماعي وثقافي، وخدمة للدولة وولاء لها؛ وما كان بينهم من صداقة ورقة، وإخلاص متبادل بينهم وبين أزواجهم، وحب لأبنائهم وعطف عليهم.

لكن قس من مرسيلية عاش في القرن الخامس قد صور الحالة في إيطاليا وغالة بصورة أقل جاذبية من الصورة السابقة. فقد عالج سلفيان Salvian في كتابه "عن حكومة الله" (حوالي 450) نفس المشكلة التي أوجت إلى أوغسطين بكتابه "مدينة الله" وإلى أورسيوس Aorsius بكتابه "التاريخ ضد الوثنيين" -وهي كيف يستطاع التوفيق بين الشرور الناجمة من غزوات البرابرة وبين

صفحة رقم : 4176

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

العناية الإلهية الرحيمة الخيرة؟ وقد أجاب سلفيان عن هذا السؤال بأن الآلام يقاسيها سكان الإمبراطورية إن هي إلا قصاص عادل لما كان متقسياً في العالم الروماني من استغلال اقتصادي، وفساد سياسي، واستهتار أخلاقي؛ ويؤكد لنا أننا لا نستطيع أن نجد بين البرابرة مثل ما نجده بين الرومان من ظلم الأغنياء للفقراء، لأن قلوب البرابرة أرق من قلوب الرومان؛ ولو أن الفقراء وجدوا وسيلة للانتقال لهاجروا بقضيمهم وقضيضهم ليعيشوا تحت حكم البرابرة (22). يواصل هذا الواعظ الأخلاقي وصفه فيقول إن الأغنياء والفقراء، والوثنيين والمسيحيين، في داخل الإمبراطورية كلهم غارقون في حمأة من الفساد لا يكاد التاريخ يعرف لها مثيلاً؛ فالزنى، وشرب الخمر قد أصبحا من الرذائل المألوفة في هذه الأيام، كما أضحت الفضيلة والاعتدال مثار السخرية ومبعث الآلاف من الفكاهات القذرة؛ وصار اسم المسيح لفظاً تدنسه أفواه الذين يسمونه إلهاً (23). ويمضي هذا التاسست Tacitus الثاني فيدعونا إلى أن ننظر إلى الفرق بين هذا كله وبين ما يتصف به الألمان من قوة وشجاعة، ومن مسيحية مليئة بالنقي خالية من التعقيد، ومن لين في معاملتهم

للرومان المغلوبين، ومن ولاء متبادل بينهم، ومن عفة قبل الزواج، ووفاء بعده. لقد ذهل جيسريك Gaiseric الزعيم الوندالي إذ وجد حين استولى على قرطاجنة المسيحية أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة، فما كان منه إلا أن أغلق هذه المواخير وخير العاهرات بين الزواج والنفي. وجملة القول أن العالم الروماني سائر إلى الانحطاط جسيماً، وقد فقد كل ما كان يتصف به من شجاعة أدبية، وترك الدفاع عنه إلى الأجانب المأجورين. ويختتم سلفيان هذا الوصف بقوله إن الإمبراطورية الرومانية "إما أن الكون قد ماتت وإما أنها تلفظ آخر أنفاسها"؛ وإذ كنا نراها في ذروة ترفها وألعابها، فإنها تضحك حين تموت (24Moritur et ridet).

صفحة رقم : 4177

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

تلك هي صورة مروعة، ظاهر فيها الغلو، لأن البلاغة قلما تصحبها الدقة، وما من شك في أن الفضيلة قد توارت حياء في ذلك الوقت كما تتوارى الآن، وأفسحت الطريق للرديلة، والبؤس، والسياسة، والجريمة. ويرسم أوغسطين صورة لا تقل عن هذه الصورة قتاماً يهدف بها إلى مثل هذه الغاية الأخلاقية؛ فهو يشكو من أن الكنائس كثيراً ما تخلو من المصلين لأن البنات الراقصات في دور التمثيل يجتذبن الناس منها بما يعرضنه من فتنتهن السافرة (25). وكانت الألعاب العامة لا تزال تشهد قتل الأسرى والمجرمين ليستمتع الناس بهذه المناظر البشعة في أعيادهم. وفي وسعنا أن نتصور ما في هذه المناظر من قسوة حين نقرأ ما يقوله سيماكوس من أنه أنفق ما قيمته 900.000 ريال أمريكي في إقامة حفلة واحدة، ومن أن المجالدين السكسون التسعة والعشرين الذين وقع الاختيار عليهم ليقاتلوا في المجتلد قد فوتوا عليه غرضه بأن خنقوا بعضهم بعضاً فانتحروا جميعاً قبل أن تبدأ الألعاب (26). وكان لروما في القرن الرابع 175 عيداً في العام، منها عشرة تقام فيها مباريات المجالدين، وأربعة وستون تعرض فيها ألعاب الوحوش، وما بقي منها بعد ذلك تعرض فيه مناظر في دور التمثيل (27). واغتنم البرابرة فرصة ولع الرومان بهذه المعارك الزائفة فانقضوا على قرطاجنة، وأنطاكية، وترير Trier حين كان الأهلون منهمكين في مشاهدتها في المدرجات أو حلبات اقتتال الوحوش (28). وحدث في عام 404 أن أقيمت في روما ألعاب للمجالدين احتفالاً بذكرى انتصار استلكو في بولنتيا نصرأ مشكوكاً فيه. وحين بدأ الدم يراق قفز راهب شرقي يدعى تلمكس Telemachus من قاعدة النظارة إلى المجتلد ونادي بوقف القتال. ولكن النظارة استشاطوا غضباً فأخذوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه؛ وأثر هذا المنظر في الإمبراطور هونوريوس فأصدر مرسوماً بإلغاء

صفحة رقم : 4178

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

ألعاب المجالدين . أما السباق فقد بقي حتى عام 549 حين قضى عليه استنزاف الحروب القوطية لثروة المدن . أما من الناحية الثقافية فلم تشهد روما منذ أيام بلني وتاستوس عصرأ نشطت فيه الثقافة مثل ما نشطت في ذلك الوقت . لقد كان كل إنسان مولعاً بالموسيقى حتى لقد شكوا أميانوس(29) من أنها قد حلت محل الفلسفة، وأنها قد "حولت الكتب إلى مقابر"؛ وهو يصف لنا أراغن مائة ضخمة، وقيثارات في حجم المركبات . وكانت المدارس كثيرة العدد، ويقول سيماكوس إن كل إنسان كان يجد الفرصة سانحة لتنمية ملكاته(30). وكانت "جامعات" الأساتذة الذين تؤدي لهم الدولة روايتهم تعلم النحو، والبلاغة، والأدب، والفلسفة لطلاب جاؤوا إليها من جميع الولايات الغربية، وذلك في الوقت الذي كان فيه البرابرة المحيطون بالدولة يدرسون فنون الحرب . إن كل حضارة ثمرة من ثمار شجرة الهمجية الصلبة وهي تسقط حين تسقط عند أبعد نقطة من جرع هذه الشجرة .

وجاء إلى المدينة التي يبلغ عدد سكانها مليوناً من الأنفس حوالي عام 365 يوناني سوري، كريم المحتد، وسيم الخلق، يدعى أميمانوس مرسلينوس الإنطاكي . وكان من قبل جندياً تحت قيادة أرسينوس Ursinus في أرض الجزيرة، واشترك بنشاط في حروب قنسطنطيوس ويوليان وجوفيان . وقد عاش هذا الرجل عيشة الجد والعمل قبل أن يشتغل بالكتابة . ولما عاد السلام إلى ربوع الشرق ارتحل إلى روما وأخذ على عاتقه إتمام العمل الذي بدأه ليفي وتاستوس، وذلك بكتابة تاريخ الإمبراطورية من عهد نيفا إلى عهد فالنر . وكتب بلغة لاتينية عسيرة معقدة، تشبه اللغة الفرنسية إذا ما كتبها ألماني؛ وكان من أسباب هذا العسر والتعقيد في

صفحة رقم : 4179

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

كتاباته كثرة ما قرأه من كتابات تاستوس وطول الزمن الذي كان يتكلم فيه اللغة اليونانية . وكان هذا الرجل وثيقاً سافراً، من المعجبين بيوليان، ومن الذين يزدرون الترف الذي كان يعزوه إلى أساقفة روما؛ ولكنه رغم هذا كله كان بوجه عام منزهاً عن الهوى فيما كتب، يمتدح كثيراً من فضائل المسيحية، ويلوم يوليان على تقييده الحرية العلمية، ويقول إن هذا خطأ يجب "أن يقضى عليه بالسكوت الأبدي"(31). وكان قد حصل من العلم أقصى ما يسمح وقت الجندي له بتحصيله . وكان يؤمن بالشياطين والسحر، ويقتبس من شيشرون أكبر المعارضين للقدرة على معرفة الغيب مما يؤيده به هذه العقيدة(32). ولكنه كان إلى حد كبير رجلاً شريفاً لا يداجي ولا يجامل، عادلاً مع جميع الناس وجميع الأحزاب؛ "لا أزين قصتي بالألفاظ الخداعة، أمين على الحقائق إلى أبعد حدود الأمانة"(33). وكان يكره الظلم، والبذخ، والمظاهر الكاذبة، ويجهر برأيه فيها أينما وجدت؛ وكان آخر المؤرخين اليونان والرومان الأقدمين، وكان كل من جاء بعده في العالم اللاتيني مجرد إخباريين .

لكن مكروبيوس Macerobius قد وجد في هذه المدينة نفسها، أي في روما، التي كانت أخلاقها في نظر أميانوس وضيفة متعاطمة فاسدة، مجتمعاً من الناس، يجمعون ثراءهم باللطف والكياسة، والثقافة، ومحبة الناس . وكان مكروبيوس هذا في أول الأمر من رجال العلم مولعاً بالكتب وبالحياة الهادئة، لكننا نجده في عام 399 يعمل مبعوثاً للإمبراطور في أسبانيا . وقد أصبح تعليقه على كتاب شيشرون المسمى "أحلام سيبو" الوسيلة التي انتقل بها تصوف الأفلاطونية الجديدة وفلسفتها إلى عامة الشعب . وخير كتبه على الإطلاق هو كتاب الساترناليا Saturnalia أو عيد زحل الذي لا يكاد كتاب تاريخي في الخمسة عشر قرناً الأخيرة يخلو من مقتبسات منه . وهو مجموعة من (غرائب الأدب) أورد فيه المؤلف ما حصله من معلومات غير متجانسة في أيام جده ودراسته،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

ولباليه الطوال التي قضاها ينقب في بطون الأسفار. وقد تفوق في كتاباته على ألويس جليوس Oulus Gellius في الوقت الذي كان يسطو عليه، ذلك بأنه صاغ المادة التي أخذها عنه في صورة حوار خيالي بين رجال حقيقيين هم بريكتستاتوس Proetextatus وسيماخوس Symmachus، وفلافيان، وسرفيوس وغيرهم ممن اجتمعوا ليحتفلوا بعيد الساترناليا بالخمير الطيب، والطعام الشهى، والنقاش العلمي. وألقيت في هذا النقاش على الطبيب ديزاريوس Disarius أسئلة علمية منها: هل الطعام البسيط خير من الطعام المتعدد الألوان؟ ولم يندر أن ترى امرأة سكرى؟ ولم يسكر المسنون من الرجال على الدوام؟ هل طبيعة الرجال أقل أو أكثر حرارة من طبيعة الناس؟. ويدور النقاش حول التقويم، وفيه تحليل طويل لألفاظ فرجيل، ونحوه، وأسلوبه، وفلسفته، وسرقاته؛ وفيه فكاهات مأخوذة من جميع العصور، ورسالة عن الولايم الدسمة، والأطعمة النادرة. وتبحث في المساء مسائل أخف من هذه يتسلى بها هؤلاء العلماء منها: لم تحمر وجوهنا من الخجل وتصفر من الخوف؟-ولم يبدأ الصلح من أعلى الرأس؟ وأيها أسبق من الآخر الفرخ أو البيضة؟

ونجد في مواضع متفرقة من هذا الخليط المهوش فقرات سامية كالتالي يتحدث فيها بريكتستاتوس عن الرق فيقول: لن أقدر الناس بمراكزهم بل بأدابهم وأخلاقهم، لأن الثانية ثمرة طباعنا أما الأولى فهي نتيجة الصدفة.. وينبغي لك يا إفتجيلوس أن تبحث عن أصدقائك في منزلك لا في السوق العامة ولا في مجلس الشيوخ. عامل عبدك بالرفق والحسن، وأشركه في حديثك، وأدخله أحياناً في مجالسك الخاصة. وقد عمل أبائنا على محو الكبرياء من نفس السيد والخجل من نفس العبد بأن سموا الأول "والد الأسرة" وسموا الثاني "أحد أفراد الأسرة" وإن عبيدك ليبادرون إلى احترامك أكثر من مبادرتهم إلى خوفك(35).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

وكانت ندوة شبيهة بهذه الندوة هي التي رحبت في عام 394 بأن ينضم إليها شاعر شاعت الأقدار أن يتغنى بمجد روما في ساعة احتضارها. ولد كلوديوس كلوديانوس Claudius Claudianus كما ولد أميانوس، في بلاد الشرق، وكانت لغته الأصلية هي اللغة اليونانية. ولكنه تعلم اللاتينية بلا ريب في حدائه سنة، لأنه كان يكتب بها أسلوب سلس. وبعد أن أقام في روما زمناً قصيراً نزع إلى ميلان، واستطاع أن يجد له مكاناً في أركان حرب استلكو، ثم صار شاعراً غير رسمي لبلاط الإمبراطور هونوريوس، وتزوج سيدة ذات ثراء من أسرة شريفة. وكان كلوديوس يترقب أن تواتيه الفرصة الكبرى ولا يجب أن يموت وهو خامل الذكر. ولذلك كان يمدح استلكو بقصائد عصماء ويهاجم

أعداءه بقصائد أخرى حوت أفذع الألفاظ. وعاد إلى روما في عام 400 ولقي منها أعظم آيات الشكر والترحاب حين مدح المدينة الخالدة في قصيدة "عن قنصلية استلكو" لا تقل روعة عن قصائد فرجيل نفسه: أيا قنصل الناس جميعاً، ويا من تضارع الآلهة في المنزلة، وأنت حامي المدينة التي لا تدانيها مدينة يحيط بها الهواء الذي على سطح الأرض، ولا تبلغ مداها العين، ولا يتصور جمالها الخيال، ولا يوفيه صوت مهما علا حقها من الثناء. إنها ترفع هامتها الذهبية تحت ما جاورها من النجوم، وتحاكي بتلالها السبعة السبع السموات العلي. هي أم الجيوش والشرائع التي عننت لجبروتها الأرض بأجمعها وكانت أقدم مهد للعدالة على ظهر الأرض. تلك هي المدينة التي نشأت نشأة متواضعة، ولكنها امتدت إلى القطبين وبسطت سلطانها من مكانها الصغير حتى بلغ مداه منتهى ما يصل إليه ضياء الشمس... فهي دون غيرها من البلاد قد فتحت صدرها لاستقبال من غلبتهم على أمرهم، وعاملت الجنس البشري معاملة الأم الرؤوم لا معاملة الحاكم المتعطرس، فحمته وخلعت عليها اسمها، ودعت من هزمتهم إلى مشاركتها في حقوق المواطنة، وربطت الشعوب البعيدة برباط

صفحة رقم : 4182

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

المحبة. وبفضل حكمها السلمي أصبح العالم كله وطناً لنا، نعيش فيه أينما شئنا، وأصبح في مقدورنا أن نزر ثول Thule ونرتاد براريها التي كانت من قبل تقذف الرعب في القلوب، والتي أصبح ارتيادها الآن نزهة هينة، وبفضلها يستطيع كل من أراد أن يشرب من مياه الرون ويعب من مجرى نهر العاصي، وبفضلنا صرنا كلنا شعباً واحداً (36). وأراد مجلس الشيوخ أن يعبر لكلوديوس عن شكره واعتزافه بفضلته فأقام في سوق تراجان تمثالاً "لأجل الشعراء" الذي جمع بين سلاسة فرجيل، وقوة هومر. وقضى كلوديان بعض الوقت يقرض الشعر في موضوعات تدر عليه المال، ثم وجه مواهبه وجهة أخرى فأنشأ قصيدته "اغتناب بسبرين Brosperine" وقص فيها القصة القديمة وصور البر والبحر وأسبغ على تلك الصورة من رقيق النغم ما يعيد إلى الذاكرة روايات الحب اليونانية في العصر الذي ظهرت فيه أول مرة. وبلغه في عام 408 أن استلكو قد قتل غيلة، وأن الكثيرين من أصدقاء هذا القائد قد قبض عليهم وأعدموا. واختفى الرجل بعدئذ من ميدان التاريخ فلم نعرف باقي قصته. وبقيت في روما كما بقيت في الإسكندرية أقبليات وثنية كبيرة العدد، وكان فيها حتى نهاية القرن الرابع سبعمائة هيكل وثني (37). ويبدو أن جوفيان وفلنتيان الأول لم يغلقا الهياكل التي فتحها يوليان؛ فظل القساوسة الرومان حتى عام 394 يجتمعون في مجامعهم المقدسة، وظلت أعياد اللوبركاليا يحتفل بها بكل ما فيها من شعائر نصف همجية، كما ظلت الطريق المقدسة تتردد فيها بين الفينة والفينة أصداء خوار الأتوار التي تساق للضحية. وكان أعظم الناس إجلالاً بين الوثنيين في روما في أيامها الأخيرة هو فتيوس برينكستاتوس، زعيم الأقلية الوثنية في مجلس الشيوخ. وكان الناس جميعاً يعترفون بفضائله باستقامته، وعلمه، ووطنيته، وحياته العائلية اللطيفة. ومن

صفحة رقم : 4183

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

الناس من يقول إنه يماثل كاتو وسنسناطوس Cincinnatus؛ ولكن الزمان يذكر أكثر منه صديقه سيماخوس (345-410)، الذي ترسم رسائله صورة رائعة ساحرة للأرستقراطية التي كانت تظن نفسها مخلدة وهي تحتضر. وحتى أسرته نفسها قد بدت أنها من المخلدين: فقد كان جده قنصلاً في عام 364، وكان هو نفسه حاكماً في عام 384، وقنصلاً في عام 391. وكان ابنته بريتورا، وحفيده قنصلاً في عام 485 بعد وفاة جده، وكان اثنان من أحفاده قنصلين في عام 522. وكان هو ذا ثروة طائلة؛ فقد كانت له ثلاثة قصور ريفية بالقرب من روما، وسبعة أخرى في لاتيوم، وخمسة على خليج نابلي، فضلاً عن قصور أخرى مثلها في أماكن أخرى من إيطاليا؛ ويفضل هذه القصور "كان في وسعه أن يسافر من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها ثم يأتي إلى منزله في كل مكان يحل به (38)". ولا يذكر لنا التاريخ أن أحداً من الناس كان يحسده على ثروته، لأنه كان ينفق منها بسخاء وينميها بحياة الدرس، والخدمة العامة، والأخلاق الفاضلة، وأعمال البر والإنسانية، التي لا تعرف فيها شماله ما تفعل يمينه. وكان من أصدقائه الأوفياء مسيحيون ووثنيون، وبرابرة رومان. ولعله كان يضع وثنيتته قبل وطنيته؛ فقد كان يظن أن الثقافة التي يمثلها ويستمتع بها وثيقة الصلة بالدين القديم، وكان يخشى أن يؤدي سقوط أيهما إلى سقوط كليهما. ويعتقد أن المواطن بإخلاصه للشعائر القديمة يحس أنه حلقة في سلسلة مترابطة متصلة أعجب اتصال-تمتد من رمبولوس إلى فلنتيان، وأن هذا الإخلاص يبعث في نفسه حب المدينة وحب الحضارة التي نشأت بفضل الأجيال المتعاقبة خلال ألف عام. وقد استحق كونتس أورليوس سيماخوس بفضل أخلاقه الطيبة أن يختاره مواطنوه ممثلاً لهم في آخر كفاحهم الرائع في سبيل آلهتهم.

وقد استطاع أميروز أن يجعل الإمبراطور جراتيان مسيحياً متحمساً لدينه، وأغراه تحمسه للدين القديم أن يعلن على الملأ أن العقيدة النيقية فريضة واجبة

صفحة رقم : 4184

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

على جميع الشعوب الخاضعة لحكمنا الرحيم"، وأن إبتاع غيرها من العقائد "مفتونون مسلوبو العقول" (39)، وفي عام 382 أمر ألا تؤدي خزانة الإمبراطورية أو خزائن البلديات أية إعانات لإقامة الاحتفالات الوثنية، أو للعداري الفستية أو الكهنة الوثنيين، ثم صادر الأراضي التي تملكها الهياكل، جماعات الكهنة، وأمر أتباعه بأن يرفعوا من قاعة مجلس الشيوخ في روما تمثال إلهة النصر الذي أقامه فيها أغسطس في عام 29 ق.م، والذي ظل اثنا عشر جيلاً من الشيخ يقسمون بين يديه يمين الولاء للإمبراطور؛ وانتدب مجلس الشيوخ وفداً برياسة سيماخوس يشرح لجراتيان قضية تمثال النصر هذا. ولكن جراتيان أبي أن يستقبل الوفد، وأمر ينفي سيماخوس من روما (382)؛ وفي عام 383 قتل جراتيان وبعث هذا الأمل في مجلس الشيوخ فأرسل وفداً إلى خليفته على العرش؛ وكانت الخطبة التي ألقاها سيماخوس بين يدي فلنتيان الثاني آية من آيات الدفاع البليغ، وكان مما قاله فيها إنه ليس من الحكمة في شيء أن يقضي هذا القضاء العاجل المفاجئ على شعائر دينية ظلت طوال ألف عام مرتبطة أشد الارتباط باستقرار النظام الاجتماعي وبهيبة الدولة، ثم قال: "ماذا يهمننا، في آخر الأمر، أي طريق يسلكا إنسان ليصل به إلى الحقيقة؟ والحق أن في وسع الناس أن يصلوا إلى معرفة هذا السر العظيم من طريق واحد" (40).

وتأثر فلنتيان الشاب بهذا القول، ويقول أمبروز إن من كان في المجلس الإمبراطوري من المسيحيين أنفسهم قد أشاروا على الإمبراطور بإعادة تمثال النصر إلى مكانه، ولكن أمبروز، وكان في ذلك الوقت غائباً في بعثة دبلوماسية الدولة، تغلب على المجلس برسالة قوية مليئة بالكبرياء والغطرسة أسلها إلى الإمبراطور. وعدد فيها حجج سيماخوس حجة بعد حجة، ثم دحضها كلها بما وهب من قوة وبلاغة. وقد حوت هذه الرسالة ما يعد في الواقع تهديداً

صفحة رقم : 4185

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> ما كان يحدث في إيطاليا

للإمبراطور بإخراجه من حظيرة الدين إذا أجاب الوفد إلى طلبه، "وقد يكون في وسعك أن تدخل الكنيسة ولكنك لن تجد فيها قسماً يستقبلك، أو أنك قد نجدهم فيها ليحرموا عليك دخولها" (41). وكان من أثر ذلك أن رفض فلنتيان طلب مجلس الشيوخ.

وبذل الوثنيون في إيطاليا مجهوداً آخر في عام 393، فأعلنوا الثورة وخاطروا في سبيل غايتهم بكل شيء. وكان ثيودوسيوس قد أبى أن يعترف بالإمبراطور يوجنيوس نصف الوثني، فرأى هذا الإمبراطور أن يستعين بوثني الغرب في دفاعه عن نفسه، فأعاد تمثال النصر إلى مكانه. وتباهى بقوله إنه حين تم له النصر على ثيودوسيوس سيربط خيله في الكنائس المسيحية. وسار نقوماكس خوس فلافيانوس Nicomachus زوج ابنة سيماخوس، على رأس جيش ليسانده يوجنيوس، فقامه الهزيمة وانتحر. وزحف ثيودوسيوس على روما، وأرغم مجلس الشيوخ على أن يعلن إلغاء الوثنية بجميع أشكالها (394). ولما نهب ألريك روما حسب الوثنيون أن ما أصاب هذه المدينة التي كانت من قبل سيده العالم من إذلال كان نتيجة غضب الآلهة الذين تخلت عنهم. وفككت حرب الأديان هذه وحدة الشعب. وحطمت قواه المعنوية، ولما أن وصل إليهم سيل الغزو الجارف لم يجدوا وسيلة يواجهونه بها إلا تبادل اللعنات والصلوات المتنافرة.

صفحة رقم : 4186

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

الفصل الرابع

عقب أولمبيوس على الأمر القاضي بقتل استلكو بأمر آخر يقضي بقتل آلاف من أتباعه ومنهم رؤساء فيالقه البربرية. وكان أريك يتحين الفرصة السانحة له وراء جبال الألب، فوجد في هذا فرصته السانحة ولم يدعها تغفلت من يده؛ فقال إن الربيعة الآلاف من الأبطال الذهبية التي وعد الرومان بأدائها إليه لم تصله بعد، وقال إنه في نظير هذا المال يرضى أن يقدم أنبل الشباب القوطي ضماناً لولائه في مستقبل الأيام. فلما رفض هونوريوس طلبه اجتازا جبال اللب ونهب أكوبيليا وكرمونا، وضم إليه ثلاثين ألفاً من الجنود المترقة الذين أغضبهم قتل زعمانهم، وزحف بطريق فلامنيوس حتى وصل إلى أسوار روما (408). ولم يلق في هذا الزحف مقاومة اللهم إلا من راهب واحد قال له إنه قاطع طريق، فرد عليه إريك بجواب حيره إذ قال له إن الله نفسه قد أمره بهذا الغزو. وارتاع مجلس الشيوخ كما ارتاع في أيام هنيبال، ودفعه الروع إلى ارتكاب أعمال وحشية. فقد ظن أن أرملة استلكو كانت تساعد أريك فأمر بقتلها؛ ورد أريك على هذا بقطع كل الطرق التي يمكن أن يصل منها الطعام إلى العاصمة، وسرعان ما أخذ الناس يموتون فيها من الجوع، وشرع الرجال يقتل بعضهم بعضاً، والنساء يقتلن أبنائهن ليتخذنهم طعاماً. وسار وفد من أهل المدينة إلى أريك ليسأله عن شروط الصلح، وهددوه بأن ألف ألف من الرومان على استعداد لمقاومته، فتبسم ضاحكاً من قولهم وأجابهم "كلما ازداد سمك القش كان حصده أيسر". ثم رق قلبه فرضى أن ينسحب إذا أعطى كل ما في المدينة من ذهب وفضة، وكل ما تحتويه من ثروة منقولة قيمة. ولما سأله المبعوثون: "وأى شيء بعد هذا يبقى لنا؟"

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

أجابهم في ازدياء: "حياتكم". وأثرت روما أن تمضي في المقاومة؛ ولكن الجوع اضطرها أن تطلب شروطاً جديدة للاستسلام؛ فقبل أريك منها 5000 رطل من الذهب وثلاثين ألف رطل من الفضة، وأربعة آلاف قباء من الحرير، وثلاثة آلاف من جلود الحيوان، وثلاثة آلاف رطل من الفلفل. وفي هذا الوقت عينه فر عدد لا يحصى من البرابرة الأرقاء من أسيادهم الرومان وانضموا تحت لواء أريك. وكان الأقدار شاعت أن تعوض الرومان عن هذه الخسارة، ففر من جيش أريك قائد قوطي يدعى ساروس Sarus وانضم إلى هونوريوس، وأخذ معه قوة كبيرة من القوط، وهاجم بها جيش البرابرة الرئيسي. وعد أريك هذا العمل نقضاً للهدنة التي وقعها الطرفان، فعاد إلى حضار روما. وفتح أحد الأرقاء أبواب المدينة للمحاصرين؛ وتدفق منه القوط، واستولى العدو على المدينة الكبرى لأول مرة في ثمانمائة عام (410). ولبيت ثلاثة أيام مسرحاً للسلب والنهب بلا تمييز بين أماكنها أو أهلها اللهم إلا كنيسة القديسين بطرس وبولس فلم يمسهما أحد بسوء، وكذلك نجا اللاجئون الذين احتموا فيهما. غير أنه لم يكن من المستطاع السيطرة على من كان في الجيش البالغ عدده أربعين ألف مقاتل من الهون والأرقاء. فذبح مئات من أغنياء المدينة، واعتصبت نساؤهم ثم قتلن، وبلغ من كثرة القتلى أن لم يعد من المستطاع دفن الجثث التي امتلأت بها الشوارع. ووقع في أيدي الغزاة آلاف من الأسرى بينهم أخت لهونوريوس غير شقيقة تدعى جلا بلاسيديا Galla Placidia. وأخذ الفاتحون كل ما وقع في أيديهم من الذهب والفضة؛ وصهرت التحف الفنية للاستيلاء على ما فيها من معادن نفيسة، وحطم العبيد السابقون روائع فني النحت والخزف وهم فرحون مغتبطون انتقاماً منهم لما كانوا يعانونه من فقر وكدح، هما اللذان أثمرتا هذا الجمال وهذه الثروة. ثم أعاد أريك النظام وزحف بجيشه جنوباً ليفتح صقلية؛ ولكنه أصيب بالحمى في هذه السنة عينها ومات بها في كوسنزا Cosenza. وحول الأرقاء

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

مجرى نهر بوسنتو Busento ليفسحوا مكاناً آمناً رحباً ينشئون فيه قبره، ثم أعيد النهر إلى مجراه الأصلي، وقتل العبيد الذين بهذه الأعمال مبالغة في إخفاء المكان الذي دفن فيه. واختير أنثف Atilf (أدلف Adolf) صهر ألريك ليخلفه في ملكه ورضى الملك الجديد أن يسحب جيشه من إيطاليا إذا تزوج بلاسيديا Placidia، وأعطى القوط بوصفهم أحلاف روما المتعاهدين معها غالة الجنوبية بما فيه نربونة Narbonne وطلوشة (طولوز)، وبردو، ولتكون مملكة لهم يحكمونها مستقلة استقلالاً ذاتياً. ورفض هونوريوس الشرط الخاص بالزواج، لكن بلاسيديا قبلته، وأعلن الزعيم القوطي أنه لا ينبغي تدمير الإمبراطورية، بل يريد المحافظة عليها وتقويتها، وسحب جيشه من إيطاليا، وأنشأ مملكة للقوط الغربيين في غالة مستعينا على إنشائها بمزيج من الدهاء السياسي والقوة الحربية. وكانت هذه المملكة من الوجهة النظرية خاضعة للإمبراطورية، وتخذ طلوشة عاصمة لها (414). وقتل الزعيم القوطي بعد سنة واحدة، واعتزمت بلاسيديا من فرط حبها له أن تعيش من بعده أرملة طول حياتها ولكن هونوريوس وهبها للقائد قنسطنطيوس. ولما مات قنسطنطيوس (421) وهونوريوس (423) أصبحت بلاسيديا وصية على ابنها فلنتيان الثالث، وحكمت الإمبراطورية الغربية ثلاثين عاماً حكماً يشرف بنات جنسها. وكان الوندال حتى في أيام ناستون، أمة قوية كثيرة العدد تمتلك الأجزاء الوسطى والشرقية من روسيا الحالية. وكانوا قبيل حكم قسطنطين قد زحفوا جنوباً إلى بلاد المجر، ولما بدد القوط الغربيون شملهم في إحدى الوقائع الحربية، طلب الباقيون منهم أن يؤذن لهم بعبور الدانوب ودخول الإمبراطورية الرومانية. ووافق قسطنطين على طلبهم هذا، وظلوا سبعين عاماً ينكثرون ويتضاعف عددهم في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

بنونيا Pannonia. وأثارت انتصارات ألريك حميتهم؛ ولما سحبت الدولة فيالقها من وراء جبال الألب لتدافع بها عن إيطاليا، تفتحت لهم أبواب الغرب واستهوتهم بثروته، حتى إذا كان عام 406 زحفت جموع كبيرة من الوندال، والألاني، والسيوفي وعبرت نهر الرين وعاشت فساداً في بلاد غالة، ونهبوا مينز Manz وذبحوا كثيراً من أهلها، ثم تحركوا شمالاً إلى بلجيكا، ونهبوا مدينة تيير Tier العظيمة وأحرقوها. ثم أقاموا الجسور على نهري الموز Meuse والأين Aisne ونهبوا ريمس Reims، وأميين Amiens، وأراس Arras، وتورناي Tournai، وواصلوا الزحف حتى كادوا يبلغون بحر المانش. ثم اتجهوا نحو الجنوب وعبروا نهري السين Scine واللوار Loire ودخلوا أكوثانيا

Aquitaine وصبوا غضبهم الوحشي على جميع مدنها تقريباً ما عدا طلوسة، التي دافع عنها إكسبريوس Exuperius دفاع الأبطال. ووقفوا عند جبال البرنس، ثم ولوا وجههم نحو الشرق ونهبوا نربونة، وشهدت غالة من التخريب والتدمير الكامل ما لم تشهد له مثيل من قبل.

وفي عام 409 دخلوا أسبانيا وكان عددهم وقتئذ نحو مائة ألف. وكان الحكم الروماني في تلك البلاد قد أثقل كاهل أهلها بالضرائب، وأدخل فيها إدارة منظمة، وجمع الثروة في ضياع واسعة، وجعل الكثرة الغالبة من سكانها عبيداً، أو رقيق الأرض، أو أحراراً يعانون ويلات الفقر المدقع. ولكن أسبانيا كانت بفضل ما فيها من استقرار وسلطان للقوانين أعظم ولايات الإمبراطورية رخاء، وكانت مريدة، وقرطاجنة، وقرطبة، وأشبيلية، وطركونه Tarragona من أغنى مدائن الإمبراطورية وأعظمها ثقافة. وانقض الوندال والسيوفي والألاني على هذه الشبه الجزيرة التي كانت تبدو آمنة حصينة، وأعملوا فيها السلب والنهب عامين كاملين حتى لم ينجح فيها مكان من جبال البرنس إلى جبل طارق، بل إن فتوحهم امتدت إلى سواحل إفريقية الشمالية. وأدرك هونوريوس أنه عاجز عن حماية

صفحة رقم : 4190

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

الأراضي الرومانية بالجيوش الرومانية، فأغرى القوط الغربيين بالمال الوفير ليردوا إليه أسبانيا. وقام ملكهم القدير واليا Wallia بهذا العمل بعد عدة وقائع حربية أحكم خططها (420)، فارتد السوفي إلى شمالي أسبانيا، كما ارتد الوندال إلى إقليم الأندلس (Andalusia) الذي لا يزال يسمى باسمهم حتى اليوم، وأعاد ولاية أسبانيا إلى حوزة الإمبراطورية، وكشف بذلك عما في أخلاق ساسة الرومان من غدر ونكث بالعهود.

وكان الوندال لا يزالون يتوقون إلى الفتح والخبز، فعبروا البحر إلى أفريقية (429). وإذا جاز لنا أن نصدق بروكوبيوس (Procopius 43)، وجردانيس Jordanes قلنا إنهم جاءوا إليها بدعوة من بنيفاس Boniface حاكم أفريقية الروماني ليستعين بهم على منافسه إيتيوس Eetius الذي خلف استلكو، لكن هذه القصة لا تعتمد على مصدر موثوق به. ومهما يكن من أمرها فإن ملك الوندال كان قادراً على خلق هذه الخطة. وكان جيرسيك ملك الوندال ابناً غير شرعي لعبد رقيق، وكان أعرج لكنه قوي الجسم، متقشفاً زاهداً، لا يهاب الردى في القتال، يلتهب غيظاً إذا غضب، ويقسو أشد القسوة على عدوه ولكنه عبقري لا يغلب في شؤون الحرب والمفاوضة. ولما نزل على أفريقية انضم إلى من كان معه من الوندال، والألاني، من جنود، ونساء، وأطفال المغاربة الأفريقيين الذي ظلوا عهداً طويلاً حانقين على الحكم الروماني، كما انضم إليهم الدوناتيون Donatist المارقون الذين كانوا يقاسون أشد أنواع الاضطهاد من المسيحيين أتباع الدين القويم. ورحب هؤلاء وأولئك بالغزاة الفاتحين وبالحكم الجديد. ولم يستطع بينفاس أن يحشد من سكان شمالي أفريقية الروماني البالغ عددهم ثمانية ملايين إلا عدداً ضئيلاً يساعد جيشه الروماني. ولما هزمته جحافل جيرسيك هزيمة منكرة تفهقر إلى هبو Hippo حيث أثار القديس أوغسطين الطاعن في السن حمية السكان فهبوا يدافعون عن بلدتهم دفاع الأبطال، وقاست المدينة أهوال الحصار أربعة عشر

صفحة رقم : 4191

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

شهرأ كاملة (430-431)، انسحب بعدها جيسريك ليلقي جيشاً رومانياً آخر، وأوقع به هزيمة منكرة اضطر على أثرها سفير فلننتيان إلى أن يوقع شروط هدنة يعترف فيها باستيلاء الوندال على فتوحهم في أفريقية. وحافظ جيسريك على شروط الهدنة حتى غافل الرومان وانقض على قرطاجنة الغنية واستولى عليها دون أن يلقي أية مقاومة (439). ووجد أشرف المدينة وقساوستها من أملاكهم ونفاهم أو جعلهم أقنان أرض. ثم استولى على كل ما وجده من متاع سواء منه ما كان لرجال الدين أو لغيرهم من الأهليين، ولم يتردد في الالتجاء إلى التعذيب للوقوف على مخابئه. وكان جيسريك لا يزال وقتئذ في شرح الشباب، وكان إدارياً قديراً أعاد تنظيم أفريقية وجعل منها دولة ذات ثراء عليه المال الوفير، ولكن أسعد أوقاته كان هو الوقت الذي يشتبك فيه في القتال. وقد أنشأ له أسطولاً ضخماً، نهب به سواحل أسبانيا، وإيطاليا، وبلاد اليونان. وكان يفاجئ تلك البلاد حتى لم يكن أحد يدري أي الشواطئ سترسو فيها سفنه المثقلة بالفرسان، ولم تنتشر القرصنة في غرب البحر المتوسط طوال أيام الحكم الروماني دون أن تلقى مقاومة كما انتشرت في تلك الأيام. واضطر الإمبراطور في آخر الأمر أن يعقد الصلح مع ملك البرابرة ليحصل بذلك على القمح الذي تطعم منه رافنا وروما، ولم يكتف بذلك بل وعده أن يزوجه إحدى بناته. وكانت روما في هذه الأثناء لا تزال تضحك وتلعب لاهية عما سيحل بها بعد قليل من دمار.

وكانت ثلاثة أرباع قرن انقضت مذ دفع الهون أمامهم البرابرة الغزاة بعبورهم نهر الفلجا. ثم تباطأ بعد ذلك زحف الهون نحو الغرب فكان هجرة على مهل، وكان أشبه بانتشار المستعمرين في القارة الأمريكية منه بفتوح أريك وجيسريك. وما لبثوا أن استقروا بعدئذ شيئاً فشيئاً في داخل بلاد المجر، وبالقرب منها، وأخضعوا لحكمهم كثيراً من القبائل الألمانية.

صفحة رقم : 4192

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

ومات روا Rua ملك الهون حوالي عام 433 وأورث عرشه بليدا Baleda وأتلا Atilla ابني أخيه. ثم قتل بليدا- بيد أتلا كما يقول بعضهم- حوالي عام 444، وتولى أتلا (ومعنى اللفظ باللغة القوطية الأب الصغير) حكم القبائل المختلفة الضاربة شمال نهر الدانوب من الدن إلى الرين. ويصفه جردانس المؤرخ القوطي وصفاً لا نعرف مقدار ما فيه من الدقة فيقول:

هو رجل ولد في هذا العالم ليزلزل أقدام الأمم، هو سوط عذاب سلط على الأرض، روع سكان العالم أجمع بما انتشر حوله من الشائعات في خارج البلاد، وكان جباراً متغطرساً في قوله، يقلب عينيه ذات اليمين وذات الشمال، يظهر في حركات جسمه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وكبرياء. وكان في الحق أخصاً غمرات محباً للقتال، ولكنه يتمهل فيما يقدم عليه من أعمال، وكان عظيماً فيما يسدي من نصح، غفوراً لمن يرجو منه الرحمة، رؤوفاً بمن يضع نفسه تحت حمايته. وكان قصير القامة، عريض الصدر، كبير الرأس، صغير العينين، رقيق شعر اللحية قد وخطه الشيب. وكان أفتس الأنف، أدكن اللون، تتم ملامحه على أصله(46).

وكان يختلف عن غيره من البرابرة في أنه يعتمد على الختل أكثر من اعتماده على القوة. وكان يحكم شعبه باستخدامه خرافاته لتقديس ذاته العليا، وكان يمهد لانتصاراته بما يذيعه من القصص المبالغ فيها عن قسوته، ولعله هو الذي كان ينشئ هذه القصص إن شاء، حتى لقد سماه أعداؤه المسيحيون آخر الأمر "بسوط الله"، وارتاعوا من خنله ارتياعاً لم ينجم من إلا القوط. وكان أمياً لا يستطيع القراءة أو الكتابة، ولكن هذا لم ينقص من ذكائه الفطري. ولم تكن أخلاقه

كأخلاق المتوحشين، فقد كان ذا شرف، وكان عادلاً، وكثيراً ما أظهر أنه أعظم كرمًا وشهامة من الرومان. وكان بسيطاً في ملبسه ومعيشته، معتدلاً في مأكله ومشربه، يترك الترف لمن هم دونه ممن يحبون التظاهر بما عندهم من أنية فضية وذهبية، وسروج، وسيوف وأثواب مزر كشة تشهد بمهارة أصابع أزواجهم،

صفحة رقم : 4193

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

وكان لأتلا عدد كبير من أولئك الأزواج ولكنه كان يحتقر ذلك الخليط من وحدة الزواج والدعارة الذي كان منتشرًا عند بعض الطوائف في رافنا وروما. وكان قصره بيتاً خشبياً ضخماً أرضه وجدرانه من الخشب المسوى بالمسحج، ولكنه يزدان بالخشب الجميل الصقل والنحت، فرشت فيه الطنافس والجلود ليتقي بها البرد، وكانت عاصمة ملكه قرية كبيرة أغلب الظن أنها كانت في مكان بودا Buda الحالية؛ وقد ظل بعض المجريين حتى هذا القرن يطلقون على هذه المدينة إترلنبرج Etzelburg أي مدينة أتلا.

وكان في الوقت الذي نتحدث فيه عنه (444) أقوى رجل في أوروبا، وكان ثيودوسيوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية، وفلننتيان إمبراطور الغرب يعطيانه الجزية يشتريان بها السلام، ويتظاهرون أمام شعوبهما بأنها ثمن لخدمات يؤديها أحد أقباليها. ولم يكن أتلا، وهو قادر على أن ينزل إلى الميدان جيشاً خمسمائة ألف مقاتل، يرى ما يحول بينه وبين السيادة على أوروبا كلها وبلاد الشرق بأجمعها. ففي عام 441 عبر قواده وجنوده نهر الدانوب، واستولوا على سرميوم Sirmium، وسنجديونوم Singidiumum (بلغراد) ونيسوس Naissus (نيش) وسردিকা Sardica (صوفيا)، وهددوا القسطنطينية نفسها. وأرسل ثيودوسيوس الثاني جيشاً لملاقاتهم، ولكنه هزم، ولم تجد الإمبراطورية الشرقية بداً من أن تشتري السلم برفع الجزية السنوية من سبعمائة رطل من الذهب إلى ألفي رطل ومائة. وفي عام 447 دخل الهون تراقية، وتساليا، وسكوديا، (جنوبي روسيا) ونهبوا سبعين مدينة وساقوا آلافاً من أهلها أرقاء. وأضيفت السبابا إلى أزواج المنتصرين، ونشأ من ذلك جبل اختلطت فيه دماء الفاتحين والمغلوبين ترك آثاراً من الملاح المغولية في الأقاليم الممتدة من الشرق حتى بافاريا Bavaria، وخرجت غارات الهون بلاد البلقان تخریباً دام أربعة قرون، وأتى على نهر الدانوب

صفحة رقم : 4194

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

حين من الدهر لم يعد فيه كما كان طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب، واطمحلنت لهذا السبب المدن القائمة على شاطئيه.

ولما أن استنزفت أتلا دماء الشرق بالقدر الذي ارتضاه ولى وجهه نحو الغرب وتذرع لغزوه بحجة غير عادلة. وخلاصة تلك الحجة أن هونوريا Honoria أخت فلننتيان الثالث كانت قد نفيت إن القسطنطينية بعد أن اعتدى على عفافها أحد رجال التشريفات في قصرها. وتلمست هونوريا أية وسيلة للخلاص من النفي فلم تر أمامها إلا أن تبعث بخاتمها إلى أتلا وتستجيره ليساعدها في محنتها، واختار الملك الداهية، الذي كانت له أساليبه الخاصة في الفكاهة، أن يفسر إرسال الخاتم بأنه عرض منها للزواج بها، فطالب من فوره بهونوريا وبنصف الإمبراطورية الغربية بآننة لها، ولما احتج وزراء فلننتيان على الطلب أعلن أتلا الحرب. هذا هو السبب الظاهري، أما السبب الحقيقي فهو ان مرسيان Marcian الإمبراطور الجديد في الشرق أبى أن يستمر على أداء الجزية وان فلننتيان قد حدا حذوه. وفي عام 450 زحف أتلا ومعه نصف مليون رجل على نهر الرين، ونهبوا تريبير و Metz وأحرقوها وقتلوا أهلها. فغذف ذلك الرعب في قلوب غالة كلها فقد علموا أن الغزاة ليس على رأسهم جندي متمدين كقيصر، أو مسيحي -ولو كان من أتباع أريوس- مثل أريك أو جيسريك، بل كان الزاحف عليهم هو الهوني الرهيب، سقوط الله المبعوث لعذاب المسيحيين والوثنيين على السواء لما هنالك من فرق شاسع بين أقوالهم وأعمالهم. وجاء ثيودريك الأول Theodoric I ملك القوط المعمر لينفذ الإمبراطورية من محنتها وانضم إلى الرومان بقيادة إيتيوس، والتقت الجيوش الضخمة في حقول قطلونيا Catalaunia بالقرب من ترويس، ودارت بينها معركة من أشد معارك التاريخ هو لأ، جرت

صفحة رقم : 4195

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

فيها الدماء انهاراً، حتى ليقال إن 162.000 رجل قد قتلوا فيها من بينهم ملك القوط البطل المغوار؛ وانتصر الغرب في هذه المعركة نصراً غير حاسم، فقد تفهقر أتلا بانتظام، وأنهكت الحرب الظافرين، أو لعلمهم كانوا منقسمين على أنفسهم في خطتهم، فلم يتعقبوا أتلا وجنوده ولهذا غزا إيطاليا في العام التالي. وكانت أول مدينة استولى عليها في زحفه هي أكويليا Aquileia، وقد دمرها تدميراً قضى عليها قضاء لم تقم لها بعده قائمة حتى اليوم، أما فرونا Verona وفيسنزا Vicenza فقد عوملنا بشيء من اللين والرحمة واشترت بافيا وميلان نفسيهما من الغزاة بتسليم كل ما فيهما من ثروة منقولة. وبعد هذا فتحت الطريق إلى روما أمام أتلا؛ وكان جيش إيتيوس قليل العدد لا يقوى على أية مقاومة جديّة، ولكن أتلا تباطأ عند نهر البو، وفر فلننتيان الثالث إلى روما، ثم أرسل إلى ملك الهون وقدأ مؤلفاً من البابا ليو الأول واثنين من أعضاء مجلس الشيوخ. وما من أحد يعلم ما جرى حين اجتمع هذا الوفد بأتلا. وكان ليو رجلاً مهيب الطلعة، يعزو إليه المؤرخون معظم ما أحرزه الوفد من نصر لم ترق فيه دماء. وكل ما يذكره التاريخ عن هذا النصر أن أتلا قد ارتد لأن الطاعون فشا بين جنوده، ولأن مئونتهم كانت أخذة في النفاد، ولأن مرسيان كان المدد من الشرق (452).

وقاد أتلا جحافلهم فوق جبال الألب وعاد بها إلى عاصمته في بلاد المجر، متوعداً إيطاليا بالعودة إليها في الربيع التالي إذا لم ترسل إليه هونوريا، ليتخذها زوجة له. وقد استعاض عنها في هذه الأثناء بشابة تدعى إيديكو Ildico ضمها إلى نسانه. وكانت هذه الفتاة هي الأساس التاريخي الواهي لقصة Kriemhild المسماة نيل أنجليند Nibelungenlied. واحتفل بزفافها له احتفالاً أثقلت فيها الموائد بالطعام والشراب. ولما أصبح الصباح وجد أتلا ميتاً في فراشه إلى جانب زوجته

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> تيار البرابرة الجارف

الشابة، وكان سبب موته انفجار أحد الأوعية الدموية، فكتم الدم الذي تدفق منه نفسه وقضى عليه (453)(47). وقسمت مملكته بين أولاده، ولكنهم عجزوا عن المحافظة عليها، فقد دبت الغيرة بينهم ورفضت القبائل التي كانت خاضعة لأبيهم أن تظل على ولائها لهؤلاء الزعماء الممتازين، ولم تمض إلا بضعة سنين حتى تقطعت أوصال الإمبراطورية التي كانت تهدد بإخضاع اليونان والرومان والألمان والغاليين لحكمها، وتطبع وجه أوروبا وروحها بطابع آسية، ومحيت اليونان من الوجود.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

الفصل الخامس

سقوط روما

توفيت بلاسيديا في عام 450، وانفرد فلننتيان بالملك يخبط فيه خبط عشواء، وكان من اوخم أخطائه عاقبة أن استمع إلى نصيحة بترونيوس مكسموس فقتل إيتيوس الذي وقف زحف أتلا عند ترويس كما استمع هونوريوس إلى أولمبيوس فقتل استلكو الذي وقف زحف أريك عند يولنتيا. ولم يكن لفلننتيان ولد ذكر ولم يرتح إلى رغبة إيتيوس في أن يزوج ابنه بودوشيا Budocia ابنة فلننتيان. وانتابت الإمبراطور نوبة جنونية من الغضب فأرسل في طلب إيتيوس، وذبحه بيده (454). وقال له رجل من رجال الحاشية: "مولاي، لقد قطعت يمينك بشمالك" ولم تمض على هذا العمل بضعة أشهر حتى استطاع بترونيوس أن يغري رجلين من أتباع إيتيوس بقتل فلننتيان، ولم يهتم أحد بتعقب القاتلين لأن القتل كان قد أصبح من عهد بعيد البديل الوحيد للانتخاب. واختار بترونيوس نفسه للجلوس على العرش، وأرغم يودكسيا Eudoxia أرملة فلننتيان على أن تتزوجها؛ كما أرغم بودوشيا على أن تتزوج ابنه بلاديوس. وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال بروكبيوس (48)، فإن يودكسيا استعانت بجيسريك، كما استعانت هونوريا قبل ذلك بأتلا. وكان لدى جيسريك من الأسباب ما يجعله يلبي هذه الاستغاثة: فقد أصبحت روما غنية مرة أخرى على الرغم من انتهاب أريك لها، ولم يكن الجيش الروماني بالجيش القوي الذي يستطيع الدفاع عن إيطاليا. وأبحر ملك الوندال بأسطول قوي

لا يغلب (455)، ولم يقف أحد بينه وبين أستيا Ostia وروما إلا بابا أعزل ومعه بعض قساوسة روما. ولم يقو البابا ليو في هذه المرة على

صفحة رقم : 4198

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

إقناع الفاتح بالارتداد عن روما، وكل ما استطاع أن يحصل عليه منه هو وعده بأن يمتنع عن ذبح السكان وتعذيبهم وإحراق المدينة. وأسلمت المدينة أربعة أيام كاملة للجند ينهاون فيها ويسلبون؛ ونجت الكنائس المسيحية، ولكن كل ما كان باقياً في المعابد من كنوز نقل إلى سفن الوندال، وكان من بين هذه الغنائم المناضد الذهبية، والمائتات ذات الشعب السبع، وغيرها من الأنية المقدسة التي جاء بها تيتوس Titus من هيكل سليمان إلى روما منذ أربعة قرون. ونهب كذلك كل ما كان في القصر الإمبراطوري من المعادن الثمينة، والحلي، والأثاث وكل ما كان باقياً في بيوت الأغنياء من أشياء ذات قيمة واتخذ آلافاً من الأسرى عبيداً، وفرق بين الأزواج وزوجاتهم، وبين الأبناء وآبائهم، وأخذ جيسريك الإمبراطورة يودكسيا وابنيهما معه إلى قرطاجنة؛ وزوج يودوسيا ابنه هونريك Huneric؛ وأرسل الإمبراطورة وبلاسيديا (صغرى ابنتيهما) إلى القسطنطينية استجابة لطلب الإمبراطور ليو الأول. ولم يكن انتهاب روما على هذا النحو في واقع الأمر تخريباً لا يراعي فيه عرف أو قانون، بل كان يتفق مع الشرائع القديمة للحروب. لقد ثارت قرطاجنة لنفسها من قسوة روما عليها في عام 146 وكانت في انتقامها هذا رقيقة رحيمة. وضربت الفوضى وقتند أطنابها في إيطاليا. ذلك أن خمسين عاماً من الغزو والقطط والوباء قد تركت آلاف الضياع مخربة، وآلاف الأفدنة بوراً؛ ولم يكن هذا لأن تربتها أنهكت من الاستغلال، بل لأن هذا الأراضي أعوزها الرجال؛ وأخذ القديس أمبروز (حوالي عام 420) يرثي لخراب بولونيا Bologna ومودينا Modena، وبياسنزا Piacenza ونقص عامرها، ووصف البابا جلاسيوس Gelassius (حوالي 480) أقاليم واسعة في شمالي إيطاليا بأنها تكاد تكون مقفرة من الأدميين. ونقص سكان روما نفسها من مليون ونصف إلى ثلاثمائة ألف في قرن

صفحة رقم : 4199

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

واحد(49)؛ واختص الشرق وقتند دون غيره بجميع المدائن الكبرى في الإمبراطورية. وهجر الناس الكمبانيا Campagna المحيطة بروما والتي كانت من قبل ملاء بالضياع الخصبة والقصور الصغيرة ولجأوا إلى المدن المسورة ليحتموا فيها من غارات العداة؛ وانكشمت المدن نفسها فلم تعد تزيد مساحة أرضها على أربعين فداناً أو نحوها كي تكفي موارد أهلها تسويرها وحمايتها من العداة؛ وكثيراً ما كانت السوار يبنى على عجل من أنقاض دور

التمثيل والباسقات والهيكل التي كانت من قبل بهجة المدن الإيطالية وسبب رونقها. على أن روما قد بقي فيها قليل من الثروة حتى بعد جيسريك، وانتعشت هي وغيرها من المدن الإيطالية فيما بعد تحت حكم ثيودريك والمباردين: ولكن الفقر العام الذي حل في عام 470 بالحقول والمدن، وبأعضاء مجلس الشيوخ والعامّة على السواء، سحق أرواح الشعب الذي كان من قبل عظيماً وأذل نفسه، فملك عليه اليأس والاستسلام قلبه، وتشكك في الآلهة كلهم عدا بريابوس Priapus واستولى عليه وجل كوجل الأطفال جعله يهاب تبعات الحياة، وجُبنٌ غاضب تائر يندد بكل استسلام ويفر من جميع الواجبات الحربية، وكان يصحب هذا الانحطاط الاقتصادي والحيوي عفن ينخر سوسه في جميع طبقات الشعب، في أرسنقراطية في وسعها أن تخدم لكنها عاجزة عن أن تحكم، وفي رجال الأعمال المنهمكين في مكاسبهم الشخصية انهماكاً يحول بينهم وبين العمل لإنقاذ شبه الجزيرة، وفي قواد ينالون بالرشوة أكثر مما يستطيعون نيّله بقوة السلاح، وببروقراطية منتشعبة متخمة خربت رواتبها خزائن الدولة، وفسدت فساداً مستعصياً على العلاج وقصارى القول أن جذع هذه الشجرة العظيمة قد تعفن، وأن لها أن تسقط.

وتوالى على عرش الإمبراطورية في السنين الخيرة من حياتها طائفة من

صفحة رقم : 4200

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

الأباطرة ليس فيهم من هو فوق المتوسط. فقد أعلن القوط في غالة قائداً لهم يدعى أفنوس Avitus إمبراطوراً (455)، ولكن مجلس الشيوخ أبى أن يقره، فاستحال أسقفاً؛ ولم يدخر ماجوريان (Magorian 456-461) جهداً في إعادة النظام، ولكن رئيس وزرائه رسمر Ricimer القوطي الغربي أنزله عن العرش. وكان سفيروس (461-466) آلة صماء في يد رسمر يفعل ما يشاء، وكان أنثيموس (Anthemius 467-472) فيلسوفاً نصف وثني لا يرضى بالغرب؛ فما كان من رسمر إلا أن ضرب عليه الحصار وقبض عليه وأمر بقتله وحكم أوليبريوس Olybrius برعاية رسمر شهرين (472)؛ ثم مات ميتة غريبة في ذلك الوقت إذ كانت ميتة طبيعية. وسرعان ما خلع جليسيروس (473)، وظلت روما عامين يحكمها يوليوس نيبوس Julius Nepos. وبينما كانت هذه الأحداث جارية في إيطاليا، انقض عليها خليط آخر من البرابرة -الهرولي Heruli، والإسكيري Sciri، والروجي Rug (وغيرهم من القبائل التي كانت من قبل تعترف بحكم أتلا. وقدم في الوقت نفسه بنونيائي Pnnonian يدعى أرسنتيز Orestes فخلع نيبوس، وأجلس ابنه رميولوس (الملقب أوغسطولس استهزاء به) على العرش (475). وطلب الغزاة الجدد إلى أن يعطيهم ثلث إيطاليا، فلما أبى ذبحوه وأجلسوا قائدهم أودوس Odoacer على العرش بدل رميولوس (476)، ولم يكن هذا القائد -وهو ابن إدكون وزير أتلا- مجرداً من الكفايات. وقد بدأ بأن جمع مجلس الشيوخ المرتاع، وعن طريقه عرض على زينون Zeno الإمبراطور الجديد في الشرق أن تكون له سيادة على جميع الإمبراطورية على شرط أن يحكم أودوس إيطاليا بوصفه وزيراً له، ورضى زينون بهذا العرض وانتهت بذلك سلسلة الأباطرة الغربيين. ويبدو أن أحداً من الناس لم ير في هذا الحادث "سقوطاً لروما" بل بدا لهم على عكس هذا أنه توحيد مبارك للإمبراطورية وعودتها إلى ما كانت عليه

صفحة رقم : 4201

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

في عهد قسطنطين. وقد نظر مجلس الشيوخ في روما إلى المسألة هذه النظرة، وأقام في روما تمثلاً لزينون، ذلك أن اصطباغ الجيش، والحكومة، والزراع، في إيطاليا بالصيغ الألمانية قد ظل يجري زمناً بلغ من طوله أن بدت معه النتائج السياسية تحولاً عديماً الشأن على سطح الحياة القومية. أما الحقيقة التي لا نزاع فيها فهي أن أدوسر كان يحكم إيطاليا بوصفه ملكاً عليها دون أن يعبا بزينون. ذلك أن الألمان قد فتحوا في واقع الأمر إيطاليا، كما فتح جيسريك أفريقية، وكما فتح القوط الغربيون أسبانيا، وكما كان الإنجليز والسكسون يفتحون بريطانيا: والفرنجة يفتحون غالة، ولم يعد للإمبراطورية العظمى في الغرب وجوب. وترتب على فتوح البرابرة هذه نتائج لا حصر لها، لقد كان معناها من الناحية الاقتصادية تحول الحياة من المدن إلى الريف. ذلك أن البرابرة كانوا يعيشون على الحرث، والرعي، والصيد، والحرب، ولم يكونوا قد تعلموا بعد العمال التجارية المعقدة التي تنتعش بها المدن، وكان انتصارهم إيذاناً بالقضاء على الصبغة المدنية للحضارة الغربية قضاء دام سبعة قرون. وأما من الوجهة العنصرية فإن هجرات البرابرة المتعددة أدت إلى امتزاج جديد بين العناصر البشرية - إلى دخول دم ألماني غزير في إيطاليا، ودم غالي في أسبانيا، ودم أسبوي في روسيا والبلقان وبلاد المجر. ولم يعد هذا الامتزاج للقوة والنشاط إلى الإيطاليين أو الغاليين بطريقة خفية معجزة الدرك، بل إن ما حدث لم يزد على إفناء الأفراد والسلالات الضعيفة بسبب الحروب وغيرها من ضروب التنافس، وعلى اضطراب كل إنسان لأن ينمي قوته. وحيويته، وشجاعته، وصفات الرجولة التي طمس معالمها طول الاستسلام إلى الأمن والسلام؛ وعلى تأثير الفقر في عودة أساليب للحياة أصح وأكثر بساطة من الأساليب التي ولدها ترف المدن واعتماد الأهليين على الرزاق التي تقدمها لهم الحكومة.

صفحة رقم : 4202

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> انتصار البرابرة -> سقوط رومة

وأما من الوجهة السياسية فقد أخلت الفتوح صورة دنيا من الملكية محل صورة عليا منها. فقد زادت من سلطان الأفراد وقللت من سلطان القوانين ومن اعتماد الناس عليها لحمايتهم. واشتدت النزعة الفردية وازداد العنف. وفي الناحية التاريخية حطمت الفتوح الهيكل الخارجي لذلك الجسم الذي تعفن من الداخل، وأزلت من الوجود، بوحشية يؤسف لها، نظاماً من الحياة، شاخ ووهن وبلي، وفقد كل قدرة على التجدد والنماء، رغم ما كان فيه من فضائل النظام والثقافة، والقانون؛ وبهذا أصبح من المستطاع أن تبدأ حياة جديدة غير متأثرة بالماضي. فانمحت إمبراطورية الغرب ولكن دول أوروبا الحديثة قد ولدت - لقد دخل إيطاليا قبل المسيح بألف عام غزاة من الشمال، أخضعوا أهلها لسلطانهم، وامتزجوا بهم وأخذوا عنهم حضارتهم، وبنوا وإياهم في خلال ثمانية قرون حضارة جديدة. وبعد المسيح بأربعمائة عام تكررت العملية نفسها، ودارت عجلة التاريخ دورة كاملة، وكانت البداية هي نفسها النهاية، ولكن النهاية كانت على الدوام بداية.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> مقدمة

الباب الثالث

تقدم المسيحية

364 - 451

احتضنت الكنيسة الحضارة الجديدة وبسطت عليها حمايتها. ذلك بأن جيشاً فذاً من رجال الكنيسة قام ليدافع بنشاط ومهارة عن الاستقرار الذي عاد إلى الوجود، وعن الحياة الصالحة بعد أن اندكت معالم النظام القديم في غمار الفساد والجبن والإهمال. وكانت مهمة المسيحية من الناحية التاريخية هي أن تعيد الأسس الكريمة للأخلاق وللمجتمع بما تفرضه من مثوبة ومعونة لإلهيتين لمن يعملون وفق قواعد النظام الاجتماعي وإن خالفت أهواءهم أو كان فيها مشقة عليهم وأن تغرس في نفوس البرابرة الهمج السذج مثلاً للسلوك أرق وأجمل من مثلهم الأولى، عن طريق عقيدة تكونت تكوناً تلقائياً من الأساطير والمعجزات، ومن الخوف والأمل والحب، لقد كان الدين الجديد يجاهد للاستحواذ على عقول الخلق المتوحشين أو المنحلين الفاسدين وإن يُقيم منها دولة دينية عظيمة تؤلف بينهم وتجمع ما تفرق من شملهم؛ كما كان يجمعهم سحر اليونان أو عظمة الرومان. وإن في هذا الجهاد لعظمة لا نقل عما نجده في سير أبطال الملاحم وإن لوثته الخرافة والقسوة، وليست النظم والعقائد إلا وليدة الحاجات البشرية؛ فإذا شئنا أن نفهم هذه النظم والعقائد على حقيقتها وجب أن ندرسها في ضوء هذه الحاجات.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> تنظيم الكنيسة

الفصل الأول

تنظيم الكنيسة

إذا كان الفن هو تنظيم المادة فإن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أروع الآيات الفنية في التاريخ. ذلك أنها قد استطاعت أن تولف بين أتباعها المؤمنين خلال تسعة عشرة قرناً كلها مثقلة بالأزمات الشداد، وأن تسير وراءهم إلى أطراف العالم وتقوم على خدمتهم، وتكون عقولهم، وتشكل أخلاقهم، وتشجعهم على التكاث، وتوثق عقود زواجهم، وتواسيهم في الملمات والأحزان، وتسمو بحياتهم الدنيوية القصيرة فتجعل منها مسرحية أبدية، وتستغل مواهبهم، وتتغلب على كل ما يقوم في وجهها من زيغ وثورة، وتعيد بناء كل ما يتحطم من سلطانها في صبر وأناة. ترى كيف نشأ هذا النظام الرائع الجليل؟

لقد قام هذا النظام على ما كان هناك من خواء روحي يعانیه الرجال والنساء الذين أنهكهم الفقر، وأضناهم الشقاق والنزاع، وأرهبهم الطقوس الخفية التي لا يدركون كنهها، وتملكهم الخوف من الموت. وقد بعثت الكنيسة في أرواح الملايين من البشر إيماناً وأملأ حبياً إليهم الموت وجعله أمراً مألوفاً لديهم. ولقد أصبح هذا الإيمان أعز شيء عليهم يموتون في سبيله ويقتلون غيرهم من أجله، وعلى صخرة الأمل هذه قامت الكنيسة. وكانت في بادئ أمرها بسيطة من المؤمنين تختار لها واحداً أو أكثر من الكبراء أو القساوسة ليرشدها، وواحداً أو أكثر من القراء، والسدنة. والشمامسة، ليساعدوا الكاهن. ولما كثر عدد العابدين، وتعقدت شؤونهم، اختاروا لهم في كل مدينة قساً سموه إبسكوبس Episcopos أي مشرفاً أو أسقفاً لينسق هذه الشؤون. ولما زاد عدد الأساقفة أصبحوا هم أيضاً في حاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسقها؛ ولهذا بدأنا نسمع

صفحة رقم : 4205

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> تنظيم الكنيسة

في القرن الرابع عن كبار الأساقفة، أو المطارنة المشرفين على الأساقفة والمسيطرين على الكنائس في ولاية بأكملها. وكان يحكم هذه الطبقات من رجال الدين بطارقة يقيمون في القسطنطينية، وإنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية، وروما. وكان الأساقفة وكبار الأساقفة يجتمعون بناء على دعوة البطرقي أو الإمبراطور في المجمع المقدس، فإذا كان هذا المجمع لا يمثل إلا ولاية بمفردها سمي مجمع الولاية، وإذا كان يمثل الشرق أو الغرب سمي المجمع الكلي؛ وإذا ما مثلها جميعاً كان مجمعاً عاماً؛ وإذا ما كانت قراراته ملزمة لجميع المسيحيين كان هو المجمع الأكبر. وكانت الوحدة الناشئة من هذا النظام هي التي أكسبت الكنيسة اسم الكاثوليكية أو العالمية.

وكان هذا النظام الذي تعتمد قوته في آخر الأمر على العقيدة والهيئة يتطلب شيئاً من تنظيم الحياة الكنسية؛ ولم يكن يطلب إلى القس في الثلاثة القرون الأولى من المسيحية أن يظل أعزب؛ وكان في مقدوره أن يحتفظ بزوجه إذا كان تزوج بها قبل رسامته، ولكنه لم يكن يجوز له أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية، ولم يكن يجوز لرجل تزوج باثنتين أو بأرملة، أو طلق زوجته أو اتخذ له خليفة، أن يصبح قسيساً. وكان في الكنيسة، كما كان في معظم الهيئات المنظمة متطرفون يزجونها بتطرفهم، من ذلك أن بعض المتحمسين من المسيحيين، في ثورتهم على ما كان في أخلاق الوثنيين من إباحة جنسية، استنتجوا من فقرة في إحدى رسائل القديس بولس أن كل اتصال بين الجنسين

خطيئة، ولذلك كانوا يعارضون في الزواج بوجه عام، وتستك مسامعهم من الهلع إذا سمعوا أن قساً تزوج. وقد أعلن مجلس جنجرا Gengra الديني (حوالي 362) أن هذه الآراء لا تتفق مع الدين، ولكن الكنيسة بعد ذلك ظلت تطالب

صفحة رقم : 4206

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> تنظيم الكنيسة

قساوستها وتلح عليهم إلحاحاً متزايداً أن يظلوا بلا زواج، ولقد ظلت الأملاك توهب للكنائس ويزداد مقدارها زيادة مطردة؛ وكان يحدث من أن إلى أن أن يوصى لقس متزوج، وأن ينتقل المال الموصى له إلى ذريته من بعده. وكان رجال الدين يؤدي في بعض الأحيان إلى الزنى أو غيره من الفضائح، وإلى انحطاط مكانة القس في أعين الشعب، ولهذا فإن مجمعاً مقدساً عقد في عام 386 أشار على رجال الدين بالعدة المطلقة، وبعد عام من ذلك الوقت أمر البابا سريسيوس Siricius بتجريد كل قس يتزوج أو يبقى مع زوجته التي تزوج بها من قبل. وأيد جيروم، وأمبروز، وأوغسطين هذا المرسوم بقواتهم الثلاث. وبعد أن لقي مقاومة متفرقة، دامت جيلاً بعد جيل من الزمان، نفذ في الغرب بنجاح قصير الأجل.

وكانت أخطر المشاكل التي لاقتها الكنيسة، والتي تلي في خطورتها مشكلة التوفيق بين مثلها العليا وبقائها، هي الوسيلة التي تمكنها من الحياة مع الدولة ذلك أن قيام نظام كهنوتي إلى جانب موظفي الحكومة كان من شأنه أن يخلق نزاعاً على السلطة لا يسود معه سلم إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى؛ فأما في الشرق فقد خضعت الكنيسة، وأما في الغرب فقد أخذت تحارب دفاعاً عن استقلالها، ثم أخذت بعدئذ تحارب تأييداً لسيادتها على الدولة. وكن اتحاد الكنيسة والدولة في كلتا الحالتين يتضمن تعديلاً أساسياً في المبادئ الأخلاقية المسيحية. من ذلك أن تيرتليان Tertullian وأرجن Origen، ولكتنتيوس Lactantius كانا يُعلمان من قبل أن الحرب غير مشروعة في جميع الأحوال، أما الآن فإن الكنيسة، وقد أصبحت تحت حماية الدولة، قد رضيت بالحروب التي تراها ضرورية لحماية الدولة أو الكنيسة، وكانت الكنيسة نفسها عاجزة

صفحة رقم : 4207

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> تنظيم الكنيسة

عن اصطناع القوة، ولكنها إذا رأت القوة اللازمة لها كانت تلجأ إلى القوة الدنيوية لفرض إرادتها. وكانت تتلقى من الدولة ومن الأفراد هبات قيمة من المال، والمعابد والأراضي؛ فأثرت وأصبحت في حاجة إلى الدولة لتحمي كل ما كان لها من حقوق الملكية، وظلت تحتفظ بثروتها حتى بعد أن سقطت الدولة. ذلك أن الفاتحين البرابرة، مهما كان خروجهم على الدين ومخالفة أوامره، فلما كانوا ينهبون الكنائس أو يجردونها من أملاكها لأن سلطان القول أصبح بعد قليل يضارع سلطان السيف.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

الفصل الثاني

المارقون

لقد كان أشق الواجبات التي واجهها التنظيم الكنسي هو منع تفتت الكنيسة بسبب تعدد العقائد المخالفة لتعريف العقيدة المسيحية كما قررتها المجالس الدينية. ولم تكد الكنيسة تظفر بالنصر على أعدائها حتى امتنعت عن المنادة بالتسامح، فكانت تنظر إلى الفردية في العقيدة بنفس النظرة المعادية التي تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها، ولم تكن الكنيسة ولا الخارجون عليها يفكرون في هذا المرق على أنه مسألة دينية خالصة. وكان المرق في كثير من الحالات مظهراً فكرياً لثورة محلية تهدف إلى التحرر من سلطان الإمبراطورية. فاليعقوبيون Monophysites كانوا يريدون أن يحرروا سوريا ومصر من سيطرة القسطنطينية، وكان الدوناتيون يرجون أن يحرروا أفريقية من نير روما، وإذ كانت الكنيسة والدولة قد توحدتا في ذلك الوقت، فقد كان الخروج على إحداهما خروجاً على الاثنتين معاً. وكان أصحاب العقيدة الدينية الرسمية يقاومون القومية، كما كان المارقون يؤيدونها ويدافعون عنها؛ وكانت الكنيسة تعمل جاهدة للمركزية وللوحدة، أما المارقون فكانوا يعملون في سبيل الاستقلال المحلي والحرية. وأحرزت الأريوسية نصراً مؤزراً بين البرابرة بعد أن غلبت على أمرها في داخل الإمبراطورية. وكانت المسيحية قد جاءت إلى القبائل التيبوتونية على أيدي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

الأسرى الرومان الذين قبض عليهم القوط أثناء غزوهم آسيا الصغرى في القرن الثالث، ولم يكن "الرسول" أفلاس (311-381) رسولاً بالمعنى الصحيح لهذا اللفظ، بل كان من أبناء أسير مسيحي من كبدوكية، ولد بين

القوط الذين كانوا يعيشون في شمال نهر الدانوب وتربى بين ظهرانيهم، وفي عام 431 رسمه يوسبيوس مطران نوميديا الأريوسي أسقفاً عليهم، ولما اضطهد أنثريك Athanaric الزعيم القوطي من كان في أملاكه من المسيحيين أذن قنسنطينوس الأريوسي لأفلاس أن يعبر بالجالية القوطية المسيحية القليلة العدد إلى نهر الدانوب، وينزلها في تراقية، وأراد أن يلم معتقي دينه من القوط أصول هذا الدين، وأن يكثر عددهم، فنرجم في صبر وأناة جميع أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية ما عدا أسفار الملوك فقد حذفها لأنها في رأيه ذات نزعة عسكرية خطيرة؛ وإذا لم يكن للقوط وقتئذ حروف هجائية يكتبون بها، فقد وضع لهم هذه الحروف معتمداً في ووضعتها على الحروف اليونانية، وكانت ترجمته هذه أول عمل أدبي في جميع اللغات التوتونية، ووثق القوط بحكمة أفلاس واستقامته لشدة إخلاصه وتمسكه بأهداب الفضيلة، ثقة حملتهم على أن يقبلوا مبادئه المسيحية الأريوسية دون مناقشة، وإذا كان غير هؤلاء من البرابرة قد تلقوا أصول المسيحية في قرنين الرابع والخامس عن القوط أنفسهم، فقد كان جميع من غزوا الإمبراطورية، إلا قليلاً منهم؛ من الأريوسيين، كما كانت الممالك الجديدة، التي أقامها في البلقان، وغالة وأسبانيا، وإيطاليا، وأفريقية أريوسية من الناحية الرسمية، ولم يكن الفرق بين دين الغالبيين والمغلوبين إلا فرقاً ضئيلاً: ذلك أن أتباع الدين القويم كانوا يعتقدون أن المسيح مطابق في كينونته (Homommosios) لله الأب، أما الأريوسيون فكانوا يعتقدون أنه مشابه لا أكثر، في كينونته (Homroousios) لله الأب. ولكن هذا الفرق الضئيل أصبح عظيم الأثر في الشؤون السياسية في القرنين الخامس والسادس، وبفضل تتابع الحوادث على هذا النحو ثبتت الأريوسية حتى غلب

صفحة رقم : 4210

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

الفرجة التابع الدين القويم القوط الغربيين في غالة، وفتح بلساريوس Belisarius أفريقية الوندالية، وإيطاليا القوطية، وغير ريكارد (389Recared) عقيدة القوط الغربيين في أسبانيا. وليس في وسعنا الآن أن نشغل أنفسنا بجميع العقائد الدينية المختلفة التي كانت تضطرب بها الكنيسة في تلك الفترة من تاريخها_ عقائد اليونوميين Eunomians والأنوميين Anomeans والأبليينارين Appollinarians والمقدونيين، والسبليين Sabellians والمساليين Massalians، والنوفاتيين Norvatians والبرسليانيين Priscillianists، وكل ما في وسعنا أن نفعله هو أن نرثى لهذه السخافات التي امتلأت بها حياة الناس، والتي سنظل تملؤها في المستقبل. ولكن من واجبنا أن نقول كلمة عن المانية Manicheism تلك العقيدة التي لم تكن مروفاً من المسيحية بقدر ما كانت ثنائية فارسية تجمع بين الله والشيطان، والخير والشر، والضوء والظلام. وقد حاولت أن توفق بين المسيحية والزرادشتية، ولكن الدينيين قاوماها مقاومة شديدة. وقد وجهت هذه العقيدة بصراحة منقطة النظير مشكلة الشر، وما في العالم الذي تسيطر عليه العناية الإلهية من عذاب وآلام كثيرة يبدو أن من ينوعون بها لا يستحقونها، وشعرت بأن ليس أمامها ألا تفترض وجود روح خبيثة، أزلية، كالروح الخيرة، واعتقت المانية كثيرون من الناس في الشرق الغرب، ولجأ بعض الأباطرة في مقاومتها إلى وسائل غاية في القسوة، وهدا جستنيان من الجرائم الكبرى التي يعاقب عليها بالإعدام، ثم ضعف شأنها شيئاً فشيئاً وأخذت في الزوال، إلا أنها تركت بعض أثارها في بعض الطوائف المارقة المتأخرة، كالبوليسية Paulicians، والبجوميلية Bogomiles، والألبجنسية Albegensians، وقد أتهم أسقف أسبانيا يدعى برسليان في عام 385 بأنه يدعو إلى المانية وإلى العزوبة العامة؛ وأنكر الرجل التهمة، ولكنه

صفحة رقم : 4211

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

حوكم أمام مكسموس الإمبراطور المعتصب في تريير، وكان اللذان اتهماه اثنتين من الأساقفة، وأدين الرجل وحرقت هو وعدد من رفاقه في عام 385 بالرغم من احتجاج القديسين أمبروز ومارتن. وبينما كانت الكنيسة تواجه كل أولئك المهاجمين، إذ وجدت نفسها يكاد يغمرها سيل المارقين الدوناتيين في أفريقية، وتفصيل ذلك أن دوناتوس Donatus، أسقف قرطاجنة (315)، كان قد أنكر ما العشاء الرباني الذي يقدمه القساوسة من أثر في الخطيئة، ولم تشأ الكنيسة أن تنتزع من رجالها هذه الميزة الكبيرة فهدتها حكمتها إلى عدم الأخذ بهذه الفكرة. ولكن هذه العقيدة المارقة أخذت تنتشر على الرغم من هذا انتشاراً سريعاً في شمال أفريقية؛ وتحمس لها الفقراء من الأهلبيين، وستحال هذا الانحراف الديني إلى ثورة اجتماعية، وغضب الأباطرة أشد الغضب من هذه الحركة، وأصدروا المراسيم المتعاقبة ضد من يستمسكون بها، وفرضوا عليهم الغرامات الفادحة، وصادروا أملاكهم، وحرّموا على الدوناتيين حق التصرف فيما يمتلكون بالبيع أو الشراء أو الوصية، وأخرجهم جنود الأباطرة من كنائسهم بالقوة، وأعطيت هذه الكنائس للقساوسة أتباع الدين القويم، وسرعان ما تألفت عصابات مسيحية شيوعية في آن واحد- وسميت بأسم الجوابين Circumcelliones؛ وأخذت تندد بالفقر والاسترقاق، فألغت الديون، وحررت الرقيق، وحاولت أن تعيد المساواة المزعومة التي كان يتمتع بها الإنسان البدائي. وكانوا إذا قابلوا عربة يجرها عبيد، أركبوا العبيد العربية، وأرغموا سيدهن على أن يجرها خلفه، وكانوا يقنعون عادة بالسرقة وقطع الطريق على المارة، ولكنهم كانوا في بعض الأحيان يغضبون من المقاومة، فيعمون أعين أتباع الدين القويم أو أعين الأغنياء بمسحها بالجير، أو يضرّبونهم بالعصى الغليظة حتى يموتون' وكانوا إذا واجهوا الموت ابتهجوا به لأنه يضمن لهم الجنة. واستبد بهم التعصب الديني آخر الأمر، فكانوا يسلمون أنفسهم إلى ولاية

صفحة رقم : 4212

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

الأمر معترفين بأنهم مارقون من الدين، ويطالبون بالاستشهاد. وكانوا يعترضون السابلة، ويطلبون إليهم أن يقتلهم، ولما أن تعب أعداؤهم أنفسهم من إجابتهم إلى ما يريدون أخذوا يطلبون الموت بالقفز في النيران المتقدة أو بإلقاء أنفسهم من فوق الأجراف العالية، أو بالمشي فوق ماء البحر (2). وحارب أو غسطين الدوناتيين بكل ما كان لديه من الوسائل، وبدا في وقت من الأوقات أنه قد تغلب عليهم، ولكن الدوناتيين عادوا إلى الظهور أكثر مما كانوا عدداً حين جاء الوندال إلى أفريقية، وسروا أعظم السرور لطرده قساوسة الدين القويم، وبقي الحقد الطافي يأكل الصدور، وينتقل من الأبناء إلى الآباء، وهو أشد ما يكون قوة، حتى جاء العرب إلى أفريقية في عام 670 فلم يجدوا في البلاد قوة متحدة تقف في وجههم.

وكان بلجيبوس Pelagius في هذه الأثناء يثير قارات ثلاثاً بهجومه على عقيدة الخطيئة الأولى، كما كان نستوربيوس يطلب الاستشهاد بما يجهر به من شكوك في أم المسيح، وكان نستوربيوس في بدء حياته من تلاميذ ثيودور المبسوستياني (Theodore Of Mopsuestia 350-428؟) الذي كاد أن يبتدع النقد الأعلى للكتاب المقدس. وكان من أقوال ثيودور هذا أن سفر أيوب إن هو إلا قصيدة مأخوذة من مصادر وثنية، وأن نشيد الأناشيد إن

هو إلا إحدى أغاني الفرس ذات معنى شهواني صريح، وأن الكثير من نبوءات العهد القديم التي يزعم الزاعمون أنها تشير إلى يسوع، لا تشير إلا إلى حوادث وقعت قبل المسيحية؛ وأن مريم ليست أم الله، بل هي أم الطبيعة البشرية في يسوع (3). ورفع نسطوريوس نفسه إلى كرسي الأساقفة في القسطنطينية (428)، والتقت حوله الجموع لفصاحته وذلاقة لسانه، ولكنه خلق له أعداء بتعسفه في عقائده، وأتاح الفرصة لهؤلاء الأعداء بقبوله فكرة ثيودور غير الكريمة في مريم. وكانت كثرة المسيحيين تقول: إذا كان المسيح إلهاً، كانت مريم قد حملت في الله Theotokos

صفحة رقم : 4213

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

أي أنها أم الله؛ ولكن نسطوريوس يقول إن هذا أكثر مما قد يطبق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية في المسيح بل أم الطبيعة البشرية، وإن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح. وألقى سيريل Cyril، كبير أساقفة الإسكندرية، موعظة في يوم عيد القيامة من عام 429 أعلن فيها العقيدة التي تدين فيها كثرة من المسيحيين وهي أن مريم ليست أم الله الحق بل هي أم كلمة الله، المشتمة على طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية معاً (4)، واستشاط البابا سلسطين Celestine الأول غضباً على أثر رسالة تلقاها من سيريل فعقد مجلساً في روما (430)، طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه، فلما رفض نسطوريوس، كلا المطالبين اجتمع في إفسس (431) مجلس عام، لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية، واحتج على ذلك كثيرون من الأساقفة، ولكن أهل إفسس قاموا بمظاهرات يعلنون فيها ابتهاجهم بقرار الحرمان، وكانت مظاهرات أحييت بلا ريب ذكريات ديانة- أرتيميس، وسمح لنسطوريوس أن يرتحل إلى إنطاكية، ولكنه وهو فيها ظل يدافع عن آرائه، وبطالب بالعودة إلى منصبه، فنفاه الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني إلى واحة في صحراء ليبيا، بقي فيها سنين كثيرة، حتى أشفقت عليه حاشية الإمبراطور في الدولة الشرقية فبعثت إليه بعفو إمبراطوري، فلما جاءه الرسول وجده يحتضر (حوالي 451) وانتقل أتباعه من بعده إلى شرقي سوريا، وشادوا لهم كنائس وأنشئوا مدرسة لتعليم مذهبهم في الرها وترجموا التوراة وكتب أرسطو وجالينوس إلى اللغة السريانية، وكان لهم شأن أيما شأن في تعريف المسلمين بعلوم اليونان وطبهم وفلسفتهم. ولما اضطهدهم الإمبراطور زينون انتقلوا إلى فارس وأنشئوا مدرسة عظيمة الأثر في نصيبين. وعلا شأنهم بسبب اضطهاد الفرس لهم، وتكونت منهم جماعات في بلخ وسمرقند وفي الهند والصين؛ ولا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة في آسيا، ولا يزالون ينكرون عبادة مريم.

صفحة رقم : 4214

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

وكانت آخر الشيع المارقة الكبرى في ذلك العصر المضطرب وأعظمها أثراً في تاريخ المسيحية هي التي أنشأها أوتيكيس Eutyches رئيس دير قريب من القسطنطينية وكان أوتيكيس هذا يقول إن المسيح ليست له طبيعتان بشرية وإلهية، بل إن له طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية. ودعى فلافيان Flavian بطريق القسطنطينية مجعاً محلاً مقدساً أنكر هذه البدعة القائلة بالطبيعة الواحدة، وحرّم أوتيكس من الكنيسة المسيحية. ولجأ الراهب إلى أسقفى الإسكندرية وروما؛ وأقنع ديوسكوراس، الذي خلف سيريل، الإمبراطور ثودوسيوس بأن يدعو مجلساً آخر في إفسس (449). وكان للدين وقت إذ خاضعاً للسياسة فيرثاوتيكس وهوجم فلافيان هجوماً خطابياً عنيفاً قضى على حياته (5). وأصدر المجلس قراراً بلعنة كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح. ولم يحضر البابا ليو الأول المجلس، ولكنه بعث إليه بعد رسائل يؤيد فيها فلافيان. وأرتاع ليو من التقرير الذي أرسله إليه مندوبه، فأطلق على هذا المجلس "مجمع اللصوص" وأبى أن يوافق على قراراته، ثم عقد مجلس آخر في خلقيدون Chalcedon عام 451 أبدى استحسانه لرسائل ليو على أوتيكيس، وأيد من جديد ازدواج طبيعة المسيح. ولكن القاعدة الثامنة والعشرين من القواعد التي أقرها المجلس أكدت مساواة سلطة أسقف القسطنطينية لسلطة أسقف روما. وكان ليو قبل ذلك تدافع عن حقه في أن تكون لكرسيه السلطة العليا لأنه يرى ذلك ضرورياً لوحدة الكنيسة وسلطانها. لذلك رفض هذه القاعدة وبدأ بذلك نزاع طويل الأمد بين الكرسيين.

وزاد الاضطراب حتى أوفى على غايته حين رفضت كثرة المسيحيين في سوريا ومصر عقيدة الطبيعتين في شخص المسيح المفرد، وظل رهبان سوريا يعلمون الناس عقائد اليعقوبيين، ولما أن عين أسقف لكرسي الإسكندرية من أتباع الدين القويم قتل ومزق جسمه أرباً في كنيسة في يوم الجمعة الحزينة (6). وأصبحت

صفحة رقم : 4215

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> المارقون

اليعقوبية من ذلك الحين الدين القومي لمصر وأثيوبيا المسيحيين، ولم يحل القرن السادس حتى كانت لها الغلبة في غربي سوريا، وأرمينيا، بينما انتشرت النسطورية فيما بين النهرين وشرقي سوريا. وكان نجاح الثورة الدينية من أكبر العوامل في نجاح الثورة السياسية؛ ولما تدفق سيل العرب الجارف على مصر والشرق الأدنى في القرن السابع رحب بهم نصف سكانها ورأوا فيهم محررين لهم من استبداد العاصمة البيزنطية الديني والسياسي والمالي.

صفحة رقم : 4216

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> رومة

لم يظهر أساقفة روما في القرن الرابع بالمظهر الذي يشرف الكنيسة، ويعلى من قدرها: فهي هو ذا سلفستر (314-335) يعزى إليه فضل اعتناق قسطنطين المسيحية، ثم تقول الطائفة التقية المتدينة إنه تلقى من قسطنطين طبيته المعروفة "بعطية قسطنطين" وهي غرب أوربا بأكمله تقريباً ولكنه لم يسلك مسلك من يمتلك نصف عالم الرجل الأبيض. وقد أكد يوليوس الأول (337-352) سلطة كرسي روما العليا ولكن ليبريوس (352-366) خضع بسبب شيخوخته أو ضعفه إلى أوامر قسطنطين الأريوسية. ولما مات تنازع دماسوس Damasus ويورنسوس Urinus البابوية، وأنقسم الغوغاء أيضاً في تأييد المتنازعين بكل ما عرفته تقالي الديمقراطية الرومانية من عنف يستطيع القارئ أن يتصوره إذا عرف أنه قتل في يوم واحد وفي كنيسة واحدة 137 شخصاً في نزاع قام بين أنصار الرجلين(7): وقد أدى هذا إلى أن نفى بريكتاتوس، حاكم روما الوثني، يورنسوس منها، فاستدب الأمر لدماسوس وظل يصرف الشئون الدينية بغير قليل من المتعة والحذر: وكان الرجل من علماء الآثار، فأخذ يزين قبور الشهداء الرومان بالنقوش الجميلة وكان كما يقول بعض الوقحين، من الذين "يخدشون آذان السيدات" أي أنه كان بارعاً في جلب الهدايا إلى الكنيسة من نساء روما الموسرات(8).

وجلس ليو الأول، الملقب باليو الأكبر، على عرش بطرس خلال جبل (400-461) من الأزمات، استطاع فيه بشجاعته وحسن سياسته أن يزيد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> رومة

سلطة الكرسي الرسولي وهيئته. ولما أن رفض هيلاري بواتيه Hilary Of Poitiers أن يذعن لحكمه في نزاع شجر بينه وبين أسقف غالي آخر، أرسل إليه ليو أوامر حاسمة عاجلة، أيدها الإمبراطور فالنتينيان الثالث بمرسوم من أهم المراسيم الإمبراطورية يؤكد فيه سلطة أسقف روما على جميعا الكنائس المسيحية، وأعترف أساقفة الغرب بوجه عام بهذه السلطة العليا، أما أساقفة الشرق فقاوموها. وقال بطارقة القسطنطينية وإنطاكيا، وبيت المقدس، والإسكندرية، إن لهم من السلطة ما لكرسي روما، وظل الجدل العنيف قائماً بين الكنائس الشرقية وكانت في خلاله لا تطيع أوامر أسقف روما إلا في القليل النادر. واجتمعت صعاب النقل والاتصال مع اختلاف اللغة فزادت الفرقة بين الكنيسة الشرقية والغربية، لكن بابوات الغرب أخذوا يزيدون من نفوذهم حتى في غير الشئون الدينية: لقد كانوا يخضعون في

غير الشئون الدينية إلى الدولة الرومانية وإلى حكام روما، وظلوا حتى القرن السابع يطلبون إلى الإمبراطور يعتمد اختيارهم لمنصبهم الديني. ولكن بعدهم عن أباطرة الشرق وضعف حكام الغرب قد تركا البابا صاحب السلطان الأعلى في روما؛ ولما أن فر أعضاء مجلس الشيوخ وفر الإمبراطور من وجه الغزاة، وتقوضت دعائم الحكومة المدنية، وظل البابوات في مناصبهم لم يرهبهم شيئاً من هذا كله، لما حدث هذا ارتفعت مكانتهم ارتفاعاً سريعاً، وزادت هيبتهم، ولما اعتنق البرابرة الغربيون المسيحية زاد ذلك من سلطة كرسي روما ونفوذته زيادة كبرى. ولما تركت الأسر الغنية والأرستقراطية الدين الوثني واعتنقت المسيحية كان للكنيسة الرومانية نصيب متزايد من الثروة التي جاءت إلى عاصمة الدولة الغربية، ولشد ما دهش أميانوس حين وجد أن أسقف روما يعيش عيشة الأمراء في قصر لاتران Lateran، ويمشي في المدينة بمظاهر الأبهة الإمبراطورية (9). وازدانت المدينة وقتئذ بالكنائس الفخمة ونشأ فيها مجتمع ديني راق اختلط فيه رجال

صفحة رقم : 4218

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> رومة

الدين الظرفاء اختلاطاً ممتعاً بالغانيات الموسرات، وساعدوهن على أن يكتبن وصاياهن. وكانت جمهرة الشعب المسيحي تشترك مع البقية الباقية من الوثنيين في مشاهدة التمثيل والسباق والألعاب ولكن أقلية منهم حاولي أن تحبى حياة تتفق مع ما جاء في الأناجيل، وكان اثناسيوس قد جاء إلى روما يراهم مصربيين، وكتب ترجمة لحياة أنطونيوس وكان روفينوس Rufinus قد نشر في الغرب تاريخ الأديرة في الشرق، فتأثرت عقول أتقياء المسيحيين بما ذاع عن تدين أنطونيوس وشنوده، وبأخوم، وأنشأ سكستوس الثالث (Sextus III 432-440) وليو الأول أديرة، في روما، ورضيت كثير من الأسر أن تحيا حياة العفة والفقر التي يحياها الرهبان في الأديرة؛ وإن ظلت تقيم في منازلها. وخرجت كثير من السيدات ذوات الثراء مثل مرسل Marcella، وبولا، وثلاثة أجيال من أسرة ملانيا عن الجزء الأكبر من مالهن للصدقات، وأنشأ، المستشفيات والأديرة وحججن إلى رهبان الشرق، وبلغ من تقشفهن وزهدهن أ، مات بعضهن من الحرمان. وأخذت الدوائر الوثنية في روما تشكو من أن هذا النوع من المسيحية لا يتفق مع حياة الأسر، أو مع نظام الزواج، أو مع القوة التي تحتاجها الدولة، وثار الجدل الشديد حول آراء زعيم الزاهدين في الغرب، وهو في الوقت نفسه من أكبر العلماء وأنبه الكتاب الذين أنجبته الكنيسة المسيحية.

صفحة رقم : 4219

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> القديس جيروم

ولد حوالي عام 340 في استيريدوا Strido القريبة من كويليا، وأغلب الظن أنه من أصل دلماشي، وكأنما كان أهله ينتبئون بما سيكون له من شأن فسموه يوسيبوس هيرونيوس سفرونيوس Eusebius Hieronymus Sophronius "أي الحكيم المبجل صاحب الاسم المقدس"، ونال قسطاً كبيراً من التعليم في تيرير وروما، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة طيبة، وأحبها حباً وصل

صفحة رقم : 4220

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> القديس جيروم

في ظنه حد الخطيئة . ولكنه مع هذا كان مسيحياً شديداً التمسك بدينه، عاملاً بأوامره، ساعياً إلى خيره، انظم إلى روفينوس وغيره من أصدقائه في تكوين جماعة من الإخوان الزهاد في أكويليا . وكان يعظهم مواظباً يدعوهم فيها إلى الكمال، حتى لامه أسقفه لقلته صبره على ما في الطبيعة البشرية من أسباب الضعف، وكان جواب جيروم أن قال للأسقف إنه جاهل، اللفظ، أم، خليف بالقطيع العالمي الذي يقوده، مرشد غير حاذق، لسفينة ضالة(10)، وترك جيروم وبعض أصدقائه مدينة أكويليا تتردى في خطاياهم، رحلوا إلى الشرق الأدنى ودخلوا ديراً في صحراء خلقيس بالقرب من إنطاكية (374)، ولكنهم لم يحتملوا حرها القاسي غير الصحي فمات اثنان منهم، فأشك جيروم هو أيضاً أن يموت . ولكن هذا لم يثته عما أراده لنفسه، فغادر الدير ليعيش عيشة النساك في صومعة في الصحراء، وكان يرجع بين الفينة والفينة إلى فرجيل وشيشرون . ذلك أنه جاء معه بمكتبته، ولم يكن في وسعه أن يقطع صلته بالشعر والنثر الذين كان جمالهما يستهويه كما يستهوي جمال الفتيان غيره من الرجال . وإن ما يقوله هو نفسه عن هذا ليكشف عن طبيعة الناس في العصور الوسطى، فقد رأى فيما يراه النائم أنه مات :

"وجئ بي إلى مجلس إلى القضاة الأعلى ، وطلب إليّ أن أفصح عن أمر ، فأجبت بأنني مسيحي" . ولكن من كان يرأس الجلسة قال : إنك لتكذب، فما أنت بمسيحي ، ولكنك من أتباع شيشرون؛ فحيثما يكون كنزك يكون أيضاً قلبك" ففقد لساني من فوري ولم أحر جواباً، " ثم شعرت" بضربات السوط لأنه أمر بي أن أجلد ... وفي آخر الأمر خر من كانوا يشهدون المحاكمة سجداً بين يدي رئيس الجلسة وتوسلوا إليه أن يرحم شبابي ويتيح لي فرصة التوبة من ذنبي، على أن يصب على أقصى أنواع العذاب إذا ما عدت إلى قراءة كتب المؤلفين غير المسيحيين ... ولم تكن هذه التجربة أضغاث أحلام لذيدة ... بل إنني

صفحة رقم : 4221

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
القديس جيروم

لأقر بأن جلد كتفي قد ازرق واسود من شدة الضرب، وأني لبثت أحس بالرضوض بعد أن صحت بزم من طويل... وأخذت من ذلك الحين أقرأ كتب الله بحماسة أكثر من التي كنت أقرأ بها من قبل كتب بني الإنسان " (11). وعاد إلى إنطاكية في عام 379 ورسم فيها قسيساً. وفي عام 382 نجده في روما أميناً البابا ادماوس الذي كلفه لترجمة العهد الجديد إلى اللغة اللاتينية ترجمة خيراً من التراجم الموجودة في ذلك الوقت. وظل في منصبه الجديد يلبس للثوب القائم والجلباب اللذين كانا يلبسهما أيام نسكه، ويعيش عيشة الزهد في بلاط البابا الترف، وكانت مراسلا وبولا التقيان تستقبلانه في بيتهما الأرسقراطيين وتهديان بهديه الروحي، وكان نقاده الوثنيون يظنون أنه يستمتع بصحبة النساء أكثر مما يليق برجل مثله يمدح بأقوى الألفاظ عزوبة الرجال، وبقاء البنات عذراى. وقد رد عليهم بأن وجهه إلى المجتمع الروماني في عصره هجاء بألفاظ سيظل يذكرها الناس إلى أبد الدهر قال :

أولئك النسوة اللاتي يصبغن خدودهن بالأصباغ الحمراء، ويكتحلن بالإثمد ويضعن المساحيق على وجوههن ... واللاتي لا تقنعهن السنون مهما طالت بأنهن قد تقدمت بهن السن، واللاتي يكسفن الغدائر المستعارة، على رعوسهن. ويسلكن أمام أحفادهن مسلك فتيان المدارس اللاتي يرتجفن من الخوف... إن الأرامل الخارجات على الدين المسيحي يتباهين بأثوابهن الحريرية، ويتحلين بالجواهر البراقة، وتفوح منهن رائحة المسك... ومن النساء ما يلبسن ملابس الرجال، ويقصصن شعرهن... ويستحجن من أنوثتهن، ويفضلن أن يظهرن الخصيان... ومن النساء غير المتزوجات من يستعن بالسوائل لمنع الحمل، ويقتلن بني الإنسان قبل أن يحملن بهم، ومنهم من إذا وجدن أنهن قد حملن نتيجة لإثمهن يجهضن أنفسهن بما يتعاطين من العقاقير... لكن من النساء من

صفحة رقم : 4222

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
القديس جيروم

يقلن : "إن كل شئ ظاهر عند الطاهرات... فلما إذن أحرم على نفسي ما خلقه الله لأستمتع به؟" (12). وهو يؤنب امرأة رومانية بعبارات تتم عن تقديره لجمال النساء:

"أن صدرك مشقوفة عن عمد... وثديك مشدودان بأربطة من التيل، وصدرك سجين في منطقة ضيقة... وخمارك يسقط أحياناً حتى يترك كتفك البيضاوين عاريتين، ثم تسرعين فتغطين به ما كشفته عن قصد" (13).

ويضيف جيروم إلى تحير الرجال الأخلاقي مغالاة الفنان الأدب الذي يصور عصوراً من العصور، والمحامي الذي يتبسط في ملخص دعوى. ويذكرنا هجاء بهجاء جوفنال، أو بما نقرأه من هجاء هذه الأيام. ومن الطريف أن نعرف أن النساء كن على الدوام ذوات سحر ودلال كما هن في هذه الأيام. ويشبه جيروم جوفنال في أنه حين يطعن في أمر لا يرضيه يتقصاه بنزاهة وشجاعة. وقد روعه أن يجد التسري منتشرأ حتى بين المسيحيين، وروعه أكثر من هذا أن وجده يتخفى وراء ستار التعفف من أشق السبل. ومن أقواله في هذا: ترى من أي مصدر وجد هذا الوباء وباء "الأخت العزيزة المحبوبة" طريقه إلى الكنيسة؟ ومن أين جاءت هذه الزوجات اللاتي لم يتزوج أحد بهن؟ هذه السراري الحديثات، وهذه العاهرات التي اختص بهن رجل واحد؟ إنهن يعيشن مع أصدقائهن من الذكور في بيت واحد ويشغلن معهن حجرة واحدة، وكثيراً ما يشتركن معهم في فراش واحد؛ ومع هذا فهم يقولون عنا إننا نسئ بهن الظن إذا رأينا في هذا عيباً (14). وهو يهاجم القساوسة الرومان الذين كان في مقدورهم أن يرفعوه بتأييدهم إلى كرسي البابوية،

ويسخر من رجال الدين الذين يعقسون شعورهم، ويعطرون ثيابهم، ويترددون على المجتمعات الراقية؛ والقسيسين الذين يجرون وراء الوصايا ويستيقظون قبل مطلع الفجر ليزوروا النساء قبل أن يقمن من فراشهن (15)، ويندد بزواج القساوسة، وبشذوذهم الجنسي؛ ويدافع دفاعاً قوياً

صفحة رقم : 4223

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> القديس جيروم

عن بقاء رجال الدين بلا زواج؛ ويقول إن الرهبان وحدهم هم المسيحيون الحقيقيون المبرعون من الملك والشهوات، والكبرياء؛ ويدعو جيروم الناس كافة، ببلاغة لو سمعها كسنوفا Casanova لتعلق به وصار من أتباعه، لأن يخرجوا عن كل مالهم ويتبعوا المسيح؛ ويطلب إلى الأمهات أن يهين أول أبنائهن إلى الله، لأن أولئك الأبناء من حقه عليهن حسب نص الشريعة (16)؛ وينصح صديقاته من النساء أن يعشن عذارى في بيوتهن إذا تعذر عليهن أن يدخلن الدير. ويكاد جيروم أن يعد الزواج من الخطايا ويقول: "إني لا أمدح الزواج إلا لأنه يأتيني بالعذارى (17)، ويريد أن يقطع بفأس البكورية خشب الزواج" (18)؛ ويفضل يوحنا الرسول الأعزب على بطرس الذي تزوج (19). وأطرف رسائله كلها هي التي كتبها إلى فتاة (384) تدعى أوستكيوم Eustochium في لذة البكورية، ويقول فيها إنه لا يعارض في الزواج، ولكن الذين يتجنبونه ينجون من سدوم Sodom ومن آلام الحمل، وصراخ الأطفال، ومتاعب البيوت، وعذاب الغيرة. وهو يعترف بأن طريق العفة شاق أيضاً، وأن ثمن البكورية هو اليقظة الدائمة: "إن فكرة واحدة قد تكفي لضياح البكورية... فليكن رفاقك هم صفر الوجوه الذين هزلت أجسامهم من الصوم... وليكن صومك حادثاً يتكرر في كل يوم، اغسلي سريرك، ورشي مخدعك كل ليلة بالدموع... ولتكن عزلة غرفتك هي حارسك على الدوام... ودعي الله عريسك هو الذي يلعب معك في داخلها... فإذا غلبك النوم جاعك من خلف الجدار، ومد يده من خلال الباب، ومس بها بطنك، فصحوت من النوم وقمت واقفة وناديته "إني أهيم بحبك" فتسمعينه يقول: إن أختي، حبيبتي، جنة مغلقة، وعين ماء غير مفتوحة، وبنبوع مختوم" (20). ويقول جيروم إنه لما نشرت هذه الرسالة: "حياها الناس بوابل من

صفحة رقم : 4224

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> القديس جيروم

الحجارة"؛ ولعل بعض قرائها قد أحسو في هذه النصائح بلوعة سقيمة في رجل يبدو أنه لم يسلم بعد من حرارة الشهوات. ولما ماتت بليسلا Blecilla الفتاة الزاهدة بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت (384)، أخذ الكثيرون ينددون

بالزهد الصارم الذي علمها إياه جيروم، وأشار بعض الوثنيين بإلقائه هو وجميع رهبان روما في نهر التيبر. لكن جيروم لم يندم على ما فعل، ووجه إلى أمها التكلّي، التي كاد الحزن أن يذهب بعقلها، رسالة تعزية وتقريع. ولما توفي البابا دماسوس في ذلك العام نفسه لم يجدد خلفه تعيين جيروم أميناً لسره، فخرج من روما في عام 385 ولم يعد إليها أبداً، وصحب معه بولا Paula أم بليسلا وأوستكيوم أختها. وأنشأ في بيت لحم ديراً للرهبان صار هو رئيسه، وآخر للراهبات تولت رياسته بولا ومن بعدها أوستكيوم، كما أنشأ كنيسة ليتعبد فيها الرهبان والراهبات مجتمعين، ومضيفة لحجاج الأراضي المقدسة.

واتخذ له خلوة في كهف جمع فيها كتبه وأوراقه، وقضى وقته كله في الدرس والكتابة، وتعليم الناس الأسرار القدسية، وأقام فيها الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من حياته. وكان يجادل بقلمه كريستوم، وأمبروز، وبلاجيوس، وأوغسطين. وكتب نحو خمسين كتاباً في المشكلات الدينية، وفي تفسير الكتاب المقدس، تمتاز بقوة العقيدة التي لا تقبل جدلاً، وكان أعداؤه وأصدقاؤه على السواء يحرصون على قراءة كتبه. وقد أنشأ مدرسة في بيت لحم، وكان هو نفسه يعلم فيها الأطفال من غير أجر وبتواضع منقطع النظر كثيراً من الموضوعات المختلفة، منها اللغة اللاتينية واليونانية. والآن وقد أصبح قديساً ثابت العقيدة أحس بأن لا حرج عليه في أن يقرأ مرة أخرى الكتب القديمة التي حرمها على نفسه في شبابه. وواصل دراسة اللغة العبرية، وكان قد بدأ يدرسها حين أقام في بلاد الشرق أول مرة، وأخرج بعد ثمانية عشر عاماً من الجلد والدرس تلك الترجمة اللاتينية العظيمة الرائعة للكتاب المقدس، وهي الترجمة اللاتينية الشائعة

صفحة رقم : 4225

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> القديس جيروم

التي تعد حتى الآن أهم الأعمال الأدبية التي تمت في القرن الرابع وأعظمها أثراً. ولسنا ننكر أن في الترجمة، كما في كل عمل عظيم مثلها، أخطاء، وأن فيها "عجمة" وعبارات عامية ينفر منها المدقق الحريص على نقاء اللغة؛ ولكن لغة الكتاب اللاتينية أضحت هي لغة الدين والأدب طوال العصور الوسطى، وصبت سيلاً من العواطف والخيالات العبرية في قوالب لاتينية، وأدخلت في الأدب آلافاً من العبارات الرائعة الفصيحة القوية، التي تعد من جوامع الكلم وبفضل هذه الترجمة عرف العالم اللاتيني الكتاب المقدس كما لم يعرفوه من قبل.

ولم يكن جيروم قديساً إلا في أنه كان يحيا حياة الزهد، وأنه وهب نفسه للكنيسة، ولكننا لا نستطيع أن نعدده قديساً في أخلاقه أو أقواله. ومما يؤسف له أشد الأسف أن يجد الإنسان في أقوال هذا الرجل العظيم كثيراً من العبارات الدالة على الغيظ والحقد والجدل، وتحريف القول، والشراسة في الجدل، فهو يلقب يوحنا بطريق بيت المقدس بيهودا (خانن المسيح)، وبالشيطان، ويقول إن الجحيم لا تجد فيها ما يليق به من العقاب(21)، ويصف الرجل العظيم بأنه "غراب مشوه الخلق"(22)، وقد خلق المتاعب لصديقه القديم روفينوس بأن أخذ ينقب لأرجن Origen بعد وفاته عن أخطاء، وكان في عمله هذا عنيفاً إلى حد لم ير معه البابا أنستاسيوس بدأ من إدانته (400)، ولو أن جيروم قد ارتكب بعض الخطايا المادية لغفرناها له أكثر مما نغفر هذا الحقد الروحي الشديد.

صفحة رقم : 4226

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
القديس جيروم

ولم يتوان نقاده عن أن ينزلوا به أشد القصاص، رأوه يُعَلِّم الكتب اليونانية واللاتينية، اتهموه بالوثنية؛ ولما رأوه يَدْرُس اللغة العبرية على أحد اليهود، اتهموه بأنه ارتد إلى الدين اليهودي؛ ولما أهدى كتبه للنساء قالوا إن الباعث له على هذا هو الجشع المادي، أو ما هو أسوأ من الجشع المادي (22). ولم يكن سعيداً في شيخوخته؛ ذلك أن البرابرة انقضوا على بلاد الشرق الأدنى، واجتاحوا سوريا وفلسطين (395) "وكم من أديرة استولوا عليها، وكم من أنهار خضبت مياهها بالدماء!" ثم ختم أقواله بهذه العبارة "إن العالم الروماني يتساقط" (24). وماتت في أثناء حياته بولا ومرسالاً، وأوستكيوم وكن عزيزات عليه. وظل الرجل يواصل العمل في كتاب بعد كتاب، وقد ذبل جسمه وضعف صوته من فرط زهده، وتقوس عوده. وحضرته الوفاة وهو يكتب شرحاً لسفر أرميا لُقِدَ كان رجلاً عظيماً أكثر مما كان رجلاً صالحاً؛ وكان هجاء لاذعاً لا يقل في ذلك عن جوفنال، وكاتب رسائل لا تقل فصاحة عن سنكا، وعالمٌ مجدلاً لا ينقطع عن الدرس والتبحر في الدين.

صفحة رقم : 4227

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
الجنود المسيحيون

3- الجنود المسيحيون

لم يكن جيروم وأوغسطين إلا أعظم الرجلين في هذا العصر العجيب، فقد امتاز من "آباء" الكنيسة في بداية الهصور الوسطى ثمانية من علماء الدين: منهم في الشرق أنثاسيوس، وباسيلي، وجريجوري، ونزيانزين، ويوحنا كريستوم، ويوحنا الدمشقي؛ وفي الغرب أمبروز، وجيروم، وأوغسطين، وجريجوري الأكبر. وتدل سيرة أمبروز (340-؟395) على قدرة الكنيسة على أن تجتذب لخدمتها رجالاً من الطراز الأول، لو أنهم وجدوا قبل وقتهم بجيل واحد لكانوا خدماً للدولة. وقد ولد أمبروز في تريبير، وكان أبوه والياً على غالة، وكانت مخايل الأمور كلها والسوابق بأجمعها توحى بأنه سيكون من رجال السياسة. ولسنا ندهش

صفحة رقم : 4228

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
الجنود المسيحيون

حين نسمع بعد ذلك أنه كان والياً على شمال إيطاليا. وكان بحكم إقامته في ميلان وثيق الصلة بالإمبراطور الغرب، وقد وجد في الإمبراطور خلال الرومانية القديمة: العقل الراجح، والقدرة على التنفيذ، والشجاعة الهادئة. ولما علم أن الأحزاب المتنازعة قد اجتمعت في الكنيسة لتختار أسقفاً جديداً، أسرع إلى مكان الاجتماع وقمع بهيبته وقوة عبارته بوادر الفتنة بين المجتمعين، ولما عجزت الأحزاب المتنازعة عن الاتفاق على رجل يختارونه لهذا المنصب الديني، اقترح بعضهم أمبروز، وما كاد يُسمع اسمه حتى اجتمعت كلمة الحاضرين في حماسة منقطعة النظير، وأخذ الحاكم من فوره رغم احتجاجه فعمد، لأنه لم يكن قد عمد بعد، ورسم شماساً، ثم قساً، ثم أسقفاً، وتم ذلك كله في أسبوع واحد (474)(25).

وشغل الرجل منصبه الجديد، بالهيبه والمقدرة الخليقتين بالحاكم القدير، وبادر بالتخلي عن زخرف المنصب السياسي، وعاش عيشة تعد مضرب المثل في البساطة، فوزع أمواله وأملاكه على الفقراء، وباع الأبنية المقدسة في كنيسة ليفندي بثمنها أسرى الحرب (26). وكان عالماً متفهماً في الدين دافع بكل قوة عن المبادئ التي أقرها مجمع نيقية، وكان خطيباً مفوهاً لمواعظه الفضل في هدى أوغسطين، وشاعراً ألف عدداً من أقدم ترانيم الكنيسة وأنبليها، وقاضياً فضح بعلمه واستقامته مفاصد المحاكم المدنية، وسياسياً تعهد إليه الكنيسة والدولة بأشق المهام وأعظمها خطراً، ومنظماً دقيقاً كان سنداً قوياً للبابا وإن كان قد غطى عليه وحجبه، وعالماً دينياً أرغم ثيودوسيوس العظيم على التوبة، وكانت له السيطرة على خطط فلننتيان الثالث. وكان سبب هذه السيطرة أن كانت للإمبراطور الشاب أم أريوسية العقيدة تدعى جيسنتيا Justina حاولت أن تحصل على كنيسة في ميلان لقس أريوسي. ولكن المصلين من أتباع أمبروز ظلوا في الكنيسة المحاصرة ليلاً ونهاراً معتصمين فيها، اعتصاماً مقدساً يتحدثون أمر الإمبراطور بتسليم البناء "ومن ثم" كما يقول أوغسطين "نشأت عادة إنشاد الترانيم والأغاني، تقليداً لعادات الولايات الشرقية

صفحة رقم : 4229

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
الجنود المسيحيون

لإنقاذ الشعب من أن يضنيه طول يقظته وحزنه" (27)، وقاوم أمبروز الإمبراطور مقاومة عنيفة ذاع صيتها في الخافقين ونال التعصب على يديه نصراً مؤزرًا. وكان بولينوس (Paulinus 353-431) يمثل في نولا Nola بجنوب إيطاليا نوعاً من القديسين أرق حاشية وأطف معشراً من أمبروز. وكان بولينوس ينتمي إلى أسرة مثرية عريقة تقطن برديو Bordeaux، وقد تزوج من سيدة تنتمي إلى أسرة لا تقل عن أسرته في كرم محند، ودرس على الشاعر أوسنيوس Ausonius، وخاض غمار السياسة وارتقى رقياً سريعاً. ثم "انقلب" فجأة وتحول عن العالم تحولاً تاماً: فباع أملاكه، ووزع ماله كله على لفقراء؛ ولم يبق لنفسه منه إلا ما يسد ضرورات الحياة؛ ورضيت زوجته ثرازيا Therasia أن تعيش معه "أختاً له في المسيح" طاهرة. ولم تكن حياة الأديرة قد نشأت في الغرب ولهذا فقد اتخذوا من بيتها المتواضع في نولا ديراً خاصاً، عاشا فيه خمسة وثلاثين عاماً ممتنعين عن اللحم والخمر، ويصومان عدداً كثيرة من الأيام في كل شهر، وكانا سعيدين لأنهم تخلصا من متاعب الثروة ومشاعلها. واعترض أصدقاء شبابه الوثنيون، وخاصة أوسنيوس أستاذه القديم، على ما بدا

لهم أنه هرب من واجبات الحياة المدنية، فكان جوابه أن دعاهم ليشاركوه في سعادته. وقد احتفظ إلى آخر حياته بروح التسامح في هذا القرن المليء بالحقد والعنف. ولما مات اشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين في تشييع جنازته. وكتب بولينيوس شعراً مطرباً ساحراً، ولكنه لم يكتبه إلا عرضاً، أما الشاعر الذي كان يمثل النظرة المسيحية إلى الحياة في ذلك العصر أصدق تمثيل فهو أورليوس برودنتيوس كلمنز Aurelius Prudentius Clemenes الأسباني (348-410 تقريباً). فبينما كان كلوديان وأوستيوس يملآن أشعارهما بالآلهة الموتى، كان برودنتيوس يترنم بالأوزان القديمة في الموضوعات الحية الجديدة: كقصص الشهداء (في كتاب التيجان)، ويضع الترانيم لكل ساعة من ساعات اليوم، ويكتب

صفحة رقم : 4230

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي -> الجنود المسيحيون

بالشعر رداً على دفاع سيماكوس عن تمثال النصر. وفي هذه القصيدة الأخيرة وجه إلى هونوريوس تلك الدعوة الحارة الذائعة الصيت، التي أهاب فيها أن يمنع معارك المجالدين. ولم يكن يكره الوثنيين، بل إننا لنجد في أقواله ألفاظاً طيبة عن سيماكوس، وعن يولييان نفسه، وكان يرجو أبناء دينه المسيحيين ألا يتلقوا أعمال الوثنيين الفنية. وكان يشارك كلوديان في إعجابه بروما، ويثلج صدره أن يستطيع الإنسان التنقل في معظم أنحاء عالم الرجل الأبيض وهو خاضع لقوانين واحدة أمن على حياته أينما حل، "نعيش زملاء مواطنين كنا" (28). وإننا لنجد في أقوال هذا الشاعر المسيحي آخر أصداء أعمال روما المجيدة وسيادتها. ولم يكن أقل مفاخر روما أن أصبحت لغالة في ذلك الوقت حضارة من أرقى الحضارات. فقد كان في القرن الرابع أساقفة عظام لا يقلون شأناً عن أوسنيوس وسيدونيوس في عالم الأدب، نذكر منهم هيلاري البواتيري Hilry Of Poitiers وريمي الريمسي Remi Of Rrims وبيرونبيوس الأوتوني Eyphaonius Of Autuni، ومارتن التوري Martin Of Tours. وكان هيلاري المتوفى حوالي عام (367) من أنشط المدافعين على قرارات مجمع نيقية وقد كتب رسالة من اثنتي "عشرة مقالة" حاول فيها أن يشرح عقيدة التثليث. ولكننا نراه في كرسيه المتواضع في بواتيه يحيا الحياة الصالحة الخليقة بالرجل المسيحي المخلص لدينه يستيقظ في الصباح الباكر، ويستقبل كل قادم عليه، ويستمتع للشكليات، ويفصل في الخصومات، ويتلو القداس، ويعظ، ويعلم، ويملي الكتب والرسائل، ويستمتع في أثناء وجبات الطعام لقرارات من الكتب الدينية، ويقوم في كل يوم ببعض العمال اليدوية كزرع الأراضي أو نسج الثياب للفقراء (29). وكان بسيرته هذه يمثل رجل الدين الصالح أصدق تمثيل. وقد خلف القديس مارتن St. Martin شهرة أوسع من شهرة هؤلاء جميعاً. ففي فرنسا الآن 3675 كنيسة و425 قرية تسمى كلها باسمه. وقد ولد في بتونيا

صفحة رقم : 4231

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
الجنود المسيحيون

حوالي عام 316؛ وأراد، وهو في الثانية عشرة من عمره، أن يكون راهباً، ولكن أباه أرغمه، وهو في الخامسة عشرة، على الانضمام إلى الجيش؛ فلما كان فيه جندياً غير عادي، فكان يهب مرتبه للفقراء، ويساعد البائسين، ويتحلى بالوداعة والصبر كأنه يريد أن يتخذ من معسكر الجيش ديراً. ونال مارتن أمنيته بعد أن قضى في الخدمة العسكرية خمس سنين، فغادر الجيش ليعيش راهباً في صومعة، في إيطاليا أولاً، ثم في بواتييه بالقرب من هيلاري الذي كان يحبه. وفي عام 371 خرج أهل تور يطالبون بأن يكون أسقفاً عليهم، على الرغم من ثيابه الرثة وشعره الأشعث. فوافق على طلبهم، ولكنه أصر على أن يعيش كما كان عيشة الرهبان. وأنشأ في مرموتيه Marmoutier على بعد ميلين من تور ديراً جمع فيه ثمانين راهباً، وعاش معهم عيشة التقشف الخالية من الادعاء والتظاهر. وكان الأسقف رآه رجلاً لا يكتفي بالاحتفال بالقداس، والوعظ، وتقسيم العشاء الرباني، وجمع المال، بل يعمل أيضاً على تقديم الطعام للجياع، والكساء للعرايا، وعيادة المرضى، ومساعدة البائسين. وقد أحبته غالة كلها حباً جعل الناس في جميع أنحاءها يروون القصص عن معجزاته، ولقد بالغوا في هذا حتى قالوا إنه أحيى ثلاثة من الأموات (30). وقد اتخذته فرنسا من قديسيها الشفعاء.

واكن الدير الذي أنشأه مارتن في بواتييه (362) بداية أديرة كثيرة نشأت بعدئذ في عالة. وإذ كانت فكرة الأديرة قد جاءت إلى روما عن طريق كتاب أثاناسيوس المسمى "حياة أنطونيوس"، ودعوة جيروم القوية التي أهاب فيها بالناس أن يحيوا حياة الزهد، فقد كان طراز الرهبنة الذي انتشر في الغرب هو أشقها وأكثرها عزلة، وقد حاول أصحابه أن يمارسوا أقصى شعائرها في جو غير رحيم كما كان يمارسها المصريون في شمس مصر الدفيئة وجوها المعتدل. فقد عاش الراهب ولفليك Wulfilaich عدة سنين عاري الساقين حافي القدمين فوق

صفحة رقم : 4232

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الغرب المسيحي ->
الجنود المسيحيون

عمود في تيبير؛ وكانت أطراف أصابع قدميه تتساقط في الشتاء، وتتعلق قطع الجليد بلحيته. وحبس القديس سينيوخ نفسه بالقرب من تور في مكان ضيق بين أربعة جدران لم يستطع فيه أن يحرك النصف الأسفل من جسمه. وعاش على هذا النحو سنين كثيرة، كان فيها موضعاً لإجلال الشعب (31). وأدخل القديس يوحنا كسيان John Cassian في الرهبنة آراء باخوم لبوزان بها نشوة أنطونيوس الروحية. فقد أوحى إليه بعض مواضع كريستوم أن ينشئ ديراً للرجال وآخر للنساء في مرسيبية (415)، وأن يضع لهما أول ما وضع في الغرب من قوانين لحياة الرهبنة، وكان خمسة آلاف راهب في بروفانس Prevence يعيشون حسب ما وضعه من القواعد قبل أن يموت في عام 435. وبعد عام 400 بقليل أنشأ القديسان هونوراتوس Honoratus وكبراسيوس Caprasius ديراً على جزيرة ليرن Lerins لمواجهة لمدينة كان Cannes. وكانت هذه الأديرة تعود الناس التعاون في العمل، والدرس، والتبحر في العلوم، أكثر مما تعلمهم التعبد في عزلة، ولم يلبث أن صارت مدارس لتعليم أصول الدين، كان لها أبلغ الأثر في أفكار الغرب. ولما تولى القديس بندكت حكم غالة من الوجهة الدينية في القرن التالي، أقام حكمه على تقاليد كاسيان التي كانت من خير النظم الدينية في التاريخ كله.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي ->
رهبان الشرق

الفصل الرابع

الشرق المسيحي

1- رهبان الشرق

لما أن أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الملايين من بني الإنسان، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين، أخذت تنظر إلى الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحياناً في هذا الاستمتاع. غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى في النزول إلى هذا الدرك خيانة للمسيح، واعتزمت أن تجد مكانها في السماء عن طريق الفقر، والعفة، والصلاة، فاعتزلت العالم اعتزلاً تاماً. ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالي 250 ق.م) قد جاءوا إليه بنظرية بوذية وقوانينها الأخلاقية؛ ولربما كان النساك الذين وجدوا في العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس Serapis في مصر أو جماعات الإسينيين في بلاد اليهود قد نقلوا إلى أنطونيوس وباخوم المثل العليا للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة. وكان الكثيرون من الناس يرون في الرهبنة ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين؛ فلم يكن في الدير ولا في الصومعة الصحراوية ضرائب، أو خدمة عسكرية، أو منازعات حربية، أو كدح ممل. ولم يكن يطلب إلى الراهب ما يطلب إلى القسيس من مراسم قبل رسامته، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام.

ويكاد مناخ مصر أن يغري الناس بحياة الأديرة، ولهذا غصت

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي ->
رهبان الشرق

بالرهبان النساك الفرادي والمجتمعين في الأديرة يعيشون في عزلة كما كان يعيش أنطونيوس، أو جماعات كما كان يعيش باخوم في تابن Tabenne. وأنشأت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتي النيل، وكان بعضها يحتوي نحو ثلاثمائة من الرهبان والراهبات. وكان أنطونيوس (251-356) أشهر النساك الفرادي، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر. وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه في تعبدته ونسكه، وبنوا صوامعهم في أقرب مكان منه سمح به، حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحانيين. وقلما كان يغتسل، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمسة من السنين. ورفض دعوة وجهها إليه قسطنطين، ولكنه سافر إلى الإسكندرية في سن التسعين ليؤيد أثناسيوس ضد أتباع أريوس. وكان يليه في شهرته باخوم الذي أنشأ في عام 325 تسعة أديرة للرجال وديرًا واحدًا للنساء. وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون، ويركبون القوارب في النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشترون في المعارك الكنسية-السياسية. ونشأت بين النساك الفرادي منافسة قوية في بطولة النسك يتحدث عنها دوشين Abbe Duchesne بقوله إن مكاريوس الإسكندري "لم يكن يسمع يعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتي بأعظم منه"، فإذا امتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ في الصوم الكبير امتنع هو عن أكل سبع سنين؛ وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو "يبذل جهد المستميت لكي يظل مستيقظًا عشرين ليلة متتابعة"، وحدث مرة في صوم كبير أن يظل واقفًا طوال هذا الصوم ليلاً ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة في الأسبوع، ولم يكن طعامه هذا أكثر من بعض أوراق الكرنب،

صفحة رقم : 4235

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي ->
رهبان الشرق

ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التي اختص بها وهي صناعة السلال(32). ولبيت ستة أشهر ينام في مستنقع، ويعرض جسمه العريان للذباب السام(33). ومن الرهبان من أوفوا على الغابة من أعمال العزلة؛ ومن ذلك سرابيون Serapion الذي كان يعيش في كهف في قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها عدد قليل من الحجاج. ولما وصل جيروم ويولا إلى صومعته هذه وجدوا فيها رجلاً لا يكاد يزيد جسمه على بضعة عظام وليس عليه إلا خرقة تستر حقويه، ويغطي الشعر وجهه وكتفيه، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكوّن من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر. ومع هذا فإن هذا الرجل قد عاش من قبل بين أشرف روما(34). ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion أو خمسين عاماً مثل باخوم(35). منهم من تخصصوا في الصمت وظلوا عدداً كبيراً من السنين لا تتفرج شفاهم عن كلمة واحدة. ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقلاً أينما ذهبوا. ومنهم من كانوا يشدون أعضائهم بأطواق أو قيود أو سلاسل. ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التي لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة(36). وكان النساك المنفردون جميعهم تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام، ومنهم من عمّروا طويلاً. وحدثنا جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير. ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف، وبعث به إلى ناسك آخر، وأرسله هذا إلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء (كما يؤكد لنا روفينس)، وعاد مرة أخرى كاملاً إلى مكاريوس(37).

وكان الحجاج، الذين جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحي ليشاهدوا رهبان الشرق، يعزّون إلى أولئك الرهبان معجزات لا تقل في غرابتها عن معجزات المسيح، فكانوا كما يقولون- يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة؛ وكانوا يروّضون الأفاعي أو الأساد بنظرة

صفحة رقم : 4236

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> رهبان الشرق

أو دعوة، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح. وقد أصبحت مخلفات النساك أثنى ما تمتلكه الكنائس المسيحية، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم. وكان رئيس الدير لا يطلب إلى الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء، ويمتنح الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم. وتقول إحدى القصص إن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز في نار مضطربة فصدع الراهب الجديد بالأمر؛ فانثقت النار حتى خرج منها بسلام. وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا رئيسه في الأرض ويسقيها حتى تخرج أزهاراً؛ فلبث الراهب عدة سنين يذهب إلى نهر النيل على بُعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا، حتى رحمه الله في السنة الثالثة فأزهرت (38). ويقول جيروم (39) إن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل "لئلا تضلهم الأوهام الخطرة"؛ فمنهم من كان يحرق الأرض، ومنهم من كان يعتني بالحدائق، أو ينسج الحصر أو السلال، أو يصنع أحذية من الخشب. أو ينسخ المخطوطات. وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة. على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل (40). ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان؛ وقد أبت العذراء سلفيا أن تغسل أي جزء من جسدها عدا أصابعها، وكان في أحد الأديرة النسائية 130 راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها. لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالي آخر القرن الرابع، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط فأخذ يحن إلى تلك الأيام التي لم يكن فيها الرهبان "يغسلون وجوههم قط" (41). وكان الشرق الأدنى ينافس مصر في عدد رهبانها وراهباتها وعجائب فعالهم فكانت إنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والراهبات، وكانت صحراء سوريا غاصة بالنساك، منهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر

صفحة رقم : 4237

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> رهبان الشرق

من المساكن، فيقضي حياته في الطواف فوق الجبال يطعم العشب البري(42). ويروي لنا المؤرخون أن سمعان العمودي (Simeon Stylites 390-459) كان لا يذوق الطعام طول الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً. وقد أصر في عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله أن يوضع في حظيرة وليس معه إلا قليل من الخبز والماء" وأخرج من بين الجدران في يوم عيد الفصح فوجد أنه لم يمسه الخبز أو الماء. وبنى سمعان لنفسه في عام 422 عموداً عند قلعة سمعان في شمال سوريا وعاش فوقه. ثم رأى أن هذا اعتدال في الحياة يجلبه العار فأخذ يزيد من ارتفاع العمود التي يعيش فوقها حتى جعل مسكنه الدائم فوق عمود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ولم يكن محيطه في أعلاه يزيد على ثلاث أقدام، وكان حول قمته سور يمنع القديس من السقوط على الأرض حين ينام. وعاش سمعان على هذه البقعة الصغيرة ثلاثين عاماً متواليه معرضاً للمطر والشمس والبرد، وكان أتباعه يصعدون إليه بالطعام وينقلون فضلاته على سلم يصل إلى أعلى العمود. وقد شد نفسه على هذا العمود بحبل حز في جسمه، فتعفن حوله، وتنتن وكثرت فيه الديدان، فكان يلتقط الدود الذي ينساقط من جروحه ويعيده إليها ويقول: "كلي مما أعطاك الله!". وكان يلقي من منبره العالي مواظ على الجماهير التي تحضر لمشاهدته، وكثيراً ما هدى المتبريرين، وعالج المرضى، واشترك في السياسة الكنسية، وجعل المرابين يستحون فينقصون فرائد ما يقرضون من المال إلى ستة في المائة بدل لثني عشر(43). وكانت تقواه سبباً في إيجاد طريقة النسك فوق الأعمدة، وهي الطريقة التي دامت اثني عشر قرناً. ولا تزال باقية حتى اليوم بصورة دنيوية خالصة.

ولم ترض الكنيسة عن هذا الإفراط في التقشف، ولعلها كانت تحس بشيء من الفخر الوحشي في هذا الإذلال النفسي، وبشيء من الشراهة الروحية في هذا الإنكار الذاتي، وبشيء من الشهوانية الخفية في هذا الفرار من النساء ومن العالم

صفحة رقم : 4238

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> رهبان الشرق

كله. وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والأحلام الجنسية، وصوامعهم تتردد فيها أصداء أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغرامية. وكانوا يعتقدون أن الهواء الذي يحيط بهم غاص بالشياطين التي لا تتفك تهاجمهم؛ ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة في العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات المدن. وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله؛ فها هو ذا روفينس يحدثنا عن راهب شاب دخلت عليه في صومعته امرأة جميلة، فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها، ثم اختفت من فورها في الهواء كما ظن هو، فما كان من الراهب إلا أن خرج هائماً على وجهه، إلى أقرب قرية له، وقفز في فرن حمام ليطفئ النار المستعرة في جسمه. وتروي قصة أخرى عن فتاة استأذنت في الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها فرضى أن يؤويها وقتاً قصيراً، ولكن حدث في تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سني التقشف الطوال التي مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر، وحاول الراهب أن يمسك بها، ولكنها اختفت عن ذراعيه وعن عينيه. ويقول الرواة إن جماعة من الشياطين أخذت تعني وتهلل طرباً وتضحك من سقطته، ويقول روفينس إن الراهب لم يطق حياة الرهينة بعد تلك الساعة؛ فقد عجز كما عجز بفنوس Paphnuce في مسرحية تيبس Tuais لأناتول فرانس عن أن يبعد عنه رؤيا الجمال التي أبصرها أو تخيلها، فغادر صومعته وانغمس في الحياة المدنية، وسار وراء هذه الرؤيا حتى أوصلته آخر الأمر إلى الجحيم(44).

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة على الرهبان في أول الأمر؛ وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنوتية، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطها هذا واقعة عليها، فقد كان لها نصيب من المجد الذي ينالونه بأعمالهم. ولم يكن في وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبنة.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> رهبان الشرق

نعم إنها كانت تمتدح العزوبة، والبكورية، والفقر، ولكن لم يكن في وسعها أن تعد الزواج، أو الأبوة، أو الملكية من الخطايا، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشري ويتناسل ويكثر. وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم، ويضايقون الناس بإحافهم في السؤال. ومنهم من كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيبية أو زائفة، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة، ويحرضون ذوي الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية، أو يدعونه في بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا Hypatia. ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال الفردية التي يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم، وقد قرر مجلس خلقيدون (451) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة، وأن الذين يهبون أنفسهم لها لا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منه، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

لقد نالت المسيحية في الوقت الذي نتحدث عنه نصراً في بلاد الشرق يكاد أن يكون تاماً، ففي مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط هم أغلبية السكان، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكنائس والأديرة، واعترف تسعون أسقفاً مصرياً بسلطة بطريق الإسكندرية، وهي سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة. وكان بعض هؤلاء البطارقة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفيلس الذي حرق هيكل سرايبس الوثني ومكتبته (389). وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس الأب سينسيوس Sinesius أسقف بطوليمائس

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

المتواضع. وكان مولده في قوريني (حوالي عام 365)، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة في الإسكندرية على هيباشيا؛ وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفي، وكان يسميها: "الشارحة الحقة للفلسفة الحقة". ثم زار أثينا، وفيها قويت عقيدته الوثنية، ولكنه تزوج بامرأة مسيحية في عام 403، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحي، ووجد أن من المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثلوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد، والفكر، والنفس، إلى الأب، والروح، والابن (45). وكتب كثيراً من الرسائل البديعة، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن لا يوجد بينها شيء ذو قيمة للقارئ في هذه الأيام، إذا استثنينا مقاله "في مدح الصلح". وفي عام 410 عرض عليه توفليس أسقفية بطوليمائس، وكان وقتئذ من سراة الريف وممن كان مألهم أكثر من مطامعهم، فقال إنه غير أهل لهذا المنصب، وإنه لا يؤمن ببعث الأجسام (كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية) وإنه متزوج، ولا يريد أن يهجر زوجته. ولكن العقائد المقررة كانت في نظر توفليس مجرد آلات، فغض النظر عن هذه المخلفات وعين سينسيوس أسقفاً قبل أن يفصل الفيلسوف في أمره. ومن الحوادث الطريفة التي تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيباشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح (46).

وعملت الهياكل الوثنية في سوريا بالطريقة التي تتفق مع طباع توفليس، فقد صدر أمر إمبراطوري يقضي بإغلاقها؛ وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا ألتهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاة. وكان للمسيحية في أسية زعماء أعظم حكمة من زعمائهما في مصر. فمن هؤلاء باسيلي العظيم الذي تعلم في حياته القصيرة التي لا تزيد على

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

خمسين عاماً (329-؟ 379) البلاغة على ليبيانيوس في القسطنطينية، ودرس الفلسفة في أثينا، وزار النساك في مصر وسوريا، ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم، ثم صار أسقفاً لقيصرية كبدوكيا، ونظم شئون المسيحية في بلاده، فأعاد النظر في شعائرها، وأدخل فيها نظام رهبنة الأديرة التي تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو المسيطر على جميع أديرة العالم اليوناني الصقلي. وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المسرحية، وأن يستعوضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع، وهو يرى أن حرب الأرض من خير أنواع العبادة. ولا يزال الشرق المسيحي حتى الآن يعترف بما له في المسيحية من أثر لا يضارعه أثر غيره.

أما القسطنطينية فلم يكذب في أثر للعبادة الوثنية، بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها، فقد كانت الأريوسية لا تزال قوية، وكانت بدع دينية خارجة على الدين لا تتقطع عن الظهور، حتى ليكاد يكون

لكل رجل فيها آراؤه الخاصة في الدين. وفي ذلك يقول جريجوري النيسي Gregory Nyassa أخو باسيلي : "هذه المدينة مملأ بالصناع والعبيد، وكلها من المتقهمين في الدين الذين يعظون الناس في الشوارع والحوانيت، فإذا طلبت إلى أحد منهم أن يبذل لك قطعة نقود فضية، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الأبن والأب، وإذا سألت عن ثمن رغيف ... قبيل ذلك إ، الابن أقل منزلة من الأب؛ وإذا سألت هل أعد لك الحمام، كان الجواب أن الأبن قد خلق من لاشيء" (47). وكان أول دير أنشئ في العاصمة الجديدة هو الذي أنشأه أسحق السوري في أيام ثيودوسيوس الأول وسرعان ما تضاعف

صفحة رقم : 4243

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

عدد الأديرة فيها حتى إذا وافى عام 400 كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنتشر الرعب في المدينة، وكان لهم شأن صاخب في النزاع القائم بين هذا البطريق وذاك وبين البطريق والإمبراطور. وتعلم جريجوري نزيانزين مرارة الحقد الطائفي حين قبل دعوة وجهها إليه مسيحيوا القسطنطينية لأن يكون أسقفاً عليهم (379). وكان فالنز قد مات تواء، ولكن أتباع أريوس الذين ناصرهم الإمبراطور من قبل، كانوا لا يزالون يتولون معظم المناصب الكنسية وقيمون صلواتهم في كنيسة أيا صوفيا. ولذلك اضطّر جريجوري أن يصنع مذبحة ويأوي أتباعه في بيت صديق له، ولكنه أطلق على كنيسته المتواضعة اسماً يدل على كبير أمله فيها، لقد سماها أناستازيا Anastasia (البعث)، وكان رجلاً أوتى من التقوى بقدر ما أوتى من العلم، درس في أثينة مع مواطنه باسلي، ولم يكن أحد أفصح منه إلا الرجل الذي جاء بعد خلفه وزاد أتباعه زيادة مطردة حتى كانوا أكثر من المتعبدین في الكنائس الرسمية، وفي عشية عيد الفصح من عام 379 هجم جماعة من الأريوسيين على كنيسة الأناستازيا ورجموها بالحجارة، وبعد ثمانية عشر شهراً من هذا الحادث أخذ الأميراطور ثيودوسيوس بيد جريجوري ورفع على عرشه الخليفة به في كنيسة أياصوفيا وسط مظاهر التكريم والنصر العظيم. ولكن السياسة الكهنوتية لم تلبث أن قضت على هدوءه وأطمئنانه، فقام جماعة من شاننيه الأساقفة يعلنون أن تعينه باطل، وأمروه أن يدافع عن نفسه أمام مجلس ديني، ورأى جريجوري أنه أكبر من أن يدافع عن كرسية، فاعتزل منصبه (381)، وعاد إلى فنزيانزوس Nazianzus في كبدوكيا ليقتضي فيها الثماني السنين الباقية من حياته بعيداً عن أعين الخلق في عزلة وهدوء. وخلفه في منصبه رجل خامل غير خالق الذكر، ولما مات دعت الحاشية الإمبراطورية إلى كنيسة أياصوفيا قساً من إنطاكية يعرف في التاريخ باسم

صفحة رقم : 4244

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

القديس يوحنا كريستوم - أي صاحب الفم الذهبي. وقد ولد حوالي عام 345 من أسرة شريفة، وتلقى فنون البلاغة في ليبانيوس، وألم بالأدب والفلسفة الوثنية، وكان الأبحار الشرقيون بوجه عام أعزراً وعلماً وأكثر براعة في الجدل من أبحار العرب، وكان يوحنا رجلاً قوي الذهن حاد الطبع، أزعج أتباعه الجدد باصطناع الجد في المسيحية، والتدبير بمظالم العصر وفساده الخلفي بأصرح الألفاظ (48). وصف المسرح بأنه معرض للنساء الفاجرات، ومدرسة للفسق والغوايات والدسائس. وأخذ يسائل سراة المسيحيين في العاصمة لم ينفقوا الكثير من أموالهم في الخلاعة والمجون، ولا يهبون الكثير منها إلى الفقراء كما أمرهم المسيح. ويعجب كيف يكون لبعض الناس عشرون قصراً وعشرون حماماً، وألف عبد، وأبواب من العاج، وأرض من الفسيفساء وجدران من الرخام، وسقف من الذهب؛ وينذر الأغنياء بعذاب النار لأنهم يحيون ضيوفهم بالبنيات الفاسدات الراقصات (49). وكان يلوم أتباعه من رجال الدين على حياة التبطيل والنعيم (50). وعلى قيام النساء بخدمتهم في بيوتهم الكنسية مما يحمل الناس على الارتياح فيهم وإساءة الظن بهم. وقد أقال ثلاثة عشر أسقفاً من الخاضعين لسلطته لفساد أخلاقهم أو متاجرتهم بالدين، وأبن رهبان القسطنطينية لأنهم يقضون في الشوارع من الوقت أكثر مما يقضونه في صوامعهم. وكان هو نفسه يضرب أحسن الأمثلة في العمل بما يعظ به فلم يكن ينفق إيراد دائرته الدينية في المظاهر الكاذبة التي كانت من مميزات الأسقفيات الشرقية، بل كان ينفقها في بناء المستشفيات، ومساعدة الفقراء. ولم تسمع القسطنطينية قبله مواظب تضارع مواظبه قوة، وبلاغة، وصراحة، فلم تكن مليئة بالمعنويات الدالة على التقى والورع، بل كانت سنناً مسيحية تطبق تطبيقاً صارماً إلى أقصى حدود الصرامة.

"هل في الناس من هم أظلم من الملاك؟ فأنت إذا نظرت إلى الطريقة التي يعاملون بها مستأجري أملاكهم رأيتهم أشد وحشية من البرابرة. فهم يفرضون

صفحة رقم : 4245

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

ضرائب فادحة لا آخر لها على الذين أنهك الجوع والكدح أجسامهم طوال حياتهم، ثم يفرضون عليهم فوق ذلك خدمات لا طاقة لهم بها... يرغمونهم على العمل طوال فصل الشتاء في البرد والمطر، ويحرمونهم من النوم ويرسلونهم إلى بيوتهم محرومين من كل شيء...
 وإن ما يقاسيه أولئك الرجال على أيدي عمال الملاك من عذاب، وضرب، وما يرغمون على أدائه من ضرائب فادحة، وخدمات خالية من الرحمة، لا شد عليهم من ألم الجوع. ومثدا الذي يستطيع إحصاء الوسائل التي يلجأ إليها أولئك الوكلاء لاستخدام المستأجرين في جر المغنم لهم ثم حرمانهم من ثمار كدحهم؟ فهم يديرون بقوة عضلاتهم مما يمتلكه أولئك الوكلاء من معاصر الزيتون، ولكنهم لا ينالون نصيباً مهماً قلّ مت الزيت الذي يرغمون على تعبته في الزجاجات أولئك الوكلاء ظلماً وعدواناً؛ وهم لا يؤجرون على عملهم هذا إلا أجراً ضئيلاً".
 وبعد، فإن جماعة المصلين في الكنائس يحيون أن يؤنّبوا، ولكنهم لا يحيون أن يقوموا. ومن أجل هذا ظلت النساء يتعطرن، وظل الأغنياء يقيمون المآدب الفخمة، وظل رجال الدين منهمكين في شؤونهم النسائية الخاصة، وبقيت دور التمثيل تعرض مناظرها المألوفة؛ وسرعان ما وقفت كل طائفة في المدينة، عدا الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول، تعارض الرجل ذا الفم الذهبي. وكانت الإمبراطورة يودكسيا زوجة أركاديوس تترجم الطائفة المتعتمة من أهل العاصمة في حياة الترف. وقد فسرت إحدى العبارات الواردة في مواظب يوحنا بأنها تشير إليها هي، وطلبت إلى زوجها الضعيف أن يعقد مجلساً دينياً لمحاكمة البطريق. وأجابها الإمبراطور إلى طلبها، وعقد في عام 403 مجلس

من أساقفة الشرق في خلقيدون. ورفض يوحنا المثلث أمامه محتجاً بأنه يجب ألا يحاكم أمام أعدائه. فقرر المجلس خلعه، وذهب الرجل إلى المنفى في هدوء، ولكن

صفحة رقم : 4246

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الشرق المسيحي -> الأساقفة الشرقيون

الناس ضجوا بالاحتجاج ضجيجاً أخاف الإمبراطور، فارجعه إلى كرسيه. ولم تمض إلا بضعة أشهر حتى قام مرة أخرى بندد بالطبقات الغنية، ويبدى بعض آراء انتقادية على تمثال للإمبراطورة، فطلبت يودكسيا مرة أخرى طرده، وقام توفيلس بطريق الإسكندرية، وهو الرجل المتأهب على الدوام لأن يضعف الكرسي المنافس له، يذكر أركاديوس بأن قرار خلقيدون القاضي بخلعه لا يزال قائماً، يمكن تطبيقه عليه، وأرسل الجند للقبض على كريستوم؛ ونقل الرجل إلى الضفة الأخرى من البسفور ونفى في قرية من قرى أرمينية (404). ولما أن سمع أتباعه الأوفياء بهذا النبأ تاروا ثورة عنيفة، أحرقت. أثناءها كنيسة أياصوفيا ومجلس الشيوخ القريب منها. وأرسل كريستوم من منفاه رسائل استغاثة إلى هونوريوس وإلى أسقف روما، فأمر أركاديوس بنقله إلى صحراء بتيوس البعيدة في بنطس. ولكن الأب المنهوك القوى مات في الطريق عند بلدة كوماننا Comana في الثانية والستين من عمره (407). وظلت الكنيسة الشرقية منذ ذلك اليوم حتى الآن - مع استثناء فترات قصيرة - خادمة للدولة خاضعة لأوامرها.

صفحة رقم : 4247

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الأثم

الفصل الخامس

القديس أوغسطين

وكانت أفريقية الشمالية التي ولد فيها أوغسطين موطن خليط من الأجناس والعقائد، أمتزج في أهلها الدم البوني والنوميدي بالدم الروماني، ولعلهما أمتزجا في أوغسطين. وكان كثيرون من الناس يتكلمون اللغة البونية وهي لغة قرطاجة الفينيقية القديمة، وقد بلغوا من الكثرة حداً اضطرت معه أوغسطين وهو أسقف ألا يعين من القساوسة إلا من كان يتكلم هذه اللغة. وكانت الدونانية فيها تتحدى الديانة القويمة، والمانية تتحداهما جميعاً، ويلوح أن كثرة الأهلين كانت لا تزال وثنية (52). وكان مسقط رأس أوغسطين هو بلدة تاجستي في نوميديا. وكانت أمه القديسة مونكا Monica مسيحية مخلصنة قضت حياتها كلها تقريباً في العناية بولدها الضال والدعاء له بالهداية. أما والده كان رجلاً قليل المال، ضعيف المبادئ صبرت مونكا على عدم وفائه ليقينها أنه لن يستمر على هذا إلى أبد الدهر. ولما بلغ الغلام الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة في مدورا Madaura، ولما بلغ السابعة عشر أرسل ليتم دراساته العليا في قرطاجنة. وقد وصف سلفان أفريقية بعد ذلك الوقت بقليل بأنها "بالوعة أقدار العالم"، كما وصف قرطاجنة بأنها "بالوعة أقدار أفريقية". ومن أجل هذا كانت النصيحة التي أسدتها مونكا لولدها وقت وداعه هي كما جاءت على لسانه.

"لقد أمرتني، وحذرتني في جد وصرامة من مخالفة أمرها، وألا أرتكب

صفحة رقم : 4248

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الأثم

الفحشاء، وخاصة ألا أدنس عرض امرأة متزوجة. وخيل إلي أن هذه الأقوال لا تعدو أن تكون نصائح امرأة، وأن من العار أن أعمل بها... واندفعت في غوايتي اندفاع الأعمى، حتى كنت أحجل وأنا بين لذاتي من أن أرتكب ذلك الجرم الشنيع فأكون أقل منهم قحة حين كنت أستمع إليهم يتفاخرون أعظم الفخر بأنامهم؛ نعم فقد كان تفاخرهم يعظم كلما زادت حيوانيتهم. وكنت أسر من هذه الأعمال الفاضحة، ولكم يكن ذلك لما فيها من لذة فحسب، بل لما أناله بسببها من المديح... فإذا عدمت فرصة ارتكاب عمل من الأعمال الإجرامية، التي تسلكني مع السفلة الخاسرين : تظاهرت بأني قد فعلت ما لم أفعله قط" (54).

وقد أظهر أوغسطين أنه تلميذ مجد في اللغة اللاتينية، وفي العلوم الرياضية، والموسيقى والفلسفة" وكان عقلي القلق عاكفاً على طلب العلم" (55). ولم يكون يحب اللغة اليونانية، ولذلك لم يتقنها ولم يتعلم آدابها، ولكنه افتتن بأفلاطون افتتاناً جعله يلقبه "نصف الإله" (56)، ولم يمتنع عن أن يكون أفلاطونياً بعد أن صار مسيحياً. وقد هياها مرانه الوثني في المنطق والفلسفة لأن يكون أعظم الفقهاء دهاء في الكنيسة المسيحية.

ولما أتم دراسته أخذ يعلم النحو في تاجستي ثم البلاغة في قرطاجنة. وإذا كان قد بلغ وقتئذ السادسة عشر من عمره فقد "كثر الكلام حول اختيار زوجة لي". ولكنه فضل أن يتخذ له خليفة -وهي طريقة سهلة ترضاها المبادئ الأخلاقية والوثنية والقوانين الرومانية. وإذ لم يكن أوغسطين قد عمد بعد، فقد كان في وسعه أن يستمد مبادئه الخلقية أنى شاء. وكان اتخاذ خليفة له ارتقاء من الناحية الأخلاقية، فقد أنقطع بعدها عن الاختلاط الجنسي الطليق، ويلوح أنه ظل وفيماً لخليفته حتى افترقا في عام 385. ووجد أوغسطين نفسه في عام 382 وهو لا يزال في الثامنة عشر من عمره أباً لولد ذكر على كره منه، وقد لقب هذا الولد في وقت من الأوقات "ابن خطيئتي"، ولكنه كان يسميه عادة أديوداتوس

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الأثم

Adeodatus - أي عطية الله، وقد أحب الولد فيما بعد حباً شديداً، ولم يكن يسمح له أن يبتعد عنه قط. ولما بلغ التاسعة عشرة من العمر غادر قرطاجنة إلى عالم روما الواسع. وخشيت أمه ألا يعمد فرجته ألا يذهب إلى روما، فلما أصر على الذهاب، توصلت إليه أن يأخذها معه. فتظاهر بموافقتها على توصلها، ولكنه حين ذهب إلى الميناء تركها تصلي في معبد صغير وأبحر دون أن يأخذها معه (57). وقضى عاماً في روما يعلم البلاغة، ولكن تلاميذه لم يؤدوا له أجره، فطلب أن يعين أستاذاً في ميلان، وامتحنه سيماخوس ووافق على طلبه وأرسله إلى ميلان ببريد الدولة، وهناك لحقت به أمه الشجاعة، وأقنعت به بأن يسمع معها إلى مواعظ أمبروز، وتأثر هو بهذه المواعظ، ولكنه تأثر أكثر من هذا بالترنيمة التي ترنم بها المصلون. وأقنعتة مونكا في الوقت عينه بأن يتزوج، ثم خطبت له عروساً بالفعل، وكان الآن في الثانية والثلاثين من عمره، وكانت عروسه بنتاً صغيرة في السن عظيمة الثراء ورضى أوغسطين أن ينتظر عامين حتى تبلغ الثانية عشر. وكان أول ما أسنعد به لزوجاه أن أعاد حظيته إلى أفريقية، حين دفنت أحرانها في دير النساء. وكان امتناعه عن النساء أسباباً قليلة كافيلاً لأن يسبب له انهياراً في أعصابه، فأستبدل بالزوج حظية أخرى، ودعا الله قائلاً: "ارزقني العفة، ولكنها لم يحل أوانها بعد" (58). وقد وجد في خلال هذه المشاغل المختلفة وقتاً لدراسة العلوم الدينية. ولقد بدأ الرجل حياته بعقيدة أمه البسيطة، ولكنه نبذها بأنفه وكبرياء حين ذهب إلى المدرسة، ظل تسع سنين معتقاً عقيدة الأثنينية المانية لأنه رأى وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر بالتمييز بينهما. وقضى بعض الوقت يداعب تشكك المجمع العلمي المتأخر، ولكن مزاجه الشديد التأثر والانفعال لم يكن يطيق البقاء زمناً طويلاً معلق الحكم. ودرس وهو في روما وميلان كتب أفلاطون وأفلوطين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الأثم

وتأثرت فلسفته أشد التأثر بالأفلاطونية الجديدة، وظلت تسيطر على طريقة على علوم الدين المسيحية إلى أيام أبييلار Abelard. وكانت هذه الفلسفة سبيل أوغسطين إلى المسيحية. وكان أمبروز قد أشار عليه بأن يقرأ الكتاب المقدس على ضوء ما قاله بولس من أن "الحرفية تقتل ولكن الروح تعمل للحياة". ووجد أوغسطين أن التفسير الرمزي للكتاب المقدس يزيل ما كان يبدو له في سفر التكوين من سخف، ولما قرأ رسائل بولس شعر بأنه قد وجد رجلاً مرت

به مثله آلاف الشوك، فلما ثبتت عقيدته أصر الأمر لم يكن عقلاً أفلاطونياً مجرداً بل وجد كلمة الله التي أصبحت إنساناً. وبينما كان أوغسطين جالساً في يوم من الأيام في إحدى حدائق ميلان مع صديقه اليببوس، خيل إليه أنه يسمع صوتاً يطن في أذنيه ويناديه : "خذ وقرأ، خذ وقرأ". ففتح رسائل بولس مرة أخرى وقرأ :
لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد . بل ألبسوا الرب يسوع المسيح، ولا تضعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات .
وكانت هذه الفقرة خاتمة تطور طويل الأمد في مشاعر أوغسطين وأفكاره. وقد وجد في هذا الدين العجيب شيئاً أعظم حرارة وأعمق فكراً من كل ما في منطق الفلسفة؛ لقد جاءت المسيحية لترضى فيه عاطفته المنفعلة القوية؛ فلما أن تخلص من التشكك الذهني وجد لأول مرة في حياته دافعاً خلقياً قوياً، وراحة عقلية، وأقر صديقه اليببوس أنه هو الآخر مستعد لأن يخضع مثله لهذا الصوت الجديد، وتلقت مؤنكا هذا الاستسلام منهما فعكفت على الصلاة حمداً لله على هذه النعمة.

صفحة رقم : 4251

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الآثم

وفي يوم عيد الفصح من عام 387 عمّد أميروز أوغسطين، وألببوس وأديوداتس، ووقفت مؤنكا إلى جانبهم أثناء التعميد فرحة مستبشرة، وصمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقية ليعيشوا فيها معيشة الرهبان. ثم ماتت مؤنكا في أستييا Ostia وهي وثقة من أنها ستجتمع بهم في الجنة. ولما وصلوا إلى أفريقية باع أوغسطين ما خلفه له أبوه من ميراث صغير ووزع ثمنه على الفقراء، ثم ألف هو وألببوس وطائفة من الأصدقاء جماعة دينية وعاشوا معاً في تاجستي، فقراء، عزاباً، منقطعين للدرس والصلاة. وعلى هذا النحو وجدت الطريقة الأوغسطينية (388)، وهي أقدم أخوة رهبانية في الغرب كله.

صفحة رقم : 4252

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

2- العالم الديني

توفى أديوداتس في عام 389 وحزن عليه أو غسطين كأنه لم يزل وقتئذ يشك فيما ينتظره الذين يموتون وهم مؤمنون بالمسيح من سعادة أبدية. وكان عزاؤه الوحيد في هذا الحزن العميق هو العمل والكتابة. وفي عام 391 استعان به فليريوس أسقف هيو Hpoو (بونة الحالية) على إدارة أبرشيته، ورسمه قسيساً ليتمكن من القيام بهذا العمل. وكثيراً ما كان فليريوس يترك له منبر الخطابة، فكانت بلاغة أو غسطين تؤثر أبلغ الأثر في المصلين سواء فهموها أو لم يفهموها. وكانت هيو تغراً يسكنه نحو أربعين ألفاً من السكان، وكان للكاتوليك فيه كنيسة. وكان بقية السكان من المانيين، أو الوثنيين. وكان فرتوناس Fartunatus الأسقف الماني صاحب السيطرة الدينية في هذه البلدة، ولهذا أنظم الدوناتيون إلى الكاثوليك في تحريض أو غسطين على أن يقابله في نقاش ديني، وقبل أو غسطين هذا الطلب، وليث

صفحة رقم : 4253

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أو غسطين -> العالم الديني

هذان الخصمان، أو إن شئت المجالدان الجديان يومين كاملين في جدلهم أمام حشد كبير امتلأت به حمامات سوسيو س Socios. وفاز أو غسطين على مناظره، فغادر فرتوناس هيو ولم يعد إليها أبداً (392). وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت طلب فليريوس إلى أتباعه أن يختاروا خلفه معللاً طلبه هذا بشيخوخته، فأجمعوا أمرهم على اختيار أو غسطين، ولكنه عارض في هذا الاختيار وبكى، وتوسل إليهم أن يسمحوا له بالعودة إلى ديره، غير أنهم تغلبوا عليه؛ وطل الأربعة والثلاثين عاماً الباقية من عمره أسقفاً لهبو. ومن هذه البقعة الصغيرة كان يحرك العالم. فبدأ عمله باختيار شماس أو شماسين، وجاء براهبين من ديره ليساعده في عمله، وعاشوا جميعاً عيشة الدير الشبوعية في مسكنهم الكنسي، ولذلك استولت بعض الدهشة على أو غسطين حين رأى أحد أعوانه يترك حين وفاته ميراثاً لا بأس به (59). وكانوا جميعاً يعيشون على الخضر وبيقون اللحم للأضياف والمرضى. وقد وصف أو غسطين نفسه بأنه قصير القامة، نحيل الجسم، ضعيف البنية على الدوام؛ وكان يشكو اضطراباً في الرئة، وكان شديد التأثر بالبرد. وكان مرهف الأعصاب، سريع التهيج، قوي الخيال مكتئبه، حاد الذهن، مرن العقل. وما من شك في أنه كان يتصف بكثير من الخلال المحبوبة رغم تمسكه الشديد بأرائه، وتعسفه في أحكامه الدينية، وعدم تسامحه في بعض الأحيان. وقيل كثيرون مما جاءوا ليأخذوا عنه فنون البلاغة زعامته الدينية، وظل أليبيوس من أتباعه إلى آخر حياته. ولم يكد أو غسطين يجلس على كرسي الأسقفية حتى بدأ كفاحه الذي أستمردى الحياة ضد الدوناتية. فكان يتحدى زعمائهم ويدعوهم إلى المناقشة العلنية، ولكن لم يقبل دعوتهم إلا عدد قليل منهم، ثم دعاهم إلى مؤتمرات حبية، ولكنهم أجابوه بالصمت، ثم بالإهانة، ثم بالعنف، وشنوا هجوماً شديداً على عدد من الأساقفة الكاثوليك في شمالي أفريقيا؛ ويبدو أن عدة محاولات قد

صفحة رقم : 4254

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

بذلت لاغتيال أوغسطين نفسه(60). على أننا لا نستطيع أن نقطع في هذا برأي حاسم لأنه ليس لدينا ما يقوله الدوناتية في هذا الشأن؛ وفي عام 411 اجتمع مجلس ديني في قرطاجنة استجابة لدعوة الإمبراطور هونوريوس ليضع حداً للنزاع مع الدوناتية؛ وأرسل الدوناتيون 279 من أساقفتهم، كما أرسل الكاثوليك 286 أسقفاً - لكننا يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن لفظ أسقف لم يكن له في أفريقية معنى أكثر من لفظ قسيس وبعد أن سمع مرسلينوس Mercellinus مندوب الإمبراطور حجج كل من الفريقين أمر ألا يعقد الدوناتية اجتماعاً عاماً بعد ذلك اليوم، وأن يسلموا جميع كنائسهم إلى الكاثوليك. ورد الدوناتية على ذلك بأعمال في منتهى العنف منها، على ما يقال، أنهم قتلوا رستيتوتوس Restitutus أحد قساوسة هبو وبتروا بعض أعضاء رجل من رجال أوغسطين، وألح أوغسطين على الحكومة أن تنفذ قرارها بالقوة(61)، وخرج على آرائه القديمة القائلة بأنه "يجب ألا يرغم أحد على القول بوحدانية المسيح... وأنه ينبغي لنا أن لا نقاتل الناس إلا بقوة الحجة، وألا نتغلب إلا بقوة العقل"(62). وختم دعوته بقوله إن الكنيسة هي الأب الروحي لجميع الناس، ومن ثم يجب أن يكون لها ما للأب من حق في عقاب الابن المشاكس لرده إلى ما فيه الخير له(63)؛ وقد بدا له أن إيقاع الأذى ببعض الدوناتية خير "من أن تصب اللعنة على الجميع لحاجتهم إلى من يرغمهم"(64). وكان في الوقت نفسه يكرر الدعوة إلى موظفي الدولة ألا ينفذوا عقوبة الإعدام على المارقين(65). وإذا غضضنا النظر عن هذا النزاع المرير، وعن المشاغل التي تتطلبها أعمال منصبه الديني، حق لنا أن نقول إن أوغسطين كان يعيش في مملكة العقل وإن معظم عمله كان بقلمه. فقد كان يكتب في كل يوم تقريباً رسالة لا يزال لها أعظم الأثر في أصول المذهب الكاثوليكي؛ وإن مواظبه وحدها لتملأ مجلدات ضخمة. ومع أن بعضها قد أفسدته البلاغة المصطنعة وما فيه من جمل متقابلة متوازنة؛ ومع

صفحة رقم : 4255

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

أن الكثير من هذه المواظب يبحث في موضوعات محلية، لا شأن لها بغير الوقت الذي قبلت فيه، ويبحث فيها بأسلوب بسيط يتفق مع عقلية الجماعات غير المتعلمة التي كانت تستمع إليه، ومع هذا كله فإن الكثير من هذه المواظب يسمو إلى منزلة عليا من الفصاحة منشؤها عاطفته الصوفية القوية، والعقيدة الثابتة المتأصلة في أعماق نفسه، ولم يكن في وسع نفسه أن يحصر عقله في أعمال أبرشيته لأنه عقل دأب على العمل ومرن على منطوق المدارس. وقد بذل غاية جهده فيما أصدره من الرسائل التي كان بعضها يأخذ برقاب بعض في أن يوفق بين العقل وبين العقائد عقائد الكنيسة التي كان يجهلها ويرى أنها دعامة النظام والأخلاق الفاضلة في هذا العالم الخرب المضطرب. وكان يدرك أن التثليث هو العقبة الكؤود في سبيل هذا التوفيق، ولهذا قضى خمسة عشر عاماً يعمل في أدق كتبه وأحسنها تنظيمًا وهو كتاب التثليث De Trinitate الذي حاول فيه أن يجد في التجارب الإنسانية نظائر لثلاثة أشخاص في إله واحد، ومما حيره أكثر من هذه المسألة، وملا حياته كلها بالدهشة والمجادلة، مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلي السابق لأعمال الإنسان. فإذا كان علم الله يشمل كل شيء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير فإن ما لديه من صورة للحوادث التي تقع في المستقبل يحتم عليها أن تقع وفقاً لهذه الصورة، فهي إذا مقرررة من قبل لا تتغير فيها ولا تتغير. فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حراً في أعماله؟ ألا يجب على الإنسان إذن أن يعمل وفق ما هو سابق

في علم الله؟ وإذ كان الله عليمًا بكل شيء، فقد عرف منذ الأزل المصير الأخير لكل روح خلقها؛ فلم إذن خلق الأرواح التي قدر عليها اللعنة؟
وكان أوغسطين قد كتب في السنين الأولى من حياته المسيحية رسالة "في حرية الإرادة De libero arbitrio".
حاول فيها وفتنذ أن يوفق بين وجود الشر وبين الخير الذي يتصف به الله القادر على كل شيء. وكان الحل الذي

صفحة رقم : 4256

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين ->
العالم الديني

وصل إليه في هذه المشكلة هو أن الشر نتيجة لحرية الإرادة؛ ذلك أن الله لا يمكن أن يترك الإنسان حراً، دون أن يمكنه أن يعمل الشر كما يعمل الخير. ثم تأثر فيما بعد برسائل بولس فقال إن خطيئة آدم قد وصمت الجنس البشري بوصمة الميل إلى الشر، وإن الأعمال الصالحة مهما كثرت لا تستطيع أن تمكن النفس البشرية من التغلب على هذا الميل، ومحو هذه الوصمة، والنجاة منها؛ بل الذي يمكنها من هذا هو النعمة الإلهية التي يهبها الله لكل من أراد. ولقد عرض الله هذه النعمة على الناس جميعاً ولكن الكثيرين منها رفضوها، وكان الله يعلن أنهم سيرفضونها، ولكن العقاب الذي قد حل بهم نتيجة لهذا الرفض هو الثمن الذي يؤديه هذه الحرية الأخلاقية التي يغيرها لا يكون الإنسان إنساناً. وعلم الله السابق لا يتعارض مع هذه الحرية، إذ كل ما في الأمر أن الله يرى من قبل ما سيختاره الإنسان بمحض حريته(66).

ولم يبتدع أوغسطين عقيدة الخطيئة الأولى، ذلك أن بولس، وترتليان، وسبريان، وأمبروز كلهم قد علموا الناس، ولكن الخطايا، التي أرتكبها"والصوت" الذي هداه قد غرسا فيه اعتقاداً مقبضاً بأن إرادة الإنسان تنزع من مولده إلى عمل الشر، وألا شيء يستطيع ردها إلى الخير إلا فضل الله الذي يهبه للناس من غير مقابل. ولم يكن في مقدور أوغسطين أن يفسر نزعة الإرادة البشرية إلى الشر بأكثر من أنها نتيجة لخطيئة حواء، وحب آدم لها. ويقول أوغسطين أننا ونحن كلنا أبناء آدم، نشاركه في أثمه، بل أننا في الواقع أبناء هذا الإثم : لأن الخطيئة الأولى كانت نتيجة شهوته، ولا تزال هذه الشهوة تدنس كل عمل من أعمال التناسل؛ وبفضل هذه الصلة بين الشهوة الجنسية والأبوة، كان الجنس البشري "جمعاً من الخاسرين" وحلت اللعنة على الكثرة الغالبة من الأدميين. نعم إن بعضنا سوف ينجو، ولكن نجاة هؤلاء لن تكون إلا نعمة ينالونها بسبب ما قاساه ابن الله من الأم، وبشفاعة الأم التي حملت

صفحة رقم : 4257

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين ->
العالم الديني

فيه من غير دنس. "لقد حل بنا الهلاك بفعل امرأة، وعادت إلينا النجاة بفضل امرأة(67). ولقد أنحدر أو غسطين أكثر من مرة إلى مبالغات حاول فيما بعد أن يخفف منها، وكان سبب انحداره إليها كثرة ما كتب وسرته في كتابته التي كثيراً ما كان يملئها إملاء كما نظن. فكان في بعض الأحيان يدعو إلى العقيدة الكلفنية القائلة بأن الله قد أختار بمحض إرادته منذ الأزل "الصفوة" التي سيهبها نعمة النجاة(68). وقد قامت طائفة كبيرة من النقاد تصب عليه جام غضبها لأخذه بأمثال هذه النظرية؛ ولكنه لم يتراجع عن شيء منها بل دافع عن كل نقطة منها إلى آخر أيام حياته. وجاءه من إنجلترا الراهب بلاجيوس Pelagius وهو أقدر معارضيه بدفاع قوي عن حرية الإنسان، وعن قدرة الأعمال الصالحة على نجاته من العذاب. وكان ما قاله بلاجيوس إن الله في واقع الأمر يعيننا على الخير بما ينزله علينا من الشرائع والوصايا، وبما يضربه قديسوه من الأمثلة الصالحة قولاً وفعلاً، وبمياه التعميد المطهرة، وبدم المسيح المنقذ. ولكن الله لا يرجح كفة خسراننا بأن يجعل الطبيعة البشرية أئمة بفطرتها. فلم تكن ثمة خطيئة أولى، ولم يكن هناك سقوط الإنسان، ولن يعاقب على الذنب إلا من ارتكبه، ولن ينتقل منه جرم إلى أبنائه(69). والله لا يقدر على هؤلاء الأبناء أن يكون مصيرهم الجنة أو النار، ولا يختار متعسفاً من يلعنه ومن ينجيه، بل يترك لنا نحن أن نختار مصيرنا. ويمضي بلاجيوس فيقول إن القائلين بفساد الإنسان الأخلاقي إنما يلومون الله على خطايا البشر. إن الإنسان يشعر بأنه مسئول عما يعمل ومن أجل هذا فهو مسئول عنه حقاً، "وإذا كنت مرغماً فإني قادر". وجاء بلاجيوس إلى روما حوالي عام 400 وعاش فيها مع أسر صالحة، وأشتهر بالتقي والفضيلة. وفي عام 409 فرّ من أرييك، وكان فراره إلى قرطاجنة ثم إلى فلسطين، ثم عاش في سلام حتى جاء أورسيوس الشاعر الأسباني من

صفحة رقم : 4258

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

عند أوغسطين يحذر منه جيروم (415) : وعقد مجمع ديني شرقي ليحاكم الراهب، ولكنه قرر صحة عقائده، غير أن مجعاً أفريقياً نقض هذا الحكم بتحريض أوغسطين ولجأ إلى البابا إنوسنت Innocent الأول فأعلن أن بلاجيوس مارق من الدين؛ وحينئذ ملأ الأمل صدر أوغسطين فأعلن أن "القضية قد أصبحت مفروغاً منها Causa finita est ثم مات إنوسنت وخلفه زوسموس Zosimus وأعلن أن بلاجيوس بريء. ولجأ أساقفة أفريقيا إلى هونوريوس، وسرّ الإمبراطور أن يصحح خطأ البابا، وخضع زوسموس للإمبراطور (418)، وأعلن مجلس إفسوس أن ما يراه بلاجيوس من أن في مقدور الإنسان أن يكون صالحاً دون أن يستعين بنعمة الله زيغ وضلال. وفي استطاعة الباحث أن يجد في أقوال أوغسطين متناقضات وسخافات بل وقسوة سقيمة في التفكير، ولكن ليس من السهل أن يتغلب عليه لأن الذي يشكل آراءه الدينية في آخر الأمر هو مغامراته الروحية، ومزاجه الجياش بالعاطفة لا تفكيره المنطقي المتسلسل. ولقد كان يعرف ما ينطوي عليه العقل البشري من ضعف، ويدرج أن تجارب الفرد القصيرة هي التي تحكم حكماً طائشاً على تجارب الجنس البشري كله ويقول: "كيف تستطيع أربعون عاماً فهم أربعين قرناً؟" وقد كتب إلى صديق له يقول: "لاتعارض بحجج قوية هانجاً فيما لا يزال عسير الفهم عليك، أو فيما يبدو لك في الكتاب المقدس... من تباين وتناقض، بل أجل... في وداعة اليوم الذي تفهمه فيه"(71) إن الإيمان يجب أن يسبق الفهم. لا تحاول أن تفهم لكي تؤمن، بل آمن لكي تفهم"(72). "وقوة الأسفار المنزلة أعظم من جميع جهود الذكاء البشري"(73). لكنه يرى

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

أن ليس من المحتم أن نفهم الفاظ الكتاب المقدس حرفياً؛ فقد كتبت أسفاره لكي تفهمها العقول الساذجة، ولهذا كان لا بد من أن تستخدم فيه ألفاظ خاصة بالجسم للدلالة على الحقائق الروحية(74). وإذا اختلف الناس في تفسيرها كان علينا أن نرجع إلى حكم مجالس الكنيسة إي إلى الحكمة الجامعة المستمدة من أعظم رجالها حكمة(75). على أن الإيمان نفسه لا يكفي وحده للفهم الصحيح؛ بل يجب أن يصحبه قلب طاهر يسمح بأن ينفذ فيه ما يحيط بنا من أشعة قدسية، فإذا تطهر الإنسان وتواضع على هذا النحو ارتقى بعد سنين كثيرة إلى الغاية الحقى وإلى جوهر الدين وهو "الاستحواذ على الله الحي"؛ إنني أريد أن أعرف الله والنفس، وهل ثمة شيء أكثر من هذا؟ لا شيء أكثر من هذا على الإطلاق"(76). إن أكثر ما تتحدث عنه المسيحية الشرقية هو المسيح، أما علم أوغسطين فيتحدث عن "الشخص الأول". يتحدث ويكتب عن الله الأب وإلى الله الأب. وهو لا يخلع على الله أوصافاً، لأن الله وحده هو الذي يعرف الله حق المعرفة(77). والراجح أن "الله الحق ليس بنكر ولا بأنثى، وليس له عمر ولا جسم"(78)، ولكن في وسعنا أن نعرف الله، معرفة أكيدة بمعنى ما، عن طريق خلقه، لأن كل شيء في العالم أعجوبة من أعظم للعجائب في نظامها وفي وظيفتها، ولا يمكن أن يكون إلا إذا أوجدها عقل خلاق(79)، وإن ما في الكائنات الحية من نظام، وتناسب، واتزان، ليدل على وجود نوع من القدرة الإلهية الأفلاطونية يتوحد فيها الجمال والحكمة(80). ولا شيء يضطرنا إلى الاعتقاد بأن العالم خلق في ستة "أيام"؛ وأكبر الظن أن الله قد خلق في أول الأمر كتلة سديمية (nebulous species)، ولكن النظام البذري، أو المقدررة الإنتاجية rationes seminales كانت كامنة في هذا النظام، ومن هذه القدرة الإنتاجية نشأت الأشياء كلها بعقل طبيعية(81).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> العالم الديني

وكان أوغسطين يرى - كما يرى أفلاطون - أن ما في العالم من أشياء حقيقية وحوادث قد وجدت كلها أولاً في عقل الله قبل أن توجد على سطح الأرض "كما يوجد تخطيط البناء في عقل المهندس قبل أن يقيمه"(82)، ويتحدث الخلق في الوقت المناسب حسب هذه الصورة الأزلية الموجودة في العقل الإلهي.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

3- الفيلسوف

ترى كيف نستطيع في هذا الحيز الصغير من أن نوفي صاحب هذه الشخصية القوية وهذا القلم الخصيب حقه من التمجيد والتكريم؟ إن هذا الرجل لم يكذب يترك مشكلة دينية أو سياسية إلا جهر فيها برأيه وبحثها في رسائله البالغ عددها 230 رسالة، كتبها بأسلوب يفيض بقوة الشعور الحار وبعبارات خلابة أستعمل فيها ألفاظاً جديدة صاغتها من معبته الذي لا ينضب. فقد بحث في حياء ودهاء طبيعة الزمن (83)، وسبق ديكارث إلى قوله: "إني أفكر ولهذا أنا موجود" ففند آراء رجال المجمع الديني يقولون إن الإنسان لا يستطيع أن يكون واثقاً من أي شيء، وقال: "منذا الذي يشك في أنه حي وأنه يفكر؟... ذلك بأنه أن شك فهو حي" (84). وكذلك سبق برجسن Bergeson في شكواه من العقل أطول بحثه في الأشياء الجسمية قد أصبح مادي النزعة؛ وعلن كما أعلن كانت Kant أن الروح هي أكثر الحقائق كلها علماً بنفسها، وعبر تعبيراً واضحاً عن النزعة المثالية القائلة إنه "لما كانت المادة لا تعرف إلا عن طريق العقل فليس في مقدورنا من الناحية المنطقية أن نهبط بالعقل فنجعله مادة (85). وأشار إلى مبحث شوبنهاور في أن الإرادة، لا العقل، هي العنصر الأساسي في الإنسان وأنفق مع شوبنهاور في أن العالم يصلح إذا وقف كل ما فيه من تناسل (86). ومن مؤلفاته كتابان يعدان من خير كتب الأدب القديم في العالم كله.

صفحة رقم : 4262

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

فاعترافات (حوالي عام 400) هي أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة. والكتاب موجه إلى الله مباشرة بوصفه توبة إليه من الذنوب صيغت في مائة ألف كلمة. ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب في صباه، ثم يروي قصة هدايته بوضوح، وتتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية. أن الاعترافات كلها سنار الجريمة، ولكن في اعترافات أوغسطين بالذات إخلاصاً ذهل منه العالم كله. ولقد قال هو نفسه بعد أن بلغ الرابع والستين من عمره وأصبح أسقفاً- إن الصورة الشهوانية القديمة، "لا تزال حية في ذاكرتي، تندفع إلى افكاري... فهي تساورني في نومي لا لتسرنني فحسب بل قد يبلغ بي الأمر أن أرضى عنها وأوافق عليها وأحب أن أخرجها من التفكير إلى التنفيذ" (87). وتلك صراحة وتحليل نفساني لانجدها عادة في الأساقفة. وكتابه هذا الذي يعد خير كتبه كلها هو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان والسلام. وإنا لنجد في سطور ه الأولى خلاصة له كله: "لقد خلقتنا يارب لنفسك ولن تعرف قلوبنا الراحة حتى تستريح لديك". ولما بلغ هذه المرحلة كانت عقيدته ثابتة لا تتسرب إليها ريبة مؤمنة بما في خلق الكون من عدالة:

"لقد أحببتك يارب بعد فوات الأوان، يا إلهي يا ذا الجمال الثلثيد والطارف.. إن السماء والأرض وكل ما فيهما لتوحي إليّ من جميع نواحي أن الواجب عليّ أن أحبك... فأني شيء أحب الآن حين أحبك يارب؟... لقد سألت الأرض فأجابت لست أنا الذي تحب... وسألت البحر والأعماق البعيدة وكل ما يدب على الأرض فأجابت كلها: لسنا نحن إلهك، فابحث له من فوقنا. وسألت الرياح العاصفة فأجابني الهواء بكل ما فيه: لقد كان أنكسيمانس مخدوعاً، لست أنا الله. وسألت السموات، والشمس والقمر والنجوم فقالت: لسنا نحن الله الذي تبحث عنه. فأجبتها كلها... حدثيني عن الله؛ إذا لم تكوني أنت

صفحة رقم : 4263

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

هو فحدثيني عنه. فصاحت كلها بصوت عال: لقد خلقتنا... وإن الذين لا يجدون السرور في كل شي خلقته لقوم فقدوا عقولهم... وفي رضاك يا إلهي عنا سلامنا .
واعترافات أوغسطين شعر في صورة نثر؛ أما كتبه الأخر "مدينة الله" (413-426) فهو فلسفة في صورة تاريخ، وان الباعث له على كتابه أنه لما ترامت إلى أفريقية أنباء نهب أريك لروما، وما أعقبه من فرار آلاف اللاجئيين ثارت نفس أوغسطين، كما ثارت نفوس جيروم وغيره، لهذه الفاجعة التي بدت لهم كلهم عملاً شيطانياً لا يفعله من أوتى ذرة ن العقل. وتساءل الناس قائلين: لم يترك الإله الخير الرحيم تلك المدينة التي أبدع الناس جمالها وأنشأ قوائمها وظلوا يجلونها القرون الطوال، والتي أضحت الآن حصن المسيحية الحصين، لم يتركها الإله إلى البرابرة يعيثون فيها فساداً؟ وقال الوثنيون في كل مكان إن المسيحية هي سبب ما حل بالمدينة من دمار: ذلك أن الآلهة القديمة قد تخلت عن حماية روما بسبب ما أصاب تلك الآلهة من نهب ونل لعروشها، وتحريم لعبادتها. وكانت هذه المدينة قد نمت وازدهرت وعمها الرخاء مدى ألف عام بفضل هداية الآلهة. وترزع إيمان كثيرين من المسيحيين بسبب هذه الكارثة. وشعر أوغسطين في قرارة نفسه بهذا التحدي، وأدرك أن ذلك الصرح الديني العظيم الذي شاده لنفسه على مر السنين، يوشك أن ينهار إذا لم يعمل شيئاً يخفف من هذا الذعر المستولي على النفوس. ولذا قرر أن يبذل كل ما وهب من عبقرية لإقناع العالم الروماني أن هذه الكارثة وأمثالها لاتغيب المسيحية ولا تترى بفضلها. وظل ثلاثة عشر عاماً يواصل الليل بالنهار في تأليف هذا الكتاب بالإضافة إلى ما كان يقوم به من واجبات وما يحيط به من مشاغل تشتت افكاره. وكان ينشره أجزاء متقطعة في فترات متباعدة حتى نسى وسطه

صفحة رقم : 4264

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

أوله ولم يدر ما سيكون آخره. ومن أجل هذا كان لابد أن تصبح صفحاته البالغة 1200 صفحة سلسلة من المقالات المهوشة في جميع الموضوعات من الخطيئة الأولى إلى يوم الحساب. ولم يرفعه من الفوضى السارية فيه إلى أعلى مكانة في أدب الفلسفة المسيحية إلا عمق تفكيره وبراعة أسلوبه.

وكان جواب أوغسطين الأول عما يدور بخلد الناس من أسئلة محيرة أن ما حل بروما لم يكن عقاباً لها لاعتناقها الدين الجديد بل كان جزءاً لها على ما تنفك ترتكبه من أثام. ثم أخذ يصف ما يمثل على المسرح الوثني من مفاسد، ونقل عن سالست وشيشرون ما قالاه عن مفاسد السياسة الرومانية وقال إن الرومان كانوا في وقت من الأوقات أمة من الرواقيين يبعث فيها القوة رجال من أمثال كاتو وسيبو، وكادت أن تخلق القانون خلقاً، ونشرت لواء السلم والنظام على نصف العالم، وفي هذه الأيام القديمة أيام النبل والبطولة تجلى الله عليها بوجهه، وأشرق عليها بنوره، ولكن بذور الفساد الخلقى كانت كامنة في دين روما القديم نفسه، كامنة في ثنايا تلك الآلهة التي كانت تشجع الغرائز الجنسية بدل أن تقاومها، تشجع الإله فرجنوس على أن يحل حزام العذراء، وسبجوس Subigus على أن يضعها تحت الرجل وبرما Perma على أن تنكئ عليها... وتشجع بريابوس Priapus الذي أمرت العروس الجديدة أن تقوم وتجلس فوق عضوه الضخم الحيواني(89). لقد عوقبت روما، لأنها كانت تعبد أمثال تلك الآلهة لا لأنها غفلت عن عبادتها. ولقد أبقى البرابرة على الكنائس المسيحية وعلى الذين لجأوا إليها، ولكنهم لم يرحموا المعابد الوثنية، فكيف إذن يكون الغزاة صوت عذاب في أيدي الآلهة الوثنية؟

وكان رد أوغسطين الثاني ضرباً من فلسفة التاريخ فقد كان محاولة منه لتفسير الحوادث التي وقعت في أزمنة التاريخ المدون على أساس عام وواحد. فقد استمد أوغسطين من فكرة أفلاطون عن الدولة المثالية القائمة

صفحة رقم : 4265

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

"في مكان ما في السماء"، ومن فكرة القديس بولس عن وجود مجتمع من القديسين الأحياء منهم والأموات(90)، ومن عقيدة تكيوس Tyconius الدوناتي عن الوجود مجتمعين أحدهما لله والآخر للشيطان، استمد من هذا كله الفكرة الأساسية التي قام عليها كتابه وهو أنه قصة مدينتين: مدينة أرضية يسكنها رجال هذه الدنيا المنهمكون في شؤون الأرض ومباهجها، ومدينة إلهية هي مدينة عباد الله الواحد الحق في الماضي والحاضر والمستقبل. ولماركس أورليوس في هذا المعنى عبارة ما أعظمها: "في وسع الشاعر أن يقول لأثينة: أي مدينة سكربس Cecrops الجميلة! فهلا قلت أنت للعالم أي مدينة الله جميلة؟"(92). وكان أورليوس يقصد بقوله هذا الكون المنظم كله. ويقول أوغسطين أن مدينة الله قد نشأت بخلق الملائكة وإن المدينة الأرضية قد قامت بعصيانه بسبب الشياطين". والجنس البشري منقسم قسمين مختلفين: منهم قسم يعيش طبقاً لسنن الأدميين، وقسم يعيش طبقاً لسنة الله. ونحن نطلق على هذين القسمين اسمين رمزيين فنسميها "المدينتين" أو "المجتمعين". فواحدة منهما فُدر لها أن تحكُم إلى أبد الدهر مع الله، وأخرى قد حُكِم عليها أن تعذب إلى الدهر مع الشيطان"(93). وليس حتماً أن تتحصر المدينة أو الإمبراطورية الواقعية من جميع نواحيها في داخل نطاق المدينة الأرضية؛ فقد تقوم بأعمال طيبة، فتسنّ الشرائع الحكيمة، وتصدر الأحكام العادلة، وتساعد الدين، كأن هذه الأعمال الصالحة تحدث في داخل مدينة الله؛ كذلك ليست المدينة الروحية هي بعينها الكنيسة الكاثوليكية، فإن الكنيسة أيضاً قد تكون لها مصالح أرضية، وقد ينحط أتباعها فيعلمون لمصلحتهم الخاصة، ويرتكبون الذنوب، وينحدرون من إحدى المدينتين إلى الأخرى، ولن تتفصل المدينتان وتصبح كلتاهما بمعزل عن الأخرى إلا في يوم الحساب(94).

وفي وسع الكنيسة أن تكون هي بعينها مدينة الله، وإن أوغسطين ليجعلها

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> الفيلسوف

كذلك في بعض الأحيان، وذلك بأن تتسع عضويتها اتساعاً رمزياً للأرواح السماوية والأرواح الأرضية، وللصالحين من الناس الذين عاشوا قبل المسيحية وفي أيام المسيحية (95). وقد احتضنت المسيحية فيما بعد هذه الفكرة القائلة بأنها هي مدينة الله واتخذتها سلاحاً أدبياً استخدمته في شؤون السياسة، كما أنها استنتجت استنتاجاً منطقياً من فلسفة أوغسطين عقيدة الدولة الدينية تخضع فيها السلطات الدنيوية المستمدة من البشر إلى السلطة الروحية الممثلة في الكنيسة والمستمدة من الله. وقد قضى هذا الكتاب على الوثنية بوصفها فلسفة، كما بدأت به المسيحية من حيث هي فلسفة؛ وهو أول صياغة محددة جازمة لعقلية العصور الوسطى.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> البطريق

4- البطريق

وكان البطل المؤمن الشيخ لا يزال في منصبه حين هجم الوندال على شمال أفريقية، وقد بقي في صراعه الديني إلى آخر أيام حياته يقضي على البدع الجديدة. ويلاقي الناقدين. ويرد على المعترضين، ويحل المشاكل. وكان يبحث في جد هل تبقى نساء في دار الآخرة، وهل يبعث المشوهون، والمبتور الأعضاء، والنحاف والسمان في تلك الدار كما كانوا في حياتهم الدنيوية، وكيف في السبيل إلى عودة الذين أكلهم غيرهم في أيام القحط؟ (96). ولكن الشيخوخة أدركته ولحقته معها إهانات محزنة، وسئل في ذلك الوقت عن صحته فأجاب: "أما من حيث الروح فأنا سليم... وأما من حيث الجسم فأنا طريح الفراش، لا أقوى على المشي أو الوقوف أو الجلوس إصابتي باليواسير المتورمة... ومع ذلك فما دام هذا هو الذي ارتضاه لي الله، فماذا أقول غير أنني في حالة؟" (97). وكان قد بذل غاية جهده في أن يؤجل خروج بنيفاس على روما؛ واشترك في دعوته إلى الاحتفاظ بولائه لها. ولما تقدم جيسريك في زحفه استشاره كثيرون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> البطريرق

من الأساقفة والقساوسة هل يبقون في مناصبهم أو يلجأون إلى الفرار؟ فأمرهم بالبقاء وضرب لهم المثل بنفسه. ولما أن حاصر الوندال مدينة هيو كان أوغسطين يعمل على تقوية الروح المعنوية للأهلين الجياح بمواعظه ودعوته، وظل كذلك حتى مات في الشهر الثالث من أشهر الحصار في السادسة والسبعين من عمره، ولم يترك وصية لأنه لم يكن يمتلك شيئاً، ولكنه كتب بنفسه قبريته: "ما الذي يتقل قلب المسيحي؟ إن الذي يتقله هو أنه حاج مشتاق إلى بلده" (98).

وقل أن نجد في التاريخ رجلاً يضارعه في نفوذه وقوة أثره. نعم إن الكنيسة الشرقية لم تشغف بتعاليمه؛ ويرجع بعض السبب في هذا إلى أنه كان بعيداً كل البعد عن اليونانية في قلة علمه وفي إخضاعه الفكر للشعور والإرادة كما يرجع بعضه إلى أن الكنيسة الشرقية قد خضعت قبل أيامه لسلطان الدولة "أما في الغرب فقد طبع المذهب الكاثوليكي بطابعه الخاص، وسبق جريجوري السابق وإنوسنت الثالث فيما طلبته الكنيسة من أن تكون لها السلطة العليا على عقول الناس وعلى الدولة، ولم تكن المعارك الكبرى التي شبت بين الباباوات والأباطرة إلا نتيجة سياسية لتفكيره. ولقد ظل حتى القرن الثالث عشر المسيطر على الفلسفة الكاثوليكية وصبغها بصبغة الفلسفة الأفلاطونية، وحتى أكويناس الأرسطوطيلي النزعة قد سار في ركابه. وكان ويكلف Wyclif، وهوس Huss، ولوثر Luther، يعتقدون أنهم يعودون إلى أوغسطين حين خرجوا على الكنيسة. ولقد أقام كلفن Calvin عقيدته الصارمة على نظريات أوغسطين الخاصة بالصفوة المختارة والطائفة المعونة. وفي الوقت الذي كان يبعث رجال الفكر على التدبر والتفكير، كان هو الملهم لمن كانت مسيحيتهم خارجة من القلب أكثر من خروجها من العقل. فكان المتصوفة يحاولون أن يترسموا خطاه وهم يتطلعون إلى رؤية الله، وكان الرجال والنساء يجدون في خشوعه ورقة دعوته وصلواته حاجتهم من الغذاء الروحي ومن الألفاظ القوية التي تأخذ

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> القديس أوغسطين -> البطريرق

بمجامع القلوب ولعل سر نفوذه وسلطانه على الأجيال التالية انه ألف بين العناصر الفلسفية والصوفية في الديانة المسيحية، وبعث فيها قوة لم تكن لها من قبل، فمهد بذلك الطريق لتومس أكوناس ولنومس أكيمبيس Thomas Kempis (أيضاً).

وكانت عباراته القوية العاطفية التي لا يلجأ بها إلى العقل بل إلى الشعور، إيداناً بانتهاك الأدب القديم، وانتصار أدب العصور الوسطى. وإذا شئنا أن نفهم العصور الوسطى على حقيقتها وجب علينا أن ننسى نزعتنا العقلية الحديثة، وثقتنا التي نفخر بها بالعقل والعلم، ودأبنا في البحث عن الثروة والسلطان والجنة الرضية، ثم يجب علينا بعدئذ أن ندرك مزاج أولئك الرجال الذين كانت آمالهم في هذه المطالب، والذين وقفوا عند نهاية ألف عام من أعوام النزعة العقلية ووجدوا أن جميع ما كانوا يظلمون به من قيام دولة فاضلة خالية من جميع الآلام والآثام قد حطمها الحرب والفقر والبربرية، فأخذوا يبحثون عن عزاء لهم فيما يؤملونه من سعادة في الدار الآخرة، ووجدوا لهم سلوى وراحة وإلهاماً في قصة المسيح وفي شخصيته، فألقوا بأنفسهم تحت رحمة الله ورضوانه، وعاشوا حياتهم يفكرون في وجوده السرمدى، وفي حسابه الذي لا مفر منه، وفي موت ابنه الذي كفر به عن خطاياهم. ويكشف أوغسطين أكثر من غيره، حتى في أيام سيماخوس، وكلوديان، وأوسنيوس عن هذه النزعة ويعبر عنها أحسن تعبير. وبهذا كان أقوى وأصدق وأفصح صوت ارتفع في المسيحية في عصر الإيمان.

صفحة رقم : 4270

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

الفصل السادس

الكنيسة والعالم

كانت حجج أوغسطين ضد الوثنية آخر رد في لأعظم جدل قام في التاريخ، وقد بقيت بعده الوثنية بمعناها الأخلاقي أي بوصفها إطلاقاً ممتعاً للشهوات الغريزية؛ أما بوصفها ديناً فلم تبق إلا في صورة طقوس قديمة وعادات تغتفرها، أو تقبلها، الكنيسة الكثيرة التسامح ثم تعدلها بعد قبولها. ولقد حلت عبادة القديسين المخلصة الواثقة محل شعائر الآلهة الوثنية، وأرضت نزعة الشرك التي توائم أصحاب العقول الساذجة أو الشعرية. وبُدل اسما تمانثيل إيزيس وحورس باسمي مريم وعيسى؛ وأصبح عيد اللوبركاليا وتطهير إيزيس عيد مولد المسيح(99)؛ واستبدلت بحفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد، وبحفلات عيد الزهور عيد العنصرة، وبعيد قديم للأمم عيد جميع القديسين(100)، ويبعث أتيس بعث المسيح(101). وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين، وأدخل في طقوس الكنيسة ما كان يعبئ به الناس في الشعائر القديمة من بخور، وأنوار، وأزهار، ومواكب، وملابس، وترانيم؛ وتسامت العادات القديمة عادة ذبح الضحية الحية فكانت هي التضحية الروحية في العشاء الرباني. وكان أوغسطين قد عارض في عبادة القديسين، واحتاج على ذلك عبارات خليقة بأن ينطق بها فلتير في تدشين كنيسته في فيرنى Fereny. "علينا ألا ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة، إننا لا نريد أن نقلد أولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى، ولهذا يجب ألا نبني لهم معابد، ولا نقيم لهم مذابح، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحاً إلى الإله الواحد"(102). لكن الكنيسة قبلت عن حكمة هذا التجسد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

الذي لا بد منه في دين الشعب. لقد قاومت في بادئ الأمر (103)، عبادة القديسين ومخلفاتهم، ثم استعانت بعدئذ بها، ثم أساءت استخدامها. وعارضت في عبادة التماثيل والصور، وحذرت المؤمنين من تعظيمها إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزاً (104) لا أكثر؛ ولكن قوة الشعور العام تغلبت على هذا التحذير، وأدت إلى ذلك الإسراف الذي أثار مشاعر محطمي الصور والتماثيل الدينية البيزنطيين. كذلك قاومت الكنيسة السحر والتنجيم، والتنبؤ بالغيب، ولكن آداب العصور الوسطى، كالأدب القديمة؛ ملأى بهذا كله؛ وما لبث الشعب والقساوسة أن استخدموا علامة الصليب على أنها رقية سحرية تفيد في طرد الشياطين أو بعدها. وكانت التعاويذ تقرأ على رأس طالب التعميد، كما كان يطلب إليه أن يغمسه الماء وهو عار من جميع ملابسه حتى لا يختبئ شيطان في ثوب يلبسه أو حلية يزين بها (105). وأضحى العلاج بالأحلام الذي كان يسعى إليه من قبل في هيكل إيسكولابيوس Aesculapius موفوراً في محراب القديسين كزمس Cosmos ودميان في روما، ثم أصبح من المستطاع أن يحصل عليه في مائة ضريح أخرى، ولم يكن رجال الدين هم الذين أفسدوا الشعب في هذه الأمور، بل أن الشعب هو الذي أقنع رجال الدين بما يريد. ذلك أن روح الرجل الساذج لا تتأثر إلا عن طريق الحواس والخيال، والحفلات والمعجزات، والأساطير، والخوف، والأمل؛ فإذا خلا الدين من هذا كله رفضه، أو عدله حتى يدخله فيه. ولقد كان من الطبيعي أن يلجأ الشعب الخائف الذي يحيط به الحرب والخراب، والفقر والمرض، إلى الأضرحة والكنائس الصغرى والكبرى، وإلى الأضواء الخفية، ونغمات الأجراس المطرية، وإلى المواكب، والأعياد والطقوس الممتعة ليجد فيها سلواه. واستطاعت الكنيسة بالتجائها إلى هذه الضرورات الشعبية أن تغرس في قلوب الناس مبادئ أخلاقية جديدة. فقد حاول أمبروز، وهو الإداري الروماني الحازم في جميع مراحل حياته، أن يصوغ المبادئ الأخلاقية الرومانية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

في ألفاظ وعبارات وواقية، وبَدَل عبارات شيشرون لكي توافق حاجاته، وكانت أخلاق عظماء المسيحيين في العصور الوسطى، من أوغسطين إلى سفنرولا، وفضيلتنا ضبط النفس والتمسك التام بأهداب الفضيلة وهما من المثل العليا للرواقية، كانت هذه هي التي شكلت النمط المسيحي للأخلاق، لكن أخلاق الرجولة لم تكن هي المثل الأعلى عند عامة الشعب؛ لقد طال عهد الشعب بالرواقيين، ورأوا فضائل الرجولة تصبغ نصف العالم بالدماء، وتاقت نفوسهم إلى أساليب أرق وأهدأ من الأساليب السابقة، يُستطاع بفضلها إقناع الناس بأن يعيشوا مستقرين مسالمين؛ ولذلك أخذ معلوم الجنس البشري ينشرون على الناس لأول مرة في تاريخ أوربا مبادئ الرأفة والحنان، والطاعة، والخشوع، والصبر، والرحمة، والطهارة، والعفة، والرقّة، وكلها فضائل لعلها مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للكنيسة

المسيحية ومن كثرة انتشارها بين النساء، ولكنها خليفة إلى أعظم حد بأن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية، وأن تروض أخلاق البرابرة النهابين، وأن تهدئ من عنف العالم المتداعي الأخذ في الانهيار. وكان أعظم إصلاح قامت به الكنيسة هو الخاص بالمسائل الجنسية بين الرجال والنساء. ذلك أن الوثنية قد أجازت الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشاق وحدة الزواج، فجاءت الكنيسة تشن على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها، وتطلب إلى الرجل والمرأة أن يلتزما في زواجهما مستوى واحد من الوفاق لا تقريق فيه بينهما. نعم إنها لم تتجح النجاح كله، فقد رفعت من المستوى الأخلاقي في البيت، ولكن البغاء ظل على حاله، وإن اندفع إلى الخفاء وإلى الدرك الأسفل من الانحطاط. ولعل الأخلاق الجديدة قد أرادت أن تقاوم الغريزة الجنسية التي تحللت من جميع القبود، فتعالت في العفة حتى جعلتها شغلها الشاغل، وجعلت الزواج والأبوة أقل منزلة من العزوبة والبكورية مدى الحياة، ورفعت هذه العزوبة أو البكورية إلى مقام المثل العليا، ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لا بقاء لأي

صفحة رقم : 4273

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

مجتمع يعيش على هذه المبادئ العقيمة. على أن من اليسير أن يدرك الإنسان هذا الارتداد إلى التزمت إذا ذكرنا ما كان عليه المسرح الروماني من فساد خلقي طليق، وإلى ما كان في بعض الهياكل اليونانية والرومانية من بغاء، وإلى انتشار الإجهاض وقتل الأطفال، وإلى ما كان يرسم على جدران بمبي من الرسوم المخلة بالأداب، وإلى رذائل الشذوذ الجنسي التي كانت واسعة الانتشار في بلاد اليونان والرومان، وإلى الإفراط الشائع عند الأباطرة، والشهوانية المنتشرة بين الطبقات العليا كما يكشف عنها كاتلوس ومارتيال، وناسيتوس، وجوفنال. ووصلت الكنيسة في آخر الأمر إلى آراء أسلم من هذه وأحكم، ووقفت بعد زمن ما موقفاً ليناً معتدلاً من خطايا الجسم. غير انه قد أسئ بعض الإساءة إلى فكرة الأبوة والأسرة، فقد كثر في هذه القرون الأولى عدد المسيحيين الذين يظنون أن خير ما يؤدونه من خدمات لله سبحانه وتعالى -أو على الأصح أن خير طريقة ينجون بها من عذاب النار- أن يتركوا آباءهم، أو أزواجهم، أو أبناءهم، ويفروا من تبعات الحياة سعياً وراء النجاة بأشخاصهم نجاة قائمة على الأثارة المرذولة، مع أن الأسرة كانت في عهد الوثنية وحدة اجتماعية دينية؛ وكان من أعظم الخسائر أن أصبح الفرد هو هذه الوحدة في مسيحية العصور الوسطى.

غير ان الكنيسة قد قوت الأسرة لما أحاطت به الزواج من مراسم جدية رهيبة ورفعته من تعاقد إلى عمل مقدس. إنها جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل فرفعت بذلك كرامة الزوجة وأمنتها على مركزها. وشجعت على الصبر الذي يولده فقد الأمل. ولقد أصاب منزلة المرأة بعض الأذى القصير الأجل من جراء عقيدة بعض آباء الكنيسة المسيحية بأن المرأة أصل الخطيئة وأداة الشيطان، ولكن هذه العقيدة قد خفف من أثرها ما تلقاه أم الإله من تكريم. ولما كانت الكنيسة قد رضيت عن الزواج، فقد حذت كثرة النسل وباركته، وحرمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريماً قاطعاً؛ ولعل تحريمها هذا وذاك هو الذي

صفحة رقم : 4274

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

حدا بعلماء الدين المسيحيين إلى إنزال اللعنة على كل طفل يموت من غير تعميد، وإلى القول بأن جزاءه في الدار الآخرة هو السجن في الظلام سرمدي. وبفضل نفوذ الكنيسة جعل فلننتيان الأول وأد الأطفال من الجرائم التي يعاقب عليها بالإعدام.

ولم تحرم الكنيسة الاسترقاق، بل كان أتباع الدين القويم والمارقون والرومان، والبرابرة، كان هؤلاء جميعاً يرون أن الاسترقاق نظام طبيعي لا يمكن القضاء عليه. وقام عدد كبير من الفلاسفة يحتجون على هذا الرأي، ولكنهم هم أيضاً كان لهم عيب. والشرائع التي سنّها الأباطرة والمسيحيون في هذا الموضوع لا تسمو إلى منزلة شرائع أنطونينس بيوس أو ماركس أورليوس. مثال ذلك أن الشرائع الوثنية كانت تحكم على المرأة الحرة التي تتزوج رقيقاً بأن تكون هي الأخرى جارية؛ أما قوانين قسطنطين فكانت تقضي بقتل هذه المرأة، وإحراق العبد الذي تزوجها حياً. وأصدر الإمبراطور جراتيان مرسوماً يقضي بأن يحرق العبد حياً إذا وجه لسيده أي تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق في صحة التهمة (106). ولكن الكنيسة، وإن رضيت بالاسترقاق وعدته جزءاً من قوانين الحرب، قد فعلت أكثر من أية هيئة أخرى في ذلك الوقت لتخفيف شرور الرق. فقد جعلت مثلاً، على لسان آباء الكنيسة، المبدأ القائل بأن الناس جميعاً أكفاء، ولعل المعنى الذي كانت تقصده من هذا اللفظ أنهم أكفاء في الحقوق القانونية والدينية؛ وطبقت هذا المبدأ فرضيت أن يدخل فيها الناس جميعاً من كل الطوائف والطبقات؛ وكان في وسع أفقر رجل حر أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية؛ وإن لم يكن في مقدور العبد أن يكون قسيساً. وألغت الكنيسة ما كان في الشرائع الوثنية من تمييز بين الضرر الذي يلحق بالحر، والذي يلحق بالعبد، وكانت تشجع عتق العبيد، فجعلت فك الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب، والاحتقال بحظ يصيب صاحب العبد

صفحة رقم : 4275

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

والقرب من كرسي القضاء الإلهي. وقد أنفقت أموالاً طائلة في تحرير المسيحيين أسرى الحروب من الاسترقاق (107). لكن الاسترقاق، رغم هذا، ظل قائماً طوال العصور الوسطى، ولما مات لم يكن لرجال الدين فضل في موته.

وكان أكبر فضل للكنيسة من الناحية الأخلاقية هو ما وضعته للصدقات من نظام واسع النطاق. وكان الأباطرة قد قرروا إعانات من أموال الدولة للأسرة الفقيرة، كما كان أعيان الوثنيين يعينون "مواليهم" وفقراءهم. ولكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاماً لتوزيع الصدقات كالنظام الذي أقامت الكنيسة، فقد كانت تشجع الإيصال بالمال للفقراء، على أن توزعه هي عليهم. ولسنا ننكر أن بعض المفاصد والخيانات قد تسربت إلى هذا النظام، ولكن حرص الإمبراطور يوليان على منافسة الكنيسة في هذه الناحية يشهد بأنها قد قامت بواجبها على نطاق واسع. فقد كانت تساعد الأراذل، واليتامى، والمرضى، والعجزة، والمسجونين، وضحايا الكوارث الطبيعية؛ وكثيراً ما تدخلت لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال أو الضرائب الباهظة (108). وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم كلها للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة. وخصصت كثير من النساء مثل فبيولا Fabiola، وبولا، وملانيا ثروات طائلة للأغراض الخيرية، وقد حذت الكنيسة حذو الوثنيين في إقامة المصحات والمستشفيات، فأنشأت أو أنشأت أربابها مستشفيات عامة على نطاق لم يعرف قط من قبل. فأقام باسيلي مستشفى ذائع الصيت، كما أقام قيصرية بكبدوكيا أول مستشفى للمصابين بالجذام. وقامت خانات للاجئين أو أبناء السبيل على طول طرق الحجاج، وقرر مجمع نيقية أن يقيم خان من

هذا النوع في كل مدينة. واستخدمت الكنيسة الأرامل لتوزيع الصدقات فوجدن في هذا العمل قيمة جديدة لحياة الوحدة. وكان الوثنيون يعجبون بدأب المسيحيين على العناية بالمرضى في المدن التي يجتاحها القحط أو الوباء (109).

صفحة رقم : 4276

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

هذا ما فعلته الكنيسة في تلك العهود لأجسام الناس، فماذا فعلت لعقولهم؟ كانت المدارس الرومانية لا تزال قائمة في ذلك الوقت، ولهذا لم تر من واجبها أن تعمل على ترقية العقول. هذا إلى أنها كانت ترفع الشعور فوق العقل، وبذلك كانت المسيحية من هذه الناحية بمثابة رد فعل "إيداعي" على الإيمان "الإتباعي" بالعقل والاعتماد عليه؛ ولم يكن روسو من هذه الناحية إلا أوغسطين مصغراً. ولم يكن يخالج الكنيسة شك في أن بقائها يتطلب تنظيمها، وفي أن هذا يتطلب الاتفاق على مبادئ وعقائد أساسية، وأن الكثرة الغالبة من أتباعها تتوق إلى أن ترجع إلى عقائد مقررّة ثابتة، فحددت من أجل ذلك عقيدتها في قواعد مقرة لا تبدل فيها، وجعلت الشك في هذه القواعد ذنباً، وتورطت في نزاع لا نهاية له مع عقل الإنسان المرن وآرائه المتغيرة. وادعت الكنيسة أنها قد وجدت عن طريق الوحي الإلهي جواباً لكل مسألة من المسائل القديمة المتعلقة بأصل الخلق، وطبيعتهم، ومصيرهم، وفي ذلك كتب لكتيوس (307) يقول: "نحن الذين أخذنا عن الكتاب المقدس علم الحقيقة نعرف بداية العالم ونهايته" (110) وكان ترتليان قد قال هذا القول نفسه قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان (197). وأراد أن يغلق باب الفلسفة أمام الناس (111). وإذ كانت المسيحية قد حولت اهتمام الناس من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، فقد عرضت عليهم تفسيرات سماوية للحادثات التاريخية، فقاومت بذلك مقاومة سلبية البحث عن العلل الطبيعية؛ وضحت بكل ما أنتجه العلم اليوناني من تقدم خلال سبعمائة عام في سبيل علم نظام الكون وأصل الحياة كما وصفهما سفر التكوين.

وبعد فهل أدت المسيحية إلى اضمحلال في الأدب؟ لسنا ننكر أن معظم آباء الكنيسة كانوا يعادون الآداب الوثنية؛ لأنها تسري فيها كلها عقيدة الشرك الشيطانية، والفساد الخلقى المزري بكرامة الإنسان؛ ولكن اعظم هؤلاء الآباء كانوا على الرغم من هذا يحبون الآداب القديمة، وكان المسيحيون أمثال فرنتاتوس

صفحة رقم : 4277

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

وبردنثيوس، وجيروم، وسيدنيوس، وأوسيدنيوس، وأوسنيوس، يتطلعون إلى أن يكتبوا شعراً كشعر فرجيل، أو نثرأ كنثر شيشرون، وإن كفة جريجوري نزينزين، وكريستوم، وأمبروز، وجيروم، وأوغسطين ترجح، من الناحية الأدبية نفسها، على كفة معاصريهم الوثنيين أمثال أميانوس، وسيماخوس، وكلوديان، ويولييان. لكن أسلوب النثر تدهور بعد أيام أوغسطين، وتسربت من اللغة العامية إلى الكتابة اللاتينية المفردات الخشنة غير المصقولة، وقواعد

البناء الخيالية من العناية والدقة، وانحط الشعر اللاتيني في وقت من الأوقات حتى صار مجرد نظم ركيك قبل أن تصاغ الأنماط الجديدة في التراثيم الدينية الفخمة. لكن العلة الأساسية في تدهور الثقافة لم تكن المسيحية بل البربرية، ولم تكن الدين بل الحروب. ذلك أن تيار البرابرة الجارف قد خرب المدن والأديرة ودور الكتب، والمدارس، أو أفقرها، وجعل حياة طالب العلم أو العالم مستحيلة. ولو أن الكنيسة لم تحتفظ بقدر من النظام في هذه الحضارة المتداعية لكان الخراب أشد والبليّة أعظم؛ وفي ذلك يقول أميروز "لقد ظلت الكنيسة ثابتة لا تززعها العواصف الهوج وسط ما حل بالعلم من اضطراب، فالقوضى ضاربة أطناها في كل شيء حولها، أما هي فتقدم لجميع المنكوبين مرفأ هادياً يجدون فيه الأمن والسلامة" (112). ولقد كان هذا شأنها في معظم الأوقات.

وكانت الإمبراطورية الرومانية قد رفعت العلم، والرخاء، والسلطان، إلى الذروة التي بلغت في العهد القديم، فلما اضمحلت الإمبراطورية في الغرب، وعم الفقر وساد العنف، تطلب هذا مثلاً أعلى جديداً، وأملاً جديداً، ليكونا للناس سلوى وعزاء مما حل بهم من أرزاء، وتشجيعاً لهم على الكدح المتواصل: فحل عصر الإيمان محل عصر السلطان. وسارت الحال على هذا المنوال فلم يرفض العقل الإيمان، ويترك السماء لينشئ المدينة الفاضلة على الأرض، إلا بعد أن عاد الثراء والكبرياء إلى العالم في عصر النهضة. ولكن إذا ما خاب العقل وعجز عن حل

صفحة رقم : 4278

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> تقدم المسيحية -> الكنيسة والعالم

المشكلات، ولم يجد العلم جواباً للأسئلة الكثيرة المحيرة، بل زاد المعرفة والسلطان من غير أن يصلح ضمائر الناس أو يرقى بأهدافهم، وإذا ما انهيار كل ما تصوره الناس من مدائن فاضلة انهياراً تاماً لاستمرار الأقوياء على الإساءة إلى الضعفاء: إذا ما حدث هذا كله أدرك الناس لماذا ولي أسلافهم ظهورهم في بربرية القرون المسيحية الأولى نحو العلم، والمعرفة، والسلطان والكبرياء، ولجأوا مدى ألف عام إلى الإيمان، والأمل والصدقات، وما تستلزمه من تذلل وخشوع.

صفحة رقم : 4279

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بريطانيا تصبح إنكلترا

الباب الرابع

أوروبا تتشكل

529-325

الفصل الأول

بريطانيا تصبح إنكلترا

577-325

أثرت جميع الطبقات في بريطانيا تحت حكم الرومان عدا طبقة ملاك الأراضي الزراعية. ذلك أن الضياع الكبير زادت مساحتها بما نقص من مساحة الأملاك الصغرى، فقد اشترى الملاك الكبار في كثير من الأحيان أراضي صغار الزراع الأحرار، وأصبح هؤلاء مستأجرين أو من صعاليك المدن، وأيد كثيرون من الفلاحين الغزاة الإنجليز- السكسون ضد كبار الملاك (1). وإذا استثنينا هذه الطبقة طبقة صغار الزراع- استطعنا أن نقول إن بريطانيا قد عمها الرخاء، فقد كثرت المدن ونمت، وازداد الثراء (2)، واستمتعت كثير من المنازل بوسائل التدفئة المركزية، والنوافذ الزجاجية (3)، وأقام كثير من الكبراء قصوراً ذات حدائق، وأخذ النساجون البريطانيون من ذلك الوقت البعيد يصدرون المنسوجات الصوفية الممتازة التي لا يزال لها المقام الأول بين أقمشة العالم الصوفية. وكانت بضعة فيالق رومانية تكفي في القرن الثالث لضمان الأمن الخارجي والسلام الداخلي.

صفحة رقم : 4280

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بريطانيا تصبح إنكلترا

لكن هذا الأمن أصبح في القرنين الرابع والخامس مهدداً من جميع الجهات: فكان يهدده من الشمال بكت (Picts) كلدونيا، ومن الشرق والجنوب المغيرون من أهل الشمال ومن السكسون، ومن الغرب كلت Celt ويلز الذين لم يخضعوا للرومان، والجيل Gaels "والاسكتلنديون" المغامرون أهل إيرلندا. وازدادت غارات "الاسكتلنديين" والسكسون على سواحل بريطانيا بين عامي 364، 367 حتى أصبحت خطراً مروعاً يتهدد البلاد؛ وصدها الجنود البريطانيون والجيل، ولكن هذه الغارات لم تنقطع، واضطر استلوكو إلى أن يعيد الكرة عليهم بعد جيل من ذلك الوقت. وسحب مكسموس من بريطانيا في عام 381 والمغتصب قسطنطين في عام 407 الفيالق التي كانا في حاجة إليها ليدافعا بها عن قلب الدولة وعن أغراضهما الشخصية، ولم يرجع من هذه الفيلق بعدئذ إلى بريطانيا إلا عدد قليل. وبدأ الغزاة يجتازون التخوم، وطلبت بريطانيا المعونة من استلوكو (400)؛ ولكنه كان منهمكاً في صد القوط واليهون عن إيطاليا وغالطة. ولما استغاثوا مرة أخرى بالإمبراطور هونوريوس أجابهم على البريطانيون أن يعتمدوا على أنفسهم على أحسن وجه يستطيعون (4). و "في عام 409 انتهى حكم الرومان في بريطانيا" (5)، كما يقول بيدي Bede. وألقى الزعيم البريطاني فرتجيرن Votigeru نفسه أمام غزوة كبرى يشنها البكت Picts، فاستغاث ببعض قبائل الجرمان الشمالية (6)، فأقبل عليه السكسون من إقليم نهر الألب Elbe، والإنجليز من سلزوج Schleswig، والجوت Jutes من جتلندة Jutland. وتقول بعض الروايات - أو لعلها القصص الخرافية- إن الجوت جاءوا 449 بقيادة أخوين يسميان باسمين يدعوان إلى الريبة، هما هنجست Hengist وهورسا Horsa، أي الحصان والفرس. وطرد الجرمان الأثداء البكت "والاسكتلنديين" وكوفئوا على عملهم هذا بمساحات من الأراضي، وأدركوا ما كانت عليه بريطانيا من الضعف من

صفحة رقم : 4281

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بريطانيا تصبح إنكلترا

الناحية الحربية، وبعثوا بهذا النبأ السار إلى مواطنهم في بلادهم الأصلية (7). وجاءت جموع كبيرة من الجرمان؛ ونزلت على سواحل بريطانيا من غير دعوة من أهلها، وقاومهم الأهلون بشجاعة تفوق ما كان لديهم من مهارة، وظلوا قرناً كاملاً بين كر وفر يحاربونهم حرب العصابات، وانتهى هذا القتال بأن هزم التيوتون البريطانيون عند ديرهم (Deorham 577)، وأصبحت لهم السيادة على البلاد التي سميت فيما بعد أرض الإنجليز "إنجلند England أو إنجلتر Angletere". قبل معظم البريطانيين فيما بعد هذا الفتح، ومزجوا دمائهم بدماء الفاتحين، وارتدت أقلية شديدة البأس إلى جبال ويلز وواصلت الحرب ضد الغزاة، وعبر غيرهم القناة وأطلقوا اسمهم على بريطاني Brittany في فرنسا الحالية. وخربت مدائن بريطانيا في خلال هذا النزاع، واضطربت وسائل النقل، واضمحلت الصناعة، وفسد القانون والنظام، وحل بالفن سبات عميق، وطغت على مسيحية الجزيرة -وكانت لا تزال في بداية عهدها- الآلهة الوثنية والعادات الجرمانية. وأصبحت إنجلترا ولغتها تيوتونية، واختفت منها الشرائع والنظم اليونانية، وحلت العشائر الفردية محل الهيئات البلدية، ولكن عنصراً كلتياً ظل باقياً في دم الإنجليز، وملاحظهم، وأخلاقهم، وأدبهم، وفنهم، وأما اللغة الإنجليزية فلم يبق فيها من هذا العنصر الكلتي إلا القليل الذي يكاد يذكر وأمست اللغة الإنجليزية في هذه الأيام مزيجاً من اللغتين الألمانية والفرنسية. وإذا شئنا أن نعرف ما كان يسود تلك الأيام المريرة من اضطراب وثوران في النفوس فعلياً أن ننقل من التاريخ إلى قصص الملك آرثر Arthur وقرسانه، وما كآله من الضربات الشداد "لتحطيم الكفرة وتأييد المسيح". ويحدثنا القديس جلداس St. Gildae وهو راهب من ويلز في كتاب له عجيب عن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبية تتشكل -> بريطانيا تصبح إنكلترا

"تدمير بريطانيا" (On The Destruction Of Britain؟546) خلط فيه التاريخ بالمواعظ، يحدثنا، عن "حصار منز بادنكس Mons Badonicus" في تلك الحروب، كما يحدث مؤرخ بريطاني بعده يدعى ننيوس Nennius (حوالي 796) عن اثنتي عشرة معركة حارب فيها الملك آرثر كانت آخرها عند جبل بادون Mt. Badon بالقرب من باث (Bath 8). ويرد جفري المنموثي (Geoffrey Of Onmouth؟1100-1154) تفاصيل روائية يصف فيها: كيف خلف الملك آرثر والده أثر بندراجون Uther Pendragon على عرش بريطانيا، وكيف قاوم الغزاة السكسون وفتح أيرلندا، وأيسلندا، والنرويج، وغالة، وحاصر باريس في عام 505 وطرد الرومان من بريطانيا، وقمع فتنة أوقد نارها مدرد Modred ابن أخيه كلفته كثيراً من الخسائر في الأنفس، وقتله في واقعة ونشستر Winchester التي جرح فيها هو جرحاً بليغاً مميناً، مات من أثره في السنة الثانية والأربعين بعد الخمسمائة من تجسد إلهنا" (9). ويحدثنا كاتب آخر يدعى وليم من أهل ملمزبري (Malmesbury، ؟1090-1143) فيقول: ولما مات فرتمر Vortimer (أخو فرتجيرن Vortigern)، اضمحلت قوة البريطانيين، ولولا ما قام أمبروزيوس Ambrosius، الذي بقى وحده من الرومان... من صد تيار البرابرة المتغطرسين بفضل ما قدمه له الملك آرثر صاحب البأس الشديد من معونة صادقة لولا هذا لهلك البريطانيون على بكرة أبيهم. وقضى آرثر زمناً طويلاً يدعم كيان الدولة المنهارة، ويثير روح مواطنيه المحطمة ويحرضهم على القتال. ثم نازل بمفرده في آخر الأمر 900 من الأعداء معتمداً على صورة للعداء ثبتها في درعه، وبدد شملهم بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة لا يصدقها العقل (10).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبية تتشكل -> بريطانيا تصبح إنكلترا

فلنقل مع القائلين أن هذا لا يصدق العقل. وعلينا أن نقع بأن آرثر شخصية غامضة، ولكنه على أية حال شخصية تاريخية اتصفت بأهم الصفات الجوهرية التي يحدثنا عنها الكتاب، وأنه عاش في القرن السادس؛ والراجح أنه لم يكن من القديسين، أو من الملوك. أما فيما عدا هذا فلنتركه إلى كرتين Chr(tien من أهل تروي، وإلى ملوري Malory الكاتب المطرب المبدع وإلى تنيسن Tennyson العف الطاهر.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندا

الفصل الثاني

أيرلندا

529-160

يقول الأيرلنديون- ولا نستطيع أن نكذبهم فيما يقولون- إن جزيرتهم جزيرة الضباب والفاكهة الرطبة "قد سكنها في أول الأمر اليونان والسكوثيون قبل ميلاد المسيح بألف عام أو أكثر، وإن زعماءهم الأولين كنتشالين Cutchalain، وكونور Conor، وكونال Conall، من أبناء الآلهة(12). وقد مس هملكو Himilco المستكشف الفينيقي أرض أيرلندا حوالي عام 510 ق.م ووصفها بأنها بلاد خصبة كثيرة السكان"(13) ولعل جماعة من المغامرين الكلت قد عبروا البحر إلى أيرلندا من غالة أو بريطانيا أو منهما معاً في القرن الخامس قبل الميلاد، وغلّبوا الأهليين الأصليين الذين لا نعرف عنهم شيئاً. ويبدو أن قد جاءوا معهم إلى أيرلندا بثقافة عصر الحديد الهولستاتية Hallstatt، كما جاءوا معهم بنظام قوي من الصلات العائلية يجعل الفرد فخوراً بقبيلته فخراً يمنع أن يكون دولة مستقلة، وظلت القبائل تحارب بعضها بعضاً، والممالك تقتتل نحو ألف عام، فإذا سكنت حرب القبائل أو الممالك فترة من الزمان اقتتل أفراد القبائل فيما بينهم؛ فإذا ماتوا دفن الأيرلنديون الصالحون قبل أيام القديس باترك Patrick، واقفين متأهبين للقتال، ووجههم متجهة نحو أعدائهم(14). وقد مات معظم ملوك البلاد في المعارك الحربية أو اغتيلوا(15). وتقول الروايات الأيرلندية إنه كان من حق هؤلاء الملوك أن يفضوا بكارة كل زوجة قبل أن يسلموها إلى زوجها، ولعلمهم كانوا يفعلون هذا لأنه فريضة تتطلبها الرغبة في تحسين النسل، أو لعلمهم

صفحة رقم : 4285

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندا

كانوا يفعلونها بوصفهم خدام الآلهة الذين يتطلبون أن يجنوا هم أولى الثمار. وقد وُجّه إلى الملك كنجوبار Conchobar أعظم الثناء لحرصه الشديد على أداء هذا الواجب(16). وكانت كل قبيلة تحتفظ بسجل لأفرادها، ونسبهم، ولملوكها ووقائعها الحربية، وتاريخها القديم "منذ بداية العالم"(17).

وفرض الكلت سلطانهم على البلاد بوصفهم الطبقة الحاكمة، ووزعوا قبائلهم في خمس ممالك؛ أُلستر (Ulster)، ولينستر (Leinster) الشمالية، ومونستر (Munster)، وكنوث (Connaught). وكان كل ملك من هؤلاء الملوك تام السيادة في مملكته، ولكن القبائل كلها رضيت أن تكون تارا (Tara) من أعمال ميث (Meath) عاصمتها القومية، فيها يتوج كل ملك من الملوك، وفيها يجمع في بداية حكمه الفيس (Feis) أو مؤتمر أعيان أيرلندة كلها لإقرار التشريعات التي تخضع لها الممالك بأجمعها، ولتصحيح أنساب القبائل وتدوينها، ثم تسجيلها في المحفوظات الأهلية. وشاد الملك كرماك ماك إيرت (Cormac Mac Airt) في القرن الثالث بهواً كبيراً لا يزال أساسه باقياً حتى الآن لتعقد فيه جلسات هذا المؤتمر. وكان مجلس إقليمي يدعى الأوناك (Aonach) يجتمع مرة كل سنة أو كل ثلاث سنين في عاصمة كل مملكة، ليسن قوانينها، ويقر الضرائب التي يجب على أهلها أدائها، ويقوم بوظيفة محكمة الإقليم. وكانت الألعاب والمباريات تسير على النمط التقليدي الآتي: الموسيقى، والغناء، وألعاب الشعوذة؛ والتمثيل الهزلي، والقصص، وإنشاد الشعر وكانت تعقد في أثنائها الزيجات فتزيدها بهجة، وكان عدد كبير من السكان يشتركون في هذه الحفلات. ويبدو لمن يرجع بفكره من خلال القرون الطوال، التي تخلع على القديم رواء وسحراً، إلى هذا التوفيق بين الحكومة المركزية والحرية الإقليمية أنه هو المثل الأعلى للنظم الحكومية. وظل المؤتمر (الفيس (Feis) قائماً حتى عام 560، أما المجلس المحلي (الأوناك (Aonach) فقد بقي حتى عام 1168.

صفحة رقم : 4286

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندة

وأول شخصية نستطيع أن نعدّها وتقين شخصية تاريخية بحق هي شخصية توأثال (Tuathal) الذي حكم لينستر (Leinster) وميث حوالي عام 160م. ومن ملوك أيرلندة أيضاً الملك نبال (Niall) حوالي (358) الذي غزا ويلز وعاد منها بغنائم لا تحصى، وأغار على غالة، ثم قتل رجل من أهل أيرلندة عند نهر اللوار. وكان معظم ملوك أيرلندة الذي جاءوا بعده من نسله. وفي السنة الخامسة من حكم ولده ليجير (Laeghaire) (ليري (Leary)) وفد القديس بتريك على أيرلندة. وكان الأيرلنديون قد استنبطوا لهم حروفاً هجائية مكونة من خطوط مستقيمة؛ وكان لهم أدب واسع من شعر وقصص يأخذ الناس مشافهة بعضهم عن بعض، وكانت لهم مصنوعات طيبة من الزخرف والبرونز والذهب. وكان دينهم من أديان الشرك وعبادة الطبيعة؛ فكانوا يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من مختلف الأجسام الطبيعية، وقد أسكنوا بقاعاً لا حصر لها في أيرلندة بالجن والشياطين والعمالقة. وكانت طائفة من الكهنة ذوي الثياب البيض تنتبأ بالغيب، وتسيطر في زعمها على الشمس والرياح بعصى وعجلات سحرية، وتنزل أمطاراً وتوقد نيراناً سحرية، وتحفظ أخبار القبائل وأشعارها عن ظهر قلب، وتلقنها إلى من يأتون بعدها، وتدرس مواقع النجوم، وتعلم الشبان، وتسدي النصح إلى الملوك، وتجلس للقضاء بين الناس، وتسبب الشرائع، وتقرب القرابين للآلهة من فوق مذابح قائمة في الهواء الطلق. وكان من بين أوثانها المقدسة تمثال مغطى بصفائح الذهب يسمونه كرم كرواك (Crom Cruach)؛ وكان هو إله جميع القبائل الأيرلندية؛ ويلوح أنه كان يُقرب إليه الابن الأول الذي يولد لكل أسرة في البلاد (18) - وربما كان منشأ هذه العادة الرغبة في الحد من كثرة النسل. وكان أيرلنديون يؤمنون بتجسد الأرواح بعد الموت، ولكنهم كانوا يحملون بوجود جزيرة سماوية وراء البحر، "ليس فيها عويل أو غدر، ولا خشونة أو عنف، بل فيها موسيقى حلوة تشنف الأسماك، وفيها أرض جميلة عجيبة ذات منظر لا يدانيه شيء آخر في روعته

صفحة رقم : 4287

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندة

وبهائه" (19). وتقول إحدى القصص إن الأمير كونال Couall تأثر بهذا الوصف فأبحر في قارب من اللؤلؤ ليكشف هذه الجزيرة السعيدة. وكانت المسيحية قد دخلت إنجلترا قبل قدوم القديس بتريك إليها بنحو جيل أو أكثر من جيل. وقد ورد في أحد التواريخ الإخبارية، التي يؤيدها بيدي، ضمن حوادث عام 431 أن "الباب سلسيني Celstine قد رسم بلديوس Palladius أسقفاً وأرسله إلى من يؤمنون بالمسيح من الأيرلنديين ليكون أول أسقف لهم"، لكن بلديوس توفي ذلك العام ذاته ونال القديس بتريك راعي أيرلندة وحاميها شرف اعتناق أيرلندة المذهب الكاثوليكي الذي لم تتحول عنه قط. وكان مولده حوالي 389 في قرية بناافتنا Bonnaventa من قرى غربي إنجلترا، من أسرة متوسطو الثراء والجاه. وإذا كان طفل ابن مواطن روماني فقد سمي باسم روماني هو بتريكوس Patricius. ولم ينل من التعليم إلا قسطاً قليلاً، ولهذا كان يعتذر للناس عن خشونة، ولكنه درس الكتاب المقدس دراسة متقنة يستطيع معها أن يورد منه شواهد من الذاكرة في كل ما يعرض له من المناسبات. ولما بلغ السادسة عشرة من عمره أسره جماعة من المغيرين الأسكتلنديين" (أي الأيرلنديين) وجاءوا به إلى أيرلندة، حيث أقام ست سنين يرعى الخنازير (21). و"تحول" في هذه الساعات التي كان يقضيها بعيداً عن الخلق فتبدلت حاله من عدم المبالاة بشؤون الدين إلى الصلاح البالغ الحد؛ ويقول هو عن نفسه إنه كان يستيقظ في كل يوم قبل الفجر، ثم يخرج للصلاة مهما يكن الجو سواء كان يتساقط فيه البرد أو المطر أو الثلج. ثم استطاع آخر الأمر أن يفر، واتخذ سبيله إلى البحر، وعثر عليه جماعة من الملاحين في مكان مقفر، فأخذوه معهم إلى غالة أو لعلمهم أخذوه إلى إيطاليا. ثم تمكن من أن يسلك سبيله إلى إنجلترا، وأن ينضم مرة أخرى إلى أسرته، وأن يعيش معها بضع سنين.

صفحة رقم : 4288

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندة

ولكن شيئاً ما دعاه أن يعود إلى أيرلندة- وقد يكون هذا الشيء هو ذكرى جمالها الريفي، أو طيبة قلوب أبنائها وحنوهم. وفسر هو هذا الإحساس بأنه رسالة إلهية، تدعوه إلى نشر المسيحية بين الأيرلنديين. فذهب من ليرنز Lerins وأوكسير Auxerr ودرس اللاهوت، ورسم قسيساً. ولما وصل إلى أوكسير نبأ وفاة بلديوس، عين بتريك أسقفاً، وأعطى بعض مخلفات بطرس وبولس، وأرسل إلى أيرلندة (432). ووجد فيها ملكاً وثنياً مستنيراً يدعى ليجير يجلس على عرش تارا. وعجز بتريك عن هداية هذا الملك إلى الدين المسيحي، ولكنه حصل على عهد منه بأن يكون له مطلق الحرية في التبشير بهذا الدين. وقاومه كهنة البلاد، وعرضوا على البلاد سحرهم. وقابل بتريك عملهم هذا بأن عرض على الأهلين تعاويد طاردي الأرواح الخبيثة، وهم طائفة من صغار الكهان جاء بهم معه ليستعينهم على طرد الشياطين. ويحدثنا بتريك في "الاعترافات" التي كتبها حين تقدمت به السن عما تعرض له من الأخطار في عمله فيقول: إن حياته تعرضت للخطر اثنتي عشرة مرة؛ وإنه هو ورفاقه قبض عليهم في يوم من الأيام، وظلوا في الأسر أسبوعين، وهددوا بالقتل، ولكن بعض أصدقائهم أفلحوا في إقناع من قبضوا عليهم بإطلاق سراحهم (22). وتقص الروايات المتواترة الصادرة عن بعض الأتقياء الصالحين من

الكتاب مئات من القصص المدهشة عن معجزات بتريك. من ذلك ما قاله ننيوس Nennius من أنه "رد البصر للعمي والسمع للصم(23)، وطهر المجذومين، وأخرج الشياطين، وأعاد الأسرى، وأحيا تسعة من الموتى وكتب 365 كتاباً". ولكن أغلب الظن أن أخلاق بتريك لا معجزاته هي التي هدت الأيرلنديين إلى الدين المسيحي - هذبهم ثقته التي لا تنتزع بعقيدته، ودأبه على عمله وتحمسه له. ولم يكن الصبر من طبعه، وكان استعداده لأن يصب اللعنات لا يقل عن استعداده لمنح البركات(24)، على أن هذا العمل نفسه كان

صفحة رقم : 4289

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أيرلندة

يصدر عن إقناع تمليه عقائده الوثائق بها والتي لا يقبل فيها جدلاً. وكان يعين القساوسة، ويشيد الكنائس، وينشئ الأديرة للرجال والنساء، ويترك حاميات روحية قوية لتقوم بحراسة فتوحه الدينية في كل مكان غزاه، وجعا الناس يظنون أن قبولهم في دولته الكهنوتية مغامرة من أسمى المغامرات وأجلها خطراً، وجمع حوله رجالاً ونساء من ذوي الشجاعة والإخلاص، يتحملون جميع الحرمان ليبشروا الناس بأن الإنسان قد نجا من الخطيئة. على أن بتريك لم يهد أيرلندة كلها، بل بقيت فيها للوثنية جيوب منعزلة، كما بقي لها شعرها، ولا تزال فيها إلى الآن آثار من الدين القديم، لكنه حين وافته منيته (461) كان يمكن أن يقال عنه؛ ما لا أن يقال عن رجل غيره. وهو أن رجلاً واحداً قد هدى أمة بأجمعها.

وأقرب الناس بعده لقلوب الأيرلنديين امرأة كان لها أكبر الفضل في تثبيت دعائم نصره، تلك هي القديسة بردجد Brigid ويقال إنها ابنة عبد وملك؛ ولكننا لا نعرف عنها شيئاً موثقاً به قبل أن تترهب في عام 476. وقد استطاعت أن تنشئ "كنيسة شجرة البلوط" (كل دارا Cill Dara) بعد أن تغلبت على عقبات يخطئها الحصر؛ ولا يزال الموضع الذي أقامتها فيه يسمى بهذا الاسم كلدير Kildare حتى اليوم. وسرعان ما استحالت الكنيسة ديراً للرجال وللنساء، ومدرسة لا تقل شهرة عن المدرسة الأخرى التي قامت في أرماغ Armagh. وتوفيت بردجد في عام 525، معززة مكرمة من جميع الأيرلنديين، ولا يزال عشرة آلاف من الأيرلنديين يسمون باسم ماري الجبيلية Mary of Gael. وبعد جيل من ذلك الوقت صب القديس روادهان لعنة على تارا؛ ثم هجرت الأبهاء القديمة بعد عام 558 حين مات الملك ديرمويد Diarmuid، واعتق ملوك أيرلندة الدين المسيحي وإن ظلوا مع هذا وثنيين في ثقافتهم.

صفحة رقم : 4290

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الأيام الخيرة من تاريخ عالية القديمة

1- الأيام الأخيرة من تاريخ غالة القديمة

كانت غالة في القرنين الرابع والخامس أكثر الولايات الغربية في الإمبراطورية الرومانية رخاء من الناحية المادية وأعظمها رقياً من الناحية العقلية. فقد كانت ترتبها خصبة كريمة، وصناعتها اليدوية متقدمة، وأنهارها وبحارها تعج بالمتاجر وكان نربونه وأرليز، وبردو، وطولوز (طلوشة)، وليون، ومرسيلية، ويواتيه، وتربيته جامعات مزدهرة تنفق عليها الدولة، وكان المدرسين، والخطباء، والشعراء، والحكام منزلة لا ينالها في العادة إلا رجال السياسة والملاكون. وفي أيام أوسنيوس وسيدنيوس عقد لغالة الزعامة الأدبية في أوربا كلها.

وكان ديسموس أوسنيوس Deecimus Magnus Ausonius شاعر العصر الفضي في غالة، وفيه تتمثل روح هذا العصر. وقد ولد في بردو حوالي عام 310، وكان والده كبير أطبائها، وفيها تلقى علومه، وقد حدث العالم فيما بعد في شعر كريم سداسي الأوتاد عن فضائل معلميه، ذكر فيه بسماحتهم وأغلض ضرباتهم (25). وسارت حياته بعدئذ سيراً هادئاً مطمئناً حتى عين أستاذاً في بردو وظل يعلم "النحو" (وكان يقصد به وقتئذ الأدب) و "البلاغة" (أي الخطابة والفلسفة) نحو ثلاثين عاماً، وكان مريباً للإمبراطور جراتيان قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية. وإن فيما كتبه عن والده وأعمامه وأخواله، وزوجته، وأبنائه وتلاميذه ما يوحي بأن حياته في البيت وفي خارجه كانت شبيهة بحياة المدن الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر. وهو يصف بعبارة جذابة البيت والحقول التي ورثها عن أبيه، ويحدثنا عن المكان الذي يرجو أن

صفحة رقم : 4291

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الأيام الخيرة من تاريخ غالة القديمة

يقضي فيها أحياء أيامه، ويقول لزوجته في سني زواجهما الأولى. "فلنعش على الدوام كما نعيش الآن، ولنحتفظ بالاسمين اللذين سمى بهما كلانا الآخر في بداية حيننا... ويجب أن يبقى كلانا في سن الشباب، وستكونين على الدوام جميلة في عيني، وعلينا ألا نحسب حساباً لمر السنين" (26). على أنهما سرعان ما فقدوا أول طفل رزقه منها، وقد كتب يحي ذكراه بعبارة تفيض بالحب فقال: "لن أتركك دون أن أبكيك يا بكر أبنائي وباسمي. لقد اختطفك الموت منا في الوقت الذي كنت تحاول فيه أن تبدل لغطك إلى أولى كلمات الطفولة... إنك الآن تترقد على صدر والد جدك الذي تشاركه قبره" (27). وماتت زوجته ولم يمض على زواجهما موفق إلا زمن قليل، وتركت له ابناً وبناتاً؛ وقد بلغ من

حبه ووفائه لها أنه لم يتزوج قط بعد؛ ووصف في شيخوخته ألمه لفقدائها ولوعته التي لم يخففها مر السنين، كما وصف السكنون المحزن المخيم على بينهما الذي طالما عرف عناية يديه وأحس بنغم وقع قدميها. وكان الناس في أيامه يحيون قصائده لما فيها من عواطف رقيقة، وصور ريفية جميلة، ولغتها اللاتينية الخالصة، ولشعرها الذي لا يكاد يقل في رفته عن شعر فرجيل. وكان بولينس الذي أصبح فيما بعد من القديسين، يشبه نثره بنثر شيشرون، وكان سيماخوس يقول إنه لا يستطيع أن يجد في شعر فرجيل شيئاً أجمل من قصيدة موز لا Mosella التي وصف فيها أوسنيوس نهر الوزل. وكان الشاعر قد أولع بذلك النهر حين كان مع جراتيان في تربيته. ويقول في وصفه إنه يجري وسط جنة حقه من الكروم، والبساتين والقصور الصغيرة ذات الحدائق، والمزارع الفاخرة الغنية، ونكاد نحس في وقت ما بخضرة شواطئه، وموسيقى جريانه. ثم لا يلبث أن يتدلى من هذا المستوى الرفيع فيصف في عبارات تتكرر مراراً ما في مجرى النهر من سمك لطيف. وتذكرنا هذه الرغبة الجامحة في ذكر الأقارب

صفحة رقم : 4292

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبية تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الأيام الخيرة من تاريخ غالة القديمة

والمدرسين، والتلاميذ، والسكك بكتابات هوثمان Whitman ولكنها ينقصها شعور هوثمان الفياض وفلسفته القوية اللذين يخففان من سأمتهما. وسبب ذلك النقص أن أوسنيوس بعد أن ظل ثلاثين عاماً يعلم النحو كان يصعب عليه أن يضمن عباراته شيئاً غير العاطفة الأدبية. فقصائده مسيحية صداقة، وأوراد مدح، ولكن الذين لم يعرفوا منا أمثال أولئك الأعمام والأخوال الذين نفتتن بحبهم، أولئك الأساتذة الذين يُغروننا بتمجيدهم فلما يتأثرون بهذا المديح. ولما توفي فلنتيان الأول (375)، وجلس جراتيان على عرش الإمبراطورية استدعى إليه معلمه القديم، وأفاض عليه وعلى من معه كثيراً من المنح السياسية. فعين أوسنيوس حاكماً على إيليركم Illyricum وإيطاليا، وأفريقية وغالة، واحدة بعد واحدة في فترة قصيرة، ثم عين آخر الأمر قنصلاً وهو في سن التاسعة والسنتين، وبفضل مشورته أصدر جراتيان مراسيم تفرض إعانات من الدولة لشؤون التعليم، وللشعراء، والأطباء، ولحماية روائع الفن القديم. وبفضل نفوذه أيضاً عين سيمكس حاكماً على روما، وبولينس والياً على إحدى الولايات وحزن أوسنيوس حين اعتزل بولينس شؤون الدنيا وانقطع للدين، لأن الإمبراطورية المهتدة من جميع نواحيها كانت في حاجة إلى أمثاله. نعم إن أوسنيوس نفسه كان أيضاً مسيحياً، ولكن لم يكن جاداً كل الجد في مسيحيته، فقد كانت ميوله، وموضوعات شعره، وأوزانه، وما فيه من أساطير كلها وثنية وسارة مطربة.

ولما بلغ الشاعر سن السبعين عاد إلى بردو حيث عاش عشرين سنة أخرى. وكان وقتئذ حياً، في وسعه أن يوفق في قصائد البنية التي نظمها في شبابه وبين حب الأجداد لأحفادهم حين يبلغ هؤلاء الأجداد الشيخوخة. انظر إليه وهو يقول لحفيده: "لا تخف، وإن كان صدى الضربات الكثيرة يتردد في المدرسة، وإن تجهم وجه المدرس، ولا ترتعد فرقاً إذا سمعت في أثناء ساعات الصباح صرخاً أو طرق أذنك صوت العصا، فإذا كان المدرس يتخذ العصا

صفحة رقم : 4293

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا ->
الأيام الخيرة من تاريخ غالة القديمة

صولجاناً يهزه بيده، وإذا رأيت لديه مجموعة كاملة من العصي... فليس هذا أو ذاك إلا مظهرأ خارجياً يبعث به الخوف الكاذب في النفوس. لقد مر أبوك وأمك بهذا كله في أيامهما، ثم عاشا بعدهما ليخففا عني في شيخوختي الهادئة الصافية عبء السنين" (28). وما أسعد حظ أوسنيوس إذ عاش ومات قبل أن يجتاح البلاد تيار البرابرة الجارف. وكانت منزلة أبليينارس سيدونيوس Appolinaris Sidonius في النثر الغالي أثناء القرن الخامس كمنزلة أوسنيوس في الشعر الغالي في القرن الرابع. لقد خرج سيدونيوس على العالم فجأة مدينة ليون (432) حيث كان يقيم أبوه حاكم غالة. وكان جده قد شغل هذا المنصب نفسه قبل أبيه، وكانت أمه من أقارب أفوتوس Avitus الذي جلس على عرش الإمبراطورية في عام 455. والذي تزوج سيدونيوس بابنته عام 452. وكانت كل هذه سبباً ممهدة يصعب على الإنسان أن يجد خيراً منها. وجاءت إليه ببيانلاً بيانة هي قصر ريفي مترف بالقرب من كليرمنت Clermont. وقد قضى عدداً من سني حياته في الذهاب لزيارة أصدقائه من النبلاء والعودة من هذه الزيارات. وكان أولئك الأصدقاء أناساً ذوي ثقافة ورقة يميلون إلى الدعة والمغامرة (29)، يعيشون في بيوتهم الريفية، وقلما يغمسون أيديهم في رجس السياسة. وكان في وسعهم أن يحملوا حياتهم الناعمة المترفة من الغزاة القوط. ولم يكونوا يهتمون بحياة المدن، فقد أخذ ذوو الثراء الواسع من الإنجليز والفرنسيين في ذلك العهد يرون ما في حياة الريف من متع لا توجد في المدن، وقد جمعت هذه البيوت الريفية المنبسطة ذات الحدائق كل وسائل الراحة وأسباب الجمال، من أرض مرصوفة بالفسيفساء، وأبهاء ذات عمد، وجدران منقوشة عليها مناظر طبيعية، وتماثيل من الرخام أو البرونز ومواقد فخمة، وحمامات، وحدائق وملاعب تنس (30)، ومن حولها غياض يستطيع الرجال والسيدات أن يصيدوا فيها ويطلقوا البزاة. وكان بعضها يحتوي 125 حجرة، وفي كل منها

صفحة رقم : 4294

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا ->
الأيام الخيرة من تاريخ غالة القديمة

إلا القليل النادر مكتبة عامرة بالكتب، فيها كتب الوثنيين القديمة وبعض النصوص المسيحية الجلييلة (31). وكان بعض أصدقاء سودونيوس نفسه من هواة جمع الكتب ولا ريب في أنه كان في غالة كما كان في روما كثير من الأثرياء الذين يقدرون تجليد الكتب الجميلة أكثر مما يقدرون محتوياتها وحدها، ويقنعون بالثقافة التي يستطيعون أن يحصلوا عليها من جلود كتبهم. ويضرب لنا سيدونيوس أحسن مثل لهذه الحياة اللطيفة حياة حسن الضيافة والمجاملة، والبهجة، والآداب الراقية، وما فيها من شعر جيد الصقل، ونثر حلو النغم. ولما ذهب أفنوس إلى روما ليجلس على عرش الإمبراطورية، صحبه سودنيوس، واختير ليلقي بين يديه خطاب الترحيب (456)، ثم عاد إلى غالة بعد سنة من ذلك الوقت مع أفنوس المخلوع؛ ولكننا نجده في روما مرة أخرى في عام 468 يشغل منصب محافظ المدينة حين كانت الدولة في آخر مرحلة من مراحل الانهيار. وكان الرجل يسير مطمئناً وسط هذه الفوضى، فاستطاع بذلك أن يصف المجتمعات العليا في غالة وروما في رسائل من طراز رسائل بلني وسيماخوس، ولا تقل عن رسائلهما مباهاة وظرفاً.

ولم يكن الأدب في ذلك الوقت يجد ما يتحدث عنه إلا القليل، وقد بُدِّل في هذا القليل من العناية ما أبقى على شكل هذا الأدب وسحر ألفاظه بعد أن ذهب كل ما عداهما، وخير ما يمكن أن يقال عن هذه الرسائل أنها حوت ما في طبيعة الرجل المهذب المتعلم من تسامح وظرف وتفاهم وتعاطف. وهي الصفات التي أزدان بها أدب فرنسا منذ تلك الأيام التي لم فيها أدباً فرنسياً. وقد جاء سيدونيس إلى غالة بما يمتاز به الرومان من حب الحديث الممتع اللطيف الذي بدأ بشيشرون وسنكا وانتقل عن طريق بلني وسيماخوس، ومكروبيوس، وسيدونيس إلى مونتاني ومنتسكيو، وفلتير، ورينان، وسانت بيف، وأتاتول فرانس، وهؤلاء يكونون سلسلة متصلة الحلقات، ومن نعم الله أنهم

صفحة رقم : 4295

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الأيام الخيرة من تاريخ غالة القديمة

يكادون يكونون كلهم ذوي عقلية واحدة. وإذ كنا لا نحب أن نعطي القارئ صورة غير صادقة لسودونيس، فلا بد لنا أن نضيف هنا أنه كان مسيحياً صالحاً، وأسقفاً شجاعاً. وقد وجد الرجل نفسه، على حين غفلة، وعلى كره منه، يندفع من منزلته المدنية العلمانية إلى أسقفية كليرمنت. وكان على الأسقف في تلك الأيام أن يكون حاكماً إدارياً وهداً روحياً في آن واحد. وقد كان ذوو التجارب والثراء أمثال أمبروز وسيدونيس يمتازون بمؤهلات أقوى أثراً وأعظم نفعاً في مناصبهم الجديدة من علوم الدين مهما تعمقوا فيها. وإذا كان سيدونيس لم يحصل من هذه العلوم إلا القليل، فإنه لم يكن يصب اللعنات الدينية إلا على القليلين، وكان بدل أن يشغل نفسه بهذا يعطي صحافة الفضية للفقراء، ويغفر ذنوب الناس بسرعة روعت الكثيرين من رجال الدين. وننبين من إحدى رسائله أنه كان في بعض الأحيان يقطع صلوات المصلين في كنيسة حين يتناولوا بعض المرطبات (23). ثم حطمت الحقيقة المرة هذه الحياة الممتعة حين قرر أوريك Euric ملك القوط الغربيين أن يضم أوفرنى Auvergne إلى البلاد الخاضعة لحكمه. وظل القوط يحاصرون كليرمنت عاصمة هذه الولاية كلما حل فصل الصيف أربع سنين متوالية. وكان سيدونيس يقاتلهم بالسياسة وبالصلوات، ولكنه عجز عن صداهم. ولما سقطت المدينة أحر الأمر، أسر، وسجن في حصن بالقرب من كاركسن (Carcassonne 475)؛ ثم أطلق سراحه بعد علمين وأعيد إلى كرسيه. ولسنا نعرف كم من الزمن عاش بعدئذ، ولكننا نعلم أنه قبل أن يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره كان يتمنى أن "يتخلص من آلام الحياة الحاضرة ومتاعبها بأن يجعل الله بمنيته" (32) ذلك أنه كان قد فقد إيمانه بالإمبراطورية الرومانية، وبنى كل آماله في تقدم الحضارة على الكنيسة الرومانية. وقد غفرت له الكنيسة ما في شعره من نزعة وثنية وضمته إلى جماعة القديسين.

صفحة رقم : 4296

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

أرخى ليل الهمجية سدوله على غالة بعد موت سيدويوس. على أننا ليس من حقنا أن نبالغ في ظلام هذا الليل. فقد ظل الناس في خلاله يحتفظون بمهاراتهم الاقتصادية، فكانوا ينتجرون " ويسكون النقود، ويقرضون الشعر، ويشغلون بالفن، وقد بلغت مملكة القوط الغربيين في جنوبي غالة الغربي أيام ملكيها أوريك (Euric 484-507) وأريك الثاني (484-507) درجة من النظام، والحضارة، والرقى، أطلقت لسان سيدونيوس نفسه بالثناء عليها (34). وفي عام 506 نشر أريك الثاني موجزاً من القوانين لمملكته، وكان دستوراً مستثيراً بالنسبة لغيره من دساتير ذلك الوقت، فقد كان يقرر العلاقة بين السكان الرومان الغالبيين والفاحين على قواعد ثابتة قائمة على العقل. وسن ملوك برغندية في عام 510 دستوراً شبيهاً بهذا، وكان هؤلاء الملوك قد أسكنوا شعبهم في جنوبي غالة الشرقي وبسطوا سلطانهم على هذا الإقليم بطريق السلم، وظلت أوربا اللاتينية تحكمها الشرائع القوطية والبرغندية وشرائع الفرنجة التي لا تختلف عنهما كثيراً، حتى عادت الشرائع الرومانية إلى الوجود في بولونيا في القرن الحادي عشر الميلادي.

ويبدأ التاريخ يحدثنا عن الفرنجة في عام 240 حين هزمهم الإمبراطور أورليان بالقرب من مينز، واستقر الفرنجة الربواريون Ripuarian (أي الشاطنيون) في بداية القرن الخامس من منحدرات الرين الغربية، واستولوا على كولوني (463)، واتخذوها عاصمة لهم، وبسطوا سلطانهم على وادي الرين من آخن Aachen إلى متر. وبقيت بعض قبائل الفرنجة على ضفة النهر الشرقية وأطلقوا اسمهم على فرنكونيا Franconia. وربما كان الفرنجة السالليون The Salic Franks

صفحة رقم : 4297

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

وقد اشتقوا اسمهم من نهر سالا Sala (المعروف الآن باسم إيسل Ijssel الذي يجري في الأرض الوطنية. ثم تحركوا من هذا الإقليم نحو الجنوب والغرب، واحتلوا حوالي عام 356 الإقليم الواقع بين نهر الموز Meuse والمحيط ونهر السوم Somme. وكان أكثر انتشارهم بطريق الهجرة السلمية بل أن الرومان أنفسهم كانوا يدعونهم أحياناً إلى أن يعمروا الأراضي القليلة السكان. وبهذه الوسائل المختلفة أصبحت غالة الشمالية نصف فرنجة قبل أن يحل عام 430. وقد جاء الفرنجة معهم بلغتهم الألمانية وعقيدتهم الوثنية، وكان من أثر هذا أن اللغة اللاتينية لم تعد اللغة التي يتحدث بها المقيمون على مجرى الرين الأدنى، كما لم تعد المسيحية دين هؤلاء الأقوام.

ويصف الفرنجة السالليون أنفسهم في مقدمة "القانون السالي" بأنهم " الشعب المجيد، الحكيم في مجالسه، النبيل في جسمه، الذي تشع منه الصحة والعافية، الممتاز بجماله، الجريء، السريع، الذي لا تلين له قناة ... هذا هو الشعب الذي

ألقى على عاتقه نير الرومان(35). ولم يكونوا يعدون أنفسهم برابرة بل كانوا يقولون إنهم رجال أحرار انتزعوا حيتهم بأيديهم، ومعنى لفظة فرنجة Franks هو الحر، الذي نال حقوقه السياسية. وكانوا طوال القامة، شقر الوجه، يجمعون شعرهم الطويل يعقدونه فوق رؤوسهم، ثم يتركونه يسقط منها أشبه ما يكون بذيل الحصان، وكانوا يطيلون شواربهم، ويحلقون لحاهم، ويشدون قباهم على وسطهم بأحزمة من الجلد مغطاة في بعض أجزائها بقطع من الحديد المطلي بالمينا. وفي هذه المنطقة يعلق السيف. والبلطة الحربية، وبعض أدوات الزينة كالمقصات والأمشاط(36)؛ وكان الرجال والنساء مولعين بالحلي، يتزينون بالخواتم، والأساور وعقود الخرز. وكان كل رجل قوي الجسم جندياً محارباً، يتعلم منذ صباه الجري، والقفز، والسباحة، وإصابة الهدف بالحربة أو البلطة. وكانت الشجاعة عندهم أسمى الفضائل كلها، من أجلها يعتزرون

صفحة رقم : 4298

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تنتشك -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

القتل، والنهب، والاعتصاب، ولكن التاريخ، بما يليق به من ضوء ساطع على بعض الحوادث دون بعضها الآخر، يخطئ في تصوير الفرنجة إذ يدخل في روعنا أنهم أقوام محاربون لا غير. والحق أن فتوحهم ووقائعهم الحربية لم تكن أكثر من فتوحنا نحن ووقائعنا، كما كانت أقل منها أتساعاً وتخريباً. ويسدل من شرائعهم على أنهم كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعات اليدوية، وانهم أنشئوا في شمالي غالة الشرقي مجتمعاً ريفياً مزدهراً يتمتع عادة بالسلام. وفتنتت الشرائع السالفة في بداية القرن السادس، وأكبر الظن أن ذلك كان في نفس الجيل الذي شهد آخر مرحلة من مراحل تطور قوانين جستنيان الرومانية. ويقولون إن "أربعة من الزعماء الموقرين" هم الذين كتبوه، وإن ثلاثة جمعيات شعبية متتالية بحثته وأقرته(37). وكانت الطريقة المتبعة في محاكم المتهمين هي طريقة التحكيم الإلهي والاستعانة بالشهود الذين يقسمون أن المتهم بريء. فإذا تعهد عدد كاف من الشهود الصالحين لهذه الشهادة أن المدعي عليه طيب الخلق، بريء من أية تهمة لا وجد دليل قاطع على أنه ارتكبها. وكان عدد الشهود يختلف تبعاً لجسامته الجرم المنسوب إلى المتهم : فسبعة وسبعون شاهداً يكفون لتبرئة المتهم بالقتل، ولكن لما أن اتهمت إحدى ملكات فرنسا في عفتها تطلب الأمر ثلاثمائة من النبلاء يشهدون بصحة انتساب ابنها إلى أبيه(38). فإذا ظل الأمر بعد هذا موضعاً للشك اتبع قانون التحكيم الإلهي. من ذلك أن المتهم كانت تربط يده وقدماه ويلقى في النهر، فإذا غطس كان بريئاً، وإذا طفا كان مذنباً (وذلك لأن الماء كانت تقرأ عليه رقى خاصة في حفل ديني تجعله يرفض الشخص المذنب)(39)؛ أو كان يطلب إلى المتهم أن يمشي حافي القدمين في نار متقدة أو فوق حديد يحمى حتى يحمر من الحرارة؛ أو يمسك بيده قطعة من الحديد محمية إلى هذه الدرجة ويظل قابضاً عليها مدة محددة من الزمن؛ أو يضع ذراعه عارية في وعاء به ماء يغلي ويخرج شيئاً من قاع الإناء؛ أو يقف

صفحة رقم : 4299

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

المدعي والمدعي عليه ويمدان ذراعيهما على هيئة صليب ويظان كذلك حتى تثبت التهمة على أحدهما إذا أنزل ذراعه من شدة التعب؛ أو يأخذ المتهم ماء القربان المقدس، فإذا كان مذنباً فلا بد أن تحل به نقمة الله. وكانت المباراة تفصل أحياناً في النزاعيين حرين إذا بقي بعد إيراد الأدلة القانونية مجال للشك المعقول. وتدل الأبتساق على أن التحكيم الإلهي بالماء المغلي كان من الوسائل التي يستخدمها الفرس الأقدمون. وقد ورد في قوانين مانو Mnau (قبل عام 100م) شئ من التحكيم الإلهي عند الهنود بالإغراق في الماء، كما ورد ذكر التحكيم الإلهي بطريق النار أو الحديد المحمي في مسرحية أنتيجون لسفكليس (40). أما الساميون فكانوا يرون أن هذا التحكيم يأباه الدين ولذلك كانوا يرفضونه، وكان الرومان يرون أنه خرافة، أما الألمان فقد ساروا فيه إلى آخر مرحله؛ وقبلته الكنيسة المسيحية وهي كارهة، وأحاطته بمراسيم دينية، وأيمان مغلظة.

والمحاكمة بالاقتيال قديمة قدم التحكيم الإلهي. ويصفه ساكسو جراماتيكوس Aaxo Grammaticus، بأنه كان إجبارياً في الدنمرقة في القرن الأول الميلادي؛ وتدل شرائع الإنكليز؛ والسكسون، والفرنجة، والبرغنديين، واللمبارد على أنه كان شائعاً بينهم، وقد وجد القديس بتريك في إيرلندا، ولما أن شكاً مسيحي روماني إلى جندوباد Oondobab ملك برغانديا وقال له أن هذا التحكيم لا يحكم على الجريمة بل على المهارة، أجابه الملك بقوله: "أليس حقاً أن نتائج الحروب المبارزات إنما تنتقر بقضاء الله، وأن العناية الإلهية تؤيد بنصرها القضية العادلة؟" (41). وكان كل ما حدث في هذا الأمر بعد، اعتنق البرابرة الدين المسيحي أن تبدل اسم الإله الذي يحكمونه فيما بينهم. وليس في وسعنا أن نحكم على هذه العادات أو نفهمها إلا إذا وضعنا أنفسنا في مكان قوم يؤمنون إيماناً لا يقبل الجدل بأن الله هو الذي يسبب الحوادث جميعها، وأنه لا يرضى عن أي حكم غير عادل. وأمام هذه التجربة المرعبة كان المدعون الذين لا يتقون

صفحة رقم : 4300

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

من عدالة قضاياهم أو من قوة بيناتهم يترددون كثيراً قبل أن يشغلوا المحاكم بقضاياهم وشكايتهم؛ كما أن المتهمين المجرمين كانوا يتهربون من التحكيم الإلهي ويعرضون أن يؤديوا بدلاً منه تعويضاً للمدعين. ذلك أنه كان لكل جريمة ثمنها، وكان في وسع المتهم عادة أن يفندي نفسه بأن يؤدي التعويض المقرر للجريمة المتهم بها على أن يكون ثلثه للحكومة، ثلثه لمن وقعت عليه الجريمة أو لأسرته، وكان المبلغ المفروض يختلف باختلاف منزلة من وقعت عليه الجريمة، ولهذا كان المجرم الملم بالشئون الاقتصادية يدخل في حسابه عدداً كبيراً من الحقائق. فإذا لطم رجل يد امرأة في غير حياء فرضت عليه غرامة مقدارها خمسة عشر ديناراً (نحو دولارين أمريكيين وربع دولار)؛ وإذا لطم عضدها غرم خمسة وثلاثين ديناراً (25ر5 دولارات)، فإذا مس صدرها بغير رضاها غرم خمسة وأربعين ديناراً (75ر6 دولارات) (42). ولم يكن هذا التقدير باهظاً إذا قيس بغيره من الغرامات: فقد كان جزاء اعتداء روماني على فرنجي أو سرقة باكره غرامة قدرها 2500 دينار (375 دولار)؛ وتخفيض هذه الغرامة إلى 1400 ديناراً إذا اعتدى فرنجي على روماني أو سرقه؛ إذا قتل فرنجي رومانياً غرم القاتل 8000 دينار تخفيض إلى أربعة آلاف (43) إذا كان المقتول رومانياً؛ إلى هذه الدرجة انحطت منزلة الروماني العظيم في أعين الفاتحين، وإذا لم

ينل المعتدي عليه أو أقاربه للتعويض الكافي، كان من حقهم أن ينتقموا لأنفسهم من المعتدي؛ وبهذه الطريقة كانت سلسلة الانتقام وسفك الدماء تدوم بين الخصوم عدة أجيال، وكانت الغرامات والبارزات القضائية خير الوسائل التي

صفحة رقم : 4301

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

استطاع الألمان البدائيون ابتكارها لكبح جماح غريزة الانتقام وإحلال القانون محلها. ونصت أهم مادة في القانون السالي على أنه "لا يجوز أن ترث امرأة شيئاً من الأراضي السالية (المادة السادسة). واعتمدت فرنسا على هذه المادة في القرن الرابع عشر فرفضت ادعاء الملك إدوارد الثالث ملك إنكلترا حقه في عرش فرنسا الذي يرثه عن طريق أمه إزابيل Esabelle؛ وأدى هذا الرفض إلى نشوب السنين المائة. وكانت هذه المادة مقصورة على الأملاك الثابتة (العقارات)، التي يفترض أنها تحتاج في حمايتها إلى قوة الرجال العسكرية، ويمكن القول بوجه عام إن القانون السالي لم يكن يرفع من شأن النساء. نعم إن دية المرأة كانت ضعفي دية الرجل (44)، لأنهم كانوا يدخلون في تقديرها أنها قد تكون أما للكثيرين من الرجال، ولكنه يفعل بهن ما يفعله القانون الروماني في أوائل عهده، فيضعهن على الدوام تحت وصاية آبائهن أو أزواجهن أو أبنائهن. وقد جعل القتل عقاب المرأة الزانية، ولكنه لم يكن يعاقب الزاني (45)، وكان يبيح الطلاق للرجل متى شاء هو (46). وكانت العادة تبيح لملوك الفرنجة بأن يتزوجوا بأكثر من واحدة، وإن لم يبيح ذلك القانون نفسه. وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين باسمهم هو كلوديو Chlodio الذي هاجم كولوني في عام 431؛ ولقد هزمه إيتيوس Aetius، ولكن كلوديو نجح في احتلال غالة من شرقها إلى نهر السوم في الغرب، واتخاذ تورناي عاصمة له. وخلفه على العرش ملك آخر يدعى مروفك Merovingian (ابن البحر) -وقد يكون هذا مجرد خرافة- وهو الذي سميت باسمه الأسرة المروفنجية Merovingian التي حكمت الفرنجة حتى عام 751. وأغوى ابنه كلدريك Childeric باسينا Basina زوجة أحد الملوك الثورنجيين Thuringian؛ فجاءت إليه لتكون ملكته، وقالت: إنها لا تعرف رجلاً أحصف منه عقلاً، أو أقوى منه جسماً،

صفحة رقم : 4302

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

أن أجمل منه خلقاً. وولدت له كلوفوس Clovis، الذي أنشأ فرنسا والذي تسمى باسمه ثمانية عشر من الملوك الفرنسيين .

وورث كلوفيس عرش المروفنجيين في عام 841، وكان وقتئذ في الخامسة عشر من عمره، ولم تكن مملكته تشغل وقتئذ إلا ركناً من أركان غالة، فقد كانت قبائل أخرى من الفرنجة تحكم أرض الترين، وكانت مملكتا القوط الغربيين والبرغنديين القائمتان جنوبي غالة قد استقلتا استقلالاً تاماً بعد سقوط روما. وكان الطرف الشمالي العربي من غالة، الخاضع بالاسم لحكم روما حتى ذلك الوقت، ضعيفاً لا يجد من يدافع عنه، فغزاه كلوفيس، واستولى على الكثير من مدنه وعلى عدد من أكابر رجاله. ثم قبل الفدية منهم. وباع الغنائم، وابتاع الجند والمؤمن، والأسلحة، وزحف على سواسون Soissons وهزم جيشاً "رومانياً" (486). ثم وسع فتوحه في السنين التالية حتى لامست حدود شبه جزيرة بريطانيا، ونهر اللوار. وضم إلى جانبه السكان الغالبيين بأن ترك لهم أراضيهم، كما ضم إليه رجال الدين المسيحيين بأن احترم دينهم وأبقى لهم ثروتهم. وفي عام 493 تزوج مسيحية تدعى كلوثيلد Clothilde، وما لبث أن اعتنق بتأثيرها الدين المسيحي على أساس العقائد النيقية، وعمده ريمي الأسقف والقسيس في ريمز أمام حشد من رجال الدين والأعيان، دعوا لهذا الغرض ولحكمة لا تخفى، من جميع أنحاء غالة، ثم تقدم كلوفيس إلى ميدان القتال يتبعه ثلاثة آلاف جندي. وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق إلى الوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وأنه كان يرى أن ملك فرنسا خليف بأن يعتنق من أجله هذا الدين. وأخذ أتباع الدين القويم في غالة القوط الغربيين، وغالة البرغنديين، ينظرون إلى حكاهم شرراً، وأصبحوا من ذلك الحين حلفاء الملك الفرنجي الشاب في السر أو في العلن.

صفحة رقم : 4303

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

ورأى أليك الثاني بداية هذا التيار الجارف، وحاول أن يصده بالكلام المعسول، فدعا كلوفيس إلى الاجتماع به، واجتمعوا بالفعل في أمبواز Amboise وعقدوا ميثاق الصداقة الدائمة، ولكن أليك قبض على جماعة من الأساقفة أتباع الدين الأصيل بعد عودته إلى طولوز. لتأمرهم مع الفرنجة، فدعا كلوفيس جمعيته الحربية وخطبها قائلاً: "يعز على نفسي أرى هؤلاء الأريوسيين يمتلكون جزءاً من غالة، فلنخرج لطردهم منها بمعونة الله" (47). ودافع أليك عن نفسه بكل ما وسعه الدفاع ومعه شعب منقسم على نفسه؛ ولكنه هزم في فوييه Vouill (القريبة من بواتييه (507). وقتله كلوفيس بيده. "وبعد أن قضى فصل الشتاء في بردو"، كما يقول جريجوري التوري Gregory Of Tours واستولى على جميع كنوز أليك التي كانت في طولوز، زحف لحصار أبوليم Angoulme. ومن الله عليه بفضلته فتساقطت أسوار المدينة من تلقاء نفسها". وها نحن أولاء نرى منذ ذلك الزمن (48) نغمة المؤرخ الإخباري التي بها العصور الوسطى. وكان سجيبيرت الشيخ ملك الفرنجة الربواريين حليفاً لكلوفيس من زمن بعيد. والآن أوحى كلوفيس إلى سجيبيرت بالميزات التي ينالها بعد موت أبيه. فقتل الابن والده وأرسل كلوفيس إلى القائل شعائر الود والصداقة ومعها عماله ليقتلوه. فلما تم ذلك لكلوفيس زحف على كولوني وأقنع زعماء الربواريين بأن يرتضوه ملكاً عليهم. ويقول جريجوري في ذلك "وجعل الله أعداءه يخرون في كل يوم صرعى تحت قدميه ... لأنه كان يسير أمام الله بقلب سليم، ولأنه كان يفعل ما تقر به عين الله" (49). وسرعان ما اعتنق الأريوسيون المغلوبون المذهب الصحيح، وسمح لقساوستهم أن يحتفظوا بمناصبهم الدينية بعد أن تخلوا عن الفارق بين المذهبيين وهو فارق ليس ذا شأن كبير. ونقل كلوفيس عاصمته إلى باريس وسار إليها متقللاً بالأسرى والعبيد، والدعوات الصالحات، ومات فيها بعد أربع سنين في سن الخامسة

صفحة رقم : 4304

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> الفرنجة

والأربعين. وجاءت الملكة كلوتيلد، التي كان لمعاونتها بعض الفضل في إنشاء فرنسا الغالية، "إلى تور بعد موت زوجها، وأدت الصلاة في كنيسة القديس مارتن، وعاشت في ذلك المكان عفيفة رحيمة طول أيام حياتها" (50).

صفحة رقم : 4305

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

3- المروفنجيون

614-511

كان كلوفيس يتوق إلى أن يكون له أبناء ذكور، وقد كان له قبل وفاته أكثر مما كان يجب، ولهذا قسم مملكته بينهم لكي يتجنب نشوب حرب للوراثة بعد وفاته. فأعطى كلديبرت Childebert الإقليم المحيط بباريس، وولى كلودمر Chlodomer إقليم أورلين Orleans، وأعطى كلوتار Chlotar إقليم سواسون Soissons وثيودريك إقليم منتر وريمز وواصل الأبناء بمهمتهم البربرية السياسية المؤدية إلى توحيد فرنسا عن طريق الفتح، فاستولى على نوررنجيا في عام 530، وعلى برغندية في عام 534، وعلى بروفانس في عام 536، وعلى بافاريا وسوبيا في 555. وعاش كلوتار بعد أن مات اخوته جميعاً فورث مما لهم، وكانت غالة تحت حكمه أوسع رقعة من فرنسا في العهود المستقبلية. وقبيل موته في عام 561 قسم غالة مرة أخرى ثلاثة أقسام : إقليم ريمز ومنتر المعروف بأستراسيا Austrasia (أي الشرق) وخص به ابنه سجيبرت Sigebert، وبرغندية وأعطاهما إلى جنثرام Gunthram، وأعطى إقليم سواسون المعروف بنوستريا Neustria (أي القسم الثاني الغربي) إلى كليريك Chilperic.

ولقد كان تاريخ فرنسا منذ زواج كلوفيس إلى وقتنا هذا مزيجاً من الرجولة والأنوثة جامعاً بين الحب والحرب. من ذلك أن سجيبرت أرسل هدايا غالية إلى أثنالجد Athanagild ملك أسبانيا برنهدا Brunhilda، ووافق أثنالجد على هذا الزواج لخوفه من الفرنجة

صفحة رقم : 4306

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

وإن أرسلوا الهدايا؛ وأقبلت برنهدا لتزدان بها أبهاء متر وريمز (566). ودب الحسد في قلب كلبريك، لأنه لم يكن له إلا زوجة ساذجة تدعى أودوفيرا Audovera وعشيقة فظة تدعى فردجندا Fredegunda، فطلب إلى أثنالجد أن يزوجه أخت برنهدا؛ وجاءت جلزونثا Galswintha إلى سوسوان وأحبها كلبريك لأنها جاءت معها بكنوز عظيمة، ولكنها كانت أكبر سناً من أختها؛ فعاد كلبريك إلى أحضان فردجندا. وطلبت جلزونثا أن تعود إلى أسبانيا، فأمر كلبريك بقتلها خنقاً (567)، وأعلن سجيبرت الحرب على كلبريك وهزمه، ولكن فردجندا بعثت إليه بعبيد قتل سجيبرت، وقبض على برنهدا ولكنها استطاعت الفرار وتوجت ابناً الشاب كلدبرت الثاني، وحكمت البلاد باسمه حكماً أظهرت فيه كثيراً من الحزم والكفاية.

ويصف المؤرخون كلبريك كأنه نيرون ذلك الوقت وهيروده، يصفونه بأنه غليظ القلب، سفاك للدماء، شهواني نهم شره، في جمع الذهب. ويفسر جريجوري التوري، وهو عمدتنا الوحيد في هذه المعلومات، تلك الصفات إلى حد ما بأن يصوره كأنه فردريك الثاني في عصره، فيقول إن كلبريك كان يسخر من فكرة وجود ثلاثة أشخاص في إله واحد، وبتصوير الله كأنه إنسان، وكان يعقد مع اليهود مناقشات مزرية، ويحتج على ثروة الكنيسة الطائلة، وعلى نشاط الأساقفة السياسي، وألقى الوصايا التي يترك بها الناس ما لهم للكنائس، وكان يبيع كراسي الأساقفة لمن يؤدي أكثر الأثمان، وحاول أن يخلع جريجوري نفسه من كرسي تور (51). ويصف الشاعر فرنتاتوس هذا الملك نفسه بأنه جماع الفضائل، فهو حاكم عادل لطيف، شيشرون زمانه في الفصاحة؛ ولكن يجب ألا ننسى أن كلبريك قد أجاز فرنتاتوس على شعره.

ومات كلبريك بطعنة خنجر في عام 584، وربما كان طاعنه مسلطاً عليه من برنهدا، وترك وراءه ولداً رضيعاً هو كلوتار الثاني فحكمت فردجندا نستريا

صفحة رقم : 4307

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

باليابسة عنه، بمهارة، وغدر، وقسوة لا تقل عن مثيلاتها في أي رجل من رجال ذلك الوقت. من ذلك أنها جاءت بشباب من رجال الدين ليقتل برنهلدا، ولما عاد دون أن يؤدي مهمته أمرت بقطع يديه وقدميه. لكن مرجعنا في هذه الأخبار هو أيضاً جريجوري (53). وكان أعيان أستراليا في هذا الوقت لا ينقطعون عن الثورة على برنهلدا المتغترسة، يشجعهم على هذا كلوتار الثاني؛ وكانت تخمد هذه الثورات بقدر ما تستطيع وتستعين على ذلك بالختل والاعتقال؛ ولكنهم أفلحوا آخر الأمر في خلعه وهي في الثمانين من عمرها، وظلوا يعذبونها ثلاثة أيام كاملة، ثم ربطوها من شعرها وإحدى يديها في ذيل حصان وضربوه بالسياط (614). وورث كلوتار الثاني الممالك الثلاث وتوحدت مرة أخرى دولة الفرنجة.

وقد يحملنا هذا السجل الملطخ بالدماء على أن نبالغ في الهمجية التي كانت تخيم على غالة ولما يكذب يمضي على موت سيدونيوس المتحضر المثقف قرن من الزمان، ولكن الناس لا بد لهم أن يجدوا وسيلة يستخدمونه إذا أعوزتهم الانتخابات. ولقد أفسد خلفاء كلوفيس ما بذله من جهود لتوحيد البلاد كما فعل خلفاء شارلمان بملكه بعده. على أن أقل مل يقال في هذا الثناء على هذا العهد أن الحكومة قد ظلت تؤدي واجباتها، وأن غالة لم تكن كلها تطبيق وحشية ملوكها وتعد زوجاتهم، وأن ما يبدو من استبداد الملوك كان محددًا بقوة النبلاء الذين يحسدونهم على سلطتهم، وكان الملك يكافئهم على ما يؤدون له من خدمات في الإدارة والحرب بأن يهبهم ضياعاً يكادون يكونون فيها سادة مستقلين؛ وفي هذه الأملاك الواسعة بدأ الإقطاع الذي حارب الملكية الفرنسية ألف عام. وكثر أرقاء الأرض، وبدأ الاسترقاق يحيا مرة أخرى بسبب الحروب الجديدة، وانتقلت الصناعات من المدن إلى بيوت الريف، فضاقت رقعة المدن، وخضعت لسيطرة السادة الإقطاعيين؛ وكانت التجارة لا تزال

صفحة رقم : 4308

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

نشيطه، ولكنها كان يقف في سبيلها عدم ثبات النقد، وكثرة اللصوص وقطاع الطرق، وارتفاع الضرائب الإقطاعية. وكان القحط والوباء يحاربان بنجاح غريزة التكاثر الأدمية. وتزوج زعماء الفرنجة بمن بقي من نساء طبقة أعضاء الشيوخ الغالبيين-الرومان، ونشأ من هذا التزاوج أشرف فرنسا. وكانوا في ذلك الوقت أشرفاً يتصفون بالقوة، يحبون الحرب، ويحتقرون الأداب، ويتباهون بلحاهم الطويلة، وأثوابهم الحريرية، وكثرة من يتزوجون من النساء. ولسنا نجد في تاريخ طبقة عليا لا تعبأ بالمبادئ الأخلاقية كما لم تعبأ بها هذه الطبقة؛ ولم يكن لا اعتناقها المسيحية أثر فيها على الإطلاق، فقد بدت المسيحية لهم كأنها مجرد وسيلة كثيرة النفقة للحكم وتهدة الشعب؛ ولما "انتصرت البربرية وانتصر الدين" كانت البربرية صاحبة الكلمة العليا مدى خمسة قرون. وكان الاعتقال، وقتل الآباء، والاخوة، والتعذيب، وبتن الأعضاء، والغدر، والزنى، ومضاجعة المحارم؛ كان هذا كله هو الوسيلة التي يخفون بها ملل الحكم. فقد قيل إن كلبريك أمر بأن يكون كل مفصل من مفاصل سجيلا Sigila القوطي بالحديد المحمي، وأن ينزع كل عضو من أعضائه من موضعه (54)، وكان لكاربيرت Charipert عشيقتان أختان وإحدهما راهبة، وجمع دجوبرت (Dagobert 628-639) بين ثلاث زوجات في وقت واحد. وربما كان الإفراط الجنسي هو السبب فيما أصاب المروفنجيين من عقم منقطع النظر: ومن أمثلة هذا العقم أن واحداً لا أكثر من أبناء كلوفيس الأربعة وهو كلوتار كان له أبناء، وأن واحداً من أبناء كلوتار الأربعة كان له طفل. وكان الملوك يتزوجون في الخامسة عشرة من عمرهم ويفقدون متى بلغوا سن الثلاثين، ومات كثيرون منهم قبل الثامنة والعشرين (55). ولم يحل عام 614 حتى كان بيت المروفنجيين قد استنفد جميع حيويته وتأهب لأن يخلي مكانه لغيره.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

في غمار هذه الفوضى لم يكد يكون للتعليم وجود، فلم يحل عام 600 حتى كانت معرفة القراءة والكتابة ترفاً لا يتمتع به إلا رجال الدين، أما العلوم الطبيعية فقد انمحت أو كادت. وبقي الطب، لأننا نسمع عن وجود أطباء في حاشية الملوك، أما بين الشعب فقد كان السحر والصلاة في نظرهم خيراً من الدواء. وقد ندد جريجوري أسقف تور (538؟-594) بمن يستخدمون الأدوية بدل الصلوات في علاج المرضى، وقال: إن هذا إثم يعذبهم عليه الله. ولما مرض هو أرسل يدعو إليه طبيباً، ولكنه سرعان ما صرفه لأنه لم ينفعه بشيء، ثم شرب قدحاً من الماء ممزوجاً بتراب جئ به من قبر القديس مارتن شفي على أثره شفاء تاماً (56). وكان جريجوري هذا أشهر كتاب النثر في أيامه، وكان يعرف كثيرين من الملوك المروفنجيين معرفة شخصية، وكثيراً ما كانوا يستخدمونه في بعثات لهم. وقد روى في كتابه تاريخ الفرنجة قصة العصر المروفنجي المتأخر بطريقة فجة، مضطربة قائمة على الهوى والخرافة، ولكنه روى هذه القصة بأسلوب واضح، وكانت حوادثها مما شاهده بنفسه، ولغته اللاتينية فاسدة، قوية، خالية من الالتواء. وهو يعتذر عن أغلاطه النحوية، ويرجو ألا يعاقبه الله في يوم الحساب على ما ارتكبه من إثم بسبب هذه الأخطاء (57). وهو يؤمن بالمعجزات وخوارق العادات، ويتصورها تصور الطفل الذي لا يخالجه فيها أدنى ريب أو يؤمن بها إيمان الأسقف الحصيف الماكر اللطيف ويقول: "وسنمزج في قصتنا معجزات القديسين بمذابح الأمم" (58). ثم يمضي فيؤكد أن الأفاعي سقطت من السماء في عام 587، وأن قرية قد اختفت فجأة بجميع مبانيتها وسكانها (59). وهو يشهر بكل شيء في أي إنسان لا يؤمن بالله أو يعمل ما يضر بالكنيسة، ولكنه يقبل ما يرتكبه أبناء الكنيسة المؤمنون من أعمال وحشية، وغدر، وخيانة، وفساد خلقي، ولا يجد في هذا ما تشمئز منه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> بداية تاريخ فرنسا -> المروفنجيون

نفسه. وهو صريح في تحيزه وعدم نزاهته، ومن اليسير علينا أن نتغاضى عن بعض عيوبه، والصورة الأخيرة التي لا تتطبع في ذهننا عنه هي أنه رجل ساذج محبوب. وأصبحت آداب غالة بعده تغلب عليها الصيغة الدينية في موضوعاتها، والصبغة البربرية في لغتها وأسلوبها إلا في حالة واحدة دون غيرها، تلك هي كتابات فنانتوس فرنتاتوس Vanantius Fortunatus (حوالي 530-610) البليغة. وقد ولد هذا الكاتب في إيطاليا، وتعلم في رافنا، ثم أنتقل إلى غالة في الثلاثين من عمره، وكتب يمدح أساقفتها وملكاتهما، وأحب رجعنا زوجة كلوتار الأول حياً عذرياً أفلاطونياً. ولما أنشأت هي ديراً صار فرنتاتوس قسيساً، ودخل في خدمتها، وما زال يرقى في الدرجات الكهنوتية حتى أصبح أسقف بواتيه؛ وكتب قصائد جميلة يمدح بها

الأخبار، والقديسين، منها تسع وعشرون قصيدة في مدح جريجوري التوري وحده؛ ثم كتب ترجمة شعرية للقديس مارتن. وكان أحسن مل كتبه بعض ترانيم حلوة النغم منها واحدة تدعى Pange Lingue أوحى إلى تومس أكوناس بقصيدة تشبهها في موضوعها وتعلو عليها في أسلوبها؛ ومنها قصيدة أخرى تدعى Vexilla Regis أصبحت هي الجزء الأخير من القديس الكاثوليكي. وقد نزع في مزج الإحساس القوي بالسعر البليغ، وإذا ما قرأنا أبياته الدائمة الجدة، اللطيفة الأسلوب، تبينا ما كان ينطوي عليه قلبه من رحمة، وإخلاص، وعواطف رفيقة وسط ما كان يتصف به عصر المروفنجيين من وحشية وجرائم يرتكبها الملوك.

صفحة رقم : 4311

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

الفصل الرابع

أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

711-456

سبق القول أن القوط الغربيين حكام غالية استردوا أسبانيا من الوندال في عام 420، وعادوا بعدئذ إلى روما، ولكن روما كانت عاجزة عن حماية أسبانيا، ولهذا فإن السويفي Suevi خرجوا من معقلهم في التلال الواقعة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة واجتاحوها كلها، فانقض عليها القوط الغربيون مرة أخرى بقيادة ثيودريك الثاني (456) وأوريك (466) بعد أن عبروا جبال البرانس، وفتحوا معظم أسبانيا واحتفظوا بالبلاد في هذه المرة وضموها إلى أملاكهم، وحكمت أسبانيا من ذلك الوقت أسرة من القوط الغربيين وظلت على عرشها حتى جاءها المسلمون. وأنشأت الملكية الجديدة، في بلدة طليطلة عاصمة فخمة، وجمعت فيها حاشية موفورة الثراء. وكان أثنانجلد (563-567) وليوفيجلد (568-586) ملكين قويين، هزما الغزاة الفرنجة في الشمال وجيوش بيزنطية في الجنوب؛ وكانت ثروة أثنانجلد هي التي أكسبت ابنتيه ميزة فذة هي انهم قتلنا وهما ملكتان لملكين من الفرنجة. وحدث في عام 589 أن غير ريكارد Recared مذهبه ومذهب الكثرة الغالبة من القوط الغربيين في أسبانيا من الأريوسية إلى المسيحية الأصلية. ولعل سبب هذا التغيير أنه قرأ من قبل تاريخ أريك الثاني. ومن ذلك أصبح الأساقفة أكبر المؤيدين للملكية وأقوى سلطة في الدولة؛ فقد سيطروا بفضل تفوقهم في العلم ودقة النظام على

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

الأشراف الذين كانوا يجتمعون معهم في مجالس الحكم في طليطلة؛ ومع أن سلطة الملك كانت سلطة مطلقة من الوجهة النظرية، ومع أنه كان هو الذي يختار الأساقفة، فإن هذه المجالس كانت هي التي تختاره، وتأخذ عليه قبل أن يباشر الحكم الموثيق بشأن السياسة التي تريد منه أن يتبعها، ووضعت بإرشاد رجال الدين طائفة من القوانين (634)، كانت أوفى جميع شرائع البرابرة وأقلها تسامحاً. وقد أصلحت من شأن الإجراءات القضائية بأن عمدت إلى تقدير شهادة الشهود في تقدير أخلاق المتهمين بدل شهادات الأصدقاء، وطبقت قوانين واحدة على الرومان والقوط الغربيين، فوضعت بذلك مبدأ المساواة أمام القانون (60). ولكنها لم تأخذ بمبدأ حرية العبادة، وحثمت على جميع السكان أن يعتنقوا المسيحية الصحيحة، وأقرت اضطهاد يهود أسبانيا الذي دام طويلاً، وارتكبت فيه أشد ضروب القسوة.

ونسي القوط الغربيون قبل أن ينقضي على فتحهم أسبانيا لغتهم الألمانية بتأثير نفوذ الكنيسة التي ظلت تستخدم اللغة اللاتينية في مواضعها وطقوسها الدينية، وأفسدوا اللاتينية المستعملة في شبه الجزيرة بأن أدخلوا عليها قوة الرجولة والجمال النسوي اللذين تمتاز بهما اللغة الأسبانية الحاضرة، وكانت المدارس الملحقة بالأديرة والأسقفيات هي التي تقوم بالتعليم، وكان معظمه تعليماً كنسياً، ولكنه كان يشمل شيئاً من دراسة الكتب القديمة، وأنشئت مجامع علمية في بقلارا Vaclara وطليطلة، وسرقسطة، وأشبيلية، وكان الشعر يلقي تشجيعاً كبيراً، وأما التمثيل فكان يقاوم لما فيه من فحش وبذاء.

ولم يحفظ التاريخ من أسماء الأديباء في أسبانيا القوطية إلا اسم إزدور Isidorc الأشبيلي (حوالي 560-636). وتروي إحدى الأفاصيص الطريقة كيف هرب غلام أسباني من بيته غضباً من تأنيبه من أجل كسله، وأخذ يطوف بالبلاد حتى أنهكه التعب، فجلس إلى جانب بئر، فاستلفت نظره شق عميق في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

حجر مجاور لحافة البئر. ومررت به في ذلك الوقت فتاة فقالت له إن هذا الشق من أثر احتكاك الحبل الذي ينزل الدلو في البئر ويرفعها، فلما سمعها إزدور قال في نفسه: "إذ كان في استطاعة هذا الحبل اللين بدأ به على العمل في كل يوم أن يشق الحجر، فما من شك أن المتابرة يمكن أن تغلب على بلادة عقلي". ثم عاد من فورهِ إلى بيت أبيه وواصل الدرس حتى أصبح أسقف أشبيلية المتبحر في العلم (61). ولسنا نعلم إلا القليل عن حياته، وكل ما نستطيع أن نقوله إنه وجد بين مشاغله الدينية الكثيرة، التي كان يقوم بها بما يرضي ضميره، متنسحاً من الوقت يكتب فيه سنة كتب. ولعله

أراد أن يعين ذاكرته فجمع في خلال عدد كبير من السنين فقرات مختلفة في جميع الموضوعات نقلها من كتب المؤلفين الوثنيين والمسيحيين واستحثه صديقه بروليو Broulio أسقف سرقسطة على أن ينشر هذه المختارات، فأجابه إلى طلبه، وحوارها حتى أصبحت من أقوى كتب العصور الوسطى أثراً وسماها "عشرون كتاباً في الاشتقاقات والأصول" وضماها الآن مجلد ضخيم يحتوي على 900 صفحة من القطع الكبير. وهو موسوعة علمية ولكنها غير مرتبة على الحروف الهجائية؛ وتبحث على التوالي في المجموعة الثلاثية من العلوم القديمة وهي النحو، والبلاغة، والمنطق؛ ثم في الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك وهي المجموعة الرباعية عند الأقدمين؛ ثم تبحث في الطب؛ والقانون؛ والتاريخ، والدين، والتشريح، ووظائف الأعضاء، وعلم الحيوان، وعلم الكون، والجغرافية الطبيعية، والهندسة المعمارية، والمساحة، والتعدين، والزراعة والحرب، والألعاب الرياضية، والسفن، والملابس، والأثاث، والأدوات المنزلية... وكلما انتقل المؤلف إلى موضوع من هذه الموضوعات عرف مصطلحاته الأساسية، وبحث عن منشأها. مثال ذلك أنه يقول إن الإنسان يسمى باللاتينية (هومو Homo) لأن الله قد خلقه من التراب (هومس Humus)، والركبتان تسميان Genus، لأنهما يكونان مقابل الخدين (Genae) في الجنين (62). وكان إزدور

صفحة رقم : 4314

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

عالمًا مجدًا وإن لم يعن بالترقية بين موضوعات درسه؛ وكان واسع الإطلاع على اللغة اليونانية، يعرف الكثير من كتابات لكريتيوس Lukretius (وهو الذي لا يذكر في العصور الوسطى)، وقد حفظ لنا قطعاً مختارة من فقرات كثيرة من الأدب الوثنية لولاه لصاغت عن آخرها. وبحوثه خليط من الاشتقاق الغريب، والمعجزات التي لا يقبلها عقل، ومن تفسيرات مجازية خيالية للكتاب المقدس؛ ومن العلوم الطبيعية والتاريخ حورت لكي تثبت مبادئ أخلاقية، وأخطاء في الحقائق يكفي القليل من الملاحظة لتصحيحها. وكتابه هذا أثر خالد يدل على ما كان فاشياً في هذا العهد من جهالة.

ولا يكاد يبقى شيء من الفنون التي كانت في أسبانيا في عهد القوط الغربيين رباح أن طليطلة، وإيطاليا وقرطبة، وغرناطة، ومديرا وغيرها من المدن كانت تحتوي على كنائس، وقصور، ومبان عامة جميلة المنظر، أقيمت على الطراز القديمة، ولكنها ميزت عنها بالرموز المسيحية، والنقوش البيزنطية (63). ويقول المؤرخون المسلمون إن العرب الفاتحين وجدوا في طليطلة وكنيستها الكبيرة خمسة وعشرين تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر، وكتاباً مزخرفاً للتراثيل مكتوباً على ورقة من الذهب بمداد مصنوع من الياقوت المصهور، وأقمشة منسوجة بخيوط من الذهب والفضة، ودروعاً، وسيفاً، وخنجر مرصعة من الجواهر، مزهريات مملوءة بها، ومنضدة من الزمرد مطعمة بالفضة والذهب. وكانت هذه المنضدة إحدى الهدايا الكثيرة الغالية التي أهداها أغنياء الغربيين إلى كنيستهم التي تحميمهم وترد الأذى عنهم.

وظل استغلال الأقوياء والمهرة البائسين والسذج يجري مجراه في عهد القوط الغربيين كما كان يجري في عهد سائر الحكومات القديمة. فكان الأمراء والأخبار يجتمعون في حفلات دينية أو دنيوية فخمة، ويضعون قواعد للتحليل والتحريم، ويدبرون وسائل للإرهاب والرعب ليتغلبوا بذلك كله على مشاعر

صفحة رقم : 4315

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين

الجماهير ويهدنوا أفكارهم. وتركزت الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد، وكانت الثغرة الواسعة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء، والمسيحيين عن اليهود تقسم الأمة ثلاث دول مختلفة؛ فلما أن جاء العرب لم يبال الفقراء واليهود بسقوط دولة ملكية وكنيسة لم تظهر شيئاً من الاهتمام بفقيرهم وسامتهم كثيراً من أنواع الاضطهاد الديني. ولما مات وتيزا Witiza ملك أسبانيا الضعيف في عام 708 لم يقبل الأشراف أن يخلفه على العرش أحد من أبنائه، بل أجلسوا عليه رديك (لزيق) Roderick، ففر أبناء وتيزا إلى أفريقية، واستعاثوا بزعماء المسلمين. وقام المسلمون ببضع غارات تمهيدية على السواحل الأسبانية، عرفوا بها أن أسبانيا منقسمة على نفسها، وأنها تكاد تكون مجردة من وسائل الدفاع، فجاءوا إليها في عام 711 بقوة أكبر من قوتهم السابقة. والتقت جيوش طارق ولزيق في معركة على سواحل بحيرة بندا Janda في ولاية قادس، انضمت فيها قوة من القوط إلى العرب؛ واختفى لزيق من المعركة. وتقدم المسلمون المنتصرون إلى أشبيلية، وقرطبة، وطليطلة؛ وفتحت كثير من المدائن الأسبانية أبوابها للغزاة. وأقام قائد العرب موسى ابن نصير في العاصمة الأسبانية (713)، وأعلن أن أسبانيا أصبحت من ذلك الوقت ملكاً للمسلمين وللخليفة الأموي في دمشق.

صفحة رقم : 4316

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> ثيودريك

الفصل الخامس

إيطاليا تحت حكم القوط الشرقيين

536-493

لما تصدعت أركان مملكة أتلا بعد وفاته في عام 453 استعاد القوط الشرقيون استقلالهم، وكان قد أخضعهم من قبل لحكمه. وكان البيزنطيون يرشونهم ليصدوا غيرهم من البرابرة الألمان نحو الغرب، وكافئوهم على عملهم هذا بأن أقطعوهم ولاية بنونيا، وأخذوا ثيودريك ابن ملكهم ثيودمير - ولم يكن قد تجاوز السابعة من عمره - رهينة في أيديهم إلى القسطنطينية ليضمنوا بذلك ولاء القوط الشرقيين لهم. وقضى ثيودريك في بلاط إمبراطور القسطنطينية أحد عشر عاماً اكتسب فيها فطنة وذكاء، وإن لم يتلق فيها تعليماً؛ وحقق فنون الحرب والحكم، ولكن يبدو أنه لم يتعلم قط الكتابة (64)؛ وأعجب به الإمبراطور ليو الأول، فلما مات ثيودمير (473) اعترف ليو بثيودريك ملكاً على القوط الشرقيين.

وخشي زينون الذي خلف ليو على عرش الإمبراطورية الشرقية أن يسبب ثيودريك المتاعب البيزنطية، فأشار عليه أن يفتح إيطاليا. وكان أدكور قد اعترف اسماً بخضوعه للإمبراطور الشرقي ولكنه كان يتجاهله فعلاً، وكان زينون يأمل أن يعيد ثيودريك إيطاليا إلى حكم بيزنطية؛ وسواء تم هذا أو لم يتم فإن زعيم القبائل الألمانية الخطرة سيسلي أحدهما الآخر ويتركان زينون يدرس الدين على مهل. وأعجب ثيودريك بهذه الفكرة - ويقول بعضهم إنه هو صاحبها. وقاد ثيودريك القوط الشرقيين بوصفه وزير زينون، وكان تحت لوائه عشرون ألف محارب،

صفحة رقم : 4317

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> ثيودريك

وعبر بهم جبال الألب (488). وعاون أساقفة إيطاليا القائد الأريوسي وإن كانوا هم من أتباع الدين الصحيح لأنهم كانوا يكرهون أريوسية أدوكر، ولأن ثيودريك في رأيهم يمثل إمبراطوراً يكاد يكون من أتباع الدين القويم. وبفضل هذه المساعدة استطاع ثيودريك أن يحطم مقاومة أدوكر الشديدة بعد حرب طاحنة دامت خمس سنين، وأقنعه على أن يعقد معه صلحاً ينزل فيها كلاهما عن مطالبه. ثم دعا أدوكر وابنه إلى الطعام معه في رافنا، وبعد أن أكرم وفادتهما قتلهما بيده (493). وبهذا الغدر بدأ عهد أكثر العهود استنارة في التاريخ.

وكانت بضع حملات عسكرية كافية لأن تخضع لحكم ثيودريك غربي البلقان، وجنوبي إيطاليا، وصقلية. وظل ثيودريك خاضعاً خضوعاً اسماً إلى بيزنطية، وضرب النقود باسم الإمبراطور، وكان يكتب الرسائل إلى مجلس الشيوخ، الذي ظل يعقد جلساته في روما، بما يليق به من التوقير واتخذ لنفسه لقب ركس Rex أي الملك. وكان هذا اللفظ في الزمن القديم من أبعض الألفاظ إلى الرومان، ولكنه كان وقتئذ لقباً عاماً لحكام الأقاليم التي تعترف بسيادة بيزنطية عليها. وقبل قوانين الإمبراطورية الغربية التي زالت من الوجود ونظمها، وحرص أشد الحرص على الدفاع عن أثارها وأشكالها، ووهب كل ما أوتي من جد ونشاط لإعادة الحكم المنظم إلى البلاد والرخاء الاقتصادي إلى الشعب الذي أخضعه لحكمه. وقصر عمل القوط الذين جاؤوا معه على وظائف الشرطة والخدمة العسكرية، وسكن تدمرهم بما كان يؤديه لهم من الأجور العالية. أما مناصب الإدارة والقضاء فقد ظلت في أيدي الرومان، وترك ثلثي إيطاليا الزراعية للرومان أنفسهم ووزع الثلث الباقي على القوط، ومع هذا فقد بقيت بعض الأراضي الصالحة للزراعة في إيطاليا من غير أن تغلج. وافتدى ثيودريك الرومان الذين وقعوا في أسر الأمم الأخرى، وأسكنهم إيطاليا، وأقطعهم فيها أرضاً يزرعونها؛

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> ثيودريك

وجفف المستنقعات البنّية، وأعادها أرضاً صالحة للزراعة غير مضرّة بالصحة. وكان ثيودريك يؤمن بضرورة تنظيم الحالة الاقتصادية وإخضاعها لسيطرة الحكومة، فأصدر "مرسوماً خاصاً بالأثمان، التي يجب أن تكون في رافنا". ولسنا نعرف كيف كانت هذه الأثمان. وكل ما يقال لنا هو أن نفقات الطعام في حكم ثيودريك كانت أقل مما كانت عليه قبل بمقدار ثلثها. وأنقص عدد موظفي الحكومة ومرتباتهم، ومنع الإعانات التي كانت تعطى للكنيسة، وخفض الضرائب. ومع هذا فقد كانت إيرادات الدولة لا تكفي لإصلاح كثير من الضرر الذي ألحقه الغزاة بروما وإيطاليا، لإقامة قصر متواضع في رافنا وكنيسة سنتا أبليناري Sant' Appollinare وسان فيتال San Vitale. وفي أيامه استعادت فيرونا، وبافيا، ونابلي، وأسبوليتو Spoleto وغيرها من مدن إيطاليا ما كان بها في أيام عزها من مبان فخمة. وبسط ثيودريك حمايته على الكنائس التابعة للمذهب الأصلي من حيث أملاكها وحرية العبادة فيها وإن كان هو من أتباع المذهب الأريوسي؛ وصاغ وزيره كسيودوروس Cassiodorus الكاثوليكي المذهب سياسة الحرية الدينية في تلك العبارة الخالدة! "ليس في مقدورنا أن نسيطر على الدين، لأننا لا نستطيع أن نرغم أحداً على أن يؤمن بما لا يريد أن يؤمن به". وكتب مؤرخ بيزنطي يدعى بروكوبيوس Procopius من مؤرخي الجيل التالي يثني على الملك "البربري" ثناء ليس فيه شيء من المحاباة فقال:

لقد كان ثيودور شديد الحرص على مراعاة العدالة... وبلغ أعلى درجات الحكمة والرجولة... ومع أنه كان من الناحية الاسمية مغتصباً للملك، فقد كان في الواقع الأمر إمبراطور بحق، لا يقل في ذلك عن أي إمبراطور ممن ميزوا أنفسهم في هذا المنصب الخطير منذ بداية التاريخ. وكان القوط والرومان جميعاً

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> ثيودريك

يحبونه أعظم الحب... ولم يكن كل ما تركه قبل وفاته هو الرعب الذي قذفه في قلوب أعدائه، بل أنه ترك فوق ذلك في قلوب رعاياه شعوراً قوياً بالخسارة والحرمان(67).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

2- بويثيوس

وفي هذه البيئة التي عمها السلم والأمن بلغ الأدب اللاتيني آخر مرحلة من مراحل الرقي والازدهار. ومن أشهر أدباء ذلك العصر فلافيوس ماجنوس أورليس كسيودورس (Flavius Magnus Aurelius Cassiodorus 480-573) الذي كان أمين سر أدوكر وثيودريك. وقد أُلّف، بناء على إشارة ثيودريك، تاريخ القوط (68) وكان يهدف إلى أن يظهر للرومان المتشامخين أن للقوط أيضاً أنباء نبلاء وأعمالاً مجيدة. ولعل أكثر من هذا موضوعية تاريخه الإخباري الذي أرّخ فيه العالم كله من آدم إلى ثيودريك، ونشر في أواخر حياته السياسية مجموعة من رسائله وأوراقه المتعلقة بشؤون الدولة بعضها سخيّف بعض السخف، وبعضها كثير المبالغة والتباهي، وبعضها يكشف عن مستوى أخلاقي رفيع ومقدرة إدارية عظيمة كان يتصف بهما الوزير ومليكه. ولما شهد في عام 450 اضمحلال الحكومة التي خدعها ثم سقوطها اعتزل منصبه وأوى إلى ضيعته في اسكوبلاس Squillace بكالبريا Calabria، وأنشأ هناك ديرين، وعاش فيها عيشة وسطاً بين عيشة الرهبان والعظماء حتى وافته المنية في سن الثالثة والتسعين. وقد علم زملاءه الرهبان أن ينسخوا المخطوطات، الوثنية منها والمسيحية، وأعد لهذا العمل حجرة خاصة. وحدث بعض المعاهد الدينية الأخرى حذوه، ولهذا فإن كثيراً مما لدينا من الكنوز الحديثة المنقولة عن الأدب القديم هو ثمرة من ثمار أعمال النسخ التي تمت في الأديرة، والتي بدأها كسيودورس وزملاءه الرهبان. وأُلّف أواخر سني حياته كتاباً مدرسياً سماه: منهجاً في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

الدين والدراسات غير الدينية دافع فيه دفاعاً جريئاً عن قراءة الآداب الوثنية. واتبع فيه منهج الدراسة المدرسي الذي وضعه مريانوس كابلا Marianus Capella والذي قسم فيه العلوم إلى مجموعتين: المجموعة الثلاثية والمجموعة الرباعية، وهو التقسيم الذي ظل متبعاً في التعليم طوال العصور الوسطى.

وكانت حياة أنيسوس مانليوس سفريوس بويثيوس (Anicius Manlius Severinus Boethius 475-534) وشبيهة بحياة كسيودورس في كل شيء إلا في قصر مدنتها. فكلاهما من أبناء الأسرة الرومانية الغنية، وكلاهما كان وزيراً لثيودريك، وكلاهما بذل جهداً كبيراً لسد الثغرة التي تفصل الوثنية عن المسيحية، وكتب كتاباً مملت ظلت ألف

عام تقرأ وتعد من الذخائر القيمة. وكان والد بويثيوس قنصلاً في عام 483، وكان والد زوجته سيماخوس الأصغر من نسل سيماخوس الذي دافع عن مذبح الحرية. وتعلم أحسن تعليم تستطيع روما أن تقدمه لأبنائها، ثم قضى بعدئذ ثمانية عشر عاماً في مدارس أثينة عاد بعدها إلى قصوره الريفية في إيطاليا، وانهمك في الدرس، واعتزم أن ينقذ عناصر الثقافة اليونانية واللاتينية القديمة التي رآها أخذة في الزوال، فوهب وقته كله وهو أكبر ما يعتز به العالم المجد- في تلخيص كتب إقليدس في الهندسة النظرية ونقوماخوس في الحساب، وأرخميديز في علم الحيل (الميكانيكا) وبطليموس في الفلك... وكانت ترجمته لرسالة أرسطو في المنطق (Organon) وكتاب برفيري Porhyry المعروف باسم مقدمة لمقولات أرسطو هي التي استمد منها علم المنطق في السبعة القرون التالية أهم نصوصه وأفكاره، وهي التي مهدت السبيل للجدل الطويل بين الواقعية والاعتبارية. وحاول بويثيوس أن يكتب أيضاً في اللاهوت: فألف رسالة في التثليث دافع فيها عن النظرية المسيحية السائدة، ووضع المبدأ القائل إنه إذا اختلف الدين والعقل وجب إتباع الدين. وليس في

صفحة رقم : 4322

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

هذه المؤلفات كلها ما هو خليق في هذه الأيام، ولكننا مهما أطنبنا في وصف آثارها في التفكير في العصور الوسطى فإننا لا يمكن أن نتهم بالمبالغة في هذا الوصف. وأوحت إليه تقاليد أسرته أن يتنحى عن هذه الأعمال المغلقة على الإفهام، وأن ينزل إلى قسم الحياة السياسية. وارتقى في هذه الحياة رقياً سريعاً، فكان قنصلاً، ثم وزيراً، ثم سيد المناصب -أي رئيس وزراء (522). وامتاز في هذه المناصب كلها بحبه للإنسان وبفصاحته، وكان الناس يشبهونه بدمستين وشيشرون. لكن العظمة تخلق للعظيم أعداء، فقد ساء الموظفين القوط في بلاط الملك ما رآوه من عطفه على السكان الرومان والكاثوليك، وأثاروا شكوك الملوك فيه؛ وكان ثيودريك وقتئذ في التاسعة والستين من عمره، ضعيف الجسم والعقل لا يدري كيف ينقل إلى خليفته حكماً مستقراً تتولاه أسرة قوطية أريوسية على أمة تسعة أعشارها من الرومان، وثمانية أعشارها كاثوليك. وكان لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن الكنيسة والأشراف يناصبانه العدا، وأنهما يترقبان موته بفارغ الصبر. وكان مما قوى هذه الشكوك أن جستنيان نائب الإمبراطور في بيزنطية أصدر مرسوماً يقضي بنفي جميع المانيين من الإمبراطورية، وتحريم جميع المناصب المدنية والعسكرية على جميع الوثنيين والمارقين- بما فيهم جميع الأريوسيين ما عدا القوط. وظن ثيودريك أن هذا الاستثناء لا يقصد به إلا إضعاف حجته، وإن جستنيان فيه عند أول فرصة، ورأى أن هذا المرسوم جزاء غير عادل للحريات التي منحها أتباع العقيدة الكنسية الأصلية في الغرب. ألم يرفع إلى أعلى مناصب الدولة بويثيوس الذي كتب رسالة عن التثليث يعارض فيها العقيدة الأريوسية؟ وفي تلك السنة نفسها سنة 523 أهدى إلى كنيسة القديس بطرس مائتين فخميتين من الفضة المصمتة دليلاً على مجاملته للبابا. لكنه مع هذا أغضب طائفة كبيرة من

صفحة رقم : 4323

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

السكان بحمايته لليهود، ذلك أنه حين دمر الغوغاء معابدهم في ميلان، وجنوى، وروما أعاد بناءها من الأموال العامة. وفي هذه الظروف ترمى إلى ثيودريك أن مجلس الشيوخ يأتمر به ليخلعه. وقيل لم إن زعيم المؤامرة هو ألبينوس رئيس مجلس الشيوخ وصديقه بويثيوس. فما كان من العالم الكريم إلا أن أسرع إلى ثيودريك وأكد له براءة ألبينوس وقال له: "إذا كان ألبينوس مذنباً فإني أنا ومجلس الشيوخ كله لا نقل عنه جرماً". وقام ثلاثة رجال ذوي سمعة سيئة يتهمون بويثيوس بالاشتراك في المؤامرة، وقدموا وثيقة عليها توقيع بويثيوس، موجهة إلى إمبراطور بيزنطية تدعوه إلى فتح إيطاليا. وأنكر بويثيوس هذه التهم كلها، وقال إن الوثيقة مزورة، لكنه اعترف فيما بعد بأنه: "لو كان هناك أمل في أن يوصلنا ذلك إلى الحرية لما ترددت فيه، ولو أنني عرفت أن هناك مؤامرة على الملك... لما عرفتم نبأها مني" (70). فلما قال هذا قبض عليه (523):

وسعى ثيودريك لأن يتفاهم مع الإمبراطور، وكتب إلى جستين رسالة خليقة بالملك الفيلسوف قال فيها: إن من يدعي لنفسه حق السيطرة على الضمائر يغتصب حق الله وحده على عباده، أما سلطان الملوك فهو بطبيعة الأشياء مقصور على الحكومة السياسية، وليس من حقهم أن يعاقبوا إنساناً إلا إذا عكر صفو السلم العام. وليس ثمة أشد خطورة من مروق الملك الذي يفصل نفسه عن قسم من رعاياه لأنهم لا يؤمنون بما يؤمن هو به" (71). ورد عليه جستين بقوله: إن من حقه أن يحرم من مناصب الدولة من لا يثق بولائهم له، وإن نظام المجتمع يتطلب وحدة العقيدة. وطلب الأريوسيون في الشرق إلى ثيودريك أن يحميهم، فطلب إلى البابا يوحنا الأول أن يسافر إلى القسطنطينية لدى الإمبراطور في أمر الأريوسيين

صفحة رقم : 4324

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

المفصولين من وظائفهم. ورد عليه البابا بأن هذه الرسالة لا تليق برجل أخذ على نفسه أن يقضي على الزيغ والضلال، ولكن ثيودريك أصر على مطلبه، وقوبل يوحنا في القسطنطينية بحفاوة بالغة، ثم عاد صفر اليدين، فاتهمه ثيودريك بالخيانة، وألقاه في السجن، حيث مات بعد سنة واحدة (72). وفي هذه الأثناء كان ألبينوس وبويثيوس قد حوكما أمام الملك وأدينوا وحكم عليهما بالإعدام. وروح هذا الحكم مجلس الشيوخ فأصدر مراسيم يثبراً فيها منهما ويصادر أملاكهما، ويفر العقوبة التي حكم بها عليهما. وقام سيماخورس يدافع عن زوج ابنته فاعتقل. وألف بويثيوس وهو في السجن كتاباً من أشهر ما ألف من الكتب في العصور الوسطى وهو كتاب سلوى الفلاسفة *Consolatione Philosophiae*، وجمع فيه بين النثر العادي والشعر البديع الساحر، لم يذرف فيه دمعه، بل كان كل ما يحويه هو تسليم كتسليم الرواقين بتصرفات الأقدار التي تخبط خبط عشواء، ومحاولة صداقة للتوفيق بين مصائب الأبرار وما يتصف به المولى سبحانه وتعالى من حب للخير، وقدرة على كل شيء، وعلم سابق بما يقع في الكون من أحداث. ويذكر بويثيوس نفسه بجميع النعم التي توالى عليه في حياته- من ثراء و "حَمِ نبيل، وزوجة طاهرة" وأبناء بررة. ويتذكر المناصب العليا التي شغلها، والساعة العظيمة التي هز فيها بفصاحة لسانه مشاعر أعضاء مجلس الشيوخ حين كان ولداه القنصلان هما رئيسيه. ويقول لنفسه إن هذه السعادة لا يمكن أن تدوم

إلى أبد الدهر، بل لا بد أن توجه الأقدار بين الفينة والفينة لمن ينعم بها ضربة تطهره وتزكيه. وتلك السعادة العظيمة خليفة بأن تذهب تلك الجائحة القاصمة (73). ومع هذا فإن ذكرى تلك السعادة الماضية من شأنها أن تزيد من حدة الألم. وفي ذلك يقول بويثيوس في بيت من الشعر يردد دانتى صداه على لسان فرنسكا Francesca: "إن أعظم ما يشفى به

صفحة رقم : 4325

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

الإنسان حين تصرعه الشدائد هو ذكرى ما كان ينعم به من سعادة" (74). وهو يسأل السيد الفيلسوف- بعد أن ينزلها منزلة العقلاء كما يفعل أهل العصور الوسطى- عن موضع الفلسفة الحقه، ويتبين أنها لا تكون في المال أو المجد، ولا في اللذة أو السلطان؛ ومن ثم يرى أنه لا توجد سعادة حقه أو دائمة إلا في الاتصال بالله، ويقول إن "النعمة الحقه هي الاتصال بالله" (75). ومن أغرب الأشياء أنه ليس في الكتاب كله سطر واحد يشير إلى فساد الأخلاق الشخصية، وليس فيه إشارة إلى المسيحية أو أية عقيدة من عقائدها، ولا سطر واحد غير خليف بأن يكتبه زينون، أو أبيقور، أو أورليوس. ومن ثم فإن آخر كتاب في الفلسفة الوثنية قد كتبه مسيحي تذكر في ساعة موته أثينة لا لجوثا Gelgotha. ودخل عليه الجراد في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر من عام 524، ثم ربطوا عنقه بحبل وشدوه حتى جحظت مقلته وخرجتا من قبيهما، ثم انهالا عليه ضرباً بالعصي الغليظة حتى قضى نحبه، وقتل سيماخوس بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت. ويقول بروكبيوس (76) إن ثيودريك بكى لما ارتكبه من ظلم في حق بويثيوس وسيماخوس، وفي عام 526 لحق ضحيته إلى القبر.

ولم تبقى مملكته طويلاً بعد موته، وكان قبل وفاته قد اختار حفيده أثريك Athalric ليخلفه على العرش، ولم يكن حفيده هذا قد جاوز العاشرة من عمره ولذلك حكمت أمه أمالاسنثا Amalasantha، وكانت امرأة نالت قسطاً كبيراً من التعليم والتثقيف، وكانت صديقة لكسيديورس أو لعلها كانت تلميذة له؛ فلما شرعت تحكم البلاد باسم ولدها دخل في خدمتها كما كان من قبل في خدمة أبيها، ولكنها كانت تميل كل الميل إلى الأساليب الرومانية، فأغضبت بذلك رعاياها القوط، ولم يكونوا راضين عن الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة التي

صفحة رقم : 4326

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> أوروبا تتشكل -> إيطاليا تحت حكم القوطيين الشرقيين -> بويثيوس

كانت تضعف بها، كما يرون، مليكهم الصغير. لهذا أسلمت ابنها إلى مربين من القوط، وأطلق الصبي العنان لشهواته الجنسية، ومات في الثامنة عشر من عمره. وأجلست أمالاستنا ابن عمها ثيوداهاد Theodahad معها على العرش بعد أن أخذت عليه الموائيق بأن يترك لها شؤون الحكم. ولكنه لم يلبث أن خلعها وألقاها في السجن، فطلبت إلى جستنيان، الذي أصبح وقتئذ إمبراطور الدولة البيزنطية، أن يخف لمعونتها، فجاءها بلساريوس Belisarius.

صفحة رقم : 4327

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الإمبراطور

الباب الخامس

جستنيان

565-527

الفصل الأول

الإمبراطور

توفي أركاديوس في عام 408 وخلفه ابنه ثيودوسيوس الثاني، إمبراطوراً على الشرق ولما يتجاوز السابعة من العمر. وقامت بلشيريا Pulcheria، وكانت تكبره بعامين، بتربيته، وكانت طوال المدة التي أشرفت فيها على تربيته تظهر من الجزع والإشفاق عليه مما جعله غير أهل للحكم، ولهذا ترك شؤون الدولة لرئيس الحرس ولمجلس الشيوخ، وانهمك هو في نسخ المخطوطات القديمة وتزيينها، ويبدو أنه لم يقرأ قط كتاب القوانين الذي خلد اسمه. وفي عام 414 أصبحت بلشيريا وصية على العرش وهي في السادسة عشر من عمرها، وظلت تصرف شؤون الإمبراطورية ثلاثاً وثلاثين سنة، ونذرت هي وأختها أنفسهن بأن يضلن عذارى. ويبدو أنهن قد أوفين بالنذر، فقد كن يلبسن ملابس

بسيطة تتم عن الزهد والتشف. ويؤلفن وينشدن الترانيم الدينية، ويصلين، وينشئن المستشفيات، والكنائس، والأديرة، ويغدقن عليها العطايا. واستحال القصر ديراً، وحرّم دخوله إلا على النساء وعدد قليل من رجال الدين. وفي وسط هذه المظهر الدينية حكمت بلشيريا، وبوديسيا زوجة أخيها، ووزراؤهما، البلاد حكماً صالحاً، وهب الإمبراطورية الشرقية في خلال نيابتهما عن ثيودسيوس التي

صفحة رقم : 4328

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الإمبراطور

دامت اثنتين وأربعين سنة هدوءاً لم تعهده من زمن بعيد، بينما كانت الفوضى ضاربة أطنابها في الغرب. وكانت أهم حوادث ذلك العهد الذي لم يمّح ذكراها من صفحات التاريخ نشر شرائع ثيودوسيوس (438). فقد عهد في عام 429 إن طائفة من فقهاء القانون بأن يجمعوا كل ما شئ في الإمبراطورية من قوانين مذ جلس قسطنطين على العرش، ونفذت الشرائع الجديدة في الشرق والغرب على السواء، وظلت هي الشرائع المعمول بها في الإمبراطورية حتى نشرت شرائع جستنيان التي كانت أعظم منها وأوسع.

وحكم الإمبراطورية الشرقية بين ثيودوسيوس وجستنيان الأول حكام كثيرون، كان الناس يلهجون بذكرها في أيامهم، أما الآن فلا يكاد يعرف عنهم أكثر من أسمائهم. إن يسر العظماء كلهم لتذكرنا بأن الخلود قصير الأجل! وحسبنا أن نذكر من هؤلاء الحكام ليو الأول (457-774) الذي أرسل لمحاربة جيسريك (467) أكبر أسطول حشدته حكومة رومانية، ولكن هذا الأسطول هزم ودمر. وأحدث زينون الإصوري Zenothé Isaurian زوج ابنته شقاً كبيراً بين الكنيستين اليونانية واللاتينية بسبب رغبته في تهدئة تائرة اليعقوبين، وذلك حين قرر في رسالته "التوحيدية" المعروفة باسم الهنوتيكون Henoticon أن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة، وكان أناستاسيوس (491-518) رجلاً قديراً، شجاعاً، محباً للخير، دعم مالية الدولة بإدارته الاقتصادية الحكيمة، وخفض الضرائب، وألغى صراع الأدميين مع الوحوش في الحفلات والألعاب، وجعل القسطنطينية أمنع من عقاب الجو بإنشاء الأسوار الطويلة، التي كانت تمتد أربعين ميلاً من بحر مرمرية إلى البحر الأسود، وانفق الكثير من أموال الدولة في غير هذه من الأعمال العامة الكثيرة، وترك في خزائنها 320,000 رطل من الذهب (900,400 رطل أمريكي) هي التي مهدت السبيل لفتوح جستنيان. لكن الشعب لم يعجبه اقتصاده وميوله

صفحة رقم : 4329

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الإمبراطور

اليعقوبية، فحاصر الغوغاء قصره، وقتلوا ثلاثة من أعوانه. ثم أشرف عليهم تعلوه مهابة الشيوخ التي قاربت الثمانين، وعرض عليهم أن ينزل عن العرش إذا اتفق الشعب على من يختاره خليفة له. وكان هذا شرطاً مستحيل التنفيذ. انتهى

الأمر بعده بأن طلبت إليه الجماهير الثائرة أن يحتفظ بالتاج. ولما توفي بعد قليل من ذلك الوقت اغتصب الملك جستين، وهو شيخ أُمي (518-527)، يحب الراحة التي يميل إليها ابن السبعين، ولذلك ترك حكم الإمبراطورية إلى جستين نائبه وابن أخيه.

ولم يكن هذا الاختيار ليروق فيما بعد، ومن يوم أن ولد جستين نفسه، في عين بركيوس مؤرخه وعوده. ذلك بأن الإمبراطور قد ولد في عام 482 من أبوين مزارعين من أصل إليري - أو لعله صقلبي (1) - يفيمان بالقرب من سردিকা Sardica وهي مدينة صوفيا الحالية. وجاء به عمه جستين إلى القسطنطينية ورباه تربية صالحة. ولما أصبح جستين ضابطاً في الجيش ولبث تسع سنين ياوراً ومساعداً لجستين، أظهر في عمله براعة عظيمة. ولما مات عمه (527) خلفه على عرش الإمبراطورية، وكان وقتئذ في الخامسة والأربعين من عمره، متوسط القامة والبنية، حليق الذقن، متورد الوجه، متجدد الشعر، رقيق الحاشية، تعلق ثغره ابتسامة تكفي لأن تخفي وراءها ما لا يحصى من الأغراض، وكان متقشفاً في طعامه وشرابه تقشف الزهاد، لا يأكل إلا قليلاً، ويعيش معظم أيامه على الخضر (2). وكثيراً ما كان يصوم حتى تكاد تخور قواه. وكان في أثناء صيامه لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ ميكراً، وتصريف شؤون الدولة "من مطلع الفجر إلى الظهر، وإلى غسق الليل"، وكثيراً ما كان يظن أعوانه أنه قد أوى إلى مضجعه، بينما كان هو منهكاً في الدرس، يبذل جهده ليكون موسيقياً ومهندساً ومعماريًا، وشاعراً ومشتراً، وفقيهاً في الدين وفيلسوف، وإمبراطوراً يجيد تصريف شؤون الإمبراطورية. ولكنه رغم هذا كله لم يتخل عن خرافات

صفحة رقم : 4330

قصة الحضارة - < عصر الإيمان - > الدولة البيزنطية في أوج مجدها - < جستين - > الإمبراطور

عصره. وكان ذا عقل نشيط على الدوام، عظيم الإلمام بالشؤون الكبرى والتفاصيل الصغرى. ولم يكن قوي الجسم أو شجاعاً، وقد حدثته نفسه بالتخلي عن الملك في أثناء المتاعب التي قامت في بداية حكمه ولم ينزل قط إلى الميدان في حروبه الكثيرة. ولعل من عيوبه الناشئة من دماثة خلقه ورقة طبعه، أن كان من السهل على أصدقائه أن يؤثروا فيه ومن أجل هذا كان كثيراً ما يتقلب في سياسته. ويخضع في أحكامه لزوجته. وقد خص بروكيوس جستين بمجلد كامل من تاريخه، يصفه بأنه "عديم الإخلاص، مخادع، منافق، يخفي عن الناس غضبه، يظهر غير ما يبطن، حاذق، قادر كل المقدرة على التظاهر بالرأي الذي يدعي أنه يعتقد، بل إنه يستطيع في كثير من الأحيان أن يذرف الدمع من عينيه 000 إذا اقتضت الظروف ذلك" (3). وغير هذا كله يصح أن يكون وصفاً للدبلوماسي القدير. ويواصل بروكيوس وصفه فيقول: "وكان صديقاً متقلباً في صداقته، عدواً إذا عقد هدنة لا يحافظ على عهده، حريصاً كل الحرص على الاغتياي والنهب" ويلوح أنه كان ينصف بهذا كله في بعض الأوقات، ولكنه كان يستطيع أن يكون رحيماً كريماً. ومن ذلك أن قائداً يدعى بروبوس Probus قد اتهم بسبه، فجئ به ليحاكم بتهمة الخيانة، ولما عرض التقرير الذي وضع عن محاكمته على جستين قام من مقعده وأرسل رسالة إلى بروبوس يقول فيها: "إني أغفر لك ما ارتكيبته من ذنب في حق، وأدعو الله أيضاً أن يسامحك" (4). وكان يقبل النقد الصريح ولا يغضب منه "وكان هذا الرجل الظالم"، الذي رزى بمؤرخه "أسهل من أن يأتي إنسان آخر في العالم، وكان أحقر الناس في الدولة، ومن لا شأن لهم فيها على الإطلاق، يستطيعون كلما شاءوا أن يأتوا إليه ليتحدثوا معه" (5). ومع هذا فقد عمل على أن يجعل ما كان يقام في بلاط الإمبراطور من مراسم وحفلات غاية في الأبهة والفخامة، حتى فاقت ما كان يحدث منها في أيام دقلديانوس

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الإمبراطور

وقسطنطين. وكان كنباليون يعوزه التأييد الذي يناله المليك الشرعي، وذلك لأنه ورث الملك من مغتصب له. ولم يكن مهيباً في مظهره ومنشئه، ومن أجل هذا عمد إلى طقوس ومراسيم تبعث الرعب في القلوب كلما ظهر أمام الجماهير أو السفراء الأجانب. ولهذا السبب عينه شجع فكرة الملكية المقدسة، واستخدم لفظ مقدس في وصف شخصه وملكه؛ وكان يطلب إلى من يمثلون أمامه أن يركعوا ويقبلوا أطراف ثوبه الأرجواني، أو أصابع قدميه من فوق حذاءه. وعمل على أن يعمده ويتوجه بطريق القسطنطينية، وليس قلادة اللؤلؤ. وقصارى القول أنه ما من حكومة قد عملت ما عملته الحكومة البيزنطية لتتال إعلاء الشعب له عن طريق المراسيم الفخمة، ولقد كان لهذه السياسة أثرها إلى حد كبير؛ ولسنا ننكر أنه قد حدثت انقلابات كثيرة في تاريخ البيزنطية ولكنها كانت في معظم الأحوال انقلابات مفاجئة قام بها موظفو القصر، لأن الحاشية نفسها لم تكن ترهبها ما وضعت لنفسها من مراسيم وطقوس. وكانت أكبر فتنة قامت في عهد جستنيان هي التي حدثت في بدايته (532) وكادت أن تقضي على حياته. وكان سببها أن الخضر والزرقي - وهم الحزبان اللذان انقسم إليهما أهل القسطنطينية حسب الثياب التي كان يلبسها راكبو خيول السباق المحبوبون - قد بلغت الخصومة بينهم حد العنف، حتى أصبحت شوارع العاصمة غير مأمونة، وحتى أضطر الأغنياء إلى أن يرتدوا ملابس الفقراء المساكين لينجوا بذلك من طعنات الخناجر في الليل. وانقضت الحكومة آخر الأمر على الطائفتين المتنازعتين، وقبضت على عدد كبير من زعمائهما، فما كان من هذين الحزبين إلا أن ضما صفوفهما وقاما بفتنة مسلحة ضد الحكومة، وأكبر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الإمبراطور

الظن أن بعض الشيوخ قد اشتركوا في هذه الفتنة أو حاول رعايا المدن أن يقلبوا ثورة عارمة، فهاجموا على السجن، وأطلقوا سراح المسجونين، وقتلوا عدداً من رجال الشرطة والموظفين، وأشعلت النار في المباني، وحرقت كنيسة أياصوفيا وأجزاء من قصر الإمبراطور، وهتفت الجماهير قائلة "Niha" أي النصر - وبذلك أطلق هذا الاسم على تلك الفتنة. وأفقد هذا النصر العظيم وعيه، فطالب بإبعاد اثنين من أعضاء مجلس جستنيان، لم يكن يحبهما، ولعل سبب ذلك انهما كانا من ظلمة الحكام، ووافق الإمبراطور على هذا الطلب، فزاد العصاة جرأة وأقنعوا هيباشيوس Hypatius، أحد الشيوخ، بأن يقبل التاج، فقبله على الرغم من معارضة زوجته وتوسلها إليه ألا يقبله، وخرج بين هتاف الجماهير ليجلس على مقعد الإمبراطور في الألعاب التي كانت قائمة على قدم وساق في الميدان الكبير. واختبأ جستنيان أثناء ذلك في القصر، وأخذ يدبر أمر الهرب، ولكن الإمبراطورة ثيودورا أقنعت بالعدول عن هذه الفكرة، وأشارت عليه بالمقاومة. وتعهد لبساريوس قائد الجيش أن يقوم بهذا العمل، واختار من بين جنوده عدداً من القوط، وسار على رأسهم إلى ميدان الألعاب، وقتل ثلاثين ألفاً من العامة، وقبض على هيباشيوس، وأمر بقتله في السجن. وأعاد جستنيان الموظفين المفصولين إلى عملهما، وعفا عن المتآمرين من أعضاء مجلس الشيوخ، ورد إلى أبناء

هيباشيوس ما صودر من أملاكهم(6). وظل جستنيان بعد هذه الفتنة آمناً على نفسه ومملكه خلال الثلاثين عاماً التالية، ولكن يبدو أن إنساناً واحداً لا أكثر هو الذي كان يحبه.

صفحة رقم : 4333

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> ثيودورا

الفصل الثاني

ثيودورا

وصف بروكبيوس في كتاب له عن فن البناء تمثالا لزوجته جستنيان فقال : "إنه جميل، ولكن جماله أقل من جمال الإمبراطورة؛ ذلك بأن التعبير عن جمالها بالقول، أو إبرازه في تمثال عمل لا يستطيعه مخلوق من البشر"(7). ولسنا نجد في كل ما كتب هذا المؤرخ- وهو أعظم المؤرخين بالبيزنطيين على بكرة أبيهم- إلا الثناء على ثيودورا، إذا استثنينا موضعاً واحداً لا أكثر من هذا التعميم. ولكن بروكبيوس قد كشف في كتاب له لم ينشر في أثناء حياته- ولهذا سمى الأندوتا Anecdota "أي الذي لم يخرج" _ عن فضيحة للملكة قبل زواجها. وقد بلغت هذه القصة عن الشناعة حداً بعث على الشك فيها وجعلها مثاراً للجدل مدى ثلاثة عشر قرناً. وهذا "التاريخ السري" موجز لما كان في صدر المؤرخ من حقد دفين صريح، وقد كتبه من وجهة نظر واحدة، وخصه كله بتسوء سمعة جستنيان وثيودورا، وبليسايريوس بعد وفاتهم. وإذا كان بروكبيوس هو أهم المراجع التي نعتمد عليها في تاريخ ذلك العصر، وإذا كان هو نفسه يبدو في مؤلفاته الأخرى دقيقاً نزيهاً، فإننا لا نستطيع أن نرفض الأندوتا ونعدها كلها تزييفاً وافتراء، وكل ما نستطيع أن نقوله فيها هو أنها انتقام عمد إليه رجل غاضب من رجال الحاشية لم تتحقق مطامعه. وها هو ذا جون الإفوسوسي، الذي كان يعرف الإمبراطورة حق المعرفة، لا يطعن عليها بأكثر من قوله فيها : "ثيودورة العاهر"(6). وفيما عدا هذا فإننا قلما نجد في أقوال المؤرخين المعاصرين ما يؤيد التهم التي رماها بها بروكبيوس. نعم إن كثيرين من رجال الدين ينددون بمروقها. ولكن ما من أحد منهم يذكر شيئاً عن فجورها - وهو كرم منهم

صفحة رقم : 4334

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> ثيودورا

لا يقبله العقل إذا كانت فاجرة بحق. وقد يكون في مقدورنا أن نستنتج من كل ما يقال عن ثيودورا أنها بدأت حياتها سيئة غير مكملة، واختتمتها ملكة متصفة بجميع صفات الملوك الطيبة . ويقول بروكبيوس قول الوراق إنها ابنة مدرب دببة، وإنها نشأت في جو حلبة ألعاب الوحوش، ثم صارت ممثلة ومومساً، تثير مشاعر أهل القسطنطينية، وتدخل البهجة في قلوبهم بتمثيل المسرحيات الصامتة الخليعة. ونجحت أكثر من مرة في إجهاض نفسها، ولكنها ولدت ابناً غير شرعي، وصارت عشيقه رجل سوري يدعى هسبولوس Hecebolus ثم هجرها هذا العشيق، واختفت عن الأعين فترة من الزمان في الإسكندرية، عادت بعدها إلى الظهور في القسطنطينية فقيرة ولكنها عفيفة شريفة، تكسب قوتها بغزل الصوف، ثم أحبها جستنيان، فاتخذها عشيقه له، ثم تزوج بها وجعلها ملكة (9). وليس في وسعنا الآن أن نعرف على وجه التحقيق ما في هذه الأقوال من صدق وكذب؛ ولكن الذي نستطيع أن نقوله إذا كانت هذه المقدمات لم تقلق بال إمبراطور فهي خليقة بالأنا نقف عندها طويلاً. وتزوج جستنيان في كنيسة القديسة صوفيا بعد أن تزوجها بزم من قليل، وتوجت ثيودورا إمبراطورة إلى جانبه، ويقول بروكبيوس إنه "من قسيس أظهر غضبه لهذا الإجراء الشنيع" (10).

وأيا كان منشأ ثيودورا فإنها أضحت بعد زواجها بالإمبراطور سيئة لا يستطيع أحد أن يتهمها في عفافها. وكانت تحب المال والسلطان حباً جماً، وتثور في بعض الأحيان ثورة جامحة، وتدبر المؤامرات لتصل إلى أغراضها التي لا تتفق مع أغراض جستنيان. وكانت نؤوماً، تكثر من الطعام والشراب، وتحب الترف، والحلي، والمظاهر، وتقضي عدداً كبيراً من أشهر السنة في قصورها القائمة على شاطئ البحر. لكن جستنيان ظل طول حياته يحبها رغم هذه الصفات، ويصبر صبر الفلاسفة على تدخلها في خطته وأعماله. لقد خلغ عليها وهو كلف بها حلة

صفحة رقم : 4335

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> ثيودورا

من السيادة لا تقل من الوجهة النظرية عن سيادته هو، ولم يكن في مقدوره أن يشكو إذا مارست هذه السيادة. وقد اشتركت اشتراكاً فعلياً في السياسة الخارجية والشؤون الكنسية. وكانت تنصب البابوات والبطارقة وتخلعهم، وتعزل أعداءها من مناصبهم. وكانت في بعض الأحيان تصدر من الأوامر ما يتعارض وأوامر زوجها، وكثيراً ما كانت أوامرها هي في صالح الدولة، ذلك أن ذكائها كان يتناسب مع سلطانها. ويتهمها بروكبيوس بقسوتها على معارضيتها، وبأنها ألفت بعضهم في الجب وقتلت عدداً قليلاً منهم، وكان الذين يسيئون إليها إساءات شديدة يخفقون دون أن يقف لهم أحد على أثر، وكانت تسير في هذا على المبادئ الأخلاقية السائدة بيننا في هذا القرن الذي نعيش فيه. لكنها لم يخل قلبها من الرحمة، من ذلك أنها بسطت حمايتها على البطريق أنثيموس الذي أمر جستنيان لنفيه لمروقه من الدين وأخفته في جناحها عامين كاملين. ولعلها كانت لينة فوق ما ينبغي مع زوجة بليساريوس التي عرفت بالزنى. ولكنها كفرت عن هذا بإقامة "دير للتوبة" جميل تلجأ إليه العاهرات التائبات. على أن بعض التائبات قد تبين من توبتهن، وألقين بأنفسهن من النوافذ لأنهن ضعن ذرعاً وفضلن عليه الموت (12). وكانت تعنى عناية الجدات بزواج صديقاتها، وكان لها هي الفضل في ترتيب هذه الزيجات، وكثيراً ما كانت تجعل الزواج شرطاً أساسياً للزنى في بلاطها. وقد صارت في شيخوختها حارسة قوية الشكيمة للأخلاق الكريمة وهو ما ينتظره الإنسان من أمثالها.

ثم وجهت عنايتها في آخر حياتها لدراسة الدين، وكانت تناقش زوجها في طبيعة المسيح. فقد كان جستنيان يبذل غاية جهده ليوحد الكنيستين الشرقية والغربية لاعتقاده أن الحدة الدينية لا بد منها لوحد الإمبراطورية. غير أن ثيودورا لم تكن تستطيع أن تفهم وجود طبيعتين في المسيح. وإن لم تجد صعوبة ما في وجود ثلاثة أقانيم في الله. ومن أجل هذا اعتنقت مذهب اليعاقبة،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> ثيودورا

وهي تعلم أن الشرق لا يمكن أن يخضع للغرب في هذه العقيدة. لكنها كانت ترى أن قوة الإمبراطورية ومستقبلها إنما يعتمدان على ولايتها الغنية في آسيا وسوريا، ومصر، لا على ولايتها الغربية التي خربها البرابرة وأهلكتها الحروب. وكان لها الفضل في تخفيف حدة تعصب جستنيان للمذهب الديني الأصيل، وبسطت حمايتها على الخارجين على هذا المذهب، وتحدثت البابوية، وشجعت خفية قيام كنيسة يعقوبية مستقلة في الشرق؛ ولم تنرد في سبيل تحقيق هذه الغايات في أن تعارض بكل ما تستطيع من قوة الإمبراطور والبابا على السواء.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> بليسايريوس

الفصل الثالث

بليسايريوس

في وسعنا أن نغتنق لجستنيان شغفه العظيم بالوحدة، لأن هذا الشغف من أعظم ما يولع به الفلاسفة ورجال الحكم على السواء؛ ولقد اقتضاهم في بعض الأحيان أكثر مما اقتضتهم الحرب. ولم تكن استعادة أفريقية من الوندال، وإيطاليا من القوط الشرقيين، وأسبانيا من القوط الغربيين، وغالة من الفرنجة، وبريطانيا من السكسون؛ ولم يكن طرد البرابرة إلى مزابهم، وإعادة الحضارة الرومانية إلى جميع ميادينها القديمة، ونشر الشريعة الرومانية مرة أخرى في جميع بقاع الرجل الأبيض من الفرات إلى سور هدرين، لم تكن هذه المطامع كلها مطامع غير نبيلة، وإن كانت قد أنهكت المنقذين ومن أريد إنقاذهم على السواء. وكان من الوسائل التي اتبعتها جستنيان لبلوغ هذا الغرض أن أزال ما بين الكنيستين الشرقية والغربية من نزاع حول مسألة البابوية، وكان من أكبر أمانيه أن يرد الأريوسيين واليعاقبة وغيرهما من الخارجين على الدين إلى حظيرته، ولم يكن أحد قد فكر في هذا كله منذ أيام قسطنطين.

ولقد كان من حسن حظ جستينيان أن وهب قادة عظماء، ومن سوء حظه أنه كانت موارده المالية قليلة - فلقد كان شعبه غير راغب في الحروب التي كان يريد أن يخوض غمارها، وغير قادر على أداء ما تطلبه من نفقات. وسرعان ما استنفذ الثلاثمائة والعشرين ألف رطل من الذهب التي تركها أسلاف جستينيان في خزانة الدولة، واضطر بعد استنفادها أن يلجأ إلى الضرائب التي نفرت من قلوب الشعب، وإلى ضروب الاقتصاد التي عرقلت أعمال قواده. وكانت الخدمة العسكرية الإجبارية العامة قد امتعت قبل عهده بنحو مائة عام، وأصبح جيش

صفحة رقم : 4338

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستينيان -> بليسايريوس

الإمبراطورية يتألف كله تقريباً من جنود مرتزقة من البرابرة يؤتى بهم من مائة قبيلة ودولة، ويعيشون على النهب والسلب، ويحلمون بالثراء والاعتصاب؛ وكثيراً ما كانوا يشقون عصا الطاعة في أشد أزمت القتال، وكثيراً ما فقدوا ثمار النصر لاشتغالهم بجمع الغنائم والأسلاب، ولم يكن شئ يجمعهم ويؤلف بينهم، أو يشحذ همهم إلا أداء أجورهم بانتظام أو خضوعهم لقواد عظام.

وكان بليسايريوس، كما كان جستينيان، منحدرًا من أسرة من الفلاحين الإليريين، ويذكرنا بالأباطرة البلقانيين_ أورليوس، وبروبوس، ودقديانوس- الذين أنجوا الإمبراطورية في القرن الثالث. ولسنا نعرف من أيام قيصر قائداً قبل بليسايريوس انتصر في وقائع كالتى انتصر فيها هذا القائد بمثل موارده القليلة من الرجال والمال. وما أقل من تقوقوا عليه في رسم الخطط الحربية أو الحركات العسكرية، وفي حب رجاله له وشفقته على أعدائه. ولعل مما يجدر ذكره في هذا المقام أن أعظم القواد - كالإسكندر، وقيصر، وبليسايريوس، وصلاح الدين، ونابليون - قد وجدوا أن الرحمة أقوى من اسلحة الحروب، ولقد كان بليسايريوس، كما كان أولئك القواد، ذا احساس مرهف وقلب رقيق يجعلان من الجندي محباً وإلهاً بمجرد فراغه من واجباته الدموية. ومصداق هذا أن بليسايريوس كان يشغف بحب أنطونيا كما كان الإمبراطور يشغف بحب ثيودورا. وكان هذا القائد يتحمل خيانتها له، ولا يلبث أن ينسى غضبه من هذه الخيانة، وكان يصحبها معه في حروبه لكثير من الأسباب.

وكان أول ما نال من النصر في حروبه مع الفرس. ذلك أن الحرب قد تجددت بين الإمبراطوريتين بسبب المنافسة القديمة بينهما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى أواسط آسية وبلاد الهند، وبعد أن جنحاً للسلم مدى مائة وخمسين عاماً. وبينما كان بليسايريوس يتابع انتصاراته المجيدة إذ استدعى فجأة إلى القسطنطينية، وكان سبب استدعائه أن جستينيان عقد الصلح مع

صفحة رقم : 4339

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستينيان -> بليسايريوس

بلاد الفرس (532) بأن أدى إلى كسرى أنوشروان 11000 رطل من الذهب، ثم أرسل قائده ليسترد أفريقية الوندال. وكان جستنيان قد استقر رأيه على أنه لا يستطيع الاحتفاظ بفتوح دائمة في بلاد الشرق لأسباب كثيرة : منها أن السكان سيظلون معادين له، وأن الحدود يصعب عليه أن يدافع عنها. أما الغرب ففيه أمم اعتادت الحكم الروماني من عدة قرون، وهي تبغض سادتها البرابرة الخارجين على الدين، وتمتد يد المساعدة للدولة الرومانية بالتعاون معها عليهم في الحرب وبأداء الضرائب لها في السلم. ومن أفريقية يستطاع أخذ الحبوب التي تسد أفواه أهل العاصمة فيسكتون عن توجيه اللوم للإمبراطور.

وكان جيسريك قد توفي بعد حكم دام تسعة وثلاثين عاماً (477)، وعادت أفريقية الوندالية بعد موته إلى معظم أساليبها الرومانية. فكانت اللاتينية لغتها الرسمية، وكان الشعراء يكتبون فيها شعراً ميمناً ليكرموا به الملوك المنسيين. وأعيد بناء دار التمثيل في قرطاجة، وعاد الأهلون يمثلون المسرحيات اليونانية (14)، ويعظموا آثار الفن القديم، ويقبضون مبانى جديدة فخمة. ويصف بركيبوس الطبقات الحاكمة بأنها من رجال مهذبين متحضرين، تظهر عليهم في بعض الأحيان مسحة من البرنزية ولكنهم في الأغلب الأعم قد أهملوا فنون الحرب، وأخذوا يضعفون ويضمحلون شيئاً فشيئاً تحت أشعة الشمس (15).

واجتمعت في البسفور في شهر يونية من عام 533 خمسمائة سفينة نقالة، وتسع وتسعون بارجة حربية، وتلقت أوامر الإمبراطور، وبركات البطريق، وأبحرت إلى قرطاجة. وكان بركيبوس من الذين صحبوا بليساريوس، وكتب وصفاً رائعاً "لحرب الوندال". ونزل بليساريوس في أفريقية بما لا يزيد على خمسمائة من الفرسان، واكتسح وسائل الدفاع الواهية عن قرطاجة، ولم تمض أكثر من بضعة أشهر حتى قضى على قوة الوندال. وعجل جستنيان فدعاه إلى

صفحة رقم : 4340

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الدولة البيزنطية في أوج مجدها - جستنيان - بليساريوس

احتفال بالنصر يقام بالقسطنطينية، فانقض المغاربة من التلال على الحاميات الرومانية، وأسرع بليساريوس بالعودة في الوقت المناسب القضاء على فتنة قامت بين جنوده، وقادهم بعدها للنصر، وبقيت أفريقية القرطاجة من ذلك الحين خاضعة للحكم الروماني إلى أن جاء العرب فاتحين.

وكان جستنيان قد هداه دهاؤه السياسي إلى عقد حلف مع القوط الشرقيين حين كان بليساريوس يهاجم أفريقية؛ فلما تم هذا الفتح أغرى الفرنجة بأن يعقدوا معه حلفاً آخر، في الوقت الذي أمر فيه بليساريوس بفتح إيطاليا التي كانت بليساريوس بلاد تونس قاعدة له، هاجم منها صقلية، ولم يجد صعوبة في الاستيلاء عليها، ثم عبر البحر منها إلى إيطاليا في عام 536، واستولى على نابلي بأن أمر بعض جنوده أن يدخلوا المدينة زحفاً في قنوات المياه المغطاة. وكانت قوات القوط الشرقيين ضعيفة منقسمة على نفسها، ورحب سكان روما ببليساريوس وحيوه تحية المحرر المنقذ، كما رحب به رجال الدين لأنه من القائلين بالتثليث، فدخل روما دون أن يلقي مقاومة. وأمر ثيوداهاد Theadahad بقتل أمالاتنسا Amalathunsa، فخلع القوط الشرقيون ثيوداهاد وأختاروا وتجبس Witigis ملكاً عليهم. وحشد وتجبس جيشاً مؤلفاً من 105000 رجل حاصر به بليساريوس في روما. ولما اضطر أهلها إلى الاقتصاد في الزاد والماء، والامتناع عن الاستحمام في كل يوم، بدعوا يتذمرون من بليساريوس الذي لم يكن معه إلا خمسة آلاف رجل مسلح، دافع بهم عن المدينة بمهارة وشجاعة، اضطر معهم وتجبس أن يعود إلى رافا بعد ما بذل من الجهد الكبير مدة عام كامل. وظل بليساريوس ثلاث سنين يلح على جستنيان بأن يمدد يده بعدد آخر من الجند، حتى أرسلهم آخر الأمر ولكنه عقد لواءهم لقواد معادين لبليساريوس. وعرض القوط الشرقيون المحاصرون في رافا، والذين أوشكوا على الهلاك جوعاً، أن يسلموا المدينة إذا رضى بليساريوس أن يكون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> بليسايريوس

ملكاً عليهم. وتظاهر بليسايريوس بالقبول حتى استولى على المدينة، ثم أسلمها إلى جستنيان (540). وشكر له الإمبراطور حسن صنيعه وداخلته فيه الربية. ذلك أن بليسايريوس قد كافأ نفسه على عمله بالاستيلاء على قدر كبير من الغنائم، هذا إلى أنه كسب ولاء جنوده إلى حد أعج الإمبراطور وأنه قد عرضت عليه مملكة كاملة، فهل يستبعد عليه مع هذا كله أن يتطلع إلى الاستيلاء على العرش من ابن أخي رجل أغتصبه من صاحبه الشرعي؟ لهذا استدعاه جستنيان، وشاهد وهو قلق مرتاب حاشية القائد العظيم ومظهرها الفخم، ويقول بركيبوس "إن سكان بيزنطة كانوا يبتهجون حين يشهدون بليسايريوس يخرج من بيته كل يوم ... ذلك بأن خروجه منه وسيره في الطريق كان شبيهاً بموكب في عيد احتشد فيه كثير من الخلق، لأنه كان يصحبه عدد كبير من الوندال، والقوط، والمغاربة، يضاف إلى هذا أنه كان بهي الطلعة، طويل القامة، جميل الوجه، ولكنه كان وديعاً رفيق الحاشية، دمث الأخلاق، حتى لقد كان يبدو كأنه رجل فقير لا يعرفه أحد" (16).

ولم يعن القواد الذين خلفوه في إيطاليا بنظام الجند، وتنازعا فيما بينهم، فكسبوا لأنفسهم احتقار القوط، فنادوا برجل قوطي، جم النشاط، موفور العقل، رابط الجأش، ملكاً على الشعب المغلوب. وجمع توتيليا Totila الملك الجديد مجندين ذوي بأس شديد من البرابرة الجوالين الذين لا مأوى لهم في إيطاليا واستولى بهم على نابلي (543) وتيبور وضرب الحصار على روما. وقد أدهش الناس برحمته ووفائه بوعده، وعامل الأسرى معاملة طيبة انضوا بفضلها تحت لوائه، واستمسك بما قطعه على نفسه من العهود التي استسلمت بها نابلي، حتى بدأ الناس يتساءلون من هو البربري ومن هو اليوناني المتحضر. ولما وقعت زوجات بعض أعضاء مجلس الشيوخ أسيرات في يده عاملهن بلطف وشهامة واطلق سراحهن، وأما البرابرة الذين في خدمة الإمبراطور فلم يظهروا مثل هذه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> بليسايريوس

الركة في المعاملة؛ بل أخذوا يعيثون في البلاد فساداً لأن جستنيان لم يؤد اليهم أجورهم لنفاذ ما كان في خزانته من المال، حتى أخذ الناس يتذكرون في أسى وحنان حكم ثيودريك وما كان يسوده من عدل ونظام (17). وأمر بليسايريوس أن يعود لإنقاذ الموقف. فلما عاد إلى إيطاليا تسلل وحده إلى روما المحاصرة مخترباً صفوف توتيليا لكنه وصلها بعد فوات الوقت، فقد فقدت الحامية اليونانية روحها المعنوية، لأن ضباطها كانوا جبناء عاجزين؛ وفتح بعض الخونة أبواب المدينة، ودخلها جنود توتيليا البالغ عددهم عشرة آلاف رجل (546). وبعث بليسايريوس وهو خارج منها رسالة إلى توتيليا يطلب إليه ألا يدمر المدينة التاريخية. وسمح توتيليا لجنوده الجياع الذين لم ينالوا أجورهم أن ينهبوها، ولكنه منعهم من إيذاء السكان وحمل النساء من شهوات الجنود الجامحة ثم أخطأ إذ غادر روما ليحاصر رافنا فلما غاب عنها استردها بليسايريوس، ولما عاد توتيليا وحاصرها مرة أخرى عجز عن أن يخرج منها القائد

اليوناني الموهوب. وظن جستنيان أن الغرب قد خضع له فأعلن الحرب على بلاد الفرس، واستدعى بليساريوس ليذهب إلى الشرق. فلما ذهب استولى توتيل على روما من جديد (549) ومن بعدها صقلية، وكورسكا، وسردينية، وشبه الجزيرة كلها تقريباً. وأخيراً أعطى جستنيان قائداً من الخصيان يدعى نارسيز Narses "مبلغاً كبيراً جداً من المال" وأمره أن يحشد جيشاً جديداً يطرد به القوط من إيطاليا. وأدى نارسيز هذه المهمة بمهارة وسرعة، فهزم توتيل، وقتل في أثناء فراره، وسمح لمن بقي من القوط أن يخرجوا من إيطاليا سالمين، وانتهت بذلك "الحرب القوطية" بعد أن دامت ثمانية عشر عاماً (553). وأتمت هذه السنون خراب إيطاليا. ذلك أن روما قد وقعت في أيدي الجيوش المحاربة خمس مرات متوالية، وحوصرت ثلاث مرات، ونفذ منها الطعام، وتعرضت للنهب والسلب، ونقص عدد سكانها من مليون إلى أربعين

صفحة رقم : 4343

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> بليساريوس

ألفاً(18). نصفهم تقريباً من المعدمين الذين يعيشون على الصدقات البابوية، ودمرت ميلان وقتل أهلها على بكرة أبيهم. وتدهورت مئات من المدن والقرى إلى هوة الإفلاس بسبب اغتصاب الحكام ونهب الجنود، وبارت الكثير من الأراضي التي كانت من قبل خصبة وهجرها السكان، ونقصت موارد الطعام. ويقول الرواة إن خمسين ألفاً ماتوا من الجوع في بيسينوم Picenum وحدها في خلال هذه الأيام الثمانية عشر(19). وتحطم كيان الأشراف، فقد قتل كثيرون منهم في المعارك الحربية وفي أعمال النهب، وفر عدد كبير منهم إلى خارج البلاد حتى لم يبق منهم من يكفي لقيام مجلس شيوخ روما، فلم تعد تسمع عنه شيئاً ما بعد عام 579(20). وتهدمت قنوات مياه الشرب التي أصلحها ثيودريك من قبل وأهملت، واستحالت الكمانيا مرة أخرى منافع واسعة تنقش فيها الملاريا، ولا تزال كذلك حتى يومنا هذا. وبطل استعمال الحمامات الفخمة التي كانت تمدها هذه القنوات بالماء وتهدمت، وحطمت مئات من التماثيل التي نجت من عبث ألريك وجيسريك، أو صهرت لتصنع من معادنها قذائف وعدد حربية في أثناء الحصار. وكانت آثار الخراب والدمار هي كل ما يشهد بما كان لروما القديمة عاصمة نصف العالم من عظمة وجلال. ولبت الإمبراطور الشرقي زمنناً قليلاً حاكماً على إيطاليا بعد هذا الخراب، ولكن ما ناله من النصر كان نصراً عديم القيمة كلفه الكثير من المال والرجاء والعناء، ولم تنتج روما من آثار هذا النصر حتى عصر النهضة.

صفحة رقم : 4344

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

لقد نسي التاريخ حروب جستنيان، وحق له أن ينساها، ولا يذكر اسمه إلا مقترناً بقوانينه. وكان قد مضى قرن من الزمان منذ نشر قانون ثيودوسيوس، وأضحت كثير من أصوله عتيقة لا تطبق لتغير الظروف التي شرعت فيها، وسنت قوانين جديدة كثيرة اختلطت بعضها ببعض في كتب القوانين، ووجد تناقض كثيرين بعض القوانين والبعض الآخر عاق أعمال المحاكم والسلطة التنفيذية. يضاف إلى هذا أن تأثير المسيحية قد بدل كثيراً من الشرائع وغير تفسيرها. ثم إن قوانين روما المدنية كثيراً ما كانت تتعارض مع قوانين الأمم التي تتألف منها الإمبراطورية، وإن كثيراً من التشريعات لم تكن تتفق مع تقاليد الشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية. وقصارى القول أن شريعة روما كلها أضحت أكادساً من المواد القانونية التجريبية لا قانوناً منطقياً واحداً.

ولم يكن جستنيان، وهو صاحب النزعة القوية إلى الوحدة، ليرضى عن هذه الفوضى كما لم يكن يرضى عن تمزيق أوصال الإمبراطورية. ولهذا عين في عام 528 عشرة من فقهاء القانون لينظموا قوانين الدولة، ويوضحوها، ويصلحوها. وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة نشاطاً ونفوداً هو الكوستر تريبونيان Tribonian الذي ظل إلى أن مات أشهر الموحين بخطط جستنيان التشريعية، والناصحين له، والمنفذين لأرائه، وذلك رغم حرصه الشديد على المال ومظنة الكفر بالله. وأممت اللجنة الجزء الأول من عملها بسرعة أكثر مما كان خليفاً بها، وأصدرته في عام 529 باسم القانون الدستوري، وأعلن الإمبراطور أنه هو قانون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

الإمبراطورية، وأنه يلغي جميع ما سبقه من التشريعات إلا ما تضمنه منها، وصُدِّرَ بهذه العبارة الجميلة: إلى الشبان الراغبين في دراسة القانون: يجب أن يسلم جلاله الإمبراطور بالقانون كما يجب أن يعلو مجده بقوة السلاح، حتى يسود بذلك الحكم الصالح في الحرب والسلام على السواء، وحتى يتبين للناس أن الحاكم... لا تقل عنايته بالعدالة عن عنايته بالنصر على أعدائه (21).

ثم أنتقل أعضاء اللجنة إلى القسم الثاني من مهمتهم، وهي أن يضموا في مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الرومان، التي رأوا أنها لا تزال خليقة بأن تكون لها قوة القانون، ونشرت هذه الآراء باسم مجموعة القوانين والفتاوى المدنية (533)؛ وقالت اللجنة إن آراء الفقهاء والشروح التي وردت في هذه المجموعة ستصبح من ذلك الحين واجبة الطاعة على جميع القضاة، وإن جميع ما عداها من الآراء قد فقدت ما كان لها من قوة شرعية، وامتنع من ذلك الحين نسخ ما عدا هذه من آراء فقهاء القانون واختفى معظمها، ويستدل مما بقي منها على أن المحررين قد حذفوا ما كان من آراء مناصرة للحرية، وأنهم عمدوا إلى الغش والتزوير فبدلوا بعض أحكام فقهاء القانون الأقدمين حتى تكون أكثر ملاءمة للحكم المطلق.

وبينا كانت اللجنة تقوم بهذا العمل الكبير أصدر تريبونيان Tribonian واثنان من زملائه كتاباً موجزاً في القانون المدني سميها القانون (Institutiones 533). وكان هذا الكتاب في جوهره عبارة عن شروح جايوس Gius معدلة

ومصححة حتى تلائم روح ذلك العصر. وكان جايوس هذا قد لخص في القرن الثاني بعد الميلاد القوانين المدنية المعمول بها في أيامه. وأظهر في هذا العمل من البراعة ما يثير الإعجاب. وكان جستنيان في هذه الأثناء يصدر قوانين

صفحة رقم : 4346

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

جديدة. فلما كان عام 534 ضم تريبونيان وأربعة من مساعديه هذه القوانين إلى النسخة الجديدة المعدلة من كتاب القوانين. وبعد صدورهما أصبحت النسخة الأولى غير ذات موضوع، ولم يعثر عليها بعدئذ. ولما مات جستنيان نشر ما سئله من قوانين جديدة باسم التشريعات الجديدة. ولم تنشر هذه باللغة اللاتينية كما كانت تنشر الكتب السابقة بل نشرت باللغة اليونانية، وكانت هي آخر ما صدر باللاتينية من كتب القانون في الإمبراطورية البيزنطية. وقد أطلق على هذه المؤلفات كلها فيما بعد اسم مجموعة القوانين المدنية. وكان يشار إليها في غير دقة باسم قانون جستنيان. وجرى هذا القانون على ما جرى به قانون ثيودوسيان فجعل الشريعة المسيحية الأصلية قانون الدولة. وقد بدأ بتقرير التثليث وصب اللعنات على نسطوريوس، وأوتيكيس، وأبولينارس. واعترف بالزعامة الدينية للكنيسة الرومانية وأمر كل الهيئات المسيحية بالخضوع إلى سلطانها. ولكن الفصول التي جاءت بعد المقدمة أعلنت سلطة الإمبراطور على الكنيسة فقالت إن جميع القوانين الكنسية كجميع القوانين المدنية تصدر عن العرش، ثم مضى كتاب القانون يذكر القوانين الخاصة بالمطارنة، والأساقفة، ورؤساء الأديرة، والرهبان، ويحدد العقوبات التي توقع على القساوسة الذين يقامرون، أو يرتادون دور التمثيل أو يشهدون الألعاب(22). وجعل عقوبة المانيين والمارقين المرتدين هي الإعدام. أما الدوناتيون، والمنطانيون، واليعقوبيون وغيرهم من الطوائف المنشقة فكان عقابهم أن تصادر املاكهم، وأن يحكم عليهم بأنهم غير أهل لأن يبيعوا أو يشتروا، أو يرثوا أو يورثوا. وحرمت عليهم الوظائف العامة، والاجتماعات، كما حرما من حق مقاضاة المسيحيين أتباع الدين القويم للحصول على ما لديهم قبلهم من الديون. وأباح القانون في بعض مواد الرحمة للأساقفة أن يزوروا السجون، ليحموا المسجونين من سوء استعمال القانون.

صفحة رقم : 4347

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

وبدل القانون الميزات القديمة التي كانت تتمتع بها بعض الطبقات. من ذلك أن المعاتيق لم يعدوا يعاملون على أنهم طائفة خاصة قائمة بنفسها، بل أصبحوا يتمتعون من ساعة تحريرهم بجميع مميزات الأحرار، فبياح لهم أن يكونوا أعضاء في مجلس الشيوخ وأن يكونوا أباطرة. وقسم الأحرار جميعاً إلى طبقة ذوي الشرف أو الرتبة، وإلى طبقة عامة. وأقر القانون نظام الطبقات الذي نشأ منذ أيام دقلديانوس فقسمها إلى أشرف Patricii، وممتازين Illustres

ومحترمين Specabites (وهي التي أخذ منها لفظ Respecabls أي محترم الإنجليزية)، وأصفياء Claricsimi، وأمجاد Gloriosi ولقد كان في هذا القانون الروماني كثير من العناصر الشرقية. وظهرت فيما ورد في هذه الشرائع من قوانين خاصة بالرق بعض آثار المسيحية أو الرواقية. مثال ذلك أن اغتصاب أمة كان عقابه الإعدام كإغتصاب الحرة سواء بسواء؛ كذلك كان يحق للعبد أن يتزوج من حرة إذا وافق سيده على هذا الزواج. وكان جستنيان يشجع العتق كما تشجعه الكنيسة، لكن القانون كان يجيز بيع الطفل حين يولد في سوق الرقيق إذا كان أبواه معدمين (23). وكان في قانون جستنيان فقرات تشجع استرقاق رقيق الأرض، وتمهد السبيل لنظام الإقطاع. مثال ذلك أن الرجل الحر إذا زرع قطعة من الأرض ثلاثين عاماً كان يطلب إليه أن يبقى هو وأبنائه إلى أبد الدهر مرتبطين بهذه الأرض (24). وكان القانون هذا بأن يمنع الزارع من ترك الأرض؛ وإذا هرب رقيق الأرض أو صار من رجال الدين من غير رضاه سيده، جاز لهذا السيد أن يطالب به كما يطالب السيد بعبدته. رفع هذا القانون من منزلة المرأة إلى حد ما. وكان إخضاعها للوصاية عليها طول حياتها قد انتهى في القرن الرابع، وبطل المبدأ القديم القاضي بأن الأبناء الذكور هم وحدهم الذين يحق لهم أن يرثوا آباءهم، وبذلت الكنيسة جهوداً

صفحة رقم : 4348

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

كبيرة لتأييد المبدأ الجديد لأن كثيرات من النساء كن يوصين لها بأملأكنهن. وحاول جستنيان أن ينفذ آراء الكنيسة الخاصة بالطلاق، وجرمه إلا إذا أراد أحد الزوجين أن يدخل ديراً للنساء أو الرجال. غير أن هذا العمل كان خروجاً متطرفاً على العادات والقوانين القائمة وقتئذ ولذلك عارضه كثيرون من الشعب بحجة أنه سيزيد من حوادث التسميم، وذكرت فيما سن بعدنذ من القوانين في الإمبراطورية الرومانية حالات كثيرة مختلفة يباح فيها الطلاق، وظلت هذه معمولاً بها، في الإمبراطورية البيزنطية حتى عام 1453 فيما عدا فترات منقطعة (25). ومحي من القانون ما فرضه أغسطس من عقوبات على العزوبة والعقم. وكان قسطنطين قد جعل الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام، وإن لم ينفذ هذا العقاب إلا في حالات نادرة، أما جستنيان فقد احتفظ بعقوبة الإعدام للزنى من الرجال، أما الزانية فقد جعل عقابها الإقامة في دير للنساء. وأباح القانون للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا وجدها في منزله أو شاهدها تتحدث معه في حانة بعد إنذارها ثلاث مرات أمام شهود. كذلك فرض القانون عقوبات صارمة على من يزني بامرأة غير متزوجة أو بأرملة إلا إذا كانت حظية أو عاهراً. وكان هناك العرض غصباً يعاقب عليه بالإعدام ومصادرة الأملاك، وكان ثمن هذه الأملاك المصادرة يعطى للمرأة المغتصبة. ولم يكتف جستنيان بتقرير عقوبة الإعدام للواط، بل كان في كثير من الأحيان يضيف إليها التعذيب، وبتر الأعضاء، وعرض المذنبين على الجماهير في الشوارع قبل إعدامهما، وإنا لنحس في هذا التشريع الصارم ضد الشذوذ الجنسي بأثر المسيحية التي روعتها أثم الحضارة الوثنية فدفعتها إلى هذا التزمت الوحشي.

وغير جستنيان قانون الملكية تغييراً أساساً. من ذلك أنه ألغى ما كان ينص عليه القانون القديم من حق الأقارب من العصب أن يرثوا من يموت دون أن يترك وصية؛ وجعل حق الميراث لأبناء الميت وأحفاده الخ من الظهور والبطون،

صفحة رقم : 4349

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

وشجع قانون الهبات والوصايا لجهات البر؛ وأعلن أنه لا يجوز النزول عن شيء من أملاك الكنيسة، سواء كانت ثابتة أو منقولة، أو كانت أجور أملاك، أو رقيق أرض، أو عبيد؛ فلم يكن يحق لأي رجل من رجال الدين أو غير رجال الدين ولا لأية جماعة دينية أو غير دينية النزول عن أي شيء تمتلكه الكنيسة أو يبيعه أو الإيحاء به. وأضحت هذه القوانين التي وضعها ليو الأول وأنثيموس وأيدها قانون جستنيان هي الأساس الشرعي لثروة الكنيسة المتزايدة. فقد كانت أملاك غير رجال الدين تنقسم وتتفرق، أما أملاك الكنيسة فظلت تتراكم وتزداد جيل بعد جيل. وحاولت الكنيسة أن تحرم الربا، ولكنها عجزت عن تحريمه؛ وأجاز القانون القبض على المدنيين الذين يتخلفون عن جلسات المحاكمة، ولكنه أجاز إطلاق سراحهم بالكفالة أو إذا أقسموا أن يعودوا حين يطلبون للمحاكمة. وحرّم القانون سجن أي شخص إلا بأمر أحد كبار القضاة، وحدد الزمن الذي يمكن أن ينقضى بين القبض عليه ومحاكمته تحديداً دقيقاً لا يتعداه. وبلغ عدد المحامين من الكثرة حداً جعل جستنيان يشيد لهم باسلاً خاصة نستطيع أن نتصور مساحتها إذا عرفنا أن مكتبها كانت تضم 150.000 مجلد أو ملف. وكان المتهم يحاكم أمام قاضي يعينه الإمبراطور، غير أنه كان من المستطاع تحويل القضية إلى محكمة الأسقف إذا رغب في ذلك الطرفان المتقاضيان. وكانت نسخة من الكتاب المقدس توضع أمام القاضي في كل جلسة. وكان وكلاء الطرفين يقسمان على الكتاب أنهما سيبدلان كل ما في وسعهما للدفاع عن موكليهما بذمة وأمانة، ولكنهما يتخليا عن القضية إذا وجدهما مما يخل بالشرف والأمانة. وكان المدعي والمدعي عليه يلزمان أيضاً بأن يقسم كل منهما على الكتاب المقدس أن قضيته عادلة. وكانت العقوبات التي ينص عليها القانون صارمة ولكنها قلما كانت ملزمة فقد كان في وسع القاضي مثلاً أن يخفف العقاب عن النساء والفُصّر،

صفحة رقم : 4350

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

والسكارى الذين يقدمون للقضاء. وكان السجن للمحافظة على المتهمين حتى يحاكموا، ولكنه قلما كان يستخدم لعقاب المدنيين. وقد أجاز قانون جستنيان عقاب المجرم ببيتر اعضائه، فكان في هذا أكثر رجعية من قانون هدریان وأنطونينوس بيوس. مثال ذلك أن جباة الضرائب الذين يزورون في حساباتهم، والذين ينسخون الآداب الدينية اليعقوبية كان يجوز عقابهم بقطع يدهم، اتباعاً للنظرية القائلة بأن العضو الذي اقترف ذنباً يجب أن يجازى بما اقترفه. وكثيراً ما يذكر القانون عقوبة جدد الأنف أو قطع الرقبة، وأضافت القوانين البيزنطية إليهما سلم العينين، وأكثر ما يكون ذلك لنشويه وجه الوارثين للعرش أو المتطلعين له. وكانت عقوبة الإعدام تنفذ في الأحرار بقطع رءوسهم، وفي بعض الأرقاء بصلبهم؛ وكان السحرة والفارون من الجيش يحرقون أحياء؛ وكان في وسع المواطن المحكوم عله أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التي أصدرته، ثم إلى مجلس الشيوخ ثم إلى الإمبراطور نفسه آخر الأمر. وإنما نلجج بقانون جستنيان إذا نظرنا إليه في مجموعه أكثر مما نعجب به لو نظرنا إلى كل جزء من أجزائه على انفراد. وأكثر ما يختلف فيه عن القوانين التي صدرت قبله هو تشدده في اتباع المبادئ والسنن المقررة، وسد الطريق على التعديل والإصلاح، وما يسري فيه من ميل إلى القسوة في الانتقام، حتى لقد كان في وسع الروماني المتعلم أن

يجد الحياة في حكم الأنطونيين أكثر حضارة منها في حكم جستنيان. وكان سبب هذه العيوب أن الإمبراطور لم يكن يستطيع التخلص من البيئة التي يعيش فيها والزمن الذي وجد فيه، وقد اضطرت له رغبته الملحة في أن يوحد كل شيء على أن يقنن ما في عصره من الخرافات والوحشية كما يقنن ما فيه من عدالة ورحمة. وكان القانون شديد التمسك بالتقديم والمحافظة عليه، شأنه في هذا شأن كل ما هو بيزنطي، وكان موائماً كل المواءمة لحضارة

صفحة رقم : 4351

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> قانون جستنيان

خيل إلى أهلها أنها لن تموت أبداً. لكنه سرعان ما نقص الخاضعون له فلم يتعدوا أهل مملكة صغيرة أخذة في النقصان. ذلك أن الشرقيين الخارجين على الدين والذين أذقهم هذا أشد العذاب قد فتحوا صدورهم للمسلمين وكانوا أكثر رخاء في ظل القرآن منهم في ظل هذا القانون. وأغفلت إيطاليا تحت حكم اللبارد، وغلاة تحت حكم الفرنجة وإنجلترا تحت حكم الأنجليسكسون، وأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين، أغفلت هذه البلاد كلها أوامر جستنيان. لكن هذا القانون بالرغم من هذا كله، ظل بضعة أجيال يبيسط النظام والأمن على خليط من الشعوب، وبفضله استطاع الناس أن يجتازوا حدود كثير من الأمم وينتقلون في شوارع مدنها وهم أكثر أمناً وأعظم حرية مما يستمتع به الذين ينتقلون في ذلك الإقليم نفسه في هذه الأيام. ولقد ظل هو قانون الإمبراطورية إلى آخر أيامها، ولقد أحيا سنته مسترعو بولونيا بعد خمسة قرون من اختفائه في الغرب. وعمل به الأباطرة والبابوات، وسرى في نظم كثير من الدول الحديثة، فكان هو الهيكل الذي قام عليه نظامها.

صفحة رقم : 4352

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الفقيه الديني الإمبراطوري

الفصل الخامس

الفقيه الديني الإمبراطوري

لم يبق بعدد أمام جستنيان إلا أن يوحد العقيدة الدينية، وأن يجعل الكنيسة أداة متجانسة يتخذها وسيلة للحكم. وأكبر الظن أن جستنيان كان مخلصاً في عقيدته الدينية، وأن غرضه من توحيد الدين لم يكن سياسياً فحسب، فقد كان هو نفسه يعيش في قصره عيشة الراهب في ديره على قدر ما تسمح له بذلك ثيودورا؛ يصوم، ويصلي، وينكب على دراسة المؤلفات الدينية، ويناقد دقائق العقائد الدينية مع الفلاسفة، والبطارقة، والبابوات. وينقل بروكبيوس في هذا المعنى قول أحد المتأمرين على جستنيان دون أن يخفي موافقته التامة على ما ينقله: "إن من أوتي أقل قسط من عزة النفس لا يلبق به أن يرفض العمل على قتل جستنيان؛ وخليق به ألا يداخله أقل خوف من رجل يجلس على الدوام في ردهة قصره من غير حرس ويقضي الجزء الأكبر من الليل يقلب صفحات الكتب المسيحية المقدسة هو وجماعة من القساوسة الطاعنين في السن" (26). ويكاد يكون من أول الأعمال التي استعان فيها جستنيان بسلطته وهو نائب عن جستنيان أنه رتب الفتق الذي اتسع بين الكنيستين الشرقية والغربية على أثر نشر رسالة الإمبراطور زينون المعروفة باسم هنوتوكون Henotikon وقد استطاع جستنيان أن يكسب تأييد القساوسة الإيطاليين أتباع الدين الأصلي ضد القوط، وإخوانهم في الشرق ضد اليعقوبيين، بقوله وجهة نظر البابوية في المسائل التي كانت موضوع الخلاف. وكانت هذه الشيعة الأخيرة التي تقول بأن ليس للمسيح إلا طبيعة واحدة قد كثر عددها في مصر حتى كاد يعادل عدد الكاثوليك. وبلغ من كثرتهم في

صفحة رقم : 4353

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الدولة البيزنطية في أوج مجدها - جستنيان - الفقيه الديني الإمبراطوري

الإسكندرية أن انقسموا هم أيضاً إلى طائفتين يعقوبيتين إحداهما تؤمن بنصوص الكتاب المقدس وأخرى لا تؤمن به. وكان أفراد الطائفتين يقتتلون في شوارع المدينة بينما كانت نساؤهم يتبادلن القذائف من سطوح المنازل. ولما انجلست قوات الإمبراطور المسلحة أسقفاً كاثوليكياً في كرسي أثناسيوس كانت أول تحية حياها به المصلون أن رجموه بوابل من الحجارة، ثم قتله جنود الإمبراطور وهو جالس على كرسيه. وبينما كانت الكتلكة تسيطر على أسقفية الإسكندرية، كان الخارجون عليها يزداد عددهم زيادة مطردة في ريف مصر، فكان الفلاحون لا يأبهون بقرارات البطريرق أو بأوامر الإمبراطور، وكانت مصر قد خرجت عن طاعة الإمبراطورية أو أوشكت أن تخرج عن طاعتها قبل أن يفتتحها الغرب بقرن كامل. وتغلبت ثيودورا بثباتها على جستنيان المتردد في هذه المسألة كما تغلبت عليه في كثير من المسائل الأخرى، فأخذت تأمر مع شماس روماني يدعى فيجلوس Vligilius وتعرض عليه أن تتصبه بابا إذا قبل بعض مطالب اليعقوبيين. وأثمرت هذه المؤامرة ثمرتها، فأخرج بليساريوس البابا سلفريوس من روما (537) ونفي إلى جزيرة بلماريا Palmaria حيث مات مما لقيه من قسوة، ونصب فيجليوس بابا في مكانه بأمر الإمبراطور. وقبل جستنيان آخر الأمر رأي ثيودورا القائل بأن مذهب اليعاقبة لا يمكن القضاء عليه، فحاول أن يسترضي أتباعه في وثيقة دينية إمبراطورية تعرف باسم الفصول الثلاثة. ثم استدعى فيجليوس إلى القسطنطينية وألح عليه بأن يوافق على هذه الوثيقة. وأجابه فيجليوس إلى طلبه في كره منه، فما كان من رجال الدين الكاثوليك في أفريقية إلا أن أعلنوا طرده من الكنيسة وتجريده من رتبة الكهنوتية (550). وحينئذ قام جستنيان بمحاولة سافرة للسيطرة على البابوية لم يقم بها إمبراطور غيره من قبله. ذلك أنه دعا مجلساً عاماً للاجتماع في القسطنطينية (553) لم يكده يحضره أحد

صفحة رقم : 4354

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الفقيه الديني الإمبراطوري

من أساقفة الغرب، ووافق المجلس على المبادئ التي وضعها جستنيان، ولكن الكنيسة الغربية رفضتها، وعاد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية إلى ما كان عليه من قبل، ولم يخمد لظاه مدة قرن من الزمان. وتغلب الموت آخر الأمر على كل هذا الجدل، فقد توفيت ثيودورا في عام 548، وكانت وفاتها أشد الضربات التي حطمت شجاعة جستنيان، وصفاء ذهنه، وقوة بدنه. وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره، وكان قد أضعفه نسكه وما حل به من ازيمات متعاقبة. فترك شؤون الحكم لعماله، وأهمل وسائل الدفاع التي بذل غاية جهده لإقامتها، وانهمك في البحوث الدينية، وحلت بالبلاد كوارث لا حصر لها عليه نغصت عليه حياته في السبعة عشر عاماً التي عاشها على حافة القبر. فقد امتاز حكمه بكثرة ما حدث فيه من الزلازل التي دمرت اثنتي عشرة مدينة وكادت تمحو آثارها من الوجود، ونضب معين خزانة الدولة من جراء النفقات التي تطلبتها إعادة بنائها، وفشا الطاعون في البلاد في عام 542، وجاء بعده القحط في عام 556، وعاد الطاعون مرة أخرى في عام 558. وفي عام 559 اجتاز الهون الكتريجور Kutrigur Huns نهر الدانوب، وهتكوا أعراض الأمهات والعذارى الراهبات، وألقوا إلى الكلاب بالأطفال الذين ولدتهم السبايا اللاني أخذوهن معهم في زحفهم، وتقدموا حتى بلغوا أسوار القسطنطينية. واستغاث الإمبراطور في هلعه الشديد بالقائد العظيم الذي طالما أنجاه من الكوارث من قبل. وكان بليسايريوس وقتئذ ضعيفاً منهوكة القوى، ولكنه انتضى سيفه ولبس درعه، وجمع ثلاثمائة من جنوده المحنكين الذين حاربوا معه في إيطاليا، وضم إليهم بضع مئات من الجنود غير المدربين، وسار بهم ليلاقي الهون البالغ عددهم سبعة آلاف رجل. وزع قواه بما تعود من حذق وبُعد نظر، فأخفى مائتين من خيرة جنوده في غابات قريبة من ميدان القتال، فلما أن تقدم الهون لقتاله انقض هؤلاء على جناحهم، بينما كان بليسايريوس يتلقى هجوم أعدائه على رأس جيشه الصغير.

صفحة رقم : 4355

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الفقيه الديني الإمبراطوري

وارتد البرابرة على أعقابهم وولوا الأدبار قبل أن يصاب روماني واحد بجرح خطير. وغضبت الجماهير في العاصمة لأن بليسايريوس لم يفتت أثر العدو ويقبض على قائد الهون ويأت به أسيراً. ودأبت الغيرة في قلب الإمبراطور فاستمع إلى وشاية الواشين بقائده الكبير، واتهمه بالتآمر عليه، وأمره بأن يسرح جنوده المسلحين. ولما مات بليسايريوس في عام 565 صادر جستنيان نصف ممتلكاته.

وعاش الإمبراطور بعد قائده ثمانية أشهر. وأثمرت دراسته للدين في سنيه الأخيرة ثمرة عجيبة! وهل أعجب من أن يخرج على الدين حامي حمى الدين. فقد أعلن جستنيان أن جسد المسيح غير قابل للدنس، وأن طبيعة المسيح البشرية لم تتعرض في يوم من الأيام لحاجة من حاجات الجسد الفاني، ولا لشيء من مساوئه. وأنذر رجال الدين بأنه إذا مات قبل أن يرجع عن هذه الخطيئة "فسيلقى في نار جهنم ويبقى فيها إلى أبد الأبد" (27). ولكنه مات قبل أن يتوب من ذنبه (556)، بعد حياة دامت ثلاثة وثمانين عاماً، جلس منها على العرش ثمانية وثلاثين.

وكان موت جستنيان نقطة أخرى من النقاط التي يمكن أن تعد خاتمة التاريخ القديم. لقد كان في حياته إمبراطور رومانياً بحق، يفكر في جميع شؤون الإمبراطورية شريكها وغريبها على السواء، ويبذل كل ما وسعه من جهد ليصد

عنها البرابرة. وليعيد إلى الإمبراطورية الواسعة حكماً منظماً وشرائع متجانسة. ولقد أفلح في تحقيق جانب كبير من هذا الغرض: فقد استرد أفريقية، ودلماشيا، وإيطاليا، وقورسقة، وسردينيا، وصقلية، وبعض أسبانيا، وطرد الفرس من سوريا، وتضاعفت رقعة الإمبراطورية في عهده ضعفين. وتمثل شريعته بما فيها من وحدة، ووضوح، واتساع في الأفق، ذروة في تاريخ القانون. ولسنا ننكر أن إدارته لشؤون الإمبراطورية قد لوّثها فساد الموظفين، ورشوة الحكام، وفدح الضرائب، وتدخل الأهواء، والنزوات في العفو والعقاب؛ ولكنها مع ذلك

صفحة رقم : 4356

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الفقيه الديني الإمبراطوري

كانت تمتاز بالعمل المتواصل على تنظيم حكم الإمبراطورية وشنونها الاقتصادية؛ ولقد أفلحت في إقامة صرح من النظام إن يكن معادياً للحرية فإنه قد حفظ كيان الحضارة في ركن من أركان أوروبا في الوقت الذي غرقت فيه سائر القارة في ظلمات العصور المظلمة. هذا إلى أنه قد خلد اسمه في تاريخ الصناعة والفن كما يشهد بذلك جامع أياصوفيا الذي هو أثر من أثاره. وما من شك في أن أشياعه من معاصريه قد بدا لهم أن الإمبراطورية استطاعت مرة أخرى أن تصد تيار التدهور وأن تبعد عنها يد الردى إلى حين.

غير أن الذي يؤسف له لم يكن أكثر من مهلة جد قصيرة. فقد ترك جستنيان خزائن الدولة خاوية، وكان قد وجدها عامرة، وكانت شرائعه القاسية الخالية من التسامح الديني، وكان جباته اللصوص، سبباً في نفور الأمم التي استولت جيوشه على بلادها، فلم يطل ولاؤها له، وكانت هذه الجيوش قد ضعفت مرثها، وتبدد شملها، ولم تنل أجورها. فلم يكن في وسعها أن يطول دفاعها عن البلاد التي افتتحتها وأحلت بها الخراب والدمار. وسرعان ما تركت أفريقية للبربر، وسوريا؛ وفلسطين، ومصر، ثم أفريقية وأسبانيا للعرب، وإيطاليا للمبارد. وقبل أن ينقضي قرن واحد على موت جستنيان خسرت الإمبراطورية أكثر مما كسبه هو لها. وإذا ما عدنا إلى الماضي أدركنا من خلال ثناياه، وامتلات نفوسنا زهواً بهذا الإدراك، ما كان في نظام حكم الإمبراطورية من أخطاء. وبدا لنا أنه كان من الخير أن تجمع القوميات والمذاهب الدينية الناشئة في نظام اتحادي، وأن تمد يد الصداقة إلى القوط الشرقيين الذين حكموا إيطاليا حكماً صالحاً إلى حد كبير. وأن تكون الدولة أداة لحفظ الثقافة القديمة من الضياع ومعيناً غزيراً تستمد منه الدول الجديدة أسباب حضارتها ورفاهيتها.

وليس ثمة ما يضطرنا إلى قبول حكم بروكبيوس على جستنيان، فقد كفانا

صفحة رقم : 4357

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> جستنيان -> الفقيه الديني الإمبراطوري

بروكيوس نفسه مؤونة دحض هذا الحكم(28) لقد كان الإمبراطور حاكماً عظيماً، نشأت أخطاؤه من إخلاصه لعقيدته وجريه فيها على سنن مطلقة: فنشأ اضطهاده من ثقته، ونشأت حروبه من نزعه الرومانية، ومصادرتة للأملك من هذه الحروب. فنحن نأسف أشد الأسف لضيق أفقه وعنف أساليبه، ونطرب لتحقيقه أغراضه. لقد كان هو وبليساريوس، لابنياس وإيتيوس، آخر الرومان.

صفحة رقم : 4358

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

الباب السادس

الحضارة البيزنطية

565-336

الفصل الأول

العمل والثروة

كان الاقتصاد البيزنطي مزيجاً من المشروعات الفردية، والتنظيم الحكومي، والصناعات المؤممة، شبيهاً بما يجري به العمل في هذه الأيام. وكان امتلاك الفلاحين للأراضي التي يزرعونها لا يزال في عصر جستنيان هو القاعدة المعمول بها في الزراعة؛ ولكن الضياع كانت أخذة في الاتساع، وكان كثير من الزراع يضطرون شيئاً فشيئاً إلى الخضوع الإقطاعي لكبار الملاك، وكان الذي يرغمهم على هذا الخضوع هو الجفاف، والفيضان، والتنافس، والعجز عن فلاح الأرض، والضرائب، والحروب. وكانت الموارد المعدنية التي في باطن الأرض ملكاً للدولة ولكن معظمها كانت تستعمله الهيئات الخاصة التي تستأجره من الحكومة. وكانت مناجم بلاد اليونان قد نصب معينها، ولكن مناجم

قديمة وجديدة كانت تستغل في تراقية، وبنطس، وبلاد البلقان. وكان معظم عمال الصناعة "أحراراً" أي أنهم لم يكن يرغمهم على العمل إلا عدم رغبتهم في الموت جوعاً؛ ولم يكن للاسترقاق المباشر في خارج الخدمة المنزلية وصناعة النسيج إلا شأن ضئيل، ولكن الدولة كانت تلجأ إلى السخرة في سوريا، وفي مصر وشمال أفريقيا على الأرجح للمحافظة على قنوات الري الكبرى(1). وكانت الحكومة تنتج في مصانعها معظم

صفحة رقم : 4359

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

ما يحتاجه الجيش والموظفون، والحاشية من البضائع(2).
وآثار جماعة الرهبان النساطرة من أواسط آسيا حوالي عام 552 اهتمام الإمبراطور جستنيان بصناعة الحرير، إذ عرضوا عليه أن يمدوا الإمبراطورية بموارد مستقلة عن غيرها من البلاد. وإذا ذكرنا كثرة الحروب التي شنت ناراها بين بلاد اليونان والرومان من جهة وبلاد الفرس من جهة أخرى للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الصين والهند، ولاحظنا اسم "طريق الحرير" الذي كان يطلق على الممرات الشمالية الموصلة إلى بلاد الشرق الأقصى، واسم "سريكا Serica" (أرض الحرير) الذي كان الرومان يطلقونه على بلاد الصين واسم "سرنديا Serindia" الذي كانوا يطلقونه على الإقليم الواقع بين الصين والهند، إذ ذكرنا هذا كله أدركنا سبب قبول جستنيان لهذا الاقتراح والتحمس له. وعاد الرهبان إلى أواسط آسيا ثم جاءوا إليه ومعهم بويضات دود القز، وأكبر الظن أنهم جاءوا معهم أيضاً ببذور شجر التوت(3). وكانت صناعة الحرير قائمة قبل ذلك في بلاد اليونان، ولكنها كانت قائمة في نطاق ضيق، وكانت تعتمد على دود القز البري الذي يعيش على أوراق أشجار البلوط والدردار والسرو. وكانت نتيجة هذا الاقتراح أن قامت صناعة الحرير في نطاق واسع في بلاد الإمبراطورية وخاصة في سوريا وبلاد اليونان، وتقدمت في بلاد البلوبونيز تقدماً أكسب الجزيرة اسم موريا Morea أي أرض شجر التوت Morus Alba. وكانت الدولة تحتكر صناعة بعض أنواع المنسوجات الحريرية والصبغات الأرجوانية في مدينة القسطنطينية، وكانت هاتان الصناعتان تقومان في حوانيت داخل القصر الإمبراطوري أو قريبة منه(4). ولم يكن يسمح بارتداء الثياب الحريرية المصبوغة الغالية إلا لكبار موظفي الحكومة، وكان أغلاها كلها لا يسمح به لغير أفراد الأسرة الإمبراطورية. ولما أخرجت المشروعات الفردية خفية منسوجات حريرية تماثل منسوجات الحكومة وباعتها لغير الطبقات الممتازة

صفحة رقم : 4360

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

قضى جستنيان على هذه "السوق السوداء" بأن أزال معظم القيود المفروضة على لبس الحرير الغالي والملابس ذات الصبغة الغالية، وأغرق الحوانيت بالمنسوجات الحكومية، وباعها لها بأثمان لا تستطيع المصانع الخاصة مجازاتها؛ ولما قضى بهذه الطريقة على المنافسة عادت الحكومة فرفعت الأثمان مرة أخرى (5). وحذا جستنيان حذو دقلديانوس فعمل على بسط السيطرة الحكومية على جميع الأثمان والأجور. وحدث بعد انتشار الطاعون في عام 542 أن نقضت الأيدي العاملة، وارتفعت أجور العمال، وتضاعفت أثمان السلع. وعمل جستنيان ما عمله البرلمان الإنجليزي في عام 1351 بعد طاعون 1348، فأراد أن يساعد أصحاب الأعمال والمستهلكين بمرسوم يحدد الأثمان والأجور جاء فيه: لقد وصل إلى علمنا أن التجار، والصناع، والزراع، والبحارة قد تغلبت عليهم، بعد أن حل بنا غضب الله، روح الجشع، فأخذوا يطلبون أثماناً وأجوراً تعادل ضعفي ما كانوا ينالونه قبل أو ثلاثة أضعاف... لذلك نحرّم على هؤلاء جميعاً وأمثالهم أن يطلبوا أثماناً أو أجوراً أكثر مما كانوا يطلبونه من قبل. كذلك نحرّم على متعهدي البناء، أو الأعمال الزراعية أو غيرها أن يؤدوا للعمال أجوراً أعلى مما جرت العادة بأدائه في الأيام الماضية (6). وليس ما لدينا ما يدلنا على ما كان هذا المرسوم من أثر.

وراجت التجارة الداخلية والخارجية في الإمبراطورية البيزنطية من عهد قسطنطين إلى أواخر حكم جستنيان. وكان ما فيها من الطرق والجسور الرومانية يتعهد ويصلح بانتظام، ودفع الحرص الشديد على الكسب وما يبعثه من إبداع وإنشاء إلى بناء أساطيل بحرية ربطت العاصمة بمئات الثغور في الشرق والغرب. وظلت القسطنطينية في القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر أعظم الأسواق التجارية ومراكز النقل البحري في العالم كله، وانحطت الإسكندرية التي كانت لها السيادة في هذه الناحية منذ القرن الثالث قبل الميلاد، فأصبحت منزلتها في

صفحة رقم : 4361

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

التجارة بعد إنطاكية (7). وكانت سوريا كلها تعج بالمناجر والمصانع، ويرجع هذا إلى موقعها بين بلاد الفرس والقسطنطينية، وبين القسطنطينية ومصر، وإلى ما اتصف به تجارها من حذق وحب للمغامرة بحيث لم يكن ينافسهم في انتشار كجارتهم ودهانهم إلا اليونان الذين لا يجارونهم في المثابرة والجد، كما يرجع إلى انتشارهم هم أنفسهم في جميع بلاد الإمبراطورية، فكانوا بذلك عاملاً في إيجاد ذلك الطابع الأخلاقي والفني الذي طبعت به الحضارة البيزنطية.

وإذا كان الطريق التجاري القديم بين سوريا وأواسط آسية يخترق بلاد الفرس المعادية للدولة البيزنطية، فقد أراد جستنيان أن ينشئ طريقاً جديداً بإقامة صلات ودية بينه وبين الحميريين المقيمين في الطرف الجنوبي الغربي من جزيرة العرب، وملوك الحبشة، وكان هؤلاء وأولئك يسيطرون على أبواب البحر الأحمر الجنوبية. وكانت السفن التجارية البيزنطية تخترق هذه المضائق والمحيط الهندي في طريقها إلى الهند؛ ولكن الفرس الذين كانوا يسيطرون على ثغور الهند كانوا يفرضون على هذه التجارة رسوماً عالية كأنها تمر ببلاد إيران نفسها. فلما خاب رجاء جستنيان في هذا الطريق شجع إنشاء المرافئ البحرية على البحر الأسود، فكانت المناجر ترد إلى هذه المرافئ ثم تنقل في السفن إلى خلقيس Colchis ومنها بطرق القوافل إلى سجديانا Sogdiana، حيث يلتقي تجار الصين وتجار الغرب ويتسامون دون أن يتدخل الفرس فيما بينهم. وبفضل هذه التجارة الناشطة التي كانت تسير في هذا الطريق الشمالي ارتفعت سيرنديا إلى أعلى درجات الثروة والفن في العصور الوسطى. وظلت التجارة اليونانية في هذه الأثناء محتظة بمنافذها القديمة في الغرب.

وكان من أكبر العوامل في هذا النشاط الاقتصادي الكبير النقد الإمبراطوري الذي كان عملة مقبولة في جميع أنحاء العالم تقريباً لثباته وسلامته. وكان قسطنطين قد سك نقداً جديداً ليحل محل الأوريوس Aurues الذي سكه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

قيصر. وكانت هذه القطعة النقدية الجديدة المعروفة باسم صوليدوس Solidus أو بيزنت Bezant تزن 4.55 جرامات أو جزءاً من ستة أجزاء من الأوقية الإنجليزية من الذهب، وتعاود قيمته 5.83 من الدولارات في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1946. وإن تدهور الصوليدوس في قيمته المعدنية والاقتصادية حتى صار هو الصلدي ليدل أوضح دلالة على ارتفاع الأثمان خلال عصور التاريخ المختلفة، وعلى انحطاط قيمة النقد، ويوحى بأن الادخار فضيلة تتطلب ممارستها كثيراً من الدقة والحصافة. وارتقت أعمال المصارف كثيراً في ذلك الوقت، وفي وسعنا أن نعرف ما كان يسود الإمبراطورية البيزنطية من رخاء عندما ارتقى جستنيان العرش إذا عرفنا أنه حدد سعر الفائدة بما لا يزيد على أربعة في المائة لقروض الفلاحين، وستة في المائة للقروض التجارية، واتى عشر في المائة للنقود المستثمرة في المشروعات البحرية(8). ولم تكن فوائد القروض منخفضة هذا الانخفاض في ذلك الوقت في أي بلد من بلاد العالم.

وكان أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار يستمتعون بثناء عظيم وبمظاهر من الترف قلما استمتع بهما أمثالهم قبلهم في روما وذلك بفضل ما كان يمتلكه الأولون من أراض واسعة، وما يقدم عليه الآخرون من مغامرات تجارية في أقطار نائية تتناسب أرباحها مع ما كانت تتعرض له أموالهم من الخطر. وكان الأشراف في الشرق أرقى ذوقاً من نظائرهم في روما في أيام شيشرون وجوفنال. فلم يكن أفراد هذه الطبقة يتخمون بطونهم بالأطعمة الغريبة يحضرونها من البلاد النائية، وكان الطلاق عندهم أقل منه في روما، وكانوا أكثر منهم إخلاصاً وهدماً في خدمة الدولة، وكان أكثر ما يسرفون فيه هو الملابس المزركشة، والأثواب ذات الأهداب، المغطاة بالفراء والأصباغ البرقة، والجلابيب الحريرية المصبوغة بصبغات غالية والمطرزة بخيوط الذهب والمنقوشة عليها مناظر مستمدة من الطبيعة أو من التاريخ

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العمل والثروة

وكان بعض الناس أشبه "بجدران صور متحركة". من ذلك أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ قد صورت على ثوبه قصة المسيح من أولها إلى آخرها(9). وكان تحت هذه الطبقة ذات الغشاء الذهبي طبقة وسطى تزرع تحت أعباء الضرائب، وطبقة أخرى كادحة من موظفي الدولة، وخليط من الرهبان الذين لا ينقطعون عن التدخل في شؤون الناس، وأمشاج من صعاليك المدن كانوا ضحية نظام الأثمان، لا يخفف عنهم أعباء الحياة إلا ما يتلقونه من الدولة من إعانات.

ولم تكن المبادئ الخلقية من الناحيتين التجارية والجنسية تختلف اختلافاً بيناً عن أمثالها في الثقافات الأخرى في نفس هذه المرحلة من التطور الاقتصادي. لقد كان كريستوم يندد بالرقص ويقول إنه يثير الشهوات، ولكن القسطنطينية لم تنقطع عن الرقص رغم تنديد كريستوم، وظلت الكنيسة ترفض تعميده الممثلين، ولكن المسرح البيزنطي ظل يعرض تمثيلاته الصامتة الإيحائية، لأن الناس يجب أن يجدوا ما يخفف عنهم متاعب وحدة الزواج وملل الحياة الرتيبة. ويقول بروكبيوس في كتابه التاريخ السري، وهو الذي لا يوثق به قط، إن النساء في وقته "كن جميعهن تقريباً فاسدات" (10). وكانت وسائل منع الحمل من الموضوعات التي لا ينفك الناس عن دراستها والبحث فيها. وقد أفرد لها أريباسيوس Oribasius أشهر أطباء القرن الرابع فصلاً خاصاً في كتابه الموجز في الطب. وأوصى كاتب آخر في الطب يدعى إيتيوس Aetius من رجال القرن السادس باستخدام الخل وماء البحر، أو الامتناع عن الجماع في بداية فترة الحيض ونهايتها (11). وحاول جستنيان وحاولت ثيودورا أن يقللا من الدعارة بنفي القيودات وأصحاب المواخير من القسطنطينية. ولكن نتيجة العمل لم تدم طويلاً. وكانت منزلة المرأة بوجه عام عالية، ولم تكن النساء في أي عصر من العصور السابقة أقل تقيداً بالقوانين والعادات أو أعظم نفوذاً في الحكومة منهن في ذلك العصر.

صفحة رقم : 4364

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

الفصل الثاني

العلم والفلسفة

364-565

نرى ماذا كان حظ التربية والتعليم، والأدب، والعلوم والفلسفة في هذا المجتمع الذي يبدو في ظاهره مجتمعاً دينياً؟ لقد ظل التعليم الابتدائي في أيدي مدرسين خصوصيين يؤدي لهم الآباء أجورهم قدرأ معيناً عن كل تلميذ في فترة محددة كم الزمن. أما التعليم العالي فقد ظل إلى أيام ثيودوسيوس الثاني يقوم به المحاضرون ليس لغيرهم سلطان عليهم، وأساتذة تؤدي لهم المدينة أو الدولة أجورهم. ويشكو ليبانيوس من ضالة أجور هؤلاء الأساتذة ويقول إنهم كانوا يتوقون من شدة الجوع إلى الذهاب إلى الخباز، ولكنهم يمتنعون عن الذهاب إليه خشية أن يطالبهم بأداء ما عليهم من الديون (12). غير أننا مع ذلك نقرأ عن مدرسين أمثال يومانوس يتقاضون 600.000 سسترس (30.000 ريال أمريكي؟) في كل عام (13). وكان أحسن الأفراد في هذه المهنة وأسوأهم. يتناولون أجوراً أكثر مما يستحقون، أما من عداهم فإنهم يتقاضون أقل مما يجب أن يتقاضوه. وعمل يوليان على نشر الوثنية بأن جعل الامتحانات التي تقوم بها الدولة والتعيين من قبلها هو القاعدة المتبعة في تعيين أساتذة الجامعات كلها (14). وجاء ثيودوسيوس الثاني، لأسباب

عكس هذا السبب السابق، فجعل الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جنائية، وما لبث هذا الترخيص أن اقتصر على أتباع الدين الرسمي للدولة. وكان مقر الجامعات الكبرى في الدولة في الإسكندرية، وأثينة،

صفحة رقم : 4365

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

والقسطنطينية، وإنطاكية؛ وكانت هذه الجامعات تتخصص على التوالي في تعليم الطب، والفلسفة، والأدب، والبلاغة. وجمع أريباسيوس Oribasius البرجمومي (حوالي عام 325-403) طبيب يوليان موسوعة طبية مؤلفة من سبعين "كتاباً"؛ وألف إيتيوس الأميدي Aetius of Amida طبيب البلاط في عهد جستنيان أخرى شبيهة بهذه الموسوعة تمتاز بأحسن ما في الطب القديم من تحليل لأمراض العين، والأذن، والأنف، والفم، والأسنان؛ وبفصول شقيقة في تضخم الغدة الدرقية والصرع، والعمليات الجراحية من استئصال اللوز إلى جراحة البواسير. وكان الإسكندر التريسي Alexander of Tralles (حوالي عام 525-605) أكثر مؤلفي الطب ابتكاراً في ذلك العهد: فقد وضع أسماء لكثير من الطفيليات المعوية المختلفة، ووصف اضطرابات القناة الهضمية وصفاً دقيقاً؛ وبحث في أمراض الرئتين وعلاجها بحثاً وافياً لا نظير له فيما سبقه من البحوث. وترجم كتابه المدرسي في علم الأمراض الباطنية العلاجي، إلى اللغات السريانية، والعربية، والعبرية، واللاتينية، وكان له في العالم المسيحي أثر لا يعلو عليه إلا أثر كتب أبقراط، وجالينوس، وسورانوس (15). ويقول أوغسطين إن تشريح الأجسام الأدمية كان مألوفاً في القرن الخامس (16). ثم طغت الخرافات على الطب شيئاً فشيئاً، فأمن معظم الأطباء بالتنجيم، وأشار بعضهم باستخدام طرق في العلاج تختلف باختلاف مواقع الكواكب (17). وكان مما أشار به إيتيوس لمنع الحمل أن تضع المرأة بالقرب من شرجها سن طفل (18)، وسبق مارسلوس في كتابه في الطب (395 De Medicamentis) المحدثين فأشار بلبس قدم أرنب (19). وكان للبالغ حظ أحسن من حظ الأدميين؛ ذلك أن أحسن كتاب علمي في ذلك العهد هو كتاب فلافيوس الفجتيوسي (Flavius Vegitius) (383-450) المعروف باسم Digestorumartis Mulomedicinae Libri IV ويكاد هذا الكتاب أن يكون هو الأساس

صفحة رقم : 4366

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

الذي قدم عليه الطب البيطري، وقد ظل هو المرجع الذي يعتمد عليه حتى عصر النهضة. وسارت الكيمياء والكيمياء الكاذبة جنباً إلى جنب. وكانت الإسكندرية مركزاً لهما جميعاً. وكان الباحثون في الكيمياء الكاذبة بوجه عام مخلصين في بحثهم، يستخدمون الطرق التجريبية بأمانة أكثر مما يستخدمها غيرهم من العلماء

الأقدمون. وقد كان لهم الفضل في تقدم كيمياء المعادن والسبائك تقدماً كبيراً؛ ولسنا واثقين من أن المستقبل لن يحقق ما كانوا يسعون إليه من أغراض. كذلك كان للتحجيم أساس صحيح شريف؛ فقد كان الناس جميعاً يؤمنون إيماناً لا يقبل الشك بأن النجوم، والشمس، والقمر، تؤثر كلها فيما يقع على الأرض من أحداث، ولكن الدجالين أقاموا على هذه الأسس صرحاً عجباً من السحر، والتنبؤ بالغيب والتمايم والرقى المستمدة من أسماء الكواكب. وكان استطلاع الأبراج السماوية لمعرفة مستقبل الناس أكثر انتشاراً في مدائن العصور الوسطى منه في نيويورك أو باريس في هذه الأيام. وشاهد ذلك أن القديس أوغسطين يحدثنا عن صديقين كانا يرصدان بعناية مواقع النجوم وقت مولد حيواناتها المستأنسة(20). ولقد كان المثير مما عند العرب من سخافات في التحجيم والكيمياء الكاذبة مما ورثه المسلمون عن اليونان الأقدمين.

وكانت أطرف شخصية في علوم ذلك العصر هي شخصية هيياشيا الفيلسوفة والعالمة الرياضية، وكان والدها ثيون Theon هو آخر من سجلت أسماؤهم في سجل أساتذة متحف الإسكندرية. وقد كتب شرحاً لكتاب Syntaxis لبطليموس أقر فيه لما كان لابنته من نصيب في تأليفه. ويقول سويداس إن هيياشيا كتبت شروحات لكتاب القوانين الفلكية لبطليموس، وكتاب المخروطات لأبلونيوس البرجي(21)، ولكن مؤلفاتها كلها لم يبق منها شيء.

صفحة رقم : 4367

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

ثم انتقلت من الرياضيات إلى الفلسفة، وسلكت في بحوثها على هدى أفلاطون وأفلوطين، و "بزت جميع فلاسفة زمانها" (على حد قول سقراط المؤرخ المسيحي)(22). ولما عينت أستاذة للفلسفة في متحف الإسكندرية هرع لسماع محاضراتها عدد كبير من الناس من شتى الأقطار النائية. وهام بعض الطلاب بحبها، ولكن يبدو أنها لم تتزوج قط. ويحاول سوداس أن يقنعنا بأنها تزوجت، وبأنها رغم زواجها بقيت عذراء طول حياتها(23). وينقل لنا هو نفسه قصة أخرى، لعل أعداءها هم مخترعوها مضمونها أن شاباً ضايقها بإلحاحه حتى عيل صيرها فما كان منها إلا أن رفعت ثيابها وقالت له: "إن الذي تحبه هو الذي يرمز إلى التناسل القدر وليس هو شيئاً جميلاً قط"(24). وقد بلغ من حبها للفلسفة من أنها كانت تقف في الشوارع وتشرح لكل من يسألها النقط الصعبة في كتب أفلاطون أو أرسطو، ويقول سقراط المؤلف إنه "قد بلغ من رباطة جأشها ودمائة أخلاقها الناشئتين من عقلها المهذب المثقف أن كانت في كثير من الأحيان تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد وهي في حضرة الرجال مسلكتها المتواضع المهيب الذي امتازت به عن غيرها، والذي أكسبها احترام الناس جميعاً وإعجابهم بها".

لكن هذا الإعجاب لم يكن في واقع الأمر يشمل الناس جميعاً، فما من شك في أن مسيحي الإسكندرية كانوا ينظرون إليها شزراً، لأنها لم تكن كافرة فاتنة فحسب، بل كانت إلى ذلك صديقة وفية لأرسنيز Arestes حاكم المدينة الوثني. ولما أن، حرض سيريل Cyril كبير الأساقفة -أتباعه الرهبان على طرد اليهود من الإسكندرية أرسل أرسنيز إلى ثيودوسيوس الثاني تقريراً عن الحادث بعيداً عن النزاهة بعداً استاء منه كبير الأساقفة ورجاله أشد الاستياء. وقذف بعض الرهبان الحاكم بالحجارة، فأمر بالقبض على زعيم الفتنة وتعذيبه حتى مات (415). وأتهم أنصار سيريل هيياشيا بأنها صاحبة السلطان الأكبر على أرسنيز، وقالوا إنها هي

صفحة رقم : 4368

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

وحدها التي تحول دون الاتفاق بين الحاكم والبطريق. وفي ذات يوم هجم عليها جماعة من المتعصبين يتزعمهم "قارئ" أي كاتب صغير من موظفي سيريل، وأنزلوها من عربتها، وجروها إلى إحدى الكنائس، وجردوها من ملابسها، وأخذوا يرمونها بقطع القرميد حتى قضا على حياتها، ثم قطعوا جسماً إرباً، ودفنوا ما بقي منها في مرح وحشي شنيع (415)(25). ولم يعاقب أحد من المجرمين واكتفى الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني بأن قيد حرية الرهبان في الظهور أمام الجماهير، (سبتمبر عام 416). وبذلك كان انتصار سيريل انتصاراً كاملاً. ورحل أساتذة الفلسفة الوثنيون بعد موت هيباشيا إلى أثينة لبتقوا فيها الأذى، وكان التعليم غير المسيحي لا يزال حراً نسبياً ولا يزال معلموه آمن على أنفسهم من غيرهم في المدن الأخرى. وكانت حياة الطلاب فيها لا تزال نشيطة يسودها معظم ما يسود الحياة العلمية الراقية من ضروب السلوى -من تأخ بين الطلاب، وأثواب تميزهم من غيرهم، وعقاب يفرض عليهم في صورة عمل إضافي، ومرح عام وبهجة(27). وكانت المدرستان الرواقية والأبيقورية قد اختفتا من المدينة، ولكن المجمع العلمي الأفلاطوني كان يتدهور ذلك التدهور الرائع الذي آل إليه أمره في عهد ثمستئوس وبرسكوس Priscus وبركلو Proclus. وكان لثمستئوس (حوالي 380) بما كتبه من شروح على كتب أرسطو أثر كبير في ابن رشد وغيره من زعماء الفكر في العصور الوسطى. وكان برسكوس في فترة من الزمن صديق يوليان ومشيره، وقد قبض عليه فالنز وفلنتيان الأول واتهماه باستخدام السحر لكي تصيبهما الحمى، ثم عاد بعد ذلك إلى أثينة وظل يعلم فيها حتى توفي عام 395 وهو في سن التسعين. واتخذ بركلوس (410-485) الرياضيات طريقاً إلى الفلسفة كما يفعل الأفلاطونيون الحقيقيون. وكان هذا الفيلسوف رجل صبر وجلد، فرتب آراء الفلسفة اليونانية كلها في نظام واحد،

صفحة رقم : 4369

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

وخلع عليها صورة علمية سطحية. ولكنه إلى هذا كان يتصف أيضاً بشيء من المزاج الصوفي للفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وكان يظن أن في وسع الإنسان بفضل صومه وتطهير نفسه أن يكون على صلة بالكائنات غير البشرية(28). وكانت مدارس أثينة قد فقدت حيويتها بعد أن أغلقها جستنيان في عام 529، واقتصرت عملها على ترديد نظريات المعلمين الأقدمين وإعادتها مراراً وتكراراً، وكان التراث العظيم الذي آل إليها قد أثقلها حتى كاد يقضي عليها، ولم تخرج عنه إلا إلى نزعة تصوفية تستعير مادتها من المذاهب المسيحية البعيدة عن الدين الأصيل. ثم أغلق جستنيان مدارس علماء البلاغة كما أغلق مدارس الفلاسفة، وصادر أملاكها وحرم الاشتغال بالتعليم على جميع الوثنيين، وبذلك انقضى عهد الفلسفة اليونانية بعد حياة دامت أحد عشر قرناً من الزمان. ويبدو الانتقال من الفلسفة إلى الدين، ومن أفلاطون إلى المسيح، واضحاً جلياً في بعض الكتابات اليونانية العجيبة التي يعزوها مفكرو العصور الوسطى عن ثقة ويقين إلى ديونيسيوس الأريوباجي Dionysius the Areopagite، وهو رجل من أهل أثينة اعتنق تعاليم بولس. وأهم مؤلفات هذا الكاتب أربعة هي: في السلطة الكهنوتية السماوية، وفي السلطة الإكليريكية، وفي الأسماء القدسية، وفي اللاهوت الصوفي.

ولسنا نعرف من هو ديونيسيوس صاحب هذه المؤلفات، ولا متى ألفت أو أين ألفت وتدل محتوياتها على أنها كتبت بين القرنين الرابع والسابع، وكل الذي نعرفه أنه قلما كان لغيرها من الكتب مالها من اثر عميق في علم اللاهوت المسيحي. وقد ترجم يوحنا اسكوتوس أرجينا John Scotus Erigena واحداً منها وبنى عليها تعاليمه. وكان ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus وتوماس أكويناس يجالنها، وكان

صفحة رقم : 4370

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> العلم والفلسفة

مائة من المتصوفة اليهود، والمسلمين، والمسيحيين على السواء يستمدون آراءهم منها، وكان فنانو العصور الوسطى ورجال الدين الشعبيون يتخذونها مرشداً هادياً معصوماً من الزلل يصل بها الكائنات العليا وطبقات الصديقين الأبرار. وكان غرضها العام أن تجمع بين الأفلاطونية الحديثة وعلوم الكون المسيحية. ومن تعاليمها : أن الله موجود في جميع الكائنات، وأنه مصدر حياتها جميعاً، وإن كان جلاله فوق مدارك العقل، وأن بين الله والبشر ثلاث طبقات ثلاثية من الكائنات غير البشرية هي : السيرافيم، والشيروبيم، وحملة العرش، والقوى المسيطرة، والفضائل، والسلطات، ثم الملائكة العليا وكبار الملائكة، والملائكة (وليذكر القارئ كيف رتب دانتى هذه الطوائف التسع حول عرش الله، وكيف جمع ملتن بعض أسمائها في بيت له طنان رنان). وتقول هذه الكتب إن الخلق هو عملية انبعاث: أي أن الأشياء جميعها تنبعث من الله عن طريق تلك الطبقات من الملائكة، ثم تنعكس الآية فتقود هذه الطبقات التسع من الهيئة السماوية العليا بني الإنسان وجميع المخلوقات وتعود بهم إلى الله.

صفحة رقم : 4371

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الأدب

الفصل الثالث

الأدب

أعاد ثيودوسيوس الثاني، والناثيون عنه في عام 425 تنظيم التعليم العالي في القسطنطينية وقرروا رسمياً إنشاء جامعة مؤلفة من واحد وثلاثين مدرساً، منهم واحد للفلسفة، واثنان للقانون، وثمانية وعشرون "لنحو" اللغة اليونانية واللاتينية وبلاغتها. وكان العلماء الأخيران يشملان دراسة آداب اللغتين، وتوحي كثرة عدد المدرسين المخصصين لهذه الآداب بما كان يوجه إلى الآداب من عناية كبيرة. وقد وضع أحد أولئك الأساتذة واسمه برسكيان Priscian حوالي عام 526 كتاباً ضخماً في نحو اللغتين اللاتينية واليونانية أصبح من أهم الكتب الدراسية في العصور الوسطى. ويبدو أن الكنيسة الشرقية لم تكن تعترض وقتئذ على نسخ الآداب الوثنية (29). وقد ظلت مدرسة القسطنطينية، حتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية، تنقل بأمانة روائع الأدب القديم رغم احتجاج عدد قليل من القديسين. وحوالي عام 450 أنشأ موسايوس Musaeus، وهو رجل لا يُعرف موطنه الأصلي، قصيدته الذائعة الصيت، هيرو و ليندر Hero & Leander، ذكر فيها كيف حاول ليندر كما حاول بيرن Byron، من بعده أن، يعبر مضيق الهلسبنت سباحة لكي يصل إلى حبيبته هيرو، وكيف غرق أثناء هذه المحاولة، وكيف أبصرته هيرو يقذف به الموج ميتاً أسفل برجها "فألفت بنفسها من فوق الصخرة الوعرة الشامخة تطلب لنفسها مع حبيبها الميت حدثاً لها بين الأمواج" (30). وكان المسيحيون المهذبون من رجال الحاشية البيزنطية هم الذين وضعوا آخر ما تحتويه السجلات اليونانية القديمة من قصائد غزلية جميلة، كتبت بالأوزان

صفحة رقم : 4372

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الأدب

والروح القديمة وبعبارات تشير إلى الآلهة الوثنية. وها هي ذي أغنية منقولة عن أجاثياس Agasthias (حوالي 550) لعلها قد أعانت بن جنسن Ben Jonson على كتابة إحدى روائع مسرحياته :
"لا أحب الخمر، ولكن إن شئت أن تبلى بالفرح أحزان رجل حزين فارتشفي منها الرشفة الأولى، ثم قدمي لي الكأس أتناولها من يدك. فإذا مستها شفتاك فلن أبقى بعدئذ صابراً جاسياً أتجنب الكأس الحلوة، لأنها تحمل إلى قبلك وتحدثني عما نالته من الابتهاج بك".

وأهم ما كتب من أدب ذلك العصر هو ما كتبه المؤرخون. فقد كتب أونتيبوس السرديسي Eunapius of Sardis تاريخاً عاماً لذلك العصر من عام 270 إلى 400 جعل بطله جستينيان، وترجم لثلاث وعشرين من السوفسطائيين ورجال الأفلاطونية الحديثة ترجمة لا تخرج عما كان يدور على الألسنة من سيرهم. وقد ضاع هذا الكتاب ولم يبق له أثر. وكتب سقراط، وهو مسيحي من أهل القسطنطينية ومن أتباع الدين الرسمي فيها، تاريخ الكنيسة من عام 309 إلى 439 وهو كتاب دقيق نزره إلى حد كبير منا يدلنا على ذلك ما كتبه عن هيياشيا. ولكن المؤلف يحشو قصته بالخرافات والأقاصيص والمعجزات ويتحدث كثيراً عن نفسه كأنه يصعب عليه أن يفرق بين نفسه وبين العالم الذي يكتب عنه. ويخت كتابه بحجة طريفة يدعو بها إلى قيام السلام بين الشيع المختلفة، فيقول إنه إذا ساد السلام فلم يجد المؤرخون حسب ظنه شيئاً يكتبون عنه، فتتقرض لهذا السنن تلك الطائفة من الآسي (32). ومن الكتب الأخرى التي ألفت في ذلك العصر كتاب التاريخ الكنسي Ecclesiastical History لسوزومن Sozomen ومعظمه منقول من سقراط. وكان سوزمن هذا رجلاً فلسطينياً اعتنق الدين المسيحي، وكان كمن نقل عنه محامياً في العاصمة. ويبدو أن دراسة القانون لم تحل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الأدب

بينه وبين الإيمان بالخرافات. وألف سوزموس Sozimus القسطنطيني حوالي عام 475 كتاباً في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. وكان سوزموس هذا رجلاً وثيقاً، ولكنه لم يخضع لما خضع له منافسوه المسيحيون من الأوهام والسخافات. وأشار ديونيسيوس إجزجيوس Dionysis Exiguus -أوديس القصير- حوالي عام 525 بإتباع طريقة جديدة في تأريخ الحوادث تبدأ من السنة التي قيل إن المسيح ولد فيها. غير أن الكنيسة اللاتينية لم تقبل هذه الطريقة إلا في القرن العاشر، وظل البيزنطيون إلى آخر أيام دولتهم يؤرخون سنيهم من بدء خلق الدنيا. ألا ما أكثر الأشياء التي كانت معروفة في بواكير حضارتنا والتي خفيت عنا نحن في هذه الأيام!

وكان بروكبيوس هو المؤرخ العظيم الوحيد في هذا العهد. وقد ولد هذا الكاتب في قيصرية من أعمال فلسطين (490)، ودرس القانون، ثم انتقل إلى القسطنطينية وعين أميناً ومستشاراً لبليساوريوس. وصحب ذلك القائد في حروبه في سوريا، وأفريقية، وإيطاليا، ثم عاد معه إلى العاصمة. ونشر في عام 550 كتب الحروب. وإذا كان قد عرف من صلته بالقائد والإمبراطور عظمة أول الرجلين، وبخل ثانيهما، فقد خلع عن بليساوريوس ثوب البطولة البراق وترك جستنيان منزوياً في الظلام. وقابل الجمهور كتابه أحسن قبول، وسكت عنه الإمبراطور. وكتب بروكبيوس بعدئذ كتابه المعروف باسم الأنكدونا أو التاريخ السري، ولكنه أفلح في أن يبقيه دون أن ينشره أو يذيع ما فيه حتى طلب إليه جستنيان في عام 455 أن يكتب شيئاً عن الأبنية التي أنشئت أثناء حكمه. فأصدر بروكبيوس في عام 560 كتابه المسمى "De Aedificis". وأسرف فيه في الثناء على الإمبراطور إسرافاً يحملنا على الضن بأن الإمبراطور قد شك في إخلاصه أو حسبه يسخر منه، ولم ينشر التاريخ السري إلا بعد وفاة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الأدب

جستنيان - وربما بعد وفاة بروكبيوس نفسه أيضاً. وهو كتاب شيق ممتع يحتوي على فضائح شبيهة بما تكتب عن جيراننا، وإن كان التشنيع الأدبي على من لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمراً غير مستحب، وإن كان كل مؤرخ يجهد نفسه في إثبات بحث من البحوث لا يسعه إلا أن يمسح الحقائق.

ولا تخلو كتب بروكبيوس من أخطاء في الأمور البعيدة عن تجاربه. فقد كان في الأحيان ينقل ما كتبه هيرودوت عن أخلاق معاصريه وفلسفتهم، وفي البعض الآخر ينقل خطب توكيديز وحصار المدن في أيامه، وكان يشارك أبناء عصره في خرافاتهم، وسود صحف كتبه بأخبار النذر، والتنبؤات، والمعجزات، والأحلام. أما حين يكتب عما يشاهده فقد أثبتت الأيام صدقه. وكان شجاعاً فيما أقدم عليه من عمل عظيم، منطقياً في ترتيب مادته، يستحوذ على لب القارئ

وانتباهه في قصصه، ولغته اليونانية واضحة خالية من الالتواء والتعقيد، وهي فصيحة لا تكاد في فصاحتها عن لغة اليونان الأقدمين.

وبعد فهل كان بوكيبوس مسيحياً؟ فأما في الظاهر فنعم، غير أننا نراه يردد أداء من ينسج منوالهم، كما ننتبين في كتاباته جبرية الرواقية، وتشكك الأكاديمية. وهو يتحدث عن "طبيعة الحظ المعوجة المتمردة وإرادته التي لا ضابط لها. واعتقادي أن هذه أشياء لم يدركها عقل الإنسان في الماضي ولن يدركها قط في المستقبل. ومع هذا فالناس لا ينفكون يتحدثون كثيراً عن هذه الموضوعات ولا ينقطعون عن تبادل الآراء فيها... لأن كل واحد منها يبحث عما يدرى به جهله... ولهذا سأكون حصيف الرأي فألزم الصمت في مثل هذه الموضوعات، وكل ما أبغيه من هذا ألا أزعزع إيمان الناس بما يجلونه من العقائد القديمة" (33).

صفحة رقم : 4375

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الانتقال من الوثنية

الفصل الرابع

الفن البيزنطي

565-326

1- الانتقال من الوثنية

كانت أعظم مآثر الحضارة البيزنطية هي الإدارة الحكومية وفن الزخرفة : فقد أقاموا دولة دامت أحد عشر قرناً من الزمان، وأنشئوا أياصوفيا القائمة في هذه الأيام. وكان الفن الوثني قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبيل عهد جستنيان، وكان نصف ما خلفه من الآثار قد شوه أو هدم. فقد بدأ تخريب البرابرة، وانتهاء الأباطرة، وتدمير الأتقياء ورجال الدين، بدأ عمل هؤلاء وهؤلاء عهداً من الإتلاف المتعمد والإهمال دام حتى قام بترارك في القرن الرابع عشر يدافع عما بقى منه في أيامه. وكان من العوامل التي زادت أعمال التخريب اعتقاد الجماهير أن الآلهة الوثنية شياطين، وأن الهياكل مأواها. وأياً كانت عقيدة ذلك الوقت فقد كانوا

يشعرون أن مواد هذه الآثار الفنية يمكن أن ينتفع بها على خير وجه في تشييد الكنائس المسيحية أو أسوار المنازل، وكثيراً ما كان الوثنيون أنفسهم يشاركون المسيحيين في أعمال التدمير. وقد بادل بعض الأباطرة، وخاصة هونوريوس وثيودوسيوس الثاني، كل ما في وسعهم لحماية المنشآت القديمة (34)، وأبقى المستتبون من رجال الدين على البارثون، وهيكلثيوس، والبارثينون، وغيرها من الصروح بأن أعادوا تدشينها بوصفها أضرحة مسيحية. وكانت المسيحية في بادئ الأمر ترتاب في الفن وتراه عماداً للوثنية، وعبادة

صفحة رقم : 4376

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الانتقال من الوثنية

الأصنام، وفساد الأخلاق، وترى أن هذه التماثيل العارية لا تتفق مع ما يجب أن تحاط به البكورة والعزوبة من إجلال. ولما خيل إلى الناس أن الجسم أداة الشيطان، وأصبح الراهب مثل الرجولة الأعلى بدل الرجل الرياضي، اختفت من الفن دراسة التشريح، ولم يبق في فني النحت والتصوير إلا وجوه كنيسية وثياب لا شكل لها. فلما انتصرت المسيحية على الوثنية واحتاجت إلى صروح ضخمة تأوي عبادها المترابدين، أخذت تقاليد الفن المحلية والقومية تثبت وجودها مرة أخرى، وارتفع فن البناء فوق الأنقاض. يضاف إلى هذا أن تلك الصروح الرحبة كانت تلح في طلب الزخرفة والزينة، وكان العابدون في حاجة إلى تماثيل للمسيح ومريم يقوى بها خيالهم، وإلى صور تحدث السذج الأميين عن قصة إلههم المصلوب. وهكذا ولدت فنون النحت والفسيفساء والتصوير من جديد. ولم يكن الفن الجديد في روما إلا اختلافاً قليلاً عن الفن القديم. فقد انتقلت من الوثني إلى المسيحية متانة البناء، وبساطة الشكل، وطرز الباسلقا المعمدة. ومثال ذلك أن مهندسي قسطنطين خططوا كنيسة القديس بطرس الأولى بالقرب من ساحة الألعاب الحيوانية التي أنشأها نيرون على تل الفاتيكان، وجعلوا طولها 380 قدماً وعضها 212. وقد ظلت هذه الكنيسة مدى اثني عشر قرناً أعظم كنائس المسيحية اللاتينية حتى هدمها برامنتي ليقوم في مكانها كنيسة أكبر منها هي كنيسة القديس بطرس الحالية. وأعاد فلنتيان الثاني وثيودوسيوس الأول بناء الكنيسة التي أقامها قسطنطين "للقديس بولس خارج الأسوار San Paolo fuori le mura" في المكان الذي قيل إن الرسول استشهد فيه. وهذه الكنيسة أقل أتساعاً من كنيسة القديس بطرس، فقد كان طولها أربعمئة قدم وعرضها مائتين. ولا تزال كنيسة القديس فنسطنزا Santa Constanza التي أقامها

صفحة رقم : 4377

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الانتقال من الوثنية

قسطنطين ضريحاً لأخته قسطنطيا في معظم أجزائها بالصورة التي كانت عليها وقت بنائها في 326-330، وأعيد بناء كنائس سان جيوفني San Geovanni في لترانا Latrana وسانتا ماريا في ترستيفري Trastevere "وسان لورنزو خارج الأسوار" في خلال قرن بعد أن بدأها قسطنطين، وأعيد بناؤها مراراً كثيرة من ذلك الحين. وأنشئت كنيسة سانتا ماريا ماجيوري Santa Maria Maggiore في عام 432 على غرار أحد الهياكل الوثنية. ولا يزال صحنها في جوهره كما كان منذ إنشائها إذا استثنينا ما حلّى به من النقوش في أيام النهضة. ولا يزال طراز الباسلغا من ذلك الوقت حيي الآن الطراز المحبب في الكنائس المسيحية؛ ذلك بأن اعتدال نفقاته وجلال بساطته، وتناسق بنائه، وعظيم متانته قد جعلته محبباً إلى الناس في جميع الأجيال. وتناسق لم يتقبل في يسر إدخاله عليه من التطور والتغيير، ولهذا بدأ البنّاءون الأوربيون يتلفتون حولهم ليجتثوا عن آراء هندسية جديدة حتى وجدوها في بلاد الشرق، بل وجدوها أيضاً في اسبالاتو Spalato المركز الأدرباوي الأمامي لبلاد الشرق. ففي هذا المكان القائم على ساحل دلماشيا أطلق دقلديانوس كامل الحرية لفنانيه، وعهد إليهم أن يجربوا كافة الوسائل التي تمكنهم من أن يقيموا له قصرأ يلجأ إليه إذا أراد الاستجمام من عناء الحكم؛ وفيه أحدث أولئك الفنانون انقلاباً كبيراً في العمارة الأوربية. ففيه كانت الأقواس ترفع مباشرة من تيجان الأعمدة، وليس بينها وبين تلك التيجان عوارض؛ وهكذا مهدت السبيل بخطوة إلى الطرز البيزنطية، والرومانية، والقوطية. وفي هذا القصر أيضاً استبدلت بالأفاريز ذات الصور والتمائيل زخرفة عجيبة من الخطوط المتعرجة، التي تتفر منها عيون الأقدمين والتي ألفها الشرق من زمن بعيد. وبذلك كانت اسبالاتو هي النذير الأول بأن

صفحة رقم : 4378

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الانتقال من الوثنية

أوروبا لم يغلبها على أمرها دين شرقي فحسب، بل سيغلبها كذلك فن شرقي إن لم يكن في جميع أنحاءها ففي العالم البيزنطي على الأقل.

صفحة رقم : 4379

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنانون البيزنطيون

2- الفنانون البيزنطيون

نرى من أين جاء إلى القسطنطينية ذلك الفن ذو اللون الفذ، البراق المقبض الذي نسميه الفن البيزنطي؟ ذلك السؤال ثار فيه الجدل بين علماء الآثار بقوة لا تكاد تنقص عن قوة الجنود المسيحيين في حروبهم، وكان النصر النهائي في هذه المعركة الكبرى لبلاد الشرق. وتفصيل ذلك أنه حين قويت سوريا وآسية الصغرى بفضل ما حدث فيهما من تقدم صناعي، وحين ضعفت روما بسبب الغزو الأجنبي، ارتد التيار الهلنستي الذي اندفع نحو الشرق إثر فتوح الإسكندر من آسية إلى أوروبا، وتلاقت في بيزنطية مؤثرات الفن الشرقي المنصبة من فارس الساسانية، وسوريا النسطورية، ومصر القبطية. ووصلت هذه المؤثرات إلى إيطاليا، بل تعدتها إلى غالة، وتخلت الفن اليوناني الممثل للطبيعة عن مكانه إلى الفن الشرقي ذو الزخارف الرمزية. وكان الشرق يفضل الألوان عن الخطوط والأقواس والقباب عن السقف الخشبي. والزينة الكثيرة عن البساطة الصارمة، والأثواب الحريرية الفخمة عن الجبة التي لا شكل لها. وكما أن دقلديانوس وقسطنطين قد اتخذا في نظم الحكم أشكال الملكية الفارسية، فكذلك شرع فن القسطنطينية يعض النظر شيئاً فشيئاً عن الغرب الذي ألقى الآن بنفسه في أحضان البربرية، وأخذ يرنو ببصره إلى آسية الصغرى وأرمينية، وفارس، وسوريا، ومصر. ولعل انتصار جيوش الفرس في عهد شاپور الثاني وكسرى أنوشروان قد عجل خطوات البواعث والأساليب الشرقية. وكانت الرها ونصيبين في ذلك الوقت مركزين مزدهرين من مراكز ثقافة ما بين النهرين، وهي الثقافة التي

صفحة رقم : 4380

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنانون البيزنطيون

مزجت العناصر الإيرانية، والأرمنية، والكبدوكية والسورية(35)، ونقلها التجار، والرهبان، والفنانون إلى إنطاكية، والإسكندرية، وإفسوس، والقسطنطينية، ثم نقلوها أخيراً إلى رافنا وروما، فكادت النظم اليونانية والرومانية القديمة تفقد قيمتها في هذا العالم المعماري الجديد، عالم العقود والأقواس، والقباب. ولما اتخذ الفن البيزنطي هذه الصورة الجديدة عمل على نشر العقائد المسيحية وإظهار مجد الدولة. فأخذ يقص على الثياب والقماش المزركش، وفي نقوش الفسيفساء ورسوم الجدران، حياة المسيح وأحزان مريم، وأعمال الرسل والشهداء الذين تضم الكنائس عظامهم؛ أو دخل بلاط الأباطرة، وزين قصر الإمبراطور، وغطى ملابس الموظفين بصورة رمزية أو رسوم تاريخية وخطف أبصار رعاياه بالملابس الزاهية الكثيرة الألوان، وانتهى أمره بأن صورة المسيح ومريم في صورتي إمبراطور وملكة. ذلك أن الفن البيزنطي لم يكن له كثير من المؤيدين يختار من بينهم من ينصره، ولهذا لم يكن له مجال واسع يختار منه موضوعاته وطرازه، فكان الإمبراطور أو البطريرك هو الذي يحدد له ما يعمل ويبين له طريق العمل، وكان الفنانون يعملون جماعات، ولهذا قلما يذكر التاريخ أسماء فنانيين أفراداً، ولكنهم أتوا بالمعجزات في بهاء الألوان؛ وكان الفنان يرفع من شأن الناس أو يحط من قدرهم بمستحدثاته الرائعة؛ ولكن هذه المنزلة اقتضته استمسكاً بالأشكال والأنماط المتبعة، وضيقت في المجال، وجموداً في خدمة ملك مطلق التصرف ودين لا يقبل التغيير.

وكان تحت تصرفه مواد كثيرة يستخدمها في عمله، كانت لديه محاجر الرخام في بروكنسوس Procnnesus، وأتكا، وإيطاليا؛ وكانت لديه عمد وتيجان ينتهبها من كل هيكل وثني قائم، وكان لديه الأجر يكاد ينمو كالنبات في الأرض التي تجففها الشمس. وكان أكثر ما يعمل فيه الأجر المثبت بالملاط؛ ذلك أنه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنانون البيزنطيون

كان يسهل استخدامه في الأشكال المنحنية التي فرضتها عليه الأنماط الشرقية. وكثيراً ما كان يقنع بالشكل الصليبي - شكل الباسلغا ذات الجناحين التي تستطيع حتى تنتهي بقاء. وكان في بعض الأحيان يقطع الباسلغا فيجعلها مئمة الجوانب كما فعل في كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس في القسطنطينية، أو في كنيسة فينالي في رافانا. ولكن الطراز الذي برع فيه وبز فيه جميع الفنانين الذين سبقوه أو جاءوا بعده هو القبة المستديرة المقامة على هيكل كثير الأضلاع. وكانت الطريقة التي اتبعها للوصول إلى هذه الغاية هي إنشاء قوس أو نصف دائرة من الأجر فوق كل ضلع من أضلاع السطح المتعدد الزوايا والأضلاع، ثم إقامة مثلث دائري من الأجر متجه إلى أعلى وإلى الداخل بين كل نصف دائرة، ثم بناء قبة فوق الحلقة المستديرة الناشئة من هذا كله. وكانت المثلثات الدائرية تبدو متدلّية من حافة القبة إلى قمة المصّلع، وبهذا ربت الدائرة من الوجهة المعمارية، وبعد هذا كاد طراز الباسلغا أن يختفي من الشرق. وقد أفاء البتاء البيزنطي على هذا البناء من الداخل ما أسعفته به عشرات الفنون المختلفة. ولما كان يستخدم التماثل لهذا الغرض، ذلك أنه لم يكن يريد أن يصور رجالاً ونساء، بل كان يعمل لخلق جمال مجرد من الصور الرمزية. ولكن المثاليين البيزنطيين كانوا رغم هذا القيد عمالاً يمتازون بالكفاية والصبر وسعة الحيلة. وقد نحتوا التاج "الثيودوسي" للعمد بأن جمعوا بين "أذان" النمط الأيوني، وأوراق النمط الكورنثي، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا هذه الوفرة من الطرز أشمل وأعم، فحفروا على هذا التاج المركب أجمة من النبات والحيوان. وإذا كانت نتيجة هذا لا تتناسب مع الجدران أو الأقواس فقد وضعوا بينها وبين التاج عصابة مربعة وعريضة من أعلاها، ومستطيلة وضيقة نوعاً عند قاعدتها، ثم حفروا على توالي الأيام أزهاراً على هذه العصابات نفسها. وهنا أيضاً كانت الغلبة للفرس على اليونان، كما للأوليين في مربع القمة. ثم طلب إلى

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنانون البيزنطيون

المصورين أن يزينوا الجدران بصور نثبت عقيدة الناس أو ترهبهم؛ ووضع عمال الفسيفساء مكعباتهم المتخذة من الحجر أو الزجاج الملون البراق فوق أرضية زرقاء أو ذهبية، وزينت الأرض والجدران، أو مذابح الكنائس، أو ما بين العقود، أو أي جزء من البناء لا تطبق عين الشرقي أن تراه خالياً من الزخرف. وكان الصناع يزينون الملابس، والمذابح، والعمد، والجدران بالجواهر والأحجار الكريمة؛ وصناع المعادن يضعون فيها صفائح الذهب والفضة؛ وصناع الخشب ينقشون المنابر وأسوار المحاريب، والنساجون يعلقون الأنسجة المزخرفة على الجدران ويفرشون الأرض بالطنافس، ويغطون المذابح والمنابر بالأقمشة المطرزة وبالحرير. ولم يذكر التاريخ قبل ذلك العهد فناً أوتي ما أوتيته الفن البيزنطي من وفرة الألوان، ودقة الرموز، وغزاة الزينة؛ وقدرة على تهدئة الدهن وتنبية الروح.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> أيا صوفيا

3- أيا صوفيا

ولم تكن العناصر اليونانية والرومانية، والشرقية، والمسيحية قد أتمت امتزاجها ليكون منها الفن البيزنطي قبل عهد جستنيان. فلقد أتاحت له فتنة نيقا Nika، كما أتاح حريق روما لنبرون من قبل، فرصة بناء عاصمته من جديد. ذلك أن الغوغاء في لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا دار مجلس الشيوخ، وحمامات زيوكسبوس Zeuxippus وأروقة الأوغسطيوم، وجناحا من أجنحة القصر الإمبراطوري، وأياصوفيا كنيسة البطريق الكبرى، وكان في وسع جستنيان أن يعي بناء هذه كلها حسب تخطيطها القديم فلا يتطلب هذا منه أكثر من عام أو عامين. لكنه لم يفعل هذا وصمم على أن في بنائها مزيداً من الوقت والمال وأن يستخدم في هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال، وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من روما، وأن يقيم فيها كنيسة لا يدانيها صرح آخر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> أيا صوفيا

في العالم كله. وكانت بداية عمله أن وضع في ذلك الوقت منهجاً للأبنية أوسع وأعظم من أي منهج آخر وضع لها في التاريخ: وكان هذا المنهج يشمل حصوناً، وقصوراً وأديرة، وكنائس، وأروقة معقدة، وأبواباً أقيمت في جميع أنحاء الإمبراطورية. ففي القسطنطينية أعاد بناء مجلس الشيوخ من الرخام الأبيض، وشاد حمامات زيوكسبوس من الرخام المتعدد الألوان، وبنى رواقاً معمداً من الرخام، ومنتزهاً في الأوغسطيوم، ونقل الماء العذب إلى المدينة في قناة مبنية جديدة تضارع أحسن ما وجد من القنوات في إيطاليا. أما قصره فلم يكن يعلو عليه قصر آخر في البهاء والترف. فقد كانت أرضه وجدرانه من الرخام، وسُفَّه تقض بالفيسفساء البراقة ما ناله من النصر في أيام حكمه، وتصور الشيوخ في حفلاتهم يقدمون للإمبراطور مظاهر الإجلال والتعظيم التي "لا تكاد تقل عما يقدم منه لله" (36)، وبنى على الجانب الآخر من البسفور، بالقرب من خلقيدون مسكناً صيفياً لثيودورا وحاشيتها هو قصر هريون الذي كان له مرفؤه، وسوقه، وكنيسته وحماماته الخاصة به.

وبعد أربعين يوماً من خمود نار الفتنة نيقا بدأ يبني كنيسة أياصوفيا الجديدة. ولم يقمها إلى قديسة تحمل ذلك الاسم، بل أقامها إلى المقدسة صوفيا Hagia Sophia أو الحكمة المقدسة، أو العقل الخلاق، أو إلى الله نفسه. وأستدعى لهذا الغرض من ترابيس في أسية الصغرى، ومن ميليتس الأيونية، أنثميوس وأزدور أعظم المهندسين الأحياء، ليضعا رسوم البناء ويشرفا على تشييده. ولم يتبع المهندسان شكل الباسلغا التي جرت عليه التقاليد، بل وضعا للبناء تصميماً تكون صرته قبة واسعة لا ترتكز على جدران بل على أكتاف ضخمة، ونسدها نصفاً قبتين من كلا الجانبين. واستخدم في العمل عشرة آلاف عامل، وأنفق عليه 320.000 رطل من الذهب (134.000.000 دولار أمريكي) وهو كل ما كان في خزانة الدولة، وأمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقي من

صفحة رقم : 4385

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> أيا صوفيا

المخلفات القديمة، وحيئ بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار وصبت في النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب، والفضة، والعاج، والأحجار الكريمة. واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته، وكان له نصيب غير قليل (كما يقول المؤرخ المدهن الساخر) في حل ما يعترض العمل من المشاكل الفنية. فكان يتردد عليه في كل يوم وعليه ثياب بيض، وفي يده عصا طويلة، وعلى رأسه منديل، يشجع العمال ويحثهم على العمل ويتموه في مواعده المقرر. وتم بناء الصرح العظيم في خمس سنين وعشرة أشهر؛ وفي اليوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام 537 أقبل الإمبراطور والبطريق ميناوس يتقدمان موكباً مهيباً لافتتاح الكنيسة المتألثة الفخمة. وسار جستنيان بمفرده إلى المنبر ورفع يديه إلى السماء ونادى قائلاً: "المجد لله الذي رأني خليفاً بأن أتم هذا العمل! الجليل! أي سليمان! لقد انتصرت عليك!".

وقد خط البناء على شكل صليب يوناني طوله 250 قدماً وعرضه 225، وغطى كل طرف من أطرافه بقبة صغرى، وقامت القبة الوسطى على المربع (البالغ 100 قدم × 100) والمكون من الضلعين المتقاطعين، وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة قدم وثمانين قدماً. وقطرها مائة قدم - أي أقل من قطر قبة البنتيون في روما باثنتين وثلاثين قدماً. وكانت هذه القبة الثانية قد صبت من الأسمنت المسلح قطعة واحدة مصمتة، أما قبة أياصوفيا فقد بنيت من الآجر في ثلاثين سطحاً تلتقي كلها في نقطة واحدة. وهو طراز أضعف من الطراز الأول. وليست ميزة هذه القبة في حجمها بل في دعائمها: فهي لا تقوم على بناء دائري كما تقوم قبة البنتيون بل على أربطة من أعلاها، وعلى عقود

صفحة رقم : 4386

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> أيا صوفيا

بين حافاتها المستديرة وقاعدتها المربعة. ولم تحلّ هذه المشكلة المعمارية قبل ذلك الوقت حلاً أكثر توفيقاً من هذا. وقد وصف بروكبيوس القبة بأنها "عمل مجيد يبعث الروعة في النفوس... وهي لا تبدو قائمة على ما تحتها من البناء بل تبدو كأنها معلقة بسلسلة من الذهب في أبراج السماء" (37).
وأما من الداخل فكانت الكنيسة صورة رائعة من الزخرف البراق. فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر المتعدد الألوان: أبيض، وأخضر، وأحمر، وأصفر، وأرجواني، وذهبي. وأقيم منه كذلك طابقان من العميد يخيل إلى إليها أنها حديقة من الأزهار. وكانت تيجان العمد، والعقود وما بينهما، والأفاريز، والطنف مغطاة بنقوش على الحجارة مكونة من أوراق الأكنثوس والكرم. وكان يطل من الجدران والقباب فسيفساء لا مثيل لها في روعتها وسعتها. وكانت تزيينها أربعون مائة من الفضة معلقة من حافة القبة تضاف إلى ما فيها من النوافذ الكثيرة. وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها في نفسه أجنحتها الطويلة، وبنائها الرئيسي، والفضاء الخالي من العمد تحت القبة الوسطى، وما في حظارها الفضي المواجه للقباء من زخارف معدنية، والحظار المعدني الجميل الذي في الإيوان الأعلى، والمنبر المرصع بالعاج والفضة والحجارة الكريمة، وعرش البطريق المصنوع من الفضة المصمتة، والسجف المنسوجة من خيوط الحرير والفضة، والتي ترتفع فوق المذبح وعليها صورتا الإمبراطور والإمبراطورة تتلقيان بركات المسيح ومريم؛ والمذبح الذهبي اللون المصنوع من الرخام النادر الوجود وعليه الأواني المقدسة من الفضة والذهب - هو بعض ما في الكنيسة من زخرف وزينة- ليجل عن الوصف، ولو أن جستنيان قد تباهى به أباطرة المغول من بعده، وهو أنهم كانوا يبنون كما يبني الجبابرة، ويزينون مبانيهم كما يزينها الصباغ، لكان على حق في مباهاته.
وكانت أياصوفيا بداية الطراز المعماري البيزنطي وخاتمه في آن واحد.

صفحة رقم : 4387

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> أيا صوفيا

وكان الناس في كل مكان يسمونها "الكنيسة الكبرى" وحتى بروكبيوس المتشكك نفسه تحدّث عنها حديث الرجل المرتاح فقال: "إذا دخل الإنسان هذه الكنيسة للصلاة، أحس بأنها ليست من أعمال القوى البشرية... ذلك أن الروح ترقى إلى السماء تدرك أن الله هنا قريب منها؛ وأنه يبتهج بهذا اليوم، بيته المختار".

صفحة رقم : 4388

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> من القسطنطينية إلى رافنا

4- من القسطنطينية إلى رافنا

كانت أياصوفيا أجلّ ما قام به جستنيان من الأعمال، وكانت أبقى على الدهر من فتوحه أو قوانينه، ولكن بروكبيوس يصف أربعاً وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها في عاصمة ملكه. ويقول: "لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الإمبراطور لم يبْن كنيسة سواها بل قضى سني حكمه جميعها في بنائها وحده" (3). وظلت حمى البناء منتشرة في جميع أنحاء الإمبراطورية طوال حياة جستنيان، حتى كان القرن السادس وهو بداية العصور المظلمة في الغرب من أكثر العصور ازدهاراً في تاريخ العمارة في الشرق. فكانت ألف كنيسة في إفسوس، وإنطاكية، وغزة، وبيت المقدس، والإسكندرية، وسلانك، ورافنا، ورمة، والبلاد الممتدة من كرش في بلاد القرم إلى الصفاقس في شمالي أفريقيا، تحتفل بانتصار المسيحية على الوثنية، وبالطراز الشرقي-البيزنطي على الطراز اليوناني-الروماني. وحلت العقود والقباب محل الأعمدة الخارجية، والعوارض، والقواصر، والطنف. وازدهرت في سوريا

صفحة رقم : 4389

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> من القسطنطينية إلى رافنا

نهضة حقه في القرن الرابع، والخامس، والسادس؛ فكانت مدارسها القائمة في إنطاكية، وبيروت، ونصيبين، تخرج العدد الجم من الخطباء، والمحامين، والمؤرخين، والخارجين على الدين. وبرع صنّاعها في أعمال الفسيفساء، والنسيج، وجميع الفنون الزخرفية، وشاد مهندسوها مائة كنيسة زيناها مثلوها بما لا حصر له من النقوش البارزة. وكانت الإسكندرية المدينة الوحيدة في الإمبراطورية التي كان ازدهارها متصلاً لم ينقطع أبداً. ذلك أن مؤسسها قد اختار لها مكاناً يكاد يرغم عالم البحر المتوسط على استعمال مرافئها وزيادة تجارتها. ولم تبق الأيام على شيء مما أقيم فيها من عمائر في تاريخها القديم أو في أوائل العصور الوسطى، ولكن ما بقى من أعمالها في المعادن، والعاج، والخشب، والتصوير، متفرقاً في أماكن مختلفة يوحى بأن أهلها قد بزوا غيرهم في الشهوانية، والحمية الدينية. وكان الطراز الشرقي في عهد جستنيان هو الطراز الغالب في فن العمارة القبطي الذي بدأ بالبأسلفا الرومانية. وبدأ مجد رافنا المعماري بعد أن اتخذها هونوريوس عاصمة الإمبراطورية الغربية في عام 404 بزمان قليل. وعم الرخاء المدينة في الفترة الطويلة التي كانت فيها جلا بلاسيديا Galla Placidia نائبة عن الإمبراطور، وكانت صلتها الوثيقة بالقسطنطينية سبباً في قدوم الصنّاع الشرقيين، واختلاطهم بالمهندسين الإيطاليين: وفي دخول الأنماط الشرقية وامتزاجها بالأشكال الإيطالية. وظهر فيها الطراز الهندسي الشرقي المؤلف من قبة مقامة على قاعدة ذات شكل صليبي منذ عام 450 في الضريح الذي لقيت فيه بلاسيديا ربه؛ ولا يزال في وسعنا أن نرى فيه النقش الفسيفسائي الذائع الصيت الذي يمثل المسيح في صورة الراعي الصالح. وفي عام 458 أضاف الأسقف نيون Neon إلى مكان التعميد المقرب في باسلفا أرسيانا Basilica Ursiana سلسلة من قطع الفسيفساء من بينها صورة مفردة

صفحة رقم : 4390

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> من القسطنطينية إلى رافنا

لرسل. وساد ثيودريك حوالي عام 500 كنيسة كبرى سماها باسم القديس ابلينارس الذي يقال إنه مؤسس العشيرة المسيحية في رافنا. وهنا يظهر على الفسيفساء التي طبقت شهرتها أفاق العالم للقديسون ذوو الثياب البيض في وقارهم الشديد الذي يبنى ببداية الطراز البيزنطي.

وكان استيلاء بليساوريوس على ارفنا من الأسباب التي عجلت بانتصار الفن البيزنطي في إيطاليا. وسرعان ما تمت كنيسة سان فيتالي (San Vitale 547) في عهد جستنيان وثيودورا، اللذين وهباها المال اللازم لتزيينها، كما وهباها أيضاً وجهيهما غير الجذابين لينقشا على جدرانها. وما من شك في أن الإمبراطور قد أوتي حظاً كبيراً من الشجاعة إذ أجاز أن تنقل صورتها إلى الخلف. ومواقف أولئك الحكام، والقساوسة، والخصيان تنبئ كلها عن صلابة وحدة في الطباع، وفي مظهرهما الأمامي الجامد ليعد انقلاباً في الصور التي كنا نشهدها قبل عصور اليونان والرومان الأقدمين. وأثواب النساء كثيرة الزركشة تعلن انتصار نقوش الفسيفساء، ولكننا لا نجد هنا رشاقة مواكب البارثون للمرحاة والسعادة، أو نصب السلام لأغسطس أو ما نشاهده في الصور المنقوشة على أبواب شارترز وريمز من نبل ورقة.

وبعد عامين من افتتاح كنيسة سان فيتال افتتح أسقف رافنا كنيسة سانت ابلناري في كلاس Class وهي ثاني كنيسة أقيمت لهذا القديس راعي المدينة؛ وكان موضعها في ضاحيتها التي على شاطئ البحر، والتي كانت في وقت ما قاعدة الأسطول الروماني على البحر الأدرياتي. ونشاهد فيها التصميم الباسلي الروماني القديم، ولكن تيجان الأعمدة المختلطة الأشكال تظهر عليها مسحة بيزنطية تتم عنها أوراق الأفتنا الملفوفة الملتوية على خلاف ما كان يظهر في الأنماط اليونانية والرومانية القديمة، كأنما هبت عليها ريح شرقية. وإن ما في هذه الكنيسة من

صفحة رقم : 4391

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> من القسطنطينية إلى رافنا

صفوف الأعمدة الكاملة الطويلة، وفي حليات العقود والمثلثات المحصورة بينها من فسيفساء زاهية (من القرن السابع)، وما في موضع المرمنين من لوحات جميلة من المصيص، وما في الصليب القائم في القبا من الجواهر مرصعة بها أرضية من النجوم في الفسيفساء، إن في هذا كله ما يجعل هذه الكنيسة من أشهر كنائس شبه الجزيرة التي تكون كلها معرضاً عظيماً للفنون الجميلة.

صفحة رقم : 4392

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

5- الفنون البيزنطية

لقد كان فن العمارة أروع ما خلفه الفنان البيزنطي، ولكنه كان في ثنياه أو من حوله فنون أخرى كثيرة نبغ فيها نبوغاً خليقاً بالتتويه. نعم إنه لم يكن يعنى بالنحت المجسم، وأن مزاج العصر كان يفضل الألوان على الخطوط، ولكن بروكبيوس يثني على المثاليين في ذلك العصر، وأكبر الظن أنه يعني بهم أصحاب النقش البارز، ويقول إنهم لا يقولون مهارة عن فدياس وبركستليز، وإنما لنجد على بعض التوابيت الحجرية المصنوعة في القرن الرابع والخامس والسادس صوراً آدمية منحوتة تكاد تضارع الرشاقة الهلينية، مختلطة بها كثير من نقوش الزينة الآسيوية. وكان النقش على العاج من الفنون المحببة إلى البيزنطيين، وكانوا يصنعون منه ألواحاً ذات طينتين أو ثلاث طيات، ويجلدون به الكتب، ويصنعون منه العلب، وصناديق العطور، والتماثيل الصغيرة، ويطعمون به التحف ويزينون به ما لا يحصى من الأشياء. وقد بقيت الفنون الهلنستية في هذه الصناعة لم يمسه سوء، وكل ما حدث فيها أنها استبدلت المسيح والقديسين بالآلهة والأبطال. وإن الكرسي العاجي الذي كان يجلس عليه الأسقف مكسميان في الباسلغا أرسيا Basilica Ursiana (حوالي 550) ليعد تحفة عظيمة في فن من الفنون الصغرى. وبينما كان الشرق يجري التجارب على الرسم بالألوان الزيت(40)،

صفحة رقم : 4393

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

كان التصوير البيزنطي لا يزال مستمسكاً بالأساليب اليونانية التقليدية كنتثبيت ألوان الرسوم بالحرارة بحرق الألوان في سطوح الخشب، والخيش ونسيج التل؛ والمظلمات يصنعونها بخلط الألوان بالجير ووضعها على سطوح من الجبس المبلل، ومزج اللون بمحلول الماء والصبغ أو الغراء وبزلال البيض ثم وضعها على المربعات الخشبية أو على الجبس بعد أن يجف. وقد عرف الرسام البيزنطي كيف يمثل البعد والعمق، ولكنه كان يهرب عادة من صعاب المنظور بأن يملأ خلفية الصورة بالمباني والسجف. وقد أخرج عدداً كبيراً من اللوحات المصورة، ولكنها لم يبق منها إلا القليل. وكانت جدران الكنائس تزدان بالرسوم، وتدل القطع الباقية منها على الواقعية غير المتقنة كالأيدي العديمة الشكل، والأجسام الصغيرة، والوجوه الشاحبة. والشعر المصنف تصفيفاً غير معقول. وقد برع الفنان البيزنطي في الأشياء الدقيقة وأظهر فيها مرحة وظرفه. وليست روائع التصوير الباقية إلى هذا اليوم من أعماله هي رسوم الجدران أو اللوحات الكثيرة، بل هي الرسوم الصغرى ذات الألوان البراقة التي كان يزين بها ما ينشر من الكتب في عصره. ذلك أن الكتب كانت كثيرة النفقات في ذلك العصر، ولهذا كانت تحلى كما تحلى غيرها

من الأشياء النفيسة. وكان الفنان يبدأ عمله هذا برسم ما يريده من الحليات على البردي أو الرق أو الجلد بفرشاة دقيقة أو قلم، ثم يضع أرضية تكون عادة ذات لون ذهبي أو أزرق، ثم يضع ما يريده من الألوان، ثم يزين الأرضية والحواشي بأشكال رشيقة دقيقة. وكان في بادئ الأمر يقتصر على تحسين الحرف الأول من كل فصل أو صفحة؛ وكان يحاول في بعض الأحيان أن يرسم صورة للمؤلف، ثم انتقل بعدئذ إلى توضيح النصوص بالصور؛ فلما تقدم منه آخر الأمر كاد ينسى النص ويملاً الكتاب بالزخارف ويبينها على أساس هندسي أو رمزي ديني يكرر بأشكال مختلفة بخطها

صفحة رقم : 4394

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

الحصر، حتى تصبح الصفحة كلها وكأنها صورة واحدة بديعة من الألوان والخطوط كأن النص دخيل عليها من عالم أكثر منها خشونة.

وكانت زخرفة المخطوطات مألوفة في مصر أيام الفرعنة والبطالمة، ثم انتقلت منها إلى بلاد اليونان الهلنستية وروما. وتحفظ الفاتيكان بإنيادة، والمكتبة الأمبروزية في ميلان بإنيادة؛ تعزى كلتاها إلى القرن الرابع؛ وهما مزدانتان زينة يونانية ورومانية قديمة، ويبدو الانتقال من الزخرفة الوثنية إلى المسيحية واضحاً في الطبوغرافية المسيحية لصاحبها كزماس انديكلوستيز Cosmas Inalcplenstes (حوالي 547). وقد نال لقبه هذا "انديكلوستيز" لأنه سافر إلى الهند بحراً، كما نال شهرته لأنه حاول أن يثبت أن الأرض مستوية. وأقدم كتاب ديني مزخرف باق إلى هذا اليوم هو سفر التكوين المكتوب في القرن الخامس والمحفوظ الآن في مكتبة فينا. والنص مكتوب بحروف من الفضة والذهب على أربع وعشرين "ورقة" من الجلد الأرجواني الرقيق. ويحتوي على أربعة وعشرين زخرفاً بيضاء وخضراء، وبنفسجية، وحمراء، وسوداء، تصور قصة الإنسان من سقوط آدم حتى موت يعقوب. ولا يقل عنه جمالاً الملف الصغير لكتاب يوشع المحفوظ في الفاتيكان وكتاب الأنجيل الذي زخرفه الراهب رابولا Rabula في أرض الجزيرة في عام 586. ومن أرض الجزيرة وسوريا جاءت الصور والرموز التي كانت لها الغلبة في الكتابة التصويرية التي ذاعت في العالم البيزنطي. وقد تكررت هذه الكتابة في الفنون الصغرى واتخذت لها ألف شكل وشكل حتى ثبتت وأصبحت تقليداً وعرفاً متبعاً، وكان لها نصيب موفور في جمود الفن البيزنطي. وإذا كان المصور البيزنطي مولعاً بالتصوير البراق الدائم فقد اتخذ الفيسفساء وسيلته إلى هذين الفرصين. ومن أجل هذا اختار الأرض حجراته مربعات من

صفحة رقم : 4395

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

الرخام الملون كما يفعل المصريون واليونان والرومان من قبله أما السطوح الأخرى فكان يستخدم فيها مكعبات من الزجاج أو الميناء من جميع الألوان ومختلف الحجم، ولكن سطحها في العادة كان يبلغ 8\1 بوصة مربعة. وكانت الحجارة الثمينة تختلط أحياناً بالمكعبات، وكثيراً ما كانت الفسيفساء تستخدم في صنع الصور الصغيرة والنصمات التي توضع في الكنائس أو البيوت. أو تحمل في الأسفار عوناً لأصحابها على الزمن ودليلاً على النقي والخشوع. غير أن صانع الفسيفساء كان يفضل على هذه الصور الصغرى مجالاً أوسع هو جدران الكنائس والقصور. فكان في مرسمه يجرب وضع المكعبات على قطعة من الخيش عليها رسم ملون. وهنا كان يجهد عبقريته الفنية ليضع تحت يده الألوان المدرجة الذائبة بعضها في بعض كما يجب أن يراها الناظر من بعيد. وفي هذه الأثناء كانت طبقة من الأسمنت الغليظ، ثم طبقة أخرى من الأسمنت الرقيق توضعان على السطح المراد تغطيته. ثم يأتي صانع الفسيفساء ويضغط مكعباته في هذا القالب على غرار النموذج الذي وضعه لنفسه فوق الخيش، وقد جرت عادته على أن يضع حافاتها المقطوعة إلى الأمام لكي يقع عليها الضوء. وكان يفضل السطوح المنحنية كسطوح القباب، وأنصاف القباب الشبيهة بالأصداف لأنها تمتص في أوقات مختلفة بزواياها المختلفة أنواعاً عدة من الأضواء المطلية. ومن هذا الفن الشاق الذي يتطلب المهارة والجلد أهم الفن القوطي في مستقبل الأيام غير قليل من فن تلوين الزجاج. وقد ورد ذكر هذا الزجاج الملون في النصوص الباقية من لقرن الخامس ولكن شيئاً منه لم يبق حتى الآن، ويبدو أن صبغته كانت من خارجه لم تمزج فيه مزجاً (41). وكان صنع الزجاج بالنفخ وتقطيعه قد مضى عليهما الآن ألف عام

صفحة رقم : 4396

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

وكانت سوريا، أقدم مواطن الصناعيين، لا تزال مركزاً من مراكزهما. وكان فن الحفر على المعادن الثمينة والحجارة الكريمة قد انحط بعد أيام أورليوس؛ ولهذا نرى الجواهر، والنقود، والأختام البيزنطية غير دقيقة الشكل والصناعة. لكن الصناع مع هذا كانوا يبيعون منتجاتهم لكل طبقة من الطبقات تقريباً، لأن البيزنطيين كانوا مولعين أشد الولع بالحلي. وكانت محال صنع التحف الذهبية والفضية كثيرة العدد في العاصمة؛ كما كانت الحقائق والأقداح، وعلب المخلفات المصنوعة كلها من الذهب تزدان بها كثير من مذابح الكنائس؛ وكانت الصاف الفضية تغطي موائد ذوي اليسار.

وكان في كل بيت، بل يكاد يكون لدى كل شخص، شيء من النسيج الرقيق. وكانت لمصر الزعامة في هذا الميدان بما كان فيها من منسوجات رقيقة، متعددة الألوان، مزدانة بالصور، تصنع منها الثياب، والستر، وأغطية الفراش، وكان قبط مصر سادة هذه الميادين. وتكاد بعض الأقمشة المصرية التي كانت تزدان بها الجدران في تلك الأيام تضارع من الناحية الفنية أقمشة الجوبلين (42Goblines) كان النساجون البيزنطيون ينسجون الحرير المطرز، والثياب المطرزة، بل والأكفان المطرزة أيضاً فقد كانت المنسوجات التيلية تصور عليها بالفعل ملامح الموتى. وكان الناس في القسطنطينية يعرفون ما يلبسون من الثياب، ذلك أن كل طبقة من أهلها كانت تعتز بنوع خاص من الثياب يميزها من غيرها وتدافع عنه أقوى دفاع، وما من شك في أن أية جماعة بيزنطية كانت تبدو برأقة كذبل الطاوس. وكانت الموسيقى محببة لجميع الطبقات منتشرة بينها، وكان ذا شأن متزايد في طقوس الكنيسة، وقد أعانت على مزج العاطفة بالعقيدة. وقد كتب أليبيوس Alypius في القرن الرابع مقدمة موسيقية بقيت منها حتى الآن أجزاء هي أهم ما نستشهد به في قراءة العلامات الموسيقية اليونانية. وقد استبدلت في ذلك القرن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الحضارة البيزنطية -> الفن البيزنطي -> الفنون البيزنطية

بالحروف الهجائية التي كانت بها الأنعام علامات رمزية؛ ويبدو أن أمبروز هو الذي جاء بهذه العلامات إلى ميلان، وأن هيلاري Hilary هو الذي أدخلها في غالة، وجيروم في روما. وألف رومانوس Romanus، الراهب اليوناني في أواخر القرن الخامس ألفاظ الترانيم التي لا تزال حتى الآن جزءاً من الطقوس الدينية اليونانية ولحنها؛ وليس ثمة ما يضارع هذه الترانيم في عمق الشعور وقوة التعبير. وكتب بؤيتيوس مقالاً في الموسيقى لخص فيه نظريات فيثاغورس وأرسطو Aristoxenus وبطليموس. وقد ظلت هذه الرسالة تدرس في جامعتي أكسفورد، وكمبردج يوم كنا نحن طلاباً(43).

وبعد، فإن من واجب الإنسان أن يكون شرقياً إذا شاء أن يفهم الفن الشرقي على حقيقته. وإن المعنى الجوهرى الذي يدركه العقل الغربى من النزعة البيزنطية هو أن الشرق قد سرى في قلوب اليونان وتغلغل في أفئدتهم: في الحكومة الأتوقراطية، وفي الطبقات المتدرجة الثابتة، وفي ركود العلم والفلسفة، وفي الكنيسة الخاضعة لسلطان الدولة، والشعب الخاضع لسلطان الدين، وفي الثياب الفخمة والحفلات العظيمة، والطقوس الدينية ذات الألفاظ الطنانة الرنانة والمناظر الرائعة، والنغمات الموسيقية الساحرة المتكررة التي تستحوذ على نفوس؛ وتغمر الحواس بفيض من الألوان البراقة؛ وأخضع الطبيعة للخيال، والفن التمثيلى للفن الزخرفى. ولقد كان من شأن الروح اليونانى القديم أن يجد هذا كله غريباً عنه لا يطبقه، ولكن بلاد اليونان نفسها وقتئذ جزءاً من الشرق. وغلبت على العالم اليونانى كلاله أسبوية فيه فى الوقت الذى كانت بلاد الفرس المتجددة الحيوية، وكانت قوة الإسلام العظيمة التى لا يكاد العقل يدرك مداها، نقول فى الوقت الذى كانت هذه وتلك تنازعانها حياتها نفسها.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية فى أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساسانى

الباب السابع

الفرس

الفصل الأول

المجتمع الساساني

ومن وراء نهر الفرات أو دجلة كانت تقوم طوال تاريخ اليونان وروما تلك الإمبراطورية التي تكاد تكون خافية على العالم الغربي، والتي لبثت ألف عام تصد أوروبا المتوسعة وجحافل آسية الهمجية، لا تتسى قط ما ورثته من مجد الأكيميبيين، وتنتعش على مهل مما أصابها في حروب البارثيين، وتحتفظ في زهو وخيلاء بثقافتها الأرستقراطية الفذة تحت حكم ملوكها الساسانيين الأشداء الشجعان، احتفاظاً أمكنها به أن تحول فتح المسلمين لإيران إلى نهضة فارسية جليلة الشأن.

وكان لفظ إيران في القرن الثالث الميلادي أوسع معنى من لفظ إيران أو فارس في هذه الأيام. فقد كانت، كما يدل اسمها "الأريين"، وكانت تشمل أفغانستان وبلوخستان، وسنجديانا، وبلخ والعراق. ولم تكن فارس، وهي الاسم القديم لإحدى الولايات الحديثة، إلا جزءاً صغيراً يقع في الجنوب الشرقي من هذه الإمبراطورية، ولكن اليونان والرومان الذين لم يكونوا يعنون بشؤون "البرابرة" أطلقوا اسم الجزء على الكل. وكان يخترق إيران في وسطها من الجنوب الشرقي لجبال هماليا إلى الشمال الغربي لجبال القفقاس حاجز جبلي

صفحة رقم : 4399

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

يقسم البلاد قسمين، في الشرق منه هضبة عالية جدباء، وفي الغرب وديان خضراء يسقيها النهران التوأمان، ويجري ماء فيضانها الموسمي في شبكة من القنوات تكسب البلاد الخصب والنماء فتنتج أرضها القمح، والبلح، والعنب، والفاكهة. وكان بين النهرين، وعلى ضفافهما، وفي ثنايا التلال، وواحات الصحراء، عدد لا حصر له من القرى وعشرات المئات من البلدان وعشرات من المدائن الكبيرة: منها إكباتانا، والري، وموصل، واصطخر (برسبوليس القديمة)، والسوس، وسلوقية، وطيسفون (المدائن) العظيمة عاصمة الملوك الساسانيين.

ويصف أميانوس الفرس في ذلك الوقت بأنهم "يكادون كلهم يكونون نحاف الأجسام، سمر البشرة إلى حد ما... لهم لحي على جانب من الظرافة، وشعر طويل أشعث" (1). غير أن الطبقات العليا لم تكن ذات شعر أشعث، ولم يكن

أفرادها نحاف الأجسام على الدوام، وكان يغلب عليهم الجمال، وكانوا ذوي أنفة وكبرياء، ودمائة في الأخلاق، يميلون إلى الرياضة الشاقة الخطرة، والثياب الفخمة. وكان رجالهم يلبسون العمام على رؤوسهم، والسرراويل المنتقخة في سيقانهم، والصنادل أو الأحذية ذات الأربطة في أقدامهم. وكان أغنيائهم يلبسون معاطف أو جلابيب من الصوف أو الحرير ويتمنطقون بمناطق يعلقون فيها السيوف. أما الفقراء فكانوا يقتنعون بأثواب من نسيج القطن، أو الشعر، أو الجلد. وكان النساء يلبسن أحذية طويلة، وسراويل قصيرة، وقمصاناً واسعة، وعباءات أو أثواباً مهفهفة، ويعقسن شعرهن الأسود من الأمام في غديرة يتركنها تتوس خلفهن ويزينها بالأزهار. وكانت جميع الطبقات مولعة بالزينة والألوان الجميلة. وكان الكهنة والزرادشتيون المتحمسون يلبسون ثياب القطن الأبيض يرمزون به إلى الطهارة؛ أما قواد الجنود فكانوا يفضلون اللون الأحمر، وكان الملوك يميزون أنفسهم من سائر الطبقات بالأحذية القصيرة الحمراء، والسرراويل الزرقاء، وأغطية للرؤوس تعلوها كرات منتقخة أو رؤوس حيوانات

صفحة رقم : 4400

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

أو طيور. وكانت الملابس في بلاد فارس، كما كانت في جميع المجتمعات المتحضرة، تكون نصف الرجل أو أكثر قليلاً من نصف المرأة.. وكان الرجل الفارسي العادي المتعلم سريع الانفعال كالرجل العالي، شديد التحمس، كثير التقلب؛ يغلب عليه الخمول، ولكنه سريع التيقظ، يميل بطبعه إلى "الحديث الجنوني، يسرف فيه إسرافاً... أميل إلى الدهاء منه إلى الشجاعة، لا يخافه إلا البعيديون عنه" (2) -إي حيث يكون أعداء الفرس. وكان فقراؤهم يشربون الجعة، ولكن الطبقات كلها تقريباً، بما فيها الآلهة، كانوا يفضلون النبيذ؛ فقد كان أتقياء الفرس والمقتصدون منهم يصبونه حسب الطقوس الدينية، وينتظرون حتى تأتي الآلهة لتشربه، ثم يشربون هم بعدها الشراب المقدس (3). ويصف المؤرخون الفرس في عصر الساسانيين بأنهم أغلظ أخلاقاً مما كانوا في عهد الأكيمينيين، وأرق منهم في عهد البارثيين (4)، ولكن قصص بروكيوس تحملنا على الاعتقاد بأن الفرس ظلوا طوال العهود أحسن أخلاقاً من اليونان (5). ولقد أخذ أباطرة الروم عن البلاط الفارسي نظم حفلاتهم وطرائقهم الدبلوماسية. وكان ملوكهم المتنافسون يخاطب بعضهم بعضاً بلفظ "الأخ". ويضمنون للدبلوماسيين الأجانب سلامتهم من الاعتداء ومرورهم سالمين بأرضهم، ويعفونهم من التفتيش الجمركي والعوائد (6). وفي وسعنا أن نرجع التقاليد الدبلوماسية المتبعة في أوربا وأمريكا إلى الأساليب التي كانت متبعة في بلاط ملوك الفرس. ويقول أميانوس إن "معظم الفرس يسرفون في الجماع" (7)، ولكنه يعترف مع ذلك بأن اللواط والدعارة كانا أقل انتشاراً بينهم مما كانا بين اليونان. وقد امتدح غمائل الفرس لثلاث صفات فيهم فقال: "هم معتدلون في الطعام، قنوعون في علاقاتهم الخاصة وفي العلاقات الزوجية" (8). وكانوا يستخدمون كل الوسائل لتشجيع الزواج وزيادة الموالي، حتى يكون لهم من الأبناء ما يسد مطالب الحرب

صفحة رقم : 4401

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

ولهذا كان إله الحب عندهم هو المريخ لافينوس. وكان الدين يأمر بالزواج، ويحتفل به احتفالاً مصحوباً بطقوس رهيبة، ومن تعاليمه أن الإخصاب يقوي أهوراً مزدا إله النور في صراعه العالمي مع أهرمان وهو الشيطان في الديانة الزرادشتية(9). وكان رب البيت يعيد أسلافه حول نار الأسرة، ويطلب الأبناء لكي يضمن لنفسه العناية به وعبادته فيما بعد، فإذا لم يولد له أبناء من صلبه تبنى ولداً من أبناء غيره. وكان الآباء هم الذين ينظمون عادة زواج أبنائهم يساعدهم في هذا غالباً موثق رسمي لعقود الزواج، ولكن المرأة كان في وسعها أن تتزوج على خلاف رغبة والديها. وكانت البائنات والهبات تقوم بنفقات الزواج المبكر والأبوة المبكرة. وكان يسمح للرجال بتعدد الزوجات. وكان يوصي به إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً. وكان الزنى منتشر(10). وكان في وسع الزوج أن يطلق زوجته إذا خانت، كما كان في وسع الزوجة أن تطلق زوجها إذا هجرها أو قسا عليها. وكان التسري مباحاً. وكان لهؤلاء المحظيات كما كان لنظائرن عند اليونان، الهتايراي Hetairai، الحرية الكاملة في أن يسرن أمام الجماهير وأن يحضرن مآدب الرجال(11). أما الزوجات الشرعيات فكان في العادة يبقين في أجنحة خاصة بهن في البيوت(12)، وقد ورث المسلمون عن الفرس هذه العادة القديمة. وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع، ولعله كان من الصواب أن يمنع الرجال من الاختلاط بهن. والنساء في شاهنامه الفردوسي هن اللآئي بيدأن بخطبة الرجال وإغوائهن، وكانت مفاتن النساء تتغلب على قوانين الرجال.

وكان يستعان على تربية الأبناء بالعقيدة الدينية، ويبدو أن هذه كان لابد منها لتدعيم سلطان الأبوين. وكانوا يسلون أنفسهم بألعاب الكرة؛ والرياضة البدنية، والشطرنج(13)، ويشتركون منذ نعومة أظفارهم في وسائل التسلية التي يمارسها الكبار كالضرب بالنبال، وسباق الخيل، وحجف الكرة، والصيد. وكان كل ساساني يرى في الموسيقى عوناً لا بد منه في شؤون الدين، والحب،

صفحة رقم : 4402

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

والحرب. وفي هذا يقول الفردوسي إن الموسيقى وأغاني النساء الجميلات كانت تلازم المآدب وحفلات الاستقبال الملكية(14). وكانت القيثارة، والناي، والمزمار، والقرن، والطبلة، وغيرها من الآلات الموسيقية كثيرة عندهم. وتؤكد الرواية الماثورة أن برباد مغني كسرى أبرويز ألف 360 أغنية، ظل يغني في كل ليلة واحدة منها لسيدته عاماً كاملاً(15). وكان للموسيقى كذلك شأن كبير في التعليم؛ فقد كان مقر المدارس الابتدائية هو أبنية الهياكل، وكان الكهنة هم الذين يقومون بالتعليم فيها. أما التعليم العالي في الآداب، والطب، والعلوم، والفلسفة فكان يتلقى في دار المجمع العلمي الشهير في غنديسابور في سوريلنا. وكان أبناء أمراء الإقطاع وحكام الولايات يعيشون في الغالب بالقرب من الملوك، وكانوا يتلقون العلم من أمراء الأسرة المالكة في مدارس كبرى متصلة بالبلاط(16).

وظلت اللغة الفهلوية الهندي-أوروبية لغة فارس البارثية هي المستعملة في البلاد. ولم يبق مما كتب بها في ذلك العهد إلا نحو 600.000 كلمة كلها تقريباً تبحث في شؤون الدين. لكننا نعلم أنها كانت لغة واسعة(17)؛ غير أن الكهنة كانوا هم حفظتها وناقليها، ولذلك تركوا الكثير مما كتب بها في غير الدين يفنى على مر للزمان (ولعلنا قد خدعنا بخطة شبيهة بهذه الخدعة فظننا أن الكثرة الغالبة مما كتب من أدب العصور الوسطى في العالم المسيحي كان أدباً دينياً).

وكان الملوك الساسانيون ملوكاً مستنيرين يناصرون الأدب والفلسفة، وكان أكثرهم مناصرة لها كسرى أنو شروان، فقد أمر بترجمة كتب أفلاطون وأرسطو إلى اللغة الفهلوية، وبتدريس هذه الكتب في غنديسابور، بل قرأها هو نفسه.

وقد كتب في عهده كثير من المؤلفات التاريخية لم يبق منا كلها إلا الكرناكي-أرتخشتر أو أعمال أردشير وهو مزيج من التاريخ والقصص كان هو الأساس الذي استمد منه الفردوسي كتاب الشاهنامه. ولما أغلق جستنيان مدارس أثينة فر سبعة من أساتذتها إلى فارس ووجدوا لهم في بلاط كسرى ملجأ أميناً.

صفحة رقم : 4403

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

ولكنهم حنوا فيما بعد إلى أوطانهم، فاشترط الملك "البربري" في المعاهدة التي عقدها مع جستنيان عام 533 أن يسمح للحكام اليونان بالعودة إلى أوطانهم وألا يمسه أي أذى. وفي عهد هذا الملك المستتير أصبحت كلية غنديسابور التي أنشئت في القرن الرابع أو الخامس "أعظم المراكز الثقافية في ذلك العهد(18)"، ويهرع إليها الطلاب والمدرسون من كافة أنحاء العالم. وكان يؤمها النساطرة المسيحيون، الذين جاءوا معهم بترجم سريانية لكتب الطب والفلسفة اليونانية. وجاء إليها أتباع الأفلاطونية الجديدة وبذروا فيها بذور العقائد الصوفية، وامتزجت فيها علوم الطب الهندية، والفارسية، والسورية، واليونانية. ونتج عنها مدرسة للعلاج مزدهرة ناجحة(19). وكان المرض حسب النظرية الفارسية ينتج إذا دنس أو تلوث ركن أو أكثر من الأركان أو العناصر الأربعة -النار، والماء، والتراب، والهواء. ويقول أطباء الفرس وكهنتهم إن الصحة العامة تتطلب إحراق كل المواد المتعفنة، وإن صحة الأفراد تتطلب الطاعة التامة لقانون الطهارة الزرداشتي(20). ولسنا نعرف عن علم الفلك عند الفرس في ذلك الوقت أكثر من أنه قد احتفظ لهم بتقويم منظم، وأن سنتهم كانت تنقسم إلى اثني عشر شهراً في كل منها ثلاثون يوماً، وأن الشهر كان ينقسم إلى أربعة أسابيع، اثنان منها يحتوي كل منها على سبعة أيام واثنان في كل منهما ثمانية، وأنهم كانوا يضيفون خمسة أيام في آخر العام(21). وكان التنجيم والسحر منتشرين في البلاد، فلم يكونوا يقدمون على عمل هام دون الرجوع إلى أبراج النجوم، وكانوا يعتقدون أن جميع مصائر الناس على هذه الأرض تحددها النجوم الطيبة والخبيثة التي تحترق في السماء - كما تحترق الملائكة والشياطين في النفس البشرية - حرب أهورا مزدا وأهرمان القديمة.

صفحة رقم : 4404

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

وأعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرداشتي ما كان له من سلطان ورونق. فوهبت الأراضي والعشور إلى الكهنة، وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال في أوربا، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثة، التي كانت تشرف على جميع نواحي الحياة الذهنية في فارس إلا القليل منها، وكانت تنذر كل من تحدته نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم في الجحيم؛ وظلت تسيطر

على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون (22). وكانوا من حين إلى حين يحمون الأهلين من عسف الحياة والفقراء من استبداد الحكام (23). وقد بلغ من ثراء هذه الجماعة أن كان الملوك أنفسهم يستدنيون أموالاً طائلة من خزائن الهياكل. وكان في كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفئ أبداً وترمز إلى إله النور. وكانوا يعلمون الناس أن حياة الفضيلة الطاهرة وحدها هي التي تتجى الروح من أهرمان؛ وكان لا بد للروح في حربها القائمة على الشيطان من أن تستعين بكهنة المجوس وبما يعرفونه عن الغيب، وبراقهم وسحرهم، ودعواتهم. فإذا ما نالت الروح هذه المعونة سمت إلى درجة القداسة والطهارة، وخرجت سالمة من محكمة يوم الحساب الرهيبة، واستمتعت بالنعيم المقيم في الجنة. وكانت أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمي تجد لها مكاناً حوله. فكان مئراس إله الشمس المحبب للبارثيين بين عدد قليل من أفراد الشعب بوصفه مساعداً لأهورا. ولكن الكهنة الزرداشتيين كانوا يعدون الخروج على الدين القومي، كما يعده المسيحيون، والمسلمون، واليهود جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام. وشاهد ذلك ما حدث حين قام ماني Mani حوالي (216-276) يدعي أنه رسول رابع مكمل لبوذا، وزرادشت، ويسوع، ويدعو إلى دين قوامه العزبة، والسلام، والهدوء، إذ صلب بناء على طلب

صفحة رقم : 4405

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

المجوس ذوي النزعة الحربية القومية، واضطر أتباعه إلى العمل على نشر دينهم في خارج البلاد. أما اليهودية والمسيحية فكانتا بوجه عام تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيراً من التسامح، كما كانت البوابات أكثر تسامحاً مع اليهود منهم مع المارقين من الدين المسيحي. وقد وجد كثير من اليهود ملجأ لهم في الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية. وكانت المسيحية قد ثبتت دعائمها في تلك الولايات حين جلس الساسانيون على العرش، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أضحت الدين الرسمي لعدوي الفرس القديمين وهما بلاد اليونان وروما؛ فلما أشترك قساوستها اشتراكاً فعلياً في الدفاع عن الأقاليم البيزنطية ضد شابور الثاني، كما حدث عند نصيبين عام 338، شرع ملوك الفرس يضطهدونهم (24)، وبدأ المسيحيون في فارس يجهرون بأمالهم الطبيعية في انتصار الدولة البيزنطية. وأمر شابور في عام 341 بذبح جميع المسيحيين الساكنين في الإمبراطورية، ولما أن رأى أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين، والرهبان، والراهبات؛ ولكن 16.000 مسيحي قد أهلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذي دام حتى موت شابور (379). ولما جلس يزيدجر الأول على العرش (339-420) رد للمسيحيين حريتهم الدينية، وساعدهم على بناء كنائسهم، حتى إذا كان عام 422 قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيين اليونانية والرومانية. وفي داخل هذا الإطار المكون من العبادات والمنازعات الدينية، والمراسيم والأزمات الحكومية والحروب الداخلية والخارجية، في داخل هذا الإطار كان الناس يمدون الدولة والكنيسة بمقومات حياتهما فيفلحون الأرض، ويرعون الماشية والضأن، ويمارسون الصناعات اليدوية، ويتبادلون التجارة. وكانت الزراعة عندهم من الواجبات الدينية، فكان الشعب يعلم أن تنظيف

صفحة رقم : 4406

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

الفلوات من الأشجار والأعشاب، وزرع الأرض، والقضاء على الآفات، واستئصال الأعشاب الضارة بالنبات، وإصلاح الأراضي البور، وتسخير مجاري الماء لري الأرض - كان الشعب يعلم أن هذه الأعمال المجيدة كلها تضمن انتصار أهورا مزدا في آخر الأمر على أهرمان. وكان الفلاح الفارسي في ميسس الحاجة إلى كثير من أسباب السلوى الروحية، لأنه كان يعمل عادة بوصفه مستأجراً لأرض الأمير الإقطاعي، ويؤد ضرائب ورسومياً أخرى قدراً من المحاصيل يتراوح بين سدسه وثلثه. ونقل الفرس عن الهند حوالي عام 450 استخراج السكر من القصب حتى لقد وجد الإمبراطور الشرقي هرقل مخازن مملوءة بالسكر في القصر الملكي بطيسفون (المدائن) (627)؛ ولما فتح العرب بلاد فارس بعد أربعة عشر عاماً من ذلك الوقت، عرفوا من فورهم كيف يزرعون القصب، وأدخلوا زراعته في مصر وصقلية، وراكش، وأسبانيا ومنها انتشرت في أوربا (26). وكانت تربية الحيوانات من أهم الأعمال في بلاد الفرس، فلم تكن تفوق الخيل الفارسية إلا الجياد العربية الأصيلة في تسلسل أنسابها، وجرأتها، وجمالها، وسرعتها. وكان لكل فارسي جواد يعزه كما يعز رستم راکوش، وقد قدس الفرس الكلب لعظيم نفعه في حراسة قطعان الماشية والبيوت، وكان للقطرة الفارسية شأن عظيم في كافة أنحاء البلاد. وتطورت الصناعة في عهد الساسانيين فانتقلت من المنازل إلى الحوانيت في المدن. وكثرت نقابات الحرف، ووجدت في بعض البلدان جماعات ثورية من الصعاليك (27)، وأدخل نسج الحرير من الصين، وسرعان ما انتشرت هذه الصناعة وتقدمت حتى كان الحرير الساساني يطلب في كل مكان، وكان نموذجاً يحتذى به فن النسيج في بيزنطية، والصين، واليابان؛ وكان تجار الصين يفتدون إلى إيران ليبيعوا حريرهم الخام ويشتروا منها الطنافس. والجواهر، والأصباغ الحمراء؛ وعمل الأرمن، والسوريون، واليهود على ربط بلاد الفرس، وبيزنطية، ورومة

صفحة رقم : 4407

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

في سلسلة من التبادل التجاري البطيء. وأعانت الطرق والجسور الصالحة، التي كانت تتعهد بها الدولة بعنايتها، على إنشاء طائفة من المراكز، وطرق القوافل التجارية التي ربطت طيسفون بسائر ولايات الدولة؛ وأنشئت المرافئ في الخليج الفارسي، لتيسير التجارة مع الهند. وكانت الأنظمة الحكومية تحدد أثمان الحبوب، والأدوية وغيرها من ضروريات الحياة، وتمنع تخزينها لرفع أثمانها، واحتكارها (28). وفي وسعنا أن نقدر ثراء الطبقات العليا من قصة الشريف الذي دعا ألف ضيف إلى وليمة، فلما جاءوا وجد أنه لا يملك من الصحاف ما يكفي لأكثر من خمسمائة، فاستطاع أن يستعير الخمسمائة الباقية من جيرانه (29).

ونظم أمراء الإقطاع، الذين كانوا يعيشون في الغالب في ضياعهم، طريقة استغلال الأرض ومن عليها، وألوا الفيالق من مستأجري أرضهم ليحاربوا حروب الأمة. وكانوا يتدربون على الحرب بمطاردة الصيد بحماسة وشجاعة، فكانوا لذلك ضباطاً في سلاح الفرسان ذوي شهامة؛ وكانوا هم وجيادهم مسلحين كما كانت جيوش الإقطاع مسلحة في أوربا فيما بعد؛ ولكنهم لم يبلغوا ما بلغه الرومان في فرض النظام على جنودهم، أو في استخدام ما عرف فيما بعد من فنون هندسة الحصار والدفاع. وكان يعلوا عليهم في المنزلة الاجتماعية عظماء الأشراف الذين كانوا يتولون حكم الولايات ويرأسون المصالح الحكومية. وما من شك في أن الإدارة الحكومية كانت حازمة قديرة إلى حد بعيد؛ وشاهد ذلك أن الخزانة الفارسية كانت في أغلب الأوقات أكثر عمراً بالمال من خزائن أباطرة الرومان، وإن كانت الضرائب في

الدولة الفارسية أقل إرهاباً مما كانت عليه في الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الغربية. ولقد كان في خزائن كسرى أبرويز في عام 626 ما قيمته 460,000,000 دولار أمريكي(30)، وكان دخله السنوي يقدر بنحو 170,000,000 دولار_ وهما مبلغان ضخمان إذا ذكرنا ما كان للفضة والذهب من قوة الشراء في العصور الوسطى.

صفحة رقم : 4408

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

وكان سن القوانين من عمل الملوك، ومستشاريهم، والمجوس؛ وكانوا يعتمدون في سنها على قوانين الأستاق القديمة، وكان يترك للكهنة تفسير هذه القوانين وتنفيذها. ووصف أميانوس، الذي كان يحارب الفرس، قضاتهم بأنهم كانوا "رجالاً عدولاً، ذوي تجربة، وعلم بالقوانين(31)". وكان المعروف عن الفرس بوجه عام أنهم يحافظون على الوعد، وكانت الإيمان التي يقسمونها في المحاكم تحاط بهالة من التقديس، وكان الحنث في اليمين يلقي أشد العقاب في هذا العالم بحكم القانون، ويعاقب صاحبه في الدار الآخرة بوابل من السهام، والبلط والحجارة. وكان التحكيم الإلهي من الوسائل التي يلجأ إليها لكشف الجرائم، فكان يطلب إلى المتهمين أن يمشوا على مواد تحمي في النار حتى تحمر، أو يخوضوا اللهب، أو يطعموا الطعام المسموم. وكان وأد الأطفال وإسقاط الأجنة محرمين يعاقب من يرتكبهما بالإعدام. وكان الزاني إذا عرف ينفي من البلاد والزانية يجع أنفها وتصلم أذناها. وكان في وسع المتقاضين أن يستأنفوا الأحكام أمام محاكم عليا؛ ولم يكن الحكم بالإعدام ينفذ إلا إذا نظر فيه الملك وأقره. وكان الملك يقول إنه يستمد سلطانه من الآلهة، وإنه وليهم في الأرض، وإنه يضارعه في قوة أحكامهم، وكان يلتقب نفسه حين تسمح الظروف "ملك الملوك، وملك الآريين وغير الآريين، وسيد الكون، وابن الآلهة(32)". وأضاف شابور الثاني إلى هذه الألقاب: "أخا الشمس والقمر، ورفيق النجوم" وكان الملك الساساني مطلق السلطان من الوجهة النظرية، ولكنه كان يعمل في العادة بمشورة وزرائه الذين كانوا يؤلفون مجلساً للدولة. وقد أثنى المسعودي المؤرخ المسلم على ما كان الملوك الساسانيين من إدارة ممتازة، وعلى سياستهم الحسنة النظام، وعنايتهم برعاياهم ورخاء بلادهم(33). ويقول كسرى أنوشروان، كما جاء في كتاب ابن خلدون "الولا الجيش لما كان الملك، ولولا موارد الدولة ما كان الجيش، ولولا الضرائب ما كانت الموارد؛ ولولا الزراعة ما كانت الضرائب،

صفحة رقم : 4409

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> المجتمع الساساني

ولولا الحكومة العادلة ما كانت الزراعة(34)". وكانت الملكية في الأوقات العادية وراثية، ولكن كان في وسع الملك أن يختار غير ابنه الأكبر ليخلفه على العرش. وجلست ملكتان على العرش في زمنين مختلفين؛ وإذا لم يترك الملك

من بعده ولياً من نسله اختار الأشراف ورجال الدين حاكماً على البلاد، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون أن يختاروا واحداً من غير الأسرة المالكة.
وكانت حياة الملك مثقلة بالواجبات والتبعات التي لا آخر لها. فقد كان ينتظر منه أن يخرج للصيد والقنص بلا خوف، وكان يخرج إليه في هودج مزركش تجره عشرة من الجمال، وعليه ثيابه الملكية. وكانت سبعة جمال تحمل عرشه، ومائة جمل تحمل الشعراء المنشدين. وقد يكون في ركابه عشرة آلاف من الفرسان؛ ولكن إذا صدقنا ما كتب من النقوش الساسانية على الصخور قلنا إنه كان ينبغي له آخر الأمر أن يمتطي صهوة جواد، ويواجه بنفسه وعلاً، أو غزالاً، أو رثماً، أو جاموساً برياً، أو نمراً، أو أسداً، أو غيرها من الوحوش التي جمعت في حديقة حيوان الملك أو "جنته". فإذا عاد من الصيد إلى قصره واجه مهام الحكم الشاقة، وسط ألف من الحشم وفي حفلات آخر لها. وكان عليه أن يرتدي ثياباً مثقلة بالجواهر، وأن يجلس على عرش من الذهب، ويضع على رأسه تاجاً يبلغ من النقل حداً لا بد معه أن يعلق على مسافة جد صغيرة، لا يمكن رؤيتها، من رأسه الذي لا يستطيع تحريكه. وعلى هذا النحو كان يستقبل الشعراء، والأضياف، ويتبع ما لا يحصى من المراسم الشاقة الدقيقة، ويصدر الأحكام، ويستقبل الوافدين الذين حددت لهم المواعيد ويتلقى التقارير. وكان على الذين يدخلون عليه أن يخروا سجداً أمامه، ويقبلوا الأرض بين يديه، وألا يقفوا إلا إذا أمرهم بالوقوف، ولا يتحدثوا إليه إلا وفي فمهم منديل خشية أن تعدي أنفاسهم الملك أو تدنسه. فإذا جاء الليل دخل على إحدى زوجاته أو محظياته يبذر فيها بذوره العليا.

صفحة رقم : 4410

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

الفصل الثاني

الملكية الساسانية

تقول الرواية الفارسية إن ساسان كان كاهناً في برسبوليس (اصطخر)، وإن ابنه باباك Papak كان أميراً صغيراً في خور، وإن باباك قتل جوزهر، حاكم الولاية الفارسية، وأعلن نفسه ملكاً على تلك الرواية، وأورث سلطانه ابنه شابور، وإن شابور مات نتيجة لحادثة وقعت في الوقت المناسب، فخلفه ابنه أردشير. وأبى أرتبانوس الخامس آخر ملوك الفرس الأرساسيين أو البارثيين أن يعترفوا بهذه الأسرة المحلية الجديدة؛ فحاربه أردشير وهزمه (224)، وصار ملك الملوك (226). فلما تم له هذا استبدل بحكم الأرساسيين الإقطاعي المفكك حكماً ملكياً قوياً أداته بيروقراطية مركزية كثيرة الفروع؛ وكسب تأييد رجال الدين بأن أعاد العقيدة الزرادشتية وأعاد إلى كهنتها سابق سلطانهم، وأثار كبرياء الشعب بأن أعلن أنه سيقضي على النفوذ الهلنستي في فارس، ويثأر لدارا من ورثة الإسكندر، ويستعيد كل الأقاليم التي كانت فيما مضى تحت حكم الملوك الأكمينيين. والحق أنه قدير بوعده هذا أو كاد. فقد قام بحملات خاطفة مدت حدود باد الفرس في الشمال إلى نهر جيحون، وفي الغرب إلى نهر الفرات، ووضع التاج قبل أن تدركه المنية في عام 241 على رأس ابنه شابور، وأمره أن يلقى باليونان والرومان في البحر.

ورث شابور الأول عن أبيه قوته ودهاءه؛ وتمتله النقوش التي على الصخور بهي الطلعة، نبيل الملامح، ولكن هذه النقوش كانت بلا ريب تحيات من صانعيها جرى العرف بأن تكون على هذه الصورة. وقد تلقى شابور تعليماً طيباً،

صفحة رقم : 4411

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

ونشأ على حب العلم، ويقال إنه أعجب بحديث أوسطاثيوس Eustathius السوفسطائي سفير اليونان إعجاباً جعله يفكر في اعتزال الملك ليتفرغ للفلسفة (35) وخالف سميهِ بأن أطلق الحرية الكاملة لجميع الأديان، وسمح لماني بأن يلقي مواعظه الدينية في بلاطه؛ وأعلن أن "المجوس، والمانيين، واليهود، والنصارى، والناس جميعاً أياً كان دينهم يجب أن يتركوا وشأنهم في جميع أنحاء إمبراطوريته (6). وواصل ما بدأه أردشير من تنقيح الأبناساق، فأقنع الكهنة بأن يضموا إلى كتابهم المقدس أبواباً في غير شؤون الدين تشمل علوم ما بعد الطبيعة والفلك، والطب، معظمها مأخوذ من بلاد الهند واليونان. وكان سخياً في مناصرة الفنون، ولم يبلغ ما بلغه شابور الثاني، أو كسرى الأول والثاني، من براعة في قيادة الجند، ولكنه كان أقدر الملوك الساسانيين جميعاً في الشؤون الإدارية. وأنشأ له عاصمة جديدة في شاه بور لا تزال آثارها تحمل اسمه حتى الآن، وأقام عند شستار على نهر قارون سداً يعد من أكبر الأعمال الهندسية في التاريخ القديم. وقد بني هذا السد من كتل ضخمة من الحجر الأصيل (الجرانيت)، تكون منها جسر طوله 1710 قدم، وعرضه عشرون قدماً. وحول مجرى النهر مؤقتاً لكي يستطاع إقامة البناء؛ ورصف قاع المجرى عنده رصفاً متيناً؛ وأنشئت فيه بوابات لتنظيم تصريف المياه. وتقول الرواية المتواترة إن شابور استخدم في تخطيط السد وبنائه مهندسين وأسرى من الرومان. وقد ظل هذا السد يؤدي الغرض منه حتى هذا القرن (37). ثم حول شابور اهتمامه على كره منه إلى الحرب والقتال، فغزا سوريا، ووصل في حملته إلى إنطاكية، ولكنه هزم في معركة مع جيش روماني فعقد مع روما صلحاً (244)، استردت بمقتضاه جميع ما كان قد استولى عليه في حروبه. غير أنه حقد على أرمينية أن تعاونت عليه مع روما، فزحف على تلك البلاد، وأقام فيها أسرة صديقة لفارس (252)؛ ولما حمى بذلك جناحه الأيمن، عاد إلى قتال روما، فهزم الإمبراطور فلبريان وأسرته (260)،

صفحة رقم : 4412

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

ونهب إنطاكية، واستولى على آلاف من الأسرى سخرهم للعمل في إيران (260). ثم انضم أدناثوس حاكم تدمر إلى روما، فاضطر شابور مرة أخرى إلى الاكتفاء بأن يكون نهر الفرات الحد الفاصل بين أملاك الفرس والرومان. وخلفه على العرش فيما بين 272 و302 ملوك لم يرق أحد منهم إلى ما فوق الدرجة الوسطى من الكفاية. ويأتي بعد هذا هرمزد الثاني (302-309) الذي يشيد التاريخ بحكمه القصير الأجل، والذي بدأ فيه طائفة من الأعمال النافعة

وبسط على البلاد لواء السلم والرخاء. وبذل الملك عناية كبيرة في ترميم الأبنية العامة، والمسكن الخاصة، موجهاً أكبر اهتمامه إلى مساكن الفقراء، وكان ينفق على هذه الأعمال كلها من أموال الدولة. وأنشأ محكمة جديدة خصها بسماع شكاوى الفقراء ضد الأغنياء، وكثيراً ما كان يتولى رياستها بنفسه. ولسنا نعرف هل كانت هذه العادات الغربية هي التي حرمت ابنه من وراثة العرش؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد حدث على أثر وفاة هورمزد أن زج النبلاء بابنه في السجن، وأعطوا الملك لابنه الذي لم يولد بعد، ولقبوه في ثقة واطمئنان بشابور الثاني، وأرادوا ألا يتركوا في الأمر مجالاً للشك فتوجوا الجنين بأن علقوا التاج الملكي على رحم أمه (38).

وبهذه البداية الطيبة حكم شابور الثاني أطول حكم في تاريخ أسية (309-379). وقد درب منذ طفولته على الفنون الحربية، ففوق جسمه وإرادته، حتى إذا بلغ السادسة عشرة من عمره تولى شؤون الملك ونزل إلى ميدان القتال، فعزاً شرقي جزيرة العرب وخرّب حوالي عشرين قرية، وقتل ألفاً من الأسرى، وقاد ألفاً غيرهم إلى الأسر في حبال ربطها بجروحهم. وفي عام 337 شن الحرب على روما للسيطرة على الطرق التجارية المؤدية إلى بلاد الشرق الأقصى، وواصلها حتى وفاته تقريباً إذا استثنينا فترات من السلم قصيرة. وكان اعتناق روما وأرمينية للدين المسيحي سبباً في ازدياد نيران الحرب شدة على شدتها

صفحة رقم : 4413

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

كان الآلهة هي الأخرى قد نزلت إلى الميدان، وجاءت معها بكل ما يحدثنا عنه هومر من وحشية في القتال. وظل شابور أربعين عاماً يقاتل طائفة كبيرة من أباطرة الروم واحداً بعد واحد، قصده يوليان إلى طيسفون، ولكنه ارتد بعد ذلك ارتداداً غير شريف؛ واضطر جوفيان أمام تفوق عدوه عليه في الفنون العسكرية أن يعقد مع شابور صلحاً نزل له بمقتضاه عن الولايات الرومانية الممتدة على نهر دجلة وعن أرمينية كلها. ولما مات شابور الثاني كانت بلاد الفرس قد بلغت ذروة سلطاتها وهيبتها، وكانت مائة ألف فدان من أرضها قد أصلحت واستخدم في إصلاحها الأسرى من الأعداء.

وانتقل ميدان الحرب في القرن التالي إلى حدود الفرس الشرقية. فقد حدث حوالي عام 425 أن استولت على الأقاليم المحصورة بين نهري سيحون وجيحون جماعات طورانية يطلق عليها اليونان اسم الإفتاليين Ephthalites، ويلقبون خطأ باسم "الهنون البيض"، استولوا على الإقليم المحصور بين نهري سيحون وجيحون وحاربهم الملك بهرام الخامس الساساني (420-438)، المعروف باسم الغور -أي "الحمار الوحشي"- لجرأته في أعمال الصيد، وانتصر عليهم، ولكنهم بعد وفاته أخذوا ينتشرون في الإقليم لكثرة تناسلهم وتوقفهم في القتال، وأنشئوا لهم إمبراطورية امتدت من بحر الخزر إلى نهر السند، وجعلوا عاصمتها جرجان، وكانت أشهر مدنها بلخ، وهزموا فيروز شاه وقتلوه (459-484)، وأرغموا الشاه الذي خلفه على أداء الجزية.

وبينما كان الخطر يتهدد فارس من جهة الشرق، إذ ضربت الفوضى أطناها في البلاد، نتيجة لاضطرار الملكية إلى الكفاح للمحافظة على سلطتها ضد الأشراف ورجال الدين. وفكر كفاده الأول (488-531) في أن يضعف أولئك الأعضاء بمنصرة إحدى الحركات الشيوعية، التي كانت تتخذهم الهدف الأول لهجاتها وتفصيل ذلك أن أحد رجال الدين الزرادشتيين المدعو مزدق قد

صفحة رقم : 4414

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

أعلن في عام 490 أنه مرسل من عند الله للدعوة إلى عقيدة قديمة مضمونها أن الناس جميعاً يولدون أكفاء، وأن ليس لأحد من الناس حق طبيعي في أن يمتلك أكثر مما يمتلكه غيره، وأن الملكية والزواج من البدع التي ابتدعها البشر، وأنها أخطاء عاقبتها اليأس والشقاء، وأن السلع جميعها والنساء كلهن يجب أن تكون ملكاً مشاعاً لجميع الرجال. ويقول عنه أعدائه إنه كان يجيز السرقة، والزنى ومضاجعة المحارم ويتخذ هذه الأعمال وسيلته الطبيعية لمقاومة الملكية والزواج، ويقول إنها الطرق المشروعة للوصول إلى المدينة الفاضلة. واستمع إليه الفقراء وبعض الطوائف الأخرى معتبطين، ولكن أكبر الظن أن مزدق نفسه قد أدهشته أن يجد ملكاً يوافق على آرائه. وبدأ أتباعه ينهبون بيوت الأغنياء، ثم لا يكتفون بهذا بل يسبون نساءهم أيضاً، ويأخذون أثمن ما في هذه البيوت ومن فيها من جوار ومحظيات حسان. وثارت ثائرة الأشراف فزجوا كفاده في السجن وأجلسوا أخاه جامسب على العرش. وقضى كفاده في "قلعة النسيان" ثلاث سنين فر بعدها من السجن، وهرب إلى الإفتاليين، ورأى هؤلاء الفرصة سانحة لأن يكون حاكم بلاد الفرس خاضعاً لسلطانهم، فأمدوه بجيش وساعده على أخذ طيسفون عنوة. ونزل جامسب عن العرش، وفر الأشراف إلى ضياعهم في الريف، وأصبح كفاده مرة أخرى ملك الملوك (499). ولما استتب له الأمر غدر بالشيوعيين، وقتل مزدق وألقاه من أتباعه (39). ولعل هذه الحركة قد رفعت من شأن العمل اليدوي، لأن قرارات مجلس الدولة بعدئذ لم يكن يوقعها الأمراء ورجال الدين وحدهم، بل كان يوقعها معهم رؤساء نقابات الحرف (40). وحكم كفاده بعد ذلك جيلاً آخر؛ وحارب أصدقاء الإفتاليين وانتصر عليهم، وحارب روما حرباً غير حاسمة، ثم مات وترك العرش لابنه الثاني كسرى أعظم ملوك الساسانيين جميعاً.

كان خسرو الأول ("أي صاحب المجد المتقى" 531-579) يعرف عند اليونان باسم كسروس Chosroes وعند العرب باسم كسرى؛ ولقبه الفرس

صفحة رقم : 4415

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

بأنوشروان ("الروح الخالدة"). ولما أن انتمر به اخوته الأكبر منه سناً ليخلعوه قتل اخوته جميعاً، وقتل جميع أبنائهم عدداً واحداً منهم. ولقبه رعاياه "بالعادل"، ولعله يستحق هذا اللقب إذا فرقنا بين العدالة والرحمة. ويصفه بروكيوس بأنه كان "بارعاً إلى أقصى حد في تصنع التقى" وفي نكت العهد (41) ولكن بروكيوس من ألد أعدائه. ويثنى الطبري المؤرخ الفارسي الأصل على "نفاذ بصيرته، وعلمه، وذكائه، وشجاعته، وحصافة رأيه" وينطقه بخطبة ألقاها أول ما جلس على العرش، وهي خطبة قد أحسن المؤرخ اختراعها إن لم يكن صادقاً في نسبتها إليه (42). ونظم كسرى الحكومة كلها على أساس جديد وأختار أعوانه لكفائتهم بصرف النظر عن طبقتهم، ورفع منزلة بزرجمهر مربي ولده فجعله من كبار وزرائه، وقد طبقت شهرة هذا الوزير الأفاق. واستبدل بجنود الإقطاع الغير مدربين جيشاً نظامياً دائماً حسن النظام كامل العدة، وأنشأ نظاماً عادلاً للضرائب، وجمع القوانين الفارسية ونظمها، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الري ومد المدن بالماء، وأصلح الأراضي ليور بأن أمد أصحابها بالماشية، والآلات والبذور. وشجع التجارة ووسع نطاقها بإنشاء الجديد من الطرق والجسور، وإصلاح ما كان قائماً منها وتعهد، وقصارى القول أنه بذل

جهوده العظيمة كلها في خدمة الشعب والدولة. وشجع الزواج -أو أرغم الناس عليه إرغاماً- لاعتقاده أن بلاد الفرس في حاجة إلى المزيد من الناس لحرث أرضها وحماية تخومها. وحمل العزاب على الزواج بأن وهب البائعات للزوجات، وأمر بتعليم أبنائهم على نفقة الدولة (43). وكان يربي الأطفال اليتامى والفقراء ويعلمهم وينفق عليهم من أموال العامة، ويعاقب المرتدين عن الدين بالإعدام، ولكنه كان يسمح بانتشار المسيحية حتى بين حريمه. وقد قرب إليه الفلاسفة، والأطباء، والعلماء، من بلاد الهند واليونان، وكان يسره أن يبحث معهم مشاكل الحياة، والحكم، والموت. وكان من الموضوعات التي دار حولها البحث ذلك السؤال:

صفحة رقم : 4416

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

"ما هو أشد أنواع البؤس؟". وأجاب أحد الفلاسفة اليونان عن هذا السؤال بقوله: "هو الشيخوخة المصحوبة بالفقر والبلهة". وأجاب فيلسوف هندي بل هو "العقل القلق في الجسم السقيم". وكسب وزير كسرى ثناء جميع المجلس بحق حين قال "أما أنا فأعتقد أن أشقى الشقاء أن يرى الإنسان آخرته منه من غير أن يكون قد مارس الفضيلة" (44). وكان كسرى يناصر الآداب، والعلوم، ويعين العلماء على متابعة الدرس بالهبات القيمة، ويمد بالمال المترجمين والمؤرخين. وبلغت جامعة غنديسابور في أيامه ذروة مجدها. وكان يحرص كل الحرص على حماية الأجانب في بلاده فكان بلاطه لهذا السبب غاصاً على الدوام بكبار الزائرين من البلاد الأجنبية. ولما جلس على العرش جهر برغبته في أن يعقد الصلح مع روما. ووافق جستنيان على هذه الرغبة لأنه كان يعد العدة لغزو أفريقية وإيطاليا، ووقع "الأخوان" في عام 532 "صلحاً دائماً". ولما أن سقطت أفريقية وإيطاليا في يد جستنيان طالب كسرى متفكهاً بقسط من الغنيمة، وحثه أن بيزنطية لم تكن لتصل إلى هذا النصر لو أن فارس لم تعقد معها الصلح، فبعث إليه جستنيان ببعض الهدايا القيمة (45). وفي عام 539 أعلن كسرى الحرب على "روما" بحجة أن جستنيان قد أخل بشروط الصلح، ويؤيد بركيوس هذه التهمة. لكن أكبر الظن أن كسرى قد رأى أن من الحكمة أن يبادر بالهجوم على جستنيان وجيوشه لا تزال مشغولة في الغرب، فذلك في رأيه خير له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطية ثم توجه قوتها كلها ضد فارس. يضاف إلى هذا أن كسرى قد بدا له ألا بد لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب في طربزون وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود. ولهذا زحف على سوريا، وحاصر هيرابوليس، وأباميا، وحلب، وتركها وشأنها بعد أن افتدت أنفسها بكثير من المال، وسرعان ما وقف أمام إنطاكية. ولم يبالي أهلها به وبقوته فحيوه من فوق

صفحة رقم : 4417

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

الأسوار بوابل من السهام وقذائف المنجنيقات، وبوابل آخر من أفاظ السخرية الوقحة التي اشتهرت بها هذه المدينة في كافة أنحاء العالم(46). واستشاط الملوك غضباً فهاجم على المدينة واستولى عليها عنوة، ونهب كنوزها، وأحرق جميع مبانيها عدا كنيسة الكبرى، وذبح عدداً كبيراً من أهلها، وساق من بقي منهم ليعمروا "إنطاكية" أخرى في بلاد الفرس، ثم نزل مبتهجاً ليستحم في البحر المتوسط الذي كان في وقت من الأوقات حد دولة الفرس الغربي. وأرسل - جستينيان قائده بليساريوس لينفذ بلاده، ولكن كسرى عبر الفرات على مهل متقللاً بالغنائم، وفضل القائد الحصيف ألا يتبعه (541). وما من شك في أن انتهاء الحروب التي قامت بين الفرس والرومان إلى نهاية غير حاسمة إنما يرجع بعضه إلى تعذر إقامة حامية قوية على ناحية العدو من الصحراء السورية أو جبال طوروس، وإن كان ما أدخل حديثاً من تحسين على وسائل النقل والاتصال قد جعل الحروب الكبيرة في أمثال تلك الأصفاة مستطاعة في هذه الأيام. وقام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على أسية الرومانية زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً، وحاصر عدداً من مدنها، وأخذ منها الفداء والأسرى، ونهب ريفها، ثم ارتد عنها في أمان (542-543) وأدى له جستينيان عام 542 ألفي رطل من الذهب (نحو 840.000 دولار أمريكي) ثمناً لهدنة تدوم خمسة أعوام على أن يؤدي إليه بعد انتهائها 2600 رطل أخرى نظير امتدادها خمسة أعوام جديدة وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين في السن جيلاً من الزمان تعهد آخر الأمر (562) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً، وتعهد جستينيان بأن يؤدي للفرس ثلاثين قطعة من الذهب في كل عام (7.500.000 دولار أمريكي)، ونزل كسرى عن حقه في جميع الأقاليم المتنازع عليها في بلاد القوقاز والبحر الأسود.

ولكن كسرى لم يفرغ بهذا من حروبه كلها. فقد أرسل حوالي عام 570 بناء على طلب الحميريين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب جيشاً من

صفحة رقم : 4418

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

عنده ليخلصهم من الأحباش الذين فتحوا بلادهم. فلما أنجى الفرس الحميريين من الغزاة، وجد هؤلاء أن بلادهم قد أضحت ولاية فارسية. وكان جستينيان قد عقد حلفاً مع بلاد الحبشة، ورأى خلفه جستين الثاني أن طرد الفرس للأحباش من جزيرة العرب عمل عدائي موجه له. هذا إلى أن الترك الضاربين على الحدود الشرقية لبلاد الفرس قد اتفقوا سراً أن ينضموا إلى من يهاجمون كسرى. وأعلن جستين الحرب في عام 572. ونزل كسرى إلى الميدان بنفسه لعى الرغم من كبر سنه، واستولى على مدينة دارا الواقعة على الحدود الرومانية؛ ولكن صحته خائفة فهزم لأول مرة في حياته (578)، وارتد إلى طيسفون حيث وافته منيته في عام 579 ولسنا نعرف سنه بالضبط حين وفاته. وقد امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً كسب فيها كل ما خاضه من الوقائع عدا واقعة واحدة؛ ووسع حدود إمبراطوريته في جميع جهاتها، وجعل بلاد الفرس أقوى منها في أي عهد آخر بعد عهد دارا الأول؛ ووهبها نظاماً من الحكم بلغ من شأنه أن العرب حين فتحوا تلك البلاد فيما بعد اتخذوه نظاماً لحكمها دون أن يدخلوا عليه تغييراً يستحق الذكر. ويكاد كسرى أن يكون معاصراً لجستينيان؛ ولكن معاصريهما مجمعون على أنه أعظم ملكين، ويعده من جاء بعده من الفرس أقوى من حكم بلادهم في تاريخها كله وأعظمهم شأنًا.

وحكم بعده ابنه هرمز الرابع (579-589) ولكن قائده بهرام قوبين خلعه وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثاني ابن هرمز (589)، ثم أعلن نفسه ملكاً بعد عام واحد من ذلك الوقت. ولما بلغ كسرى سن الرشد طالب بعرش أبيه؛ فرفض بهرام طلبه، ففر كسرى إلى هيرابوليس في سوريا الرومانية؛ وعرض عليه الإمبراطور اليوناني موريس أن يعيده إلى ملكه إذا انسحب الفرس من أرمينية. ووافق كسرى على هذا الطلب؛ وشهدت طيسفون ذلك المنظر العجيب الفذ منظر جيش روماني يُجلس على العرش ملكاً فارسياً (596).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

وبلغ كسرى أبرويز (الظافر) درجة من السلطان لم يبلغها ملك آخر من ملوك الفرس منذ أيام خشيارشاي، ومهد السبيل لسقوط دولته؛ ذلك أنه لما قتل فوفاس موريس وجلس مكانه على العرش أعلن أبرويز الحرب على المغتصب (306) انتقاماً لصديقه؛ ولكن الواقع أن الحرب لم تكن إلا تجديداً للنزاع القديم. وكانت الدولة البيزنطية قد مزقتها الشقاق والتحزب، فلم تجد جيوش الفرس صعوبة في الاستيلاء على دارا، وأميدا، والرها، وهيرا بوليس، وحلب، وأباميا، ودمشق (605-613). وزاد هذا النصر من حماسة أبرويز فأعلن الحرب الدينية على المسيحيين، وانضم 26.000 من اليهود إلى جيشه، ونهبت جيوشه المتحدة في عام 614 أورشليم، وقتلت 90.000 من المسيحيين (47)، وأحرقت كثيراً من كنائسها ومن بينها كنيسة الضريح المقدس، وأخذ الصليب الحق، وهو أعز أثر على المسيحيين، إلى بلاد الفرس. وأرسل أبرويز إلى هرقل Heraclius الإمبراطور الجديد رسالة دينية قال فيها: "من كسرى أعظم الآلهة وسيد الأرض كلها إلى هرقل عبده الغبي الدليل: إنك تقول إنك تعتمد على إلهك، فلم إذن لم ينقذ أورشليم من يدي؟" (48). واستولى جيش فارس على الإسكندرية في عام 616، ولم يحل عام 619 حتى دخلت مصر كلها في حوزة ملك الملوك، وهو ما لم يحدث لها منذ أيام دارا الثاني. وفي هذه الأثناء كان جيش فارسي آخر يجتاح أسية الصغرى ويستولي على خلقيدون (617)؛ ولبثت تلك المدينة في أيدي الفرس عشر سنين وهي التي لم يكن يفصلها عن القسطنطينية إلا مضيق البسفور. وكان أبرويز في هذه السنين العشر يدمر الكنائس، وينقل ما فيها من الآثار الفنية والكنوز إلى بلاد الفرس ويفرض على أسية الغربية من الضرائب الفادحة ما ينضب منه معينها وما أعجزها عن مقاومة غزو العرب الذي لم يكن بينها وبينه وقتنذ إلا نحو جيل من الزمان. ثم ترك كسرى تصريف الحرب لقواده، وعاد لينقلب في اللهو والترف

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الملكية الساسانية

في قصره بدستجرد (على بعد نحو ستين ميلاً من طيسفون)؛ وقضى وقته بين الفن والحب. وجمع المهندسين، والمثاليين، والمصورين، ليجعل عاصمته الجديدة أعظم شأناً من عاصمته القديمة، ولينحت صوراً مشابهة لشيرين أجمل زوجاته الثلاثة آلاف وأحبهن إلى قلبه. وشكا الفرس قائلين إنها امرأة مسيحية، وادعى بعضهم أنها قد أدخلت الملك في دينها، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد سمح لها والحرب الدينية دائرة راحها أن تنشئ كثيراً من الكنائس والأديرة. ولكن بلاد الفرس التي عمها الرخاء لكثرة ما أفاء عليها من الأسلاب والأرقاء، كان في وسعها أن تغفر لمليكيها لهوه وترفه، وفنه، وتسامحه الديني، وترحب بفتوحه وترى فيها النصر النهائي على بلاد اليونان والرومان،

ولأهورا مزدا على المسيح. لقد جوزي الإسكندر أخيراً على فعلته، وانتقم الفرس من اليونان لهزائمهم في مرثون، وسلاميس، وبلاطية، وأربيل.

ولم يكن باقياً للإمبراطورية البيزنطية إلا عدد قليل من الثغور الآسيوية وقليل من أرض إيطاليا، وأفريقية، وبلاد اليونان، وأسطول لم يهزم بعد، وعاصمة محاصرة جن جنونها من الرعب واليأس. وليث هرقل عشر سنين ينشئ جيشاً جديداً ودولة جديدة من أنقاض الجيش القديم والدولة القديمة. فلما تم له ذلك لم يحاول عبور البسفور إلى خلقيدون بل تجنب ذلك العمل الكثير النفقة والمشقة، وأبحر بأسطوله إلى البحر الأسود ثم اخترق أرمينية وهاجم بلاد الفرس من خلفها، ودمر كلورمية Clorumia مسقط رأس زرادشت، كما ضرب كسرى من قبل مدينة أورشليم، وأطفأ نارها المقدسة الخالدة (624). وسير إليه كسرى الجيوش يتلو بعضها بعضاً، ولكن هرقل هزمها جميعاً، ولما تقدم اليونان فر كسرى إلى طيسفون. وآلم قواده ما كان يوجهه إليهم من إهانات فانضموا إلى النبلاء وخلعوه، ثم سجنوه ولم يطعموه إلا الخبز الفقار والماء، وذبحوا ثمانية عشر من أبنائه أمام عينيه، وانتهى أمره بأن قتله ابن من أبنائه يدعى شبروى (628).

صفحة رقم : 4421

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

الفصل الثالث

الفن الساساني

لم يبق من الآثار ما يدل على ثراء ملوك ساسان ومجدهم إلا بقايا الفن الساساني، ولكن هذه البقايا تكفي وحدها لأن تزيد إعجاباً بقدره الفن الفارسي على البقاء من عهد دارا الأكبر واصطخر إلى عهد الشاه عباس وأصفهان، وبقدرته على التكيف لمواءمة ما يحيط به من الظروف.

فأما ما بقي من العمارة الساسانية فكله غير ديني، فقد اختفت من الوجود هياكل النار المقدسة، ولم يبق قائماً إلا القصور الملكية، وحتى هذه ليست إلا "هياكل ضخمة" (49) قد تجردت من زمن طويل مما كانت تزدهن به واجهاتها من حلي مصنوعة من الجص. وأقدم هذه الخرابات كلها ما يسمونه قصر أردشير الأول في فيروز آباد القائمة إلى الجنوب الشرقي من شيراز. ولا يعرف أحد تاريخ بنائه، ويختلف ظن المؤرخين بين 340 ق.م، و460 م ولا تزال قبة هذا البناء الضخمة بعد أن مضى عليها خمسة عشر قرناً تقلب عليها في خلالها الحر والبرد، والسراقات والحروب، لا تزال هذه القبة باقية إلى الآن تغطي بهواً فسيحاً، تعلو في الجو مائة قدم؛ ويبلغ عرضها خمساً وخمسين قدماً. وثمة مدخل ذو قوس يبلغ ارتفاعه تسعاً وثمانين قدماً، وعرضه اثنتين وأربعين، يقسم الموجهة التي طولها 170 قدماً قسمين، وقد تهدمت هذه الواجهة في هذه الأيام، وكانت أقواس صغيرة تؤدي من قطري البهو المستطيل الأوسط إلى قبة دائرية. وقد ابتدعت طريقة فذة لطريقة لحمل ضغط القبة، فأقيم جدار مزدوج أجوف ربط إطاره الداخل والخارجي بعقد دائري وبذلك زاد الجدار الخارجي من قوة الجدار الداخلي، ثم زيدت قوة الجدار المزدوج مرة أخرى بدعامات من الخارج مكونة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

من أنصاف عمد مربعة مسندة من الحجارة الثقيلة وملتنصفة بالبناء. ذلك طراز معماري يختلف كل الاختلاف عن الطراز القديم ذي العمد الذي كان في برسبوليس -وهو طراز فج سمح غير ظريف ولكنه قد استخدمت منه أشكال بلغت كمالها في كنيسة أياصوفيا متى أقامها جستنيان.

وهناك غير بعيد من هذا الأثر عند سروستان أثر آخر شبيه به وهو مثله لا يعرف تاريخه ويتكون من واجهة ذات ثلاثة أقواس، وبهو أوسط كبير، وحررات واسعة تعلوها قباب بيضية الشكل، وأقواس دائرية، وأنصاف قباب لتقوية البناء. وليس ببعيد أن تكون الدعامات الهيكلية التي يسميها المهندسون بالدعامات "الطائرة" المعروفة في الهندسة القوطية قد تطورت من هذه الأنصاف القباب بأن أزيل منها الهيكل الخارجي الذي تستند إليه (51).

وإلى الشمال الغربي من مدينة السوس توجد بقايا قصر خرب آخر يعرف بالإيواني خارقه، وهو أقدم مثل معروف للعقود المستعرضة ذات أضلاع تخرقه من جانب إلى آخر (52). لكن أروع الآثار الساسانية كلها وأعظمها تأثيراً في النفس، أثر بعث لضخامته الرهبة في قلوب العرب الفاتحين وهو القصر الملكي في طيسفون وهو الذي يسميه العرب طاق كسرى (الأول). وربما كان هو البناء الذي وصفه في عام 638 مؤرخ يوناني قال عنه إن جستنيان "بعث إلى كسرى برخام يوناني وصناع مهرة شادوا له قصرأ على الطراز الروماني غير بعيد من طيسفون" (53). وقد تهدم جناحه الشمالي في عام 1888؛ وزالت منه القبة؛ لكن جدرانه الثلاثة الضخمة ترتفع إلى مائة قدم وخمسة أقدام، وتنقسم واجهة البناء أفقياً إلى خمس بوائك مسدودة وفي البناء عقد عال أوسط -وهو أعلى العقود الأهليلجية المعروفة وأوسعها، إذ يبلغ ارتفاعه 85 قدماً وعرضه 72- يؤدي إلى بهو طوله 115 قدماً وعرضه 75، لقد كان الملوك الساسانيون مولعين بالحجرات الواسعة. وهذه الواجهات المخربة تحاكي الواجهات الرومانية التي لا تبلغ درجة كبرى من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

الرشاقة أمثال ملهى مرسلس Marcellus، وتؤثر في الناظر إليها بروعتها أكثر مما تبره بجمالها. لكننا لا نستطيع أن نحكم على الجمال الماضي بالخربات القائمة في هذه الأيام.

وليس أعظم ما يستهوي الإنسان من الآثار الساسانية هو قصور اللين المحطمة بل هو النقوش المحفورة على جوانب الجبال الفارسية. وقد تطورت هذه الأشكال الضخمة من النقوش الأكيمنية، وتراها في بعض الأحيان مجاورة لها في مكان واحد، كان أصحابها قد أرادوا أن يؤكدوا استمرار قوة الفرس وتكافؤ الملوك الساسانيين والأكيمنيين، وأقدم هذه

النقوش الساسانية تمثل يثاً بقدمه عدواً مطروحاً على الأرض وربما كان هذا العدو آخر الأرساسيين، وأجمل من هذا نقشي رستم القريب من اصطخر الذي يخلد ذكرى أردشير، وشابور الأول، وبهرام الثاني. وقد صور فيه الملوك كبار الأجسام ولكن أجسامهم كأجسام معظم الملوك والسوقة، يصعب عليها أن تتنافس أجسام الحيوانات في رشاقته وتناسب أعضائها وشبيه بهذا نقشي رجب، ونقش آخر عند شابور، فيهما صور حجرية قوية لشابور الأول وبهرام الأول والثاني. وفي طاق البستان القريب من كرمشاه نرى قوسين قائمين على عمودين محفورين حفراً قليل البروز في الصخور، ونقوشاً على وجهي الأقواس من الداخل والخارج تمثل شابور الثاني وكسرى أرويز يصيدان الوحوش. ونرى الفيلة السمينة، والخنازير البرية تبعث الحياة في هذا الحجر الأصم، وقد بذلت في تصوير أوراق الأشجار عناية كبيرة، وحفرت تيجان الأعمدة حفراً جميلاً. ولسنا ننكر أننا لا نرى في هذه النقوش ما نراه في الحركات اليونانية من رشاقة أو في الخطوط اليونانية من يسر ونعومة، وأنا لا نجد فيها حرصاً شديداً على الفردية، ولا عناية بفن المنظور، كما أنها ليس فيها إلا القليل من مجازاة النماذج المألوفة؛ ولكنها مع هذا لا تقل عن معظم النقوش الكبرى في روما الإمبراطورية عظمة وفخامة، وقوة وحيوية ورجولة.

صفحة رقم : 4424

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

ويبدو أن هذه النقوش المنحوتة في الصخر كانت ملونة، شأنها في ذلك شأن الكثير من زينات القصور، ولكن هذه الألوان لم يبق منها إلا آثار قليلة. بيد أن أدب الفرس لا يترك مجالاً للشك في أن فن التصوير قد ازدهر في عصر الساسانيين؛ ويقول الكتاب إن النبي ماني أنشأ مدرسة للتصوير؛ ويحدثنا الفردوسي عن كبار رجال الفرس الذين يزينون قصورهم بصور الأبطال الإبرانيين (54)، ويصف الشاعر البحتري ما كان على جدران قصر المدائن من صور ملونة (55). وكان من عاداتهم أنه إذا مات ملك من ملوك الساسانيين استُدعي أعظم مصور في زمانه لرسم صورة له تضم إلى مجموعة الصور المحفوظة في الخزانة الملكية (56). واشتركت في فنون التصوير، والنحت، والخزف وغيرها من فنون الزينة مع فن المنسوجات الساسانية في نقوشها؛ فقد كانت الأقمشة الحريرية، والمطرزات، والمنسوجات والموشاة، والدقمس المشجر، والأنسجة المزركشة المعلقة على الجدران، وأغطية الكراسي، والسرديات، والخيام، والطنافس، كانت هذه كلها تنسج بمنتهى الصبر والمهارة، وتصبغ بصبغات ساخنة صفراء، وزرقاء، وخضراء. وكان كل فارسي، عدا الفلاح والكاهن، يأمل أن يلبس أحسن مما تمكنه طبيقته من لبسه، وكثيراً ما كانت الهدايا تتخذ شكل أثواب فخمة، وكانت الطنافس الزاهية الألوان من مستلزمات الثراء في الشرق من أيام الآشوريين الأقدمين. وقطع النسيج الساسانية التي تزيد على العشرين قطعة، والتي هي كل ما نجا من عوادي الدهر، هي أعلى قطع النسيج الباقية في العالم في هذه الأيام. ولقد كان العالم القديم كله من مصر إلى اليابان حتى في عصر المنسوجات الساسانية يعجب بها ويسعى لمحاكاتها؛ وكانت هذه المنسوجات الوثنية في أيام الحروب الصليبية تفضل على غيرها من المنسوجات لتلف بها مخلفات القديسين المسيحيين. ولما أن استولى هرقل على قصر كسرى أرويز في دستجرد كان من أئمن غنائه أقمشة مطرزة

صفحة رقم : 4425

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

رقيقة، وطفنسة كبيرة (58). ومن التحف الذائعة الصيت "طفنسة الشتاء" لكسرى أنوشروان. وقد نقشت هذه الطفنسة لتتسبه نقوشها التي تمثل مناظر الربيع والصيف برد الشتاء. كان فيها أزهار وفاكهة منسوجة من البياقوت، وكانت فيه ماسات تنمو بجوار جدران من الفضة؛ وجداول من اللؤلؤ فوق أرضية من الذهب (59)، وكان مما يفخر به هارون الرشيد طفنسة ساسانية كبيرة مرصعة بالجواهر (60). وقد بلغ من مهارة الفرس أن كانوا يكتبون قصائد الحب على طفنفسهم (61).

ولم يبق من الفخار الساساني إلا قطع قليلة من ذات الفائدة المادية، لكن فن الخزف كان راقياً في أيام الملوك الإكيميانيين، وما من شك في أنه لم يمح كله من الوجود في أيام الساسانيين، لأنه بلغ من ذروة الكمال في إيران الإسلامية. ويظن إيرنست فنلوز Ernest Feneilosa أن بلاد الفرس قد تكون هي المركز الذي انتشر منه فن الميناء حتى في بلاد الشرق الأقصى (62)، ولا يزال مؤرخو الفن يتجادلون هل فارس الساسانية، أو سوريا، أو بيزنطية هي التي أنشأت فن الخزف البراق ذي الطلاء الذهبي أو الفضي أو النحاسي، وفن الميناء ذي الحواجز من خيوط معدنية. وكان صناع المعادن الساسانيون يصنعون جراراً، وأباريق، وأقداحاً كأنهم يصنعونها إلى جبل من الجبابرة؛ وكانوا يديرونها على مخارط؛ وينقشونها بالأزميل، أو يحدثون عليها رسوماً بارزة بطرقها من الداخل، ويتخذون لها أيادي وأفواها على شكل حيوانات تختلف من الديكة إلى الأسود. وفي دار الكتب الأهلية بباريس قدح فارسي ذائع الصيت هو "قدح كسرى" له رصيبة من البلور المطعم في شبكة من الذهب المطروق. وتقول الرواية المتواترة إن هذا القدح كان من الهدايا التي بعث بها هارون الرشيد إلى شارلمان. وليس ببعيد أن يكون القوط قد أدخلوا هذا الفن عن الفرس ونقلوه إلى بلاد الغرب (64).

صفحة رقم : 4426

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

وكان صانعو الفضة يصنعون صحافاً قيمة، ويساعدون الصياغ على صنع الحلبي للخاصة والسواقة على السواء رجالاً كانوا أو نساء. وقد بقيت حتى الآن عدة صحاف من عهد الساسانيين في المتحف البريطاني وفي لنينغراد، والمكتبة الأهلية بباريس، والمتحف الفني بنيويورك، وتحمل كلها صور ملوك أو نبلاء في الصيد، وحيوانات أكثر إتقاناً من الأدميين. وكانت النقود الساسانية ناسف بعض الأحيان النقود الرومانية في جمال منظرها، كما تشهد بذلك عملة شابور الأول (65). والكتب الساسانية نفسها يمكن أن تعد من التحف الفنية. وتصف الروايات المتواترة كيف كان الذهب والفضة يجريان من جلود ماني حين أحرقت في الميادين العامة (26). وكانت المواد الثمينة تستخدم في أثاث الساسانيين، يدل على ذلك أن كسرى الأول كانت له منضدة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة، وأن كسرى الثاني أرسل إلى منقده، الإمبراطور موريس (أو موريق)، منضدة من الكهرمان، قطر لها خمسة أقدام، ذات قوائم من الذهب، ومغلغة بالجواهر (27).

وملاك القول أن الفن الساساني يكشف عن جهود كبرى بذلت لإنعاشه بعد أن ظل أربعة قرون آخذاً في الاضمحلال في عهد البارثيين. وإذا جاز لنا أن نحكم عليه من بقاياها، قلنا في شيء من التردد إنه لا يضارع الفن الإكيمياني في نبه وفخامته، أو الفن الفارسي الإسلامي في قوة ابتكاره ورقته وحسن ذوقه، ولكنه احتفظ في النقوش البارزة بكثير مما كان له في الزمن القديم من قوة تبشر بما بلغته موضوعات التحلية من خصوبة في مستقبل الأيام. وكان هذا الفن

يرحب بالأفكار والأنماط الجديدة، وقد أوتي كسرى الأول من الحكمة ما جعله يستخدم فنانيين ومهندسين من اليونان في الوقت الذي كان يهزم فيه قواد اليونان العسكريين. وقد وفى الفن الساساني بما عليه من الدين، فكان يصدر أشكاله وتحفه شرقاً إلى بلاد الهند، وإلى التركستان والصين، وغرباً إلى سوريا وآسية

صفحة رقم : 4427

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> الفن الساساني

الصغرى، والقسطنطينية، والبلقان، ومصر، وأسيانيا. ولعل تأثير هذا الفن كان من العوامل التي حولت اهتمام الفن اليوناني من الصور القديمة إلى الحلي البيزنطية، واهتمام الفن اللاتيني المسيحي من السقف الخشبية إلى العقود والقباب والجدران المسندة المقامة من الأجر أو الحجر. وانتقلت البواكي وأنصاف القباب العظيمة من العمارة الساسانية إلى المساجد الإسلامية وإلى القصور والأضرحة المغولية. ذلك أن التاريخ لا يضع في شيء: فكل فكرة مبدعة تتاح لها إن عاجلاً أو آجلاً فرصة تخرج فيها إلى الوجود وتتطور، وتضيف لونها الجديد إلى شعلة الحياة المتقدة.

صفحة رقم : 4428

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> فتح العرب

الفصل الرابع

فتح العرب

قتل شروى أباه ووثج ملكاً باسم كفاده الثاني، ثم عقد الصلح مع هرقل ونزل له عن مصر، وفلسطين، وسوريا، وآسية الصغرى، وغربي الجزيرة، وأعاد الأسرى الذين أخذهم الفرس إلى بلادهم: ورداً إلى أورشليم بقايا الصليب المقدس. وابتهج هرقل -وحق له أن يبتهج- بهذا النصر المؤزر، ولكنه، لم يكن يعرف أنه في اليوم الذي أعاد فيه الصليب المقدس إلى موضعه في الضريح عام 629 قد هاجمت سرية من العرب حامية يونانية بالقرب من نهر الأردن. وفي

ذلك العام نفسه فشا وباء فاتك في بلاد الفرس، أودى بحياة آلاف من أهلها ومنهم الملك نفسه. وعلى أثر موته نوذي بابنه أردشير الثالث - ولم يكن قد جاوز السابعة من عمره - ملكاً على الفرس. ولكن قائداً يدعى شهربراز قتل الغلام واغتصب العرش. ثم قُتل شهربراز نفسه بأيدي جنوده، وجرّ أولئك الجنود جثته في شوارع المدائن وهم يصيحون: "هذا مصير كل من جلس على عرش بلاد فارس ولم يكن يجري في عروقه الدم الملكي"، ذلك أن الجماهير أكثر ملكية من الملوك. وسادت وقتئذ الفوضى في تلك البلاد التي أنهكتها الحروب مدى ستة وعشرين عاماً، وفشا في الدولة التفكك الاجتماعي بعد أن عمها الفساد الأخلاقي بتأثير الثروة التي جاءت في أعقاب النصر الحربي (68)، وقام تسعة من الحكام يتنازعون عرش البلاد في خلال أربع سنوات، ثم اختفوا كلهم مقتولين أو هاربين أو ميتين ميتة طبيعية أو شاذة. وأعلنت بعض الولايات، بل بعض المدن نفسها، استقلالها عن الحكومة المركزية بعد أن عجزت هذه الحكومة عن بسط سلطانها على البلاد. ووضع

صفحة رقم : 4429

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> فتح العرب

التاج في عام 634 على رأس يزيدجرد الثالث سليل بيت ساسان وابن جارية زنجية (69). وفي عام 632 توفي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أنشأ دولة عربية جديدة، وتلقى عُمر خليفته الثاني، رسالة من المثنى قائده في سوريا، يبلغه فيها أن الفوضى ضاربة أطنابها في بلاد الفرس وأنه قد آن الأوان للاستيلاء عليها (70). وعهد عمر هذا العمل إلى خالد بن الوليد أعظم قواده جميعاً. وزحف خالد بازاء الساحل الجنوبي للخليج الفارسي على رأس قوة من العرب البدو الذين ضرسهم الحروب والراغبين أشد الرغبة في الغنائم، ثم أرسل رسالة إلى هورمزد حاكم الولاية القائمة على الحدود الفارسية يقول له فيها: "أسلم تسلم". ودعا هورمزد إلى المباراة وقبل خالد دعوته وقتله. وتغلب المسلمون (71) على كل ما واجهوه من مقاومة حتى وصلوا إلى نهر الفرات؛ ثم استدعي خالد لينقذ جيشاً عربياً في الجبهة أخرى، وتولى المثنى قيادة العرب، وعبر النهر على جسر من القوارب. وعهد يزيدجرد، وكان لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من العمر، بالقيادة العليا إلى رستم والي خراسان، وأمره أن يجند قوة ضخمة ينقذ بها الإمبراطورية. والتقى الفرس بالعرب في موقعة الجسر وهزمهم وأخذوا يطاردونهم مطاردة فيها كثير من التهور. وأعاد المثنى تنظيم صفوفه وهزم في واقعة البويب الجيش الفارسي المختل النظام وأفناه عن آخره تقريباً (634). وكانت خسائر المسلمين في هذه المعركة فادحة، فقد مات المثنى متأثراً بجراحه، ولكن الخليفة أرسل قائداً آخر أقدر منه يدعى سعد بن أبي وقاص على رأس جيش جديد قوامه ثلاثون ألف رجل. ورد يزيدجرد على هذا بأن أنزل إلى الميدان جيشاً مؤلفاً من 120.000 من الفرس. وعبر بهم رستم نهر الفرات وعسكر عند القادسية

صفحة رقم : 4430

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الدولة البيزنطية في أوج مجدها -> الفرس -> فتح العرب

حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة في تاريخ أسية وأشدّها هولاً، دامت أربعة أيام. وهبت في اليوم الرابع عاصفة رملية في وجوه الفرس، واعتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة، قتل فيها رستم ومزق جيشه شر ممزق (636). وزحف سعد بجنوده دون أن يلقى مقاومة تذكر حتى وصل إلى نهر دجلة، واجتازوه ودخل المدائن. وذهل العرب السذج الأثداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكي وأدهشته عقوده الفخمة، وبهوه الرخامي العظيم، وطنافسه الكبيرة، وعرشه المطعم بالجواهر، وقضوا أربعة أيام يحاولون جمع غنائمهم. ولعل هذا هو السبب الذي من أجله نهى عمر سعداً عن متابعة الزحف نحو الشرق وقال له إن في العراق ما يكفي (72). ووافق سعد على أمر الخليفة وقضى الثلاث السنين التالية يوطد دعائم حكم العرب في أرض الجزيرة. وكان يزدجرد في هذه الأثناء ينشئ في ولاياته الشمالية جيشاً جديداً قوامه 150.000 مقاتل. وبعث عمر لملاقاته 30.000 من رجاله، والتقى الجيشان عند نهاوند، وهزم العرب الفرس بفضل مهارتهم في الفنون العسكرية في معركة "فتح الفتوح" وقتل من الفرس في هذه المعركة 100.000 ضيق عليهم العرب في مضيق بين جبلين (641)؛ وسرعان ما سقطت بلاد الفرس كلها في أيدي العرب، وفر يزدجرد إلى بلخ وطلب إلى الصين أن تمد له يد المعونة؛ ولكن الصين لم تجبه إلى طلبه، ثم عاد فطلبها إلى الترك، فأمدوه بقوة صغيرة، لكن الجنود الترك قتلوه طمعاً في جواهره حين هم بالزحف لبيد الحرب من جديد (652)؛ وبذلك انتهى عهد الساسانيين في فارس.

صفحة رقم : 4431

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> مقدمة الترجمة

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (وبعد) فهذا هو الجزء الخاص بالحضارة الإسلامية من المجلد الرابع من قصة الحضارة، وهو المجلد المسمى "عصر الإيمان"، وقد عاينا في ترجمة من الصعاب ما لم نعاناه في سائر ما ترجمناه حتى الآن من أجزاء الكتاب البالغ عددها نحو عشرين جزءاً ما طبع منها وما لم يطبع. ذلك أن المؤلف قد نقل الشيء الكثير عن المؤرخين، والأدباء والشعراء، والعلماء، ورجال الدين، والفلاسفة، والمتصوفة، والحكماء. فليس في الكتاب صفحة تخلو من نص منقول عن واحد من هؤلاء، وقد يكون في الصفحة الواحدة ما لا يقل عن عشرة نصوص. هذا إلى ما ورد فيه من أسماء هؤلاء جميعاً وأسماء مؤلفاتهم، وبلدانهم، وأصدقائهم، والملوك، والسلاطين، والأمراء، والوزراء الذي اتصلوا بهم؛ وكان لا بد لنا أن نرجع في هذا كله إلى المصادر العربية وترجمتها الأجنبية التي نقل عنها المؤلف وأشار إلى بعضها ولم يشر إلى البعض الآخر، فكان علينا نحن أن نبحث عن أسماء لمصادر أولاً ثم عن النصوص بعدئذ.

على أن هذا ليس هو كل شيء، فقد كانت أسماء من نقل عنهم ترد أحياناً محرفة تحريفاً يتطلب تصحيحه الكثير من الجهد. وكم من نص نسب إلى غير قائله لخطأ في المراجع التي نقل عنها المؤلف، كالأبيات التي يعزوها نقلاً عن أمين الريحاني لأبي العلاء المعري وليست هي له بل من أقوال محي الدين بن عربي، والتي كان علينا أن نتصل من أجلها بنيو يورك لنبحث فيها عن نسخة

صفحة رقم : 4432

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> مقدمة الترجمة

من كتاب "رباعيات أبي العلاء"، لأمين الريحاني لأننا لم نجد في مصر. وأكثر من هذا أن المؤلف ينقل في كثير من الأحيان عن تراجم المستشرقين للكتب العربية، وهؤلاء قد يطلقون عليها أسماء غير أسمائها العربية أو يترجمونها ترجمة يصعب معها الإهداء إليها كتسمية الجزء الأول من كتاب نوح الطيب للمقري باسم "تاريخ الأسر الإسلامية بالأندلس"، وكتاب "اليميني" أو "السيرة اليمينية" باسم "تاريخ الأمير سيكتجين ومحمود الغزنوي" الذي لا توجد منه إلا نسخة مخطوطة في دار الكتب، تتطلب قراءتها والبحث فيها كثيراً من الجهد، وترجمة "تذكرة الكحالين" باسم "رسالة الرمد" إلخ.

وقد وفقنا بحمد الله إلى تدليل هذه الصعاب فصححنا ما حرف أو كتب خطأ من أسماء الأشخاص والأماكن والكتب، واهتدينا إلى النصوص من مصادرها، وصححنا بعض الأخطاء التي وقع فيها المؤلف كخلطه بين الكندي الفيلسوف وعبد المسيح بن إسحق الكندي الذي كتب رسالة في الدفاع المسيحية عزاهها المؤلف إلى الكندي الفيلسوف. وقد عوننا في ذلك غير قليل من العلماء والأصدقاء نذكرهم هنا اعترافاً بفضلهم السيد الحاخام الأكبر الذي ساعدنا في تحقيق كثير من الأسماء والنصوص العبرية في هذا الجزء والجزء الذي يليه والذي اغترفنا من بحر علمه ما روى غلتنا في هذا الميدان، ومنهم صديقنا الأديب الأستاذ كامل كيلاني الحجة في أبي العلاء الذي هدانا إلى كثير من النصوص المنقولة عنه وعن غيره للشعراء، والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور يحيى الخشاب اللذان عانانا على تحقيق بعض الأسماء الفارسية، والأستاذ دريني خشبة الذي ترجم لنا شعراء رباعيتين لعمر الخيام لم نجد في التراجم المطبوعة فضلاً عما استخرجه لنا من النصوص الأدبية الأخرى، والأستاذ أمين الشريف الذي وفر علينا كثيراً من المشقة بالبحث عن كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وأصدقائنا في دار الكتب، وكتبة وزارة التربية الذين يسروا

صفحة رقم : 4433

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> مقدمة الترجمة

لنا سبيل الحصول على المراجع أعظم تيسير. فهؤلاء جميعاً أقدم خالص الشكر عن نفسي وعن القراء. وإذا كان قد فاتنا شيء من هذه الناحية فإننا نعتذر عنه مقدماً ونتقبل شاكرين ما يهدينا إليه القراء لتنتاركه في الطبعة الثانية إن شاء

الله، وعذرنا أننا بذلنا كل ما نستطيع من جهد للوصول إلى الحقيقة كاملة، ونقول كما يقول ابن خلكان، والتمثيل مع الفارق بطبيعة الحال: "فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذة فيه، فإني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي، مع أنه كما يقال: أبي الله أن يصح إلا كتابه. ولكن هذا جهد المقل، وبذل الاستطاعة، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه، وفوق كل ذي علم عليم... والله يستر عيوبنا بكرمه الضافي، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عظاته التميم الصافي إن شاء الله تعالى بمنه وكرمه".

هذا وسيرى القارئ أن المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد في حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة، ثم هو يعتذر في آخر هذا الجزء عن تقصيره في هذه الناحية. وكان لا بد له أن يمهد لوصفه تلك الحضارة بفصول عن باعثها عليه الصلاة والسلام وعن القرآن والدين، ولم تفته الإشادة بمحاسنه وفضائله. على أننا لم نشأ أن نترك هذه الفصول كما هي لما عساه أن يكون فيها من أخطاء أو سوء فهم أو نستقل برأينا فيها، فعرضنا الأمر على الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية فعهدت إلى الأستاذ الجليل الدكتور محمد يوسف موسى أن يعلق على هذه الفصول فكتب التعليق القيم الوارد في هوامشها والذي ذيل باسمه (ي). وقد أضفنا نحن من عندنا تعليقات أخرى على هذه الأجزاء وعلى سائر فصول الكتاب ذيلناها بلفظ (الترجم).

صفحة رقم : 4434

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> مقدمة الترجمة

وكان هذا أيضاً هو رأي إخواننا أعضاء مجلس إدارة لجنة التأليف، ونرجو أن نكون قد سلكنا هذا الطريق الصحيح. ولا يسعنا أن نختم هذه المقدمة قبل أن نقدم جزيل الشكر مرة أخرى للإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية صاحبة المشروع وأكبر عون فيه، وللجنة التأليف والترجمة والنشر ناشرة الكتاب، والقراء الكرام في مصر والبلاد العربية التي شجعونا بإقبالهم على الأجزاء السابقة على مواصلة الجهد في هذا العمل الشاق، وفقنا الله وإياهم إلى الخير، وهدانا الصراط المستقيم.
محمد بدران

صفحة رقم : 4435

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

الكتاب الثاني

الحضارة الإسلامية

1258 -569

الباب الثامن

محمد صلى الله عليه وسلم

632-570

الفصل الأول

جزيرة العرب

توفي جستنيان في عام 565 وهو سيد إمبراطورية عظيمة، بعد خمس سنين من وفاته ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) في أسرة فقيرة في إقليم ثلاث أرباعه صحراء

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

مجديّة قليلة السكان، أهله من قبائل البدو الرحل، إذا جمعت ثروتهم كلها فإنها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة أو صوفياً. ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا، وجميع بلاد الفرس، ومصر، ومعظم شمالي أفريقيا، وساروا في طريقهم إلى أسبانيا. والحق أن ذلك الحادث الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، لهو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى.

وبلاد العرب أكبر أشباه الجزائر في العالم، ويبلغ أكبر أطوالها 1400 ميل وأكبر عرضها 1250 ميلاً، وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى، وجزء من الإقليم الصحراوي الرمي يمتد إلى صحراء جوبي مخترقاً بلاد فارس. ومعنى "عرب" قحط. وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلاً من البحر الأحمر ارتفاعاً فجائياً إلى 12.000 قدم، تتحدر نحو الشرق انحداراً سهلاً في أرض جبلية جذباء حتى تصل إلى الخليج الفارسي. وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكئنة، والقرى ذات النخيل، نشأت حيث يمكن الحصول على الماء بحفر الآبار. وتمتد الرمال حول هذه المراكز مئات الأميال في جميع الجهات. ويسقط الثلج في تلك البلاد مرة كل أربعين عاماً، وتخفض درجة الحرارة فيها بالليل إلى 03، أما شكس النهار فتلفح الوجوه وتغلي الدم في العروق، والهواء المحمل بالرمل يضطر الأهلين إلى لبس الأثواب الطوال،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

و شد غطاء الرأس بالعقال لوقاية الجسم والشعر. وتكاد المساء تكون على الدوام صافية خالية من الغيوم، والهواء "يشبه النبيذ البراق". ويسقط المطر أحياناً قرب شاطئ البحر صالحاً لقيام الحضارة، وأكثر ما يكون ذلك على الساحل الغربي في بلاد الحجاز حيث نشأت بلدتا مكة والمدينة، وفي الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن موطن الممالك العربية القديمة.

ويسجل نقش بابلي (يرجع تاريخه إلى حوالي عام 2400 ق.م). هزيمة لحقت بملك ماجان على يد نارام سن الحاكم البابلي. وقد كانت ماجان هذه عاصمة المملكة المعينية التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب. وقد عُرف خمسة وعشرون من ملوكها الذين حكموها بعد هذه الهزيمة من نقوش عربية يرجع تاريخها إلى عام 800 ق.م. وثمة نقش آخر يرجعه بعضهم إلى 2300 ق.م وإن كانوا غير واثقين من هذا. وقد ورد في هذا النقش اسم مملكة عربية أخرى هي مملكة سبأ في بلاد اليمن. ومن سبأ أو من مستعمراتها في القسم الشمالي من بلاد العرب- لأن هذا موضع خلاف بين المؤرخين- "ذهبت" ملكة سبأ إلى سليمان حوالي عام 950 ق.م. وقد اتخذ ملوك سبأ مأرب عاصمة لهم، وخاضوا حروب "الدفاع" المعتادة، وأنشؤا أعمالاً عظيمة للري كسدود مأرب (التي لا تزال آثارها باقية إلى الآن)، وشادوا الحصون والهيكل الضخمة، ووهبوا كثيراً من المال للشئون الدينية، واتخذوا الدين وسيلة للحكم (2). والنقوش التي خلفوها والتي لا ترجع في أغلب الظن إلى ما قبل عام 900 ق.م-منحوتة نحاً جميلاً بحروف هجائية. وكانت بلادهم تنتج الكندر والمر اللذين كان لهما أيما شأن في الشعائر الدينية الأسيوية والمصرية، وكانوا يسيطرون على التجارة بين الهند ومصر، وعلى الطرف الجنوبي

صفحة رقم : 4438

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

من طريق القوافل الذاهب إلى البتراء وبيت المقدس ماراً بمكة والمدينة. وحدث حوالي عام 115 ق.م أن قامت مملكة صغيرة أخرى في الجنوب الغربي من بلاد العرب هي مملكة الحميرين، فهاجمت مملكة سبأ، وغلبتها على أمرها، وظلت بعد هذا الوقت تسيطر على تجارة بلاد العرب عدة قرون. وفي عام 25 ق.م غضب أغسطس من سيطرة بلاد العرب على التجارة المتبادلة بين مصر والهند فسير جيشاً بقيادة جالوس Aelius Gallus للاستيلاء على مأرب. وأضل الأعداء العرب الفيالق الرومانية، وأهلكهم الحر والمرض، وعجزت الحملة عن تحقيق غرضها، ولكن جيشاً رومانياً آخر نجح في الاستيلاء على عدن، وانتقلت بذلك السيطرة على التجارة بين مصر والهند إلى يد روما. (وقد فعل البريطانيون ذلك بعينه في الوقت الحاضر).

وفي القرن الثاني قبل الميلاد عبر بعض الحميريين البحر الأحمر، واستعمروا بلاد الحبشة، ونشروا الثقافة السامية بين أهلها الزنوج، كما أدخلوا فيها الكثير من الدم السامي. وتلقى الأحباش من مصر وبيزنطية الدين المسيحي والصناعات اليدوية والفنون. وكانت سفنهم التجارية تجوب البحار وتوغل فيها إلى الهند وسرنديب (2). وكانت سبع ممالك صغيرة تفر بالسيادة للنجاشي .

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

هذا في الحبشة أما في بلاد العرب نفسها فإن كثيرين من الحميريين ساروا على سنة ملكهم ذي نواس، واعتنقوا الدين اليهودي، واندفع ذو نواس في حماسته الدينية فأخذ يضطهد المسيحيين المقيمين في الجنوب الغربي من جزيرة العرب، فاستغاث هؤلاء ببني دينهم، واستجاب الأحباش إلى دعوتهم، وهزموا ملوك الحميريين (522م)، وأجلسوا على عرش البلاد أسرة حبشية. وتحالف جستنيان مع الدولة الجديدة، ورد الفرس على هذا بأن انحازوا إلى جانب ملوك حمير المخلوعين وطردوا الأحباش، وأقاموا في بلاد اليمن حكماً فارسياً (575) انتهى بعد سنتين عاماً أو نحوها حين فتح المسلمون بلاد الفرس.

وازدهرت بعض الممالك العربية الصغرى في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة، ولكنها لم تدم طويلاً. فقد ظل مشايخ بني غسان يحكمون الجزء الشمالي الغربي والقسم المحيط بتدمر من بلاد سوريا من القرن الثالث إلى القرن السابع تحت سيادة بيزنطية. وأنشأ ملوك بني لحم في الحيرة القريبة من بابل في هذا الوقت عينه بلاطاً نصف فارسي، وتقفوا ثقافة فارسية اشتهرت بموسيقاها وشعرها. ويرى من هذا أن العرب انتشروا شمالاً في سوريا والعراق قبل الإسلام بزمان طويل.

وكان النظام السياسي السائد في بلاد العرب قبلاً الإسلام، إذا استثنينا هذه الممالك الصغرى في الجنوب والشمال، وهو النظام البدائي الذي يقوم على رابطة القرابة والذي تجتمع الأسر بمقتضاه في عشائر وقبائل. بل إن هذه الممالك الصغرى نفسها لم تكن تخلو من قسط كبير من هذا النظام القبلي. وكانت القبيلة تسمى باسم أب لها مزعوم عام، فالغساسنة مثلاً كانوا أنهم "أبناء غسان"، ولم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات اليونان غير الدقيقة، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم السركونوي Sarakenoi، ومن هذا الاسم اشتق اللفظ الإنجليزي Saracens، ويلوح أنه هو

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

نفسه مشتق من لفظ "الشرقيين" العربي. وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم من غيرهم، كما أنهما كانتا سبباً في نمو روح العزلة فيهم، فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لأية جماعة أكبر من القبيلة، وكانت قوة ولأته تتناسب تناسباً عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بهذا الولاء، فلم يكن يتردد في أن يقدم وهو مرتاح الضمير على ما لا يقدم عليه الرجل المنحضر إلا من أجل بلاده أو دينه أو "عنصره"، أي أن يكذب، ويسرق، ويقتل، ويموت. وكان يحكم كل قبيلة أو بطن من القبيلة شيخ يختاره رؤساء العشائر فيها من بيت اشتهر من زمن بعيد بثرائه، أو سداد رأيه، أو شدة بأسه في القتال. وكان الرجال في القرى ينتزعون بعض الحب والخضر من التربة الضنينة، ويربون بعض الماشية القليلة العدد، وبعض الجياد الكريمة، ولكنهم كانوا يجدون أن زراعة بساتين النخيل، والخوخ، والمشمش، والرمان، والليمون، والبرتقال، والمز، والتين أجدي لهم وأعود بالربح عليهم. ومنهم من كان يعنى بزراعة النباتات العطرية كالكندر، والسعتر، والياسمين، والخزامي، وكان بعضهم يستخرجون العطر من ورد الجبال، وبعضهم يحفرون سيقان الأشجار ليستخرجوا منها المر أو البلسم. وربما كان جزء من اثني عشر جزءاً من السكان يعيشون في المدن القائمة على الساحل الغربي أو بالقرب منه. وكان في هذا الساحل عدد من المرافئ والأسواق تتبادل منها تجارة البحر الأحمر. وفي داخل البلاد كانت تسير طرق القوافل الكبرى إلى بلاد الشام. ونحن نسمع عن تجارة بين بلاد العرب ومصر منذ عام 2743م؛ وأكبر الظن أن الاتجار مع الهند لم يكن يقل قدماً عن الاتجار مع مصر. وكانت الأسواق والمواسم السنوية تستدعي التجار إلى هذه تارة وإلى تلك تارة أخرى، وكان

صفحة رقم : 4441

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

يجتمع في سوق عكاظ الشهيرة القريبة من التجار، والممثلين، والخطباء، والمقامرين، والشعراء، والعاهرات. وكان خمسة أسداس السكان بدواً رحلاً، يشتغلون بالرعي وينتقلون بقطعانهم من مرعى إلى مرعى حسب فصول السنة وأمطار الشتاء. والبدوي يحب الخيل، ولكن الجمل أعز أصدقائه في الصحراء، فهو يسير ويهتز في وقار، وإن كان لا يقطع إلا ثمانية أميال في الساعة، ولكنه يستطيع أن يصير على الماء خمسة أيام طوال في الصيف، وخمسة وعشرون يوماً في الشتاء. والناقة ندر اللين، وبول الجمل مفيد في تقوية الشعر، وروثه يمكن أن يتخذ قوداً، وإذا ذبح أكل لحمه، وصنعت الثياب والخيام من جلده ووبره. وبهذه المقومات المختلفة الأنواع كان في وسع البدوي أن يواجه حياة الصحراء متجلاً كجمله، مرهف الحس نشيطاً كجواده. والبدوي قصير القامة، نحيف الجسم، مفنول العضلات، قوي البنية، في وسعه أن يعيش أياماً متوالية على قليل من التمر واللين، وكان يستخرج من البلح نفسه خمرًا يرتفع بها من تراب الأرض إلى خيال الشعراء. وكان يدفع عن نفسه ملل الحياة الرتيبة وسأماتها بالحرب، وكان يسرع كما يسرع الأسباني (الذي ورث عنه سرعة غضبه) إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة أو أذى. وكان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة، ولما أن

فتح بلاد الشام، وفارس، ومصر، وأسبانيا لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه في غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض في هذه عن تلك .
وكان من بعض أوقات السنة هدنة مقدسة للحج أو للتجارة، أما في غير هذه الأوقات فكان يرى أن الصحراء ملكه الخاص، وأن كل من

صفحة رقم : 4442

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

يدخلها في غير هذه الأشهر الحرم ومن غير أن يؤدي له ما يفرضه من إتاة، معتد عليه وعلى وطنه، وأن نهب أموال هذا المعتدي ليس إلا ضريبة تُجبي منه بأهون السبل . وكان يحتقر حياة الحضر، لأن معناها الخضوع لمطالب القانون والتجارة، وبحب الصحراء القاسية لأنه يتمتع فيها بكامل حرته، وكان البدوي رحيماً وسفاكاً للدماء، كريماً وبخيلاً، غادراً وأميناً، حذراً وشجاعاً، ومهما يكن فقيراً، فإنه كان يواجه العالم بمهابة وأنفة، ويزهو بنقاء دمه ويولع بأنه يضيف إلى اسمه سلسلة نسبه.

كان لدى البدوي أمر لا يقبل فيه جدلاً، ذلك هو جمال نسائه الذي لا يدانيه في نظره جمال . لقد كان جمالاً أسمر، قوياً، يفتن اللب، خليقاً بأن يتغزل فيه بعشرات المئات من الأغاني الشعرية، ولكنه جمال قصير الأجل سرعان ما يذوى في جو الصحراء القانظ . وكانت حياة المرأة العربية قبل أيام النبي تنتقل من حب الرجل لها حباً يقترب من العبادة إلى الكدح طوال ما بقي من حياتها، ولم تتغير هذه الحياة فيما بعد إلا قليلاً . وكان في وسع أبيها أن يئدها حين مولدها إذا رغب في هذا، فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها، ويوارى وجهه خجلاً من الناس، لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح، وكانت طفولتها الجذابة تستحوذ على قلبه بضع سنين، ولكنها حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها كانت تُزوج لأي شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدي للعروس ثمنها . وكان حبيبها وزوجها يحارب العالم كله إذا لزم الأمر ليحميها، أو يدافع عن شرفها . وقد انتقلت بعض مبادئ هذه الشهامة المتطرفة مع

صفحة رقم : 4443

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

هؤلاء العشاق المتيمين إلى أسبانيا. ولكن هذه المعبودة كانت إلى هذا سلعة من السلع، فقد كانت جزءاً من أملاك أبيها، أو زوجها، أو ابنها، ثورت مع هذه الأملاك، وكانت على الدوام من خدم الرجل، ولما كانت رفيقته. وكان يطلب إليها أن تلد له كثيراً من الأبناء، والأبناء الذكور بطبيعة الحال، لأن واجبها أن تنجب المحاربين، ولم تكن في كثير من الأحوال إلا زوجة واحدة من كثيرات من الزوجات وكان في وسع الرجل أن يخرجها من بيته متى شاء. ولكن مفاتها لم تكن تقل عن الحرب إلهاماً لخيال الشعراء، وموضوعاً لشعرهم، وكان العربي قبل الإسلام أمياً ولكن حبه للشعر لم يكن يزيد عليه إلا حبه للخيل والنساء والخمر. ولم يكن بين العرب في الجاهلية علماء أو مؤرخون ولكنهم كانوا مولعين بفصاحة اللسان، وصحة الكلام، والشعر المختلف المعقد الأوزان. وكانت اللغة العربية قريبة الشبه باللغة العبرية، معقدة في تصريفها، غنية بمفرداتها، دقيقة في الفروق بين ألفاظها، قادرة في ذلك الوقت على التعبير عن جميع أحاسيس الشعراء وفيما بعده عن جميع دقائق الفلسفة. وكان العرب يفخرون بتقديم لغتهم وكمالها، يولعون بتريدها مقاطعها العذبة في خطبهم الرنانة وشعرهم الجدل ونثرهم الرصين، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والمدن، وفي مخيمات الصحراء أو الأسواق، مغامرات أبطالهم أو قبائلهم أو ملوكهم في الحب أو الحرب في قصائد طوال من الشعر الموزون المقفى. وكان الشاعر العربي مؤرخ العرب، وجامع أنسابهم، وهجاءهم، والمعتنى بفضائلهم، وناقل أخبارهم، وما همهم، وداعيتهم إلى القتال. وإذا نال الشاعر جائزة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى

صفحة رقم : 4444

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

أن، كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج؛ وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ، حيث كانت تتنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها. ولم يكن في هذا السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التي تبدي استحسانها لما تسمع أو احتقارها له. وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقعة فسميت من أجل ذلك "بالمذهبات"، وكان يُحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالدًا قيماً. وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائز منها كما تقول القصص المتواترة قد كتبت على الحرير المصري بأحرف من ذهب وعُلقت على جدران الكعبة في مكة. وقد بقيت من هذه المعلقات التي قبلت في الجاهلية سبع قصائد يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي، وهي قصائد طوال من الشعر المقفى المعقد الأوزان، وموضوعها في العادة هو الحب أو الحرب. وتقص إحداها وهي معلقة لبيد قصة جندي عاد من الحرب إلى قريته وبيته حيث كان قد ترك زوجته، فوجد بيته خالياً، وقد غادرت زوجته مع

رجل غيره. ويصف ليبد منظر هذا البيت الخيالي بحنان لا يقل عن حنان جولد سمث . ويزيد عليه في فصاحة الشعر وقوة التعبير. وفي معلقة أخرى تستحث النساء الرجال إلى الحرب بقولهن:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الديار

ضرباً بكل بتار

نحن بنات طارق لا نئنثي لوامق

صفحة رقم : 4445

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

نمشي على النمارق المسك في المفارق

والدر في المخانق إن تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

وفي معلقة لأمرئ القيس أبيات تتم عن حب شهواني سافر:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علي حرصاً لو يسرون مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل

فقالتم يمين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلي

خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

فلما اجزنا ساحة الحي وانتحي بنا بطن خبت حقاف عقنقل

هصرت بفودي رأسها فتمايلت على هضيم الكشح رياً المخلخل

مهفهفة ببضاء غير مفاضلة تراثبها مصقولة كالسجنجل

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هي نضته ولا بمعطل

وفرع يزين المتن أسود فاحم أثيت كقنوة النخلة المتعكل

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقائص في مثني ومرسل

وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقي المذلل

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تتنطق عن تفضل

وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبي أو مساويك أسحل

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممس راهب متبتل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

وكان شعراء الجاهلية ينشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى، فجمعوا بذلك بين الشعر والموسيقى في صورة واحدة. وكان الناي، والمزهر، والدف أحب الآلات الموسيقية إليهم، وكثيراً ما كانت الفتيات المغنيات يُستدعين لتسليّة الأضياف في الولائم. وكان في مجال الشراب عدد منهن، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات ليفرجن عنهن متاعب الملك. ولما خرج أهل مكة لقتال النبي في عام 634 أخذوا معهم سرباً القيان ليلينهم ويشجعهم على القتال، وكانت الأغاني العربية حتى في أيام الجاهلية أناشيد مشجبة حزينة، لا تُستخدم فيها إلا ألفاظ قليلة نغمتها على الدوام في الدرجات العليا من السلم الموسيقي، وتكفي فيها أبيات قليلة لتشغل المعنى ساعة كاملة.

وكان للعربي ساكن الصحراء دينه الدال على حذقه ودهائه رغم بدائنته. فكان يهاب ويعبد أرباباً لا حصر لها في النجوم، والقمر، وفي أطباق الأرض، وكان حين إلى حين يطلب الرحمة من السماء المنتقمة، ولكنه لم يكن في الغالب يستبين سبيل الرشاد بين الجن المحيطين به، ولا يرى أملاً في استرضائهم، فغلب عليه من أجل ذلك النزعة الجبرية والاستسلام، فإذا دعاهم في رجولة ولم يطل الدعاء، ويستهزئ بالأبدية ولا يعباؤها، ويبدوا أنه لم يكن يفكر كثيراً في الحياة بعد الموت، على أنه كان في بعض الأحيان يطلب أن يربط جملة بجوار قبره، وأن يُمنع عنه الطعام حتى يلحق به بعد قليل في الدار الآخرة، وينجيه من مذلة السير على قدميه في الجنة، وكان بين الفينة والفينة يقدم لآلهته الضحايا البشرية، كما كان في بعض الأماكن يعبد الأصنام الحجرية.

وكانت مكة مركز عبادة الأصنام. ولم يكن سبب قيام هذه المدينة المقدسة في موضعها الذي قامت فيه هو جودة مناخها، ذلك أن الجبال الجرداء التي تكاد تطبق عليها من جميع الجهات تجعل صيفها حار لا يطاق. وكان الوادي الذي تقوم

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

فيه غير ذي زرع، ولا يكاد يوجد في البلدة كلها كما عرفها محمد حديقة واحدة، ولكن موقعها في منتصف ساحل البلاد الغربي، وعلى بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر، جعلها محطة صالحة في طوق القوافل الطوال التي تجمع في بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتي كانت تحمل المتاجر بين جنوبي بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وأفريقية الوسطى) وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة، ويسيطرون على أسواق عكاظ، ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس.

ومعنى الكعبة البيت المربع. واللفظ ذو صلة باللفظ الإنجليزي Cube (مكعب) ومن المعتقدات الشائعة أن الكعبة بنيت ثم أعيد بناؤها عشر مرات، فقد بناها في فجر التاريخ ملائكة السماء، وبناها في المرة الثانية آدم أبو البشر، وفي المرة الثالثة ابنه شيث، ثم بناها في المرة الرابعة إبراهيم وإسماعيل ابنه من هاجر... وبناها في المرة السابعة قصي زعيم قبيلة قريش، وبناها في المرة الثامنة كبار قريش في حياة محمد (605)، وبناها في المرتين التاسعة والعاشر زعماء المسلمين عامي 681 و 696. والكعبة كما بنيت في المرة العاشرة هي كعبة هذه الأيام في معظم أجزائها. وهي مقدمة ي داخل بناء واسع هو المسجد الحرام. وهي بناء مربع من الحجر طولها أربعون قدماً، وعرضها خمسة وثلاثون، وارتفاعها خمسون، وفي ركنها الجنوبي الشرقي، وعلى بعد خمسة أقدام من سطح الأرض، الحجر الأسود، وهو حجر قاتم اللون بيضي الشكل قطره سبع بوصات. ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء ولعله كان صاعقة؛ ويقول معظمهم

صفحة رقم : 4448

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

إنه وجد بالكعبة من أيام إبراهيم، ويرى علماء المسلمين أنه رمز لذلك الفرع من أبناء إبراهيم فرع إسماعيل وأبنائه الذي نبذه بنو إسرائيل فكان منه أباء قبيلة قريش. ويؤيدون قولهم هذا بما جاء في المزمور الثامن عشر بعد المائة في الأيتين 22 و 23 "الحجر الذي رفضه البناؤون صار رأس الزاوية"، وفي الأيتين 42 و 43 من الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متي، وهو قول عيسى بعد أن نطق بهذه العبارة العجيبة: "لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره" وإن لم يكن في وسع المسلمين أن يقولوا إنهم قد حققوا ما قاله عنهم المسيح .

وكان في الكعبة قبل الإسلام عدد من الأصنام تمثل معبودات العرب. منها، اللات، والعزى، ومناة. وفي وسعنا أن ندرك قدم عهد هذه الآلهة العربية إذا عرفنا أن هيرودوت قد ذكر الإلات (اللات) على أنها من أكبر آرباب العرب. وكانوا يقولون لأهل مكة أن إلههم الأكبر رب أرضهم، وإن عليهم أن يؤدوا لها عشر محاصيلهم، والثمرة الأولى من

نتاج قطعانهم. وكانت قريش، وهي التي تعزو نسبها إلى إبراهيم وإسماعيل، تختار من بين رجالها سدنة الكعبة وخدامها والمشرفين على مواردها المالية. وكانت أقلية أرسنقراطية منه هم بنو قصي يتولون زمام الحكومة المدنية في مكة.
وكانت قريش في بداية القرن السادس منقسمة إلى فئتين متنافستين، إحداهما يتزعمها التاجر الثري الخير هاشم، والأخرى يتزعمها ابن أخيه أمية.

صفحة رقم : 4449

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> جزيرة العرب

وكان لهذا التنافس الشديد شأنه العظيم في تاريخ العرب بعد الرسالة. ولما توفي هاشم خلفه في زعامة بيته أخوه الأصغر عبد المطلب-وفي عام 568 تزوج عبد الله بن عبد المطلب بأمنة، وهي أيضاً من قصي، وأقام عبد الله مع عروسه أياماً قليلة سافر بعدها في بعثة تجارية. ومات في المدينة وهو راجع من سفره وبعد شهرين من وفاته (569) ولدت أمنة أعظم شخصية في تاريخ العصور الوسطى .

صفحة رقم : 4450

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

الفصل الثاني

[نكرر هنا ما ذكرناه في مقدمة هذا الجزء من أننا أثّرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن والدين الإسلامي كما أوردنا حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة ولكي يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أو لا يتفق معه. يضاف إلى ذلك أن هذه الفصول لا تخلو من كثير من الثناء على النبي وتمجيد للإسلام يصح أن يطلع عليه القراء. على أن إثباتنا لأقوال المؤلف لا يعني مطلقاً أننا نوافق عليه. وقد ذكر وهو مسيحي في كلامه على المسيحية ما لا يوافق عليه كثيرون من أبنائها كما ذكر عن اليهودية ما لا يوافق عليه كثيرون من اليهود، ويجب أن لا يغفل القراء التعليقات التي أتبناها في هوامش هذه الفصول].

لقد كان محمد من أسرة كريمة ممتازة، ولكنه لم يرث منها إلا ثروة متواضعة، فقد ترك له عبد الله خمسة من الإبل، وقطيعاً من المعز، وبيتاً، وأمة عنيت بتربيته في طفولته. ولفظ محمد مشتق من الحمد وهو مبالغ فيه، كأنه حمد مرة بعد مرة، ويمكن أن تنطبق عليه بعض فقرات في التوراة تبشر به. وقد توفيت أمه وهو في السادسة من عمره وكفله أولاً جده وكان وقتئذ في السادسة والسبعين من عمره ثم عمه أبو طالب ولقي منهما كثيراً من الحب والرعاية، ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة. ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرءون ويكتبون. ولم يُعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجدِّ بأشهر وأبلغ كتاب

في اللغة العربية، أو بين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلما يصل إليه أرقى الناس تعليماً. ولا نكاد نعرف عن شباب محمد إلا القليل، وكان ما يروى عنه من القصص قد ملاً عشرة آلاف مجلد. وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثامنة عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلاً من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية. وتصور قصة أخرى بعد بضعة

سنين من الرحلة السابقة مسافراً إلى بصرى في تجارة إلى السيدة خديجة وكانت وقتئذ أرملة غنية، ثم نراه في الخامسة والعشرين من عمره وقد تزوج فجأة بهذه السيدة وهي وقتئذ في الأربعين من عمرها وأم لعدة أبناء. ولم يتزوج غيرها حتى توفيت بعد ذلك بستة وعشرين عاماً، ولم يكن الاقتصار على زوجة واحدة أمراً مألوفاً عند أغنياء العرب في ذلك الوقت، ولكن لعله كان طبيعياً في حالتها. وقد رزق منها عدة بنات أشهرهن كلهن فاطمة، كما رزق بولدين توفيا في طفولتهما. وقد وجد سلواه في تبنى علي بن أبي طالب الذي مات عنه والده. وكانت خديجة سيدة طيبة، وزوجة صالحة، وتاجرة بارعة ظلت وفيه لمحمد في صروف حياته الروحية، وظل يذكرها بعد وفاتها على أنها خير نسائه كلهن.

ويصف زوج فاطمة محمداً وهو في سن الخامسة والأربعين بقوله:

لم يكن الطويل الممغط ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ولا السبط، وكان جعداً رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان أبيض مشرباً أدعج العينين أهدب الأشفار، جليل المشاش والكند، دقيق

صفحة رقم : 4452

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

المشربة، أجود شئن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشي في صبيب، وإذا التفت التفت معاً،... أجود الناس كفاً وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من آره بديهته، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته "لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم".

وكان محمد مهيب الطلعة، لا يضحك إلا قليلاً، قادراً على الفكاهاة ولكنه لا يترك العنان لهذه الموهبة، لأنه كان يعرف خطورة المزاح إذا نطق به من يتولى أمور الناس، ولم يكن قوي البنية، ولهذا كان مرهف الحس سريع التأثر، ميالاً إلى الانقباض كثير التفكير. كان إذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاع لها من حوله، ولكنه كان يعرف متى يهدأ من انفعاله، وكان في وسعه أن يعفو من فوره عن عدوه الأعزل إذا تاب.

وكان في بلاد العرب كثيرون من المسيحيين، وكان منهم عدد قليل في مكة، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي كان مطلعاً على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة. وكثيراً ما كان محمد يزور المدينة التي مات فيها والده، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها. وتدل كثير من آيات القرآن على إعجابه بأخلاق المسيحيين، وبما في دين اليهود من نزعة إلى التوحيد، وبما عاد على المسيحية واليهودية من قوة كبيرة لأن لكلتيهما كتاباً مقدساً تعتقد أنه موحى من عند الله. ولعله قد بدا له أن ما يسود جزيرة العرب من شرك، ومن عبادة للأوثان، ومن فساد خلقي، ومن حروب بين القبائل وتفكك سياسي، نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب إذا قورنت

صفحة رقم : 4453

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

مورد رزقهم ، وكادوا يوقعون به أذى جسيماً لولا أن حماه عنهم عمه أبو طالب. ولم يعتنق أبو طالب الدين الجديد، ولكن إخلاصه لتقاليد العرب القديمة تحتم عليه أن يحمي كل فرد من أفراد قبيلته. وكان خوف قريش من إثارة الفتنة الصماء بين العرب مانعاً لها من استخدام العنف مع محمد والأحرار من أتباعه، أما من آمنوا به من العبيد فقد كان في وسعهم أن يستخدموا من الأساليب ما يرونه كفيلاً بردهم عن الدين الجديد دون أن يخالفوا بذلك قوانين القبائل وتقاليدها. فزجوا بعضهم في السجون وعرضوا البعض الآخر ساعات طوال إلى وهج الشمس وهم عراة الرؤوس. ومنعوا عنهم الماء وكان أبو بكر قد ادخر من تجارته خلال عدة سنين أربعين ألف قطعة من الفضة، فلما رأى ما كان يحدث لأولئك العبيد أنفق 35000 منها في تحرير أكبر عدد من العبيد المسلمين، ويسر محمد الأمر بقوله إن المرتد المكره لا عقاب عليه وغضبت قريش من ترحيب محمد بالعبيد أكثر من غضبها من عقيدته الدينية. وظلت تضطهد من دخل في الإسلام من الفقراء اضطهاداً بلغ من القسوة حداً لم يسع النبي معه إلا أن يأذن لهم أو يشير عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة، حيث رحب بهم ملكها المسيحي وأكرم وفادتهم(615). وحدث بعد عام من لك الوقت حادثه كان لها من الشأن في تاريخ

صفحة رقم : 4458

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

الإسلام ما كان لإيمان بولس في تاريخ المسيحية. تلك هي اعتناق عمر بن الخطاب للدين الجديد بعد أن كان من ألد أعدائه وأشدهم عنفاً في مناهضته. وكان عمر رجلاً قوي الجسم، ذا مكانة اجتماعية عالية، وشجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير. وبعث إسلامه الثقة في قلوب المؤمنين المضطهدين، وهي ثقة ما كان أحوجهم إليها في ذلك الوقت كما كان سبباً في دخول كثيرين من العرب في الدين الجديد. وبدأ المسلمون من ذلك الوقت يدعون الناس جهرة في الشوارع والطرق بعد أن كانوا من قبل لا يعبدون الله إلا سراً في بيوتهم. واجتمع المدافعون عن آلهة الكعبة وأقسموا

أن يقطعوا كل صلة بينهم وبين من لا يزالون من بني هاشم يرون واجباً عليهم أن يدافعوا عن محمد. ورأى كثيرون من الهاشميين ومن بينهم محمد وأسرته حقناً للدماء أن ينسحبوا إلى شعب منعزلة في مكة يستطيع أبو طالب أن يدفع عنهم الأذى فيه (615). وظلت هذه الفرقة بين العشائر قائمة سنتين كاملتين عاد بعدها بعض رجال قريش إلى صوابهم فدعوا الهاشميين أن يعودوا إلى بيوتهم وتعهدوا ألا يمسههم بسوء. وابتهجت لهذه القلة المسلمة في مكة، ولكن ثلاثة خطوب أمت بمحمد في عام 619، فقد توفيت في ذلك العام السيدة خديجة أوفى الناس له وأكثرهم تأييداً لدعوته، وتوفي أبو طالب الذي كان ينصره ويدافع عنه. وأحس محمد أنه لا يأمن على نفسه في مكة، وآمه بطء انتشار الدعوة فيها، فهاجر إلى الطائف (620). وهي بلدة ظريفة بعيدة عن مكة بنحو ستين ميلاً إلى جهة الشرق، ولكن الطائف لم تقبله، لأن زعماءها لم يروا من مصلحتهم أن يغضبوا أشرف مكة للتجار، ولأن العامة فزعوا من الدين الجديد فأخذوا يهزعون بمحمد في الشوارع، ويقذفونه بالحجارة، حتى سال الدم من ساقيه، فعاد إلى مكة، وتزوج أرملة تدعى سودة، ثم خطب وهو في سن الخمسين عائشة بنت أبي بكر وكانت

صفحة رقم : 4459

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

وَقَتْنَدُ قَتَاةَ حَسَنَاءَ فِي السَّابِعَةِ مِنَ الْعَمْرِ . ولم ينقطع عنه الوحي في هذه الأثناء، وخيل إليه في ذات ليلة أنه انتقل من نومه إلى بيت المقدس، حيث رأى في انتظاره عند المبكى من أنقاض هيكل البُرَاق، وهو جواد مجنح فطار به إلى السماء، ثم عاد به منها، ثم وجد النبي نفسه بمعجزة أخرى أماناً في فراشه بمكة. وبفضل الإسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين . وفي عام 620 أخذ محمد بيت الدعوة بين التجار الذين وفدوا على مكة ليحجوا إلى الكعبة، وقبل بعض التجار دعوته، لأن عقائد التوحيد، والرسول المبعوث من عند الله، ويوم الحساب كانت مألوفة عندهم، انتقلت إليهم من يهود المدينة. ولما عاد هؤلاء التجار إلى بلدهم أخذ بعضهم يدعون أصدقائهم إلى الدين الجديد، ورحب بعض اليهود بهذه الدعوة لأنهم لم يروا فارقاً كبيراً بين تعاليم محمد وتعاليمهم. وفي عام 622 أقبل على محمد في مكة سراً ثلاثة وسبعون رجلاً من أهل المدينة ودعوه إلى الهجرة إلى بلدهم واتخاذها موطناً له. فسألهم هل يدافعون عنه كما يدافعون عن أبنائهم، فأقسموا أن يفعلوا، ولكنهم سألوهم عما يُجزون به إذا قُتلوا في أثناء دفاعهم عنه، فأجابهم بأن جزائهم هو الجنة. وفي ذلك الوقت أصبح أبو سفيان حفيد أمية زعيم قريش في مكة، وكان قد نشأ في جو من الكراهية لبني هاشم، فعاد إلى اضطهاد أتباع محمد، ولعله

صفحة رقم : 4460

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في مكة

قد سمع أن النبي يعتزم الهجرة من مكة، وخشي أنه إذا استقر له الأمر في المدينة قد يشن الحرب على مكة وعلى آلهة الكعبة. وعهدت قريش بتحريضه إلى بعض رجالها أن يقبضوا على محمد، ولعلها عهدت إليهم أن يقتلوه، وعلم محمد بالخبر ففر هو وأبو بكر إلى غار ثور على بعد فرسخ من مكة، وظل رسل قريش يبحثون عنهما ثلاثة أيام ولكنهم عجزوا عن العثور عليهما. وجاء أبناء أبي بكر لهما بجملين فركباهما في أثناء الليل واتجها بهما شمالاً، وبعد أن ضل سائرين عدة أيام قطعاً فيها نحو مائتي ميل وصلاً أخيراً إلى المدينة في 24 سبتمبر من عام 622. وكان قد سبقهم إليها مائتان من المسلمين بدعوى أنهم حجاج عائدون من مكة، ووقفوا عند أبواب المدينة ومعهم من أسلم من أهلها ليستقبلوا النبي، وبعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اتخذ الخليفة عمر اليوم الأول من السنة العربية التي حدثت فيها تلك الهجرة، وكان هو في ذلك العام يوم 16 يولية من سنة 622، البداية الرسمية للتاريخ الإسلامي.

صفحة رقم : 4461

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

الفصل الثالث

محمد في المدينة

تقع يثرب، التي سميت فيما بعد "مدينة النبي" على الحافة الغربية من الهضبة العربية الوسطى. وكانت إذا قورنت من حيث جوها بمكة بدت كأنها جنة عدن، وكان بها مئات من الحدائق وغياض النخل، والضياع. ولما دخل محمد المدينة تقدمت إليه طائفة في إثر طائفة وألحت عليه أن ينزل عندها ويقيم معها؛ وأمسك بعضها بزمام ناقته لتمنعه عن مواصلة السير وأصررت على ذلك إصراراً تمليه عليها تقاليدها العربية، وكان جوابه غاية في حسن السياسة فكان يقول لهم: "خلوا سبيلها فإنها مأمورة"، وبهذا لم يترك للغيرة سبيلاً إلى قلوبهم لأن الله وحده هو الذي يسير الناقة ويهديها إلى حيث تقف. وبنى محمد في المكان الذي وقفت فيه ناقته مسجداً وبيتين متجاورين أحدهما لسودة والآخر لعائشة، وأضاف إليهما مساكن أخرى لزوجاته الأخريات.

وكان حين غادر مكة قد قطع كثيراً من صلوات القرابة، فلما جاء إلى المدينة اعتزم أن يستبدل بصلوات الدم صلوات الأخوة الدينية في الدولة الجديدة، كما أراد أن يقضي عل أسباب الغيرة بين المهاجرين الذين جاؤوا من مكة والأنصار الذين أسلموا من أهل المدينة وكانت بوادر هذه الغيرة قد بدت في ذلك الوقت فأخى بين كل واحد من إحدى الطائفتين وزميل له من الطائفة الأخرى، وطلب إلى كليهما أن تصلي في المسجد مع أختها. وفي أول احتفال أقيم في المدينة سعد المنبر وقال بصوت عالٍ "الله أكبر" وردد المجتمعون النداء بأعلى صوتهم وسجد لله وهو لا يزال متجهاً بظهره إليهم، ثم نزل عن المنبر بظهره فلما وصل إلى آخره

صفحة رقم : 4462

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

سجد لله ثلاث مرات وكان هذا السجود رمزاً للخضوع إلى الله والاستسلام له ومنه سمي الدين الجديد بالإسلام أي "الاستسلام" و"السلام"، وسمي أتباعه بالمسلمين. ثم التفت إلى الحاضرين وأمرهم أن يحافظوا على هذه الشعائر إلى أبد الدهر، ولا يزال المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتبعون هذه السنة في الصلاة سواء كانت في مسجد، أو ضاربين في الصحراء أو في بلد غريب لا مسجد فيه. وتنتهي الصلاة بخطبة كانت في زمن النبي خبراً عن وحي وتوجيهاً لأعمال الأسبوع وسياسته. ذلك أن النبي كان ينشئ حكومة مدنية في المدينة. واضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متراً ابداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعي، والأخلاق، والعلاقات السياسية بي القبائل، ولشؤون الحرب، لأنه لم يكن ثمة حد فاصل بين الشؤون الدينية والدينية، بل اجتمعت هذه الشؤون كلها في يد الزعيم الديني كما كانت الحال عند اليهود.

فكان محمد في المدينة الرسول الديني والحاكم السياسي جميعاً، ولم ترض أكثرية العرب عن هذا الوضع وأخذت تنظر بعين الريبة إلى الدين الجديد وشعائره، وترى أن محمداً كاد يقضي على تقاليد العرب وحرثيتهم، وأنه كان يزوج به في الحروب، وكان من هؤلاء يهود المدينة الذين ظلوا متمسكين بدينهم ولم ينقطعوا عن الاتجار مع قريش في مكة. وقد عقد محمد مع أولئك اليهود عهداً ينم عن مهارة سياسية كبيرة، وقد جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن يتبعهم فالحق بهم وجاهد معهم، إنهم

أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربقتهم يتعاقلون بينهم وهم يقدرون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة، وبنو الحارث، وبنو جشم،

صفحة رقم : 4463

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

وبنو النجار، وبنو عمر بن عوف، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وإن ذمة الله واحدة، وأن من تبعا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مناصرين عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود وبينهم مواليتهم وأنفسهم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسرعان ما قبلت هذا جميع قبائل اليهود في المدينة وما حولها قبيلة بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع. وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد. ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت. فلما كللت هذه الغارات بالنصر أعطى المغيرين أربعة أخماس الغنائم، واحتفظ بالخمس الباقي للأعمال الدينية والخيرية، وكان نصيب من استشهد في هذه الغزوات من حق أرملته، أما هو فكان جزاءه الجنة. وكثرت الغزوات، وتضاعف عدد المشتركين فيها، وارتاع لها تجار مكة الذين كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على سلامة قوافلهم، فأخذوا يدبرون أمر الانتقام من محمد والمسلمين. وكان من هذه الغارات واحدة حدثت في آخر يوم من شهر رجب أحد

صفحة رقم : 4464

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

الأشهر الحرم التي كان العرب يمتنعون فيها عن جميع أعمال القتال، وقتل فيها رجل، وأساءت بذلك إلى سمعة أهل مكة والمدينة على السواء وإلى تقاليد العرب المرعية منذ القدم. وفي عام 623 جمع محمد نفسه ثلاثمائة من المسلمين المسلحين، واعترض طريق قافلة قادمة من الشام إلى مكة. وعلم أبو سفيان وكان على رأس القافلة بهذه الخطة، فغير طريقه، وأرسل إلى مكة من يطلب النجدة، وبعثت قريش بتسعمائة من رجالها، والتقى الجيشان الصغيران عند وادي بدر على بعد عشرين ميلاً جنوبي المدينة. ولو أن محمداً هُزم في هذه الغزوة لقضي عليه وعلى الإسلام في هذه المعركة، ولكنه قاد رجاله بنفسه وانتصر على قريش؛ وقويت بهذا النصر شوكة الإسلام، وعاد المسلمون إلى المدينة ومعهم كثير من الأسرى والغنائم (يناير عام 624)، وقتل من هؤلاء الأسرى بعض من كانوا أشد الناس اضطهاداً للمسلمين في مكة، وأطلق سراح الباقين نظير فدية كبيرة، ونجا أبو سفيان، وأندر المسلمين بالانتقام. ولما عاد إلى مكة أخذ يواسي أسر القتلى ويشجعهم، ويطلب عدم البكاء عليهم وراثتهم ويقول إن الحرب سجال وإنهم سيأخذون بثأرهم. ثم أقسم ألا يقرب زوجه إلا بعد أن يخرج مرة أخرى لقتال محمد. واشتد ساعد محمد بهذا النصر، وجرى العرب بعده على الأساليب المألوفة في الحروب. من ذلك أن شاعرة تدعى عصماء هاجمته في شعرها فتسلل عمير، وهو مسلم ضريير إلى بيتها وطعنها وهي نائمة بسيفه في صدرها طعنة بلغ من قوتها أن نفذ السيف من تحتها إلى فراشها. وفي اليوم التالي سأل محمد عميراً هل قتل عصماء فأجابته، يا رسول الله إني قد قتلتها، فقال "نصرت الله ورسوله يا عمير"؛ فقال عمير: "هل علي شيء من شأنها يا رسول الله؟" فأجابته بقوله إن هذا أمر "لا ينتطح فيه عنزان". ومنها أن رجلاً ممن اعتنقوا الدين اليهودي يدعى أبا عفك يناهز من العمر مائة عام هجا النبي فقتله بعضهم وهو نائم في فناء بيته، وارث شاعر ثالث

صفحة رقم : 4465

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

من أهل المدينة يدعى كعب بن الأشرف، وكانت أمه يهودية، حين انقلب محمد على اليهود، وكتب قصائد يحرض فيها قريشاً على أن يثأروا لهزيمتهم، وأثار غضب المسلمين بتشبيهه بنسائهم، فقال النبي "من لي بابن الأشرف؟" فلم يمض آخر النهار حتى كان رأس الشاعر ملقى أمام قدميه. وكان المسلمون يرون أن هذه الأعمال وأمثالها إن هي إلا دفاع مشروع عن أنفسهم من الخونة، فقد كان محمد رئيس دولة، وكان من حقه أن يصدر فيها الأحكام ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذي النزعة الحربية، والذي بدا لهم أول الأمر شديد الشبه بدينهم، وأخذوا يسخرون من تفسير محمد لكتابهم المقدس، وقوله أنه هو الذي بشر به آبؤهم، وكان جوابه أن قال، كما أوحى إليه، إنهم حرقوا كتابهم، وقتلوا أنبياءهم، وأبوا أن يصدقوا المسيح. وكان قد اتخذ بيت المقدس قبلة يتجه إليها المسلمون في الصلاة، فاستبدل به في عام 624 مكة والكعبة، واتهمه اليهود بأنه قد عاد إلى عبادة الأوثان. وحدث في هذا الوقت أن زارت فتاة مسلمة سوق بني قينقاع اليهودي في المدينة، وبينما هي جالسة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

في حانوت صائغ إذ شبك يهودي خبيث قميصها من وراء ظهرها في أعلى ثيابها، فلما قامت ورأت ما فعل بها بكت مما لحقها عار فقتل أحد المسلمين اليهودي الأثيم، وقتل أخوه اليهودي المسلم، فجمع محمد أتباعه وحاصر يهود بني قينقاع في حيهم خمسة عشر يوماً، حتى استسلموا، فقبل استسلامهم وأمرهم أن يخرجوا بقضهم وقضيضهم من المدينة ويتركوا وراءهم جميع ممتلكاتهم، وكان عددهم في ذلك الوقت نحو سبعمائة.

ولا يسعنا إلا أن نعجب بأبي سفيان لأنه استطاع أن يكظم غيظه وينتظر بعد يمينه غير الطبيعية عاماً كاملاً قبل أن يقدم على قتال محمد. وفي أوائل 625 سار على رأس جيش تبلغ عدته ثلاثة آلاف رجل إلى جبل أحد على بعد ثلاثة أميال شمالي المدينة، وصحب الجيش خمسة عشر من النساء بينهن زوجات أبي سفيان ليثرن حماسة الجند بأغانيهن الحزينة ودعوتهن إياهم إلى الانتقام.

ولم يكن جيش المسلمين يزيد على ألف، وهُزم المسلمون في هذه الغزوة، وحارب فيها محمد بشجاعة عظيمة، وأصيب بعدة جروح وحُمِل من الميدان. وقتل في المعركة حمزة عم النبي ومضغت كبده هند أشهر زوجات أبي سفيان، وكان أبوها، وعمها، وأخوها قد قتلوا جميعاً في غزوة بدر، وكان حمزة نفسه هو الذي قتل أباهما، ثم لم تكتف بهذا بل صنعت لنفسها من جلده وأظفاره خلاخيل وأساور. وظن أبو سفيان أن محمداً قد مات، وعاد منتصراً إلى مكة. وبعد ستة أشهر من هذه الواقعة شفي النبي واستطاع أن يهاجم بني النضير، لأنهم أعانوا قريشاً على

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

المسلمين وكانوا يأترون به ليقتلوه. وبعد أن حاصروهم ثلاثة أسابيع أذن لهم أن يهاجروا من المدينة على أن تأخذ كل أسرة معها حمل بعير. واستولى النبي على بعض ما كان لهم من بساتين النخيل الغنية، فكان بعضها له، ووزع مل بقي منها على المهاجرين. لقد كان محمد يرى أنه في حرب مع أهل مكة، وأن من حقه أن يؤمن نفسه بإبعاد الجماعات المعادية له عن جناحيه.

وعادت قريش وعاد أبي سفيان إلى مهاجمة المسلمين في عام 626 بجيش يبلغ 10.000 رجل يساعدهم يهود بني قريظة مساعدة جديّة. ورأى محمد أنه لا يستطيع مقابلة هذه القوة الكبيرة في الميدان، ففضل أن يدافع عن المدينة بحفر خندق حولها. وحاصرتها قريش عشرين يوماً حتى فتّ في عضدهم المطر والعواصف، فعادوا إلى أوطانهم، وقاد محمد من فوره ثلاثة آلاف من المسلمين وهاجم بهم يهود بني قريظة، فلما استسلموا خيرهم بين الإسلام والموت. وكان النبي في ذلك الوقت قد أصبح من مهرة القواد، فقد جهز في العشر السنين التي قضاها في المدينة خمساً وستين غزوة وسرية حربية قاد بنفسه سبعمائة وعشرين منها، ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم، وكان يشارك المهاجرين في الحنين إلى بيوتهم وأسرهم في مكة، ويشارك المهاجرين والأنصار جميعاً في الحنين إلى زيارة الكعبة، التي كانت في صباهم عزيزة عليهم وموضع إجلالهم.

صفحة رقم : 4468

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

وفي عام 628 أرسل محمد إلى قريش يعرض عليهم الصلح، ويتعهد لهم بسلامة قوافلهم إذا رضوا أن يؤدي شعائر الحج في موسمه. وأجاب زعماء قريش بأنهم يشترطون لقبول هذا العرض أن يمضي قبله عام كامل من السلم، وأدهش محمد أتباعه بقبوله إياه، ووقع الطرفان شروط هدنة تدوم عشر سنين، وحدثت بعدئذ غارة على يهود خيبر في مساكنهم الواقعة في الشمال الشرقي من المدينة على مسيرة ستة أيام منها، ودافع اليهود عن أنفسهم بأحسن ما يستطيعون من دفاع، وسقط منهم في أثناء ذلك ثلاثة وتسعون رجلاً، ثم سلم الباقون آخر الأمر، وسمح لهم بالبقاء في أماكنهم يزرعون الأرض، على شرط أن يسلموا جميع ممتلكاتهم ونصف محصولاتهم المستقبلية إلى الفاتحين. ولم يمس أحد من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عمه فقد قطع رأسهما لأنهما أخفيا بعض ما يملكان، وضمت صفيّة وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة، إلى نساء النبي.

صفحة رقم : 4469

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> محمد في المدينة

وفي عام 629 دخل مسلمو المدينة، البالغ عددهم ألفين، مكة مسالمين، وانسحبت قريش إلى التلال لتجنب الاحتكاك بالمسلمين، وطاف محمد وأتباعه في أثناء ذلك بالكعبة سبع مرات. ومس محمد الحجر الأسود بعصاه مظهراً له دلائل الإجلال، ولكنه نادى ونادى بعده المسلمون "لا إله إلا الله". وكان لمسلك المسلمين المنفيين وحسن نظامهم، ووطنيتهم، وتقواهم أعظم الأثر في نفوس أهل مكة، فأسلم من قريش عدد من ذوي المكانة من بينهم خالد بن الوليد وعمر اللذين صاروا فيما بعد من أعظم قواد المسلمين. وعرضت بعض القبائل المجاورة على النبي أن يؤمنها على دينها نظير مساعدتها إياه في القتال؛ ولما عاد إلى المدينة رأى أنه قد أصبح له من القوة ما يمكنه من الاستيلاء على مكة عنوة.

ولم يكن قد مضى من الهدنة إلا عامان، ولكن إحدى القبائل المتحالفة مع قريش أخلت بشروط الهدنة فهاجمت إحدى القبائل المسلمة، فجمع النبي عشرة آلاف رجل وزحف بهم على مكة، وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين فسمح لهم بأن يدخلوا مكة بلا مقاومة. وكان جواب محمد جواباً كريماً، فقد أعلن عفواً عاماً عن جميع أهل مكة عدا اثنين أو ثلاثة من أعدائه، وحطم الأصنام التي كانت في داخل الكعبة وحولها، ولكنه ترك الحجر الأسود في مكانه وأجاز تقبيله. ونادى بمكة مدينة الإسلام المقدسة، وأعلن أنه لن يدخلها بعد ذلك اليوم كافر، وامتنتعت قريش بعدئذ عن كل مقاومة مباشرة، وأصبح الرجل المضطهد الذي هاجر من مكة منذ ثمان سنين صاحب الكلمة العليا في حياتها.

صفحة رقم : 4470

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

الفصل الرابع

انتصار النبي

قضى النبي معظم العامين الباقيين من حياته في المدينة، وكان ينتقل فيها من نصر إلى نصر، فقد خضعت فيهما بلاد العرب كلها، بعد فتن قليلة الشأن، إلى سلطانه ودخلت في دين الإسلام. وجاء إلى المدينة كعب ابن زهير، أعظم شعراء العرب في ذلك الوقت، وكان قد هجا النبي في بعض قصائده، وأسلم نفسه إليه، واعتنق الإسلام، فعفا عنه النبي، وأنشأ الشاعر قصيدة عصماء في مديح النبي أجازه عليها ببردته، وعاهد النبي المسيحيين في بلاد العرب، وأخذ على نفسه أن يحميهم وأن يكونوا أحرار في ممارسة شعائر دينهم نظير ضريبة هينة، ولكنه نهاهم عن الربا. ويقول المؤرخون إنه بعث الوفود إلى ملك الروم، وملك الفرس وإلى أمير الحيرة وبنو غسان، يدعوهم إلى الدين الجديد؛ ويلوح أن أحداً منهم لم يرد على رسائله، وكان يشهد بعين المستسلم الفيلسوف الحروب المشتعلة نارها بين فارس وبيزنطية وما جرته على الدولتين من خراب، ولكنه يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب.

صفحة رقم : 4471

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

وكانت أعمال الحكومة تشغل وقته كله، فقد كان يُعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة في شؤون التشريع والقضاء، والتنظيم المدني، والديني، والحزبي. وحتى التقويم نفسه قد عني بتنظيمه لأتباعه، فقد كان العرب يقسمون السنة كما يقسمها اليهود إلى اثني عشر شهراً قمرياً، وكانوا يضيفون إليها شهراً كل ثلاث سنوات لكي تتفق مع السنة الشمسية. فأمر النبي أن تكون السنة الإسلامية اثني عشر شهراً على الدوام كل منها ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون على التوالي، وكانت نتيجة هذا أن أصبحت السنة الإسلامية فيما بعد غير متفقة مع فصول السنة، وأن تقدم التقويم الإسلامي سنة كاملة على التقويم الجريجوري كل اثنتين وثلاثين سنة. ولم يكن النبي مشرعاً علمياً، فلم يضع لأُمَّته كتاباً في القانون أو موجزاً فيه، ولم يسر في تشريعه على نظام مقرر، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف. فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحى جديد ينسخ القديم ويجعله كأنه لم يكن، وحتى شؤون الحياة العادية كانت أوامره فيها تُعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله. وكان اضطراره إلى تكيف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشؤون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التصحية القليلة جعل كل نشر يعاته

صفحة رقم : 4472

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة . ومع اضطلاع النبي بهذه الشؤون كلها فقد كان جم التواضع إلى درجة تحببه إلى النفوس، وكثيراً ما كان يعترف بأن ثمة أموراً لا يعرفها، ويحتج على الذين يظنونهم أكثر من إنسان يجري عليه ما يجري على الناس جميعاً من موت ووقوع في الخطأ . ولم يدع في يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات . لكنه مع هذا لم يكن يستتكف أن يستعين بالوحي بالأغراض البشرية والشخصية، كما حدث حين نزل الوحي مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه . وتزوج النبي بعشر نساء وكانت له اثنتان من السراري هن مبعث الدهشة والحسد والتعليق والمدح عند الغربيين، ولكن علينا أن نذكر على الدوام أن نسبة الوفيات العالية من الذكور بين الساميين في العصر القديم وفي بداية العصور الوسطى جعلت تعدد الزوجات، في نظر هؤلاء الساميين، ضرورة حيوية تكاد تكون واجباً أخلاقياً . وكان تعدد الزوجات في نظر النبي أمراً عادياً مسلماً به لا غبار عليه، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير لا يبغي به إشباع الشهوة الجنسية، ويروى عن عائشة حديث عن النبي مشكوك في صحته يقول فيه "حبيب إلي من

صفحة رقم : 4473

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللين، لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام، سقفها من جريد النخل، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمال . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية تُفرش على الأرض ووسادة، وكثيراً ما كان يُشاهد وهو يخصف نعليه؛ وبرقع ثوبه، وينفخ النار، ويكنس أرض الدار، ويحلب عنزة البيت في فئانه، وبيتاع الطعام من السوق . وكان يأكل بيده، ويلعق أصابعه بعد كل وجبة، وكان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير، وكان اللين وعسل النحل كل ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان .

ولم يتعاط الخمر التي حرمها هو على غيره، وكان لطيفاً مع العظماء، بشوشاً في أوجه الضعفاء، عظيمياً مهيباً أمام المتعاطمين المتكبرين، متسامحاً مع أعوانه، يشترك في تشييع كل جنازة تمر به، ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم الخاص، يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام، ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له بعمل يجده من الوقت والقوة ما يمكنانه من القيام به لنفسه . ولم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال رغم ما

كان يرد إليه من الفيء وغيره من الموارد، أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل من القليل. وكان يخصص الصدقات بالجزء الأكبر من هذا المال، لكنه كان ككل الناس يعنى بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت، فكان يتعطر ويكتحل، ويصنع شعره، ويلبس خاتماً نقش عليه "محمد رسول الله" وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل. وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد، لا يطبق الروائح الكريهة، ولا صلصلة الأجراس، أو الأصوات العالية "واقصد في مشيك، واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير". وكان قلقاً عصبي المزاج، يُرى أحياناً كاسف البال، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث؛ وكان حلو الفكاهة فقد

صفحة رقم : 4475

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

قال مرة لأبي هريرة، وكان يتردد عليه كثيراً: "يا أبا هريرة زد غيباً تزدد حباً". وكان محارباً صارماً لا يرحم عدواً، وقاضياً عادلاً في وسعه أن يقسو ويغدر، ولكن أعماله الرحيمة أكثر من أن تُعد. وقد قضى على كثير من الخرافات الهمجية كفقء أعين بعض الحيوانات لوقايتها من الحسد، أو ربط بغير الميت عند قبرهم. وكان أصدقاؤه يحبونه حباً يقرب من العبادة، وكان أتباعه يجمعون بصاقه أو شعره بعد قصه، أو الماء الذي يغسل به يديه، لاعتقادهم أن في هذه الفضلات شفاء لهم من ضعفهم أو مرضهم.

وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره، وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ونوبات غريبة. وتقول عائشة إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل، ويزور القبور، ويطلب المغفرة للأموات، ويدعو الله لهم جهرة، ويهنئهم على أنهم موتى. ولما بلغ الثالثة والستين من عمره اشتدت عليه هذه الحميات، وحدث في إحدى الليالي أن شكت عائشة الصداع، وأن شكاه هو نفسه وسألها وهو يمازحها إلا تفضل أن تموت هي قبله، فتحظى بأن يدفنها رسول الله، فأجابته بحديثها المعهود، أنه حين يعود من دفنها سيأتي بعروس أخرى مكانها. وظلت الحمى تعاوده أربعة عشر يوماً بعد ذلك الوقت، وقبل وفاته بثلاثة أيام نهض من فراشه،

صفحة رقم : 4476

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> محمد صلى الله عليه وسلم -> انتصار النبي

ودخل المسجد وشاهد أبا بكر يؤم المسلمين للصلاة بدله، فجلس متواضعاً إلى جانبه حتى أتم صلاته. وفي اليوم السابع من شهر يونيه عام 632 توفي ورأسه على صدر عائشة.

وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقى به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به. وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلطوه، فقد لجأ إلى خيالهم، وإلى مخاوفهم وآمالهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدياء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم.

صفحة رقم : 4477

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> شكله

الباب التاسع

القرآن

الفصل الأوّل

شكله

لفظ القرآن مشتق من القراءة، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على كتاب المسلمين كله أو على أي جزء منه، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس، كتاب اليهود والمسيحيين، من أجزاء جمع بعضها إلى بعض. ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد، ومن أجل هذا بلا ريب لا يعادله في آثاره أي كتاب آخر جاء به رجل واحد. وقد أُملى النبي في أوقات مختلفة من الثلاث والعشرين السنة الخيرة من حياته ما كان يوحى إليه من آياته، وكان كل ما يوحى به إليه يُكتب على الرق، أو الجلود، أو سعف النخيل، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعى في ذلك ترتيب زمني أو منطقي، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة النبي، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، ولما مات عدد من هؤلاء القراء ولم يكن هناك من يخلفهم أمر الخليفة أبو بكر زيد بن ثابت كبير كتاب الوحي أن يبحث عن آيات القرآن ويجمعها، فجمع زيد أجزاء من سعف النخيل، وألواح الحجارة البيضاء، وصدور الناس كما تقول الرواية المأثورة، فلما تم له ذلك نسخت منه عدة

صفحة رقم : 4478

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> شكله

صور. ولما كانت ألفاظه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء في تفسير بعضها واختلفت نصوصها في مدن العالم الإسلامي الآخذ في الاتساع، فرأى الخليفة عثمان أن يقضي على هذا الاختلاف، وأمر زيداً وثلاثة من علماء قريش أن يراجعوا مخطوط زيد (651) ثم كتبت نسخ منه وأرسلت إلى دمشق والكوفة والبصرة، وظل القرآن من هذا الوقت محفوظاً نقيماً محوطاً بأعظم العناية والتبجيل. ومن شأن الظروف التي أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام، فكل فقرة بمفردها تؤدي إلى غرض واضح (فهي إما أن تقرر عقيدة، أو تأمر بصلاة أو دعاء، أو تنس قانوناً، أو تشهر بعدو، أو توجه إلى عمل، أو تروي قصة، أو تدعو إلى قتال، أو تعلن نصراً، أو تصوغ عهداً، أو تطلب مالاً، أو تنظم شعيرة دينية، أو تنص

صفحة رقم : 4479

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> شكله

على مبدأ أخلاقي، أو تضع نظاماً للتجارة، أو الصناعة، أو عمل من الأعمال المالية .

ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها في كتاب واحد، فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه ، ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله. وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وهي مرتبة حسب طولها، لا بحسب نزولها فإن لك غير معروف، فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طولها، فإن القرآن تاريخ مقلوب . فالسور المدنية وهي التي يبدأ بها الكتاب

صفحة رقم : 4480

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> شكله

عملية في أغراضها عادية في أسلوبها، أما السور المكية فهي شعرية روحية وبها ينتهي الكتاب. وخلق بنا أن نبدأ بقرآته من نهايته .
وجميع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل إلى النبي أو أتباعه أو أعدائه؛ وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل؛ وهي التي نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة. وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس وأن يُطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله. وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في

صفحة رقم : 4481

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> شكله

بعض الأحيان، عن أقوال للنبي أشعيا. وأسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة؛ وفي السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة، وأسلوب جزل قوي لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامي. ولغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى الخالصة، وهو غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلاصة التي لا توائم ذوق الغربيين. وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب، في الأدب النثري العربي.

صفحة رقم : 4482

الفصل الثاني

العقائد

من بين الأغراض التي يهدف لها الدين ان يكون سبيلاً إلى الحكم الأخلاقي، وليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين أو ذاك حق أو باطل، وأنى له العلم المحيط بكل شيء والذي يوصله إلى هذه المعرفة؟ وإنما الذي يسأل عنه هو العوامل الاجتماعية والنفسانية التي أدت إلى قيام هذا الدين، وإلى أي حد أفلح في تحويل الوحوش إلى آدميين، والهمج إلى مواطنين صالحين، والصدور الفارغة إلى قلوب عامرة بالأمل والشجاعة، وعقول مطمئنة هادئة، وما مقدار ما تركه بعد ذلك من الحرية لتطور العقول البشرية، وما هو أثره في التاريخ؟

وترى اليهودية، والمسيحية، والإسلام أن أهم ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه-أي الإيمان بأنه مهما يكن في هذا الكون من شر، فإن عقلاً خبيراً، يعجز الناس عن إدراك كنهه، يسيّر المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة. والأديان الثلاثة التي أعانت على تكوين عقلية الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه العقلية الكونية هي الله الواحد ذو الجلال. غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقانيم مختلفة، أما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدّها حماساً. وفي القرآن سورة خصصت كلها لهذا الغرض وهي السورة الثانية عشرة بعد المائة.

صفحة رقم : 4483

ويردده المؤذن من فوق مائة ألف مؤذنة كل يوم، فإله هو أصل الحياة ومنشؤها، ومصدر كل خير على ظهر الأرض. "وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج" (سورة الحج الآية 5) "فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الماء صباً، ثم شققنا الأرض شقاً، فأنبتنا فيها حباً، وعنباً وقضبياً، وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهة وأباً" (سورة عبس الآيات 24-30)... "انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون" (سورة الأنعام الآية 99).

والله أيضاً إله القوة "الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها... وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى... وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات" (سورة الرعد الآيتان الثانية والثالثة). ويقول في آية

الكرسي الشهيرة "الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم" (سورة البقرة الآية 255).
والله مع سلطانه وعدله رحيم أبداً، فكل سورة من سور القرآن، ما عدا سورة التوبة، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة "بسم الله الرحمن الرحيم". ومع أن النبي لا يفتأ يذكر الناس بأحوال النار، فإنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية.
والله كما يصفه القرآن يحيط علماً بكل شيء، "يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور" "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (سورة ق16).
والله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضي، وإذن فكل الأشياء سابقة في

صفحة رقم : 4484

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> العقائد

علمه، وكل شيء قد تقرر وتحدد منذ الأزل بإرادة الله، ومن ذلك مصير كل نفس وما سيصيبها من خير وشر. فالله يعلم منذ الأزل من ذا الذي ينجو من العذاب وهو الذي "يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" (سورة فاطر 8) "يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً" (سورة الإنسان 31) وكما أن يهوه قد طمس على قلب فرعون فجعله قاسياً، كذلك يقول الله عن الكافرين "إنا جعلنا في قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً" (سورة الكهف 57)، وما من شك في أن المقصود من هذه الآية وأمثالها حث الناس على الإيمان....
غير أنه مع ذلك قول عنيف في أي دين، ولكن محمداً يؤكد بنفس القوة التي يؤكد بها القديس أوغسطين أمثاله. "ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حَقَّ القولُ مني لأملأنَّ جهنمَ من الجنة والناس أجمعين" (سورة السجدة 13). وهذا الإيمان بالقضاء والقدر جعل الجبرية من المظاهر الواضحة في التكفير الإسلامي، وقد استعان بها النبي وغيره من الزعماء لبث الشجاعة في قلوب المؤمنين عند القتال لأن ساعة الموت لا يقدمها خطر ولا يؤخرها حذر. وبفضل هذه العقيدة لاقى المؤمنون أشد صعاب الحياة بجنان ثابت، ولكنها أيضاً كانت من الأسباب التي عاقت تقدم العرب وعطلت تفكيرهم في القرون المتأخرة.

ويتحدث القرآن كثيراً عن الملائكة والجن والشيطان. فأما الملائكة فهم رسل الله وهم الذين يحصون أعمال البشر الطيب منها والخبيث. والجان مخلوقون من النار، ويختلفون عن الملائكة في أنهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويموتون، ومنهم الصالحون الذين يستمعون إلى القرآن (سورة الجن) ولكن

صفحة رقم : 4485

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> العقائد

معظمهم دون ذلك يقضون وقتهم في تضليل الناس وغوايتهم. وزعيم الجن الأشرار إبليس، وكان من قبل من الملائكة الأخيار ولكنه أبى أن يسجد لأدم فطرده الله من رحمته.

والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن، كما هي الحال في كتاب العهد القديم، هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة، "اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" (سورة الحديد 20) وليس فيها محقق إلا شيء واحد هو الموت. وكان بعض العرب يعتقدون أن كل شيء ينتهي عند الموت، ويسخرون من عقيدة الدار الآخرة، ويقولون "إن هذا إلا أساطير الأولين" (سورة المؤمنون 83)، ولكن القرآن يؤكد بعث الجسم والروح (سورة القيامة 3-4) ولن يكون هذا البعث بعد الموت مباشرة، بل إن الموتى سينامون إلى يوم القيامة، ولكن نومهم هذا سيحملهم على الظن بأن استيقاظهم سيكون بعد موتهم على الفور. وعلم يوم القيامة عند الله وحده، ولكنه تسببه علامات تنبئ به، فإذا قرب ذلك اليوم ضعف إيمان الناس، وفسدت أخلاقهم، وكثر التشاحن والشقاق والحروب العوان، وتمنى العقلاء الموت. وستكون آخر النذر ثلاث نفخات في الصور، ففي النفخة الأولى تكسف الشمس، وتهوي النجوم، وتزول السموات، وتلك الجبال والمباني فلا تُرى فيها عوجاً ولا أمناً، وتجف مياه البحر أو تتطاير لهباً (سورة طه 102 وما بعدها). وفي النفخة الثانية تهلك الخلائق جميعها-الملائكة والجن والبشر-إلا من رحم الله، وبعد أربعين عاماً ينفخ إسرافيل النفخة الثالثة فتقوم الجسام من القبور وتتصل بالأرواح، ويتجلى الله لعباده تحف به الملائكة يحملون الكتب التي دونت فيها أعمال الناس جميعها وأقوالهم وأفكارهم .

صفحة رقم : 4486

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> العقائد

وتوزن الحسنات أمام السيئات ويحاسب الإنسان على ما قدمت يداه. ويتقدم الأنبياء فيشهدون على من رفضوا رسالتهم، ويشفعون لمن آمنوا بهم. ويسير الأخيار والأشرار جميعاً على الصراط-وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف-المعلق فوق الجحيم. فيسقط منه الأشرار والكفرة، ويجتازه المصلحون آمنين إلى الجنة، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله. ذلك أن القرآن كبعض العقائد المسيحية يُعنى على ما يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب، فهو كثيراً ما ينذر من لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخرة (آل عمران الآيات 1 و63 و131 وسورة النساء 56 و115 والأعراف والأنفال 50 والتوبة 63 الخ). وإذا لم تكن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا من نوع واحد فقد جعلت النار سبع طبقات في كل طبقة من العقاب ما يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه المذنب، ففيها الحرارة التي تشوي الوجوه، وفيها الزمهرير، وحتى من يستحقون أخف العقاب يلبسون أذى من نار، ويشرب الضالون المكذبون من الحميم وشرب الهيم (سورة الواقعة 40 وما بعدها)، وربما كان دانتي قد أبصر بعض الرؤى التي وصفها في ملهاته في القرآن.

وتختلف صورة الجنة في القرآن عن صورتها في ملهاته دانتي فهي في القرآن واضحة وضوح صورة النار والجنة هي مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله،

صفحة رقم : 4487

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> العقائد

والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء. ومقر الجنة في السماء السابعة الفلكية أو ما بعدها، وهي حديقة واسعة الأكناف تجري من تحتها الأنهار وتظلها الأشجار الظليلة، ويلبس فيها الصالحون ثياباً من سندس وإستبرق، ويحلون بالجواهر، ويتكئون على الأرائك، ويطوف عليهم ولدان مخلدون، ويأكلون فاكهة من أشجار تطأطئ أغصانها لهم ليمتلئوا من ثمارها أيديهم، فيها أنهار من لبن، وعسل، وخمر يشرب منها الصالحون (وإن كانت الخمر محرمة في الدنيا) في أكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون "لا يسمعون فيها لغواً ولا كذباً" (سورة النبا 53)، "فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنسٌ قبلهن ولا جان... كأنهن الباقوت والمرجان" "وكواعب أترابا". "وعندهم قاصرات الطرف عين، كأنهن بيضٌ مكنون"، أجسامهن من المسك مبرأة من نقائص الأجسام البشرية وآثامها. وسيكون لكل رجل من الصالحين اثنتان وسبعون من أولئك الحور جزاء له على ما عمل من الطيبات، ولم تنقص الأيام ولا الأعمال ولا الموت من جمال أجسامهن، ولا من نعيم رفاقهن (سورة الدخان) وفي الجنة غير هذه المتعة الجسمية متع أخرى روحية فمن المؤمنين من يتلون القرآن، وسيتجلى لهم الله جميعاً بوجهه "ويطوف عليهم ولدان مخلدون". ترى منذاً الذي يستطيع أن يرفض مثل هذا النعيم.

صفحة رقم : 4488

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

الفصل الثالث

القرآن والأخلاق

القانون والأخلاق في القرآن، كما هما في التلمود، شيء واحد، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي، وكل أمر فيهما موحى به من عند الله. والقرآن يشمل قواعد للآداب، وصحة الجسم، والزواج والطلاق، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان، والتجارة، والسياسة، والربا، والدين، والعقود، والوصايا، وشؤون الصناعة والمال، والجريمة، والعقاب، والحرب والسلام.

ولم يكن محمد يحتقر التجارة، فقد كان هو نفسه في صباه تاجراً، وحين كان سيد المدينة كان يبتاع بعض السلع جملة ويبيعها أشتاتاً، ويربح من هذا البيع دون أن يرى فيه عيباً أو منقصة، وكان في بعض الأحيان يدلل على السلع بنفسه، ولغة القرآن غنية بالتشبيهات التجارية، وفيه وعد بالثراء في الدنيا للمسلمين الصالحين، وإنذار بعذاب أليم للمخادعين والكاذبين من التجار. وفي الأحاديث النبوية تنديد بالمحتكرين والمضاربين الذين يحتجزون السلع لبييعوها بأعلى الأسعار، وحض على إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، وأمر لصاحب العمل بأن يؤدي للعامل أجره قبل أن

يجف عرقه. ويحرم القرآن الربا أخذاً أو إعطاء (سورة البقرة 275 وسورة آل عمران 130)، ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء. وكان يحض كل موصل بأن يخص من ماله جزءاً للفقراء، وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير (سورة النساء 8 و9) وقد قبل محمد كما قبل معاصروه نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة، ولكنه بذل كل ما في وسعه لتخفيف أعباء الرق ومساوئها.

صفحة رقم : 4489

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

كذلك رفع من مقام المرأة في بلاد العرب، وإن لم يرَ عيباً في خضوعها للرجل، وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم، ويكاد يصف النساء كما يصفهم آباء الكنيسة المسيحية بأنهم من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم. وهو يحرم على النساء ولاية الحكم، لكنه يسمح لهن أن يحضرن الصلاة في المساجد، وإن كان يرى أن بيوتهن أولى بهن، وكان إذا جنن إليه للصلاة أحسن معاملتهن ولو أتين معهن بأطفالهن. وقد روي عنه أنه كان إذا سمع بكاء طفل في أثناء الصلاة قصر خطبته حتى لا يؤدي بطولها أمه. وقضى القرآن على عادة وأد البنات (سورة الإسراء 31) وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء (سورة النساء 4 و32)، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع. وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن. وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهي "وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى" (سورة الأحزاب 33). ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرج، ويروى أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجن. أما زوجاته هو فقد طلب إلى أتباعه

صفحة رقم : 4490

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

ألا يكلموهن إلا من وراء حجاب. وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي وفي القرن الأول بعد الهجرة. وبعد فإن المناخ من العوامل التي تؤثر في الأخلاق الفردية، ولعل حرارة الجو في بلاد العرب كانت من أسباب تقوية الغريزة الجنسية والنضج المبكر، ولهذا يجب التسامح بعض الشيء فيما نراه من نزعات الرجال في هذه الناحية في البلاد التي يطول فيها فصل الحر. ولقد كانت الشرائع الإسلامية تحرص على طلب العفة من الرجال والنساء قبل

الزواج ، وزيادة الفرص لإشباع الغريزة الجنسية بين الأزواج. ولهذا حتم القرآن الاستعفاف قبل الزواج (سورة النور 33) وأوصى النبي بالصيام للاستعانة على هذا الاستعفاف. ويشترط الدين الإسلامي رضاء الخطيبين لإتمام عقد الزواج، فإذا تم هذا الرضاء بشهادة الشهود العدول وأدى العريس مهر عروسه، كان ذلك كافياً لإتمام العقد سواء رضي بذلك

صفحة رقم : 4491

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

أباء%@يشترط الأحناف إجازة الولي في حال تزويج الصغير والصغيرة وإن كانا عاقلين والشافعي يحتم وجود الولي في حال تزويج البنت البكر وإن كانت بالغة وهو الذي يقوم بعقد الزواج (راجع بدائع الصنائع ج3 ص33 و241). والزواج لا بد فيه من مهر لا يشترط أدائه فعلاً ليتم عقد الزواج، وللزوجين أن يتفقا على تأجيله كله أو بعضه على ما هو متعارف (راجع بدائع الصنائع ج2 ص277-278). (ي)@العروسين أو لم يرضوا. وقد أجاز للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية ولكنه حرم عليه أن يتزوج من وثنية أو مشركة. وعدم الزواج في الإسلام، كما هو في الدين اليهودي، إثم، والزواج فيه فريضة محببة إلى الله (سورة النور 32). وأجاز الإسلام تعدد الزوجات ليعوض بكثرة النسل الوفيات العالية بين الذكور والنساء على السواء، ولطول فترة النفاس، وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب، ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزيدن على أربع وإن كان النبي نفسه قد تجاوز هذا العدد. وحرم الإسلام التسري (سورة المعارج 29 و31) ولكن ذلك عنده خير من الزواج بمشركة (سورة البقرة 231) .
وبعد أن تسامح الإسلام مع الرجل إلى هذا الحد فممكنه بتعدد الزوجات من إشباع غريزته الجنسية إشباعاً حلالاً حرم الزنى أشد التحريم، فجعل عقوبة الزاني والزانية مائة جلدة (سورة النور) لكنه اشترط لتوقيع هذه العقوبة

صفحة رقم : 4492

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

ثبوت الزنى بشهادة أربعة من الشهود. ونهى القرآن فضلاً عن هذا عن رمي المحصنات فقال "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً" (سورة النور 4) وقد قل الاتهام بالزنى بعد نزول هذه الآية.
وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود. وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها (سورة البقرة 229)؛ لكن الإسلام وإن أجاز للزوج أن يطلق زوجته كما كان مباحاً له في أيام الجاهلية%@الصحيح في هذا أنه لما كان الإسلام حريصاً على أن تكون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والأخلاق

العشرة بين الزوجين بالمعروف فإن العشرة إن ساءت وأصبح من الخير لهما الانفصال كان ذلك بالطلاق برضاء الزوجين بلا مقابل أو بمقابل. (ي)@، فإن النبي لم يكن يشجع عليه ويروى عنه أنه قال إن "أبغض الحلال إلى الله الطلاق". هذا إلى أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تُبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين "وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما" (سورة النساء 35). ولا يصبح الطلاق نهائياً إلا بعد صدوره ثلاث مرات بين كل واحدة والأخرى شهر على الأقل ولكي يُرغم الزوج على أن يطيل التفكير في أيمان الطلاق قبل صدورها، فإن الإسلام لا يبيح بعد ذلك للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا إذا تزوجت من رجل آخر ثم طُلق منه. ولا يباح للزوج أن يقرب زوجته في المحيض وليس ذلك لأنها "نجسة" في ذلك الوقت، وإن كان يطلب إليها أن تتطهر بعده قبل أن يقربها زوجها. والنساء حرث للرجال ومن الواجب على الرجل أن ينجب أبناء، وينبغي للزوجة أن تقر للزوج بتفوقه عليها في الزكاء، ومن ثم أن تكون له عليها القوامة وحق الطاعة، فإذا عصت كان له أن يهجرها ويضربها (سورة النساء 34) والمرأة التي تتوفى زوجها راض عنها تدخل الجنة .

لكن ما فقدته النساء من حقوق قد نلن أكثر منه بفصاحة لسانهن، ورقة قلوبهن، ومفاتيهن، شأنهن في هذا شأن النساء في العالم كله. وقد حدث مرة أن لام عمر بن الخطاب زوجته لأنها كلمته بلهجة رأى فيها شيئاً من قلة الاحترام، فما كان منها إلا أن أكدت له أن هذه هي اللهجة التي تخاطب بها ابنته حفصة وغيرها من أزواج النبي رسول الله. فذهب عمر من فوره ولام على ذلك حفصة وزوجة أخرى من أزواج النبي. فقيل له إن هذا ليس من شأنه وخرج عمر غاضباً. وسمع النبي بهذا فأثار ضحكه. وكان النزاع يقوم في بعض الأحيان بين النبي وبين أزواجه كما يحدث عند غيره من المسلمين، ولكنه كان على الدوام يعزهن، ويظهر لهن ولغيرهن من النساء المسلمات ما يليق بهن من عواطف طيبة. ويروى عنه أنه قال إن المرأة الصالحة أئمن شيء في العالم. ويذكر الله الناس في القرآن مرتين بأن أمهاتهم حملنهم كرهاً ووضعنهم كرهاً وأرضعنهم أربعة وعشرين أو ثلاثين شهراً (، ويروى عن النبي أنه قال: "الجنة تحت أقدام الأمهات".

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والدين والدولة

إن أعقد ما يلاقيه المصلح من المشاكل مشكلتان، أولهما أن يجعل التعاون بين الناس محبوباً جذاباً، والثانية أن يحدد سعة الكل والجماعة التي يشير عليها بالتعاون الكامل. والأخلاق المثالية تطلب المعاونة التامة بين كل جزء وبين كل كل-أي بين العالم أجمع وحياته الجوهرية ونظامه أي الله سبحانه وتعالى. وفي هذه الدرجة من التعاون يصبح الدين والأخلاق شيئاً واحداً، ولكن الأخلاق وليدة العادة وحفيدة القسر، وهي لا تنمي التعاون إلا بين مجموعات مزودة بالقوة، ومن أجل هذا كانت كل الأخلاق الواقعية أخلاقاً جماعية.

وقد تخطت القوانين الأخلاقية التي جاء الإسلام بها حدود القبيلة التي ولد النبي بين ظهرانيها، ولكنها اقتصرنا على الجماعة الدينية التي أنشأها. فلما تم له النصر في مكة وضع القيود على غارات النهب بين القبائل، وإن لم يكن في مقدوره أن يمنع هذه الغارات منعاً باتاً؛ وأشعر بلاد العرب كلها، أي أنه أشعر بلاد الإسلام كلها في ذلك الوقت، معنى جديداً للوحدة، ووضع لها أفقاً للتعاون والولاء أوسع مما عرفته من قبل "إنما المؤمنون أخوة" (سورة الحجرات 10) وقللت العقيدة المشتركة ما بين الطبقات والأجناس من فروق، وفي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والدين والدولة

ذلك يقول النبي: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبداً حبشي كأن رأسه زبيبة". تلك بلا مرأى عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً: وهي لعمرى أعظم معجزة للمسيحية والإسلام.

غير أن هذا الحب السامي الذي يدعو إليه الدينان يقابله عداً شديداً لغير المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)... "إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون" سورة المائدة 51 و55 "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان" (سورة التوبة 23). لكن القرآن يأمر في آيات كثيرة بأن يسلك المسلمون جادة الاعتدال في الأخذ بهذه المبادئ فيقول "لا إكراه في الدين" "فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا" (سورة البقرة 137) "وإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين" (سورة النحل 82) "فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم" (سورة هود 57) "فتول عنهم حتى حين، وأبصرهم فسوف يبصرون" (سورة الصافات 174 و175) "وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون" (سورة الصافات 178 و179). أما كفار العرب الذين لم يؤمنوا برسالة النبي فقد أمر بقتالهم ولما أن بدأت الحرب مع قريش وانسلخت الأشهر الحرم أمر المسلمون بقتالهم حيث وجدوهم (سورة التوبة 5) "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والدين والدولة

سبيلهم إن الله غفورٌ رحيمٌ" - "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"، "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم" (سورة التوبة 5 و6) ومن وصايا أبي بكر لجيوشه أن لا يقتلوا شيخاً عاجزاً عن القتال، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة. وكان على كل مسلم سليم الجسم أن يشترك في الجهاد "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" (سورة الصف 4). ومن أحاديث النبي "والذي نفس محمد بيده لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها". و"المقام أحدم في الصف خير من صلته ستين سنة". لكن هذه المبادئ الأخلاقية الحربية ليست في واقع الأمر تحريضاً على القتال "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (سورة البقرة 190). وكان محمد يتبع قوانين الحرب التي كان يتبعها المسيحيون في أيامه ويشن الحرب على كفار قريش المسيطرين على مكة كما كان إربان الثاني Urban II فيما بعد يدعو إلى قتال المسلمين المسيطرين على بيت المقدس.

ويلوح أن الثغرة التي لا بد من وجودها بين النظريات المجردة والأفعال الواقعية كانت أضيق في الإسلام منها في سائر الأديان. ولقد كانت العرب أكثر شهوانية من كثير من الشعوب، ولهذا أجاز الإسلام تعدد الزوجات، أما فيما عدا هذا فإن الشريعة الإسلامية شديدة كل الشدة على من لا يتمسك من المسلمين بأصول الدين؛ والذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه

صفحة رقم : 4497

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والدين والدولة

دين سهل من الوجهة الأخلاقية. كذلك كان من طبيعة العرب الأخذ بالثأر، ولهذا لم يدع الإسلام إلى مقابلة الإساءة بالإحسان. "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" (سورة البقرة 194) "ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل" (سورة الشورى 41)، تلك أخلاق تليق بالرجال، شبيهة بما جاء في العهد القديم، فهي تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة. وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا" (سورة آل عمران 200) هكذا كان يقول أيضاً زرادشت الذي نادى بمبادئ تنتشر قبل وجوده بنحو بزمان طويل.

والمسلمون يعظمون القرآن إلى درجة تقرب من العبادة، وقد كتبوا المصاحف وزينوها وبذلوا في سبيل ذلك كل ما يستطيعون من عناية مدفوعين إليها بحبهم له، وهو الكتاب الذي يبدأ منه أطفال المسلمين بتعلم القراءة، وهو المحور الذي يدور عليه تعليمهم والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم. وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم، يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> القرآن -> القرآن والدين والدولة

الساذجة@=الأفضل أن يقال السليمة الفطرة ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه؛ كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر؛ وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقة الواضحة التي يتقبلها الجميع. (ي)@ أسهل العقائد، وأقلها غموضاً، وأبعدها عن التقييد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحضهم على إتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض. ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحملوا قيودها، بلا شكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله. وقد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله.

"ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین، وأتى المال على حبه ذوي القربى والیتامى والمساكين وابن السبیل، والسانلین وفي الرقاب، وأقام الصلاة وأتى الزکاة، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرین في البأساء والضراء وحين البأس، أولئک الذین صدقوا وأولئک هم المتقون" (سورة البقرة الآية 177).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

الباب العاشر

سيف الإسلام

الفصل الأوّل

الخلفاء الراشدون

660-632

مات النبي ولم يعين من يخلفه من بعده، ولكنه كان اختار أبا بكر (573-634) ليؤم المسلمين في مسجد المدينة، واقتنع المسلمون بعد شيء من الاضطراب والتنافس بأن هذا التفضيل يجعل أبا بكر أحق الناس بأن يختار أول خليفة لهم .

ولم يكن لفظ خليفة في بادئ الأمر لقباً لأبي بكر، بل كان مجرد وصف له. وساء ذلك الاختيار علياً ابن عم محمد وزوج ابنته، وظل ستة أشهر ممتنعاً عن بيعته أبي بكر، وغضب لذلك أيضاً العباس عم النبي وعلي. ونشأ عن هذا الخلاف الأول أكثر من عشر حروب، كما نشأت عنه أسرة عباسية حاكمة، وانقسام اضطرب به العالم الإسلامي. وكان أبو بكر وقتئذ في التاسعة والخمسين من عمره، وكان قصير القامة، نحيف الجسم، قوي البنية، قليل الشعر، أبيض اللحية حمراء الصبغة، بسيطاً

صفحة رقم : 4500

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

في معيشته، متقشفاً، رحيماً في حزم، يعنى شخصياً بجميع شؤون الإدارة والقضاء جليلاً وصغيرها على السواء، لا يهدأ له بال حتى يأخذ العدل مجراه، وظل يعمل ولا يتقاضى أجراً على عمله، وظل شديد التقشف حتى أفتعه الشعب بأن ينزل قليلاً عن تقشفه، ثم أوصى قبل وفاته بأن يعود إلى بيت مال المسلمين كل ما أرغم على أخذه منه. وحسبت قبائل بلاد العرب أن تواضعه ضعف. وإذا كان بعضها لم يتمكن الإسلام من قلوب أفرادها، ومنهم من اعتنقه كارهاً، فقد ارتد هؤلاء عنه، وأبوا أن يؤدوا الزكاة التي فرضها عليهم الإسلام. ولما أصر أبو بكر على وجوب أدائها زحفوا على المدينة، وجمع أبو بكر جيشاً في ليلة واحدة، وقاده بنفسه في مطلع الفجر، وبدد به شمل العصاة (632)، ثم

أرسل خالد بن الوليد أشهر قواد المسلمين وأشدّهم بطشاً، لقتال المرتدين في جزيرة العرب وإرغامهم على أداء الزكاة.

وربما كانت هذه الفتنة الداخلية من العوامل التي أدت إلى فتح العرب غربي آسيا، ويلوح أن فكرة هذه المغامرة وهذا التوسع لم تكن تخطر ببال أحد من زعماء المسلمين حين تولى أبو بكر الخلافة. وحدث أن بعض القبائل العربية الضاربة في بلاد الشام رفضت المسيحية والخضوع للدولة البيزنطية، وصدت جيوش الإمبراطورية، وأرسلت تطلب النجدة من المسلمين، فأرسل إليها أبو بكر المدد، وعمل على نشر كراهية الدولة البيزنطية بين القبائل العربية. وكانت هذه فرصة مواتية لضم شتات العرب وتوحيد صفوفهم في حرب خارجية. وكان العرب - كما نعلم - قوماً ألقوا الحروب، فلبوا نداء أبو بكر لخوض غمارها وقد بدت في أول الأمر قصيرة الأجل. وسرعان ما أصبح بدو الصحراء المتشككون فيما مضى يضحون بحياتهم في سبيل نصرته الإسلام. واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب؛ فمن الأسباب الاقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي قد أدى

صفحة رقم : 4501

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

إلى انهيار نظم الري في جزيرة العرب (1)، فضعفت من جراء ذلك غلات الأرض الزراعية، وحاقت بالسكان المترابدين أشد الأخطار، ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزراع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الغزو والفتح (2). يضاف إلى هذا عدة أسباب: منها أن الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية قد أنهكتهما الحروب، وما حل بكلتيهما من الدمار على يد الأخرى، فكان ضعفتها مغرباً للعرب على غزو بلادهما، ولقد كانت الضرائب في ولايات الدولتين تزداد زيادة مطردة، والأداة الحكومية تزداد عجزاً عن تصريف شؤون الحكم وحماية الأهلين، كذلك كان للصلوات العنصرية بين المسلمين وسكان بعض الولايات شأن غير قليل في هذا التوسع. فقد كان في الشام والعراق قبائل عربية لم تجد صعوبة في قبولها حكم العرب الغزاة أولاً، ثم اعتناق دينهم بعدئذ. يضاف إلى هذا عوامل دينية: منها أن اضطهاد بيزنطية لليعاقة والنساطرة وغيرها من الشيع المسيحية قد أحفظ عليها قلوب أقلية كبيرة من السوريين والمصريين، بل تعداها إلى بعض الحاميات الإمبراطورية. ولما سار الفتح في طريقه زادت الأسباب الدينية قوة على قوتها؛ فقد كان قادة المسلمين من صحابة النبي المتحمسين، يصلون وهم يحاربون، ويصلون أكثر مما يحاربون، وقد بعثوا في قلوب أتباعهم على مر الأيام روحاً حماسية قوية اعتقدوا معها أن الموت في الجهاد يفتح لهم أبواب الجنة. وهناك فوق ذلك عوامل أخلاقية لها أيضاً شأنها في هذه الفتوح: ذلك أن المبادئ الأخلاقية المسيحية والرهينة قد أضعفتا في بلاد الشرق الأدنى ذلك الاستعداد للقتال الذي كان من طبيعة العرب ومن تعاليم الإسلام. ولقد كانت جيوش العرب خيراً من جيوش الفرس والروم نظاماً وأحسن قيادة، يألّفون المشاق وينالون جزاءهم من الفيء، لقد كان في وسعهم أن يحاربوا ويطونهم خاوية، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم. ولكنهم لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحشين، انظر إلى ما أوصاهم

صفحة رقم : 4502

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

به أبو بكر: "أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا يعيراً إلا لمأكله؛ وسوف تمرن بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له؛ وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئاً فاذكروا اسم الله عليه؛ وتلقون قوماً قد محضوا أو ساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاحققوهم بالسيف خفياً... اندفعوا باسم الله الخ" (3).

ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف. وكانت هناك أخيراً أسباب حربية للغزو والفتح: ذلك أنه لما تضاعف عدد الجيوش العربية الظافرة ومن انظم إليها من المجندين كان لا بد من الزحف بهم إلى أرضين جديدة يفتحونها ليحصلوا منها على طعامهم وأجورهم إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب. ونشأ من تقدمهم قوة هذا التقدم الدافعة، فكان كل نصر يتطلب نصراً جديداً، حتى أصبحت الفتوح العربية-التي كانت أسرع من الفتوح الرومانية، وأبقى على الزمان من الفتوح المغولية- أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله.

وحدث في أوائل عام 633، بعد أن بسط خالد بن الوليد "لواء السلم" على جزيرة العرب، أن دعتة إحدى قبائل البدو الضاربة على حدود الجزيرة للانضمام إليها في محاربة بعض العشائر داخل حدود العراق، وقبل خالد وخمسمائة من رجاله للدعوة لأنهم لم يكونوا يطيقون التعطل أو الركون إلى السلم طويلاً، وانظم إليهم ألفان وخمسمائة من رجال القبائل، وغزوا أملاك الفرس. ولسنا نعلم هل وافق أبو بكر على هذه الحملة قبل الإقدام عليها أو لم يوافق، وسواء كان ذلك أو لم يكن فالظاهر أنه قبل ما أسفرت عنه من نتائج قبول الفلاسفة. واستولى خالد على الحيرة وأصاب فيها من الفيء

صفحة رقم : 4503

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

ونال كل فارس منه ما أنطق أبا بكر بمقالته الشهيرة: "يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خرازيله، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد؟" (4). ولقد أصبحت المرأة وقتئذ ذات شأن كبير في تفكير الظافرين ومغانمهم. وشاهد ذلك أنه بينما كان العرب يحاصرون حمص أثار قائد شاب من قواد العرب حماسة الجنود بأن وصف لهم جمال فتيات الشام، ولما استسلمت الحيرة اشترط خالد على أهلها أن تعطي سيدة تدعى كرامة إلى جندي عربي قال إن النبي قد وعده بها "فاشئت على أهل بيتها، وأهل قريبتها ما وقعت فيه فاعظموها الخطر فقالت: لا تخطروه ولكن اصبروا ما تخافون امرأة بلغت ثمانين سنة؟ فإنما هذا رجل أحرق رأني في شببيتي فظن أن الشباب يدوم، فدفعوها إلى خالد، فدفعها خالد إليه، ثم افتدت منه نفسها بألف درهم، وكانت تسوى أضعاف ذلك" (5).

وقبل أن يستمتع خالد بثمار انتصاره في الحيرة بعث إليه الخليفة يأمره بالسير لإنقاذ قوة من العرب يتهدهدها جيش من الروم أكثر منها عدداً بالقرب من دمشق. وكان بين الحيرة ودمشق في الوقت شقة من الصحراء الجدياء الخالية من موارد الماء يقطعها المسافر في خمسة أيام. فجمع خالد الإبل؛ وسقاها الماء بوفرة؛ وكان الجندي أثناء زحفهم يأخذون الماء من بطون الإبل بعد ذبحها، ويسقون خيولهم لبنها. ولما أن وصل هو وجنوده إلى الجيش العربي الرئيسي المعسكر على ضفاف نهر اليرموك على بعد ستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من دمشق كانت تلك المؤن قد

نفدت. وهناك كما يقول المؤرخون العرب هزم 40,000 (25,000؟) من العرب 240,000 (50,000؟) من الروم في إحدى المعارك الفاضلة التي لا حصر لها في التاريخ (634). وهكذا قام الإمبراطور هرقل ببلاد الشام كلها في معركة واحدة، فلما خسرها أصبحت تلك البلاد قاعدة الدولة العربية الأخذة في الاتساع.

صفحة رقم : 4504

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

وبينما كان خالد يقود جيوشه إلى النصر في هذه المعركة، إذ وصلتته رسالة تنبئه بوفاة أبي بكر وبأمره فيها عمر الخليفة الجديد أن يتخلى عن القيادة لأبي عبيدة. وأخفى خالد الرسالة عن المسلمين حتى انتهت المعركة. وكان عمر أبو حفصة ابن الخطاب (582-644) أكبر معين لأبي بكر وأعظم مشيريه، وكان قد بلغ من الشهرة درجة لم يجد معها أحد سبباً للاعتراض حين اختاره أبو بكر خليفة للمسلمين من بعده. غير أن عمر نفسه كان يختلف عن صديقه أبي بكر كل الاختلاف. كان طويل القامة، عريض المنكبين، حاد الطبع شديد الانفعال، لا يتفق معه إلا في بساطته وتفشفه، وفي أنه كان مثله أصلع الرأس يصبغ لحيته. وكانت صروف الدهر وتبعات الحكم قد أنضجت عقله فجعلته مزيجاً عجيباً نادراً من حدة الطبع والقدرة على الحكم الهادئ الصادق؛ ويحكي عنه أنه ضرب بدويّاً من غير حق ثم ألح عليه دون جدوى-أن يكيل له الضربات بقدر ما كاله هو له. وكان شديد التمسك بالدين يطلب إلى كل مسلم ألا يحدد قيد شعرة عن الفضيلة. وكان يحمل معه درة يضرب بها كل من يراه من المسلمين خارجاً على أصول الدين(6). وتقول بعض الروايات إنه ضرب ابنه حتى مات من الضرب لمعاقرته الخمر(7). ويقول المؤرخون المسلمون إنه لم يكن له إلا قميص واحد، وجلباب واحد رقعته عدة مرات، وإنه كان يعيش على التمر وخبز الشعير، ولا يشرب غير الماء، وإنه كان ينام على سرير من جريد النخل، وهو لا يكاد يكون أقل صلابة وخشونة من قميص الشعر، وإن همه كله كان منصرفاً إلى نشر الإسلام بالسلم وبالحرث. ويقال إن أحد ولادة الفرس جاء إلى عمر يعرض عليه ولاءه، فوجد فاتح الشرق نائماً على عتبة جامع المدينة؛ ولكننا لا نجزم بصحة هذه القصص وأمثالها. وكان السبب الذي من أجله عزل عمر خالداً من القيادة أن "سيف الله" كثيراً ما لوث شجاعته بقسوته. ونظر القائد الباسل إلى مسألة تنحيته نظرة

صفحة رقم : 4505

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

ملؤها الشهامة، وما هو أجمل من الشهامة؛ فقد وضع نفسه تحت تصرف أبي عبيدة بلا قيد ولا شرط. وأوتي أبو عبيدة من الحكمة ما جعله يتبع مشورة خالد في شؤون الحرب، ويعارض قسوته بعد النصر. وكان العرب فرساناً مهرة لا يضارهم في مهارتهم خيالة الفرس والروم، ولم يكن في أوائل العصور الوسطى إنسان أو حيوان يستطيع أن يقاوم

صيحاتهم الحربية العجيبة، أو حركاتهم العسكرية المحيرة، أو سرعة كرههم وفرهم؛ وكانوا يحرصون عن أن يختاروا للنزال الأراضي المستوية التي توائم حركات الفرسان. واستولوا على إنطاكية في عام 636، وعلى بيت المقدس في عام 638، ولم ينته عام 640 حتى كانت بلاد الشام في أيدي المسلمين، وقبل أن يختتم عام 641 كانوا قد أتموا فتح بلاد الفرس ومصر. ووافق البطريق سفرونيوس Sophronius على تسليم بيت المقدس إذا جاء الخليفة نفسه للتصديق على شروط التسليم، وقبل عمر هذا الشرط، وجاء من المدينة في بساطة أفر من الفخامة، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر، ووعاء ماء، وصحفة من الخشب. وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله، فغضب حين أبصر ثيابهم المهفهفة، وعدد خيولهم المزركشة، وألقى بحفنة من الحصباء في وجوههم ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه في ذلك الزي. وقابل سفرونيوس مقابلة ملؤها اللطف والمجاملة، ولم يفرض على المغلوبين الإجزية قليلة، وأمن المسيحيين على كنانتهم. ويقول المؤرخون المسيحيون إنه طاف مع البطريق ببيت المقدس، واختار في العشرة الأيام التي أقامها فيها موضع المسجد الذي سمي فيما بعد باسمه. ولما سمع أن أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الإسلامية عاد إلى عاصمته الصغيرة.

وما كاد الأمر يستتب للمسلمين في بلاد الشام وبلاد الفرس حتى أخذوا يهجرون من جزيرة العرب إلى الشمال والشرق، وكانت هذه الهجرة شبيهة

صفحة رقم : 4506

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

بهجرة القبائل الجرمانية إلى الولايات الرومانية التي غزتها هذه القبائل، وشملت الهجرة الرجال والنساء... وبفضل هذه الهجرة والتسري أصبح عدد العرب في بلاد الشام وفارس نصف مليون نسمة قبل أن يحل عام 644. ونهى عمر الفاتحين عن شراء الأرض وقلعها، وكان يرجو أن يبقوا في خارج جزيرة العرب طبقة عسكرية، تدمهم الدولة بما يكفيهم، لكي يحتفظوا بصفاتهم الحربية، غير أن أوامره في هذا قد أغفلت بعد موته، بل إنها كاد يقضي عليها سخاؤه في أثناء حياته؛ ذلك أنه كان يوزع أربعة أخماس الفية على الجيش، ويخص بيت المال بالخمس الباقي. ولم تلبث أقلية الرجال ذوي العقول الكبيرة أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة العربية الأخذة في النماء، وأخذ أشرف قريش يشيدون القصور الفخمة في مكة والمدينة، فكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة، وكان يمتلك ألف جواد، وعشرة آلاف عبد؛ وكان عبد الرحمن يمتلك ألف بعير، وعشرة آلاف رأس من الضأن، وأربعمائة ألف دينار (1.912.000 دولار) وكان عمر ينظر بحسرة وأسى إلى هذا الترف الذي أخذ مواطنوه يتردون فيه. وطعنه مولى فارسي وهو يؤم الصلاة في المسجد (644)، ولم يستطع عمر وهو على فراش الموت أن يقنع عبد الرحمن بأن يكون خليفة من بعده فعين سنة من زعماء المسلمين ليختاروا من خلفه، فاختاروا من بينهم عثمان. وكان عثمان بن عفان شيخاً مسناً، طيب القلب، حسن النية، أعاد بناء مسجد المدينة وجملته، وأعان بماله جيوش المسلمين التي نشرت الإسلام في هيرات، وكابل، وبلخ، وتفليس، وفي ربوع أسية الصغرى حتى البحر الأسود، ولكنه لسوء حظه كان شديد الولاء لأشرف بني أمية الذين كانوا في أيام الإسلام الأولى ألد أعداء النبي، فأقبل بنو أمية على المدينة ليجنوا ثمار قرابتهم للخليفة، ولم يكن في وسعه أن يقاوم مطالبهم. ولم يلبث أن تولى بعض المناصب المجزية أكثر من عشرة منهم كانوا يسخرون

صفحة رقم : 4507

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

من تزمت أتقياء المسلمين وبساطتهم. وانقسم المسلمون بعد أن هدأت سورة النصر أحراباً متباغضة شديدة العداء، المهاجرون القادمون من مكة ضد الأنصار أهل المدينة، وأهل مكة والمدينة أصحاب السلطان ضد دمشق، والكوفة، والبصرة، وهي المدن الإسلامية الآخذة في النماء السريع، وبنو هاشم أهل النبي وعلي رأسهم علي ضد بني أمية وعلي رأسهم معاوية حاكم الشام وابن أبي سفيان ألد أعداء النبي في بداية الدعوة. وفي عام 654 أخذ رجل يهودي ممن اعتنقوا الإسلام يدعو في البصرة إلى عقيدة ثورية، مضمونها أن النبي سيبعث حياً على هذه الأرض، وأن علياً أحق الناس بالخلافة، وأن عثمان لا حق له فيها، وأن من اختاروه لها جماعة من الطغاة الخارجين على الدين. ولما طرد هذا الداعية من البصرة نزح إلى الكوفة، فلما أخرج من الكوفة انتقل إلى مصر حيث وجدت دعوته أذاناً صاغية واعتنقها كثيرون، وخرج من مصر إلى المدينة خمسمائة من المسلمين وطلبوا إلى عثمان أن يعتزل الخلافة، فلما أبي حاصروا بيته، ثم اقتحموا عليه حجرته وقتلوه وهو يتلو القرآن (656).

وفر زعماء بني أمية من المدينة وبايع بنو هاشم علياً خليفة للمسلمين. وكان علي في شبابه مثلاً أعلى للتواضع، والتقوى، والنشاط، والإخلاص للدين. وكان وقت أن بوبع بالخلافة في الخامسة والخمسين من عمره، أصلع الرأس، ممثلي الجسم، لطيف المعشر، محسناً، كثير التفكير، متحفظاً في قوله؛ ولم يكن مرتاحاً لهذه المأساة التي عدت فيها السياسة على الدين، ولت فيها الدسائس محل الخشوع والإخلاص للإسلام والمسلمين. وطلب إليه أن يقتص من قتلة عثمان، ولكنه تباطأ فتمكنوا من الفرار؛ وطالب هو أن يعتزل من ولاهم عثمان مناصبهم، فأبى معظمهم؛ ولم يكتف معاوية برفض هذا الطلب بل نشر في دمشق قميص عثمان الملوخ بالدماء، وأصابع زوجته التي قطعت وهي تحاول الدفاع عنه. وظهرت قريش معاوية، وكان بنو أمية هم المسيطرين وقتئذ عليها، وخرج عليّ عليّ

صفحة رقم : 4508

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

طلحة والزبير من أصحاب الرسول، وطالباها أيضاً بالخلافة. وخرجت عائشة زوج النبي من المدينة إلى مكة وانضمت إلى الثوار. ولما أعلن مسلمو البصرة انضمامهم للثائرين استنجد عليّ بأهل الكوفة المضربين بالقتال، ووعدهم أن يتخذها عاصمة الدولة إذا هم لبوا نداءه. فأجابوه دعوته والنقى الجيشان في جنوبي العراق في واقعة الجمل-وسميت كذلك لأن عائشة كانت تحرض الجند على القتال من هودجها على ظهر الجمل. وهُزم طلحة والزبير وقتلا، وردت عائشة إلى بيتها معززة مكرمة، ونقل عليّ العاصمة إلى الكوفة القريبة من موقع بابل القديمة. وجهز معاوية في دمشق قوة أخرى لقتال عليّ. وكان معاوية خبيراً بشؤون الدنيا غير متزمت في الدين، وكان يرى في الدين بديلاً من الشرطة أقل منها نفقة ولكنه لا يصح أن يكون حائلاً بينه وبين الاستمتاع بطيبات الحياة. وكان من الأغراض التي يبتغيها بمحاربة عليّ أن يعيد إلى الأقلية المصطفاة من قريش السلطة والزعامة اللتين كانتا لها قبل أيام النبي. وأعاد عليّ تنظيم قواه والنقت بجيش معاوية عند صفين على نهر الفرات (657). وكاد النصر يتم لعليّ لولا أن عمرو بن العاص قائد جيش معاوية رفع المصاحف على أسنة الرماح طالباً تحكيم "كتاب الله"، ولعله كان

يعني بهذا إتباع الأوامر الواردة في القرآن (الكريم). ورضي عليّ بهذا الطلب إجابة لإلحاح جنوده، واختير الحكمان وحدد لهما ستة أشهر يفصلان خلالها في النزاع ويعود الجنود فيها إلى بيوتهم. ولكن بعض رجال عليّ خرجوا عليه في ذلك الوقت، وألّفوا منهم جيشاً مستقلاً وسموا بالخوراج، وقالوا إن الخليفة يجب أن يختاره الشعب وأن يكون من حقه أن يعزله؛ وكان بعضهم فوضويين دينيين يرفضون كل حكومة ما عدا حكومة الله (9) وكانوا كلهم ينددون بما انغمس فيه حكام الإسلام الجدد من ترف وحب لمتاع الدنيا، وحاول عليّ أن يعيدهم إلى الانضواء تحت لوائه بالحجة والإقناع فلم يفلح، ثم استحالّت تقواهم تعصباً، وعبروا عنها بأعمال اتسمت بالعنف

صفحة رقم : 4509

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلفاء الراشدون

والإخلال بالنظام، فلم يسع علياً إلا أن يعلن عليهم الحرب، وبشتت شملهم. واتفق الحكمان في الوقت المحدد لهما على أن ينتحى عليّ ومعاوية عن الخلافة، وأعلن ممثل عليّ خلعه، ولكن عمراً لم يخلع معاوية بل ثبته خليفة للمسلمين. وفي هذا الاضطراب هجم رجل من الخوارج على عليّ بالقرب من الكوفة وطعنه في رأسه بسيف مسموم (661). وأصبح المكان الذي مات فيه عليّ مزاراً مقدساً عند طائفة الشيعة التي تقدسه أعظم التقديس، واتخذت ضريحه مكاناً تحج إليه كما يحج سائر المسلمين إلى مكة نفسها. وبايع المسلمون في العراق الحسن بن عليّ بالخلافة، وزحف معاوية على الكوفة، فاستسلم له الحسن، وقرر له معاوية مالاً يعيش منه، وانسحب الحسن إلى مكة، ومات في الخامسة والأربعين من عمره (669)، فمن قائل إن الخليفة دس له السم، ومن قائل إن زوجة من زوجاته دفعتها الغيرة إلى أن تدسه له. وبايع المسلمون جميعاً معاوية على كره منهم، ولكنه أراد أن يضمن السلامة لنفسه، ورأى أن المدينة بعيدة عن مركز العالم الإسلامي والسلطة الإسلامية، فاتخذ دمشق مقراً للخلافة. وهكذا انتصرت الأرستقراطية القرشية على الهاشميين آل بيت النبي، واستحالّت "الجمهورية" الدينية، وهي الحكومة التي كانت قائمة أيام الخلفاء الراشدين، ملكية دنيوية وراثية. وحل حكم الساميين في غرب آسيا محل حكم الفرس والروم، وطهرت آسيا من تلك السيطرة الأوربية التي ظلت قائمة فيها ألف عام، وشكلت بلاد الشرق الأدنى ومصر وشمال أفريقيا بالشكل الذي احتفظت به في جوهره ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

صفحة رقم : 4510

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

الفصل الثاني

يجب علينا ألا نظلم معاوية. لقد استحوذ على السلطة في بادئ الأمر حين عينه الخليفة الفاضل النزيه والياً على الشام، ثم بنزعه الثورة التي أوقد نارها مقتل عثمان، ثم بما دبره من الدسائس البارعة التي أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا في ظروف جد نادرة، ومن أقواله في هذا المعنى "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولم أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت" قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: "إذا مدوها خلتها وإن خلوها مددته" (10).

ولقد كان طريقه إلى السلطة أقل تخضباً بالدماء من طرق معظم من أسسوا أسراً حاكمة جديدة. وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة، وتشبه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية، الذين تشبهوا هم أنفسهم بملك ملوك الفرس. وإن بقاء هذا الطراز من الحكومة الملكية الفردية من عهد قورش إلى يومنا ليوحى بصلاحيته لحكم الشعوب الجاهلة واستغلالها. وكان معاوية نفسه يشعر بأن حكمه هذا يبرره ما عاد على البلاد في أثنائه من الرخاء، وانقطاع النزاع بين القبائل، وما بلغت الدولة العربية الممتدة من نهر جيحون إلى نهر النيل من قوة وتماسك. وكان يرى ألا سبيل إلى انقضاء النزاع الذي لا بد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب، وما يؤدي إليه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

هذا النزاع من اضطراب وفوضى، إلا إذا استبدل به النظام الوراثي، فنأدى بابنه يزيد ولياً للعهد، وأخذ له البيعة من جميع ولايات الدولة العربية.

ومع هذا فإنه لما مات معاوية (680) اشتعلت نار الحرب من أجل وراثة العرش، كما اشتعلت في بداية حكمه. فقد أرسل مسلمو الكوفة إلى الحسين بن عليّ يَعدُّونَهُ بتأييد اختياره للخلافة إذا جاءهم واتخذ بلدهم مقراً لها. وخرج الحسين من مكة ومعه أسرته وسبعون من أتباعه المخلصين له. ولما أصبحت تلك القافلة على بعد خمسة وعشرين ميلاً في شمال الكوفة قابلتها قوة من جند يزيد بقيادة عبيد الله، وعرض حسين أن يسلم، ولكن من كانوا معه أبوا إلا القتال. وأصاب أحد السهام الأولى قاسماً ابن أخي الحسين وهو غلام في العاشرة من عمره، فمات بين ذراعي عمه، ثم سقط من بعده أخوة الحسين وأبناءؤه، وبنو أعمامه، وأبناء أخوته واحداً بعد واحد، حتى لم يبقَ أحد ممن كانوا معه، واستولى الرعب والهلع وقتنذ على النساء؛ ولما حمل رأس الحسين إلى الكوفة أقبل عبد الله ينكته بالقضيب؛ فقال له أحد الحاضرين: "ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه" (11)

(680). وأقام الشيعة في كربلاء حيث قتل الحسين شهيداً عظيماً تخليداً لذكراه، ولا يزالون حتى اليوم يمثلون في كل عام مأساة قتله، ويظهرون في ذلك أشد الحزن والأسى، ويمجدون ذكرى عليّ وولديه الحسن والحسين. كذلك ثار علي يزيد عبد الله بن الزبير، ولكن جنود يزيد السوريين هزموه وحاصروه في مكة، وسقطت الحجارة من مجانيقهم في فناء الكعبة، وأنكسر منها الحجر الأسود ثلاث قطع، واشتعلت النار في الكعبة نفسها، والتهمت بها عن آخرها (683). ثم رفع الحصار عنها فجأة، فقد مات يزيد واحتيج إلى الجيش في دمشق. وأعقب موته سنتان سادت فيهما الفوضى وتولى الخلافة فيها ثلاثة من الخلفاء جاء بعدهم عبد الملك بن مروان ابن عم معاوية فقضى على

صفحة رقم : 4512

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

هذا الاضطراب وأخذ الفتنة بشجاعة وقسوة، فلما استتب له الأمر حكم البلاد بكثير من الرأفة، والحكمة والعدالة. وأخضع قائده الحجاج بن يوسف أهل الكوفة وأعاد حصار مكة. ودافع عنها عبد الملك، وكان وقتئذ في الثانية والسبعين من عمره، دافع الأبطال، وكانت أمه المعمرة تشجعه وتحرضه، ولكنه هُزم وقتل، وحمل رأسه إلى أمه؛ وبعد أن ظل جسده مصلوباً بعض الوقت أسلم إلى أمه (692). وفي سني السلم التي أعقبت هذا القتال، أخذ عبد الملك يقرض الشعر، ويناصر الأدب، ويُعنى بشؤون بيته، ويربي أبناءه الخمسة عشر، وقد تولى الخلافة منهم أربعة.

ودام حكمه عشرين عاماً مهد فيها السبيل للأعمال العظيمة التي قام بها ابنه الوليد الأول (705-715). ففي عهده واصل العرب فتوحهم، فاستولوا على بلخ في عام 705، وعلى بخارى في عام 709، وفتحوا أسبانيا في عام 711، وسمرقند في 712. وفي الشرق حكم الحجاج البلاد بحزم وجد وقام فيها بأعمال إنشائية لا تقل عما لجأ إليه في هذا الحكم من قسوة: فقد جفف المستنقعات، وأصلح كثيراً من الأراضي وأعدّها للزراعة، وأعاد فتح ما طمر من قنوات الري وأصلحها. ثم لم يقنع بهذه الأعمال فأحدث انقلاباً كبيراً في طريقة الكتابة باستعمال حركات الإعراب، وكان الحجاج مدرساً قبل أن يكون والياً. أما الوليد نفسه فكان مثلاً طيباً للحكام، يُعنى بشؤون الإدارة أكثر من عنايته بالحرب، ويشجع الصناعة والتجارة بفتح الأسواق الجديدة وإصلاح الطرق، ويُنشئ المدارس والمستشفيات ومنها أول مستشفى معروف للأمراض المعدية-وملاجئ للشيوخ، والعجزة، والمكفوفين، ويوسع مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس ويجملها، وينشئ في دمشق مسجداً أعظم من هذه المساجد وأفخم لا يزال باقياً فيها حتى اليوم. وكان يجد بين هذه المشاغل كلها متسعاً من الوقت يقرض فيه الشعر، ويؤلف الألحان الموسيقية، ويضرب على العود،

صفحة رقم : 4513

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

ويستمع إلى غيره من الشعراء والموسيقيين، ويخصص من كل يومين يوماً للمنادمة (13). وخلفه أخوه سليمان (715-717)، فأضاع المال والرجال في محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية. وسلى نفسه بالطعام والنساء، ولم يذكره الناس بخير إلا لأنه أوصى بالخلافة لأبن عمه عمر بن عبد العزيز (717-720). واعتزم عمر أن يكفر في خلافته عن جميع ضروب الفساد التي ارتكبتها أسلافه من خلفاء بني أمية. فجعل حياته كلها وفقاً على إحياء شعائر الدين ونشره فتقشفت في لباسه، وارتدى الثياب المرقعة حتى لم يكن أحد يظن أنه هو خليفة المسلمين، وأمر زوجته بأن ترد إلى بيت المال ما أهداه إليها والدها من الحلبي النفيسة فصدعت بالأمر، وأبلغ أزواجه أن واجبات الحكم سئطغله عن الالتفات إليهن وأذن لم شئن منهن أن يفارقنه. ولم يلتفت إلى الشعراء، والخطباء، والعلماء الذين كانوا يعتمدون في معيشتهم على بلاط الخليفة، بل قرب إليه أتقى العلماء في الدولة وأتخذهم له أعواناً ومستشارين. وعقد الصلح مع الدول الأجنبية، وأمر برفع الحصار عن القسطنطينية وعودة الجيش الذي كان يحاصرها، واستدعى الحاميات التي كانت قائمة في المدن الإسلامية المعادية لحكم الأمويين. وبينما كان أسلافه من خلفاء الأمويين لا يشجعون غير المسلمين في بلاد الدولة على اعتناق الإسلام، حتى لا تقل الضرائب المفروضة عليهم، فإن عمر قد شجع المسيحيين، واليهود، والزرادشتيين على اعتناقه، ولما شكوا إليه عماله القائمون على شؤون المال من هذه السياسة ستفقر بيت المال أجابهم بقوله: "والله لو ددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حرثين نأكل من كسب أيدينا" (14).

ولما أراد بعض مستشاريه أن يقفوا حركة الدخول في الإسلام بأن حتموا الختان على معتنقيه فعل عمر ما فعله القديس بولس من قبل، فأمرهم بالاستغناء

صفحة رقم : 4514

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

عن الختان. ثم فرض قيوداً شديدة على من امتنعوا عن الإسلام، فحرم عليهم مناصب الدولة، ومنعهم من بناء معابد جديدة، ودامت خلافته أقل من ثلاث سنين مرض بعدها ومات. وكان يزيد الثاني (720-724) يختلف كل الاختلاف في أخلاقه وعاداته عن عمر بن عبد العزيز. كان يزيد يحب جارية تُدعى حبيبة بقدر ما كان عمر يُحب الإسلام. وكان قد ابتاعها في شبابه بأربعة آلاف قطعة من الذهب، وأرغمه أخوه سليمان، وكان هو الخليفة في ذلك الوقت أن يردّها إلى بائعها، ولكن يزيد لم ينس جمالها وحنانها؛ فلما ولي الخلافة سألته زوجته هل بقي له شيء في العالم يرغب فيه؟ فأجابها "حبيبة" فبعثت زوجته الوفية من فورها إلى حبيبة، وأهدتها إليه، وانزوت هي في مجاهل الحرير ويروى أنه بينما هو يلهو مع حبيبة في يوم من الأيام إذ ألقى أثناء لهوه ببذرة عنب في فمها، فاختنقت وماتت بين ذراعيه. وحزن عليها يزيد حزناً مات من أثره بعد أسبوع من وفاتها. وحكم هشام (724-743) الدولة سبعة عشر عاماً حكماً عادلاً سادت فيه السلم، وأصلح في خلاله الشؤون الإدارية، وخفض الضرائب، وترك بيت المال بعد وفاته مليئاً بالأموال. ولكن فضائل القديس قد تكون سبباً في القضاء على الحاكم: فقد منيت جيوش هشام بعدة هزائم، وثار نزع الفتنة في الولايات، وعم الاستياء العاصمة التي كانت تتوق إلى خليفة مبذر متلاف. وجاء من بعده خلفاء جملوا بالعار تلك الأسرة التي امتاز خلفاؤها الأولون بالقدرة والمهارة، فعاشوا عيشة الترف والفساد، وأهملوا شؤون الحكم. فكان الوليد الثاني (734-744) فاسد الخلاق، خارجاً على قواعد الدين، منغمساً في الشهوات البدنية، ولما سمع نبأ وفاة عمه هشام سره النبأ أيما سرور، وقبض على ابن هشام نفسه، وصادر أموال أهل الخليفة المتوفى، وبدد أموال الخزانة بحكمه الفاسد، وهبته التي لا حد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

لها. ويروي عنه أعداؤه أنه كان يسبح في بركة من الخمر، ويشفي منها غلته وهو سابح فيها، وأنه ضرب القرآن بالنبال %@ وهو يقول:

أتوعد كل جبار عنيد،
فها أنا ذاك جبار عنيد.
إذا لاقيت ريك يوم حشر،
فقل لله مزقني الوليد@
وقتل يزيد بن الوليد
الأول هذا الخليفة المستهتر الماجن،
وتولى الخلافة ستة أشهر ومات في عام 744.
وخلفه على العرش أخوه إبراهيم،
ولكنه لم يستطع حمايته،
فخلعه أحد قواده الأقوياء هو مروان الثاني،
وحكم ست سنين مليئة بالمآسي،
وكان هو آخر الخلفاء من بني أمية في الشرق.

وإذا نظرنا إلى أعمال الخلفاء من بني أمية من وجهة النظر الدنيوية حكمنا بأن هذه الأعمال قد عادت بالخير على الإسلام. فقد وسعوا حدود البلاد السياسية إلى مدى لم تبلغه قط فيما بعد. وإذا ما استثنينا بعض فترات مشنومة من تاريخهم فإنهم قد حكموا الدولة الجديدة حكماً منظماً حراً. لكن نظام الملكية المطلقة الوراثية أدى إلى ما يؤدي إليه عادةً في جميع البلاد، فتولى الخلافة في القرن الثامن خلفاء عاجزون أفقروا بيت المال، وتركوا شؤون الحكم للخصيان، وفقدوا السيطرة على النزعة الانفرادية العربية، التي حالت في أكثر الأوقات بين المسلمين وبين قيام دولة إسلامية موحدة. وقد ظل النزاع بين القبائل لم تنتقطع أسبابه وإن استحال نزاعاً بين الأحزاب السياسية؛ فقد كان بنو هاشم وبنو أمية يكره بعضهم بعضاً، كأن أوأشج القرية بينهم قد أضحت أشد وأقرب مما كانت في أيامهم السابقة. ونفرت بلاد العرب ومصر والفرس من سيطرة دمشق عليه؛ وأخذ الفرس يدعون أنهم أرقى من العرب، وأنهم لذلك لا يطيعون أن تحكمهم بلاد الشام، وقد كانوا من قبل لا يدعون أكثر من أنهم لا يفلون شأناً عن العرب. وساء أبناء النبي أن يروا بلاد المسلمين يتولى شؤونها خلفاء من بني أمية الذين كان منهم أشد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة الأموية

أعداء النبي وآخر من آمنوا به، وروعهم فساد أخلاق الخلفاء الأمويين، ولعلمهم قد روعهم كذلك تساهلهم الديني، وكانوا يدعون الله أن يرسل من قبله من ينقذهم من هذا الحكم المذل.

ولم يكن ينقص هذه القوى المعادية إلا شخصية قوية مبدعة توجد صفوفها وتتطوقها بمطالبها. وقبض لها هذا الزعيم في شخص أبي العباس السفاح حفيد أحد أعمام النبي، فتولى قيادتها من مكن لها في فلسطين، ونظم الثورة في الولايات واستمال إليه الوطنيين الشيعة في بلاد الفرس فأيدوه أشد التأييد، حتى إذا كان عام 749 نادى بنفسه خليفة في الكوفة. والتقى جيش مروان الثاني بالثوار يقودهم عبد الله عم العباس على نهر الزاب، فهزم مروان وجيوشه، وبعد عام من هزيمته استسلمت دمشق بعد أن ضرب عليها الحصار، ثم قبض بعدئذ على مروان وقتل وحمل رأسه إلى أبي العباس، ولكن الخليفة الجديد لم يكتف بهذا، وقال:

"لو يشربون دمي لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيط ترويني"

وسمي أبو العباس بالسفاح أي سفاك الدماء لأنه أمر بأن يطارد أمراء بني أمية ويقتلوا أينما وجدوا، ليقضي بذلك على ما عسى أن يقوم به أفراد الأسرة الساقطة من فتن. ونفذ عبد الله، الذي عُين والياً على الشام، هذا الأمر، في يسر وسرعة، فأعلن عفواً عاماً عن الأمويين، وأكد لهم بدعوة ثمانين من زعمائهم إلى وليمة. وبينما هم على الطعام إذا أشار إلى جنوده في مخبئهم، فخرجوا عليهم ورموا رؤوسهم بالسيوف، ثم فرشت الطنافس فوق جثث القتلى، واستمرت المأدبة. واستبدل بزعماء الأمويين رجال من العباسيين جلسوا فوق جثث أعدائهم، يشنفون أسماعهم بأنين الموتى. وأخرجت جثث بعض الموتى من خلفاء بني أمية، وسيطت هياكلهم العظمية التي كادت أن تكون عارية من اللحم، وشنقت وحرقت، وثرَّ رمادها في الريح(15).

صفحة رقم : 4517

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

الفصل الثالث

الخلافة العباسية

(750-1058)

1- هرون الرشيد

وجد أبو العباس السفاح نفسه حاكماً لدولة واسعة الأرجاء تمتد من نهر السند إلى المحيط الأطلنطي، وتشمل بلاد السند (الشمال الغربي من الهند)، وبلوخرستان وأفغانستان، والتركستان، وفارس، وأرض الجزيرة، وأرمينية، والشام، وفلسطين وقبرص، وكريت، (إقريطش)، ومصر، وشمال أفريقيا. ورفضت أسبانيا المسلمة الخضوع إليه، وخرجت

بلاد السند عن طاعته في السنة الثانية عشرة من حكمه. ورأى السفاح أن دمشق تكرهه، وأنه لا يأمن على نفسه في مدينة الكوفة المشاكسة المضطربة، فنقل العاصمة إلى الأنبار الواقعة في شمال الكوفة. وكانت الكثرة الغالبة ممن رفعوه إلى العرش فرساً في ثقافتهم وأصولهم. وبعد أن ارتوى السفاح من دماء أعدائه اصطبغ بلاطه بشيء من الرقة ودماثة الأخلاق الفارسية، وجاءت من بعده طائفة من الخلفاء المستنيرين، استخدموا ثروة الدولة المتزايدة في مناصرة الفنون والآداب، والعلوم، والفلسفة حتى ازدهرت وأثمرت أينع الثمار؛ وبعد أن مضت مائة عام على بلاد الفرس، وهي في ذلة الخضوع غلبت غالبياً.

ومات السفاح بالجدري في عام 754، وخلفه أبو جعفر من أبيه ولقب بالمنصور. وكانت أمه جارية من البربر، وكانت أمهات جميع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين إلا ثلاثة منهم جوارى. وقد أدى إلى

صفحة رقم : 4518

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

هذا ما جرى عليه الخلفاء

من عادة اتخاذ السراري وجعل أبنائهم منهن أبناء شرعيين. وبهذه الوسيلة كان عدد أفراد الطبقة الأرسقراطية الإسلامية يزداد على الدوام بتأثير المصادفة وطابعها الديمقراطي، ومصائر الحب والحرب. وكان الخليفة الجديد في سن الأربعين، طويل القامة، نحيف الجسم، ملتحمياً، أسمر البشرة، شديداً في معاملاته. ولم يكن أسير لجمال النساء أو مدمناً للخمر أو مولعاً بالغناء. ولكنه كان يناصر الآداب، والعلوم، والفنون، ويمتاز بعظيم قدرته، وحزمه، وشدة بطشه، ويفضل هذه الصفات ثبت دعائم أسرة حاكمة لولاه لماتت بموت السفاح. وقد وجه جهوده لتنظيم الأداة الحكومية، وبنى مدينة فخمة هي مدينة بغداد واتخذها عاصمة للدولة، وأعاد تنظيم الحكومة والجيش في صورتيهما اللتين احتفظا بهما إلى آخر أيام الدولة. وكان يشرف بنفسه على كل إدارة في دولاب الحكومة، وعلى جميع أعمال هذه الإدارات، وأرغم الموظفين المرتشقين الفاسدين ومنهم أخوه نفسه-على أن يردوا إلى بيت المال ما ابتزوه من أموال الدولة. وكان يراعي جانب الاقتصاد بل قل الحرص الشديد في إنفاق الأموال العامة، حتى نفر منه الأصدقاء، وأطلق عليه لشحه لقب "أبي الدوايق" (16). وقد أنشأ في بداية حكمه نظام الوزارة الذي أخذ عن الفرس، وكان له شأن عظيم في تاريخ العباسيين. وكان أول من شغل منصب الوزير في عهده خالد ابن برمك. وقد اضطلع بواجب خطير في حكم الدولة، وكان له شأن فيما وقع في أيام الدولة العباسية من أحداث جسام. وعمل المنصور وخالد على إيجاد النظام والرخاء للذين جنى ثمارهما هرون الرشيد.

ومات المنصور بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام اثنتين وعشرين سنة وكان موته وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولم يكن في وسع ابنه المهدي (775-785) إلا أن يسلك في حكمه سبيل الخير. وقد شمل عفوه جميع المذنبين إلا أشدهم خطراً على الدولة، وأنفق الأموال الطائلة في تجميل المدن

صفحة رقم : 4519

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

واناصر الموسيقى والأدب، وأظهر في حكم البلاد كفاية ممتازة. وكانت بيزنطية قد انتهزت فرصة الثورة العباسية لاستعادة بعض الأقاليم التي فتحها العرب في أسية الصغرى، فسير عليها المهدي جيشاً بقيادة ابنه هرون لاسترداد هذه البلاد. وأخرج هرون الروم منها وردداهم إلى القسطنطينية، وهدد تلك المدينة نفسها تهديداً اضطر الإمبراطورة إيرينية Irene أن تعقد معه صلحاً تعهدت بمقتضاه أن تؤدي للخليفة جزية سنوية مقدارها 70.000 دينار (832.000 دولار) (784). ومن ذلك الوقت أطلق المهدي على ابنه اسم هرون الرشيد. وكان قبل ذلك قد اختار ابناً آخر من أبنائه اسمه الهادي ولياً للعهد، فلما رأى ما امتاز به هرون من كفاية عظيمة طلب إلى الهادي أن ينزل عن حقه لأخيه الأصغر. وكان الهادي وقتئذ يقود جيشاً في بلاد الشرق فأبى أن يجيب أباه إلى طلبه، ورفض أن يطيع أمره بالعودة إلى بغداد. فخرج المهدي وهرون للقبض عليه، ولكن المهدي توفي في الطريق، وكان حين وفاته في الثالثة والأربعين من عمره. ورأى هرون اتباعه لنصيحة الوزير يحيى بن خالد البرمكي أن يبايع الهادي بالخلافة، على أن يكون هو ولياً للعهد، غير أنه كان في وسع عشرة من الدراويش أن يناموا على بساط واحد فإن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكملها كما يقول السعدي(17) في كتابه. فلم يعترف الهادي لأخيه بولاية العهد، وسجن يحيى، ونادى بابنه ولياً لعهد. ثم مات الهادي بعد زمن قصير (786)، وراجت إشاعة بأن أمه وكانت تفضل عليه هرون، كتمت أنفاسه بوسادة وضعتها على فمه. وارتقى هرون العرش، واتخذ يحيى وزيراً له، وبدأ أشهر حكم في تاريخ الإسلام.

وتصور لنا القصص- وخاصة ألف ليلة وليلة- هرون الرشيد في صور الملك المرح، المثقف، المستنير، العنيف في بعض الأوقات، الكريم الرحيم في أغلب الأحيان، الولوج بالقصص الجميلة ولعاً يحمله على أن يسجلها ويحتفظ

صفحة رقم : 4520

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

بها في ديوان محفوظات الدولة(18). وتبدو هذه الصفات كلها فيما كتبه عنه المؤرخون إذا استثنينا منه مرحة؛ ولعل السبب في ذلك أن هذا المرح قد أغضب المؤرخين. فهم يصورونه أولاً وقبل كل شيء في صورة الرجل الورع المتمسك، أشد التمسك بأمر الدين، ويقولون إنه فرض أشد القيود على حرية غير المسلمين، وإنه كان يحج إلى مكة مرة كل عامين، وإنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة مع الصلوات المفروضة(19). ويقال إنه كان يشرب الخمر، ولكن هذا لم إلا سراً مع عدد قليل من خاصة أصدقائه(20). ويقال إنه تزوج من سبع نساء وكان له عدد من السراري رزق منهن بأحد عشر ولداً، وأربع عشرة بنتاً، كلهم وكلهن من الجواري عدا الأمين ابنه من الأميرة زبيدة. وكان كريماً سمحاً في أمواله على اختلاف أنواعها. من ذلك أنه لما أحب ولده المأمون إحدى فتيات قصر أبيه، أهداها إليه الخليفة، ولم يسأله ثمناً لها أن ينظم بعض أبيات من الشعر(21)، لأنه كان يحب الشعر أشد الحب، ويستمتع به استمتاعاً يحمله في بعض الأحيان على أن يتقل الشاعر الذي يعجب بشعره بالهدايا من غير حساب. من ذلك أنه أهدى الشاعر مروان على قصيدة مدحه بها خمسة آلاف قطعة من الذهب (750،23 دولار)، وحلة ثمينة، وعشر جوار من بنات الروم، وجواداً كريماً(22). وكان أحب رفاقه إليه الشاعر الماجن أبو نواس. وكان كثيراً ما يغضب على أبي نواس لسفهه وسوء سيرته، ولكنه كان في كل مرة يصفح عنه لجودة شعره. وقد جمع حوله في بغداد عدداً عظيماً من الشعراء، والفقهاء، والأطباء، والنحويين وعلماء البلاغة، والراقصات والراقصين، والفنانين، والفكهين المرحين. وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم، ويجزيهم عليها بسخاء،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

ويتلقى في نظير ذلك آلاف القصائد في مديحه والتعني بجموده. وكان هو نفسه عالماً وشاعراً، وخطيباً بليغاً. قوياً (23). ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة النابهين. وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينا في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمان قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung، ولكن هرون الرشيد بزهم جميعاً في الثراء، والسلطان، وأبهة الملك، والتقدم الثقافي الذي ازدان به حكمه. غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك. فقد كان يشترك اشتراكاً فعلياً في تصريف شؤون الحكم، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه، وترك الخزانة عند وفاته عامرة بالمال فيها 48.000.000 دينار -على الرغم من أبهة الملك التي لم يسبق لها مثيل. وكان يقود جيوشه بنفسه في ميادين القتال، وقد احتفظ بتخوم البلاد سليمة آمنة. غير أنه كان يعهد بالشؤون الإدارية وبالخطط السياسية إلى وزيره الحكيم يحيى. فقد دعا إليه عقب جلوسه على العرش يحيى البرمكي وقال إنه يعهد إليه أمر جميع رعاياه ليحكمهم كما يشاء، ويولي من يشاء، ويصرف الأمور كما يرى، وأيد قوله هذا بأن أعطاه خاتمه (24). وكان هذا إفراطاً خطيراً في ثقته بالوزير، ولكن هرون كان يرى أنه، وهو لا يزال شاباً في الثانية والعشرين من عمره. لم يكمل استعداده بعد لحكم الدولة الواسعة التي آل أمرها إليه؛ وكان عمله هذا تعبيراً عن شكره لرجل كان أستاذاً ومرتبياً له بدعوه إذا دعاه بوالده، وقد ذاق عذاب السجن في سبيله. وأثبت يحيى أنه أقدر الحكام في تاريخ العالم كله. لقد كان رجلاً بشوشاً، دمت الأخلاق، جواداً حكيماً، مجدداً لا يمل من العمل؛ رفع دولاب الحكومة إلى أعلى درجات الكفاية، وثبت دعائم النظام، وأقر الأمن، ونشر لواء العدالة، وأنشأ الطرق، والجسور، والخانات، واحتقر قنوات الري، فعم

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

الرخاء جميع ولايات الدولة، وإن كان قد فرض عليها ضرائب عالية ليملاً بها الخليفة وخزانتته هو، ذلك أنه هو أيضاً قد حذا حذو سيده في مناصرة الآداب والفنون وقد عين ولديه الفضل وجعفر في منصبين كبيرين من مناصب الدولة، فسارا فيهما أحسن سيرة، وأثريا منهما ثراء عظيم، فأنشأ القصور، وجمعا حولهما طائفة كبيرة من الشعراء، والندماء، والفلاسفة. وكان هرون يحب جعفر حباً أطلق السنة السوء في علاقتهما الشخصية، ويقال إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين يلبسها هو وجعفر معاً فيبدو أن كأنهما رأسان فوق جسم واحد، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية (25). ولسنا نعرف بالدقة سبب النكبة المفاجئة التي قضت على سلطان البرامكة. فابن خلدون يقول إن سببها الحقيقي هو "أنهم كانوا قد قبضوا على ناصية الأمور كلها، وتصرفوا بأموال الدولة دون رقيب حتى أصبح الرشيد يطلب المبالغ الصغيرة فلا يجدها إلا بإذن من الوزير (26).

ولعل السبب أنه لما جاوز هرون سن الشباب، ولم يجد في الجري وراء الملاذ الجسمية والعقلية متنفساً لكفائاته ومواهبه، ندم على ما خص به وزيره من قوة وسلطان. وقد حدث أن أمر الخليفة جعفر بأن يقتل أحد الخارجين عليه، فتغاضى جعفر عن الأمر حتى تمكن الثائر من الهرب، ولم يغفر هرون له هذا الإهمال المحبب إلى النفوس. وهناك قصة من طراز قصص ألف ليلة وليلة تقول إن العباسة أخت الرشيد، أحببت جعفر، وأن الرشيد كان قد أقسم بأن يحتفظ بدماء بني هاشم الذي بجري في عروق أخواته صافية نقية لا يخالطها إلا دماء أشرف العرب، وجعفر كما نعلم من أبناء الفرس. وأجاز لهما الخليفة أن يتزوجا؛ على ألا يلتقيا إلا في حضوره. ولكن الحبيبين سرعان ما نقضا هذا العهد، وولدت العباسة لجعفر ولدين دون أن يعلم بذلك الرشيد، فقد أخفيا عنه وأرسلا إلى المدينة ليربيا فيها. وكشفت زبيدة زوج الرشيد هذا

صفحة رقم : 4523

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

السر، وأفضت به إلى هرون. فبعث في طلب مسرور كبير الجلادين وأمره بقتل العباسة ودفنها في قصره، وأشرف هو بنفسه على تنفيذ هذا الأمر. ثم أمر مسرور أن يضرب عنق جعفر، وأن يأتي إليه برأسه، ونفذ مسرور أمر مولاه. ثم بعث إلى المدينة من يأتيه بولديه، وبعد أن تحدث طويلاً إلى الطفلين الوسمين، وأبدى إعجابه بهما أمر بقتلهما (803). ثم سجن يحيى والفضل، وسمح لهما بأن يحتفظا بأسرتيهما وخدمتهما، ولكنه لم يطلق سراجهما. ومات يحيى بعد عامين من مقتل ولده، كما مات الفضل بعد خمسة أعوام من مقتل أخيه، وصودرت جميع أموال البرامكة، ويقال إنها بلغت 30.000.000 دينار (124.500.000 دولار أمريكي).

ولم تطل حياة هرون بعد نكبة البرامكة. وظل وقتاً ما يخفف من حزنه وندمه بالعمل الكثير، ويقال إنه كان يرحب بمشاق الحرب نفسها. ولما أن امتنع نقفور الأول إمبراطور بيزنطية عن أداء الجزية التي وعدت إيرينة بأدائها، وجرؤ على المطالبة برد ما أدته الإمبراطورة منها رد عليه هرون بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم. من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد، فقد تلقيت رسالتك يا ابن الكافرة، وسيكون الجواب كما تراه عينك لا ما تسمعه أذنك والسلام" (27). وسار إلى ميدان القتال من فوره، واتخذ مقامه في الرقة ذات الموقع الحربي المنيع على حدوده الشمالية، ونزل إلى الميدان على رأس حملة قوية اخترق بها أسية الصغرى، وقذفت الرعب في قلب نقفور فلم يسعه إلا أن يعود إلى أداء الجزية (806) ورأى الرشيد أن يصطنع شارلمان ليرهب به إمبراطور الروم... فأرسل إليه وفداً متقلاً بالهدايا منها فيل وساعة مائية معقدة التركيب.

ولم يكن هرون وقتئذ قد جاوز الثانية والأربعين من عمره، ومع هذا فإن ولديه الأمين والمأمون شرعا يتنافسان على الخلافة ويتطلعان إلى موته. وأراد هرون أن يخفف من حدة النزاع فقرر أن يرث المأمون الولايات الواقعة في شرق

صفحة رقم : 4524

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> هرون الرشيد

نهر دجلة، وأن يرث الأمين ما بقي من الدولة، فإذا مات أحد الاثنين آل ملكه إلى أخيه. ووقع الأخوان هذا العهد وأقسما على الكعبة أن يتقيدا به. ولكن حدث في ذلك العام نفسه أن شبت فتنة صماء في خراسان فسار هرون ومعه المأمون لتقليم أظافرهما، مع أنه كان يشكو وقتئذ ألاماً شديدة في معدته. فلما بلغ بلدة طوس في شرقي إيران عجز عن الوقوف على قدميه. وجيء له وهو يحتضر ببياشين أحد زعماء الثورة، وكان الخليفة قد برح به الألم حتى أفقده عقله فأخذ يؤنب القائد الأسير لأنه اضطره إلى الإقدام على هذه الحملة المهلكة، وأمر أن تقطع أوصاله وشهد بعينيه تنفيذ أمره (29). وفي اليوم الثاني توفي هرون الرشيد في سن الخامسة والأربعين (809).

صفحة رقم : 4525

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

2- اضمحلال الدولة العباسية

وواصل المأمون الزحف إلى مرو، وعقد اتفاقاً مع الثوار، أما الأمين فعاد إلى بغداد، ونادا بابنه الطفل الرضيع ولياً للعهد، وطالب المأمون بثلاث من الولايات الشرقية، ولما رفض المأمون طلبه أعلن الأمين عليه الحرب. وهزم طاهر قائد المأمون جيش الأمين وحاصر بغداد وكاد أن يدمرها تدميراً، وبعث برأس الأمين إلى المأمون جريباً على تلك العادة التي أضحت سنة متبعة. وكان المأمون وقتئذ في مرو فأمر بالمناداة به خليفة (813)، ولكن بلاد الشام وجزيرة العرب ظلت تقاومه لأنه ابن جارية فارسية ولم تتم بيعته خليفة على بلاد المسلمين ويدخل بغداد إلا في عام 818. ويعد المأمون هو والمنصور والرشيد أعظم خلفاء بني العباس. نعم إن المأمون لم ينج من الخلتين اللتين شأننا هارون الرشيد، فكان في بعض الأحيان يستشيط غضباً مثله ويقسو كقسوته، ولكنه كان بوجه عام لين العريكة هادئ الطباع، جمع في مجلس الدولة ممثلين لجميع الأديان الكبرى في البلاد كلها

صفحة رقم : 4526

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

- من مسلمين، ومسيحيين، ويهود، وصابئين، وزردشتيين- وضمن لجميع رعاياه حتى أواخر أيامه حرية الدين والعبادة. وظلت حرية التفكير وقتاً ما هي السنة المألوفة في بلاط الخليفة. ويصف المسعودي مجلساً من المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون في آخر النهار فيقول:

"كان المأمون يجلس كل يوم للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء فإذا حضر الفقهاء، ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا إخفاقكم. ثم أحضرت الموائد وقيل لهم: أصيبوا من الطعام والشراب، وجددوا الوضوء فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فيخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستندناهم حتى يدنوا منه وينظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها عن مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ثم تنصب الموائد الثانية فيطعموا وينصرفون" (30).

وكان تشجيع المأمون للفنون، والعلوم، والآداب، والفلسفة أكثر تنوعاً ودقة في عهد هارون، وكان لهذا التشجيع من الأثر أعظم مما كان له في عهد أبيه. فقد أرسل البعوث إلى القسطنطينية، والإسكندرية، وإنطاكية وغيرها من المدن للبحث عن مؤلفات علماء اليونان، وأجرى الأرزاق على طائفة كبيرة من المترجمين لنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية. وأنشأ مجمعاً علمياً في بغداد ومرصدين فيها وفي تدمر. وكان الأطباء والفقهاء، والموسيقيون، والشعراء وعلماء الرياضة والفلك يستمتعون كلهم بعطاياه، وكان هو نفسه يقرض الشعر، كما كان يقرضه أحد أباطرة اليابان في القرن التاسع عشر، وكما كان يقرضه كل مسلم شريف مهذب في ذلك الوقت.

ومات المأمون في سن مبكرة في الثامنة والأربعين من عمره (833) وإن كان قد طال أجله حتى أساء إلى نفسه. ذلك أنه ناصر بسلطته العليا حرية الرأي في الدولة مناصرة شوه بها السنين الأخيرة من حياته لأنها دفعت به إلى اضطهاد

صفحة رقم : 4527

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

أصحاب السنة. وكان أخوه أبو إسحق المعتصم، الذي تولى الخلافة من بعده، مثله ولم يكن في عبقريته. وقد أحاط هذا الخليفة نفسه بحرس خاص مؤلف من 4000 من الجنود الترك، شبيه بالحرس البريتوري الذي أحاط به الأباطرة الرومان أنفسهم، وأصبح هذا الحرس على مر الأيام في بغداد، كما أصبح الحرس البريتوري في روما، صاحب الأمر والنهي في أمور الدولة. وشكا سكان العاصمة من أن جنود المعتصم الأتراك يطوفون الشوارع فوق صهوة الجياد ويرتكبون الجرائم دون أن يعاقبوا على ما يرتكبون. وخشي المعتصم أن يثور عليه السكان فغادر بغداد وبنى لنفسه قصرًا في سر من رأى على بعد ثلاثين ميلاً شمالي العاصمة. واتخذ ثمانية من الخلفاء هذه الضاحية مسكنًا لهم ما بين عامي 836، 892، ودفنوا فيها بعد موتهم، وأقاموا على شقة يبلغ طولها عشرين ميلاً على ضفتي نهر دجلة قصوراً فخمة، ومساجد، وحذا حذوهم كبار موظفي الدولة، فشيّدوا البيوت الفخمة، وزينوا جدرانها بالنقوش الجميلة، وأنشؤا فيها الفساقى والحدائق والحمامات. وأراد المتوكل أن يبرهن على صلاحه فانفق 700.000 دينار (3.325.000 دولار) على تشييد مسجد جامع وأنفق ما يقرب من هذا المبلغ في تشييد ضاحية له تعرف بالجعفرية أقام بها قصرًا يُعرف "بقصر اللؤلؤة" وأحاطها كلها بالبساتين والحدائق وقد جمع ما يحتاجه من المال لهذه المباني وما يتصل بها بأن زاد الضرائب، وباع وظائف الدولة لمن

صفحة رقم : 4528

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

يؤدي اكبر ثمن لها، وأراد أن يستميل أهل السنة باضطهاد الخارجين عليها، وحرص ابنه حرسه التركي على قتله، وتولى الخلافة من بعده وتسمى بالمنتصر بالله.

وأفسدت العوامل الداخلية أحوال الخلافة قبل أن تقضي عليها القوى الخارجية: فقد أنهك قوى الخلفاء إيمانهم الشراب، وانهماكهم بالشهوات، واللهو، والترف، والبطالة، فجلس على سرير الملك طائفة من الخلفاء الضعفاء فروا من مهام الحكم إلى ملذات الحريم المضعفة للجسم والعقل. وكان لازدياد الثروة، واستمهاد الراحة، وانتشار التسري وتفشي اللواط، كان لهذه الرذائل من الأثر في طبقة الحكام لها في الخلفاء، وتعدى ذلك إلى الشعب نفسه، فضعفت صفاته الحربية. ولم يكن من طبيعة هذا الضعف وعدم النظام أن يخلق اليد القوية التي كانت البلاد في أشد الحاجة إليها لتجمع شتات هذا الخليط المتفرد المتباين من الولايات والقبائل. وكثيراً ما أسفرت العداوة العنصرية والإقليمية عن ثورات، فلم يكن العرب، والفرس، والسوريون، والبربر، والمسيحيون، واليهود، والأترك، لم يكن هؤلاء جميعاً يجتمعون إلا على احتقار بعضهم بعضاً، وزاد الطين بلة أن الدين الذي كان من قبل يجمع شملهم ويوحد صفهم قد تفرق شيعاً، وزادت حدة الانقسامات السياسية والجغرافية، وكانت هي المعبرة عن هذه الانقسامات. وكان لإهمال وسائل الري أثر كبير في ضعف الدولة وفساد أحوالها. وذلك أن نظام الري هو مصدر حياة بلاد الشرق الأدنى وهلاكه معاً. فالقنوات التي تمد الأرض بالماء تحتاج على الدوام إلى الكثير من الحراسة والتطهير يعجز عنها الأفراد والأسر. فلما عجزت الحكومة عن تعهد هذه القنوات أو أهملتها، قلت موارد الطعام عن مجارة نسبة ازدياد السكان، وكان لابد من أن يهلك الناس من الجوع حتى لا يختل التوازن بين هذين العاملين الأساسيين اللذين لهما شأن عظيم في تاريخ العالم. غير أن ما حل بالأهلين من فقر بسبب القحط والوباء لم يكن في معظم الأوقات ليغل أيدي جباة الضرائب أو يخفف من قسوتهم. فكان

صفحة رقم : 4529

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

الفلاحون، والصناع، والتجار يرون مكاسبهم تذهب كلها للوفاء بنفقات الحكومة وأبهة الحكام، فانعدم الحافز للعمل والإنتاج، والتوسع فيهما، والمغامرة والإقدام. وانتهى الأمر بأن عجزت موارد الدولة عن الوفاء بحاجة الحكومة، وقلت الإيرادات، ولم يعد في وسع الحكام أن يؤدي أجور الجند بانتظام، أو أن يسيطروا عليهم. ويضاف إلى هذا أن الترك قد حلوا محل العرب في القوات المسلحة، كما حل الألمان محل الرومان في جيوش روما، وكان رؤساء الجند الأترك من عهد المعتصم إلى آخر أيام الدولة العباسية هم الذين يرفعون الخلفاء إلى العرش ويسقطونهم، ويغتالونهم. وأصبحت قصور الخلفاء في بغداد مباءة للفساد الدنيئة، والاعتيالات وسفك الدماء، مما جعل الخلافة العباسية في آخر أيامها غير خليقة بأن يبقى التاريخ على ذكرها.

وكان ضعف النشاط السياسي والقوة الحربية في عاصمة الدولة سبباً في تمزيق شملها وتقطع أوصالها. فأصبح الولاة يحكمون ولاياتهم دون أن يكون للخلفاء في العاصمة سلطان عليهم اللهم إلا سلطاناً اسمياً غير ذي بال. وأخذوا يعملون ليحتفظوا لأنفسهم بمناصبهم طول حياتهم، ثم لم يكتفوا بهذا بل عملوا على أن يرثها من بعدهم أبناءهم. وكانت بلاد الأندلس قد أعلنت استقلالها عن الخلافة العباسية في عام 756، وحدث حذوها مراكش في عام 788، وتونس في 801 ومصر في 868. وبعد تسع سنين من ذلك العام الأخير استولى أمراء مصر على الشام، وحكموا الجزء الأكبر منها حتى عام 1076 وكان المأمون قد كافأ قائده طاهر بأن عينه حاكماً على خراسان وجعل ولايتها وراثية في أبنائه من بعده. وحكمت هذه الأسرة الطاهرية بلاد الفرس حكماً شبه استقلالي حتى حلت محلها أسرة الصفارين (872-903)، وفيما بين عامي 929، 944 استولت أسرة من الشيعة هي أسرة بني حمدان على شمالي الجزيرة والشام، ورفعوا من شأن حكمهم بأن جعلوا الموصل وحلب مركزين عظيمين من مراكز الحياة الثقافية في

صفحة رقم : 4530

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

العالم الإسلامي. وكان سيف الدولة الحمداني (944-967) شاعراً بليغاً، اجتمع في بلاطه في حلب الفيلسوف الفارابي، والشاعر العظيم المتنبي أحب الشعراء الأقدمين إلى قلوب الأدباء العرب. واستولى بنو بويه أبناء أحد زعماء البلاد الجبلية المجاورة لبحر الخرز على أصفهان وشيراز، ثم استولوا آخر الأمر على بغداد نفسها في عام 945. وظل الخلفاء أكثر من مائة عام يأترون بأمرهم حتى لم يكن أمير المؤمنين أكثر من رئيس لأهل السنة من المسلمين، بينما كان الأمير البويهي الشيعي هو المسيطر على شؤون الدولة الأخذة رقعته في النقصان. ونقل عضد الدولة أعظم أمراء بني بويه (949-983) عاصمته إلى شيراز وهي مدينة من أجمل مدن الإسلام، ولكنه كان ينفق المال بسخاء على غيرها من مدن مملكته، واستعادت بغداد أيامه وأيام من خلفوه من الأمراء بعض ما كان لها من المجد في أيام هارون الرشيد.

وفي عام 874 أقام أبناء سامان، وهو شريف من أتباع زرادشت، أسرة سامانية حكمت خراسان وما وراء نهر جيحون حتى عام 999. وفي عهد هذه الأسرة كانت بخارى وسمرقند مركزين للعلوم والفنون تتافسان فيهما بغداد نفسها، وإن لم يكن من عادتنا إذا ذكرنا هذا الإقليم أن نعهده ذا شأن عظيم في تاريخ العلوم والفلسفة. وعادت اللغة الفارسية فيه إلى الحياة وأصبحت أداة للتعبير عن أدب راق عظيم. وبسط السامانيون رعايتهم على ابن سينا أعظم فلاسفة العصور الوسطى جميعها، وفتحوا له أبواب مكتبة بلادهم العظيمة الغنية بما فيها من المؤلفات، وأهدى الرازي أعظم أطباء العصور الوسطى إلى أحد الأمراء السامانيين كتابه المنصوري وهو كتاب جامع ضخم في الطب. ثم استولى الأتراك في عام 990 على مدينة بخارى وقضوا في عام 999 على الأسرة السامانية. فقد كان المسلمون في ذلك الوقت يحاربون ليقفوا زحف الأتراك نحو الغرب، كما ظل الرومان ثلاثة قرون يحاربون ليصدوا زحف العرب، وكما كافح الترك فيما بعد

صفحة رقم : 4531

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

ليقفوا تيار المغول الجارف. ذلك أن ما ينشأ من تكاثر السكان من ضغط شديد على وسائل العيش يؤدي من حين إلى حين إلى هجرات ضخمة تطغى أهميتها على غيرها من حوادث التاريخ. وفي عام 962 غزا جماعة من المغامرين الأتراك القادمين من التركستان بلاد الأفغان. وكان يقودهم عبد محرر يدعى البتجين، واستولوا على غزنة وأقام فيها أسرة غزنوية. وخلف البتجين سبكتكين (976-997)؛ وكان أولاً مولى من مواليه، ثم زوج أبنته. وقد مد حدود ملكه حتى شمل بيشاور وبعض خراسان، ثم استولى أبنه محمود (998-1030) على جميع بلاد الفرس من الخليج الفارسي إلى نهر جيحون، وبعد سبعة عشر معركة حامية امتازت بضروب من القسوة أضاف البنجاب إلى ملكه، كما أضاف كثيراً من أموال الهند إلى خزائنه. ولما أتخمه النهب، وضاق ذرعاً بالتعطل الناشئ من تسريح جنوده، أخ ينفق بعض ماله، ويستخدم بعض رجاله، في تشييد مسجد غزنة وهو المسجد الكبير الذي يقول فيه أحد المؤرخين المسلمين: (العنبي-أبو النصر محمد في كتابه اليميني أو الرسالة اليمينية):

"وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريح عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف متى شهدوا الفرض أخذوا أماكنهم فيها صفوفاً وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفاً، وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء تشمل بيوتها من بساط الأرض إلى مناط السماء على تصانيف الأئمة الماضين من علوم الأولين والآخرين... يبتابها فقهاء دار الملك وعلماء التدريس والنظر في علوم الدين، على كفاية نوي الحاجة، فمنهم من يهتم جارية وافرة، ومعيشة حاضرة. وقد اقتطع من دار الإمارة إلى البيت الموصوف طريق يفضي إليه في أمن ابتدال العيون اللوامح واعتراض الرجال

صفحة رقم : 4532

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

من بين صالح وطالح فيركب إليه وقور سكينه وشمول طمأنينة(31)". واستقدم محمود إلى هذه المدرسة وإلى بلاطه كثيراً من العلماء منهم البيروني، وكثيراً من الشعراء ومنه الفردوسي صاحب الشاهنامه أعظم قصيدة في الأدب الفارسي؛ وقد أهداها إليه عن كره منه. وكان محمود في ذلك الوقت أعظم رجال العالم كله من نواح عدة، ولكن مملكته انتقلت بعد سبع سنين من وفاته إلى أيدي الأتراك السلاجقة. ونحن نخشى إذا صورنا الترك في صورة أقوام همج، فمن حقهم علينا أن نقول إنهم حين أغاروا على بلاد الإسلام كانوا قد أخذوا ينتقلون من طور الهمجية إلى طور الحضارة، شأنهم في هذا شأن الفيالق الألمانية التي غزت بلاد الإمبراطورية الرومانية. لقد أخذ الأتراك الساكنون في شمالي آسيا الوسطى يتحركون نحو العرب من إقليم بحيرة بيكال، وكانوا قد نظموا أنفسهم في القرن السادس الميلادي جماعات يترجم كلاً منها خان أو شاعان. وكانوا يصهرون الحديد الذي يستخرجونه من جبالهم، ويصنعون منه أسلحة صلبة كصلابة قوانينهم التي لم تكن تكنفي بجعل الإعدام جزءا الخيانة والقتل، بل كانت تجعله أيضاً عقاباً على الزنى والجبن. وكان خصب نسايتهم يفوق قتلى حروبهم، ولم يحل عام 1000م حتى كان فرع من أولئك الأتراك يسمون السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق قد سيطروا على ما وراء نهر جيحون وعلى بلاد التركستان. وظن محمود الغزنوي أن في مقدوره أن يقف زحف هذه القوة التركية

المنافسة له، فقبض على أحد أبناء سلجوق وسجنه في الهند (1092). ولكن هذا العمل لم يفت في عضد السلاجقة بل أثار ثائرتهم فزحفوا بقيادة زعيمهم طغرل بك المحنك الشديد البأس واستولوا على معظم بلاد الفرس، ثم شرعوا يمهدون السبيل لتقدمهم في المستقبل، فأرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم بأمر الله في بغداد ليبلغه أنهم يعتنقون الإسلام. وكان الخليفة يرجوا أن ينقذه هؤلاء المحاربون اليواصل من سيطرة بني بويه، فأرسل

صفحة رقم : 4533

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> الخلافة العباسية -> اضمحلال الدولة العباسية

إلى طغرل بك يدعو له لمعونته. ولبي طغرل الدعوة فأقبل في عام 1055، وفر بنو بويه من بغداد. وتزوج القائم بابنة أخي طغرل وخلع عليه لقب "ملك الشرق والغرب" (1085). وأخذت الأسر الصغيرة في غربي أسية الإسلامي تنسقط أسرة بعد أسرة أمام السلاجقة وتعترف بسيادة بغداد عليها. ولقب الحكام السلاجقة أنفسهم بلقب سلطان ولم يتركوا للخليفة إلا الزعامة الدينية، ولكنهم بعثوا في الأداة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها قبل مجيئهم، كما بعثوا في الإسلام قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم. ولم يفعل السلاجقة ببلاد الإسلام ما فعله المغول بعد مانتى عام من ذلك الوقت، فهم لم يخرّبوا البلاد التي فتحوها، ولم يمض عليهم إلا قليل من الوقت حتى أشربوا روح الحضارة التي أقبلوا عليها، وألفوا من الأشلاء المتناثرة للدولة المحتضرة إمبراطورية جديدة، وبعثوا فيها من القوة ما استطاعت به أن تصمد لذلك النزاع الطويل بين المسيحية والإسلام، الذي نطلق عليه اسم الحروب الصليبية، وتخرج منه ظفيرة منتصرة.

صفحة رقم : 4534

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> أرمينية

الفصل الرابع

أرمينية

امتدت فتوح الأتراك السلاجقة إلى أرمينية في عام 1060م. لقد ظلت هذه البلاد البائسة قروناً طويلاً مطمعاً للإمبراطوريات الكبيرة المتنافسة التي أنشبت فيها مخالبيها، لأن جبالها حالت بينها وبين اتحادها للدفاع عن نفسها، بينما كانت وديانها طرفاً ميسرة بين بلاد النهرين والبحر الأسود. واقتتلت بلاد الفرس واليونان لامتلاك هذه الطرق للانتفاع بها في التجارة والحرب، واجتازتها جنود أكسانوفون العشرة الآلاف، واحتربت من أجلها روما وفارس وبيزنطية والإسلام، والروسيا وبريطانيا. ولكن أرمينية ظلت مستقلة من الوجهة الفعلية رغم ما حاق بها من الضغط الخارجي أو السيطرة الخارجية محتقظة بما لها من نشاط اقتصادي قوي في التجارة والزراعة، ومن استقلال ثقافي أثمر فيها دينها الخاص وآدابها وفنونها. وكانت هي أولى الأمم التي جعلت المسيحية دين الدولة الرسمي (303). وانحازت إلى جانب اليعاقبة في الجدل الذي قام حول طبيعة المسيح، وأبت أن تعترف بأنه يجوز عليه من أسباب الضعف ما يجوز على الجسم البشري. وانفصل الأساقفة الأرمن في عام 491 عن الكنيستين اليونانية والرومانية وأنشؤا لهم كنيسة أرمينية مستقلة لها رئيسها الخاص. وظلت الآداب الأرمينية تُكتب باللغة اليونانية إلى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد حين اخترع الأسقف مسروب حروفاً هجائية خاصة بها وترجم التوراة إلى اللغة الأرمينية، وأصبح للبلاد من ذلك الحين أدب أرمني غزير معظمه أدب ديني وتاريخي.

صفحة رقم : 4535

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> سيف الإسلام -> أرمينية

وظلت تلك البلاد خاضعة بالاسم إلى سلطان الخلفاء من عام 642م إلى عام 1046، ولكنها كانت طوال هذه المدة صاحبة السيادة على نفسها مستمسكة بمسيحياتها. وأقامت أسرة البرجتوني Bagrtuni في القرن التاسع الميلادي أسرة حاكمة اتخذت رئيسها لقب "أمير الأمراء"، وأنشأت لها عاصمة في أني Ani، وظلت البلاد في عهدها أجيالاً عدة تتعم بالتقدم والسلام النسبي وكان أشوت Ashot الثالث (952-977) أميراً محبوباً، شاد كثيراً من الكنائس، والمستشفيات والأديرة، والملاجئ، ولم يكن يجلس للطعام (كما يقول الرواة) إلا إذا كان الفقراء معه على مائدته. وبلغ رخاء البلاد غاية في عهد ابنه جاجيك Gegik الأول (وما اغرب ما تبدو أسماؤنا نحن للأرمن)، فقد كثرت فيها المدارس، وأثرت المدن بفضل انتشار التجارة، وازدانت بأعمال الفن، وأصبحت قارص مركزاً للأدب وعلوم الدين والفلسفة تنافس فيها أني. وكان في هذه المدينة الثانية قصور فخمة، وكنيسة كبرى (حوالي عام 980)، جمعت بين الطرازين الفارسي والبيزنطي؛ فكان فيها مجاميع من العمد والأكتاف، والعقود المستديرة والمستدقة في أعاليها، إلى غير هذه من الخصائص التي دخلت فيما بعد في الفن القوطي، ولما أن دمر زلزال قبة أيا صوفيا بالقسطنطينية في عام 989 عهد إمبراطور بيزنطية إلى تارادات Tardat مهندس كنيسة أني أن أعيد بناؤها، وكان ذلك واجباً من أشق الواجبات وأعظمها خطورة (32).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

الباب الحادي عشر

أحوال البلاد الإسلامية

(1058-638)

الفصل الأول

الحال الاقتصادية

تنشأ الحضارة من عاملين أساسيين هما الأرض والعمل -ومن موارد الأرض الطبيعية تحولها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته. فمن وراء المظاهر الخارجية لحاشية الملوك والقصور، والهيكل، والمدارس، والآداب، والترف، والفنون، ومن تحتها يقف الإنسان أحد العاملين الأساسيين في الحضارة، الإنسان الصياد يأتي بالصيد من الغاب؛ والحطاب يقطع الأشجار منها؛ والراعي يرعى قطعانه ويربها؛ والفلاح يمهد الأرض، ويحراثها، ويزرعها، ويحصد غلاتها، ويعنى بالحدائق، والكروم، ويربي النحل، والدواجن الطيور؛ والمرأة تتهمك في مئات الصناعات اليدوية والأعمال المنزلية؛ والعامل ينقب عن المعادن في باطن الأرض، والبناء يقيم المنازل ويصنع المركبات والسفن؛ والصانع ينتج السلع والأدوات، والبائع الجائل، أو صاحب الحانوت، أو التاجر يجمع بين الصانع والمستهلك ويفرق بينهما، والمستثمر يمد الصناعات بأمواله المدخرة؛ والمدير المنفذ يسخر الجهود العضلية، والمواد الأولية، والعقول لإنشاء الخدمات وإيجاد السلع. أولئك هم العمال القلقون الصابرون رغم صبرهم الذين تركب على ظهورهم المتمايلة المتأرجحة حضارة العالم المزعجة.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

وكان هؤلاء كلهم جادين عاملين في بلاد الإسلام. فكان الرجال يربون الماشية والخيول، والإبل، والمعز، والفيلة، والكلاب؛ ويسطون على عسل النحل، ولين الإبل، والمعز، والبقر، وينتجون مائة نوع من الحبوب، والخضر والفاكهة، والنقل، والأزهار. لقد جاء العرب إلى بلادهم بشجرة البرتقال من الهند في وقت ما خلال القرن العاشر الميلادي، وأدخلوا في بلاد الشام، وآسية الصغرى، وفلسطين، ومصر، وأسبانيا ثم انتقلت من هذه البلاد إلى جميع أنحاء أوروبا الجنوبية(1). كذلك نقل العرب زراعة قصب السكر، وصناعة السكر نفسه وتكريره من الهند ونشروهما في جميع أنحاء الشرق الأدنى، ومن تلك البلاد نقلها الصليبيون إلى أوطانهم(2)؛ وكان العرب أول من زرع القطن في أوروبا(3)، وقد استطاعوا إنتاج هذه المحاصيل من أرضين معظمها جذب قاحل بفضل وسائل الري النظم؛ ولم يجر الخلفاء في الميدان على سنتهم المألوفة من ترك الشؤون الاقتصادية للمشروعات الحرة، بل كانت الحكومة تشرف على قنوات الري الرئيسية وتتعهدها بالصيانة والتطهير، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة، وماء دجلة إلى أرض فارس، وشقت قناة كبيرة بين النهرين التوأمين عند بغداد. وكان خلفاء الدولة العباسية الأولون يشجعون الأعمال الخاصة بتجفيف المستنقعات وتعمير القرى المخربة والضياع التي هجرها سكانها. وكان الإقليم المحصورة بين بخارى وسمرقند يعد في أثناء القرن العاشر "إحدى الجنات الأرضية الأربع" وكانت الثلاث الأخرى هي جنوبي فارس، وجنوبي العراق، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشام.

وكان الذهب والفضة، والحديد، والرصاص، والزنابق، والإثمد، والكبريت، وحجر الفتيلة (الأسبستوس)، والرخام، والحجارة الكريمة تستخرج كلها من باطن الأرض وكان الغواصون يستخرجون اللؤلؤ من الخليج الفارسي، واستخدم

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

العرب النفط والقار في بعض أعمالهم، فقد وجد بين محفوظات هارون الرشيد ورق سجل فيها ثمن النفط والعشب اللذين استخدموا في حرق جثة جعفر(4)، وكانت الصناعة لا تزال في مرحلة العمل اليدوي، يقوم بها الأهليون في البيوت والحوانيت، وينتظمون في طوائف. وقل أن تعثر في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت على مصانع بالمعنى الحديث، ولا نجد دليلاً واضحاً على ارتفاع الفنون الصناعية فوق المرحلة اليدوية والجهود العضلية إذا استثنينا الطواحين الهوائية. فالمسعودي أحد مؤرخي القرن العشر يقول إنه شاهد هذه الطواحين في فارس وبلاد الشرق الأدنى، مع أننا لا نجد أثراً لها في أوروبا قبل القرن الثاني عشر، ولعلها كانت هدية أخرى أهداها الشرق الإسلامي إلى أعدائه الصليبيين(5). وكان العرب على جانب كبير من المهرة الآلية الفنية، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان قد صنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش. وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة باباً يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة، ثم ينسحبون ويغلقون الباب(6). وكان الإنتاج بطيئاً، ولكن الصانع في وسعه أن يُظهر مهارته فيما ينتجه من تحف وأدوات كاملة الصنع، وكاد يجعل من كل صناعة فناً. واشتهرت المنسوجات الفارسية، والشامية، والمصرية بجمالها الفني الرائع الذي كان يتطلب من

الصناع مهارة وصبراً؛ فاشتهرت الموصل بنسج القطن الرفيع "الموصلين"، ودمشق بنسج النيل "الدمقس"، و عدن بالصوف. واشتهرت دمشق أيضاً بالسيوف المصنوعة من الصلب المسقى؛ وصيدا وصور بزجاجهما الذي لا يدانيه في رفته وصفائه، وبغداد بزجاجها وخزفها، والري بخزفها، وإبرها، وأمشاطها؛ واشتهرت الرقة بزيت الزيتون والصابون، وفارس بالروائح العطرية والطنافس. وبلغت بلاد آسية الغربية تحت حكم المسلمين درجة من الرخاء الصناعي والتجاري لم تصل إليها بلاد أوروبا الغربية قبل القرن السادس عشر(7).

صفحة رقم : 4539

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

وكانت أهم وسائل النقل البري هي ظهور الإبل، والخيول والبغال والرجال، لكن الحصان كان بوجه عام أئمن من أن يستخدم في حمل الأثقال، وفيه يقول أعرابي "لا تسمه حصاني، بل سمه ولدي؛ فهو في عدوه أسرع من الريح ومن طرفه العين... وقد بلغ من خفة قدمه أنه يستطيع أن يرقص فوق صدر حبيبتك ولا يؤذيها"(8). ومن أجل هذا كان الجمل "سفينة الصحراء" يحمل معظم تجارة العرب، وكانت قوافل يصل عدد جمالها إلى 4.700 جمل تخترق بلاد العالم الإسلامي. وكانت طرق كبرى تنتشع من بغداد وتمر بالري وسينابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين؛ أو إلى البصرة فشبزار؛ أو إلى الكوفة فالمدينة، ومكة و عدن، أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق. وأنشئت النزل، والخانات، والمضاييف، وصهاريج الماء في الطرق ليستقي منها المسافرون والدواب. وكانت التجارة الداخلية واسعة تنتقل في الأنهار والقنوات. وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر في موضع قناة السويس وخططها، ولكن يحيى البرمكي لم يشجعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ولعلها أسباب مالية(6). وقد أنشئت على نهر دجلة عند بغداد، حيث يبلغ عرضه 750 قدماً، ثلاثة جسور محملة علة قوارب.

وكانت تجارة عظيمة تمر بهذه الشرايين، وكان من المزايا الاقتصادية التي يستمتع بها غرب آسية أن حكومة واحدة تسيطر على هذا الإقليم الذي كان فيما مضى مقسماً بين أربع دول؛ فقد كان من آثار هذه الوحدة أن ألغت في داخلها جميع العوائد الجمركية وغيره من العوائق التجارية، هذا إلى أن العرب لم يكونوا كأشراف الأوربيين يسخرون من التجار ويزدرونهم، ولهذا لم يلبثوا أن انضموا إلى المسيحيين واليهود والفرس في نقل البضائع من المنتج إلى المستهلك بأقل ما يمكن من الربح لكليهما، فغصت المدائن والبلدان بوسائل النقل والمقايضة والبيع والشراء؛ وكان البائعون

صفحة رقم : 4540

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

الجانلون ينادون على سلعمهم أمام النوافذ الشبكية، والحوانبت تعرض بضائعها أو تتردد في أصداء المساومات، والموالد والأسواق تغص بالمتاجر والتجار والبائعين، والمشتريين، والشعراء، والقوافل تربط الصين والهند بفارس والشام ومصر، وكانت الثغور أمثال بغداد، والبصرة، وعدن، والقاهرة، والإسكندرية، تبعث بالتجار يجوبون البحار. وظلت التجارة الإسلامية هي المسيطرة على بلاد البحر المتوسط إلى أيام الحروب الصليبية، تنتقل من الشام ومصر في أحد الطرفين إلى تونس، وصقلية، ومراكش وأسبانيا في الطرف الآخر، وتمر في طريقها ببلاد اليونان، وإيطاليا، وغالة. وانتزعت السيطرة على البحر الأحمر من بلاد الحبشة، وتجاوزت بحر الخرز إلى منغوليا، وصعدت في نهر الفلجا Yoiga من أستراخان إلى نوفجروود؛ وفنلدة، واسكنديناوة، وألمانيا حيث تركت ألقاً من قطع النقود الإسلامية. ولما أن قدمت سفن صينية لزيارة البصرة رد العرب الزيارة بإرسال سفاننهم من الخليج الفارسي إلى الهند وسرنديب، ثم اجتازت المضيق الذي يفصل بينهما، وسارت بإزاء الساحل الصيني إلى خنفو (كنتون) واستقرت في هذا الثغر جالية إسلامية ويهودية في القرن الثامن الميلادي(10). ووصل هذا النشاط التجاري الذي بعث الحياة قوية في جميع أنحاء البلاد إلى غايته في القرن العاشر أي في الوقت الذي تدهورت فيه أحوال أوروبا إلى الدرك الأسفل، ولما أن اضمحلت هذه التجارة أبت آثارها واضحة في كثير من اللغات الأوربية فأدخلت فيها ألفاظاً مثل Baza, Cravan, Magazine, Tariff .

وكانت الدولة تنترك للصناعة والتجارة حريتهما وتساعدهما بإيجاد عملة ثابتة مستقرة إلى حد كبير. وكان الخلفاء الأولون يستخدمون النقود البيزنطية والفارسية حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان فسك في عام 695 عملة عربية من الذهب

صفحة رقم : 4541

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

هي الدينار وأخرى من الفضة هي الدرهم. ويصف ابن حوقل (حوالي 975) صكاً كان تعهداً بالدفع قيمته 42.000 دينار مصدرأ إلى تاجر في مراكش. وقد اشتقت من كلمة صك الدالة على هذه الوثيقة الكلمة الإنجليزية Check وكن ذوو المال يستثمرون أموالهم في الأسفار البحرية والبرية، ومع أن الربا محرم في الإسلام فإن المشتغلين بالشؤون المالية لم يعدموا وسيلة لأداء جزء من الربح لأصحاب رؤوس الأموال نظير استخدامها في هذه الأعمال وما تتعرض له من الأخطار كما فعل الأوروبيون فيما بعد.

وكان القانون يحرم الاحتكار ولكنه كان منتشرأ رغم هذا التحريم، ولم يكد يمضي على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة وعاشوا في ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات من الأرقاء(11) ويقال إن يحيى البرمكي عرض سبعة ألف درهم (560.000 دولار أمريكي) ثمنأ لصندوق لآلئ مصنوع من الحجارة الكريمة، وإن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن؛ وإن الخليفة المكتفي، إذا جاز لنا أن نصدق الأرقام التي يوردها مؤرخو العرب، ترك حين وفاته ما قيمته 20.000.000 دينار (94.500.000 دولار أمريكي) من الجواهر والعطور(12). ولما أن عقد هارون الرشيد لابنه المأمون على بوران نثرت جدتها على العريس بكرة من اللؤلؤ، ونثر والدها على المدعويين كرات من المسك تحتوي كل منها على وثيقة تعطي صاحبها الحق في عبد

صفحة رقم : 4542

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

أو جواد، أو ضيعة، أو هدية أخرى(13)، ولما أن صادر المقتدر 16.000.000 دينار من ثروة ابن الجساس، بقيت لهذا الصانع الشهير بعد ذلك ثروة طائلة. وكانت ثروة بعض التجار ذوي الصلة بالأقطار النائية وراء البحار لا تقل عن 4.000.000 دينار، وكان منات التجار يملكون بيوتاً تتراوح نفقاته بين عشرة آلاف وثلاثين ألف درهم (142.500 دولار)(14).

وكان مركز العبيد في الطبقة الدنيا من بناء الدولة الاقتصادي. ولربما كان عددهم في الإسلام بالنسبة لعدد السكان أكثر من المسيحية حيث كان أرقاء الأرض يحلون محل العبيد. ويقول الرواة إن بيت الخليفة المقتدر كان يضم 11.000 من الخصيان، وإن موسى بن نصير قبض في إفريقية على 300.000 أسير، وفي أسبانيا على 30.000 "عذراء" وباع الجميع في أسواق الرقيق؛ وإن قتيبة قبض في سجديان على 100.000 أسير. وخلق بنا أن نشير في هذا المقام إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً هي عادة المؤرخين العرب، وإلى أن من واجبنا ألا نأخذها كما هي وقد عمل الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق وتحسين حال الأرقاء، فقصر الاسترقاق المشروع على من يؤسرون في الحرب من غير المسلمين وعلى أبناء الأرقاء أنفسهم. أما المسلم فلا يجوز أن يُسترق (كما لم يجوز في الدين المسيحي أن يسترق المسيحي). ولكن تجارة الرقيق نشطت على الرغم من هذا وكان قوامها من يقبض عليه في الغارات كالزنج من بلاد الشرق، ومن أواسط أفريقية، والأتراك أو الصينيين من التركستان، والبيض من روسيا وإيطاليا، وأسبانيا. وكان للسيد من المسلمين حق الحياة والموت على عبده، ولكنه كان في العادة يحسن معاملته إلى حد لم يكن معه مركزه أسوأ من مركز العامل في المصانع الأوروبية في القرن التاسع عشر، بل لعله كان أحسن حالاً من ذلك الصانع، لأنه كان آمن على حياته منه(15)، وكان الأرقاء يقومون بمعظم

صفحة رقم : 4543

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

الأعمال الدنيا في المزارع، وبأكثر الأعمال اليدوية التي لا تحتاج إلى مهارة في المدن. وكانوا يعملون خدماً في البيوت، وكان من رجاهم خصيان ومن النساء جوار في الحريم. وكانت كثر الرقصات، والمغنيات والممثلات من الجوار. وكان ابن الجارية من سيدها، وابن المرأة الحرة من عبدها، حرّاً من ساعة مولده. وكان يسمح للعبيد أن يتزوجوا وأن يتعلم أبناءهم إذا أظهروا قدراً كافياً من النباهة. وإن المرء ليدهش من كثرة أبناء العبيد والجواري الذين كان لهم شأن عظيم في الحياة العقلية والسياسية في العالم الإسلامي، ومن كثرة من أصبحوا منهم ملوكاً وأمراء أمثال محمود الغزنوي والمماليك في مصر.

ولم يبلغ استغلال العمال في بلاد أسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية، حيث كان الفلاح يكدح طوال ساعات النهار، ولا يكسب إلا ما يكفي لابتياح خرقة تستر حقوقه، أو إقامة كوخ يعيش فيه، أو الحصول على طعام لا يكاد يقيم أوده. وكان المتسولون كثيرين في البلاد الإسلامية ولا يزالون كثيرين فيها إلى الآن، ولا يزال الكثيرون منهم مخادعين مدعين؛ ولكن الآسيوي الفقير كان يحميه من الفاقة مهارته في العمل البطيء، وقل أن يوجد في الناس من يضارعه في تكييف نفسه لظروف التعطل عن العمل. وكانت الصدقات كثيرة متعددة، وكان في وسع الفقير إذا ضاقت به السبل أن ينام في أحسن بناء في المدينة - هو مسجد، ومع هذا كله فإن حرب الطبقات الأبدية لم

تخدم جمرتها قط، وكان لهيبها يندلع من أن إلى أن في البلاد الإسلامية (778، 769، 808، 838) في ثورات عنيفة. وكانت هذه الثورات تستتر أحياناً بستار الدين لأن الدين والدولة كانا في البلاد الإسلامية شيئاً واحداً، وكان منهم شيع كالجزمية والمحيدة تعتنق آراء مزدك الفارسي الشيعية؛ ومنهم شيعة أطلقت على نفسها اسم سرخ علم أي "العلم الأحمر" (16)؛ وقام في عام 772 رجل في خراسان يدعى هاشم المقنع وقال إن الله قد حل في جسمه، وإنه بعث

صفحة رقم : 4544

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

ليعيد شيعية مزدك. واجتمعت له حوله عدة طوائف، وهزم كثيراً من الجيوش التي أرسلت للقبض عليه، وظل ثلاثة عشر عاماً حاكماً على بلاد فارس، ثم قبض عليه أخيراً (786) وأعدم. وأثار بابك الخزاني الفتنة نفسها في عام 838 وجمع حوله طائفة سميت المحمرة، واستولى بها على أزربيجان، وظلت قبضته اثنتين وعشرين سنة، وهزم عدة جيوش، وقتل (على يد قول الطبري) 225.500 جندي وأسر قبل أن يهزم. وأمر الخليفة نفسه جلال بابك نفسه أن يقطع أطرافه طرفاً طرفاً، ثم خزق أمام قصر الخليفة، وحملوا رأسه إلى خراسان وطافوا به في مدنها (19)، ليذكر كل من يراه أن الناس كلهم يولدون غير أحرار وغير أكفاء.

وكانت أهم "حروب الأرقاء" في الشرق هي التي أثار عجاجها رجل عربي اسمه علي ادعى أنه من نسل علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت النبي. وتفصيل ذلك أن عدداً كبيراً من الزوج كانوا يعملون في كسح السباخ بالقرب من البصرة، فأخذ علي هذا يذكر لهم سوء ما يلقون من المعاملة، ويحرضهم على أن يثوروا معه على ساداتهم، ويعددهم بالتححرر من الرق وبالثروة وأن يكونوا هم مالكيين للعبيد. وأثرت فيهم دعوته، فاستجابوا لها واستولوا على الزاد والعتاد، وهزموا الجيوش التي سيرت لقتالهم، وأنشأ لهم قرى مستقلة فيها قصور لزعمائهم، وسجون لأسرهم، ومساجد لصلواتهم (869). وعرض أصحاب العمل أن يؤديوا لعلي خمسة دنانير عن كل شخص من الثوار يعود إلى عمله إذا أقتنعهم بهذه العودة، فأبى. وحاولت البلاد المحيطة بهم أن تخضعهم بمنع الطعام عنهم، ولكنهم حين نفذت مؤنهم هاجموا بلدة الأبله، وحرروا من فيها من الأرقاء وضموهم إلى صفوفهم ثم نهبوا وأشعلوا فيها النار (870). وتشجع علي بهذا النصر فهاجم عدة بلاد أخرى واستولى على الكثير منها، وسيطر على جنوبي إيران والعراق

صفحة رقم : 4545

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحال الاقتصادية

حتى دق أبواب بغداد نفسها. وتعطلت التجارة، وقل الطعام في العاصمة. وفي عام 871 استولى المهلبى قائد الزوج على البصرة، وذبح ثلاثمائة ألف من أهلها وسبى الجنود الزوج آلافاً من النساء واسترقوا آلافاً من الأطفال البيض بعضهم من بني هاشم أنفسهم-إذا صدقنا أقوال المؤرخين. وظلت نار الثورة مشتعلة عشر سنين، سيرت في خلالها

عدة جيوش لتقليم أظافرها وعرض على من يفرون من صفوف الثوار المال والعفو، فخرج على علي كثير من رجاله، وانضموا إلى جيوش الحكومة. ثم حوَصر من بقي منهم، وضُيقَ عليهم الخناق، وسلط عليهم الرصاص المصهور و "النار اليونانية" وهي مشاعل من النفط الملتهب، وانتهى الأمر بأن دخل جيش يقوده الوزير موفق إلى مدينة الثوار، وتغلب على ما لقيه من المقاومة، وقتل علياً وحُمل رأسه إلى الوزير المنتصر. وسجد موفق وضباطه شكراً لله على رحمته (883)(20). ودامت هذه الثورة أربعة عشر عاماً حاق فيها الخطر بجميع المقومات الاقتصادية والسياسية في البلاد الشرقية الإسلامية. وانتَهز أحمد بن طولون والي مصر هذا الاضطراب فاستقل بأغنى ولايات الخلافة الإسلامية.

صفحة رقم : 4546

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

الفصل الثاني

الإيمان

يلي المال والنساء في شهوات الإنسان رغبته في النجاة من العذاب في الدار الآخرة فإذا امتلأت المعدة بالطعام، وأشبع الإنسان غريزته الجنسية وجد متسعاً من الوقت ينصرف فيه إلى الله. ولقد كان المسلمون كثيري التفكير في ربهم، وكانت مبادئهم الأخلاقية وشريعته، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. ويتطلب الجزء الثاني من هذا الأساس الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به، ولهذا فإن المسلم المتمسك بدينه يؤمن كذلك بالجنة والنار، والملائكة والشياطين، والبعث، والقضاء والقدر، ويوم الحساب. وقواعد الإسلام بعد الشهادتين هي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت. ويؤمن المسلم كذلك برسالة الأنبياء الذين سبقوا محمداً وبما نزل عليهم من الوحي "ولكل أمة رسول" (سورة يونس 48). ويعتقد بعض المسلمين أن عدد أولئك الرسل 224000، ولكن يبدو أن محمداً كان يرى أن، إبراهيم وموسى، وعيسى، هم وحدهم الذين نطقوا بكلمات الله. ولهذا فإن علي المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل، ويعتقد أن ما ورد فيهما من وحي الله، فإذا ما اختلفا عن القرآن في شيء فعليه أن يعتقد أن سبب ذلك ما حدث فيهما من تغيير متعمد أو غير متعمد. وعليه أن يؤمن أيضاً بأن القرآن قد حل محل غيره من الكتب السماوية، وأن محمداً خير أنبياء الله ورسوله. والمسلمون يعتقدون أن محمداً بشر من خلق الله، ولكن احترامه إياه لا يقل عن احترام النصارى للمسيح، وفي ذلك يقول أحد الصالحين من المسلمين الأقدمين

صفحة رقم : 4547

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

إنه لو كان حياً في زمان النبي لما تركه يظأ الأرض بقدمه المباركة ولحملة على كتفيه أينما أراد. والمسلمون الصالحون لا يطيعون ما ورد في القرآن وحده، بل يعملون أيضاً بالأحاديث والسنن النبوية التي احتفظ بها علماءهم على مر الأجيال والقرون. ذلك أن المسلمين قد يوجهوا على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والتشريع، لا يجدون لها جواباً صريحاً في القرآن. كذلك وردت في القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول وتحتاج إلى إيضاح. ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله النبي أو الصحابة وما قالوه في أمثال هذه الموضوعات. ومن أجل ذلك وجه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث، وامتنعوا عن تدوينها في القرن الأول من الهجرة. وأنشئوا مدارس لحديث في مختلف المدن يلقون فيها دروساً عامة في الحديث والسنن النبوية، ولم يكن من غير المألوف أن يسافر الواحد منهم من الأندلس إلى بلاد

صفحة رقم : 4548

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

الفرس ليستمع إلى حديث من أحد رواته. وبهذه الطريقة تجمعت طائفة من السنن الشفوية إلى جانب القرآن شبيهة بالمشنا والجمار اللذين تجمعا حول التوراة، وفعل البخاري بهذه الأحاديث في عام 78 ما فعل يهودا هاناسي بشرائع اليهود غير المكتوبة في عام 89، فقد واصل البحث عدة سنين طاف فيها بأحاء العالم الإسلامي من مصر إلى التركستان حتى جمع نحو ستمائة ألف حديث اختار منها بعد تمحيصها ونقدها 7275 ونشرها في صحيحه منسوبة في سلسلة طويلة من الإسناد إلى أحد الصحابة أو إلى النبي نفسه. ثلثي الكثير من أحاديث النبي ضوءاً جديداً على العقائد الإسلامية. نعم إن محمداً لم يقل قط إنه يأتي بمعجزات، ولكن ثمة أحاديث تروي بعض ما قام به من خوارق العادات: كيف أطعم عدداً كبيراً من الناس من طعام لا يكاد يكفي شخصاً واحداً، وكيف أخرج الشيطان من جسم بعض الناس، وكيف انزل الغيث وحجب المطر بصلاة واحدة، وكيف مسَّ ضرع ماعز جافة فأدرت اللبن، وكيف شفيَّ المرضى بلمس ثيابه أو شعر رأسه بعد قصه. وتحت بعض الأحاديث على حب الأعداء، وإن كانت آراء محمد في هذه الناحية أشد من آراء المسيح. وقد أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل كما يُعزى إلى محمد حديث يروي قصص الزراع، وضيوف العرس وعمال الكرم، وقصارى القول أن رواية الأحاديث قد وصفوا النبي بخير ما نجده في المسيحية من فضائل على الرغم من زواجه التسع، يقول بعض النقاد المسلمين: إن كثيراً من الأحاديث قد دستها على النبي الدعوة الأموية أو العباسية أو غيرهما. وقد اعترف ابن العوجاء الذي أعدم في الكوفة سنة 272 أنه وضع بنفسه أربعة آلاف حديث. وثمة عدد قليل من المتشككين الذين لا يصدقون معظم الأحاديث ومنهم من زيف بعضها وصاغها في صيغة الأحاديث الصحيحة.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

ومع هذا كله فإن تصديق الأحاديث الواردة في إحدى المجموعات المتفق على صحتها، من الصفات التي يمتاز بها المسلمون المتمسكون بدينهم والذين يُطلق عليهم السنيين. ومن هذه الأحاديث حديث يسأل فيه جبريل النبي عن ماهية الإسلام فيجيبه النبي بأن الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، فالصلاة، والزكاة، والصوم والحج هي الواجبات الأربعة المفروضة على كل مسلم، وهي مضافة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله "أركان الإسلام الخمسة". ولا بد أن يسبق الصلاة الوضوء، وإذا كانت الصلاة تؤدي خمس مرات في اليوم فقد أصبحت النظافة من الإيمان بحق. فالإسلام كاليهودية يدعو إلى العناية بصحة الجسم وتقويم الخلق، وهما في هذه الناحية يعملان بالمبدأ القائل إن الإنسان لا يعقل الشيء المعقول إلا إذا كان له سند من الدين. وكان النبي يحذر المسلمين من إهمال الوضوء ويقول لهم إن الله لا يقبل الصلاة بلا وضوء؛ ويحث على تنظيف الأسنان قبل الصلاة، وإن لم يجعلها من فرائض الوضوء؛ أما تلك الفرائض فهي: غسل الوجه واليدين والقدمين (سورة المائدة 6) وعلى الجنب أن يستحم، وعلى المرأة التي خرجت من الحيض، أو الوضع، أن تتطهر قبل الصلاة. ويصعد المؤذن في بلاد الإسلام المئذنة عند طلوع الفجر، وفي منتصف النهار ووقت العصر، وعند غروب الشمس، وفي المساء، ويدعو المسلمين إلى الصلاة بقوله "الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله.

ألا ما أقوى هذه الدعوة، وما أشرفها من دعوة للقيام من النوم قبل مطلع الشمس، وما أحسن أن يقف الإنسان عن العمل وقت الظهيرة، وما أعظم وأجل أن يتوجه الإنسان بروحه إلى الله جل جلاله في سكون الليل، وما أحلى وقع صوت المؤذن على الأذان، أذان المسلمين وغير المسلمين، وهم يدعون النفوس الحبيسة في الأجسام الأرضية من فوق آلاف المساجد أن تتوجه إلى واهب الحياة والعقل، وتتصل به ذلك الاتصال الروحي الجليل. ففي هذه الأوقات الخمسة يجب على كل مسلم في جميع بقاع الأرض أن يقف كل عمل أياً كان، ويتطهر، ويولي وجهه نحو مكة والكعبة ويقدم الصلوات القصيرة، بنفس الصورة التي يؤديها بها غيره من المسلمين، كلما انتقلت الشمس من مرحلة إلى مرحلة في حركتها الظاهرة حول الأرض.

فمن أمكنه وقته، وشاعت إرادته، ذهب إلى المسجد يؤدي الصلاة، والمساجد تظل في العادة مفتوحة الأبواب طوال النهار، يؤمها كل مسلم صالح أو زنديق ليتوضأ أو يصلي أو يستريح. وهناك تحت سقفها الظليلة كان المدرسون يعلمون التلاميذ، والقضاة يفصلون في الخصومات، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم، وكان الناس يجتمعون فيها

ليحدثوا في كل ما يعينهم، ويستمعوا إلى الأخبار ويفاوضوا في الأعمال التجارية والمالية في بعض الأحيان. ذلك أن المسجد كان كالبيعة عند اليهود، والكنيسة عند المسيحيين، مركز الحياة اليومية، والبيت العام للمجتمع كله. وفي يوم الجمعة قبل أن ينتصف النهار بنصف ساعة أو نحوها يقوم المؤذن ويصلي على النبي ويدعو لأسرته وإلى الصحابة، ويدعو

صفحة رقم : 4551

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

المسلمين إلى الصلاة . ويستحب في هذا اليوم أن يستحم المصلون، ويلبسوا أثواباً نظيفة، ويتعطروا، قبل المجيء إلى المسجد، فإن لم يكونوا قد اغتسلوا فإن عليهم أن يتوضأوا في المسجد .
وقد جرت العادة أن تبقى النساء في بيوتهن حين يذهب الرجال إلى المساجد، خشية أن يشغل وجودهن وإن كنَّ محجبات بعض الرجال عن التوجه بأرواحهم كلها إلى الله. ويترك المصلون أذيتهم عند باب المسجد، ويدخلونه حفاة أو بالأخفاف أو الجوارب، فإذا حان موعد الصلاة وقفوا جنباً إلى جنب صفاً واحداً أو عدة صفوف، ولوا وجوههم نحو المحراب الذي يعين موضع القبلة أو اتجاه مكة. ويقوم الإمام ويعظ الناس بخطبة قصيرة ثم تقام الصلاة وينتلو الإمام آيات من القرآن، وكذلك يفعل المصلون أو يكتفون بتلاوة الفاتحة، ويؤدون الصلاة بشعائرها المعروفة من ركوع وسجود وتحيات. وليس في صلاة المسلمين أناشيد، أو مواكب، أو قداس، أو مقاعد مستأجرة، ذلك أن الدين والدولة شيء واحد عند المسلمين، ولهذا فإن الشؤون الدينية ينفق عليها من الأموال العامة. وليس الإمام كاهناً كالقس عند المسيحيين بل هو رجل عادي يكسب قوته بعمل دنيوي يؤديه، ويعين في المسجد فترة من الزمان، ويتقاضى أجراً قليلاً ليوم المصلين؛ فالدين الإسلامي لا يعترف بالكهانة والقساوسة. والمسلمون بعد صلاة الجمعة أحرار يستطيعون من أراد منهم أن يؤدي عمله المعتاد كما يؤديه في أي يوم آخر. وحسبهم أنهم قد توجهوا إلى ربهم ساعة من الزمان تطهرت فيها نفوسهم وسمت فوق

صفحة رقم : 4552

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

المشاغل الاقتصادية والمنازعات الاجتماعية، وتألفت قلوبهم من حيث لا يشعرون باشتراكهم في هذه الشعائر العامة. والواجب الثاني المفروض على المسلم هو أداء الزكاة. لقد كان النبي ينظر إلى الأغنياء كما ينظر إليهم المسيح، ويقول بعضهم إنه بدأ حياته مصلحاً اجتماعياً شمأزت نفسه مما رآه من الفروق الواسعة بين ترف طائفة التجار من الأشراف وفقر عامة الشعب، ويبدو أن معظم أتباعه في أول الأمر كانوا فقراء.

وكان من أول ما قام به من الأعمال في المدينة أن فرض ضريبة سنوية مقدارها اثنان ونصف في المائة على جميع الأملاك المنقولة، لمعونة الفقراء . وكان في الدولة الإسلامية موظفون مختصون يقومون بجمع الزكاة وتوزيعها على أصحابها. وكان جزء من حصيلتها ينفق في بناء المساجد، وفي أداء نفقات الحكومة وتجهيز الجيش. ولكن الحرب كانت تأتي بالغنائم التي تزيد كثيراً من نصيب الفقراء. وما أكثر ما يُروى من قصص المسلمين الأسيخاء الذين جادوا بأموالهم على الفقراء، فالحسن بن عليّ مثلاً يُروى عنه أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات في حياته وأنه في مرتين وهبهم كل ما يملك .
والواجب الثالث على المسلمين وهو صوم رمضان. ونقول هنا إن الخمر، والميتة، والدم، ولحم الخنزير، والكلب، محرمة بوجه عام على المسلمين، ولكن الإسلام من هذه الناحية أقل صرامة من اليهودية، فهو يبيح أكل الطعام المحرم عند الضرورة، وسئل محمد مرة عن جبن لذيق يحتوي على لحم محرم، فقال

صفحة رقم : 4553

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

للسائل: "اذكروا اسم الله عليه وكلوا" . وكان يكره الزهد الشديد ويحرم الرهينة على المسلمين (سورة الأعراف 32) فقد أحل للمسلمين أن يستمتعوا بالحلال من طيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوي بذلك إرادتهم من جهة ولتصح به أجسامهم من جهة أخرى. وكان النبي بعد أن أقام في المدينة بضعة أشهر قد رأى اليهود يصومون صومهم السنوي فأمر أتباعه أن يجذوا حذوهم لعله بذلك يستميلهم إلى الإسلام، فلما تبين أنه لم يستملهم إليه استبدل به صوم رمضان فإذا أهل هذا الشهر وعدته تسعة وعشرون يوماً في بعض السنين وثلاثون في بعضها الآخر أمسك المسلمون في أثناء النهار عن الطعام والشراب، والتدخين وعن الصلات الجنسية. وأبيح الإفطار للمرضى، والمسافرين المتعبين، والصغار، والشيوخ الضعاف، والحاملات والمرضع، ولما فرض الصيام في أول الأمر كان شهر رمضان في فصل الشتاء حين يقصر النهار، ولكن رمضان يقع في فصل الصيف كل ثلاث وثلاثين سنة، فيطول ويشد الظمأ في حر البلاد الشرقية حتى يكوم أشبه شيء بالعذاب. ولكن المسلم الصالح يتحمل الصيام. ويفطر المسلمون أثناء الليل فيأكلون، ويشربون، ويدخنون، ويباشرون النساء حتى مطلع الفجر، وتظل المخازن والحوانيت مفتحة الأبواب طوال الليل يؤمها الجماهير ليأكلوا ويستمتعوا، والفقراء يعملون كعادتهم في أيام الصوم، أما الأغنياء ففي وسعهم أن ييسروا الأمر على أنفسهم بالنوم في أثناء النهار.
ويقضي الأتقياء الصالحون الليالي العشر الأخيرة من رمضان في المساجد

صفحة رقم : 4554

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

فهم يعتقدون أن القرآن قد نزل على النبي في إحدى هذه الليالي، ولهذا فإن هذه الليلة عندهم خير من ألف شهر، وإذا كانوا لا يعرفون أي الليالي هي ليلة القدر فإن كثيراً من المسلمين يحبونها كلها. فإذا انقضى شهر رمضان احتفل المسلمون بعيد الفطر، فيستحمون، ويلبسون ثياباً جديدة، ويهنئ به بعضهم بعضاً، ويخرجون الزكاة، والهدايا ويزورون قبور الموتى.

والواجب الرابع المفروض على المسلمين هو الحج. ولقد كان الحج إلى الأماكن المقدسة من السنن المألوفة في بلاد الشرق، فكان اليهود يأملون أن يروا صهيون في يوم من الأيام كما كان الصالحون من العرب عبدة الأوثان قبل النبي بزمان طويل يحجون إلى الكعبة، وأقر الإسلام هذه السنة القديمة، وكان هذا الإقرار من الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية. وبذلك أصبحت الكعبة، بعد أن طهرت من الأصنام، بيت الله. وفرض على كل مسلم (عدا المرضى والفقراء) أن يحجوا إليها، كلما استطاعوا، ولكن سرعان ما فسر هذا بأنه يعني مرة في العمر، ولما أن انتشر الإسلام في أطراف العالم اقتصر أداء هذه الفريضة على قلة منهم، وفي مكة نفسها بعض المسلمين الذين لم يزوروا الكعبة قط.

وقد وصف دوتي Donghty، وصفاً لا يضارعه في روعته وصف سواه، منظر قافلة الحجاج وهي تجتاز الصحراء في حر الشمس اللافح، ولهيب الرمال المحرقة، وتتألف من سبعة آلاف من المؤمنين أو أقل أو أكثر من هذا العدد، راجلين

صفحة رقم : 4555

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

أو ممتطين صهوة الجياد، أو ظهور الحمير، أو البغال، أو الهودج الفخمة، ولكن كثرتهم الغالبة تهتز على ظهور الإبل، وتنحني بأجسامها في كل خطوة من خطواتها الطويلة... وتسجد خمسين مرة في كل دقيقة أرادت ذلك أو لم ترده في اتجاه مكة، مجتازة ثلاثين ميلاً في اليوم، وخمسين ميلاً في بعض الأحيان، حتى تصل إلى واحة تحط فيها رحالها لتستريح. وفي هذا السير الشاق يمرض كثير من الحجاج ويتخلفون، ومنهم من يموتون فيتركون تنهشهم السباع المترصدة في الطريق، أو يحتضرون فيتركون ليموتوا على مهل، ويزور الحجاج في المدينة قبر النبي، ويشهدون قبر أبي بكر وقبر عمر في مسجد الرسول، ويعتقد بعضهم أن في جوار هذه القبور مكان احتفظ به لعيسى بن مريم.

فإذا أشرفت القافلة على مكة نصبت خيامها خارج أسوارها لأن البلدة نفسها حرم مقدس. ثم يستحم الحجاج ويحرمون فيلبسون أثواباً بيضاء غير مخيطة، ويركبون أو يسيرون على أقدامهم مسافة طويلة، يبحثون عن مساكن لهم في أحياء المدينة. ويفرض عليهم طوال إقامتهم في مكة أن يمتنعوا عن جميع المنازعات، وعن العلاقات الجنسية، وعن كل ما هو حرام، وتصبح البلدة

صفحة رقم : 4556

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

المقدسة في أشهر الحج ملتقى المسلمين من كافة الأمم، والأجناس والطبقات، يشتركون كلهم على قدر المساواة في مناسك الحج وفي الصلاة، فإذا دخلوا المسجد الحرام الفسيح الجنبات شغلتهم نشوتهم الروحية عن ملاحظة المآذن الرفيعة التي فوق الجدران، وعماء فيه من عقود وعمد. وعند بئر زمزم التي يقال عنها إنها أطفأت ظمأ إسماعيل يقفون خاشعين، ويشرب الحجاج من مائها مهما تكن حرارته ومهما يكن تأثيره، ومنهم من يحمل هذا الماء معه إلى وطنه ليشرب منه في بعض أيامه وحين تحضره الوفاة. ويصل الحجاج آخر الأمر، وكلهم عيون شاخصة يلهثون من التعب، إلى قلب المسجد، إلى الكعبة نفسها، وهي بناء صغير الحجم مضاء من داخله بمصابيح من الفضة معلقة في سقفه، ومكسوة جدرانها الخارجية بكسوة من الحرير الثمين، وفي أحد أركانه الحجر الأسود الشهير. وبطوف الحجاج سبع مرات حول الكعبة، ويقبل الحجر الأسود أو يلمسه أو ينحني تعظيماً له. ومن الحجاج من يقضون الليلة كلها في داخل المسجد غير عابئين بما عانوا من شدة التعب والسهر، يجلسون على أبسطة يتحدثون، ويصلون ويفكرون في دهشة ونشوة في الغرض الذي جاءوا من أجله.

وفي اليوم الثاني يسعى الحجاج سبع مرات بين الصفا والمروة، وهما في خارج المدينة، إحياء لذكرى هاجر وهي تبحث عن الماء لتروي به ولدها. وفي اليوم السابع يخرج من يبعون "الحج الأكبر" إلى جبل عرفات الذي يبعد عن

صفحة رقم : 4557

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

مكة مسيرة سبع ساعات- وهم يستمعون إلى خطبة تدوم ثلاث ساعات ، ثم يقفون وهم عائدون في منتصف الطريق ويقضون ليلة في المزدلفة، وفي اليوم الثامن يهرعون إلى منى ويرمون بالجمرات ثلاث علامات أو ثلاث أعمدة، اعتقاداً منهم أن إبراهيم قد رجم الشيطان بهذه الطريقة حينما حاول أن يئتيه عن ذبح ولده... وفي اليوم الثامن يضحون بحمل أو جمل أو غيرها من الماشية ذات القرون، ويأكلون بعض لحومها ويوزعون الصدقات ، وهذا الحفل هو أهم شعائر الحج ويحيون به ما فعله النبي نفسه في مثل ذلك الوقت من حياته، والمسلمون في جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى فينحرون الذبائح في مثل هذا اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ويوزعون اللحوم والصدقات تقرباً لله. وبعد هذا يخلق الحجاج شعورهم ويقضون أظافرهم ويدفنون هذه البقايا في الرمال، وبذلك ينتهي الحج الأكبر، ولكن الحجاج في العادة يزورون الكعبة مرة أخرى قبل أن يعودوا إلى مخيم القافلة. وهناك يعودون إلى حالتهم الأولى ويلبسون ثيابهم العادية ويبدعون رحلتهم الطويلة إلى أوطانهم مطمئني البال فخورين بما وفقوا إليه من عمل صالح. ولهذه الفريضة العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهي تقوي إيمان المسلمين واستمسكهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين، شأنها في هذا شأن حج اليهود إلى أورشليم، وحج المسيحيين إلى هذه المدينة وإلى روما. فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى

صفحة رقم : 4558

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

والورع يجمع بين بدو الصحراء والفقراء وتجار المدن الأثرياء، وبين البربر وزنوج إفريقية، والشوام، والفرس، والأتراك، والتتار، والهنود المسلمين، والصينيين والمصريين، وغيرهم من الشعوب الإسلامية-يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة، وينتولون كلهم أوعية واحدة بلغة واحد وهي اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام. وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على العقل. ولكن المسلم بيتسم حين يرى أمثال هذه العادة في الأديان الأخرى، ويهوله أن يرى المسيحيين في إحدى شعائرهم "يأكلون الله". فالمسلمون لا يفهمون في هذا الطواف إلا أنه رمز خارجي لصلة روحية وغذاء روحي. وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعز على الأفهام.

والأديان جميعها مهما يكن من نيل أصولها، لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها للخلود. لهذا نرى أن معظم المسلمين يؤمنون بالسحر، وقلمما يشكون في قدرة السحرة على التنبؤ بالغيب والكشف على الكنوز المخبوءة، وغرس الحب في النفوس وتعذيب الأعداء، وشفاء المرضى، واتقاء الحسد. ومنهم من يعتقد في قدرة البعض على مسخ الإنسان إلى حيوان أو نبات، أو الانتقال من مكان إلى مكان بوسائل معجزة خارقة. وتلك العقائد هي المحور الذي تدور عليه قصص ألف ليلة. ففيها ترى الأرواح في كل مكان تحتال بضروب السحر وغيره على الأحياء، وتستولد النساء غير الحريصات ما لا يشتهين من الأبناء ويلبس معظم المسلمين (3) كما يلبس نصف المسيحيين تمائم لترد عنهم ضرراً مختلفاً من الشرور، ويعتقدون

صفحة رقم : 4559

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

أن من الأيام ما هو سعد ومنها ما هو نحس، وأن الأحلام قد تنبئ عن المستقبل، وأن الله قد يتحدث إلى الإنسان في الأحلام. ويؤمن العامة في مختلف بلاد الإسلام كما يؤمن أمثالهم في مختلف البلاد المسيحية بالتنجيم؛ فقد رسمت خرائط السماء، ولم يكن الغرض من رسمها مقصوراً على معرفة اتجاه القبلة في المساجد وتحديد أيام الأعياد الدينية، بل كان يقصد منه فوق هذا وذاك اختيار الوقت المناسب لكل عمل خطير، ومعرفة طالع كل فرد، أي خلقه ومصيره كما تدل عليه النجوم التي كانت في السماء وقت مولده.

والدين الإسلامي، وإن بدا للعالم الخارجي وحدة قوية شاملة خالية من الفروق في شعائره وعقائده، قد انقسم من أقدم العهود شيعاً لا تقل في عددها أو شدة اختلافها عن الشيع المسيحية. ومن هذه الشيع الخوارج ذوو النزعة الحربية المتمزجة الديمقراطية، ومنها المرجئة التي تعتقد أن المسلم لا يقضي عليه بالعذاب الدائم في الدار الآخرة، والجبرية التي تنكر حرية الإرادة، وتعتقد أن الإنسان مسير في كل شيء وفق ما قدر له منذ الأزل، والقدرية التي تؤمن بحرية الإرادة وتدافع عنها، ومنها غير هذه شيع كثيرة لا حاجة بنا إلى الوقوف عندها. وحسبنا أن تحيي فيها إخلاصها لمبادئها وسعة علمها. لكن منها فرقة كان لها شأن عظيم في التاريخ، تلك هي طائفة الشيعة. فهؤلاء قضوا على الخلافة الأموية. واستولوا على بلاد الفرس ومصر، والهند الإسلامية، وكان لهم أعظم الأثر في الأدب والفلسفة. ونشأت طائفة الشيعة على أثر مقتل عليّ وولده الحسين وأسرته، فقد قالت فئة قليلة من المسلمين إن الله وقت أن اختار

محمداً نبياً له ورسولاً، قد أراد من غير شك أن يكون أبناؤه الذين ورثوا بعض فضائله وأغراضه الروحية هم الوارثين لزعامة الإسلام. ولهذا فهم يرون أن جميع الخلفاء ماعداً علياً،

صفحة رقم : 4560

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

مغتصبون لا حق لهم في الخلافة. وقد اغتبطوا حين ولي عليّ الخلافة، وحزنوا لمقتله، وروعوا لمقتل الحسين. وأصبح عليّ والحسين بعد موتهما في رأيهم من أولياء الله الصالحين، وهم يعظمون ضريحيهما تعظيماً لا يفوقه إلا تعظيمهم للكعبة وقبر الرسول. ولعل طائفة الشيعة قد تأثرت بعقيدة الفرس واليهود والمسيحيين الخاصة بالمسيح المنتظر، وبفكرة البوذيين عن البدهستفاس-أي تجسد القديسين مراراً بعد موتهم-فقالوا إن أبناء عليّ هم الأئمة الذين تتمثل فيهم الحكمة الإلهية. وهي ترى أن الإمام الرضا، ثامن أولئك الأئمة الذي يقوم ضريحه في مشهد بشمالى فارس "مجد العالم الشيعي". وقد حدث في عام 873 أن اختفى الإمام الثاني عشر محمد بن حسن وهو في الثامنة عشرة، فاعتقد الشيعة أنه لم يموت، ولكنه سيعود في الوقت المناسب ليعيدهم إلى السلطان الشامل والسعادة الدائمة. وكانت الفرق الإسلامية المختلفة تشعر بعضها نحو بعض بعداء يفوق عداءها لمن يعيش في البلاد الإسلامية من الكفرة، شأنها في هذا شأن الفرق المختلفة في سائر الأديان. ولقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون واليهود، والصابئون، يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص وأداء فريضة عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله وتتراوح بين دينار وأربعة دنائير (من 4.75 إلى 19 دولاراً أمريكياً). ولم تكن هذه الضريبة تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان

صفحة رقم : 4561

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

والنساء والذكور الذين هم دون سن البلوغ، والأرقاء، والشيوخ، والعجزة، والعمى الشديد والفقر. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية أو إن شئت فقل لا يقبلون فيها-ولا تفرض عليهم الزكاة البالغ قدرها اثنين ونصف في المائة من الدخل السنوي، وكان لهم على الحكومة أن تحميهم، ولم تكن تُقبل شهادتهم في المحاكم الإسلامية، ولكنهم كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم، وقضاتهم وقوانينهم، وكان تسامح الحكام المسلمين معهم يختلف باختلاف الأسر الحاكمة، فكان الخلفاء الراشدون أشداء عليهم، وكان الأمويون يعاملونهم باللين بوجه عام، والعباسيون يعاملونهم باللين تارة وبالقسوة تارة أخرى. وقد أخرج عمر بن الخطاب

اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب لأنها أرض الإسلام المقدسة، وتعزو إليه إحدى الروايات غير المؤكدة "عهداً" قيد فيه حقوقهم بوجه عام، لكن هذا العهد، إن كان قد عُقد، قد أغفل العمل به، وظلت الكنائس المسيحية في مصر تتمتع في أيام هذا الخليفة بالميزات التي منحتها لها الحكومة البيزنطية قبل الفتح العربي. وكان اليهود في بلاد الشرق الأدنى قد رحبوا بالعرب الذين حرروهم من ظلم حكامهم السابقين، إلا أنهم في عهدهم قد فُرضت عليهم عدة قيود ولاقوا شيئاً من الاضطهاد من حين إلى حين، غير أنهم مع هذا كانوا يُعاملون على قدم المساواة

صفحة رقم : 4562

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

مع المسيحيين، وأصبحوا مرة أخرى يتمتعون بكامل الحرية في حياتهم وفي ممارسة شعائر دينهم في بيت المقدس، وأثروا كثيراً في ظل الإسلام وفي آسية، ومصر، وأسبانيا، كما لم يثروا من قبل تحت حكم المسيحيين. وكان المسيحيون في بلاد آسية الغربية، خارج حدود الجزيرة العربية، يمارسون شعائر دينهم بكامل حريتهم، وبقيت الكثرة الغالبة من أهل بلاد الشام مسيحية حتى القرن الثالث الإسلامي. وحدثنا المؤرخون أنه كان في بلاد الإسلام في عصر المأمون أحد عشر ألف كنيسة، كما كان فيها عدد كبير من هياكل اليهود ومعابد النار. وكان المسيحيون أحراراً في الاحتفال بأعيادهم علناً، والحجاج المسيحيون يأتون أفواجاً آمنين لزيارة الأضرحة المسيحية في فلسطين، وقد وجد الصليبيون جماعات مسيحية كبيرة في الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر الميلادي ولا تزال فيه جماعات منهم إلى يومنا هذا. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية والذين كانوا يلقون صوراً من الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية، وأورشليم، والإسكندرية، وإنطاكية، أصبح هؤلاء الآن أحراراً آمنين تحت حكم المسلمين الذين لك يكونوا يجدون لنقاشهم ومنازعاتهم معنى يفهمونه، ولقد ذهب المسلمون في حماية المسيحيين إلى أبعد من هذا، إذ عين والي إنطاكية في القرن التاسع الميلادي حرساً خاصاً ليمنع الطوائف المسيحية المختلفة من أن يقتل بعضها بعضاً في الكنائس. وانتشرت أديرة الرهبان وأعمالهم في الزراعة، وفي إصلاح الأراضي البور، وكانوا يتذوقون النبيذ المعصور من عنب الأديرة، ويستمتعون في أسفارهم بضيافتها، وبلغت العلاقة بين الدينين في وقت من الأوقات درجة من المودة تبيح للمسيحيين الذين يضعون الصلبان على صدورهم أن يؤموا المساجد ويتحدثوا فيها مع أصدقائهم المسلمين. وكانت طوائف الموظفين الرسميين في البلاد الإسلامية تضم مئات من المسيحيين، وقد بلغ عدد الذين رقوا منهم إلى المناصب العليا في الدولة من الكثرة درجة أثارت شكوى المسلمين في بعض العهود. فقد كان سرجيوس والد القديس

صفحة رقم : 4563

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الإيمان

يوحنا الدمشقي خازن بيت المال في عهد عبد الملك بن مروان، وكان يوحنا نفسه وهو آخر آباء الكنيسة اليونانية، رئيس المجلس الذي كان يتولى حكم دمشق. وكان المسيحيون في بلاد الشرق يرون أن حكم المسلمين أخف وطأة من حكم بيزنطية وكنيستها. وعلى الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون، أو بسبب هذه الخطة، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزرادشتيين، والوثنيين إلا عدداً قليلاً جداً منهم، وكثيرون من اليهود في أسية، ومصر وشمال أفريقيا. فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة، وكان في وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان. واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لساناً لهم، ولبسوا الثياب العربية، ثم انتهى الأمر بإتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام. وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، في هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وأمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمسكوا أنسياهم بعد وقت قصير ألتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين، وأندونيسيا، والهند، إلى فارس، والشام، وجزيرة العرب، ومصر وإلى مراكش، والأندلس؛ وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام نحو ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية.

صفحة رقم : 4564

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

الفصل الثالث

الشعب

كان العرب في عهد الأمويين طبقة عليا حاكمة تحصل على مقررات من الدولة. وكان جميع الذكور القادرين من أبناء العرب، يخضعون، في نظير هذه المزايا للخدمة العسكرية، يُدعون إليها في أي وقت من الأوقات. وكانوا بوصفهم الفاتحين يفخرون بدمهم النقي في زعمهم وبلغتهم العربية الفصحى. وكان العربي يحرص أشد الحرص على أن يضيف إلى اسمه اسم أبيه كعبد الله ابن الزبير مثلاً، وكان في بعض الأحيان يضيف إليه اسم قبيلته وموطنه الأصلي، فكان اسمه سيرة له مصغرة فيقول مثلاً: أبو بكر أحمد ابن جرير الأزدي. غير أن نقاء الدم لم يلبث أن أصبح أسطورة خرافية بعد أن اتخذ الفاتحون لهم جوارح من أهل البلاد المفتوحة؛ وأدخلوا أبناءهم منهم في زمرة العرب؛ لكن الفخر بالدم والأصل ظل كما كان من قبل. وكان أفراد الطبقات العليا من العرب ينتقلون من مكان إلى مكان على ظهور الخيل، في أثواب من الحرير الأبيض، وسيوفهم مشرعة بأيديهم. أما العامة فكانوا يخرجون في سراويل منتفخة،

وعمامات مطوية، وأحذية ذات أطراف رفيعة. واحتفظ البدوي بجلبابه الفضفاض، وشاله ومنطقته، وقد نهى النبي عن لبس السراويل الطويلة، ولكن بعض العرب نسوا أمره هذا، وكانت جميع طبقات الشعب تزددان بالحلي، وكانت الإناث يستهوين الذكور بصديرياتهن، ومناطقهن البراقة، وتُقبهن الواسعة الزاهية اللون. وكن يعقسن شعرهن على جباههن، أو يرسلنه على جانبي رؤوسهن، أو يجدلنه

صفحة رقم : 4565

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

غدائر تنوس على ظهورهن؛ وكن أحياناً يكثرنه بخيوط سوداء من الحرير، وفي أغلب الأوقات يزينه بالجواهر والأزهار. وأخذن بعد عام 715 يغطين بالنقاب وجوههن أسفل عيونهن، وازداد انتشار هذه العادة تدريجاً بعد ذلك العام، وبهذا كان في وسع كل امرأة أن تكون فاتنة جذابة، لأن عيني المرأة العربية مهما يكن سنهما جميلتان تسببان العقول. والفتاة العربية تبلغ الحلم في سن الثانية عشرة وتصبح عجوزاً في سن الأربعين، وهي بين هذه السن وتلك تلهم معظم الشعراء وتلد الأبناء.

والمسلم لا يحترم العزوبة، ولا يخطر بباله أن يمتنع عن إشباع الغريزة الجنسية، ولا يرى أن هذا الامتناع حال طبيعية أو مثالية. وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء. وحدود الزواج أوسع في الإسلام منها في كثير من الأديان، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية؛ ولهذا قل البغاء في أيام النبي والخلفاء الراشدين. ولكن الانهماك في إشباع الغريزة الجنسية يتطلب عادة كثرة التنبيه، ولهذا لم تلبث الفتيات الراقصات أن أصبح لهن شأن كبير في حياة الرجال حتى أكثرهم أزواجاً. وإذا كان المقصود من الأداب الإسلامية أن تكون مقصورة على آذان الذكور وأعينهم، فإن منها ما لا يقل فحشاً عن حديث الذكور في البلاد المسيحية؛ فهذا الأدب يشتمل على طائفة كبيرة من الغزل، وقد عنيت كتب الطب عند المسلمين ببيان الأدوية المقوية للباء(42). والشريعة الإسلامية تجعل الإعدام من عقوبات الزنى واللواط، ولكن ازدياد الثروة خفف عقوبة الزنى فجعلها ثلاثين جلدة، وعض الحكام البصر في كثير من الأحيان عن اللواط(43). ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم، يضفرون شعورهم، ويصبغون أظافرهم بالحناء ويرقصون الرقص الخليع(44). وعاقبهم سليمان بن عبد الملك بإخساء من كان في مكة من المخنثين، وأبصر الهادي امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما

صفحة رقم : 4566

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

على الفور(45). ولكن اللواط والسحاق رغم ما فرض عليهما من العقاب الصارم أخذتا ينتشران انتشاراً سريعاً حتى كانا كثيري الحدوث في بلاط هارون الرشيد، وفي قصائد شاعره المحبوب أبي نواس ولما يمض على زمن الهادي

إلا بضعة أعوام. ذلك أن الرجل الذي حالت التقاليد بينه وبين النساء قبل الزواج، وملهن بعده، عمد إلى العلاقات الجنسية الشاذة، والمرأة التي حجبها أهلها عن جميع الرجال زلت هي الأخرى فسقطت فيما سقط فيه الرجل. وكان اتصال العرب بالفرس من أسباب انتشار الحجاب واللواط في البلاد الإسلامية. لقد كان العرب قبل الإسلام يخشون مفاتن المرأة ويعجبون بها على الدوام، وقد ثأروا لأنفسهم من خضوعهم الغريزي لها بإثارة الشكوك التي يثيرها الذكور عادة حول فضية المرأة وقوة عقلها. وقد نصح عمر قومه باستشارة النساء ومخالفة مشورتهم (46)، ولكن المسلمين في القرن الأول من التاريخ الهجري لم يحجبوا النساء، فقد كان الرجال والنساء يتبادلان الزيارات ويسيران في الشوارع جنباً إلى جنب، ويصليان معاً في المساجد (47). وكانت عائشة بنت طلحة زوج مصعب بن الزبير لا تستر وجهها من أحد فعابها مصعب في ذلك فقالت "إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما في من وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد" (48). ثم انتشر الحجاب ونظام الخصيان في أيام الوليد الثاني (743-744). وكان منشأ عادة عزلة النساء في بادئ الأمر تحريمهن على الرجال أيام الحيض والنفاس. وكان الزوج المسلم يدرك ما يتصف به الرجل في الشرق من شدة العاطفة وسرعة الانفعال، ويحس بالحاجة إلى حماية نسائه، ويرى أن يمنعهن من الغواية بحجزهن في البيوت، فحرم عليهن أن يسرن في الشوارع إلا مسافات قصيرة وهن محجبات، وكان في وسعهن أن تنزاورن، ولكن ذلك كان في العادة داخل هودج مسجف، ولم يكن أحد يراهنَّ خارج البيوت أثناء الليل. وكان يفصلهن عن الرجال في

صفحة رقم : 4567

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

المسجد ستر أو حظار أو رواق خاص، ثم انتهى الأمر بمنعهن منها منعاً باتاً (49)، وأصبح الدين الذي وصف في العالم المسيحي اللاتيني بأنه لا يبد منه للإناث، وأنه ضروري لهن لا يزيد عليه في ذلك إلا الغريزة الجنسية، نقول أصبح الدين في العالم الإسلامي، أو بالأحرى أصبحت العبادة العامة وفقاً على الذكور دون الإناث. وكان أشد من هذا قسوة عليهن، منعهن من التردد على الأسواق لقضاء حاجاتهن منها، فكن يبعثن إليها من يقضي حاجاتهن، وكان البائعات المنتقلات، وكن في العادة من النساء يأتين إليهن ليعرضن عليهن بضائعهن في داخل البيوت، وقلما كانت النساء يتناولن الطعام مع أزواجهن اللهم إلا عند الطبقات الدنيا، ومنع المسلم أن يرى وجوه النساء عدا وجوه أزواجه وإمائته، وأقاربه الدينين؛ وحتى الطبيب نفسه لم يكن يسمح له أن يرى من النساء غير الجزء المصاب من أجسامهن. وكان في هذا النظام مرضاة للرجل، فهو في البيت يتيح له أكبر فرص الاستمتاع، ويجعله في خارجه أبعد ما يكون عن الرقابة والمفاجأة. أما عن النساء أنفسهن، فإننا لا نجد حتى القرن التاسع عشر ما يدل على أنهن قد عارضن في العزلة أو في النقاب، بل كن يستمتعن بما في جناح الحريم من سرية، وطمانينة، وراحة، وكن يغضبن إذا فرط أزواجهن في واجب المحافظة على عزلتهن، ويرين في ذلك إهانة لهن (50)؛ وظلت الزوجات الشرعيات يظطلعن من سجنهن الظاهري بقسط موفور من مجريات الحوادث التاريخية، وكان للخيزران أم الرشيد، ولزوجته زبيدة في القرنين الثامن والتاسع قسط كبير من النفوذ والسلطان، وكانتا تستمتعان بكثير من الأبهة والسلطان. وقلما كان تعليم البنات يتعدى عند معظم الطبقات تلقينهن الصلاة، وقليلاً من سور القرآن، والفنون المنزلية. أما نساء الطبقات العليا فكن يتلقين تعليماً متسع الأفاق، يقوم به في العدة معلمون خصوصيون، ويتلقينه أحياناً في المدارس والكليات (51). وكن يتعلمن قرض الشعر، والموسيقى، وضروباً من أشغال

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

الإبرة؛ ومنهن من تبحرن في العلوم واشتغلن بالتدريس. واشتهر عدد منهن في أعمال البر المستنيرة. وكان يرببن على الخفر اللائق بعداتهن؛ فإذا فوجئن في الحمام أسرن بتغطية وجوههن وكان يدهشن عدم احتشام الأوربيات اللاتي يذهبن إلى المراقص وأنصاف صدورهن عارية، ويعانقن الكثيرين من الرجال أثناء الرقص؛ ويعجبين من رحمة الله الذي يمهل تلك النسوة الأثمات فلا يأخذهن بذنوبهن ويهلكهن لساعتهن(52).

وكانت شؤون الزواج يتولاها الأباة، كما يتولونها في معظم البلاد المتقدمة، فقد كان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن أراه هو لها أن تبلغ سن الرشد؛ أما بعد هذه السن فكان لها أن تختار. وكانت البنات يزوجن في العادة قبيل سن الثانية عشرة، ويصبحن أمهات في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ومنهن من كن يتزوجن في سن التاسعة أو العاشرة، كذلك كان الشبان يتزوجون عادة في سن مبكرة قد لا تزيد على الخامسة عشرة. وكان عقد الزواج ينص على أن يقدم الخطيب لخطيبته صداقاً يبقى لها طوال مدة الزواج وبعد الطلاق إن حدث. وقلما كان يسمح للعريس أن يرى وجه عروسه قبل الزواج. وكان يدخل بها بعد ثمانية أيام أو عشرة من عقده عليها، وليس الزواج في الحاجة إلى رجل من رجال الدين، ولكنه يصحبه دعاء قصير، ويصحبه في بعض الأحيان موسيقى، ووليمة وبعض الهدايا، وإضاءة منزل العريس والشارع الذي هو فيه بالأنوار الساطعة. وبعد هذه الحفلات يدخل الزوج غرفة زوجته الخاصة ويرفع النقاب عن وجهها وهو يقول "بسم الله الرحمن الرحيم"(53).

فإذا لم يرتح العريس لعروسه بعد هذا الاختبار المتأخر، كان في وسعه أن يعيد الزوجة إلى بيتها هي ومؤخر صداقها. وكان معنى تعدد الزوجات

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

في الإسلام في أكثر الأحيان أن تتلو الواحد الأخرى، ولم يكن معناه الجمع بينهن في وقت واحد، ولم يكن يستطیع ذلك الجمع إلا ذوو الثراء(54). وكانت سهولة الطلاق تمكن المسلم من أن يكون له ما يشاء من الأزواج واحدة بعد واحدة، ويقال أن ابن الطبيب، وهو صباغ في بغداد، عاش إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر، وتزوج من تسعمائة زوجة(56). وكان في وسع المسلم، فضلاً عن زوجاته، أن يكون له أي عدد من الجوارى، وكان لهارون الرشيد عدد كبير منهن، وكان للمتوكل أكثر مما كان لهارون(57)، وكان بعض تجار الرقيق يعلمون الجوارى الموسيقى والغناء، وفنون فتنة الرجال، ثم يبيعونهن بأثمان عالية قد تصل إلى مائة ألف درهم (نحو 80.000 دولار أمريكي)(58).

ولكن ليس من حقنا أن نظن أن بيت الحريم كان ماخوراً خاصاً. فقد كانت الجوارى يصبحن في أغلب الأحيان أمهات، يفخرن بمن يلدن من الأبناء، وبعدد الذكور منهم، ولدينا شواهد كثيرة على ما كان بين الرجل وجاريته من الحب الصادق الأكيد. وكانت الزوجات الشرعيات يرتضين هذا النظام ويربهن من الأمور الطبيعية، فقد أهدت زبيدة إلى الرشيد عشر جوار(59)؛ وكان البيت بمقتضى هذا النظام يحتوي من الأبناء بقدر ما تحتويه ضاحية لإحدى المدن الأمريكية. من ذلك أن أحد أبناء الولي الأول كان له ثمانون ولداً وعدد من البنات لم يذكره المؤرخون. واستتبع نظام

الحريم وجود الخصيان، وإن كان هذا محرماً في الشريعة الإسلامية. واشترك المسيحيون واليهود في استيرادهم أو تهيينتهم، وكان الخلفاء، والوزراء، والكبراء بيناعونهم بأثمان غالية، وسرعان ما أصبحت نواح عدة من الحكومة الإسلامية خاضعة لنفوذ أولئك الخصيان المحدودي الكفاية. وكان من النتائج التي ترتبت على نظام الحريم في القرون الأولى التي تلت الفتوح الإسلامية أن منعت العرب من أن يمتصهم أهل البلاد

صفحة رقم : 4570

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

المفتوحة، وأن تضاعف عددهم إلى الحد الذي كانوا في حاجة إليه لحكم دولتهم المطردة الاتساع. ولربما كان لهذا النظام أثره في قوة أقدار الرجال على الإخصاب؛ ولكن تعدد الزوجات أصبح بعد عصر المأمون مصدراً للانحطاط من الناحيتين الخلقية والاجتماعية، كما أصبح بعد أن أربت نسبة زيادة السكان على زيادة الطعام، من أسباب تزايد الفاقة والسخط بين الأهلين.

وكان مركز المرأة بعد الزواج هو الخضوع إلى زوجها خضوعاً مصدره تقديس الرابطة الزوجية. والشريعة تحرم عليها أن يكون لها أكثر من زوج واحد في وقت واحد، ولم يكن في وسعها أن تطلق نفسها منه إلا بمشقة كبيرة، ثم أنها لم يكن لديها سبيل لمعرفة خيانة زوجها، ولم تكن هذه الخيانات مما يُعبأ به كثيراً من الناحية الأخلاقية. أما خيانتها هي فكان عقابها الموت. ويدهشنا أن نعرف كم من حوادث الزنى قد ارتكبتها النساء رغم هذا العقاب الصارم والتصديق الشديد. وكانت المرأة تسب وتبجل، وتحقر وتقمع وتحب في معظم الأحيان حباً مصحوباً بعاطفة قوية وحنان، يقول أبو العتاهية إنه يفضل زوجته عن كل متع الحياة وعن كل ما في العالم من ثراء (60). وأمثال هذا القول كثيرة وهي في بعض الأحيان صادقة. وكان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوربية من ناحية هامة، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها. وكانت في داخل بيتها الأمين تغزل وتنسج، وتطرز، وتدير بيتها، وتعنى بأبنائها، وتمارس بعض الألعاب، وتأكل الحلوى وتتحدث إلى أترابها، وتحيك الدسائس. وكان يُنتظر منها أن تلد لزوجها كثيراً من الأبناء ذوي الفائدة الاقتصادية في المجتمع الاقتصادي الأبوي، وكان ما تلقاه من إجلال يتناسب مع خصبها، وفي ذلك يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): "الحصير في ناحية البيت خيرٌ من امرأة لا تلد" (61). ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الانتشار في داخل البيوت. وكانت

صفحة رقم : 4571

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

القابلات تنقل إلى النساء قديمها، كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها. وقد أفرد الرازي (المتوفى سنة 924) في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيميائية (62). وأورد ابن سينا (980-1037) في كتاب القانون الذائع الصيت عشرين وصفاً لمنع الحمل. وليس ثمة فرق كبير بين المسلم والمسيحي في النواحي الخلقية الخارجة عن نطاق الناحية الجنسية. فالقرآن مثلاً يحرم الميسر والخمر تحريماً قاطعاً (سورة المائدة 90). ولكن بعض الميسر وكثيراً من الخمر ظلاً باقيين في كلتا الحضارتين. وانتشر الفساد والرشوة في أعمال الحكم والقضاء في بلاد الإسلام في بعض العصور كما كانا منتشرين في بلاد المسيحية. ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري (63)، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره (64)؛ ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية. والمسلمون شرفاء فيما يختص بعبادة الكذب، فهم يبيحون الكذب إذا كان فيه نجاة من الموت، أو حسم لخصومة، أو إدخال السرور على زوجة، أو خدعة في الحرب لأعداء الدين (65). والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبساطة، وحديث المسلم ملئ بالتحية والمبالغة في التأدب. والمسلمون كاليهود يحيي بعضهم بعضاً، وينحني الواحد منهم لأصاحبه ويصافحه ويقول له: "السلام عليكم، والرد الصحيح لهذه التحية "عليكم السلام ورحمة الله وبركاته"، وإكرام الضيف من صفاتهم العامة، والدين الإسلامي يحث على نظافة الجسم وإن كانت النظافة عادة تتأثر بالدخل، فالفقراء يهتمون بها حتى تتراكم الأقدار على أجسادهم، أما الأغنياء فينتليفون، ويدرمون أظافرهم، ويتعطرون. والختان عادة متبعة عند جميع المسلمين وإن لم يرد ذكرها في القرآن، لأنها في رأيهم من أسباب المحافظة على الصحة، وكان الأولاد يختنون في سن الخامسة

صفحة رقم : 4572

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

أو السادسة (66). وكانت الحمامات الخاصة من مميزات بيوت الأغنياء، ولكن الحمامات العامة كانت ولا تزال كثيرة في البلاد الإسلامية. فالمؤرخون يقولون إن بغداد كانت في القرن العاشر الميلادي تحتوي على 27.000 حمام (67). وكان العطر والبخور مألوفين بين الرجال والنساء، وقد اشتهرت بلاد العرب من أقدم الأزمان بالكندر والمر، وبلاد الفرس بزيت الورد والبنفسج والياسمين، وكان في كثير من البيوت حدائق غرست فيها أعشاب الزينة والأزهار وأشجار الفاكهة، وكانت الأزهار محببة للشعب وخاصة في فارس، وكانت يضيء على الحياة بهجة ومتعة. بقي أن نعرف كيف كان هؤلاء الناس يروحون عن أنفسهم وما هي وسائل التسلية عندهم؟ لقد كان من أهم وسائل التسلية عندهم الأعياد والولائم، والصيد، ومغازلة النساء، والشعر، والموسيقى، والغناء، وكانت الطبقات الدنيا تضيف إليها قتال الديكة، والرقص على الحبال، والشعوذة، والسحر، ولعبة العرائس المتحركة (القرقوز...) ويدل كتاب القانون لابن سينا على أن المسلمين كان لديهم في القرن العاشر الميلادي كل ما عندنا تقريباً من الألعاب الرياضية: الملاكمة، والمصارعة، والعدو، والرمي بالنبال، وقذف الحراب، والحركات الرياضية الجسمية، والمثاقفة، وركوب الخيل، والحجف، ورفع الأثقال، وأنواع مختلفة من لعبة الكرة والمضرب (68). وإذا كانت ألعاب الحظ محرمة، فقد كانت ألعاب الورق وكعوب النرد قليلة، وكانت (الطاولة) كثيرة الانتشار، وكان الشطرنج مباحاً، وإن كان النبي قد نهى عن صنع قطعة في صور الأدميين. وكان سباق الخيل منتشراً، ييسط عليه الخلفاء رعايتهم؛ ويحدثنا المؤرخون بأن أربعة آلاف جواد اشتركت مرة في سباق. وقد ظل صيد الحيوان مقصوراً على

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

أرقى طبقات الأشراف، وكان عند المسلمين أقل عنفاً منه في أيام الساسانيين، وكثيراً ما اقتصر على الصيد بالبزة أو الصقور. وكانت الحيوانات المصيدة تربي أحياناً وتدلل، وكان عند بعض الأسر كلاب، وعند بعضها قردة، وعند بعض الخلفاء أساد ونمورة يرهبون بها رعاياهم أو سفراء الدول الأجنبية.

وكان العرب حين فتحوا بلاد الشام قبائل قليلة الحظ من المدنية، شجعاناً إلى درجة التهور، كثيري العنف، سريعي الانفعال، متشككين. وكان الإسلام قد خفف من حدة هذه الصفات، ولكن معظمها لم يكن قد انمحي بعد، وأكبر الظن أن ما يحدثنا عنه المؤرخون عن ضروب القسوة التي كان يرتكبها بعض الخلفاء لم يكن يزيد في مجموعته على ما كان يرتكبه الملوك المسيحيون والبيزنطيون والمروفيون، وأهل الشمال، ولكنه رغم هذا مما يسربل بالغار كل حضارة. ومما يروى عن سليمان بن عبد الملك أنه في رحلة إلى مكة ليؤدي فريضة الحج، دعا رجال حاشيته ليجربوا سيوفهم في رقاب أربعمائة من الروم، أسروا حديثاً في إحدى الحروب. وقيل رجاله الدعوة وضربت رقاب أربعمائة رجل، ليتسلى الخليفة بذلك النظر (69). ولما جلس المتوكل على العرش ألقى في السجن بوزير كان قد عامله مرة منذ بضع سنين بشيء من الاحتقار؛ ومنع السجين من النوم عدة أسابيع حتى كاد يذهب عقله، ثم سمح له أن ينام أربعاً وعشرين ساعة، فلما عادت إليه قوته بهذه الطريقة وضع بين ألواح من الخشب دقت فيها مسامير، منعه أن يتحرك ليقتضي حاجته الطبيعية، وبقي على هذه الحال يعاني أشد الآلام حتى مات (70). ولا حاجة إلى القول بأن هذه الوحشية كانت من الأعمال الشاذة، أما المألوف فإن المسلم كان مثال الرقة، والإنسانية، والتسامح، وكان، إذا وصفنا أواسط الناس، سريع الفهم، حاد الذكاء، سريع التهيج، يسهل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الشعب

إدخال السرور إلى قلبه، والمرح على نفسه؛ يجد الرضا في البساطة، ويصبر على بلواه في هدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر، وكرامة، وشمم، وكبرياء. وكان المسلم إذا عقد النية على سفر طويل، أخذ معه كفته المنسوج من الكتان، استعداداً منه في أي وقت للقاء ربه، فإذا أنهكه المرض والتعب وهو سائر في الصحراء، أمر رفاقه بأن يواصلوا سفرهم. ثم توضعاً هو لأخر مرة، واحتقر لنفسه حفرة يتخذها قبراً له، ولف نفسه في كفته، ونام في الحفرة، ينتظر أن توافيه منيته، وأن تغطي جسمه الرمال السافية (17).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

الفصل الرابع

الحكومة

كانت الحكومة الإسلامية في الثلاثين السنة التي تلت وفاة النبي جمهورية ديمقراطية من الوجهة النظرية بالمعنى الذي كان مفهوماً من هذه العبارة في الزمن القديم، وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين في اختيار رأس الدولة وتحديد سياستها. أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من أعيان المدينة. ولم يكن ينتظر شيء غير هذا بطبيعة الحال، ذلك أن الناس يختلفون في ذكائهم وفي ضمائرهم، ولهذا فإن الديمقراطية في أحسن صورها لا بد أن تكون نسبية، ولا محيص من أن تنشأ صورة ما من صور الألجركية في المجتمعات التي لا تنيسر فيها سبل الاتصال والتي تقل فيها نسبة المتعلمين. وإذا كانت الحرب والديمقراطية لا تجتمعان معاً، فإن اتساع رقعة البلاد الإسلامية قد ساعد على قيام حكم الفرد، لأن وحدة الرياسة والإسراع في اتخاذ القرارات لا بد منها لقيام السياسة الحربية الاستعمارية. ولهذا أضحت الحكومة في عهد الأمويين ملكية صريحة، الخلافة فيها إما وراثية وإما أن تقرها قوة السلاح.

كذلك كان منصب الخليفة من الوجهة النظرية منصباً دينياً أكثر مما كان منصباً سياسياً. فقد كان الخليفة قبل كل شيء رئيس مجتمع ديني هو مجتمع المسلمين، وكان واجبه الأول الدفاع عن الدين، ولهذا كانت الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين. لكن الخليفة لم يكن باباً أو قساً، ولم يكن في مقدوره أن يصدر قرارات جديدة في الشؤون الدينية. ومع هذا فقد كان من الوجهة العملية ذا سلطان مطلق لا يحد منه برلمان، ولا طبقة وراثية من

صفحة رقم : 4576

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

الأشراف، ولا هيئة من رجال الدين، بل كان الذي يحد من هذا السلطان هو القرآن وحده وكان في وسع من يستخدمهم من العلماء ويؤدي لهم أجرهم أن يفسروه له كما يريد. وكان ثمة قدر من تكافؤ الفرص في هذه الحكومة المطلقة. ذلك أنه كان في مقدور أن إنسان أن يرقى إلى أعلى المناصب إلا إذا كان أبواه كلاهما من الأرقاء.

وأدرك العرب أنهم قد تغلبوا على مجتمعات مضمحلة ولكنها حسنة التنظيم فاستعانوا في بلاد الشام بنظام بيزنطية الإداري، وفي بلاد فارس بنظام الساسانيين، وكان لا بد أن تسير الحياة في الشرق الأدنى على النسق القديم، بل أن الثقافة اليونانية الشرقية نفسها قد تخطت حاجز اللغة وانتعشت مرة أخرى في العلوم والفلسفة الإسلامية. ونشأ في عهد

العباسيين طراز معقد من الحكومة المركزية، والإقليمية، والمحلية، تسييره طائفة من الموظفين لا تتأثر إلا قليلاً باغتيال الجالسين على العرش، أو بالثورات التي تحدث في داخل القصر. وكان على رأس النظام الإداري الحاجب أو رئيس التشريعات، ولم يكن عمله من الوجهة النظرية يتعدى الإشراف على الحفلات في القصر، ولكنه استطاع من الوجهة العملية أن يستحوذ على كثير من السلطة بتحكيمه فيمن يدخلون على الخليفة. وكان يليه في مرتبته، ولكن يفوقه في السلطان (بعد الخليفة المنصور) الوزير، وهو الذي يعين موظفي الحكومة، ويشرف عليهم، ويرسم سياسة الدولة ويسيرها. وكان أهم الدواوين ديوان الخراج، والحسابات، والشرطة، والبريد، والنظر في المظالم وهو الذي أصبح بمثابة محكمة ترفع إليها الأحكام القضائية والإدارية. وكان يلي الجيش في الأهمية عند الخليفة ديوان الخراج حيث كان الجباة يضارعون جباة الدولة

صفحة رقم : 4577

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

البيزنطية في عنادهم وشدتهم، وكانت أموال طائلة تنتزع من الاقتصاد القومي لإقامة نظام الحكم والإنفاق على الحكام. وكان إيراد بلاد الخلافة كل عام في عهد هارون الرشيد يزيد على 530.000.000 درهم (نحو 42.400.000 ريال أمريكي) فضلاً عما أضيف إليه في ذلك الوقت من ضرائب عينية لا يحصى عديدها(72). ولم يكن ثمة دين قومي، بل حدث عكس هذا في عام 786 إذ كان في الخزانة رصيد يبلغ 900.000.000 درهم. وكان البريد العام، كما كان في عهد الفرس والرومان؛ لا يخدم إلا الحكومة وكبار الأشخاص، وكان أهم ما يستخدم فيه هو نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات، ولكنه كان إلى هذا يتخذ وسيلة للتجسس من قبل الوزير على الحكام المحليين. وكان ديوان البريد يصدر أدلة مكتوبة ليستعين بها التجار والحجاج، تحوي أسماء محاط البريد المختلفة، وبعد كل واحد منها عن الآخر، وكانت هذه الأدلة أساس علم تقويم البلدان عند العرب، وكان الحما يدرّب ويستخدم في نقل الرسائل وكان هذا أول استخدام له معروف في التاريخ (837). وكانت الأخبار فوق هذا ينقلها المسافرون والتجار، وكان في بغداد ألف وسبعمائة "امرأة عجوز" يعملن جاسوسات. غير أن الرقابة مهما اشتدت لا يمكن أن تحول بين الشرقيين والغربيين وبين ابتزاز الأموال العامة أو الارتشاء. فقد كان الولاة في بلاد العرب، كما كانوا في بلاد الرومان، يرون أن سني خدمتهم يجب أن تعوضهم عما أنفقوه من المال ليرتقوا به سلم المناصب، وما يلاقونه من المحن حين يغادرون المنصب. وكان الخلفاء في بعض الأحيان يرغمونهم على أن يردوا ما اغتصبوه، أو يبيعون حق إرغامهم إلى الحكام الذين يخلفونهم، وبهذه الطريقة انتزع يوسف بن عمر 76.000.000 درهم من الولاة الذين تولوا حكم العراق قبله. وكان الولاة يتناولون مرتبات عالية، ولكن منهم أيضاً من تأثروا بسخاء الأسخياء، وقد ورد في أحد الأحاديث أن النبي نفسه كان يرى أن اثنين على

صفحة رقم : 4578

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

الأقل من بين كل ثلاثة قضاة سيحشرون في النار (73). وكان المفروض أن الشريعة التي تحكم بها الدولة المترامية الأطراف مستمدة من نصوص القرآن. ذلك أن القانون والدين كانا عند المسلمين، كما كانا عند اليهود، شيئاً واحداً. فكل جريمة خطيئة، وكل خطيئة جريمة، ولذلك كان فقه القانون عند المسلمين فرعاً من علوم الدين. فلما أن زادت الفتوح من التبعات الملقاة على الشريعة الإسلامية ونشأت حالات جديدة لم ينص عليها القرآن وضع بعض المشرعين المسلمين أحاديث لمواجهة تلك الحالات صراحة أو ضمناً، وبهذا أصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر التشريع الإسلامي، وكان من المصادفات الغريبة المتكررة أن هذه الأحاديث تردد أصداء المبادئ والأحكام والشرائع الرومانية والبيزنطية، وتردد أكثر من ذلك مبادئ المشنار وجمار اليهود وأحكامهما (74). وكانت الزيادة المطردة في هذه الأحاديث التشريعية الكثيرة مما رفع من شأن مهنة القضاء في البلاد الإسلامية، وخلع على الفقهاء الذين يفسرون القانون أو يطبقونه من السلطان والتعظيم ما لا يقل عما كان لطبقة الكهنة والقساوسة عند غير المسلمين. وقد عل هؤلاء ما عله أمثالهم في فرنسا في القرن الثاني عشر، فقد تحالفوا مع الملكية، وأيدوا حكم العباسيين المطلق، ونالوا جزءاً هاماً على هذا التأييد. ونشأت في البلاد الإسلامية السنية أربعة مذاهب: أولاها مذهب أبي حنيفة ابن ثامت (المتوفى عام 767) وقد أحدث انقلاباً كبيراً في الشريعة الإسلامية باتباع مبدأ العباس في تفسير القرآن. وهو يرى أن القانون الذي سن أول الأمر لأهل الصحراء يجب ألا يؤخذ بحرفيته بل بروحه إذا أريد تطبيقه على مجتمع صناعي أو حضري. وعلى هذا الأساس أجاز أبو حنيفة قروض الرهن

صفحة رقم : 4579

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

ويشبه هذا ما فعله هلال في فلسطين قبل ذلك العهد بثمانية قرون. ومن أقوال أبي حنيفة في هذا المعنى إن القاعدة القانونية تختلف عن قواعد النحو والمنطق، فهي تمثل سنة عامة تتغير بتغير الظروف التي أوجدتها (75). وخرج من بين أهل المدينة المحافظين عالم آخر لا يجيز هذه الفلسفة الحرة التقدمية في التشريع، وهو مالك بن أنس (715-795). وقد أقام مالك مذهبه بعد دراسة واسعة لألف وسبع مائة من الأحاديث التشريعية، ويقول إنه لما كانت كثرة هذه الأحاديث قد صدرت في المدينة، فإن إجماع أهل المدينة هو الذي يجب أن يؤخذ به تفسير الحديث والقرآن. ويرى محمد الشافعي (767-820) الذي عاش في بغداد والقاهرة ألا يقتصر هذا الحق على أهل المدينة، وأن الإجماع في كل بلاد الإسلام هو المحك الأخير للشرائع والسنة والحقيقة. ويرى أحمد بن حنبل أن هذا المقياس غامض وأوسع مما ينبغي، وأنشأ مذهباً أساسه أن القرآن والحديث وحدهما يجب أن يكونا أساس التشريع. وندد بمذهب المعتزلة العقلي في الفلسفة، وألقى به المأمون في السجن لتمسكه الشديد بمذهب أهل السنة، ولكنه استمسك بأرائه بشجاعة عظيمة كان من أثرها أن خرجت بغداد على بكرة أبيها تشيع جنازته لما أن وافته منيته.

غير أن ما بين المذاهب الإسلامية الأربعة، التي يعترف بها أهل السنة في الإسلام، من الاتفاق في التفاصيل لا يقل عما بينها من الاختلاف في المبادئ، وذلك على الرغم من هذا الجدل الطويل الذي ظل قائماً مائة عام. فهي كلها تؤمن بأن الشريعة الإسلامية من عند الله، وبأن كل شريعة خليفة بأن يحكم بها الجنس البشري الذي لا يخضع بفطرته للقانون، ويجب أن تكون أصولها منزلة من عند الله. وهي كلها تسرف في وضع تفاصيل قواعد السلوك والشعائر الإسلامية إسرافاً لا يجاريها فيه إلا الدين اليهودي، وقد عنى المشرعون بكثير من التفاصيل كطريقة استعمال السواك، وسنن الزواج، وما يليق وما لا يليق من ثياب الرجال

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

والنساء، والطريقة الصحيحة لتصنيف الشعر، ويرى أن أحد الفقهاء لم يأكل البطيخ قط لأنه لم يجد في القرآن أو الحديث ما يعرف من الطريقة الصحيحة التي يأكله بها(76). ولقد كان من شأن كثرة ما يسن من القوانين أن تحول بين تطور المجتمع الإسلامي، ولكن اختلاف الآراء في القانون الواحد وتجاوز منقذي القانون عن مخالفته في بعض الأحيان قد وفقا بين قسوة التشريع من جهة وقسوة الحياة وتطورها من جهة أخرى. غير أنه رغم هذا، ورغم انتشار مذهب أبي حنيفة وما فيه من تسامح وحرية، فإن النزعة الغالبة على الشرائع الإسلامية هي النزعة المحافظة والاستمساك القوي بالسنة استمساكاً يعطل التطور الحر للأنظمة الاقتصادية، والآداب الشخصية والتفكير . ولا يسعنا إلا أن نسلم مع هذه التحفظات بأن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله. ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء، أو أن يخبروا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوربيين؛ لكنهم لم يفعلوا هذا بل اكتفوا بفرض الضرائب. ولما أن فتح عمرو مصر أبي أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين، وأيده الخليفة في هذا الرأي وأمره أن يتركها في أيدي الشعب يتعهدا فتثمر(77). وفي زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضي، واحتفظت الحكومة بسجلاتها، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها، وكان العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جنناً فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة فأصبحت خصبة، غنية، عامرة بالسكان(78). وما من شك

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> الحكومة

في أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقي في عهد الحكومات الإسلامية كما يبقى في عهد كل الحكومات، ولكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم، وهينوا الفرص لذوي الواهب، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم تر قط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، ويفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشار التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب والفلسفة، والفنون ازدهاراً جعل الغيبة مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

الفصل الخامس

المدن

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الرجال الذين أنشئوا هذه الحضارة وميزوها من غيرها من الحضارات، ونصف أعمال هؤلاء الرجال، أن نصور لأنفسنا البيئة التي كانوا يعيشون فيها. إن الحضارة ريفية في أصولها وقواعدها، ولكنها مدنية في صورتها، إذ لا بد أن يجتمع الناس في المدن حتى يستمع بعضهم إلى بعض وينبه بعضهم بعضاً. ولقد كانت البلدان الإسلامية جميعاً تقريباً غير كبيرة في سعتها لا يزيد سكان الواحد منها على عشرة آلاف ومنها ما يقل عامرها عن ذلك، يحشرون في رقعة ضيقة لها أسوار تحميها من الغارات والحصار، مظلمة شوارعها مليئة بالتراب والوحل، ذات بيوت صغيرة مطلية بالجص ومحوطة بجدران متصلة ترد عنها الأبصار. وكان جلال المدينة كله محصوراً في مسجدها، ولكن كانت تقوم في أماكن متفرقة من الأقطار الإسلامية مدن كبيرة ارتقت فيها الحضارة الإسلامية إلى أعلى درجات الجمال والمعرفة والسعادة.

وكانت مكة والمدينة، ولا تزالان، في نظر المسلمين مدينتين مقدستين، لأن في أولهما الكعبة التي كان العرب يقدسونها في الزمن القديم، كما أن فيها مسقط رأس الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولأن الثانية هي المكان الذي هاجر إليه وأقام فيه. وقد جدد الوليد الثاني بناء مسجد المدينة الصغير وجعله مسجداً فخماً ذا روعة وجمال. وأرسل إمبراطور بيزنطية بناء على طلب الوليد، وفي نظير ثمانين ألف دينار، أربعين حملاً من أحجار الفسيفساء، كما استقدم الوليد ثمانين من مهرة الصنائع من مصر وبلاد اليونان، حتى لقد شكوا المسلمون من أن مسجد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

نبيهم كانت تشيده أيدي المسيحيين غير المسلمين. واتخذت المدينتان في عهد الأمويين، وعلى الرغم من وجود الكعبة ومسجد النبي فيهما، مظهرًا من الترف الدنيوي لو رأهما الخلفاء الأولون لاستشاطوا غضبًا، وما من شك في أن هذا المظهر قد ادخل السرور على قلوب قريش المنتصرين. فأما ثراء المدينة فسببه أن مغنم الحرب قد صببت فيها صبًا،

وأن معظمها قد وزع على الأهلين، وأما ثراء مكة فسببه أن الحجاج كانوا يجيئون إليها من كافة أنحاء العالم الإسلامي، في جموع مطردة الزيادة، ويحملون معهم من الهدايا ما لم يكن يصل إليها من قبل. ونشطت بذلك التجارة وراجت زواجا عظيماً، وأصبحت المدينتان مركزين للثراء، وللراحة، والمرح، والطرب. وقامت فيهما القصور والبيوت الريفية ذات الحدائق في ضواحيهما يسكنها الأشراف وتعج بالخدم والعبيد، وكثرت فيها السراري، وجرت فيها الخمر المحرمة في الإسلام، فأخذ المغنون يطربون سكانها بالأنغام الحزينة والشعراء ينشدون أناشيد الحرب والحب. وفي المدينة كانت السيدة سكينه ابنة الشهيد الحسين ترأس ندوة من الشعراء والساسة والعلماء في الشريعة الإسلامية، وكان ذكائها، وجاذبيتها، وذوقها هي المستوى الذي يصبو إليه الناس في جميع بلاد الإسلام. وتزوجت سكينه أكثر من مرة، وكانت في بعض الأحيان تشتترط على من يطلب الزواج منها أن تكون حرة في عقد مجالسها العلمية والأدبية (79). ذلك أن النزعة الأموية- نزعة الاستمتاع بمباهج الحياة- كانت قد غلبت في أقدس مركزين من مراكز الإسلام نزعة النقشف والتزمت التي اتصف بهما أبو بكر وعمر.

وكان مدينة بيت المقدس هي الأخرى مدينة مقدسة عند المسلمين. وقد أصبح العرب من القرن الثامن الميلادي يؤلفون الكثرة الغالبة من سكانها. وأراد الخليفة عبد الملك بن مروان أن يكون فيها مسجد للمسلمين لا يقل فخامة عن كنيسة القبر المقدس حين جددت بعد أن دمرها كسرى أبرويز، فاستخدم

صفحة رقم : 4584

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

خراج مصر في تشييد عدة صروح تعرف عند المسلمين باسم الحرم الشريف، وشيد في الطرف الجنوبي من المدينة (691-694) المسجد الأقصى. وقد دمر زلزال هذا المسجد في عام 746، ثم أعيد بناؤه في عام 785، وأدخلت عليه فيما بعد تعديلات كثيرة، ولكن القبلة لا تزال كما كانت في أيام عبد الملك، كما أن معظم العمد مأخوذ بأسلفا جستنيان التي كانت قائمة في أورشليم. ويرى المقدسي أن بيت المقدس أجمل من المسجد الأموي العظيم المقام في دمشق، ويقول المسلمون إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد التقى فيه بإبراهيم، وموسى، وعيسى، وأنه صلى فيه معهم، وأنه رأى بالقرب منه الصخرة (التي يعتقد بنو إسرائيل أنها سرّة الدنيا) والتي أراد إبراهيم أن يضحي عندها بإسحق، والتي تلقى عندها موسى تابوت العهد، والتي شاد عندها سليمان وهيرود هيكليهما. ويعتقد بعض المسلمون أن النبي صعد عندها إلى السماء، وأن الإنسان لو أوتي إيماناً قوياً لأبصر في الصخرة آثار قدميه. ولما أن استولى عبد الله بن الزبير على مكة في عام 684 وعلى ما يدخل فيها من إيراد الحج أراد عبد الملك أن يجتذب إلى الشام أموال الحج، وأن يحج الناس إلى الصخرة بدل أن يحجوا إلى الكعبة، فأقام صناعه على هذا الحجر التاريخي (691) "قبة الصخرة" الشهيرة على الطراز البيزنطي-السوري، وسرعان ما أضحت هذه القبة "رابعة عجائب العالم الإسلامي" (والتلات الأخرى هي مساجد مكة والمدينة ودمشق). ولم يكن هذا البناء في أول امره مسجداً، بل كان حرماً مقدساً حول الصخرة؛ وقد أخطأ الصليبيون مرتين حين أطلقوا عليه اسم "مسجد عمر". ويبلغ ارتفاع القبة 112 قدماً، وهي قائمة على بناء ذي ثمانية أضلاع مشيد من الحجارة المربعة. ويبلغ محيط هذا البناء 528 قدماً. والقبة نفسها مصنوعة من الخشب ومغطاة من الخارج بالنحاس

صفحة رقم : 4585

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

الأصفر المذهب ذي النقوش البارزة. وللبناء أربعة أبواب جميلة-عتباتها مصفحة بالبرونز-تؤدي إلى الداخل الذي تقسمه صفوف من العمد المتخذة من المرمر المصقول، متتالية ومتحدة في المركز، إلى أشكال مئمنة الأضلاع كل منها أصغر من الذي في خارجه. وهذه العمد الفخمة من الآثار الرومانية القديمة، وتيجانها بيزنطية الطراز. وتمتاز الأجزاء التي بين العقود بما فيها من قطع الفسيفساء، التي تصور أشجاراً لا تقل في جمالها عن تصوير كوربية Qourbet. وأجمل من هذا على جماله فسيفساء الجزء الأسفل من القبة. وعلى الطنف التي فوق العمد الخارجية نقش بالخيط الكوفي ذو حروف صفراء على قطع من القرميد زرقاء، أمر به صلاح الدين في عام 1187، وهو مثل جميل رائع من هذه الزخرفة المعمارية الفذة. وتحيط العمد بهذه الصخرة الضخمة غير المنتظمة الشكل التي يبلغ محيطها مائتي قدم. وقد وصفها المقدسي بقوله:

"فإذا بزغت عليها الشمس أشرفت القبة، وتلألأت المنطقة، ورأيت شيئاً عجيباً. وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة" (80).

وقد أخفق عبد الملك فيما كان يسعى من إحلال هذه الصخرة عند المسلمين محل الكعبة، ولو أنه نجح فيما كان يبتغيه لأضحى بيت المقدس مركز الأديان الثلاثة التي كانت تتنافس في الاستحواذ على روح الإنسان في العصور الوسطى. ومع هذا كله فإن بيت المقدس لم يكن عاصمة ولاية فلسطين، بل نالت الشرف بلدة الرملة. وكانت في الأماكن التي تشغلها الآن قرى صغيرة فقيرة مدن زاهرة في عهود الإسلام الأولى. ومن تلك المدن عكا التي كتب عنها المقدسي في عام 985 يقول إنها مدينة كبيرة واسعة الرقعة. وكتب الإدريسي في عام 1124 عن صيدا أنها مدينة مترامية الأطراف تحيط بها الحدائق والأشجار، ووصف اليعقوبي في عام 891 مدينة صور بأنها بلدة جميلة مشيدة على صخرة،

صفحة رقم : 4586

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

بارزة في البحر، ويقول ناصر خسرو في عام 1047 إن فيها خانات ترتفع خمس طبقات أوست، وإن فيها قدراً كبيراً من الثروة معروضة في أسواقها النظيفة (81) وكان لطرابلس القائمة في شمالها مرفأ أمين جميل يتسع لألف سفينة. واشتهرت طبرية بياسمينها وبعيونها الحارة. وكتب ياقوت الرحالة المسلم في عام 1224 عن الناصرة يقول: "فيها كان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام!... وكان أهلها عيروا مريم فيزعمون أنه لم تلد قط عذراء طفلاً". ويصف اليعقوبي بعلبك بأنها أجمل بلدان الشام، ويضيف المقدسي إلى هذا أنها بلدة عظيمة الثراء. وكانت إنطاكية ثانية مدن الشام لا يفوقها في عظمتها إلا دمشق وحدها. وقد امتلكها المسلمون من عام 635 إلى عام 964، ثم استولى عليها البيزنطيون من ذلك التاريخ الأخير حتى عام 1084. ويعجب الجغرافيون المسلمون بكنايسها الكثيرة الفخمة، وبما في بيوتها الجميلة من شرفات عالية، وبحدائقها وبساتينها الغناء، ويقولون إن الماء يدخل في كل بيت من بيوتها. وكانت طرسوس من كبريات المدن؛ ويقدر ابن حوقل (978) عدد الذكور من سكانها بمائة ألف، وقد استعادها نقفور إمبراطور الروم في عام 965، وهدم جميع ما فيها من المساجد، وحرق جميع المصاحف، وكانت حلب بلدة غنية لوقوعها عند ملتقى طريقين من طرق القوافل. ويصفها المقدسي بأنها مدينة غنية مبنية بالحجارة، ذات شوارع تظللها

الأشجار ، وتقوم على جانبها الحوائيت ويؤدي كل شارع منها إلى باب من أبواب المسجد وكان في هذا المسجد محراب اشتهر بما فيه من عاج وخشب محفور ، ومنبر تبتهج العين لرؤيته وكان بالقرب منه خمسة مدارس ، وبیمارستان ، وست كنائس مسیحية . وكتب

صفحة رقم : 4587

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

اليعقوبي في عام 891 يقول إن حمص أكبر مدن الشام، وكتب الاضطرخي في عام 590 يقول إن شوارعها وأسواقها كلها تقريباً مرصوفة بالحجارة. ويقول المقدسي إن نساؤها ذوات جمال رائع وبشرة رقيقة (83). ولما اتسعت الدولة العربية نحو الشرق رأى أن من مصلحتها أن تكون عاصمتها في موضع أقرب إلى وسطها من مكة أو بيت المقدس. وقد أحسن بنو أمية إذ اختاروا دمشق عاصمة لدولتهم وكانت هذه المدينة ذات تاريخ قديم حين أقبل عليها العرب فاتحين. وكان يلتقي عندها خمسة أنهار، تجعل الإقليم الذي من خلفها "جنة الشرق" بحق، وتمد بالماء مائة فسقية، ومائة حمام عام، ومائة وعشرين ألف بستان (84)، ثم تجري نحو الغرب إلى "وادي البنفسج" الذي يبلغ طوله اثني عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال. ويقول الإدريسي إن "مدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً، وأعدلها هواءً، وأطيبها تربة، وأكثرها مياهاً، وأغزرها فواكه، وأعمها خصاً، وأوفرها مالاً وأكثرها جنداً". وفي قلب هذه المدينة وبين سكانها الذين يبلغون نحو مائة وأربعين ألفاً يقوم قصر الخليفة الذي شاده معاوية الأول، والذي يلمع فيه الذهب والرخام، وتتألأ في أرضه وعلى جدرانه الفسيفساء، والذي تلطف جوه الفساقى والشلالات التي يتدفق منها الماء على الدوام. وفي الناحية الشمالية من المدينة يقوم مسجد العظيمة وهو واحد من اثنين وسبعين وخمسمائة مسجد في المدينة، والأثر الوحيد الباقي من دمشق الأموية. وكان موضعه في أيام الروم يزدان بهيكل لجوبيتر، ثم أقام ثيودوسيوس الأول على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان (379). وعرض الخليفة الوليد الأول على المسيحيين حوالي عام 705 أن يعدل بناء الكنيسة

صفحة رقم : 4588

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

حتى تصبح جزءاً من مسجد جديد يريد بناءه في ذلك المكان، ووعدهم بأن يعطيهم أرضاً ومواد في أي مكان يختارونه ليقيموا فيه كنيسة جديدة. ولكن المسيحيين احتجوا على هذا العمل وحذروه من عاقبته، وقالوا إنه قد ورد في كتبهم أن من يجروء على هدم الكنيسة سيموت مذبذباً؛ ولكن الوليد لم يأبه بهذا التحذير وكان هو البادئ بهدم الكنيسة بيديه. ويقول المؤرخون أن جميع خراج الأرض في الدولة كلها قد خصص مدى سبع سنين لتشييد هذا المسجد، هذا إلى المال الكثير الذي أعطي للمسيحيين لينشئوا به كنيسة جديدة. وجمي بالصناع والفنانين من الهند، وفارس،

والقسطنطينية، ومصر، وليبيا، وتونس، والجزائر، وكان من استخدم في بنائه من العمال اثني عشر ألف عامل، أتموه في ثمان سنين. والرحالة المسلمون مجمعون على أنه أفخم بناء في بلاد المسلمين، ويرى المهدي والمأمون من الخلفاء العباسيين وليس منهما من يحب الأمويين أو دمشق-أنه لا يضارعه بناء غيره في جميع أنحاء العالم. ويتكون البناء من سور محصن، في داخله صفوف من العمد تحيط بصحنه الواسع المرصوفة أرضه بالرخام. ويقوم المسجد نفسه في الجهة الغربية من هذا المكان المتسع، وهو مشيد من الكتل الحجرية المربعة وتشرف عليه أربع مآذن منها واحدة هي أقدم ما شيد من المآذن في الإسلام. وكان تخطيط المسجد وزخرفته على الطراز الروماني، وما من شك في أنهما قد تأثرا بطراز صوفيا. وكان السقف والقبّة_ ويبلغ طول قطرها خمسين قدماً-مكفنتين بصفائح الرصاص. أما داخل المسجد الذي يبلغ طوله 429 قدماً فيشتمل على صفيين من العمد المنحوتة من الرخام الأبيض تفصل صحنه عما يحيط به من الطرقات. وتيجان هذه العمد كورنثية الطراز مكفّنة بصفائح الذهب. ومن فوقها عقود مستديرة أو على شكل حذاء الفرس.

صفحة رقم : 4589

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

وهذا الطراز الثاني من العقود أول ما اقيم من نوعه في بلاد الإسلام . وأرض المسجد من الفسيفساء وقد غطيت بالطنافس، كما غطيت جدرانها بالفسيفساء المصنوعة من الرخام الملون وبالفانسانى المطعم بالمينا، وفي داخل المسجد ستة حواجز جميلة من الرخام تقسم داخله إلى عدة إيوانات. وفي أحد جدرانها المتجهة نحو مكة محراب مرصع بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، ويدخل الضوء إلى المسجد من أربعة وسبعين شباكاً من الزجاج الملون ومن اثني عشر ألف قنديل. ويصفه أحد الرحالة بقوله: "لو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد منه كل يوم صفة وعقدة أخرى".

وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم: "لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادي إن سلطان العرب سيزول عما قريب، أما الآن وأنا أرى كيف كانوا يشيدون عمائرهم فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالاً".

وإذا اتجه الإنسان من دمشق نحو الشرق واجتاز الصحراء وصل إلى الرقة على نهر الفرات حيث كان يقيم الخليفة هارون الرشيد؛ فإذا عبر نهر دجلة وصل

صفحة رقم : 4590

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

إلى الموصل، وعلى مسافة منها اتجاه الشمال الشرقي أيضاً تقع مدينة تبريز التي بلغت ذروة مجدها بعد ذلك العهد الذي نتحدث عنه. وإلى شرقها تقوم مدينة طهران (وكانت لا تزال وقتئذ بلدة صغيرة)، ثم تليها دامغان وبعدها في شرف بحر الخرز-تقع جرجان. وكانت هذه البلدة الأخيرة في القرن العاشر الميلادي قاعدة إحدى الولايات الإسلامية، واشتهرت وقتئذ بمن كان فيها من الأمراء المتقنين، أشهرهم كلهم شمس المعالي قابوس، الشاعر العالم الذي استضاف ابن سينا في بلاطه، والذي ترك وراءه مدفناً له على شكل برج ضخّم يعلو الجو 167 قدماً يعرف باسم جنبادي قابوس، وهو البناء الوحيد الذي بقي حتى الآن من تلك المدينة التي بلغت في أيامه درجة عظيمة من الرخاء وكثرة السكان. وعلى الطريق الشمالي المتجه نحو الشرق تقوم مدينة نيسابور، التي لا يزال الناس يرددون اسمها في شعر عمر الخيام، وتليها مشهد المدينة المقدسة عند المسلمين الشيعة؛ ثم مرو التي كانت في وقت ما قاعدة لإحدى الولايات الكبرى؛ ثم بخارى وسمرقند-وكانتا في العادة بعيدتين على مثال أيدي الجبابة. وعلى سلاسل الجبال الجنوبية تقع مدينة غزنة. ويحدثنا الشعراء عن قصور أميرها محمود الغزنوي الفخمة، وعن أبراجها العالية التي تطاول قمر السماء. ولا يزال يقوم فيها حتى اليوم "برج النصر" الذي شاده السلطان محمود، وبرج آخر أجمل منه شاده محمود الثاني. وكان الإنسان إذا رجع نحو الغرب في القرن الحادي عشر التقى بنحو عشرة مدنية زاهرة في إيران-هيرة، شيراز (ذات الحدائق الغناء الذائعة الصيت والمسجد العظيم)، ويزد، وأصفهان، وكاشان، وقزوین، وقوم وهمدان، وكرمنشاه، وسامانا؛ ثم التقى في العراق بمدینتي البصرة والكوفة العامتین بالسكان. وكان السائح يشاهد في كل مكان يمر به قباباً براقاً، وأذن مثلاًثة، ومدارس، ودوراً للكتب، وقصوراً، وحدائق، وبیمارستانات، وحمّامات، وأزقة ضيقة مظلمة حيث يسكن الفقراء. ثم يصل المسافر آخر الأمر إلى بغداد

صفحة رقم : 4591

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

التي يتغنى بها الشاعر الأتوري في شعر فارسي يقول:
طوبى لك يا بغداد مدينة العلم والفن، التي لا يستطيع إنسان أن يجد بين مدن العالم كله مدينة أخرى تناظرها، إن أرباضها لتنافس في جمالها قبة السماء الزرقاء، وإن مناخها ليضارع نسيم السماء الذي يبعث الحياة في الأجسام، وأحجارها تضارع في تلالوها الماس والياقوت... وإن شواطئ دجلة ومن عليها من الفتيات الحسان لتفوق بلخ؛ وجناتها المليئة بالبحور العين لتعدل في ذلك كشمير، وآلاف القوارب ترقص وتلألأ فوق الماء تلالؤ أشعة الشمس في الهواء (59).

وكان في موقع بغداد مدينة بابلية قديمة، وهي لا تبعد كثيراً عن موقع بابل القديمة، وقد عثر في عام 1848 تحت مجرى نهر دجلة على قطع من الأجر منقوش عليها اسم نبوخذنصر. وازدهرت المدينة القديمة في عهد الملوك الساسانيين، ثم أنشئت فيها بعد الفتح الإسلامي عدة أديرة مسيحية، معظمها للنساطرة. ويحدثنا المؤرخون أن الخليفة المنصور عرف من رهبان تلك الأديرة أن هذا الموقع معتدل الجو في الصيف، وخالٍ من البعوض الذي يكثر في البصرة والكوفة. ولعل الخليفة قد رأى أن من الحكمة أن يبتعد عن هاتين المدينتين المساكستين، اللتين كانتا في ذلك الوقت البعيد غاصتین بالصعاليك الثوريين، وما من شك في أنه وجد في موقعهما هذا ميزة حربية، فهو أمين في داخل البلاد، ولكنه على اتصال مائي بجميع المدن الكبرى القائمة على النهرين عن طريق نهر دجلة والقنوات الكبرى المتصلة به؛ وعن طريق هذا النهر والقنوات يتصل أيضاً بالخليج الفارسي وبجميع ثغور العالم. من أجل هذا كله نقل مقره هو من الهاشمية كما نقل دواوين الحكومة من الكوفة إلى بغداد، وأحاط ذلك الموقع بثلاثة أسوار دائرية وخنق، واستبدل ببغداد اسمها القديم ومعناه "هبة الله" اسماً جديداً هو مدينة السلام، واستخدم مائة ألف من العمال في بناء أربعة قصور عظيمة من الأجر له ولأهله ولدواوين الحكومة. وكان يقوم في وسط

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

المدينة قصر الخليفة المسمى "بالباب الذهبي" نسبة إلى بابه المذهب أو "القبة الخضراء" نسبة إلى قبته البراقة. ثم شاد المنصور في خارج أسوار المدينة على الضفة الغربية لنهر دجلة مسكناً صيفياً له عرف باسم "قصر الخلد"، وكان هرون الرشيد يقيم في هذا القصر معظم أيامه. وكان في وسع من يقيم في هذين القصرين أن يرى من نوافذهما مئات السفن تفرغ على أرصفة النهر أحمالها التي جاءت بها من نصف العالم المعروف.

وفي عام 768 أنشأ المنصور قصرًا ومسجدًا على الضفة النهر الشرقية الفارسية لكي يستطيع ولده المهدي أن يتخذ له في القصر مسكنًا مستقلاً، وسرعان ما نشأت حول هذين الصرحين ضاحية جميلة هي ضاحية الرصافة التي كان يصلها بالمدينة المستديرة جسران قائمان على قوارب. وكان معظم الخلفاء الذين جاءوا بعد المأمون يقيمون في هذه الضاحية، ولهذا فإنها سرعان ما فاقت مدينة المنصور نفسها في اتساعها ورائها، وكان الناس بعد الرشيد إذا ذكروا بغداد فإنما يعنون بها الرصافة نفسها. وكانت شوارع ضيقة ملتوية، أنشئت على هذا النحو لتقي الأهلين من وهج الشمس وتقوم على جانبيها الحوانيت الصاخبة، تمتد من القصور الملكية إلى أحياء الأثرياء، وكان لكل طوائف الصنائع شارعها الخاص أو سوقها الخاص أو سوقها الخاصة فهذا حي بانعي العطور، وذلك حي صانعي السلال، وهنا حي صانعي الأسلاك، وهناك حي الصيارفة مستبدلي النقود، وذلك حي البزازين، وهذا حي الوراقين وما إلى ذلك. وكانت بيوت الأهلين تقوم فوق هذه الحوانيت ومن ورائها. وكانت كل المساكن تقريباً ما عدا مساكن الأغنياء مقامة من اللبن، تبقى صاحبها حياً ولكنها لا تدوم كثيراً بعده. وليس لدينا إحصاء لسكان المدينة موثوق به، والراجح أنهم كانوا يبلغون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

800.000، وإن كان بعض المؤرخين يقدرونهم بمليونين (90). ومهما يكن عددهم فإن المدينة كانت في القرن العاشر الميلادي أكبر مدن العالم على الإطلاق، مع جواز استثناء القسطنطينية من هذا التعميم. وكان فيها حي للمسيحيين مزدهم بهم، تقوم فيه كنائس، وأديرة، ومدارس؛ وكان لكل من النساطرة، واليعاقبة، والمسيحيين أصحاب العقيدة الصحيحة، أمكنة عبادتهم الخاصة بهم. وقد جدد هارون بناء مسجد أقامه المنصور ووسعه، ثم جدد المعتمد بناء هذا المسجد نفسه وزاد مساحته. وما من شك في أن مئات من المساجد قد شيدت ليتعبد فيها سكان المدينة.

وبينما كان الفقراء يواسون أنفسهم في حياتهم الشاقة بأملهم في نعيم الدار الآخرة، كان الأغنياء يستمتعون على الأرض بنعيم الجنة. ذلك أنهم شادوا في بغداد أو بالقرب منها عشرات المئات من القصور الفخمة، والبيوت ذات الحدائق، والدور التي تبدو بسيطة من الخارج ولكنها كانت في الداخل "لازورداً وذهباً". وفي وسعنا أن نتصور ما

كانت عليه من الفخامة من وصف لها بقلم أبي الفداء لا يكاد يصدق العقل يقول فيه إن قصر الخليفة في بغداد قد فرشت على أرضه 22.000 طننفسه، وعلقت على جدرانه 38.000 قطعة من القماش المزركش و 12.500 قطعة من الحرير (91). وكانت قصور الخليفة وأسرتة ومسكن الوزير ورؤساء دواوين الحكومة تشغل في المدينة الشرقية مساحة قدرها ميل مربع . وبدأت منذ أيام جعفر البرمكي هجرة الطبقة الموسوة إلى بغداد حين شاد لنفسه في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة قصرأ فخماً كانت عظمتة من أسباب هلاكه. وقد حاول جعفر أن يتقي حسد هارون الرشيد فأهدى هذا القصر إلى المأمون، وقبل الرشيد الهدية لابنه، ولكن جعفر ظل يعيش وينعم في القصر الجعفري" إلى آخر أيام حياته. ولما أخذت قصور المنصور

صفحة رقم : 4594

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

وهارون تنهار، أقيمت في مكانها قصور أخرى. وقد أنفق المعتمد على قصره المعروف "بقصر المعروف" (892) 400.000 دينار (أي ما يقرب من 1.900.000 ريال أمريكي). وفي وسعنا أن نتصور سعة هذا القصر إذا ذكرنا أنه كان في اسطبلاته 9000 من الإبل والبغال (92). وشاد المكتفي بجواره " قصر التاج" (902)؛ وكان هذا القصر هو وحدائقه يمتد على رقعة من الأرض مساحتها تسعة أميال مربعة. وشاد المقنتر " بهو الشجرة" وكان سبب تسميته بهذا الاسم أنه كان في البركة الموجودة بحديقته شجرة من الفضة والذهب، على أوراقها وأغصانها الفضية تجثم طيور من الفضة، تنطق ألسنتها بأناشيد آلية. وبز سلاطين آل بويه جميع أولئك الخلفاء فأنفقوا 13.000.000 درهم في بناء قصر المعزية. وهكذا تعددت القصور وزادت فخامة، حى إذا استقبل المقنتر في عام 917 سفراء اليونان بهرتهم قصور الخليفة ودواوين حكومته البالغ عددها ثلاثة وعشرين قصرأ، وإيواناتها ذا العمد الرخامية، وما بسط على أرضها وجدرانها من طنافس وأقمشة مزركشة كبيرة يخطنها الحصر تكاد تغطي كل مكان في الأرض والجدران، وعشرات المئات من السياس ذوي الحلل البراقة. وسروج الخيول الفضية ذات الأغطية المطرزة بخيوط الذهب والفضة، وما في الحدائق الواسعة المختلفة أنواع الحيوان البري والأليف، وما للخلفاء من قوارب لا تقل عن القصور أبهة وفخامة تجري في نهر دجلة وتنتظر أهواء الخليفة.

وكانت الطبقات العليا تعيش في وسط هذا النعيم عيشة الترف، واللهو، والقلق، والذسائس. فكان رجالها يذهبون إلى الميدان ليشاهدوا سباق الخيل أو لعب الجحفة، ويحتسون الخمر المعتقة المحرمة، ويأكلون الطعام المبتاع من أقاصي البلاد بأعلى الأثمان، ويرتدون هم ونساؤهم أثواب الحرير المختلف الألوان المطرز بخيوط الفضة والذهب، ويعطرون ثيابهم، وشعرهم، ولحاهم، ويستنشقون رائحة العنبر والكندر، ويزينون رؤوسهم، وأذانهم، ورقابهم، ومعاصمهم،

صفحة رقم : 4595

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

وسيقانهم بالحلي الثمينة. ويقول شاعر بتغزل في فتاة إن رنين خلايلها قد سلبه عقله(93). ولم تكن النساء في العادة يحضرن مجتمعات الرجال، وكان يحل محلهن الشعراء، والمطربون، والسمار الفكهون، وما من شك في أنهم كانوا يتحدثون عن الحب؛ وكانت الجوارى الغيد يرقصن حتى يصبح الرجال أسرى لهن. وفي المجتمعات التي كانت أكثر من هذه أدياً كان الناس يستمعون إلى أناشيد الشعراء أو إلى آيات القرآن الكريم. ومنهم من أنشئوا ندوات فلسفية كإخوان الصفا، ويحدثنا المؤرخون عن نادي قائم حوالي عام 790 مؤلف من عشرة أعضاء، واحد من السنبيين، وآخر من الشيعة، وثالث من الخوارج، ورابع من المانوية؛ ومن شاعر غزلي، وفيلسوف مادي، ومسيحي، ويهودي، وصابئي، وزرادشتي. ويقول المؤرخون إن اجتماعات هؤلاء الأعضاء كان يسودها روح التسامح المتبادل، والفكاهة الحلوة، والنقاش الهادئ الذي يمتاز بالأدب والمجاملة. ويكن القول بوجه عام إن المجتمع الإسلامي كان مجتمعاً ذا أدب راق إلي أقصى حدود الرقي؛ وما من شك في أن الشرق من عهد قورش إلى لي هونج تشانج قد فاق الغرب في الرقة الكياسة؛ وكان من المظاهر التي تشرف بها الحياة في بغداد أن الفنون العلوم التي لا يحرّمها الإسلام كانت كلها بلا استثناء تجد فيها من يشجعها ويأخذ بناصرتها، وأن المدارس على اختلاف درجاتها كانت كثيرة العدد منتشرة في جميع الأنحاء، وأن الهواء كان يردد أصداء الشعراء. ولا يحدثنا المؤرخون بالشيء الكثير عن حياة الدهماء، وكل ما نستطيع أن نفترضه هو أنهم كانوا يعملون على بقاء هذا الصرح الفخم بخدماتهم وكدهم.

صفحة رقم : 4596

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> أحوال البلاد الإسلامية -> المدن

فبينما كان الأغنياء يلهون الآداب، والفنون، والفلسفة، والعلم، كان عامة الشعب السذج يستمعون إلى المغنين في الشوارع، أو يعزفون على أعودهم وينشدون أغانيهم. وكان يسير بين الفينة والفينة موكب عرس يبذل من ضجيج الشوارع ورائحتها، وكان الناس في أيام الأعياد يتزاورون، ويتبادلون الهدايا، ويعنون كل العناية باحتساب قيمة ما يتبادلونه منها، ويطعمون في تلك الأيام بشهية أقوى من شهية الذين يطعمون في صحاف الذهب. وحتى الفقير نفسه كان له حظ في جلال الخليفة وفخامة المسجد، ولم يكن محروماً من دريهمات من دنانير الخوارج الذي كان يرد إلى بغداد. وكان يسير فخوراً معتزلاً بأنه ابن العاصمة الكبيرة، وكان في قرارة نفسه يعد نفسه واحداً من سادة العالم وحكامه.

صفحة رقم : 4597

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين فيقول: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبَ علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة" "يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجح مداد العلماء بدم الشهداء" (1). ولقد كان اتصال العرب بالثقافة اليونانية في بلاد الشام مما أيقظ فيهم روح المنافسة العلمية القوية لليونان، ولم يمض إلا زمناً قليلاً حتى أصبح العالم والشاعر من أصحاب المكانة العليا في الإسلام. وكان تعليم الأطفال يبدأ منذ اقتدارهم على الكلام. فكانوا من هذه اللحظة يعلمون النطق بالشهادتين " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله" فإذا بلغ الأطفال السادسة من العمر ألحق بعض أبناء الأرقاء، وبعض البنات، وجميع الأولاد، عدا أبناء الأغنياء (الذين كانوا لهم مدرسون خصوصيون) بمدرسة أولية ملحقة في العادة بأحد المساجد، وفي بعض الأحيان بجوار عين ماء عامة في الخلاء. وكان التعليم في هذه المدارس عادة بالمجان، فإن لم يكن فقد كان أجره تافهاً يستطيع أداءه جميع الناس، فقد كان المعلم يتناول من والد الطفل

ما لا يزيد على مليمين في الأسبوع، أما باقي النفقات فكان يؤديها المحسنون الخيرون. وكان منهاج التعليم من هذا النوع في المدارس غاية في البساطة يشمل ما يكفي لأداء الصلاة، ويمكن الطفل من قراءة القرآن، ثم حفظ القرآن نفسه ومعرفة ما فيه من أحكام الدين، والقصاص، ومبادئ الأخلاق، والشريعة الإسلامية. وتركت الكتابة والحساب للتعليم الأعلى من هذه الدرجة، وربما كان سبب ترك الكتابة أنها في الشرق فن يحتاج إلى تدريب خاص، فضلاً عن أن الكتابة، كما يقول المسلمون، يستطيع كل من يطلبهم أن يجدهم(3) وكان جزء صغير من القرآن يحفظ كل يوم عن ظهر قلب، ثم يتلى بصوت عال، وكان الهدف الذي يبيغيه كل متعلم أن يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب؛ والذين يصلون إلى هذا الهدف يُسمون بالحفاظ وتكون لهم في البلاد مكانة عالية. وكان من يتعلم الكتابة؛ والرمي بالقوس، والسباحة هو عندهم "الرجل الكامل". وكانت طريقة التعليم هي المذاكرة، وأداته هي العصا، وكان العقاب المعتاد هو الضرب بعصا من جريد على باطن القدم. ومن أقوال هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين: "ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتتم فائدة تفيده إياه من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه: وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فعليك بالشدة والغلظة"(4).

وكان التعليم الأولي يهدف إلى تقوين الأخلاق، والثانوي إلى معرفة العلم. وكان المعلم يجلس مستنداً إلى عمود أو جدار في مسجد، ويلقي دروساً في التفسير والحديث، والفقه، والشريعة. وحدث في وقت غير معروف أن وضعت الحكومة هذه "المدارس الثانوية" تحت إشرافها وتكلفت بالإنفاق عليها. وأضيف إلى المنهاج الديني الأساسي علم النحو، وفقه اللغة، والبلاغة، والأدب، والمنطق، والعلوم الرياضية، والفلك. وكان علم النحو يلقى اهتماماً خاصاً لأن اللغة العربية كانت تعد أقرب اللغات إلى الكمال، وكان استعمالها صحيحة أهم ما يمتاز

صفحة رقم : 4599

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

به الرجل المثقف المهذب. وكان التعليم في هذه المدارس بالمجان. وكان المعلمون والطلاب يتناولون مرتباتهم ونفقاتهم في بعض الأحيان من الحكومة أو من أموال البر والصدقات(5) وكان شأن المعلم في هذه المدارس أعلى من شأن النصوص التي يعلمها ما عدا نصوص القرآن، فكان التلاميذ يدرسون الناس أكثر مما يدرسون الكتب، وكان الطلاب يجوبون أطراف البلاد الإسلامية ليقابلوا معلماً مشهوراً. وكان على كل طالب علم يريد أن تعلو مكانته في بلده أن يسافر إلى مكة، أو بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، ليستمع في واحدة منها أو أكثر من واحدة إلى كبار العلماء. وكان من الأسباب التي يسرت انتشار الأدب العربي في بلاد الإسلام المختلفة وجعلته أدباً دولياً واحداً أن لغة التعليم والأدب في جميع البلاد الإسلامية مهما اختلفت أجناس أهلها-هي اللغة العربية، التي بلغت من سعة الانتشار ما لم تبلغه اللغة اليونانية. فلم يكن الزائر إذا دخل مدينة في أي بلد من بلاد الإسلام يخالجه شك في أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية في مسجد المدينة الأكبر في أية ساعة من ساعات النهار تقريباً. وكان الطالب الجائل في كثير من الأحيان يجد في المدرسة المأوى والطعام مدة من الزمان، فضلاً عن التعليم المجاني(6). ولم تكن المدرسة تمنح درجات علمية، وكل ما كان يبتغيه الطالب أن يحصل على شهادة فردية من الأستاذ الذي حضر عليه تثبت كفايته فيما درسه. وكان الهدف الأعلى للطالب هو تحصيل الأدب بأوسع معانيه-العادات الحسنة، وسمو الذوق؛ وسرعة البديهة، والكياسة والظرف، والمعارف السهلة التي تكون في مجموعها صفات الرجل الكامل المهذب. ولما فتح المسلمون سمرقند (712) أخذوا عن المسيحيين صناعة استخراج عجينة من الكتان وغيرها من النباتات ذات الألياف، ثم تجفيف هذه العجينة بعد صنعها رقائق رقيقة. ودخلت هذه الصناعة في بلاد الشرق الأدنى واستعملت فيه بدل رقائق الجلد في وقت لم يكن نبات البردي قد نسي فيه بعد. وافتتح أول

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام 794 على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد. ونقل العرب هذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت إلى إيطاليا وفرنسا. وقبل هذا نجد الورق مستخدماً في بلاد الصين منذ عام 105م، ثم نجده في مكة سنة 707، وفي مصر سنة 800، وفي أسبانيا سنة 950، وفي القسطنطينية سنة 1100، وفي صقلية سنة 1102، وفي إيطاليا سنة 1154، وفي ألمانيا سنة 1228، وفي إنجلترا سنة 1309(7). ويسرّ هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل إليه، ويقول اليعقوبي إنه كان في بغداد على أيامه (891) أكثر من مائة بائع للكتب، كانت حوانيتهم تستخدم، فضلاً عن بيع الكتب، لنسخها، وكتابة الخط المزخرف، كما كانت ندوات أدبية. وكان كثير من الطلاب يحصلون على أرزاقهم بنسخ المخطوطات، وبيعها لتجار الكتب، ونسمع في القرن العاشر الميلادي عن أناس يجمعون توقيعات العظماء وخطوطهم، وعن غواة للكتب يسعون لجمعها ويعرضون أثماناً عالية للمخطوطات النادرة(8). ولم يكن المؤلفون يحصلون على شيء من كتبهم؛ وكانوا يعتمدون في معاشهم على وسائل للرزق أثبتت من هذه أقوى أساساً، أو على هبات الأمراء أو الأثرياء. ذلك أن الأدب والفن كان يُقصد بهما إشباع ذوق طبقة الأشراف من ذوي المال أو الحسب والنسب.

وكانت في معظم المساجد مكتبات، كما كان في معظم المدن دور عامة للكتب تضم عدداً كبيراً منها، وكانت مفتحة الأبواب لطلاب العلم. وكان في مدينة الموصل عام 950 مكتبة عامة أنشأها بعض المحسنين، يجد فيها من يؤمونها حاجتهم من الكتب والورق، وبلغت فهارس الكتب التي اشتملت عليها مكتبة الري العامة عشر مجلدات. وكانت مكتبة البصرة تعطي رواتب وإعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب، وقضى ياقوت الجغرافي في مكتبتي مرو وخوارزم ثلاث سنين يجمع المعلومات التي يتطلبها كتابة معجم البلدان. ولما أن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

دمر المغول بغداد كان فيها ست وثلاثون مكتبة عامة(9)، فضلاً عن عدد لا يحصى من المكتبات الخاصة، ذلك أنه كان من العادات المألوفة عند الأغنياء أن يقتني الواحد منهم مجموعة كبيرة من الكتب. ودعا سلطان بخارى طبيباً مشهوراً ليقم في بلاطه فأبى محتجاً بأنه يحتاج إلى أربع مائة جمل لينقل عليها كتبه(10). ولما مات الواقي ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يحتاج كل صندوق منها رجلين لينقلها. "وكان عند بعض الأمراء كالمصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة"(12). ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم-اللهم إلا في بلاد الصين في عهد منج هوانج-ما بلغه في بلاد الإسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر. ففي هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية. ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة

في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقولون عن عدد ما فيها من الأعمدة، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم، وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين، والمؤرخين، وعلماء الدين، يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة؛ وكان بلاط مئات الأمراء يرددون أصداء قصائد الشعراء والمناقشات الفلسفية، ولم يكن أحد يجروء على جمع المال دون أن يعين بماله الآداب والفنون. وسرعان ما استوعب العرب ذو البديهة الوقادة ثقافة الأمم التي فتحوها بلادها، وبلغ من تسامح المغلوبين أن أصبحت منهم الكثرة الغالبة من الشعراء، والعلماء، والفلاسفة الذين جعلوا اللغة العربية أغنى لغات العالم في العلوم والآداب. وإن كان العرب الأصليون أقلية صغيرة بين هؤلاء الفلاسفة، والعلماء، والشعراء.

وقد قرى علماء الإسلام في ذلك العهد دعائم الأدب العربي الممتاز بدراساتهم الواسعة للنحو الذي جعل اللغة العربية لغة النطق والقياس، وبما وضعوه من المعاجم التي جمعوها فيها ثروة هذه اللغة من المفردات في دقة ونظام، وبموسوعاتهم ومختصراتهم، وكتبهم الجامعة، والتي جمعت كثيراً من أشنات الآداب والعلوم

صفحة رقم : 4602

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

لولاها لخسرنا العالم، وبمؤلفاتهم في النصوص، والآداب، والنقد التاريخي. ولا حاجة بنا إلى ذكر أسماء هؤلاء العلماء الأعلام، وحسبنا أن نعترف بفضلهم ونمجد أعمالهم. وأكثر من تحتفظ الذاكرة بأسمائهم من بين أولئك العلماء هم المؤرخون، لأننا مدينون لهم بما نعرفه عن تلك الحضارة التي لولاها لظلت غامضة غموض حضارة مصر الفرعونية قبل شمبليون. ومن هؤلاء المؤرخين محمد ابن إسحق (المتوفى عام 767) كاتب سيرة النبي؛ وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (763) فكانت أقدم كتاب عربي منشور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا-إذا استثنينا من ذلك القرآن (الكريم) نفسه. وقد كتب العلماء الباحثون المجدون كتباً جامعة في سيرة الأولياء الصالحين، والفلاسفة، والوزراء، والمشرعين، والأطباء، والخطاطين، وكبار الحكام، والعشاق، والعلماء. وكان ابن قتيبة أحد علماء الإسلام الكثيرين الذين حاولوا كتابة تاريخ العالم، ولقد بلغ من الشجاعة درجة أوحى إليه أن يجعل نصيب الدين الذي ينتمي إليه لا يشغل من الكتاب إلا ذلك الحيز المتواضع الذي يجب ألا يزيد عليه تاريخ أية أمة أو أي دين في كتاب تاريخ جماع لأحداث الدهر الكثيرة. وأخرج محمد بن النديم عام 987 كتابه "فهرست العلوم" أرخ فيه لكل كتاب ظهر في اللغة العربية، مؤلفاً كان أو مترجماً، في كل فرع من فروع العلم، وأضاف إلى أسماء الكتب ترجمة نقدية لمؤلفيها، ذكر فيها فضائل كل مؤلف وعيوبه. وفي وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي أيامه إذا عرف أ، الكتب التي ذكرها-على ما نعلم-لم يبقَ منها الآن واحد في الألف (13). وشبيهه بليفي في الغرب أبو جعفر محمد الطبري (838-923) عند المسلمين (14). وكان أبو جعفر من أصل فارسي كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين، ولد في طبارستان الواقعة في جنوب بحر قزوين. وبعد أن ظل عدة

صفحة رقم : 4603

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

سنين يطوف في بلاد العرب والشام ومصر، كما يطوف الفقراء من العلماء من أهل زمانه، استقر في بغداد واشتغل بالفضاء. ووهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب أخبار الأمم والملوك قص فيه تاريخ العالم من بدأ الخليقة إلى عام 913. والجزء الباقي إلى الآن من هذا الكتاب يشمل خمسة عشر مجلداً كبيراً، ويقول المؤرخون أن ما فقد منه يبلغ عشرة أمثال هذا الجزء الباقي. ويرى الطبري، كما يرى بوسويه Boussuet، يد الله في كل حادثة تقع في العالم، وقد ملأ الفصول الأولى من كتابه بعبارات تشهد له بالتقوى ولكنها خالية من المعنى كقوله "في امتحان الله تعالى أبانا آدم عليه السلام وابتلائه إياه بما امتحنه به من طاعته" وبأن الله أنزل على الأرض بيتاً مشيداً من الياقوت ليسكنه آدم، فلما أن عصى آدم ربه عاد فرفعه عن الأرض (16). ونهج الطبري نهج التوراة فيما كتبه عن تاريخ اليهود، وقال إن مريم العذراء ولدت المسيح (وإنها حملت به لأن جبريل نفخ في كمها) (17). وختم الجزء الأول من كتابه بصعود المسيح إلى السماء. أما الجزء الثاني فهو أقرب إلى العقل من الجزء الأول، وفيه يقص تاريخ فارس في عهد الساسانيين قصصاً مقبولة حياً، ذا روعة في بعض المواضع. ويتبع في طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام، وهي في العادة مصنفة منقولة من راو عن راو قبله حتى يصل بها إلى من شاهدها بعينه، أو وقعت في أيامه. وفضل هذه الطريقة أنها تعنى بذكر المصادر؛ ولكن الطبري لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكادساً من ثمار الجهد المضني لا عملاً من أعمال الفن.

ويرى المسعودي، وهو أعظم من جاء بعد الطبري من المؤرخين، أن الطبري أعظم من سبقه منهم. كان أبو الحسن علي المسعودي من أصل عربي في بغداد، وجاب بلاد سوريا، وفلسطين، وبلاد العرب، وزنجبار، وفارس وأواسط آسية، والهند، وسرنديب (سيلان)، بل يقول هو إنه وصل إلى بحر

صفحة رقم : 4604

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

الصين. وقد جمع ثمار رحلاته هذه في موسوعة تشمل على ثلاثين مجلداً، رآها علماء الإسلام أنفسهم، وهم المعروفون بغزارة مادتهم، أطول مما يطيقون؛ ثم نشر موجزاً لها كان هو الآخر أطول مما يجب، ولعله رأى آخر الأمر أن قراءه لا يجدون من الوقت الذي يصرفونه في القراءة مثل ما يجد هو منه ليصرفه في الكتابة، فاختصر كتابه مرة أخرى إلى الحد الذي نعرفه الآن وسماه بذلك الاسم الغريب "مروج الذهب ومعادن الجوهر". ودرس المسعودي جميع أحوال البلاد الممتدة من الصين إلى فرنسا من النواحي الجغرافية والنباتية، والحيوانية، والتاريخية، كما درس عادات أهلها، وأديانهم، وعلومهم، وفلسفتهم، وأدابهم، فكان في العالم الإسلامي كما كان بلني وهيرودوت في العالم الغربي. ولم يوجز المسعودي في كتابته إلى الحد الذي يجعلها عقيمة جافة، بل كان في بعض الأحيان يتبسّط فيها، وينطلق على سجيته، فلا يحاجز نفسه عن أن يروي بين الفينة والفينة قصة ممتعة مسلية. وكان متشككاً في بعض الشيء في الدين، ولكنه لم يفرض قط تشككه على قرائه. وقد لخص في آخر سنة من حياته آراءه في العلم، والتاريخ، والفلسفة في كتاب الاستذكار لما مر في سائر الأعمار، وكتاب ذخائر العلوم وما في سائر الدهور. وقد أشار إلى تطور الكائنات من الجماد إلى النبات، ومن النبات إلى الحيوان، ومن الحيوان إلى الإنسان (18). ولعل هذه الآراء قد جرت إلى المشاكل مع المحافظين من أهل بغداد، فاضطر على حد قوله إلى مغادرة المدينة التي ولد فيها وشب وترعرع، وجاء إلى القاهرة وهو أسف على فراق موطنه. وقال في هذا إن من طبيعة ذلك الزمان أن يفرق الناس جميعاً ويباعد بينهم... وإن الله يبارك للأمام إذا أحب أبناؤها مواطنهم، وإن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

من أمارات التقى والاستقامة أن يحن الإنسان إلى مسقط رأسه، ومن علامات النبيل وكرم المحتد أن يبغض الانفصال عن داره وموطنه(19).

ووافته المنية في القاهرة بعد عشر سنين قضاها بعيداً عن بلده. وخير ما يقال عن هؤلاء المؤرخين أنهم يفوقون غيرهم في اتساع دائرة جهودهم، ونواحي نشاطهم، واهتمامهم، وأنهم يربطون الجغرافية بالتاريخ ربطاً موفقاً صحيحاً، وأنهم لا يفوتهم شيء مما يتصل ببني الإنسان، وأنهم يعلنون علواً كبيراً على معاصريهم في العالم المسيحي. ولكنهم مع هذا كله كثيراً يضلون في دياجير السياسة، والحرب، والبلاغة اللفظية؛ ولما يعنون ببحث العلل الاقتصادية، والاجتماعية، والنفسانية التي تتحكم في الحوادث، وإن مجلداتهم الضخمة لتعزوها الطريقة البنائية المنتظمة، فلسنا نجد فيها إلا أكداً من حقائق غير مرتبطة ولا متناسقة -عن الأمم، والحداث، والشخصيات، وهم لا يرقون إلى مستوى بحث المصادر بحثاً دقيقاً نزيهاً، ولشدة تقواهم وتمسكهم بالدين كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الإجماع وتسلسل الروايات تسلسلاً قد تكون مصدره حلقة من حلقاته خاطئة أو مخادعة. ومن أجل هذا تهبط قصتهم في بعض الأحيان إلى مستوى أقاصيص الأطفال، وتمتلى بالندر، وأخبار المعجزات، وبالأساطير. وكما أن في وسع كثيرين من المؤرخين المسيحيين (مع استثناء جين Gibbon على الدوام) أن يكتبوا تاريخ العصور الوسطى، بحيث يجعلون الحضارة الإسلامية كلها ذبلاً موجزاً للحروب الصليبية، كذلك اقتضب كثير من المؤرخين المسلمين تاريخ العالم قبل الإسلام فجعلوه كله يدور حول الاستعداد لرسالة النبي محمد. على أننا نعود فنسأل أنفسنا كيف يستطيع العقل الغربي أن يصدر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التعليم

على الشرق حكماً صحيحاً نزيهاً؟ إن اللغة العربية تقف جمالها في الترجمة كما تقف الزهرة جمالها إذا انتزعت من شجرتها، وإن الموضوعات التي تمتلى بها صحائف المؤرخين المسلمين، وهي التي تبدو ذات روعة وجمال لبني أوطانهم، لتبدو مملة خالية من المتعة الطبيعية للقراء من أهل الغرب الذين لم يدركوا حتى الآن أن الصلات الاقتصادية بين الشعوب واعتماد بعضها على بعض يتطلبان أن يدرس كلاهما الآخر ويفهمه حق الفهم.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

الفصل الثاني

العلوم

لم يدخر المسلمون في هذه القرون المجيدة من تاريخ الحياة الإسلامية جهداً في العمل على إيجاد هذا التفاهم الذي أشرنا إليه في الفصل السابق. فلقد أدرك الخلفاء تأخر العرب في العلم والفلسفة كما أدركوا ما خلفه اليونان من ثروة علمية غزيرة في بلاد الشام. لقد كان بنو أمية حكماء إذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية، أو الصابئية، أو الفارسية، قائمة في الإسكندرية، وبيروت، وإنطاكية، وحران، ونصيبين، وغنديسابور لم يمسوها بأذى، وقد احتفظت هذه المدارس بأسماء الكنتب في الفلسفة والعلم، معظمها في ترجمة السريانية. واستهوت هذه الكنتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية، وما لبثت أن ظهرت ترجماتها إلى اللغة العربية على أيدي النساطرة المسيحيين أو اليهود. وشجع الأمراء من بني أمية وبني العباس هذه الاستدانة العلمية المثمرة، وأرسل المنصور، والمأمون، والمتوكل الرسل إلى القسطنطينية وغيرها من المدن الهلنستية وأرسلوهم في بعض الأحيان إلى أباطرة الروم أعدائهم الأقدمين-يطلبون إليهم أن يمدوهم بالكنتب اليونانية، وخاصة كتب الطب أو العلوم الرياضية. وبهذه الطريقة وصل كتاب إقليدس في الهندسة إلى أيدي المسلمين. وأنشأ المأمون في بغداد عام 830 بيت الحكمة وهو مجمع علمي، ومرصد فلكي، ومكتبة عامة،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

وأنفق في إنشائه مائتي ألف دينار (نحو 950.000 ريال أمريكي). وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال. ويقول ابن خلدون (20) إن الإسلام مدين إلى هذا المعهد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى التي اهتزت بها أرجاؤه والتي تشبه في أسبابها- وهي انتشار التجارة وإعادة كشف كنوز اليونان- وفي نتائجها- وهي ازدهار العلوم والفنون- نقول إنها تشبه في أسبابها ونتائجها النهضة الأوروبية التي أعقبت العصور الوسطى.

ودامت هذه الأعمال، أعمال الترجمة المخصبة المثمرة، من عام 750 إلى 900، وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية، واليونانية، والفهلوية، والسكندرانية. وكان على رأس أولئك المترجمون المقيمين في بيت الحكمة طبيب نسطوري هو حنين ابن إسحق (809-873). وقد ترجم وحده كما يقول هو نفسه -إلى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العلمية، وإلى اللغة العربية تسعاً وثلاثين رسالة أخرى. وبفضل ترجمته هذه نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء. وترجم حنين فضلاً عن تلك الرسائل السالفة الذكر كتب المقولات (ويذكره العرب باسم قاطيغورياس) والطبيعية، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية، وطيماسوس، والقوانين لأفلاطون؛ وعهد أبقراط، وكتاب الأقرباذين لديوسقوريدس Dioscorides. وكتاب الأربعة لبطليموس، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية. وكاد المأمون أن يفلس بين المال حين كافأ حنين على عمله هذا يمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً. ولما ولي الخلافة المتوكل عينه طبيباً لبلاطه، ولكنه زج به سنة في السجن حين أبى أن يركب له دواء يقضي به على حياة عدو له مع أن الخليفة أنذره بالموت إن لم يفعل. وكان ابن إسحق بن حنين يساعد أباه في أعمال الترجمة، ونقل هو إلى اللغة العربية من كتب أرسطو

صفحة رقم : 4609

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

كتب المينافيزيقا، والنفس، وفي توالد الحيوانات وفسادها كما نقل إليها شروح الإسكندر الأفروديسي، وهو كتاب له أثر كبير في الفلسفة الإسلامية.

ولم يحل عام 850 بعد الميلاد حتى كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية. وعن طريق الترجمة العربية أطلق اسم المجسطي على كتاب بطليموس في الفلك، وبفضل الترجمة العربية دون غيرها بقيت للعالم المقولات 7، 6، 5 من المخروطات لأبولونيوس البرجاوي Apollonius of Perga وكتاب الحيل لهيرو الإسكندري وكتاب الخصائص الألية للهواء والغازات لفيلون البيزنطي. ومن أغرب الأشياء أن المسلمين رغم ولعهم الشديد بالشعر والتاريخ قد أغفلوا الشعر اليوناني والمسرحيات اليونانية وكتب التاريخ اليونانية، فقد سار المسلمون في ركاب الفرس في هذه النواحي من النشاط العلمي والأدبي بدل أن يسيروا في ركاب اليونان. وكان من سوء حظ الإسلام والإنسانية عامة أن كتب أفلاطون وأرسطو نفسه لم يصل معظمها إلى أيدي المسلمين إلا في الصورة التي أصبحت عليها أيام الأفلاطونية الحديثة: فقد وصلت إليها كتب أفلاطون كما فسرها بورفيرى Porphyry، ووصلت كتب أرسطو ممسوخة في صورة كتاب اللاهوت المعروف عند الإسلاميين بأوثولوجيا أرسطوطاليس، وقد ألفه رجل من أتباع الأفلاطونية الحديثة عاش في القرن الخامس أو السادس، ثم ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية على أنه كتاب أرسطو نفسه. ولم يكد العرب يتركون كتاباً من كتب أرسطو وأفلاطون إلا ترجموه إلى اللغة العربية، وإن كانت هذه التراجم غير دقيقة في كثير من المواضع؛ ولكن العلماء المسلمين حاولوا أن يوفقوا بين الفلسفة اليونانية والقرآن، ولجأوا إلى الشروح التي كتبها رجال الأفلاطونية الحديثة أكثر مما لجأوا إلى كتب الفلاسفة اليونان في صورتها الأصلية. ولهذا لم يصل من كتب أرسطو

صفحة رقم : 4610

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

الحلقة إلى أيدي المسلمين إلا ما كان منها في المنطق وعلم الطبيعة.
وإن انتقال العلوم والفلسفة انتقالاً مستمراً من مصر، والهند، وبابل، عن طريق بلاد اليونان وبيزنطية، إلى بلاد الإسلام في الشرق وفي أسبانيا، ومنها إلى شمالي أوروبا وأمريكا، نقول إن هذا الانتقال لمن أجل الحوادث وأعظمها شأناً في تاريخ العالم. لقد كانت علوم اليونان حية في بلاد الشام حين أقبل عليها العرب فاتحين، وإن كانت هذه العلوم قد ضعف شأنها بسبب ما اكتتفها قبلنذ من غموض وما ساد البلاد من فقر وفساد في الحكم. وكان الراهب سفيرس سيخت Severus Sobokht رئيس دير قنسرين إحدى مدن أعالي الفرات يكتب باليونانية رسائل في الفلك، ويذكر لأول مرة الأرقام الهندية في خارج بلاد الهند (662). لقد ورث المسلمون عن اليونان معظم ما ورثوه من علوم الأقدمين، وتأتي الهند في هذا في المرتبة الثانية بعد بلاد اليونان. ففي عام 773 أمر المنصور بترجمة السدهنتا وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام 425 ق.م. وربما كانت هذه الرسائل هي الوسيلة التي وصلت بها الأرقام "العربية" والصفير من بلاد الهند إلى بلاد الإسلام (21). ففي عام 813 استخدم الخوارزمي الأرقام الهندية في جداوله الرياضية؛ ثم نشر في عام 825 رسالة تعرف في اللاتينية باسم *Algoritmi de numero Indorum* "أي الخوارزمي عن أرقام الهنود". وما لبث لفظ الجورثم أو الجورسم أن أصبح معناه طريقة حسابية تقوم على العدية العشرية. وفي عام 976 قال محمد بن أحمد في مفاتيح العلوم إنه إذا لم يظهر في العمليات الحسابية رقم في مكان العشرات وجب أن توضع دائرة صغيرة لمساواة الصفوف (22). وسمى المسلمون هذه الدائرة "صفرًا"

صفحة رقم : 4611

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

أي خالية ومنها اشتقت الكلمة الإنجليزية Cipher؛ وحوار العلماء اللاتين لفظ صفر Sifr إلى Zephyrum ثم اختصره الطليان إلى Zero.
ويدين علم الجبر، الذي نجد أصوله في مؤلفات ديوفانتوس Diophantus اليوناني من رجال القرن الثالث، باسمه إلى العرب، الذين ارتقوا بهذا العلم الكاشف للخبيايا الحلال للمعضلات. وأبرز الشخصيات في هذا الميدان العلمي هي شخصية محمد بن موسى (780-850) المعروف بالخوارزمي نسبة إلى مسقط رأسه في خوارزم (خيوه الحديثة) الواقعة شرقي بحر الخرز؛ وقد كتب الخوارزمي رسائل قيمة في علوم خمسة: كتب عن الأرقام الهندية، وجمع أرباجاً فلكية، ظلت قروناً كثيرة بعد أن روجعت في بلاد الأندلس الإسلامية هي المعمول بها في جميع البلاد الممتدة من قرطبة إلى شنغان في الصين؛ وهو الذي وضع أقدم الجداول المعروفة في حساب المثلثات، واشترك مع تسعة وثلاثين من العلماء في وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون، وأورد في كتابه حساب الجبر والمقابلة حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات الدرجة الثانية. ولقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب، لكن جرارد الكريمونائي Gerard of Cremona ترجمة في القرن الثاني عشر، وظلت ترجمته تدرس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر، ومنه أخذ الغرب كلمة الجبر وسموا بها ذلك العلم المعروف. واشتهر ثابت بن قره (826-901)، فضلاً عما ترجمه من الكتب الكثيرة، بمؤلفاته في الفلك والطب، وأصبح أعظم علماء الهندسة المسلمين وارتقى أبو عبد الله البتاني (850-929) وهو رجل صابئي من الرقة يعرف عند الأوربيين باسم البتجنس Albategnus، بعلم حساب المثلثات

إلى أبعد من مبادئه التي كان عليها في أيام هبارخوسن وبطليموس، وذلك حين استبدل المثلثات بالمرعبات في حل المسائل، واستبدل جيب الزاوية بالقوس كما كان يفعل هبارخوس. وهو الذي صاغ

صفحة رقم : 4612

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

في حساب المثلثات النسب بالصورة التي نستخدمها الآن في جوهرها. واستخدم المأمون جماعة من الفلكيين ليرصدوا الأجرام السماوية ويسجلوا نتيجة هذه الأرصاد، وليحققوا كشف بطليموس الفلكي، ويدرسوا كلف الشمس. واتخذوا كرية الأرض أساساً بدعوا منه بقياس الدرجة الأرضية بأن رصدوا موضع الشمس من تدمر وسنجان في وقت واحد. وتوصلوا من هذا الرصد إلى تقدير الدرجة بستة وخمسين ميلاً وثلاثي ميل - وهو تقدير يزيد بنصف ميل على تقديرنا في الوقت الحاضر ومن هذه النتائج قدروا محيط الأرض بما يقرب من عشرين ألف ميل. ولم يكن هؤلاء الفلكيون يقبلون شيئاً إلا بعد أن تثبته الخبرة والتجارب العلمية، وكانوا يسيرون في بحوثهم على قواعد علمية خالصة، وكتب أحدهم - الفرغاني من أهل فرغانة وهي ولاية وراء جيحون (حوالي عام 860) - كتاباً في الفلك ظل مرجعاً تعتمد عليه أوروبا وغربي آسيا سبعمئة عام. وأوسع منه شهرة البتاني الذي ظل واحداً وأربعين عاماً يقوم بأرصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها. وقد وصل بهذه الأرصاد إلى كثير من "المعاملات" الفلكية تمتاز بقربها العجيب من تقديرات هذه الأيام - منها تقديره زيوج الاعتدالين بـ 54.5 في العام، وميل مستوى الفلك بـ 23°55' (23). منهم أبو الوفا الذي كان يعمل تحت رعاية سلاطين بني بويه الأولين حكام بغداد والذي كشف (كما يقول سادلو Sadilot وإن كان قوله لا يزال مثاراً للجدل) الانحراف الثالث للقمر قبل أن يكشفه تيخو براهي Tycho Brahe بستمئة عام (24). وقد أقيمت للفلكيين المسلمين آلات غالية الثمن لم تقتصر على الإسطرلاب، والكرات ذوات الحلق التي كانت معروفة لليونان الأقدمين، بل كانت تشمل كذلك آلات لقياس الزوايا يبلغ نصف قطرها ثلاثين قدماً، وآلات سدس نصف قطرها ثمانون قدماً. وقد أدخل المسلمون. على الإسطرلاب تحسينات كثيرة،

صفحة رقم : 4613

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

ووصل منهم إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي، وظل شائع الاستعمال بين الملاحين حتى القرن السابع عشر. وقد صروه العرب وأبدعوا صنعه، حتى أصبح بفضلهم أداة علمية وتحفة فنية معاً. وهذا الاهتمام العظيم بتصوير السماء قد فاقه اهتمامه بتصوير أقاليم الأرض لأن المسلمين كانوا يعيشون على فلاح الأرض وعلى التجارة في أقاليمها المختلفة. فقد حمل سليمان التاجر - الذي عاش حوالي عام (851) وصفاً لرحلة

سليمان هذا، كان هو أقدم وصف عربي لبلاد الصين، وكتبه قبل رحلات ماركو بولو Marco Polo بأربعمائة وخمسة وعشرين عاماً. وفي ذلك القرن نفسه كتب ابن خردذيه وصفاً لبلاد الهند، وسيلان، وجزائر الهند الشرقية، وبلاد الصين، ويبدو أنه اعتمد فيما كتب على رحلاته في تلك البلاد وما شاهده فيها بنفسه. ووصف ابن حوقل بلاد الهند وإفريقية، وكتب أحمد اليعقوبي، من أهل أرمينية وخرسان في عام 891 كتاب البلدان الذي وصف فيه الأقطار والمدن الإسلامية وكثيراً من الدول الأجنبية وصفاً خليفاً بالثقة. وزار محمد المقدسي جميع البلاد الإسلامية فضلاً عن بلاد الأندلس، ولاقى في أثناء رحلاته كثيراً من الشدائد، ثم كتب عام 985 كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وهو أعظم كتاب في معرفة جغرافية البلاد الإسلامية قبل كتاب البيروني عن الهند. ويمثل أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (973-1048م) العالم الإسلامي في أحسن صورة له. فقد كان البيروني فيلسوفاً، مؤرخاً، ورحالة، وجغرافياً، ولغوياً، ورياضياً، وفلكياً، وشاعراً، وعالمياً في الطبيعيات وكانت له مؤلفات كبيرة وبحوث عظيمة مبتكرة في كل ميدان من هذه الميادين. ومكان عند المسلمين كما كان لبيروني، ويوشك أن يكون كما كان ليوناردو دافنشي، عند

صفحة رقم : 4614

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

الغربيين. وقد ولد كما ولد الخوارزمي بالقرب من مدينة جنوى الحالية، وتمثل فيه كما تمثل في الخوارزمي زعامة موطنه في غرب بحر قزوين من الناحية العلمية في هذه الأعوام المائة من العصور الوسطى التي بلغ فيها العلم ذروته. وعرف أمراء خوارزم وطبارستان فضله وأدركوا عظم مواهبه فأفردوا له مكاناً في بلاطهم. وسمع محمود الغزنوي بكثرة من كان في خوارزم من الشعراء والفلاسفة، فطلب إلى أميرها أن يبعث إليه بالبيروني، وابن سينا، وغيرهما من العلماء؛ وأدرك الأمير أن هذا الأمر واجب الطاعة (1018)، وسافر البيروني ليحيا حياة الجد والهدوء والعزة والكرامة في بلاد الملوك المحارب فاتح الهند. ولعل البيروني قد دخل الهند في ركاب محمود نفسه، وسواء كان هذا أو لم يكن فقد أقام العالم الفيلسوف في الهند عدة سنين درس فيها لغة البلاد وأثارها القديمة، ثم عاد إلى بلاط محمود وأصبح فيه من أعظم المقربين لهذا الحاكم المطلق الذي لا يستطيع الكاتب رسم صورة صادقة له. ويقال إن رجلاً من شمالي أسية زار محموداً ووصف له إقليمياً ادعى أنه رآه بعينه، وقال إن الشمس تظل فيه عدة أشهر لا تغيب أبداً. ولم يصدق محمود هذا القول، وغضب على الرجل وأوشك أن يزجه في السجن لجرأته على المزاح معه وهو صاحب الحول والطول، فما كان من البيروني إلا أن شرح هذه الظاهرة شرحاً أفتح به الملك وأنجى الزائر (26). وكان مسعود بن محمود من الهواة المولعين بالعلم فأخذ يفتح البيروني بالهدايا والأموال، وكثيراً ما كان البيروني نفسه يردّها إلى بيت المال لزيادتها على حاجته. وكان أول مؤلفاته الكبرى رسالة علمية فنية عميقة تعرف باسم الآثار الباقية في التقاويم والأعياد عند الفرس، وأهل الشام، واليونان، واليهود، والمسيحيين، الصابئين، والزرادشتيين، والعرب، والكتاب دراسة نزيهة إلى درجة غير مألوفة، مبرأة إلى أقصى حد من الأحقاد الدينية. وكان البيروني يميل إلى مذهب الشيعة، وكان ذا نزعة تشككية خالية من المباهاة والادعاء؛ غير أنه ظل يحتفظ

صفحة رقم : 4615

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

بقسط من الوطنية الفارسية، وأحى باللائمة على العرب لقضائهم على ما كان في العهد الساساني من حضارة عظيمة (27). أما في ما عاد هذا فقد كان موقفه موقف العالم صاحب النظرة الموضوعية، المجد في البحث العلمي، النقادة للروايات المتواترة والنصوص (بما فيها نصوص الإنجيل)، المدقق، النزيه، ذي الضمير الحي في أحكامه، وكثيراً ما كان يعترف بجهله، ويعد بأن يواصل بحوثه حتى تتكشف له الحقيقة. وقد قال في مقدمة الآثار الباقية مثل ما قال فرانسس بيكن في بعض كتبه "... بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية أكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة، والتعصب، والتظافر، وإتباع الهوى، والتغلب بالرياسة، وأشبه ذلك.... وبغير ذلك، لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهد".

وبينما كان مضيفه يغزو الهند ويدمر مدنها، كان البيروني يقضي السنين الطوال في دراسة شعوبها، ولغاتهم، وأديانهم، وثقافتهم، ومختلف طوائفهم. وأثمرت هذه الدراسة كتابة تاريخ الهند الذي نشره في عام 1030 والذي يعد أعظم مؤلفاته. وقد ميز فيه منذ البداية بين ما شاهده بعينه وما سمعه من غيره، وذكر أنواع الكذابين الذين ألفوا كتباً في التاريخ (28) ولم يخص تاريخ الهند السياسي إلا بحيز صغير في كتابه خص أحوال الهند الفلكية باثنين وأربعين فصلاً من فصوله وخص أديانها بأحد عشر. وكان من أهم ما سحر لبه البهاجافاد جيتا وأدرك ما بين تصوف الفداننا، والصوفية، والفيثاغورية الحديثة، والأفلاطونية الحديثة من تشابه، وأورد مقتطفات من كتابات مفكري الهنود، ووازن بينها وبين مقتطفات شبيهة بها من كتابات فلاسفة اليونان، وفضل آراء اليونان عن آراء الهنود، وكتب يقول إن الهند لم ينبغ فيها رجل كسقراط، ولم تظهر فيها طريقة منطقية تطهر العلم من الأوهام (29). ولكنه رغم هذا ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية، وكأنما أراد أن يوفي بدينه للهند

صفحة رقم : 4616

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

فترجم إلى السنسكريتية كتاب أصول الهندسة لإقليدس و المجسطي لبطليموس. وكادت عنايته تشمل جميع العلوم، فقد كتب عن الأرقام الهندية أوفى بحث في العصور الوسطى؛ وكتب رسالة عن الإسطرلاب، ودائرة فلك البروج، وذات الحلق، ووضع أزياجاً فلكية للسلطان محمود. ولم يكن يخالجه أدنى شك في كرية الأرض، ولاحظ أن كل الأشياء تنجذب نحو مركزها، وقال إن الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها إذا افترضنا أن الأرض تدور حول محورها مرة في كل يوم، وحول الشمس مرة في كل عام، بنفس السهولة التي تفسر بها إذا افترضنا العكس (30). وقال إن وادي نهر السند ربما كان في وقت من الأوقات قاع بحر (31)، وألف كتاباً ضخماً في الحجارة وصف فيه عدداً عظيماً من الأحجار والمعادن من النواحي الطبيعية وشرح قيمتها التجارية والطبية. وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعاً من أنواع الحجارة الكريمة، ووضع القاعدة التي تنص على الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذي يزيغه (32). وتوصل إلى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون الالتجاء إلى عمليات الضرب والجمع الطويلة الشاقة، كما تحدث في القصة الهندية عن مربعات لوحة الشطرنج وحببات الرمل. ووضع في الهندسة حلولاً لنظريات سميت فيما بعد باسمه. وألف موسوعة في الفلك، والتنجيم، والعلوم الرياضية؛ وشرح أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والآبار الارتوازية بنظرية الأواني المستطرقة (33). وألف تواريخ حكم السلطان

محمود، وسبكتجين، وتاريخاً لخوارزم. ويطلق عليه المؤرخون الشرقيون اسم الشيخ، وكأنهم يعنون بذلك أنه شيخ العلماء. وإن كثرة مؤلفاته في الجيل الذي ظهر فيه ابن سينا، وابن الهيثم، والفردوسي لتدل على أن الفترة الواقعة في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر هي التي بلغت فيها الثقافة الإسلامية ذروتها، وهي التي وصل فيها الفكر في العصور الوسطى إلى أعلى درجاته.

صفحة رقم : 4617

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

ويكاد المسلمون يكونون هم الذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم؛ ذلك أن المسلمين أدخلوا الملاحظة الدقيقة، والتجارب العلمية، والعناية برصد نتائجها في الميدان الذي اقتصر فيه اليونان- على ما نعلم- على الخبرة الصناعية الفروض الغامضة. فقد اخترعوا الأنبيق وسموه بهذا الاسم، وحلّلوا عدداً لا يحصى من المواد تحليلاً كيميائياً، ووضعوا مؤلفات في الحجاره، وميزوا بين القلويات والأحماض، وفحصوا عن المواد التي تميل إليها، ودرسوا مئات من العقاقير الطبية، وركبوا مئات منها. وكان علم تحول المعادن إلى ذهب، الذي أخذه المسلمون من مصر هو الذي أوصلهم إلى علم الكيمياء الحق، عن طريق مئات الكشوف التي يبينوها مصادفة، وبفض الطريقة التي جروا عليها في اشتغالهم بهذا العلم وهي أكثر طرق العصور الوسطى انطباقاً على الوسائل العلمية الصحيحة. ويكاد المشتغلون بالعلوم الطبيعية من المسلمين في ذلك الوقت يجمعون على أن المعادن كلها تكاد ترجع في نهاية أمرها إلى أصول واحدة، وأنها لهذا السبب يمكن تحويل بعضها إلى البعض الآخر. وكان الهدف الذي يبغيه الكيميائيون هو أن يحولوا المعادن "الخشيسة" كالحديد، أو النحاس، أو الرصاص، أو القصدير إلى فضة، أو ذهب. وكان حجر الفلاسفة عندهم مادة يداؤبون على البحث عنها ولا يصلون إليها-إذا عولجت بها تلك المعادن العلاج الصحيح، حدث فيها التغير المطلوب. وكان الدم، والشعر، والبراز، وغيرها من المواد تعالج "بكوشف" متنوعة، وتعرض لعمليات التكليس، والتصعيد، وللضوء، والنار، علها أن يكون فيها ذلك الإكسير السحري(36). وكان الاعتقاد السائد أن الذي يستحوذ على هذا الإكسير يستطيع إذا شاء أن

صفحة رقم : 4618

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> العلوم

يطيل حياته. وكان أشهر الكيميائيين المسلمين جابر بن حيان (702-765) المعروف عند الأوربيين باسم جيبير Gebir. وكان جابر ابن حيان كوفي، اشتغل بالطب، ولكنه كان يقضي معظم وقته مع الأنابيق والبوداق. ويعزو إليه المؤرخون مائة من المؤلفات أو أكثر من مائة، ولكنها في الواقع من عمل مؤلفين مجهولين عاش معظمهم في القرن العاشر. وقد ترجم كثير من هذه المؤلفات التي لا يعرف أصحابها إلى اللغة اللاتينية. وكان لها الفضل في تقدم علم

الكيمياء في أوروبا. وحل السحر بعد القرن العاشر محل الكيمياء كما حل محل غيرها من العلوم، وقضى ذلك العلم بعدئذ ثلاثمائة عام لا يرفع فيها رأسه. وليس لدينا إلا القليل من بقايا علم الأحياء عند المسلمين في ذلك العصر. ومن هذه الآثار كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري الذي رجع فيه إلى مؤلفات ديوسقوريدس ولكنه أضاف فيه إلى علم الصيدلة عقاير أخرى كثيرة. وقد عرف علماء الحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر (37). وشرح عثمان بن عمر الجاحظ (المتوفى سنة 869) نظرية في التطور شبيهة بنظرية المسعودي فقال إن الحياة قد ارتفعت من الجماد إلى النبات، ومن النبات إلى الحيوان، ثم من الحيوان إلى الإنسان (38). واعتنق الشاعر الصوفي جلال الدين هذه النظرية، ولم يضيف إليها إلا قوله إنه إذا كان هذا مستطاعاً في الماضي، فإن الناس في المرحلة الثانية سيصبحون ملائكة ثم يرقون إلى مرتبة الإله (39).

صفحة رقم : 4619

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

الفصل الثالث

الطب

وما فتئ الناس في هذه الأثناء يحبون الحياة، وينفقون الأموال الطائلة في تأخير ساعة الموت، وإن كانوا دائمياً الافتراء عليها والتدبير بها. ولم يكن العرب حين دخلوا بلاد الشام يعرفون الطب إلا معلومات بدائية، ولم يكن لديهم من الأدوات والأجهزة الطبية إلا القليل الذي لا يعني. فلما أن ازدادت الثروة نشأت في الشام وفارس طائفة من الأطباء، واسعة العلم، عظيمة المقدرة، أو استقدمت من بلاد اليونان والهند. وإذا كان المسلمون يستنكفون من تشريح الأجسام الحية أو جثث الموتى فإن علم التشريح عند المسلمين قد اقتصر على ما جاء في كتب جالينوس، أو على دراسة الجرحى من الناس؛ ومن أجل هذا كان أضعف فروع الطب الإسلامي هو الجراحة، وكان أقواها هو الطب العلاجي وخواص العقاقير الطبية. وقد أضاف العرب إلى علم الأقرباذين العنبر، والكافور، وخيار الشنبر، والقرنفل العطري، والزئبق، والسناكمي، والمر، وأدخلوا في الأبنية مستحضرات طبية جديدة منها أنواع الشراب، والحلاب، وماء الورد وما إليها. وكان من أهم الأعمال التجارية بين إيطاليا والشرق الأدنى استيراد العقاقير العربية. وكان المسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصيدليات، وهم الذين أنشؤا أول مدرسة للصيدلة، وكتبوا الرسائل العظيمة في علم الأقرباذين. وكان الأطباء المسلمون عظيمي التحمس في دعوتها إلى الاستحمام، وخاصة عن الإصابة بالحُميات (46)، وإلى استخدام حمام البخار؛ ولا يكاد الطب الحديث يزيد شيئاً على ما وصفوه من العلاج للجذري والحصبة، وقد استخدموا التخدير بالاستنشاق في بعض العمليات الجراحية (47)؛ واستعانوا بالحشيش وغيره من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

المخدرات على النوم العميق(43)؛ ولدينا أسماء أربعة وثلاثين بيمارستانا كانت قائمة في البلاد الإسلامية في ذلك الوقت(44)، ويلوح أنها أنشئت فيها خمسة أخرى في القرن العاشر الميلادي، ويحدثنا المؤرخون في عام 918 عن مدير لها في بغداد(45). وكان أعظم بيمارستانات بلاد الإسلام على بكرة أبيها هو البيمارستان الذي أنشئ في دمشق عام 706؛ وفي عام 978 كان به أربعة وعشرون طبيبياً. وكان البيمارستانات أهم الأماكن التي يدرس فيها الطب؛ ولم يكن القانون يجيز لإنسان أن يمارس هذه الصناعة إلا إذا تقدم إلى امتحان يُعقد لهذا الغرض ونال إجازة من الدولة. كذلك كان الصيادلة، والخلاقون، والمجبرون يخضعون لأنظمة تضعها الدولة وللتفتيش على أعمالهم. وقد نظم علي ابن عيسى الوزير-الطبيب-هيئة من الأطباء الموظفين يطوفون في مختلف البلاد ليعالجوا المرضى (931)؛ وكان أطباء يذهبون في كل يوم إلى السجون ليعالجوا نزلاءها؛ وكان المصابون بأمراض عقلية يلقون عناية خاصة يعالجون علاجاً يمتاز بالرحمة والإنسانية. غير أن الوسائل الصحية العامة لم تلقَ في معظم الأماكن ما هي خليفة به من العناية، ودليلنا على ذلك أن أربعين وباء اجتاحت في أربعة قرون هذا البلد أو ذلك من بلاد الإسلام. وكان في بغداد وحدها عام 931 ثمانمائة وستون طبيباً مرخصاً(46). وكانت أجورهم ترتفع بنسبة قريبهم من بلاط الخلفاء. فقد جمع جبريل بن بختيشوع طبيب هارون الرشيد، والمأمون، والبرامكة ثروة يبلغ مقدارها 88.800.000 درهم أي نحو (7.104.000 دولار أمريكي). ويحدثنا المؤرخون أنه كان يتقاضى من الخليفة مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين في العام. ومثل هذا المبلغ لإعطائه مسهلاً كل نصف عام(47). وقد نجح في علاج الشلل الهستيرى في جارية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

بأن تظاهر بأنه سيخلع عنها ملابسها أمام الناس. وجاء بعد جبريل في بلاد الإسلام الشرقية عدد من الأطباء كل منهم بعد الآخر، نذكر منهم يوحنا ابن ماسويه (777-857)، الذي درس التشريح بتقطيع أجسام القردة، ومنهم حنين بن إسحق، المترجم، صاحب كتاب العشر مقالات في العين، وهو أقدم كتباً دراسية منظم في طب العيون؛ وعلي بن عيسى أعظم أطباء العيون المسلمين، وقد ظل كتابه تذكرة الكحالين يدرس في أوروبا حتى القرن الثامن عشر. وأشهر أطباء هذه الأسرة الرحيمة على بكرة أبيها هو أبو بكر محمد الرازي (844-926) اشتهر بين الأوربيين باسم رازيس Rhases. وكان أبو بكر كمعظم كبار العلماء والشعراء في وقته فارسياً يكتب بالعربية. وكان مولده في بلدة الري القريبة من طهران، ودرس الكيمياء بنوعيتها، والطب في بغداد، وألف 131 كتاباً نصفها في الطب، ضاع معظمها. ومن أشهر كتبه كتاب الحاوي وهو كتاب في عشرين مجلداً، ويبحث في كل فرع من فروع الطب. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية وسمي Liber continens، وأغلب الظن أنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية مكانة، وأهم مرجع لهذا العلم في بلاد الرجل الأبيض، وكان من الكتاب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة

باريس عام 1394 (48). وكانت رسالته في الجدري والحصبة آية في الملاحظة المباشرة والتحليل الدقيق، كما كانت أولى الدراسات العلمية الصحيحة للأمراض المعدية، وأول مجهود يبذل للتفرقة بين هذين المرضين. وفي وسعنا أن نحكم على ما كان لهذه الرسالة من بالغ الأثر واتساع الشهرة إذا عرفنا أنها طُبعت باللغة الإنجليزية أربعين مرة بين عامي 1498، 1866. وأشهر كتب الرازي كلها كتاب طبي في عشر مجلدات يسمى كتاب المنصوري

صفحة رقم : 4622

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

أهداه إلى أحد أمراء خراسان. وقد ترجمه جرار الكريمو إلى اللغة اللاتينية. وظل المجلد التاسع من هذا الكتاب وهو المعروف عند الغربيين باسم Nonus Almansoris متداولاً في أيدي طلاب الطب في أوروبا حتى القرن السادس عشر. وقد كشف الرازي طرقاً جديدة في العلاج كمرهم الزئبق، واستخدام أمعاء الحيوان في التقطيب. وهدأ من حماس الأطباء لتحليل البول في عصر أقلب به الأطباء إلى تشخيص كل مرض بالفحص على بول المريض، دون أن يروه في بعض الأحيان. ولا تخلو بعض مؤلفاته القصيرة من ظرف ودعابة؛ ومن هذا النوع رسالته "في الطب الحاذق وليس هو من قدر على إبراء جميع العلل وإن ذلك ليس في الوسع" ورسالته الأخرى "العلة التي من أجلها ينجح جهال الأطباء والعوام والنساء في المدن في علاج بعض الأمراض أكثر من العلماء وعضر الطبيب في ذلك". ولقد كان الرازي بإجماع الآراء أعظم الأطباء المسلمين وأعظم علماء الطب السريري (الكلينيكي) في العصور الوسطى (49). ومات الرجل فقيراً في الثانية والثمانين من عمره. وقد علقت في مدرسة الطب بجامعة باريس صورتان ملونتان لطبيبين مسلمين هما: الرازي وابن سينا. وكان أبو علي الحسين بن سينا (980-1037) أعظم فلاسفة الإسلام وأشهر أطبائه، وتشهد سيرته التي كتبها بيده ذلك النوع من السير نادر في الأدب العربي بكثرته ما كان يحدث في العصور الوسطى من تقلب في حياة العلماء والحكماء. فقد كان ابن سينا ابن أحد الصيارفة في بخارى، وتلقى العلم على معلمين خصوصيين، كان لهم أثر فيما ينطوي عليه عقله العلمي من نزعة صوفية. ويقول عنه ابن خلكان بشيء من المغالاة المألوفة عند المؤرخين العرب إنه لما بلغ عشر سنين من عمره "كان قد أتقن علم القرآن العزيز والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة" (50). وقد تعلم الطب من غير مدرس، وأخذ وهو شاب يعالج المرضى من غير أجر

صفحة رقم : 4623

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

وشفى وهو في السابعة عشر من عمره نوح بن منصور أمير بخارى من مرضه، معين في منصب في بلاطه، وكان يقضي في الدرس ساعات طوالاً في مكتبة السلطان الضخمة. ولما قضى على سلطان السامانيين في أواخر القرن العاشر الميلادي لجأ ابن سينا إلى بلاط المأمون أمير خوارزم. ولما استدعى محمود الغزنوي ابن سينا والبيروني وغيرهما من جهابذة العلماء في بلاط المأمون، لم يطع ابن سينا أمره، وفر هو وزميل له من العلماء إلى الصحراء. وهبت عليهما عاصفة رملية مات فيها زميله، ونجا ابن سينا ووصل إلى جرجان بعد أن قاسى كثيراً من الصعاب، وفيها عين في منصب في بلاط قابوس. ونشر محمود الغزنوي في بلاد الفرس صورة لابن سينا، ووعد من يقبض عليه بجائزة سخية، ولكن قابوس حماه من عيون الأمير. ولما قتل قابوس دعي ابن سينا لعلاج همذان، وشفى الأمير على يديه فاتخذته وزيراً له، ولكن الجيش لم يرتح لحكمه، فقبض عليه ونهب بيته، وأراد أن يقتله. واستطاع ابن سينا أن يفلت منهم ويختبئ في بيت صيدلي، وبدأ وهو في مخبئه يؤلف كتبه التي كانت سبباً في شهرته. وبينما هو يدبر لنفسه أمر الفرار سراً من همذان قبض عليه ابن الأمير وزج به في السجن حيث قضى عدة أشهر واصل فيها التأليف واستطاع مرة أخرى أن يفر من السجن، وتخفى في زي أحد رجال الطرق الصوفية، وبعد عدة مغامرات لا تتسع لها صحائف هذا الكتاب وجد له ملجأ في بلاط علاء الدولة البويهى أمير أصفهان، ورحب به الأمير وكرمه، وهنا التقت حوله جماعة من العلماء والفلاسفة وأخذوا يعقدون مجالس علمية برياسة الأمير نفسه. ويستدل من بعض القصص التي وصلت إلينا أن فيلسوفنا كان يستمتع بملاذ الحب، كما يستمتع بملاذ الدرس. غير أن قصصاً تصوره لنا مكباً بالليل والنهار على الدرس، والتعليم، والشؤون العامة، وينقل لنا ابن خلكان نصائح له قيمة لا تبلى جدتها:

صفحة رقم : 4624

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

اجعل غذائك كل يوم مرة واحذر طعاماً قبل هضم طعام

واحفظ منيك ما استطعت فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام

وأثرت حياة الكدح في صحته فمات في السابعة والخمسين من عمره وهو مسافر إلى همذان، حيث لا يزال قبره موضعاً للإجلال والتكريم.

ولقد وجد ابن سينا في صروف حياته، في مناصبه أو في سجنه، متنسحاً من الوقت لتأليف مائة كتاب بالفارسية أو العربية تحدث فيها عن كل فرع تقريباً من فروع العلم والفلسفة. هذا إلى أنه له قصائد من الشعر الجيد وصلت إلينا منها خمس عشرة قصيدة انزلت واحدة منها إلى ربايعات عمر الخيام، ومنها قصيدته العينية في النفس وهبوطها إلى الجسم من عالم علوي ومطلعها:

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع %@= ومنها:

محبوبة عن كل مقلة عارفٍ وهي التي سفرت ولم تتبرقع

وصلت على كرهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع @

ولا يزال الطلاب في بلاد الشرق الإسلامي حتى اليوم يحفظونها عن ظهر قلب. وقد ترجم كتاب إقليدس في الهندسة ووضع عدة أزياج فلكية، وابتكر آلة شبيهة بالورنية المعروفة عندنا اليوم. وله دراسات مبتكرة في الحركة، والطاقة، والفراغ، والضوء، والحرارة، والكثافة النوعية. وله رسالة في المعادن بقيت حتى القرن الثالث عشر أهم مصادر علم طبقات الأرض عند الأوربيين. وقد كتب فيها عن تكوين الجبال كتابة تعد أنموذجاً للوضوح في العلم. فقد قال إن الجبال قد تنشأ من سببين مختلفين: فقد تكون نتيجة اضطرابات في القشرة الأرضية كما يحدث في أثناء الزلازل العنيفة، وقد تكون نتيجة لفعل المياه التي تشق لنفسها طريقاً جديداً بنحت الأودية. ذلك أن طبقات الأرض مختلفة في أنواعها؛ فمنها الهش ومنها تشق الصلب، والرياح والمياه تقتتان النوع الأول

صفحة رقم : 4625

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

ولكنهما تتركان صخور النوع الثاني على حالها. وهذا التحول يحتاج إلى آجال طوال... ولكن وجود البقايا المتحجرة للحيوانات المائية في كثير من الجبال يدل على أن المياه هي أهم الأسباب التي أحدثت هذه النتائج (52).
ولابن سينا كتابان يشتملان على تعاليمه كلها أولهما كتاب الشفاء (شفاء النفس)، وهو موسوعة في ثمانية عشر مجلداً في العلوم الرياضية، والطبيعة، وما وراء الطبيعة، وعلوم الدين، والاقتصاد، والسياسة، والموسيقى؛ وثانيهما كتاب القانون في الطب، وهو بحث ضخم في وظائف الأعضاء، وعلم الصحة، والعلاج، والأقرباديين، يتطرق من حين إلى حين إلى الموضوعات الفلسفية. وكتاب القانون حسن التنسيق يرقى في بعض الأحيان إلى درجة كبيرة في البلاغة، ولكن شغفه الشديد بالتصنيف والتميز يصبح عنده آفة لا يجد لها دواء. ويبدأ المؤلف بتحذير لا يشجع على دراسته إذ يقول إن كل من يتبع تعاليمه ويريد أن يفيد منها يجب عليه أن يحفظ عن ظاهر قلب (152) هذا الكتاب الذي يحتوي ألف كلمة. والطب في رأيه هو فن إزالة العقبات التي تعترض طريق عمل الطبيعة السوي. وهو يبحث أولاً في الأمراض الخطيرة فيصف أعراضها، وتشخيصها، وطرق علاجها. وفي الكتاب فصول عن طريق الوقاية والوسائل الصحية العامة والخاصة، والعلاج الحقن الشرجية، والحجامة، والكلي، والاستحمام، والتدليك. وهو ينصح بالتنفس العميق، وبالصياح من حين إلى حين لتقوية الرئتين والصدر واللاهة. ويلخص الكتاب الثاني ما عرفه اليونان والعرب عن النباتات الطبية. ويبحث الكتاب الثالث في بعض الأمراض وطبائعها، وفيه بحوث قيمة عن التهاب البلورا والدبيلة، والنزلات المعوية، والأمراض التناسلية، وفساد الشهوة، والأمراض العصبية، بما فيها العشق،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الطب

ويبحث الكتاب الرابع في الحميات، وفي الجراحة، وأدهان التجميل، ووسائل العناية بالشعر والجلد. وفي الكتاب الرابع-الخاص بعلم العقاقير الطبية-تعليمات مفصلة عن طرق طبخ سبعمائة وستين نوعاً من العقاقير. وحل كتاب القانون بعد أن ترجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر محل كتب الرازي وجالينوس، وأصبح هو الذي يعتمد عليه في دراسة الطب في المدارس الأوروبية. وقد احتفظ فيها بمكانته العالية، وظل الأساتذة يشيرون على الطلاب بالرجوع إليه في جامعتي منبلييه ولوفان إلى أواسط القرن السابع عشر.

وجملة القول أن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى، وأن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها، وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها. تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل، وإن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى. وليس في وسعنا مع هذا أن نحاجز أنفسنا عن القول بأن العلوم العربية كثيراً ما تلوث بالأوهام شأنها في هذا شأن سائر العصور الوسطى وأن تفوقها كلها-عدا علم البصريات-يرجع إلى التركيب والبناء من النتائج التي تجمعت لديها أكثر من تفوقها في الكشوف المبتكرة أو البحوث المنظمة؛ لكنها مهما يكن قصورها في هذه الناحية قد نمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية، وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره. ولما أن أعلن روجر بيكن هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر بخمسائة عام كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السبيل من عرب الأندلس، وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين في الشرق.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

الفصل الرابع

لقد استعار الإسلام في الفلسفة، كما استعار في الطب، من بلاد الشام المسيحية ما خلفته بلاد اليونان الوثنية، ثم رد هذا الدين إلى أوروبا المسيحية عن طريق الأندلس الإسلامية. وكانت هناك بطبيعة الحال عوامل كثيرة هي التي أدت مجتمعة إلى ثورة المعتزلة، وإلى فلسفات الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد. وكان للأراء الزرادشتية واليهودية عن الحشر والحساب بعض الأثر في الفلسفة الإسلامية؛ وكان الملاحدة المسيحيون قد أثاروا عجاج الجدل في بلاد الشرق الأدنى في صفات الله، وفي طبيعة المسيح وكلمة الله، وفي الجبرية والقدرية، والوحي والعقل. لكن العامل الذي كان له أكبر الأثر في التفكير الإسلامي في أسية-كما كان له أكبر الأثر في إيطاليا أيام النهضة- هو كشف آثار اليونان الفكرية من جديد؛ فقد أدى هذا الكشف - وإن أتى عن طريق التراجم الناقصة المعيبة لنصوص مشكوك في صحتها- إلى ظهور عالم جديد: عالم كان الناس يفكرون فيه في كل شيء ولا يخشون أن يصيبهم أذى بسبب هذا التفكير، ولا تقيدهم نصوص الكتب المقدسة، ولا يرون أن السماء والأرض وما بينهما قد خلقت عبثاً أو أنها وجدت بمعجزة من المعجزات التي لا تستند إلى قانون من قوانين العقل، بل يرون أنها تستند إلى قانون عام عظيم

صفحة رقم : 4628

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

يحكمها جميعاً وتتضح آثاره في كل جزء من أجزاء الكون. وقد افتنن المسلمون بالمنطق اليوناني في صورته الكاملة الواضحة التي جاء بها كتاب أورغانون (الألة الفكرية) لأرسطو بعد أن أتيح لهم الفراغ الذي لا بد منه للتفكير، ووجدوا فيه الأدوات التي يحتاجونها لتفكيرهم؛ وظل المسلمون ثلاثة قرون طوال يحاجون بالمنطق وتسلب لبهم بهجة الفلسفة المحببة كما سلبت لب الشباب في أيام أفلاطون. وسرعان ما أخذ صرح العقائد التعسفية يتصدع وينهار، كما انهارت العقائد اليونانية بتأثير بلاغة السوفسطائيين، وكما ضعفت العقائد المسيحية وتزعزعت قواعدها تحت ضربات أصحاب الموسوعات الفرنسيين وسخرية فلنير اللاذعة.

وكانت البداية التقريبية للعهد الذي نستطيع أن نسميه عهد الاستنارة الإسلامية هي الجدل الذي ثار حول موضوع عجيب هو موضوع خلق القرآن. ذلك أن عقيدة فيلون في الكلمة وقوله إنها حكمة الله الأبدية، وما جاء به الإنجيل الرابع من أ، المسيح هو كلمة الله أو العقل القدسي: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (53)، وعقيدة المسيحيين العارفين وأتباع الأفلاطونية الحديثة الذين يجسدون الحكمة الإلهية بقولون إنها هي أداة الخلق الفعالة، وعقيدة اليهود في أزلية التوراة- كل هذه الآراء قد أوجدت عند المسلمين السنيين عقيدة مماثلة تقول إن القرآن كان على الدوام موجوداً في عقل الله، وإن نزوله على محمد كان هو دون غيره حادثاً في زمان معين، وكانت نشأة الفلسفة في الإسلام على يد المعتزلة الذين ينكرون قدم القرآن، وهم يجهزون باحترامهم لكتاب الله (الكريم) ولكنهم يقولون إنه إذا تعارض هو

صفحة رقم : 4629

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

أو الحديث مع العقل وجب ألا يفسر تفسيراً حرفياً بل مجازياً، وأطلقوا على يد هذه الجهود التي يحاولون بها التوفيق بين العقل والدين اسم الكلام أي المنطق. وقد بدا لهم أن من السخف أن تؤخذ بحرفيتها العبارات الواردة في القرآن والتي تقول إن الله يدين وقدمين، وإنه يغضب ويكره، وقالوا إن تشبيهه الله بالكائنات البشرية على هذا النحو الشعري، إذا كان يتفق مع أغراض النبي الأخلاقية والسياسية في أيام الرسالة، لا يمكن أن يقبله المتعلمون المستنبطون في أيامهم، وإن العقل البشري عاجز كل العجز عن معرفة طبيعة الله وصفاته، وكل ما يستطيعه أن يقبل ما جاء به الدين من إثبات وجود قوة روحية عليا هي أساس الحقائق عامة. فضلاً عن هذا فقد كان المعتزلة يرون أن الخطر الشديد على أخلاق الناس وأعمالهم أ، يؤمنوا كما يؤمن عامة المسلمين بأن الحادثات كلها مقدره تقديراً كاملاً من عند الله، وأن الله قد اختار منذ الأزل من سيئات ومن سيعذب.

وانتشرت عقائد المعتزلة بهذه الصورة وبما أدخل عليها من الصور الأخرى التي يخطئها الحصر أثناء خلافة المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون؛ واعتنق هذه المبادئ العقلية الجديدة سرّاً في بادئ الأمر عدد من العلماء والخارجين على الدين، ثم جهز بها رجال في ندوة الخلفاء المسائية، ثم وجدت من يدعو إليها في المحاضرات التي تلقى في المدارس والمساجد، بل تغلبت في أماكن متفرقة على غيرها من الآراء. وافتتن المأمون نفسه بهذه النزعة العقلية الأخذة في القوة، وبسط عليها حمايته، وانتهى الأمر بأن جعل عقائد المعتزلة مذهب الدولة الرسمي. ذلك أ، المأمون مزج بعض عادات الملكية الشرقية بآخر الآراء الإسلامية المستمدة من الثقافة اليونانية، وأصدر في عام 832 أمراً يفرض فيه على جميع المسلمين أن يعتقدوا بأن القرآن قد خلق في وقت بعينه، وأتبع هذا بأمر آخر يقضي بالآراء العقلية في المحاكم من لا يعلن قبوله لهذه العقيدة الجديدة أو أن

صفحة رقم : 4630

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

تقبل فيها شهادته، وصدرت بعد هذين القرارين قرارات أخرى تحتم قبول عقيدة حرية الإرادة، وعجز النفس البشرية عن رؤية الله رأى العين، وانتهى الأمر بأن جعل رفض هذه العقائد من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام. وتوفي المأمون في عام 833، ولكن المعتصم والوائق اللذين توليا الخلافة بعده واصلا هذه الحملة الفكرية، وقاوم الإمام ابن حنبل هذا الاضطهاد الفكري وندد به؛ ولما استدعي لمناقشته في أمر المبادئ الجديدة أجاب عن كل ما وجه إليه من الأسئلة بإيراد شواهد من القرآن تؤيد آراء أهل السنة، فحضر حتى أغمي عليه، وألقي في السجن؛ ولكنه أصبح في أعين المسلمين بسبب هذا التعذيب من الشهداء والأولياء الصالحين، وكان تعذيبه هذا من العوامل التي مهدت السبيل للانتفاض على الفلسفة الإسلامية.

وكانت هذه الفلسفة قد أخرجت في ذلك الوقت أول داع كبير لها وهو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الذي ولد في الكوفة عام 803 م. وكان والد الكندي من ولاية الأعمال في المدينة؛ وتلقى هو العلم فيها وفي بغداد، وذاعت شهرته في الترجمة، والعلم والفلسفة في بلاط المأمون والمعتصم، ونبغ مثل الكثيرين من أمثاله في مجد الإسلام الفكري في عدد كبير من العلوم، فدرس كل شيء، وكتب 265 رسالة في كل شيء في الحساب والهندسة النظرية، والهيئة، والظواهر الجوية، وتقويم البلدان، والطبيعة، والسياسة، والموسيقى، والطب، والفلسفة... وكان يرى ما يراه أفلاطون من أنه ليس في وسع إنسان أن يصبح فيلسوفاً من غير أن يكون قبل ذلك عالماً في الرياضة؛ وحاول أن يبني علم الصحة، والطب، والموسيقى على نسب رياضية. وقد درس فيما درس ظاهرة المد والجزر، وبحث القوانين التي تحدد سرعة الأجسام الساقطة في الهواء، كما بحث ظاهرة الضوء في كتابه عن البصريات الذي كان له أكبر الأثر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

في روجر بيكن Roger Bacon. (وقد أدهش الكندي العالم الإسلامي برسالته في الدفاع عن المسيحية) واشترك هو وزميل له في ترجمة كتاب أرسطو في الإلهيات (أوثولوجيا). وتأثر الكندي أشد التأثر بهذا الكتاب المنحول وسه كل السرور أن يوفق بين أرسطو وأفلاطون إذ يجعل كليهما من أتباع الأفلاطونية الجديدة. ذلك أن فلسفة الكندي نفسه هي الأفلاطونية الجديدة مصبوغة صبغة جديدة: فالنفس عنده ثلاث مراتب: الله، ونفس العالم الخلاقة، والنفس البشرية التي هي فيض من هذه النفس الثانية. وإذا استطاع الإنسان أنم يدرّب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود. ويلوح أن الكندي قد حاول ما استطاع أن يبتعد عن آراء المعتزلة وأن يعتنق آراء أهل السنة، ولكنه أخذ عن أرسطو (56) التفرقة بين العقل الفاعل أي العقل الإلهي، وعقل الإنسان المنفعل الذي لا يعدو أن يكون هو القدرة على التفكير. ونقل ابن سينا هذا التفريق إلى ابن رشد الذي أثار به العالم واتخذ حجة ضد القائلين بالخلود الفردي. وانتهى الكندي بالانضمام إلى المعتزلة، فلما قام عليهم أهل السنة صودرت كتبه، وكاد يقضى على حياته، ولكنه نجا من هذه العاصفة، واسترد مكتبته، وعاش حتى عام 873.

إن المجتمع الذي يرتبط فيه نظام الحكم، والقانون، والأخلاق بالعقيدة الدينية يرى كل خروج على تلك العقيدة تهديداً خطيراً للنظام الاجتماعي نفسه. ولقد عادت إلى النشاط من جديد جميع القوى التي طغى عليها الفتح العربي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

وهي الفلسفة اليونانية والمسيحية والغنوسطية والقومية الفارسية، والشيعية المزدكية؛ وكان نشاطها عنيفاً، فأخذت تجادل في القرآن، وجهر شاعر فارسي بأن شعره أعلى منزلة من القرآن نفسه، فكان جزاؤه على قوله هذا قطع رأسه (784)(57)، وبدا أن صرح الإسلام القائم على القرآن قد أصبح وشيك الانهيار. غير أن عوامل ثلاثة في هذه الأزمة الشديدة جعلت النصر النهائي لأهل السنة: وهذه العوامل هي وجود خليفة محافظ مستمسك بدينه، واشتداد ساعد الحرس التركي، وولاء الناس الطبيعي لعقائدهم الموروثة. فلما أن تولى المتوكل على الله الخلافة في عام 847 استمد العون من الشعب ومن الأتراك. وكان الترك حديثي العهد بالإسلام، حاقدين على الفرس، غريبين عن الفكر اليوناني، فاندفعوا بكل ما فيهم من قوة لتأييد السياسة التي ترمي إلى نصره الدين بحد السيف. فنقض المتوكل السياسة الحرة العنيفة التي جرى عليها المأمون، وألغى ما أصدره فيها من المراسيم، وأخرج المعتزلة وغيرهم من الملحدّين عن مناصب الدولة والوظائف التعليمية، وحرم الجهر بالأراء المخالفة لآراء أهل السنة في الأدب والفلسفة، وسنّ قانوناً يحتم القول بأن القرآن أزلي غير مخلوق، واضطهد الشيعة وهُدم مشهد الحسين في كربلاء (851). وجدد المتوكل الأمر المعزوز إلى عمر بن الخطاب ضد المسيحيين، والذي وسعه هارون الرشيد حتى شمل اليهود (850)، ثم أهمل

العمل به بعد صدوره، جدد المتوكل هذا الأمر ففرض على اليهود والمسيحيين أن يلبسوا ثياباً من لون خاص تميزهم من غيرهم من أفراد الشعب، وأن يضعوا رقعاً ملونة على أكمام أثواب عبيدهم، وألا يركبوا غير البغال والحمير، وأن يثبتوا صوراً خشبية للشيطان على أبواب بيوتهم؛ وأمر بهدم جميع الكنائس والمعابد المسيحية واليهودية الجديدة، وحرم رفع الصليب علناً في المواكب المسيحية، ولم يسمح لمسيحي أو يهودي أن يتلقى العلم في المدارس الإسلامية. واتخذ رد الفعل في الجيل التالي صورة أقل عنفاً من هذه الصورة السابق

صفحة رقم : 4633

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

وصفها. فقد قام جماعة من العلماء السنيين وجهروا في شجاعة بقبول حكم المنطق في الجدل القائم، وعرضوا أن يثبتوا بالرجوع إلى العقل صدق العقائد الأصلية. وهؤلاء المتكلمون (المناطق) في الإسلام يشبهون الفلاسفة المدرسين في أوروبا في العصور الوسطى، وقد حاولوا أن يوفقوا بين العقائد الدينية والفلسفة اليونانية كما حاول ابن ميمون ذلك في القرن الثاني عشر بالنسبة لليهود، وتومس أكوناس في القرن الثالث عشر بالنسبة للمسيحية. وظل أبو الحسن الأشعري (873-935) يعلم الناس مبادئ المعتزلة نحو عشر سنين في البصرة، ولكنه انقلب عليهم حين بلغ الأربعين من عمره، وهاجمهم بسلاحهم هم أنفسهم، وهو سلاح المنطق، وسلط عليهم سيلاً جارفاً من الجدل القوي كان له أكبر الأثر في انتصار عقائد أهل السنة. وقد آمن أبو الحسن إيماناً قوياً بمبدأ الجبرية فقال إن الله قدر منذ الأزل كل عمل وكل حادث، وإنه عللها كلها، وإنه يعلو على القوانين والأخلاق، وإنه يصرف شؤون خلقه كما يشاء، فإذا بعث بهم جميعاً إلى النار فليس في ذلك خطأ قط(59).

ولم يرض أهل السنة كلهم بإخضاع الدين إلى هذا الجدل العقلي، ونادى كثيرون منهم بمبدأ "بلاكيف" أي أن من واجب الإنسان أن يؤمن دون أن يسأل كيف يكون هذا الإيمان(60)، وامتنع معظم علماء الدين عن الجدل في الموضوعات الأساسية ولكنهم اندفعوا يجادلون في التفاصيل الجزئية لعقيدة اتخذوا مبادئها الأساسية بداية يسلمون بها دون مناقشة.

وهكذا هدأت موجة الفلسفة في بغداد، ولكنها ثارت في الوقت نفسه في العواصم الإسلامية الصغرى؛ فوهب سيف الدولة أبا نصر الفارابي بيتاً في بغداد، وكان الفارابي أول من نبغ وانتشر صيته من العلماء الأتراك. كان مولده في فاراب إحدى ولايات التركستان، ودرس المنطق في بغداد على معلمين مسيحيين

صفحة رقم : 4634

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

وقرأ كتاب الطبيعة لأرسطو أربعين مرة، وكتاب النفس مائتي مرة، ورمي بالزندقة في بغداد، وارتدى ملابس المتصوفة واعتنق مبادئهم، وعاش كما يعيش طير الهواء. ويقول عنه ابن خلكان إنه "كان أزهّد الناس في الدنيا لا يحتفل بأي مكسب ولا مسكن" (61).
وسأله سيف الدولة عما يكفيه من المال فقال الفارابي إنه يكفيه أربعة دراهم في اليوم "فأجرى عليه الأمير هذا القدر من بيت المال واقتصر عليها لقناعته ولم يزل إلى أن توفي".
وقد بقي من مؤلفات الفارابي تسعة وثلاثون كتاباً كثير منها شروح لأرسطو وتعليقات على آرائه. وقد لخص في كتابه إحصاء العلوم علم عصره في الفلسفة، والمنطق، والرياضيات، والطبيعة، والكيمياء، والاقتصاد، والسياسة. وقد أجاب إجابة سلبية صريحة عن السؤال الذي أثار ثائرة الفلاسفة المسيحيين بعد قليل من ذلك الوقت وهو هل الكلي (أي الجنس، والنوع، والصفة) يوجد قائماً بنفسه منفصلاً عن الجزئي؟ وقد خدع كما خدع غيره بالهيات أرسطو فبدل الاصطاعيري العنيد إلى رجل متصوف. وطال به العمر حتى هدأت ثورته العلمية واستمسك بقواعد الدين. وكان في شبابه قد جهر بنزعة لا إرادية منشككة (62)، ثم خطا في مستقبل حياته خطوات واسعة، فأعطانا وصفاً مفصلاً للخالق (63) مستعيناً على ذلك بالبراهين التي أوردها أرسطو ليثبت بها وجود الله، والتي استعان بها أكوناس بعد ثلاثة قرون من ذلك الوقت، فقال إن حدوث سلسلة من الحوادث العارضة لا يمكن إدراكها إلا إذا أرجعناها في النهاية إلى كائن لا بد من وجوده لوقوعها، وجود سلسلة من العلل يتطلب وجود علة أولى، وسلسلة من الحركات يتطلب محركاً أول غير متحرك؛ والتعدد يتطلب الوحدة.

صفحة رقم : 4635

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

وإن الهدف النهائي للفلسفة، وهو الهدف الذي لا يمكن بلوغه كاملاً، هو معرفة العلة الأولى، وخير طريق للوصول إلى هذه المعرفة هو تطهير النفس. وقد استطاع الفارابي، كما استطاع أرسطو أن يعنى بجعل أقواله عن الخلود غامضة غير مفهومة. ومات الرجل في دمشق عام 950 م.
ومن بين كتب الفارابي الباقية كلها كتاب واحد يدهشنا ما يدل عليه من قوة الابتكار ونعني به كتاب المدينة الفاضلة. ويبدأ الكتاب بوصف قانون الطبيعة بأنه كفاح واحد دائم يقوم به كل كائن حي ضد سائر الكائنات؛ وهو في ذلك يشبه ما يقول هبز Hobbs من أن الأشياء كلها يحارب بعضها بعضاً؛ ثم يقول إن كل كائن حي يرى في آخر الأمر أن سائر الكائنات الحية وسائل يحقق بها أغراضه، ثم يعقب على هذا بقوله إن بعض الساعرين يستنتجون من هذا أن الرجل العاقل في هذا التنافس الذي لا مفر منه هو أقدر الناس على إخضاع غيره لإرادته، وأعظمهم تحقياً لرغباته كاملة. فكيف خرج المجتمع الإنساني إذن من هذا القانون قانون الغاب؟ وإذا ما أمعنا الفكر في أقوال الفارابي رأينا أنه كان بين المسلمين الذين بحثوا هذا الموضوع فلاسفة من طراز روسو وآخرون من طراز ننتشة: فمنهم من قال إن المجتمع قام في بادئ الأمر على أساس نوع من الاتفاق بين أفراد على أن بقاءهم يتطلب قبول بعض القيود التي تعتمد على العادات والقانون؛ ومنهم من سخر من هذا "العقد الاجتماعي" وقال إن مثل هذا التعاقد لم يوجد قط في تاريخ العالم، وأكد أن المجتمع بدأ، أو أن الدولة بدأت، بإخضاع الأقوياء للضعفاء وتجنيدهم تحت سلطانها. وبضيف هؤلاء الننتشيون أن الدولة نفسها أدوات للتنافس، وأن يقاتل بعضها بعضاً سعياً وراء سيادتها على غيرها، وسلامتها، وسلطانها، وثرانها؛ وأن الحرب طبيعية ولا مفر من وقوعها؛ وأن الذي سيسفر عنه هذا الصراع، لا بد أن يتمشى مع قانون الطبيعة الأزلي؛ وهو أن الحق الوحيد هو القوة. ويقاوم الفارابي هذه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

النزعة بأن يدعو إلى إقامة مجتمع على قواعد العقل، والوفاء، والحب، لا على أساس الحسد، والقوة، والخصام(64). ويختتم بحثه خاتمة موفقة بالدعوة إلى إقامة ملكية على أساس العقيدة الدينية القوية(65). وأنشأ تلميذ لأحد تلاميذ الفارابي في بغداد عام 970 جمعية من العلماء معروفة لنا باسم موطن منشئها-الجمعية السجستانية، غرضها بحث المسائل الفلسفية. ولم تكن هذه الجمعية تسأل أعضائها عن أصلهم أو مللهم؛ ويبدو أنها صرفت همها كله إلى دراسة المنطق وفلسفة المعرفة؛ ولكن وجودها يدل على أن الرغبة في البحوث العلمية والعقلية لم تخب جذوتها في عاصمة الدولة الإسلامية. وأهم من هذه الجمعية شأنًا، أو بالأحرى أعظم منها أثرًا، جمعية أخرى من نوعها، ولكنها في واقع الأمر جمعية سرية من العلماء والفلاسفة، أنشئت في مدينة البصرة عام 983، ونعني بها جمعية إخوان الصفا. وكان سبب قيامها أن هؤلاء الإخوان روعهم ما شاهدوه من ضعف الخلافة الإسلامية، وفقر شعوبها، وفساد أخلاقهم؛ فتأقت نفوسهم إلى تجديد الإسلام من النواحي الأخلاقية، والروحية، والسياسية؛ وخيل إليهم أن هذا التجديد إنما يقوم على مزيج من الفلسفة اليونانية والمسيحية، والتصوف الإسلامي، وآراء الشيعة السياسية، والشريعة الإسلامية. وكانوا يفهمون الصداقة على أنها تعاون بين ذوي الكفايات والفضائل المختلفة، تأتي فيها كل طائفة بما تحتاجه الجماعة كلها وما لا تجده عند الطوائف الأخرى. وفي اعتقادها أن الوصول إلى الحقيقة عن طريق اجتماع العقول أيسر من الوصول إليها عن طريق التفكير الفردي. ولهذا كانوا يجتمعون في السر ويبحثون في حرية تامة شاملة، وتفكير واسع

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

الأفق، وتآدب جم، جميع مشاكل الحياة الأساسية. وأصدرت الجماعة في آخر الأمر إحدى وخمسين رسالة جمعت شتات أبحاثها كلها، وضمنتها خلاصة العلوم الطبيعية والدينية، والفلسفة. وأولع أحد مسلمي الأندلس أثناء تجواله في بلاد الشرق الأدنى حوالي عام 1000م بهذه الوسائل فجمعها واحتفظ بها. ونجد في هذه الرسائل البالغة 1134 صفحة تفسيراً علمياً للمد والجزر، والزلازل، والخسوف والكسوف، والأمواج الصوتية، وكثير غيرها من الظواهر الطبيعية، كما نجد فيها قبولاً صريحاً كاملاً للتجيم والكيمياء الكاذبة، ولا تخلو من عبث بالسحر وتلاعب بالأعداد. أما ما فيها من العقائد الدينية فهو شديد الصلة بالأفلاطونية الجديدة كما هو شأن الكثرة الغالبة من كتابات المفكرين المسلمين؛ فهم يقولون إنه عن الموجود الأول أي الله يصدر العقل الفعال، وعن هذا العقل يصدر عالم الأجسام والنفوس؛ وإن جميع الأشياء المادية توجد في النفس، وتعمل عن طريقها؛ وكل نفس تظل مضطربة قلقاً حتى تتصل بالعقل الفاعل، أو نفس العالم، أو النفس الكلية، ويتطلب هذا الاتصال تطهير النفس تطهيراً كاملاً، والأخلاق هي الفن الذي تصل به النفس إلى هذا التطهير؛ والعلم والفلسفة والدين كلها وسائل لبلوغه. ويجب علينا في سعينا للتطهير أن ننسج على منوال سقراط في الأمور العقلية. وأن نهج نهج المسيح في الإحسان إلى الخلق

عامة، ونهج عليّ في نبله وتواضعه. فإذا ما تحرر العقل عن طريق المعرفة، وجب أن يحس بحريته في أن يؤول عبارات القرآن التي تتناسب مع فهم بدو غير متحضرين يسكنون الصحراء تأويلاً مجازياً (66). ويمكن القول بوجه عام أن هذه الرسائل الإحدى والخمسين أكمل ما وصل إلينا من تعبير عن التفكير الإسلامي في العصر العباسي، وإنها أعظم تناسقاً من جميع الرسائل في هذا التفكير. وقد رأى علماء بغداد أن هذه الرسائل من قبيل الإلحاد فحرقوها في عام 1150؛ ولكنها رغم هذا ظلت تتداولها الأيدي، وكان لها أثر شامل عميق في الفلسفة

صفحة رقم : 4638

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

الإسلامية واليهودية- نشأه في كتابات الغزالي وابن رشد، وابن جبرول، وهليني(67)؛ وتأثر بها كذلك المعري الشاعر الفيلسوف، ولعلها كان لها أثر في ذلك الرجل الذي بز في حياته القصيرة ما في رسائل هذه الجماعة المتعاونة المؤتلفة من نزعة عقلية، وكان أكثر من أصحابها سعة في الأفق وعمقاً في التفكير ونعني به ابن سينا. ذلك أن ابن سينا لم يكفه أن يكون حجة في العلوم الطبيعية، ومرجعاً ذائع الصيت في الطب؛ وما من شك في أنه قد أدرك أن العالم لا يكمل علمه، إلا إذا أضاف إليه الفلسفة. ويحدثنا أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو أربعين مرة من غير أن يفهمه، وأنه حين استطاع آخر الأمر أن يدرك معناه بعد أن قرأ تعليق الفارابي عليه، سر لهذا سروراً عظيماً وحمد الله على هذا وخرج إلى الشارع ووزع الصدقات(68). وبقي ابن سينا مستمسكاً بفلسفة أرسطو إلى آخر أيامه. وقد سماه في كتاب القانون بالفيلسوف وهو اللفظ الذي أصبح في اللغة اللاتينية مرادفاً للفظ أرسطو نفسه. وقد فصل ابن سينا فلسفته في كتاب الشفاء ثم أوجزها في كتاب النجاة. وكان الرئيس ابن سينا ذا عقل منطقي، يصر على التعاريف والتحديدات الدقيقة. وقد أجاب عن السؤال الذي شغل علماء العصور الوسطى طويلاً وهو: هل الكليات (كالإنسان، والفضيلة، والاحمرار) توجد منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة فيقول: (1) إنها توجد "قبل الأشياء" في عقل الله وعلى نسقها توجد الأشياء، (2) وفي الأشياء بالصورة التي تتمثل فيها (3) وبعد الأشياء بأن تكون معاني مجردة في العقل البشري. ولكن الكليات لا توجد في العالم الطبيعي منفصلة عن الأشياء الجزئية المفردة. وبعد مائة عام من الجدل والخصام أجاب أبلار Abelard وأكوناس عن هذا السؤال هذا الجواب نفسه.

صفحة رقم : 4639

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

والحق أن ميثافيزيقية ابن سينا تكاد تكون خلاصة ما وصل إليه المفكرون اللاتين بعد مائتي عام من أيامه من توفيق بين المذاهب الفلسفية المختلفة في الفلسفة المدرسية. وهو يبدأ بشرح مفصل بذل فيه جهداً شاقاً لمذهب أرسطو والفارابي في المادة والصورة، والعلل الأربع، والممكن والواجب، والكثرة، والواحد، ويدهشه كيف تستطيع الكثرة

الممكنة المتغيرة-كثرة الأشياء الفانية-أن تصدر عن الواحد الواجب الوجود الذي لا يتغير. وهو يفعل ما يفعله أفلاطون فيفكر في حل هذه المشكلة بافتراض وجود وسيط بينهما هو العقل الفاعل منتشر في العالم السماوي، والمادي، والبشري، وهو النفس. ثم إنه وجد شيئاً من الصعوبة في التوفيق بين الانتقال من عدم الخلق إلى الخلق وبين صفة عدم التغير الملازمة لله، فينزع إلى الاعتقاد مع أرسطو بقدوم العالم المادي، ولكنه يدرك أن هذا سيؤلب عليه جماعة المتكلمين فيعرض عليهم حلاً وسطاً كثيراً ما لجأ إليه الفلاسفة المدرسيون وهو: أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقاً ذاتياً لا زمنياً، أي في المرتبة والجوهر والعلة؛ فوجود العالم يعتمد في كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له، وهي الله؛ ويقول ابن سينا إن كل الموجودات "ممكنة" حتى الأفلاك نفسها أي أنها ليست واجبة الوجود أو محتومة. وهذه الممكنات لا بد لوجودها من علة تتقدمها وتخرجها إلى الوجود، ولهذا لا يمكن تفسير وجودها إلا بإرجاعها بعد سلسلة من العلل إلى موجود واجب الوجود، أي واحد قائم بذاته هو العلة الأولى لسائر الموجودات. والله وحده هو الموجود بذاته، وإن وجوده اهو عين ماهيته فهو واجب الوجود. ولولاه لما كان شيء مما يمكن أن يكون. ولما كان العالم كله ممكناً أي أن وجوده ليس بذاته، فإن الله لا يمكن أن يكون مادة بل إنه بريء من الجسم، وهو العقل، واحد من كل وجه لا تركيب فيه. ولما كان في المخلوقات كلها عقل فلا بد أن يكون في خالقها عقل أيضاً. وهذا العقل الأول يرى كل شيء-الماضي والحاضر والمستقبل-لا في وقت ولا بالتتابع،

صفحة رقم : 4640

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

بل يراه كله مرة واحدة. وحدث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمي. ولكن الأفعال والحوادث لا تصدر عن الله مباشرة، بل إن الأشياء تتطور بفعل غائي داخلي-أي أن لها أغراضاً ومصائر في ذاتها. ولهذا فإن الله لا يصدر عنه الشر، بل إن الشر هو الثمن الذي نؤديه نظير ما لنا من حرية الإرادة، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل(69).

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخل المباشر. والنفس لهذا السبب عينه روحانية، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك، وأفكارنا منفصلة انفصلاً واضحاً عن أعضائنا. وهي مبدأ الحركة الذاتية والنماء في الجسم؛ وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس. والكون كله مظهر لمبدأ الحياة العام(70). والجسم وحده لا يستطيع أن يكون فاعلاً، بل إن سبب كل حركة من حركاته هو نفسه التي تحل فيه، ولكل نفس ولكل عقل قدر من الحرية والقدرة على الخلق والإبداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه. وتعود النفس الخالصة بعد الموت إلى الاتصال بالفعل الكلي، وفي هذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين(71).

وقد بذل ابن سينا كل ما يستطيع أن يبذله من الجهود للتوفيق بين الآراء الفلسفية وعقائد جمهرة المسلمين. فلم يكن مثل لكريشبيوس يرغب في القضاء على الدين من أجل الفلسفة، ولم يكن كالغزالي في القرن الذي بعده يريد أن يقضي على الفلسفة من أجل الدين، بل هو يعالج كل مسألة مستنداً إلى العقل وحده، غير متقيد مطلقاً بالدين؛ ويحلل الوحي في ضوء قوانين الطبيعة(72)، ولكنه يؤكد حاجة الناس إلى الأنبياء ليبيّنوا لهم قواعد الأخلاق في صور من الاستعارات والمجازات تفهمها عقولهم وتتأثر بها. وبهذا المعنى يكون النبي رسول الله لأنه يضع الأسس التي يقوم عليها النظام الأخلاقي والاجتماعي(73). ومن أجل هذا كان النبي ينادي ببعث الأجسام، وكان في بعض الأحيان يصور الجنة تصويراً مادياً؛ والفيلسوف، وإن كان يشك في خلود الجسم، يدرك أنه لو أن النبي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

قد اقتصر على تصوير الجنة تصويراً روحياً محضاً لما استمع الناس إليه، ولما تألفت منهم أمة واحدة قوية منظمة. وأرقى البشر وأرفعهم درجة هم الذين يستطيعون أن يعبدوا الله عبادة تقوم على الحب الحر، وهو الذي لا ينبعث من الرغبة أو الرهبة، ولكن هؤلاء لا يكشفون عن هذه المرتبة السامية لعامة أتباعهم بل يكشفونها لمن كملت عقولهم وسمت نفوسهم(74).

وكتابا الشفاء والقانون لابن سينا هما أرقى ما وصل إليه التفكير الفلسفي في العصور الوسطى، وهما من أعظم البحوث في تاريخ العقل الإنساني. وهو يسترشد في كثير من بحوثه في الكتابين بأرسطو والفارابي، كما استرشد أرسطو في كثير من بحوثه بأفلاطون. غير أن هذا لا ينقص من قدره، ذلك أن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم المبدعون تمام الإبداع الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم. وفي بعض أقوال ابن سينا ما يبدو لعقولنا المعرضة إلى الخطأ أنه سخف وهراء، ولكن هذا الحكم بعينه ينطبق أيضاً على أقوال أفلاطون وأرسطو، والحق أنه ليس ثمة سخيف لا نجده في صحف الفلاسفة. ولسنا نجد عند ابن سينا ما نجده عند البيروني من أمانة التشكك، وروح النقد، واتساع الأفق، وحرية العقل، وهو أكثر منه أخطاء، ذلك أن البحوث التركيبية لا بد أن تؤدي هذا الثمن ما دامت الحياة على ما هي من قصر الأمد. ولقد بز الرئيس ابن سينا جميع أقرانه بوضوح أسلوبه، وحيويته، وبقدرته على جعل التفكير المجرد مشرقاً بعيداً عن السامة والملل بما يبثه فيه من القصص الإيضاحية وأبيات الشعر التي لا نرى عليه مأخذاً في إيرادها، وبتساع مجاله الفلسفي والعلمي اتساعاً منقطع النظير. ولقد كان ابن سينا عظيم الأثر فيمن جاء بعده من الفلاسفة والعلماء، وقد تعدى هذا الأثر بلاد المشرق إلى الأندلس حيث شكل فلسفة ابن رشد وابن ميمون، وإلى العالم المسيحي اللاتيني وفلاسفته

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

المدرسين؛ وإنا لندهش من كثرة ما نجده من آراء ابن سينا في فلسفة ألبرتس مجنس، وتومس أكوناس، ويسميه روجر بيكن: "أكبر عميد للفلسفة بعد سطو"(75). ولم يكن أكوناس وهو يتحدث عنه بنفس الاحترام الذي يتحدث به عن أفلاطون مجاملاً قط كما لوف عادته حين يتحدث عن عظماء الرجال . وكاد أجل الفلسفة العربية في الشرق أن ينقضي بموت ابن سينا، ذلك أن نزعة السلاجقة السنية القوية، وارتياح رجال الدين من الآراء الفلسفية الجريئة، وانتصار نزعة الغزالي الصوفية، لم تلبث كلها أن قضت على كل تفكير. وإن مما يؤسف له أ، يكون علمنا بتلك القرون الثلاثة (750-1050) التي ازدهر فيها التفكير الإسلامي ناقصاً كل النقص. ويرجع سبب ذلك إلى أن آلافاً من المخطوطات العربية في العلوم، والأدب، والفلسفة لا تزال مخبوءة في مكتبات العالم الإسلامي. ففي اسطنبول وحدها ثلاثون من مكتبات المساجد، لم ير الضوء من مخطوطاتها إلا النزر اليسير، وفي القاهرة، ودمشق، والموصل، وبغداد ودلهي، مجموعات ضخمة، لم يعن أحد حتى بوضع فهراس لها، وفي الأسكوريال بالقرب من مدريد مكتبة ضخمة لم يفرغ بعد من إحصاء ما فيها من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفلسفة

مخطوطات إسلامية في العلوم، والأدب والشريعة، والفلسفة (77). وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءاً صغيراً مما بقي من تراث المسلمين، وليس هذا الجزء الباقي إلا قسماً ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم؛ وليس ما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم. وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسي فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشري.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإلحاد

الفصل الخامس

التصوف والإلحاد

يلتقي الدين والفلسفة في أعلى درجاتهما في معنى وحدة الكون وفي تأمل هذه الوحدة. والنفس حين لا تسلك طريق البحث على منهاج العقل والمنطق، وحين تعجز عن الانتقال من الكثرة إلى الوحدة، ومن الحادث الفرد إلى القانون العام، قد يكون في وسعها أن تصل إلى هذه الرؤيا عن طريق اندماج النفس الفردية وتلاشيها في النفس الكلية. وحيث عجز العلم وعجزت الفلسفة، وحيث يرتد عقل الإنسان القاصر المحدود أمام اللانهاية خاسئاً وهو حسير، فإن الإيمان قد يسمو بالإنسان إلى ما بين عرش الله إذا أخذ نفسه بنظام صارم من الزهد، والتقشف، والتقاني في العبادة، والتجرد من كل رغبة أنانية، وإفناء الجزء في الكل إفناءً كاملاً.

ويرجع التصوف الإسلامي إلى أصول كثيرة: منها نزعة الزهد عند الفقراء الهندوس، وغنوطسية ومصر والشام، وبحوث الأفلاطونية الجديدة عند اليونان المتأخرين، وتأثير الرهبان المسيحيين الزاهدين المنتشرين في جميع بلاد

المسلمين وقد وجدت في العالم الإسلامي، كما وجدت في العلم المسيحي، أقلية تقيّة تعارض في تكيف الدين حسب وسائل العالم الاقتصادي ومصالحه؛ فكانوا ينددون بترف الخلفاء، والوزراء، والتجار، ويدعون المسلمين أن يعودوا إلى بساطة أبي بكر وعمر بن الخطاب. وكانوا يرفضون فكرة وجود وسيط أياً كان بينهم وبين الله؛ وحتى فروض الصلاة الصارمة نفسها كانت تبدو لهم عقبة تحول بينهم وبين تلك المرتبة التي تسمو فيها الروح بعد أن تتطهر من جميع مشاغلها الدنيوية حتى تشاهد ذات الله العلية. فإذا سمت فوق هذه المرتبة استطاعت أن تتحد

صفحة رقم : 4645

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإحاد

مع ذات الله نفسها. وازدهرت حركة التصوف في بلاد الفرس بنوع خاص ولعل سبب ازدهارها فيها قريباً من بلاد الهند، كما ازدهرت في جنديسابور بتأثير الديانة المسيحية وتقاليد الأفلاطونية الجديدة التي وضعها فلاسفة اليونان بعد أن فروا من أثينا إلى فارس في عام 529. وكلمة صوفي التي تطلق على معظم الزهاد المسلمين مشتقة من ثياب الصوف البسيطة التي كانوا يرتدونها. وكانت طوائف الصوفية تضم كثيرين من المؤمنين بمبادئها المتحمسين لها، ومن كبار الشعراء، والقائلين بوحدة الوجود، والزهاد، والمشعوذين، والكثيري الزوجات. وكانت مبادئهم تختلف باختلاف الأوقات والبيئات؛ ويقول ابن رشد إن الصوفيين يعتقدون أن معرفة الله مستقرة في قلوبنا، بعد أن نتخلى عن الشهوات الجسمية والانقطاع إلى الله (78). ولكن كثيرين من الصوفيين حاولوا أن يصلوا إلى الله عن طريق الأشياء الخارجية أيضاً، فقالوا أن كل ما نراه في العالم من كمال وجمال سببه حلول الله فيه. ويقول أحد الصوفية إنه لا يسمع صوت الحيوان، أو حفيف أوراق الشجر، أو خرير الماء، أو تغريد الطير، أو هبوب الريح، إلا أحس أنها كلها شواهد على وحدانيته وأنه سبحانه لا شبيه له (79).

والحق أن الصوفي يعتقد أن هذه الأشياء المتفرقة إنما توجد بما فيها من القوة الإلهية، وأنها إنما وجدت لما هو كامن فيها من روح الله. وعلى هذا فالله هو كل شيء، وهم لهذا لا يكتفون بالقول بأنه لا إله إلا الله، بل يضيفون إلى هذا أنه لا موجود بحق سواه (80). وعلى هذا فكل نفس هي الله؛ والصوفي الكامل يجهر في غير موارد بأنه "هو نفس الذات الإلهية". ويقول أبو زيد (حوالي عام 900): "إني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني". ويقول الحسين

صفحة رقم : 4646

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإحاد

ابن منصور الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

إني مغرق قوم نوح ومهلك عاد وثمود... أنا الحق

وفيض على الحلاج لمغالاته في عقيدته الصوفية، وضرب مائة سوط وألقي به في النار حتى مات (922). ويدعي أتباعه أنهم شاهدوه وتحدثوا إليه بعد أن خمدت أنفاسه على هذا النحو إلى حين، واتخذة كثيرون من الصوفية وليهم وحاميه.

ويعتقد الصوفي كما يعتقد الهندوسي أن نظاماً صارماً من التطهير لا بد منه لكي ينكشف عنه الغطاء ويرقى إلى عالم الفيض والإلهام. والتطهير يكون بضروب من التقاني في الطاعات، والتأمل والنظر والتدبر، والصلاة، وإطاعة المرید لأستاذه الصوفي أو معلمه، والتجرد الكامل من جميع الشهوات البدنية، بما فيها التجرد من شهوة النجاة، والاتحاد الصوفي مع الله. والصوفي الكامل يحب الله لذاته لا رغبة في ثواب ولا خوفاً من عقاب. وفي ذلك يقول أبو القاسم إن المعطي خير من العطية (83). والصوفي عادة يتخذ هذا النظام وسيلة يصل بها إلى معرفة الأشياء معرفة حقيقية، ومنهم من يتخذ نهجاً يرتفع به إلى درجة من الكرامة تجعل له سلطاناً على الطبيعة، ولكنه يكاد يكون على الدوام سبيلاً إلى الاتحاد مع ذات الله. ومن فنيت نفسه فناءً تاماً في هذا الاتحاد يسمى عندهم الإنسان الكامل (84). ويعتقد الصوفية أن من وصل إلى هذه المرتبة أصبح فوق كل القوانين، وغير ملزم حتى بأداء فريضة الحج. وفي ذلك يقول أحد المتصوفة

صفحة رقم : 4647

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإلحاد

إن كل العيون تتجه نحو الكعبة أما عيوننا فنتجه نحو وجه الحبيب (85). وظل الصوفية يعيشون في الدنيا كسائر الناس حتى منتصف القرن الحادي عشر، وكانوا أحياناً يعيشون مع أسرهم وأبنائهم. بل إنهم كانوا لا يرون للعزوبة قيمة كبرى من الناحية الأخلاقية. وفي ذلك يقول أبو سعيد إن الولي الحقيقي يسير بين الناس، ويأكل وينام معهم، ويشترى ويبيع في الأسواق، ويتزوج، ويشترك مع الناس في مجالسهم، ولا ينسى الله لحظة واحدة (86).

ولم يكن هؤلاء الصوفية يمتازون عن غيرهم بشيء سوى بساطة حياتهم، وتقواهم وخشوعهم، وهم يشبهون من هذه الناحية طائفة الكويكرين المسيحيين. وكانوا من حين إلى حين يجتمعون حول شيخ من الأتقياء الصالحين أو يجتمعون جماعات للصلاة والدعوة المتبادلة إلى التقى والصلاح. وقد بدأت منذ القرن العاشر مجالس الذكر التي أصبح لها شأن عظيم عند الصوفية المتأخرين. ومنهم عدد قليل اعتزلوا العالم وعذبوا أنفسهم، وإن كان الزهد في ذلك الوقت من الأمور النادرة، وكان يلقي كثيراً من المقاومة. وكثر الأولياء من بين الصوفية بعد أن لم يكن لهم وجود في بداية الإسلام. ومن أوائل هؤلاء رابعة العدوية من أهل البصرة (717-801). وكانت في شبابهما جارية اشترت بالمال ولكن سيدها أعتقها لأنه شاهد هالة من النور فوق رأسها وهي قائمة للصلاة. وأبت رابعة أن تتزوج وعاشت عيشة الزهد، وإنكار الذات، وفعل الخير. وسئلت في يوم من الأيام "هل تكرهين الشيطان؟"، فأجابت: "إن حبي لله قد منعني من الاشتغال بكراهية الشيطان". ومما يروى عنها تلك المناجاة الصوفية الذائعة الصيت: "إلهي! إن كنتُ عبدتكُ خوف النار فاحرقني بالنار، أو طمعا في الجنة فحرّمها عليّ، وإن كنتُ لا أعبدكُ إلا من أجلكُ فلا تحرمني

صفحة رقم : 4648

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإلحاد

من شاهدة وجهك؛ إلهي! كل ما قدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة امنحه لأصدقائك، لأنني لا أسعى إلا إليك وحدك".
ولنختر من بين الصوفية وهم كثيرون واحداً من الأولياء الصالحين هو الشاعر أبو سعيد بن أبي الخير (967-1049). ولد هذا الرجل في ميهنة من أعمال خراسان واتصل بابن سينا؛ ويروى عنه أنه قال في هذا الفيلسوف إن ما يراه ابن سينا يعرفه هو (88). وقد أولع في صباه بالأدب البيدي، ويقول عن نفسه إنه حفظ عن ظهر قلب ثلاثين ألف بيت لشعراء الجاهلية. ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره سمع في يوم من الأيام درساً لأبي علي يدور حول قوله تعالى "قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون". ويقول أبو سعيد إنه ما كاد يسمع هذه الآية حتى فُتح في قلبه باب الإيمان وكأنما انتزع من نفسه فجمع كتبه كلها وأحرقها ثم أوى إلى ركن في بيته، وجلس فيه سبع سنين يذكر فيها اسم الله. ولقد كان تكرر لفظ الجلالة عند الصوفية المسلمين سبباً محبباً إلى "الفناء" ويقصدون به انتقال الصوفي عن نفسه في حال وجده. وزاد أبو سعيد على هذا عدة أساليب من الزهد والتقصّف، فلم يلبس إلا قميصاً واحداً، ولم يتكلم إلا عند الضرورة القصوى، ولم يذق الطعام إلا وقت الغروب. ولم يكن طعامه إلا كسرة من الخبز، ولم يرقد على فراش لينام، وحفر في جدار بيته حفرة، لا تزيد حين يقف فيها على طولهِ وعرضهِ، وكثيراً ما كان يحبس نفسه فيها. ويسد أذنيه لكيلا تصل إليهما أصوات من الخارج. وكان في بعض الليالي يربط نفسه بحبل ويتدلى برأسه في بئر، ويتلو القرآن كله قبل أن يخرج إلى سطح الأرض- هذا إذا صدقنا قول أبيه عنه. وقد عكف على خدمة غيره من الصوفية، فكان يتسول لهم، وينظف

صفحة رقم : 4649

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإحاد

لهم خلواتهم وفضلاتهم. ويقول عن نفسه إن امرأة صعدت إلى سقف المسجد وهو فيه وألقت عليه الأقدار، ولكنه مع ذلك ظل يسمع صوتاً يناديه "أليس الله بكافٍ عبده؟". ولما بلغ الأربعين من عمره وصل إلى مرتبة الإشراف الكامل وبدأ يخطب الناس، والتف حوله كثيرون من الأتقياء المخلصين، ويؤكد لنا هو أن بعض مستمعيه كانوا يلبطون وجوههم بروث حمامه لتحل عليهم بركته (89). وقد ترك أثره في التصوف بأن أنشأ خانقاه للدررايش ووضع لها طائفة من قواعد جعلتها نموذجاً لأبناء الطائفة في القرن الذي بعده.

وكان أبو سعيد يعلم الناس، كما علمهم القديس أوغسطين، أن رحمة الله، لا أعمال العبد الصالحة، هي سبيل النجاة؛ ولكنه كان يعني بالنجاة، التحرر الروحي، ولم يفهمها على أنها دخول الجنة، ويقول إن الله يفتح للإنسان باباً بعد باب التوبة ثم يأتي بعدها باب اليقين فإذا بلغه تقبل السباب والتحقير وعلم علم اليقين مصدره... ثم يفتح له الله بعدئذ باب الحب، ولكنه لا ينفك يقول في نفسه "أحب"... ثم يفتح له باب التوحيد... وعنده يدرك أن الله كل شيء منه وإليه... ويعرف أنه غير محق في قوله "أنا" أو "لي"... لأن الرغبات تتساقط عنه فيتخلى عنها ويهدأ باله... لأن الإنسان لا يفر من نفسه إلا إذا قتلها. إن نفسك تبعك عن الله، وتقول إن فلاناً وفلاناً يتوعداني في الشر... وهذا قد أحسن إليّ كل هذا شرك بالله، فليس شيء يعتمد على المخلوقات، بل يعتمد كل شيء على الخالق. إن عليك أن تعرف هذا، فإذا قلته فاثبت عليه... والثبات معناه أنك إذا قلت "واحداً" فلا تقل "اثنين" أبداً... قل الله واثبت على هذا القول (90).

وتظهر هذه العقيدة الهندية-الإمرسونية في بعض الأقوال المنسوبة

صفحة رقم : 4650

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإحاد

إلى أبي سعيد وإن كانت نسبتها إليه مشكوكاً فيها! وسألته: "المن يكون جمالك؟" فقال: "لي" لأنه لا موجود سواي؛ أنا الحب، والمحبوب، والحب كلها في واحد، أنا الجمال، والمرأة، والعينان اللتان تريان (91).

وإذا لم يكن عند المسلمين، كما كان عند المسيحيين، كهانة تثبت لهؤلاء الأبطال الصالحين قداساتهم، فقد خلع عليهم الشعب نفسه هذه القداسة، ولم يحلّ القرن الثاني عشر الميلادي حتى غلبت عواطف الشعب الطبيعية، ما نهى عنه الدين من تقديس الأولياء الصالحين واعتبار هذا التقديس ضرباً من الوثنية. وكان من أوائل هؤلاء الأولياء الصالحين إبراهيم ابن أدهم (القرن الثامن؟)، وهو الذي يسميه لي هنت Leigh Hunt في قصيدة له مشهورة أبو ابن أدهم Abou Ben Adhem. ويغزو خيال العامة إلى هؤلاء الأولياء قوى خارقة فيقولون إنهم قد كُشف عن أعينهم الغطاء فأصبحوا يرون ما لا يراه عامة الناس، ويقرؤون الأفكار، ويتبادلون الخواطر والمشاعر مع الناس، بل إنهم يبالبغون في مقدرتهم فيقولون إن في وسعهم أن يبتلعوا النار والزجاج دون أن يصيبهم في ذلك أذى، وأن يخترقوا النيران من غير أن يحترقوا بها، وأن يمشوا على الماء، ويطيرون في الهواء، ويجتازوا المسافات الشاسعة في غمضة عين.

ويروي أبو سعيد حالات من قراءة الأفكار لا تقل غرابة عن أغرب ما يروى من نوعها في هذه الأيام (92). وهكذا يحدث على توالي الأيام أن الدين الذي يظن بعض الفلاسفة أنه من صنع القساوسة والكهان، يتشكل ثم يتشكل بتأثير

حاجات الناس وعواطفهم وخيالهم، حتى يصبح التوحيد الذي يجئ به الأنبياء ثم يكون هو بعينه الشرك الذي يعتقدُه عامة الشعب.
وقبل المسلمون من أهل السنة الصوفية في حظيرة الدين الإسلامي، وأفسحوا

صفحة رقم : 4651

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإلحاد

لهم مجالاً كبيراً في عقائدهم وأقوالهم. ولكن هذه الخطة الحكيمة لم تمتد إلى الطوائف المارقة التي تخفي ستار العقائد الدينية آراءً سياسية ثورية، أو تدعوا إلى الفوضى الأخلاقية والقانونية. وبين هذه الطوائف الثورية التي مزجت في عقائدها الدين بالسياسة طائفة "الإسماعيلية". ويذكر القارئ ما قلناه قبل من أن الشيعة يقولون إن علي رأس كل جيل من أبناء علي إلى الجيل الثاني عشر إماماً أو زعيماً، وإن هذا الإمام يختار من خلفه في هذه الزعامة. وعلى هذا الأساس عين الإمام السادس جعفر الصادق ابنه إسماعيل خليفة له من بعده. ويقال إن إسماعيل هذا أدمن الخمر، فخلعه جعفر عن الإمامة وأختار بدله موسى الإمام السابع (حوالي عام 760). ورأى بعض الشيعة أن بيعة إسماعيل لا يجوز نقضها وقالوا إنه هو أو ابنه محمد هو الإمام السابع وآخر الأئمة. وظلت طائفة "الإسماعيلية" هذه نحو مائة سنة قليلة الخطر لا يؤبه بها، حتى تزعمها عبد الله بن ميمون القداح وأرسل المبشرين يدعون إلى عقيدة الطائفة في بلاد الإسلام. وكان يطلب إلى المبتدأ قبل الدخول إلى الطائفة أن يقسم بألا يفشي شيئاً من أسرارها، وأن يطع الزعيم الأكبر للطائفة في كل ما يأمره به. وكانت تعاليمهم قسمين أحدهما باطني وآخر ظاهري. وكان يقال لمن يدخل في مذهبه إنه بعد أن يمر بنسعة مراحل ترفع عنه جميع الحجب، وينكشف له التعليم أو العقيدة الخفية (الله هو كل شيء) فيصبح فوق كل عقيدة وكل قانون. وفي المرتبة الثامنة يقال له إن الكائن الأعلى لا يمكن أن يعرف عنه شيء، وإن أحداً لا يستطيع أن يعيده (93)؛ وقد انظم إلى الطائفة الإسماعيلية كثيرون من فلول الحركات الشيعية، دفعهم إلى هذا ما تقول به من أن مهدياً سيظهر في وقت من الأوقات، ويبسط على الأرض عهداً من المساواة، العدالة، والحب الأخوي. وقد أوضحت هذه الطائفة الأخوية العجيبة قوة ذات شأن عظيم في الإسلام سيطرت في وقت من الأوقات على شمالي إفريقيا ومصر، وأسست الخلافة الفاطمية، وقامت في أواخر

صفحة رقم : 4652

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> التصوف والإلحاد

القرن التاسع بحركة كادت تقضي على الخلافة العباسية.

ولما مات عبد الله القداح في عام 874 تولى زعامة الإسماعيلية فلاح عراقي اشتهر باسم حمدان قرمط، وبعث فيها من النشاط ما جعل الناس في أسية يسمون أتباعها في وقت من الأوقات بالقرامطة نسبة إليه. وكان يرمي إلى القضاء على قوة العرب، وإعادة الدولة الفارسية؛ وضم إليه خفية آلافاً من المؤيدين، والأعوان، وفرض عليهم أن يخرجوا من خمس أملاكهم ليصبح ملكاً عاماً للجماعة. ودخل للمرة الثانية عنصر من عناصر الثورة الاجتماعية في تلك الحركة التي كانت في ظاهر أمرها نوعاً من الصوفية الدينية. فكان القرامطة يقولون بشيوعية الملك والنساء (94)، وقد نظموا العمال في طوائف للحرف، ونادوا بالمساواة بين كافة الناس، وأخذوا يفسرون القرآن تفسيراً مجازياً لا يتقيدون فيه بأقوال أهل السنة. وكانوا يتحللون من الشعائر الدينية ومن الصيام، ويسخرون من البلهاء الذين يعبدون الأضرحة والحجارة (95). وبلغ من أمرهم أن أقاموا في عام 899 دولة مستقلة على الشاطئ الغربي للخليج الفارسي، وهزموا جيش الخليفة في عام 900، وأفنوه عن آخره، ولم ينج من القتل جندي واحد. وفي عام 902 اجتاحت بلاد الشام ووصلوا إلى أبواب دمشق، وفي عام 924 نهبوا البصرة ثم الكوفة؛ وفي عام 930 نهبوا مكة نفسها، وقتلوا ثلاثين ألفاً من المسلمين، وعادوا بكثير من الغنائم، منها كسوة الكعبة، والحجر الأسود. غير أن هذا الغلو وهذه الانتصارات استنفذت قوة تلك الحركة؛ واتحد الناس لمقاومة دعوتها التي كانت تهدد الملك والنظام العام؛ ولكن مبادئها وأساليبها العنيفة انتقلت في القرن التالي إلى إسماعيلية الموت، وهم المعروفون بالحشاشيين.

صفحة رقم : 4653

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

الفصل السادس

الأدب

لقد كان في الحياة والدين في الإسلام مواقف أشبه ما تكون بالمرسحيات، أما الأدب الإسلامي فقد خلا من هذا الصنف من صنوف الكتابة، وهو صنف يبدو أنه غريب على العقلية السامية، كذلك خلا ذلك الأدب كما خلا غيره من آداب العصور الوسطى من الروايات القصصية؛ فقد كان معظم الكتابات مما يستمع إليه الناس لا مما يقرأون وهم صامتون، ولم يكن في وسع من يهتمون بنتاج الخيال أن يرقوا إلى الدرجة التي يستطيعون أن يركزوا فيها عقولهم ذلك التركيز الذي لا بد منه لكتابة القصة المعقدة المتصلة بالحلقات. أما القصص القصيرة فكانت قديمة قدم الإسلام نفسه أو قدم آدم أبي البشر، وكان أكثر المسلمين سذاجة ينصتون إليها في حماسة الأطفال وتشوقهم، أما العلماء فلم يكونوا يحسبونها أدباً، وكانت أشهر هذه القصص القصيرة قصص بيدبا، وقصص ألف ليلة وليلة. وقد نقلت القصص الأولى من الهند إلى فارس في القرن السادس، وترجمت إلى اللغة الفهلوية، ومنها ترجمت إلى اللغة العربية في القرن الثامن. م فقد أصلها السنسكريتي، وبقيت الترجمة العربية، ومنها نقلت إلى ما يقرب من أربعين لغة أخرى. يحدثنا المسعودي (المتوفى عام 597) في مروج الذهب عن كتاب فارسي يدعى هزاز أفسانة أو ألف قصة وعن ترجمته العربية ألف ليلة وليلة؛ وهذه على ما نعلم أول مرة ذكر فيها كتاب ألف ليلة وليلة. وخطة الكتاب كما يصفها المسعودي هي الخطة التي نجها في كتاب ألف ليلة وليلة العربي. وكان هذا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

الإطار المحتوي على سلسلة من القصص معروفاً من قديم الزمن في بلاد الهند، وكان عدد كبير من هذه القصص متداولاً في العالم الشرقي، ولربما كانت كل مجموعة منها تختلف في محتوياتها عن غيرها من المجموعات، ولسنا واثقين أن أية قصة في المجموعة المعروفة لنا الآن كانت من القصص التي تحتويها المجموعة التي يحدثنا عنها المسعودي. وحدث بعد سنين قلائل من عام 1700 أن أرسل مخطوط غير كامل، لا يمكن تتبع تاريخه إلى ما قبل عام 1536، من بلاد الشام إلى المستشرق الفرنسي أنطوان جالان Antoine Galland، وافتتن هذا المستشرق بخيال القصص الغريب، وبما فيها من وصف لحياة المسلمين الداخلية، ولعله افتتن أيضاً بما فيها من بداءة، فأصدر في باريس عام 1704 أولى تراجمها إلى اللغات الأوربية Les mille et une nuits. ونجح الكتاب نجاحاً فوق ما كان يتوقع له، وترجم إلى جميع اللغات الأوربية، وشرع أطفال جميع الأمم يتحدثون عن السندباد البحري، وعن مصباح علاء الدين، وعن علي بابا والصوص الأربعين. وخرافات بيدبا، وقصص ألف ليلة أكثر ما يقرأه الناس من الكتب في العالم كله إذا استثنينا الكتاب المقدس (وهو أيضاً كتاب شرقي).

والنثر الأدبي في الكتب الإسلامية صورة من الشعر. ذلك أن المزاج العربي يزرع إلى الشعور القوي، والآداب الفارسية تميل إلى الكلام المزخرف، واللغة العربية التي كانت في الوقت الذي نتحدث عنه يتكلم بها أهل البلدين تدعو إلى جعل النثر مقفى لتشابهه أو آخر الألفاظ طوعاً لقواعد الصرف؛ ولهذا فإن النثر الأدبي كثيراً ما يكون مسجوعاً؛ وكان الوعاظ، والخطباء، والقصاصون، يلجأون إلى النثر المسجع، وبهذا كتب بديع الزمان الهمذاني (المتوفى عام 1008) مقاماته وهي قصص كان يرويها لجماعات مختلفة عن وغد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

أفاق أوتي من الذكاء الفكاهاة أكثر مما أوتي من الأخلاق الطيبة. وكانت عقول أهل الشرق الأدنى في ذلك الوقت تتأثر بما يصل إليها عن طريق الأذن، شأنهم في هذا شأن جميع الناس قبل اختراع الطباعة، وكان الأدب عند معظم المسلمين لا يعدو أن يكون قصيدة تنشد أو قصة تروي؛ وكانت القصائد تُكتب لكي تُقرأ بصوت عالٍ أو تُغنى، وكان كل شخص في بلاد الإسلام من الخليفة إلى الفلاح يطرب لسماعها. ولما كان هناك شخص لا يقرض الشعر كما كانت الحال عند طبقة السموراي في بلاد اليابان. وكان من ضروب التسلية العامة لدى الطبقات المتعلمة أن يكمل شخص بيتاً من الشعر بدأه غيره، أو يتم مقطوعة بدأها زميله، أو ينافس مناظراً له في ارتجال مقطوعة غنائية أو نكتة شعرية. وكان الشعراء ينافس بعضهم بعضاً في ابتداء ضروب معقدة من الأوزان والقوافي، وكان كثيرون منهم

يقفون أو اسط الأبيات الشعرية وأواخرها، وكثرت ضروب الأوزان والقوافي في الشعر العربي وكان لها بالغ الأثر في نشأة القافية في الشعر الأوربي.

ولم تضارع حضارة من الحضارات ولم يضارع عصر من العصور-لا نستثنى من هذا التعميم حضارة الصين في أيام لي بو، ودوفو، ولا حضارة فيمار Veimar حين كان فيها "مائة مواطن وعشرة آلاف شاعر"-الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية في عدد شعرائها وتراثهم. وقد جمع أبو الفرج الأصفهاني (897-967) في أواخر ذلك العصر كثيراً من أشعارهم في كتاب الأغاني. وحسبنا دليلاً على غنى الشعر العربي وتنوعه أن نعرف أن هذا الكتاب يتكون من عشرين مجلداً. وكان الشعراء ينشرون الدعايات المختلفة، والناس يخشون هجومهم اللاذع، والأغنياء يبتاعون مديحهم بيتاً بيتاً، والخلفاء يجزون الشعراء بالمناصب العالية وينفحونهم بالهبات السخية إذا قالوا فيهم قصائد من الشعر أو مجدوا أعمالهم أو مدحوا قبائلهم. ويحكى أن هشاماً أراد مرة أن

صفحة رقم : 4656

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

يبتكر قصيدة من القصائد فأرسل في طلب حماد الشاعر الراوية، وكان من حظه أنه يذكر القصيدة بأكملها، فلما أشدها لهشام أجازها بجاريتين وبخمسين ألف دينار(97)، وأكبر ظننا أن أحداً من شعراء هذه الأيام لن يصدق هذه القصة. وبعد أن كان الشعر العربي ينشد لبدو الصحراء، أضحى الآن يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم، وأصبح الكثير منه متكلفاً، أكثر ما يعنى به هو الشكل، شديد التأنق إلى حد التقاهة، كثير المجاملة خالياً من الإخلاص؛ ولهذا نشبت معركة بين أنصار القديم وبين أنصار الحديث، وأخذ النقاد يشكون وهم متألمون قائلين إنه لم يوجد شعراء عظاماً إلا قبل عهد النبوة(98).

والحب والحرب أكثر مواعمة للشعر من الموضوعات الدينية، ولما كان شعر العرب صوفي النزعة (وإن كان هذا الحكم لا يصدق على شعر الفرس)؛ فقد كان الشاعر العربي يفضل أناشيد القتال، والعاطفة، والانفعالات النفسية؛ ولما أن اختتم قرن الفتوح الإسلامية أخذ الشعراء يستمدون وحيهم من النساء أكثر مما يستمدونه من الموضوعات الحربية والدينية، وأخذ شعراء الإسلام يصفون مفاتن المرأة-شعرها العطر، وعينيها الشبيهتين بالدرتين، وشفتيها القرمزيتين، وأطرافها الفضية؛ وظهرت في الصحراوات وفي المدينتين المقدستين القصائد الغنائية؛ وأصبح الأدب في عرف الفلاسفة والشعراء يعني أدب الحب وسلوك المحبين. وانتقل هذا المعنى عن طريق مصر وإفريقية إلى صقلية وأسبانيا، ومنهما إلى إيطاليا وبروفانس Provence في فرنسا، وانطلقت الألسن وجادت القرائح بالشعر الموزون المقفى.

واشتهر الحسن بن هانئ بأس أبي نواس-لغداثره التي كانت تنوس على كتفيه. وكان مولده في بلاد الفرس، ثم رحل إلى بغداد، ونال الحظوة عند الخليفة الرشيد، ولعله اشترك معه في واحدة أو اثنتين من المغامرات التي تعزى إليهما في كتاب ألف ليلة وليلة. وكان أبو نواس مولعاً بالخمير والنساء والغناء.

صفحة رقم : 4657

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وكثيراً ما أغضب الخليفة بإدمانه الخمر جهرة، وبزندقته ودعارته؛ كثيراً ما سجنه ثم أطلقه، وتاب أبو نواس شيئاً فشيئاً واستمسك آخر الأمر بأهداب الفضيلة، وانتهى بأن كان يحمل المسبحة والقرآن معه أينما سار. ولكن أكثر ما كانت تحبه مجامع العاصمة هو أغانيه التي وصف فيها الخمر والفساد:

يا سليمان! غنني ومن الراح فاسقني

فإذا ما دارت الزجاجا جة خذها واعطني

ما ترى الصبح قد بدا في إزار مبيي

عاطني كأس سلوة عن أذان المؤذن

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ رباً غفوراً

ستبصر إن قدمت عليه عفواً وتلقى سيداً ملكاً كبيراً

تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

وكان في بلاط صغار الأمراء والسلاطين أيضاً شعراؤهم فكان في بلاط سيف الدولة شاعر لا تكاد تعرف عنه أوربا شيئاً، ولكن العرب يحسبونه خير شعرائهم على الإطلاق. واسم هذا الشاعر أحمد بن الحسين، ولكنه يشتهر عند

المسلمين باسم المتنبّي-أي مدعي النبوة. وقد ولد هذا الشاعر في الكوفة عام 915، وتلقى العلم في دمشق، ثم ادعى النبوة، فقبض عليه وأطلق بعدئذ سراحه، أقام في بلاط أمير حلب. وكان كأبي نواس مستهتراً بالدين لا يصوم ولا يصلي ولا يقرأ القرآن(101)، ومع أنه لم يكن يرى أن الحياة ترقى إلى المستوى اللائق به، فإنه كان يستمتع بها استمتاعاً يصرفه عن التفكير في الخلود. وقد أشاد بانتصارات سيف الدولة في شعر واسع جمع بين قوة المعنى وجمال اللفظ إلى حد أصبح معه هذا الشعر واسع الانتشار بين قراء العربية متعذر الترجمة إلى اللغة الإنجليزية. ومن هذا الشعر بيته المشهور الذي كان سبباً في هلاكه وهو.

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صفحة رقم : 4658

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وذلك أن جماعة من اللصوص هاجمته، وأراد هو الفرار، فذكره غلامه بهذا البيت وما يحويه من تفاخر؛ وأراد المتنبّي أن يصدق فعله قوله؛ فحارب ومات متخناً بجراحه(965)(102). وبعد ثمان سنين من ذلك العام ولد في معرة النعمان القريبة من حلب أبو العلاء المعري أعجب شعراء العرب على الإطلاق. وفقد أبو العلاء بصره في سن الرابعة على إثر إصابته بالجدري، ولكنه جد في طلب العلم، وحفظ عن ظهر قلب ما أعجبه من المخطوطات التي وجدها في دور الكتب، وطاف بأنحاء العالم الإسلامي ليستمع إلى المشهورين من العلماء، ثم عاد إلى مسقط رأسه. وكان دخله السنوي خلال الخمسة عشر عاماً التي أعقبت عودته لا يزيد على الثلاثين ديناراً، أي ما يعادل اثني عشر ريالاً أمريكياً في الشهر، يشاركه فيها خادمه ومرشده. وأذاعت قصائده شهرته في العالم الإسلامي، ولكنه كاد يهلك من الجوع لأنه أبقى أن يلجأ إلى المديح. وزار بغداد في عام 1008 وأكرم الشعراء والعلماء وفادته، ولعله تأثر في العاصمة بأراء بعض المتشككة، وهي الآثار التي تتخلل بعض قصائده. وعاد منها إلى المعرة في عام 1010 وأصبح فيها من الأغنياء، ولكنه ظل إلى آخر أيامه يحيا حياة الحكماء البسيطة الخالية من جميع مظاهر النعيم. وكان المعري نباتياً إلى أقصى حد، لا يكتفي بالامتناع عن لحم الحيوان والطير بل يمتنع كذلك عن اللبن، والبيض، وعسل النحل؛ فقد كان يرى الاستيلاء على هذه الأطعمة من الحيوان هو النهب بعينه. ولهذا السبب أيضاً أبقى أن يتخذ شيئاً من اللباس من جلد الحيوان، وعاب على النساء لبس الفراء، وأشار بلبس الأحذية الخشبية(103). ومات المعري في الرابعة والثمانين من العمر، ويقول أحد أتباعه المخلصين إن مائة وثمانين شاعراً ساروا في جنازته، وإن أربعة وثمانين من العلماء رثوه على قبره(104). وأعظم ما يشهر به في بلاد الغرب هو قصائده القصيرة البالغ عددها 1592

صفحة رقم : 4659

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

قصيدة والمعروفة باللزوميات. ولم يتحدث أبو العلاء في هذه القصيدة عن النساء والحرب كما كان يتحدث عنها زملاؤه الشعراء، بل عمد في جرأة إلى الحديث عن أهم الموضوعات الأساسية في الحياة: هل نتبع الوحي أو العقل؟- وهل الحياة خليفة بأن يحيها الإنسان؟- هل ثمة حياة بعد الموت؟- هل يوجد إله؟...ويجهر الشاعر من حين إلى حين بإيمانه؛ ولكنه يقول محذراً إن هذا الجهر هو احتياط مشروع من الاستشهاد الذي لا يرغب فيه:

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همي

وهو يعيب في أقواله الأمانة العلمية المطلقة ويقول:

لا تخبرن بكهن دينك معشراً شطراً وإن تفعل فأنت مغرر

والمعري بصريح العبارة متشائم، لا أدري، يؤمن بالعقل دون الوحي:

يرتجي الناس لوم إمام ناطق في الكتيبة الخرساء

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

.....

هل صح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسما

أما العقول فألت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق إثمار .

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وهو يندد بعلماء الدين الذين يسخرونه لمأرب الإنسان الدنيئة، والذين يملئون المساجد بالرعب حين يخطبون، ولكنهم ليسوا في مسلكهم خيراً من الذين يحتسون الخمر في الحانات على نغمات المغنين.

لا تطيعن قوماً ما ديانتهم إلا احتيال على أخذ الإتاوات

إنما هذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

كذب يقال على المنابر دائماً أفلا يمد لما يقال المنبر

رويدك قد غرزت وأنت حر بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرّم فيكم الصهباء صبجاً ويشربها على عمد مساء

تحساها فمن مزج وصرف يعمل كأنما ورد الحاء

طلب الخسائس وارتقى في منبر يصف الحساب لأمة ليهولها

ويكون غير مصدق بقيامة أضحى يمثل في النفوس ذهولها

ومن أقواله أن أخط الناس في وقته هم الذين يشرفون على الأماكن المقدسة في مكة. فهم لا يتورعون عن أن يرتكبوا أي إثم في سبيل المال، وينصح مستمعيه بأن لا يضيعوا أوقاتهم في الحج(109) وأن يقتنعوا بعالم واحد.

وفي بطحاء مكة شر قوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى

وإن رجال شبيبة سادنيها إذا راحت لكعبتها الجمارى

قيام يدفعون الناس شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى

إذا أخذوا الزوائف أولجوهم وإن كانوا اليهود أو النصارى

صفحة رقم : 4661

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وما حجي إلى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذراها

وما الركن في قول ناس لست أذكرهم إلا بقية أوثان وأنصاب

لا حس للجسم بعد الروح نعلمه فهل تحس إذا باننت عن الجسد (110)

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك (111)

ويصل آخر الأمر إلى هذه النتيجة.

وإن جعلت بحكم الله في خرف يقضي الطهور فأنتني شاكر راضي (112)

وهو يؤمن بوجود إله حكيم قادر على كل شيء، ويعجب من الطبيب الذي ينكر وجود الخالق بعد أن درس التشريح.

عجبي للطبيب يلحد في الخا لُق من بعد درسه التشريحاً (113)

لكنه حتى في هذه النقطة يثير بعض الصعاب فيقول:

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمر سببته المقادر

لا ذنب للدنيا فكيف نلومها واللوم يلحقني وأهل نحاسي

عنب وخمر في الإناء وشارب فمن الملوّم أعاصر أم حاسي

ويقول في سخرية شبيهة بسخرية فلتير .

رأيت سجايا الناس فيها تظالم ولا ريب في عدل الذي خلق الظلما(114)

ثم ينفجر غضبه كما ينفجر غضب ديدرو Diderot فيقول:

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء(115)

صفحة رقم : 4662

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وساء ما بدا له من كذب الناس وقسوتهم فاعتزل الناس وغلب عليه التشاؤم، فكان عند المسلمين شبيهاً بتيمن الأثيني . ويرى أن لا أمل في إصلاح الناس لأن شرور المجتمع ناشئة من طبائع الخلق:

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغن قضاءه المحتوما

فما أذنب الدهر الذي أنت لائم ولكن بنوا حواء جاروا وأذنبوا

رب متى أرحل عن عالمي فأنت بالناس خبير عليم

رب متى أرحل عن هذه الدنيا فقد أطلت المقام

ولهذا فإن خير ما يفعله الإنسان أن يعتزل العالم ويعيش وحيداً لا يلقى إلا صديقاً واحداً أو اثنين، وأن يحيا كما يحيا الحيوان الوديع بعيداً عن الخلق. ويقول: لقد كان أفضل من هذا لو أن الإنسان لم يولد لأنه إذا ولد قاسى العذاب والمحن يبسط عليه الموت لواء السلام(117):

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخلي سبيلي أنصرف لطياتي

والعيش داء وموت المرء عافية إن داءه يتوارى شخصه حسما

والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام

على الموت يجتاز المعاشر كلهم مقيم بأهليه ومن يتغرب

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبتغي فتأكل من هذه الأنام وتشرب

كأن هلالاً لاح للطعن فيهم حناه الردى وهو السنان المجرب

كأن ضياء الفجر سيف يسله عليهم صباح في المنايا مذب

وليس في وسعنا أن ننجو من منجل الموت، ولكن في وسعنا أن نفوت عليه

صفحة رقم : 4663

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

غرضه بالأنا نلد له أطفالاً. وفي ذلك يقول أبياتاً من الشعر لا تفترق عن أقوال المؤمنين أشد الأيمان بأقوال شوبنهاور:

وإذا أرتم للبينين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

وقد عمل هو بهذه النصيحة، وكتب بنفسه قبريته وهي أشد القبريات مرارة وأكثرها إيجازاً وأعظمها حكمة:

هذا جناه أبي عليّ وما جنيت على أحد

ولسنا نعرف كم من المسلمين كانوا يشاركون المعري في تشككه؛ ذلك أن عودة العقائد السنية القوية بعد أيامه كانت أشبه برقابة مقصودة أو غير مقصودة على ما انحدر إلى الأجيال التالية من أدب ذلك العصر، وقد يؤدي بنا هذا إلى الاستخفاف بما كان في العصور الوسطى من تشكك في العالم الإسلامي كما حدث في العالم المسيحي. وبلغ الشعر العربي عند المتنبي والمعري ذروتها، فلما انقضى عهدهما علا شأن البحوث الدينية وسكن الفلسفة، فصبغ هذا وذاك الشعر العربي صبغة جديدة تنسم بعدم الإخلاص، وتُصنَّع العاطفة، وتكلف الأناقة اللفظية في قصائد غثة تدور حول شؤون بلاط الأمراء. وفي هذا الوقت عينه كانت نهضة الفرس، وبعثها، وتحررها من حكم العرب تثير حمية الأمة وتخلق فيها نهضة حقة. ولم تكن اللغة الفارسية قد استسلمت للغة العربية استسلاماً

صفحة رقم : 4664

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

كليا بل بقيت يتحدث بها الشعب؛ فلما حل القرن العاشر أخذت هذه اللغة تثبت وجودها بالتدريج، وتعود كما كانت لغة الحكم والأدب. وكانت بذلك مظهراً لاستقلال الأمة الثقافي في عهد الأمراء الساسانيين والغزنويين. وظلت سائرة في ذلك الطريق حتى أضحت هي اللغة الفارسية الجديدة في هذه الأيام، بعد أن استمدت ثروة طيبة من الألفاظ العربية، وبعد أن استخدمت الخط العربي الجميل. وكان من أعظم مظاهر هذه النهضة الحديثة عمائرها الفخمة وشعرها العظيم. وأضاف شعراء إيران إلى القصيدة والقطعة، وإلى شعر الغزل المثنوى أو الشعر القصصي أو الرباعيات. وما لبث كل شيء في فارس من وطنية، وعاطفة، وفلسفة، ولواط، وصلاح-أن عبر عنه الشعر. وبدأت هذه النهضة بالرودي (المتوفى عام 954) الذي كان يرتجل الشعر وينشد الأغاني، ويعزف على القيثارة في بلاط السامانيين ببخارى. وفي هذا البلد نفسه، وبعد جبل من ذلك الوقت طلب الأمير نوح بن منصور إلى الشاعر الدقيقي أن يصوغ الخدينامة أو كتاب الملوك شعراً. وكان دانشوار (حوالي عام 651) قد جمع في هذا الكتاب قصص بلاد الفرس القديمة. وما كاد الدقيقي يتم كتابه ألف بيت حتى طعنه أحد عبيده المقربين طعنة قضت على حياته، وقام الفردوسي بالعمل بعد وأتمه وأصبح هو مر بلاد الفرس.

وولد أبو القاسم منصور (أو الحسن) في مدينة طوس (قرب مشهد) حوالي عام 934، وكان والده يشغل منصباً إدارياً في بلاط السامانيين، وخلف لولده بيتاً ريفياً في بزاغة بالقرب من طوس. وكان أبو القاسم يقضي وقت فراغه في البحث عن الآثار القديمة. واسترعى كتاب الخدينامة انتباهه فاعتزم أن يحول هذه القصص النثرية إلى ملحمة قومية، وسمى كتاب الشاهنامه، أي كتاب الملوك، واتخذ له حسب عادة تلك الأيام اسماً مستعاراً هو الفردوسي، ولعله اشق ذلك الاسم من غياض ضيعته. وأتم الفردوسي ملحمة في صورتها الأولى بعد

صفحة رقم : 4665

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

خمس وعشرين سنة من الكدح المتواصل، ثم سافر إلى غزنة (999؟) راجياً أن يهديها إلى أميرها محمود الرهيب. ويؤكد لنا أحد شعراء الفرس الأقدمين أنه كان في غزنة "أربعمائة شاعر لا يفارقون مجالس السلطان محمود". ولو صح هذا لكان وجود هؤلاء الشعراء عقبة كداء في سبيل الفردوسي، لكنه مع هذا أفلح في استرعاء اهتمام الوزير فجاء بالمخطوط الضخم إلى السلطان. وتقول إحدى الروايات إن محموداً هيا للشاعر مسكناً مريحاً في قصره، وأمهه بقدر ضخم من المادة التاريخية، وأمره أن يضمها إلى ملحمة. وتجمع كل الروايات التي وصلتنا من هذه القصة على اختلاف صورها أن محموداً وعده أنت يعطيه ديناراً ذهبياً (4.70 دولارات) نظير كل بيت من القصيدة في صورتها الجديدة. وظل الفردوسي يكدح زمناً لا نعرف طوله؛ بلغت بعد القصيدة (حوالي عام 1010) صورتها النهائية، واشتملت على 60.000 بيت وجيء بها إلى السلطان. وأوشك محمود أن يبعث إلى الفردوسي المبلغ الموعود، ولكن بعض بطانته استكثروا العطاء، وأضافوا إلى هذا قولهم إن الفردوسي زنديق شيعي ومعتزل. واستمع لهم محمود وبعث للشاعر بستين ألف درهم فضي (30.000 ريال أمريكي). وغضب الشاعر وأراد أن يظهر غضبه واحتقاره فقسم المبلغ بين خادم حمام وبناع شراب ثم فر إلى هراة، حيث اختفى ستة أشهر في حانوت بائع كتب، حتى ينس من العثور عليه عمال محمود الذين أمرهم بالقبض عليه. ثم لجأ الفردوسي إلى شهریار أمير شيرزاد في طبرستان، ونظم قصيدة يهجو فيها محموداً هجواً لاذعاً. وخشي شهریار غضب

صفحة رقم : 4666

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

السلطان فابتاع القصيدة بمائة ألف درهم وأتلفها. وإذا جاز لنا أن نصدق هذه الأرقام، ونعتقد بصحة تقديرنا إياها بنقود هذه الأيام، حكمنا من فورنا أن الشعر كان من أكثر الأعمال إدراراً للربح في فارس في العصور الوسطى. وانتقل الفردوسي بعدئذ إلى بغداد وكتب فيها قصة شعرية طويلة هي قصة يوسف وزليخا، ثم عاد إلى طوس وكان فتنذ شيخاً في السادسة والسبعين من العمر. وبعد عشر سنين من عودته سمع محموداً بيتاً من الشعر فأعجب بقوة معناه وجزالة لفظه، فسأل عن قائله، ولما علم أنه من شعر الفردوسي ندم على أنه لم يكافئ الشاعر بما وعده به، وأرسل إليه قافلة من الإبل تحمل ما قيمته ستين ألف دينار من النيلج، ومعها رسالة اعتذار منه، ولما دخلت القافلة مدينة طوس التقت فيها بجنازة الشاعر (1020؟).

وتعد الشاهنامه من أعظم الأعمال في الأدب العالمية في حجمها إن لم تكن في غيره. وإن من النبيل بحق أن يترك شاعر الموضوعات الثقافية، والأعمال البسيرة، ويقضي خمسة وثلاثين عاماً من حياته يروي فيها قصة بلده في 120.000 بيت من الشعر فكانت القصيدة بذلك أطول من الإلياذة والأوديسة مجتمعين. فها هو ذا شيخ طاعن في السن جن جنونه بوطنه، وشغف حباً بكل ما حوته سجلاته من تفاصيل، خرافة كانت أو حقيقة. وتصل الملحمة إلى نصفها قبل أن يصل بها الشاعر إلى العصور التاريخية. ويبدأها بالشخصيات الأسطورية الواردة في الأستاق، ويحدثنا عن جيومرث، آدم الديانة الزرادشتية، ثم عن جمشيد العظيم حفيد جيومرث "الذي حكم العالم 700 سنة... والذي سعد العالم بحكمه، ولم يكن يعرف في أيامه موت ولا حزن ولا ألم". ولكن جمشيد بعد أن مرت به بضعة قرون "باض الشيطان في رأسه وفرخ ولوى جيداً عن طاعة ملاك الرقاب، متعرضاً بغمط نعمة لقاصمة العقاب" "وظن أنه ليس على ظهر الأرض سواه، وادعى أنه إله، وبعث بصورته لكي يعبدها الناس" (121). ونصل أخيراً

صفحة رقم : 4667

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

إلى بطل الملحمة رستم بن زال أحد أمراء الإقطاع في تلك الأيام. ولا بلغ رستم من العمر خمسمائة عام وقع زال في هوى جارية شابة فولدت منه أماً لرستم. ويخدم رستم ثلاث ملوك وينجيهم من الموت، ثم يهجر حياة القتال حين تبلغ سنه أربعمائة عام. ويطول عمر جواده الأمين الرخش كما يطول عمر سيده أو ما يقرب منه، ويكاد يبلغ من البطولة ما بلغه، ويلقى هذا الجواد من الفردوسي الحب والدعابة اللذين يلقاهما الجواد الأصيل من كل فارسي. وفي الشاهنامه قصص حب جميلة، وفيها بعض ما في شعر شعراء الفروسية الغزليين في أوروبا في العصور الوسطى من تعظيم للنساء. فيها صور ساحرة للنساء البارعات الجمال- منها صورة للملكة سوزابا التي كانت تتحجب حتى لا يرى جمالها، والتي كانت تسير مع الرجال كما تسير الشمس خلف السحاب (122). ولكن الحب ليس له شأن كبير في حياة رستم، لأن الفردوسي يرى أن عاطفة الحب الأبوي والنبوي يمكن أن تكون أعظم وقعاً في النفوس من عاطفة الحب الجنسي. بيد أن رستم يقع أثناء إحدى حروبه البعيدة في حب فتاة تركية تدعى تهمينة، ثم تحقني عن عينه فلا يقف على أثرها، ثم تربي ابنها سهراب والحزن يملأ قلبها الكبرياء يرفع رأسها بين أترابها، وتحدث الشاب عن أبيه العظيم الذي لا تعرف مقره، ويلتقي الأب والابن في حرب بين الترك والفرس، ويقف كلاهما ليقاتل الآخر دون أن يعلما

حقيقة أمرهما. ويعجب رستم بشجاعة الصبي الوسيم، ويعرض عليه أن يحفظ عليه حياته؛ فيرفض الغلام هذا العرض بازدياء، ويقاوم قتال الأبطال، ويصاب بجرح مميت. ويقول وهو يحتضر إن أشد ما يحزنه أنه لم ير أباه رستم، ويدرك المنتصر أنه قتل ابنه. ويعدو جواد سهراب بغير فارس حتى يدخل معسكر الترك ويصل الخبر إلى والدته في منظر من أجمل مناظر الملحمة:

تئن وتجار جهد الحزين وينتابها الغشى في كل حين

أطالت بكاء ابنها والنحيبا فأجرت من الناس دمعاً سكوبيا

صفحة رقم : 4668

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الأدب

وخرت على الأرض جمرأ خمد كأن بها دمعاً قد جمد

وعادت ترجع تحنانها وتذكي على الابن أحزانها

وجاءت إلى طرفه الطائر إلى زينة الزمن الناظر

فلزّت إلى رأسه صدرها يرى الناس في عجب أمرها

وجاءت لطلته في كمد تعانقها كأبنها المفتقد

والقصة كلها غاية في الوضوح ينتقل القارئ فيها تنقلًا سريعاً من حادثة إلى حادثة، ولا يحس بوحدتها إلا حين بوجود الوطن المحبوب في كل سطر من سطورها وإن كان لا يبصره بعينه. ونحن، الذين لا نجد لدينا من الفراغ ما كان يجده الناس قبل أن تخترع تلك الوسائل الكثيرة التي توفر عليهم أوقاتهم، لا نجد متسعاً من الوقت نقرأ فيه كل أبيات القصيدة وندفن فيها كل ملوكها؛ ولكن هل منا من قرأ كل سطر من أسطر الإلياذة أو الإنياذة، أو المسلاة المقدسة، أو الفردوس المفقود؟ إن هذه الملاحم القصصية لا يستطيع قراءتها إلا الذين أتوا القدرة على هضمها. أما نحن فبعد أن نقرأ مائتي صفحة من صفحات الشاهنامه نمل من قراءة أخبار انتصارات رستم على الشياطين، والوحوش، والسرة، والأتراك. ولكن سبب هذا الملل أننا لسنا إيرانيين، لم نسمع إلى أنغام الشعر الفارسي الأصيل الرنانة العذبة، ولا نتأثر بها كما يتأثر بها الفرس الذين أطلقوا اسم رستم على ثلاثمائة قرية في ولاية واحدة من بلادهم. وقد احتفل العالم المتمدن في أسية وأوربا والأمريكتين في عام 1934 بالعيد الألفي للشاعر الذي ظل كتابه الضخم غذاء لروح الشعب الإيراني مدى ألف عام.

صفحة رقم : 4669

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

الفصل السابع

الفن

لما فتح العرب بلاد الشام لم تكن لديهم من الفنون سوى الشعر. ويقال إن النبي حرم فني النحت والتصوير أنهما من قبيل عبادة الأوثان كما نهى عن الموسيقى، ولبس الحرير الثمين: والتخلي بالذهب والفضة أنهما من أسباب التمتع المؤدي إلى الانحلال؛ ومع أن العرب أخذوا يتحللون شيئاً فشيئاً من هذا التحريم، فإن الفن الإسلامي في ذلك العهد الأول كان ينحصر في فنون العمارة، والخزف، والزركشة. يضاف إلى هذا أن العرب أنفسهم كانوا إلى عهد قريب بدواً أو تجاراً، ولم يكونوا ذوي براعة فنية ناضجة؛ وكانوا يعترفون بقصورهم في هذا الميدان، ولذلك لجأوا إلى الأشكال والتقاليد الفنية المتبعة في بيزنطية، ومصر، والشام، وبلاد العراق، وإيران، والهند، فعدلوا بما يوائم طبيعتهم، كما لجأوا إلى الفنانين والصناع من أهل تلك البلاد. من ذلك أن نقوش قبة الصخرة في بيت المقدس وعمارة مسجد الوليد الثاني في دمشق كانت بيزنطية خالصة. وفيما يلي هذه البلاد من جهة الشرق اتخذ العرب حلياً القرميد التي كانت متبعة في بلاد آشور وبابل القديمة، كما اتخذوا أشكال الكنائس الأرمنية النسطورية، وبعد أن دمر المسلمون في بلاد الفرس كثيراً من الأعمال الساسانية الأدبية والفنية تنبهوا إلى مزايا مجموعات العمد، والأقواس

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

المستدقة والعقود، والنقوش المكونة من أوراق النبات والأشكال الهندسية التي أثمرت آخر الأمر طراز الزخرفة العربي المعروف. ولم تكن هذه النتيجة تقليداً محضاً، بل كانت تركيباً بارعاً من أشكال مختلفة لا ينقص من شأنها ما أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم. وتخطى الفن الإسلامي الذي انتشر من قصر الحمراء في الأندلس إلى التاج محال في الهند كل حدود الزمان والمكان، وكان يسخر من التمييز بين العناصر والأجناس، وأنتج طرازاً فذاً ولكنه متعدد الأنواع، وعبر عن الروح الإنسانية بأناقة موفورة فياضة لم يفقها شيء من نوعها حتى ذلك الوقت. ويكاد فن العمارة الإسلامية، كمعظم فنون العمارة في عصر الإيمان، أن يكون كله فناً دينياً خالصاً. ذلك أن مساكن البشر كانت تقام ليقضوا فيها حياتهم الدنيوية القصيرة الأجل؛ أما بيوت الله، فكانت من داخلها على الأقل، نماذج من الجمال الخالد. غير أننا مع هذا نسمع عن قناطر، وقنوات لجر مياه الشرب، وفساقي، وخزانات لمياه الري، وحمامات عامة، وقلاع، وأسوار ذات أبراج وإن لم يبقَ من آثار هذه كلها إلا القليل. وقد أقامها مهندسون معماريون كان الكثيرون منهم في القرن الأول بعد الفتح الإسلامية من المسيحيين، ولكن كثرته الغالبة كانت فيما بعد من المسلمين. ولما جاء الصليبيون إلى بلاد المسلمين وجدوا مباني حربية ممتازة في حلب، وبعلبك، وغيرها من مدن الإسلام في الشرق، وعرفوا هناك فوائد الأسوار ذات المزاغل، وأخذوا عن أعدائهم كثيراً من الأفكار التي أقاموا على أساسها حصونهم وقلاعهم المدومة النظر، ولقد كان قصر إشبيلية، وقصر الحمراء في قرطبة حصنين وقصرين معاً. ولم يبقَ من قصور بني أمية إلا القليل. ومن هذا القليل الباقي بيت بريفي في قصير عمرة بالصحراء الواقعة في شرق البحر الميت، وتكشف بقاياها عن حمامات ذات قباب، وجدران ذات مظلمات. ويؤكد لنا المؤرخون أن قصر عضد الدولة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

في شيراز كان يحتوي على ثلاثمائة وستين حجرة واحدة منها كل يوم من أيام السنة، وقد طلبت كل حجرة بطلاء مكون من مجموعة فذة من الألوان، وخصصت منها واحدة للمكتبة، وكانت حجرة رحبة يبلغ ارتفاعها طابقين، ذات بواكٍ وعقود، ويقول عنها أحد مؤرخي الإسلام المتحمسين إنه لم يكن ثمة كتاب في أي موضوع من الموضوعات لا تحتوي المكتبة نسخة منه (124). ولسنا نشك في أن للخيال أكبر نصيب فيما وصفت به شهر زاد مدينة بغداد، ولكنه وصف يصور ما كانت عليه فخامة النقوش في داخل القصور أصدق تصوير (125). وكان لأغنياء المسلمين بيوت في الريف وقصور في المدن. وكانت لهم في المدن نفسها حدائق كبرى، أما بيوتهم في الريف فكانت حدائقها "جنات"

حقة فيها بساتين ذات عيون، وجداول، وفساق، وبرك مبطنة بالقرميد، وأزهار نادرة، وظلال، وأشجار فاكهة وتُفل، وكانت تحتوي عادة على سرادق يستمتع فيه أهل القصر بالهواء الطلق، دون أن يضايقهم وهج الشمس. وكان الدين في فارس دين أزهار؛ فقد كانت تحتفل بأعياد الورد احتفالات تحوي جميع مظاهر الأبهة والفخامة، وطبقت شهرة ورد شيرزاد وفيروس آباد جميع أنحاء العالم، وكانت الورد ذات المائة من الأوراق من الهدايا التي يحمدها لمهديها الخلفاء والملوك (126).

وكانت بيوت الفقراء وقتئذ، كما هي الآن، أبنية مستطيلة الشكل؛ مقامة من اللبن الملتصق بالطين، سقفها خليط من الطين، وأعواد النبات، وغصون الأشجار، وجريد النخل، والقش. وكانت البيوت الأرقى من هذه نوعاً تشتمل على فناء داخلي مكشوف، ذي فسقية، وشجرة في بعض الأحيان؛ وكانت تحتوي أحياناً على طائفة من العمد الخشبية، ورواق مسقوف بين الفناء والحجرات. ولما كانت البيوت تبنى على الشارع أو تطل عليه، لأنها كانت حصوناً للعزلة، تقام للأمن والسلام؛ وكان لبعضها أبواب سرية، يهرب منها سكانها من فورهم إذا هوجموا أو أريد اعتقالهم، أو يدخل منها الحبيب سرّاً (127).

صفحة رقم : 4672

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

وكان في كل بيت من البيوت، عدا بيوت الفقراء، أجنحة خاصة بالنساء، لكل منها في بعض الأحيان فناء مستقل. وكانت بيوت الأغنياء خالية من أنابيب الماء، الذي يحمل إليها من خارجها كما تحمل الفضلات منها. وكانت بعض البيوت الحديثة الطراز تُؤلف من طابقين تتوسط الواحد منهما حجرة لجلوس الأسرة عامة تعلوها قبة، وفي الطابق الثاني منها شرفة تطل على فناء البيت. ولم يكن بيت من البيوت عدا أقرها يخلو من مشربية من الخشب تدخل الضوء، وتمنع حرارة الشمس، وتمكن من بداخل البيت أن يطلوا على خارجه دون أن يراهم من الخارج. وكثيراً ما كانت هذه المشربيات متقنة النحت، وكانت هي النماذج التي صنعت على غرارها الستر الحجرية أو المعدنية التي ازدانت بها القصور والمساجد فيما بعد. ولم تكن بالبيت مدفأة ثابتة في جدرانه، بل كان يدفأ بموقد نحاسي متنقل يحرق فيه الفحم الخشبي. وكانت الحجرات تجصص وتطلّى عادة بألوان متعددة. وكانت الأرض تفرش بطنافس من نسيج اليد، وقد يكون عليها كرسي أو كرسيان، ولكن المسلمين كانوا يفضلون أن يتربعوا فوق الطنافس. وكانت أرض الحجر تترقع بجوار الجدران في ثلاث نواح منها بقدر قدم، أو ما يقرب منه ليتكون من ذلك ديوان يفرش بالوسائد. ولم تكن في هذا النوع من البيوت حجرة خاصة بالنوم، وكان فرش النوم مكوناً من حشية تطوى في أثناء النهار وتوضع في مكان خاص كما يفعل أهل اليابان في هذه الأيام. وكان أثاث البيت بسيطاً: يتألف من بضع مزيّنات، وأنية المطبخ، ومصابيح، وكوة للكتب في بعض الأحيان. وكان حسب المسلم النقي الفقير أن يكون المسجد جميلاً، وكان ينفق في تشييده جهده ماله. ويجمع في فنونه وصناعاته ويضعها كالتنفسة بين يدي الله، وكان في وسع الناس أن يستمتعوا بهذا الجمال وبتلك العظمة: وكان

صفحة رقم : 4673

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

المسجد يقام عادة بالقرب من سوق المدينة يسهل الوصول إليه من كافة أنحاءها. ولم يكن عادة فخماً ذا روعة وبهاء من خارجه. وإذا استثنينا واجهته الأمامية فإنه لم يكن يسهل تمييزه في بعض الأحيان من المباني المجاورة له، وقد يكون أحياناً ملتصقاً بها التصاقاً، ولما كان يشيد من مواد أفخم من الأجر المطلي بالمصيص. وقد حدد شكله الغرض الذي أقيم من أجله: فكان يتألف من بهو رباعي الشكل يتسع للمصلين، ومن حوض أو وسط وناقورة للضوء، تحيط بها إيواناته ذات البواكي لوقاية المصلين وإظلالهم، وليلتقوا فيها الدروس، وفي ناحية الصحن المتجهة إلى مكة كان يقوم بناء المسجد الأصلي، وهو في العادة قسم مسور من الرواق. وكان هذا القسم أيضاً ذا شكل رباعي يمكن المصلين من أن يقفوا صفوفاً مترابطة متجهين أيضاً إلى مكة. وقد يكون فوق هذا الصرح قبة، تكاد تبني في جميع الأحوال من الأجر، تبرز كل طبقة منها عما تحتها بمقدار قليل نحو الداخل وتطلى بالجص لإخفاء هذا البروز (128). وكان الانتقال من القاعدة الرباعية إلى القبة المستديرة يتم كما يتم في العمارة الساسانية أو البيزنطية بأن تتوسطها في القبة عدة أكتاف مثلثة الشكل بين عقدين متعامدين، أو سلسلة من العقود الحجرية الصغيرة تقام عليها جوانب القبة. وأهم ما تمتاز به عمارة المساجد هو المئذنة من الزجورات-الصرح-البابلي وبرج الجرس في الكنائس المسيحية، وأخذ الهنود المسلمون الشكل الأسطواني من بلاد الهند، وتأثر مسلمو إفريقيا في تخطيطها بمنارة الإسكندرية ذات الأركان الأربعة (129). وليس ببعيد أن تكون الأبراج ذات الأركان الأربعة في المساحة التي أقيم عليها الهيكل القديم في دمشق، ذات أثر في شكل المئذنة (130)، وكانت في هذا العهد الأول بسيطة خالية في أغلب الأحيان من الزخرف، ولم تصل إلا في القرون المتأخرة إلى ما وصلت إليه من الدقة والارتفاع، أو نحو ما احتوته من الشرفات الرقيقة الهشة،

صفحة رقم : 4674

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

والبواكي الزخرفية، والسطوح القاشانية، التي أنطقت فرجسون Fergusson بقوله "إنها أعظم الأبراج رشاقة في عمارة العالم كله" (131). وقد احتفظ المسلمون لداخل المسجد بأبهج الزخارف وأجملها وأكثرها تنوعاً، احتفظوا لهذا الداخل بالفسيفساء وقطع القرميد البراقة لأرض المسجد ومحراه؛ وبالزجاج ذي الأشكال والألوان البديعة لنوافذه ومصابحه، وبالطنافس الغالية والبسط الفخمة تفرش على أرضه للصلاة؛ وبألواح الرخام الجميل الألوان تثبت على الأجزاء السفلى من الجدران؛ وبالأفاريز الجميلة ذات الكتابة العربية حول المحاريب والطنف؛ وبالنقوش الجميلة في الخشب أو العاج أو المصنوعة من المعدن في الأبواب، والسقف، والمنابر، والسجف... أما جسم المنبر نفسه فكان يصنع من الخشب تبذل أعظم العناية في نحته ونقشه وتطعيمه بالعاج والأبنوس. وبالقرب من المنبر توجد الدكة المقامة على عمد صغيرة وعليها نسخة من كتاب الله. وكان الكتاب نفسه بطبيعة الحال أنموذجاً لجمال الخط وروعة الفن الدقيق. ويجاور المنبر القبلة وهي جزء داخل في جدار المسجد لعله مأخوذ من القباب في الكنائس المسيحية. وقد أفرغ الصناع والفنانون كل جهودهم في تزيين هذا المحراب حتى كان يضارع المذبح أو المحراب المحيط به في الكنائس والهيكل. فجملوه بالقاشاني والفسيفساء، وصور أوراق الشجر وأزهاره، والنقوش البارزة، والأنماط الجميلة، ذات الألوان البديعة من الأجر، والجص، والرخام، والطين المحروق، والقاشاني.

وأكبر الظن أننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة إلى تحريم الساميين تمثيل صور الإنسان والحيوان في الفن! فكأن الفنانين المسلمين أرادوا أن يعوضوا هذا التحريم فاخترعوا هذا الفيض الغامر من الأشكال غير البشرية أو الحيوانية، وأخذوا ما كان منها موجوداً عند غيرهم. فبحث الفنان في أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية في الأشكال الهندسية-الخط، والزاوية، والمربع،

صفحة رقم : 4675

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

والمكعب، والكثير الأضلاع، والمخروط، والشكل اللولبي، والقطع الناقص، والدائرة، والكرة؛ وكرر هذه الأشكال كلها وركب منها مئات التراكيب، وأنشأ منها الدوامات، والأربطة، والخطوط المتشابكة المتداخلة، والنجوم. ولما انتقل إلى الأشكال النباتية عمد إلى المواد المختلفة، فصور من مختلف المواد، تيجاناً، وكروماً، وأزهار البشنيين، والكنكر، وخصوص النخل وجريده. فلما جاء القرن العاشر مزج هذه كلها فأنشأ منها الزخرف العربي الذائع الصيت، وأضاف إليها كلها حلية فذة كبرى هي الكتابة العربية. ذلك أنه عمد في العادة إلى الحروف الكوفية فأطالها إلى أعلى أو مدها على الجانبين، أو نمقها بالذيول والنقاط، حتى استحالت الحروف الهجائية على يديه تحفة فنية ذات روعة وجمال. ولما تحلل الناس من بعض الشيء من القيود والمحرمات الدينية أدخل الفنان أنواعاً جديدة من الزينة بأن رسم طير السماء، وحيوان الحقل، أو ابتدع أشكالاً عن الحيوانات المختلفة لا وجود لها إلا في مخيلته. واستطاع بفتنته وشغفه بالزينة أن يسمو بكل شكل من أشكال الفن-الفسيفساء، والنقوش الصغيرة على العاج ونحوه، والخزف، والأقمشة، والبسط. وكان النقش في كل حالة تقريباً تؤلف بين أجزائه وحدة منظمة، تسيطر عليها صورة رئيسية، أو موضوع رئيسي. ينمو ويتطور من الوسط إلى الأطراف أو من البداية إلى النهاية، كما يفعل المؤلف بالموضوع الموسيقي. ولم يكن الفنان المسلم يرى أن أية مادة مهما قست تستعصي على فنه؛ ولهذا أصبح الخشب، والمعدن، والأجر، والجص، والحجر، والقرميد، والزجاج، والقاشاني-أصبحت هذه كلها وسائل يستخدمها لإظهار ما في خياله من صور وأشكال فنية مجردة لم يسم إلى مستواها فن آخر من قبل لا نستثنى من ذلك الفن الصيني نفسه. واستعانت العمارة الإسلامية بهذا الفن الزخرفي فأقامت في جزيرة العرب، وفلسطين، والشام، وأرض الجزيرة، وفارس والتركستان، والهند، ومصر،

صفحة رقم : 4676

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

وتونس، وصقلية، ومراكش، والأندلس-أقامت في هذه البلاد كلها عدداً لا يحصى من المساجد جمعت بين القوة والمتانة في خارجها، والرشاقة والرقّة في داخلها، نذكر منها مساجد المدينة، ومكة، وبيت المقدس، والرملة ودمشق،

والكوفة والبصرة، وشيراز ونيسابور، وأردبيل، ومسجد جعفر في بغداد، ومسجد سر من رأى العظيم، ومسجد زكريا في حلب، ومسجد ابن طولون والجامع الأزهر في القاهرة، ومسجد تونس الكبير، ومجلس سيدي عقبة في القيروان، والمسجد الأزرق في قرطبة وليس في مقدورنا إلا أن نكتفي بذكر أسمائها لأن مئات المساجد التي بنيت في ذلك الوقت لم يبقَ منها ما يمكن تمييزه إلا عشرة أو نحوها، أما سائرها فقد عدا عليه الزمان فدمره بفعل الزلازل أو الإهمال أو الحروب.

وقد كشف في العصر الحديث في بلاد الفرس وحدها - وهي جزء صغير من بلاد الإسلام - عن صروح فخمة لم يكن يدور بخلدنا أنها توجد في تلك البلاد؛ وكان كشف آثارها من الحوادث الكبرى في إزاحة الستار عن الماضي المجهول وإن كان هذا الكشف قد جاء بعد أوانه بزمن طويل؛ لأن كثيراً من روائع العمارة الفارسية قد عبثت به قبل ذلك الكشف يد الزمان فلم تبق منه شيئاً. وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن المقدسي يصف في فارس مساجد لا تقل روعة عن مساجد المدينة ودمشق ويقول إن مسجد نيسابور ذا العمدة الرخامية. والصفائح الذهبية، والجران ذات النقوش المحفورة الكثيرة كان من عجائب الزمان؛ وإنه لم يكن في خراسان أو سجستان من المساجد ما يضارع في جماله مسجد هيراة (132). وفي وسعنا أن نصور لأنفسنا صورة غامضة مما بلغته

صفحة رقم : 4677

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

العمارة الفارسية في القرنين التاسع والعاشر من روعة ووفرة، بدراسة النقوش الجصية البارزة، والعمد والنتجان المحفورة الباقية، من محراب مسجد نايبين الجامع المخرب، والمنذنتين الجميلتين الباقيتين في دماغان. وقد بقي من مسجد أردستان (1055) محراب وباب جميلان، كما كشف فيه عن كثير من العناصر التي تجلت فيما بعد في العقود القوطية المستدقة، والأكتاف المركبة، والأقبية المتقاطعة، والقبية المضلعة (133). وكانت المادة التي شيدت منها هذه المساجد والكثرة الغالبة من المساجد والقصور الفارسية هي الحجر، شأنها في ذلك شأن المباني القديمة في سومر وأرض الجزيرة، وسبب ذلك ندرة الحجارة وكثرة ما تتطلبه من النفقات، ووفرة الطين والنيران؛ لكن الفنان الفارسي قد حول طبقات الحجر بأفضل ما أدخله عليها من ضوء والظل والنماذج الفنية الجديدة، والأوضاع الفنية المختلفة، حول هذه الطبقات إلى أنواع من الزخرف لم تعرف هذه المادة القليلة الشأن نظيراً لها من قبل. وقد كسا الخزاف الفارسي الآخر في أماكن خاصة، كمدخل المساجد والمنابر والمحاريب، بطبقة الفسيفساء متعددة الألوان، وبالقرميد الزاهي البراق؛ ولما أقبل القرن الحادي عشر زاد السطح البراق للألوان وبهاء طبقة من القاشاني الملون اللامع. وهكذا خدم المسجد كل فن في بلاد الإسلام. نزل إلى هذه الخدمة من العلياء وكسب بها فكراً وكبرياء.

وإذ كان قد حرم على المثال أن ينحت التماثيل خشية أن يعود الناس إلى عبادة الأوثان، فقد وجه جهوده إلى الزخرفة بالنقوش البارزة. فأنقح نحت الحجارة، وشكل الجص باليد قبل أن يجف، وصاغ منه أشكالاً كثيرة مختلفة. وقد بقي أنموذج رائع من هذه العمائر، وهو القصر الشتوي الذي بدأه الوليد الثاني عام 734 بالصحراء الشرقية إلى نهر الأردن وتركه دون أن يتمه. وكان حول سطح الواجهة من أسفل إفريز من الحجر المنحوت ذو جمال بارع يتكون نقشه من مثلثات وأزهار الورد يحيط بها إطار من الأزهار، والفاكهة، والطير،

صفحة رقم : 4678

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

والحيوان، والنقش العربي. وقد نقل هذا النقش الرائع إلى برلين في عام 1904 ونجا من الدمار في أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان النجارون يجمعون النوافذ، والأبواب، والستر الخشبية، والشرفات، والسقف، والمناضد، وكراسي المصاحف، والمنابر، والمحاريب، ويبدعون في نقشها إبداعاً يستطيع الإنسان أن يراه في لوحة وجدت في تكريت ونقلت إلى المتحف الفني في نيويورك. كذلك كان الصناع المشتغلون بنحت العاج والخشب يزينون بفنهم المساجد، والمصاحف، والأثاث، والأنية، والأشخاص أنفسهم، ويجمعونها بمصنوعاتهم المنحوتة والمطعمة. غير أنه لم يصلنا من مصنوعات ذلك العصر إلا قطعة واحدة هي طابية من قطع الشطرنج (توجد الآن في المتحف الأهلي بفلورنس) ويقال إنها إحدى قطع الشطرنج الذي أهده هرون الرشيد إلى شارلمان في القرن التاسع الميلادي (124). كذلك أخذ صانعوا المعادن المسلمون عن الساسانيين هذا الفن الدقيق، وصنعوا من النحاس والشبه مصابيح، وأباريق، وجفاناً، وجراراً، وكيزاناً، وأقداحاً، وأطساتاً، ومواقد؛ وصبوها في صور الآساد، والأفاعي، وآباء الهول، والطواويس، واليمام؛ ونقشوا عليها في بعض الأحيان رسوماً بديعة نشاهد مثلاً منها في المصباح الشبيه بالقماش المخرم والمحفوظ في معهد الفن بمدينة تشكاجو. ومن الصناع من كانوا يحشون الرسوم المحفورة بالفضة والذهب، ويبدعون المصنوعات المعدنية "الدمشقية" أي المزخرفة بفن الدمشقيين وإن لم يكن قد نشأ في مدينتهم (135). وكانت السيوف الدمشقية تصنع من الفولاذ المسقى المزين بالنقوش البارزة أو المطعم بالرسوم العربية، أو الحروف الهجائية، أو غيرها من الأشكال المتخذة من خيوط الذهب أو الفضة. وقصارى القول أن صناع المعادن المسلمين قد يراعوا في هذا الفن براءة ليس بعدها زيادة لمستزيد.

ولما انتهى عصر الفتح الإسلامية واستقر المسلمون في البلاد المفتوحة وأخذوا عنها ثقافتها ألفوا أنفسهم في صناعة الفخار الوارثين لتقاليد خمسة في هذا

صفحة رقم : 4679

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

الفن هي التقاليد المصرية، والإغريقية-الرومانية، والعراقية، والفارسية، والصينية. ونقول الصينية لأن سار Sarre، كشف في سر من رأى فخاراً من عهد أسرة تانج ومعه قطعة من الخزف الصيني الرقيق؛ وكانت الأواني الفارسية-الإسلامية في عهدها الأول منقولة نقلاً لا خفاء فيه عن نماذج صينية. ونشأت مراكز صناعة الفخار في بغداد وسامرا، والرري، وكثير غيرها من البلدان. ولم يحل القرن العاشر الميلادي حتى كان صانعوا الفخار من الفرس يصنعون كل أنواع الأنية الفخارية ما عدا الخزف الصيني، ويصنعونه في الشكل لا حصر لها تبدأ من المياصق اليدوية الصغيرة إلى المزهريات الضخمة المهولة، التي تنتسج في القليل لأحد "للصوص الأربعين" (136) ويتبين الإنسان من خير المصنوعات الفخارية الفارسية دقة التصوير، وبراعة في التلوين، وحذقاً في الصناعة لا تسمو عليها إلا الصناعات الصينية واليابانية؛ وظلت ستة قرون لا تضار عنها صناعة أخرى في جميع الأقاليم الممتدة جنوب هضبة البامير وغربها (137). وكان هذا الفن من أحب الفنون إلى الفرس وأكثرها مواءمة لهم؛ وكان أهل الطبقة العليا منهم يحرصون أشد الحرص على جميع روائعه، وكثيراً ما أخذ عنه الشعراء أمثال أبي العلاء المعري وعمر الخيام

تشبيهات واستعارات في أقوالهم الفلسفية. ويحدثنا الكتاب عن مآدبة أقيمت في القرن التاسع ارتجلت فيها قصائد، وأهديت إلى الأنية التي كانت تزدان بها المائدة (138). وقد امتاز صانعوا الفخار في سامرا وبغداد في ذلك القرن بصنع الفخار اللامع أو لعلهم هم ابتدعوه ابتداءً. وكانت النقوش التي تحليه ترسم بأكسيد معدني على طبقة من الطين المزجج، ثم يعرض الإناء بعدئذ إلى نار ثانية مدخنة مكتومة تحول الصبغة إلى طبقة معدنية رقيقة، وتكسب الطلاء بريقاً متعدد

صفحة رقم : 4680

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

الألوان. وبهذه الطريقة أخرج الصناع أواني ذات لون واحد جميل، وأخرى ذات ألوان متعددة أجمل منها خضراء ذهبية، وبنية داكنة، وصفراء، وحمراء، تتدرج بعضها تدرجاً لا يكاد الإنسان يحسه ولا تقل عن المائة عدداً وكذلك طبق هذا الفن نفسه فن الطلاء البراق على قطع القرميد التي كانت تستخدم للزينة في فن العراق القديم، فكانت ألوان هذه المربعات الكثيرة وما تتألف منها من وحدات متناسقة مما أكسب مداخل مئات المساجد ومحاريبها وكثيراً من جدران قصور العظماء روعة منقطعة النظير. وورث المسلمون في صناعة الزجاج - وهو الفن الشديد الاتصال بصناعة الفخار - كل ما امتاز به أهل مصر والشام من حذق وبراعة، فقد لونوا المصابيح بظلال من الألوان البراقة المتعددة، وزينوها بالرصاص والنقوش، ورسوم النبات والأزهار؛ ولعل أهل الشام قد ابتدعوا في ذلك الوقت فن طلاء الزجاج بالمينا، وهو الفن الذي بلغ ذروة مجده في القرن الثالث عشر. وإذا ما ذكرنا سعة انتشار فني التصوير والنحت في الكنائس الكاثوليكية الكبرى وهي التي لا تكاد تخلو من آثاره واحدة منها، وذكرنا في الوقت نفسه أهمية هذين الفنون في نشر العقائد والقصص المسيحية، إذا ما ذكرنا هذا وذاك دهشنا لعدم وجود نظيريهما في الإسلام. نعم إن القرآن قد حرم النحت (سورة المائدة الآية 89) ولكنه لم يقل شيئاً عن التصوير، غير أن حديثاً يعزى إلى عائشة يقول إن النبي قد نهى أيضاً عنه (139). ولهذا فإن الشريعة الإسلامية عند الشيعة وعند أهل السنة على السواء تحريم التصوير وإقامة التماثيل جميعاً. ولهذا التحريم نظير في الوصية الثانية وفي التعاليم اليهودية. ولعل من أسباب هذا التحريم الاعتقاد أن الفنان حين يخرج مثلاً للكائنات الحية إنما يدعي لنفسه ما هو حقوق الخالق جل جلاله. ومن علماء الدين من يتساهلون في هذا فيجيزون تصوير الجماد. ومنهم من يتغاضون عن تصوير الحيوان أو الإنسان على

صفحة رقم : 4681

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

الأشياء التي لا تستعمل إلا في الأغراض الدنيوية. وكان بعض خلفاء بني أمية لا يعينون قط بهذا التحريم؛ وشاهد ذلك الوليد الأول زين قصره الصيفي في قصر عمره حوالي عام 712 بمظلمات هلنستية صور فيها رجالاً يطاردون الوحوش. وبنات يرقصن، ونساء يغتسلن، وهو جالس فوق عرشه يشاهد هذا كله (140). وكان خلفاء بني العباس يجهرون بتقواهم، ولكن كانت لهم قصور حوت في حجراتهم الخاصة جدراناً مزينة بالصور؛ وقد استأجر المعتصم فنانيين، أغلب الظن أنهم مسيحيون، ليصنوا على جدران قصره في سامرا مناظر صيد. ورجال دين، وبنات عاريات يرقصن؛ وأجاز المتوكل، وهو الذي كان يضطهد الملحدين، المصورين من أهل بيزنطية أن يضيفوا إلى هذه المظلمات مظلاماً آخر يمثل رهباناً مسيحيين وكنيسة مسيحية (141).

وزين محمود الغزنوي قصره بصور تمثله هو وجيوشه، وفيلته؛ وغطى ابن مسعود، قبل أن يخلعه الأتراك السلاجقة عن عرشه بزم من قليل، جدران قصره في هراة بمناظر قائمة على أسس مأخوذة من كتب الفن الشهواني الفارسي أو الهندي (142). وتروي إحدى القصص أن اثنين من رجال الفن أخذاً يتباريان في بيت أحد الوزراء في التصوير الواقعي؛ فعرض أحدهما أن يصور فتاة راقصة تبدو كأنها خارجة من باطن الجدار؛ وعرض الثاني أن يقوم بعمل أشق من هذا وهو أن يصورها بحيث تبدو وهي تهم بدخول الجدار. ونجح كلاهما في إبراز فكرته نجاحاً حمل الوزير على أن يخلع عليهما خلعاً سنياً ويهبهما كثيراً من الذهب (143). وفي وسعنا أن نذكر كثيراً من الشواهد الدالة على أن المسلمين قد خالفوا أمر التحريم؛ وحسبنا أن نقول إننا نجد في بلاد الفرس بنوع خاص حيوانات وأناسي مصورة بكثرة يطرب لها الرائي، وممثلة بجميع أنواع فنون التصوير. ولكن التحريم رغم هذا كله، يؤيده الشعب تأييداً وصل من القوة إلى درجة أن كان بعض أفراده يشوهون روائع الفن أو يتلفونها، قد عاق

صفحة رقم : 4682

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

نمو فن التصوير الإسلامي، حتى اقتصر الكثير منه على التحلية المجردة، وكاد يمنع تصوير الأشخاص (وإن كنا نسمع عن وجود أربعين صورة لابن سينا)، وترك الفنانيين يعتمدون كل الاعتماد على مناصرة الملوك أو الأشراف. ولم يبق من صور الجدران في ذلك العصر إلا صور قصير عمرة؛ وهي تكشف عن خليط غريب مجذب من القواعد الفنية البيزنطية والأنماط الساسانية. وكان المسامير أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فارتفعوا بالرسوم الصغرى على العاج ومثله إلى درجة الجمال لا تعلوا عليها درجة أخرى في التاريخ كله. وقد وجد هذا الفن تراثاً متعدد الأنماط بنى عليه، وأخرج منه ثماراً مختلفة، ونعني بذلك التراث البيزنطي، الساساني، والصيني؛ وكان تزيين المخطوطات الإسلامية بالرسوم الصغيرة في العصور الوسطى فناً اختلفت به طبقات الأشراف القليلة العدد، شأنه في هذا شأن موسيقى الحجرات في أوربا الحديثة؛ فقد كان الأغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون الاحتفاظ بالفنان الفقير المخلص لفنه فقراً وإخلاصاً أنتجا هذه الروائع التي تتطلب كثيراً من الجهد والأناء. وهنا أيضاً أخضع التزيين تمثيل الكائنات الحية لسلطانه؛ فأغفل الفنان عن قصد قواعد المنظور، وخرج على الشكل الذي اتخذ أنموذجاً له، فكان يعتمد إلى موضوع أو شكل مركزي قد يكون شكلاً هندسياً أو زهرة واحدة-ويتوسط فيه ويتوسع ويخلق منه صورة مختلفة حتى لتكاد كل إصبع من الصفحة بما في ذلك إطارها تمثل بالخطوط المرسومة بدقة متناهية كأنها قد حفرت حفراً. وكان في وسع الفنان أن يزين الكتب غير الدينية بصور الرجال والنساء والحيوان، في مناظر الصيد واللهو والحب، ولكن طراز التزيين كان هو بعينه على الدوام، كان هو الصورة المكونة من خطوط دقيقة، ومن ألوان مؤتلفة منسجمة يفنى بعضها بعض، ومن المجرى الهادئ البالغ أقصى درجات الكمال، والذي يهدف إلى متعة العقل المطمئن المستريح.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

وكان الخط العربي الجميل جزءاً لا يتجزأ من فن التتميق؛ ولسنا نجد مثلاً آخر لاجتماع الكتابة والتصوير تأخيها على هذا النحو إلا في بلاد الصين البعيدة. لقد كانت الحروف الكوفية في موطنها الأول، بلدة الكوفة نفسها، حروفاً سمجة ذات زوايا، وأركان محددة فجة، ولكن الخطاط كسا هذه العظام العجاف بالحركات وعلامات الإمالة والنقط وحروف المد ورسوم صغير متخذة من أوراق النبات؛ فلما ارتقى الخط الكوفي إلى هذه الدرجة من الجمال أصبح كثير الاستعمال في تزيين المباني نفسها. أما الكتابة الدارجة فكان الخط النسخ فيها أكثر جاذبية من الخط الكوفي؛ وكانت حروفه المستديرة وكان امتداد الأفقي المتعرج كان هذان في حد ذاتهم وسيلة للزينة في غنى عن الإضافات الأخرى. وليس في خطوط العالم كله سواء كانت مكتوبة باليد أو مطبوعة ما يضارع هذا الخط في جماله؛ ولم يحل القرن العشرين حتى كانت الغلبة على الخط الكوفي في تزيين المباني أو الخزف، والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التي وصلت إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ؛ ومعظم هذه من المصاحف لأن كتابة القرآن كانت في حد ذاتها من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها صاحبها؛ وكان تزيينها بالصور تعد انتهاكاً لحرمتها، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون. وبينما كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره صناعاً يستأجرون بأجر قليل، كان الخطاطون يبحث عنهم في جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الملوك والأمراء الهدايا والأموال، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة. وكانت الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال، وكان في البلاد منذ القرن العاشر طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعه من المخطوطات الجميلة المكتبة على الرق بالمداد الأسود، والأزرق، والبنفسجي، والأحمر، وبالذهب الإبريز. ولم يصل لنا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر، وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

في دائرة الكتب المصرية بالقاهرة يرجع تاريخها إلى عام 784. وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة، وأنه قد بذل في تجليدها من حسن الذوق ومن المهارة ما لا زيادة بعده لمستزيد، وأن الجلد المغلفة به كان في كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها، إذا ذكرنا هذا حق لنا أن نقول دون أن نتهم بالمغالاة إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله. وهل منا من لا يطمع في أن تنشر كتبه بهذا الرونق وتلك الفخامة؟ وقد اجتمعت الفنون كلها في تزيين الحياة الإسلامية والسمو بها إلى ذروة الجمال، فامتزجت أشكال الرسوم الدقيقة بالخط الجميل في المنسوجات، وطبعت بالنار على الفخار؛ وأقيمت على مداخل المباني والمحاريب. وإذا كانت حضارة العصور الوسطى لم تفرق بين الصانع الماهر والفنان، فلم يكن ذلك ليحط من شأن الفنان، بل كان يرفع من

قدر الصانع الماهر، وكان الهدف الذي تبتغيه كل صناعة أن تصبح فناً من الفنون الجميلة. لقد كان الناس يخرج منسوجات عادية يستعملها عامة الناس وتبلى بعد قليل، مثله في هذا كمثل صانع الفخار سواء بسواء؛ ولكنه كان في بعض الأحيان يعبر عن حذقه وصبره، كما يصور أحلامه، في الأثواب، والسجف، والطنافس، وأغطية الفراش، والنسيج المطرز، الحرير المشجر، يخرج ليبقى عدة أجيال وقد أبدع نقشه، وصبغه بالألوان الزاهية المحبوبة في بلاد الشرق. لقد كانت المنسوجات البيزنطية، والقبطية، والساسانية، والصينية ذاتة الصيت حين فتح المسلمون بلاد الشام، وفارس، ومصر، والتركستان؛ وما أسرع ما تعلم المسلمون صناعات تلك البلاد، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى أخرجت المصانع الإسلامية المنسوجات الحريرية التي نهى النبي عن لبسها، وأخرجتها بكثرة، ولبسها النساء والرجال وهم يدعون الله أن يغفر لهم خطاياهم الجسمية والروحية. وكانت حلة الشرف أثنى ما يستطيع الخليفة أن يخلعه على من

صفحة رقم : 4685

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الفن

يؤدي له خدمة جليلة؛ وسرعان ما أصبح المسلمون كبار تجار الحرير في العالم كله في العصور الوسطى. وكانت أقمشة التفاه الحريرية تبتاع لملايس السيدات غي أوربا، واشتهرت شيراز بالأقمشة الصوفية، كما اشتهرت بغداد بأقمشة الستائر، والمظلات، والحرير المموج، وخوزستان بالأقمشة المنسوجة من وبر الجمال وشعر الماعز، وخراسان بأغطية الهوداج، وصور بالطنافس، وبخارى بسجاجيد الصلاة، وهرات بالحرير المنقوش بخيوط الذهب. ولقد عدا الدهر على هذا كله فلم يبق لنا منه مثال واحد، وكل ما نستطيعه هو أن نتصور ما كانت عليه هذه المنسوجات من الرونق والفخامة بالنظر إلى ما كان منها في القرون التالية، وبدراسة ما وصفها به الكتاب المعاصرون لها. وقد وجدت في المحفوظات الباقية من أيام هرون الرشيد مذكرة جاء فيها "400.000 قطعة من الذهب ثمن حلة وهبت لجعفر بن يحيى الوزير" (144).

صفحة رقم : 4686

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الموسيقى

الفصل الثامن

كانت الموسيقى في أول الأمر محرمة في الإسلام تعدّ من الآثام، شأنها في ذلك شأن النحت (145). نعم إنه لم ينص على تحريمها في القرآن، ولكن حديثاً مشكوكاً في صحته يعزو إلى النبي أنه لخوفه من عاقبة أغاني النساء الخليعات ورقصهن قال ما معناه إن الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته. وكان علماء الدين وأتباع المذاهب الأربعة ينفرون من الموسيقى لأنها تثير الشهوات، ولكن منهم من قال متسامحاً إنها ليست إثماً في ذاتها. أما الناس، وهم أحكم في مسلكهم منهم في عقائدهم، فكان يجري على ألسنتهم مجرى الأمثال أن "الخمير كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما" (146). وقد رافقت الموسيقى كل مرحلة من مراحل الحياة الإسلامية وملأت آلاف الليالي العربية بأغاني الحب والحرب والموت؛ فكانت قصور الأمراء وكثير من بيوت العظماء تستخدم المغنين ليطربوا أهلها بقصائد الشعراء أو بقصائدهم هم أنفسهم، وفي ذلك يقول مؤرخ قدير صائب الحكم على هذه الأمور قولاً خليقاً بأن يثير الدهشة: إن المنزلة التي بلغت الموسيقى بجميع فروعها عند العرب لتزري بمنزلة هذا الفن في تاريخ أي بلد آخر (147). "نعم إن الأذن الغربية لا تستطيع بغير مران طويل أن تقدر خصائص الموسيقى العربية-ونعني بتلك الخصائص تقضيها حسن الإيقاع على انسجام الألحان، وتقسيم النغمات إلى أثلاث لا إلى أنصاف، وما في تكوينها وتوقيعها من نظارة وبهجة هي من مميزات بلاد الشرق. وقد تبدو لنا نحن الغربيين تكراراً بسيطاً، محزناً مملأ، غريباً مستهجنًا غير منتظم. لكن الموسيقى الأوروبية نفسها تبدو للعربي ناقصة في عدد نغماتها،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الموسيقى

وفي دقة هذه النغمات؛ مولعة إلى حد الإسفاف بالتعقيد الذي لا خير فيه، وبالأصوات الناشزة الشديدة الارتفاع. وإن ما في الموسيقى العربي من رقة تبعث على التفكير لتؤثر في نفس المسلم أعمق التأثير. ويحدثنا السعدي عن غلام يغني بنغمة محزنة مؤثرة تستوقف الطائر في كبد السماء (148). ويصف الغزالي النشوة بأنها الحالة التي يبعثها الاستماع إلى الموسيقى (149). وقد أفرد أحد المؤلفين العرب فصلاً في كتابه للحديث عن الذين فقدوا وعيهم أو ماتوا وهم يستمعون إلى الموسيقى الإسلامية، وقد استعان بها الدراويش في أذكارهم وشعائرهم وإن كان الدين نفسه قد ندد بها في أول الأمر.

وبدأت الموسيقى الإسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الآسيوية النشأة وتأثرت تأثراً قوياً بالموسيقى الفارسية والهندية. وقد أخذت إحدى العلامات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان؛ وللكندي، وابن سينا، وإخوان الصفا، كتابات مطولة في هذا الموضوع؛ وكتاب الفارابي في الموسيقى أشهر ما ألف في العصور الوسطى في النظريات الموسيقية وهو يضارع أي كتاب وصل إلينا من المصادر اليونانية إن لم يفقه (150). وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسيقي (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفاً في أوروبا قبل عام 1190) (151) وكانت علاماتهم تدل على طول الزمن الذي تمتد إليه كل نغمة وعلى مقاماتها (152). وكان عند العرب آلات موسيقية تبلغ المائة عد أشهرها العود، والقيثارة، والبنودور، والسنتير، والناي، ويقويها في بعض الأحيان البوق، والدف، والصنج، والرق، والطبل. وكان العود على أنواع وأحجام كثيرة لا تقل عن الأثني عشر؛ وكان الكبير منها يسمى القيثارة. وعن العرب أخذت كلمتا Iute, Guilar. وكان القوس يستعمل للعزف على بعض الآلات الوترية، وكان الأرغن بنوعيه الهوائي والمائي معروفاً عند العرب؛ وقد اشتهرت

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الموسيقى

بعض المدن الإسلامية كإشبيلية بصنع الآلات الموسيقية الدقيقة التي لا تضارعها آلات أخرى مما كان يصنع وقتئذ في بلاد الإسلام (152). وكان يقصد بالموسيقى الآلية كلها تقريباً أن تصحب الغناء أو أن تكون مقدمة له. وكان يقتصر في العادة على استخدام أربع آلات أو خمس في وقت واحد، ولكننا نقرأ أيضاً عن فرق موسيقية كبيرة العدد (153)، وتقول إحدى الروايات المتواترة إن سريج الموسيقى من أهل المدينة أول من استعمل القضيب (154). وكانت منزلة الموسيقيين عند المسلمين منحة إذا استثنينا مشهور الفنانين وذلك على الرغم من ولع المسلمين بهذا الفن ولعاً يبلغ حد الجنون. وشاهد ذلك أننا قلما نرى من أفراد الطبقات العليا من نزل من عليائه فدرس هذا الفن الفاتن الذي يسلب العقول. ومن أجل هذا كانت الموسيقى في بيوت الأغنياء من عمل القيان، ومن المشرعين فئة تقول إن شهادة الموسيقى لا تقبل في المحكمة (155). وكذلك كان الرقص عنهم يقتصر على الجوارى يدرين عليه ويستأجرون له؛ وكان في كثير من الأحيان رقصاً شهوانياً، وفي كثير منها فنياً. وقد أقام الخليفة الأمين حفلة راقصة دامت طوال الليل رقص فيها عدد كبير من الفتيات وغنن. ولما اتصل العرب باليونان والفرس ارتفعت منزلة الموسيقيين عندهم، وكان الخلفاء الأمويون والعباسيون يغدقون الهبات على كبار الموسيقيين في أيامهم؛ فها هو ذا سليمان بن عبد الملك يعرض جوائز تبلغ عشرين ألف قطعة من الفضة (10.000 دولار أمريكي) لمباراة بين الموسيقيين في مكة. وهاهو ذا الوليد الثاني يعقد مباريات في الغناء كانت الجائزة الأولى في واحدة منها 300.000 قطعة من الفضة (150.000 دولار أمريكي) (156)، وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها كعادة أهل الشرق. وقد دعا المهدي إلى بلاطه مغنياً مشهوراً من أهل مكة، ودعا هرون الرشيد إلى بلاطه إبراهيم الموصلي وأعطاه 150.000 درهم (75.000 دولار أمريكي) ورتب له عشرة آلاف شهر ووهبه 100.000 نظير أغنية واحدة. وقد بلغ من حب هرون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الموسيقى

أخيه لأبيه، الشاب إبراهيم ابن المهدي-على الرغم من تقاليد طبقته-لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمان طبقات. وإن الزمن لبيتضاءل في خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عندما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية في الموسيقى العربية مضادة للنزعة الإبتداعية نزعة إسحق بن إبراهيم الموصلي. وكان المأمون يقول عنه أنه لم يغن لي قط إلا شعرت بأني قد اتسع ملكي (159).

والقصة الآتية التي يرويها مخارق تلميذ إبراهيم الموصلي تصور لنا المجتمع الإسلامي بصورة مبهجة، وتظهر ما كان للموسيقى الإسلامية من أثر قوي في نفس المسلم؛ ولسنا في حاجة إلى تصديقها لكي نحس بمغزاها، قال:

تطلعت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بمائة ألف درهم، فقيل له كيف ذلك؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح، فلما أصبحنا قلت له: يا سيدي إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فأخرج الرصافة فأنتسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين قال نعم، وأمر البوابين أن يتركوني؛ فخرجت أتمشي فإذا بجارية كأن الشمس تشرق من وجهها فتبعتها، ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على صاحب فاكهة فاشتريت منه سفرجلة بدرهم، ورمانة بدرهم وكمثرية بدرهم وانصرفت. فتبعتها، فالتفتت فرأيتي فقالت يا ابن الفاعلة إلى أين تريد؟ قلت خلفك يا سيدتي؛ فقالت ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك. فتأخرت ومشيت من بعيد وهي تمشي أمامي، ثم التفتت فرأيتني فشممتني شتماً فيبحاً. ثم جاءت إلى باب كبير فدخلت فيه وجلست أنا بحذاء الباب، وقد ذهب عقلي، ونزلت علي الشمس، وكان يوماً حاراً، فما لبثت أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين؛ فلما وصلا إلى الباب استأذنا فأذن لهما، فدخلنا، ودخلت معهما، فظننا أن صاحب المنزل قد دعاني. وجيء بالأكل فأكلنا وغسلنا أيدينا، ثم قال لنا صاحب المنزل: هل لكما في فلانة؟ قالوا: إن تفضلت. فاستدعى تلك الجارية، فخرجت صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها، فوضعت في حجرها وغنت، فشربوا وطربوا، فقالوا: لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق. ثم غنت صوتاً آخر فشربوا

صفحة رقم : 4690

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الفكر والفن في بلاد الإسلام الشرقية -> الموسيقى

وطربوا وهي تلحظني وتشك في، فقالوا: لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق. ثم غنت صوتاً ثالثاً فطربوا وشربوا، فقالوا لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق. فلم ألبث أن قلت: يا جارية شدي يدك فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه. فاستدعيته بدواة وقضيب وغنيت الصوت الذي غننه الجارية أولاً، فقاموا إليّ وقبلوا رأسي. (قال الراوي) وكان مخارق أحسن الناس صوتاً وكان يوقع بالقضيب توقيحاً عجبياً. ثم غنيت الصوت الثاني والثالث فكدت عقولهم تطير. فقالوا بالله من أنت يا سيدي؟ فقلت: أنا مخارق. فقالوا ما سبب مجيئك؟ قلت: طفيلي أصلحك الله، وأخبرتهم بخبري، فقال صاحب البيت لصديقيه: أما تعلمان أنني أعطيت في الجارية ثلاثين ألف درهم فامتعت عن بيعها؟ قالوا: بلى. قال: هي له. قال صديقه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف. قال مخارق فملكوني الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها (وبغيرها من الأثواب الغالية والهدايا الأخرى الثمينة التي أهدوها إلي)، وكلما مرت بالموضع التي شتمتني فيها أقول لها: يا مولاتي: أعيدي كلامك؛ فتستحي مني فأحلف عليها لتعيده فتعيده حتى وصلنا إلى باب أمير المؤمنين (فقيل لي إنه انتبه وطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجده وتغيظ عليك غيظاً شديداً)، فدخلت عليه ويدي في يدها فلما رأني سبني وشتمني، فقلت: يا أمير المؤمنين: لا تعجل. وحدثته القصة فضحك وقال: نحن نكافئهم عنك. فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ولي بعشرة آلاف.

صفحة رقم : 4691

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقيا

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءاً من العالم الإسلامي، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لهما من حكومة منظمة؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين. أما أسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة؛ ولما حكم الممّل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة، وأبدعوا كما يبدع الصياغ.

وبينما كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص، بعد موت النبي بما لا يزيد على سبع سنين؛ من مدينة غزة في فلسطين واستولى على بلوز ، ومنفيس، ثم زحف على الإسكندرية. لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية، وكان العرب في حاجة ماسة إلى أسطول؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية، وكانت بلاد العرب في حاجة إلى الحبوب، وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب في شرطتها، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين؛ وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا

الأمرين من جراء اضطهاد بيزنطية؛ ولهذا رحب بقدم المسلمين، وأعانوهم على استيلاء منفيس، وأرشدوهم إلى الإسكندرية، ولما سقطت تلك المدينة في يد عمر وبعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (641) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول: "أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أنني أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمئة ملهى للملوك".
وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية. ولم يكن في وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة.
وبعد، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت في كتاب عبد اللطيف (1162-1231)، أحد العلماء المسلمين (2)؛ ثم أوردتها بتفصيل أوفى بار هيربوس (Bar Hebraeus 1226-1286) وهو مسيحي يهودي الأصل من شرقي بلاد الشام كتب باللغة العربية، باسم أبي الفرج، مختصراً لتاريخ العالم. وقد جاء في روايته لهذه القصة أن رجلاً من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما في المكتبة من مخطوطات؛

صفحة رقم : 4693

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقية

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه في هذا؛ فرد عليه عمر، كما تقول الرواية، بقوله: "أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها". وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطوري في أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير: "احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن". ويضيف بار هيربوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بملفات البردي والرق سنة أشهر (642). ومن نطق الضعف في هذه القصة: (1) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطريق توفيلس عام 392(3)، (2) وأن ما بقي فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضاً "أدى إلى ضياع معظمه قبل عام 642" (4)، (3) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحديث المزعوم في الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس Eutychius كبير أساقفة الإسكندرية في عام 933 وقد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير (5). ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة. هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئاً فشيئاً من المأسى الكبرى في تاريخ العالم؛ وذلك بأنها، كما يعتقد العلماء، كانت تحتوي على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس، وسفكل، وبوليبوس، وليفي، وتاستوس، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة، كما كانت تحتوي على نصوص الكاملة لمن جاء قبل سقراط من الفلاسفة، وهي النصوص التي لم يبقَ منها إلا جذازات متفرقة، وعلى آلاف من المجلدات في تاريخ اليونان، والمصريين،

صفحة رقم : 4694

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقية

والرومان، وفي العلوم الطبيعية، والآداب والفلسفة. وحكم عمر مصر حكماً صالحاً؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة لتطهير قنوات الري وترميم الجسور، وإعادة فتح الخليج الذي كان يوصل النيل بالبحر الأحمر، والذي يبلغ طوله ثمانين ميلاً. وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي (6) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى في عام 732 وأهمل شأنه). وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر في الموضع الذي أقام فيه معسكر عام 641 وسميت العاصمة الجديدة بالفسطاط، وهي كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة. وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة؛ وقد ظلت قرنين كاملين (641-868) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد. وبعد فإن من الحقائق المقررة أم كل فتح يخلق حدوداً جديدة تتعرض للخطر فتوحي بفتح جديد. وأراد المسلمون أن يحكموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربي من قيرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل مختارين الصحراء إلى برقة، واستولوا عليها، ووصلوا قرب قرطاجة. وغرس قائد المسلمين رمحه في الرمل جنوبي مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلاً، وأقام في هذه النقطة معسكره، وأنشأ بذلك (670) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية وهي مدينة القيروان - "المحطة". ونسي البربر إلى حين حقدهم على الروم فانظموا إليهم في الدفاع عن المدينة، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا في عام 698. ولم يلبث

صفحة رقم : 4695

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقية

شمال إفريقية أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطي. واقتنع البربر - بشروطهم هم أنفسهم تقريباً - بقبول حكم المسلمين، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامي، وقسمت أملاك المسلمين في إفريقية إدارياً إلى ثلاث ولايات: ومص وعاصمتها الفسطاط، وإفريقية وعاصمتها القيروان، والمغرب (مراكش) وعاصمتها فاس. وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة. فقامت أسرة الأدارسة في فاس (974)، وأسرة بني الأغلب (800-909) تحكم القيروان، وقامت الأسرة الطولونية (869-905) في مصر. ولم تعد مصر نهياً للحكام الأجانب، ودخلت في نهضة صغرى جديدة. وفتح أحمد بن طولون عام (869-884) بلاد الشام وضمها إلى مصر، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحي الفسطاط) وشجع العلوم والفنون، وشاد القصور، والحمامات العامة، وأنشأ بيمارستاناً، ومسجداً عظيماً لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضلِهِ: وقلب ابنه خماريه (884-895) هذا النشاط إلى ترف، ورسع جدران قصره بالذهب، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشئ لنفسه بركة من الزئبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم. وخلفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاماً أسرة تركية أنشأها الإخشيد (935-969). ولم تكن لهذه المماليك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده، ولهذا كان لا بد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين، فلما أضعفت الثروة حماسها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجود. وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سيادتها الحربية بعقيدة دينية تكاد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقيا

تبلغ درجة التعصب؛ ذلك أن أبا عبد الله قام في بلاد تونس عام 905 وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأئمة السبعة، ويبشر بقرب ظهور المهدي؛ وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغلبية من القيروان. وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره في أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الإسماعيلية، وأعلن أنه المهدي المنتظر، ونادى به ملكاً (909)، وما لبث هذا الداعية أن قُتل بأمر مليكه. وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها.

واستعاد شمال إفريقيا تحت حكم الأغلبية والفاطميين ما عرفه من رخاء في أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان. ذلك أن الفاتحين المسلمين في عنفوان شبابهم في القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين 1500 و2000 ميل تخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو، كما أنشئوا من الثغور في الشمال والغرب بونة، ووهران، وسبتة، وطنجة؛ وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا، واشتهرت بأصباغها وعطروها، وطرايبشها الحمر والمغربية. وانتزع الفاطميون في عام 969 مصر من بني الإخشيد، وما لبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام. ونقل المعز الخليفة الفاطمي عاصمة ملكه إلى القاهرة؛ وكانت امتداداً للقطائع في جهة الشمال الشرقي كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط في هذا الاتجاه. وحذا المعز حذو أسلافه فشرع بغزو البلاد ويفتح الأمصار. وفي عهد المعز (943-975) وابنه العزيز (975-996) أعاد يعقوب بن كلس -وهو يهودي من بغداد اعتنق الإسلام- تنظيم الإدارة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقيا

المصرية، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم. ويشهد بذلك أنه حين توفيت رشيدة أخت المعز خلفت وراءها 2.700.000 دينار (12.825.000 دولار أمريكي)، و12.000 ألف ثوب؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة آلاف مزهرية فضية، وأربعمائة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية، وثلاثين ألف قطعة من المنسوجات الصقلية، ومقداراً ضخماً من الجواهر (7). ولكن لا شيء يسقط كالنجاح، وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (996-1021) جن من فرط الثراء والسلطان، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء، واضطهد المسيحيين واليهود، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد، وأمر بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح، وكان تنفيذ هذا الأمر من أسباب قيام الحروب الصليبية.

وكانما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور كلجيولا، فنادى بنفسه إلهاً، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس، فلما أم قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود، وأعاد بناء كنائسهم ومعابدهم. واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين.

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يخص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوروبا وآسية، وازدادت عدد السفن التي ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي، والبحر الأحمر، والنيل إلى مصر. واطمحت ثروة بغداد، وضعفت قوتها بينما زاد سلطان القاهرة وثراؤها وقد زار ناصر بن خسرو العاصمة الجديدة في عام 1047 وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت، معظمها من الأجر ترتفع إلى خمس طبقات أو ست، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب، والجواهر، والأقمشة المطرزة، والحريز إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس (8) فيه. وكانت الشوارع الكبرى مظلمة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل. وكانت الحكومة تحدد الأثمان، وتقبض على من يبيع بأعلى منها، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جرمه (9). وكان ذوو

صفحة رقم : 4698

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> فتح أفريقيا

الثروات الضخمة كثيري العدد؛ وقد استطاع أحد التجار، وهو مسيحي، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصيبت فيها البلاد بالقحط بسبب انخفاض فيضان النيل؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازي ثلاثين مليون دولار أمريكي (10). واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين في بناء المساجد، وإنشاء دور الكتب، والمدارس الكبرى، وتشجيع العلوم والفنون. وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات، ومن ترف وإتلاف، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال، ومن العدد المطلوب من الحروب؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أي عهد آخر في تاريخ مصر (11). وأخذ حكم الفاطميين في الضعف أيام المستنصر (1036-1094)، وهو ابن أمة سودانية. وقد أقام هذا الخليفة سرداقاً فخماً يقضي فيه أوقات ممتعة، وعاش عيشة الموسيقى، والخمر، واللذة؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق في حجر أسود، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم في مكة) (12). وثار عليه جنوده الأتراك في عام 1067، وأغاروا على قصره، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن، ومقداراً عظيماً من الجواهر، وحمل خمسة وعشرين بغيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواربهم. ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية، وانقسم جيشها الذي كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من البربر، وسودانيين، وأتراك؛ وكانت إفريقيا ومراكش قد انفصلتا عنها، وثار عليها فلسطين، وضاعت منها بلاد الشام. ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين في عام 1171، كانت أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس في الملذات إلى ما ساق إليه سابقتها من الضعف والفناء.

صفحة رقم : 4699

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في إفريقيا

الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية في إفريقيا

كان الأمراء والخلفاء في القاهرة، والقيروان، وفاس، ينافس بعضهم بعضاً في إقامة المباني، وتشجيع التصوير، والموسيقى، والشعر، والفلسفة؛ ولكن كل ما بقي من المخطوطات من ذلك الوقت في شمالي إفريقيا مخبوء الآن في دور الكتب التي لم يبدأ علماء الغرب في ارتيادها إلا منذ وقت قريب. وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها. ففي القيروان مسجد سيدي عقبة الذي أنشئ أولاً في عام 670 وجدد بناؤه سبع مرات، والذي يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام 838. وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئات من العمود الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجة، ومينيره آية رائعة من آيات النحت الخشبي، ومحرابه من الرخام السماقي والفانثاني؛ ومئذنته المربعة الضخمة. وهي أقدم مئذنة في العالم (13). أصبحت هي الطراز السوري الذي أقيمت على مثاله مآذن الغرب. وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة "أبواب الجنة الأربعة" ولا تقل مساجد فاس، ومراكش، وتونس، وطرابلس عنها في الروعة والفخامة إلا قليلاً. وكانت المساجد في القاهرة ضخمة كثيرة العدد؛ ولا تزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلاثمائة من هذه المساجد. ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص وقد بدئ بإنشائه في عام 641، وأعيد بناؤه في القرن العاشر، ولم يبق من

صفحة رقم : 4700

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في إفريقيا

أجزائه الأولى في هذه الأيام إلا عمده الكورنثية التي أنقذها العرب بحكمتهم من الخرائب الرومانية والبيزنطية. ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظاً بشكله الأصلي ونقوشه الأولى، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات، وفي داخله عقود مستديرة (غير مستديرة) هي أقدم ما يوجد من نوعها في مصر، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (865). وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر. وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوروبا القوطية عن طريق صقلية والنورمان (14). وفي مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجي) والشبيهة بصروح الزجرات البابلية، وفي القبة المقامة فوق قبر ابن طولون، عقود على شكل حذاء الفرس، وهي إحدى المظاهر الإسلامية التي لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامي. ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلاثمائة عمود، فلما علم أن هذه العمود لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العمائر الرومانية والمسيحية، قرر أن يقيم هذه العقود بدلاً من هذا على عمد ضخمة من الأجر (15)، وربما كان هذا

الطراز من العمد قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطي. وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون، وبعضها بالشبابيك الجصية على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق.

وفي 970-972 أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي وهو عبد مسيحي اعتنق الإسلام وكان القائد الذي فتح مصر للفاطميين. ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد في مكانها؛ وفيه أيضاً نجد العقود المستدقة على 380 عموداً من الرخام، والجرانيت، والرخام السماقي. وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

صفحة رقم : 4701

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

من الحجر، ولا يزال معظمه باقياً وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن. وفي وسعنا أن نتصور ما كان عليه ن عظمة في العصور الوسطى بالنظر إلى نقوشه العربية الطراز، الرشيقة، المصنوعة من الجص، ومن الكتابات الكوفية الجميلة التي يزدان بها إفريزه. وقد كانت هذه المساجد، التي تبدو الآن معاقل أشبه بالقلاع-وما من شك في أنها صممت لتكون قلاعاً أيضاً-تزدان بكثير من روائع النحت، والكتابات، والفسيفساء، والمحاريب المطعمة، والقناديل التي أضحت الآن تحفاً نادرة في متاحف. وكان بمسجد ابن طولون وحده 18.000 قنديل كثير منها من الزجاج المطلي بالمينا المختلف الألوان(16).

وكانت الفنون الصغرى شائعة في إفريقيا الإسلامية، يمارسها المسلمون بما عرف عنهم من الصبر والدقة. فالقاشاني البراق يشاهد في جامع القيروان، وقد وصف ناصري خسرو (1050) الخزف الذي كان يصنع في القاهرة بأنه رقيق بلغ من شفيفه أن اليد وضعت في خارجه تستطاع رؤيتها من داخله(17). واحتفظ الزجاج المصري والسوري بكل ما كان له من جمال في العهود القديمة، وتحتفظ متاحف البندقية وفلورنس والوفور بالآنية المصنوعة من البلور الصخري في عهد الفاطميين، وكان ناحتو الخشب يدخلون البهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد، والمنابر، والمحاريب، والنوافذ الشبكية. وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بنزصيعها أو تطعيمها بالعاج، أو الأبنوس، أو الأصداف. وكانت الجواهر كثيرة موفورة، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية- كالمحابر، وقطع الشطرنج، والمزهريات، والطيور، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار الكريمة....(18)، وكان من بين ما انتهوه سائر من الحرير المطرز بخيوط الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم. كذلك تعلم المسلمون

صفحة رقم : 4702

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب؛ ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من صر الإسلامية إلى أوربا على أيدي الصليبيين، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة. وكان التجار الأوربيون يقدرّون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات، ويتحدثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية، التي تبلغ من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر في خاتم الإصبع (19). ويحدثنا المؤرخون عن طنافس من عهد الفاطميين، وعن خيام منسوجة من المخمل، والساتان، والدمقس، والحريير، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب، مزينة كلها بالرسوم، ومن هذه خيمة صنعت لليازوري وزير المستنصر عمل فيها مائة وخمسون صناعاً أكثر من تسع سنوات. وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار (142.000 دولار): وصور عليها، كما يقولون، جميع مل عرف من أنواع الحيوان في العالم كله، عدا "الإنسان الذئب". غير أن الرسوم الفاطمية كلها لك يبق منها إلا قطع من المظلمات في دار الآثار العربية بالقاهرة، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمي في مصر؛ لكن المقريري الذي كتب في القرن الخامس عشر تاريخاً للتصوير يقول إن مكتبة الخلفاء الفاطميين تحتوي على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة من بينها 2.400 مصحف. وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله تحتوي مائة ألف من المجلدات؛ وكان بها في عهد المستنصر 200.000. ويقول المؤرخون إن الكتب كانت تعار لمن يطلبها من الدارسين ذوي السمعة الطيبة من غير أجر. وغي عام 988 أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة وثلاثين طالباً في الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم، وبهذا نشأت

صفحة رقم : 4703

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

أقدم جامعة في العالم كله. ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلاباً من جميع أنحاء العالم الإسلامي، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلاباً من جميع أنحاء أوربا. ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء، والوزراء، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالمجان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر 10.000 طالباً وعدد الأساتذة ثلاثمائة (20). ومن أجمل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى جانب عمود أمام أحد العلماء. وكان كبار العلماء الذائعي الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أنحاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو، والبلاغة، والرياضة، والعروض، والمنطق، والعلوم الدينية، والحديث، والتفسير، والشريعة الإسلامية. ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً، كما لك يكن الأساتذة يتناولون مرتبات. وإذا كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين، وكان لعلمائها تأثير مثير للأدب الفاطمية، والفلسفة، والعلوم، ولهذا لم مسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة. وأنشأ الحاكم في القاهرة "دار الحكمة"؛ وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب. وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً، وأعان بالمال على بني يونس (المتوفى سنة 1090م)، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين. وبعد أ، ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم "الأزياج الحاكمة" التي توضح حركات الكواكب، ومواقبتها، وحدد بدقة أكثر من ذي قبل ميل مستوى الفلك،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

ومبادرة الاعتدالين، وزاوية اختلاف منظر الشمس. وأشهر العلماء كلهم بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن هيثم المعروف عند الأوربيين باسم "Alhazen". وقد ولد في البصرة عام 965 واشتهر فيها بنبوغه في الهندسة والرياضة. وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيل السنوي فدعاه إلى القاهرة، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذي النزوات الشاذة. وافتتن الرجل، كما افتتن جميع المفكرين في العصور الوسطى، بمحاولات أرسطو في ربط المعارف كلها بعضها ببعض، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف، لم يصل إلينا شيء منها. وأهم ما يشتهر ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر في البصريات وهو في أغلب الظن أعظم مؤلف في العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمي في طريقته وتفكيره. وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة كالهواء، والماء واقترب مع اختراع العدسة المكبرة قريباً جعل روجر بيكن Roger Bacon، ووينلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعد ثلاثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحثه فيما بذلوه من الجهود لاخترع المجهر والمركب. وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكي القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئي من العين يصل إلى الجسم المرئي، وقال إن صورة الجسم المرئي تصل إلى العين ومنها تنتقل بواسطة الجسم الشفاف-أي العدسة(21). ولاحظ أثر الجو في ازدياد الحجم الظاهري للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق؛ وأثبت أن انكسار الأشعة في الجو يجعل ضوء الشمس يصل إلينا حتى بعد أن يختفي قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوي بعشرة أميال (إنجليزية). وحل العلاقة بين ثقل الهواء الجوي وكثافته، وبيت أثر كثافة هذا الهواء في أوزان الأجسام، واستخدم قوانين رياضية معقدة في دراسة فعل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

الضوء في المرايا الكرية، والتي في شكل القطع المكافئ، وعند مروره في العدسات الزجاجية الحارقة. ورصد صورة الشمس المماثلة لصورة نصف القمر وقت الخسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير في مصراع شبك. وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التي تعتمد عليها التصوير الشمسي بكافة أنواعه. وليس في وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ في بيان أثره في العلوم الأوربية: وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكن؛ وها هو ذا روجر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات Opus Mains دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه. والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة. ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كيلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم.

وأبرز النتائج التي أسفرت عنها فتح العرب لشمالي إفريقيا هو اختفاء المسيحية من هذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً. ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه. وما من شك في أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل في هذه النتيجة الحاسمة: فقد كان غير الملمين يؤدون الفريضة، التي أعفي منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام. ولما أن عرض والي مصر العربي على أهل البلاد هذا الإعفاء عام 744 اعتنق الإسلام 24.000 من المسيحيين (22). وربما كان الاضطهاد الذي وقع على المسيحيين، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ولكنه شديد، قد أثر في كثيرين من المصريين فحملهم على الدخول في دين الحكام. غير أن أقلية قبطية في مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

صفحة رقم : 4706

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الحضارة الإسلامية في أفريقيا

بالحصون، كانت تؤدي فيها مناسكها سرّاً، ولا تزال باقية في تلك البلاد إلى يومنا هذا. ولكن كنائس الإسكندرية، وقورينة، وقرطاجنة، وإفريقية، التي كانت تزدحم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتنداعى، وانمحت من الأذهان ذكريات أنتاسيوس، وسيريل Cyril، وأوغسطين، وخبث نيران المنازعات بين الأريوسيين، والدونانيين، واليعاقبة المسيحيين، حل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين. وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية في جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة، واستخدموا أعضائها في التجسس والدسائس السياسية. وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوربا، وكان لها أكبر الأثر في أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التي قامت في العالم الغربي كما كان لها أكبر الأثر أيضاً في طقوسها وملابسها. وترى رجل الأعمال الأمريكي بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً، بفخر بعقيدته السرية، وطربوشه الفاسي ومسجده الإسلامي .

صفحة رقم : 4707

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في بلاد المتوسط

الفصل الثالث

أدرك زعماء الإسلام، بعد فتح الشام ومصر، أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول. وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودرس وهزمت العمائر البيزنطية (652، 655)، ثم احتلوا قورسقة في عام 809 وسردينية في عام 810 وإقريطش (كريت) في 823، ومالطة في 870، وبدأ في عام 827 النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية، فأرسل الأغالية أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهرق؛ فسقطت بالرم في عام 831، ومسينا في 841، وسرقوسة في 878، وتارمينا في 902. ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغالية (909) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبى والى صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة، وأسس فيها الأسرة الكلبية، وفي عهدها بلغت الحضارة الإسلامية في صقلية ذروة مجدها.

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي إيطاليا. وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل في نطاق العادات الشريفة، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على "الكفرة" ويبيعونهم في أسواق الرقيق، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين، ومعظمها

صفحة رقم : 4708

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في بلاد المتوسط

من تونس وصقلية، تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي. فاستولى المسلمون في عام 841 على باري القاعدة البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا؛ وفي العام التالي انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لمبارد دوق بنفنتو Benevento ليساعده على سالرنو Salerno، ثم عادوا منها بعد أن أتلقوا الحقول وخربوا الأديرة. وفي عام 864 نزل ألف ومئتان من المسلمين في أستيا Ostia، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار روما، ونهبوا ضواحي المدينة وكنيسة القديسين بطرس وبولس، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم. ورأى البابا ليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا، فأخذ هذه المهمة على عاتقه، وعقد حلفاً بين روما وبين أملي Amalfi، ونابلي، وجيتا Gaeta ومد سلسلة في عرض نهر التييز ليمنع العدو من اجتيازه. وبذل العرب في عام 849 محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب؛ فقابلهم الأسطول الإيطالي المتحد بعد أن باركه البابا، وهزمهم، وقد صور رفائيل منظر الواقعة في قصر الفاتيكان، وفي عام 866 جاء الإمبراطور لويس الثاني من ألمانيا، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبي إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى باري وتارنتو Taranto؛ وما وافى عام 844 حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة. ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع، وظلت إيطاليا الوسطى جيلاً من الزمان يغشاها جو من الخوف والفرع في كل يوم من أيام حياتها. ففي عام 876 أغاروا على كمبانيا ونهبوها، وهددوا روما تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدي لهم جزية

سنوية مقدارها 25.000 منقوص (حوالي 25.000 دولار أمريكي) حتى يكفوا عن الإغارة عليها(23). وفي عام 884 أحرقوا دير مونتي كاسينو العظيم ودمروه عن آخره. وشنوا غارات أخرى منقطعة نهبا فيها وادي نهر الأنبيو Anio. ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطوري

صفحة رقم : 4709

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في بلاد المتوسط

بيزنطية وألمانيا، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (916) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا، وهو العهد الذي دام مائة عام، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب. ولو أن روما سقطت في قبضتهم لرحفوا على البندقية، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان. ترى إلى أي حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادقاتها! وخضعت الثقافة الصقلية المتعدد الأصول في أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عاداتها إلى الفاتحين الجدد، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعهم القديم، واختلط في شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus أو بالرم العربية، وبالرمو الإيطالية، الصقليون، واليونان، واللمبارد، وكلهم يكره بعضهم بعض من الناحية الدينية، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عاديين في عواطفهم، وشعرهم، وجرائمهم. وفيها شاهد ابن حوقل حوالي عام 970 نحو ثلاثمائة مسجد، وثلاثمائة من معلمي المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون-كما يقول العالم الجغرافي-من قلة الذكاء وخفة الأحلام(34). هذا وإن كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس، فقد كانت تربتها غاية في الخصب، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيماً بين أوربا المسيحية وإفريقية الإسلامية؛ وما لبثت أن صارت من أغنى المدن في بلاد الإسلام؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة، والجواهر المتألثة، وفنون الزينة، مما جعل الحياة في الجزيرة تسير سيراً هادئاً في غير عجلة ولكن في غير إسفاف. ويصف الشاعر الصقلي ابن حمديس (1055-1132) الساعات التي يقضيها الشاب بالرمي في متعته، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل، وعن اختلاط الرجال والنساء في الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الهموم، وعن

صفحة رقم : 4710

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في بلاد المتوسط

الفتيات المغنيات اللاتي يدغدغن العود بأصابعهن اللطيفة، ويرقصن كأنهن الأقمار الساطعة فوق الأغصان اللدنة(25).

وكان في الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاكة الحلوة، والشعر الموزون، ولأن الحب الصقلي كان يمدهم بموضوعات جمّة مثيرة للخيال. وكان في الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة؛ وكان فيها أطباء عظام، لأن الطب الإسلامي الصقلي قد أثر تأثيراً ذا بال في مدرسة سالرنو الطبية (26). ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدا العربي الزاهر، وتراناً شقيقاً من الصناعات والصناعات أورثه العرب ثقافة فنية راغبة في أن تتلقى العلم على أي جنس وأي دين. ولما فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (1060-1091) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين في صقلية؛ وها هو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض "المدائن، والقلاع، والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها" (27). ولكن الطراز المعماري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا، وعلى سقف كابلا بلاتينا Capella Polatina، ففي هذا المعبد القائم في قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية.

صفحة رقم : 4711

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمرء

الفصل الرابع

الإسلام في إسبانيا

1086-711

1- الخلفاء والأمرء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا إسبانيا أولاً بل الذين فتحوها هم المغاربة، فقد كان طارق من البربر، وكان في جيشه سبعة آلاف من بني جنسه مقابل ثلاثة آلاف من العرب، وقد خُذ اسمه، إذ سميت به الصخرة التي نزلت قواته عند قاعدتها، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى جبرولتر Gibraltar. وكان الذي سير طارقاً إلى فتح إسبانيا هو موسى بن نصير والي شمال إفريقيا العربي. ثم عبر موسى البحر في عام 712، ومعه 10.000 من

الجنود العرب و8000 من البربر وحاصر إشبيلية ومريدة، ولام طارق لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له، وضربه بالسوط، وزجه بالسجن؛ ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه. وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لإشبيلية؛ ولكن سليمان أخوا الوليد ارتاب في نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس، فأرسل إليه من اغتاله وجيء برأسه إلى سليمان في دمشق، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه، فبعث يستدعي موسى، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه. ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن(28). ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التي تروى عن حب الملوك لسفك الدماء.

صفحة رقم : 4712

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمراء

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة، ولم يصادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة، ولم يفرضوا على الأهليين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به إسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة. ولما أن توطد مركز المسلمين في إسبانيا، عبروا جبال البرانس ودخلوا غالة يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق. والتقى بهم بين تور وبواتيه على بعد ألف ميل شمالي جبل طارق جيش متحد مؤلف من قوى يوديس E(des) دوق أكتوين، وشارل دوق أستراليا Austrasia. ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها في واقعة من أهم الوقائع الحاسمة في التاريخ (732)؛ وفيها قررت مصادفات الحرب مرة أخرى الدين الذي يتبعه الملايين التي لا يحصى عددها من بني الإنسان. ومن هذا الوقت أطلق على شال اسم شارل مارتلس Chsrles Martellus أي شارل المطرقة. وأعاد المسلمون الكرة في عام 735 واستولوا على أريليس Arles، ثم فتحوا أفنيون Avignon في عام 737 وخرّبوا وادي نهر الرون حتى ليون. وفي عام 759 أخرجهم ببين القصير Pepin the Short نهائياً من جنوب فرنسا؛ ولكم الأربعين عاماً التي تنقلوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظن ذات أثر قوي فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادي بين الأديان المختلفة، ومن مرح كثير ومن حب لأغاني الغزل غير المباح.

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرّون إسبانيا حق قدرها، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام 756 إلى باسم "الأندلس"، وكان يحكمها واليعين من القيروان. لكن شخصية روائية نزلت في إسبانيا عام 755، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجري في عروقها من الدم الملكي، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تنقل في مجدها وتراثها عن خلفاء بغداد. ذلك أنه لما أمر بنو العباس في عام 750 أن يقتل جميع الأمراء الأمويين، لم ينبج من هؤلاء الأمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

صفحة رقم : 4713

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء
والأمراء

الخليفة هشام. وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة، واجتاز الصحراء إلى فلسطين، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراكش. وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهمت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب، والسوريين، والفرس، والمغاربة في إسبانيا. وكن في تلك البلاد طائفة من العرب مخلصا الأمويين تخشى أن يعترض الخلفاء العباسيون على حقها في تملك الأراضي التي وهبها لهم ولآلة بني أمية، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم. فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (756)، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينتزعها منه، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور في مكة. ولعل هذه الحوادث هي التي منعت انتشار الدين الإسلامي في أوروبا: ذلك أن إسبانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح، بل انسحب المسلمون من شمالي إسبانيا، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادي عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحي، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا Coimbra ماراً بسرقسطة ومحاذياً لنهر الإبرة، وازدهر النصف الجنوبي الإسلامي بعد أن بسط فيه لواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه، فعمه الرخاء، وترعرع فيه الشعر والفن. واستمتع عبد الرحمن الثاني بثمار هذا الرخاء؛ فقد اتسع وقته، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده، وقمعه للثورات التي كان يقوم بها رعاياه، وصد الغارات التي كان يشنها النورمان على سواحل بلاده، واتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد، وإجزال العطاء للشعراء. وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة ليننة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعي. وكان عبد الرحمن الثالث (912-961) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بني أمية في إسبانيا؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو في الحادية والعشرين

صفحة رقم : 4714

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء
والأمراء

من عمره، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية، والأحقاد الدينية، واضطراب حبل الأمن، ومساعي إشبيلية وطليلة للاستقلال عن قرطبة. وقبض عبد الرحمن، رغم ما اتصف به من دماثة الخلق ورقة الحاشية، واشتهاره بالكرم والمجاملة، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة، وأخضع أشرف العرب الذين أرادوا أن يحدوا حذو معاصريهم الفرنسيين، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية، ودعا إلى بلاطه رجالاً من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شؤون الحكم؛ وعقد المخالفات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه، وأدار شؤون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور، لا يقلان عما كان يتصرف به نابليون في هذه الناحية. وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه؟ وصد غزوة سانكو صاحب نافارا Sancho of Navarra، واستولى على عاصمته ودمرها، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى في أثناء حكمه. ولما رأى في عام 929 أن له من القوة ما لا يقل عن أي حاكم في زمانه، وأدرك أن الخليفة العباسي في بغداد قد أصبح العوبة في يد الحرس التركي، اتخذ لنفسه لقب خليفة وأمير المؤمنين، وحامي حمى الدين. وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه: "مضت خمسون سنة منذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجد والنعم، فاحترمني الملوك وخافوني وحسدوني وحباني

الله بأقصى ما يرغب فيه الإنسان، فأحصيت أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكمال الأحوال لأولياتها".

صفحة رقم : 4715

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمرء

وأفاد ابنه الحكم الثاني (961-976) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التي حكمها أبوه وبحزم وجدارة، والتي لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة. وكان في أثناء حكمه أمناً من الخطر الخارجي، والفتن الداخلية، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن؛ وأنشأ فيها المساجد، والمدارس الكبرى، والبيمارستانات، والأسواق، والحمامات العامة، وملاجئ الفقراء (30)، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم في زمانه؛ وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء. وفيه يقول المقرئ المؤرخ الإسلامي:
وكان (ال خليفة الحكم) محباً للعلوم مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله... إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير. وأقام للعلم والعلماء سوقاً يانعة جلبت إليه بضائعه من كل قطر.. وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهده. وبعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وكان نسبه من بني أمية وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق.
وبينما كان الخليفة العالم يعنى بمسرات الحياة ونعيمها، كان يترك تصريف شؤون الحكم، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودي القدير حسداي ابن شبروط، ويترك قيادة الجيش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيحية. وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور، أما اسمه الحقيقي فهو محمد بن أبي عامر.

صفحة رقم : 4716

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمرء

وهو ينتمي إلى أسرة عربية عريقة النسب لكنها قليلة الثراء. وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالب إلى الخليفة، ثم أصبح كاتباً في ديوان قاضي القضاة، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره في عام 967 اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم. ثم تقرب إلى الملكة صيح أم الغلام، وقتنها بمجاملتها والنشاء

عليها، وأثر عليها بجدته وكفايته، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك والدها، ولم يمض عام واحد حتى عين مديراً لدار الضرب. ومن ذلك القوت أصبح سخياً على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والخيانة. واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما أوّتمن عليه من المال، وعرف ابن أبي عامر أن المال الذي في عهده سيكون ناقصاً فطلب إلى صديق له غني أن يقرضه قيمة العجز؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوي، وواجه به من اتهموه، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير. ولما مات الحكم أفلح ابن أبي عامر في تنصيب هشام الثاني ابن الحكم خليفة (976-1009) و (1010-1013) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه في الخلافة، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة (32).

وكان هشام الثاني رجلاً ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة، ولذلك كان ابن أبي عامر هو الخليفة في كل شيء ما عدا الاسم، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامي؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التي تخالف مذهب أهل السنة، وأن يحرقوا هذه الكتب، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بيت الناس بالتقى والصلاح. وضم في الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته في السر على الفلاسفة، وأخذ يرحب بالأدباء في بلاطه، وأوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

صفحة رقم : 4717

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمرء

مرتبات من بيت المال، وكان هؤلاء الشعراء يسبرون في ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته. وشاد مدينة جديدة هي مدينة الزاهرة في شرق قرطبة ضمت قصره، ومكاتب الإدارة؛ أما الخليفة الذي عنى بتدريبه على الانهماك في الفلسفة فقد بقي مهملاً يكاد يكون سجيناً في القصر الملكي القديم. وأراد ابن أبي عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً، ولكنهم كانوا يجزونه على سخائه، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً. ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه في بلاده، فتك بالثوار، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة، وعاد منتصراً إلى عاصمته؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور. وكثرت المؤامرات عليه، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاعتتيال في الوقت المناسب؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات، واقتضح أمره قطع رأسه وكان المنصور مثل صلا الروماني لا يترك محسناً إلا أتاه ولا مسيئاً إلا انتقم منه.

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال في قرطبة أعظم أمناً في وقت من الأوقات مما كانتا في أيامه، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بثباته، ومثابرتة، وفطنته، وشجاعته. وحدث في يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم في ساقه؛ فأمر باستدعاء الطبيب، ولما حضر أشار بكيها بالنار. فلم يفض المنصور المجلس، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه مل يدل على ألمه. ويقول المقرئ: إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق. وكان مما فعله أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجد

صفحة رقم : 4718

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء
والأمراء

قرطبة واستخدم في توسيعه أسرى مسيحيين، واشترك هو بنفسه في أعمال البناء بفأسه، ومجره، ومِسَجَتِه،
ومنتشاره. وأدرك أن الحاكم الذي ينتصر في الحروب، عادلة كانت أو ظالمة، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال
المستقبلية، ولهذا شن الحرب من جديد على ليون، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها. وكان في ربيع كل عام
تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية؛ وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء
مكلاً بالنصر. من ذلك أنه لما استولى في عام 997 على مدينة سنثياجو ده كمبستيليا Santiago de Compstela،
ودمر ضريح القديس جيمس الشهير، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم
في موكب نصره حتى دخل قرطبة(34). (وقد أعيدت هذه الأجراس مرة أخرى إلى كمبستيليا محمولة على ظهر
أسرى الحرب المسلمين).

ولم يقنع المنصور بما كان له في بلاد الأندلس الإسلامية من مقام، وإن كان في الواقع سيدها بلا منازع، بل كان يتوق
إلى أن يكون سيدها اسماً وفعلاً، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة. ففي عام 991 تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك، ولم
يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكماً مطلقاً.
وكان يرغب في أن يموت في ميدان القتال، ويعد العدة بالفعل لهذه الخاتمة، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ
معه كفته. وقد غزا قشتالة في عام 1002 وهو وقتئذ في الحادية والستين من عمره، واستولى على مدنها، ودمر
أديرتها، وخرّب حقولها، ثم مرض في طريق العودة إلى بلاده، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به، واستدعى إليه
ابنه

صفحة رقم : 4719

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء
والأمراء

وأخيره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستنتهار بعد
قليل(35). وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ.
وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور، فلم يكن أمراًؤها يجلسون على العرش إلا زمناً قصيراً،
وكثر بينهم حوادث الاغتيال، والمنازعات العنصرية، وحروب الطبقات؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء في
الدولة التي أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم، وأنهم قد طوح بهم إلى استرمادوره Estremadura الفاحلة أو جبال
ليون الباردة، فثاروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين. وكان عمال المدن المستعَلَّون يحقدون على من
يستغلونهم، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم. وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة
الحاكمة أسرة ابن أبي عامر التي كادت في عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة. ومات عبد
الملك في عام 1008 وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن، وكان عبد الرحمن رجلاً مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا
يتورع عن ارتكاب الخطايا، يفضل اللهو على النظر في شؤون الحكم، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة

اشتركي فيها جميع الأحزاب تقريباً. وأفلت الزمام من أيدي زعماء الثورة فنهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها؛ وفي عام 1012 استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب، وذبحوا نصف أهلها، وطرّدوا النصف الباقي منها، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية. بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية. لكن الحماسة التي تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذي يتطلبه البناء والتعمير. ففي أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب، وزاد عدد المتعطلين؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

صفحة رقم : 4720

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء والأمرء

عنها الخراج، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها في ضياعهم. لكن من بقي في قرطبة من العرب أخذوا ينتعشون شيئاً فشيئاً، حتى إذا حل عام 1023 طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن الخامس، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة إلى العهد القديم، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكفي أحد زعمائهم (1023). وعين محمداً أحد عمال النسيج وزيراً له، ثم اغتيل هذا الوزير، ودرس السم للخليفة الشعبي، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى وبايعت بالخلافة هشاماً الثالث (1027). وجاء دور الجيش بعد أربع سنين، فقتل وزير هشام، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة؛ وعقد مجلس من أصحاب الرأي في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غي مستطاع، فألغى الخلافة الأندلسية، وأحل محلها مجلساً للدولة، واختير ابن جهور رئيساً لهذا المجلس فحكم الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة.

لكن هذا جاء بعد فوات الأوان، أي بع أن اضمحلت السلطة السياسية وقضي على الزعامة الثقافية في قرطبة، فوصلت بذلك إلى حال لا يرجى منها شفاء. وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية ففروا من "جوهر العالم" إلى بلاط طليطلة، وغرناطة، وإشبيلية. واقتسم بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلتهم الدسائس والمنازعات فيما بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة. وازدهرت غرناطة بعض الوقت في حكم الحاخام صمويل هليفي Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم إسماعيل بن نغرلة. واستقلت طليطلة عن قرطبة في عام 1035. ثم خضعت لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها. وورثت إشبيلية مجد قرطبة، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة وأجمل منها؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها، ونخيلها، ووردها، وما فيها

صفحة رقم : 4721

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الخلفاء
والأمراء

من مرح دائم، وموسيقى، ورقص، وغناء. وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها في عام 1023، وعثر أبو القاسم محمد قاضي قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثاني فنأدى به خليفة، وأواه وأمسك هو بزمائه، وأقنع بلنسية، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته. وبهذه الطريقة السهلة أقام قاضي القضاة الداهية أسرة بني عباد القصيرة الأجل. ولما مات في عام 1024 خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم إشبيلية بمهارة وقسوة مدة سبعة وعشرين سنة، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدي له الجزية. وورث الملك من بعده ابنه المعتمد (1019-1068) وهو في السادسة عشر من عمره، ولكنه لم يرث عنه مطامعه ولا وقسوته. وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس، بفضل مجالس الشعراء والموسيقين على مجالس الساسة وقواد الجند، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء، ولا يحسداهم على تفوقهم، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار (36). وكان يحب شعر ابن عمار، ولذلك اتخذه وزيراً له، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر، فابتاعها، وتزوجها، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديداً، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات في قصره. وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها، وأحاطت سيدها بجو من المرح، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشؤون الحكم، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين. لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم، وأن يحب، ويعني. فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة، واستغاثت قرطبة به، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة، وأخضعها لإشبيلية. وحمل الملك-الشاعر مدى جيل كامل مليء بالقلقل لواء حضارة لا تقل ازدهاراً عن حضارة بغداد في أيام هارون الرشيد، وحضارة قرطبة في عهد المنصور.

صفحة رقم : 4722

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة
في بلاد الأندلس الإسلامية

2- الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طوال تاريخها بحكم رحيم، عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب (37). ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه، لكن هذا الحكم بعد أن تنقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً. لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التي يرى ميكلفي أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت في بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار في جماجم الموتى من أعدائه؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانته آخر الأمر (38). ولكن المقري يورد في مقابل هذه الأمثلة النادرة منات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودمائهم أخلاقهم (39). وهم لا يقلون في هذه الصفات عن أباطرة الروم في زمانهم، وما من شك في أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشؤون العامة في العالم الغربي؛

فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام. وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم(40). وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها، وقد فرضت على الأسواق، والمكاييل، والموازن، رقابة محكمة؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأموال في فترات منظمة؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها روما وبيزنطية. وبلغت

صفحة رقم : 4723

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث 12.045.000 دينار ذهبي (أي ما يعادل 75.213.750 دولار أمريكي) وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة(41). ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح، وتقديراً للزراعة والصناعة، ورواج التجارة(42). وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد. ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب، والتي كان يمتلكها القوط الغربيون، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع(43). ولكن القوى التي كانت في هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها في إسبانيا أيضاً، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته في فرنسا؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضي، وكان يقوم بزرعها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض. وكان العبيد يلقون على أيدي المسلمين معاملة أحسن قليلاً مما كانوا يلقونها على أيدي سادتهم الأولين(44). وكان في مقدور العبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها، ويفضل توجيههم بلغات هذه العلوم في إسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته في أوروبا المسيحية(45). واستبدل بالثيران البيطية الحركة، التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في جميع أنحاء إسبانيا للحرث والجر، البغال، والحمير، والخيول. وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التي كان يمتطيها فرسان العرب وكبليرو Caballero (فرسان) الأسبان. ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

صفحة رقم : 4724

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

من أسية زراعة الرز، والحنطة السوداء، قصب السكر، والرمان، والقطن، والسبانخ، والأسفرج، والموز، الكراز، والبرتقال، والليمون، والسفرجل، والليمون الهندي، والخوخ، ونخيل البلح، والتين، والشليك، والزنجبيل، والمر

وصناعة الحرير (46). وكانت زراعة الكروم من الأعمال الكبرى في بلاد الأندلس، وإن كان الدين الإسلامي يحرم الخمر. وأحالت حدائق الخضر، وغياض الزيتون، وبساتين الفاكهة مساحات من الأندلس وخاصة حول قرطبة وغرناطة، وبلنسية-جنات على الأرض. كما استحالت جزيرة ميورقة Mojorca، التي فتحها العرب في القرن الثامن بفضل عملهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار، تشرف عليها أشجار النخيل التي سميت الجزيرة باسمها فيما بعد.

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب، والفضة، والقصدير، والنحاس، والحديد، والرصاص، الشب، والكبريت، والزئبق. وكان المرجان يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا، كما كان اللؤلؤ يصطاد قرب سواحل قطلونية، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة ومالقة. وتقدمت الصناعات المعدنية في البلاد تقدماً عظيماً، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد الشبهان، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف، وقرطبة بالدروع. وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية، فكانت قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذي يستخدمه الحذاءون في أوروبا المعروفون باسم Cordwaibner نسبة إلى "الجلد القرطبي Cordovan". وكان في قرطبة وحدها 13.000 نساج، وكن المشتون في كل مكان يقبلون

صفحة رقم : 4725

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

على شراء السجاجيد، والوسائد، والسجف الحريرية، والشيلان، والأرائك الأندلسية. ويقول المقرئ (48) إن ابن فرناس القرطبي اخترع في القرن التاسع الميلادي النظارات، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب، كما اخترع آلة طائرة. وكون أسطول تجاري يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر و ثغر تزدهم بها مرافئ برشلونة، والمرية، وقرطاجنة، وبلنسية، ومالقة، وقادس، وإشبيلية. وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام. واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها-الدينار الذهبي، والدرهم الفضي، والفلس النحاسي،-بثباتها واستقرارها النسبي، إذا قارناها بعملة العالم المسيحي اللاتيني في أيامها، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هي الأخرى ينقص وزنها، ونقاؤها، وقوتها الشرائية.

وسار الاستغلال الاقتصادي في هذه البلاد سيرته في البلاد الأخرى، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة، والتجار الذين كانوا يعتصرون المنتج والمستهلك على السواء، على خيرات الأرض. وكان معظم الأغنياء يعيشون في الريف في بيوت ذات حدائق، ويتركون المدن الكبرى للبربر، والذين أسلموا من المسيحيين، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسيين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث)، وإلى طائفة قليلة العدد من الخصيان، والضباط والحراس الصقالبة، والعبيد خدم البيوت. وأحس الخلفاء في قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادي من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لمعونة الفقراء (49).

وكان استمساك الطبقات المعدمة بدينها وتشدها في عقائدهما سبباً في زيادة سلطان الفقهاء أي علماء الشريعة الإسلامية؛ وكان العامة ينفرون من كل جديد

صفحة رقم : 4726

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

في العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين، والمفكرين يخفون رؤوسهم في معظم الأحوال، وينزويون في البيوت أو يلجأون إلى الغموض في الأقوال. وكمت أفواه الفلاسفة، أو اضطروا إلى الجهر بأراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها. وكان الموت جزءاً من يرتد عن دين الإسلام. نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالاً ذوي آراء حرة، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين في مصر يتخذون العلماء المتنقلين عيوناً عليهم، ولهذا كانوا ينظمون في بعض الأحيان إلى الفقهاء في التضييق على التفكير الحر المستقل. لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة. وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين في فتوحهم، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثاني عشر مع المسلمين الفاتحين في أمن ووثاق، وأثروا، ودرعوا في العلوم والمعارف، وارتقوا في بعض الأحيان إلى مناصب عالية في الحكومة. أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الرقي في مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم. وكان المسيحيون الذكور، كالذكور في سائر الأديان، يرغمون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية، لكنهم فيما عدا هذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية. ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم (50). وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية؛ وكان مقدارها في العادة ثمانية وأربعين درهماً (24 ريالاً أمريكياً) للغني، وأربعة وعشرون للمتوسط الثراء، واثنا عشر درهم لمن يعمل بيده (51). وكان المسلمون

صفحة رقم : 4727

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

والمسيحيون يتزاورون فيما بينهم بكامل حريتهم، ويشتركون من حين إلى حين بالاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (52). وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا "الحريم" أو مارسوا اللواط (53)؛ وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوربا المسيحية إلى قرطبة، أو طليطلة، أو إشبيلية طلباً للعلم، أو زائرين، أو مسافرين. وقد شكوا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول:

"إن إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيفة... واحسرتاه! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم؛ فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب، ويمتلئون بها مكتباتهم، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة، وهم أينما كانوا يتغنون بمديح علوم العرب (54)". وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام

1311م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا 500 منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام(55). وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين(56). لكن هذه الصورة الجميلة كان لها وجه آخر أخذ يزداد وقتاً ما على مر الأيام. ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحراراً.. فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابي في مقاومة الفاتحين؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرمت بناء كنائس جديدة. وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

صفحة رقم : 4728

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

الأساقفة وعزلهم، وحق دعوة المجالس الكنسية نفسها إلى الانعقاد. وكان الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أعلى الأثمان. ولو كان من يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين في الدين، وكان القساوسة المسيحيون يتعرضون أحياناً للشتائم من المسلمين في الشوارع، وكان فقهاء المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات أو أباطيل في الدين المسيحي، ولكن المسيحيون الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا يتعرضون للخطر. وفي هذه العلاقات المتوترة قد تؤدي أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة. مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة، معروفة لدينا باسم فلورا Flora فحسب ولدت لأبوين من دينين مختلفين، فلما توفي أبوها المسلم اعتزمت أن تعتنق الدين المسيحي، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين، ولكن أخاها قبض عليها وضربها، وأصررت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها، وسيقت إلى أحد المحاكم الإسلامية. وأمر القاضي بضربها وإن كان في مقدوره أن يحكم بإعدامها. ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحي حيث التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً. وبينما كانت الفتاة مختبئة في أحد الأديرة، إذ قتل قس آخر يدعى بروفكتوس Perfectos لأنه تكلم في حق النبي محمد أمام بعض المسلمين؛ وقد وعدوه بألا يشوا به، ولكن أقواله بلغت من العنف درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاة الأمور. وكان في وسع بروفكتوس أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر أمام القاضي قوله إن محمداً كان "خادماً للشيطان"، فما كان من القاضي إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله؛ ولكنه لم ينصلح، وتمادى في أقواله فحكم عليه بالإعدام. وظل وهو يساق إلى المشنقة

صفحة رقم : 4729

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

يسبب النبي، فيقول: إنه "مدع، زان، ولدته جهنم"، وابتهج المسلمون بمقتله، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالاً مهيباً، وعده من القديسين (850).

وأشعل مقتله نيران الحقد في قلوب الطائفتين. فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولجيوس وجعلت هدفها سب النبي علناً، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة، وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق على القاضي وعرض عليه رغبته في اعتناق الإسلام؛ وسر القاضي من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامي، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال "إن نبيكم قد كذب عليكم وخذعكم؛ ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم!" فزجره القاضي وسأله هل هو مثل؟ فرد عليه الراهب بقوله: "إني مالك لقواي فاحكم عليّ بالإعدام" فأمر القاضي بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثاني بأن يخرج على أن يعقله خبلاً، غير أن موكب جنازة برفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب. وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندي من الفرنجة في حرس القصر على سب النبي علناً؛ فكان جزاؤه الإعدام. وفي يوم الأحد التالي وقف ستة من الرهبان أمام القاضي وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب، فحكم عليهم بالإعدام. وحذا حذوهم قس، وشماس، وراهب. وابتهج لذلك أفراد الجماعة

صفحة رقم : 4730

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

ولكن كثيرين من المسيحيين من رجال الدين وغير رجال الدين لم يرضوا على هذا التسابق للموت، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة "إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا، ولا يضطهدنا، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد؟" (59) ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن، فما كان من يولجيوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالجبن.

وزادت هذه الحركة من حمس فلورا، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي.... وتقولان: إن الإسلام من "اختراع الشيطان" فأمر القاضي بسجنها. وحملها بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما، ولكن يولجيوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل، فقتلا. وشجع هذا يولجيوس فأخذ يطلب بضحايا جدد، فأقبل على المحكمة قساوسة، ورهبان، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعدموا (852)، وأعدم يولجيوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت، وخدمت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم تسمع بين عامي 859، 983 إلا حادثين من حوادث السب والقتل، ولم تسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في إسبانيا (60).

صفحة رقم : 4731

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحماسة الدينية بازدياد الثراء، وظهرت في القرن الحادي عشر الميلادي موجة من التشكك رغم ما في الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين؛ ولم يقتصر الأمر على دخول مبادئ المعتزلة التي لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة، بل قامت طائفة أخرى تنادي بأن الأديان كلها باطلة، وتسخر بالأحكام الدينية، والصلاة، والصوم، والحج، والزكاة. ونشأت طائفة أخرى غير هذه وتلك سمت نفسها أتباع الدين العالمي، وأخذت تندد بكل العقائد، وتنادي بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها. وكان من بين هؤلاء جماعة من اللأدربيين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون، فلننا نؤكدها أو ننكرها، وكل ما في الأمر أننا لا نعرف حقيقتها، ولكننا لا نسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها (61). وأخذ رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية؛ ولما أم حلت المصائب بالمسلمين في إسبانيا في القرن الحادي عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا الضلال، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت في الأندلس مرة أخرى، كان انتعاشهم في عهد حكام أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد الدين، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه في بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم.

ولكن القباب المتألثة والمآذن المذهبية كانت على الرغم من الفلاسفة زينة المدائن الكبيرة والصغيرة التي جعلت بلاد الأندلس في القرن العاشر الميلادي أعظم البلاد المتحضرة في أوروبا، بل إنها كانت في أغلب الظن أعظم البلاد المتحضرة في العالم كله في ذلك الوقت. لقد كانت قرطبة في أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة، ولا يفضلها في هذا إلا بغداد والقسطنطينية. وكان فيها كما يقول المقرئ 200.077 منزلاً، و60.300 قصر، و600 مسجد، و700 حمام (62) عام وإن كانت هذه الإحصاءات لا تخلو من قليل من المغالاة الشرقية. وكان زائر

صفحة رقم : 4732

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام؛ فقد كان في وسع كل أسرة أن يكون لها حمار؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون. وكانت الشوارع مرصوفة، لكل منها طواران على الجانبين، تضاء أثناء الليل، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المباني (63). وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادي الكبير الهادي الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً. وكان من أولى منشآت عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق، والفساقي والحمامات، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمنتزهات.

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه، فأنشأ في قرطبة بستاناً عظيماً شبيهاً بالقصر الريفى الذي قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق، وشاد في هذا البستان قصره المعروف "بقصر الرصافة"، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أخرى خلع عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة... وقصر المعشوق... وقصر السرور... وقصر التاج. وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذي يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع. ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفها قصور نبيرون في روما: يصفون أبوابها الفخمة، وعمدها الرخامية، وأرضها المرصوفة بالفسيساء، وسقفها المذهبة، وما فيها من النقوش

الجميلة التي لا يقد عليها إلا الفن الإسلامي وحده. وكانت قصور الأسرة المالكة، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواربه ثروة طائلة. وأراد أن ينفقها في اقتداء من عساهم يكونون في الأسر من

صفحة رقم : 4733

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

جنوده، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده في الأسر عرضت عليهم الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال في بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها. وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكحون خمسة وعشرين عاماً (936-961) لتحقيق حلمها، فكان قصر الزهراء الملكي يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربي. وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث. وكان القصر يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام، وكان جناح الحريم به يتسع لستة آلاف امرأة، وكان يحتوي على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانه من الرخام والذهب، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة. واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف الرفقة، وحسن الذوق، وتعدد متعتها العقلية. وأقام المنصور في الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصرأ آخر يضارعه (978) سمي بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العظماء، وبيوت الخدم، والمغنين والعازفين، والشعراء، والخليلات. وقد حرق القصران في أثناء الثورة التي تآجج لهيبها في عام 1010. وكان الناس في العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتاً لله تفوق قصورهم في الفخامة والسعة وكان الرومان قد شادوا في قرطبة هيكلاً ليانوس Jauns، أنشأ المسيحيون بدلاً منه كنيسة كبرى؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة، وهدمها وشاد في مكانها المسجد الأزرق، ولما عادت إسبانيا إلى حكم المسيحيين حولوا المسجد إلى كنيسة في عام 1238؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى، والصدق، والجمال تبعاً لتقلبات الحظ في الحروب. وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته في سنيه الكدرة، فغادر بيته الريفي إلى قصره في المدينة ليشرف على العمل بنفسه، وكان يأمل أن يطول عمره

صفحة رقم : 4734

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

حتى يؤم المصلين في المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه. ولكنه توفي في عام 788، بعد عامين من وضع الأساس، وواصل ابنه هشام عمل أبيه، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته في أيام المنصور 472 قدماً في 742. وكان يحيط به سور منيع من الأجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة، وكانت له مأذنة ضخمة تفوق في حجمها وجمالها كل مأذن تلك الأيام، حتى عدت هي الأخرى من "عجائب الدنيا" التي لا يحصى لها عدد (64). وكان للمسجد تسعة عشر باباً تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس، نقشت عليها في الحجر ببراءة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية. وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى مكان الوضوء الفسيح الذي يسمى الآن بهو البرتقال (Patio de los Naanjos). وفي هذا البهو الرباعي الشكل، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها في المسجد سبعين ثوراً. وكان المسجد نفسه يحتوي على أجمة من 1290 عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً. وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع بعضها نصف دائري، وبعضها مستدق، وبعضها على شكل حذاء الفرس، ولمعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب. وكانت العمدة من حجر اليشب والحجر السماقي، والمرمر، والرخام، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين في إسبانيا، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحي إليه بأن المسجد لا ينتهي عند حد. وقد نقشت على السقف الخشبي آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمد من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هي الأخرى من السقف. أما الأرض والجدار فقد زينتا بالفسيفساء، بعضها من الزجاج المطلي بالمينا،

صفحة رقم : 4735

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية، وكثيراً ما كانت تحتوي على قطع من الفضة والذهب. ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر في جدران الكنيسة. وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً، ورسفت أرضه بالفضة وقطع القاشاني المطلية بالمينا، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء؛ وقامت عليه ثلاث قباب، وأحيط بسائر من الخشب محلاة بأبدع النقوش. وفي داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من حذق وإبداع. وكان المحراب نفسه تجويفاً سباعي الأضلاع محاطاً بالذهب ومزداناً بالفسيفساء المطلية بالمينا، ومزخرفاً بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة، والعقود المزدانة بأزهار الكثرة لا يفوقها في الجمال شيء مما أبدع الفن القوطي. وكان المنبر يعد أجمل منابر العالم طراً؛ وكان يؤلف من 37.000 قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة كالأبنوس، والأترج، وعود الند، والصندل الأحمر والأصفر، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة، ومطعمة بالجواهر. وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزي المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان، ومخضباً بدمه الذي جرى عليه عند مقتله. ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن الذهبية والبنحاس بدل أن نحلي كنائسنا بالجواهر والذهب، يبدو لنا أن في زخرفة المسجد الأزرق إسرافاً كبيراً، وأن جدرانه قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة، وأن العقد الذي على صوره حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذي الساقين الفحجواوين. ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

حكمه يناقض هذا الحكم؛ فالمقري (1591-1632) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر في سعته، أو جمال تخطيطه، أو نظام زخرفته الذي يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة (65)، ولا يزال البناء حتى في شكله المسيحي المصغر يعد "بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية في العالم كله" (66). وكان من الأقوال المتداولة في بلاد الأندلس الإسلامية أنه "إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها" وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية". ذلك أن قرطبة كانت في القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية ذروتها، وإن اشتركت معها طليطلة، وغرناطة، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقي عقلي عظيم. ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تنموج بالشعراء وجهاذة العلماء في العلوم الطبيعية، والأدبية، وكبار المشتريين، والأطباء؛ ويملاً المقري بأسمائهم ستين صحيفة (68). وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان. وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن (69)، وكان التعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم في المساجد، وكانت المناهج التي يدرسونها هي التي كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك، والتي لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادي عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبيهتان بها. وأنشأت الكليات أيضاً في غرناطة، وطليطلة، وإشبيلية، ومرسية، والمرية وبلنسية، وقادس (70).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها، حتى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها. ومن ذلك أن الحضرمي أحد العلماء رأى في مزاد بقرطبة رجلاً آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب، ولما سئل المزاد الذي اقتناه في ذلك قال إن في مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة. ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاعتياظ ولم يسعه إلا أن يقول: "نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك، ويعطى الجوز من لا أسنان له".

وكانت للعلماء في الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة، يعظمهم الناس ويهابونهم، ويستثيرونهم في شئونهم، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة. وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات؛ أما الخطباء، وفقهاء اللغة،

وأصحاب المعاجم، والموسوعات، ودواوين الشعر، والمؤرخون، وكتاب السير فلم يكن يحصى عددهم. وكان أبو محمد علي بن حزم (994-1064) من جهاذة علماء الدين والمؤرخين، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين ويعد كتابه المعروف بـ"كتاب الملل والنحل" الذي يتكلم فيه على اليهودية،

صفحة رقم : 4738

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

والزرادشتية، والمسيحية، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون في علم الأديان المقارن. وإذا شئنا أن نعرف رأي العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية في العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب: يجب أن لا تثير أوهام بني الإنسان عجباً، فإن أكثر الأمم عدداً، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام... فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصي عددهم إلا الله وحده. وبوسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين، ولكنهم مع هذا يقولون. إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، وأن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثاني الابن، وإن الإنسان إله وليس إلهاً، وإن المسيح قديم وجود من الأزل، ومع ذلك فهو مخلوق، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر (72). وكان ابن زم يؤمن بأن كل كلمة وردت في القرآن حق بنصها ومعناها (73). وكان من أشد العوائق في سبيل تقدم العلم والفلسفة في بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثر في إيمان العامة، ولكن الأندلس تستطيع أن تقخر بكثير من الفلاسفة والعلماء. فمن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى في عام 1007) والذي عدل أزياج الخوارزمي الفلكية لتلائم أسبانيا، ومن الكتب التي تعزى إليه، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التي حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة - وهي التجربة التي استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق. وأصبح اسم إبراهيم الزرقالي (1029-1087) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية، لأنه حسن الآلات الفلكية؛ وينقل كوبرنيق فقرات من رسالته عن الاسطرلاب، وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها في زمانه، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة في التاريخ حركة الأوج الشمسي بالنسبة للنجوم. وكانت "أزياج طليطلة" المحددة لحركات الكواكب

صفحة رقم : 4739

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

تستخدم في كافة أنحاء أوربا؛ وكان لأبي قاسم الزهراوي (936-1013) طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة في العالم المسيحي، ويعرف فيه باسم أبو الكاسس Abulcasis؛ وهو حامل لواء الجراحين المسلمين، وتحتوي موسوعته الطبية المسماة "التصريف" ثلاثة كتب في الجراحة أصبحت بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى في الجراحة قروناً كثيرة. وكانت قرطبة في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ إليها الأوربيون لتجرب لهم الجراحات. وكانت تحتوي، كما تحتوي كل مدينة متمدنة، على بعض المتطبين الدجالين، والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحراني أعلن على دواء يشفى الاضطراب المعوية، وكان يبيع الزجاجات من للسذج من ذوي المال بخمسين ديناراً (237.5 يال أمريكي).

ويقول المقري: "وسنمك عن ذكر الشعراء الذين ظهرُوا في أيام هشام الثاني والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر" (75). وكان من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة في عام 1078)؛ والتي كان بيتها في قرطبة ندوة حقة شبيهة بندوات عهد الاستنارة في فرنسا: فكان يلتف حولها الظرفاء، والعلماء، والشعراء؛ وقد أحببت عدداً كبيراً منهم، وكتبت عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكيمييه Mm R(camisr) لارتاعت لها. ولقد بزتها صديقتها مهجة القرطبية في جمال الجسم وخلاعة الشعر وكاد كل إنسان في الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً، يتطرح الشعر المرتجل مع غيره لاي سبب. وكان الخليفة نفسه يشترك في هذه المطارحات الشعرية، ولما كان يود في البلاد أمير مسلم ليس في بلاطه شاعر يكرم ويُخصص له راتب. وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشر كما أدت إلى الخير. ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيه

صفحة رقم : 4740

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

التكلف والصناعة اللفظية، والمحسنات، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور. أما موضوعه فهو الحب الشهواني والعذري، وقد استبق الشعراء في إسبانيا وفي الشرق الإسلامي أساليب شعراء الغزل في عهد الفروسية Toubadors، وطرقهم وفلسفتهم (76). وسنختار من هذا العدد الجم نما واحداً لامعاً هو سعيد ابن جودي ابن صاحب الشرطة بقرطبة. كان سعيد جندياً مقدماً كثير العشق، يتصف بجميع الصفات التي تجعله في نظر المسلمين سميذعاً أي سيداً كاملاً بحق: فقد كان سخياً، شجاعاً، فارساً بارعاً، بهي الطلعة، فصيح اللسان، شاعراً ممتازاً، قوي الجسم، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف، والرمح، والرمي بالقوس (77). ولم يكن يدري في أي وقت من الأوقات أيهما أحب إليه-الحب أو الحرب. وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر بحب دائم لا ينقطع. وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزالين أشد ما يكون حين تندر رؤية الحبيب. وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة ووجهها إلى جيجان التي لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض. وكان أبوقرياً صريحاً يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة ليست هي اللذة. ومن أقواله في هذا المعنى:

صفحة رقم : 4741

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

لا شيء أملح..... ومن مناقلة كأساً على طبق

ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق

جريت جري جموح في الصبا طلقا وما خرجت لصرف الدهر عن طلقي

ولا انتثيت لداعي الموت يوم دعا ولا انتثيت وحبل الحب في عنقي

وكان زملاؤه في الجندية يعضيون منه أحياناً لأنه يغوي أزواجهم، وقد قبض عليه في يوم ما أحد الضباط في بيته وقتله (897).
وقد لقي شاعر أعظم منه وأنبل خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها بطولة، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية. وكان كغيره من الملوك الصغار في بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدي الجزية إلى ألفنسو السادس (الأذفنش) ملك قشتالة يشترى بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام. ولكن الرشا تترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشي متى طلب إليه الأداء. وأستخدم ألفنسو المال الذي يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة في عام 1085؛ أيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية. وكانت دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حرب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية؛ ولكن أسرة إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هي أسرة المرابطين وقد (أشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين في الشمال الغربي من إفريقيا). وكان الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمسك الشديد بالدين، ولم يكذب في نفسها رجل غير جندي من جنود الله، ولم تجد جيوشها صعوبة في الاستيلاء على مراكش بأجمعها. وتلقى في ذلك الوقت ملكها يوسف بن تاشفين -وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء- دعوة من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحي الضاري. فعبر يوسف بجيشه مضيق جبل طارق، وتلقى المد من مالقة، وغرناطة، وإشبيلية،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلافة القريبة من بطليوس (1086). (بدجوز Badaioz). وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها: "إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم، ويوم الأحد عيد عندنا، ولهذا فإنني أقترح أن تدور المعركة في يوم السبت". ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين في يوم الجمعة. وأظهر يوسف والمعتمد في الحرب كثيراً من ضروب البسالة، وأحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس. ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً..

ولكنه عاد بعد أربع سنين. وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضي على قوة ألفنسو الذي كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد. والتقى يوسف بالمسيحيين في مواقع غير حاسمة، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية. ورحب به الفقراء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجديد على القديم، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه في نظرهم يمثل الرجعية الدينية، وابتهج رجال الدين بمقدمه. واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة، وأكتسب محبة أهلها بلغاء جميع الضرائب التي لا ينص عليها القرآن (1090). وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته، كما عقدوا حلفاً مقدساً! مع ألفنسو. وحاصر يوسف قرطبة وأسلمها إليه أهلها، ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المعتمد دفاع الأبطال، ورأى بعينه ولده يقتل في الدفاع عنها، فحزن لموته حزناً هدركنه واستسلم للمحاصرين، ولم يحل عام 1091 حتى سقطت جميع الأندلس ماعدا سرقطة في يد يوسف بن تاشفين، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية.

صفحة رقم : 4743

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> الإسلام في الغرب -> الإسلام في إسبانيا -> الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصري حوت أبياتاً من الشعر يثني فيها عليه ويسأله العطاء. ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا في ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصري وأعتذر له عن قتلها. ثم نقل المعتمد إلى أغمات القريبة من مدينة مراكش وعاش فيها بعض الوقت مكبلاً بالأغلال، فقيراً معدماً، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (1095). ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره:

أرى الدنيا الدنية لا تواتي فأجمل في التصرف والطلاب

ولا يغررك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهب

فأولها رجاء من سرابٍ وآخرها رداء من تراب .

صفحة رقم : 4744

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

الباب الرابع عشر

عظمة المسلمين واضمحلالهم

1258-1058

الفصل الأوّل

الشرق الإسلامي

لما توفي طغرل بك في عام 1063 خلفه ابن أخيه ألب أرسلان سلطاناً على السلاجقة، ولم يكن ألب أرسلان وقتئذ قد جاوز السادسة والعشرين من عمره ويصفه أحد المؤرخين المسلمين بأنه رجل طويل القامة له شاربان بلغ من طولهما أن كان يضطر إلى ربطهما حين يريد الصيد، وأن سهامه لم تُخطئ مرماها قط. وكان يضع على رأسه عمامة عالية يقول الناس إن المسافة من أعلاها إلى طرف شاربه لا تقل عن ذراعين. وكان حاكماً قوياً عادلاً، كريماً بوجه عام، لا يتوانى عن مجازاة من يظلم الناس أو يعتصب مالهم من عماله، كثير البذل للفقراء. وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في دراسة التاريخ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين وإلى الأعمال التي تكشف عن أخلاقهم، وأنظمة حكمهم وإدارتهم(1).

ولكن ألب أرسلان قد أثبت رغم هذه الميول العلمية أنه خليق باسمه -"البطل قلب الأسد" فقد فتح هراة، وأرمينية، وبلاد الكرج، والشام. وحشد إمبراطور الروم جيشاً مؤلفاً من مائة ألف جندي من مختلف الأجناس،

صفحة رقم : 4745

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

مختل النظام ليلاتي به جنود ألب أرسلان المضرسين البالغ عددهم 15.000 مقاتل، فلما التقيا عرض القائد السلجوقي على عدوه صلحاً معقولاً، رفضه رومانوس Romanus بازدراء، واشتبك معه في معركة عند منز بكرت (ملازكرت أو ملاسجرد) بأرمينية (1071)، وحارب ببسالة بين جنده الجبناء، فهزم ووقع في الأسر، وحيء به إلى السلطان فسأله ماذا كان يفعل لو ابتسم الحظ لجنده؟ فأجابته رومانوس بأنه في هذه الحال كان يمزق جسمه بالسياط. ولكن ألب أرسلان عامله أحسن معاملة، وأطلق سراحه بعد أن وعده بأن يفتدي نفسه بقدية كبيرة، وسمح له بالرجوع إلى بلاده، ومنحه كثيراً من الهدايا القيمة(2)، وبعد عام من ذلك الوقت اغتيل ألب أرسلان.

وكان ابنه ملك شاه (1072-1092) أعظم سلاطين السلاجقة على الإطلاق. وبينما كان قائده سليمان يتم فتح أسية الصغرى، كان هو نفسه يستولي على ما وراء نهر جيحون ويمتد فتوحه إلى بخارى وكاشغر. وأسبغ وزيره القدير الوفي نظام الملك على البلاد في عهد وعهد أبيه ألب أرسلان كثيراً من الرخاء والبهاء كالذي أسبغه البرامكة على بغداد في أيام هارون الرشيد. فقد ظل نظام الملك ثلاثين عاماً ينظم شؤون البلاد، ويشرف على أحوالها الإدارية والسياسية، والمالية، ويشجع الصناعة والتجارة ويصلح الطرق، والجسور، والنزل، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين. وكان صديقاً كريماً للفنانين، والشعراء، والعلماء؛ شاد المباني الفخمة في بغداد، وأسس فيها مدرسة كبرى ذاع صيتها في الأفاق، وأمر بإنشاء إيوان القبة العظيم في المسجد الجامع بأصفهان، ورصد له ما يلزمه من المال. ويبدو أنه هو الذي أشار على ملك شاه بأن يستقدم إلى بلاطه عمر الخيام وغيره من الفلكيين لإصلاح التقويم الفارسي. وتقول قصة قديمة إن نظام الملك، وعمر الخيام، وحسن ابن الصباح أقسموا وهم صغار يطلبون العلم أن يفتسموا جميعاً ما عسى أن يواتي أي أحد منهم من حظ طيب. وأكبر الظن أن هذه القصة،

صفحة رقم : 4746

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

كغيرها من القصص الطيبة، من نسج الخيال، لأن نظام الملك ولد في عام 1017، على حين أن عمر الخيام، وحسن ابن الصباح توفيا فيما بين عامي 1123، 1124؛ وليس لدينا ما يشير إلى أن أحدهما كان من المعمرين. وكتب نظام الملك وهو في سن الخامسة والسبعين فلسفته في الحكم في كتاب من أكبر الكتب في النثر الفارسي وهو كتاب سياسة ناما أي كتاب فن الحكم. وهو يوصي فيه بقوة أن يستمسك الملك والشعب بأصول الدين، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقر إلا إذا قامت على هذا الأساس، واستمدت من الدين وسلطانه. ولم يبخل على مليكه في الوقت عينه ببعض النصائح الإنسانية يبصره فيها بما على الحاكم من واجبات، فقال إن الحاكم يجب أن لا يفرط في الشراب أو اللهو، وإن عليه أن يتبين كل ما يرتكبه الموظفون من فساد أو ظلم، ويعاقبهم عليه؛ وأن يعقد مجلساً عاماً مرتين كل أسبوع يستطيع أن يتقدم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشكاوى والمظالم. وكان نظام الملك رحيماً في حكمه ولكنه لم يكن متسامحاً في أمور الدين؛ وهو بأسف لأن الدولة تستخدم في أعمالها المسيحيين واليهود والشيعية، ويندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة. وفي عام 1092 اقترب من أحد أتباع الطائفة المتعصبين لها مدعياً أنه يريد أن يتقدم إليه بمعروض، وطعنه طعنة قضت عليه. وكان هذا القاتل عضواً في طائفة من اعجب الطوائف في التاريخ. وكان منشؤها أن أحد زعماء الإسماعيلية هو الحسن بن الصباح الذي تجمع إحدى القصص المشكوك في صدقها بينه وبين عمر الخيام، ونظام الملك-استولى على حصن الموت (عش النسر) في الجزء الشمالي من إيران، ومن هذا الحصن المنيع الذي يعلوا عن سطح البحر بعشرة آلاف قدم شن حرباً عواناً من التقتيل

صفحة رقم : 4747

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

والإرهاب على أعداء الشيعة، وعلى الذين يضطهدون معتقياًها. وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة في كتابه بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيعية أهل فارس الساسانية. وكانت في الواقع جمعية سرية ذات درجات متفاوتة يمر بها أتباعها، ولها رئيس أعلى أطلق عليه الصليبيون اسم "شيخ الجبل". وكانت أدنى طبقاتها تشمل الذين يطلب إليهم أن ينفذوا من غير ما تردد أو تفكير كل ما يصدره لهم رؤسائهم من الأوامر. ويقول ماركو بولو Marco Polo الذي مر بالموت نفسها في عام 1271 إن زعيم الطائفة الكبرى أعد خلف الحصن حديفة جمع فيها كل ما في الجنة-على حسب ما يعتقد. عامة المسلمين- من سيدات وفتيات يستطيع الرجال أن يشبعوا معهم شهواتهن، وإن الذين يريدون أو ينضموا إلى الطائفة كانوا يسفون الحشيش، حتى إذا غابوا عن وعيهم جيء بهم إلى الحديفة، فإذا عادوا إلى صوابهم قيل لهم إنهم في الجنة. وبعد أن يقضوا أربعة أيام أو خمسة يستمتعون فيها بالخمير والنساء ولذيذ الطعام، يخدرون مرة أخرى بالحشيش ثم ينقلون مرة أخرى من الحديفة، فإذا استيقظوا وسألوا عن الجنة التي كانوا فيها، قيل لهم إنهم سيعدون إليها ويبقون إلى أبد الدهر إذا أطاعوا الشيخ وأخلصوا له أو استشهدوا في خدمته(4). كان الشبان الذين يرضون بهذا الوضع يسمون "الحشاشين" أي الذين يشربون الحشيش-ومن هذه الكلمة اشتق لفظ Assassin الإفرنجي الذي يطلق على المقتال. وظل حسن يحكم أموت خمساً ولثلاثين سنة، وأحالتها مركزاً للاغتيال والتعليم

والفن. وظلت هذه الطائفة باقية بعد وفاته بزم طويل، واستولت على عدة حصون أخرى منيعة، وحاربت الصليبيين، ويقال إنها هي التي قتلت كنراد المنتفراي Conrad of Monteferrat بتحريض رتشارد قلب الأسد(5). وفي عام 1256 استولى المغول بقيادة هولاكو على حصن ألموت وغيره من معاقل الحشاشين، وأخذت الدولة والإمارات الإسلامية من ذلك الوقت تطاردهم وتقتلهم لأنها ترى فيهم أعداء للمجتمع

صفحة رقم : 4748

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> الشرق الإسلامي

يعملون على خرابه وتدميره. ولكنهم مع ذلك ظلوا بوصفهم طائفة دينية وأضحوا على مر الأيام مسالمين خليقين بالاحترام؛ وفي الهند، وفارس، والشام، وإفريقية كثيرون من أتباع هذه الطائفة يعترفون بزعامة أغا خان ويؤدون إليه عشر دخلهم(6).

وتوفي ملك شاه بعد شهر من وفاة وزيره، وتنازع أبناؤه على وراثة العرش واقتتلوا، وتفرق المسلمين في أثناء هذا النزاع فلم يواجهوا الصليبيين بقوة متحدة. وأعاد السلطان سنجر إلى بغداد أبهة السلاجقة في أثناء حكمه الذي دام من 1117 حتى 1157، وازدهرت في أيامه الآداب بفضل تعضيده ومناصرته، ولكن الدولة السلجوقية تفككت بعد وفاته وانقسمت إلى إمارات مستقلة تحكمها أسر قليلة الشأن وملوك متنازعين متقاتلون، وقام في الموصل أحد المماليك ملك شاه الأكراد وهو عماد الدين زنكي وأسس أسرة الأتابكة (آباء الأمراء) في عام 1127 وهي الأسرة التي حاربت الصليبيين حرباً عواناً وبسطت سلطانها على بلاد النهرين. وفتح ابنه نور الدين محمد (1146-1173) بلاد الشام، واتخذ دمشق عاصمة له، وحكم أملاكه حكماً عادلاً حازماً، وانتزع مصر من الأسرة الفاطمية المحتضرة. وكانت عوامل الانحلال، التي أدت إلى خضوع الخلفاء العباسيين إلى سلطان بني بويه السلاجقة، قد أدت بعد قرنين من تضعف الخلافة العباسية إلى اضمحلال شأن الخلافة الفاطمية حتى غدوا رؤساء دينيين لا أكثر في دولة يحكمها وزراءهم وقادة الجنود. وانغمس هؤلاء الخلفاء في اللهو الشهوات بين نساءهم اللاتي لا يحصى عددهن، وأحاطوا أنفسهم بالخصيان والعبيد، وأفقدتهم الترف والانغماس في الشهوات الجنسية صفات الرجولة، فتركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ويوزعون مناصب الدولة ومزايا الحكم كما يشتهون. وحدث في

صفحة رقم : 4749

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> الشرق الإسلامي

عام 1164 أن قام النزاع على الوزارة بين اثنين من القواد. واستعان أحدهما وهو شاور على منافسه بنور الدين، فبعث إليه بقوة صغيرة يقودها أسد الدين شيركوه. وانتهى الأمر بأن قتل شيركوه شاور ونصب نفسه وزيراً. ولما مات

شركوه خلفه في الوزارة ابن أخيه الذي صار فيما بعد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب والمعروف عند الغربيين باسم Saladin. وقد ولد صلاح الدين في كريت الواقعة في أعالي نهر دجلة عام 1138 من أسرة كردية-غير سامية. وكان أبوه أيوب قد ارتقى في مناصب الدولة التي صار والياً على بعلبك أيام عماد الدين زنكي، ثم والياً على دمشق في أيام نور الدين محمود. ونشأ صلاح الدين في هاتين المدينتين في بيت من بيوت الإمارة، وتعلم فنون السياسة والحرب، ولكنه جمع إليها صلاحاً وتمسكاً بالدين، وتحمساً له، وإتقاناً لأصوله، وبساطة في المعيشة لا تكاد تفتقر عن بساطة الزهاد. ويعدّه المسلمون من أعظم رجالهم الصالحين وكان خير أثوابه ثوباً من الصوف الخشن الغليظ، ولم يكن يشرب غير الماء وكان مضرب المثل في اعتداله في العلاقات الجنسية، وبلغ في ذلك درجة لا يدانيه فيها معاصروه. قدم إلى مصر مع شريكوه، واشترك فيما نشب فيها من قتال، واستلقت الأنظار ببسالته وحسن تدبيره، فعين حاكماً على الإسكندرية وصد عنها غارة الفرنجة في عام 1167. ثم تولى الوزارة وهو في سن الثلاثين، فبذل جهده في إعادة المذهب السني إلى مصر، حتى إذ كان عام 1170 استبدل باسم الخليفة الفاطمي الشيعي اسم الخليفة العباسي السني في خطبة الجمعة. ولم يكن للخليفة العباسي في ذلك الوقت أكثر من الزعامة الدينية الاسمية في بغداد. وكان الخليفة العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين في ذلك الوقت، مريضاً في قصره، وظل على غير علم بهذا الانقلاب

صفحة رقم : 4750

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

الديني، لأن صلاح الدين حرص على أن لا تصله أنبأؤه حتى يقضي هذا السجين العديم الشأن نحبه في هدوء وسلام. وقد حدث هذا بالفعل بعد قليل، فمات ولم يبايع من يخلفه على العرش، وانقضى بذلك حكم الأسرة الفاطمية دون أن يحدث في البلاد شيء من الاضطراب. وجعل صلاح الدين نفسه والياً على البلاد لا وزيراً، وأقر لنور الدين بالسيادة. ولما دخل صلاح الدين قصر الخليفة بالقاهرة وجد في اثني عشر ألف شخص كلهم نساء عدا أقارب الخليفة نفسه، كما وجد فيه من الحلبي، وأثاث، والعاج، والخزف الثمين ما لا يوجد في قصر أعظم عظماء ذلك الوقت. ولم يحتفظ صلاح الدين بشيء من هذا كله لنفسه، ووهب القصر لقواد جنده، وظل هو يسكن حجرات الوزير ويعيش فيها عيشة البساطة التي هي من خير النعيم على صاحبها.

ولما مات نور الدين في عام 1173 أبى ولاية الأقاليم أن يبايعوا ابنه البالغ عمره أحد عشر عاماً ملكاً عليهم، وأوشكت بلاد الشام أن تقع مرة أخرى في براثن الفوضى. وقال صلاح الدين إنه يخشى أن يستولي الصليبيون على تلك البلاد فسار من مصر ومعه سبعمائة من الفرسان، واستطاع بحملة سريعة موفقة أن يستولي على جميع بلاد الشام. ولما عاد إلى مصر لقب نفسه ملكاً وأسس الأسرة الأيوبية (1175)، وخرج من مصر مرة أخرى بعد ست سنين من ذلك الوقت، واتخذ دمشق مقراً له، واستولى على بلاد النهرين، وكان فيها، كما كان في القاهرة. الرجل الحريص على دينه، المستمسك بأصوله. وأنشأ عدة مساجد، وبیمارستانات، وأديرة، ومدارس لتعليم قواعد الدين، وشجع العمارة، وإن لم يشجع العلوم الزمنية، وكان يشرك الفاطميين في احتقاره الشعر. ولم يكن يتوانى عن إصلاح كل خطأ ورد كل ظلم يصل إلى علمه، وخفف الضرائب في الوقت الذي أكثر فيه من المنشآت العامة، وأدار دولا ب الحكومة بحزم وكفاية وحرص شديد على المصلحة العامة. وكانت البلاد الإسلامية تفخر بعدله وصلاح

صفحة رقم : 4751

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

حكمه، بينما كانت المسيحية تعترف بشهامته وإن لم يكن من دينها .
وسنمك القلم عن التبسط في أحوال الأسر المحلية التي اقتسمت بلاد الشرق الإسلامية بعد موت صلاح الدين (1193). وحسبنا أن نقول إن ابنه كانت تنقصه مواهب أبيه، وإن حكم الدولة الأيوبية في بلاد الشام انقضى بعد ثلاث أجيال (1260). أما في مصر فقد ظل مزدهراً حتى عام 1250، ووصل إلى ذروة مجده وقوته في عهد الملك المستنير الملك الكامل (1218-1238) صديق فردريك الثاني. وفي أسية الصغرى أقام السلاجقة سلطنة بلاد "الروم" وجعلوا قونية (إيقونيوم Iconium) الوارد ذكرها في أقوال القديس بولس) مركزاً لحضارة ذات آداب رفيعة. وانمحت من أسية الصغرى أسس الحضارة اليونانية التي كانت قائمة فيها منذ أيام هومر، وأصبحت بلاداً تركية لا تقل في صيغتها هذه عن التركستان نفسها، وتقوم فيها الآن الدولة التركية متخذة عاصمتها مدينة كانت في الزمن القديم عاصمة الحيثيين. وكانت قبيلة أخرى من الأتراك تحكم خوارزم (1077-1231)، وقد بسطت هذه القبيلة سلطانها من جبال أورال حتى الخليج الفارسي. وفي هذه الأحوال وهذا الانقسام السياسي أسس جنكيز خان الدولة الإسلامية الآسيوية.

وكانت بلاد الشام حتى هذه الفترة من عهود الاضمحلال تتزعم العالم كله في الشعر، والعلم، والفلسفة، وتنافس آل هوهنستوفن Hohenstaufen في الحكم. فقد كان سلاطين السلاجقة طغرل بك، وألب أرسلان، وملك شاه وسنجر - من أقدر الحكام في العصور الوسطى، ويعد نظام الملك من أعظم رجال الحكم والسياسة، ولم يكن نور الدين، وصلاح الدين، والكامل

صفحة رقم : 4752

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الشرق الإسلامي

أقل شأناً من رتشرد الأول، ولويس التاسع، وفردريك الثاني. وجرى هولاء الحكام المسلمون جميعهم، بل وصغار الملوك أنفسهم، على سنة الخلفاء العباسيين في مناصرة الآداب والفنون، حتى لنجد في بلاطهم شعراء أمثال عمر الخيام، والنظامي، والسعدي، وجلال الدين الرومي، وبلغت العمارة في أيامهم درجة من الازدهار لم تبلغها قط من قبل، وإن كانت الفلسفة قد اضمحلت لتشددهم في الدين؛ فقد طارد السلاجقة وصلاح الدين كل خارج على السنة من المسلمين، ولكنهم كانوا يعاملون اليهود والمسيحيين معاملة بلغ من تسامحها ولينها أن المؤرخين البيزنطيين يحدثونا عن جماعات مسيحية تطلب إلى الحكام السلاجقة أن يأتوا إليهم ليطردوا حكامها البيزنطيين الظالمين (7). وازدهر غرب أسية مرة أخرى مادياً، وأدبياً في عهد السلاجقة والأيوبيين حتى كانت دمشق، وحلب، والموصل، وبغداد، وأصفهان، والري، وهراة، وأميدا، ونيسابور، ومرو وقتنذ من أكثر مدن العالم ثقافة وجمالاً. وقصارى القول أن هذا العصر كان عصر اضمحلال متألئ ساطع.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمحلالمهم -> المسلمون في الغرب

الفصل الثاني

المسلمون في الغرب

1300-1068

توفي الملك الصالح آخر سلاطين الأيوبيين عام 1249، وتغاضت أرملته وجاريتته السابقة شجرة الدر عن مقتل ابن زوجها ونادت بنفسها ملكة. وأراد الزعماء المسلمون في القاهرة أن يوقفوا بين هذا ومقتضيات الشرف والرجولة فاختاروا مملوكاً آخر يدعى أيبك ليكون شريكاً لها في الملك وتزوجت به شجرة الدر، ولكنها ظلت هي الحاكمة، ولما حاول أن يستقل بالملك دونها عملت على قتله في الحمام (1257)، ولم تلبث أن قتلتها جوارى أيبك بالقباب، وكان أيبك قد عاش من العمر ما يكفي لإنشاء أسرة المماليك، وكان لفظ مملوك يطلق على الأرقاء البيض، وهم في العادة من الأتراك أو المغول الأتداء اليواصل، الذين كان سلاطين بني أيوب يستخدمونهم في حرسهم الخاص، وأصبح هؤلاء فيما بعد ملوك مصر، كما أصبح أمثالهم ملوكاً في روما وبغداد، وظل المماليك يحكمون مصر، وبلاد الشام أحياناً؛ 267 عاماً (1250-1517) أريقت فيها كثير من دماء الاغتيال في عاصمة ملكهم؛ ولكنهم جملوها بآثار الفن. وقد أنجوا بشجاعتهم بلاد الشام وأوربا نفسها من المغول حين بددوا شملهم في واقعة عين جالوت (1260)، وكانوا هم الذين أنجوا فلسطين من الفرنجة، وطردوا آخر محارب مسيحي من بلاد آسية، وإن لم ينالوا من وراء ذلك من الحمد ما نالوه بهزيمة المغول. وكان أعظم سلاطين المماليك وأشدهم قسوة الظاهر بيبرس (1260-1277).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمحلالمهم -> المسلمون في الغرب

كان الظاهر بيبرس مملوكاً تركيا؛ رفعه دهاؤه وبسالته إلى منصب القيادة في الجيش المصري، وكان هو الذي هزم لويس التاسع في عام 1250، والذي حارب بعد عشر سنين من ذلك الوقت ببسالة ومهارة منقطعة النظير تحت قيادة قطز في معركة عين جالوت. ثم قتل قطز وهو عائد إلى القاهرة ونادى بنفسه سلطاناً على مصر، وكان من الطريف أن يتقبل لنفسه الاحتفال الذي أعدته المدينة للضحية المنتصر. واشتبك الظاهر في عدة حروب مع الصليبيين كللت كلها بالنصر، ومن أجلها تضعه الروايات الإسلامية في المرتبة الثانية بعد هارون الرشيد وصلاح الدين، ويصفه مؤرخ مسيحي معاصر له بقوله: "إنه كان في السلم معتدلاً، عفيفاً، عادلاً بين شعبيه، رحيماً برعاياه المسيحيين أنفسهم". وقد أحسن تنظيم حكومة مصر إلى درجة تثبت دعائم حكم خلفائه رغم ما اتصف به من عجز؛ فاحتفظوا بهذا الملك حتى غلبهم الأتراك العثمانيون في عام 1517. وقد أنشأ لمصر جيشاً وأسطولاً قويين، وظهر مرافئها، وأصلح طرقها، وقنوات ربيها، وشاد المسجد المسمى باسمه في القاهرة.

وخلع مملوك تركي آخر ابن الظاهر بيبرس، وأصبح هذا المملوك السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (1279-1290)، وأهم ما اشتهر به في التاريخ هو البيمارستان الذي أنشأه في القاهرة، والذي خصص له مليوناً من الدراهم (ما يعادل 500.000 ريال أمريكي) في العام ورُفِع ابنه الناصر إلى العرش ثلاث مرات، ولكنه لم يخلع إلا مرتين، وبني قنوات لجر ماء الشرب إلى العاصمة، وأنشأ حمامات عامة، ومدارس، وأديرة، وثلاثين مسجداً، واحتقر قناة تصل الإسكندرية بالنيل سخر في حفرها مائة ألف عامل، وضرب المثل في بذخ المماليك، إذ نحر عشرين ألفاً من الذبائح في الاحتفال بزواج ولده. ولما سافر الناصر في رحلة خلال الصحراء حمل على ظهر أربعين بعيراً حديقة من الخضر بطينها الخصب ليستمد منها حاجاته كل يوم (9). وأفقرت خزانه

صفحة رقم : 4755

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> المسلمون في الغرب

الدولة الرومانية في أيامه، وكان سبباً في ضعف خلفائه ضعفاً خارت له فيما بعد قوة المماليك. وبعد فإن سلاطين المماليك لا يقعون في نفوسنا موقع سلاطين السلاجقة، أو الأيوبيين. نعم إنهم خلفوا منشآت عامة عظيمة، ولكن معظم هذه الأعمال كان يقوم بها فلاحون أو عمال فقراء يستغلون إلى أقصى ما تحتمله الطاقة البشرية، وتستطيعه حكومة لا تسأل قط عن أعمالها أمام الأمة أو أمام طبقة الأعيان؛ وكان الاغتبال هو الطريقة الوحيدة للتخلص من السلاطين، ولكن هؤلاء الحكام الغلاظ الأكباد كانوا أصحاب ذوق سليم، أسخياء في مناصرة الآداب والفنون، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية في تاريخ العمارة الإسلامية في العصور الوسطى بأجمعها، وكانت القاهرة في عهدهم (1250-1300) أغنى مدن العالم الممتد في غرب نهر السند (10)، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات، وحوانيت صغيرة جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان، وأزقة غاصة بالناس والدواب، تملو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة، ومتعرجة ليسهل الدفاع عنها، تخفي بيوتها وراء واجهات قوية، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها في الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلي أو حديقة قريبة، وقد فرشت حجراتها بالاثاث الوثير، والسجف، والطنافس، والتحف الفنية، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة. وكان فيها رجال يعضون الحشيش ليخدروا حواسهم، ويستجلبوا الأحلام اللذيذة؛

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> المسلمون في الغرب

وفيها نساء يثرثرون في بيوت الحرير، أو يغازلن خلصة من وراء النوافذ. والموسيقى تتبعث من آلاف الآلات، والحفلات العجيبة تقام في القلعة، الحدائق العامة يفوح منها شذي الأزهار وتموج بالمتزهين، والنهر العظيم والقنوات تسبح فيها سفائن النقل والركاب، وقوارب النزهة. هذه هي القاهرة المسلمة في العصور الوسطى .

لله بستان وما قضيت فيه من المآرب

لهفي على زمني به والعيش مخضر الجوانب

فيرقني والجو منه ساكن والقطر ساكن

ولكم بكرت له وقد بكرت له غر السحاب

والطل في أغصانه يحكى عقوداً في ترائب

وتفتحت أزهاره فتأرجحت من كل جانب

وبدا على جنباته ثمر كأذنان الثعالب

وكأنما أصله ذهب على الأوراق ذائب

فهناك كم ذهبية لي في الولوع بها مذاهب

وتعاقبت على شمالي إفريقية في ذلك الوقت أسر كان لها هي الأخرى شأن عظيم، منها الزيرية (972-1048) وبنو حفص (1228-1534) حكام تونس، والحموديون (1130-1269) في بلاد الجزائر، والمرابطون (1056-1147) والموحدون (1130-1269) أمراء مراکش. وفي

صفحة رقم : 4757

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> المسلمون في الغرب

الأندلس سرعان ما تأثر المرابطون المنتصرون، جنود إفريقية المنتشفون الأولون، بحياة الترف التي كان يحيها أمراء قرطبة وإشبيلية الذين ثلوا هم عروشهم، وحل لين السلم محل التربية العسكرية الصارمة، وتخلت الشجاعة عن مكانها للمال حتى أصبح هؤلاء الشجعان مقياس السمو والعمه والهدف المبتغى، واكتسبت النساء برقتهن ومفاتهن سلطاناً لا يدانيه إلا سلطان رجال الدين الذين يمنون الناس بمثل هذه المتع في الجنة. وفسد الموظفون، ولم يلبث دولاب الإدارة الذي بلغ درجة عالية من الكفاية في أيام يوسف بن تاشفين (1090-1106)، أن اختل في أيام ابنه على (1106-1143). واضطرب حبل الأمن، وثررت السرقات كلما ازاد إهمال الحكومة لواجباتها، فأصبحت الطرق غير آمنة، وكسدت التجارة، ونقصت الثروة. واغتنم ملوك أسبانيا الكاثوليكية هذه الفرصة فأغاروا على قرطبة، وإشبيلية وغيرها من مدان الأندلس الإسلامية، وولى المسلمون وجههم مرة أخرى نحو إفريقية بها لتنجيهم من محنتهم. وكانت ثورة دينية قد شبت في تلك البلاد في عام 1121، ورفعت إلى العرش طائفة أخرى ذات قوة وبأس شديد. فقد قام عبد الله بن تومرت يندد بعقائد السنيين الذين يعزون إلى الله صفات الأدميين، وبأراء الفلاسفة الذين يدعون إلى إرجاع كل شيء إلى العقل وأخذ يطالب بالعودة إلى البساطة في العيش في العقيدة الدينية، ثم أعلن في آخر الأمر أنه هو المهدي المنتظر والمنقذ الذي يقول به الشيعة. والتقت حوله قبائل البربر الهمج سكان جبال أطلس، ونظموا أنفسهم تنظيمياً قوياً وسموا بالموحدين؛ وهزموا حكام مراکش المرابطين، ولم يجدوا صعوبة في أن يفعلوا مثل هذا الفعل في الأندلس. وعاد النظام والرخاء إلى الأندلس ومراكش في عهد عبد المؤمن (1145-1163) وأبي يعقوب يوسف (1163-1184) من أمراء الموحدين، وانتعشت الآداب والعلوم مرة أخرى، وبسط الأميران حمايتهما على الفلاسفة على أن يكون مفهوماً لديهم أن يجعلوا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمحلالمهم -> المسلمون في الغرب

كتبهم غير مفهومة، لكن أبا يوسف يعقوب (1184-1199) استسلم إلى فقهاء الدين، وتخلى عن الفلاسفة، وأمر بحرق جميع كتبهم. ولم يكن ابنه محمد الناصر (119-1214) يعنى بالفلسفة ولا بالدين، وأهمل شؤون الحكم، وانغمس في الملذات، وهزم هزيمة منكرة على أيدي قوات المسيحيين المتحدة في واقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام 1212. وانقسمت أسبانيا الخاضعة للموحدين على أثر هذه الهزيمة إلى دويلات مستقلة أفتتحها المسيحيون واحدة بعد واحدة قرطبة في عام 1236، وبلنسية في 1238، وإشبيلية في عام 1248. وارتد المسلمون المغلوبون إلى غرناطة، حيث وقتهم جبال سيارا نفادا أو الحاج الثلجي بعض الوقاية، وحيث ازدهرت حقول الروم، وحدائق الزيتون، وغياض أشجار البرتقال بفضل ما يجري فيها من مياه الأنهار. وتعاقب على عرش غرناطة طائفة من الحكام الجازمين حافظوا على استقلالهم هي والبلدان التابعة لها-شريش، وجيان، والمرية، ومالقة-وصدوا عنها غارات المسيحيين المتكررة، وراجت التجارة وانتعشت الصناعة، وازدهرت الفنون، واشتهر السكان بثيابهم الزاهية وحفلاتهم المرحية، وظلت هذه المملكة الصغيرة قائمة حتى عام 1492، وكانت هي البقية الباقية في أوربا من تلك الثقافة التي جعلت بلاد الأندلس قروناً طوالاً من مفاخر بني الإنسان.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمحلالمهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

الفصل الثالث

نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

في هذا العصر عصر سيادة البربر على الأندلس الإسلامية أقام المسلمون قصر الحمراء في غرناطة والقصر والخرلدة في إشبيلية. وكثيراً ما يسمى الطراز المعماري الجديد بالطراز المراكشي Morisco ظناً انه جاء من مراكش ولكن الحقيقة أن عناصره الأولى جاءت من بلاد الشام والفرس، وهي أيضاً من مميزات التاج محال في الهند، إلا ما أوسع ميادين الفن الإسلامي وما أكثر غناه! وقد كان الفن في ذلك الوقت فناً رقيقاً، ولم يعد يهدف إلى القوة والفخامة اللتين نشاهدهما في مساجد دمشق، وقرطبة، والقاهرة، بل يهدف إلى الرقة والمال، ويبدو فيه أن كل مهارة فنية قد وجهت إلى الزينة، وأن المثال قد طغى على مهندس المعماري.

وكان الموحدون من أكثر الحكام نشاطاً في العمارة، وقد شادوا أولاً بقصد الدفاع عن أملاكهم، فكانوا يحيطون مدنهم الكبرى بأسوار ضخمة قوية وأبراج مثل برج الذهب Torre del Oro الذي كان يحرس الوادي الكبير عند إشبيلية. وكان "القصر" Alcazar المقام هناك حصناً وقصراً معاً وكان يطل على العالم بواجهة خالية من الجمال. وكان الذي وضع تصميمه لأبي يعقوب يوسف (1181) هو الجالوني المهندس القرطبي، وأصبح هذا القصر بعد عام 1248 المسكن المحبب لملوك أسبانيا المسيحيين، وأدخل عليه بدور الأول (1353)، وشارل الخامس (126)... وإزابيلا (1833) تعديلاً في بنائه، أو رموه، أو أعادوا ما تهدم منه، أو أضافوا إليه أبنية جديدة حتى أصبح معظمه

صفحة رقم : 4760

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

الآن مسيحياً في بنائه، ولكنه يغلب على نمطه وصنعه الطراز الإسلامي أو الإسلامي-المسيحي.

وأبو يعقوب يوسف الذي بدأ "القصر" هو نفسه الذي شاد في عام 1171 مسجد إشبيلية العظيم الذي لم يبقَ منه شيء في هذه الأيام. وقد أقام جابر المهندس في عام 1196 مأذنة هذا المسجد الفخمة المعروفة عند الغربيين باسم الخردلة، ثم حول المسيحيون الفاتحون هذا المسجد إلى كنيسة (1235)؛ ثم هدمت هذه الكنيسة في عام 1401، وأقيمت مكانها كنيسة إشبيلية الكبرى، وكان مما استخدم في بنائها مواد المسجد نفسه. والجزء الأدنى من الخردلة إلى ارتفاع 230 قدماً هو نفس بناء المأذنة الأصلية، أما الارتفاع والثمانون قدماً الباقية فقد أضافها إليها المسيحيون (1568)، وحرصوا أن تكون متناسقة كل التناسق مع قاعدة المأذنة الإسلامية. والثلاثان الأعلى من البناء كثير الزخارف، وفيهما شرفات مقنطرة ذات واجهات متشابكة من الجص والحجر؛ وفي أعلاها تمثال من البرونز للإيمان (1568) ولكنه لا يكاد يمثل مزاج أسبانيا الديني غير المتقلب لأنه يدور مع الريح، ومن هنا اشتق لفظ جير لدا-أي الذي يدور-الأسباني من جيراً Gira. وقد أقام المسلمون في مدينتي مراكش (1569) ورباط (1197) أبراجاً لا تكاد تقل جمالاً عن هذا البرج. وفي غرناطة أمر محمد بن الأحمر (1232-1273) في عام 1248 بتشييد أعظم صرح في الأندلس الإسلامية على بكرة أبيها، ونعني به قصر الحمراء الشهير. وكان الموقع الذي اختير لتشييده عليه قمة جبلية شامخة تحيط بها أخاديد عميقة وتشرف على نهري الدارو Darro والجنيل Genil. وقد وجد الأمير في هذا الموضع حصناً يعرف بحصن الكذابة Acazabs يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادي، فأضاف إليه أبنية جديدة وأقام الأسوار الخارجية للحمراء وأقدم قصورها ونقش على كل جزء من أجزائها شعاره المتواضع "لا غالب إلا الله". وقد أضيفت إلى

صفحة رقم : 4761

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

هذا البناء الأصلي أجزاء أخرى في فترات مختلفة وأصلح ما تلف من على أيدي المسيحيين والمسلمين على السواء. ومن ذلك أن شارل الخامس أضاف إليه قصره البني على الطراز المربع طراز عهد النهضة، وهو بناء ناقص كنيب مهيب غير متناسق. وخط المهندس الذي لم يصل إلينا اسمه الفضاء الذي في داخل السور ليكون أول حصناً لأربعين ألف رجل متبعاً في هذا مبدأ العمارة الحربية التي نمت وتطورت في بلاد الإسلام الشرقية (12). لكن ذوق القرنين التاليين الأكثر ميلاً إلى الترف حول هذا الحصن على مر الأيام إلى مجموعة كبيرة من الأبياء والقصور، تكاد تمتا كلها بجمال الزخارف المكونة من الأزهار، وأوراق الأشجار، والأشكال الهندسية المحفورة أو المطبوعة في الجص أو الأجر أو الحجارة الملونة، والتي تبلغ من الجمال ورقة الذوق درجة منقطعة النظير. وأنشئت في بهو الأس بركة تنعكس على مياهها أغصان الأشجار وكلات الأبواب المزخرفة، ومن ورائها يقوم برج ذو أسوار حصينة كان المحاصرون يظنون أنهم واجدون فيه آخر ملجأ منيع. وفي داخل هذا البرج بهو السفراء، حيث كان يجلس أمراء غرناطة على رؤوسهم بينما كان المبعوثون الأجانب يعجبون بما حوته المملكة الصغيرة من فن وثراء، ولقد أطل شارل الخامس من شرفة لإحدى نوافذ هذا البهو فرأى الحدائق والغياض، والنهر يجري من تحتها، فقال بعد تفكير عميق: "ما أتس حظ من خسر هذا كله!" (13) وفي الفناء الرئيسي للقصر المعروف ببهو الأساد أقيم اثنا عشر أسداً من الرخام رهيبية المنظر تحرس فسقتة من المرمر. وإن ما في البواقي المحيطة بهذا الفناء من عمد رشيقة رفيعة ذات تيجان في صورة أزهار، وتيجان ذات عمد صغيرة مدلاة، وكتابات كوفية، ونقوش عربية ذات ألوان أظفأ بريقتها كز الغداة ومر العشي، كل هذا يجعل القصر أروع آية في الطراز الإسلامي الأندلسي. ولعل الأندلسيين المسلمين قد دفعهم ترفهم وتحمسهم إلى أن يتجاوزوا في فنهم حدود الرشاقة إلى

صفحة رقم : 4762

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

الإسراف، ذلك أنه حيث لا تشاهد العين إلا الزخرف والزينة فإنها هي والروح تملان حتى الجمال والحدق. وهذه الدقة في الزخرف تبعث في النفس إحساساً بالوهن وتضحى بطابع القوة والأمان اللذين يجب أن نشعرنا بهما هندسة البناء. ومع هذا فإن ذلك الكساء الزخرفي كله تقريباً قد عاش بعد اثني عشر زلزالاً. نعم إن سقف قاعة السفراء قد خر، ولكن ما عداه من القاعة لا يزال قائماً. وملاك القول إن هذه المجموعة الجميلة من الحدائق والقصور، والفساقي، والشرفات توحى إلى الناظر بأقصى ما وصل إليه الفن الإسلامي الأندلسي من العظمة، كما توحى في نفس الوقت بضعف هذا الفن: توحى بالإسراف في الثراء، وبجهود الفاتحين تتوسد مهاد الراحة وتخلد إلى الدعة، وبحاسة الجمال المرهقة تستبدل بالقوة والعظمة والرشاقة والأناقة.

وعاد الفن الإسلامي الأندلسي في القرن الثاني عشر من أسبانيا إلى شمال إفريقيا، وبلغت مدائن مراكش، وفاس، وتلمسان، وتونس، وصفاقس، وطرابلس أوج عظمتها بما شيد فيها من القصور والمساجد التي يبهج العين؛ وبالأحياء الفقيرة المتعرجة. أما في مصر وبلاد الشرق فقد طعم السلاجقة والأيوبيون والمماليك الفن الإسلامي بقوة جديدة، فقد

أقام صلاح الدين وخلفاؤه في الجنوب الشرقي من القاهرة قلعتها الضخمة، واستخدموا في بنائها الأسى الصليبيين، ولعلمهم حذو في طرازها حذو القلاع التي شادها الفرنجة في بلاد الشام، وشاد الأيوبيون في حلب المسجد العظيم والقلعة، وبنوا في دمشق ضريح صلاح الدين. وحدث في هذه الأثناء انقلاب في فن العمارة حول في جميع بلاد الشرق الإسلامي الطراز القديم في عمارة المساجد، وهو طراز الصحن الواسع إلى طراز المدرسة أو الجامع ذي المدرسة، وكان منشأ هذا الطراز الجديد أن المساجد زاد عددها فلم تعد ثمة حاجة إلى أن يكون في وسطها صحن كبير يتسع لجمهور كبير من المصلين، وأن ازدياد الحاجة إلى المدارس كان يتطلب تسهيلات جديدة في التعليم. ولهذا

صفحة رقم : 4763

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

امتت في المسجد الحقيقي أي من مكان الصلاة-الذي كان يعطوه في ذلك الوقت على الدوام تقريباً قبة كبيرة-امتدت منه أربعة أجنحة لكل منها مآذنه الخاصة ومدخله الكثير الزخارف، وقاعاته الرحبة للمحاضرات. وقد جرت العادة في أغلب الأحيان أن يكون لكل مذهب من المذاهب الأربعة جناح خاص، ويقول أحد سلاطين ذلك الوقت في صراحة: إن ذلك يتيح الفرصة لوجود مذهب منها في القليل يؤيد أعمال الحكومة القائمة. وقد استمر هذا الانقلاب في العمارة في عهد المماليك فأنشئت المساجد والمقابر الضمة التينة من الحجارة، تحرسها أبواب قوية كبيرة من البرونز المشغول، وتضيقها نوافذ ذات زجاج ملون؛ وتتألاً فيها الفسيفساء، والنقوش المحفورة في الجص الملون، وقع القرميد التي قاومت حتى الآن عوادي الزمان والتي لم يعرف طريقة صنعها غير المسلمين.

وقد درست الآثار المعمارية السلجوقية فلم يبق منها إلا أقل من واحد في المائة، نذكر من هذه البقية القليلة مسجد أني في أرمينية، والمدخل الفخم لمدخل قونية، ومسجد علاء الدين الفخم، والمدخل الكهفي، والواجهة ذات النقوش الشبيهة بالنقوش الشبيهة بالتطريز في جامع سرتجيلي، ونذكر منها في بلاد النهرين مسجد الموصل الكبير، ومسجد المستنصر في بغداد، وفي فارس برج طغرل بك في الري وقبر سنجر في مرو، والمحراب المتألى في مسجد همذان، والقبة المضلعة والعقود الصغيرة الفذة في السجدة الجامع بقزوين، والعقود الكبرى والمحراب في جامع الحيدرية، وليست هذه إلا قلة من الصروح التي بقيت حتى الآن شاهدة على ما بلغه السلاجقة من حذق في العمارة وما بلغه ملوكهم من سمو في الذوق. وأجمل من هذه كلها المسجد الجامع في إصفهان الذي لا يدانيه في بلاد الفرس كلها إلا مسجد الإمام الرضا في مشهد والذي أقيم بعد ذلك الوقت. ومسجد إصفهان هذا أروع الآيات الفنية كلها في عصر السلاجقة. وقد أقيمت أجزاء من هذا

صفحة رقم : 4764

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

المسجد في قرون عدة، ويبدو عليها طابع نل القرون، فهو من هذه الناحية شبيه بكنيسة نتردام Notre Dam. وقد بدأ بنشيدته في عام 1088 ووسع مراراً عدة، ولم يتخذ شكله الحاضر إلا في عام 1612، غير أن كبرى قبابه المشيدة من الأجر تحمل نقوش خاتم نظام الملك وعام 1088. ومدخل المسجد وأبواب المحراب-ومنها واحد يبلغ ارتفاعه ثمانين قدماً مزينة بالقيشاني والفسيفساء الذي لا يكاد يوجد له نظير في تاريخ ذلك الفن بأكمله. وأبهاؤه الداخلية ذات قباب مزلعة وعقود صغيرة متتالية معقدة، وأقواس مستدقة تخرج من دعائم ضخمة. وعلى المحراب (1310) نقوش على الجص من أوراق الكرم والبشني؛ وكتابات كوفية لا يعلو عليها شيء من نوعها في بلاد الإسلام جميعها.

وهذه الآثار تسخر من القائلين بأن الأتراك كانوا قومياً همجاً، فكما أن الحكام والوزراء السلاجقة كانوا من أقدار الساسة والحكام في التاريخ، كذلك كان المهندسون السلاجقة من أقدار البنائين وأشجعهم في عصر الإيمان الذي يمتاز بضخامة مبانيه وأعظمها قوة؛ ولقد وقف طراز المباني السلجوقية الضخمة الجريئة في وجه النزعة الفارسية إلى الزينة، ونشأ من اجتماع النزعتين السلجوقية والفارسية طراز معماري جديد عم أسية الصغرى والعراق وإيران، ومن العجيب أن يتفق هذا الطراز في الزمن مع ازدهار فن العمارة القوطي في فرنسا. ولم يجر السلاجقة على السنة التي جرى عليها العرب قبلهم فيخفوا مكان الصلاة في ركن من أركان الصحن، بل جعلوا للمسجد واجهة قوية متألثة، ورفعوا بناءه، وأقاموا عليه قبة مستديرة أو مخروطية جمعت كل الصرح، وضمت أجزاء جميعها في وحدة، وفي هذا الوقت بالذات اجتمع في البناء العقد المستدق، والقبو، والقبة أحسن اجتماع (14).

وبلغت الفنون كلها ذروة مجدها في هذا العصر العجيب عصر العظمة

صفحة رقم : 4765

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

والاضمحلال، فقد كان يبدو للفرس من مسرات الحياة التي لا غنى عنها، ولم يبلغ الخزف على اختلاف أشكاله ما بلغه في ذلك الوقت من تنوع في الشكل وجمال (15). ذلك أن الفرس أتقنوا ما ورثوه عن المصريين، وأعل الجزيرة، والساسانيين، وأهل الشام من فنون الخزاف البراقة، والتلوين المفرد، أو المتعدد الألوان فوق السطح المزجج أو تحته، وأعمال الميناء، والقرميد، والقاشاني، والزجاج، حتى بلغوا بذلك كله درجة الكمال. وتأثرت هذه الأعمال كلها بالفن الصيني، وخاصة ما كان منها متصلاً بتلوين الصور، ولكن ذلك لم يفرض سلطانه على الطراز الفارسي، وقد استورد الخزف وقتئذ من بلاد الصين، ولكن ندرة الكاولين في الشرق الأدنى والأوسط لم تشجع المسلمين على صنع هذه الأنبة النصف الشفافة. إلا أن الفخار الفارسي مع هذا بقي طوال القرون الثاني عشر، والثالث عشر، والرابع عشر، لا يفوقه فخار آخر في العالم كله فقد كان في تنوع أشكاله، ودقة تناسبه، وبريق زخارفه، ودقة جزونه، ورشاقته يسمو على كل ما عداه في العالم كله (19).

ولم تكن الفنون الصغرى في بلاد الإسلام مما تنطبق عليها هذه التسمية التي تبحسها حقها. فقد كانت حلب ودمشق في هذا العصر تصنعان العجائب من الأنبة الزجاجية الهشة، والمزخرفة بالميناء، وصنعت القاهرة للمساجد والقصور قناديل من الزجاج المزخرف بالميناء أيضاً يبذل هواة التحف الفنية في هذه الأيام أقصى جهودهم للحصول عليها. وكانت كنوز الفاطميين التي فرقها صلاح الدين تحتوي على آلاف من الزهريات المصنوعة من البلور والجزع البقراني، بلغ صانعوها من المهارة الفنية ما يعجز عنه الفنانون في هذه الأيام، وبلغ فن الخزاف العنيد الأشوري القديم في مصر والشام درجة من الإتقان لم يسبق لها مثيل،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

ومن هذين القطرين انتقل هذا الفن إلى البندقية في القرن الخامس عشر (18). وكان النحاس، والبرونز، والشبّه، والفضة، والذهب، تصبّ أو تطرق، وتصنع منها أنية للطبخ، وأسلحة، ودروع، وقناديل، وأباريق، وأحواض، وجفان؛ وصوّان؛ ومرابيا وآلات فلكية، ومزهريات، وثرديات، ومقالم، ومحابر، ومدافىء، ومباخر، وتمائيل للحيوانات، وصناديق للمصاحف، ومساند للمواقد، ومفاتيح، وأقفال، ومقصات... مزينة بنقوش محفورة، ومرصعة في كثير من الأحيان بالمعادن أو الحجارة الكريمة. وكانت الوجه العليا للموائد النحاسية تحفر عليها كثير من النقوش، وكانت الشبائيك الفخمة تصنع من المعد المشغول للمحاريب، والأبواب، أو القبور. وفي متحف الفنون الجميلة ببسطن صينية فضية نقشت عليها صور وعول، وإوز، واسم ألب أرسلان، ويرجع عهدها إلى عام 1066، وقد وصفها بعض العلاء بأنها أشهر ما أخرجته الفن الفارسي في العهود الإسلامية من تحف فضية، وأنها أهم تحفة فضية مفردة باقية من أيام السلاجقة (19).

وظل النحت فناً تابعاً لغيره من الفنون ومقصوراً على عمل النقوش البارزة والحفر على الحجارة أو الجص، وعلى الزخرفة العربية والكتابية، وقد يحدث أحياناً أن يأمر حاكم مستهتر بعمل تمثال له أو لزوجته أو إحدى مغنياته، ولكن هذا العمل كان خطيئة سرية قلما تعرض على أعين الجماهير. غير أن النقش على الخشب ترعرع وازدهر، فكانت الأبواب، والمنابر، والمحاريب، وكراسي المصاحف، والسجف، والسقف، والمناضد، والشبائيك الشعريّة؛ والأصونة؛ والصناديق، والأمشاط، كانت هذه كلها تقطع على رسم شعريّة أو يكدح في عملها صناع قاعدون القرفصاء يديرون المخارط بأقواس. وكان ثمة عمال آخرون أشد من هؤلاء كدحاً وأكثر منهم صبراً ينسجون الحرير والأطلس والحرير المشجر، والأقمشة المطرزة، والمخمل المشغول بخيوط الذهب والستائر؛ والخيام،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

والطنافس ذات النسيج الرقيق البديع والرسوم الفتاة التي كانت موضع دهشة العالم وحسده. وقد شاهد ماركو بولو في أسية الصغرى حين زارها في عام 1270 "أجمل الطنافس في العالم كله" (20). ويقول جون سنجر سارجنت Jhon Singer Sargent إن السجادة العجمية "تساوي في قيمتها كل ما رسم من الصور حتى ذلك الوقت" (21)، مع أن الخبراء المختصين يحكمون بأن السجاجيد العجمية الحالية ليست إلا ناقصة من الفن الذي بزت فيه بلاد الفرس العالم

له، ولم يبق من السجاجيد العجمية التي نسجت في عصر السلاجقة إلا قطع ممزقة، ولكن في وسعنا أن نتصور ما بلغه من إتقان وجمال منقطعي النظر مما نسج على منوالها بصورة مصغرة في العصر المغولي. وكان التصوير في الإسلام من الفنون الكبرى في الرسو الدقيقة الصغيرة، كما كان طوال عهده من الفنون الصغرى في الرسم على الجدران؛ وفي الرسوم الملونة للكائنات الحية. وقد استخدم الخليفة الفاطمي الأمر (1104-1130) عدداً من رجال الفن ليرسموا له في حجرته بالقاهرة صور شعراء ذلك الوقت (22)، ويبدو من ذلك أن تحريم الصور المنقوشة لم يعد له من القوة ما كان له في سالف الأيام. وقد بلغ التصوير في عهد السلاجقة ذروته في بلاد التركستان حيث أضعف بُعد المسافة كراهية أهل السنة لهذا الفن، ومن أجل هذا نرى في المخطوطات التركية صوراً كثيرة لأبطال الأتراك. ولم تصل إلينا رسوم دقيقة صغيرة يمكن الجزم بأنها من عصر السلاجقة، ولكن بلوغ هذا الفن أوجه في عصر المغول الذي تلا ذلك العصر في بلاد الشام الشرقية لا يكاد يترك مجالاً للشك في ازدهاره في ذلك العصر السابق. فقد كانت العقول الأوروبية والأیدی للصناع تخرج مصاحف تزداد جمالاً فوق جمالها على مر الأيام لمساجد السلاجقة والأيوبيين والمماليك، ومحال عبادتهم؛ ولكبرائهم، ومدارسهم، وكانوا ينقشون على جلود المصاحف المصنوعة من الجلد أو المطلية بالك نقوشاً تبلغ في

صفحة رقم : 4768

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> نظرات خاطفة في الفن الإسلامي

دقتها بيوت العنكبوت، وكان الأغنياء ينفقون بعض مالهم في استئجار الفنانين لإخراج أجمل ما عرف من الكتب، وكانت طائفة كبيرة من الوراقين، والخطاطين، والمصورين، والمجلدين، تعمل في بعض الأحيان سبعة عشر عاماً كاملاً لإخراج مجلد واحد. ولم يكن بد من أن يكون الورق من أحسن الأنواع، ويقال إن فرش الرسم كانت تصنع من شعرات بيضاء من رقاب القطط التي لا تزيد عراها على سنتين، وكان المداد الأزرق يصنع من مسحوق حجر اللازورد الأزرق، وكان يساوي وزنه ذهباً؛ ولم يكن الذهب السائل يعد أثمن من أن ترسم به بعض الخطوط أو تكتب به بعض الحروف في رسم أو نص. وفي ذلك يقول أحد شعراء الفرس: "إن الخيال لا يمكن أن يتصور مقدار السرور الذي يتبعه للعقل منظر خط متقن الرسم" (23).

صفحة رقم : 4769

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> عصر عمر الخيام

الفصل الرابع

يبدو أن عدد الشعراء والعلماء في ذلك العصر لم يكن يقل عن عدد الفنانين. فقد كانت القاهرة، والإسكندرية، وبيت المقدس، وبلعبك، وحلب، ودمشق، والموصل، وحمص، وطوس، ونيسابور؛ وكثير غيرها من المدن تفخر بما فيها من مدارس كبرى، وكان في بغداد وحدها سنة 1064 ثلاثون مدرسة من هذا النوع، أضاف إليها نظام الملك بعد عام من ذلك الوقت مدرسة أخرى تفوقها كلها في سعتها، وفخامة بنائها، وأجهزتها، ويصفها أحد الرحالة بأنها أجمل بناء في المدينة كلها. وكانت هذه المدرسة الأخيرة تحتوي أربع مدارس للشريعة الإسلامية منفصلة كل منها عن الأخرى، يجد فيها الطلاب التعليم؛ والطعام، والعناية الطبية بالمجان، ويعطى كل منهم فوق ذلك ديناراً ذهبياً لما يحتاجه من النفقات الأخرى. وكان في المدرسة مستشفى، وحمام، ومكتبة مفتحة الأبواب بالمجان للطلبة وهيئة التدريس. ويغلب على الظن أن النساء كان يسمح لهن في بعض الأحوال بالالتحاق بهذه المدارس لأننا نسمع وجود شيخة-أي أستاذة- يهرع الطلاب إلى سماع محاضراتها كما كانوا يهرعون إلى سماع محاضرات أسبازيا Aspasia وهيباشيا (1178Hypatia)(24).

وكانت دور الكتب العامة أغنى مما كانت في أي عهد آخر من عهود الإسلام؛ وقد كان في الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة، وظل النحاة، وعلماء اللغة، وأصحاب الموسوعات، والمؤرخون موفوري العدد والثراء، وكانت كتب السير التي يضم كل منها عدداً من التراجم من الهويات الشائعة المتقنة عند المسلمين. من ذلك أن القفطي (المتوفى في عام 1248) ترجم لأربعمائة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

وأربعة عشر فيلسوفاً وعالمياً، وأن ابن أبي أصيبعة (1203-1270) ترجم لأربعمائة طبيب، وأن محمد الغوفي (1228)، ألف موسوعة تشمل ترجمة لثلاثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام، وبز محمد بن خلكان (121-1282) بمفرده هؤلاء جميعاً وغيرهم بكتابة وفيات الأعيان الذي يحتوي على تراجم في صورة قصص لثمانمائة وخمسة وستين من ذوي المكانة من المسلمين. والكتاب على اتساع مجاله عجيب الدقة، وإن كان ابن خلكان نفسه يعتبر ما فيه من نقص ويختمه بقوله "أبى الله أن يصح إلا كتابه" وحلل محمد الشهرستاني في كتاب الملل والنحل (1128) المشهورة من أديان العالم وفلسفاته، ولخص تواريخها، ولم يكن في مقدور أحد من المسيحيين في ذلك العصر أن يكتب كتاباً يماثله في غزارة مادته ونزاهته.

أما أدب القصة عند المسلمين فلم يتجاوز حكايات كثيرة عن حوادث اللصوص، متقطعة، متقطعة لا يربطها بعضها ببعض إلا أنها تروى عن شخصية واحدة. وكان أوسع الكتب انتشاراً عند المسلمين بعد القرآن، وكتاب ألف ليلة وليلة، وكتاب كليلة ودمنة ليديبا هو مقامات أبي محمد الحريري (1054-1122) البصري. وتروى هذه المقامات في نثر مسجع مغامرات الوغد السافل أبي زيد صاحب الشخصية الممتعة، وهو الذي يضطر القارئ إلى العفو عن مجونه، وجرأئمه، وتجديفه بسبب فكاهته الطريفة، وحنقه ودهائه، وفلسفته الجذابة المغربية: أنظر إلى قوله في إحدى المقامات:

صفحة رقم : 4771

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

وعاص النصيح الذي لا يبيح

إذا ما سمح

وجل في المجال ولو بالمحال

وخذ ما صلح

ويكاد كل من يعرف الكتابة والقراءة من المسلمين في ذلك الوقت أن يقرض الشعر، ولا يكاد يوجد حاكم لا يشجعه، وإذا صدقنا قول ابن خدون مئات من الشعر كانوا يقيمون في بلاط المرابطين والموحدين في إفريقية وأشبانيا (26). وحدث في اجتماع للشعراء المتنافسين في إشبيلية أن نال الأعمى التطيلي جائزة لأنه جمع في بيتي نصف شعر العالم كله إذ قال:

ضاحك عن جمان سافر عن در

ضاق عنه الزمان وحواه صدري

وتقول الرواية إن سائر الشعراء مزقوا قصائدهم دون أن يقرعوها، وفي القاهرة ظل البها زهير يغني عن الحب بعد أن ابيض شعره بزمن طويل، وفي بلاد الشرق الإسلامي كان انقسام الدولة إلى ممالك صغيرة سبباً في ازدياد عدد الأمراء والكبراء الذين يناصرون الأداب، وإلى تنافسهم في هذا الميدان كما حدث في ألمانيا في القرن التاسع عشر. وكان الفرس أغنى الأمم الإسلامية بالشعراء؛ فقد ظل الأنوري شاعر خراسان زمناً ما يتغنى بقصائده في بلاط سنجر، ومدحه بما لم يمدح به إلا نفسه. ومن مديحه لنفسه قوله بالفارسية ما معناه:

صفحة رقم : 4772

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

لي روح ملتهبة كالنار، ولسان فياض كالماء،

وعقل قواه الذكاء وشعراً مبراً من العيوب،

ولكن ما أشد أسفي إذ لا أجد نصيراً خليفاً بمديحي

وما أشد أسفي إذ لا أجد حبيباً جديراً بغزلي!

ولا يقل عنه ثقة بنفسه معاصره الخاقاني (1106-1185)، وقد أثار بغطرسته معلمه فقال فيه شعراً يطعن في نسبه يقول فيه بالفارسية ما معناه:

أي خاقاني! مهما تكن مكانتك في الشعر فإني أسدي إليك نصيحة لا أقتضيك عليها أجراً:

لا تهجون أسن منك فر بما تهجو أبالك وأنت لا تدري

وأكثر ما يعرف الأوروبيون من الشعر الفارسي هو شعر عمر الخيام، وتضعه بلاد فارس بين علمائهم الأعلام، ولا ترى فر رباعياته إلا لهواً عارضاً كان يلهو به "من أعظم علماء الرياضيات في العصور الوسطى" (30). وقد ولد أبو الفتح عمر الخيام ابن إبراهيم في نيسابور عام 1038، ومعنى لقبه صانع الخيام، ولكن هذا اللقب لا يدل على صناعته أو صناعة أبيه إبراهيم، لأن الألقاب المهنية كانت قد فقدت في أيامه معانيها الحرفية، كما فقدت ألقاب الحداد Smith، والخياط Taylor والخباز Baker، والفخراي Potter، معانيها عند الإنجليز والأمريكيين في الوقت الحاضر. ولا يكاد التاريخ يذكر شيئاً عن حياته، وإن كان يسجل أسماء الكثير من مؤلفاته، منها كتابه في الجبر الذي ترجم إلى الفرنسية في عام 1857، وهو يدل على تقدم كبير عما وصل إليه هذا العلم على أيدي الخوارزمي والعلماء اليونان. فقد وصل فيه إلى حل جزئي لمعادلات الدرجة

صفحة رقم : 4773

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

الثالثة قيا أنه "ربما كان أعظم ما وصلت إليه الرياضة في العصور الوسطى" (31) ومنها كتاب آخر في الجبر (وهو كتاب مخطوط في مكتبة ليدن) يعد دراسة نقدية لنظريات إقليدس وتعريفه. وقد كلفه السلطان ملك شاه مع جماعة من العلماء في عام 1074 إصلاح التقويم الفارسي، وكانت نتيجة عملهم تقوياً لا يخطئ إلا في يوم واحد كل 3770 عاماً- أي أنه أدق قليلاً من تقويمنا الحاضر الذي يخطئ يوم كل 3330 عاماً (32). وإنا لنترك اختيار أحد التقويمين للحضارة التي تتلو حضارتنا هذه. غير أن الدين الإسلامي كان أعظم سلطاناً على النفوس من العلوم الإسلامية، ولهذا عجز تقويم عمر الخيام عن أن يحل عند المسلمين محل التقويم الهجري. ومما يدل على ما بلغه ذلك العالم الفلكي من شهرة واسعة تلك القصة التي يروها عنه نظامي عروضي الذي عرفه في نيسابور: في شتاء سنة 508 في مدينة مرو أرسل السلطان ملكشاه في طلب صدر الدين محمد ابن المظفر رحمه الله، وكلفه أن يخبر الخيام-وكان ينزل داره-أن السلطان يريد الخروج للصيد، وأنه يطلب إلى عر أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا تلج. وفعل عمر ما كلف به ثم أرسل ابن المظفر إلى السلطان يخبره بما اختاره. ولما أعد السلطان عدته للرحيل هبط المطر؛ وهبت الرياح عواصف، ونزل الثلج والبرد، وأراد السلطان أن يعود، ولكن الخيام قال: لا تشغل بالك فإن المطر سينقطع في هذه الساعة ثم لا يهب مدة خمسة الأيام اللاحقة. وسار السلطان وأنقطع المر مدة الأيام الخمسة (33). والرباعيات في أصلها الفارسي قصيدة تتألف كل مقطوعة فيها من أربعة أبيات قافيتها أبا. وتعبّر كل منها عن فكرة كاملة في شعر جامع محكم. ولسنا

صفحة رقم : 4774

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

نعرف منشأ هذا البحر، ولكنه يرجع إلى ما قبل زمن عمر الخيام بوقت طويل. ولم يكن هذا الشعر في الأدب الفارسي جزءاً من القصائد الطوال ولكن كل مقطوعة من مقطوعاته تكون وحدة مستقلة بذاتها، ومن ثم فإن الفرس الذين جمعوا الرباعيات لا يرتبونها حسب تتابع أفكارها، بل يرتبونها حسب قوافيها(34). وتوجد الآن آلاف من الرباعيات الفارسية، معظمها لا يعرف قائله، ومنها 1200 تُعزى إلى عمر الخيام فسه، ولكن كثيراً منها يُشك في أنها من قوله. ويرجع تاريخ أقدم مخطوط فارسي لرباعيات الخيام (وهو المخطوط المحفوظ في المكتبة البديلية Bodleian بأكسفورد) إلى عام 1460 لا قبل. ويحتوي على 158 من هذه الرباعيات مرتبة ترتيباً أبجدياً(35). وقد أمكن إثبات بعض هذه المقطوعات إلى شعراء قبل الخيام-بعضها إلى أبي سعيد، وواحدة منها إلى ابن سينا(37). وإن من الصعب، إلا في حالات، أن نجزم بأن مقطوعة من المقطوعات التي تُعزى إلى الخيام من أقواله حقاً(38). ولقد كان المستشرق الألماني فون همر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربي إلى رباعيات الخيام في عام 1818، ثم ترجم إدوارد فيتزجيرلد Edward Fitzgerald في عام 1859 خمساً وسبعين منها شعراً إنجليزياً رصيناً ممتازاً، فريداً في وعه. ومع أن ثمن النسخة من الطبعة الأولى من هذه الترجمة لم يكن يزيد على بنس واحد فإنها لم يقبل عليها إلا عدد قليل، ولكن طبعاات أخرى متتالية أكبر من الأولى عدداً صدرت بعدئذ، وأفلحت في تعديل الصورة التي كانت في عقول الناس عن العالم الرياضي الفارسي حتى جعلته من أكثر الشعراء شهرة، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر في العالم. ويرى العارفون بالأصل الذي ترجمه فيتزجيرلد أن من بين المائة والعشر من المقطوعات التي ترجمها تسعاً وأربعين تعبر كل منها عن رباعية واحدة من الأصل الفارسي تعبيراً صادفاً أميناً وأن أربعاً وأربعين مأخوذة كل منها من رباعيتين أو أكثر

صفحة رقم : 4775

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

وأن اثنتين تنعكس "فيهما روح القصيدة الأصلية بأجمعها"، وأن ستاً مأخوذة من رباعيات توجد أصولها أحياناً ضمن رباعيات الخيام، ولكنها في أغلب الظن ليست له؛ وأن اثنتي ينطبع عليهما تأثير فيتزجيرلد بما قرأه لحافظ، وأن ثلاثة لا نجد لها أصلاً في أي نص فيما لدينا من نصوص رباعيات الخيام، ويبدو أنها من وضع فيتزجيرلد نفسه، وقد استبعدها هو في الطبعة الثانية(39). ولسنا نجد في رباعيات الخيام ما يقابل المقطوعة الحادية والثمانين من ترجمة فيتزجيرلد(40) وهي التي تقول:

إنني أدعو يا من أنجما من خبيث التراب إنساناً نما

وبفردوس أدب الأرقما كيفما زل امرؤ أو أجرما

فاحبه وأسأله غفران الأنام

أما فيما عدا هذه المقطوعات فإن الموازنة بين ترجمة فتزجرلد وبين الترجمة الحرفية للنص الفارسي تتجلى فيها على الدوام روح عمر. وهي أمينة على الأصل إلى الحد الذي يحق للإنسان أن يتوقعه من هذه الترجمة الشعرية. وقد كانت ترجمة فتزجرلد الدروينية السائدة في أيامه مما حمله على إغفال فكاهة الخيام الطلوة، وعلى تأكيد ما في أقواله من نزعة مضادة للدين. ولكن المؤلفين الفرس الذي جاءوا بعد عمر الخيام بقرن واحد لا أكثر يخلعون عليه من الأوصاف ما يتفق كل الاتفاق مع أقوال فتزجرلد، فمرصد العباد (1223) يصفه بأنه فيلسوف ملحد، مادي تعس. ويقول عنه القفي في تاريخ الحكماء (1240) إنه لا نظير له في الفلك والفلسفة، ولكنه يصفه بأنه ملحد شديد الإلحاد، يضطره الحذر إلى أن يمسك لسانه، ويصفه أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادي بأنه رجل سيئ الخلق من أتباع ابن سينا، ويذكر كتابين للخيام في الفلسفة لا وجود لهما الآن. ويفسر بعض المتصوفة رباعيات عمر تفسيراً مبنياً على الاستعارات الصوفية

صفحة رقم : 4776

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

الخفية، ولكن الصوفي نجم الدين الرازي يطعن عليه ويقول إنه أكبر الملحد في أيامه (41). وكان عمر الخيام يرفض أقوال فقهاء الدين ويسخر منها على الدوام، ويفخر بأنه سرق أبسط الصلاة من المساجد، ولعله قد تأثر بهذه النزعة بدراسته للعلوم الطبيعية، أو لعله كان فيها متأثراً بأقوال أبي العلاء المعري (42). وقد قبل النزعة الجبرية السائدة عند المسلمين، وإذا كان يأمل في حياة غير الحياة الدنيا، فقد استولت عليه فلسفة منتشائمة حاول أن يجد لنفسه منها سلوى في الدرس والخمر، فترى المقطوعتين السابعة بعد المائة والتي بعدها من المحفوظ في المكتبة البديلية تسموان بالسكر إلى مرتبة الفلسفة العالمية:

وحانة كنتها بشاربي وعالمين وليا عن غاربي

ما عاد لي بالشر إما حاق بي شأن ولا خيرهما إن ضاق بي

ودعها يا قلب عند ضارب بأكرة يرسلها لضارب

تجد أذاك نائماً كشارب سكران من هذى وتلك غائب

أشفقت إلا من كئوس الطلى لله ما أحلى وما أجمل

أن تشرب العقل فلا يعقلا وأن يجوب المرء هذا الفلا

وأعقله من كل شيء سلا بين سماك نافر وهلا

(يريد من برج الحوت إلى الهلال أي من أحد رفي السماء إلى الطرف الآخر) وإذا عرفنا كم من شعراء الفرس يقولون في مدح الغيبوبة أقوالاً شبيهة بهذا القول، حق لنا نتساءل أليست هذه الأقوال الخمرية مجرد صورة من صور الأدب، ووقفه من مواقفه مثلها كمثل عشق هوراس للجنسين؟

صفحة رقم : 4777

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر عمر الخيام

وأكبر الظن أن هذه الرباعيات القليلة تطبع في عقل القارئ صورة خاطئة لحياة الخيام، وما من شك في أنها لم يكن لها إلا شأن قليل في الخمسة والثمانين عاماً التي امتدت إليها حياته. ومن واجبتنا أن نصوره، لا في صورة السكير الذي يستلقي مخموراً في الطرقات، بل في صورة العالم المسن العاكف في هدوء على معادلاته التكعيبية، وعلى طائفة قليلة من أبراج النجوم والخرائط الفلكية، وعلى كأس من الخمر بين الفينة والفينة مع زملائه العلماء، وهم منتشرون على الكلا كالنجوم. ويبدو أنه كان يحب الأزهار كحب المحصورين في أرض جدهاء؛ وإذا أخذنا بقول النظامي العروضي قد نال بغيته في أن يدفن حيث يتفتح الزهر النضير. قال النظامي:

هبط عمر الخيام سنة 506هـ (1112-113م) مدينة بلخ ونزل في قصر الأمير أبي سعد، وكنت في خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول: سيكون قبوري في موضع تنتثر الأزهار عليه في كل ربيع. وطننته يقول مستحيلاً ولكني كنت أعلم أنه لا يلقي لقول جزافاً.

ثم هبطت نيسابور سنة 530هـ (1135م) فقيل لي بأن ذلك الرجل العظيم قد مات، وكان له على حق الأستاذ فرأيت من واجبي أن أزور قبره وصحبت من يدلني عليه فأخرجني إلى مقبرة الحيرة، وهناك رأيت على يسار الزائر في سفح سور حديقة موضع دفنه، ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت نخفيه عن الأبصار. فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التي سمعتها منه في بلخ، وغشيني الحزن، وغلبني الباء لأني لم أكن أعرف له ندأً بين الرجال، وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلاً وكرماً.

صفحة رقم : 4778

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

الفصل الخامس

عصر السعدي

1150 - 1291

ولد بعد خمس سنين من وفاة عمر الخيام شاعر يجله الفرس أعظم من إجلالهم لعمر، وكان مولده في المدينة المعروفة الآن بفيروز آباد بالقرب من نقليس. وكان الأقدار قد شاعت أن تتخذ من إلياس أبي محمد الذي عرف بعدئذ باسم نظامي وسيلة لإظهار نزعة الخيام الأخلاقية في أبشع صورها فجعلته يستمسك في حياته بأسباب الصلاح الحق، فيتمتع كل الامتناع عن شرب الخمر ويهب حياته لواجبات الأبوة وللشعر. وقصته ليلي والمجنون (1188) أشهر القصص الغرامية في الشعر الفارسي. وخلصتها أن قيس المجنون افتتن بليلي، ولكن أباه أرغمها على أن تتزوج برجل غيره، فأثرت تلك الخيبة في قيس وأفقده عقله، فاعتز المدينة إلى البادية، ولم يكن يعود إلى صوابه لحظة وجيزة إلا إذا ذكر اسم ليلي أمامه. ولما ترملت جاءت ليلي إليه ولكنها توفيت بعد قليل، ولم يسع قيس إلا أن يقتل نفسه عند قبرها كما قتل روميو نفسه عند قبر جولبييت. وليس في مقدور أي ترجمة أن تظهر ما يمتاز به الأصل الفرنسي من قوة في التعبير وجمال في النغم.

لقد كان الصوفيون أنفسهم يتغنون بالحب؛ ولكنهم يؤدون لنا أشد التأكيد أن العاطفة التي يعبرون عنها ليست إلا رمزاً لمحبة الله. وقد ولد محمد بن إبراهيم المعروف في عالم الأدب باسم فريد الدين العار بالقرب من نيسابور (1119)، ولقب بالطار لأنه كان يبيع العطر. ولما اشتدت لديه العاطفة الدينية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

غادر حانوته والتقى بخلوة للصوفية. وتشتمل كتبه الأربعون على مائتي ألف بيت من الشعر أشهرها كلها منطق الطير. وخلصته أن ثلاثين طائراً (أي صوفياً) يعتزّمون البحث مجتمعين عن ملك الطيور كلها المسمى سيمورغ (الحق). ويختارون ستة وديان: الطب؛ والعشق، والمعرفة، والتجرد (عن جميع الشهوات)، والتوحيد (حيث يدركون أن الأشياء جميعها واحدة)، والحيرة (من فقدان الإحساس بالوجود الفردي). وتصل ثلاثة من الطيور الوادي السابع وادي الفناء (فناء النفس)، ويترقون باب الملك المختفي. ويعرض الحاجب عن ل منهم سجل أعماله، فيغلبهم الحياء، ويستحيلون تراباً، ولكنهم يبعثون من هذا التراب في صورة ضياء، ويدركون بعدئذ أنهم هم وسيمورغ (وهو لفظ معناه ثلاثون طيراً) شيء واحد، ويفنون من هذا الوقت في سيمرغ كما تفنى الظلال في ضوء الشمس. ويعبر العطار في كتبه الأخرى عن عقيدته في وحدة الوجود تعبيراً أكثر فيقول إن العقل يستطيع معرفة الله لأنه لا يستطيع معرفة نفسه، ولكن الهيام والوجد يستطيعان الوصول إلى الله، لأنه هو الحقيقة الجوهرية والقوة الكامنة في كل شيء والمصدر الوحيد لكل عمل وكل حركة، وهو روح العالم وحياته. وليس في مقدور أية نفس أن تستمتع بالسعادة حتى تفنى وتصبح جزءاً من هذه الروح الجامعة، والشوق إلى هذا الاتحاد هو وحده الدين الحق، وإفناء النفس فيه هو وحده الخلود الصحيح(45). ويرفض أهل السنة هذا كله ويعدونه بدعة وضلالاً، وقد هاجم جماعة من الغوغاء بيت العطار وأحرقوه عن آخره، ولكنه مع هذا لم يقض عليه القضاء كله، إذ تقول الرواية المتواترة إنه عاش مائة عام وعشرة أعوام، وأنه بار بيده الفل الذي نادى به فيما بعد معلماً له، والذي فاقت شهرته شهرة معلمه. كان جلال الدين الرومي (1201-1273) من أهل بلخ، ولكنه عاش معظم حياته في قونية. وجاء إلى هذه المدينة صوفي عجيب هو شمس تبريري

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

ليخطب في أهلها، وبلغ من تأثر جلال الدين بخطبه أن عمد إلى تأسيس طائفة المولوية الذين لا يزالون يتخذون قونية عاصمة لهم، وأنشأ جلال الدين في حياته القصير نسبياً بضع مئات من القصائد. وقد جمعت القصار منها في ديوانه، وتمتاز بعمق الشعور، والإخلاص وقوة الخيال وإن لم تخرجها هذه القوة عن مقتضيات الطبيعة، وبهذه الصفات كلها أصبحت تلك القصائد أسمى ما قيل من الشعر الديني في عهد المزمير. وكتابه المثنوي المأثوري عرض ضافٍ للتصوف، وهو ملحمة دينية تفوق في حجمها كل ما خلفه هوميروس، وفيها فقرات بارعة الجمال، ولكن الجمال إذا أثقل بعبء الألفاظ لا يبقى متعة إلى أبد الدهر. وموضوعه، كموضوع كتاب معلمه، هو وحدة الكون:

دق إنسان باب الحبيب، فناداه صوت من الداخل:
من الطارق؟ فأجابه "أنا" فناداه الصوت: "إن هذه الدار لا تتسع لي ولك"، وظل الباب مغلقاً. فسار المحب إلى الصحراء، وداو في عزلته على الصوم والصلاة ثم عاد بعد عام ودق الباب مرة أخرى، وسأله الصوت كما سأله من قبل: "من الطارق؟" فأجاب المحب: "إنه أنت نفسك"، ففتح له الباب(46).
ونظرت حولي أبحث عنه، فلم أجده على الصليب، وذهبت إلى هيكل الأوثان؛ وإلى المعبد القديم، فلم أشاهد فيهما أثرًا... ثم وجهت بحثي نحو الكعبة، لكنني لم أجده في هذا المكان الذي يلجأ إليه الشبان والشيب، وسألت ابن سينا عن مقامه، ولكن ابن سينا لم يحط به. ثم تفقدت قلبي، وفيه وجدته، ولم يوجد في مكان سواه(47).
إن كل سورة تراها لها أصل مثلها في العالم اللامكاني، فإذا انعدمت الصورة

صفحة رقم : 4781

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

فليس ذلك بذى خطر لأن أصلها باقٍ مخلد. وما من شكل جميل رأيته، أو قول حكيم سمعته فلا يحزنك أنه قد فني لأنه في واقع الأمر لم يفن... فما دام النبع فياضاً فإن الأنهار تجري منه. فاطرد الغم من قلبك وعب من هذا النهر، ولا تظن أن الماء سيفرغ فمعينه لا ينضب.
ولقد وضع أمام من ساعة مجيئك إلى عالم الخلق سلم لتقر عليه منه. ولقد كنت في أول الأمر جماداً، ثم استحلث بعدئذ نباتاً ثم صرت حيواناً، فكيف يخفى عليك؟ ثم جعلت بعدئذ إنساناً ذا علم، وعقل، ودين... فإذا ما واصلت رحلتك بعد الآن، أصبحت بلا ريب ملاكاً.
وانتقل مرة أخرى من طائفة الملائكة، وادخل ذلك البحر الخضم حتى تصبح نقطنك بجرأ... دع عن هذا "الابن" وقل :
"الواحد" على الدوام بكل قلبك(48).

وتذكر أخيراً السعدي، ولا حاجة إلى القول بأن اسمه الحقيقي أطول من هذا فهو مشرف الدين بن مصلح الدين عيد الله. وكان أبوه يشغل منصباً في بلاط سعد بن زنجي أتابك شيراز، ولما مات أبوه تبنى الأتابك الغلام، والذي جرى على سنة المسلمين فأضاف اسم وليه إلى اسمه. ويختلف العلماء في تاريخ مولده ووفاته، فمنهم من يقول إنهما 1184، 1283(49)، ومنهم من يقول إنهما 1184، 1291(50)، ومنهم من يحددهما بعامي 1193؛ 1291(51). ومهما يكن هذان التاريخان فإنه عاش ما يقرب من مائة عام. ويقول هو نفسه إنه كان في صباه متمسكاً أشد التمسك بأهداب الدين... تقياً إلى أبعد حدود التقوى، عفيفاً أشد العفة(52). وبعد أن أتم علومه في المدرسة النظامية ببغداد (1226)، بدأ رحلته العجيبة التي قضى فيها ثلاثين عاماً طاف فيها بجميع بلاد الشرقيين الأدنى والأوسط-الهند، وبلاد الحبشة، ومصر، وشمال إفريقيا. وقاسى فيها كل أنواع الصعاب، وذاق مرارة الفقر والحرمان، وقد قال عن نفسه

صفحة رقم : 4782

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

إنه كان يشكو الحفاء حتى التقى برجل مقطوع القدمين فشكر الله على ما أنعم به عليه(53). وكشف وهو في الهند عن جهاز في صنم قيل عنه إنه يأتي بالمعجزات وقتل الدعي البرهمي المختفي فيه والذي كان هو إله ذلك الجهاز ، وهو يوصي في شعره المتأخر المرح بأن تتبع هذه الطريقة العاجلة مع جميع الدجالين: "فإذا أتق لك أنت أيضاً أن كشفت عن مثل هذه الحيلة، فاقض من فورك على المحتال ولا تدعه يفلت منك، بل عجل به! لأنك إذا أبقيت على حياة ذلك الوغد، فلا تشك قط في أنه لن يرحمك...ومن أجل ذلك قضيت على هذا الخبيث رجماً بالحجارة، ولم ألتفت إلى نحيبه وعويله، لأن الموت كما تعلم لا ينطقون(54).

وحارب الصليبيين وأسرهم "الكفار"، ثم أفندي، فتزوج ابنة من افتداه ليعبر بذلك عن شكره لأبيها، ولكنه تبين بعد ذلك أنها سليطة لا تطاق وكتب عنها يقول "إن غدائر ذات الجمال قيد في قدمي صاحب العقل"(55). ثم طلقها ولكنه التقى بغيرها من ذوات الغدائر، وسلك نفسه في سلسلة أخرى؛ ولما ماتت زوجته الثاني، أوى إلى صومعة في حديقة بشيراز وأقام فيها طوال الأعوام الخمسين الباقية من حياته.

وعرف معنى الحياة فشرع يكتب، ويقول المؤرخون إنه ألف كتبه الكبرى بعد أن اعتزل العالم، ومن هذه الكتب البيدناما وهو كتاب في الحكمة وديوانه وهو مجموعة من القصائد القصار، معظمها باللغة الفارسية وبعضها بالعربية، وبعضها يفيض بالتقى؛ وبعضها بالفحش، ويشرح السعدي في كتابه البستان فلسفته العامة بالشعر التعليمي الفلسفي، تتخلله في بعض الأحيان مقطوعات من الغزل الرقيق.

لم أعرف في حياتي أحلى من هذه اللحظات. وقلت لحبيبتني لما أن ضممتها إلى

صفحة رقم : 4783

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> عصر السعدي

صدري في تلك الليلة ونظرت إلى عينيها يكاد يغلبهما النعاس: "أي حبيبتني يا غصن بان لقد أن أوان النوم. غن يا بليلي! وافتحى فاك كما تتفتح الوردة. اطردي النوم يا ملهبة قلبي، ولتقدم لي شفاك رحيق حبك". ونظرت إلي حبيبتني وهمست بصوت خافت: "أملهبة قلبك؟ ومع هذا توقظني من نومي؟".

... وظلت حبيبتك طوال هذا الوقت تكرر قولها إنها لم تحب قط سواك... وكنت أنت تبتسم لأنك تعرف أنها كاذبة، ولكن ماذا يهمك من هذا؟ فهل شفتاها من أجله أقل حرارة وهما تحت شفتيك؟ وهل كتفاها أقل نعومة وأنت تداعبها بيديك؟... يقولون إن نسيم الربيع حلو جميل شبيه بشذى الورد وتغريد العندليب، والمرج الأخضر، والسماء الزرقاء. ويحك يا جاهل! إن هذه كلها لا تحلو إلا إذا كانت معها حبيبتك(56).

والجلستان وحديقة الورد (1258) مجموعة من القصص التعليمية تتخللها قصائد من الشعر المطرب الجميل :
سأل ملك ظالم أحد الأولياء الصالحين: "أي شيء أفضل من الصلاة؟" فأجابه الولي بقوله: "أفضل منها لك أن تظل نائماً إلى منتصف النهار، فلا تؤذي أحد من خلق الله حتى ذلك الوقت(57).

يستطيع فقيران أن يناما على بساط واحد، ولكن مليونين لا تتسع لهما مملكة بأكملها(58).

إذا كنت تسعى إلى الغنى فلا تطلب الهناءة(59).

إن رجل الدين الذي يغضب إذا ناله أذى لا يزال كالجدول الضحل(60) لم يعترف قط إنسان بجعله إلا من كان في مجلس وأخذ غيره يتحدث، وقبل أن يتم حديثه يبدأ هو بالسؤال(61).

لو كان فيك فضيلة واحدة وسبعون رذيلة لما رأى من يحبك غير فضيلتك الوحيدة(62).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> عصر السعدي

لا تعجل... وتعلم الأناة. فإن الجواد العربي يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ثم تخور قواه؛ أما الجمل فيمشي على مهل ولكنه يسافر بالليل وبالنهـار حتى يصل إلى آخر سفره(63).
حصل العلم لأن المال والثراء لا يعتمد عليهما... فإذا فقد صاحب المهنة ماله فليس له أن يندم على فقدته لأن علمه في حد ذاته معين للثراء لا ينضب(64)
إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب(65).

لو محبت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول "أنا جاهل" إن خفة البندقة لدليل على إنها فارغة(67).
وكان السعدي فيلسوفاً ولكنه أضاع سمعته الفلسفية لأنه كان يكتب في وضوح؛ وكانت فلسفته أصح وأسلم من فلسفة عمر الخيام؛ فهي تفهم ما في الإيمان من سلوى، وتعرف كيف تداوي جراح المعرفة بما في الحياة الحنونة من نعمة. ولقد قاسى السعدي كل ما في ملهـاة الحياة البشرية من مأس، ولكن أجله مع ذلك طال حتى بلغ مائة عام. ولقد كان جسم المرأة الجميلة إلى النجم الذي يستأثر لحظة بالسماء وقت المساء؛ وكان في وسعه أن يعبر عن الحكمة والتفاهة بإيجاز، ورقة، وظرف. ولم يكن يعجز في أية لحظة عن الإتيان بتشبيهه نير جميل، أو عبارة بليغة فاتنة. ومن أقواله ما أشبه تعليم السفلة بقذف القبة بالجوز(68) "إني كنت وصديقي كحبتين في قشرة لوزة(69)"، "لو أن قرص الشمس كان في جبة" هذا التاجر البخيل "لما رأى إنسان

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> عصر السعدي

ضوء النهار إلى يوم القيامة"(70) وقد ظل السعدي شاعراً إلى آخر يوم من حياته رغم ما كان ينطق به من حكمة. وكان يسلم حكمته راضياً مغتبطاً إلى عبودية الحب:

لقد قدر عليّ ألا أضم حبيبتني إلى صدري

وَألا أنسى بُعدي الطويل في قبلة أطبعها على شفتيها الحلوتين

وسأختلس منها ذلك الشراك الذي تقتنص به ضحاياها في طول البلاد

وعرضها حتى أستطيع أن أغريها بالمجيء إلى جانبي

ولكنني لن أجسر على أن أمس شعرها بيدٍ مسرفة في الجراءة

فكم في هذا الشعر من قلوب للمحبين حبيسة احتباس الطيور في الأفقاص

أنا عبد لهذا القد المياس الذي يبدو في نظري كأنما قد فصلت عليه الرشاقة

تفصيلاً كما بفصل الخياط الثوب

يا شجرة السرو يا أطراف من اللجين، إن لونك ورائحتك قد فاقا رائحة

الأس ونضرة الورد البري

احكمي بناظريك وضعي قدمك فوق كل حر وجميل

وامشي فوق الياسمين والأزهار

ولا تعجبي إذا أيقضت في زمن الربيع من الحسد ما يجعل السحب تبكي

بينما الأزهار الصغير تبتسم، وكل هذا يا حبيبي من أجلك

وإذا ما وطئت جسم ميت بقدميك الجميلتين الخفيفتين، فلا عجب إذا

سمعت صوتاً يخرج من طيات أكفانه

لم يبقَ مكان للحيرة في بلدنا هذا أيام حكم مولانا المليك

سوى أنني جننت بحبك وحن الناس بفنائي في حبك(71).

صفحة رقم : 4786

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> علوم المسلمين

قسم العلماء المسلمون الشعوب في العصور الوسطى طبقتين- طبقة الذين يعلمون وطبقة الذين لا يعلمون؛ ووضعوا في الطبقة الأولى الهنود، والفرس، والبابليين، واليهود، واليونان، والمصريين، والعرب، أولئك في اعتقادهم هم الصفوة المختارة من عباد الله في العالم؛ أما الطبقة الثانية- وخير من تشملهم الصينيون والأترك- فهي أشبه بالحيوان منها بالإنسان(72). وأكبر خطأ في هذا التقسيم وهو وضع الصينيين في الطبقة الثانية. وحافظ المسلمون في العصر الذي نتحدث عنه على تفوقهم غير المنازع في العلوم، وكان أعظم ما بلغوه من التقدم في علم الرياضة في مراكش وأذربيجان، ففيهما نشاهد مرة أخرى ما بلغته الحضارة الإسلامية من رقي عظيم. في مدينة مراكش نشر حسن المراكشي في عام 1229 جداول تشتمل على جيوب الزوايا لكل درجة من الدرجات، وجداول بجيوب التمام، وجيوب الأقواس، ومماسات الأقواس والأقواس المتماسة. وبعد جيل من ذلك الوقت أصدر ناصر الدين الطوسي أول رسالة بحث فيها حساب المثلثات بوصفه علماً مستقلاً بذاته لا بوصفه فرعاً من فروع علم الهيئة. وقد بقي كتابه المسمى شكل القطاع لا ينافسه منافس في هذا الميدان حتى نشر رجيومنتانس De Triangulis Regiomontanus كتابه المثلثات بعد مائتي عام من ذلك الوقت، وربما كان حساب المثلثات الذي ظهر عند الصينيين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر عربي النشأة(73).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> علوم المسلمين

وأشهر ما ظهر من الكتب في العلوم الطبيعية في ذلك العهد هو كتاب ميزان الحكمة الذي ألفه في عام 1122 مول يوناني من أسية الصغرى يدعى أبا الفتح. وفي هذا الكتاب تاريخ لعلم الطبيعة، وقوانين الروافع، وجداول بالكثافة النوعية لكثير من المواد السائلة والأجسام الصلبة، وفيه عرض لنظرية الجاذبية بوصفها قوة عامة تجتذب كل شيء نحو مركز الأرض(74). وقد أدخل المسلمون كثيراً من التحسينات على السواقي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان، وشاهد الصليبيون هذه السواقي ترفع الماء من نهر العاصي فأدخلوها في ألمانيا(75). وعلا شأن الكيميائيين، وكانوا يعرفون كما يقول عبد اللطيف ثلاثمائة طريقة لتضليل الناس(76). ويقال إن أحد هؤلاء

الكيميائيين حصل من نور الدين على قرض كبير لينفقه في البحوث العلمية ثم اختفى عن الأنظار، وبعدئذ نشر أحد الظرفاء ثبناً بأسماء المغفلين وعلى رأسهم نور الدين نفسه، ووعد أن يضع اسم الكيميائي إذا رجع مكان اسم نور الدين، ويبدو أن هذا المؤلف الظريف لم يمسه أذى(77). وفي عام 1081 صنع إبراهيم السهلي أحد علماء بلنسية أقدم كرة سماوية معروفة في التاريخ. وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر وكان طول قطرها 209 ملليمتر (81.5 بوصة)؛ وحفر على سطحها 1015 نجماً مقسمة إلى سبعة وأربعين كوكبة، وتبدو النجوم فيها حسب أقطارها(78). وكانت خرلدة إشبيلية منارة ومرصداً في وقت واحد، وفيها قام جابر بأرصاده التي نشرها في كتابه إصلاح المجسطي (1240). كذلك ظهرت نفس هذه الثورة على نظريات بطليموس الفلكية في مؤلفات أبي إسحق البطرودي القرطبي (المعروف عند علماء الغرب باسم البترابجوس Alpetragius) والذي مهد الطريق لكوبرنيك بنقده الهدام لنظرية أفلاك التدوير والدوائر المختلفة المراكز التي حاول بها بطليموس أن يفسر حركات النجوم ومساراتها.

صفحة رقم : 4788

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> علوم المسلمين

وأنجب هذا العصر عالمين في تقويم البلدان طبقت شهرتهما العالم كله في العصور الوسطى، ونعني بهما الإدريسي وياقوت. فأما أبو عبد الله محمد الإدريسي فقد ولد في سنة 1100 وتلقى العلم في قرطبة، وكتب في بلرم إجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية، كتابه المسمى كتاب روجاري وقد قسم فيه الأرض سبعة أقاليم مناخية ثم قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء، ورسم لكل جزء من الأجزاء السبعين خريطة تفصيلية إيضاحية، وكانت هذه الخرائط أعظم ما أنتجه علم رسم الخرائط في العصور الوسطى، لم ترسم قبلها خرائط أتم منها، أو أدق، أو أوسع وأعظم تفصيلاً. وكان الإدريسي يجزم كما تجزم الكثرة الغالبة من علماء المسلمين بكربة الأرض، ويرى أن هذه حقيقة مسلم بصحتها. ويقاسمه هذا الشرف العظيم شرف حمل لواء علماء الجغرافية في العصور الوسطى أبو عبد الله ياقوت (1179-1229). وكان ياقوت بمولده يونانياً من سكان أسية الصغرى، وأسر في الحرب وبيع في سوق الرقيق، ولكن التاجر البغدادي الذي ابتاعه أحسن تربيته وتعليمه، ثم أعتقه. وكان ياقوت كثير الأسفار، سافر أولاً للتجارة، ثم سافر لدراسة الأرض وأهلها، لأنه أعجب أشد الإعجاب ببلادها، وسكانها المختلفي الأجناس، ولبلباسهم وأساليب حياتهم. وقد سره وأتلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامة تحتوي إحداهما على 12.000 مجلد، وف أمين هذه المكتبة لشأن الزائر فسمح له أن يأخذ منها مائتي كتاب إلى حجرته دفعة واحدة. وما من شك في أن الذين يحبون الكتب يرون أنها دم الحياة يجري في عروق عظماء الرجال يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على الكنز العظيم من كنوز العقل. ثم انتقل ياقوت بعدئذ إلى خيوة وبلخ، وهناك أوشك المغول أن يقبضوا عليه أثناء زحفهم المخرب الفتاك، ولكنه استطاع الفرار عارياً من الثياب، وهو محتفظ بمخطوطاته، واجتاز بلاد الفرس إلى الموصل. وأنم وهو يعاني آلام الفاقة وشظف العيش أثناء عمله في نسخ الكتب كتابه الشهير معجم البلدان (1228)

صفحة رقم : 4789

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> علوم المسلمين

وهو موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة في العصور الوسطى. ولم يكذب يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله في هذه الموسوعة. من فلك، وطبيعة، وعلوم آثار، والجغرافية البشرية، والتاريخ، هذا إلى ما أثبتته فيها من أبعاد المدن بعضها عن بعض، وأهميتها وحياة مشهوري أهلها وأعمالهم، ولنا نعلم أن أحداً أحب الأرض كما أحبها هذا العالم العظيم.

وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدي المسلمين في ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوير اسطوس؛ فقد وضع الإدريسي كتاباً في النباتات وصف فيه ثلاثمائة وستين نوعاً مختلفاً منها، ولم يقتصر اهتمامه بها على الناحية الطبية، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية. وذاعت شهرة أبي العباس الإشبيلي (1216) لدراسته حياة أنواع النبات المختلفة التي تنمو بين المحيط الأطلنطي والبحر الأحمر. وجمع أبو محمد بن البيطار المالقي (1190-1248) كل ما عرفه المسلمون في علم النبات في موسوعة عظيمة غزيرة المادة ظلت هي المرجع المعترف به في هذا العالم حتى القرن السادس عشر، ورفعته إلى مقام أعظم علماء النبات والصيدلة في العصور الوسطى (79). ومن أهم ما ظهر من الكتب في العلوم الزراعية كتاب الفلاحة الذي وصف فيه مؤلفه ابن الأوزان الإشبيلي أنواع التربة والسماد، وريقة زرع 585 نوعاً من أنواع النبات، وخمسين نوعاً من أشجار الفاكهة، وشرح طرق التطعيم، وبحث أعراض أمراض النبات وطرق علاجها. وكان كتابه هذا أكمل البحوث في علم الفلاحة في العصور الوسطى جميعها (80). وأنجب المسلمون في هذا العصر، كما أنجبوا في غيره من العصور أعظم الأطباء في آسيا، وإفريقية، وأوروبا. وكان أهم ما بغوا فيه علم الرمد، ولعل سبب هذا النبوغ أنه كان واسع الانتشار في بلاد الشرق الأدنى، ففي هذه البلاد كان الناس يبذلون أكثر المال لعلاج الأمراض وأقله للوقاية منها. وكان أطباء العيون يجرون

صفحة رقم : 4790

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واطمئنانهم -> علوم المسلمين

كثيراً من العمليات لإزالة إضلام العدسة (سادة العين أو الكتركتا). وقد بلغ من ثقة الطبيب خليفة بن أبي المحاسن الحلبي (1256) بحذقه في هذه العمليات أنه أجرى هذه الجراحة لرجل أعور (81). ووضع ابن البيطار في كتابه الجامع الطب النباتي. فقد وصف في هذا الكتاب ألفاً وأربعمائة من أنواع النباتات والأغذية، والعقاقير، ثلاثمائة منها لم تكن معروفة من قبل، وحلل تركيبها الكيميائي، وخصائصها العلاجية، وأضاف إلى ذلك ملاحظات دقيقة عن طرق استخدامها في علاج الأمراض. ولكن أشهر أطباء المسلمين على بكرة أبيهم هو أبو مروان ابن زهر (1091-1162) الأشبيلي المعروف في عالم الطب الغربي أفنزور Avenzoar. وكان أبو مروان السادس من ستة أجيال من أطباء ذائعي الصيت متصلي النسب، كل منهم يحمل لواء الب في أيامه، وقد ألف تابه السمي كتاب التيسير إجابة لطلب صديقه ابن رش (أعظم فلاسفة زمانه) الذي كان يعده أعظم من أنجبه العالم من الأطباء منذ أيام جالينوس. وكان أهم ما برع فيه ابن زهر هو الوصف الإكلينيكي؛ وقد ترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزرومية، والتهاب الثامور، ودرن الأمعاء، والشلل البلعومي (82). وكان للترجمتين العبرية واللاتينية لكتاب التيسير أعظم الأثر في الطب الأوربي.

كذلك تزعم الإسلام العالم كله في إعداد المستشفيات الصالحة وإمدادها بحاجاتها. مثال ذلك أن الديرمارستان الذي أنشأه نور الدين في دمشق عام 1160 ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن؛ ويقول المؤرخون إن نيرانه ظلت مشتعلة لا تنطفئ 267 سنة (83). ولما وفد ابن جبير إلى بغداد في عام 1184 دهش أيما

دهشة من بيمارستانها العظيم الذي كان يعلو كما تعلو القصور الملكية على شاطئ نهر جلة، والذي كان يطعم المرضى ويمدهم

صفحة رقم : 4791

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> علوم المسلمين

بالدواء من غير ثمن . وفي القاهرة بدأ السلطان قلاوون في عام 1285 تشييد بيمارستان المنصور أعظم مستشفيات العصور الوسطى على الإطلاق، فقد أقام في داخل فضاء واسع مسورّ مربع مباني أربعة بتوسطها فناء يزدان بالبواكي، وتلطّف حرارته الفسافي والجداول. وكان يحتوي على أقسام منفصلة لمختلف الأمراض وأخرى للناقهين، ومعامل للتّحليل، وصيدلية، وعيادات خارجية، ومطابخ، وحمامات، ومكتبة ومسجد للصلاة، وقاعة للمحاضرات، وأماكن للمصابين بالأمراض العقلية، زوت بمنظر تسر العي. وكان المرضى يعالجون فيه من غير أجر رجالاً كانوا أو نساء، أغنياء أو فقراء، أرقاء، أو أحراراً، وكان كل مريض يعطي عند خروجه منه بعد شفائه مبلغاً من المال حتى لا يضطر إلى العمل لسب قوته بعد خروجه منه مباشرة. وكان الذين ينتابهم الأرق يستمعون إلى موسيقى هادئة، وقصاصين محترفين، ويعطون في بعض الأحيان كتباً تاريخية للقراءة (85). وكان في جميع المدن الإسلامية الكبيرة مصحات للمصابين بالأمراض العقلية.

صفحة رقم : 4792

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين وضمحلهم -> الغزالي والنهضة الدينية

الفصل السابع

الغزالي والنهضة الدينية

وبينما كانت العلوم تسير قدماً في طريق الرقي كان الدين يكافح للاحتفاظ بولاء الطبقات المتعلمة وإبقائها إلى جانبه؛ وأدى النزاع الذي قام بين الدين والعلم إلى تشكيك الكثيرين في عقائد الدين، بل إنه دفع بعضهم إلى الإلحاد والكفر. وقد قسم الغزالي المفكرين المسلمين إلى ثلاث طوائف: كلها في نظره كافرة وهي المؤلّهة، والربوبية (أو الطبيعية)، والمادية. فأما المؤلّهة فتؤمن بالله، وبخلود الروح ولكنها تنكر الخلق وبعث الأجسام، وتقول إن الجنة والنار حالات روحية لا غير؛ أما الثانية فتؤمن بالله ولكنها تنكر خلود الروح وترى أن العالم آلة تعمل بنفسها؛ وأما المادية فترفض وجود الله إطلاقاً. وقامت حركة أخرى على شيء من النظام هي حركة الدهرية، وهؤلاء لا أدريون صريحون لا يؤمنون بشيء، وقد أعدم عدد من أتباع هذه الحركة ومن متبعي هذا المذهب إصبيهان بن قره الذي قال في يوم من أيام رمضان لأحد الصائمين الأتقياء إنه يعذب نفسه من غير داع، فالإنسان كالحبة ينبت وينمو ثم يحصد لكي يفنى إلى أبد الدهر... ثم نصحبه بأن يأكل ويشرب(86).

وكان رد الفعل الذي نتج من هذه الحركة المنتشكة هو ظهور أبي حامد الغزالي أعظم علماء الدين المسلمين، الذي جمع بين الفلسفة والدين، فكان بذلك عند المسلمين، كما كان أوغسطين وكانت الأوربيين. ولد أبو حامد الغزالي في طوس عام 1058، ومات أبوه في صغره فكفله صديق له متصوف ودرس الغلام الشريعة، وعلوم الدين، والفلسفة. ولما بلغ سن الثلاثين عين أستاذاً

صفحة رقم : 4793

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الحضارة الإسلامية - عظمة المسلمين واضمحلالهم - الغزالي والنهضة الدينية

في المدرسة النظامية الكبرى ببغداد؛ وسرعان ما أعجب العالم الإسلامي بفصاحته، وغازاة علمه، وبراعته في الجدل. وبعد أن قضى في هذا العمل ثلاث سنين طبقت فيها شهرته الأفاق أصيب بمرض غريب أقعده عن العمل وأفقده شهوة الطعام والشراب والقدرة على الهضم؛ وكان شلل لسانه يشوه منطقه في بعض الأحيان، ثم بدأت قواه العقلية تنهار. وشخص طبيب ماهر مرضه بأنه في الأصل مرض عقلي. وقد أقر الغزالي في ترجمته لحياته بأنه لم يعد يؤمن بقدرة العقل على فهم أسرار الدين الإسلامي، وأنه لم يكن يطيق ما في دروسه الدينية من نفاق. وغادر الرجل بغداد في عام 1094 يريد الحج إلى بيت الله الظاهر، ولكنه في الحقيقة كان يريد اعتزال الناس، وينشد الوحدة والصمت، والهدوء وإطلاق العنان للتفكير والتأمل. ولما عجز عن أن يجد في العلم ما يطلبه من عون يعيد إليه إيمانه المتداعي، انقلب من التفكير في العالم الخارجي إلى تأمل العالم الداخلي، معتقداً أنه سيجد في هذا العالم من أقرب سبيل تلك الحقيقة الخالدة وهي القاعدة الثابتة الأكيدة للإيمان بعالم الروح. وتعرض بالنقد الشديد لعالم المحسوسات. وهو عماد النزعة المادية وأساسها، وفقد الثقة بالحواس واتهمها بأنها تجعل النجوم تبدو ضئيلة مع أنها بلا ريب أكبر كثيراً من الأرض، وإلا لتعذرت رؤيتها من بعدها الشاسع؛ واستخلص من هذا المثل ومن مئات غيره من الأمثلة أن الحواس وحدها ليست طريقاً موثقاً به موصلاً إلى الحقيقة. وأما العقل فهو في رأيه أرقى درجة من الحواس وهو يصحح ما يصل إليها عن طريق إحداها بما يصل إليه عن طريق الأخرى، ولكنه هو الآخر يعتمد في النهاية على الحواس نفسها. فها عند الإنسان نوع من المعرفة، يهديه إلى الحقيقة، أصدق من العقل وأؤكد؟ وأحس الغزالي بأنه قد عثر على هذا النوع من المعرفة في تأمل الصوفية الباطني. فالصوفي يقترب من سر الحقيقة المكنون أكثر مما يقترب منه الفيلسوف؛ وأرقى أنواع المعرفة هو التأمل في معجزة العقل حتى يظهر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الغزالي والنهضة الدينية

الله للمتأمل من داخل نفسه، وحتى تختفي النفس ذاتها في رؤية الواحد (78). وبهذه النزعة وهذا الزاج كتب الغزالي أعظم كتبه كلها تأثيراً ونعني به كتاب تهافت الفلاسفة واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل، فاستخدم الصوفي المسلم الجدل الفلسفي الذي لا يقل دقة عن جدل كانت Kant ليثبت أن العقل يؤدي بالإنسان إلى التشكك في كل شيء، وإلى الإفلاس الذهني، والانحطاط الخلقي، والتدهور الاجتماعي. وأنزل الغزالي العقل قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون- إلى مبدأ العلية، وأنزل مبدأ العلية نفسه إلى مجرد التتابع إذ قال إن كل ما ندركه هو أن ب تتبع أ على الدوام ولا ندرك أن أ هي علة ب. ومن أقواله أن الفلسفة، والمنطق، والعلوم لا تستطيع قط أن تثبت وجود الله، أو خلود الروح بل إن الإلهام المباشر هو وحده الذي يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لا قيام بغيرهما لأي نظام أخلاقي، وهو النظام الذي لا قيام لأية حضارة إلا به (88). وعاد الغزالي في آخر الأمر عن طريق التصوف إلى العقائد الدينية السليمة جميعها، وعاد إليه كل ما كان يساوره في شبابه من مخاوف وآمال، وجهر بأنه يحس بعيني إله قاهر قريبتين من رأسه تتوعدانه وتندرانه، وأخذ ينذر الناس من جديد بأحوال الجحيم يؤكد أن دعوته هذه لا غنى عنها لتقويم أخلاق العامة (89)، وعاد إلى الإيمان بكل ما جاء به القرآن والحديث، وقد شرح في كتابه إحياء علوم الدين هذه العودة إلى عقائده الأولى، ودافع عنها بكل ما كان له في شبابه من قوة وحماسة أصبح بهما أقوى عدو للمتشككة والفلاسفة الذين لم يواجهوا من قبله عدواً أشد منه عنفاً. ولما توفي في عام 1111 كانت موجة الإلحاد قد ردت على أعقابها، واطمأنت جميع قلوب المؤمنين المتمسكين بالدين، بل إن رجال الدين المسيحيين أنفسهم قد أثلج صدورهم ما وجدوه في كتبه، بعد أن ترجمت إلى اللغات الأجنبية، من دفاع حار عن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الغزالي والنهضة الدينية

الدين، وعرض بليغ لقواعد النقي والصالح لم يروا له نظيراً بعد أيام أوغسطين. واختفت الفلسفة منذ أيامه، بالرغم من ظهور ابن رشد، في أقصى أركان العالم الإسلامي، وضعفت البحوث العلمية، وأصبح الحديث والقرآن دون غيرهما من العلوم موضع اهتماماً العقول الإسلامية وشغلها الشاغل. وكان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف حتى طغت عقائد المتصوفة وقتاً ما على قواعد الدين. نعم إن علماء الدين والشريعة الإسلامية كانوا لا يزالون من الوجهة الرسمية أصحاب الكلمة العليا في علم الدين والشريعة، لكن ميدان التفكير الديني استسلم لمشايخ الطرق وأولياء الله الصالحين. ومن عجب أن ظهور طائفة الرهبان الفرنسيين في المسيحية قد عاصره نوع جديد من الزهد والنسك في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الميلادي، فقد أخذ الزهاد المتصوفة يهجرون الحياة العائلية يحيون حياة الأخوة الدينية

بزعامه شيخ لهم ويسمون أنفسهم الفقراء أو الدراويش، وتانيهما لفظ فارسي معناه السائل. وكان هؤلاء يسعون بطرق مختلفة إلى التسامي بأرواحهم ليرتفعوا بها إلى الفناء في روح الله فيستطيعوا بذلك الإتيان بعجائب الأعمال: فمنهم من كانت وسيلته إلى هذا التسامي هي الصلاة والتأمل، ومنهم من كانت سبيله إليها النشوة التي تعقب الأذكار العنيفة. وقد صيغت نظريات الصوفية في المائة والخمسين من الكتب التي ألفها محي الدين بن العربي (1165-1240) -وهو مسلم أندلسي أقام في دمشق. ومن أقواله أن العالم لم يخلق قط لأنه هو المظهر الخارجي لما هو في حقيقته الداخلية الله نفسه، والجحيم مقام مؤقت، لأن الناس كلهم سينجون آخر الأمر، والحب يخطئ إذا كان هو حب المظهر الجسمي الزائل، لأن الله وهو الذي يظهر في صورة

صفحة رقم : 4796

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الغزالي والنهضة الدينية

المحبوب، والمحب الصادق يجد في أية صورة باعث الجمال كله ويعشقه. ولعل محي الدين قد تذكر أقوال بعض المسيحيين من أيام جيروم فأخذ يعلم الناس أن "من أحب وعف ثم مات مات شهيداً"، ووصل إلى أسنى درجات الصلاح والورع. وكان كثير من الدراويش المتزوجين يجهرون بأنهم يحبون هذه الحياة الطاهرة مع أزواجهم (90). وأثرت بعض الطوائف الدينية الإسلامية مما كان يغدقه عليها الناس من العطايا، ورضيت أن تستمع بطيبات الحياة. وقد شكوا من ذلك أحد شيوخ الشام حوالي عام 1250 فقال إن الصوفية كانوا من قبل أخوة مختلفين في الجسم ولكنهم متحدون بالروح، أما الآن فهم طائفة تكتسي أجسامها بالثياب بالحسنة ولكن سرانها ممزقة خلقة. وكان الناس يبتسمون لهؤلاء الذين جمعوا بين الدين والدنيا ويتركونهم وشأنهم، ولكنهم كانوا يعظمون الأتقياء المخلصين الصادقين، ويعززون إليهم قوى وأفعالاً غير عادية، ويحتفلون بموالدهم، ويرجون منهم الشفاعة لهم عند الله، ويوزرون قبورهم. ذلك أن الإسلام كالمسيحية دين يتطور ويكيف نفسه تكييفاً يدهش له محمد والمسيح إذا قدر لهما أن يعودا إلى هذا العالم .

ولما انتصر أهل السنة على هذا النحو وضعفت روح التسامح الديني، وعادت إلى الوجود شيئاً فشيئاً القواعد الصارمة التي يعزونها إلى الخليفة عمر بن الخطاب فطلب إلى غير المسلمين أن يميزوا ثيابهم بخطوط صفراء، وحرّم عليهم أن يركبوا الخيل وأذن لهم أن يركبوا الحمير أو البغال، ولم يسمح لهم بإنشاء كنائس أو معابد

صفحة رقم : 4797

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الغزالي والنهضة الدينية

جديدة وإن أجزى لهم أن يصلحوا ما يحتاج منها إلى الإصلاح؛ ولم يكن يجوز لهم أن يظهر الصليب في خارج الكنائس، أو يدقوا نواقيسها؛ ولم يكن أبناء غير مسلمين يقبلون في المدارس الإسلامية، ولكن كان في وسع غير المسلمين أن ينشئوا لأبنائهم مدارس خاصة لهم. كان هذا كله هو ما يجب إتباعه من الوجهة النظرية، ولكنه لم يكن ينفذ على الدوام. ولا تزال هذه هي النصوص الحرفية للشريعة الإسلامية إن لم تكن هي المعمول بها على الدوام (92). ومع هذا فقد كان في بغداد وحدها في القرن العاشر 45.000 مسيحي (93)، وكانت جنازات المسيحيين تسير في الشوارع دون أن يتعرض لها أحد (94)، وظل المسلمون على الدوام يحتجون على استخدام المسيحيين واليهود في المناصب العليا؛ ولقد كان صلاح الدين، في ثورة الحرب الصليبية وحدثها وما أوجدته في النفوس من أحقاد، كريماً رحيماً بمن في دولته من المسيحيين.

صفحة رقم : 4798

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

الفصل الثامن

ابن رشد

عاشت الفلسفة وقتاً ما في أسبانيا الإسلامية بما كانت تبثه بحكمة وحذر من الآراء التي تتفق مع الدين بين محاولات النقد الهين غير العنيف؛ وقد وجد الفكر شيئاً من الحرية المزعجة في بلاط الأمراء الذين كانوا يستمتعون سرراً بالبحوث التي يرونها ضارة بعمامة الشعب. ومن أجل ذلك اختار أمير سرقسطة وهو من المرابطين أبا بكر بن باجة الذي ولد في تلك المدينة حوالي عام 1106 ليكون وزيراً له وكان ابن باجة، أو أفمباس Avempace كما اختار الأوربيون أن يسموه فيما بعد، قد بلغ، وهو لا يزال في شبابه، مرتبة عليا غير عادية في العلوم الطبيعية، والطب، والفلسفة، والموسيقى، والشعر؛ ويقول ابن خلدون إن الأمير أعجب بأبيات قالها العالم الشاب إعجاباً دفعه إلى أن يقسم ألا يدخل عليه قط إلا وهو يسير على الذهب، وخشي ابن باجة أن يقلل هذا القسم من الحفاوة به فوضع قطعة من النقود الذهبية في كلاءه. ولما سقطت سرقسطة في أيدي المسيحيين، فر الوزير-العالم-الشاعر منها إلى فاس حيث وجد نفسه فقيراً معدماً بين مسلمين يتهمونهم بالكفر، ومات ابن باجة في سن الثلاثين مسموماً كما تقول بعض الروايات. وتعدّ رسالته في الموسيقى التي لم نقف لها على أثر خير ما كتب في هذا الموضوع الدقيق في الأداب الإسلامية في الغرب. وأشهر مؤلفاته كلها كتاب مرشد الحيران الذي جدد فيه البحث في أحد الموضوعات الأساسية في الفلسفة الإسلامية. فقد قال ابن باجة إن العقل البشري يتكون من جزأين: العقل المادي الذي يتصل بالجسم ويموت بموته؛ والعقل الفعّال أو العقل الكوني غير البشري الذي يوجد في الناس كلهم، وهو وحده الذي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

لا يموت بموتهم. والتفكير هو أسمى وظائف الإنسان، وبالتفكير وحده، لا بالنشوة الصوفية، يصل الإنسان إلى معرفة العقل الفعال وهو الله. ولكن التفكير مغامرة خطيرة، إلا إذا كانت في صمت. والرجل العاقل يعيش في عزلة هادئة، بعيداً عن الأطباء، ورجال القانون، والناس أجمعين؛ أو لعل عدداً قليلاً من الفلاسفة يؤلفون فيما بينهم جماعة تسعى مجتمعة لطلب المعرفة في رفق وتسامح بعيدة عن صخب الشعب وجنونه(95).

وواصل أبو بكر بن طفيل (أبو ياسر Adupacer عند الأوربيين) (1107؟-1185) أفكار ابن باجة: وكاد يحقق مثله العليا. وكان هو الآخر عالماً، وشاعراً، وطبيباً، وفيلسوفاً؛ وكان وزيراً وطبيباً للخليفة أبي يعقوب يوسف في مدينة مراكش عاصمة الموحدين. وقد استطاع أن يقضي معظم ساعات يقظته في المكتبة الملكية ووجد بين الدرس وشتون الحكم متنسحاً من الوقت كتب فيه، من بين الكتب العميقة، أعظم قصة فلسفية في أدب العصور الوسطى. وقد أخذ ابن طفيل عنوان قصته من ابن سينا ولعلها هي التي أوحى إلى دفوا (Defoe) بقصة ربنسن كروزو Robinson Crusse (بعد أن ترجمها أكلي Ockley إلى الإنجليزية في عام 1708).

وخلاصة القصة أن حي بن يقظان، الذي سميت القصة باسمه ألقى وهو طفل في جزيرة خالية من السكان، فأرضعته عنزة؛ وشب الفتى متوقداً الذكاء عظيم المهارة، فكان يصنع حذاه وأثوابه بنفسه من جلود الحيوان، ودرس النجوم، وسرّح الحيوانات حية وميتة، حتى وصل في هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل إليه أعظم المشتغلين بعلم الأحياء(96). ثم انتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين؛ وأثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شيء؛ ثم عاش معيشة الزهاد، وحرّم على نفسه أكل اللحم، واستطاع أن يتصل اتصالاً روحياً

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

بالعقل الفعال(97). وأصبح حي بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمر متأهباً لتعليم غيره من الناس. وكان من حسن الحظ أن متصوفاً يدعى أسال استطاع في سعيه إلى الوحدة أن يلقي بنفسه على الجزيرة، فالتقى بحي، وكان هذا أول معرفة له بوجود بني الإنسان. وعلمه أسال لغة الكلام وسره أن يجد أن حياً قد وصل دون معونة أحد إلى معرفة الله، وأقر لحي بما في عقائد الناس الدينية في الأرض التي جاء منها من غلظة وخشونة، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة، وما أذروا به من عقاب النار. واعتزم حي أن يغادر جزيرته ليهدى ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة. فلما وصل إليهم أخذ يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحده الله والكائنات. لكن الناس انصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله. وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الاجتماعي إلا إذا مزج الدين بالأساطير، والمعجزات، والمراسيم، والعقاب والثواب الإلهيين. ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه، وعاد إلى جزيرته، وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديمة والعقل الفعال، وظلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات.

وقدم ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف حوالي عام 1153 شاباً قاضياً وطبيباً يعرفه المسلمون باسم أبي الوليد محمد بن رشد (1126-1198) ويعرفه الأوربيون في العصور الوسطى باسم أفروس (Averro(s)، واكبر فلاسفة المسلمين تأثيراً في العقول. ودل ابن طفيل بعمله هذا على تجرده من الغيرة والحسد تجرداً نادر الوجود في بني الإنسان. وكان جد ابن رشد وأبوه كلاهما قاضيين للقضاة في قرطبة، وقد هيا له من التعليم كل ما تستطيع أن تهيئه له العاصمة القديمة. ونقل إلينا أحد تلاميذه هذه الفقرة التي يقولون إنها هي التي وصف بها ابن رشد نفسه أول لقاء له بالأمير فقال إنه لما قدم عليه لم يجد معه إلا ابن طفيل، وأخذ ابن

صفحة رقم : 4801

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

طفيل هذا يمتدحه بما لا يستحقه من المديح... وبدأ الأمير حديثه بأن سأل الفيلسوف عن رأيه في السموات، هل هي أزلية أو أن لها بداية؟ فارتاع الفيلسوف لذلك اضطرب، وأخذ يتلمس المعاذير للفرار من الإجابة. وأدرك الأمير ما هو فيه من اضطراب فالتفت إلى ابن طفيل وأخذ يتحدث إليه في الموضوع، ويعيد على مسامحه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما من الفلاسفة، وما لفقهاء المسلمين عليها من اعتراض؛ ولا يرجع في شيء هذا إلا إلى ذاكرته مما لم يكن يظن أن له نظيراً حتى بين من كانت الفلسفة مهنته. وطمان الأمير الفيلسوف وامتن علمه، ولما انصرف من حضرته بعث إليه بشيء من المال، وبقواد، وحلة غالية الثمن (98). وعين ابن رشد في عام 1169 قاضياً للقضاة في إشبيلية وفي عام 1172 قاضياً للقضاة في قرطبة، ثم استدعاه أبو يعقوب إلى مراكش بعد عشر سنين من ذلك الوقت ليكون طبيبه الخاص، وظل يشغل هذا المنصب حتى ورث الخلافة يعقوب المنصور. وفي عام 1194 نفي ابن رشد إلى أليسانة القريبة من قرطبة لغضب الشعب عليه بسبب آرائه. ثم عفي عنه وعاد إلى مراكش في عام 1198 ولكن المنية عاجلته في العام التالي، ولا يزال قبره حتى الآن قائماً في تلك المدينة. وكاد كتابه في الطب ينسى بسبب شهرته الواسعة في الفلسفة، ولكنه كان في الحقيقة من أعظم أطباء زمانه، فقد كان أول من شرح وظيفة شبكية العين، وقال إن من يمرض بالجذري يكتسب الحصانة من هذا الداء (99). وكانت موسوعته الطبية المسماة كتاب الكليات في الطب بعد أن ترجمت إلى اللغة اللاتينية واسعة الانتشار في الجامعات المسيحية. وأبدى الأمير أبو يعقوب في ذلك الوقت رغبته في أن يكتب له أحد العلماء شرحاً واضحاً لآراء أرسطو، وأشار ابن طفيل أن يعهد هذا العمل إلى ابن رشد. ورحب الفيلسوف بهذا الاقتراح، لأنه كان يرى أن الفلسفة كلها قد اجتمعت في آراء الفيلسوف اليوناني، وأن كل ما تحتاجه

صفحة رقم : 4802

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

لكي تصبح موائمة لكل زمان هو أن تشرح وتفسر . واعتزم ابن رشد أن يعيد لكل من كتب أرسطو البرى خلاصة موجزة في أول الأمر، ثم شرحاً لها موجزاً أيضاً، ثم شرحاً مطولاً للطلبة المتقدمين في الدرس- وكانت هذه الطريقة طريقة الشروح المتدرجة في الصعوبة مألوفة في الجامعات الإسلامية. ولقد كان من سوء الحظ أنه لا يعرف اللغة اليونانية، وأنه اضطر لهذا السبب إلى الاعتماد على الترجمة العربية للترجمة السريانية لكتب أرسطو؛ ولكن صبره، وصفاء ذهنه، وقدرته على التحليل الدقيق العميق، أذاعت شهرته في أوروبا كلها وأكسبه اسم الشارح الأعظم ورفعته إلى أعلى مقام بين فلاسفة المسلمين لا يعلوا عليه في المنزلة إلا ابن سينا العظيم.

وأضاف ابن رشد إلى هذه الشروح كتباً ألفها هو في المنطق، والطبيعة، وعلم النفس، وما بعد الطبيعة، والفقه، والشريعة، والفلك، والنحو، ورداً على تهافت الفلاسفة للغزالي سماه تهافت التهافت. وهو يقول كما قال فرانسيس بكن من بعده إن من الفلسفة قد يميل الإنسان إلى المروق من الدين، ولكن الدرس الواسع يؤدي إلى الائتلاف بين الفلسفة والدين. ذلك أن الفيلسوف، وإن كان لا يأخذ تعاليم القرآن، والتوراة، وغيرهما من الكتب النزلة (100) بمعناها الحرفي يدرك أنها لا غنى عنها لإنماء روح التقوى الطبية والأخلاق السليمة في عقول الناس، الذين تشغلهم مطالب الحياة الملحة فلا يجدون من الوقت ما يكفي لغير التفكير العارض، السطحي، الخطر في مبادئ الأشياء وأواخرها. ومن ثم فإن الفيلسوف الناجح لا ينطق بلفظ أو يشجع لفظاً يعرض الدين (101)؛ ومن حق الفيلسوف في مقابل هذا أن يترك حراً يسعى وراء الحقيقة، ولكن عليه مع ذلك أن يحصر مناقشاته في دائرة المتعلمين ومداركهم، وألا يعتمد

صفحة رقم : 4803

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

إلى الدعوة لأرائه بين العامة (102). وهو يرى أن العقائد الدينية إذا فسرت تفسيراً رمزياً تتفق مع ما يكشف عنه العلم والفلسفة (103). ولقد ظل هذا التفسير الرمزي للنصوص المقدسة المبني على الاستعارة التشبيه سنة متبعة حتى عند رجال الدين أنفسهم مئات السنين. وابن رشد لا يقول صراحة بالنظرية التي يعزوها إليه النقاد المسيحيون وهي أن قضية من القضايا قد تكون صادقة في الفلسفة (بين المتعلمين)، ولكنها قد تكون خاطئة (مضرة) في الدين (والأخلاق) (104)، وإن كانت تعاليمه تتضمن هذا المعنى. ومن أجل هذا وجب ألا يبحث عن آراء ابن رشد في رسائله الصغرى التي وضعها لجمهور الطلاب، بل في شروحه لأرسطو التي هي أكثر عمقاً وأصعب فهماً من الرسائل السالفة الذكر.

وهو يفسر الفلسفة بأنها البحث في عنى الوجد بقصد إصلاح شأن الإنسان (105) ويقول إن العالم أزلي، وإن حركات الكواكب لا بداية لها ولا نهاية؛ وإن القول بالخلق خرافة، فالقائلون بالخلق يدعون أن الله ينشئ كائناً (جديداً) من غير أن يحتاج في إنشائه إلى مادة موجودة من قبل... وهذا التصور هو الذي جعل علماء الأديان الثلاثة القائمة في هذه الأيام يقولون إن الشيء قد ينشأ من لا شيء (106)... والحركة أزلية ودائمة؛ وكل حركة تنشأ من حركة أخرى قبلها. وبغير الحركة لا يكون زمن ليس في وسعنا أن نتصور حركة ذات بداية ونهاية (107).

ولكنه مع هذا يقول إن الله هو خالق العالم، ويعني بهذا أن العالم موجود في أي وقت من الأوقات بقوة الله الحافظة، وإنه يمر في كل لحظة بعملية خلق مستمرة بقدرة الله الفعالة (108)؛ فانه هو نظام الكون، وقوته وعقله. ومن هذا النظام الأعلى والعقل الكلي يكون نظام الأفلاك والنجوم عقلها المحرك. ومن عقل أدنى الأفلاك السماوية (فلك القمر) يأتي العقل الفعال الذي يدل في جسم الإنسان المفرد وعقله. والعقل الإنساني مكون من عنصرين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

أحدهما العقل القابل أو المادي وهو استعداد الإنسان أو قدرته على التفكير أو المعرفة العقلية، وهذا العقل جزء من الجسم يفنى بفنائه (الجهاز العصبي؟)، والثاني العقل الفعال، المستمد من الله، وهو الذي يبعث العقل القابل على التفكير الفعلي. وهذا العقل الفعال لا يختلف في فرد عنه في آخر؛ بل هو سواء في الناس كلهم، وهو وحده الخالد الذي لا يفنى (109). ويشبه ابن رشد عمل العقل الفعال في الفرد أو في العقل القابل بتأثير الشمس التي يجعل ضوءها كثيراً من الأجسام نيرة، ولكنه يبقى في كل مكان، ويظل على الدوام كما كان (110). يسعى العقل الفردي للاتحاد مع العقل الفعال، كما تمتد النار إلى الأجسام القابلة للاحتراق. وبهذا الاتصال يصبح العقل البشري شبيهاً بالله، لأنه يستحوذ على الكون كله بالقوة في فكره، والحق أن العالم وكل ما فيه ليس له وجود بالنسبة لنا، وليس له معنى، إلا عن طريق العقل يدركه (111). وإدراك الحقيقة وحده عن طريق الذهن هو الذي يؤدي بالعقل إلى الاتحاد مع الله ذلك الاتحاد الذي يظن المتصوفة أنهم يستطيعون الوصول إليه بالتدريب النفساني على الزهد أو بالنشوة التي تحدث بالأنكار. وابن رشد بعيد كل البعد عن عقائد المتصوفة وعن الأسرار الخفية. ويرى أن الجنة ليست إلا ما يستمتع به العقلاء من حكمة هادئة محببة إلى النفس (112).

وهذه هي النتيجة التي وصل إليها أرسطو نفسه، ولا حاجة إلى القول بأن نظرية العقل الفعال والعقل المنفعل (nous pathetikos nous poietikos) مرجعها كتاب النفس لأرسطو De Anima (المقالة الثالثة)، كما فسرها الإسكندر الأفروديسي، وثامسطيوس الإسكندري، وهي التي استحالت إلى نظرية الفيض Emanation التي تقول بها الأفلاطونية الحديثة والتي انتقلت إلينا عن طريق الفارابي وابن سينا وابن باجة، وأصبحت هذه الفلسفة العربية في نهايتها كما كانت في بدايتها هي فلسفة أرسطو استحالت أفلاطونية حديثة؛ ولكن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

بينما كانت عقائد أرسطو قد عدلت وحورت على أيدي معظم الفلاسفة المسلمين والمسيحيين حتى توفي بحاجات الدين، فإن العقائد الإسلامية قد انقضت على أيدي ابن رشد إلى أقل قدر حتى يوفق بينها وبين آراء أرسطو. ومن أجل هذا كان أثر ابن رشد في المسيحية أعظم منه في بلاد الإسلام، فقد اضطهده معاصره من المسلمين؛ ونسيه من جاء بعده منهم، وتركوا معظم كتبه تضيع أصولها العربية؛ ولكن اليهود احتفظوا بالكثير منها مترجماً إلى اللغة العبرية. وسار ابن ميمون على نهج ابن رشد فحاول أن يوفق بين الدين والفلسفة، أما في العالم المسيحي فإن الشروح بعد أن ترجمت من العبرية إلى اللاتينية كانت من أكبر البواعث على نزعة سيجر دي برابانت Siger de Brabant الإلحادية، ونزعة مدرسة بدوا Padua العقلية، وكانت خطر يهدد أساس العقيدة المسيحية. وأراد توماس أكويناس أن يرد هذا التيار الذي بعثه ابن رشد بمؤلفاته فكتب كتابه Summae لهذا الغرض، ولكنه سار على الطريقة التي اتبعها ابن رشد في شروحه في كثير من تفسيراته المختلفة لأرسطو، وفي قوله إن المادة هي منشأ الفروق بين الكائنات، وفي تفسيره الرمزي للنصوص الخاصة بالتجسيد في الكتاب المقدس، وفي قبوله الفكرة القائلة بأن العالم قد يكون أزلياً، وفي

رفضه التصوف أساساً كافياً للدين، وفي اعترافه بأن بعض العقائد الدينية فوق إدراك العقل، وأنه يمكن قبولها عن طريق الإيمان(113). وقد وضع روجر بيكن ابن رشد في الرتبة الثانية بعد أرسطو وابن سينا، وأضاف إلى ذلك قوله مع المبالغة التي هي من خصائصه "تحظى فلسفة ابن رشد في هذه الأيام (حوالي عام 1370) بقبول جميع العقلاء"(114).

وفي عام 1150 أمر الخليفة المستنجد في بغداد بإحراق جميع كتب ابن سينا وإخوان الصفا الفلسفية. وفي عام 1194 أصدر الأمير أبو يوسف يعقوب المنصور وكان وقتئذ في إشبيلية أمراً بإحراق جميع كتب ابن رشد إلا عدداً قليلاً منها

صفحة رقم : 4806

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> ابن رشد

في التاريخ الطبيعي، وحرّم على رعاياه دراسة الفلسفة، وحثهم على أن يلقوا في النار جميع كتبها أينما وجدت. وبإدارة العامة إلى تنفيذ هذه الأمور، وكان يسوءهم ويحز في نفوسهم هجوم الفلاسفة على إيمانهم الذي كان عند بعضهم أعز سلوى لهم في حياتهم المضنية النكدة. وفي هذا الوقت بالذات أعدم ابن حبيب لدراسته الفلسفة(115)، وأعرض الإسلام بعد عام 1200 عن كل تفكير نظري. ولما أن ضعفت القوة العباسية في العالم الإسلامي، أخذت تتجه اتجاهاً متزايداً نحو طلب المعونة من رجال الدين والفقهاء من أهل السنة. وأمدّها هؤلاء بما تحتاجه من هذه القوة، نظير كتبها للتفكير الحر المستقل. ومع هذا له فإن هذه المعونة لم تكن كافية لإنقاذ الدولة المضمحلة. ففي أسبانيا كان المسيحيون يتقدمون من بلد إلى بلد، حتى لم يبق للمسلمين إلا غرناطة وحدها: وفي الشرق استولى الصليبيون على بيت المقدس، وفي عام 1258 استولى المغول على بغداد ودمروها تدميراً.

صفحة رقم : 4807

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> غارة المغول

الفصل التاسع

غارة المغول

وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى الحقيقة القائلة إن نعم الحضارة تغري الهمج بالهجوم على البلاد المتحضرة . وكان السلاحقة قد بعثوا في بلاد الإسلام الشرقية قوة جديدة، لكنهم هم أيضاً ركنوا إلى الدعة والنعيم، وتركوا دولة ملك شاه تنقسم مملكتين ذواتي حضارة رائعة ولكنهما ضعيفتان من الناحية العسكرية. وكان التعصب الديني والعداء العنصري قد قسما الشعب أقساماً شديدة الغضب والتنازع وحالا بينه وبين الاتحاد لمقاومة الصليبيين.

وفي هذه الأثناء كان المغول الضاربون في شمالي آسية الغربي يزداد عددهم لقوة إخصابهم، ويشد بأسهم لما يلاقون من شطف العيش وصعابه. وكانوا يعيشون في الخيام أو في العراء، ويرحلون وراء قطعانهم إلى مراعي جديدة، ويرتدون جلود الماشية، ويدرسون فنون الحرب دراسة المتحمس لها الراغب فيها. وكان أولئك الهون الجدد، كما كان بنو جنسهم منذ ثمانية قرون، بارعين في استعمال الخناجر، والسيوف، والسهم يطلقونها من فوق جيادهم التي تسابق الريح. وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله فيهم جيوفني دي بيانو كريبييني Giovanni de Piano Carpini المبشر المسيحي، فإن هؤلاء الأقوام كانوا "ياكلون كل ما يستطيعون أكله حتى القمل نفسه" (116)، ولم يكونوا يشمئزون من أكل الفئران، والقطط، والكلاب، ودم الأدميين، اشمئزاز أعظم الناس ثقافة في هذه الأيام من أكل ثعابين الماء والقواقع البحرية. ونظم جنكيز خان-أي الملك

صفحة رقم : 4808

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> غارة المغول

العظيم-أولئك الأقوام بما فرضه عليهم من القوانين الصارمة حتى أنشأ منهم قوة عظيمة البأس، وقادهم البأس، وقادهم لفتح أواسط آسية الممتدة من نهر الفلجا إلى سور الصين العظيم. بينما كان جنكيز خان غائباً عن حضرة ملكه في كركورم خرج عليه زعيم المغول، وعقد حلفاً مع الشاه علاء الدين محمد صاحب خوارزم المستقلة. وقمع جنكيز خان هذه الفتنة وعرض الصلح على الشاه فقبله، ولكن نائبه في أترار Otrar قتل بعد قليل من ذلك الوقت تاجرين من المغول فيما وراء نهر جيحون، وطلب جنكيز خان أن يسلم إليه الوالي لمحاكمته، فرفض محمد هذا الطلب، وقتل رئيس البعثة المغولية، ورد بقية أعضائها ملقوق اللحى، فلم يكن من جنكيز خان إلا أن أعلن الحرب وبدأ بذلك هجوم المغول على بلاد الإسلام (1219).

وهزم جيش من المغول بقيادة جوجي ابن الخان جيش محمد البالغ أربع مائة ألف جندي عند جند، وفر الشاه على أثر هذه الهزيمة إلى سمرقند وترك 160.000 من رجاله قتلى في ساحة الوغى. وتقدم جيش مغولى آخر بقيادة ابن ججتان ابن الخان نحو أترار واستولى عليها ونهبها، وسار جيش ثالث بقيادة الخان نفسه إلى بخارى وحرقها عن آخرها. وسبى آلاف من نساءها، وذبح ثلاثين ألفاً من رجالها. واستسلمت له سمرقند وبلخ حين وصل إلى أبوابها ولكنها لم تنجوا من النهب والمذاب العامة؛ وزار ابن بطوطة هذه المدن بعد مائة عام من ذلك الوقت وصفها بأن أكثره لا يزال خراب ينقع فيها اليوم. وزحف تولوي بن جنكيز خان بجيش يبلغ سبعين ألفاً اخترق به خراسان وخرب كل ما مر به من المدن. وكان المغول يضعون الأسرى في مقدمة جيوشهم ويخبرونهم بين قتال مواطنيهم-من أمامهم أو قتلهم من خلفهم. وفتحت مرو وخيانة وأحرقت عن آخرها، ودمرت في اللهب مكتبتها التي كانت مفخرة

الإسلام، وسمح لأهلها بأن يخرجوا من أبوابها يحملون معهم كنوزهم، ولكنهم لم يخرجوا على هذا النحو إلا ليقبضوا وينهبوا فرادى. ويؤكد لنا المؤرخون المسلمون أن هذه المذابح استمرت ثلاثة

صفحة رقم : 4809

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> غارة المغول

عشر يوماً هلك فيها 1.300.000 نسمة (117). وقاومت نيسابور الغزاة ببسالة زمناً طويلاً، فلما استسلمت آخر الأمر (1221) قتل كل من فيها من الرجال، والنساء، والأطفال، ما عدا أربعمائة من مهرة الصناع أرسلوا إلى منغوليا، وكومت رؤوس القتلى في كومة مروعة؛ وخربت كذلك مدينة الري الجميلة ومساجدها البالغ عددها ثلاثة آلاف، وما كان فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت، وقتل أهلها عن آخرهم كما يقول أحد المؤرخين المسلمين (118). وجمع ابن الشاة محمد جيشاً جديداً من الأتراك وحارب به جيش جنكيز خان عند نهر السند ولكنه هزم وفر إلى دلهي. ولما خرجت هراة على واليها المغولي كان جزاؤها ذبح ستين ألفاً من أهلها. لقد كانت هذه الوحشية جزءاً من علوم الحرب عند المغول، وكانوا يقصدون بها شل قوى أعدائهم بما يقذفونه من الرعب في قلوبهم، وإرهاب المغلوبين على أمرهم حتى لا يفكرون في الخروج عليهم. ونجحت هذه الخطة.

وعاد جنكيز خان بعدئذ إلى بلاد ليستمتع بأزواجه وخليلاته الخمسمائة، ومات في فراشه. وسير ابنه وخليفته أجتاي جيشاً من 300.000 للقبض على جلال الدين، وكان قد جيش جيشاً جديداً في ديار بكر. وهزم جلال الدين وقتل، ولم يلق الغازون بعدئذ مقاومة فعاثوا في أذربيجان، وبلاد النهرين، والكرج، وأرمينية (1234). وسمع المغول أن فتنة قامت في إيران بقيادة الحشاشين، فزحف هولأكو حفيد جنكيز خان بجيش مغولي اخترق به سمرقند، وبلخ ودمر حصن الحشاشين في أموت وولى وجهه شطر بغداد.

وكان المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في المشرق من جلة العلماء، وكبار الخطاطين؛ وكان مثال الرقة ودمائة الأخلاق، شديد الاهتمام بأمور الدين، وبالكتب، والصدقات؛ وكل هذه أمور لا تتفق مع ذوق هولأكو. واتهم المغول الخليفة بأنه يتستر على العصاة، ويمنع ما وعد به من مساعدة على الحشاشين، وطلب إلى الخليفة جزاء له على فعلته أن يكون خاضعاً للخان الأعظم، وأن تجرد

صفحة رقم : 4810

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> غارة المغول

بغداد من الأسلحة ومن جميع وسائل الدفاع. ورفض المستعصم هذه الطلبات بإباء وكبرياء، وحاصر المغول بغداد، وأرسل الخليفة إلى هولأكو بعد شهر من بدء الحصار هدايا وعرض عليه الصلح؛ وخذع بما وعد به من الرحمة فأسلم هو وولداه أنفسهم إلى المغول؛ ودخل هولأكو وجنوده بغداد في الثالث عشر من فبراير عام 1258، وأعملوا

فيها السلب والنهب والقتل أربعين يوماً كاملة، فتكوا فيها بثمانمائة ألف من أهلها على حد قول بعض المؤرخين. وهلك في هذه المذبحة الشاملة آلاف من الطلاب، والعلماء، والشعراء، ونهبت أو دمرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز التي أنفقت في جميع قرون طوال، وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعاماً للذئبان، وأرغم الخليفة أفراد أسرته على أن يكتشفوا عن مخابئ ثروتهم، ثم قتلوا (119). وهكذا قضى على الخلافة العباسية في آسيا.

ثم عاد هولاء إلى منغوليا، وبقي جيشه وراءه، يتقدم لفتح الشام تحت إمرة غيره من القواد، حتى التقى عند عين جالوت بجيش مصري يقوده قطز وبيبرس من أمراء المماليك (1260). وزقت البشرية إلى كل مكان في بلاد الإسلام وفي أوروبا نفسها، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، فقد حلّ الطلسم وذهب الروح، ذلك أن معركة حاسمة دارت رحاها بالقرب من دمشق عام 1303 وكانت عاقبتها أن هزم المغول، ونجت بلاد الشام للمماليك، ولعلها أيضاً احتفظت للمسيحية بأوروبا.

ولسنا نعرف أن حضارة من الحضارات في التاريخ كله قد عانت من التدمير الفجائي ما عانتها الحضارة الإسلامية على أيدي المغول. لقد امتدت فتوح البرابرة لبلاد الدولة الرومانية قرنين من الزمان، وكان في استطاعة بلاد الدولة أن تنتعش بعض الانتعاش بين كل ضربة والتي بعدها، وكان الفاتحون الجرمان يكونون في قلوبهم بعض الإجلال للدولة المحتضرة التي يعملون على تدميرها، ومنهم من حاول المحافظة عليها. أما المغول فقد أقبلوا وارتدوا في

صفحة رقم : 4811

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> غارة المغول

أربعين عاماً لا أكثر، ولم يأتوا ليفتحوا ويقيموا، بل جاءوا ليقتلوا، وينهبوا ويحملون ما يسلبون إلى منغوليا. ولما ارتد تيار فتوحهم الدموي خلف وراءه اقتصاداً مضطرباً، وقنوات للري مطمورة، ومدارس ودوراً للكاتب رماداً تذروه الرياح، وحكومات منقسمة على نفسها، معدمة، ضعيفة، لا تقوى على حكم البلاد، وسكاناً هلك نصفهم، وتحطمت نفوسهم. واجتمع الانغماس الأبيقوري في الملذات، والهزال الجسمي والعقلي، وخور العزيمة والعجز الحربي، والانقسام الديني والالتجاء إلى المراسم الغامضة الخفية، والفساد السياسي والفوضى الشاملة، اجتمعت هذه العوامل كلها وانتلفت لتحطيم كل شيء في الدولة قبل الغزو الخارجي. لقد كان هذا كله-لا تبدل المناخ-هو الذي بدل آسيا الغربية من زعامتها على العالم فقراً مدقعاً، وخراباً شاملاً. وأحل محل مئات المدن العامرة المنقفة في الشام، وأرض الجزيرة، وفارس، والقفقاس، والتركستان ما تعانیه في الوقت الحاضر من فقر، ومرض، وركود .

صفحة رقم : 4812

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

إن قيام الحضارة الإسلامية وازمحلها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام 700 إلى عام 1200 يتزعم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميع الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة. وفي العمارة أسلم مكانته الأولى في القرن الثاني عشر إلى الكنائس الكبرى الأوربية، ولم يجد فن النحت القوطي منافساً له في بلاد الإسلام التي كانت تحرم صنع التماثيل. أما الفن الإسلامي فقد أفنى قوته في الزخرفة، وعانى الشيء الكثير من ضيق المدى ووحدة الطراز المملة؛ ولكنه في داخل هذا النطاق الذي فرضه على نفسه لم يفقه حتى الآن فن سواه. وكان الفن والثقافة في بلاد الإسلام أعم وأوسع انتشاراً بين الناس مما كانا في البلاد المسيحية في العصور الوسطى؛ فقد كان الملوك أنفسهم خطاطين، وتجاراً، وكانوا أطباء، وكان في مقدورهم أن يكونوا فلاسفة. ويغلب على الظن أن البلاد المسيحية كانت متفوقة على بلاد الإسلام من ناحية الآداب الجنسية في خلال تلك القرون، وإن لم يكن لكليهما حظ لمختار. غير أننا لا يسعنا إلا أن نذكر أن الإقتصار على زوجة واحد في البلاد المسيحية، مهما بلغ من عدم التقيد بهذه العادة من الناحية العملية، فقد أبقى الغريزة الجنسية في نطاق محدود، ورفع منزلة المرأة رفعاً بطيئاً، في حين الإسلام قد أخفى وجه المرأة بالحجاب والقناع. (ولقد أفلحت الكنيسة في تقييد الطلاق، ويبدو أن اللواط لم يبلغ في المسيحية، ومنها إيطاليا في عهد النهضة، ما بلغه من الحرية

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الحضارة الإسلامية - عظمة المسلمين وازمحلهم - الإسلام والعالم المسيحي

والانتشار - حاشا أن نقول في حياة المسلمين. غير أن المسلمين، كما يلوح، كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام 1099، ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء، أو النار، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية ينفذها قضاة مستنبطون. واحتفظ الدين الإسلامي، وهو أقل غموضاً في عقائده من الدين المسيحي، بشعائره أبسط، وأنقى، وأقل اعتماداً على المظاهر المسرحية من الدين المسيحي، وأقل منه قبولاً لنزعة الإنسان الغريزية نحو الشرك. وهو شبيه بالمذهب البروتستنتي احتقاره ما يعرضه دين البحر المتوسط من عون للخيال والحواس وما يطلقه لهما من عنان، (ولكنه يستسلم للنزعة الجنسية في تصويره الجنة). وقد ظل هذا الدين بعيداً كل البعد تقريباً عن النظم الكهنوتية، ولكنه قيد في الوقت الذي كانت فيه المسيحية مقبلة على أخصب عصور الفلسفة الكاثوليكية. ويكاد تأثير العالم المسيحي في الإسلام يكون مقصوراً على بعض المظاهر الدينية وعلى الحرب. فأما من حيث المظاهر الدينية فأكبر الظن أن التصوف قد جاء إلى العالم الإسلامي من نماذج مسيحية، ومن الرهبنة، وعبادة

القديسين. ولقد تأثرت النفس الإسلامية بقصة عيسى وشخصيته وظهرت في الشعر والفن الإسلاميين وكانت فيهما موضع العطف الكبير (120).
أما العالم الإسلامي فقد كان له في العالم المسيحي أثر بالغ مختلف الأنواع. لقد تقلت أوروبا من بلاد الإسلام الطعام، والشراب، والعقاقير، والأدوية،

صفحة رقم : 4814

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

والأسلحة. وشارات الدروع ونقوشها، والدوافع الفنية، والتحف، والمصنوعات، والسلع التجارية، وكثيراً من الصناعات، والتشريعات والأساليب البحرية، وكثيراً ما أخذت عن المسلمين أسماء هذه كلها:
Orange. Lemon, Sugar, Syrup, Sherbet Julep. elixir, Jar Azure, Arapesque, Mattress. Sofa
Muslin, Ealin, Fustian, Baziar, Caravan, Check Mate, Tariff, Douane, magazine, Risk.
.sloop Barge. Cablc, Admiral

ويقابل هذه في العربية: البرتقال، والليمون، والسكر، والشراب، والشربات، والحلاب، والإكسير، والإبريق، والأوراق، والنقش العربي، والحشية (واللفظ الإنجليزي مشتق من المطرح) والأريكة (اللفظ الإنجليزي مشتق من الصفة)، والموصلين، والساتان، والفتان والسوق، والقافلة، والشاة مات. والتعريف، وحركة المرور، والديوان، والمخزن، والخطر، والقلوب بنوعيه، والحب، وأمير البحار (وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية مثل Bazaar وبعضها الآخر عن العربية). وقد جاءت لعبة الشطرنج إلى أوروبا من الهند عن طريق بلاد الفرس، واتخذ لها في طريقها أسماء فارسية وعربية، فلفظ Check Mate مثلاً مأخوذ من عبارة الشاه مات. وبعض الآتنا الموسيقية تحمل بين طيات أسمائها أدلة على أصولها السامية، ومن هذه الألفاظ Lute من العود، وRebeck من الربابة، وGuitar من القيثارة وTambourlne من الطنبور. وقد انتقل شعر شعراء الفروسية الغزليين Troubadour وموسيقيهم من بلاد الأندلس إلى بروفانس في فرنسا، ومن صقلية المسلمة إلى إيطاليا. ولعل الأوصاف العربية للرحلات إلى الجنة والجحيم كان لها نصيب من المسلاة الإلهية The Divine Comedy لدانتي. وقد دخلت القصص الخرافية، والأعداد الهندية إلى أوروبا في زيها العربي أو صورتها العربية. والعلماء العرب هم الذين احتفظوا بما كان عند اليونان من علوم الرياضة، والطبيعة، والكيمياء، والفلك والطب،

صفحة رقم : 4815

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

وارتقوا بها، ونقلوا هذا التراث اليوناني بعد أن أضافوا إليه من عندهم ثروة عظيمة جديدة إلى أوروبا. ولا تزال المصطلحات العلمية العربية تملأ اللغات الأوربية، ونذكر منها على سبيل المثال Algebra الجبر، و CIPHER و Zero للصفير، و Azimuth السُّمُوت و Alembic للأنبيق، و Zenith للسمت، و Almanac للتقويم وهي مشتقة من لفظ المناخ. وظل أطباء العرب يحملون لواء الطب في العالم خمسمائة عام كاملة، وفلاسفة العرب عم الذين احتفظوا لأوروبا بمؤلفات أرسطو وشوهوا لها هذه المؤلفات. وكان ابن سينا وابن رشد نجمين لاحا من الشرق للفلاسفة المدرسيين الذين كانوا ينقلون عنهما، ويعتمدون على كتبهما، ويتقنون بهما ثقة لا تزيد عليها إلا ثقتهم بالنصوص اليونانية.

والقباة المضلعة أقدم في بلاد المسلمين منها في أوربا(121)، وإن لم يكن في مقدورنا أن ننتبع الطريق الذي وصلت منه إلى الفن القوطي؛ وأبراج الكنائس المسيحية المستدقة؛ وأبراج نواقيسها مدينة بالشيء الكثير إلى مآذن المساجد(122)، ولعل زخارف النوافذ القوطية المقطعة المصنوعة من الحجارة قد أوحى بها بوانك برج الخرلدة ذات الأقواس المقترنة(123). ويعزى انتعاش فن الخزف الرفيع في إيطاليا وفرنسا إلى انتقال صناع الخزف المسلمين في القرن الثاني عشر إلى هذين البلدين، وإلى زيادة صناعة الإيطاليين إلى بلاد الأندلس الإسلامية(124). ولقد أخذ صناع الحديد والزجاج في البندقية، ومجلدو الكتب في إيطاليا، وصانعو الدروع والسلاح في أسبانيا، أخذ كل هؤلاء فنونهم عن الصناعات المسلمين(125)، وكان النساجون في جميع أنحاء أوروبا تقريباً يتطلعون إلى بلاد الإسلام ليأخذوا منها النماذج والرسوم، وحتى الحدائق نفسها قد تأثرت إلى حد بعيد بالحدائق الفارسية. وسنشرح فيما بعد بالتفصيل السبل التي جاء منها هذا التأثير الإسلامي إلى بلاد الغرب، غير أننا نقول هنا بإيجاز إنه قد جاء عن طريق التجارة، والحروب

صفحة رقم : 4816

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

الصليبية؛ وعن آلاف الكتب التي ترجمت من اللغة العربية إلى اللاتينية؛ وعن الزيارات التي قام بها العلماء أمثال جريبرت Gerbert، وميخائيل أسكت Michael Scot وأدلارد Adelard من أهل باث Bath إلى الأندلس الإسلامية؛ ومن الشبان المسيحيين الذين أرسلهم أبائهم إلى بلط الأبرار المسلمين ليربوا فيها ويتعلموا الفروسية(126)-ذلك أن بعض الأشراف المسلمين كانوا يعدون "فرساناً وسادة مهذبين كاملين وإن كانوا مسلمين"(127)، ومن الاتصال الدائم بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام، ومصر، وصقلية، وأسبانيا. وكان كل تقدم للمسيحيين في أسبانيا تتبعه موجة من آداب المسلمين، وعلومهم، وفلسفتهم، وفنونهم تنتقل إلى البلاد المسيحية، وحسبنا أن نذكر على سبيل المثال أن استيلاء المسيحيين على طليطلة في عام 1085 قد زاد معلومات المسيحيين الفلكية، وأبقى على الاعتقاد بكربة الأرض(128). ولكن نار الحقد لم تطفئ لظاها هذه الاستدانة العلمية. ذلك أن لا شيء بعد الخبز أعز على بني الإنسان من عقائدهم الدينية، لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده، بل يحيا معه بالإيمان الذي يبعث في قلبه الأمل. ومن أجل هذا فإن قلب الإنسان يتلظى غيظاً على من يهدده فوته أو عقيدته. ولقد ظل المسيحيون ثلاثة قرون يشهدون زحف المسلمين، ويبصرونهم يستولون على قطر مسيحي في إثر قطر، ويمتصون شعباً مسيحياً بعد شعب، وكانوا يحسون بأيدي المسلمين القوية تقبض على التجارة المسيحية، ويستمعون إليهم وهم يسمون المسيحيين كفرة وأمست المعركة المرتقبة في آخر الأمر معركة حقيقية، فاصطدمت الحضارتان في الحروب الصليبية، وقُتل خير ما في الشرق أو الغرب

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

خيرَ ما في الغرب أو الشرق، وكان هذا العداء المتبادل عاملاً فعّالاً في تاريخ العصور الوسطى كله، مضافاً إليه دين ثالث هو الدين اليهودي قائماً بين الطائفتين المحتربتين الرئيسيتين يتلقى ضربات كليهما. وخسر الغرب الحروب الصليبية، ولكنه ربح معركة الأديان؛ فقد وطرد كل مسيحي محارب من الأرض المقدسة؛ ولكن المسلمين، وقد استنزف النصر البطيء دمايتهم، وخرب المغول بلادهم، مرت بهم فترة من العصور المظلمة ساد فيها الجهل والفقر، على حين أن الغرب المنهزم قد أنضج ما بذل من جهود، فنسي هزائمه، وأخذ عن أعدائه التعطش إلى العلم والولع بالرفق. فأقام الكنائس عالية تتأطح السحاب، وأخذ يجوب ميادين العقل، وحول لغاته الفجة الجديدة إلى أساليب دانتى وتشوسر Chaucer وفيلون Villon، وسار تحده العزة إلى النهضة.

وبعد فإن القارئ العادي ستعتربه الدهشة من طول الإمامة بحضارة المسلمين، وسيأسف الباحث لما يجده فيها من إيجاز غير خليق بها. إن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هي التي أنجب فيها المجتمع، في مثل هذا الزمن القصير، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الحكم، والتعليم، والآداب، واللغة، والجغرافية، والتاريخ، والرياضة. والفلك، والكيمياء، والفلسفة، والطب، كما أنجب الإسلام في الأربعة القرون الفاصلة بين هارون الرشيد وابن رشد. وقد استمد بعض هذا النشاط المتألي مادته من تراث اليونان، ولكم الكثير منه، وبخاصة في الحكم، والشعر، والفن كان نشاطاً مبتكراً لا تقدر قيمته. ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الإسلام من بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى من سيطرة اليونان العلمية، ولم تمتد إلى فارس الساسانية والأكيميانية فحسب، بل امتدت كذلك إلى بلاد اليهود وبلاد سليمان، وإلى أشور بلاد آشور بانيبال، وإلى بابل حمورابي، وأكاد سرجون، وسومر بلد الملوك الذين لا تعرف أسماؤهم. وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة الإسلامية -> عظمة المسلمين واضمحلالهم -> الإسلام والعالم المسيحي

بعضها ببعض: ذلك أن الأسس الجوهرية في الحضارة لا تضع أبداً مهما حل بها من زلازل وأوبئة، وجدب، وهجرات مدمرة، وحروب مخربة مهلكة. بل إن ثقافات فنية تمد أيديها إلى هذه الأسس فتنتشلها من هذا اللهب، وتمد حياتها بالتقليد والمحاكاة، ثم بالخلق والابتكار، حتى ينبعث في الشعب الناشئ شباب جديد وروح وثابة جديدة. وكما أن الناس أعضاء في مجتمع، والأجيال لحظات في تسلسل الأسر، فإن الحضارات وحدات في كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ، فهي مراحل في حياة الإنسانية. إن الحضارة متعددة الأصول، وهي نتاج تعاوني لكثير من الشعوب،

والتبقات، والأديان، وليس في وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة. ومن أجل هذا فإن العالم وإن كان مواطناً في بلده يحبه لما يربطه من صلوات وثيقة، يحس أيضاً بأنه مواطن في بلد العقل، الذي لا يعرف عداوات ولا حدوداً. وهو لا يكاد ويكون خليقاً باسمه إذا ما حمل معه في أثناء دراسته أهواء سياسية، أو نزعات عنصرية، أو عداوات دينية، وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وإجلاله.

صفحة رقم : 4819

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

الكتاب الثالث

الحضارة اليهودية

135- 1300

الباب الخامس عشر

التلمود

الفصل الأول

بين بلاد الإسلام والمسيحية كان يعيش شعب عجيب احتفظ في خلال كل ما مر به من الشدائد بثقافته الخاصة يعزیه ويلهمه دينه الخاص، ويعيش على هدى شريعته ومبادئه الأخلاقية، ويخرج من بينه شعراؤه، وعلماؤه وأدباؤه، وفلاسفته، وينقل البذور الخصبة بين عالمين متعادين.

ولم تكن فتنة باركوزشيه (Bar Cohebs 153-132) آخر الجهود التي بذلها اليهود ليستعيدوا حريتهم التي قضى عليها بمبي وتيتس Titus. فقد أعادوا الكرة لاستخلاصها في عهد أنطونينس بيوس (Antoninus Pius 161-135) وأخفقوا في محاولتهم وحرّم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة إلا في يوم تلك الذكرى المؤلمة، ذكرى تدميرها، فقد كان يسمح لهم نظير جعل معين أن يأتوا إليها ليندبوا ويبكوا أمام جدران الهيكل المهدم. وكان سكان فلسطين التي خرب من مدائنها في فتنة باركوزبية 985 حتى محيت من الوجود، وقتل من أهلها 580.000 رجل وامرأة قد نقص إلى نصف ما كان عليه من قبل، وانحط الباقون إلى درجة من النماقة كادت الحياة الثقافية معها ألا يبقى لها أثر. ومع هذا فإنه لم يكد يمضي على فتنة باركوزبية جبل واحد حتى أنشئ في طبرية بيت الدين، أي المجلس اليهودي القومي- وهو هيئة مؤلفة من واحد وسبعين

صفحة رقم : 4820

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

من العلماء الأخبار والمشرعين-وافتنحت المعابد والمدارس ودب الأمل مرة أخرى في النفوس.

غير أن فوز المسيحية قد صحبته متاعب جديدة. ذلك أن قسطنطين كان قبل أن يعتنق المسيحية قد سوى من الوجهة القانونية بين الدين اليهودي وبين سائر الأديان التي يدين بها غيرهم من رعاياه. أما بعد اعتناقه المسيحية فقد اضطهد اليهود وفرض عليهم قيوداً ومطالب جديدة، وحرّم على المسيحيين أن يتصلوا بهم(1). ونفى قسطنطين أبحارهم (337) وجعل زواج اليهودي من مسيحية جريمة يعاقب مرتكبها بالإعدام(2) وفرض جالوس Gallus أخو قسطنطين على اليهود من الضرائب الفادحة ما اضطّر الكثيرين منهم إلى أن يبيعوا أبناءهم ليوفوا بمطالبه منهم. وثار اليهود مرة أخرى في عام 332 وأخذت ثورتهم ودكت صبوري دكاً، وخربت أجزاء من طبرية وغيرها من المدن، وقتل آلاف من اليهود، واستعبد آلاف آخرون. وبلغت حال اليهودي الفلسطيني وقتئذ (359) درجة من الانحطاط، كما بلغ الاتصال بينهم وبين غيرهم من الجماعات اليهودية درجة من الصعوبة، اضطّر معهما حاخامهم هلل الثاني أن ينزل عما كان ليهود فلسطين من الحق في أن يحددوا لجميع اليهود تواريخ أعيادهم، وأصدر لهم تقويماً يحددون هم بمقتضاه تواريخ هذه الأعياد مستقلين عن يهود فلسطين، ولا يزال هذا التقويم الذي أصدره هلل معمولاً به إلى اليوم لدى اليهود في جميع أنحاء العالم.

فلما ارتقى يولييان عرش الإمبراطورية أنقذ اليهود إلى أجل قصير من هذا التعذيب. فقد خفض هذا الإمبراطور الضرائب المفروضة عليهم، وألغى القوانين التي تجعلهم أقل منزلة من غيرهم، وأطرى الصدقات العبرانية، واعترف

بأن يهوه "إله عظيم". وسأل زعماء اليهود عن سبب امتناعهم عن الضحايا الحيوانية؛ فلما أجابوه بأن شريعتهم تحرم عليهم هذه التضحية إلا في هيكل أورشليم أمر أن

صفحة رقم : 4821

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

يعاد بناء الهيكل من مال الدولة(3). وأعيد فتح أورشليم لليهود فهرعوا إليها من جميع أنحاء فلسطين ومن كل ولاية في الإمبراطورية، وسخر الرجال والنساء والأطفال جهودهم لإقامة البناء، وتبرعوا بحليهم وما ادخروه من أموالهم لتأثيث الهيكل الجديد(4)، وفي وسعنا أن نتصور سرور القوم الذين ظلوا مائتي عام يدعون ربهم أن يمن عليهم بهذا اليوم (361). ولكن بينما كانوا يحفرون الأرض لوضع الأساس إذ خرج من باطنها لهيب أحرق عدداً من العمال القائمين بالعمل(5). غير أن الناس عادوا إلى العمل من جديد فعادت هذه الظاهرة مرة أخرى ولعل سببها انفجار بعض الغازات الطبيعية فأوقفت العمل وثبطت همة القائمين بالمشروع. وفرح المسيحيون إذ بدا لهم أن الله غير راض عن إعادة بناء الهيكل، وعجب اليهود من هذا وحزنوا له. ثم مات يولييان فجأة، فحبست عنهم أموال الدولة، وسنت من جديد القوانين المقيدة لهم وجعلت أشد صرامة مما كانت من قبل، وحرمت على اليهود مرة أخرى دخول أورشليم، فعادوا إلى قواهم، وفقروهم، وصلواتهم. وكتب جيروم بعد قليل من ذلك الوقت يقول: إن أهل فلسطين اليهود "لا يزيدون على عُشر ما كانوا عليه من قبل"(6). وفي عام 425 ألغى ثيودوسيوس الثاني الحاخامية الفلسطينية، وحلت الكنائس المسيحية اليونانية محل المعابد والمدارس اليهودية، وتخلت فلسطين بعد هبة قصيرة في عام 614، عن زعامة العالم اليهودي.

فهل يلام اليهود بعد هذا إذا أملوا أن تكون حالهم أحسن من هذه الحال في بلاد لا تسود فيها المسيحية سيادتها في البلاد التي يخضعون لسلطانها. فمنهم من انتقل نحو الشرق إلى أرض النهرين وإلى بلاد الفرس وقوا العنصر اليهودي البابلي الذي لم ينعدم من تلك البلاد منذ الأسر الذي حدث في عام 597 ق. م. وكانت وظائف الدولة محرمة على اليهود في بلاد الفرس أيضاً؛ ولكن هذه الوظائف كانت محرمة كذلك على جميع الفرس ما عدا طبقة الأشراف، ولذلك

صفحة رقم : 4822

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

لم يكن هذا القيد ثقيلاً على اليهود أنفسهم(7). وقد حاقت باليهود في تلك البلاد عدة اضطهادات، ولكن الضرائب المفروضة عليهم كانت أخف عبئاً منها في غير تلك البلاد، وكانت الحكومة في الأحوال العادية تتعاون معهم، وكان ملوك الفرس يعترفون بالإجزيلارك أي زعيم الطائفة اليهودية ويجلونه. وكانت أرض العراق وقتئذ خصبة تسقيها مياه النهرين، ولذلك أضحي من فيها من اليهود زُرّاعاً أثرياء وتجاراً ناشطين، ومنهم طائفة من بينها عدد من جلة

العلماء الذائعي الصيت أثرت من عصر الجعة(8). وتضاعف عدد الجالية اليهودية في بلاد الفرس بسرعة كبيرة لأن دين الفرس كان يبيح تعدد الأزواج. وكان اليهود يتبعون هذه العادة لنفس الأسباب التي كانت تبيحها الشريعة الإسلامية. وكان الكوهنان الطيبان رب ونحمان أثناء تجولهما يعلنان في كل مدينة يحلان بها عن رغبتهما في زوجات مؤقتات، لكي يضربا بذلك مثلاً لشبان تلك المدن للحياة الزوجية ويبيدهم على الحياة الإباحية(9). وفي نهرديا Nehardea، وسورة، ويمبديثا أنشئت مدارس للتعليم العالي، أضحى علماءها، وأضحت قرارات كواهنها الدينية، موضع الإجلال في جميع أنحاء البلاد التي تشتت فيها اليهود. وظل اليهود في أثناء ذلك الوقت ينتشرون في جميع البلاد الواقعة حول البحر المتوسط. فمنهم من ذهب لينضم إلى الجاليات اليهودية في بلاد الشام وأسية الصغرى، ومنهم من ذهب إلى القسطنطينية، رغم عداة أباطرة الروم وبطارقتهم، ومنهم من اتجهوا من فلسطين جنوباً إلى جزيرة العرب وعاشوا في سلام وحرية دينية مع بني جنسهم الساميين، واحتلوا في تلك البلاد أقاليم برمتها مثل خيبر، وكاد عددهم في يثرب (المدينة) يكون مساوياً لعدد العرب أنفسهم، واستمالوا إلى دينهم عدد من الأهلين، وهينوا عقول العرب لما جاء به الإسلام من عقائد يتفق بعضها مع العقائد اليهودية. ومنهم من عبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة حيث تضاعف عددهم بسرعة حتى قيل إنهم بلغوا

صفحة رقم : 4823

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

في عام 315 نصف سكان تلك البلاد(10). وكان اليهود يمتلكون نصف سفن الإسكندرية، وكان ثراؤهم في تلك المدينة السريعة التأثر والاهتياج مما زاد من حدة العداة الديني. وانتشرت جاليات يهودية في جميع مدائن أفريقية الشمالية، وصقلية، وسردينية. وكان عددهم كبيراً في إيطاليا، وكان الأباطرة الوثنيون يحنوهم في العادة من الأذى، وإن كان الأهلون المسيحيون والإمبراطور ثيودريك، والبابوات يشددون عليهم النكير في بعض الأحيان. وكان في أسبانيا جاليات يهودية قبل بولبوس قيصر، ونمت تلك الجاليات دون أن يتعرض لها بأذى تحت حكم الأباطرة الوثنيين، وأثروا في عهد القوط الغربيين الأريين، ولكنهم تعرضوا للاضطهاد المينس بعد أن اعتنق الملك ريكارد (568-601) عقائد مؤتمر نيقية. ولسنا نعرف أن اليهود تعرضوا للاضطهاد في غالة قبل أن تصدر قرارات مجلس أورليان الثالث والرابع (في عامي 538 و541) بعد أن انتصر كلوفس Clovis المسيحي المتمسك بدينه على القوط الغربيين الأريين بجيل من الزمان. وأحرق مسيحيو أورليان كنيساً يهودياً حوالي عام 560، وطلب اليهود إلى جنترام Gunthram ملك الفرنجة أن يعيد بناؤه من أموال الدولة أسوة بما فعله ثيودريك في مثل هذه الحادثة من قبل. ولما رفض جنترام هذا الطلب صاح الأسقف جريجوري التوري Gregory of Tours: "ما أعظمك أيها الملك وما أعجب حكمتك!"(11). وكان اليهود في البلاد التي انتشروا فيها ينتعشون على الدوام بعد هذه الخطوب، فكانوا يعيدون بناء معابدهم في صبر وأناة، وينظمون شئون حياتهم ويكدهون، ويتجرون، ويرابون، ويصلون، ويأملون، ويزدادون ويتضاعفون. وكان يطلب إلى كل جالية في بلد أن تقيم على نفقتها مجتمعة

صفحة رقم : 4824

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> النفي

ما لا يقل عن مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية يضمهما في العادة الكنيس نفسه وكان يشار على العلماء ألا يعيشوا في بلد يخلو من هاتين المدرستين. وكانت لغة العبادة والتعليم هي اللغة العبرية، أما لغة التخاطب اليومي العادي فكانت الآرامية في بلاد الشرق، واليونانية في مصر وفي بلاد أوربا الشرقية؛ أما في غير تلك البلاد فكان اليهود يتخاطبون بلغة من يعيشون بينهم من الأهلين. وكان الدين هو الموضوع الذي يدور حول التعليم اليهودي، أما الثقافة غير الدينية فكادت في ذلك الوقت أن تهمل إهمالاً تاماً. ذلك أن اليهود المشتتتين لم يكونوا يستطيعون أن يحفظوا كيانهم جسمىاً وروحياً إلا عن طريق شريعتهم، وكان الدين عندهم هو دراسة هذه الشريعة والعمل بها. وكان دين آبائهم يزداد قيمة لديهم كلما زاد الهجوم عليه، وكان التلمود والكنيس الدعامتين والملجأين للذين لا غنى عنهما لشعب حائر تقوم حياته على الرجاء ويقوم رجاؤه على الإيمان بالله.

صفحة رقم : 4825

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئ التلمود

الفصل الثاني

منشئ التلمود

كان الكهنة ورجال الدين المقيمون في المعابد والمدارس الفلسطينية والبابلية هم الذين ألفوا أسفار الشريعة الضخمة المعروفة بالتلمود الفلسطيني والتلمود البابلي. وكانوا يقولون إن موسى لم يترك فقط لشعبه شريعة مكتوبة تحتويها الأسفار الخمسة، بل ترك له أيضاً شريعة شفوية تلقاها التلاميذ عن المعلمين ووسعوا فيها جيلاً بعد جيل. وكان أهم ما ثار حوله الجدل بين الفريسيين والصدوقيين الفلسطينيين هو: هل هذه الشريعة الشفوية هي الأخرى من عند الله فهي لذلك واجبة الطاعة؟ ولما أن زال الصدوقيون بعد تشتت اليهود عام 70 م وورث رجال الدين تقاليد الفريسيين ورواياتهم قبل جميع اليهود المتمسكين بدينهم الشريعة الشفوية، وأمنوا بأنها أوامر من عند الله وأضافوها إلى أسفار موسى الخمسة، فتكونت من هذه وتلك التوراة أو الشريعة الموسوية التي استمسك بها اليهود وعاشوا بمقتضاها، وكانت حقيقة لا مجازاً هي كيانهم وقواهم وحياتهم. وإن القصة التي تروي تلك العملية الطويلة التي استغرقت ألف عام، والتي تجمعت خلالها الشريعة الشفوية، واتخذت فيها صورتها النهائية المعروفة بالمشنا؛ والقرون الثمانية التي تجمعت فيها ثمار الجدل، والأحكام، والإيضاح فكانت هي الجمارتين ليتألف منهما التلمود الفلسطيني، وإلى أطولهما ليتألف منهما التلمود البابلي-إن القصة التي تروي هذه الأحداث الثلاثة لمن أكثر القصص تعقيداً وأعظمها إثارة للدهشة في تاريخ العقل البشري. وكما كان الكتاب المقدس أدب العبرانيين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئو التلمود

الأقدمين ودينهم، كانت التوراة حياة العصور الوسطى ودماءهم. وذلك أن أحكام الشريعة الواردة في الأسفار الخمسة أحكام مسطورية، ولهذا فإنها لم تكن تستطيع الوفاء بجميع حاجات أورشليم بعد أن فقدت حريتها، ولا اليهودية بعد أن فقدت أورشليم، ولا الشعب اليهودي في خارج فلسطين، لم تستطع الوفاء بحاجات هذه أو معالجة الظروف المحيطة بها. ومن ثم كانت مهمة علماء السنهدرين قبل التشتت، والأخبار بعده، هي تفسير الشريعة الموسوية تفسيراً يهتدي به الجيل الجديد والبيئة الجديدة ويفيدان منه. وتوارث المعلمون جيلاً بعد جيل تفاسير هؤلاء العلماء ومناقشاتهم وآراء الأقلية والأغلبية في موضوعاتها. على أن هذه لروايات الشفوية لم تدون، ولعل سبب عدم تدوينها أن هؤلاء العلماء أرادوا أن يجعلونها مرنة قابلة للتعديل، أو لعلهم أرادوا بذلك أن يرغموا الأجيال التالية على استظهارها. فكان في وسع الأخبار الذين أخذوا على أنفسهم تفسير الشريعة إذا اضطرتهم الظروف أن يستعينوا بمن قدروا على استظهارها. وكان الأخبار في الستة القرون الأولى بعد ميلاد المسيح يسمون "التنابم Tennaim" أي "معلمي الشريعة" وإذ كانوا هم وحدهم المتضلعين فيها، فقد كانوا هم المعلمين والقضاة بين يهود فلسطين بعد تدمير الهيكل.

وكان أخبار فلسطين وأخبار اليهود "المشتتين أرسنقراطية فذة لا مثيل لها في التاريخ. ذلك أن هؤلاء الأخبار لم يكونوا طبقة وراثية أو مغلقة مقصورة على طائفة خاصة من الناس، بل إن الكثيرين منهم قد ارتقوا من أفقر الطبقات، وكان معظمهم يكسبون قوتهم بالعمل في الصناعات المختلفة حتى بعد أن أصبحوا من ذوي الشهرة العالمية، وظلوا إلى ما يقرب من أخريات تلك الفترة التي نتحدث عنها لا يعطون أجوراً على قيامهم بالتدريس أو بأعمال القضاء وكان الأثرياء

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئو التلمود

يجعلونهم في بعض الأحيان شركاء غير عاملين في مشروعاتهم المالية والتجارية، أو يؤوونهم في بيوتهم، أو يزوجونهم من بناتهم، ليوفروا عليهم عناء الكد لكسب قوتهم. ومنهم من عدد قليل أفسدهم ما كان لهم من المنزلة الرفيعة بين أبناء دينهم، ومنهم كانوا كسائر الخلق يغضون، ويغارون، ويحقدون، ويسرفون في النقد، وينتكبرون. ومنهم من كان لا بد لهم أن يذكروا أنفسهم المرة بعد المرة أن العالم بحق رجل متواضع، لأن الحكيم يرى الجزء في ضوء الكل إن لم يكن لغير ذلك من الأسباب. وكان الناس يحبونهم لفضائلهم ولعيوبهم، ويعجبون بهم لعلمهم وتقواهم،

ويروون ألف قصة وقصة تنبئ عن حكمتهم ومعجزاتهم. وقد ظل اليهود إلى يومنا هذا يجلبون طلاب العلم والعلماء كما لا يجلبهم شعب آخر في العالم كله. ولما كثرت قرارات الأحبار وتضاعفت أصبحت مهمة استظهارها شاقة غير معقولة. ولذلك حاول هلال وعقيبا Akiba وماير Meir مراراً عدة أن يصنفوها ويستعينوا على استظهارها ببعض الأساليب والرموز، ولكن هذه التصانيف والرموز والحيل لم يحظ شيء منها بالقبول من جمهرة اليهود. وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاضطراب في نقل الشريعة هو القاعدة العامة، ونقص عدد من يحفظون الشريعة كلها عن ظهر قلب نقصاً مروعاً، وكان مما زاد الطين بلة أن تشتت اليهود قد نشر هذه القلة في أقطار نائية. وحوالي عام 189 تابع الحبر يهودا هنسيا Jehuda Hansia في قرية صبوراة بفلسطين عمل عقيبا ماير، وعدله، وأعاد ترتيب الشريعة الشفوية بأكملها، ثم دونها، وزاد عليها إضافات من عنده، فكانت هي "مشنا الحبر يهودا" وانتشرت هذه بين اليهود انتشاراً

صفحة رقم : 4828

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئ التلمود

أصبحت معه بعد زمن ما هي المشنا، والصورة المعتمدة لشريعة اليهود الشفوية. والمشنا (أي التعاليم الشفوية) كما نعرفها اليوم هي الصورة النهائية لطبعات مختلفة كثيرة وحواشي متعددة أدخلت عليها من أيام يهوذا إلى الآن. ولكنها مع هذا خلاصة مدمجة محكمة، وضعت لكي تحفظ عن ظاهرة قلب بكثرة التكرار؛ ولهذا فإن من يقبل على قراءتها يرى أن عباراتها المحكمة الجامعة الغامضة تعذب قارئها بما تبعثه في نفسه من الآمال الخادعة اللهم إلا إذا كان هذا القارئ ملماً بحياة اليهود وتاريخهم. وقد قبلها يهود بابل وأوربا كما قبلها يهود فلسطين، ولكن كل مدرسة فسرت أمثالها وحكمها تفسيراً يخالف ما فسرتها به الأخرى، وجمعت ستة أجيال (220-500 م) من أحبار الأمورائم (الشراح) هاتين الطائفتين الضخمتين من الشروح وهما الجمارا الفلسطينية والبابلية، كما اشتركت من قبل ستة أجيال (10-220 م) من الأحبار التتنام في صياغة المشنا. وبذلك فعل المعلمون الجدد بمشنا يهودا ما فعله التتنام بالعهد القديم: فتناقشوا في النص، وحلوه، وفسروه، وعدلوه، ووضحوه لكي يطبقوه على المشاكل الجديدة، وعلى ظروف الزمان والمكان. ولما قارب القرن الرابع على الانتهاء نسقت مدارس فلسطين شروطها وصياغتها في الصورة المعروفة بالجمارا الفلسطينية. وشرع الكوهن رب أشي رئيس جامعة سورا حوالي ذلك الوقت في تقنين الجمارا البابلية وظل يواصل العمل في ذلك التقنين جيلاً من الزمان. وأتمه ربينا الثاني بار (ابن) شمویل، وهو أيضاً من جامعة سورا بعد مائة عام من ذلك الوقت (499).

صفحة رقم : 4829

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئ التلمود

وإذا ذكرنا أن الجمارا البابلية أطول من المشنا إحدى عشر مرة، بدأنا نعرف لم استغرق جمعها مائة عام كاملة. وظل الأحيار السبورائيم (الناطقة) مائة وخمسين سنة أخرى (500-650) يراجعون هذه الشروح الضخمة، ويصقلون التلمود البابلي الصقل الأخير.

بقي أن نقول أن لفظ التلمود يعني التعليم. ولك يكن الأمور يطلقون اللفظ إلا على المشنا. أما في الاستعمال الحديث فهو يشمل المشنا والجمارا. والمشنا في التلمود البابلي هي بعينها مشنا التلمود الفلسطيني، ولا يختلف التلمودان إلا في الجمارا أو الشروح فهي في التلمود البابلي أربعة أمثاله في التلمود الفلسطيني.

ولغة الجمارا البابلية والجمارا الفلسطينية هي الأرامية أما لغة المشنا فهي اللغة العبرية الجديدة تتخللها ألفاظ كثيرة مستعارة من اللغات المجاورة.

صفحة رقم : 4830

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> منشئو التلمود

وتمتاز المشنا بالإيجاز، فهي تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور، أما الجماريان فتنبسطان عن قصد وتعمد، وتذكران مختلف آراء كبار الأحيار عن نصوص المشنا وتصفان الظروف التي قد تتطلب تعديل القانون وتضيفان كثيراً من الإيضاحات. ومعظم المشنا نصوص قانونية وقرارات (هلكا)، أما الجماريان فبعضهما هلكا-إعادة نص قانون أو بحثه وبعضها هجدة (قصص). وقد عرفت الهجدة تعريفاً غير دقيق بأنها كل ما ليس هلكا في التلمود. وأكثر ما تسجله الهجدة هو القصص، والأمثلة الإيضاحية. وأجزاء من السير، والتاريخ، والطب، والفلك، والتنجيم، والسحر، والتصوف، والحث على الفضيلة، والعمل بالشرعية، وكثيراً ما تروج الهجدة عن نفس الطلاب المتعلمين بعد جدل معقد متعب. ومثال ذلك ما يأتي:

بينما كان رب أمي ورب أسى يتحدثان مع الكوهن إسحق منجا إذ قال له أحدهما: "أحك لنا يا سيدي قصة لطيفة"، وقال الآخر: "لا بل أرجوك أن تفسر لنا بدلاً من هذا نقطة دقيقة من النقاط القانونية". فلما بدأ القصة أغضب أحدهما، ولما أخذ يشرح النقطة القانونية أغضب الآخر. فلما رأى ذلك ضرب لهما هذا المثل: "إن مثلي معكما كمثل رجل تزوج باثنتين إحداهما شابة والأخرى عجوز، فافتلعت الزوجة الشابة جميع شعره الأشيب حتى يبدو شاباً، وافتلعت الزوجة العجوز جميع شعره الأسود حتى يبدو عجوزاً، وكانت نتيجة فعلهما هذا أن أصبح الرجل أصلح" (13).

صفحة رقم : 4831

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> مقدمة

الفصل الثالث

الشرية

فإذا حاولنا الآن على الرغم من جهلنا بالموضوع عامة أن نصور باختصار مغل كرية، بعض مناحي هذا التلمود الضخم، الذي تتأثر به كل صغيرة وكبيرة من حياة العبرانيين في العصور الوسطى، إذا حاولنا هذا وجب علينا أن نقر من بداية الأمر أننا إنما نخدش الجبل، وأن معالجتنا إياه من خارجه تعرضنا لا محالة للخطأ.

صفحة رقم : 4832

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

1- الناحية الدينية

يقول رجال الدين اليهود إن من واجب الإنسان أن يدرس الشريعة مسطورة وشفوية، ومن حكمتهم المأثورة في هذا المعنى قولهم: "إن دراسة التوراة أجل قدراً من بناء الهيكل(14)". و"إن من واجب الإنسان وهو منهمك في دراسة الشريعة أن يقول لنفسه كل يوم: "كأننا في هذا اليوم قد تلقيناها من طور سيناء"(15)، وليست الدراسات الأخرى بعد ذلك واجبة؛ فالفلسفة اليونانية والعلوم الدنيوية لا تصح دراستها إلا في تلك الساعة التي ليست ليلاً ولا نهاراً(16). ويعتقد اليهود أن كلمة من كتابهم المقدس من كلمات الله بالمعنى الحرفي لهذه العبارة، وحتى نشيد الإنشاد نفسه إن هو إلا ترنيمة موحى بها من عند الله-لتصور بصورة مجازية اقتران يهوه بإسرائيل عروسه المختارة . وإذا كان انعدام الشريعة تعقبه حتماً الفوضى الأخلاقية فإن

صفحة رقم : 4833

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

الشريعة وجدت لا محالة قبل أن يخلق العالم "في صدر الله أو عقله" ، وكان إنزالها على موسى لا شيء غيره حادثاً من حوادث الزمان. والتلمود أو بعارة أدق جزؤه الذي يبحث في الشريعة (الهلكا) هو أيضاً كلمات الله الأزلية، وهو صياغة للقوانين التي أوحاها الله إلى موسى شفويّاً ثم علّمها موسى لخلفائه، ولهذا فإن ما فيها من الأوامر والنواهي واجبة الطاعة تستوي في هذا مع كل من جاء في الكتاب المقدس ، لأنها صورة من الشريعة معدلة جاءت متأخرة عنها(18). وكانت بعض قرارات الأبحار تتعارض تعارضاً صريحاً مع قوانين أسفار موسى الخمسة، أو تفسرها تفسيراً يبيح مخالفتها(19). وكان يهود ألمانيا وفرنسا في العصور الوسطى يدرسون التلمود أكثر مما يدرسون الكتاب المقدس نفسه.

ومن المبادئ البديهيّة في التلمود، كما أن من المبادئ البديهيّة في الكتاب المقدس وجود إله عاقل قادر على كل شيء. وقد وجد بين اليهود من حين إلى حين عدد من المنتسكين أمثال اليسع بن أيوبا العالم الذي اتخذ الكوهن ماير صديقاً له، ولكن يبدو أن أولئك المنتسكين كانوا أقلية صغيرة لا تكاد تجهر بأرائها. والله كما يصفه التلمود إله متصف صراحة بصفات البشر، فهو يحب ويغضب ويغضب(20) ويضحك(21) ويكي(22). وسحي بوخر الضمير ،

صفحة رقم : 4834

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

ويلبس التمام(24)، ويجلس على عرش يحيط به طائفة من الملائكة المختلفي الدرجات يقومون على خدمته، ويدرس التوراة ثلاث مرات في كل يوم(25). ويعترف رجال الدين بأن هذه الصفات البشرية قائمة على الافتراض إلى حد ما، ويقولون: "إننا نستعير له صفات من خلقه نصفه بها لنيسر بذلك فهمه"(26)؛ وإذا لم يكن في مقدور العامة أن يفكروا إلا على أساس الصور المادية فليس الذنب واقعاً عليهم. وهم يصورون الله أيضاً بأنه روح الكون غير المنظورة، السارية فيه كله، تمدّه بالحياة، تسمو عليه وتلازمه في وقت واحد، تعلق على العالم ولكنها مع ذلك حالة في كل ركن من أركانه وكل جزء من أجزائه. والحضرة الإلهية الكونية المسماة بالسكينا (السكن) تكون بنوع خاص في الأشخاص المقدسين وفي الأماكن والأشياء المقدسة، وفي ساعات الدرس والصلاة. لكن هذا الإله القادر على كل شيء رغم هذا إله واحد. وليس بين الأفكار كلها فكرة أبغض إلى اليهودية من تعدد الآلهة، واليهود لا يفتنون يجهرون بوحدانية الله في حماسة قوية وينددون بشرك الوثنية وبما يبدو في الثالوث المسيحي من تثليث. وهم يجهرون بهذه الوحدانية في أشهر صلواتهم وأكثرها انتشاراً بينهم صلاة شمع يسرائيل: "اسمعي يا اسرائيل، الله إلهنا، الله واحد" (شمع يسرائيل أدوناي إلهينا أدوناي أحد)(27). وليس ثمة مكان بجواره في هيكله أو عبادته إلى مسيح، أو نبي، أو قديس. وقد نهى أبحار اليهود الناس عن ذكر اسمه إلا في أحوال جد نادرة يقصدون بذلك أن يحولوا بينهم وبين تدنيسه أو اتخاذه وسيلةً للسحر، ولكي يتجنبوا النطق بهذا الاسم الرباعي يهوه كانوا يذكرون بدلاً من لفظ أدوناي أي الرب، بل ويشيرون بأن يستعمل بدلاً منه عبارات مثل: "الواحد المقدس" "الواحد الرحيم" "السموات" "أبينا الذي في السماء". وفي اعتقادهم أن الله قادر على صنع المعجزات وأنه يصنعها فعلاً، وخاصة على أيدي كبار الأبحار؛ ولكن يجب ألا يظن أن هذه

صفحة رقم : 4835

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

المعجزات خرق لقوانين الطبيعة إذ ليس ثمة قوانين إلا إرادة الله. وقد خلق كل شيء لغرض إلهي طيب: "فقد خلق الله القوقعة لمداداة الجرب، والزجاجة لمداداة لسعة الزنبور، والبعوضة لمداداة عضه الأفعى، والأفعى لعلاج الاحتقان(28) وبين الله والإنسان صلة لا تنقطع وكل خطوة يخطوها إنما يخطوها أمام ناظريه لا تخفي عنه، وكل عمل يعمله الإنسان أو فكرة تجول بخاطره في خلال يومه يمجد بها الذات الإلهية أو يغضبها. والناس كلهم أبناء آدم، ولكن "الإنسان قد خلق أولاً وله ذنب كذنب الحيوان(29) و"كانت وجوه الناس إلى عهد أخنوخ شبيهة بوجوه القرودة(30). ويتكون الإنسان من جسم وروح، فروحه من عند الله، وجسمه من الأرض، والروح تدفعه إلى الفضيلة، والجسم يدفعه إلى الخطيئة، أو لعل دوافعه الشريرة وقد أنتت إليه من الشيطان، ومن ذلك العدد الجم من الأرواح الخبيثة التي تكمن حوله في كل مكان(31). بيد أن كل شر قد يكون في نهاية الأمر خيراً؛ ولو لا شهوات الإنسان الأرضية لما كد الإنسان أو تناسل. وتقول إحدى الفقرات الظرفية "تعال نعز الخير لأبائنا، فإنهم لو لم يأتوا لما جئنا نحن إلى هذه الدنيا"(32). والخطيئة من فطرة الإنسان، ولكن ارتكابها ليس موروثاً، وقد قبل أبحار اليهود عقيدة سقوط الإنسان، ولكنهم لم يقبلوا عقيدة الخطيئة الأولى ولا الكفارة الإلهية. فالإنسان في رأيهم لا يعاقب إلا على ما ارتكبه هو من الذنوب، وإذا ما لقي من العقاب في الحياة الدنيا أكثر مما يبدو له أن يستحقه على ذنوبه، فقد يكون ذلك لأننا لا نعرف مقدار هذه الذنوب كلها، أو قد يكون هذا الإفراط في العقاب نعمة كبرى، تؤهله للخير العميم في الدار الآخرة. ومن أجل هذا يجب على الإنسان كما يقول عقيبا أن يبتهج لكثرة ما يصيبه من سوء(33) أما الموت فقد جاء إلى الدنيا بسبب آثام الإنسان؛ وغير الآثم بحق لا يموت أبداً(34). فالموت دين على البشرية الأئمة لباعت الحياة جميعها. ويقص

صفحة رقم : 4836

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

علينا مدرسنا قصة مؤثرة عن موت الكائن ماير فيقول:
بينما كان الكوهن ماير يلقي موعظته الأسبوعية عصر يوم من أيام السبت إذا مات ولداه المحبوبان فجأة في منزله. فغطتهما أمهما بغطاء، وأبت أن تندبهما في اليوم المقدس. ولما عاد الكوهن ماير بعد صلاة المساء سأل عن ولديه لأنه لم يرها في الكنيس بين المصلين، فطلبت إليه أن يتلو الهيدلة (وهي دعاء يختتم به السبت) وقدمت له العشاء. ثم قالت له: "الذي سأل أريد أن أسألك إياه. انتمني أحد الأصدقاء في يوم من الأيام على جواهر أحفظها له، ثم أراد الآن أن يستعيدها فهل أردتها إليه؟". فأجابها الكوهن ماير "ذلك واجب عليك بلا ريب؛ فأمسكت زوجته حينئذ بيده، وسارت به إلى الفراش ورفعت عنه الغطاء. فأخذ الكوهن ماير ينتحب ولكن زوجته قالت له: لقد كانا وديعة لدينا إلى حين والآن قد أراد سيدهما أن يسترد وديعته".
ولم يقل كتاب العبرانيين المقدس إلا الشيء القليل عن خلود الثواب والعقاب، ولكن هذه الفكرة أصبحت ذات شأن كبير في آراء الأبحار الدينية. فقد صوروا النار على أنها جهنم! Ge Hinnom أو شاول، وقسموها كما قسموا السموات إلى سبع طبقات تدرج في درجات العذاب. ولا يدخلها من المختلئين إلا أحبثهم(36)، وحتى الآثمون الذين يدامون على الإثم لا يعذبون فيها إلى أبد الأبد، بل إن "كل من يلقون في النار يخرجون منها مرة أخرى لإفئات ثلاثاً: الزاني، ومن يفضح غيره أمام الناس، ومن يسب غيره"(37). أما السماء فقد كانوا يسمونها جنة عدن Gen Edon،

وكانوا يصورونها في صورة حديقة تحوي جميع المسرات الجسمية والروحية. فخرها عصرت من كروم احتفظ بها من

صفحة رقم : 4837

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الناحية الدينية

الستة أيام التي خلق فيها العالم، والهواء فيها معطر بالروائح الزكية، والله نفسه يجتمع بالناجين من العذاب في وليمة أعظم ما يسر أصحابها أن يروا وجهه. بيد أن بعض أبحار اليهود يعترفون بأن أحداً لا يعرف قط ما وراء القبر (38). وإذا ما فكر اليهود في النجاة كان تفكيرهم فيها أنها نجاة الشعب لا نجاة الفرد. وذلك أنهم وقد شئتوا في أنحاء العالم بضروب من القسوة لا يبررها في ظنهم عقل، وأخذوا يقوون أنفسهم باعتقادهم أنهم لا يزالون شعب الله المحبوب المختار، فهو أبوه، وهو إله عادل، ولا يمكن أن ينكث عهده لإسرائيل. أليسوا هم الذين أنزل عليهم كتابه المقدس الذي يؤمن به المسيحيون والمسلمون ويعظمونه؟ وقد دفعتهم شدة بأسهم إلى درجة من الكبرياء اضطر معه أبحارهم الذين سموا بهم إلى تلك الدرجة أن ينزلوا بهم عنها بضروب اللوم والتأنيب. وكانوا في ذلك الوقت كما هم الآن يتوقون إلى البلد الذي نشأت فيه أمتهم، وكانوا يعزونها ويرون أنها المثل الأعلى لجميع البلدان، ويقولون "إن من يمشي أربع أذرع في فلسطين يعيش بلا ريب إلى أبد الأبد، ومن يعيش في فلسطين يطهر من الذنوب" (39). وحديث من يسكنون فلسطين في حد ذاته تورا (40)، وأهم قسم في الصلوات اليومية وهو الشمونة عسراً (الفقرات الثمان عشرة) تحوي دعاء بمجيء ابن داود، الملك المسيح الذي يجعل اليهود كما كانوا أمة متحدة، حرة، يعبدون الله في هيكلهم بشعائرهم وترانيمهم القديمة.

صفحة رقم : 4838

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

2- الشعائر الدينية

لم يكن ما يميز اليهود من غيرهم من الشعوب في عصر الإيمان الذي نتحدث عنه، والذي يحفظ عليهم وحدتهم وهم مشتتون، هو عقيدتهم الدينية بل شعائرهم، لم يكن هو العقيدة التي لم تفعل المسيحية أكثر من التوسع فيها والتي قبل الإسلام الكثير منها بل هو قواعد الطقوس والمراسم المعقدة تعقيداً ثقيلاً. يكن في مقدور

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

شعب غير هذا الشعب المتكبر، السريع التأثر، أن يظهر من الوداعة والصبر ما تتطلبه إطاعته والعمل بها. لقد كانت المسيحية تنشأ الوحدة عن طريق توحيد العقيدة، أما اليهودية فكانت تنشأها عن طريق توحيد الشعائر. وفي ذلك يقول أبا أريكا: "إن الشرائع لم توضع إلا لكي تودب الناس وترقق طباعهم بالعمل بها" (41). ولقد كانت الشعائر أولاً وقبل كل شيء هي قانون العبادة. ولما أن حلت المعبد اليهودية محل الهيكل استبدلت بالأضاحي الحيوانية القرابين والصلوات، ولكنهم لم يكونوا يجيزون وضع صورة لله أو للآدميين في المعابد كما لم يكونوا يجيزون وضعها في الهيكل. ذلك أنهم كانوا يتجنبون كل ما يشتم منه عبادة الأوثان، وكذلك كانت الموسيقى الآلية المباحة في الهيكل محرمة من المعابد. وفي هذا تختلف المسيحية عن اليهودية وتتفق مع الإسلام، فقد تكشف الدينان الساميان عن تقوى قائمة وتكشفت المسيحية عن فن مقبض قائم كذلك.

وكانت الصلاة تجربة دينية يمارسها اليهودي المتدين كل يوم، بل يكاد يمارسها في كل ساعة. وكانت صلوات الصباح تتلى من قنطرة (علب صغيرة محتوية على فقرات من الكتاب المقدس) مثبتة على الجباه والأذرع ولم يكونوا يطعمون طعاماً دون أن يتلو دعاء قصيراً قبله وصلاة الشكر طويلة في نهايته. على أنهم لم يكونوا يكتفون بهذه الصلوات المنزلية، ذلك أن الناس لا يرتبطون ويتماسكون إلا إذا اشتركوا معاً في القيام بأعمال واحدة، وكان أحبار اليهود يحاجون بما عرف عن الشرقيين من مبالغة أن "الله لا يستجيب لصلاة الإنسان إلا إذا قام بها في الكنيس" (42). وكان أهم ما تشتمل عليه الطقوس الدينية العامة هو "الشمونة عسراً"، "والشمع يسرائيل، وتلاوة من أسفار موسى الخمسة، ومن سفر الأنبياء، ومزامير داود، وعظة تشتمل على تفسير فقرات من الكتاب

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

المقدس، وعلى "قديس Kaddish" (أدعية حمد وبركة للأحياء والأموات) ثم دعاء ختامي. ولا يزال هذا هو الأساس الجوهرى للشعائر التي تقام في المعابد إلى يومنا هذا.

وأدق من هذه الشعائر وأكثر منها تفصيلاً القواعد الخاصة بالنظافة البدنية أو طقوس الطهارة. فقد كان أحبار اليهود يرون أن الصحة البدنية تعين على سلامة الروح (43) ولهذا كانوا يحرمون على بني دينهم أن يعيشوا في مدينة ليس بها حمام (44)، ويعينون للاستحمام قواعد تكاد تبلغ مرتبة الأوامر الطبية كقولهم: "إذا اغتسل الإنسان بماء ساخن ولم يغتسل بعده بماء بارد كان مثله كمثل الحديد الذي يحمي في تنور ثم لا يوضع بعدئذ في ماء بارد" (45)، فمثل الجسم كمثل الحديد يجب أن يسقى ويُسقى ويجب أن يدهن الجسم بالزيت بعد الاستحمام (46) كذلك يجب غسل اليدين عقب الاستيقاظ مباشرة، وقبل تناول كل وجبة من الوجبات وبعد تناولها، وقبل الصلاة العامة وقبل القيام بكل شعيرة دينية.

وكانت جنث الموتى، والاتصال الجنسي، والحيض، والولادة، والحشرات، والخنازير، والجذام (ومختلف الأمراض الجلدية) كانت هذه كلها حسب القواعد الدينية نجسة، ومن مس شيئاً منها أو أصيب به وجب عليه أن يتوجه إلى الكنيس ويؤدي فيه شعائر التطهير. وكانت المرأة تعد نجسة (أي لا يقترب منها زوجها) أربعين يوماً بعد أن تلد ولداً ذكراً، وثمانين يوماً إذا كانت المولودة أنثى(47). ويجب وفقاً لما ورد في الكتاب المقدس (في الآيات من 9 إلى 14 من الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين) أن تجري عملية الختان للمولود الذكر في اليوم الثامن بعد مولده، وكان هذا الختان يعد قرباناً ليهوه وعهداً بينه وبين عباده؛ ولكن انتشار هذه العادة بين المصريين الأقدمين، والأحباش، والفينيقيين، والسوريين، والعرب، يوحي بأنها كانت إجراءً صحياً يحتمه الجو الذي يساعد على النضوج والاهتياج الجنسي المبكرين، أكثر مما هو وسيلة من وسائل النظافة.

صفحة رقم : 4841

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

ويؤيد هذا الرأي ما يحتمه أحبار اليهود على بني دينهم ألا يبقوا لديهم عبداً أكثر من اثني عشر شهراً دون ختان(48). وقد يخيل إلى الإنسان وهو يقرأ بعض أجزاء من التلمود أنه كتاب مبسط في الطب المنزلي أكثر مما هو كتاب في الشرائع الدينية، والحق أنه كان لا بد أن يجعل بمثابة موسوعة من النصائح للشعب اليهودي. ذلك أن يهود القرن الرابع والقرن الخامس بعد الميلاد كانوا كمعظم شعوب البحر المتوسط ينزلون عائدين إلى الخرافات والحيل الطبية التي تسود بين الشعوب المنعزلة الفقيرة؛ ولقد تسرب كثير من هذا الطب الشعبي والخرافي إلى التلمود. غير أننا مع هذا نجد في الجمارا البابلية وصفاً غاية في الجودة للمريء، والحجرة، والقصبه الهوائية، والرننين، والأغشية السحائية، وأعضاء التناسل. وقد وصف فيه خراجات الرننين وتليف الكبد، والحرص الجبني وكثير غيرها من الأمراض وصفاً دقيقاً؛ ومما أثبتته الأحبار أن الذباب وأكواب الشرب قد تنقل العدوى(49)، كما أثبتوا أن التدمام (أي الاستهداف للنفز) داء وراثي يجعل ختان أبناء المصابين به أمراً غير مستحب لكن هذه الآراء قد اختلطت بها رقي سحرية لطرد الأرواح الخبيثة التي يحسبونها سبباً في الأمراض. ولقد كان أحبار اليهود، مثلنا نحن جميعاً، خبراء في التغذية الصحية. ونبدأ القواعد الحكيمة للتغذية عندهم بالأسنان. فهذه في رأيهم يجب ألا تطلع، مهما اشتدت آلامها(50) لأن "الإنسان إذا أجاد مضغ الطعام بأسنانه وجدت قدمه القوة"(51). وهم يمتدحون الخضر والفاكهة ما عدا البلح ويوصون بأكملها. أما اللحم فمن مواد الترف التي يجب ألا يتناولها سوى المتطهرين(52). ويجب أن يذبح الحيوان بحيث نقل الآمه إلى أقصى حد، وبحيث يخرج الدم من اللحم، لأن أكل اللحم بما فيه من الدم رجس. ومن أجل هذا يجب أن يعهد ذبح الحيوان لاتخاذ لحمه طعاماً إلى أشخاص مدربين، عليهم أن يفحصوا عن أحشائه

صفحة رقم : 4842

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

حتى يتأكدوا من أن الحيوان سليم من الأمراض. ويجب ألا يجمع في الوجبة الواحدة بين اللحم واللبن أو بين الأطعمة التي يدخل فيها هذان الصنفان، بل يجب ألا يوضعا قريبين أحدهما من الآخر في المطبخ(53). ولحم الخنزير محرم ممقوت. ولا يصح أكل البيض، أو البصل، أو الثوم إذا كان قد ترك بالليل منزوع القشر(54). ويجب الامتناع عن تناول الطعام في غير أوقاته المحددة: "لا تنقر طول النهار كالدجاج"(55). "والذين يموتون من الإفراط في الأكل أكثر ممن يموتون من نقص التغذية"(56). "والأكل إلى سن الأربعين نافع للصحة، أما بعد الأربعين فالشرب نافع لها"(57)، والاعتدال في الشرب خير من الامتناع عنه بتاتاً، فكثيراً ما يكون الخمر دواءً نافعاً(58)، و "ليس ثمة سرور إلا به"(59). وقد أراد أحبار اليهود أن يسيروا في موضوع التغذية إلى غايته فقالوا إن "من يطل المكث في المرحاض يطل عمره" وأشاروا بأداء صلاة شكر كلما استجاب الإنسان لنداء الطبيعة .

وكانوا يقامون التنسك وينصحون بني دينهم أن يتمتعوا بطيبات الحياة إذا لم يكن فيها ما هو محرم(61). وقد فرض عليهم الصيام في مواسم معينة وفي بعض الأيام المقدسة، ولكن لعل الدين هنا قد اتخذ وسيلة للحض على العناية بالصحة. واقتضت حكمة الشعب أن يؤمر اليهود بأن يحتفلوا بالأعياد وقيموا الولائم من أن إلى أن، رغم نغمات الحزن والأسى التي كانت تسمع منهم حتى في أفراسهم. "يجب على الإنسان أن يدخل السرور في العيد على زوجته وآل بيته". ويجب عليه إن استطاع أن يهبئ لهم ثياباً جديدة(62). ويبدو أن السبت- وهو أعظم ما ابتدعه اليهود- كان عبئاً ثقيلاً عليهم في أيام التلمود، فقد كان ينتظر من اليهودي التقى أن يجعل كلامه أقل ما يستطيع، وألا يوقد النار في منزله، وأن يقضي الساعات عاكفاً على الصلاة في الكنيس. وثمة نبذة طويلة تتحدث بالتفصيل

صفحة رقم : 4843

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

الوافي الممل عما يجوز عمله وما لا يجوز في السبت. ولكن فتاوي الأبحار كانت تهدف إلى التقليل من أهوال التقوى أكثر مما تهدف إلى زيادتها. وكان ما فيها من الدقة يرمي إلى تلمس الأسباب المقنعة لحمل الإنسان على أن يفعل ما يجب عليه أن يفعله في يوم الراحة. يضاف إلى هذا أن اليهودي الصالح كان يجد سعادة خفية في التمسك بشعائر السبت القديمة. فكان يبذره بقدر قصير. كان وهو محوط بأفراد أسرته وبأصدقائه (لأن هذا اليوم كان من الأيام التي يحلو فيها دعوة الأصدقاء)، يمسك بيده كأساً مملوءة بالخمر، يتلو عليها بعض الأدعية، ثم يشرب بعضها ويتناول الكأس لضيوفه وزوجته وأبنائه. ثم يأخذ بعدئذ الخبز ويباركه، ويحمد الله "الذي يخرج الخبز من الأرض"، ويعطي بعضه لكل من يجلسون معه على المائدة. ولا يجوز الصوم أو الحزن في السبت.

وكانت أيام مقدسة كثيرة تتخلل العام وتتيح لليهود الفرص للاحتفال بالذكريات المقدسة أو الراحة المحببة. فمنها عيد الفصح اليهودي الذي يبدأ في الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل) ويستمر ثمانية أيام يحيي فيها ذكرى فرار اليهود من مصر. وكانوا في الأيام الأولى من العهد الذي أوحى فيه بالكتاب المقدس يسمونه عيد الخبز الفطير، لأن اليهود قد فروا ومعهم العجين الذي يصنعون منه خبزهم دون أن يختمر. وكان هذا العيد يسمى في أيام التلمود عيد المرور، لأن يهوه وهو يقضي على البكور من أبناء المصريين قد "مر" بالبيوت التي رش من فيها من اليهود دم الحمل على قوائم أبوابها(63). وكان اليهود يحتفلون في اليوم الأول من هذا العيد بوجبة عيد الفصح (السدر)، فكان كل أب يرأس حفلة الصلاة لأسرته المجتمععة عنده. ويقوم معهم بمراسم تذكروهم بأيام موسى النبي، ينقل في خلالها عن طريق الأسئلة والأجوبة القصة القيمة العزيزة إلى الأبناء الصغار وفي عيد العنصرة، وموعده بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح يحتفل اليهود في عيد شيوخوت بحصاد القمح وتجلي الله لموسى على الجبل في سيناء. وفي اليوم الأول

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

من تشرين-وهو الشهر السابع من السنة اليهودية الدينية، والشهر الأول من سنة اليهود المدنية-وهو يتفق بوجه عام مع الاعتدال الخريفي يحتفل اليهود بعيد رأس السنة، وبهلال الشهر، وينفخون في القرن الحمل (الشفار أي الصفارة) إحياء لذكرى نزول التوراة، ودعوة الناس إلى التوبة من الذنوب، واستعجالاً لذلك اليوم السعيد حين يدعي جميع اليهود العالم ليعبدوا الله في أورشليم. ومن مساء رأس السنة إلى اليوم العاشر من تشرين أيام توبة وتفكير عن الذنوب، وكان أتقبا اليهود في هذه الأيام جميعها ما عدا اليوم التاسع منها يصومون ويصلون؛ فإذا جاء اليوم العاشر المسمى يوم هاكريم (يوم الغفران) لم يكن يجوز لهم فيه أن يأكلوا أو يشربوا أو يحتنوا نعالاً أو يقوموا بعمل أو يستحموا أو يفرّبوا النساء من مطلع الشمس إلى مغيبها، بل كانوا يقضون النهار كله في الكنيس يصلون، ويعترفون بذنوبهم، ويستغفرون لها هي وذنوب بني دينهم، يستغفرون لهذه الذنوب بما فيها عبادة العجل الذهبي نفسه. وفي اليوم الخامس عشر من شهر تشرين يحل عيد سوكونت أو عيد المظلات. وكان المفروض أن يقضي اليهود هذا العيد في أخصاص إحياء لذكرى الخيام التي يقال إن آباءهم الأقدمين قد ناموا فيها خلال الأربعين يوماً التي قضوها في البيداء. ولما وجد اليهود المشتتون صعباً جمة في الاحتفال بعيد الحصاد هذا كما هو مفروض عليهم بالدقة، أظهر أخبارهم ما يتصفون به من تسامح بأن فسروا السكة (الخيمة) بأنها كل ما يصح أن يرمز به للمسكن. وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر التاسع شهر كسلو (ديسمبر) والسبعة أيام التالية لهذا اليوم يقع عيد حنكة أو التكريس، الذي يذكرهم بتطهير الهيكل من المكابين (165 ق. م)، بعد أن دنسه أنتيوخوس إيفانيز Anfiouchuc Epiphanes، وفي الرابع عشر من آذار (مارس) يحتفل اليهود بعيد بوريم الذي أنجى فيه مورديكي وإستر الشعب من مكر الوزير الفارسي هامان. وكانوا في ذلك اليوم يتبادلون الهدايا والدعوات أثناء وليمة مرحة يشربون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> الشعائر الدينية

فيها الخمر. وفي ذلك يقول رب ربا Rab Raba إن على الإنسان أن يشرب في ذلك اليوم حتى لا يستطيع التمييز بين قولهم "ملعون هامان" و "ملعون مورديكي" (64). وليس من حقا أن نظن أن هؤلاء اليهود التلموديين قوم مفرطون في التشاؤم يحز في نفوسهم احتقار من حولهم من الشعوب لمواهبهم، تنقادفهم أعاصير العقائد المتباينة، يهيمنون في ببداء الآمال بالرجوع إلى بلادهم. ذلك أنهم وهم يعانون مرارة التنتت والظلم، والندم والفقر، كانوا يرفعون رؤوسهم عالية، ويتذوقون لذة العمل والكفاح في سبيل الحياة، ويستمتعون بما يتجلى به نساؤهم المثقلات من جمال قصير الأجل وما في الأرض والسماء من جلال مقيم. وفي ذلك يقول كوهنهم ماير: "يجب أن ينطق الإنسان في كل يوم بمائة دعوة صالحة" (65). ويقول كوهن آخر قولاً

ما أجدرنا كلنا أن نعمل به "إذا مشي إنسان أربعة أذرع لا أكثر لم يطأطأ فيها رأسه أغضب الله، ألم يرد في الكتاب المقدس "مجده ملئ كل الأرض" (66).

صفحة رقم : 4846

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

3- المبادئ الأخلاقية في التلمود

ليس التلمود موسوعة من التاريخ، والدين، والشعائر، والطب، والأقاصيص الشعبية وحسب، بل هو فوق هذا كله رسالة في الزراعة، وفلاحة البساتين، والصناعة، والمهن، والتجارة (67)، وشئون المال، والضرائب، والملك والرق، والميراث، والسرقه، والمحاكمات القضائية، والقوانين الجنائية. وإذا شئنا أن نوفي هذا الكتاب حقه من البحث، كان علينا أولاً أن نلم بطائفة كبيرة العدد من العلوم المختلفة، وأن نكتسب منها ما تهيؤه لعقولنا من الحكمة وسداد الرأي، ونستخدم تلك الحكمة الجامعة في الإلمام بأحكام هذا الكتاب في الميادين المختلفة السالفة الذكر. وأول ما نذكره أن التلمود أولاً وقبل كل شيء قانون أخلاقي، وأن هذا القانون

صفحة رقم : 4847

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

الأخلاقي شديد الاختلاف عن القانون الأخلاقي المسيحي وعظيم لشبهه بالقانون الإسلامي، حتى لتكفي نظرة خاطئة إليه لدحض الرأي السائد في العصور الوسطى القائل بأنه ليس إلا قصة المسيحية في تلك العصور. إن الأديان الثلاثة الكبرى متفقة في أن المبادئ الأخلاقية الفطرية-غير الدينية-تصلح لأن تكون قواعد عملية للإنسانية؛ وترى أن الكثرة الغالبة من الناس لا يمكن أن تحمل على المسلك الحسن والخلق القويم إلا عن طريق خوف الله. ولهذا أقامت الأديان الثلاثة قانونها الأخلاقي على مبادئ رئيسية واحدة: أن الله عيناً تبصر كل شيء، وأن القانون الأخلاقي منزل من عند الله، وأن الفضيلة تتفق في آخر الأمر مع السعادة بما يناله المحسن بعد الموت من الثواب والمسيء من العقاب. ولم يكن من المستطاع في الدينين الساميين فصل القوانين الثقافية والأخلاقية من الدين. فلم تكن هذه القوانين تجبر التفرقة بين الجريمة والخطيئة، أو بين الشر والشريعة الكنسية، بل إن من مبادئها المقررة أن كل فعل ذميم. يعد إساءة إلى الله وانتهاكاً لحرماته ولاسمه جل جلاله.

وتتفق الأديان الثلاثة فضلاً عن هذا في بعض قواعد الأخلاق: تتفق في حرمة الأسرة والمسكن، وفيما يحب للأبائ وكبار السن من تكريم وإجلال وفي حب الأبناء ورعايتهم، وفي مل الخير لجميع الناس. وليس ثمة شعب أكثر من اليهود حرصاً على تجميل الحياة العائلية، ولقد كان عدم الزواج عن قصد من الأثام الكبرى في اليهودية كما هو في الإسلام(68)؛ وكان إنشاء البيت وتكوين الأسرة من الأمور الشرعية التي يحتمها الدين(69)، وتتص عليه القاعدة الأولى من قواعد الشريعة البالغ عددها 613 قاعدة، وفي ذلك يقول أحد المعلمين اليهود(70) "إن من لا ولد له يعد من الأموات"، ويتفق اليهودي، والمسيحي، والمسلم في أن البشرية تصبح مهددة بالزوال إذا ما فقدت قوتها أوامر الدين التي تقضي بوجوب إنجاب الأبناء. على أن أحبار اليهود أباحوا تحديد عدد أفراد الأسرة في

صفحة رقم : 4848

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

بعض الأحوال؛ ويفضلون أن تكون السبيل إلى هذا هي منع الحمل، وفي ذلك يقول بعضهم: "هناك ثلاث طبقات من النساء يجب عليهن أن يستعملن الأدوية الماصة: القاصر خشية أن يقضي الحمل على حياتها؛ كيلا تكون النتيجة هي الإجهاض، والمرضع حتى لا تحمل فتضطر إلى فطام الرضيع قبل الأوان فيموت الطفل"(71). وكان اليهود، كما كان معاصروهم، يكرهون أن يلدوا بنات ويسرون إذا أنجبوا الذكور، ذلك أن الذكر لا الأنثى هو الذي يحمل اسم أبيه واسم الأسرة، ويرث أملاكه، ويعني بغيره بعد وفاته، أما البنت فسوف تتزوج في بيت غريب وقد يكون بيتاً بعيداً، ولا تكاد تتم تربيتها حتى يفقدها أبواها. لكن الآباء متى رزقوا الأبناء، ذكوراً كانوا أو إناثاً، أعروهم وأدبوهم تأديباً ممزوجاً بالحب وفي ذلك يقول أحد أحبارهم: "إذا كان لا بد لك أن تضرب طفلك، فاضربه برباط حذاء"(72). ويقول آخر "إذا امتنع الإنسان من عقاب طفل، انتهت به الحال إلى الفساد المطلق"(73) وكان من الواجب على الآباء أن يتحملوا كل تضحية تتطلبها تربية الأبناء أي تنقيف العقل، وتقويم الخلق بدراسة "الشريعة وأسفار الأنبياء". وقد جاء في أحد الأمثال العبرية: "إن العالم ينجو بنفس تلاميذ المدارس"(74) فالسكينة أو الحضرة الإلهية تتجلى في وجوههم؛ وفي نظير هذا يجب على الابن أن يعظم والديه ويحميهما بكل ما في وسعه وفي جميع الأحوال.

والصدقات من الواجبات التي لا مفر من أدائها وإن "من يتصدق لأعظم ممن يقدم كل القرابين"(75). ولقد كان بعض اليهود أشحاء، وبعضهم بخلاء إلى أقصى حدود البخل، ولكنهم بوجه عام يفوقون سائر الشعوب في هباتهم وتبرعاتهم، وقد بلغ من سخائهم في هذه الناحية أن اضطر أحبارهم إلى أن ينوهم عن إعطاء أكثر من خمس أموالهم للصدقات، ومع هذا فقد وجد عند

صفحة رقم : 4849

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

وفاة بعضهم أنهم قد أعطوا نصف ما يملكون رغم هذا التحريم(76). "لقد كانت تلوح على وجه أبا أو منا على الدوام هالة من الطمأنينة القدسية، ذلك بأنه كان جراحاً ولكنه لم يكن يرضى أن يمسه بيديه أجراً على عمله، بل كان له صندوق في ركن حجرة استشارته يستطيع من كان في مقدوره أداء شيء من المال أن يضع فيه ما يرغب في أدائه... وحتى لا يعترى الخجل من يعجز عن أداء شيء منه"(77). وكان رب هونا "إذا جلس لتناول الطعام فتح أبوابه ونادى: من كان في حاجة أن يدخل ويطعم"(78). وكان شاما بن إعي Chama ben Elai يطعم الخبز كل من يطلبه ويضع يده في كيس نقوده كلما سار في خارج داره حتى لا يحجم أحد عن سؤاله(79). ولكن التلمود كان يؤنب التظاهر بالبذل ويشير بأن يكون سراً ويقول "إن من يعطي الصدقات سراً أعظم من موسى"(80). ووجه رجال الدين كل ما أوتوا من علم وبلاغة لامتداح نظام للزواج الذي كان هو والدين الأساس الذي يقوم عليه صرح الحياة اليهودية كلها. ولم ينددوا بالشهوة الجنسية ولكنهم كانوا يخشون قوتها وبذلوا جهودهم في كبح جماحها. فمنهم من كان ينصح بأكل الملح مع الخبز "ليقل المنى"(81)، ومنهم من كان يحس بأن الوسيلة الوحيدة لكبح جماح الشهوة الجنسية هو العمل المجهد مضافاً إلى دراسة التوراة؛ فإذا لم يجد هذه الوسيلة "فليذهب إلى مكان لا يعرفه فيه أحد، وليلبس سود الثياب، وليفعل ما تبتغيه نفسه، ولكن عليه ألا يدنس اسم الله جهرة"(82). وعلى الإنسان أن يبتعد عن كل المواقف التي تثير شهوته، فلا يكثر من الحديث مع النساء، "ولا يمشي في الطريق خلف امرأة"(83) وتظهر فكاهة أحبار اليهود المبهجة مرة أخرى في قصة رب كهنا Red Kahan. فقد كان مرة يبيع سلال النساء وإذا هو يتعرض لهواية الشيطان. وأخذ يقاوم طبيعته راجياً أن ينطلق هذه المرة على أن يعود إلى نجا. ولكنه بعد أن تغلب

صفحة رقم : 4850

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

على نفسه لم يعد بل صعد إلى سقف بيت وألقى بنفسه من فوقه، وقبل أن يصل إلى الأرض وصل إليه الشيع وأمسك به ولامه على أن اضطره إلى قطع مسافة أربعمئة ميل لكي يحول بينه وبين إهلاك نفسه(84). ويلوح أن أحبار اليهود يرون أن البكورية لا بأس بها، ولكن البكورية الدائمة هي بعينها وقف النماء الطبيعي، ويعتقدون أن كمال المرأة في كمال الأمومة، كما أن اسمي فضائل الرجل فضيلة الأبوة الكاملة. وكان من الواجب على كل أب أن يدخر بائنة لكل بنت من بناته ومهراً يمهر به كل ولد من أولاده عروسه حتى لا يتأخر زواج الولد والبنت تأخراً يضر بصحتها. وكانوا يشيرون بالزواج المبكر في الرابعة عشرة للبنت وفي الثامنة عشرة للولد. وكان القانون يبيح زواج البنت إذ بلغت سنها اثنتي عشرة سنة وستة أشهر وزواج الولد في الثالثة عشرة من عمره. وكان يباح للطلاب المشتغلين بدراسة الشريعة أن يؤخروا زواجهم بعض الوقت. ومن الأحبار من كانوا يقولون إن على الرجل أن يثبت دعائم مركزه الاقتصادي قبل أن يقدم على الزواج: "على الرجل أولاً أن ينشئ البيت، ثم يعرس الكريمة، ثم يتزوج"(85). ولكن هذا الرأي هو رأي الأقلية ولعله لا يتعارض مع الزواج المبكر إذا ما تكفل الأبوان بتدبير العون المالي المطلوب. وكانوا ينصحون الشباب ألا يختار زوجته لجمالها بل لصفاتها التي سوف تجعلها في المستقبل أما صالحة(86)، ويقولون "اهبط درجة في اختيار الزوجة، وأرقى درجة في اختيار الصديق"(87)، ومن يختر لنفسه زوجة من طبقة فوق طبقة يدع الناس إلى احتقاره. وأجاز التلمود، كما أجاز العهد القديم والقرآن، تعدد الزوجات، ومن أقوال أحد الأحبار في هذا المعنى: "يستطيع الرجل أن يتزوج أي عدد من النساء يشاء" ولكن فقرة ثانية في مقاله هذا تحدد عدد الزوجات بأربع، وتطلب

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

فقرة ثالثة إلى من يريد أن يتخذ له زوجة ثانية أن يطلق زوجته الأولى إذا أرادت هي الطلاق (88). ونظام تعدد الأزواج هذا تفترضه كذلك العادة القديمة التي يطالب اليهودي بمقتضاها أن يتزوج من أرملة أخيه بعد وفاته، وأكبر الظن أن منشأ هذه العادة لم يكن هو العطف والشفقة فحسب، بل كانت تقوم فوق ذلك على الرغبة في الإكثار من النسل في مجتمع ترتفع فيه نسبة الوفيات شأنه في ذلك شأن كل المجتمعات التي قامت في العصور القديمة والعصور الوسطى.

وبعد أن يسر الأبحار للرجل إشباع غريزته الجنسية على هذا النحو جعلوا الزنى من الجرائم التي يعاقب مرتكبها بالإعدام، وكان منهم من يقول مع المسيح إن "الإنسان قد يزني بعينه" (89)، ومنهم من ذهب إلى أبعد من هذا فقال: "إن من يتطلع إلى خنصر امرأة لا أكثر فد ارتكب إثماً في قلبه" (90)، ولكن رب أريكا أرقى من هؤلاء وأولئك قلباً إذ يقول: "يجد الإنسان في كتاب سيناته يوم الحشر كل شيء رآه بعينه وأبى أن يستمتع به" (91). وأبيح الطلاق برضا الطرفين، فأما الزوج (الرجل) فلا يمكن أن يطلق إلا برضاه، وأما الزوجة فيجوز للرجل أن يطلقها بغير رضاها. وطلاق الزوجة الزانية أمر واجب، كذلك يشار بطلاق الزوجة إذا ظلت عقيماً عشر سنين بعد الزواج (92). ولم تكن مدرسة شمالي تبيح طلاق المرأة إلا إذا زنت، أما مدرسة هلل فقد أباحت للرجل أن يطلق زوجته إذا وجد فيها "شئياً معيباً"، وكانت الغلبة في أيام التلمود لرأي هلل، وقد ذهب فيه عقيبا إلى حد بعيد فقال إن "في وسع الرجل أن يطلق زوجته، إذا وجد امرأة أخرى أجمل منها" (93). وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته إذا عصت أو امر الشريعة اليهودية بأن سارت أمام الناس عارية الرأس، أو غزلت الخيط في الطريق العام، أو تحدثت إلى مختلف أصناف الناس أو "إذا كانت عالية الصوت أي إذا كانت تتحدث في بيتها ويستطيع جيرانها سماع ما تقول" (94) ولم يكن عليه في هذه الأحوال

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

أن يرد إليها باننتها. ولم يكن هجر الرجل زوجته يوجب طلاقها منه (95)، وأباح بعض رجال الدين للزوجة أن تلجأ إلى المحكمة تطلب الطلاق من زوجها إذا قسا عليها، أو كان عنيناً، أو أبى أن يؤدي الواجبات الزوجية، أو لم ينفق عليها النفقة التي تليق بها (96)، أو كان مشوهاً أو نتناً (97). وكان الأبحار يحاولون تقليل الطلاق بأن يضعوا في سبيله إجراءات قانونية معقدة، ويفرضون في جميع الأحوال -إلا القليل النادر منها- استيلاء الزوجة على الباننة والمهر؛ ويقول الحاخام إلعزر Eleazar "إن المذبح نفسه ليذرف الدمع على من يطلق زوجة شبابه" (98). وجملة القول أن قوانين التلمود، بوجه عام، من وضع الرجال وأنها لذلك تحايي الذكور محابة بلغ من قوتها أن بعثت في نفوس أبحار اليهود الفزع من قوة المرأة، وهم يلومونها، كما يلومها الآباء المسيحيون، لأنها أطفأت "روح العالم"

بسبب تشوف حواء المنبعث عن ذكائها. وكانوا يرون أن المرأة "خفيفة العقل" (99)، وإن كانوا يقولون لها بأنها وهبت حكمة غريزية لا وجود لها في الرجل (100). وهم يأسفون أشد الأسف لما جبلت عليه المرأة من ثرثرة: "لقد نزلت على العالم عشرة مكابيل من الكلام؛ أخذت المرأة منها تسعة، وأخذ الرجل واحداً" (101). ونددوا بأنهماكها في السحر وما إليه من الفنون الخفية (102)، وفي الأصباغ والكحل (103). ولم يكونوا يرون بأساً في أن ينفق الرجل بسخاء على ملابس زوجته، ولكنهم كانوا يطلبون إليها أن تجمل نفسها لزوجها لا لغيره من الرجال (104). وفي القضاء-على حد قول أحد الأخبار- "تعديل شهادة مائة امرأة شهادة رجل واحد" (105)؛ وكانت حقوق النساء الملكية محددة في التلمود بالقدر الذي كانت محددة به في إنجلترا في القرن الثامن عشر؛ فمكاسبهن وما يؤول إليهن من ملك لهن حق لأزواجهن (106)، ومكان المرأة هو البيت. ويقول أحد الأخبار المتفائلين إن المرأة في "عصر المسيح الثاني ستلد

صفحة رقم : 4853

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الشريعة -> المبادئ الأخلاقية في التلمود

طفلاً في كل يوم" (107) وإن "الرجل الذي له زوجة خبيثة لن يرى وجه جهنم" (108)؛ ويقول عقيباً من جهة أخرى إنه ليس أغنى من الرجل الذي له امرأة اشتهرت بأعمالها الطيبة (109): ويقول أحد المعلمين اليهود إن "كل شيء يصدر عن المرأة" (110). وقد جاء في أحد الأمثال العبرية: "إن كل ما في البيت من نعم وبركات قد جاء إليه عن طريق الزوجة، ولهذا فإن من الواجب على زوجها أن يكرمها... وليحذر الرجال من أن يبكوا المرأة، فإن الله يعد دموعها" (111).

ولقد جمع ناشر غير معروف في أبهج جزء من أجزاء التلمود، وهو الرسالة الصغيرة المسماة برقي أبوت Pirke Aboh (الأصول السياسية)، حكم كبار الأخبار الذين عاشوا في القرنين السابقين لمولد المسيح والقرنين التاليين له. وكثيراً من هذه الأمثال يمتدح الحكمة وبعضها يعرفها ويحدد معناها! قال بن زوما: من هو الحكيم؟ هو الذي يتعلم من كل إنسان... من هو القوي؟ هو الذي يخضع ميوله (الخبيثة)... من يسيطر على روما خير ممن يستولي على مدينة. من هو الغني؟ هو الذي يسر بما قسم له... من هو الكريم؟ هو الذي يكرم بني جنسه (112)... لا تحقر إنساناً ولا تحقر شيئاً؛ فليس ثمة إنسان ليست له ساعته، وليس ثمة شيء ليس له مكانه (113)... لقد نشأت طول عمري؛ بين الحكماء، ولقد وجدت أن لا شيء أحسن للإنسان من الصمت... (114). وقد اعتاد الكوهن العزير أن يقول: مثل من تزيد أفعاله على حكمته، كمثل شجرة كثرت فروعها وقلت جذورها، إذا هبت عليها الريح اقتلعتها وألقتها على وجهها... أما من تزد حكمته على أفعاله فمثل شجرة قلت أغصانها وكثرت جذورها لو أن رياح العالم كلها هبت عليها لما زححتها من مكانها (115).

صفحة رقم : 4854

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الحياة والشريعة

ليس التلمود من التحف الفنية، ذلك بأن جمع أفكار ألف عام كاملة ووضعها في مجموعة مترابطة متناسقة عمل لا يقوى عليه حتى مائة حبر من الأحبار الصابرين. وما من شك في أن كثيراً من المقالات قد وضعت في غير موضعها من الكتاب؛ وأن عدداً من الفصول قد وضع في غير المقالات التي يجب أن يوضع فيها، وأن موضوعات تبدأ، ثم تترك، ثم تبدأ من جديد على غير قاعدة موضوعية. وليس الكتاب ثمرة تفكير بل هو التفكير نفسه، فكل الآراء المختلفة قد دونت فيه وكثيراً ما نترك النقطة المتعارضة دون أن تحل وتفسر. وكأننا قد اجتزنا خمسة عشر قرناً من الزمان لننصف إلى نقاش أشد المدارس إخلاصاً ونستمع إلى عقيبا ومبير ويهودا وهنسيا ورب في أثناء جدلهم العنيف. وإذا ما ذكرنا أننا فضوليون متطفلون، وأن هؤلاء الرجال وغيرهم قد اختطفت ألفاظهم العارضة اختطافاً من أفواههم وقذف بها في نصوص لم تكن معدة لها، ثم أرسلت تجلجل خلال القرون الطوال، إذا ذكرنا هذا استطعنا أن نغفر عما نجده في هذه الأقوال من جدل، وسفسطة، وأقاصيص غير صادقة، وتنجيم وحديث عن الجن والشياطين، وخرافات، ومعجزات، وأسرار الأعداد، وأحلام وحي، ونقاش لا آخر له يتوج نسيجاً مهلهلاً من الخيالات والأوهام، والغرور الذي يغريهم ويأسو جراحهم ويخفف عنهم آلام آمالهم الضائعة. وإذا ما اشمأزت نفوسنا من فسوة هذه القوانين، ومن دقة هذه النظم وتدخلها فيما لا يصح أن تتدخل فيه، وما يجازي به من يخرقها من شدة وبطش، فإن من واجبنا ألا تحمل هذه المسألة محمل الجد، ذلك أن اليهود لم يدعوا قط أنهم يطيعون

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الحياة والشريعة

هذه الوصايا كلها، وأن أحبارهم كانوا يغضون أبصارهم عما يجدونه في كل صفحتين من كتابهم من ثغرات بين نصائحهم التي تدعو إلى الكمال وبين ما في الطبيعة البشرية من ضعف خفي. وفي ذلك يقول أحد الأحبار الحذرين: "لو أن إسرائيل قد حرصت الحرص الواجب على سبب واحد لجاه ابن داود من فوره" (116). ولم يكن التلمود كتاب قوانين يطلب إلى اليهود إطاعتها جملة وتفصيلاً، بل كان سجلاً لآراء الأحبار، جمعه جامعوه ليهدوا به الناس إلى التقى على مهل، ولم تطع الجماهير غير المثقفة إلا قلة مختارة من الأوامر التي جاءت بها الشريعة. ويهتم التلمود اهتماماً كبيراً بالشعائر الدينية، ولكن بعض هذا الاهتمام كان رد فعل من اليهود لما بذلته الكنيسة المسيحية والدولة من محاولات لإرغامهم على التخلي عن شريعتهم. ولقد كانت هذه الشعائر سمة تميزهم، ورابطة تجمع شتاتهم وتصل بين مختلف أجيالهم، وشعاراً يتحدون بع عالمياً لا يعفو قط عنهم. وإنا لنجد في مواضع متفرقة من مجلدات التلمود العشرين كلمات حقد على المسيحية، ولكنها حقد على مسيحية نسيت رقة المسيح وظرفه، مسيحية اضطهدت المتمسكين بشريعة أمر المسيح أتباعه بالعمل بها، مسيحية يرى أحبار اليهود أنها حادت عن مبدأ التوحيد

جوهر الدين القويم وأساسه الذي لا يتبدل. وإنا لنجد بين هذه الشعائر والطقوس المعقدة، وهذا الجدل الشائك الطويل، مئات من النصائح السديدة، والبصيرة النفسانية، تتخللها في بعض الأحيان فقرات تعيد إلى الذاكرة جلال كتاب العهد القديم أو الحنان الصوفي الذي تراه في العهد الجديد. وإن ما يمتاز به اليهودي من فكاهة شاذة غريبة الأطوار لتخفف عنه عبء هذا الدرس الطويل. انظر مثلاً إلى ما يقوله أحد أبحارهم من أن موسى دخل متخفياً إلى الحجرة التي يلقي فيها عقيبا دروسه، وجلس في الصف الأخير، ودهش من

صفحة رقم : 4856

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الحياة والشريعة

كثرة القوانين التي استتبها المعلم الكبير من الشريعة الموسوية، والتي لم يحلم بها قط كاتبها (117). ولقد ظل التلمود أربعة عشر قرناً من الزمان أساس التربية اليهودية وجوهرها. وكان الشاب العبراني ينكب عليه سبع ساعات في كل يوم مدى سبع سنين، يتلوه ويثبته في ذاكرته بلسانه وعينه؛ وكان هو الذي يكون عقولهم ويشكل أخلاقهم بما تقرضه دراسته من نظام دقيق، وبما يستقر في عقولهم من معرفة، شأنه في هذا شأن كتابات كنفوشيوس التي كان يستظهرها الصينيون كما يستظهر اليهود التلمود. ولم تكن طريقة تعلمه مقصورة على تلاوته وتكراره، بل كانت تشمل فوق ذلك مناقشته بين المدرس والتلميذ، وبين التلميذ والتلميذ، وتطبيق القوانين القديمة على ما يستجد من الظروف، وقد أفادت هذه الطريقة حدة في الذهن، وتقوية للذاكرة، وتثبيتاً للمعلومات، ميزت اليهودي من غيره في كثير من الميادين التي تتطلب الوضوح، وتركيز الذهن، والمثابرة، والدقة، وإن كانت في الوقت نفسه قد عملت على تضيق أفق العقل اليهودي والحد من حريته. ولقد روض التلمود طبيعة اليهودي الثائرة المهتاجة، وكبح جماح نزعه الفردية، وبت فيه روح العفة والوفاء لأسرته وعشيرته؛ ولربما كان "نير الشريعة" عبئاً ثقيلاً على ذوي العقول السامية الكبيرة، ولكنها كانت السبب في نجاة اليهود بوجه عام. وليس من المستطاع فهم التلمود إلا إذا درس في ضوء التاريخ على أنه العامل الفعال الذي أبقى على شعب مطرود، معدم، مظلوم، يتهدهه خطر التفكك التام. ولقد فعل أبحار اليهود في تشنتهم الواسع ما فعله أنبيأؤهم للاحتفاظ بالروح اليهودية في الأسر البابلي. فقد كان لا بد لهم من أن يعيدوا إليهم عزتهم وكبريائهم، وأن يعملوا على أن يستقر بيتهم النظام، ويثبتوا في قلوبهم الإيمان، ويحافظوا على أخلاقهم القويمة، ويعيدوا إليهم سلامة العقول وصحة الأبدان اللتين حطمتها

صفحة رقم : 4857

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> التلمود -> الحياة والشريعة

المحن الطوال(118). وبفضل هذا التأديب الشاق، وغرس أصول التقاليد اليهودية في صدر اليهودي بعد اقتلاعها، عاد الاستقرار وعادت الوحدة، عن طريق التجوال في أطراف القارات والأحزان خلال القرون الطوال. ولقد كان التلمود على حد قول هيني Heine وطناً منتقلاً لليهود يحملونه معهم أينما ساروا. فحيثما وجد اليهود، حتى وهم جالية واجفة في أرض الغربة، كان في وسعهم أن يضعوا أنفسهم مرة أخرى في عالمهم، وأن يعيشوا مع أنبيائهم وأحبارهم، وذلك بأن يرووا عقولهم وقلوبهم من فيض الشريعة. فلا غرابة والحالة هذه إذا أحبوا هذا الكتاب الذي نراه نحن أكثر تنوعاً واختلافاً مما كتبه مائة كاتب من أمثال منتاني Montaigne. ولم يكفهم الاحتفاظ بالكتاب كله، بل احتفظوا بأجزاء صغيرة منه بحب يصل إلى درجة الجنون، وكانوا يتبادلون قراءة نتف من هذا المخطوط الضخم، وأنفقوا في القرون المتأخرة أموالاً طائلة لطبعه كاملاً، وبكوا حين كانت الملوك والبابوات، والمجالس النيابية تحرم تلاوته، أو تصادره، أو تحرقه؛ وابتهجوا حين رأوا روثلين Reuchlin وإرزامس Erasmus يدافعان عنه، وعدوه في أيامنا هذه أئمن ما تمتلكه معابدهم وبيوتهم، واتخذوه ملجأ وسلوى، وسجناً للروح اليهودية.

صفحة رقم : 4858

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

الباب السادس عشر

يهود العصور الوسطى

(565-1300)

الفصل الأول

المجتمعات الشرقية

كان لليهود وقتنذ شريعة ولكن لم تكن هناك دولة، كان لهم كيان، ولم يكن لهم وطن. ذلك أن أورشليم ظلت إلى عام 614 مدينة مسيحية، وإلى عام 629 فارسية، وإلى عام 637 مسيحية مرة أخرى، ثم ظلت من ذلك الوقت إلى عام 1099 حاضرة إسلامية. وفي ذلك العام الأخير حاصرها الصليبيون، وانضم اليهود إلى المسلمين في الدفاع عنها، فلما سقطت في أيدي الصليبيين سبق من بقي فيها حياً من اليهود إلى إحدى بيعهم وأحرقوا عن آخرهم(1)، ولما استولى صلاح الدين على المدينة عام 1187 أعقب ذلك ازدياد سريع في عدد اليهود، واستقبل السلطان العادل أخو صلاح الدين ثلاثمائة من أحبارهم الذي فروا من إنجلترا وفرنسا في عام 1211 استقبلاً حسناً. لكن ابن نعمان لم يجد فيها بعد خمسين عاماً من ذلك الوقت إلا حفنة صغيرة من اليهود(2)، ذلك أن سكان بيت المقدس كانوا قد أصبحوا كلهم تقريباً مسلمين. وظل اليهود كثيرون في سوريا والعراق وفارس الإسلامية رغم ما لاقوه في بعض الأحيان من الاضطهاد ورغم اعتناق عدد منهم دين الإسلام. وأضحت لهم في ربوعها حياة اقتصادية وثقافية ناشطة قوية. ولقد ظلوا في شئونهم الداخلية،

صفحة رقم : 4859

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

كما كانوا في عهد الملوك الساسانيين، يتمتعون بالحكم الذاتي تحت إشراف الإجزيلارك (رئيس اليهود في المهجر) ومديري المجامع الدينية. واعترف الخلفاء المسلمون بالإجزيلارك في كل من بلاد بابل وأرمينية، والتركستان، وفارس، واليمن، رئيساً لجميع اليهود فيها؛ ويقول بنيامين التطيلي إن جميع رعايا الخليفة كان يفرض عليهم أن "يقوموا واقفين في حضرة أمير الأسر، وأن يحيوه باحترام"(3). وكان منصب الإجزيلارك وراثياً في أسرة واحدة ترجع بنسبها إلى داود، وكان سلطانه سياسياً أكثر منه روحياً، وقد أدى ما بذله من الجهود للسيطرة على رجال الدين إلى اضمحلاله ثم إلى سقوطه، وأصبح مديروا المجامع العلمية بعد عام 762 هم الذين يختارون الإجزيلارك ويسيطرون عليه.

وكانت الكليات الدينية في سورا Snra وبمبديثا Pumbeditha تخرج الزعماء الدينيين والعقليين لليهود في بلاد الإسلام، وتخرج أمثالهم بدرجة أقل لليهود في البلاد المسيحية. وحدث في عام 658 أن أخرج الخليفة مجمع سورا العلمي من اختصاص الإجزيلارك القانوني، فلما حدث هذا اتخذ رئيس المجمع لنفسه لقب جاؤن Gaon (صاحب السعادة) وابتدأ من ذلك الحين نظام الجاؤنية، وعهد الجاؤنيم في الدين والعلم البابليين(4). ولما ازدادت موارد كلية بمبديثا وعظمت منزلتها لقربها من بغداد، اتخذ مديروها أيضاً لأنفسهم لقب جاؤن؛ وكاد اليهود في جميع أنحاء العالم فيما بين القرن السابع إلى القرن الحادي عشر يستفتون الجاؤنيم في المدينتين فيما يعرض لهم من مسائل التلمود القانونية، ونشأ لليهودية من أجوبتهم على هذه المسائل أدب قانوني جديد.

وحدث في الوقت الذي قامت فيه الجاؤنية انشقاق ديني فرق العالم اليهودي في الشرق وزلزلت له أركانه-أو لعل هذا الانشقاق نفسه هو الذي حتم قيام الجاؤنية في ذلك الوقت. ذلك أنه لما توفي الإجزيلارك سليمان، طالب ابن أخيه عنن بن داود بحقه في أن يخلفه في منصبه، ولكن زعماء سورا وبمبديثا طرحوا

صفحة رقم : 4860

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

مبدأ الوراثة وراءهم ظهرياً ونصبوا حنائياً أخوا عنن الأصغر إجزالاركا في مكانه. فما كان من عنن إلا أن طعن في الجاؤنين، وفر إلى فلسطين وأنشأ فيها كنيسة خاصة به، وطالب اليهود أينما كانوا أن ينيذوا التلمود وألا يطبعوا إلا قوانين أسفار موسى الخمسة. وكان هذا العمل من جانبه عودة إلى الوضع الذي كان عليه الصدوقيون؛ وكان شبيهاً بما ينادي به بعض الشيعة في الإسلام من نبذ "السنة" النبوية واتباع القرآن وحده، وما يطالب به البروتستانت من نبذ التقاليد الكاثوليكية والعودة إلى الأناجيل. على أن عنن لم يكتف بهذا بل أخذ يعيد النظر في أسفار موسى الخمسة ويشرحها شرحاً يعد خطوة جريئة في سبيل الدراسة النقدية لنصوص الكتاب المقدس. واحتج على ما أدخله علماء التلمود من تبديل في الشريعة الموسوية وما يحاولونه في تفسيرهم وشرحهم من توفيق بينها وبين الظروف القائمة في أيامهم، وأصر على اتباع ما جاء في الأسفار الخمسة من أوامر وتنفيذها بنصها، ولهذا سمي أتباعه بالقرائين -أي "المتمسكين بالنصوص" وامتدح عنن عيسى وقال أنه رجل صالح لم يرغب في نبذ شريعة موسى المدونة، بل كل ما كان يطلبه أن ينيذ الناس قوانين الكتبة والفريسيين الشفوية. ويرى عنن أن عيسى لم يكن يرغب في وضع دين جديد، بل كان يرغب في تطهير الدين اليهودي وتدعيمه (5). وكثر اليهود القراءون في فلسطين، ومصر، وأسبانيا، ثم نقص في القرن لثني عشر، ولم يبق منهم الآن إلا أقلية أخذت في الانقراض في تركيا وجنوبي روسيا؛ وبلاد العرب. ونبذ القراءون في القرن التاسع ما كان ينادي به عنن من تفسير حرفي لنصوص الشريعة، وقالوا إن بعث الأجسام وما جاء في الكتاب المقدس من أوصاف جسمانية لله، يجب أن تؤخذ على سبيل المجاز، ولعلمهم في قولهم هذا كانوا متأثرين بآراء المعتزلة المسلمين.

صفحة رقم : 4861

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

فلما فعلوا هذا عاد اليهود الريانيون إلى القول بأخذ عبارات التلمود بنصها، وقالوا إن ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات أمثال "يد الله" وجلوس الله. يجب أن تؤخذ بمعناها الحقيقي، بل إن بعضهم قد تغالى في هذا فقدر بالدقة مقاييس جسم الله، وطول أطرافه، ولحيته (6). ونشأت فئة قليلة من اليهود حرة التفكير منها صبي البلخي -Chivi al Balchi كانت تتادي بأن أسفار موسى الخمسة نفسها ليست شريعة واجبة الطاعة (7). في هذه البيئة التي تمتاز بالرخاء الاقتصادي، والحرية الدينية، والجدل العنيف أنجبت اليهودية أول فيلسوف يهودي ذائع الصيت في العصور الوسطى.

ولد سعديا بن يوسف في قرية من قرى الفيوم في عام 892. وشب في مصر وتزوج فيها ثم هاجر إلى فلسطين في عام 915، ثم هاجر بعدئذ إلى بابل. وما من شك في أنه كان طالباً مجداً ومعلماً قديراً، لأنه عين وهو شاب في السادسة والثلاثين من عمره جاؤنا أي مديراً لكلية سورا. وشاهد ما أدخله القراءون والمتشككة من بدع في الدين اليهودي القديم، فألى على نفسه أن يفعل لهذا الدين ما فعله المتكلمون في الدين الإسلامي فبين أن هذا الدين القديم يتفق كل الاتفاق مع العق والتاريخ. وأخرج سعديا في حياته القصيرة التي لم تتجاوز خمسين عاماً مقداراً ضخماً من المؤلفات معظمها -لا يماثلها في سجل التفكير اليهودي في العصور الوسطى إلى مؤلفات ابن ميمون. ومن هذه المؤلفات "الأجرون" وهو معجم آرامي للغة العبرية يعد أساساً للفلسفة العبرية؛ ومنها "كتاب اللغة" وهو أقدم ما

عرف من كتب في نحو اللغة العبرية. وقد ظلت ترجمته العربية للعهد القديم إلى يومنا هذا الترجمة التي يستخدمها جميع اليهود الذين يتكلمون اللغة العربية، وإن شروحه لأسفار الكتاب المقدس "التكاد تجعله" أعظم شارح للكتاب المقدس في جميع العصور (8)؛ ويعد "كتاب الأمانات والاعتقادات" (933) أعظم رد في الدين اليهودي على الخارجين على هذا الدين.

صفحة رقم : 4862

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

ويؤمن سعديا بالوحي والتواتر معاً أي بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، ولكنه يؤمن أيضاً بالعقل، ويطالب بأن يثبت استناداً إلى العقل صدق الوحي والتواتر. فإذا ما تعارضت نصوص الكتاب المقدس تعارضاً صريحاً مع حكم العقل، فلنا أن نفترض أن النص المتعارض لا يقصد به أن تأخذ العقول الناضجة بحرفيته. كذلك يجب أن تؤخذ أوصاف الله الجسمانية على أنها مجاز لا حقيقية؛ ذلك أن الله ليس إنساناً يتصف بما يتصف به البشر ويدل نظام العالم وقوانينه على وجود خالق عاقل مدبر. وليس من العقل في شيء أن يظن أن الله العاقل المدبر يعجز عن أن يثيب على الفضيلة، ولكن الفضيلة، كما هو واضح، لا يثاب عليها دائماً في هذه الحياة؛ ومن ثم لا بد أن تكون هناك حياة أخرى تعوض ما يبدو في هذه الحياة الدنيا من ظلم ظاهري؛ ولعل آلام الصالحين في هذه الدنيا ليست إلا عقاباً لبعض ما ارتكبه من ذنوب حتى يدخلوا الجنة من فورهم بعد موتهم، كما أن ما يظفر به الأشرار من نعم إنما هو مثوبة على أعمالهم الصالحة العارضة، حتى... ولكن الناس كلهم حتى الذين يقومون بأحسن الأعمال الصالحة في هذا العالم وينالون فيه أعظم الخير والسعادة يحسون في أعماق قلوبهم أن ثمة حالاً خيراً من حالهم هذه الواسعة الآمال القليلة الممتعة، وكيف يجوز لله الذي اقتضت حكمته العظيمة خلق هذا العالم العجيب أن يبعث هذه الآمال في النفس إذا لم يشأ أن تتحقق؟ (9)، ولقد تأثر سعديا إلى حد ما بفقهاء الإسلام وسار على نهجهم في الشرح والإيضاح، بل إن استعار منهم في بعض الأحيان أساليب الجدل والنقاش. وقد انتشرت آراؤه في جميع أنحاء العالم اليهودية وتأثر بها ابن ميمون، وهل أدل على هذا من قول ابن ميمون: "الولا سعديا لكادت الثورة أن تختفي من الوجود" (10). وهنا يجب أن نقر بأن سعدياً كان رجلاً فظاً إلى حد ما، وأن نزاعه مع الإجازيلارك داود بن زكاي قد أضر بيهود بابل. وكانت نتيجة هذا النزاع أن

صفحة رقم : 4863

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

أعلن داود في عام 930 حرمان سعديا، وأن أعلن سعديا حرمان داود. ولما مات داود في عام 940 نصَّب سعديا إجازيلاركاً جديداً، ولكن المسلمين قتلوا هذا الإجازيلارك لأنه طعن في النبي محمد. فما كان من سعديا إلا أن عين ابن

القتيل خلفاً، وقتل هذا الشاب أيضاً؛ وحينئذ قرر اليهود بعد أن فت في عضدهم على هذا النحو أن يبقوا هذا المنصب شاغراً، وبذلك انتهى عهد الإجزيلاركية البابلية الذي دام سبعة قرون. وكان تفكك الخلافة العباسية في بغداد وقيام دوق إسلامية مستقلة في مصر، وشمال أفريقيا، وأسبانيا سبباً في ضعف الروابط بين يهود أسية وأفريقية وأوربا وأصيب يهود بابل بما أصيب به الإسلام في الشرق من ضعف اقتصادي بعد القرن العاشر الميلادي، فأغلقت كلية سورا أبوابها في عام 1034 وحذت حذوها بمبديتها بعد أربع سنين، وانتهى عهد الجاونية في عام 1040؛ وزادت الحروب الصليبية الهوة بين يهود بابل ويهود مصر، وأوربا، ولما خرب المغول بغداد في عام 1228 كادت الجالية اليهودية البابلية أن تختفي من صفحات التاريخ.

وكان كثيرون من يهود الشرق قد هاجروا قبل هذه الكوارث إلى أقاصي أسية الشرقية، وبلاد العرب، ومصر، وشمال أفريقيا وأوربا؛ فكان في سيلان 23.000 عبراني في عام 1165 (11)، وبقية في بلاد العرب عدة جاليات يهودية بعد أيام النبي؛ ولما فتح عمرو بن العاص مصر في عام 641 كتب إلى الخليفة يقول إن في الإسكندرية أربعة آلاف من اليهود "أهل الذمة". ولما اتسعت مدينة القاهرة ازداد عدد من فيها من اليهود أصحاب العقيدة القديمة والقرائن. وكان يهود مصر يستمتعون بالحكم الذاتي في شئونهم الداخلية بزعامة النجيد أو أمير اليهود، وازدادت ثروتهم من الأعمال التجارية وارتفعوا إلى المناصب العالية في حكومات الدول الإسلامية (12). وتقول إحدى الروايات إن أربعة من أحبار اليهود أبحروا على ظهر إحدى السفن من باري Bari في إيطاليا، ولكن

صفحة رقم : 4864

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> المجتمعات الشرقية

أحد أمراء البحر الأندلسيين المسلمين أسر سفينتهم وباعهم بيع الرقيق، فبيع الحبر موسى وابنه حنوخ في قرطبة، وبيع سحرية في الإسكندرية، وبيع الحبر هو سيل في القيروان. ثم اعتنق كل واحد من هؤلاء الأبحار، كما تقول الرواية، وأنشأ في المدينة التي بيع فيها مجمعاً علمياً. والشائع على الألسنة، وإن لم يكن هذا مؤكداً، أنهم كانوا من علماء سورا؛ وأياً كانت فقد نقلوا العلم من يهود الشرق إلى الغرب؛ وبينما كانت اليهودية في أسية آخذة في الضعف بدأت أيام عزها وسعادتها في مصر وأسبانيا.

صفحة رقم : 4865

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

الفصل الثاني

الجماعات اليهودية في أوروبا

اتخذ اليهود طريقهم إلى بلاد روسيا في العصور الوسطى من بابل وفارس مجتازين ما وراء جيحون والقوقاز، وإلى ساحل البحر الأسود من أسية الصغرى مجتازين القسطنطينية. وظل اليهود في تلك العاصمة يستمتعون بالرخاء النكد من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر. وكان في بلاد اليونان جماعات يهودية كبيرة وبخاصة في طيبة حيث كانت لمنسوجاتهم الحريرية شهرة عظيمة. وهاجر اليهود شمالاً إلى بلاد البلقان مجتازين تساليا وتراقية ومقدونية، ثم ساروا بمحاذاة نهر الدانوب إلى بلاد المجر. وجاءت حفنة من التجار العبرانيين من ألمانيا إلى بولندا في القرن العاشر لأن اليهود كانوا في ألمانيا من قبل ميلاد المسيح. فكان في متر Metz، واسبير Speyer، ومينز Mainz، وورمز Worms، واستراسبورج Strassbourg، وفرنكفورت Fraankfort، وكولوني جاليات يهودية كبيرة في القرن التاسع، وإن كانت هذه الجاليات قد شغلته التجارة وما تستلزمه من كثرة الترحال فلم يكن لها شأن كبير في تاريخ اليهود الثقافي. ومع هذا فقد أنشأ جرشوم بن يهودا (960-1027) مجمعاً علمياً للأحبار في مينز وكتب بالعبرانية شرحاً للتلمود، وبلغ من سلطانه أن كان يهود ألمانيا يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل في شريعة التلمود بدل أن يستفتوا في ذلك جاونيم بابل.

وكان في إنجلترا يهود في عام 691(13)، وجاء إليهم عدد آخر كبير منهم مع وليم الفاتح Willam the Conqnelor، وبسط عليهم النورمان الفاتحون في أول الأمر حمايتهم لما كانوا يمدونهم به من رؤوس الأموال وما كانوا يقومون به من

صفحة رقم : 4866

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

جباية الإيراد. وكانت جماعاتهم المقيمة في لندن، وتورنتش Norwch، ويورك، وغيرها من المراكز الإنجليزية خارجة عن اختصاص ولاية الأمور المحليين في شئونها القانونية، فكانت لا تخضع إلا للملوك أنفسهم. ووسعت هذه العزلة القضائية الهوة بين المسيحيين واليهود، وكانت سبباً من أسباب المذابح المدبرة التي حدثت في القرن الثاني عشر.

وكان في غالة تجار يهود من عهد يوليوس قيصر، وقبل أن يحل عام 600 بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة؛ واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية، وأمرهم كلبريك Chilperic أن يعتنقوا الدين المسيحي على بكرة أبيهم وإلا فقا أعينهم (581)(14)، أما شارلمان فإنه بسط عليهم حمايته لأنه وجد فيهم زراعاً، وصناعاً، وأطباء، ورجال مال نافعين، واختار يهودياً ليكون طبيبه الخاص، وإن كان قد أبقى على القوانين التي تحرم اليهود من بعض الحقوق التي يتمتع بها غيرهم. وتقول إحدى الروايات المشكوك في صحتها أنه استقدم في عام 787 أسرة فلونيموس Kalonymos من لكا Lucea إلى مينز ليشجع الدراسات اليهودية في دول الفرنجة، ثم أرسل في عام 797 يهودياً مترجماً أو مفسراً مع بعثة سياسية إلى هارون الرشيد. وكان لويس النقي Lewis the Pieus يميل إلى اليهود لعملهم في تنشيط التجارة؛ وعين موظفاً خاصاً للدفاع عن حقوقهم، واستمتع اليهود في فرنسا

في القرنين التاسع والعاشر بقدر من الرخاء والطمأنينة لم يستمتعوا به بعدئذ قبل أيام الثورة الفرنسية؛ وذلك رغم ما كان يذاع ضدهم من الأقاصيص، وما يفرض عليهم من القيود الرومانية، وما يصيبهم أحياناً من الاضطهاد القليل (15) وكانت في إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها جاليات يهودية منتشرة من تراني Trani إلى البندقية وميلان، وكان اليهود كثيرون في بدوا بنوع خاص، ولعلمهم كان لهم أثر في نشر فلسفة ابن رشد في جامعتها. وكان في سالرنو Salerno، حيث أنشئت في البلاد المسيحية اللاتينية أولى مدارس الطب في

صفحة رقم : 4867

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

العصور الوسطى، ستمائة يهودي(16). ومنهم عدد من مشهوري الأطباء، وكان في بلاد فردريك الثاني في فوجيا Foggia طائفة من العلماء اليهود، وعين البابا الكسندر الثالث (1159-1181) عدداً من اليهود في المناصب الكبرى في بيته(17)، ولكن فردريك اشترك مع البابا جريجوري التاسع في اتخاذ إجراءات ظالمة ضد يهود إيطاليا. وكان يهود أسبانيا يلقبون أنفسهم سفرديم Sephardim، ويرجعون بأصولهم إلى قبيلة يهودا الملكية؛ ولما اعتنق الملك ريكارد Recared الدين المسيحي الأصلي، انضمت حكومة القوط الغربيين إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة الأسبانية في مضايقة اليهود وتنغيص حياتهم عليهم، فحرمت عليهم المناصب العامة، ومنعوا بالزواج من المسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحيين. وأمر الملك سيزبوت Sisebut جميع اليهود أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد (613)، وألغى الملك الذي خلفه على العرش هذا الأمر، ولكن مجلس طليطلة الذي عقد في عام 633 أصدر قراراً ينص على أن اليهود الذين عمدوا ثم عادوا إلى الدين اليهودي يجب أن يفصلوا عن أبنائهم، وأن يباعوا أرقاء. وأعاد الملك شنتيلا Chtntla العمل بمرسوم سيزبوت (635)؛ وحرّم الملك إجيكا Egica على اليهود امتلاك الأراضي كما حرم على عمل مالي وتجاري بين أي مسيحي ويهودي (693). وكانت نتيجة هذا أن ساعد اليهود العرب حين جاءوا أسبانيا فاتحين في كل خطوة من خطوات الفتح.

صفحة رقم : 4868

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

وأراد الفاتحون أن يعمروا البلاد فدعوا إلى الهجرة إليها، وقدم إليها فيمن قدم خمسون ألف يهودي من آسية وأفريقية(18)، وكاد سكان بعض المدن مثل أليسانة أن يكونوا كلهم من اليهود. ولما أن تحرر اليهود في أسبانيا الإسلامية من القيود المفروضة على نشاطهم الاقتصادي انتشروا في جميع ميادين الزراعة، والصناعة، والمال،

والمناصب العامة، ولبسوا ثياب العرب، وتكلموا بلغتهم، واتبعوا عاداتهم، فلبسوا العمامة والأثواب الحريرية الفضفاضة، وركبوا العربات حتى أصبح من العسير تمييزهم من بني عمومتهم الساميين. واستخدم عدد من اليهود أطباء في بلاط الخلفاء والأمراء وعين أحد هؤلاء الأطباء مستشاراً لأعظم خليفة من خلفاء قرطبة. فقد كان حسداي بن شبروط (915-970) بالنسبة لعبد الرحمن الثالث ما كانه نظام الملك في القرن التالي لملك شاه. وقد ولد حسداي في أسرة ابن عزرا المثرية المثقفة؛ وعلمه أبوه اللغات العبرية، والعربية، واللاتينية، ودرس الطب، وغيره من العلوم في قرطبة، وداوى الخليفة من أمراضه، وأظهر من واسع المعرفة وعظيم الحكمة في الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه في الهيئة الدبلوماسية للدولة، ولما يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره كما يلوح. ثم عهدت إليه تباغاً أعمال أخرى ذات تبعات متزايدة في حياة الدولة المالية والتجارية. على أنه لم يكن له لقب رسمي لأن الخليفة تردد في منحه رسمياً لقب وزير خشية أن يثير عليه النفوس. ولكن حسداي قام بمهام منصبه الكثيرة بكياسة أكسبته محبة العرب، واليهود، والمسيحيين على السواء، وقد شجع العلوم والآداب، ومنح الطلاب الهبات المالية والكتب بلا ثمن، وجمع حوله ندوة من الشعراء، والعلماء، والفلاسفة، فلما مات تنافس المسلمون واليهود في تكريم ذكراه.

صفحة رقم : 4869

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

وكان ثمة رجال غيره في أنحاء أخرى من أسبانيا الإسلامية وإن لم يبلغوا ما بلغه. ففي أشبيلية دعا المعتمد إلى بلاطه إسحق بن برونك العالم والفلكي، ومنحه لقب أمير، وجعله حاخاماً أكبر لكل المجامع اليهودية فيها (19)؛ وفي غرناطة نافس شمويل هلوي ابن نجدلا Samuel Nalevi idn Naghdela حسداي ابن شبروط في سلطانه وحكمته وفاقه في عمله. وقد ولد شمويل في قرطبة عام 993 ونشأ فيها، وجمع بين دراسة التلمود والأدب العربي، وجمع بين هذين وبين الاتجار في التوابل. ولما أن سقطت قرطبة في أيدي البربر، انتقل إلى مالقة، وفيها زاد دخله القليل بكتابة العروض إلى ملك غرناطة. وأعجب وزير الملك بما كانت عليه هذه العروض من جمال الخط وحسب الأسلوب فزار شمويل، وصحبته إلى غرناطة، وأسكنه في قصر الحمراء، وجعله أمين سره. وما لبث شمويل أن أصبح أيضاً مستشاره، وكان مما قاله الوزير نفسه أنه إذا أشار شمويل بشيء فإن صوت الله يسمع فيما يشير به (20). وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه شمويل، وبذلك أصبح شمويل في عام 1027 اليهودي الوحيد الذي شغل منصب وزير في دولة إسلامية وحظي بهذا اللقب. ومما يسر هذا الأمر في غرناطة أكثر منه في أي بلد آخر أن نصف سكان هذه المدينة في القرن الحادي عشر كانوا يهوداً (20). وسرعان ما رحب العرب بهذا الاختيار، لأن الدولة الصغيرة ازدهرت في عهد شمويل من النواحي المالية، والسياسية، والثقافية. وكان هو نفسه عالماً، وشاعراً، وناطقة في الفلك، والرياضة، واللغات، يعرف سبعا منها، وقد ألف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة، ومقدمة للتلمود، ومجموعة من الأدب العبري. وكان يقسم ماله مع غيره من الشعراء، وأنجد الشاعر والفيلسوف ابن جبيرول، وأمد بالمال طائفة من شباب الطلاب، وأعان الجماعات اليهودية في قارات ثلاث وكان وهو وزير الملك حاخاماً لليهود يحاضر عن التلمود. ولقبه بنو ملته -اعترافاً منهم

صفحة رقم : 4870

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

بفضله بالنجيد-الأمير (في إسرائيل). ولما توفي عام 1055 خلفه في الوزارة، والنجادة ابنه يوسف بن نجدلا. وكانت هذه القرون الثلاثة-العاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، هي العصر الذهبي ليهود أسبانيا، وأسعد عصور التاريخ العبري الوسيط، وأعظمها ثمرة. ولما أن افتدى موسى بن شنوك (المتوفي عام 975 وأحد المهاجرين من باري) من الأسر في قرطبة، أنشأ فيها بمجموعة حسداي مجمعا علمياً، ما لبث أن أصبحت له الزعامة الفعلية على يهود العالم كله. وافتتحت مجامع مثله في أليسانة، وطليطلة، وبرشلونة، وغرناطة...، وبينما كانت المدارس اليهودية في الشرق تقصر نشاطها على التعليم الديني، كانت هذه المدارس الأسبانية تعلم فيما تعلمه الأدب. والموسيقى، والرياضيات، والهيئة، والطب، والفلسفة(21). وبفضل هذا التعليم نالت الطبقات العليا من يهود أسبانيا في ذلك الوقت سعة وعمقا في الثقافة والظرف لم ينلها إلا معاصروهم من المسلمين، والبيزنطيين، والصينيين. وكان مما يسربل الرجل المؤثر أو صاحبت المركز السياسي بالعار ألا يلم بالتاريخ، والعلوم الطبيعية، والفلسفة، والشعر(22). ونشأت في ذلك الوقت أرسنقراطية يهودية تزدان بما فيها من النساء الحسان، ولعلها قد أفرطت في الاعتداء بتفوقها على غيرها، ولكن كان يقابل هذا الاعتداد ويخفف من وقعه اعتقادها أن شرف المحتد وكثرة الثراء يفرضان على صاحبيهما واجبات من السخاء والفضل.

ويمكننا أن نؤرخ بداية تدهور يهود أسبانيا من سقوط يوسف بن نجدلا. ذلك أنه كان يخدم الملك بكفاية لا تكاد تقل عن كفاية أبيه، ولكنه لم يكن له كما كان لأبيه من تواضع وكياسة جعلتا سكان البلاد-ونصفهم من المسلمين الأندلسيين- يرتضون أن يتولى أمورهم يهودي. من ذلك أنه جمع السلطة كلها في يده، وتشبه بالملك في لباسه، وسخر من القرآن، وتحدث الناس بأنه لا يؤمن

صفحة رقم : 4871

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

بالله. ولهذا ثار العرب والبربر في عام 1066 وصلبوا يوسف، وذبحوا أربعة آلاف من يهود غرناطة، ونهبوا بيوتهم، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد. وجاء المرابطون من أفريقية بعد عشرين عاماً من ذلك الوقت متأججة صدورهم بالحماسة الدينية و متمسكين بأصول السنة، وانتهى بقدمهم عصر أسبانيا الإسلامية الزاهر الطويل الأمد. ونادى أحد رجال الدين من المسلمين أن اليهود قد وعدوا النبي بأن يعتنقوا الإسلام بعد خمسمائة عام من الهجرة، إذا لم يظهر في ذلك الوقت مسيحيهم المنقذ المنتظر، وأن هذه الأعوام الخمسمائة تنتهي بالحساب الهجري في عام 1107، وطلب الأمير يوسف إلى جميع يهود أسبانيا أن يعتنقوا الإسلام، ولكنه أعفاهم من هذا الأمر حين أدوا لبيت المال مبالغ طائلة(23). ولما خلف الموحدون المرابطين في حكم مراكش وبلاد لندلس الإسلامية (1148)، خيروا اليهود والمسيحيين كما خير الملك سيزبوت اليهود قبل خمسمائة وخمسة وثلاثين عاماً من ذلك الوقت بين

الارتداد عن دينهم أو الخروج من البلاد. وتظاهر الكثيرون من اليهود باعتناق الإسلام، وهاجر كثيرون منهم مع المسيحيين إلى شمالي أسبانيا. وهنا وجد اليهود في بادئ الأمر من التسامح العظيم ما لا يقل جلالاً عما ظلموا بلقونه مدى أربعة قرون تحت حكم المسلمين. وأحسن الفنسو السادس والسابع ملكاً قشتالة (الأذفونش) معاملة اليهود، وجعلهم هم والمسيحيين سواء أمام القانون، ولما قامت حركة مناهضة للسامية (1107) في طليطلة، حيث كان 72.000 يهودي، قمعها بصرامة (24). وحدث أرغونة مثل هذا التآلف بين الديانتين، الأم والابنة، وبلغ من هذا التآلف أن دعا الملك جيمس الأول اليهود أن ستوطنوا ميورقة، وقطلونية، وبلنسية، وكثيراً ما كان يمنح المستوطنين اليهود بيوتاً وأرضين من غير ثمن (25). وكانت لهم في برشلونة السيطرة على التجارة في القرن الثاني عشر، كما كان لهم نصف أراضيها الزراعية (26). نعم إن يهود

صفحة رقم : 4872

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

أسبانيا قد فرضت عليهم ضرائب باهظة، ولكنهم مع ذلك أثروا، واستمتعوا فيها بالاستقلال في شئونهم الداخلية. وكانت التجارة تتبادل بحرية بين المسيحيين واليهود والمسلمين الأندلسيين، وكان بنو الأديان الثلاثة يتبادلون الهدايا في الأعياد، وكان بعض الملوك من إلى حين يشترك بالمال في بناء المعابد اليهودية (27)، وكان في وسع الإنسان أن يجد بين عامي 1085 و1492 يهوداً يشغلون المناصب الكبرى في دول أسبانيا المسيحية منهم القائمون على شئون المال ومنهم الدبلوماسيين، ومنهم الوزراء أحياناً (28). واشترك رجال الدين المسيحيون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في هذه الألفة المسيحية (29). وكانت بداية عدم التسامح الديني بين اليهود أنفسهم. ذلك أن يهودا ابن عزرا المتولي شئون قصر الفنسو السابع ملك ليون وقشتالة وجه في عام 1149 قوة حكومة ملكية ضد اليهود القرائين في طليطلة. ولسنا نعرف تفاصيل ما حدث وقتئذ، ولكن اليهود القرائين الأسبان الذي كانوا إلى ذلك الحين طائفة كبيرة لم يعد يسمع لهم خبر (30). ودخل بعض الصليبيين أسبانيا في عام 1212 ليساعدوا أهلها على طرد المسلمين منها، وكانوا في أغلب الأحوال يحسنون معاملة اليهود؛ ولما أن اعتدت طائفة منهم على يهود طليطلة وقتلت كثيرين منهم، هب أهل المدينة المسيحيون للدفاع عن مواطنيهم، ووضعوا حداً لاضطهادهم (31)؛ وأدخل الفنسو العاشر ملك قشتالة بعض المواد المجحفة باليهود في قانونه الصادر عام 1265، ولكن هذا القانون لم يطبق حتى عام 1348، وكان ألفنسو في ذلك الوقت يستخدم طبيبياً وخازناً لبيت المال يهودياً، واهدى إلى يهود إشبيلية ثلاثة من مساجد المسلمين ليجعلوها معابد لهم (32). واستمتع بما خلعه العلماء اليهود والمسلمون على حكمه اللطيف من مجد. ولما احتاجت مغامرات بدرو الثالث Pedro ملك أرغونة إلى فرض الضرائب الفادحة على رعاياه، كان وزير ماليته وعدد آخر من موظفيه يهوداً، ولما ثار أعيان البلاد ومدنها على الملكية، اضطرت الملك

صفحة رقم : 4873

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الجماعات اليهودية في أوروبا

إلى إقصاء أعوانه اليهود عن مناصب الدولة، وتوقيع قرار أصدره مجلس الكورتير (Cortes 1283) بألا يعين بعد ذلك الوقت أي يهودي في المناصب الحكومية.
وكانت خاتمة عهد التسامح الديني حين أصدر مجلس زمورا Zmora الديني (1313) قراراً بأن يلبس اليهود شارة تميزهم من غيرهم، وألا يختلط اليهود بالمسيحيين، ويحرم على المسيحيين استخدام أطباء من اليهود وعلى اليهود أن يكون لهم خدم مسيحيون(33).

صفحة رقم : 4874

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الحكومة

الفصل الثالث

الحياة اليهودية في البلاد المسيحية

1- الحكومة

لم تحتم المدن المسيحية في العصور الوسطى-إذا استثنينا بالرم وقليلاً من المدن الأسبانية-أن يعيش من فيها من اليهود منعزلين عن سائر السكان. لكن اليهود كانوا في العادة يعيشون في عزلة اختيارية عن غيرهم من الأهليين لتيسر لهم هذه العزلة حياتهم الاجتماعية وسلامتهم الجسمية ووحدهم الدينية. وكان كنيسهم مركز الحي اليهودي الجغرافي، والاجتماعي، والاقتصادي، يجتذب إليه معظم مساكن اليهود، ولهذا ازدحمت المساكن حوله ازدحاماً كبيراً، وأضر ذلك الازدحام بالصحة العامة والخاصة. وكانت الأحياء اليهودية في أسبانيا تحتوي على مساكن جميلة وعمارات كما تحتوي على أكواخ قذرة، أما في غيرها من بلاد أوروبا فكادت المساكن أن تكون أحياء قذرة وبيئة مزدحمة بالسكان(34).

وكانت الجماعات اليهودية طوائف منعزلة شبيهة ديمقراطية وسط عالم ملكي مطلق، إذا استثنينا من هذا التعميم ما للثراء من أثر في الانتخابات وفي الاختيار للوظائف في جميع أنحاء العالم. وكان دافعوا الضرائب من الجماعات اليهودية يختارون أحرار الكنيس وموظفيه. وكانت فئة قليلة العدد من الكبار المنتخبين تكون بيت الدين أو المحكمة الشعبية، وهذه المحكمة هي التي كانت تجبي الضرائب، وتحدد الأثمان، وتتولى القضاء، وتصدره القرارات الخاصة بالطعام، والرقص، والأخلاق، والملبس، ولم تكن هذه القرارات تطاع على الدوام. وكان من حقها

صفحة رقم : 4875

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الحكومة

أن تحاكم من يعتدون على القانون اليهودي من اليهود أنفسهم، وكان لها موظفون ينفذون أوامرها، وكانت العقوبات التي توقعها تختلف من الغرامات إلى الحرمان الديني أو التقى، وقلما كان الحكم بالإعدام من اختصاص بيت الدين أو كان من العقوبات التي توقعها، وكانت المحكمة اليهودية تستعيز عن هذا الإعدام بالحرمان التام؛ يصدر في احتفال فخم مرعب توجه فيه التهم، وتصيب فيه اللعنات، وتطفأ فيه الشموع واحدة بعد واحدة رمزاً إلى موت المجرم الروحي. وكان اليهود يسرفون في استخدام الحرمان، كما كان يفرط فيه المسيحيون، ولهذا فقدت هذه العقوبة ما كان لها من رهبة وتأثير. وكان رؤساء اليهود الدينيين كما كان رؤساء الكنيسة المسيحيون يضطهدون الملاحدة، ويحرمونهم من حماية القانون، ويحرقون كتبهم في حالات نادرة (35). ولم تكن الجماعات اليهودية في الأحوال العادية خاضعة للسلطات المحلية وكان سيدها الوحيد هو الملك، تؤدي إليه الماء بسخاء لتبتاع منه الميثاق الذي يحمي حقوقها الدينية والاقتصادية؛ وكان فيما بعد تؤدي المال إلى الحكومات المحلية المحررة لتؤيد استقلال اليهود الذاتي بشؤونهم الداخلية. إلا أن اليهود مع ذلك، كانوا يخضعون لقوانين الدولة، وجعلوا طاعة هذه القوانين مبدأ من مبادئهم الواجبة الطاعة، وقد ورد في التلمود أن "قانون البلد شريعة" (36)، وتقول إحدى فقراته: "صلوا لسلامة الحكومة، فلولا خوف الناس منها لابتلع بعضهم بعضاً" (37). وكانت الدولة تجبي من اليهود "الفرضة" أو ضريبة الرعوس، وعوائد الأملاك، وكانت تصل أحياناً إلى 33% من قيمتها، وضرائب على اللحم، والخمور، والحلي، والواردات، والصادرات، فضلاً عن التبرعات "الاختيارية" للمساعدة على تمويل الحروب، أو تنويع الملوك، أو "مقدمهم" أو رحلاتهم. وكان اليهود الإنجليز البالغ عددهم في القرن الثاني عشر 1% في المائة من السكان

صفحة رقم : 4876

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الحكومة

يؤدون للدولة 8% من الضرائب العامة. وقد أدوا هم ربع ما جمع من المال لحرب رتشارد الأول الصليبية، وأدوا فيما بينهم 5000 مارك ليفتدوه من أسر الألمان وهو ثلاثة أمثال ما أدته مدينة لندن (38). كذلك كانت الهيئات اليهودية تفرض ضرائب أخرى على اليهود، كما كان يطلب إليهم من حين إلى حين صدقات وإعانات للتعليم ولمساعد اليهود المضطهدين في فلسطين. وكان الملك في أي وقت من الأوقات يصادر أملاك "يهوده" بعضها أو كلها لسبب أو لغير سبب؛ ونقول يهوده لأنهم كانوا جميعاً بمقتضى قانون الإقطاع "رجال" الملك. وكان الملك إذا مات ينتهي العهد الذي قطعه بحماية اليهود، ولم يكن من خلفه على العرش يرضى بأن يجدد العهد إلا إذا قدم إليه قدر كبير من المال، قد يبلغ في بعض الأحيان ثلث جميع ما يمتلكه اليهود في الدولة (39). من ذلك ما فعله ألبرخت الثالث Albrecht III مارجراف براندبرج Margrave of Brander burg في عام 1463 إذ أعلن أن كل ملك ألماني جديد "يجوز له، عملاً بالسنة القديمة، إما أن يحرق جميع اليهود، أو يظهر لهم رحمته، فينقذ حياتهم، ويأخذ ثلث أملاكهم" (40) ولقد لخص براكتن Bracton كبير المشترعين اليهود في القرن الثالث عشر هذه النقطة بعبارة موجزة فقال: "ليس من حق اليهودي أن يكون له ملك خاص، لأن ما يحصل عليه أيأ كان نوعه لا يحصل عليه لنفسه بل للملك" (41).

صفحة رقم : 4877

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

2- الشؤون الاقتصادية

وكانت هناك فضلاً عن هذه المتاعب السياسية قيود اقتصادية. نعم إن اليهود لم يكونوا يمنعون بحكم القانون من تملك العقار، ولم يكونوا يمنعون من تملكه بوجه عام، وقد كانوا في أوقات مختلفة في العصور الوسطى يمتلكون أراضي واسعة في بلاد الأندلس الإسلامية وأسبانيا المسيحية، وفي صقلية، وسيليزيا، وبولندا،

صفحة رقم : 4878

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

وإنجلترا، وفرنسا(42)؛ ولكن ظروف الحياة جعلت هذا التملك أمراً غير ميسر من الوجهة العلمية يزداد صعوبة على مر الأيام. ذلك أن اليهودي، وقد حرمت عليه الشريعة المسيحية أن يستأجر أرقاء مسيحيين، وحرمت عليه الشريعة اليهودية أن يستأجر أرقاء من اليهود، لم يكن أمامه إلا أن يفلح أرضه باستئجار عمال أحرار يصعب الحصول عليهم ويتطلب الاحتفاظ بهم نفقات طائلة. يضاف إلى هذا أن الشريعة اليهودية تحرم على اليهودي أن يعمل في يوم السبت، وأن الشريعة المسيحية كانت عادة تمنعه عن العمل في يوم الأحد، وكان هذا التعطل عقبة كبيرة في سبيله؛ وكانت العادات أو القوانين الإقطاعية تجعل من المستحيل على اليهودي أن يكون له منزلة في النظام الاقتصادي لأن هذه المنزلة تتطلب منه أن يقسم يمين الولاء للمسيحية، وأن يقوم بالخدمة العسكرية، مع أن شرائع الدول المسيحية كلها تقريباً تحرم على اليهود حمل السلاح(43). ولما حكم القوط الغربيون أسبانيا ألغى الملك سيزبوت جميع ما منحه أسلافه من الأرض لليهود، "وأمم" الملك إيجيكا جميع أملاك اليهود التي كانت ملكاً للمسيحيين في أي وقت من الأوقات، وفي تمام 1293 حرم مجلس الكورتيز في بلد الوليد بيع الأراضي لليهود؛ وفوق هذا كله فإن ما كان يتعرض له اليهود في كل وقت من الأوقات من احتمال طردهم من البلاد، أو مهاجمتهم، قد أقنعهم بعد القرن التاسع أن يتجنبوا امتلاك الأرضين أو العيش في الريف. كل هذه الصعاب ثبّطت همة اليهود في الاشتغال بالزراعة ومالت بهم إلى حياة الحضر، وإلى العمل في الصناعة والتجارة والشئون المالية.

ونشط اليهود في الشرق الأدنى وجنوبي أوروبا في الصناعة، والحق أن اليهود كانوا في معظم الأحوال هم الذين أدخلوا الفن الصناعي الراقي من بلاد الإسلام إلى بيزنطية وإلى البلاد الغربية، ولقد وجد بنيامين التطيلي Beniamin of Tudela مئات من صانعي الزجاج في إنطاكية، وصور؛ واشتهر اليهود في مصر وبلاد

صفحة رقم : 4879

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشئون الاقتصادية

اليونان بجمال منسوجاتهم المصبوغة والمطرزة وتفوقها على سائر المنسوجات من نوعها، وكان فردريك الثاني في القرن الثالث عشر لا بعد يستقدم إلى بلاده الصناع اليهود ليشرّفوا على صناعة نسيج الحرير التابعة للدولة في صقلية. وكان اليهود في تلك الجزيرة وفي غيرها من البلاد يشتغلون في الصناعات المعدنية وبخاصة في الصباغة وصناعة الحلي، وظلوا يعملون في مناجم القصدير في كورونوول إلى عام 1290(44). وانتظم الصناع العبرانيون في أوروبا الجنوبية في طوائف للحرف قوية، وكانوا ينافسون الصناع المسيحيين منافسة شديدة، أما في أوروبا الشمالية فقد احتكرت طوائف أرباب الحرف المسيحية كثيراً من الصناعات؛ وأخذت الدول المختلفة واحدة في إثر واحدة تحرم على اليهود الاشتغال حدادين، ونجارين، وخياطين، وحدائين، وطحانين، وخبازين، وأطباء؛ كما حرمت عليهم بيع الخمر، والدقيق، والزبد، والزيت في الأسواق(45)، وابتاع مساكن لأنفسهم في أي مكان خارج عن الأحياء اليهودية.

وإزاء هذه القيود الثقيلة لجأ اليهود إلى التجارة وكان رب Rab، العالم التلمودي البابلي، قد وضع لبني ملته شعاراً يدل على تأقّب فكره: "تاجر بمائة فلورين تحصل على لحم وخمر؛ أما إن استغلت هذا القدر نفسه في الزراعة فأكبر ما تحصل عليه هو الخبز والملح"(46). وكان البائع اليهودي الجائل معروفاً في كل مدينة وبلدة، والتاجر اليهودي معروفاً في كل سوق ومولد؛ وكانت التجارة الدولية عملاً تخصصوا فيه، وكادوا أن يحتكروه قبل القرن الحادي عشر، فكانت أعمالهم، وقوافلهم، وسفانهم تجتاز الصحراوات، والجبال، والبحار، وكانوا في معظم الحالات يصبحون بضائعهم. وكانوا هم حلقة الاتصال التجاري بين بلاد المسيحية والإسلام، وبين أوروبا وآسية، وبين الصقالبة والدول الغربية؛ وكانوا هم القائمين بمعظم تجارة الرقيق(47)؛ وكان يعينهم على النجاح في التجارة مهارتهم في تعلم اللغات، وقدرة الجماعات اليهودية البعيدة بعضها عن بعض على

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

فهم اللغة العربية، وتشابه عادات اليهود وقوانينهم، واستضافة الحي اليهودي في كل مدينة لأي يهودي غريب. ولهذا استطاع بنيامين التطيلي أن يجتاز نصف العالم وأن يجد له أينما حل موطناً. ويحدثنا ابن خرداذبة صاحب اليريد في الدولة العباسية عام 870 في كتابه المسالك والممالك عن التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات الفارسية، واليونانية، والعربية، والفرنجية، والإسبانية، والصقلية، ويصف المسالك البرية والبحرية التي ينتقلون بها من أسبانيا وإيطاليا إلى مصر، والهند، والصين (48). وكان هؤلاء التجار يحملون الخصيان، والعبيد، والحريير المطرز، والقراء، والسيوف إلى بلاد الشرق الأقصى، ويعودون منها بالمسك، والند، والكافور، والتوابل، والمنسوجات الحريرية (49). ثم كان استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، واستيلاء أساطيل البندقية وجنوى على بلاد البحر المتوسط، فأصبحت للتجار الإيطاليين ميزة على اليهود، وقضى في القرن الحادي عشر على زعامة اليهودي التجارية. وكانت مدينة البندقية قد حرمت حتى قبل الحروب الصليبية نقل التجار اليهود على سفنها، ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى أغلقت عصابة المدن الهلسية The Hansatic League موانئها الواقعة على بحر الشمال والبحر البلطي في وجه التجارة اليهودية (50)، وقبل أن يحل القرن الثاني عشر أضحي الجزء الأكبر من التجارة اليهودية تجارة محلية، وكانت هذه التجارة حتى في هذا المجال الضيق تحددها القوانين التي تحرم على اليهود أن يبيعوا عدة أنواع من السلع (51). فلم يكن لهم بد من العودة إلى شؤون المال. ذلك أنهم وجدوا أنفسهم في بيئة معادية لهم معرضين لأن يتلف عنف الجماهير أملاكهم الثابتة، أو أن يصادرها الملوك الجشعون، فأرغمتهم هذه الظروف على أن يجعلوا مدخراتهم من النوع السائل السهل التحرك؛ فعمدوا أولاً على ذلك العمل السهل وهو مبادلة النقد، ثم انتقلوا منه إلى تلقي المال لاستثماره في التجارة؛ ثم إلى إقراض المال بالربا.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

وكانت أسفار موسى (52) والتلمود (53) قد حرمت التعامل بالربا بين اليهود أنفسهم ولكنها لم تحرمه بين اليهودي وغير اليهودي. ولما أضحت الحياة الاقتصادية أشد تعقيداً مما كانت قبل، وصارت الحاجة إلى تمويل المشروعات أشد إلحاحاً نظراً لاتساع نطاق التجارة والصناعة، أخذ اليهود يقرض بعضهم بعضاً المال عن طريق وسيط مسيحي (54) أو عن طريق جعل صاحب المال شريكاً موصياً في المشروع وأرباحه وهي وسيلة أجازها أحبار

اليهود، وعدد كبير من رجال الدين المسيحيين (55). وإذا كان القرآن وكانت الكنيسة المسيحية يحرمان الربا، وكان المقرضون المسيحيون لهذا السبب نادري الوجود قبل القرن الثالث عشر، فإن المقرضين المسلمين والمسيحيين - ومنهم رجال الدين المسيحيون، والكنائس والأديرة (56) - كان هؤلاء المقرضون يلجئون إلى اليهود ليقترضوهم ما يحتاجونه من المال. وحسبنا دليلاً على هذا أن هارون اللنكلني Aaron of Lincoln هو الذي قدم ما يلزم من المال لبناء تسعة أديرة سترسيه Cistercian، وبناء دير سانت أولينز (57 St. Albans) العظيم. ثم غزا رجال المصارف المسيحيون هذا الميدان في القرن الثالث عشر، واستعانوا بالوسائل التي أوجدها وسار عليها اليهود، وما لبثوا أن تفوقوا عليهم في الثراء واتساع نطاق الأعمال. "ولم يكن المرابي المسيحي أقل صرامة" من زميله اليهودي "وإن لم يكن أولهما في حاجة إلى حماية نفسه بالقدر الذي يحتاجه الثاني من خطر القتل والسلب والنهب" (58) فكان كلاهما يشدد النكير عن المدين بما عرف عن الدائنين الرومان من القسوة، وكان الملاك يستغلونهم جميعاً لمصلحتهم الخاصة.

فكان المرابون جميعاً تفرض عليهم ضرائب باهظة، وكان اليهود منهم يتعرضون من حين إلى حين إلى مصادرة أموالهم بأجمعها. وقد سار الملوك على سنة

صفحة رقم : 4882

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

السماح للمرابين بأن يتقاضوا رباً فاحشاً، ثم يلجئون من حين إلى حين إلى اعتصار هذه المكاسب من أصحاب المال. وكان المرابون يتحملون نفقات كبيرة في سبيل الحصول على أموالهم، وكثيراً ما كان الدائن يضطر إلى أداء الرشا للموظفين لكي يسمحوا له بالحصول على ما ماله (59). وحدث في عام 1198 حين كانت أوروبا تستعد للحرب الصليبية الرابعة أن أمر البابا إنوسنت الثالث Innocent III جميع الأمراء المسيحيين بإلغاء جميع فوائد القروض التي يطالب بها اليهود مدينهم المسيحيين (60). وأعطى لويس التاسع، ملك فرنسا القديس، جميع رعاياه من تلت ما كانوا مدينين به لليهود لكي "يستنزله الرحمة على روحه وأرواح أسلافه" (61). وكان ملوك الإنجليز في بعض الظروف يصدرون خطابات إعفاء يلغون بمقتضاها فائدة الدين أو رأس المال أو كليهما لرعاياهم - المدينين لليهود. ولم يكن من النادر أن يبيع الملوك هذه الخطابات، وأن يدونوا في سجلاتهم المبالغ التي حصلوا عليها نظير وساطتهم في هذا البر بالإنسانية (62). وكانت الحكومة البريطانية تطلب أن ترسل إليها صورة من كل تعاقد على قرض، وأنشأت ديواناً خاصاً باليهود يجمع هذه العقود، ويراقبها، ويستمع على القضايا الخاصة بها؛ فإذا ما عجز صاحب مصرف يهودي عن أداء الضرائب أو المطالب المفروضة عليه، رجعت الحكومة إلى ما لديها من سجلات عن قروضه، وصايرتها كلها أو بعضها، وأذرت مدينه بأن يؤدي إليها هي لا إليه ما عليهم من الديون (63). ولما أن فرض هنري الثاني على سكان إنجلترا ضريبة خاصة في عام 1187، أرغم اليهود على أداء ربع أملاكهم، والمسيحيون على عشرين، وبذلك أدى اليهود وحدهم ما يقرب من نصف الضريبة كلها (64). وكان اليهود في بعض الأحيان "هم الذين يمولون المملكة" (65). وأمر الملك يوحنا في عام 1210 أن يزج في السجون يهود إنجلترا على بكرة أبيهم - رجالاً كانوا أو نساءً أو أطفالاً - ثم جمعت منهم ضريبة للملك بلغت 66.000 مارك (66)،

صفحة رقم : 4883

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

وعذب الذين ظنوا أنهم لم يبيعوا بكل ما كان لديهم من أموال مكنوزة بأن اقتلعت سن من أسنانهم كل يوم حتى يقرروا بحقيقة مدخراتهم(67). وفي عام 1230 اتهم هنري الثالث اليهود بقطع جزء من عملة الدولة (ويبدو أن بعضهم قد فعل ذلك حقاً)، فصادر ثلث ما يمتلكه يهود إنجلترا من ثروة منقولة، ولما تبين أن هذه الوسيلة مربحة، أعيدت في عام 1231؛ وبعد عامين من ذلك التاريخ انتزع اليهود 20.000 مارك فضي، ثم انتزع منهم في عام 1244 ستون ألف مارك - وهو مبلغ يوازي مجموع إيرادات التاج البريطاني السنوية. ولما استدان هنري الثالث 5000 مارك من دوق كورنول رهن له جميع يهود إنجلترا ضماناً لدينه(68). وتوالت على اليهود فيما بين عامي 1252 و1255 سلسلة من القروض المالية دفعتهم إلى حال من اليأس لم يروا معها بداً من أن يطلبوا أن يؤذن لهم بمغادرة إنجلترا جملة، ولكن طلبهم هذا لم يلق قبولاً(69). وحرّم إدوارد الأول في عام 1275 التعامل بالربا تحريماً باتاً، ولكن الانقطاع لم ينقطع رغم هذا التحريم. وإذا كان خطر ضياع المال قد أزداد بسببه، فقد ارتفع سعر الفائدة، ولذلك أمر إدوارد بالقبض على جميع اليهود ومصادرة جميع أملاكهم؛ وقبض كذلك على كثيرين من المرابين المسيحيين وشنق ثلاثة منهم. أما اليهود فإن مائتين وثمانين منهم قد شنقوا، وطيف بجثثهم في شوارع لندن ثم مزقت، وقتل عدد آخر منهم في المقاطعات الإنجليزية. وصودرت أملاك مئات منهم لصالح الدولة(70).

وأثرى أصحاب المصارف اليهود في الفترات القلقة التي تخللت أوقات المصادرة، وظهرت علائم الثراء المفرط على بعضهم أكثر مما يجب أن تظهر؛ فلم يقتصروا على تقديم المال اللازم لبناء القصور، والكنائس الكبرى، والأديرة،

صفحة رقم : 4884

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الشؤون الاقتصادية

بل شادوا لأنفسهم فوق ذلك بيتاً فخمة، فكانت تلك البيوت في إنجلترا من أول ما بني من البيوت بالحجارة. وكان بين اليهود أغنياء وفقراء على الرغم من قول العزير: "الناس كلهم أكفاء عند الله-النساء والعبيد، والأغنياء والفقراء"(71). وحاول رجال الدين أن يخففوا الفقر، وأن يمنعوا الاستغلال الجشع للمال بوضع عدة نظم اقتصادية مختلفة، فأخذوا يؤكّدون ما على الجماعة من تبعات لجميع أفرادها، وخففوا آلام الشدائد بالصدقات المنظمة؛ نعم إنهم لم ينددوا بالغنى، ولكنهم أفلحوا في رفع مكانة العلم حتى سلوت مكانة الثراء؛ ووسموا الاحتكار والائتمار على التحكم في الأسعار بميسم الخطايا(72). وحرّموا على بائع الأثبات أن يكسب أكثر من سدس ثمن الجملة(73)؛ وكانوا يراقبون الموازين والمقاييس، ويحددون أقصى الأثمان وأقل الأجور؛ لكن كثيراً من هذه النظم. قد عجزت عن تحقيق الغرض المقصود منها، لأن رجال الدين لم يستطيعوا فصل حياة اليهود الاقتصادية عن حياة جيرانهم في البلاد الإسلامية أو المسيحية، ووجد قانون العرض والطلب في السلع والخدمات له طريقاً ينفذ منها حول جميع التشريعات.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

3- الأخلاق

وحاول الأغنياء أن يكفروا عن ثرائهم بالصدقات الكثيرة، فكانوا يقرن بما على الثراء من واجبات اجتماعية، ولعلمهم أيضاً خافوا ثورة الفقراء أو لعنهم فلم يعرف قط أن يهودياً مات من الجوع وهو يعيش في بيئة يهودية (75). ومن بداية القرن الثاني المسيحي كان مشرفون رسميون يفرضون في فترات محددة على كل فرد من أفراد العشيرة اليهودية مهما يكن فقيراً أن يكتب بشيء من ماله "الصندوق العشيرة" الذي يعني بالشيوخ، والفقراء، والمرضى، والتعليم اليامي وزواجهم. وكانت واجبات الضيافة تقدم بالمجان وبخاصة للعلماء الجائلين. وفي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

بعض الجماعات كان المسافرون اليهود إذا قدموا على بلد أو اهم موظفون من الجماعات اليهودية في بيوت الأفراد اليهود. وزاد عدد الجمعيات الخيرية اليهودية زيادة كبيرة كلما تقدمت العصور الوسطى، فلم تكن هناك فقط كثير من المستشفيات، وملاجئ للأيتام وبيوت للفقراء والطاعنين في السن، بل كانت هناك أيضاً منظمات تؤدي أموال الفداء للمسجونين، وبائعات للعرائس الفقيرات، وأجور الأطباء للمرضى، وتعني بالأرامل المعدمات، وتدفن الموتى من غير أجر (77). وكان المسيحيون يشكون من شره اليهود ويحاولون أن يثيروا حماسة المسيحيين للصدقة بأن يضربوا لهم أمثلة من اليهود (78).

وكانت الفروق بين الطبقات عند اليهود تظهر في ثيابهم، وطعامهم، حديثهم وفي مائة أخرى من أساليب حياتهم. فكان اليهودي البسيط يلبس قفطاناً طويل الكمين فوقه حزام، وكان أسود اللون في العادة، كأنه رمز للحزن على هيكله المهدم وعلى بلاده، لكن أثرياء اليهود في أسبانيا كانوا يظهرون ثرائهم بلبس الثياب الحريرية، وطالما حذرهم الفقراء دون جدوى من أثر هذا النظار في إثارة البغضاء والأحقاد. ولما أن حرم ملك قشتالة هذا التجمل في الملابس أطاع الرجال اليهود أمره ولكنهم ظلوا يلبسون أزواجهم أفخر الثياب؛ ولما أن سألهم الملك في ذلك أكدوا له أن الشهامة الملكية لم تكن تقصد قط أن يطبق هذا القيد على النساء (79)، وظل اليهود طوال العصور الوسطى يجملون نساءهم

بفاخر الثياب ولكنهم حرموا عليهن أن يظهرن أمام الجماهير عاريات الرأس، وأنذروهن بأن مخالفة هذا الأمر تصبح سبباً للطلاق، وأمر اليهودي أن لا يصلي في حضرة امرأة يرى الناس شعرها(80). وكانت نواحي التلمود المنصلة بالقوانين الصحية مما خفف من آثار الازدحام في أحياء المدن؛ فعملية الختان، والاستحمام كل أسبوع، وتحريم الخمر وأكل اللحم الفاسد، كلها وسائل وقت اليهود شراً الأمراض المنتشرة في البيئات المسيحية

صفحة رقم : 4887

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

المجاورة لهم أكثر من غيرهم من السكان(81). مثال ذلك أن الجذام كان منتشرًا بين فقراء المسيحيين الذين يأكلون اللحم أو السمك المملح، ولكنه كان نادر الحدوث بين اليهود؛ ولعل هذه الأسباب نفسها هي التي جعلت إصابة اليهود بالكوليرا وما شابهها من الأوبئة أقل من إصابة المسيحيين(82). لكن اليهود والمسيحيين على السواء كانوا يعانون الأمرين من الملاريا في أحياء روما القذرة الموبوءة بالبعوض من منافع كمبانيا Campagna. وكانت حياة اليهودي تتعكس عليها من الناحية الأخلاقية تراثه الشرقي والقيود التي يفرضها عليه الأوروبيون؛ ففي كل مناحي الحياة حقوق له مهضومة، وأمواله معرضة للنهب وحياته للخطر والإذلال، يتهم بجرائم ليست له يد فيها، ولهذا كله لجأ كما يلجأ الضعيف الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقي به الأذى. نعم إن أحياء اليهود كانوا ينادون في كل حين أن خداع "غير اليهودي شر من خداع اليهودي نفسه(83)؛" ولكن بعض اليهود كانوا يخالفون هذه النصيحة(84)؛ ولعل المسيحيين أيضاً كانوا يخادعون بكل ما يعرفونه من خداع. فرجال المصارف اليهود منهم والمسيحيون لم يكونوا يرحمون مدينتهم بل كانوا يتقاضون منهم كل ما عليهم من ديون، وإن كنا لا ننكر أنه كان في العصور الوسطى، كما كان في القرن الثامن عشر، دائنون لا يقبلوا أمانة وإخلاصاً عن ماير أنسلم من آل روتشليد. وكان بعض اليهود والمسيحيين ينحتون النقود، أو يقبلون البضائع المسروقة(85). ولكن كثرة استخدام اليهود في المناصب المالية الكبرى توحى بأن من يستخدمونهم من المسيحيين كانوا يتقون بأمانتهم واستقامتهم، وقلما كان اليهود يرتكبون جرائم العنف كالقتل، والسطو، والسلب، وكان السكر أقل انتشاراً بينهم في البلاد المسيحية في البلاد الإسلامية. وكانت حياتهم الجنسية عفيفة إلى حد عجيب على الرغم من أخذهم بمبدأ تعدد

صفحة رقم : 4888

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

الزوجات، وكانوا أقل ميلاً للواط من غيرهم من الشعوب الشرقية الأصل . وكانت نساؤهم عذارى ذوات خفر وحياء، وأزواجاً عاملات مجدات، وأمهات مخصبات ذوات ضمائر حية، وكان من أثر التكيير بالزواج أن قلت الدعارة بينهن إلى أقل حد يستطاع الوصول إليه عند بني الإنسان(86). وكان العزاب نادري الوجود بين رجالهم، وكان من القواعد التي وضعها الحاخام أشير بن يحيال أن من حق المحاكم أن ترغم الأعزب على الزواج إذا بلغ العشرين من العمر، ولم يكن منهمكاً في دراسة الشريعة(87). وكان الآباء هم الذين ينظمون أمور الزواج، وتقول إحدى الوثائق اليهودية الباقية من القرن الحادي عشر إنه كان بندر وجود فتيات "يبلغن من قلة الذوق أو من الوقاحة ما يجران معه على أن يبدين هوأهن أو خبارهن" في هذه الناحية(88). ولكن الزواج لا يكون قانونياً إلا برضاء الزوجين(89). وكان من حق الوالد أن يزوج ابنته لمن يشاء وهي صغيرة السن حتى وإن كانت في السادسة من عمرها؛ ولكن زواج الأطفال على هذا النحو لم يكن يتم إلا إذا بلغ الزوجان سن الرشد، وكان من حق الفتاة أن تلغي هذا الزواج إذا شاءت(90). وكانت الخطبة إجراءً رسمياً تجعل الفتاة زوجة للرجل من الوجهة القانونية، ولا يمكن التفارقة بعدها بعد الزوجين إلا بوثيقة طلاق قضائية. وكان عقد يوقع عند الزواج (كتوبة) يحدد فيه بائنة الزوجة ومهر الزوج. وكان هذا المهر مبلغاً من المال يُتجَبَّب من مال الزوج ويؤدي للزوجة إذا طلقها أو مات عنها. وبغير هذا المهر الذي لم يكن يقل عن مائتي زوزا Zuzá (وهو قدر يكفي لشراء بيت تسكنه أسرة واحدة) لا يصبح الزواج بعذراء صحيحاً من الوجهة القانونية.

صفحة رقم : 4889

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

وكان تعدد الزوجات سئة جرى عليها أغنياء اليهود في البلاد الإسلامية ولكنها كانت نادرة بينهم في البلاد المسيحية(91). وتشير الأداب الدينية التي وصلت إلينا من عهد ما بعد التلمود ألف إشارة وإشارة إلى "زوج" الرجل، ولا تشير قط إلى "أزواجه". وأصدر جرشم بن يهوذا حاخام مینز في عام 100 م أمراً بحرمان كل يهودي يتزوج أكثر من واحدة، وما لبث تعدد الزوجات بعد هذا القرار أن انقرض أو كاد بين اليهود في جميع أنحاء أوروبا ما عدا أسبانيا. على أن حالات من هذا التعدد ظلت تحدث من حين إلى حين إذا ظلت الزوجة عقيماً بعد عشر سنين من زواجها وسمحت هي للرجل أن يتخذ له حظية أو زوجة ثانية(92)، ذلك أن الأبوة كانت مسألة حيوية عند اليهود. وقد ألغى هذا القرار نفسه قرار جرشم ما كان للزوج قديماً من حق طلاق زوجته بغير رضاها ومن غير جريمة ارتكبتها؛ وأكبر الظن أن الطلاق بين اليهود في العصور الوسطى كان أقل منه في أمريكا في هذه الأيام. وكانت الأسرة أكبر أسباب نجاة الحياة اليهودية وإن لم تكن رابطة الزواج قوية محكمة من الوجهة القانونية. ذلك أن الخطر المحدق باليهود من خارجهم قد قوى وحدتهم الداخلية، ويشهد أعداؤهم بأنفسهم بما كانت تتمتع به الأسرة اليهودية، وما تتمتع به الآن، من "حرارة، وكرامة... وتفكير، وتدبر، وحب أبوي وأخوي"(94). فقد كان الزوج الشاب يشترك مع زوجته في العمل، وفي السراء والضراء، وكان شديد الحب لها لأنه يراها جزءاً من نفسه الكبرى، وإذا أصبح أباً وكبير أطفاله من حوله أثاروا فيه قواه المدخرة وبعثوا فيه أعرق الوفاء. وأكبر الظن أنه لم يكن قبل الزواج قد مس جسم امرأة غير زوجته دون الشعار، ولم تكن تتاح له في تلك البيئة الصغيرة الوثيقة الصلات إلا أقل الفرص للخيانة الزوجية بعد الزواج. ويكاد منذ ولادة أطفاله يبدأ بانئان لبناته ومهور لأولاده، وكان من البدائة عنده أن من واجبه أن يساعد البنين والبنات بماله في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

السنين الأولى من حياتهم وحياتهم الزوجية. وكان ذلك يبدو له أكثر حكمة من ترك الشاب يستعد لقبود الزواج المفرد بفترة من الاختلاط الجنسي الطليق. وكثيراً ما كان العريس يعيش مع عروسه في بيت أبيها-وقلما كان ذلك سبباً في ازدياد سعادة الأسرة. وكان سلطان الأب الأكبر في البيت سلطاناً مطلقاً لا يكاد يقل في ذلك عن سلطانه في روما الجمهورية. فكان من حقه أن يحرم أبناءه دينياً، وأن يضرب زوجته ضرباً غير مفرط، فإذا ما أصابها بأذى جسيم فرضت عليه العشيبة غرامة تتناسب مع موارده، وكان في العادة يمارس سلطانه بصرامة لا تطغى قط على عاطفة الحب القوية.

وكان مركز المرأة منقحاً من الوجهة القانونية، عالياً من الناحية الأخلاقية. ولكن الرجل اليهودي يحمده الله، كما يحمده أفلاطون، لأنه لم يولد أنثى، وكانت المرأة تجيب عن ذلك بتواضع جم: "وأنا أحمد الله الذي خلقتني كما أراد" (95). وكان للنساء في المعبد موضع منعزل في الرواق أو خلف الرجال وتلك تحية سمجة لمفاتنهن التي تلهي العابدين عن العبادة، ولم يكن يحسن في العدد الواجب اكتماله لأداء الصلاة. وكانت الأغاني التي يمتدح بها جمال المرأة تعد عملاً غير لائق وإن كان التلمود قد أباحها (96). أما التغازل-إذا وجد-فلم يكن إلا عن طريق المراسلة، ولقد نهى الأحبار عن التخاطب بين الرجال والنساء-حتى بين الزوجين-أمام الناس (97)، وقد أبيع الرقص ولكنه كان مقصوراً على رقص المرأة مع المرأة والرجل مع الرجل (98).

وكان القانون يجعل الزوج هو الوارث الوحيد لزوجته، أما الأرملة فلم يكن من حقها أن ترث زوجها، فإذا ماتت حصلت على قيمة باننتها، ومهر الزواج، أما فيما عدا هذا فقد كانت تعتمد على أبنائها الذكور، ورثة أبيهم الطبيعيين، في أن يبسروا لها سبل الحياة الطيبة. ولم تكن البنات يرثن آبائهن إلا إذا لم يكن له أبناء ذكور، فإذا كان له اعتمدن على حبهم الأخوي، وقلما كان يخيب فيهم

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

رجاؤهن (99). ولم تكن البنات يرسلن إلى المدارس؛ فقد كان العلم مهما قل يعد بالنسبة إليهن أمراً شديداً خطورة. على أنهن رغم هذا كن يسمح لهن بأن يدرسن في بيوهن؛ فنحن نسمع عن عدد من النساء يلقين محاضرات عامة في الشريعة-وإن كانت صاحبة المحاضرة تستتر أحياناً عن المستمعين (100). ولكن المرأة اليهودية الجديرة بالتكريم والإخلاص، كانت تلقى بعد زواجها كل ما هي خليفة به منهما رغم ما كان يحيط بها من إجحاف مادي وقانوني، وقد نقل يهوذا بن موسى بن تيبون Tibbon عن حكيم مسلم قوله: "لا يكرم النساء إلا الكريمة، ولا يحقرهن إلا الحقير (101)".

وكانت صلات الأب بأبنائه أقرب إلى الكمال من الصلات الزوجية. فقد كان اليهودي بما عرف عن الرجل الساذج العمادي من كبرياء، يفخر بأبنائه وبقدرته على إنجاب الأبناء. وكان يقسم أغلظ إيمانه بأن يضع يده على خصيتي من يتلقى منه اليمين، ومن هنا اشتقت كلمة testimony الأوربية، ومعناها الشهادة أو البيّنة أو الشاهد نفسه. وكان كل رجل يؤمر بأن يكون له طفلان على الأقل، وكان له في العادة أكثر من اثنين. وكان الطفل يلقي الإجلال الذي يليق بزائر قدم من السماء، ومن ملك تجسد، وكان الأب يلقي من التبجيل ما كان يجعله رسولاً من عند الله، فكان الولد يقف في حضرة أبيه حتى يأمره بالجلوس، ويطيعه طاعة جزعة قلقة تتناسب مع كبرياء الشباب. وكان الولد أثناء الاحتفال بالختان يكرس إلى يهوه بمقتضى عهد أبراهام، وكانت كل أسرة تشعر بأن تعد واحداً من أبنائها على الأقل ليتولى المناصب الدينية. وكان الولد، إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره، يدخل ميدان الرجولة، ويفرض عليه كل ما تفرضه الشريعة على الرجال، ويحدث ذلك في حفل رهيب يثبت فيه هذا ويؤكد

صفحة رقم : 4892

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الأخلاق

وكان الدين يخلع رهبته وقداسته على كل مرحلة من مراحل نموه، ويخفف بذلك من واجبات الآباء.

صفحة رقم : 4893

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

4- الدين

كذلك كان الدين رقابة روحية في كل ناحية من نواحي القانون الأخلاقي. لا ريب إنه كانت في الشريعة ثغرات، وأن الحيل القانونية كانت تتلمس لكي تعاد إلى الشعب حرية التطبيق التي لا غنى عنها لكل شعب مغامر. ولكن يلوح أن الرجل اليهودي في العصور الوسطى كان يقبل الشريعة بوجه عام ويتخذها درعاً لا يقيه اللعنة الأبدية فحسب، بل يقيه فوق ذلك وبصفة أظهر للعيان تفكك جماعته وانحلالها. نعم إنها كانت تضيق عليه في جميع مناحي الحياة، ولكنه كان يعظمها لأنها موطن نشأته ومدرسة تربيته والوسيلة التي لا بد منها لحياته.

وكان كل بيت في بلاد اليهود كنيساً، وكل مدرسة معبداً، وكل أب كوهناً. فصلوات الكنيس وطقوسه كان لها مثيلات موجزة في البيت. وكان الصوم والأعياد الدينية يحتفل بها فيه احتفالات تعليمية تربط الماضي بالحاضر والأحياء بالأموات وبمن لم يولدوا بعد. وكان من عادة الأب في مساء يوم الجمعة أي ليلة السبت من كل أسبوع أن يجمع حوله زوجته، وأولاده، وخدمه، ويباركهم فرداً فرداً، ويؤمهم في الصلاة، وفي القراءة من الكتب الدينية، والأغاني المقدسة. وكانت تعلق على باب كل حجرة كبيرة من حجرات البيت أنبوبة (مزوزا) محتوية على ملف من الرق كتبت عليه فقرتان من سفر تثنية الاثنتي عشرة (الآيات 4-9 من الإصحاح السادس، 13-21 من الإصحاح الحادي عشر) تذكر اليهودي أن إلهه "واحد يجب عليه أن يحبه من كل قلبه وروحه وبكل قوته". وكان يجاء بالوالد على الكنيس من سن الرابعة وما بعدها، حيث ينطبع

صفحة رقم : 4894

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

الدين في نفسه في أكثر السنين تأثيراً في تكوينه. ولم يكن الكنيس معبداً دينياً فحسب بل كان فوق ذلك المركز الاجتماعي للعشيرة اليهودية؛ والمعنى الحرفي للفظ سناجوج، وإكليزيا، وسينود، وكلية هو مجتمع؛ ولقد كان الكنيس قبل المسيحية مدرسة ولا يزال يسمى شوله Schule عند اليهود الإثنازيين، ثم أخذ على عاتقه في عهد التثنت عدد كبيراً من الواجبات العجيبة المختلفة، فكان من عادة بعضها أن ينشر في كل سبت ما يصدره بيت الدين من قرارات خلال الأسبوع المنصرم، وأن يجبي الضرائب، وأن يعلن عن الأمتعة المفقودة، وأن ينظر في شكاوي بعض الأفراد من البعض الآخر، وأن يذيع أخبار الأملاك قبل مواعده حتى يستطيع من له حقوق في هذه الأملاك أن يعترض عليه. وكان الكنيس يوزع الصدقات العامة، وكان في بلاد آسية مسكناً لأبناء السبيل. وكان مبناه على الدوام أجمل المباني في الحي اليهودي، وكان في بعض الأحيان وبخاصة في أسبانيا وإيطاليا آية من آيات العمارة، مزداناً أعظم زينة وأجملها؛ وكثيراً ما كان ولاية الأمور المسيحيون يحرمون على اليهود إقامة معابد تطاول أعلى كنيسة مسيحية في المدينة، وأمر البابا هونوريوس الثالث في عام 1221 بهدم معبد بهذا الوصف في بوج (Bourges 102).

وكان في أشبيلية في القرن الرابع عشر ثلاثة وعشرون كنيساً، وفي طليطلة وقرطبة ما لا يكاد يقل عن هذا العدد، منها واحد شيد في قرطبة عام 1315 تحتفظ به الحكومة الأسبانية على أنه أثر قومي.

وكان بكل كنيس مدرسة (بيت الدرس Beth ha Midrash) بالإضافة إلى المدارس الخاصة والمعلمين الخصوصيين، وأكبر الظن أن نسبة من كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين يهود العصور الوسطى كانت أكبر منها بين المسيحيين (104) وإن كانت أقل منها بين المسلمين. وكانت أجور المدرسين تؤديها الجماعات اليهودية عامة أو يؤديها الآباء، ولكنهم كانوا خاضعين لرقابة

صفحة رقم : 4895

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

الجماعة المشتركة. وكان الأولاد يخرجون على المدارس مبكرين قبل مطلع الفجر في الشتاء؛ ثم يعودون على بيوتهم بعد بضع ساعات لتناول الفطور، ثم يرجعون إلى المدرسة حيث يقفون حتى الساعة الحادية عشرة، ثم يأتون إلى المنزل للغداء، ويعودون إلى المدرسة ظهراً، ثم يستريحون بين الساعة الثانية والثالثة، ثم يذهبون مرة أخرى على المدرسة ويبقون فيها إلى المساء، ثم يطلق سراهم أخيراً ليعودوا إلى بيوتهم ليتعشوا، ويصلوا، ويناموا، وكذلك كانت حياة الغلام اليهودي حياة جدية شاقة (105).

وأول ما كان يدرسه الغلام اليهودي هو اللغة العبرية وأسفار موسى الخمسة؛ فإذا بلغ العاشرة من عمره بدأ يدرس المشنا، وفي الثالثة عشرة يأخذ في دراسة الأجزاء الرئيسية من التلمود، ومن شاء منهم أن يكون من العلماء واصل دراسة المشنا والجمارا من الثالثة عشرة على العشرين من عمره أو ما بعدها. وكان الطالب يتعلم عن طريق دراسته لموضوعات التلمود المختلفة مقداراً قليلاً من العلوم المختلفة تبلغ عشرة أو تزيد، ولكنه لا يكاد يدرس شيئاً من تاريخ اليهود (106). وكان أكثر ما يتعلمه عن طريق التكرار، وكانت التلاوة الجماعية قوية عالية على حد جعل بعض البيئات تمنع وجود المدارس فيها (107). أما التعليم العالي فكان مكانه البشبية أو المجمع العلمي، وكان خريج هذا المجمع يسمى تلميذ حاخام أي عالماً بالشريعة؛ وكان يعفى عادة من الضرائب المفروضة على سائر أفراد العشيرة، وكان ينتظر من غير العلماء أن يهبوا واقفين إذا أقبل أو أدبر وإن لم يكن حتماً من الأحبار الرسميين (108). أما الحبر الرسمي فكان معلماً وقاضياً، وكاهناً. وكان يطلب إليه أن يتزوج، ولكل يكن يتقاضى نظير القيام بواجباته الدينية إلا القليل من الأجر إذا تقاضى شيئاً منه على الإطلاق؛ وكان في العادة يكسب عيشه بعمل من الأعمال التي لا تمت بصلة إلى الدين؛ ولما كان يعط، لأن الوعظ كان متروكاً لو عاظ متقلين (مجديم)

صفحة رقم : 4896

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

يدرّبون على فنون البلاغة المرهبة ذات الأصوات المنغمة الطنانة الرنانة. وكان في مقدور كل فرد من المصلين أن يؤوم الجماعة، ويقرأ فقرات من الكتاب المقدس، ويعط؛ ولكن هذا الشرف كان يختص به في العادة أحد اليهود البارزين أو الذين لهم يد طولي في الصدقات والأعمال الخيرية. وكانت الصلاة عند اليهود المتمسكين بالدين عملاً شديد التعقيد، لا تؤدي على الوجه لصحيح إلا إذا غطى المصلي رأسه دليلاً على الخشوع، وربط على ذراعيه وجبته علماً صغيراً، تحتوي فقرات من سفر الخروج (الآيات 1-16 من الإصحاح الثالث عشر) وتثنية الاثناع (الآيات 4-9 من الإصحاح السادس، و13-21 من الإصحاح الحادي عشر)، وثبت في أطراف ثيابه أهداباً نقشت عليها أهم وصايا الرب. وكان رجال الدين يفسرون هذه الإجراءات الشكلية بأنها أمور لا بد منها لتذكر اليهود بوحدانية الله، ووجوده، وشرائعه. أما السذج من اليهود فقد أصبحوا يحسبونها تمانم سحرية ذات قوى معجزة خارقة للطبيعة. وكانت الصلاة تختم بقراءة من ملف الشريعة الموضوع في تابوت صغير فوق المذبح.

وكان اليهود في المنفى لا يوافقون على إدخال الموسيقى في الشعائر الدينية، ويرون أنها قلماً تتفق مع حزنهم على وطنهم الضائع، ولكن الواقع أن بين الموسيقى والدين من الصلات القوية مثل ما بين الشعر والحب. ذلك أن التعبير المتحضر عن أقوى العواطف وأكثرها عمقاً يتطلب أشد الفنون إثارة للانفعالات النفسية؛ ولقد عادت الموسيقى إلى

الكنيس عن طريق الشعر؛ ذلك أن البيتانيم Paitanim أو "الشعراء الجدد" العبرانيين شرعوا يكتبون أشعاراً دينية مثقلة بالزخرف الصناعي كالأبيات المتجانسة أول حروفها أو التي إذا جمعت الحروف الأولى منها كانت اسماً خاصاً أو جملة بعينها، ولكنها يرفع من قدرها رنين اللغة العبرية وفخامة نغماتها وامتلاؤها بالحماسة الدينية التي أضحت عند اليهودي وطنية وديناً معاً. ولا تزال ترانيم العزر بن قلير (من القرن الثامن) الفجة القوية

صفحة رقم : 4897

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

تجد لها مكاناً في طقوس بعض المعابد اليهودية. ولقد أظهرت أشعار مثلها عند يهود أسبانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وألمانيا، منها واحدة يترنم بها كثيرون من اليهود يوم عيد الكفارة.

إذا أقبلت ملكوتك تشقق التلال عن أناشيد.

وضحكت الجزائر مهللة لأنها تنتسب إلى الله.

وتغنى كل من فيها من المصلين بأعلى أصواتهم يثنون عليك.

حتى إذا سمعتها أبعد الشعوب نادى بك ملكاً متوجاً عليها(109).

ولما أن أدخلت هذه القصائد المقدسة (البيوطيم) في الصلوات التي تقام في المعابد، كان ينشدها مرتل القديس، وبذلك عادت الموسيقى إلى الشعائر الدينية. يضاف إلى هذا أن تلاوة الكتاب المقدس والأدعية كان ينشدها في كثير من المعابد رئيس فرقة المرتلين أو ينشدها المرتلون إنشاداً ترتل معظم نغماته ارتجالاً، ولكنها تتبع في بعض الأحيان نماذج النغمات البسيطة الموضوعية للترانيم المسيحية(110). من ذلك أن النغمات المعقدة للأغنية العبرانية الذائعة الصيت المعروفة باسم كل نيدري Kol Nidre (جميع الإيمان)(111)، قد أخذت من مدرسة ديرسنت جول St. Gail الغنائية بسويسرا في وقت ما قبل بداية القرن الثاني عشر.

على أن الكنييس اليهودي لم يحل في قلب اليهودي محل الهيكل بكل معاني الحلول، بل ظل أمله في أن يقدم القربان ليهوه في يوم من الأيام أمام قدس الأقداس على نل صهيون، يلهب خياله، ويتركه عرضة لخداع "المسيح الكذاب" في مختلف الأوقات. من ذلك ما حدث في عام 20 حين أعلن شيريم Sereme وهو رجل سوري، أنه هو المنقذ المنتظر، وسير حملة لانتزاع فلسطين من المسلمين. وغادر اليهود مواطنهم في بابل وأسبانيا ليشتركوا في هذه المغامرة، ولكن القائم بها أسر، وعرضه الخليفة يزيد الثاني على الجماهير على أنه مهرج دجال، ثم أمر به قتل. وبعد بضعة سنين من ذلك الوقت تزعم عبوديا بن

صفحة رقم : 4898

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> الحياة اليهودية في البلاد المسيحية -> الدين

عيسى بن إسحق الأصفهاني ثورة أخرى مثلها امتشق فيها عشرة آلاف يهودي الحسام، واستبسلوا في الحرب بقيادته، ولكنهم هزموا، وقتل ابن عيسى في المعركة وعوقب جميع يهود أصفهان بلا تمييز بينهم لانضمامهم إليه. ولما أثارت الحملة الصليبية الأولى ثائرة أوربا حسبت الجماعات اليهودية أن انتصار المسيحيين سيعيد فلسطين إلى اليهود(112)، ولكنهم أفاقوا من أحلامهم على سلسلة من المذابح المدبرة. وفي عام 1160 أثار دافيد الرؤى يهود العراق إذ نادى فيهم أنه هو المسيح المنتظر وأنه سيعود بهم إلى أورشليم ويرد إليهم حريتهم؛ لكن حماه خشي أن يحيق الهلاك باليهود بسبب هذه الأفكار فما كان منه إلا أن ذبحه وهو نائم. ثم ظهر مسيح آخر في جنوبي جزيرة العرب عام 1225 وأثار اليهود إثارة حمقاء. وكتب ابن ميمون "رسالة إلى الجنوب" ذائعة الصيت فند فيها مزاعم هذا الداعي، وذكر يهود العرب بما أعقب هذه المحاولات الطائشة في ماضي الأيام من هلاك ودمار(113)، ولكنه رغم هذا ارتضى الأمل في المسيح المنتظر، على أنه دعامة لا بد منها للروح اليهودية في تشتتهم، وجعل هذا الأمل إحدى العقائد الثلاث عشرة الأساسية في الديانة اليهودية(114).

صفحة رقم : 4899

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

الفصل الرابع

ترى ما هو منشأ العداء القائم بين غير اليهود واليهود؟ لقد كانت الأسباب الرئيسية الباعثة على هذا العداء أسباباً اقتصادية، ولكن الخلافات الدينية كانت على الدوام سبباً في زيادة المنافسات الاقتصادية وستاراً لها، فالمسلمون المؤمنون برسالة محمد يعضبهم من اليهود عدم إيمانهم بهذه الرسالة، والمسيحيون الذين يؤمنون بالوهية المسيح يؤلمهم أن يجدوا شعبه نفسه لا يؤمن بهذه الألوهية. ولم يكن كثيرون من المسيحيين الصالحين يرون أن مما يخالف تعاليم دينهم أو يخالف التعاليم الإنسانية بوجه عام أن يلقوا على شعب بأسره، خلال القرون الطوال، تبعة أعمال فئة قليلة العدد من يهود أورشليم في آخر أيام المسيح، ويحدثنا إنجيل لوقا أن جماعات من اليهود رحبت بدخول المسيح أورشليم (الآية 37 من الإصحاح 29) وكيف حمل صليبه بيلاطس: "تبعه جمهور كبير من الشعب والنساء اللاتي كن يطمئن وينحن عليه" (الآية 27 من الإصحاح 23)، وكيف أن كل الجموع الذين "كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان رجوعاً وهم يقرعون صدورهم" (الآية 48 من الإصحاح 23)، ولكن هذه الشواهد القاطعة بعطف اليهود على عيسى كانت تتمحي ذكرها حين تتلى على المسيحيين قصة الألام المريرة كل أسبوع مقدس من فوق ألف منبر ومنبر، فكانت نيران الحقد تضطرم في قلوب المسيحيين، وكان بنو إسرائيل في تلك الأيام يحبسون أنفسهم في أحيائهم وبيوتهم خشية أن تنثر عواطف السذج من الناس فتؤدي إلى المذابح. ونشأت حول هذا السبب الرئيسي من أسباب سوء التفاهم عشرات المنات

صفحة رقم : 4900

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

من أسباب الريبة والعداء. وتحمل رجال المصارف اليهود أكبر آثار العداء الناشئ من أسعار فائدة القروض، وهي أسعار ترتفع كلما قلت ضماناتها. ولما أن نمت الشئون الاقتصادية المسيحية، وغزا التجار ورجال المصارف من غير اليهود ميادين كان اليهود هم المسيطرين عليها من قبل، أثارت المنافسة الاقتصادية الأحقاد في الصدور، وأخذ بعض المرابين المسيحيين يبذرون بذور الحقد على السامية (115). وكان اليهود الذين يشغلون مناصب رسمية وبخاصة في المصالح المالية للحكومات المسيحية هدفاً طبيعياً لمن يكرهون الضرائب واليهود كليهما. وتأسلت هذه الأحقاد الاقتصادية والدينية في الصدور فأصبح كل ما هو يهودي بغضباً لبعض المسيحيين، وكل ما هو مسيحي بغضباً لبعض اليهود، فأخذ المسيحيون يعيبون على المسيح عزلتهم، ولم يغفروا لهم هذه العزلة التي كانت رد فعل لتميز غيرهم عليهم. وما كان بوجه إليهم من اعتداء في بعض الأحيان، وبدت ملامح اليهود، ولغتهم، وأدابهم، وأطعمتهم، وشعائرهم، بدت هذه كلها في أعين المسيحيين غريبة كريهة. ثم إن اليهود كانوا يطعمون حين يصوم المسيحيون، ويصوم أولئك حين يفطر هؤلاء، وظل يوم راحتهم وصلواتهم يوم السبت كما كان في قديم الأيام، على حين أن يوم الراحة والصلوات عند المسيحيين قد تبدل فأصبح يوم الأحد، وكان اليهود يحتفلون بنجاتهم السعيدة من مصر في عيد فصح قريب قريباً يراه المسيحيون غير لائق من يوم الجمعة الذي يحزنون فيه لموت المسيح. ولم تكن الشريعة اليهودية تبيح لليهود أن يأكلوا طعاماً مسته يد غير يهودية، أو يشربوا خمراً عصرته، أو يستعملوا آنية لمستها (116)، أو أن يتزوجوا إلا من يهوديات (117). وكان المسيحي يفسر هذه القواعد القديمة التي وضعت قبل نشأة المسيحية بزمان طويل بأن اليهود يرون أن كل شيء مسيحي نجس، ويرد على هذا بأن الإسرائيلى نفسه لم يكن في أغلب الأحيان يمتاز بنظافة جسمه أو أناقة ثيابه. ونشأت من عزلة هؤلاء وأولئك بعضهم أقاصيص

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

سخيفة محزنة انتشرت بين كلا الطرفين. وكان قبل الرومان قبل ذلك الوقت يتهمون المسيحيين بأنهم يذبحون أطفال الوثنيين ليقدّموا دماءهم في السر قرباناً لإله المسيحيين، ثم أخذ المسيحيون في القرن الثاني عشر يتهمون اليهود باختطاف أطفال المسيحيين ليقدّموهم قرباناً إلى يهوه، أو ليتخذوا دماءهم دواء، أو يستعملوه في صنع الخبز الفطير لعيد الفصح. واتهم اليهود بأنهم يسممون الأبار التي يشرب منها المسيحيون ويسرقون الرقاق المقدس ليقتبوه ويخرجوا منه دم المسيح (118). ولما أن تباهى عدد قليل من تجار اليهود بثرائهم وأظهروا هذا الثراء بارتداء الملابس الغالية الثمن اتهم الشعب اليهودي على بكرة أبيه بأنه يستنزف أموال المسيحيين جملة ويضعها في أيدي اليهود. واتهمت اليهوديات بأنهم ساحرات، وقبل إن كثيرين من اليهود من حزب الشيطان (119). ورد اليهود على هذه الأفاصيص بأخرى مثلها عن المسيحيين، وبقصص مهينة عن مولد المسيح وشبابه. وكان التلمود ينصح بأن تشمل الصدقات اليهودية غير اليهود (120)، وكان بحيا Bahya يثني على الرهينة المسيحية، وكتب ابن ميمون يقول إن تعاليم المسيح والنبي محمد تنزع بالإنسانية إلى الكمال (121)، ولكن اليهودي العادي لم يكن يستطيع فهم هذه المجاملات الفلسفية، وبإدلاء أعداءه حقداً بحقد.

وكانت هناك فترات صفاء بين أوقات الجنون السالفة الذكر، فكثيراً ما كان اليهود يختلطون بالمسيحيين اختلاط الأصدقاء متجاهلين قوانين الدولة والكنيسة التي تحرم هذا الاختلاط، وكانوا أحياناً يتزاوجون وبخاصة في أسبانيا وجنوبي أوربا. وكان العلماء المسيحيون واليهود يتعاونون فيما بينهم، ميكائيل اسكت Michael Scot مع أناتولي Anath، ودانتي مع عمونيل (122)، وكان المسيحيون يقدمون الهبات للمعابد اليهودية، وفي مدينة وورمز Worms كانت هناك حديقة يهودية كبرى ينفق عليها من هبة وهبتها امرأة مسيحية (123). ويُدل يوم السوق في ليون من السبت إلى الأحد تيسيراً لليهود، ووجدت الحكومات غير

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

الدينية أن اليهود عنصر نافع في الأعمال التجارية والمالية فأولت لهم حمايتها في بعض الأوقات؛ وإذا كانت دولة من الدول قد قيدت حركات اليهود أو أخرجتهم من بلادها فقد كان سبب ذلك في بعض الأحيان أنها لم يعد في مقدورها أن تحميهم من التعصب والعدوان (124).

وكان موقف الكنيسة من هذه الأحداث يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة. ففي إيطاليا كانت تحمي اليهود بوصفهم "حراس الشريعة" الواردة في العهد القديم ويوصفهم شهدوا أحياء على صحة الكتاب المقدس من الوجهة التاريخية

وعلى "غضب الله". لكن مجالس الكنيسة كانت من حين إلى حين تعمل على زيادة متاعب الحياة اليهودية، وكثيراً ما كان يصدر عنها ذلك بحسن نية، وقلماً كانت تعتمد في عملها هذا على ما لها من سلطان عام. من ذلك أن قانون ثيودوسيوس (439Theodosian Code)، ومجلس كليرمنت (535Clermont)، ومجلس طليطلة (589) كلها حرمت تعيين اليهود في المناصب التي من حق شاغلها أن يوقع عقوبة على المسيحيين. وأمر مجلس أورليان (538Orleans) جميع اليهود ألا يخرجوا من بيوتهم طوال الأسبوع المقدس، ولعل ذلك الأمر كان يقصد به حمايتهم، وحرم استخدامهم في المناصب العامة. وحرم مجلس لاتران الثالث (1179) على القابلات أو المرضعات المسيحيات أن يخدمن اليهود، وندد مجلس بزيير (1246Beziers) باستخدام المسيحيين أطباء من اليهود؛ ورد مجلس أفنيون (1209Avignon) على قوانين الطهارة اليهودية بتحذير "اليهود والعاهرات" من لمس الخبز أو الفاكهة المعروضة للبيع؛ وأعاد القوانين الكنسية الصادرة بتحريم استئجار اليهود الخدم المسيحيين، وحذر المؤمنين من تبادل الخدمات مع اليهود، وأمر بتجنبهم لنجاستهم(125). وأعلنت بعض المجالس إلغاء كل زواج بين المسيحيين واليهود، وأحرق شماس في عام 1222 على القائمة الخشبية لأنه اعتنق الدين

صفحة رقم : 4903

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

اليهودي وتزوج بيهودية(126). وحرمت أرملة يهودية في عام 1234 من بائنتها بحجة أن زوجها اعتنق الدين المسيحي قبل وفاته وأن هذا يلغي زواجهما(127). وأصدر مجلس لاتران الرابع في عام 1215 قراراً يحتم "على اليهود والمسلمين ذكوراً كانوا أو إناثاً في كل ولاية مسيحية وفي جميع الأوقات أن يميزوا أنفسهم عن غيرهم في أعين الجمهور بلبس أثواب خاصة لأن المسيحيين يخطنون أحياناً فيتصلون بنساء اليهود والمسلمين، ويتصل اليهود والمسلمون بالنساء المسيحيات". ولهذا يجب على اليهود والمسلمين متى جاؤوا الثانية عشرة من العمر أن يميزوا ملابسهم بיום خاص ويكون ذلك بالنسبة للرجال في غطاء الرأس أو الجبة، وبالنسبة للنساء في أقنعتهن. وكان من أسباب صدور هذه الأوامر أنها رد على قوانين قديمة مماثلة لها أصدرها المسلمون ضد اليهود أو المسيحيين. وكان نوع الشارة المميزة تعينه محلياً حكومات الولايات أو المجالس الإقليمية للكنيسة المسيحية. وكانت في العادة تتخذ صورة عجلة أو دائرة من النسيج الأصفر، طول قطرها نحو ثلاث بوصات تخاط في مكان ظاهر فوق الملابس. ونفذ هذا للقرار في إنجلترا عام 1279؛ أما في أسبانيا وإيطاليا وألمانيا فلم ينفذ إلا في أوقات متباعدة قبل القرن الخامس عشر حين أخذ نيقولا القوزاوي Nickolas of Cusa وسان جيوفاني داكبيسترانو San Giovanni Capistrano يدعوان إلى التشدد في تنفيذه بأكمله. وكان من أثر تلك الدعوة أن هدد يهود قشتالة في عام 1219 بمغادرة البلاد جملة إذا نفذ هذا القانون؛ ووافق ولاة الأمور الدينيون على إلغائه، وكثيراً ما كان الأطباء والعلماء، ورجال المال، والرحالة اليهود يعفون منه، ثم أخذ العمل به بضعف قبل القرن السادس عشر وامتدع نهائياً حين قامت الثورة الفرنسية. ويمكن القول بوجه عام إن البابوات كانوا أكثر رجال الدين تسامحاً في العالم المسيحي. مثال ذلك أن جريجوري الأول، نهى عن إرغام اليهود على

صفحة رقم : 4904

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

اعتناق الدين المسيحي رغم تحمسه الشديد لنشر هذا الدين، وحافظ على ماله من حق المواطنة الرومانية في البلاد الخاضعة لحكمه (128)؛ ولما أن استولى الأساقفة في طرشونة Terracina وبالرم على معابد اليهود لكي ينتفع بها المسيحيون أرغمهم جريجوري على أن يردوها إليهم كاملة (129)، وكتب إلى أسقف نابلي يقول: "لا تسمح بأن يضيق على اليهود في أداء صلواتهم، ودع لهم الحرية الكاملة في مراعاة أعيادهم وأيامهم المقدسة والاحتفال بها، كما كانوا هم وأباؤهم يفعلون من زمن بعيد" (130). وحث جريجوري السابع الحكام المسيحيين على إطاعة قرارات مجلس الكنيسة التي تحرم استخدام اليهود في المناصب؛ ولما قدم إنجنوبوس الثالث إلى باريس عام 1145، وسار في موكب حافل إلى الكنيسة الكبرى التي كانت وقتئذ في الحي اليهودي، بعث اليهود إليه بوفد ليهدي إليه التوراة أو ملف الشريعة، فباركهم وعادوا إلى بيوتهم مغتبطين، وطعم البابا حمل عيد الفصح مع الملك (131). وكان البابا اسكندر الثالث على وئام مع اليهود واستخدم واحداً منهم في إدارة شؤنه المالية (132)؛ وتزعم إنوسنت الثالث مجلس لاتران الرابع فيما طلبه من أن يكون لليهود شارة خاصة، ووضع هو المبدأ القائل بأن اليهود على بكرة أبيهم قد فرضت عليهم العبودية الأبدية لأنهم صلبوا عيسى (133)، ثم كرر في ساعة كان فيها أرق مزاجاً الأوامر البابوية التي تحرم إرغام اليهود على ترك دينهم وقال: "لا يحق لمسيحي أن يؤذي اليهود في أجسامهم... أو يسلبهم أملاكهم... أو ينسب في إقلاقهم أثناء الاحتفال بأعيادهم... أو يبتز منهم المال بتهديدهم بإحراق موتاهم (134). وأغى جريجوري التاسع منشئ محكمة التفتيش اليهود من إجراءاتها أو اختصاصها إلا إذا حاولوا تهديد المسيحيين، أو ارتدوا إلى الدين اليهودي بعد أن تنصروا (135)،

صفحة رقم : 4905

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

ونيد إنوسنت الرابع (1247) القصة القائلة بأن من شعائر اليهود ذبح أطفال المسيحيين وقال: لقد ابتدع بعض القساوسة، والأمراء، والنبلاء، وكبار الأشراف... أساليب تتنافى مع الدين ضد اليهود خداعاً منهم وتضليلاً، فحرموهم بلا حق من أملاكهم قوة واقتداراً، واستولوا عليها لأنفسهم، واتهموهم زوراً وبهتاناً بأنهم يقتسمون فيما بينهم في يوم عيد الفصح اليهودي، قلب غلام مذبح... والحق أنهم في حقدهم يعززون إلى اليهود كل حادث قتل أياً كان المكان الذي يقع فيه. وبسبب هذه التهم المختلفة وأمثالها تمتلئ قلوبهم غلاً على اليهود، فينهبون أموالهم... ويضطهدونهم بتجويعهم وسجنهم، وتعذيبهم، وإيذائهم بغير تلك الوسائل، ويقضون عليهم أحياناً بالإعدام، وبذلك أصبحت حال اليهود أسوأ مما كان عليه أبائهم تحت حكم الفراعنة، وإن كانوا يعيشون الآن تحت حكم أمراء مسيحيين. وهم لهذا يضطرون إلى مغادرة البلاد التي عاش فيها أبائهم من أقدم العهود التي يذكرها الإنسان. وإذا كان يسرنا ألا يلحقهم أذى، فإننا نأمركم أن تعاملوهم معاملة ودية رقيقة؛ فإذا وصل إلى علمكم نبأ اعتداء ظالم وقع عليهم، فردوا عنهم ما لحقهم من أذى، ولا تسمحوا بأن يصيبهم مثل هذا الظلم في المستقبل (137). غير أن هذه الدعوة النبيلة لم تلق إلا أذناً صماء، واضطر جريجوري العاشر في عام 1272 أن يكرر ما جاء فيها من تنديد بقصة قتل أطفال المسيحيين استجابة لبعض الشعائر الدينية اليهودية، وأراد أن يزيد أقواله قوة وتأثيراً فقرر ألا تقبل شهادة مسيحي على يهودي إلا إذا عززها يهودي. وإن ما أصدره البابوات بعد هذا العهد حتى عام 1763 من

أوامر مماثلة لهذا الأمر ليشهد بما كانت تمتلئ به قلوب البابوات من شفقة وإنسانية كما تشهد بأن هذا الشر لم تجنث جذوره. ومما يدل على أن البابوات كانوا مخلصين في دعوتهم ما كان يستمتع به اليهود

صفحة رقم : 4906

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

في الدويلات البابوية من طمأنينة إذا قيست حالهم بحال بني دينهم في غير هذه الدويلات، ونجاتهم النسبية من الاضطهاد. ذلك أنهم لم يطردوا قط من روما أو من أفنيون البابوية مثل ما طردوا في أوقات مختلفة من كثير من البلاد؛ وفي ذلك يقول مؤرخ يهودي عالم: "لولا الكنيسة الكاثوليكية لما بقي لليهود وجود في أوربا بعد العصور الوسطى" (139). وكان اضطهاد اليهود بقوة في أوربا أثناء العصور الوسطى متقطعاً؛ فقد جرى الأباطرة البيزنطيون مائتي عام على خطة العسف التي جرى عليها جستنيان ضد اليهود، وطردهم هرقل من أورشليم عقاباً لهم على ما قدموا للفرس من معونة، وبذل كل ما في وسعه لإبادتهم، وحاول ليو الإسوري Leo the Isaurian أن يفند الإشاعة القائلة بأن اليهودي بقرار أصدره عام 723 يخير فيه اليهود البيزنطيين بين اعتناق الدين المسيحي أو النفي، فمن اليهود من خضع لهذا القرار ومنهم من أحرقوا أنفسهم في معابدهم مفضلين هذا على الخضوع له. وواصل باسيل الأول Basil (867-886) الحملة القاضية بإرغام اليهود على التعميد، وطالب قسطنطين السابع (912-959) اليهود بأن يقسموا أمام المحاكم المسيحية ويميناً مذلة ظلت باقية في أوربا حتى القرن التاسع عشر (141). ولما دعا البابا إربان Urban الثاني إلى الحرب الصليبية الأولى في عام 1095 ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك في أورشليم، فلما قبل جدفري البويلوني Gosfrey of Bouillon قيادة الحملة أعلن أنه سيثار لدماء المسيح من اليهود ولن يترك واحداً منهم حياً، وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لا يعتنق المسيحية من اليهود. وقام أحد الرهبان بثيرة حماسة المسيحيين أكثر من هذا فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس في أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين (142). وكانت خطة الصليبيين أن يزحفوا جنوباً بمحاذاة نهر الرين حيث توجد أغنى

صفحة رقم : 4907

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

مواطن اليهود في أوربا الشمالية. وكان يهود ألمانيا قد اضطلعوا بدور رئيسي في إنماء تجارة نهر الرين وانتهجوا خطة حميدة من الصلاح وضبط النفس أكسبتهم احترام المسيحيين عامتهم ورجال دينهم على السواء. وكان الأسقف رودجر الأسبيري R(diger of Speyer ذات صلة وثيقة بيهود أبرشيته، وقطع لهم عهداً يضمن لهم استقلالهم

وسلامتهم، وأصدر الإمبراطور هنري الرابع في عام 1095 عهداً مماثلاً لهذا العهد لجميع اليهود المقيمين في مملكته (143)، لذلك وقعت أنباء الحرب الصليبية، والطريق الذي قررت إتباعه، وتهديدات زعائمتها، وقع الصاعقة على تلك الجماعات اليهودية الآمنة المسالمة، فتملكهم الرعب حتى شل تفكيرهم، ودعا أحبارهم إلى الصوم والصلاة عدة أيام.

ولما وصل الصليبيون إلى أسبير جروا أحد عشر يهودياً إلى إحدى الكنائس وأمرهم أن يقبلوا التعميد، فلما أبوا قتلوهم عن آخرها (3 مايو سنة 1096)، ولجأ غيرهم من يهود المدينة إلى الأسقف جوهنسن Johannsen، فلم يكتف هذا الأسقف بحمايتهم، بل أمر بقتل عدد من الصليبيين الذي اشتركوا في مقتله الكنيسة. ولما اقترب بعض الصليبيين من تريير Trier استغاث من فيها من اليهود بالأسقف إجلبرت Egilbert، فعرض عليهم أن يحميهم على شريطة أن يعمدوا، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن وألقين بأنفسهن في نهر الموزل Moselle (أول يونية سنة 1096). وفي مينز خبأ روتارد Ruthard كبير الأساقفة 1300 يهودي في سراديبه، ولكن الصليبيين اقتحموا عليهم وقتلوا منهم 1014، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلاً منهم بإخفائهم في الكنيسة الكبرى (27 مايو سنة 1096)، وقبل التعميد أربعة من يهود مينز، خبأ المسيحيون اليهود في منازلهم، وأحرق الغوغاء الحي اليهودي، وقتلوا من وقع في أيديهم من اليهود القلائل، فما كان من الأسقف هرمان

صفحة رقم : 4908

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

Hermann إلا أن نقل اليهود سراً من مخابنهم عند المسيحيين إلى منازل المسيحيين في الريف وعرض بذلك حياته هو لأشد الأخطار. وكشف الحجاج الصليبيون هذه الحيلة، وصادوا فريستهم في القرى وقتلوا كل من عثروا عليه من اليهود (يونية سنة 1096) وكان عدد من قتلوا في إحدى القرى مائتي يهودي؛ وحاصر الغوغاء اليهود في أربع قرى أخرى، فقتل اليهود بعضهم بعضاً، مفضلين هذا على التعميد، وذبحت الأمهات من ولدن من الأطفال في أثناء هذه الاعتداءات وقت مولدهم. وفي وورمز أخذ الأسقف ألبرانشز Alebranches من استطاع أن يأخذهم من اليهود إلى قصره وأنقذ حياتهم، أما من لم يستطع أخذهم فقد هاجمهم الصليبيون هجوماً خالياً من كل رحمة. فقتلوا الكثيرين منهم، ثم نهبوا بيوت اليهود وأحرقوها، وفيها انتحروا كثيرون من اليهود مفضلين الموت على ترك دينهم. ثم حاصرت جماعة من الغوغاء مسكن الأسقف بعد سبعة أيام، وأبلغ الأسقف اليهود أنه لم يعد في وسعه أن يصد أولئك الغوغاء، وأشار عليهم بقبول التعميد، وطلب إليه اليهود أن يتركوا وشأنهم لحظة قصيرة، فلما عاد السقف وجدهم جميعاً إلا قليلاً منهم قد قتل بعضهم بعضاً، ثم اقتحم المحاصرون الدار وقتلوا الباقيين أحياء، وبلغ مجموع من قتل في مذبحه وورمز (20 أغسطس سنة 1096) نحو ثمانمائة من اليهود. وحدثت مذابح مثلها في متز Metz ورنجزبرج Regensburg وبراهة (Prague 144).

وأندرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية، فق أشار بطرس المبجل Peter The Venerable، القديس رئيس دير كلوني Cluny على لويس السابع ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين، وقال له: "لست أطلبك بأن تقتل أولئك الخلائق الملعين... لأن الله لا يريد محوهم من الوجود، ولكنهم يجب أن يقاسوا أشد ألوان العذاب كما قاساه قاتل أخيه، ثم يقفوا ليلاقوا هواناً أقسى من العذاب، وعيشاً أمر من الموت" (145).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

واحتج سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس St. Denis على هذا الفهم الخاطئ للمسيحية، واكتفى لويس التاسع، بفرض ضرائب باهظة على أغنياء اليهود؛ غير أن اليهود الألمان لم يخرجوا من هذه المحن بالمصادرة وحدها، فقد خرج راهب فرنسي يدعى رودلف من دير به غير إذن، وأخذ يدعو إلى ذبح اليهود في ألمانيا. وفي كولوني قُتل شمعون "التقي" وبترت أطرافه، وفي أسبير عذبت امرأة على العذراء لكي يقنعوها باعتراف المسيحية. وبذل الرؤساء الدينيين مرة أخرى كل ما في وسعهم لحماية اليهود، فأعطاهم الأسقف أرناوند أسقف كولوني قصرًا حصينًا يجتمعون فيه وأجاز لهم أن يتسلحوا؛ وامتنع الصليبيون عن مهاجمة الحصن، ولكنهم قتلوا كل من في أيديهم من اليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية. وأدخل هنري كبير أساقفة مينز في بيته يهودا كان الغوغاء بطاردونهم، ولكن الغوغاء اقتحموا البيت وقتلوه أمام عينيه. واستغاث كبير الأساقفة بالقدوس برنارد St. Bernard أعظم المسيحيين سلطاناً في أيامه، وأجاب برنارد بأن ندد برودلف تنديداً شديداً وطلب أن يوضع حد لأعمال العنف الموجهة إلى اليهود. ولما وصل رودلف حملته عليهم جاء برنارد بنفسه إلى ألمانيا وأرغم الراهب على العودة إلى الدير. ولما أن جدت جثة أحد المسيحيين بعد ذلك بقليل مشوهة في ورزبرج Wurzburg؛ اتهم المسيحيون اليهود بأنهم هم الفاعلون، وهاجموهم رغم احتجاج الأسقف أمبيكو Embicho وقتلوا عشرين منهم، وعني المسيحيون بكثيرين غيرهم أصابتهم جروح في هذا العدوان منهم (1147)، ودفن الأسقف القتلى في حديقته (146). وعادت إلى فرنسا فكرة بدء الحرب الصليبية في بلاد المسيحيين قبل انتقالها إلى الشرق، وذبح اليهود في كارتانتان Carentan، ورامرو Rameru، وسلي Sully. وفي بوهيميا ذبح الصليبيون 150 يهودياً، ولما أن انتهت موجة الذعر بذل رجال الدين المسيحيون المحلبون كل ما في وسعهم لمساعدة من يقوا أحياء من اليهود، وأجيز لمن قبلوا التعميد مرغمين أن يعودوا إلى الدين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

اليهودي، دون أن توقع عليها عقوبات الردة القاسية (147). وكانت هذه المذابح إيذاناً بسلسلة من الهجمات الطويلة العنيفة لا تزال باقية إلى هذه الأيام. من ذلك أن حادثة قتل وقعت في بادن Baden عام 1235 ولم يعرف مرتكبها اتهم بها اليهود، فأدى ذلك إلى مذبحه منهم؛ وفي عام 1243 حرق جميع اليهود سكان بلتز Beltz القريبة من برلين وأهم أحياء بحجة أن بعضهم قد دنسوا خبزاً للتقدمة مقدساً (148). وفي عام 1283 أثرت في مينز فكرة ذبح أطفال المسيحيين في بعض الشعائر اليهودية، وقتل عشرة من اليهود ونهبت البيوت اليهودية على الرغم مما بذله ورنر كبير الأساقفة من جهود. وفي عام 1285 أهاجت مثل هذه الشائعات أهل ميونخ Munich، ولجأ 180 يهودياً إلى كنيس لهم، فأشعل فيه الغوغاء النار، واحترق المائة والثمانون بأجمعهم. وبعد عام من ذلك الوقت قتل أربعون يهودياً في أوبرويزل Oberwesel بحجة أنهم امتصوا دماء مسيحي، وفي عام 1298 حرق كل يهودي في روتنجن Rottingen حتى قضى نحبه بحجة أن بعضهم قد دنس الخبز المقدس. ونظم رندفلش Rindfleisch وهو بارون متمسك بدينه جماعة من المسيحيين الذين أقسموا أن يقتلوا

جميع اليهود وأمدهم بالسلاح، وأبادوا جميع الجالية اليهودية في ورزبرج، وذبحوا 698 يهودياً في نورمبرج Nuremberg، ثم انتشرت موجة الاضطهاد فلم يمض إلا نصف عام حتى محي 140 كنيساً يهودياً (149). وملاً اليأس بعد هذه الاعتداءات المتكررة يهود قلوب ألمانيا، وكانوا قد أعادوا تنظيم جماعاتهم مراراً وتكراراً، فغادرت أسر يهودية كثيرة مينز، وورمز، وأسبير، وغيرها من المدن الألمانية وهاجرت إلى فلسطين لتعيش في بلاد المسلمين. وإذا كانت بولندا ولتوانيا تطلبان الهجرة إليها، ولم تكن قد حدثت فيهما مذابح حتى ذلك الوقت، فقد بدأت هجرة بطيئة من يهود بلاد الرين إلى بلاد القالبه في شرقي أوروبا.

صفحة رقم : 4911

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

وأضحى اليهود في إنجلترا تجاراً ورجال مال بعد أن حرم عليهم تملك الأرض والانضمام إلى نقابات الصناع. ومنهم من أثروا من الربا وأصبحوا على بكرة أبيهم موضع الكراهية لأكله. وقد استعان الأشراف ملاك الأرض وأتباعهم على التسليح للحروب الصليبية بالمال المقترض من اليهود، ورنوا لهم في نظير هذا المال ريع أرضيهم، واستشاط الزارع المسيحي غيظاً لرؤيته المرابين يثرون من كدحه. وحدث في عام 1144 أن وجد الشاب وليم من أهل نروخ Norwich قتيلاً، واتهم اليهود بمقتله لاستعمال دمه، وهوجم الحي اليهودي في المدينة ونهب وأحرق (150). وحمل الملك هنري الثاني اليهود، وحذا حذوه هنري الثالث، ولكنه جمع منهم 422.000 جنيه ضرائب وقروضاً أخرى على رؤوس أموالهم في سبع سنين. وحدثت في الاحتفال بتتويج رنشرد الأول في إنجلترا (1190) مشاحنة تافهة شجعها الأشراف الذين يريدون أن يتخلصوا مما عليهم من ديون لليهود (151)، فتطورت إلى مذبحه امتدت إلى لنكولن Lincoln، واستامفورد Stamford، ولن Linn. وقتل الغوغاء 350 منهم في مدينة يورك في العام نفسه وكان يقودهم رنشرد دي ملابستيا Richard de Malabestia، وكان مستغرفاً في الدين لليهود. ثم قام مائة وخمسون من يهود يورك بترعمهم الحبر توم طوب Tom Tob بقتل أنفسهم (153). وفي عام 1211 غادر ثلاثمائة من أحبار اليهود إنجلترا وفرنسا ليبدءوا حياة جديدة في فلسطين، وبعد سبع سنين من ذلك العام هاجر كثيرون من اليهود حين نفذ هنري الثالث أمر الشارة اليهودية. وفي عام 1255 راجت شائعة في أنحاء لنكولن تقول إن غلاماً يدعى هيو Hugh قد أغرى بدخول الحي اليهودي، ثم جلد، وصلب، وطعن بحربة، بحضور جمع من اليهود المبتهجين. وعلى أثر هذه الشائعة هاجمت عصابات مسلحة مقر اليهود، وقبضت على الكوهن الذي قيل إنه كان على رأس الاحتفال، وشدوه إلى ذيل جواد، وجروه في الشوارع، ثم شنقوه. ثم قبض على واحد وتسعين

صفحة رقم : 4912

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

يهودياً وشنق منهم ثمانية عشر، ونجا كثير من المسجونين بفضل تدخل جماعة من الرهبان الدمنيكيين البواسل . وأفلتت الجماهير من أيدي ولاة الأمور في أثناء الحرب الأهلية التي نشرت الاضطراب في إنجلترا بين عامي 1257، و1267، وكادت المذابح أن تمحو من الوجود يهود لندن، وكنتريري Canterbury، ونورثمبتن Northampton، وونشستر Winchtester، وورسستر Worcester، ولنكولن، وكيمبردج، فنهبت بيوتهم ودمرت، وأحرقت العقود، والسفاح، وأصبح من بقوا أحياء من اليهود لا يملكون شروى نقيير (155). وكان ملوك الإنجليز وقتئذ يقرضون المال من أصحاب المصارف المسيحيين في فلورنس وكاهورس Cahors، وأصبحوا في غير حاجة إلى اليهود، ومن ثم وجدوا أن من الصعب عليهم حمايتهم. ولهذا أمر إدوارد الأول من كان باقياً في إنجلترا من اليهود وكانوا حوالي 16000 يهودي أن يغادروا البلاد قبل أول نوفمبر من ذلك العام، وأن يتركوا وراءهم جميع أملاكهم الثابتة وما يمكن استرداده من الديون. وعرق الكثيرون منهم في القناة الإنجليزية التي أرادوا أن يعبروها في قوارب صغيرة، وسرق ملاحو السفن متاعهم وأموالهم، فلما وصل بعضهم إلى فرنسا أبلغتهم الحكومة الفرنسية أن عليهم أن يغادروا البلاد قبل بداية الصوم الكبير من عام 1291 (156). وفي فرنسا أيضاً تبدلت الحالة النفسية بالنسبة لليهود حين قامت الحروب

صفحة رقم : 4913

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

الدينية على الأتراك في أسية، والملاحدة الألبجنسين Albigensian في النجويك Languedoc. فقام الأساقفة بلقون الخطب الدينية المثيرة للنفوس، وكان من الشعائر المعتادة في بزبير أيام أسبوع الآلام أن يهاجم الغوغاء الحي اليهودي، وأخيراً دعا أحد رجال الدين المسيحيين في عام 1160 بالكف عن هذه المواقف الدينية، ولكنه طلب إلى الجالية اليهودية أن تؤدي ضريبة خاصة في أحد السعف من كل عام (157). وفي طلوثة (طولوز) أرغم اليهود على أن يبعثوا بممثل لهم إلى الكنيسة في يوم الجمعة الحزينة من كل عام ليتلقى صفقة على أذنه لتكون بمثابة تذكرة لهم خفيفة بخطيبتهم الأبديّة (158). وفي عام 1171 أحرق عدد من اليهود في بلوا Blois بحجة استخدامهم دماً مسيحياً في شعائر عيد الفصح اليهودي (159). ورأى الملك فيليب أغسطس الفرصة سانحة لبيتر منهم المال محتجاً بالدين، فأمر بأن يسجن جميع من في مملكته من اليهود لأنهم يسممون آبار المسيحيين (160)، ثم أمر بالإطلاق سراحهم بعد أن اقتدوا أنفسهم بمال كثير (1180)، غير أنه طردهم من البلاد بعد عام واحد، وصادر جميع أملاكهم الثابتة، وأهدى معابدهم للمسيحيين. وفي عام 1190 أمر بقتل ثمانين يهودياً في أورانج Orange لأن ولاة الأمور في المدينة شنقوا أحد عماله لقتله أحد اليهود (161)، ثم استدعى اليهود إلى فرنسا في عام 1198 ونظم أعمالهم المصرفية تنظيمياً يضمن به لنفسه أرباحاً طائلة (162). وفي عام 1236 دخل الصليبيون المسيحيون الأحياء اليهودية في أنجو Anjou وبواتو Poitou وبخاصة ما كان منها في بوردو Bordeaux وأنجوليم Angoulme وأمر بأن يعمد اليهود جميعاً، فلما أبوا داسوا بحوافر خيولهم ثلاثة آلاف منهم حتى قضاوا نحبهم (163). وندد البابا جريجوري التاسع بهذه المذبحة، ولكنه لم ينج اليهود من الموت. وأشار القديس لويس على رعاياه بالألا يجادلوا اليهود في أمور الدين، وقال لجوانفيل Joinville إن من واجب كل شخص من غير رجال الدين: "إذا سمع إنساناً يذكر الدين المسيحي بما لا يليق

صفحة رقم : 4914

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> يهود العصور الوسطى -> كراهية اليهود

أن يدافع عنه بالسيف لا باللفظ، ينفذه في بطن الآخر إلى أبعد مدى ينفذ فيه(164). وفي عام 1254 نفى اليهود من فرنسا، وصادر أملاكهم ومعابدهم، ثم عاد فسمح بدخولهم إياها، ورد إليهم معابدهم، وبينما كانوا يعيدون بناء جماعاتهم إذ أمر فيليب الجميل (Philip the Fair 1306) بسجنهم، وصادر ما كان لهم من ديون، وجميع ما كان لهم من متاع لم يستثن إلا ما كان عليهم من الثياب، ثم طردهم جميعاً من فرنسا وكانوا يبلغون مائة ألف، ولم يسمح لهم بأكثر مما يكفيهم من الطعام يوماً واحداً. وقد بلغ ربح الملك من عمله هذا قدراً أغراه بأن يهدي معبداً يهودياً إلى سائق عربته(165).

وهكذا تجمعت طائفة متقاربة من الحوادث الدموية دامت نحو مائتي عام تكونت منها صورة ذات وجه واحد. ولم يقع على اليهود في برفانس Provence، وإيطاليا، وصقلية، والإمبراطورية البيزنطية بعد القرن التاسع إلا حوادث اضطهاد صغرى، واستطاعوا وقاية أنفسهم بها بالالتجاء إلى أسبانيا المسيحية، وكانت فترات الطمأنينة حتى في إنجلترا، وألمانيا، وفرنسا طويلة، وكان اليهود يكثر مرة أخرى ويثري بعضهم بعد كل مأساة تنزل بهم. غير أن قصصهم كانت تتقل إليها ما كان لهذه الفترات المحزنة من ذكريات مرة، وكانت أيام السلام مليئة بخوفهم من خطر المذابح الذي لا ينفك يهددهم، وكان على كل يهودي أن يحفظ عن ظهر قلب الدعاء الواجب عليه أن يتلوه في ساعة الاستشهاد(166). وكانت حمى السعي إلى جمع المال ترتفع حرارتها بقدر ما كان يحيق بكسبه من أخطار، وكان لابسو الشارة الصفراء يقابلون في الطرقات بسخرية الساخرين على الدوام، كما كان يحيق بهذه الأقلية المنعزلة العديمة الحول والطول تحقير يحز في نفوسها وبذل من كبرياء أفرادها ويقطع ما بينها وبين العناصر الأخرى من مودة، ويترك في أعين يهود الشمال تلك النظرة المعروفة بأحزان اليهود Judenschmerz التي تذكرهم بعشرات المئات من الإهانات والاعتداءات ألا ما أكثر من صلبوا انتقاماً لحادث صلب وحيد!

صفحة رقم : 4915

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

الباب السابع عشر

عقل اليهودي وقلبه

الفصل الأول

الأدب

لقد ظلت روح اليهودي يتنازعها عاملان هما اعتزازه أن يشق طريقه في عالم معاد له وشغفه بثمار العقل. فالتاجر اليهودي عالم فقد العلم؛ يحسد الرجل الذي نجا من حمى الثراء، والذي شغف في هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم في آفاق الحكمة، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك. وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes، كانوا يقفون في طريقهم ليستمعوا إلى راشي العظيم وهو يشرح التلمود (1). وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم في غمار المشاغل التجارية، والفقر المذل، والازدراء القاتل، ظلوا ينتجون النحويين، وفقهاء الدين، والمنصوفة، والشعراء، والعلماء، والفلاسفة، ولم يضارعه في آدابهم الواسعة وثرانهم العقلي إلا المسلمون فيما بين 1150 و1200 (2). وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوغ أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم، وإن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثري بأجمعه في العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامي في العلوم والطب، والفلسفة، وبفضل وساطتهم أثاروا

صفحة رقم : 4916

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين. وكان اليهود في بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية في حديثهم ونثرهم المكتوب، أما شعراؤهم فقد استمسكوا في شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية؛ وفي البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها، ويكتبون في آدابهم، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم. وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين. وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم في اللغة العبرية، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتي Masoretic (الذي قدسته التقاليد) وذلك بإضافة علامات للحركات، وإشارات للنبر، وعلامات للترقيم، وفواصل للشعر، وشروح الهوامش؛ وبفضل هذا العمل أصبح في مقدور كل يهودي بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية.

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبري والمعجمات العبرية. ولفت شعر مناشة بن سروق (910-970) وعلمه نظر حسداي بن شيروط، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب

المقدس العبرية. ووضع يهوذا بن داود حيوج (حوالي عام 1000 م) النحو العبري على أساس علمي، في ثلاثة كتب باللغة العربية لغة الكتاب المقدس. وبزه في هذا العمل تلميذه يونا بن جناح (995-1050) السرقسطي حين وضع بالعربية كتابه في النقد الذي تقدم به النحو العبري والمعجمات العبرية خطوات واسعة. ووضع يهوذا بن قريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته اللغات العبرية، والآرامية، والعربية. وتقدم أبراهام الفارسي (حوالي عام 980) اليهودي

صفحة رقم : 4917

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

القرائي خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجماً أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية. وبز ناثان بن يحيى من علماء روما (المتوفي عام 1160) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجماً للتلمود. وفي نربونة ظل يوسف قمحي وولده موسى وداود (1160-1235) يعملون عدة أجيال في هذه الميادين، وظل محلول أو موجز Michlol داود قرناً عدة المرجع المعترف به في النحو العبري، وطالما أعان مترجمي الملك جيمس للكتاب المقدس (3). تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود. وأفاد الشعر اليهودي من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصبغ العربية، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به، وأنتج في أسبانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أي ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين في عصرهم. وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف في العالم المسيحي باسم الفيلسوف أفسيرون Avlcebron. وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل. وكان مولد هذا "الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء" على حد قول هيني في مآلقه حوالي عام 1021. وتوفي أبواه وهو صغير السن فنشأ في جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب. وأعجب بشعره يقويتايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً في دولة مدينة سرقسطة الإسلامية. وفي هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والهناءة إلى حين، وأخذ يتهنى بمباهج الحياة. ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقويتايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه في بلاد الأندلس الإسلامية، فقيراً عليلاً، هزياً إلى حد "يسهل معه على ذنابة أن تحملني". وأولاه صمويل بن نجدلا، وهو شاعر مثله، حمايته وأواه في غرناطة وفيها كتب سلمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره:

صفحة رقم : 4918

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

وكيف أتخلى عن الفلسفة؟

لقد عقدت معها عهداً.

فهي أُمي وأنا أعز أبنائها؛

لقد طرقت عنقي بجواهرها....

وستظل روحي تصبو إلى

مراقبها السماوية، ما دمت حياً..

ولن يقر لي قرار حتى أكتشف منبعها.

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل: فعاد، وهو لا يزال شاباً في أخريات العقد الثالث من عمره، إلى الفقر والتجوال، حتى أذلت النكبات نفسه، فهجر الفلسفة إلى الدين:

رباه، ما الإنسان؟ إنه جيفة دنسة تطأها الأقدام.

إنه مخلوق كريبه، يفيض مكرأً وخداعاً.

إنه زهرة ذواية، تدبّل إذا مسها الحر(6).

وينجو شعره في بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتنبة الحزينة:

أنشر علينا السلام يا الله،

وأسبغ علينا نعمتك السرمدية.

ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك،

يا من نسكن إليه.

وسواء كنا نطوف بالأرض جيئةً وذهاباً.

أو نقيم مكبلين بالأغلال في المنفى الموحش.

فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين.

ها هنا مجدك يا رباه.

وخير كتبه كلها هو كيتير ملخوت (التاج الملكي) الذي ينادي فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تتادي بعظمته هو:

صفحة رقم : 4919

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

افر منك إليك لأجد

مكاناً ألبأ إليه. وفي ظلك

أختبئ من غضبك

إلى أن تهدأ سورتك،

حتى تستمع إلي وترثي لي،

ولن أفك قبضتي

حتى تهبط عليَّ نعمتك .

وقد اجتمع في أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية في أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحي. وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رئاسة شمويل بن نجدلا في بلاط الملك. وكان بيته ندوة للأدب والفلسفة ونيغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشئوا في هذا الجو العلمي، فكان اسحق شاعراً، وعالمماً طبيعياً، ومتبحراً في التلمود، وكان موسى ابن عزرا (1070-1139) عالماً وفيلسوفاً، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوي. وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوجها أبوها اسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام. فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة، وهام على وجهه في بلاد نائية يغذي بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة: "ألا فعيشي، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد ليمتصه غيري، وتنفسي بالند يستنشقه سواي. وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها، وإن لم تكوني أنت وفية لي. إن قلبي ليطرب لغناء العندليب، وإن كان المغنى يعلو على وينأى عني" (9). ووجه قيثارته آخر الأمر، كما وجهها ابن جبيرول. إلى الأغاني الدينية، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفي.

وكان أبراهام بن ماير بن عزرا-الذي يعده بروننج Browning

صفحة رقم : 4920

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

المعبر عن فلسفة العصر الفكتوري-يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا، ولكنه كان من أصدقائه المقربين. وقد ولد في طليطلة عام 1093، وعرف في شبابه الفقر والجوع، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم في كل ميادينه. وأخذ هو أيضاً ينتقل من مدينة إلى مدينة، ومن مهنة إلى مهنة، ولازمه سوء الحظ في كل مهنة وفي كل مدينة، وقال في هذا بسخرية اليهودي المريرة: "لو اتجرت في الشمع لما غربت الشمس، ولو بعث أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر". وسافر إلى إيران مجتازاً مصر والعراق، ولعله قد ذهب أيضاً إلى بلاد الهند، ثم عاد إلى إيطاليا، ومنها إلى فرنسا، وإنجلترا. وبينما كان عائداً إلى أسبانيا في الخامسة والسبعين من عمره إذا وافته منيته، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعر ونثره. وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التي طاف بها. ألفت في العلوم الرياضية، والفلكية، وفي الفلسفة، والدين؛ وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة، والفصول، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغني بجمال النجوم. وقد صاغ في صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما في عصر الإيمان، واستبق نيومن Newman بهذه الترنيمة العبرية:

يا إله الأرض والسماء، منك الروح والجسد!

لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما في الإنسان من ضياء قدسي...

إن أيامي بين يديك، وأنت تعرف الخير لي

وتهبني بقوتك خير عن لي حيث أخشى الوقوف

وسترك يحجب عن العيون أثامي ورحمتك رعي الوافي

ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك(10)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

صفحة رقم : 4921

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

القديم. وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة، وأنها موحى بها من عند الله، ولكنه فسر العبارات الممجة للخالق تفسيراً مجازياً. وكان أول من قال أن سفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء؛ ويعده اسبنوزا واضع أساس النقد العقلي للكتاب المقدس(11). وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليفي (1086-1147). وقد ولد في طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها. فنشأ فيها آمناً في كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً في أيامه. وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه في غرناطة، حيث استضافه موسى واسحق ابني عزرا في منزلهما. وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع في جميع الأوساط اليهودية في أسبانيا. وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح، وشبابه الموفق السعيد، وأخذ يتغنى بالحب، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروفنساليين، وبكل ما في نشيد الأنشاد من قوة ورنين. وقد حوت "حديقة بهجته" مقطوعة من الشعر الملتهب حماسة تعد أمرح الفقرات في هذه الطرفة الهزلية الرائعة:

ادن منها أيها الحبيب، لم تتوانى أن تطعم بين حدائقها؟

انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها.

إن تقاحتي صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرهما،

وهي تخبئ لك في قلائدها ثماراً شهية تتلألأ كالنور....

لولا قناعها لاستحت منها نجوم السماء

وترك هليفي ضيافة ابني عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين في الجمع العلمي اليهودي بهذه المدينة، فدرس الطب، وأصبح من الأطباء غير النابهين، ثم أسس معهداً للغة العبرية في طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس. ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء. فلما تقدمت به السن طغى

صفحة رقم : 4922

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الأدب

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرقل فيه من نعيم، فأخذ يتغنى بشعبه، وبأفرانه، ودينه، وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختتم حياته في فلسطين:

أي مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء!

ليت لي جناحي نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعي ثراك!

إن قلبي في الشرق، وإن كنت مقيماً في الغرب(13).

ولم يكن يهود أسبانيا المنعمون فيها يرون في هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة، ولكن هليفي كان مخلصاً في أقواله. فقد استودع أسرته في أيد أمينة عام 1141، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم. وأنت الرياح بما لا تشتهي سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ في أيدي الصليبيين. وبعد أن أقام في الإسكندرية وقتاً ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى مشق حيث اختفى ذكره من التاريخ. وتقول إحدى الأفاصيص أنه ذهب إلى أورشليم، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خراً راکعاً، وقبّل الأرض، فداسته حوافر جواد يركبه أعرابي وقضت على حياته(14). ولكننا لا نعرف هل وصل حقاً إلى مدينة أحلامه، وكل الذي نعلمه علم اليقين أنه كتب في دمشق "أغنية لصهيون" ولعله كتبها في آخر سنة من حياته، وكان جوت الشاعر الألماني يعدها من أعظم القصائد في أدب العالم كله(15):

ألا ترغيبين يا صهيون في أن تبعثي بتحياتك من صخورك المقدسة

إلى شعبك الأسير الذي يحبك لأنه البقية الباقية من أبنائك؟...

ألا ما أجش صوتي وأنا أندب أحزانك ولكني حين أبصر حريتك في

أوهام أحلامي تنساب من صوتي النغمات حلوة شجية كنغمات القيثارة المعلقة

على شاطئ نهر بابل... ألا ليتني أستطيع أن أصب روعي حيث صبت

روح الله في أبنائك القديسين في الأزمان السابقة! لقد كنت منزل الملوك

وعرش الله، ولست أدري كيف يحتل العبيد الآن العرش الذي جلس عليه

أبناؤك من قبل؟

من ذا الذي يرشدني لبحث عن الأماكن التي أطل منها الملائكة بجلالهم

على سلك وأنبيائك في الأزمان القاصية؟

ومن ذا الذي يهب لي جناحين أطيّر بهما لأضع حطام قلبي بين خرائبك

وأستريح ن تجوالي؟

سأولّي وجهي نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس

بالذهب الثمين...

إن هواءك يبعث الحياة في نفسي، وذرات ترابك هي المسك الشذي،

وأنهارك تفيض بالعسل المصفى.

وما أعظم بهجتي إذا استطعت أن أجيء إلى معابدك المخربة عارياً حافي

القدمين! حيث احتفظ بالتابوت، وحيث سكن الملائكة المكرمون في

المخابئ المظلمة...

يا صهيون يا ذات الجمال الذي ليس بعده جمال، لقد اجتمع فيك الحب

والبهاء، إن أرواح أبنائك تتجه في حنان نحوك؛ وكانت أفرحك بهجتها

ومسراتها، وها هي ذي الآن تبكي في منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك،

وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة، وتسجد في صلواتها خاشعة نحو أبوابك، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكوني مسكنه الأبدى، وطوبى لمن اختاره الرب

وأنعم عليه بالراحة في داخل أبهائك.

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة

تنتشر، ومن يطلع عليه فجرك الوضأء كاملاً صافياً من سماء المشرق.

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين،

ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به في قديم الزمان(16).

صفحة رقم : 4923

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> مغامرات التلمود

الفصل الثاني

مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبي في أسبانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدي التمسك بالدين كما كان شعراؤهم في سني الأضمحلال، فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً، حسياً، رقيقاً، وينطقون بفلسفة توفق في ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليوناني. ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المنتشدون في دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسبانيا المسيحية، وازدهرت المجامع العلمية اليهودية في ظل التسامح المسيحي في طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر. لكن اليهود لم يكن حظهم في فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسبانيا، فقد كانوا يزدحمون في أحيائهم الضيقة وهم جلون، ويبدلون خبير مواهبهم في دراسة التلمود، ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين، ولم يشكوا قط في أصوله، بل انهمكوا في دراسة الشريعة. وأضحى المجمع العلمي الذي أنشأه جرشوم في مينز من أوسع المدارس نفوذاً في ذلك العصر، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم في نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكبحون في هذا العمل جيلين من الزمان. وقام بمنزل هذا العمل في فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق (1040-1105)، ويسميه بنو ملته راشي تدليلاً له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه. وقد ولد راشي في تروي من أعمال شمبانيا، وتعلم في المدارس اليهودية في ورمز، ومينز، وأسبير، ثم عاد إلى تروي وأخذ يعول أسرته ببيع الخمر، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه. وقد أنشأ مجمعاً علمياً في تروي مع أنه لم يكن حاخاماً رسمياً، وظل يعلم فيه أربعين

صفحة رقم : 4924

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> مغامرات التلمود

سنة، ووضع بالترجيح شروحا للعهد القديم ومشنا. والجمارا ولم يحاول، كما حاول بعض العلماء الأسبان، أن يجد في النصوص الدينية آراء فلسفية، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر علمه الصافي الخضم، بلغ من تقدير بني دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه. وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعه إلى مقام القديسين، وأخذت الجماعات اليهودية في جميع أنحاء أوروبا يرسلون إليه يستفتونه في المسائل الدينية والشريعة، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية. وأحزنه في شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى. وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل، ويعقوب، واسحق أبناء ماير، وكان يعقوب أول "التوسافيت"، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافات أو "إضافات".

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر جستنيان قراراً بتحريمه (553) لأنه "خليط من الصغائر، والخرافات، والمظالم، والإهانات، والسباب، والكفر، والتجديف" (17). ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود؛ ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الأرامية اللتين كتب بهما، وظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنه قد نسوا معه الكتاب المقدس. لكنه حدث في عام 1239 أن رفع لوقلاس دونين Nicholas Donin، وهو يهودي اعتنق المسيحية، إلى البابا جريجوري التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوي على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء، وتحريض على الغش والخداع في معاملة المسيحيين. وما من شك في أن بعض هذه التهم صحيح، لأن جامعي الكتاب في جدهم المتواصل قد عظموا التنايم والأموراث تعظيماً جعلهم يضمنون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفي أجزاء

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> مغامرات التلمود

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأخبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودي (18). ولكن دونين، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه، أضاف من عنده عدة تهمة أخرى، لا يمكن إثباتها: منها أن التلمود يجيز غش المسيحي، ويحبذ قتله، مهما بلغ من صلاحه، وأن أخبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التي أقسموا على الوفاء بها، وأن يقتلوا كل مسيحي يدرس الشريعة اليهودية. فما كان من جريجوري إلا أن أمر بأن يرسل إلى الراهبان الدومنيك أو الفرنسيين كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود في فرنسا، وإنجلترا، وأسبانيا، ثم أمر أولئك الراهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية، فإذا تبينوا أن هذه التهمة صحيحة فليحرقوها. ولم نعتز فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد ذا الأمر، ولكننا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام، ثم استدعى أربعة من أخصائهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب في نقاش علني أمام الملك، والملكة بلانش Blanche، ودونين، واثنين من الفلاسفة المدرسين-وليم الأوفرنى William of Auvergne، وألبرتس مجنس (Albertus Magnus 19). ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود (1240)، وشفع ولتر كرونوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها، فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الراهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك. واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود، فجيء بها إلى باريس محملة على أربعة وعشرين عربة وألقيت في النار (1242). ثم صدر أمر بابوي في عام 1248 يحرم تملك التلمود في فرنسا، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية في جميع أنحاء فرنسا عدا برفانس. وحدث مثل هذا النقاش في برشلونة عام 1263، ذلك أن ريمند البنيافورتي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> مغامرات التلمود

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين. وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات في اللغة العبرية في معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية، وساعده في هذا يهودي منتصر يدعى بول المسيحي Paul the Christian وأما فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحي واليهودي فنظم الراهب نقاشاً بين بول والحاخام موسى بن نحمان الجيروني أمام جيمس الأول ملك أرغونة. وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة. ودام الجدل أربعة أيام كان الملك في أثنائها مبتهجا، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة. وفي عام 1264 أمرت لجنة دينية بجمع كل ما في أرغونة من نسخ التلمود، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن الدين المسيحي ثم ردت الكتب إلى أصحابها (20)، وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحي في تقريره الذي كتبه للمعابد اليهودية في أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين (21)،

فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل، ولكن جيمس لم يحرك ساكناً إلا في عام 1266 حين خضع لإلحاح البابا فففى ابن نحمان من أسبانيا. وتوفي ذلك الحبر في فلسطين بعد عام من نفيه.

صفحة رقم : 4927

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العلوم عند اليهود

الفصل الثالث

العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها في بلاد الإسلام، ذلك أن المقيمين في البلاد المسيحية في العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجيء مسيح ينفذهم مما هم فيه. وتلك كلها ظروف هي أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم. غير أن الدين اليهودي كان يشجع على دراسة الفلك، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة. وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود في بابل في القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبلة السماوية. وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس، والشهور على أوجه القمر، وسموا الشهور بأسماء بابلية، وجعلوا بعض الشهور "كاملة" عدة كل منها ثلاثون يوماً، وبعضها "ناقصة" عدة كل منها تسعة وعشرون، ثم وفقوا بين التقويم القمري والشمسي بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة، وسادسة، وثامنة، وحادية عشرة، ورابعة عشرة، وسابعة عشرة، وتاسعة عشرة في كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً. وكان يهود في الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقي الذي يبدأ في عام 312 ق. م. أما في أوروبا فقد اتخذوا في القرن التاسع "التاريخ اليهودي" الحال المعروف باسم "سنة العالم Anno Mundi والذي يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون في عام 3761 ق. م. وبهذا كله أصبح التقويم اليهودي لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن .

صفحة رقم : 4928

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العلوم عند اليهود

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود في بلاد الإسلام العالم ما شاء الله (المتوفى حوالي عام 815). وقد ترجم جيرار القريموني Gerard of Cremona كتابه في الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال في العالم المسيحي. ورسالته في الأثمان هي أقدم مؤلف علمي موجود الآن باللغة العربية. وكانت أعظم رسالة في العوم الرياضية في ذلك العصر (22) هي رسالة أبراهام بن حيا البرشلوني (1065-1136) في الجبر، والهندسة، وحساب المثلثات وهي المعروفة باسم هيورها مشيحه. وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة في علوم الرياضة، والهيئة، والبصريات، والموسيقى، كما ألف في التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن. ولم يجد أبراهام ابن عزرا، في الجيل التالي، تعارضاً بين كتابه الشعر، والتبحر في التحليل التركيبي. وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية. وبفضل هذه الكتب، وفيض من الكتب الأخرى التي ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية في أوروبا ووسعت نطاق حياتها الذهنية إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة.

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج، فكتبوا عدة رسائل قيمة في الطب، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالاً في أوروبا المسيحية. ولقد ذاعت شهرة اسحق إسرايلي (855-955؟) في طب العيون بمصر ذيوماً عين بسببه الطبيب الخاص للأغلبية في القيروان. وكانت مؤلفاته الطبية، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية، تعد أهم المراجع الطبية في أوروبا بأجمعها؛ وكانت تستعمل كتباً للدراسة في سالرنو، وباريس، ونقل عنها بيرتن Burton، بعد حياة دامت سبعمئة عام، فيما كتبه عن تشريح السوداء (1621). وتصف الروايات المتواترة اسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال، وبأنه عازب عنيد في

صفحة رقم : 4929

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العلوم عند اليهود

عزوبته، وبأنه عاش مائة عام كاملة. وأكبر الظن أنه كان من معاصريه أساف ها يهودي، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت قريب، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم. ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجري من الشرايين إلى الأوردة، ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستيق بذلك هارفي (Harvey 23) إلى كشف الدورة الدموية بأكملها.

وسيطر على فن الطب في مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (1165) الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية. فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة في الرمد في القرن الثاني عشر، وألف الكوهين العطار (1275؟) كتاباً في الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن في العالم الإسلامي. وكان الأطباء اليهود في جنوبي إيطاليا وفي صقلية إحدى المسالك التي انتقل بها الطب العربي إلى سالرنو. ذلك أن شباتاي بن أبراهام (913-970) المعروف باسم ونولو والمولود في أترانتو وقع أسيراً في يد المسلمين، فدرس الطب العربي في بالرم، ثم عاد ليمارس مهنته في إيطاليا. ودرس بنفنوتس جراسس، أحد يهود أورشليم، في سالرنو، وأخذ يعلم فيها وفي منبلييه وكتب رسالة في طب العيون (1250؟) كان العالم الإسلامي والعالم المسيحي على السواء يريانها أهم رسالة في أمراض العين. وقد اختيرت هذه الرسالة بعد 224 عاماً من نشرها أول كتاب يطبع في موضوعها.

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة في جنوبي فرنسا تدرس منهاجاً في الطب، وكان من بين الأغراض التي تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين. وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدرّبوا في منبلييه على إقامة مدرسة منبلييه الطبية الشهيرة؛ ولما عين يهودي مديراً لتلك الكلية في عام 1300 جر ذلك على الشعب اليهودي حقد الأطباء في جامعة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العلوم عند اليهود

باريس، واضطرت جامعة منبلييه أن تغلق أبوابها في وجه اليهود (1301) ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفى من اليهود من فرنسا في عام 1306. غير أن الطب المسيحي كان في ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طبية. ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التي تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصاً قائماً على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة.

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتي تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود في داخل بيوت المسيحيين، فقد كانت ترتاب في أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم، وكانت تخشى تأثيرهم في العقول المريضة. وفي عام 1246 حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود، وفي عام 1267 حرم مجلس فينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحيين، غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود، مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface الثامن حين مرض بعينه استدعى لعلاجه اسحق بن مردخاي(24)، وكان ريمند للي Raymond Lully يشكو من أن بكل دير طبيباً يهودياً، وهال مبعوث بابوي أن يجد أن هذه الحال أيضاً في كثير من أديرة النساء، وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا، وكتب ششت بنفنيست Sheshet Benveniste البرشلوني طبيب جيمس الأول ملك أرغونة (1231-1276) أهم رسالة في أمراض النساء في زمانه، ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية في البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية في القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العلوم عند اليهود

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلاً من الشعب اليهودي، وكان من حقه أن يفيد من لسعة انتشاره وكثرة تنقله. بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة في القرن الثاني عشر. وهذان هما بناحيا الراتسبوني Petschya of Ratisbon وبنيمين التطيلي، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما في أوروبا والشرق الأدنى. فقد غادر بنيمين سرقسطة في عام 1160، وطاف على مهل ببرشلونة، ومرسيلية، وجنوا، وبيزا، وروما، وسالرنو، وبرنديزي، وأترنتو، وكورفو، والقسطنطينية، ولجزائر الإيجية، وإنطاكية، وكل مدينة هامة في فلسطين، وبعلبك، ودمشق، وبغداد، وبلاد الفرس. ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندي، والبحر الأحمر إلى مصر، وصقلية، وإيطاليا ومنها برأ إلى أسبانيا. ووصل

إلى موطنه في عام 1173 حيث مات بعد قليل. وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية. وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركوبولو التي كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت، ولكنها في أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة. وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً، ولا تزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود (25).

صفحة رقم : 4932

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

الفصل الرابع

نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة. والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم. وتكون إرادة الإيمان هي المسيطرة على العقل في عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة في تلك العصور هي كل ما يحتاجه الناس، أما في عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقي والتقدم، وعلى هذا فإن الحضارة في انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان، "الصراع بين العلم والدين". وفي هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الأضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هي أن ترى الحياة في كليتها، ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين. وفي عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل، تميل الفلسفة إلى الدين، وتستخدم العقل في الدفاع عن الإيمان، وتصبح ديناً متكرراً. وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التي اقتسمت فيما بينها حضارة البيض في العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء، ورأينا أكثر انطباقاً على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء. وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء في بلاد الأندلس الإسلامية.

والفلسفة الإسلامية في العصور الوسطى مصدران هما الدين العبراني، والتفكير الإسلامي. وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان في محتوياتهما ونتيجتهما، وأن كل ما يختلفان فيه هو الوسيلة والصورة: فالذي يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

صفحة رقم : 4933

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

العقل، وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة في بيئة إسلامية، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية، ومن شروح المسلمين؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء. وكما أن الأشعري وجه سلاح العقل ضد المعتزلة، وأنقذ بذلك العقيدة السنية في الإسلام، كذلك فعل سعديا الذي غادر مصر إلى بابل في نفس العام (915) حين تحول الأشعري من الشك إلى اليقين، وأنقذ الدين العبراني بطول جدله ومهارته فيه، ولم يستخدم سعديا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها (26). وكان لانتصار سعديا من الأثر في الدين اليهودي ببلاد الشرق، ما كان لانتصار الغزالي في الإسلام ببلاد الشرق، فقد عمل هذا الانتصار، مضافاً إلى الاضطراب السياسي والاضمحلال الاقتصادي، على خنق روح الفلسفة العبرانية في الشرق. وكمثلت القصة في أفريقية وأسبانيا، في القيروان وجد اسحق إسرائيلي بين مشاغله في الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير. فقد وضع رسالة في التعريف أفاد منها منطلق المدرسين مصطلحات جمة، وعرّفت رسالته في العناصر التكبير العبراني بكتاب أرسطو في الطبيعة، وأحل كتابه في النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهي التقدمي من الله إلى العالم المادي، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت في سفر التكوين؛ وكان هذا من مصادر القبة اليهودية. وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً. ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسين كانوا ينقلون أقواله في هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون وبحسبونه مسلماً أو مسيحياً، ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk في عام 1846 (27). وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهين عقول الناس لهذا الخلط إذ حاول

صفحة رقم : 4934

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودي. فقد أخذ كل مقتبساته في مجموعة أمثاله المسماة مختار اللآلي من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلاً من هذه المقتبسات، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوي على ثروة كبيرة من الحكم القوية التي تعد من جوامع الكلم. ومن هذه اللآلي لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد: "كيف يستطيع الإنسان أن يتأثر من عدوه؟ بزيادة صفاته الطيبة" (28). وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته في إصلاح الصفات الخلقية التي ألفها ابن جبيرول كما بلوح وهو في سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان. وقد اشفق الشاعر بأساليب في الاشنفاق اصطناعية جميع الفضائل والردائل من الحواس الخمس، فأدى به هذا إلى نتائج غاية في السخف. ولكن الذي يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع في عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية (29). وبهذه الجراءة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس في أهم كتبه كلها وهو كتاب "مقور حابيم" من الكتاب المقدس، أو التلمود، أو القرآن. وكان هذا البعد عن القومية هو الذي جعل الكتاب بغيضاً لأخبار اليهود، كما جعله في ترجمته اللاتينية المسماة "منبع الحياة Fous Vitae" عظيم الأثر في العالم المسيحي. وقد قبل ابن جبيرول في هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التي تسري في الفلسفة الإسلامية كلها، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذي يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان. ويقول ابن جبيرول في كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله

بوصفه الهيلولي الأول، والجوهر الأول، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة في أي شيء على الإطلاق، ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله. ولم يخلق الله الكون في زمان معين، بل هو ينساب في فيض متصل مندرج من ذات الله. وكل شيء في الكون، ما عدا

صفحة رقم : 4935

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

الله وحده يتكون من مادة وصورة، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا في الفكر وحده (30). وقد رفض أبحار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا، وقالوا إنها هي المادية المقنعة، ولكن الكسندر الهاليسي Alexandre of Hales، والقديس بونافنتور St. Bonaventure وندز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأولية الإرادة. وقال وليم الأوفروني عن ابن جبيرول إنه "أنبل الفلاسفة أجمعين" وظنه مسيحياً صالحاً.

أما يهودا هليفي فقد رفض كل تكبير فلسفي وقال عنه إنه من عبث العقل، وكان يخشى كما يخشى الغزالي أن تقوض الفلسفة دعائم الدين؛ وليس هذا لأنها تشك في عقائده، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان. وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودي، وتسرب الآراء الإسلامية إلى اليهود، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب في الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها، ونعني به كتاب الخزري (1140؟) الذي عرض فيه آرائه في صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودي. وكان من حسن حظ هليفي أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفاً، ومُلاً، وكوهناً؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل. فحين يقتبس المسلم والمسيحي من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقي الكوهن اليهودي ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكاً مطواعاً مختنئاً أصول الدين اليهودي وشعائره. ويقول التلميذ الملكي لمعلمه: "لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

صفحة رقم : 4936

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

إلا تفاصيل عن الجنة والنار" (31). ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليفي من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسماوات لقياسهم المنطقي ومقولاتهم، مع أن العقل البشري لا يعدو أن يكون جزءاً من عالم

المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه في الصغر.. والعاقل (وليس حتماً أن يكون متعلماً) هو الذي يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية، ويستمسك بالعقيدة التي جاءه بها الكتاب المقدس، ويؤمن ويصلي ببساطة الطفل(32).

ولكن افتتان الناس بالعقل قد أبقى على الرغم من هليفي، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودي. فلقد كان أبراهام بن داود (1110-1180) مستمسكاً بدينه استمسكاً هليفي، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود في الدولة الثانية، ولكنه كان يتطلع، كما تطلع العدد الذي يخطئه الحصر من المسيحيين، والمسلمين، واليهود في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه. وقد ولد كما ولد هليفي في طليطلة، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب. وقد رد على هليفي في كتابه العربي كتاب العقيدة الرفيعة بمثل ما رد به أكويانس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين، فقال إن الدفاع السلمي عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب المحاجة المنطقية، ولا يمكن أن نعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمان قليل (1126-1198)، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان (1135-1204)؛ والقديس توماس أكويانس بعده بمائة عام (1224-1274)، فبذل كل ما في وسعه من جد للتوفيق بين دين آباءه وبين فلسفة أرسطو. ولو أن الفيلسوف اليوناني شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

صفحة رقم : 4937

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> نشأة الفلسفة اليهودية

إلا من مخلصات الفارابي وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة. وكان ابن داود أكثر من القديس توماس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيليني المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها، لا النفس الفردية، هي الخالدة(33). وهنا كان يحق لهليفي أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود، فلقد بدأت الفلسفة اليهودية، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى، وها هي ذي تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك. وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيليني الذي وقفه ابن داود، ويواجه في شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل في صراعه مع الدين.

صفحة رقم : 4938

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

الفصل الخامس

ولد أعظم عظماء اليهود في العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضي ميمون بن يوسف. وسمي الغلام موسى، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم: "لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى". وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميموني. ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعي الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رميم، وعبر العالم المسيحي عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides. وتقول إحدى القصص التي يغلب على الظن أنها من الخرافات الذائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس، وإن أباه الذي خاب فيه رجاؤه سماه "ابن الجزار" وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن(34). ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثاني في آداب الدين وآداب الكتاب المقدس، والطب، والعلوم الرياضية والهيئة، والفلسفة. وكان ثاني اثنين هما أعلم أهل زمانه، ولم يكن يضارعه في علمه إلا ابن رشد. ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا في مدينة واحدة ولم يكن بين مولدهما إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالأخر كما يلوح. ويبدو أن بن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه(35).

واستولى البربر على قرطبة في عام 1148 وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفي، فغادر ابن ميمون أسبانيا في عام 1159 هو وزوجته وأبنائه، وأقاموا في فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون(36)، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

وبرر ابن ميمون تظاهرة الإسلام بين اليهود المهددين بالخطر في مراكش بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداءً عملياً بل كل ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها، وإن المسلمين أنفسهم يعرفون أنهم غير مخلصين في النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصبين(37). لكن كبير أحبار اليهود في فاس لم يوافق على هذا القول، وكان جزاؤه أن قتل في 1165. وخشي ابن ميمون أن يلقي هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية (1165) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منيته. وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه، فاخترت طبيياً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين، وللقاضي الفاضل البيساني وزير صلاح الدين. واستخدم ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد(38). وفي عام 1177 عين ابن ميمون نجيداً أو زعيماً لليهود في القاهرة، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين (1187) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة

القتل التي هي جزاء المرتدين. ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل لذي أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق(39).

وفي سني العمل المتواصل التي أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه. ومن هذه المؤلفات عشرة كتب في الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط، وجالينوس، وديسقوريدس، والرازي وابن سينا. وقد اختصر في كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تشمل كل فرع من فروع الطب، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية، وكثيراً ما كان ينقل عنه في أوروبا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة: "قال الحبر موسى". ووضع مقالة في تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ومقالة أخرى في الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر

صفحة رقم : 4940

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية، وعن عجز القوة الجماعية، وعن الانتصاب الدائم، وعن الأدوية المقوية للباه.

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها في موضوع واحد منها مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة، ومقالة في الربو، وأخرى في البواسير، ورابعة في السوداء-مقالة جامعة في شرح العقار. وتحتوي هذه الكتب الطبية، كما تحتوي سائر الكتب، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا لزمان السريعة التبدل-المعصومة من الخطأ-كقوله إنه إذا كانت الخصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً(41)؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة في مساعدة المرضى، ببحثها الذي يمتاز بالتسامح والمجاملة في الآراء المتعارضة، وبما يسري فيها من طابع الحكمة والاعتدال في النصح ووصف الدواء. ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء(42). وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج(43). وكان يظن أن الخمر تقيد الصحة إذا شربت باعتدال(44)، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلي والخلقي وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر(45).

وبدأ ابن ميمون في الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا، وظل يكدر في هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية، والطبية، والأسفار الخطرة برأً وبحراً. ولما نشر هذا الشرح في القاهرة عام 1158 باسم كتاب السراج رفع ابن ميمون من فور هو-كان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره-إلى منزلة بين شراح التلمود عليها إلا منزلة راشي، وذلك

صفحة رقم : 4941

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

بفضل ما يمتاز به من الوضوح، وغازرة المادة، وصدق الأحكام. وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستشيراً مشنا التوراة، وقد رتب فيه نظام منطقي، وإيجاز واضح، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير. ويقول في مقدمة الكتاب: "لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة (تكرار الشريعة) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة (الأسفار الخمسة) لأول مرة، ثم يقرأ هذه المجموعة، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج في ذلك إلى الرجوع إلى أي كتاب آخر" (46)، وقد أغفل فيه بعض ما ورد في التلمود من قواعد خاصة بالفعال والطيرة، والتائم، والتنجم، فكان ذلك من بين مفكري العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم (47). وقد قسم الأوامر الواردة في الشريعة والبالغ عددها 613 أربعة عشر قسماً وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان "بكتاب". ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية. ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد، وهو مجلد ضخم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلي كله.

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذي صدر بعده وهو: دلالة الحائرين، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد. بل إنه قد حاول جهده لكي يرجع المعجزات الواردة في الكتاب المقدس إلى علل طبيعية، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ في أسفار موسى الخمسة موحى به من الله، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل (48). ولعله كان يشعر بأن اليهود لا يستطيعون أن يكون اعتقادهم في الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه، ولعله هو أيضاً كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعي بغير الاعتقاد في قدسية أصل القانون

صفحة رقم : 4942

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الحضارة اليهودية - عقل اليهودي وقلبه - ابن ميمون

الأخلاقي. وكان ابن ميمون وطنياً شديداً الحب لوطنه لا يقبل في عقيدته جدلاً "يجب على جمع بني إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد في التلمود البابلي، وعلينا أن نرغم اليهود في جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التي قررها حكماء التلمود" (49). وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين في أيامه، فكان يعتقد أن غير اليهودي المتمسك بأهداب الفضيلة، المؤمن بوحداية الله، يدخل الجنة، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو الترمكادا، ويقول إن اليهود الذين يبنذون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا، و "من رأيي أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التي بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا" (50). وقد استبق أكويناس في الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة "أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هي رحمة بالعالم" (51)، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التي يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر، والقتل، ومضاجعة المحارم، وعبادة الأوثان، والسرقه بالإكراه، وخطف الأشخاص، وعصيان الأبناء للأباء، وخرق حرمة السبت (52). ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها، تقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين. ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة في أوروبا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة، ولكن الآراء المسيحية، والعادات اليهودية أيضاً في أغلب الأحيان، كانت أرحم من القوانين اليهودية في هذه الأمور (قبل أيام محكمة التفتيش).

وإن في نصيحة ابن ميمون التي يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر: "إذا قال للكفرة لبني إسرائيل:

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

أسلمونا أذككم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل" (53). وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالم وهو ينحدر إلى الشيخوخة، فقد أيد في هذه السن قول أحبار اليهود إن "اللقيط العالم (بالشريعة) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل". وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات في كل يوم لكسب العيش وتسعى لدراسة التوراة. وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس. وينصح طالب العلم بالألا يتزوج حتى يكتمل علمه، ويتخذ له حرفة، ويشترى له منزلاً (55)، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء، ولكن لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة في كل شهر.

"نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة في هذه العلاقة أيضاً، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك، بل يجب عليه أن يؤدي الواجب الزوجي في ليلة الجمعة... ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا في حالة سكر، أو فتور، أو حزن، وألا تكون الزوجة نائمة في ذلك الوقت" (56).

وهكذا ينشأ أمر الحكيم الذي:
"ينصف بالتواضع الجم، ولا يكشف رأسه أو جسمه... ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم، حديثه مع الناس جميعاً ظروف... بتجنب المبالغة والتصنع في الحديث، يعدل في حكمه على الناس، يؤكد فضائل غيره، ولا يتحدث عن أحد بسوء" (57).
ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى: "فالرجل الحكيم لا يأكل في بيته ومن مائدته" (58). وهو يدرس التوراة في كل يوم حتى

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

يموت، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتي ويعيد إسرائيل إلى صهيون، ويقود العالم كله إلى الدين الحق، وإلى الوفرة، والأخوة، والسلام: "تقنى جميع الأمم أما اليهود فياقون غلى أيد الدهر" (59).

وعضب أحبار اليهود من مشنا التوراة، فقلما كان في وسع أحد منهم أن يعفو عما يرمي إلى من إحلال كتابه محل التلمود مع ما في هذا من جراءة، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزي إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها. ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً في عصره،

فارتضاه جميع يهود المشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم، وخيل الناس في جيل من الزمان أو الجاؤنية قد عادت إلى الوجود. ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالي، فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين، وجه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودي من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين في مصر، وفلسطين، وشمال أفريقيا، وأصدر إلى العالم اليهودي بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو: دلالة الحائر (1190)، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى: مودة نوح حيم، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية في القرن الثالث عشر.

ويقول في مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة في الكتب المتنبهة، أي في العهد القديم. ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معانٍ متعددة، حرفية، ومجازية، ورمزية فمنها ما إذا أخذ بمعناه الحر في كان عقبة كؤوداً في سبيل المخلصين لدينهم،

صفحة رقم : 4945

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان. أولئك ينبغي ألا يخبروا بين الدين بلا عقل وبين العقل بلا دين. وإذا كان العقل قد غرسه الله في الإنسان، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحي الإلهي، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا في رأي ابن ميمون- أننا نأخذ بمعناها الحرفي بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التي هي من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس. ولقد قال أبحارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً... ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ما له من مواهب، وما عليه إدراكه من ضعف. أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء (61).

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث في الذات الإلهية فيستنتج مما في الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلاً سامياً يسيطر على هذا الكون، ولكنه يسخر من الرأي القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان (62)؛ فالأشياء لم توجد إلا لأن الله، وهو مصدرها وحياتها، موجود: "ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لا ستنبع هذا أن لا شيء غير ممكن الوجود". وإذ كان لا بد بهذه الطريقة من وجود الله، فإن وجوده متلازم مع جوهره. و"الشيء الذي يحتوي في ذاته على ضرورة وجوده، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أياً كانت". وإذ كان الله عاقلاً، فلا بد أن يكون غير ذي جسم؛ وعلى هذا فكل ما ورد في الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شيء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً. والحق، كما يقول ابن ميمون (ولعله يحذو في قوله هذا الحذو المعتزلة)، أننا لا نستطيع

صفحة رقم : 4946

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود، بل إن الصفات غير الجسمية التي نصفه بها كالعقل، والقدرة على كل شيء، والرحمة، والحب، والوحدة والإرادة كلها من نوع الجناس فهي إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان. ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله، وليس في وسعنا أن نعرفه، ولا ينبغي لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو نثبت له شيئاً من أي نوع كان. فإذا قيل في الكتاب المقدس إن الله أو الملك "كلم" الأنبياء، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً، والنبوة هي تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء، وهي فيض "الذات الإلهية" عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية، فالذي يقصه الأنبياء لم يحدث في الواقع وإنما حدث في هذه الرؤيا أو الحلم، وعلينا أن نفسره في معظم الأحوال تفسيراً مجازياً (64) "ولقد قال بعض حكمائنا في وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود، وإنما خلقه الشعراء خلقاً... ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق" (65). وهذا الإلهام التنبؤي في مقدور أي إنسان إذا نمى مواهبه إلى أقصى حدود النماء، ذلك بأن العقل البشري إلهام مستمر، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة.

وبعد فهل خلق الله العالم في زمان معين، أو أن الكون ذا المادة والحركة، كما يظنه أرسطو، أزلي؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يختار فيه العقل؛ فليس في وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه؛ وإذن فالمتمسك بعقيدة آباءنا القائلة بخلقه (66)، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة في سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزياً: فأدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح، وحواء هي المادة المنفصلة وهي مصدر كل شر، والأفعى هي الخيال (67). ولكن الشر ليس له وجود ذاتي موجب، وإنما هو انتفاء الخير؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة؛ وقد تكشف النظرة الكونية في كل شر ما هو خير للكل أو ما هو

صفحة رقم : 4947

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

في حاجة إليه (68). وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التي تجعل منه إنساناً بحق؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً؛ والله تعلم مقدماً بهذا الاختيار، ولكن ليس هو الذي يقرره ويحتمه.

وهل الإنسان مخلد؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه، فهو يتجنب هذا السؤال في كتاب دلالة الحائرين، ولا يشير إليه إلا بقوله "إن النفس التي تبقى بعد الموت ليست هي النفس التي تعيش في الإنسان حين يولد" (69). وهذه النفس أو العقل "المنفعل" وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته؛ أما الذي يبقى فهو "العقل المكتسب" أو "العقل الفعال" الذي وجد قبل الجسم، وليس وظيفة من وظائف على الإطلاق (70). وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تتكرر كما يبدو الخلود الفردي. ولقد أنكر ابن ميمون في مشنا التوراة فكرة بعث الجسم وسخر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقورياً، وقال إن تصويرها على هذا النحو في الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلاً لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم (71). وأضاف في دلالة الحائرين إلى قوله هذا أن: الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصائها إلا حين تكون قوى كائنة في الجسم؛ وينطوي قوله هذا، كما يبدو، على أن الروح غير المادية التي تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردي. وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية في الإسلام واليهودية. ولما كتب دلالة الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء في العالم الإسلامي؛ فقام عبد اللطيف، وهو عالم من علماء المسلمين، بسفبه لأنه "يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التي يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها" (73). وكان صلاح الدين وقتئذٍ منهمكاً في حرب حياة أو موت من الصليبيين؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

الدين، وكان في هذا الوقت، بنوع خاص، أكثر بغضاً للإلحاد منه في أي وقت آخر لأن الإلحاد في ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية، والمسلمون منهمكون في حرب مقدسة، بأشد الأخطار. ولهذا أمر في عام 1191 بإعدام السهرودي، وهو صوفي زنديق؛ ونشر ابن ميمون في الشهر نفسه مقالة في بعث الموتى عبّر فيها مرة أخرى عن تشككه في عقيدة الخلود الجسمي ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب.

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين، وانصرف هو إلى عمله الطبي وإلى كتابة فتاوي دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودي. ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون، وكان وقتئذ يترجم دلالة الحائرين إلى اللغة العبرية، أنه يرغب في زيارته حذره من أن يظن أنه سيحدثه في أي موضوع علمي ولو مدة ساعة واحدة باللي أو بالنهار لأن عمله اليومي يجري على النحو الآتي: "فأنا أقيم في القسطنطينية بينما يقيم السلطان في القاهرة على بعد مسيرة يومي سبت (ميل واحد ونصف ميل). وواجباتي نحو نائب السلطان جد ثقيلة؛ فعلي أن أزوره في كل يوم في الصباح الباكر، وإذا ما كان هو، أو أحد أبنائه، أو أي فرد في داخل حريمه، منحرف المزاج، فلن أجرؤ على مغادرة القاهرة بل عليّ أن أقيم معظم النهار في القصر... ولا أعود إلى القسطنطينية إلى ما بعد الظهر... وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع. ولكنني أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس، من رجال الدين، وموظفي الدولة، والأصدقاء، والأعداء... فأنزل عن دابتي، وأغسل يدي، وأرجو مرضاي أن يصبروا عليّ حتى أتناول بعض المرطبات. تلك هي الوجبة الوحيدة التي أتناولها كل أربع وعشرين ساعة. ثم أستقبل مرضاي... وأظل كذلك إلى أن يحل الليل،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> ابن ميمون

وقد أستمر على ذلك في بعض الأحيان حتى تمضي من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين، فأصعب لهم الدواء وأنا مستلق على ظهري من فرط التعب، حتى إذا جن الليل تكون قواي قد خارت حتى لا أستطيع الكلام. ولهذا لن يستطيع إسرائيل أن يجتمع بي على انفراد إلا في يوم السبت. ففي ذلك اليوم يقبل عليّ جميع المصلين، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير، بعد صلاة الصبح، ليتلقوا عليّ بعض العلم... ونظّل ندرس معاً حتى الظهر ثم نفترق (74).

وقد أنكهت هذا الجهد قواه قبل الأوان. وقد طلب إليه ريتشارد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه.

وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً، ثم توفي عام 1204 في التاسعة والستين من عمره، ونقلت رفاقه إلى فلسطين ولا يزال قبره قائماً في طبرية.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الحرب الميمونية

الفصل السادس

الحرب الميمونية

لقد أحس العالم الإسلامي والعالم المسيحي بتأثير ابن ميمون كما أحس به العالم اليهودي، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون دلالة الحائرين بإشراف معلمين من اليهود؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس في جامعتي منبلييه وبدوا، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسي ووليم الإوفرنى يقتبسانه في جامعة باريس. واقتفى ألبرنس ماجنس أثر ابن ميمون في كثير من المسائل، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر في آراء الحبر موسى ليفنדהا إن لم يكن لغرض آخر. وكان اسبنوزا ينتقد التفسير المجازي للكتاب المقدس الذي يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه "أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل" (75)، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله (76). أما في الدين اليهودي نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً؛ وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً: فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى في منصب النجيد وطبيب البلاط عام 1205؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام، وابن حفيده سليمان بن أبراهام في زعامة يهود مصر. واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون في الفلسفة، وأتى على الناس حين من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الحرب الميمونية

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة في تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة، ورفض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية، نقول أصبح هذا كله من الطراز الحديث. فقبل مثلاً إن قصة إبراهيم وسارت ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا عرض رمزي وحقيقة رمزية (77). وبدا أن صرح الدين اليهودي كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود. وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة: قاومها شمويل الفلسطيني، وأبراهام بن داود البسكويري of Posqi(res)، ومييير بن نادر هليفي أبو العافية الطليطلي، ودون أستروك اللونلي Don Asteuc of Lunell، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه، وجناح بن أبراهام جيروندي الأسباني، وكثيرون غيرهم. واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه "بيع الكتاب المقدس للإغريق"، وشنوا الغارة على المحاولة التي تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود، ونددوا بتشكك ابن ميمون في عقيدة الخلود، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازي لا يحرك أية نفس نحو النقي ولصلاح. وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين وندسوا قبر ابن ميمون (78).

وفرقت الحروب الميمونية شمل الجماعات اليهودية في جنوبي فرنسا في الوقت الذي أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبجنسية. وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد في الجامعات، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرسون العلوم والآداب النجسة،

صفحة رقم : 4952

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الحرب الميمونية

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً-ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمي جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعمه داود قمحي، ويعقوب بن مخير تبون بأن أقتعوا يهود لوندل، وبزيير ونربونة في بروفانس، ويهود سرقسطة في أسبانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين. فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجراً من الأولى وأكثر منها إثارة للدهشة: ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش في منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً. ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التي أمكن الحصول عليها في احتفال عام في منبلييه عام 1234 وفي باريس عام 1242 ثم أحرق التلمود نفسه في باريس بعد أربعين يوماً. وأثارت هذه الحوادث حنق أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف، فقبضوا على كبار المشايخين لسليمان في منبلييه، واتهموه بالوشاية بأبناء دينهم اليهود، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل (79). وندم الكوهن جناح على اشتراكه في إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه، وكفر عن عمله هذا علناً في كنيسها، وحج تائباً إلى قبر موسى بن ميمون. ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أي علم من العلوم النجسة. وأيده في هذا ابن نعمان وأشر بن يحيل، حتى إذا كان عام 1305 أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط، الزعيم القوي المبجل ليهود برشلونة، قراراً بحرمان كل يهودي يعلم أي علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب، أو أية فلسفة غير يهودية، أو يجرؤ على دراسة شيء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره. وكان رد أحرار منبلييه أن حرّموا كل يهودي يمنع

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> الحرب الميمونية

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية(80). ولم يكن لكلا القرارين أثر في دائرة واسعة، فقد ظل شبان اليهود في أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة، غير أن ما كان لأردوط وأشر في أسبانيا من نفوذ: وازدياد الاضطهاد والخوف في جميع أنحاء أوربا الخاضعة وقتئذ لمحاكم التفتيش، دفعا الجاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية. وضعت عندهم دراسة العلوم، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هي المسيطرة على المدارس العبرية، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الديني والعداء الشامل، توارت هذه الروح في الصوفية والتقوى الدينية.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> القبلة

الفصل السابع

القبلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت، ذلك أن العلم يضيق الآمال، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ. وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون، ستاراً من آلاف الخرافات، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقي والتمايم، وأخافوا أنفسهم وأبنائهم بالحديث عن الساحرات والأغوال، وأضاعوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام، وتبينوا في الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية.

والتصوف اليهودي قديم قدم اليهود أنفسهم، تأثر بالأثينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهي بعملية الخلق، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً، وبالتيوصوفية الغنوسية (مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله) السائدة في سوريا ومصر؛ والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك في صحتها (الأبوكريفا)، وبالشعراء والمتصوفة في الهند ومصر، وبكنيسة

العصور الوسطى المسيحية. لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة في عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم. ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه، شروح سرية لقصة الخلق الواردة في سفر التكوين وفي الإصحاحين الأول والعاشر من سفر حزقيال؛ وقد حرمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به. وكان الخيال حراً تطبيقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم، وما سوف يكون بعد فناء

صفحة رقم : 4955

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> القبلية

العالم. وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هي أداة الله الخالقة للكون مثلاً سامياً لهذه الأفكار الفلسفية. وكان للإسنيين كتابات سرية، يحرصون على كتمانها عن سواهم، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالاً خفية عن خلق العالم. وجعلت أسماء يهوه التي لا يصح النطق بها ذات قوى خفية، وكانت حروفه الأربعة-النترجرام-تهمس في الأذان على أن لها معنى خفياً، وتأثيراً معجزاً، لا تنقل إلا العقلاء ذوي الأفهام الناضجة. وكان عقيبا يقول إن أداة الله في خلق العالم هي التوراة أو أسفار موسى الخمسة، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفياً وقوة خفية. وكان بعض الجاونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة. وكان العلماء يعيثون بضروب السحر الأسود والأبيض-أي القوى العجيبة التي يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين. وكان لاستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس والتعاويد، والتمائم، والرقي، ومعرفة الغيب، والقرعة، كان لهذه كلها شأنها في الحياة المسيحية. وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم؛ فكانت النجوم في هذه الكتب حروفاً هجائية وكتابات في السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها(81).

وظهر في وقت ما في القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الخفية في بابل يعرف باسم سفر يصيرا أي كتاب الخلق. وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفي يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه. ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بوساطة عشرة سفروثات Sefiroth-أعداد أو أصول هي: روح الله، وفيوض ثلاث منها: الهواء، والماء، والنار،

صفحة رقم : 4956

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> القبلية

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار، وثلاثة أبعاد إلى اليمين. وهذه الأصول هي التي حددت محتويات العالم، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون والصور والأشكال التي يستطيع بها العقل البشري فهم عملية الخلق. وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر. ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالي عام 840 هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا، وبروفانس، وأسبانيا. وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها في نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم. واتخذ أبراهام بن داود "التقاليد السرية" وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية. وأكبر الظن أن ابنه اسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر هباهير أو كتاب الضوء (1190؟)، وهو شروح صوفية للإصحاح الأول من سفر التكوين. وقد استبدلا في هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الرباني الواردة في سفر بصيرا لمفكرة الضوء، والحكمة، والعقل. وعرض هذا التثليث للعقل الإلهي بوصفه ثالوثاً يهودياً (82). وعرض ألعرز من يهود ورمز (1176-1238)، وأبرام بن شمويل أبو العافية (1240-1291) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود. وقد استخدمنا وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهباني والزواج التي كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان.

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية في جميع مظاهرها ونتاجها وفي عام 1295 نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى سفر زوهر أو كتاب المجد وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاي أحد علماء القرن الثاني، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكتبوا لقرائه المستترين الأسرار التي كانت من قبل محتفظاً بها إلى أيام المسيح المنتظر.

صفحة رقم : 4957

قصة الحضارة - عصر الإيمان - الحضارة اليهودية - عقل اليهودي وقلبه - القبلة

وقد جمعت في الزوهر كل عناصر القبلة: فكرة الإله الشامل لكل شيء الذي لا يعرف إلا عن طريق الحب، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهو-النتراجوامتون-، والأوساط الخالقة، والفيوض الربانية، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير، وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره، وأزلية الروح وتقلها، والمعاني الصوفية للطقوس الدينية والأعداد، والحروف، والنقط، والشرط، واستعمال الكتابات الجفرية، والحروف الأولى من العبارات التي إذا جمعت كونت اسماً خاصاً، وقراءة الكلمات عكساً لا طرداً، والتفسير الرمزي لنصوص الكتاب المقدس، والقول بأن حمل المرأة وإن كان في تجسيد لسر عملية الخلق. وقد شوه موسى الليوني عمله حين جعل شمعون بن يوحاي يشير إلى خوف حدث في روما عام 1264 ويقول بعد آراء لم تكن، كما يلوح، معروفة قبل القرن الثالث عشر، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس، ولكنه لم يخدع زوجته، وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى في شمعون خدعة مالية بارعة (83). وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آرائهم هم معزوة إليه.

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى، وظل الزوهر وقتاً ما كتاباً يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم، مفرط في التقطيع المنطقي؛ وتأثر بعض علماء التلمود، ومنهم ابن نحمان العالم التحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية. وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة، وبأنها وحي من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوروبا (84). ويقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ في مؤلفاتهم العلمية والفلسفية، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبي في سخر الزوهر الوضاء. وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتنن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> القبلة

بها بعض مفكريهم؛ فأخذ عنها ريمند للي (Raymond Lully 1235؟-1315) أسرار الأعداد والحروف من كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا (Pico della Mirandola 1463-1494) أنه قد وجد في القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح(85)، واغتنى براسلسس Pracelsus، وكورنليوس Cornelius، وأجربا Agrippa، وروبرت فلد Robert Fludd وهنري مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها، وأقر يوهانس روتشلين (Johonnes Rucelin 1455-1523) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم (Jakob B(hme 1575-1624). وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى في الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كثرت عن نابها لليهود، وأرغمتهم في سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة، والبائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العتق

الفصل الثامن

العتق

لقد وجد يهود العصور الوسطى في عزلة جماعاتهم، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقذ المنتظر، ومما كان يبتابهم من الاضطهاد حيناً بعد حين، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة. فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التي تذكرهم بتاريخهم، وخطوبهم، ومجدهم التليد، وعدلوا في صبر وأناة احتفالاتهم التي كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية. فكان القراءون المنقرضون يحتفلون بالسبت في البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرین ليقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة، وكان أحبارهم يعضون النظر عن هذه المخالفة؛ وكانوا يفتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهرن فيها سخائم وأبهتهم: فكانت

الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد، وفي خطبة ابن أو بنت وزواجهما، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد ديني. وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلاً، وعشر نساء، وخمس بنات؛ وجميع أقارب الداعي حتى الطبقة الثالثة. وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملاً، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه. وكان العروسان يتوجان بالورد، والريحان، وأغصان الزيتون، وينثر في طريقهما النقل والقمح وتنتثر فوقهما حبوب الشعير رمزاً للإخلاص؛ وكانت الأغاني والنكات تصاحب كل مرحلة من

صفحة رقم : 4960

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العتق

مراحل هذا الحادث، وفي أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتهن يستأجر لئتم للحاضرين سرورهم. وكانت نكات هذا المهرج في بعض الأحيان صادق إلى حد القسوة، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلال الظريف: "إن كل زوجة جميلة" (86).

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضي يحتفل بانقضائه وحاول جيل آخر مكانه، وبيتهج. ولد أبناء أبنائه، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة. ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ في صور رمبرانت Rembrandt. نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد، ولحاهم تنفث الحكمة، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة، ولكنها قد رتقها الحب الحنون. وليس في صفات السلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشباب عند اليهود، الحب الذي يتغاضى عن جميع الزلات، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة، والكرامة التي تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة.

واليهودي إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية: "كن أول من يذهب إلى الكنيس"، وها هي ذي وصية ألعزر (1337) من أهل مينز تقول: "لا تتكلم في أثناء الصلاة وردد الاستجابات، واعمل الخير بعد الصلاة".

وها هي ذي آخر وصايا اليهودي: غسّلوني، ومثّطوا شعري ودرموا أظفاري، كما كنت أفعل في حياتي، كي أسير طاهراً إلى مقري الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس كل سبت وضعوني في الثرى على يد أبي اليمنى، فإذا ضاق المكان قليلاً فأني واثق من أنه يحبني حباً يجعله يفسح لي مكاناً بجانبه (87).

فإذا ما لقط الشخص نفسه الأخير أقل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

صفحة رقم : 4961

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> الحضارة اليهودية -> عقل اليهودي وقلبه -> العتق

أو أقربائه مقاماً فاهه وأغمض عينيه، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة، وتلف في قماش التيل النقي النظيف. ويكاد كل يهودي أن يكون عضواً في جمعية للدفن، تأخذ الجثة، وتعنى بها، وتقوم بأخر الشعائر الدينية، وتصحبها إلى قبرها. وكان حملة بساط الرحمة يسرون في الجنازة حفاة، وتسير النساء أمام النعش، ينشدن نشيداً حزيناً، ويدقن طبلة. وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة. وكان تابوت الميت يوضع عادةً بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو "الرقود مع الآباء" و "الاجتماع بالأهل". ولم يكن المشيعون يستولي عليهم اليأس، فقد كانوا يقولون أنه وإن مات الأفراد فإن بني إسرائيل لن يموتوا.

صفحة رقم : 4962

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> هرقل

الكتاب الرابع

العصور المظلمة

566 - 1095

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطي

565-1095

إذا حولنا الآن نظرنا من الجانب الشرقي للنزاع الدائم بين الشرق والغرب، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تتناوبها محنتان في وقت واحد: تمزقها الانقسامات في الداخل، ويهاجمها الأعداء من جميع الجهات في الخارج. فقد كان الأفار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضي الإمبراطورية وبلدانها، وكان الفرس يستعدون لاجتياح أسية الغربية؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا، واستولى للمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (568). وفشا الطاعون في جميع أنحاء الإمبراطورية في عام 542 وعاد إليها مرة أخرى في عام 566؛ وعمتها المجاعة في عام 569؛ وعطلت الحروب، والهمجية، والفقر، وسائل الاتصال، ووقفت في سبيل التجارة، وقضت على الآداب والفنون. وكان لفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية، ولكن المشاكل التي واجهتهم لم يكن في وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> هرقل

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع. وقاتل جستنين الثاني (565-578) الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال؛ ولم تكد الآلة تضن على تيبيريوس الثاني بكل ما لديها من الفضائل، ولكنها اختصرته بعد حكم عادل قصير. وهاجم موريق الأفار الغزاة بشجاعة ومهارة، ولكنه لم يلق من الأمة إلا قليلاً من التأييد، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة فراراً من الخدمة العسكرية؛ ولما أن نهى الموريق الأديرة عن قبول أعضاء جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه. وتزع قوقاس الذي عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامّة على الأشراف والحكومة (602)، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه؛ وأبى الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل ابنها هي به؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب وألقيت جثثهم في البحر. وذبحت الإمبراطورة قسطنطينية، وبناتها الثلاث، وكثير من الأشراف، وكان مقتلهم مصحوباً في العادة بضروب من التعذيب، بعد محاكمة أو بغير محاكمة، فسملت أعينهم، واقتلعت أسننتهم من أفواههم، وبترت أطرافهم، وارتكبت الفظائع التي تكررت فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية.

وأفاد كسرى الثاني من هذا الاضطراب، وجدد الحرب القديمة حرب الفرس واليونان، وعقد قوقاس الصلح مع العرب، ونقل الجيش البيزنطي كله إلى أسية، ولكن الفرس هزموه في كل واقعة التقوا بها فيها، واستولى الأثار على جميع الأراضي الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلاً منها، دون أن يلقوا مقاومة، واستغاث أشراف العاصمة

بهرقل إمبراطور أفريقية اليوناني، ودعوه لينتقد الإمبراطورية وينجي أملاكهم. لكنه اعتذر محتجاً بكبر سنه، وأرسل إليهم ابنه. وجهاز هرقل الأصغر عمارة بحرية، جاء بها إلى البسفور.

صفحة رقم : 4964

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> هرقل

وخلع فوقاس، وعرض جثة للمغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب، ونودي به إمبراطوراً (610).. وكان هرقل خليفاً باسمه ولقبه، فقد شرع بعزيمة سميها الهرقل الأسطوري يعيد تنظيم الدولة المحطمة، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب المعنوية، ويعيد قوة الجيش، وينظم موارد الخزانة، ووهب الأرض الزراع على شريطة أن يؤدي أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية. وفي هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (614)، وتقدموا إلى خلقدون (615)؛ ولم ينفذ عاصمة الدولة وأوروبا إلى الأسطول البيزنطي. ولم يمض بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جحافل الآفار على القرن الذهبي، وأغاروا على أرياض العاصمة، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء. وكانت نتيجة خسارة الأراضي الخصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب على المدينة، وأرغمت الحكومة على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين (618)، وفكر في هرقل في يأس أن ينقل جيشه إلى قرطاجنة، وأن يأمل منها استرجاع مصر. ولكن الأهلين والقساوسة منعوه من المسير، ورضي البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة الكنيسة اليونانية بفائدة، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم (3). ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس. وكانت الحروب التي أعقبت هذا الزحف آيات في التفكير والتنفيذ. فقد واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات، هزم فيها كسرى عدة مرات، وحاصر في أثناء غيابه جيش من الفرس، وجحافل من الآفار، والبلغار والصقالبة مدينة القسطنطينية (626)؛ فسير هرقل جيشاً هزم الفرس في خلقدون، ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة. ودق هرقل أبواب طيسفون، وسقط كسرى الثاني، وطلبت فارس الصلح، وردت

صفحة رقم : 4965

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> هرقل

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين.

ولم يكن هرقل خليفاً بمصيره الذي جله العار في سن الشيخوخة. فبينما هو يبذل ما بقي لديه من نشاط في إصلاح شئون الإدارة بعد أن هد المرض قواه إذا انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (634)، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى، واستولت على بيت المقدس (638)، ثم استولت على مصر بينما كان الإمبراطور يعاني سكرات الموت

(641). وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاها الخراب على الأخرى بحروبها العوان. وواصل العرب انتصاراتهم في أيام قنسطانس الثاني (642-668)؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية، ف قضى آخر سني حياته في الغرب ثم قتل في سر قوسة. وكان ابنه قسطنطين الرابع بجنونوتس Pogonotus أقدر منه أو أسعد حظاً. ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى في خلال السنين الخمس الحاسمة (673-678) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا "النار الإغريقية" التي ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة. وكان هذا السلاح الجديد، الذي يعزى اختراعه إلى كلينيوس Calcinus السوري من نوع قاذفات اللهب المستخدمة في هذه الأيام، فهو مزيج حارق من النفط، والجير الحي، والكبريت، والزفت، يلقي على سفن العدو أو جيوشه في سهام ملتهبة، أو يصب عليها من أنابيب، أو يقذف في صورة كرات من الحديد مغطاة بالكثبان ونسألته المغموسة في الزيت، أو يوضع في قوارب صغيرة وتشتعل وتوجه إلى العدو. وأفلحت الحكومة البيزنطية في الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثماً دينياً؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر، واستخدموا "النار الإسلامية" في حرب الصليبيين. وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس في العصور الوسطى في العالم كله إلى أن اخترع البارود.

صفحة رقم : 4966

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> هرقل

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى في عام 717، فعبّر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها. ثم جهز العرب في الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور، وكانت تظلل المضيق، على حد قول أحد الإخباريين، كأنها غابة متحركة. وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية في هذه الأزمة، بدل ثيودوسيويس Theodosius الثالث الضعيف العاجز، قائد محنك هو ليو "الإسوري" Leo The Isaurian، وشرع ينظم وسائل الدفاع، فوزع قطع الأسطول البيزنطي بمهارة وحنكة، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية؛ فلم يمتض إلا القليل من الوقت حتى اشتعلت النار في كل سفينة من سفن العرب، فلم تكد تبقى على واحدة منها. ثم هجم الجيش اليوناني على المحاصرين، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام.

صفحة رقم : 4967

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> محطمو الصور والتماثيل الدينية

الفصل الثاني

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قليقية، ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد في هذا الإقليم من أبوين أرمنيين؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية، وأخذ يربي الضأن، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنة ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثاني وأصبح ليو فيما بعد جندياً في حرس القصر، ثم قائداً لفيلق الأناضول، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار؛ وكان ليو رجلاً طموحاً، قوي الإرادة، مثابراً، صبوراً؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرات جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه؛ كما كان بعد ذلك سياسياً محنكاً، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة، وأصلح نظام الضرائب، وخفض من أعباء رقيق الأرض، ووسع نطاق الملكية الزراعية، ووزع الأراضي على الفلاحين وعمر الأقاليم المهجورة، وعاد النظر في القوانين، ووضعها على أساس إنشائي حكيم، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطي. ولعله قد نشبت نفسه وهو في صباه بأسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين، واليهود، والمانيين، واليعاقبة، ومن تعاليم القديس بولس، وكلها نذم عكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل، والحرص الشديد على المراسم والطقوس، والاعتقاد بالخرافات. ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الإصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا: "تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه بهيمة ما مما على الأرض... الخ". وكانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> محطمو الصور والتماثيل الدينية

وتعدها بقايا عن الوثنية، وتنتظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة. ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر في القسطنطينية والشرق الهلنستي، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية. ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم؛ فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور. ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب، بل عظموا معها خشبة الصليب. حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوي العقول الساذجة طليماً ذا قوة سحرية عجيبة. وأطلق الشعب العنان لفطرته فحول الآثار، والصور، والتماثيل المقدسة، إلى معبودات، يسجد الناس لها، ويقبلونها، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها، ويتوجونها بالأزهار، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي. وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص، كانت ترى الصور المقدسة، في كل مكان - في الكنائس، والأديرة، والمنازل، والحوانيت -، وحتى أثاث المنازل، والحلي، والملابس نفسها لم تخل منها. وأخذت المدن التي تتهددها أخطار الوباء، أو المجاعة، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية أو على ما فيها من الأولياء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث؛ وكم من مرة نادى آباء الكنيسة، ونادت مجالسها، بأن الصور ليست آلهة، بل هي تذكير بها فحسب(4)، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة. وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط في التدين من جانب الشعب. وخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة، وحز في نفسه ما كان يوجهه المسلمون، واليهود، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن

للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم. وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة، ويضمن تأييد النساطرة، واليعاقبة،

صفحة رقم : 4969

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> محطمو الصور والتماثيل الدينية

فبعد مجلساً من الأساقفة، وأعضاء مجلس الشيوخ، وأذاع بموافقتهم في عام 726 مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، وحرّم تصوير المسيح والعذراء، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور. وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم، ولكن الرهبان وصغار القساوسة احتجوا عليه، وثار عليه الشعب، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم. ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر، وسيرت أسطولا ليستولي على العاصمة. ودمر ليو هذا الأسطول، وزج زعماء معارضييه في السجون. وفي إيطاليا، التي لم تتمح منها في يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية، أجمع الشعب كله تقريباً على معارضة المرسوم؛ وطرقت مدائن البندقية، ورافنا، وروما عمال الإمبراطورية، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور. وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة؛ فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (730)، ولكنه لم يعتد عليه، وبلغ من رافة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام 741 تحتفظ بمظلماتها وفسيفسائها سليمة.

وسار ابن قسطنطين الخامس (741-775) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف "كبرونيموس Copronymus" (المشتق من الدبال). وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية (754)، حرّم عبادة الصور والتماثيل، ووصفها بأنها عمل "ممقوت"، وقال إن "الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها". ولعن "الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

صفحة رقم : 4970

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> محطمو الصور والتماثيل الدينية

به الناس إلا بقلوبهم(5)، وأمر بأن يمحي ويدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل. ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال، فسجن من قاومه من الرهبان أو ساط عليهم ألوان العذاب، فسلمت الأعين، واقتلعت الألسنة، وجدعت الأنوف مرة أخرى، وعذب البطريق وقطع رأسه (767). وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنري الثامن فيما بعد، فأغلق أديرة الريان والراهبات، وصادر أموالها، وحول مبانيتها إلى أغراض غير دينية، ووزع أرضها على

محاسبية. وجمع عامل الإمبراطورية في إفسوس، بموافقة الإمبراطور، رهبان الولاية وراهباتها، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (6). وظل هذا الاضطهاد يجري في مجراه خمس سنين (763-771). وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (775-780) على أن يقسم بالجري على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر. وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيته الضعيفة؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (780-797)، ورشح أرملته إيريني وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد. وحكمت إيريني الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير. وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها، فأنتهت في هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم، ودعت رجال الدين في العالم المسيحي إلى مجمع نيقية الثاني (787)، حيث أعاد 350 من الأساقفة، بزعامة مندوبي البابا، تعظيم الصور المقدسة-لا عبادتها-وقالوا إنها تعبير مشروع عن التقي والإيمان المسيحيين.

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد في عام 790؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب في أن تتخلى له سلطانها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب ظريف على فعلته، فأعادها إلى بلاطه، وأشركها معه في حكم

صفحة رقم : 4971

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> محطمو الصور والتماثيل الدينية

الإمبراطورية (792)؛ فلما كان عام 797 عملت على سجنه وفقء عينيه، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها "إمبراطوراً" لا إمبراطورة. وظلت خمس سنين تصرف شؤون الإمبراطورية بحكمة ودهاء، فخفضت الضرائب، ووزعت الهبات على الفقراء، وأنشأت المؤسسات الخيرية، وجملت العاصمة. وأحبها الشعب ورحب بها، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال. وخرج عليها في عام 802 محطمو الصور والتماثيل، وخلعوها، ونادوا بنقفور وزير ماليتها إمبراطوراً. واستسلمت إيريني لمصيرها في هدوء، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها، فوعدها أن يجيب طابعها، ولكنه نفاها إلى لسبوس، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالخياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً. وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها، ورفعها الكنيسة إلى مقام القديسين.

صفحة رقم : 4972

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

الفصل الثالث

إذا أردنا أن نلقي نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً تطلب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات- ولنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرنه من دسائس القصور، والثورات، والاعتقالات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين في الجنوب، والصقالية والبلغار في الشمال. وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة: فقد حافظت الإمبراطورية خلال ظروف تاريخها، وتقلباته، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص، على القسط الأكبر من التراث اليوناني: احتفظت بالنظام الاقتصادي ثابتاً متصلاً، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة لبركليز وأغسطس، ودقديانوس، وقسطنطين. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فهي صورة موسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسيهم، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولمظاهر الأبهة والترف، والعيون المسمولة، والأنوف المجدوعة، والبخور والقتل والغدر، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقروا هل تحكم الإمبراطورية القوة أو الأساطير، السيف أو الكلام. وهكذا نمر بنقفور الأول (802-811) وحروبه مع هارون الرشيد، وميخائيل الأول (811-813) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه، وليو الخامس الأرمني (813-820) الذي حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذي اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة، وميخائيل

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

الثاني (820-829) الأمي "المتلج" الذي عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها(7)، وثيوفيلس (829-842) المشترك المصلح، والملك البناء، والإداري الحي الضمير الذي أحيأ سنه اضطهاد محطمي التماثيل وقضى عليه الزحار، وأرملته ثيودورا التي حكمت البلاد نيابة عنه حكماً قديراً (842-856) وأنهت عهد الاضطهاد، وميخائيل الثالث "السكير" (842-867) الذي أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولاً ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها. ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية.

فقد ولد باسل المقدوني (862؟) بالقرب من هدريانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع. وأسرره البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب في البلاد التي كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية، ثم فر منهم وهو في الخامسة والعشرين من عمره، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائساً لخيوله لأنه

أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه. وصحب سيده في بعثة إلى بلاد اليونان، وهناك استأفقت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها. ولما رجع إلى العاصمة روض جواداً جموحاً يملكه ميخائيل الثالث، فأدخله الإمبراطور في خدمته. وظل يرتقي فيها حتى صار رئيس النشريات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة. وكان باسيل على الدوام قديراً فما يوكل إليه من الأعمال، سريع الاستجابة لها؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجاً لعشيقتة، طلق باسيل زوجه القروية، وأرسلها إلى تراقية مع باننة طيبة، وتزوج يودوسيا Eudocia التي ظلت في خدمة الإمبراطور. وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقتة، ولكن المقدوني ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته، فأقنع ميخائيل بأن بارداس يأتمر به ليخلعه، ثم قتل بارداس بيديه الضخمتين (866)، وكان

صفحة رقم : 4974

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

ميخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل إمبراطوراً وترك له جميع شئون الحكم. ولما هدده ميخائيل بعزله، دير باسيل اغتياله وأشرف على هذا الاغتيال بنفسه، وانفرد هو بالإمبراطورية (867)، وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوي الكفاية حتى في عهد الملكيات الوراثية المطلقة، وهكذا أنشأ ابن الفلاح الأمي غير المثقف بتدبيره جرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهداً، وبدأ حكماً دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة، والقوانين الصالحة، والقضاء العادل، والخزانة الغاصة بالمال، وبيضاء الكنائس والقصور الجديدة في المدينة التي استولى عليها. ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته؛ ولما أن مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد، انتقل الملك من بعده بهدوء غير معهود إلى ولده.

وكان ليو السادس (886-912) مكماً لما في أبيه من نقص: كان متعلماً، كثير القراءة، ميلاً لعدم الحركة، دمث الأخلاق؛ ويقول الثرثارون المغتابون أنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل، ولعل يودوسيا نفسها لم تكن متأكدة من أبوته. ولم يكسب لنفسه لقب "الحكيم" بشعره ولا برسالته في الدين، والإدارة، والحرب، بل كسبه بإعادته تنظيم شئون الحكم الإقليمي والكنسي، وصياغة القوانين البيزنطية، وتنظيمه الدقيق للصناعة. ومع أنه كان تلميذاً للطريق العالم فوتيوس Photius معجباً به، وكان هو نفسه خاشعاً تقياً، فقد هز مشاعر رجال الدين، وسلى الشعب، بأربع زيجات، ماتت منها الأوليان دون أن تتجبا أبناء؛ وأصر ليو على أن يكون له ولد لأن هذا هو السبيل الوحيدة لوقاية الدولة من حرب الوراثة، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية للكنيسة الزواج الثالث، وأصر ليو على رأيه، وتوَّجت زوي Zoe زوجته الرابعة إصراره بولد.

وسمى قسطنطين السابع (912-958) البرفير وجنتس - "المولود

صفحة رقم : 4975

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

الأرجون"- أي في الشقة المبطنة بالبرفير المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات. وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبي، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية. وألف لابنه كتابين في فن الحكم: أحدهما في ولايات الدولة وثانيهما كتاب في الاحتقالات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وأداب اللياقة. وأشرف على جمع مؤلفات في الزراعة، والطب، والطب البيطري، وعلم الحيوان، ووضع "تاريخاً للعالم مستمداً من المؤرخين" بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته، ولكنه كان ازدهاراً على طريقها المصقولة الهزيلة.

وربما كان رومانوس الثاني (958-963) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه. وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano؛ وظن أنها دس السم لحميها وعجلت موت رومانوس؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثاني فوقاس، واغتصب القائد العرش وغضت هي النظر عن ذلك الاغتصاب. وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإريطش (كريت) (961)، ثم أخرجهم من قبرص في عام 965، ومن إنطاكية في عام 968، وكانت هذه الانتصارات هي التي زلزلت أركان الخلافة العباسية. وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود في حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم؛ ولكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء، ولو أنه فعل لكان محتملاً أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام. وفقد نقفور مطامعه وأوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين. وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلاً القائد تريميسيس Tzimisces. وقتل هذا القائد نقفور (969) واستولى

صفحة رقم : 4976

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم، ولكن القتل ندم على فعلته، ونبذ خليلته، ونفاها من البلاد، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة. وكان الإمبراطور الذي خلفه على العرش من أقوى الشخصيات في تاريخ بيزنطية. وقد ولد باسيل الثاني لرومانوس وثيوفانو في عام 958، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتريميسيس، ثم بدأ (976) وهو في الثامنة عشرة من عمره حكماً منفرداً دام خمسين عاماً. واكتنفته في بداية الحكم المتاعب من كل جانب: فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه، وأمد سادة الإقطاع الذين اعترم أن يفرض عليهم الضرائب المتأمرين عليه بالمال، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas Sclerus قائد جيش الشرق، فأخذ بارداس فوقاس ثورته، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً، وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تريميسيس في بلاد الشام، وبلغت قوة البلغار أوجهاً، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب. وقلم باسيل أظفار الفتنة، واسترد أرمينية من المسلمين، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً. وبعد أن تم له النصر على البلغار في عام 1014 وسمل عيون 15.000 أسير، ولم يترك إلا عيناً واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة في عودتها إلى صمويل قيصر البلغار، وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتونوس Bulgaroctonus) ولعل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً له. ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على "الذين أثروا على حساب الفقراء". فحاول بما سنه من القوانين في عام 996 أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار. وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين في صقلية حين وافته المنية وجاءه وهو في الثامنة والستين من عمره. ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغت في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

أيامه من السعة، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ما كان لها في عهده من القوة. ودب الضعف مرة أخرى في جسم الإمبراطورية في عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (1025 - 1028). ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات، فأقنع رومانوس أرجيروس Romanus Arguros أن يتزوج زوي Zoe كبراهن، وكانت سنهما وقتئذ قرب من الخمسين. وحكمت زوي بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (1028 - 1034)، وميخائيل الرابع (1034 - 1042)، وميخائيل الخامس (1042)، وقسطنطين التاسع (1042 - 1055)؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصلح من حكمها. فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد في الدولة والكنيسة، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة 5300 رطل من الذهب (2.226.00 ريال أمريكي) كان قد خباها في حوض ماء، ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis، وجد في حجراته مخبأً يحتوي مائة ألف رطل من الفضة (27.000.000 ريال أمريكي) (9). ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة، وجلست الأختان زوي وثيودورا قاضيتين في أعلى محكمة في الدولة، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم. ولم يكن أحد يضارع زوي في نزاهتها؛ من ذلك أنها تزوجت قسطنطين التاسع وهي في الثانية والستين من عمرها، وكانت تعرف أن براعتها في تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشيء القليل من جمالها الظاهري، سمحت لزوجها الجديد أن يأتي بعشيقته اسكلرينا لنعيش معه في القصر الإمبراطوري. واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما، ولم تكن زوي تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده (10). ولما مات زوي (1050)، أوت ثيودورا إلى دير للراهبات،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق؛ فاختر لمعاونته رجالاً من ذوي الكفاية والثقافة، وأعاد تجميل كنيسة أيا صوفيا، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء، وناصر الأداب والفنون. ولما مات (1055) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها في الدير، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة. وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ في الرابعة والسبعين من عمرها؛ ولكنها ماتت في عام 1065 مينة مفاجئة، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها في البلاد، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً، ولكن الجيش فضل عليه القائد اسحق كمينيوس، وكانت معركة

واحدة كافية لحسم النزاع، فترهب ميخائيل، ودخل كمينيوس العاصمة في عام 1075 إمبراطوراً. وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً، كان قوامه العنف، والحرب، والزنى، والتقي، والإدارة الممتازة. واعتزل اسحق كمينيوس الملك بعد عامين، ورشح له خلفاً له قسطنطين. دو كاس Constantine Ducas، وأوى هو إلى دير، ولما توفي قسطنطين (1076) حكمت أرملته يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة، ولكن مطالب الحرب كنت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة، وأشد حزماً، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً. وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (1071)، فعاد إلى القسطنطينية يجلبه العار؛ ثم خلع، وسجن، وسملت عيناه، وترك ليموت من جروجه التي لم يعن بها أحد. ولما جلس على العرش كمينيوس الأول (1081) ابن أخي اسحق كمينيوس خيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (1076) وأخذوا يزحفون على أسية الصغرى، وكانت قبائل البتريناك Patzinak والكومان Cuman تقترب من القسطنطينية إلى الشمال، والنورمان يهاجمون

صفحة رقم : 4979

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

الحصون البيزنطية الأمامية في البحر الأدرياتي. وكان لجيش والحكومة يفت في عضدهما الخيانة، والعجز، والفساد، والجبن. وواجه ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء، فوجه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة للنورمان ليثيروا بها الفتنة، ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه بأسطولها على النورمان، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش، ونزل إلى ميدان القتال بنفسه، وانتصر في عدة معارك بفضل مهارته في الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية وقتاً استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها، ووهب بهذا كله الإمبراطور المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى. فلما كان عام 1095 لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد. ذلك أنه استعاث بالغرب لمساعدة الشرق المسيحي، وعرض في مجلس بياسنزا أن تعود الكنيسة اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوربا ضد المسلمين؛ وكانت هذه الاستعانة هي وغيرها من العوامل التي أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية المعروفة بالحروب الصليبية، والتي قدر لها أن تنفذ بيزنطية ثم تقض آخر الأمر عليها.

صفحة رقم : 4980

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

الفصل الرابع

وصلت الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى في بداية القرن الحادي عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة في أوج مجدها أيام جستنيان، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية، فانتزعت من المسلمين أسية الصغرى، وبلاد الشام الشمالية، وقبرص، وروُدس، وخلقيدية، وإقريطش (كريت)؛ وعاد جنوبي إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Manga Grecia تحكمه القسطنطينية، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط، وانتصر المذهب المسيحي اليوناني في البلقان وروسيا، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة، وبلغ إيراد الدولة في القرن الثالث عشر، ما يوازي 2.400.000.000 دولار من نقود هذه الأيام(11).

وكانت القسطنطينية نفسها في أوج عزها، تفوق روما القديمة والإسكندرية وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها في التجارة والثروة، والترف والجمال، والرفقة والفن. وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأُنفس(12) من الآسيويين والصقالبة-الأرمن، والكبوكيين، والسوريين، واليهود، والبلغار، واليونان أنصاف الصقالبة، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين، والروس، والطلينان، والمسلمين؛ وتغشيم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان. وكان في داخل الإطار الخارجي المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل، والذي تدور فيه الحياة المنتجة الخصيبة في العاصمة البيزنطية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

ألف نوع ونوع من المنازل-ذا السقوف الهرمية والسطوح أو القباب-ذات شرفات، ويوانك، وحدائق أو عرائش؛ وأسواق غاصة بحاصلات العالم كله، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة، والأروقة الظليلة، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة في أسوار حصينة؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذي الثلاثة أجنحة، وقصر باسيل الأول الجديد، وقصر نقفور فوقاس الريفي المؤدي بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمره؛ وكنايس "بعدد ما في السنة من أيام" كما يقول أحد الرحالة"، بعضها تحف فنية غاية في الإبداع، ومذابح تضم أتمن ما في العالم المسيحي من مخلفات وأكثرها تعظيماً وإجلالاً؛ وأديرة لا يستحي من فيها من فخامة مظهرها، تضطرب من داخلها بالقدسيين ذوي الكبرياء، وكنيسة أيا صوفيا التي تجدد زينتها على الدوام، تتلألأ فيها الشموع والمصابيح، مثقلة بالبخور؛ رائعة المناظر المهيبه، تتردد في جنباتها الترانيم الرنانة التي لا تترك شكاً في النفوس.

وكان في داخل قصور الأشراف وكبار التجار في المدينة، وبيوت الريف المقامة في مؤخرتها على شاطئ البحر، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التي لا تحرمها العادات والتقاليد السامية: رخام من كل صنف ولون، وصور على الجدران وفسيفساء، وتمائيل وخزف جميل، وسجف تنزلق على عصى من الفضة، وأقمشة مصورة على الجدران، وطنافس، وحرائر، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج، وصحائف من الفضة والذهب؛ في هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطي، رجال ونساء حسان الوجه والقوام، عليهن أثواب من الفراء والحريير الجميل اللون الموشى بالمخمرات، لا ينقصن في رشاقتهن، ومغامراتهن الحبية، وديانسهن عن أهل باريس وفرساي في عهد آل بوربون. ولم تعرف

صفحة رقم : 4982

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أبيه أو عطوراً أذكى أو جواهر أثنى أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر. وكانت النار تبقى متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلبها تعطير الملكات والأميرات (13). ولم تكن الحياة في أي وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً، وأكثر حفلات، واستقبالات، ومناظر؛ وألعاباً، واستمساكاً بالمراسم، وأشد مراعاة لأداب اللياقة منها في ذلك الوقت. وكان الأرسنقراط المتأصلون في أرسنقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور، يتباهون بأثوابهم الجميلة، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يباليون بالرجال الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم، وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله في أنية وعلى مذابح من الرخام، والمرمر، والفضة، والذهب. ويقول ربرت الكلاري Robert of Clari إن القسطنطينية في ذلك الوقت كانت تحوي على "ثلثي ثروة العالم كله"، "وحتى العامة أنفسهم" كما يقول بنيمين التطيلي "من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك" (15).

ووصفها أحد كتاب القرن الثاني عشر فقال: "إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن في ثرائها، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً في رذائلها" (16). ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكاناً فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء. فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة، وفي نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى لادين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً في بيوت الحريم وأعمال الإدارة، واعتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التي لا تتقطع. وكانت جماهير

صفحة رقم : 4983

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانقسامات العنصرية، والطائفية، والدينية، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار، متعطشة للدماء، تضطرب وتثور من أن إلى أن، ترشوها الدولة بوجبات الطعام المكونة من الخبز والزيت والخمر بلا ثمن؛ ويسيلها سباق الخيل ومصارعة الوحوش، والرقص على الحبال، والتمثيلات الصامتة الفاحشة البذيئة في الملاهي، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع. وكانت قاعات الميسر لا يخلو منها مكان، وتكاد بيوت العاهرات توجد في كل شارع، بل كانت في بعض الأحيان "تلاصق أبواب الكنائس" (17). واشتهرت نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح والتجرد من الضمير. وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر، والتنجيم، والتنبيؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتمائم ذات القوة المعجزة. وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل اختفاء اللغة اللاتينية. وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سبيل من الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية، ولم يستعوضوا عنها إلا بالألفاظ الجوفاء. ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع المتطرف في دينه وشهوته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون بعد لهُو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان، ويؤدون الأعمال الدنيوية وهم كارهون. وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم يغدقون الصدقات على المستشفيات وملجئ الأيتام، والعجزة، ونزل المسافرين المجانية (18). وكانت طبقة الأشراف، التي يخيل إلى الناس أن الترف والراحة ديدها وشغلها الشاغل كل يوم، تضم مئات من الرجال يقبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيره يختلط بها الطمع في الكسب وإنشاء، واستطاعوا بطريقة ما، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات وما يحاك حولهم من الدسائس، أن يبقوا الدولة من كل كارثة تلم بها، وأن

صفحة رقم : 4984

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحي في العصور الوسطى. وكانت البيروقراطية التي أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت في مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة في إدارة شئون الحكم: وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة. وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكري (استراتيجوس Strategos)، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامي. واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتي وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً في النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة؛ فبينما كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريرق، والغوغاء، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطي. وبينما كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين، وبينما كان غرب أوربا يتعثّر في فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الهمجية، كان العالم البيزنطي يعرض بالنواجد على نطاق جستنيان ويوسع نطاقه، فكانت قوانين جستين الثاني Jutsln II وهرقل "الجديدة"، والقوانين "المختارة" التي سنّها ليو الثالث والمراسيم الملكية التي نشرها ليو السادس، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى، كانت كل هذه قد كيفت مجموعات قوانين جستنيان كي تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة. ووهبت كتب القوانين العسكرية، والكنسية، والبحرية، والتجارية، والريفية، الأحكام القضائية في الجيش والكنيسة، والأسواق والثغور، والضياح، والبحار، نظاماً وثقة بين الناس، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها؛ وكانت مدرسة القانون في القسطنطينية في القرن الحادي عشر المركز الثقافي للشئون غير الدينية في العالم المسيحي. وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم روما -ألا وهو

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

القانون الروماني خلال ألف عام من الأخطاء والتغييرات، حتى إذا ما بعث بعثاً جديداً في بولونيا Bologna في القرن الثاني عشر أحدث انقلاباً عظيماً في القانون المدني لأوروبا اللاتينية والقانون الكنسي للكنيسة الرومانية. وكان القانون البحري البيزنطي الذي سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لروندس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية في العالم المسيحي في العصور الوسطى؛ وقد أصبح في القرن الحادي عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه في جمهوريتي تراني Trani وأملفي Amalfi الإيطاليتين، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانوني في عصرنا الحاضر.

أما القانون الريفي فكان محاولة صادقة جديرة بالتناء للوقوف في وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفرحين الأحرار. فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من أسية إلى تراقية وبلاد اليونان. وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم في داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم في خارجها؛ وعلى هذا النحو استقر القوط في تراقية والبريا، والمبارد في بانونيا، والصقالبة في تراقية ومقدونية وبلاد اليونان؛ ولم يستهل القرن الحادي عشر حتى كان الجنس الصقلي هو الجنس الغالب في البلوبونيز، وحتى كثر عدد الصقالبة في أتكا وتساليا. وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين ينضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر. وكان عمل العبيد في القسطنطينية مقصوراً في الواقع على العمل في المنازل، أما في غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تقترب عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد. ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوي dynatoi أي "الرجال الأقوياء"، أو الكنائس، أو الأديرة، أو المستشفيات التي ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس. وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية، ولكنهم

مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية. وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالي، والحراس، وعبيد المنازل، ويحيون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن. وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير وشر في قصة السيدة دنييلس Damielis محسنة باسيل الأول. ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلاثمائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras. وحملت معها لمحبوبها الإمبراطوري هدايا أثنى مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطي: منها أربعمئة شاب، ومائة خصي، ومائة عذراء. ومنها أربعة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً، ومائة قطعة أخرى من النيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب)، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب. وقد تخلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لديها إلى ابن باسيل، ووجد ليو السادس أنه قد وهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف، وأكداساً من النقود

صفحة رقم : 4987

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين، والمنسوجات الغالية، وما لا يحصى من الماشية، وآلاف من العبيد(19). ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطاناً، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شديداً على أي ملك أو إمبراطوراً. ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو. من ذلك أن شتاء 928-927 القارس قد أعقبه قحط ووباء، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش. ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور "مرسوماً جديداً" يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم "أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء"؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التي ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف "التمن المجزئ"؛ وأجاز لكل من باع أرضه أن يشتري في خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالتمن الذي باعه به، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر؛ وظل تركيز الملكية يجري في مجراه، وزاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن - إلى القسطنطينية إن استطاعوا - إلى المعيشة من الإعانات الحكومية. وجدد باسيل الثاني النضال بين الأباطرة والأعيان، فأصدر في عام 996 مرسوماً يبيح للبايع أن يستعيد في أي وقت ما باعه من الأرض بالتمن الذي باعه به؛ وألغى عقود الأراضي التي استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام 934؛ وأمر بأن تعود هذه الأراضي من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير تمّن. واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين، ونشأ من ذلك في الشرق البيزنطي في أزمنة غير متصلة، قبل بداية القرن الحادي عشر، نظام معدل من أنظمة الإقطاع. ولكن جهود الأباطرة لم تذهب

صفحة رقم : 4988

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

كلها أدراج الرياح، ذلك أن من بقوا من الزراع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع، والبساتين، والكروم، والمناحل، والمراعي، ونشأت في ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه في العصور الوسطى، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر يضارع تقدم الصناعة في تلك البلاد.

واصطبغت الإمبراطورية الشرقية في ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوروبا اللاتينية الواقعة في شمال جبال الألب، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون بجد في الكشف عن مناجم الرصاص؛ والحديد، والنحاس، والذهب واستغلالها. وكانت القسطنطينية مائة مدينة غيرها - أزمير، وطرسوس، وإفسوس، ودورزو، وراجوسا، وبتراس، وكورنثة، وطيبة، وسلانك، وهديانوبل، وهرقلية، وسليميريا-تترد فيها أصوات دابغي الجلود، وصانعي الأحذية، والسروج، والأسلحة، والصابغ، وصناع الحلبي، وطارق المعادن، والنجارين، والحفارين على الخشب، وصانعي العجلات، والخبازين، والصباعين، والنساجين، والفخاريين، وصانعي السيفساء، والنقاشين. وكانت القسطنطينية، وبغداد، وقرطبة، في القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجاري تكاد تضارع في سرعة حركتها وجنونها أي حضرة من الحواضر في هذه الأيام. وظلت العاصمة اليونانية، بالرغم من المنافسة الفارسية تتزعم العالم الأبيض في إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ويلبها في هذا أرجوس، وكورنثة، وطيبة. ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاتاً أحراراً. وكان صعاليك القسطنطينية وسلانك يحسون

صفحة رقم : 4989

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

بسوء حالهم، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد، محبة للكسب، متصدقة، مجدة، ذكية، محافظة أشد المحافظة. وانتظمت الصناعات الكبرى بصناعاتها، وفنائيتها، ومديريتها، وتجارها، ومحاميتها، ورجال مالها في جماعات نقابية-سستماتا-Sytemata- تحدرت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة في الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية. وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها، وبأثمانها، وبأساليب صناعتها، وشروط البيع؛ وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها، وكانت القوانين في بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور. أما الصناعات الصغرى فكانت تترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردي. وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً، ورخاء، واتصالاً، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة(20).

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعويضها، وبمراقبة الأهوسة، والموائى وتنظيم التأمينات والقروض بضمن السفن، وتشن حرباً شعواء على القرصنة، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوروبا ثباتاً. وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل في جميع الأعمال التجارية فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع، وتحتكر تجارة الحبوب والحريز، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات، وضرائب على المبيعات(21). وكادت هي تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها في سيادتها التجارية القديمة على بحر إيجه والبحر الأسود بسماعها إلى التجار الأجانب- الأرمن، والسوريين، والمصريين، والألمفبيين والبيزيين، والبنادقة، والجنوبيين، واليهود، والروس، والقطانيين-ينقل

صفحة رقم : 4990

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> الحياة في بيزنطة

معظم بضائعها هي، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها. وكان الربا مباحاً، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة بانثي عشر أو عشرة، أو ثمانية عشر في المائة، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان وكان رجال المصارف كثيرون العدد، ولعل المرابين في القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل(22)، ووضعوا أوسع نظام للانتمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر.

صفحة رقم : 4991

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وحذقه، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم، إحياء عجيب للأدب والفنون في القرنين التاسع والعاشر. ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الروماني. فأضحت اللغة اليونانية في الشرق البيزنطي من أيام هرقل هي لغة الحكومة، والأدب، والشعائر الدينية، ولغة الحديث اليومي. وأصبح التعليم له يونانياً، وكان كل حر من الذكور، وكثير من النساء، بل وكثير من الأرقاء، يتلقى قدرأ ما من التعليم؛ وأحيا قيصر بارداس Caesar (863Baradas) جامعة القسطنطينية التي تركت لتضمحل وتوت، كما تركت الآداب بوجه عام؛ خلال ما حدث من الأزمات في عهد هرقل؛ وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج في فقه اللغة، والفلسفة، وعلوم الدين، والهيئة، والرياضة، والأحياء، والموسيقى، والآداب؛ وحتى لبيانيوس الوثني ولوشيان الكافر كانا متعلمين. وكان التعليم في العادة من غير أجر للطلاب ذوي المؤهلات، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين. وكثرت في

البلاد دور الكتب العامة والخاصة، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التي جر عليها النسيان ذبوله في الغرب المضطرب. وكان انتقال التراث اليوناني في هذا النطاق الواسع منبهاً للعقول ومقيداً لها معاً. فقد كان من جهة مقوياً للتفكير وموسعاً لمداه، ومشجعاً على الخروج من

صفحة رقم : 4992

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة؛ والجدول الديني. ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم، وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توائم النساء المثقات ذوي الفراغ؛ والرجال المتقنين الذين لا يعملون. وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها. وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحلها الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أنقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب.

وشهدت الإسكندرية عصرها آخر من عصور النهضة العلمية شبيهاً بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحلون اللغة، ويبحثون ويلخصون في علم العروض، ويؤلفون الكتب المجملة، والتواريخ العالمية، ويجتمعون المعاجم والموسوعات والدواوين. ففيه (917) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الديوان اليوناني. وفيه (976) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة. وألف ثيوفانيس (حوالي 814) وليو الشماس (المولود في عام (950) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها، وألف بولس الإيجيني (Paul of Aegine 815-890) موسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأريباسيوس Oribasius، وتتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب، وعن اليواسير، وعن قنطرة المثانة، واستخراج الحصاة منها، والإخصاء، ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام حار (23). وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً حامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكي (حوالي 850)، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد. ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

صفحة رقم : 4993

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة. وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك في نقاش مسائل هندسية في قصره. وأعجب الخليفة بعلمه، واستمع بشغف عظيم إلى

ما قاله عن معلمه، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه. واستشار ليو في ذلك موظفاً بيزنطياً، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور، ثيوفيلس، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً. وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف في الرياضة والهيئة، والتنجيم، والطب، والفلسفة ويعلمها. وعرض عليه المأمون عدة مسائل في الهندسة والهيئة وسرّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألفى رطل من الذهب إذ أعاره ليو على أجل قصير. ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة سلانيك لكي يبعده عن تناول يد المأمون (24). وكان ليو، وفوتئوس Photius، وبسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة. فأما فوتئوس (820؟-891) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى في خلال ستة أيام من رجل عادي إلى بطريق، فكان بذلك من رجال التاريخ الديني، وأما ميخائيل بسلوس (1018؟-1080) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور، مستشاراً للملوك والملكات، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين، وفي وسعه أن يبهر الناس في كل موضوع، ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش ديني وكل ثورة في القصر. ولم يكن يسمح بحب الكتب أن يطغى على حبه الحياة؛ وكان يعلم الفلسفة في جامعة القسطنطينية، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة؛ ثم دخل ديراً، فلما وجد حياة الأديرة أهدأ من أن تطاق عاد إلى الدنيا، وكان رئيساً للوزراء من 1071 إلى 1078؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة في السياسة، والعلوم، والنحو، واللاهوت، وفقه القانون، والموسيقى والتاريخ. ويسجل كتابه المعروف

صفحة رقم : 4994

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

باسم كروتوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازي التي حدثت في مائة عام (976-1078) بصراحة، وحماسة وكبرياء (فقال عن قسطنطين التاسع إنه كان "رهين إشارة بسلوس" (25)). وها هي ذي فقرة من وصفه للثورة التي أعادت ثيودورا إلى العرش في عام 1055 نضربها مثلاً لما قلناه:
وكان كل (جندي في الجمع) مسلحاً: فكان واحداً منهم يحمل بلطة قصيرة اليد، وآخر يحمل بلطة حربية، وثالث يحمل قوساً، ورابع يحمل حربة. وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة، وأخذوا جميعاً يهرولون في اضطراب عظيم... إلى مسكن ثيودورا... ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم. وترك الغوغاء النصح ولجئوا معها إلى العنف، فاستل بعض خناجرهم، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوا، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس، وألبسوها ثياباً فخمة، وأركبوا جواداً، وأحاطوا بها، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفياً، حيث قدم لها جميع السكان عظاماً هم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم (26).
وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغت رسائل شيشرون، وكانت خطبه، وأشعاره، وكتبه حديث الناس في زمانه؛ وكانت ملحمة الخبيثة ونكاته القائلة حافزاً مثيراً وسط علم معاصريه الجم التقييل. وإذا ما وازناه هو وفوتئوس وثيوفانيس بأبناء الكوين Alcuin، وبراباني Rabani وأبناء جريبرت Gerbert الذين كانوا يعيشون في الغرب في أيامه، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل.
وكان الفن أبرز نواحي النهضة البيزنطية. ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت في خلال الفترة الواقعة بين 726 و842 تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت المجسم أو بالصور وإن كانت الثانية أقل صرامة

صفحة رقم : 4995

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

منها في الأولى. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررتة من الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية، ونبهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية وتصويرها وتزيينها فقد اتخذ موضوعات لفنه بدل آلهة الأسرة الإمبراطورية والأشراف المناصرين لها، والحادثات التاريخية، ووحوش الغاب، ونبات الحقول وفاكهتها، وما يجري في البيوت من حوادث تافهة. وأنشأ باسيل الأولى في قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة، وزينها كلها" على حد قول كاتب معاصر "باللؤلؤ الجميلة، والذهب، والفضة البراقة، والفسيفساء، والحريير، والرخام مما لا يحصى أنواعه"(27). ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التي أزيح عنها الستار حديثاً في كنيسة أيا صوفيا. وقد أعيد بناء قبتها الوسطى في عام 975 بعد أن دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتي تمثل المسيح جالساً على قوس قزح، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء في عام 1028. وكانت هذه الكنيسة الضخمة تتبع فيها الحياة الدائمة، كما تتبع في الكائنات الحية، بموت أجزائها وتجديدها. واشتهرت أبوابها البرنزية التي وضعت فيها عام 838 بجمالها الممتاز شهرة جعلت ذوي الشأن يأمرؤن بأن تصنع في القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتني كازينو Monte Casino، وكنيسة أملي، وباسلقا سان بولو القائمة في خارج أسوار روما. ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع في القسطنطينية عام 1070 قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطي. وكن القصر الملكي أو "القصر المقدس" الذي كانت النيا مُصلاًة مجموعة متزايدة من الحجرات، وأبهاء الاستقبال، والكنائس والحمامات، والأجنحة المنعزلة والحدائق، والدهاليز ذات العمدة، والأبهاء. ولما جلس إمبراطور على العرش إلا أضاف إليه شيئاً جديداً وخلق ثيوفيلس على هذه المجموعة مسحة شرقية جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكونكوس Triconchos

صفحة رقم : 4996

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

وهو اسم مشتق من المحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكون ثلاثة من جوانبها- وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين. وقد شاد في الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفي الجهة الجنوبية منها عدة من الباياقا Beliaka أو حجرات الشمس، والكاملات وهي حجرات ذوات سقف من الذهب، وعمد من الرخام الأخضر، وفسيفساء غاية في الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجالاً ونساءً يجمعون الفاكهة. وهذا النقش نفسه فقد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذي نحسبه مرجلاً مليئاً بالأزهار. وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنورا Magnaura، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب، وترقد على جانبي المقعد الملكي حيوانات خرافية مجنحة ذهبية، وعلى الأرض أساد أقدامها تحت قدميه. فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبي قامت الحيوانات الخرافية، ووقفت الأساد الذهبية، وهزت أذيالها، وزارت، وغنت الطيور أغاني آليه(28) وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر هارون الرشيد ببغداد.

وكان المال الذي ينفق في تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية في الدولة. ولكن ما بقي من هذا المال كان يكفي لتزيين عواصم الولايات زينة أقل من زينة العاصمة الكبرى. فقد قامت الأديرة، بعد أن أعاد إليها الثراء، فخمة كثيرة العدد، وعاد إليها ثراؤها: ففي القرن العاشر أنشئ دير لافرا Lavra ودير إفرون Iviron في أثوس Athos وفي القرن الحادي عشر أقيم دير دافني Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis. وتعد فسيفسائه التي لا تكاد تفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطرز البيزنطي

صفحة رقم : 4997

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

الأوسط. واشتركت بلاد الكرج، وأرمينية، وآسية الصغرى في هذه الحركة، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطي. واستثارت المباني العامة في إنطاكية إعجاب المسلمين، وأنشئت في بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس، ولما يمض على انتصارات هرقل إلا القليل؛ وفي مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربي وبعد كنائس ذات قباب متواضعة في حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية، والبطليموسية، والرومانية، والبيزنطية من حذق في أشغال المعادن، والعاج، والخشب، والنسيج لم ينتقص منه شيء. وأخرج اضطهاد محطمي الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام، وآسية الصغرى، والقسطنطينية إلى جنوبي إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعماري والزخرفي البيزنطي في باري، وأترنتو، وبنفنتو، ونابلي، وروما نفسها. وظلت رافنا يونانية في فنها، وأخرجت في القرن السابع الفسيفساء الضخمة التي نشهدها في سانت أبولينارس St. Appolinaris في كلاس Glasse، وظلت سلانيك بيزنطية، وزينت كنيسة أيا صوفيا بصورة مقبضة للقديسين من الفسيفساء نحيلة كالقديسين الذين صورهم الجريكو EI Greco.

وأخرجت النهضة البيزنطية في جميع هذه الأراضي والمدن، كما أخرجت في العاصمة نفسها، سيلاً من الروائع الفنية في الفسيفساء والنقش الدقيق، والفخار، والميناء، والزجاج، والخشب، والعاج، والبرونز، والحديد والجواهر، والأقمشة المنسوجة، والمصبوغة، والمنقوشة، بمهارة يخر بها العالم كله. وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكواباً من الزجاج الأزرق، نقشت عليها تحت سطحها، أغصان وأوراق أشجار، وطيور، وصور آدمية، وأنية زجاجية، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حداً جعلها هي خير ما أهده الأباطرة البيزنطيون إلى

صفحة رقم : 4998

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

رؤساء الدول الأجنبية. وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان، والحبريات، والجلب الدلماشية التي تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطي. وكانت "عباءة شارلمان" في كنيسة متز والحريير الرقيق الذي وجد بأخن Aachen في تابوت ذلك الملك من هذا الطراز. وكان نصف مصدر الفخامة التي تحيط بالإمبراطور البيزنطي، وكثير الرهبة التي ترفع من مقام البطريق، وبعض الأبهة التي تكسو المخلص والعذراء والشهداء في شعائر الكنيسة؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التي أنفقت فيها حياة عدد من الصناع، وازدانت بعض القرون الطوال، وخير ما أخرج البر والبحر من أصباغ. واحتفظ صائغو الحلي الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفني حتى القرن الثالث عشر، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس بالبندقية مليئة بثمار فنهم. ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التي وجدت في كنيسة القديس لوقا والمحفوظة في كلية الدراسات العليا Goll(ge de Hautes Etudes في باريس، ورأس المسيح المتوهج المنقوش في فسيفساء ديسيز في كنيسة أيا صوفيا؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التي تغطي أربعين ياردة مربعة، والتي استخرجت في اسطنبول عام 1935 من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (29). ولما حُفَّت حدة محطمي الأصنام، وفي الأماكن التي لم تصل إليها حركتهم، غدت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائي الفردي، والتي تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالمينا أو الجواهر. وليس في تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة "رؤية حزقيال" التي يحتويها مجلد من عظام جريجوري نزيانين محفوظ في المكتبة الأهلية بباريس (30)، أو الصور الإيضاحية الأربعة المائة التي يحتويها مخطوط "المناجاة" (Monologus) المحفوظ في الفاتكان (حوالي

صفحة رقم : 4999

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

عام 1000)، أو صور داود في كتاب التراثيل المحفوظ بباريس (حوالي عام 900). نعم إن هذه الصور لا تراعي فن المنظور، ولا تعني بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوي البراق، وبالخيال الحي، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشري والحيواني، وبالعدد الجم الموثف من الوحش والطيور، والنبات والزهر، تتخلل القديسين والأرباب، وبالفساقي، والعقود والإيوانات فيها طيور تنقر الفاكهة، ودببة ترقص، ووعول وعجول تتشابك قرونها في النضال، وفهد يرفع ساقه الخبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينية (31). ولقد عرف صانعو الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالمينا، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدني أكسيداً معدنياً إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقاً ووقاية. وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة، حيث اختفى في القرن الثالث قبل الميلاد، ثم عاد إلى الظهور في القرن الثالث بعده. وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال المينا من رصائع للصور، ومن صور للقديسين، وصلبان، ومن علب لحفظ المخلفات، وأكواب، وكؤوس للقرابين، وجلود كتب، وزينات للسروج وغيرها من العدد. وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس من المينا المقسم: وذلك بأن تصب العجينة الملونة في السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفي. ومن أعظم الأمثلة لفن المينا المقسم وأوسعها شهرة علبه لحفظ المخلفات صنعت (حوالي عام 945) لقسطنطين برفيروجنس محفظة الآن في لمبورج Lemburg وهي بيزنطية بنوع خاص في دقة صنعها وفي أمانة صانعها، وفي نقوشها الزخرفية الموفورة وليس ثمة من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

البيزنطي وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنايس عقد في عام 787 قد وضع القانون القائل بأن: على المصورين أن ينفذوا، وعلى رجال الدين أن يقرروا، الموضوعات ويشرّفوا على عمليات تنفيذها" (32). ومن ثم كانت النزعة الجدية المكتنبة لهذا الفن، وضيق دائرة موضوعاته، والتكرار الممل في أساليبه وأنماطه. وندرة مغامراته في عالم الواقعية، والفكاهة، والحياة الشعبية؛ ولم يكن لهذا الفن نظير في تنميته ولألانه، ولكنه لم يبلغ في يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطي الناضج من تنوع وقوة، ومن نزعة دنيوية شائنة. ومن أجل هذا النقص عنه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره، فقد كان العالم المسيحي على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة؛ ويتملقه بتقليده؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تتحنى له إجلالاً وتكريماً. ولقد كان في أشكال السوربية نصيب من الفن الفارسي في تكوين موضوعات الفن الإسلامي في العمارة، والفسيفساء، والزخرف. وشكلت البندقية فناً على صورة فن القسطنطينية كما حذا الفن في كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل في تلك المدينة، وظهر فن العمارة البيزنطية في فرنسا، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن. وكانت المخطوطات المزخرفة في كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطي من أثر فيه، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها؛ ولما اعتنق فلاديمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطي إلى الحياة الروسية.

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثاني عشر هي السائدة في أوروبا المسيحية في النظم الإدارية والدبلوماسية، وجباية الأموال، وفي الأخلاق، والثقافة، والفن. وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها في فخامة زينتها، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما في دينها. وكانت هذه الحضارة، كما كانت كل حضارة أخرى. تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد، وكان ما في محاربيها وقصورها من ذهب ورخام هو

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

عرق العمال الذين يكدحون في الأرض قد تبدل وتجسم. وكانت ثقافتها، ككل ثقافة سواها في زمانها، قاسية؛ وكان في وسع الرجل الذي يخز راعياً أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عيني أبيهم. وكان في هذه الثقافة شيء من الضحالة، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطي بناء ضخماً من الخرافات الشعبية، ومن التعصب، ومن الجهل يتصف به غير الأميين، وكان نصف هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل. ولم يكن يسمح لعلم أو فن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تصيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم. فليس ثمة كتاب في الأدب البيزنطي أثار خيال بني الإنسان، أو خلدته على مدى الزمان. ذلك أن العقل اليوناني في العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذي انحدر إليه من الأيام الخالية، وسجن في المتاهة الدينية التي فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية المسيح، فعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية

ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم. وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعاً لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى في كل خروج على الدين خيانة للدولة. لكننا لا يزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل. ترى ما هي الموارد الخفية، وما هي القوة الحيوية الكامنة، التي أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس في آسية، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام، ومصر، وصقلية، وأسبانيا؟ لعل العقيدة الدينية التي أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد ثبت بعض النظام والتأديب في شعب ديدنة الصبر، وإن انتابه في فترات نوبات من

صفحة رقم : 5002

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> النهضة البيزنطية

الاضطراب، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبها التبديل. وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة بهيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تتل منهما جميع الحروب والثورات، وحافظت على السلام في الداخل، ونظمت اقتصادياتها، وجببت الضرائب التي أمكنت الإمبراطورية من أن توسع رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان. وأكبر الظن أن موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة، ولقد كان ضعف نظام الحكومة الإسلامية، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء بحاجات الدولة، سبباً في تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها، على حين أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام.

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية: أولها أنها ظلت ألف عام حصناً حصيناً وفي أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية في المشرق، وثانيهما أنها احتفظت في أمانة بالنصوص التي أعيد فيها تسجيل آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا حيث بقيت حتى نهبها الصليبيون في عام 1204. وجاء الرهبان الفارون من وجه محطمي الصور والتمائيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبي إيطاليا، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية؛ وغادر الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على السواء، واستقروا أحياناً في إيطاليا، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب القديمة؛ وهكذا أخذت إيطاليا عاماً بعد عام تستكشف بلاد اليونان من جديد، وظل الناس يغترفون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا. وثالثها وأخرها أن بيزنطية هي التي أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير الهمجية إلى المسيحية، وصمت قوة الجسم الصقلي التي لا حد لها إلى روح أوروبا وحياتها ومصائرهما.

صفحة رقم : 5003

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

(1075-558)

على بعد بضعة أميال لا أكثر في شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم. ولم تكد موجة الهون تتراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الأفار مخترقين جنوبي روسيا (558) واسترقوا جموعاً من الصقالبة، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الألب (562)، ودفعوا للمبارد أمامهم إلى إيطاليا (568)، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحي منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية. وبسط الأفار سلطانهم في وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطي إلى البحر الأسود، وحاصروا القسطنطينية في عام 626 وكادوا يستولون عليها؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم في عام 805، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئاً.

وكان البلغار، وهم في أصلهم خليط من الدم الهوني، والأجري Ugrian والتركي، يكونون قبل ذلك الوقت جزءاً من إمبراطورية الهون في روسيا؛ وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم-"بلغاريا القديمة"-على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية. وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار في القرن الثالث عشر. وهاجر فرع آخر منهم في القرن الخامس نحو الجنوب الغربي إلى وادي الدن Don، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع، وهي قبيلة اليوتجر Uitgurs، نهر الدانوب (679)، وأسست مملكة بلغارية ثانية في موثيزيا

صفحة رقم : 5004

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

Moesia واسترقوا من فيها من الصقالبة، وأخذوا عنه لغتهم وأنظمتهم، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلبي، وبلغت الدولة الجديدة أوجها في عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم (802Krum)، وهو رجل جمع إلى شجاعة الهمج دهاء المتحضرين. وغزا الخاقان مقدونية-إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية-ونهب 1100 رطل من الذهب، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية. وكان له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق بلسكا Pliska عاصمة كروم (811)؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليوناني في كمين نصبه له في أحد ممرات الجبال، وقتل نقفور، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه ثم حاصر القسطنطينية في عام 813، وأحرق أرباضها، وضرب تراقية، وفعل بها ما فعلته الجيوش التي غزتها في عام 1913. وبينما هو يعد العدة لهجوم

آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته. وعقد ابنه أمور تاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية، واعتنق البلغار المسيحية في عهد الخان بوريس (852-888). وأوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر فلادمير، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سيمون (893-927)، وعاش بوريس حتى عام 907، وأصبح هو أول قديس قومي لبلغاريا. وكان سيمون من أعظم ملوك زمانه، فقد وسع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدرياتي، ولقب نفسه "إمبراطوراً وحاكماً مطلقاً لجميع البلغار واليونان"، وشن الحرب عدة مرات على بيزنطية، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية، وأن يجعل عاصمته في أقاليم الدانوب بروائع الفن اليوناني. ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها "من أعجب ما تقع عليه العين". مليئة بالقصور والكنائس الشامخة الكثيرة الزخرف، ولقد كانت في القرن الثالث عشر أكبر مدينة

صفحة رقم : 5005

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

في بلاد البلقان كلها؛ ولا تزال خرابات قليلة باقية منها. وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سيمون. وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلانق مسالمين شيوعيين؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها في عام 931؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تريمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية البيزنطية في عام 972، وفتح باسيل الثاني بلغاريا الغربية في عام 1014، وبذلك أضحت بلغاريا (1018-1186) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية. وفي أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر. والراجح أن المجر كانوا، كما كان البلغار، من تلك القبائل التي يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول)، والتي كانت تضرب في البلاد المصاغبة لحدود الصين الغربية. وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هوني وتركى كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين. وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتي الفن (أهل فنلندة) والسمويد Somoyeds. وقد هاجروا في القرن التاسع الميلادي من سهول الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضي المجاورة لنهرى الدن والدنيبر Dneiper والبحر الأسود، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض في الصيف، وصيد السمك في الشتاء، واقتناص الصقالية وبيعهم عبيداً على اليونان في جميع فصول العام. وبعد أن أقاموا في أكرانيا سنتين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى في اتجاه الغرب. وكانت أوربا وقتئذ في الدرك الأسفل من حياتها؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية، ولم يقف في وجههم جيش قوي. لهذا اجتاح المجر بسرانيا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) في عام 889 وشرعوا في عام 895 في فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرباد Arpad. وفي عام 899 عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا، وأحرقوا بافيا Pavia وكنائسها الثالث والأربعين

صفحة رقم : 5006

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

جميعها، وذبحوا أهلها، وظلوا عاماً كاملاً يعيشون فيشبه الجزيرة فساداً، ثم فتحوا بنونيا Pannonia، وأغاروا على بافاريا (907-900Bavaria)، وخرّبوا كارنثيا (901Carinthia)، واستولوا على مورافيا (906Moravia) ونهبوا سكسونيا، وثورنجيا Thuringia وسوابيا (913Swabia)، وألمانيا الجنوبية، والألساس (917Alsace)، وانقضوا فجأة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر الك Lech أحد روافد الدانوب (924). وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالقهم بالدعاء والصلاة، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين، ولاح أن العالم المسيحي مقضي عليه لا محالة. ولكن المجر هُزموا عند جوثا Gotha عام 933، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة، ثم غزا إيطاليا مرة أخرى في عام 943 ونهبوا برغنديا في عام 955. وانتهى الأمر في ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أوتو Otto الأول في معركة حاسمة في لكفلد Lechfeld أو وادي ألك بالقرب من مدينة أوجزبرج Augsburg، واستطاعت أوربا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس الصعداء بين خراباتها بعد أن حاربت في قرن واحد (841-955) النورمان في الشمال، والمسلمين في الجنوب، والمجر في الشرق. وبعد أن خضع المجر أضحت أوربا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين المسيحي (975). ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج هنغاريا في الإمبراطورية البيزنطية التي عادت وقتئذٍ توسع رقعتها، ولهذا اختار المذهب المسيحي اللاتيني لكي يسالمة الغرب، وزاد على ذلك بأن زوج ابنه ستيفن من جزيلا Gisela ابنة هنري الثاني دوق بافاريا. وأمسى استيفن الأول (997-1083) شقيقاً لهنغاريا وراعيها وأعظم ملوكها، فقد نظم شؤون المجر على غرار النظام الإقطاعي الألماني، وقوى الأساس الديني الذي أقام عليه المجتمع الجديد بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvster الثاني (1000).

صفحة رقم : 5007

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده، وأنشئوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية، وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة، ولما أن هدت الملكة جزيلا صليبا إلى صديق لها ألماني كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية. وكان أقدم موطن معروف للصقالبة إقليم من روسيا كثير المنافع تحيط به كيف، ومهيف Mohilev، وبرست لتوفسك Brest Litovsk، وكانوا من عصر هندي أوربي يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية. وكانت أقوام من البدو تجتاح بلادهم من أن إلى أن، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرْقون، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلاباً أشد، وفاقت خصوبة نسايتهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات، والأمراض والحروب، التي لم ينطفئ لها سعيبر. وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين، ويعيش من صيد الحيوان، ورعيه، وصيد السمك، وتربية النحل، وكانوا يبيعون العسل، والشمع، والجلود، ثم استسلموا آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار. وكانوا أهم أنفسهم يطاردون ويدفعون إلى المناقع والغابات التي يتعذر الوصول إليها، ثم يؤمرون بوحشية، ويباعون بلا رحمة؛ ولهذا تخلقوا، بأخلاق زمانهم، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال؛ وإذا كانوا يعيشون في أقاليم باردة رطبة، فقد اعتادوا أن يذفئوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية، ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذي يحرم الخمر (34). وكانت أبرز عيوبهم هي السكر، والقذارة، والقسوة، وحب السلب والنهب، وكان الادخار، والحذر، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين

الفضيلة والرذيلة؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيبين القلوب، أسخياء، حسني العشرة، مولعين بالألعاب، والرقص، والموسيقى، والغناء. وكان زعماءهم كثيرون الأزواج، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة، وكانت النساء-

صفحة رقم : 5008

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

اللاتي يشترين بالمال أو يؤسرن في الحروب ليتخذن زوجات- وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن(35). وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاماً غير وثيق العرى في عشائر ثم تنتظم العشائر في قبائل. ولربما كان للعشائر أملاك مشتركة في مراحل الرعي الأولى(36)، ولكن قيام الزراعة- التي تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط، والكفاية في التربة المختلفة الخصوبة: ثماراً غير متساوية- أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية: البولندية والونديشية Wendish، والتشكية، والسلوفاكية في الغرب، والسلوفينية والصربيكرواتيية Serbo-Croat، والبلغارية في الجنوب، والروسية الكبرى، والروسية البيضاء، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانية Ruthenian & Ukrainian) في الغرب. على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قد ظلوا يفهمون كل واحدة منها، وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة، مضافة إلى سعة بلادهم، وكثرة مواردهم، وحيويتهم الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم، والانتقاء الصارم، والطعام البسيط الخشن، كانت هذه كلها سبباً في ازدياد قوة الصقالبة الأخذة في الانتشار.

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوباً وغرباً في هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان في شمالي ألمانيا ووسطها. وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ، ودفعهم إليه دفعاً الهون الغزاة، فانتشروا غرباً وعبروا نهر الفستبول Vistula، ونهر الإلب نفسه، وكانوا في هذه الأرض هم الوند Wend، والبولنديين، والتشك، والفلاخ Vlache والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد. وحدث في أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية عبر ريف اليونان، وأغلقت المدن بابها دونه، ولكن ما صقلبياً غزيراً امتزج بالدم الهليني. وجاءت حوالي عام 640 قبيلتان صقلبيتان ذواتي قربي هما الصربي Serbi،

صفحة رقم : 5009

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> البلقان

والكروباتي Chrobali، واستوطننا بانونيا وإيركم Illyricum من جديد. واعتنق الصرب المذهب اليوناني المسيحي، واعتنق الكروات المذهب الروماني. وأضعف هذا الانقسام الديني، الذي عاق الوحدة الجنسية واللغوية، الأمة أمام جيرانها، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين الاستقلال تارة، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة

أخرى، إلى أن كان عام 989 فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربي، وأسرده، ثم زوجه بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita، على أن يكون فيها أميراً من قبل فلدمبر. ذلك هو موضوع أقدم الروايات القصصية الصربية فلدمبر وكسارا التي ألّفت في القرن الثالث عشر. واحتفظت المدن الساحلية في دلماشيا القديمة زارا، واسبالاتو Spalato، وراجوسا Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين، أما بقية بلاد الصرب فأضحت صقلبية. وحرر الأمير فواسلاف صربياً في عام 1042 ولكنها عادت فاعترفت بسيادة بيزنطية في القرن الثاني عشر. ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجبية تمامها في أواخر القرن الثامن أمست أوربا الوسطى، وبلاد البلقان، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً تصطم أمواجه بحدود القسطنطينية، وبلاد اليونان؛ وألمانيا.

صفحة رقم : 5010

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد روسيا

الفصل السابع

مولد روسيا

(509-1054)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقوام الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون في تربة روسيا الخصبة، وسهولها الرحبة، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة، ويأسون لمناقعها العفنة، وغاباتها المانعة، وافتقارها إلى المعازل الطبيعية التي تصد الأعداء الغازين، وصيفها الحار، وشتائها البارد. فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد على أقل سواحلها جدياً أي شواطئ البحر الأسود الغربي والشمالي نحو عشرين بلدة-ألبيا Albia، وتانيس Tanais، ونيودوسيا Theodosja، وبنتيكيوم Panticapium (كرتش Kerche). واقتتلوا مع السكوديين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم. وسرت إلى هؤلاء الأقوام-أكبر الظن أنهم من أصل إيراني-بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف-أناخارسيس Anacharsis 600 ق.م-قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون. ثم أقبلت في القرن الثاني قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هي قبيلة السرمايين، وهزمت السكوديين وسكنت ديارهم؛ وازمحلست المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب. ودخل البلاط القوط من الغرب في القرن الثاني بعد الميلاد، وأنشئوا مملكة القوط الشرقيين، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالي عام 375، ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو-هم البلغار، والآفار، والصقالبة، والخزر، والمجر، والبتزيناك Patzinaks، والكومان Cumans، والمغول. وكان الخزر من أصل تركي زحفوا في القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبي روسيا، وأنشأوا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد روسيا

ملكاً منظماً امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر)، وشيدوا عاصمة لهم في مدينة إيتيل itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة، واعتق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودي وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية، ولكنهم فضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر، وأطلقوا في الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس- اثنتان للمسلمين، واثنتان للمسيحيين، واثنتان لليهود، وواحدة للكفر الوثنيين. وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى(37). واجتمع التجار على اختلاف أديانهم في مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة، فنشأت هناك من ذلك تجارة منتعشة بين البحر البلطي وبحر قزوين، وأصبحت إيتيل في القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية. وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria في القرن التاسع؛ وعجزت الحكومة عن أن تحمي مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة، وذابت مملكة الخزر في القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التي نشأت منها.

وجاءت من جبال الكربات في القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليط الضارب في روسيا الجنوبية والوسطى. واستقرت هذه القبائل في وادي الدنيبر والدين، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen في الشمال، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون، وهم في كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات، ويقتلون الوحوش البرية، وينشئون بلاد أكرانيا. وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشري لا يضارهم فيها إلا الهنود والصينيون. ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقر لهم قرار- يهاجرون إلى بلاد القفقاس والتركستان، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا، ولا تزال

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد روسيا

عملية الاستعمار هذه في مجراها في هذه الأيام؛ ولا يزال البحر الصقلبي العجاج يدخل كل عام في خلجان عنصرية جديدة.

وأقبلت على العالم الصقلبي في بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها. ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان في وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونها من هجماتهم على اسكتلندة، وأيسلندة، وأيرلندة، وإنجلترا، وألمانيا، وفرنسا، وأسبانيا، وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو

مانتين من الرجال، يهبون بها الجماعات الضاربة حول للبحر البلطي، والفلندينين، والصقالبة، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم. وشاء هؤلاء الفيرنج جار Vaerlnjar أو الفرنجيون Varangians ("أتباع" الزعيم) أن يحملوا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة في طرقهم، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية اسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراعين خاضعين لهم. واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعي. ويبدو أن أولئك الحراس قد أحوالوا أجورهم جزية، وأضحوا سادة من استخدموهم(38)، ولم يكذب منتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود "الحصن الجديد"، وبسطوا ملكهم حتى وصلوا إلى كيف في الجنوب، وارتبطت الطرق والمحلات التي كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية، سميت روس Ros أو Rus وهي كلمة لا يزال اشتقاقها مثاراً للجدل الشديد. وربطت الأنهار العظيمة التي تحترق البلاد البحريين الأبيض في الشمال والأسود في الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة، وأغرقت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم وبسطوا سلطانهم نحو الجنوب. وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم في القسطنطينية نفسها. ثم حدث ما يناقض هذا، حدث أنه لما أضحى التجارة على أنهار الدنيبر، والفخوف Volkhov، ودوينا الغربي أكثر انتظاماً مما كانت قبل، أقبل

صفحة رقم : 5013

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد الروسي

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية، وأخذوا يستبدلون الفراء، والكهرمان، وعسل النحل، وشمعه، والرقيق، بالتوابل، والخمور، والحريير والجواهر، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبيزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفي اسكنديناوة نفسها. ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقي دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة في شرق هذا البحر، واضمحت مرسيليا، وجنوا وبيزا في القرنين التاسع والعاشر، وازدهرت في مقابل هذا في روسيا مدائن نفجورود، وسمولنسك Smolensk، وشرينجوف Shernigov، وكيف، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية، والصقالبية، والإسلامية، والبيزنطية.

وخلع السجل القديم الروسي (القرن الثاني عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوي شخصية تاريخية بقصته عن "الأمراء الثلاثة": وخلصتها أن السكان الفنلنديين والصقالبة في نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتلون فيما بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكماً أو قائداً (862)، فجاءهم، كما تروي القصة، ثلاثة أخوة-روريك Rurik، وسنيوس Sinues، وتروفور Truvor- وأنشئوا الدولة الروسية. وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها، وقد تكون طلاء وطنياً لفتح نفجورود على يد الاسكنديناويين. ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية، وأن هذين الشماليين وقفا في طريقهما ليستوليا على كيف، ثم أعلنوا استقلالهما عن روريك والخز جميعاً.

وبلغت كيف في عام 860 من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية؛ وأخفقت الحملة في مهمتها، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجاري والسياسي، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

صفحة رقم : 5014

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد روسيا

واسعة ممتدة خلفها- وفي وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين- أسكولد Ascold، وأولج Oleg، وإيجور Igor لا روريك حاكم نفجورود-هم الذين أنشئوا الدولة الروسية. ووسع أولج، وإيجور، وألجا Oelga-الأميرة القديرة أرملة أولج-وابنها المحارب اسفياتسلاف (962-972Sivatoslav) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوائها القبائل الصقلبية كلها تقريباً، ومدائن بولوتسك Polotsk، واسمولنسك وشرنجوف، ورستوف. وحاولت الإمارة الناشئة بين عامي 860، 1043 ست مرات أن تستولي على القسطنطينية. ألا ما أقدم زحف الروس على البسفور، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط.

واعتقت روس، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها، تحت حكم فلاديمير الخامس (972-1015) "دوق كيف الأكبر"، الدين المسيحي (989). وتزوج فلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثاني، وظلت روسيا من ذلك الوقت إلى عام 1917 ابنة للدولة البيزنطية في دينها، وحرورها الهجائية، وعملتها، وفنها. وشرح القساوسة اليونان لفلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين، وما لهذه العقيدة من نفع في تثبيت النظام الاجتماعي واستقرار الملكية المطلقة(39). وبلغت دولة كيف أوج عزها في عهد يروسلاف (1036-1054) بن فلاديمير، واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتدة من بحيرة لدوجا Ladoga والبحر البلطي إلى بحر قزوين، وجبال الققاس، والبحر الأسود، وكانت الضرائب تجبي إليها من هذه البلاد. وامتصت في جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلي واللغة الصقلبية. وكان نظامها الاجتماعي أرسقراطياً صريحاً، فكان الأمراء يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبلاء، وطانفة أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكي dietski أو الأوتروكي Otroki أي الخدم أو الأتباع. ويلي هؤلاء في المنزلة طبقة

صفحة رقم : 5015

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> العالم البيزنطي -> مولد روسيا

التجار، وأهل المدن، ثم الزراع نصف العبيد، ثم العبيد أنفسهم. وأقر كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا برافدا Raskaya Pravda أو الحق الروسي، الثأر الشخصي والمبارزة القانونية، وتيرئه المتهم بناء على إيمان الشهود، ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدي اثني عشر محلفين من المواطنين(40). وأنشأ فلاديمير مدرسة للأولاد في كيف، وأنشأ يروسلاف مدرسة أخرى في نفجورود. وكانت كيف وهي ملتقى السفن النهرية الآتية من أنهار يلخوف، ودفينا، ودينبير الأدنى تجبي الضرائب على المتاجر المارة بها، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تشيد أربعمئة كنيسة، وكاتدرائية كبيرة-تضارع أيا صوفيا-على الطراز البيزنطي. وجيء بالفنانين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيفساء، والمظلمات وغيرها من ضرورب الزينة البيزنطية، ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصررة الأغاني الروسية الجماعية. وأخذت روسيا ترفع نفسها على مهل من غمار الأوحال والتراب، وتبني القصور لأمرائها، وتقيم القباب فوق أكواخ الطين، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة في بحر لم يخرج بعد من مظلمات الهمجية.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> مقدمة

الباب التاسع عشر

اضمحلال الغرب

1066-566

بينما كان الإسلام يشق طريقه في أنحاء العالم، وبينما كانت بيزنطية تفيق من الضربات التي بدت قاصمة لظورها، كانت أوروبا تكافح للخروج من دياجير "العصور المظلمة" وهذا تعبير غير دقيق في وسع كل إنسان أن يعرفه كما يهوى، أما نحن فسنعصره تعسفاً منا على أوروبا غير البيزنطية في الفترة الواقعة بين بويثيوس Boethius عام 524 ومولد أبيلارد Abelard في عام 1079. وظلت الحضارة البيزنطية مزدهرة خلال هذه الفترة رغم ما خسرتة الدولة من أملاكها ومهابتها، أما أوروبا الغربية فكانت في القرن السادس الميلادي مسرحاً لفوضى الفتوح، والانحلال، والعودة إلى الهمجية نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقي فيها، وإن كان معظمه صامتاً مخبوءاً في عدد قليل من الأديرة والأسر، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال. ذلك أن الوله بالآداب، والإخلاص للفن، ووحدة الثقافة واتصالها، وتجاوب العقول بعضها مع بعض تجاوباً يشحذها ويخصبها، كل هذه الأسس قد انهارت أمام ضربات الحرب وويلاتها، وأخطار طرق النقل، والأساليب الاقتصادية في البيئات الفقيرة، ونشأة اللغات القومية، واختفاء اللغة اللاتينية من بلاد الشرق واللغة اليونانية من الغرب. وعجلت في القرنين التاسع والعاشر في سيطرة المسلمين على البحر المتوسط، وغارات النورمان،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> مقدمة

والمجر، والمسلمين على السواحل الأوربية نزعة التخصص في أساليب الحياة ووسائل للدفاع وبدائية الفكر والكلام. وكانت ألماني وأوربا الشرقية ملتقى تيارات متعارضة من الهجمات، واسكنديناوة معششاً للقراصنة، وبريطانيا تجتاحها قبائل الإنكليز، والسكسون، والجوت، والدنمركيين، وغالة يهاجمها الفرنجة، والرومان، والبرغنديون، والقوط، وأسبانيا يتنازعها القوط الغربيون والمسلمون، وكانت إيطاليا قد حطمتها الحروب الطوال التي دارت رحاها بين القوط والبيزنطيين، وظلت البلاد التي وهبت نصف العالم الأمن والنظام تعاني خمسة قرون طوال مساوئ الانحلال في الأخلاق والاقتصاد، وأنظمة الحكم.

ومع هذا فإن شارلمان، وألفرد Alfred، وأتو الأول قد وهبوا فرنسا، وإنجلترا وألمانيا فترات من النظام، وكانوا حافزاً على لسير إلى الأمام، وأحيت إرجينا Erigena موت الفلسفة، وجدد الكوين Alcuin وغيره نشاط التعليم، وأدخل جريرت Gerbert علوم المسلمين إلى بلاد المسيحية وأصلح ليو التاسع وجريجوري السابع نظم الكنيسة وبعثاً فيها القوة، ونشأ في فن العمارة طراز الزخرف الروماني، وبدأت أوربا في القرن الحادي عشر رقيها البطيء إلى ما وصلت إليه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أي إلى أعظم ما بلغت في العصور الوسطى بأجمعها.

صفحة رقم : 5018

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> اللمبارد

الفصل الأول

إيطاليا

1- اللمبارد

774-568

انطفأ سراج الحكم البيزنطي في إيطاليا الشمالية بعد ثلاث سنين من موت جستينيان على أثر غارات اللمبارد على تلك البلاد.

ويظن بولس الشماس- وهو واحد منهم- أن اللمبارد أو اللنجوباردي Longobardi قد سمو بهذا الاسم لطول لحاهم (1)، وهم أنفسهم يعتقدون أن موطنهم الأصلي كان في اسكنديناوة (2)، ولهذا فإن دانتي، وهو من نسلهم (3)، يوجه الخطاب إليهم بهذا الوصف (4). ونراهم على ضفاف نهر الإلب الأدنى في القرن الأول الميلادي، وعلى ضفاف الدانوب في القرن السادس، ويستخدمهم نارسيس Narses في حروبه الإيطالية التي دارت رحاها عام 552، ثم يعيدهم إلى بانونيا بعد أن يحرز النصر. ثم يشتد ضغط الآفار على اللمبارد من الشمال والشرق، فيتحرك مائة وثلاثون ألفاً منهم في عناء جالهم ونساؤهم وأطفالهم، ومتاعهم- ويعبرون جبال الألب إلى "المبارديا" سهول البو الخصيبة. ولعل نارسيس كان يستطيع وقف سيرهم، ولكنه كان قد خلع وجله العار قبل عام من ذلك الوقت؛ كذلك كانت بيزنطية مشغولة عنهم بالآفار والفرس، ولم يكن لديها من المال ما تنفقه في أعمال البطولة التي يفيد منها غيرها. ولهذا فإنه لم يحل عام 573 حتى استولى اللمبارد على فيرونا، وميلان، وفلورنس، وبافيا-وقد أصبحت هذه المدينة الأخيرة عاصمة ملكهم، وفي عام 601 استولوا على بدوا، وفي 603

صفحة رقم : 5019

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> اللمبارد

على كرمونا Gemona ومنتوا Manlua؛ وفي 640 على جنوا. وانتزع ليوتبراند Liutprand أعظم ملوكهم (712-744) رافنا في شرقي إيطاليا، واسبوليتو Spoleto في وسطها، وبنفتو في جنوبها، وكان يطمح إلى جميع كلمة إيطاليا كلها تحت سلطانه. غير أن البابا جريجوري الثالث لم يكن يرضى أن تصبح البابوية أبرشية لمباردية؛ فاستغاث بالبنادقة الذين لم يخضعوا للمبارد، وأعاد هؤلاء رافنا إلى بيزنطية. ولم ير ليوتبراند بُدأً من أن يقنع بحكم شمالي إيطاليا ووسطها أصبح حكم من عليهما منذ أيان ثيودريك القوطي، وكان هو مثل ثيودريك يجهل القراءة والكتابة (5).

وأنشأ اللمبارد حضارة خطت في مدارج الرقي. وكانوا يختارون ملكهم، وكان هذا يستشير في شئون الحكم مجلساً من الأعيان، ويعرض شرائعه عادة على جمعية شعبية مؤلفة من جميع الذكور الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية. ونشر ملكهم راثي (Rathari 643) كتاب قوانين جمعت بين البدائية والتقدمية: فكانت تبيح أداء الدية المالية جزاء للقتل، وأرادت أن تحمي الفقراء من الأغنياء، وكانت تسخر من السحر والشعوذة، وتبيح حرية العبادة للكاثوليك، والأريوسيين، والوثنيين على السواء (6). وامتص الدم الإيطالي الغزاة الألمان عن طريق الزواج، واتخذوا اللسان اللاتيني لغة لهم وترك اللمبارد آثارهم في أماكن متفرقة: في العيون الزرقاء، والشعر الأشقر، وفي قليل من الكلمات التيونونية في اللغة الإيطالية. ولما أن خبت حدة الفتوح واستقر القانون، عادت التجارة- وهي العمل الطبيعي في وادي نهر البو- سيرتها الأولى، ولم يكد ينتهي عصر اللمبارد حتى أثرت مدائن شمال إيطاليا وقويت واستعدت لتلقي الفنون وخوض الحرب عندما بلغت ذروتها في العصور الوسطى. أما الأدب فكانت سوقه راكدة، فلم يبق الدهر من أدب ذلك العصر وتلك الدولة إلا كتاباً واحداً ذا شأن- هو كتاب تاريخ اللمبارد لبولس الشماس (حوالي عام 748)،

صفحة رقم : 5020

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> اللبارد

وهو كتاب ممل، مشوه الترتيب، ليس فيه مثقال ذرة من الفلسفة. ولكن لمبارديا طبعت اسمها على فن العمارة وعلى شئون المال، وكانت حرف البناء قد احتفظت بشيء مما أخذته عن بيزنطية من تنظيم وحذق قديمين. وكان لإحدى الجماعات، وهي جماعة سادة كومو، السبق في صياغة طراز "المباردي" في العمارة جمعته من أصول متعددة، وازدهر فيما بعد حتى أصبح هو الطراز الرومانسي.

ولم يمض جيل واحد على حكم ليوتبراند حتى تحطمت المملكة اللباردية على صخرة البابوية. ثم استولى الملك أيستلف Aistulf على رافنا في عام 751، وأنهى بذلك تبعيتها لبيزنطية، وإذ كانت دوقية روما قبل ذلك الوقت تابعة من الوجهة القانونية للولي المقيم في رافنا فإن أيستلف طالب بحقه في ضم روما إلى مملكته الأخذة في الاتساع. واستغاث البابا استيفن الثاني بقسطنطين كبرونيوموس فبعث الإمبراطور اليوناني بمذكرة غير ذات خطر إلى أيستلف، فما كان من استيفن إلا أن استغاث ببيبين القصير Pepin the Short ملك الفرنجة. وكان لهذه الاستغاثة نتائج ذات شأن لم تقف عند حد. ولاح لبيبين الأمل في بناء إمبراطورية له فعبر جبال الألب، ونكل بإيستلف، وجعل لمبارديا إقطاعية للفرنجة، وأعطى جميع إيطاليا الوسطى للبابوية. وظل البابوات يقرون بالسيادة الرسمية لأباطرة الشرق، أما إيطاليا الشمالية فقد قضى فيها على سلطان بيزنطية قضاءً نهائياً. وقد حاول ديسدريوس Desiderius الملك اللباردي التابع أن يسترد استقلال لمبارديا وفتوحها، ولكن البابا هديان الأول استدعي لمعونه إفرنجياً جديداً، وانقض شالمان على بافيا، وأرسل ديسدريوس إلى حد الأديرة وقضى على مملكة اللبارد وجعلها ولاية تابعة للفرنجة.

صفحة رقم : 5021

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> النورمان في إيطاليا

2- النورمان في إيطاليا

1085-1036

وتركت إيطاليا الآن تعاني الانقسام والحكم الأجنبي مدى ألف عام، لن نعني بتسجيل تفاصيل حوادثها. وحسبنا أن نقول إن النورمان شرعوا في 1036 يفتحون إيطاليا الجنوبية وينتزعونها من الدولة البيزنطية. ذلك أنه كان من عادة أشرف نورمنديا أن يوزعوا أراضيهم على أبنائهم بالتساوي كما يفعل الفرنسيون في هذه الأيام، وكانت نتيجة هذا القانون في نورمنديا أن تجزأت أملاك الأسر في العصور الوسطى إلى ملكيات صغيرة على حين أن نتيجته في فرنسا

هي وجود أسر صغيرة. ولم يكن النورمان راغبين في حياة الفقر الهادئة، وكانوا إلى هذا لا يزالون يذكرون ما طبع عليه أبائهم أهل الشمال من حب المغامرة والسلب والنهب، ولهذا أجزَّ بعض شداد النورمان أنفسهم إلى أدواق إيطاليا الجنوبية المتنافسين المتنازعين، وأظهروا ضروباً من البسالة في حروبهم إلى جانب بنفنتو، وسلرنو، ونابلي، وكيوا، وإلى جانب أعدائها، وأعطوا مدينة أفرسا Aversa جزءاً لهم على أعمالهم وترامى إلى مسامح غيرهم من شباب النورمان المتحمسين أن الأراضي تكسب بضربة أو ضربتين من سواعدهم، فغادروا نورمنديا إلى إيطاليا. وسرعان ما أصبح من فيها من النورمان كثرة تستطيع أن تقاوم لحسابها، ولم يحل عام 1053 حتى أنشأ أجزأهم ربرت جوسكارد Robert Guiscard (أي العاقل أو الماكر) مملكة نورمندية في إيطاليا الجنوبية. وكان ربرت هذا يتصف بكل الصفات التي تخلعها الأساطير على الأبطال. وكان أطول من جميع جنوده، وكان قوي الساعدين، صلب الرأي، جميل المحيا، أشقر الشعر، أصهب اللحية، فخم الثياب، سخي اليد ينثر الذهب نثراً، قاسياً في بعض الأحيان، وباسلاً على الدوام.

صفحة رقم : 5022

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> النورمان في إيطاليا

ولم يكن روبرت يعترف بغير قانون القوة والخداع، فاجتاح كلبريا Galabria واستولى على بنفنتو، وكاد يمشي إليها على جثة البابا ليو التاسع (1054)، وعقد حلفاً مع نقولا الثاني، تعهد فيه أن يكون خاضعاً له وأن يؤدي له الجزية، وأقطعه نقولا في نظير ذلك كلبريا، وأبوليا Apulia وصقلية (1059). وترك ربرت أخاه الأصغر روجر ليفتح صقلية، واستولى هو على باري (Bari 1071) وطرد البيزنطيين من أبوليا. واغتاز إذ وجد البحر الأدرياتي يعترض طريقه فأمل أن يعبره ليستولي على القسطنطينية، ويصبح أقوى ملوك أوروبا جميعاً. وأنشأ من فوره عمارة بحرية، هزم بها الأسطول البيزنطي في واقعة بحرية بالقرب من درزو (1081)، واستغاثت بيزنطية بالبندقية، فخفت هذه المدينة لنجدتها لأنها لم تنشأ إلا أن تكون ملكة البحر الأدرياتي، وأوقعت سفانها الماهرة في ضروب القتال هزيمة منكرة بعمارة جوسكارد البحرية في عام 1082 على بعد قليل من موضع نصره الذي ناله من وقت قصير. ولكن ربرت استطاع بنشاطه الشبيه بنشاط يوليوس قيصر نقل جيشه إلى دورزو Durazzo وهزم عندها جيوش الكسيوس الأول الإمبراطور اليوناني، واخترق إبريوس وتساليا حتى كاد يصل إلى سلانيك. وبينما هو يوشك أن يحقق حلمه إذ تلقى دعوة حارة من البابا جريجوري السابع يستغيث به لينقذه من الإمبراطور هنري الرابع. فما كان من ربرت إلا أن ترك جيشه في تساليا، وعاد مسرعاً إلى إيطاليا، وحشد جيشاً من النورمان، والطلبان، والمسلمين أنقذ به البابا، وانتزع روما من الألمان، وأحمد ثورة قام بها الشعب على جيشه، وترك هذا الجيش الحانق يحرق المدينة وينهبها ويخربها تخريباً لا يجاريه فيها تخريب الوندال أنفسهم لهذه المدينة (1084) وعاد في هذه الأثناء ابنه بوهمند Bohemond ليعترف بأن جيشه الذي كان في بلاد اليونان قد مزقه الكسيوس شر ممزق. وأنشأ القرصان القديم أسطولاً ثالثاً هزم به أسطول البندقية بالقرب من جزيرة كورفو (Gorfo 1084)، واستولى على جزيرة

صفحة رقم : 5023

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> النورمان في إيطاليا

كفلونيا Cephalonia الأيونية، ثم مات فيها، بعدوى سرت إليه أو بالسم، في سن السبعين (1085). وكان هو أول القادة اللصوص في إيطاليا (الكندتيري Gonedottieri).

صفحة رقم : 5024

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> البندقية

3- البندقية

1095-451

وبينما كانت هذه الأحداث تجري في مجراها إذا ولدت دولة جديدة في الطرف الشمالي من شبه الجزيرة؛ قدر لها أن تزداد قوة وعظمة حين كانت الفوضى تصرب بجيرانها على الجزء الأكبر من إيطاليا. وتقصيل ذلك أن سكان أكويليا Aquileia، وبدوا، وبلونو Belluno، وفلتري Feltre وغيرها من المدن فروا في أثناء غارات القبائل الهمجية في القرن الخامس والسادس وبخاصة في أثناء غارة اللمبارد في عام 568-لبنجوا بأنفسهم من الهلاك وينضموا إلى صيادي السمك المقيمين في الجزائر الصغيرة التي كونها نهر البياف Piav والأديج Adige في الطرف الشمالي من البحر الأدرياتي. وبقي بعض هؤلاء اللاجئين في هذه الجزائر بعد انتهاء الأزمة، وأنشؤا فيها محلات: هرقلية، وملامكو Melamocco وجرادو Grado، وليدو Lido... وريفو ألتو Rivo Alto (النهر العميق). وقد أضحت هذه المحلة الأخيرة التي سميت فيها بعد رياتو Rialto عاصمة حكومتهم المتحدة (811). وكانت قبلية من الفينيقي Veneti قد احتلت شمالي إيطاليا قبل عهد يوليوس قيصر بزم من طويل، وأطلق اسم فنيزيا Venezia في القرن الثالث عشر على المدينة الفذة التي نشأت حيث كان يقيم اللاجئين. وكانت الحياة فيها شاقة في بادئ الأمر، فكان من الصعب الحصول على الماء العذب، لأن قيمته لم تكن تقل عن قيمة الخمر. وأرغمت الظروف البنادقية-أهل فنيزيا-لأن يصبحوا أهل سفن وتجارة لاضطرارهم إلى استبدال القمح وغيره من السلع بما يحصلون عليه من البحر من سمك وملح؛ وما لبثت

صفحة رقم : 5025

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> البندقية

تجارة أوروبا الشمالية والوسطى أن أخذت تنساب تدريجياً عن طبق الثغور البندقية. وأقر أن المدن البندقية الجديدة بسيادة بيزنطية عليه ليحمي نفسه من الألمان والمبارد، ولكن مركز هذه الجزائر المنيع في مياها الضحلة وتعذر الهجوم عليها برأ أو بحراً لهذا السبب، مضافاً إلى جد أهلها وجلدهم، وازدياد الثراء الناتج من انتشار تجارتها، كل هذا قد وهب الدولة الصغيرة سيادة واستقلالاً غير منقطعين مدى ألف عام.

وظل اثنا عشر ترابينوناً يبدو أن كل واحد منهم كان يشرف على شؤون جزيرة من الجزائر الاثنتي عشرة الكبيرة. بصرفون شؤون الحكم حتى عام 697 حين أحست هذه العشائر بحاجتها إلى سلطة عليا موحدة، فاخترت أول دوج أو دوق أو زعيم doge, dux يتولى شؤون الحكم حتى ينزله الموت أو تنزله الثورة عن عرشه. ودافع الدوج أجنلو بدور (827-809 Agnelle Badoer) عن المدينة ضد الفرنجة دفاعاً أظهر فيه من ضروب المهارة ما جعل الأذواق فيما بعد يختارون من سلالته حتى عام 942. وثارت البندقية لنفسها في عهد أرسلو Orsello الثاني (1088-991) من غارات القراصنة الدلماشيين بأن هاجمت معاقلم واستولت على دلماشيا، وبسطت سيادتها على البحر الأدرياتي.

وشرع البنادقة في عام 998 يحتفلون في عيد الصعود من كل عام بهذا النصر البحري وبهذه السيادة الاحتفال الرمزي المعروف عندهم باسم اسبور اليزيا (sposalisia): فكان الدرج يقذف في البحر من سفينة مزينة بهجة بخاتم مدشن، وينادي باللغة اللاتينية: "إننا نتزوجك أيها البحر، دليلاً على سلطاننا الحق الدائم" (7). وسرَّ بيزنطية أن تقبل البندقية حليفاً لها مستقلاً، وكافأتها على صداقتها النافعة بامتيازات تجارية في القسطنطينية وغيرها وصلت تجارة البندقية بفضلها إلى البحر الأسود بل تعدته إلى بلاد الإسلام نفسها.

وحدث في عام 1033 أن قضت أرستقراطية التجار على انتقال السلطة إلى

صفحة رقم : 5026

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> البندقية

الأذواق عن طريق الوراثة، وعادت مبدأ الانتخابات على يد جمعية من المواطنين، وأرغمت الدوج على أن يحكم بعدئذ بالاشتراك مع مجلس من الشيوخ. وكانت البندقية في ذلك الحين قد أصبحت تلقب "بالذهبية" (فنيسيا أوريا Venetia Aurea)، واشتهر أهلها بثيابهم المترفة، وبانتشار التعليم بينهم، وبإخلاصهم لوطنهم وكبريائهم. وكانوا أقواماً نشطين راغبين في الكسب، ماهرين، دهاء، شجعاناً، ميالين للنزاع، أتقياء، لا يحرصون على مبدأ، يبيعون العبيد المسيحيين للمسلمين (8)، وينفقون بعض مكاسبهم في بناء الأضرحة للقديسين. وكان في حوانيت رياتو صناع ورثوا من إيطاليا الرومانية حذق أهلها الصناعي؛ وكانت تجارة محلية نشيطة تسير في قنواتها، هادئة ساكنة إلا من صيحات بحارة قواربها الأنيقة اللفظ؛ وكانت موانئ الجزائر تجملها السفن المغامرة تحمل منتجات أوروبا وبلاد الشرق. وكانت قروض الرأسماليين تمول رحلات التجار البحرية، وتعود على أصحاب هذه الأموال يربح لا يقل عن عشرين في المائة في الأحوال العادية (9). واتسعت الهوة بين الأغنياء (الماجوري) والفقراء (المنوري) حين ازداد ثراء الأثرياء، ولم ينقص فقر الفقراء إلا قليلاً. ولم يكن أحد يظهر الرأفة بالسذج البسطاء، فكان الكسب والثراء من نصيب الأسرع، والظفر من نصيب الأقوى. فكان الفقراء يمشون على الأرض العارية، وتتساب فضلات بيوتهم في الشوارع إلى القنوات؛ أما الأثرياء فقد شادوا القصور الفخمة، وسعوا لكسب رضاء الله والناس بإقامة أفخم كنيسة

ميرى في العالم اللاتيني، وتبدلت واجهة قصر الدوج، التي شيدت أول مرة في عام 814 واحتترقت في عام 976، وتغير شكلها مراراً عدة قبل أن تستقر على شكلها الحاضر الذي هو مزيج رشيق من الزخرف الإسلامي والصورة التي هي من مميزات عصر النهضة. وحدث في عام 828 أن سرق بعض تجار البنادق من إحدى كنائس

صفحة رقم : 5027

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> البندقية

الإسكندرية ما يظن أنه مخلفات القديس مرقس. واتخذت البندقية ذلك القديس شفيحاً لها وحاميتها ونهبت نصف العالم لتواري عظامه. وبدئ بإنشاء كنيسة القديس مرقس الأولى في عام 830 ثم دمرتها النار في عام 976 تدميراً رأى معه أرسيلو Orseolo الثاني أن يبدأ كنيسة جديدة أوسع منها رقعة. واستدعى لهذا الغرض فنانين من بيزنطية أقاموها على نمط كنيسة الرسول المقدس في القسطنطينية- ذات سبع قباب فوق بناء صليبي. وظل العمل فيها جارياً نحو قرن من الزمان؛ وتم البناء الرئيسي بشكله الحاضر تقريباً في عام 1071، ودشن في عام 1095. ولما فقدت مخلفات القديس مرقس حين شبت النار في الكنيسة عام 976، وهدد فقدتها قداستها، اتفق على أن يجمع المصلون في الكنيسة في يوم تدهنها ويدعوا الله أن توجد هذه المخلفات. وتقول إحدى الروايات المأثورة العزيزة على البنادقة الصالحين إن إحدى الأعمدة خر لدعواتهم، وسقط على الأرض، وكشف عن عظام القديس (10). وتهدم البناء وأصلح مراراً، وقلما مرت عشر سنين دون أن تشهد فيه تغييراً أو تحسناً. وليست كنيسة القديس بطرس التي نعرفها الآن بنت تاريخ واحد أو عصر واحد، بل إنها سجل من الحجارة والجواهر لألف عام، فقد أضيفت في القرن الثاني عشر واجهة من الرخام إلى جدرانها المقامة من الآجر، وحيء بأعمدة مختلفة الأنواع من أكثر من عشر مدائن، وقم الفنانون البيزنطيون الذين اتخذوا البندقية وطناً لهم بعمل فسيفساء الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وأخذ أربعة جياذ برونزية من القسطنطينية حين استولى البنادقة عليها في عام 1204، ووضعت فوق البوابة الرئيسية، وأضاف الفنانون القوط في القرن الرابع عشر أبراجاً، وشبابيك مفرغة، وستاراً للضريح المقدس، وغطى مصورو عصر النهضة في القرن السابع عشر ونصف الفسيفساء بصور للجدران غير ذات شأن كبير. واحتفظ البناء العجيب في خلال هذا التغيير كله وهذه القرون الطوال بمميزاته ووحدته.

صفحة رقم : 5028

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> البندقية

فكان على الدوام بيزنطياً وعربياً، منمقاً وشاذاً غير مألوف: فهو من خارجها شديد البريق ذو أقواس، وأكتاف، وأبراج مستدقة، وأبواب، والتفافات لولبية، ورخام متعدد الألوان مغلف بالمعادن، وطف منحوتة، وقباب بصلية الشكل. وهو

من الداخل يحوي متاهة من العمد الملونة، ومثلثات مطلية بين العقود؛ ومظلمات قائمة، وخمسة آلاف ياردة مربعة من الفسيفساء، وأرضية مرصعة باليشب والعقيق وغيرهما من الحجارة الكريمة، وحظاراً زخرفياً خلف المذبح صنع عام 976 في القسطنطينية من المعادن الغالية والميناء ذات الحزوز، مثقلة بألفين وأربعمئة قطعة من الجواهر، ومقاماً خلف المذبح الرئيسي منذ عام 1105. وقد عدت الرغبة الجامحة في الزخرف كورها في كنيسة القديس مرقس كما عدته في كنيسة أيا صوفيا، فرأت أن تكرم الله بالرخاء والحلي، وأن تروع الإنسان، وتؤدبه، وتشجعه، وتواسيه بمائة مشهد ومشهد من الملحمة المسيحية من بداية الخلق إلى نهاية العالم. وكانت كنيسة القديس مرقس أسمى وأخص ما عبر به عن أنفسهم أقوام لاتين استحوذ عليهم الفن الشرقي حتى ملك عليهم مشاعرهم.

صفحة رقم : 5029

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> الحضارة الإيطالية

4- الحضارة الإيطالية

1095-566

ظلت إيطاليا الشرقية والجنوبية بيزنطية في ثقافتها، على حين أن بقية شبه الجزيرة قد نشأت فيها من تراث الرومان حضارة جديدة-عناصرها لغة جديدة، ودين جديد، وفن جديد. ذلك أن هذا التراث لم يفن كله رغم ما حل بالبلاد من غزو، وفوضى، وفقر. فأما اللغة الإيطالية فكانت هي اللاتينية الخشنة التي كانت تتكلم بها الجماهير في العهد القديم، وقد استحالت على مهل حتى أضحت أكثر اللغات رخامة. وأما المسيحية الإيطالية فكانت مؤلفة من وثنية خيالية جذابة، وشرك عاطفي من القديسين الحماة المحليين، وأساطير صريحة من

صفحة رقم : 5030

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> الحضارة الإيطالية

الخرافات والمعجزات. وكان الفن الإيطالي يرى أن الفن القوطي فن همجي ويستمسك بطراز الباسلفا، (البناء الروماني المستطيل الشكل)، ثم عاد آخر الأمر في عصر النهضة إلى الشكل الأوغسطيني. ولم يزدهر نظام الإقطاع في إيطاليا مطلقاً؛ فالمدن لم تفقد قط سلطانها وتفوقها على الريف؛ وكانت الصناعة والتجارة، لا الزراعة، هما اللتين مهدتا السبيل إلى الثراء.

ولم تكن في روما في عهد من العهود مدينة تجارية، ولذلك ظلت أخذة في الضعف، فقد اندثر مجلس شيوخها في حروب القوط، وأضحت وأضحيت نظم بلدياتها القديمة بعد سبعمائة عام من نشأتها أدوات جوفاء وأحلاماً تناقض روح الزمان، ولم يكن في وسع عامتها المؤلفين من خليط من الأجناس، والذين يعيشون عيشة قذرة يخفف من قذارتها بعض الشيء الإباحية الجنسية والصدقات البابوية، لم يكن في وسعها هؤلاء العامة أن يعبروا عن عواطفهم السياسية إلا بالثورات المتكررة على السادة الأجانب أو البابوات البغيضين. وكانت الأسر الأرستقراطية القديمة لا شغل لها إلا التنافس للسيطرة على البابوية أو التنافس مع البابوية للسيطرة على روما. وبينما كان التريبونون- محامو الشعب- والقناصل وأعضاء مجالس الشيوخ هم الذين ينفذون القانون بالعصا والحراب، أضحى النظام الاجتماعي يقوم الآن على أساس مزعزع من قرارات المجالس الكنسية ومواعظ الأساقفة، ووكلائهم، والمثل المريبة يضر بها آلاف الرهبان المختلفي الأمم، وهم طائفة قلما كانت غير متعطلية، ولم تكن على الدوام عازبة. وكانت الكنيسة قد شنت الغارة على الاختلاط الجنسي في الحمامات العامة و هجر الناس الأبهاء العظمى وحمامات السباحة الساخنة، وزال من الوجود فن الطهارة الوثني. وخربت قنوات الشرب الإمبراطورية من جراء الإهمال أو الحروب فأخذ الناس يشربون مياه التبير (11)؛ وعطلت حلبة مكسيموس Circus Maxtmus والكليسيوم Collosseum ذواتا الذكريات الدموية، وأخذت السوق العامة تعود في القرن

صفحة رقم : 5031

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> الحضارة الإيطالية

السابع مراعي للبقر كما بدأت، وغطى الوحل أرض الكبتول، وهدمت الهياكل القديمة والمباني العامة ليأخذ من أنقاضها ما تحتاجه الكنائس المسيحية والقصور من مواد، وعانت روما من أبنائها أكثر مما عانته من الوندال والقوط(12)، وملاك القول إن روما يوليوس قيصر قد ماتت، وإن روما ليو العاشر لم تكن قد ولدت بعد. وتشتت محتويات دور الكتب القديمة وتلفت، وكادت الحياة الذهنية أن تنحصر في الكنيسة. وهوى العلم تحت أقدام الخرافات التي تهب الفقر خيالاً ورواء؛ وظل الطب وحده يرفع رأسه عالياً تحتفظ منه الأديرة بما ورثته عن جالينوس. ولعل مدرسة طبية علمانية قد نشأت من دير للبندكتيين في سلرنو في القرن التاسع الميلادي، فكانت هي التي سدت الثغرة القائمة بين طب الأقدمين وطب العصور الوسطى، كما سدت إيطاليا الجنوبية الهنستية الثغرة التي قامت بين ثقافة هذه العصور وثقافة اليونان: وكانت سلرنو مصحة منذ أكثر من ألف عام، وقد وصفت الرواية المحلية المأثورة كلية أبقراط التي كانت بها؛ فقالت إنها تتألف من عشرة معلمين أطباء منهم واحد يوناني وآخر مسلم، وثالث يهودي(13). وجاء قسطنطين "الأفريقي" وهو مواطن يوناني درس الطب في مدارس المسلمين بأفريقية وبغداد-إلى مونتي كسينو Monte Gassino (التي أصبح فيها راهباً)، وإلى سلرنو القريبة منها، جاء إليهما ببضاعة عجيبة مثيرة من المعارف الطبية الإسلامية. وأسهمت تراجمه للكتب اليونانية والعربية في الطب وغيره من الميادين في إحياء العلم بإيطاليا، حتى كانت مدرسة سلرنو حين وفاته حاملة لواء العلوم الطبية في بلاد الغرب المسيحية. وكان أهم ما أثمرته الفنون في هذا العصر هو ابتداء الطراز الرومانسي Romanesque في العمارة (774-1200). ذلك أن البنائين الإيطاليين وارثي التقاليد الرومانية في الصلابة والبقاء زادوا سمك جدران الباسلفا، وأنشأوا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> الحضارة الإيطالية

في الكنائس جناحاً متقاطعاً مع الصحن، وأضافوا دعامات من أبراج أو عمد متلاصقة، وأقاموا للعقود التي يرتكز عليها السقف على عمد أو أكتاف متجمعة. وكان العقد الروماني الخالص يتكون من نصف دائرة بسيطة، وهو شكل دذو مهابة عظيمة، يصلح لجسر فوق فرجة أكثر مما يصلح لتحمل ثقل. وكان الدهليز في الطراز الروماني الأول- والصحن والدهليز في الطراز الروماني المتأخر تعلوه عقود أن يتكون سقفه من بناء ذي أقواس. وكان البناء في الخارج خالياً في العادة من الزخرف ومبنيًا من الأجر المكشوف. وكان داخل البناء يتحاشى الزخرف الكثير الذي يميز الطراز البيزنطي وإن كان يزدان بقصد غير كبير من الفسيفساء، والمظلمات، والنقوش المنحوتة. وفيما عدا هذا كان الطراز الروماني رومانيا، همه الثبات والمتانة لا الارتفاع القوطي والرشاقة القوطية؛ يهدف إلى إخضاع الروح للتواضع المهدئ لها لا لرفعها إلى نشوة عليا تعصف بها.

وأخرجت إيطاليا في هذه الفترة آيتين من روائع الفن الروماني: إحداهما كنيسة أمبروجيو Ambrogio المتواضعة في ميلان، والثانية الكندرائية الضخمة في بيزا. وقد أعاد الرهبان البندكتيون في عام 789 البناء الذي منع أمبروز أحد الأباطرة من دخول بابه، ثم تهدم بعد ذلك مرة أخرى. ثم غير جيبدو Guido كبير الأساقفة طرازه بعد عامي 1046 و 1071 تغييراً شاملاً فبدله من باسلفا ذات عمد إلى كنيسة ذات عقود. وكان سقف دهليزها وصحنها قبل أيامه من الخشب، فأقام لهما هو سقفاً معقوداً من الأجر والحجارة يرتكز على عقود مستديرة خارجة من أكتاف متراكبة. وكانت زوايا التقاطع الناشئة في السقف المعقود من تقاطع العقود المبنية تقويها "أضلاع" من الأجر، وذلك أول مثل من السقف المعقود "المضلع" في أوروبا كلها.

ويخيل إلى الرائي إن واجهة كنيسة أمبروجيو تختلف كل الاختلاف عن

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> إيطاليا -> الحضارة الإيطالية

واجهت كندرائية بيزا الكثيرة التعقيد، ولكن عناصر الطراز فيهما واحدة. وقد أقيمت هذه الكنيسة الكبرى بعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها أسطول بيزا على أسطول العرب بالقرب من بالرم (1063)؛ إذ طلبت المدينة إلى المهندسين بوشتو Buschetto (اليوناني؟) ورنالدو Rinaldo أن يخلدا ذكر المعركة، ويقربا بعض أسلاب النصر إلى العذراء، بأن يقيما معبداً تحسدها عليه إيطاليا على بكرة أبيها. وقد شيد البناء كله تقريباً من الرخام. وأقيمت فوق المداخل الغربية أربع أكتاف لبواكي مفتوحة تقوم في عرض الواجهة متكررة تكراراً يتجاوز الحد؛ وجعل لهذه المداخل فيما بعد (1606) أبواب فخمة من البرونز. وكان في الداخل طائفة كبيرة من العمد الرشيقة وهي غنائم مختلفة الأصول تقسم الكنيسة إلى صحن ودهليزين؛ وتقوم فوق ملتقى جناح الكنيسة وصحنها قبة إهليلجية غير جميل

الشكل. وكانت هذه أولى الكنترائيات الكبرى في إيطاليا، ولا تزال حتى اليوم من أروع الصروح التي أقامها الإنسان في العصور الوسطى.

صفحة رقم : 5034

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> أسبانيا المسيحية

الفصل الثاني

أسبانيا المسيحية

711-1095

ليس تاريخ أسبانيا المسيحية في هذه الفترة إلا حرباً صليبية طويلة الأمد منشأها تصميمها المتزايد على إخراج المسلمين منها. وكان هؤلاء المسلمون قوماً أغنياء أقوياء، يمتلكون معظم الأراضي الخصبة، وتسيطر عليهم خير الحكومات؛ أما المسيحيون فكانوا فقراء ضعفاء، وتربة بلادهم ضئيلة، وتصلهم سلاسل الجبال عن سائر بلاد أوروبا، وتقسّمهم إلى ممالك صغيرة، وتشجع النعرة القومية الإقليمية، والتطاحن بين الأخوة، حتى لقد أريق من دماء المسيحيين على أيدي أهلها المسيحيين ذوي العواطف الثائرة أكثر مما أريق منها على أيدي المسلمين. وكانت غارات المسلمين عليها في عام 711 قد دفعت من لم يغلبوا من القوط، والسويفي Suevi، والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي، والكلت من سكان شبه الجزيرة، دفعت هؤلاء إلى جبال الكنتنبريان في الشمال الغربي من أسبانيا وطاردهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة بقيادة جوت بلايو Got Pelayo هزمتهم عند كفادنجا (Covadonga 718)، ومن ثم نادى ذلك القائد بنفسه ملكاً على أستورياس، وأسس الملكية الأسبانية، واستطاع ألفنسو الأول (739-757) على أثر هزيمة المسلمين في تور أن يمد الحدود الأستورية إلى جليقية Galicia ولوزيتانيا وبسكاي Biscaya. وضم حفيده ألفنسو الثاني (791-842) ولاية ليون، واتخذ أويديو حاضرة لمملكته. وفي عهد هذا الملك وقعت حادثة كانت من أهم الحوادث في تاريخ أسبانيا. ذلك أن أحد الرعاة سار بهداية نجم من النجوم- كما تقول الرواية- حتى

صفحة رقم : 5035

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> أسبانيا المسيحية

وجد في الجبال تابوتا من الرخام يعتقد الكثيرون أنه يحتوي على بقايا "الرسول يوحنا" أخي المسيح. وأقيم ضريح في المكان الذي وجد فيه التابوت، ثم شيدت في مكان هذا الضريح كاتدرائية فخمة فيما بعد، وأضحى سنتياجو ده كمبستيليا Sontoagio de Compostela - "يوحنا قديس ميدان النجم" كعبة يحج إليها المسيحيون لا يفوقها في قداساتها إلا بيت المقدس وروما؛ وكان لهذه العظام أكبر الأثر في إثارة للروح المعنوية عند الأسبان، وجمع الأموال اللازمة لقتال المسلمين. وصار القديس يوحنا شفيع أسبانيا وحاميها. وذاع اسم سنتياجو في قارات ثلاث. وهكذا تصنع العقائد التاريخ وخاصة حين تكون هذه العقائد خاطئة، والأخطاء هي التي يموت من أجلها الناس أشرف ميتة. وإلى شرق استوريا، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع نافاري Navarre وكان معظم أهلها من سلاسله البشكنس، وهم في أغلب الظن خليط من كلت أسبانيا وبربر أفريقية. وقد أفاد هؤلاء من منعة جبالهم فنجحوا في حماية استقلالهم من المسلمين، والفرنجة، والأسبان، حتى أسس سانكو نافاري الأول جراسيا Sancha Garacia مملكة نافاري واتخذ بمبلونا عاصمة لها. وكسب سانكو لنفسه لقب "العظيم" (994-1035) باستيلائه على ليون، وقشتالة، وأرغونة؛ وأتى على أسباني المسيحية حين من الدهر أوشكت فيه أن تتحد، ولكن سانكو أفسد قبيل وفاته ما عمله طول حياته بأن قسم مملكته بين أولاده الأربعة. ومن تاريخ هذا التقسيم تبدأ حياة مملكة أرغونة؛ واستطاعت هذه المملكة أن تدفع المسلمين في الجنوب، وأن تضم إليها بالسلم نبرة في الشمال (1076)، فلم يحل عام 1095 حتى شملت رقعتها جزءاً كبيراً من وسط أسبانيا الشمالي. وفتح شارلمان في عام 788 مقاطعة قطلونيا في شمال أسبانيا الشرق حول برشلونة؛ وظل يحكمها أدواق فرنسيون جعلوا هذا الإقليم "حدوداً أسبانية"، وكانت لغته القطلانية مزيجاً لطيفاً من فرنسية وبروفنسال ولغة قشتالة. وبدأت ليون الواقعة في الشمال

صفحة رقم : 5036

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> أسبانيا المسيحية

الغربي تاريخها "سانكو السمين Sancho the Fat" الذي بلغ من البدانة درجة لم يكن يستطيع معها السير إلا متكئاً على تابع له. ولما خلعه الأشراف لجأ إلى قرطبة حيث شفاه حسداي بن شبروط الطبيب اليهودي الشهير من شحمه، ثم عاد سانكو إلى ليون يميمس كما يميمس دن كيشوت، واسترد عرشه (959)(14). وسميت قشتالة بهذا الاسم نسبة إلى قلعتها (كاستل Castle). وكانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقضي حياتها تتأهب للحرب. وفي عام 930 رفض فرسانها أن يظلوا طائعين لملوك أستورياس أوليون وأقاموا دولة مستقلة اتخذوا برغوس Burgos عاصمة لها. وضم فرندو الأول (1035-1065) ليون وجلبقة إلى قشتالة، وأرغم أمير طليطلة وأشبيلية على أن يعطوه جزية سنوية، ثم فعل ما فعله سانكو العظيم فأفسد جهوده بتقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة؛ وقد وصل هؤلاء بكل ما وهبوا من حماسة ما طبع عليه ملوك أسبانيا المسيحيون من تطاحن وحروب يقتل فيها الاخوة بعضهم بعضاً. وأبقى الفقر الزراعي والتمزق السياسي أسبانيا المسيحية متأخرة أشد التأخر عن منافسيها المسلمين في الجنوب ومنافسيها الفرنجة في الشمال في نعم الحضارة وفنونها. ولم تكن الوحدة في داخل كل مملكة من ممالكها الصغيرة إلا سحابة صيف لا تكاد تبدو حتى تنتفشع؛ فكان النبلاء يتجاهلون الملوك إلا في أوقات الحرب، ويحكمون من عندهم من

رقيق الأرض والعبيد حكم سادة الإقطاع؛ وكان رجال الكنيسة يؤلفون طبقة ثانية من الأشراف، فكان الأساقفة هم أيضاً يمتلكون رقيق الأرض والعبيد، ويتولون قيادة جندهم في الحرب، ويتجاهلون البابوات في العادة، ويحكمون المسيحيين الأسيان حكماً يكاد يجعل منهم كنيسة مستقلة. واجتمع نبلاء ليون وأساقفتها عام 1020 في مجالس قومية وأخذوا يشرعون لمملكة ليون كما تشرع مجالس النواب. وأصدر مجلس ليون مرسوماً يمنح تلك المدينة الحكم الذاتي، فجعلها بذلك أول مدينة تحكم نفسها

صفحة رقم : 5037

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> أسبانيا المسيحية

في أوروبا في أثناء العصور الوسطى وصدرت مراسيم مماثلة لهذا المرسوم تمنح غيرها من المدن الأسبانية هذا الحكم الذاتي نفسه، وأكبر الظن أن الغرض من إصدارها هو إثارة حماسها وكسب أموالها في الحروب القائمة مع المسلمين، وبذلك قامت ديمقراطية حضرية محدودة في وسط النظام الإقطاعي الأسباني، وتحت سلطان الملكية الأسبانية.

ويشهد تاريخ رديجو (راي) دياز Diaz (Ruy) Roderigo بما كانت عليه أسبانيا المسيحية في القرن الحادي عشر من بسالة، وفروسية، وفوضى. و رديجو لهذا يعرف عندنا باللقب الذي حباه به المسلمون وهو السيد أي الرجل النبيل أو الشريف أكثر مما يعرف بلقبه المسيحي وهو الكمبيدور El Campaedor أي المهاجم أو البطل. وكان في مولده في بيفار Bivar بالقرب من برغوس Burgos حوالي عام 1040، ونشأ نشأة المغامرين المحاربين، يقاتل أينما وجد سبباً للقتال يدر المال. ولم يكد يبلغ سن الثلاثين حتى صار موضع إعجاب أهل قشتالة لمهارته وجرأته في القتال، وموضع ريبتهم لاستعداده أن يحارب المسلمين في صف المسيحيين أو يحارب المسيحيين في صف المسلمين؛ ويبدو أن هذا وذاك كانا عنده سواء. وأرسله ألفنسو السادس ملك قشتالة ليأتي بالجزية المستحقة له من المعتمد ابن عباد الشاعر أمير أشبيلية؛ ولكنه اتهم عند عودته بأنه احتفظ ببعض هذه الجزية لنفسه. فنفي من قشتالة (1081) وانضم إلى قطاع الطرق، ونظم جيشاً صغيراً من الجنود المغامرين، وباع خدماته إلى من يشتريها من الحكام المسيحيين والمسلمين فقد ظل ثماني سنين في خدمة أمير سرقسطة ووسّع رقعة أملاك المسلمين على حساب أرغونة. وفي عام 1089 قاد سبعة آلاف من الرجال معظمهم من المسلمين، واستولى على بلنسية وأرغمها على أداء جزية شهرية، مقدارها عشرة آلاف دينار ذهبي. وفي عام 1090 قبض على كونت برشلونة، ولم يطلقه إلا بعد أن اقتدى بثمانين ألف دينار. ولما وجد بعد رجوعه من تلك

صفحة رقم : 5038

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> أسبانيا المسيحية

الحملة بلنسية قد أغلقت أبوابها دونه حاصرها عاماً كاملاً؛ فلما استسلمت له (1094)، نكث بكل الشروط التي أُلقت بمقتضاها سلاحها، وحرق قاضي قضاتها حياً، ووزع أملاك سكانها على أتباعه، وكاد يحرق زوجة قاضي القضاة وبناته لولا احتجاج أهل المدينة وجنوده على هذا العمل (15). وكان السيد حين يقدم على هذه الأعمال وأمثالها إنما يسلك السبيل التي يسلكها أبناء زمانه، ولكنه كفر عن سيئاته بأن حكم بلنسية حكماً حازماً عادلاً، وجعلها حصناً منيعاً في وجه جيوش المرابطين المسلمين وحكمت زوجته يمينة (Jimena 1099) المدينة بعد موته ثلاث سنين. وقد أحاله أعقابه المعجبون به، بما حاكوه حوله من أقاصيص، فارساً لا تحركه إلا رغبة مقدسة في إعادة أسبانيا إلى المسيح، ويعظم الناس رفاقه في برغوس تعظيمهم للقديسين (16).

ولم تستطع أسبانيا المسيحية، وهي على هذه الحال من الانقسام، أن تسترد البلاد من المسلمين إلا لأن أسبانيا الإسلامية قد فاقتها آخر الأمر في التمزق والفوضى. وكان سقوط خلافة قرطبة عام 1036 فرصة ثمينة اغتنمها ألفنسو السادس ملك قشتالة (الأذفنش)، فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية (1085) واتخذها عاصمة لملكه وعامل المسلمين المغلوبين بما جيل عليه المسلمون من كرم، وشجع انتشار الثقافة الإسلامية في أسبانيا المسيحية.

صفحة رقم : 5039

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> مجيء الكارولينجيين

الفصل الثالث

فرنسا

614 - 1060

1- مجيء الكارولينجيين

614 - 768

لما جلس كلوتير Clotaire الثاني على عرش الفرنجة لاح أن مركز الأسرة المروفنجية وطيد؛ ذلك أنه لم يحكم ملك قبله من ملوك هذه الأسرة دولة تضارع دولته في الاتساع والوحدة؛ ولكن كلوتير كان مديناً بقوته إلى أشرف استراسيا وبرغندية؛ وقد كافأهم على تأييدهم له بأن زاد من استقلالهم ووسع أملاكهم وبأن اختار واحداً منهم هو بيبين Pepin الأول الأكبر ليكون "ناظراً للقصر". وكان ناظر القصر في بادئ الأمر هو المشرف على القصر الملكي وناظراً على المزارع الملكية؛ وزادت مهام مناصبه حين عكف الملوك المروفنجيون على الدعارة والفساد، وأخذ يشرف شيئاً فشيئاً على شئون المحاكم، والجيش، والمال، وحدد الملك داجوبرت (628-639) ابن كلوتير من سلطان ناظر القصر والأشراف وقتاً ما "فوزع العدالة بين الأغنياء والفقراء على السواء" كما يقول فرديجار Fredegart الإخباري، "وكان قليل النوم والطعام، ولم يكن همه إلا أن يخرج الناس من مجلسه ممثلة قلوبهم غبطة وإعجاباً(17)". غير أن فرديجار يضيف إلى ذلك قوله: "وكانت له ثلاث ملكات وعدد كبير من الحظايا" كما كان عبداً لشهوته(18). وعادت السلطة في عهد خلفائه- الملوك الذين لا يفعلون شيئاً- إلى ناظر القصر. وهزم بيبين الثاني الأصغر منافسيه في واقعة تستري (687Testry)، واستبدل بلقب "ناظر القصر" لقب دوق الفرنجة وكبيرهم، وحكم غالة جميعها ما عدا أكتين

صفحة رقم : 5040

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> مجيء الكارولينجيين

Aquitaone. وحكم شارل مارتل Chales Martel (المطرقة)، الذي كان بالاسم ناظراً للقصر ودوق استراسيا، غالة كلها تحت سلطان كلوتير الرابع (717-719). وهو الذي صد بعزيمته غارات الغالين مستعيناً بالفريزيين والسكسون، وهو الذي صد المسلمين عند تور وردهم عن أوربا. وأعان بنيفاس Boniface وغيره من المبشرين على تنصير ألمانيا، ولكنه حين اشتدت حاجته إلى المال صادر أراضي الكنيسة. وباع مناصب الأساقفة لقواد الجيش، وأسكن جيوشه في الأديرة، وقطع عنق راهب بروتستنتي(19). وحكم عليها في مائة منشور وخطبة منبرية بأن مأواه الجحيم.

وأرسل ابنه بيبين الثالث ناظر قصر كلدريك الثالث بعثة إلى البابا زخرياس يسأله هل يآثم إذا خلع الإمعة المروفنجي وأصبح هو ملكاً بالاسم كما هو ملك بالفعل. وكان زخرياس وقتئذ في حاجة إلى تأييد الفرنجة ضد مطامع اللبارد فبعث إليه بجواب مطمئن يقول فيه إنه لا يآثم. فلما تلقى بيبين الرد عقد جمعية من الأشراف والمطارنة في سواسون Soissons اختير فيها بإجماع الآراء ملكاً على الفرنجة (751)، ثم قص شعر آخر الملوك المروفنجيين البلاء وأرسله إلى دير. وجاء البابا استيفن الثاني في عام 754 إلى دير القديس دنيس St, Denis في أرباض باريس، ومسح بيبين "ملكاً بنعمة الله". وهكذا انتهت الأسرة المروفنجية (486-751) وبدأت الأسرة الكارولنجية (751-987).

وكان بيبين الثالث "القيصر" حاكماً صبوراً يعيد النظر، نقياً عملياً، محباً للسلم، لا يغلب في الحرب، متمسكاً بالأخلاق الفاضلة إلى حد لم يسبقه إليه ملك آخر في غالة في تلك القرون. وكان بيبين هو الذي مهد لشارلمان سبيل كل ما أتاه من جليل الأعمال؛ وفي خلال حكمها الذي دام ثلاثاً وستين سنة (571-814) تحولت بلدهما نهائياً من غالة إلى فرنسا. وأدرك بيبين ما في الحكم بغير معونة الدين من صعاب، فأعاد إلى الكنيسة أملاكها، وامتيازاتها

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> مجيء الكارولينجيين

وحصانتها، وجاء إلى فرنسا بالمخلفات المقدسة، وحملها على كتفيه في موكب فخم؛ وأنفذ البابوية من الملوك اللمبارد، ومنحها سلطات زمنية واسعة في عهده المعروف باسم "عطية بيبين" (756)، وقنع بأن ينال في نظير هذا لقب "النبيل الروماني" وتحذيراً من البابا للفرنجة ألا يختاروا ملكاً إلا من سللته. وتوفي بيبين في عنفوان قوته عام 768 بعد أن أوصى بملكه الفرنجة لولديه كارلومان Carloman الثاني وشارل الذي أصبح فيما بعد شارلمان على أن يحكماها معاً.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

2- شارلمان

814-768

ولد أعظم ملوك العصور الوسطى عام 742 في مكان غير معروف. وكان يجري في عروقه الدم الألماني وينطق باللسان الألماني، ويشترك مع قومه في بعض الصفات-قوة الجسم، والبسالة ورباطة الجأش، والافتخار بالأصل، والبساطة الخشنة التي تفصلها مئات السنين عن رقة الفرنسيين الحضرية المصقولة. وكان قليل العلم بالكتب وما فيها، لم يقرأ منها إلا عدداً قليلاً، لكن ما قرأه منها كان من خيارها، وحاول في شيخوخته أن يتعلم الكتابة باللغة التيونونية القديمة واللاتينية الأدبية، وكان يفهم اللغة اليونانية(20).

ولما مات كارلون الثاني في عام 771 انفرد شارل بالحكم وهو في التاسعة والعشرين من عمره. وبعد سنتين من انفراده به بعث إليه البابا هديران الثاني بدعوة عاجلة ليساعده على دسديريوس Desiderius اللمباردي الذي كان وقتئذ يغزو الولايات البابوية. ولبي شارلمان الدعوة وحاصر بافيا واستولى عليها، ولبس تاج لمباردي، وأيد عطية بيبين، وارتضى أن يكون حامي الكنيسة، جميع سلطاتها الزمنية. ولما عاد إلى عاصمة في آخن بدأ سلسلة من الحروب عدتها ثلاث وخمسون- قادها كلها تقريباً بنفسه- يهدف بها إلى تأمين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

دولته بفتح بافاريا وسكسونية وجعلها مسيحتين، والقضاء على الآفار المشاغبين المتعيبين، وحماية إيطاليا من غارات المسلمين، وتقوية حصون فرنسا حتى تستطيع الوقوف في وجه مسلمي أسبانيا الذين يبغون بسط سلطانهم عليها. وكان السكسون المقيمون عند الحدود الشرقية لبلادهم وثنيين، أحرقوا كنيسة مسيحية وأغاروا مراراً على غالة، وكانت هذه الأسباب كافية في رأي شارلمان لأن يوجه إليهم ثمانين حملة (772-804)، قاتل فيها الطرفان بمنتهى الوحشية. فلما هزم السكسون خيبرهم شارلمان بين التعميد والموت وأمر بضرب رقاب 4500 منهم في يوم واحد (21)، وسار بعد فعلته هذه إلى ثيونفيل ليحتفل بميلاد المسيح.

ولما كان شارلمان في بادربون Paderborn إذ استغاث به ابن العربي حاكم برشلونة المسلم في عام 777 لينصره على خليفة قرطبة. فما كان منه إلا أن سار على رأس جيش عبر به جبال البرانس، وحاصر مدينة بمبلونا المسيحية، وعامل البشكنس مسيحي أسبانيا الشمالية الذين لا يحصى عديدهم معاملة الأعداء، وواصل زحفه حتى وصل إلى سرقسطة نفسها. غير أن الفتن الإسلامية التي وعد ابن العربي بإثارتها على الخليفة والتي كانت جزءاً من الخطة الحربية المدبرة لم يظهر لها أثر، ورأى شارلمان أن جيوشه بمفردها لا تستطيع مقاومة جيوش قرطبة، وترامى إليه أن السكسون ثائرون عليه وأنهم يزحفون وهم غضاب على كولوني Cologce، فرأى من حسن السياسة أن يعود بجيشه إلى بلاده، واخترق بهم في وصف طويل رفيع ممرات جبال البرانس. وبينما كان يعبر أحد هذه الممرات عند رُنسفال Roncesvalles من أعمال نافاري إذا انقضت على مؤخرة الفرنجة قرة من البشكنس، ولم تكذب تبقى على أحد منها (778)، وهناك مات هرودلاند Hruodland النبيل الذي أصبح بعد ثلاثة قرون بطل القصيدة الفرنسية الذائعة الصيت أغنية رولان Chanco de Roland. وسير شارلمان في عام 795 جيشاً آخر عبر جبال البرانس، واستولى به على شريط ضيق في شمالي أسبانيا

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

الشرقي وضمه إلى فرنسا Francia. واستسلمت له برشلونة، وأقرت أستراسيا ونبرة بستادة الفرنجة عليهما (806). وكان شارلمان في هذه الأثناء قد أخضع السكسون لسلطانه (785)، وصد الصقالبة الزاحفين على بلاده (789)، وهزم الآفار وشتت شملهم (790-805)، ثم أخذ في السنة الرابعة الثلاثين من حكمه والثالثة والستين من عمره إلى السلام.

والحق أنه كان على الدوام يجب شؤون الإدارة والحكم أكثر مما يجب الحرب، ولم ينزل إلى ميدان القتال إلا ليفرض على أوروبا الغربية، التي مزقتها منذ قرون طوال منازعات القبائل والعقائد، شيئاً من وحدة الحكم والعقيدة.

وكان في أثناء هذا الحكم قد أخضع لسلطانه جميع الشعوب الضاربة بين نهر الفستيو لا Vistula والمحيط الأطلنطي، وبين البحر البلطي وجبال البرانس، وإيطاليا كلها تقريباً، والجزء الأكبر من بلاد البلقان. ترى كيف استطاع رجل واحد أن يحكم هذه المملكة المتباينة المترامية الأطراف؟ الجواب أنه قد وهب من قوة الجسم والأعصاب ما يستطيع به أن يأخذ على عاتقه مئات التبعات، والأخطار، والأزمات، وأن يتحمل ما هو أصعب على النفس من هذا كله وهو انتمار أبنائه به ليقتلوه. وكان في دمانه دم أو تعاليم ببين الثالث الحذر الحكيم، وشارل مارتل الذي لا يرحم ولا يلين، وكان هو نفسه إلى حد ما مطرقة مثل مارتل. وقد وسع أملاكهما وحافظ عليها بما وضعه لها من نظام عسكري قوي الدعائم، وسندها بما أفاء عليها من ظل الدين وشعائره. وكان في وسعه أن يضع لنفسه الأهداف الكبار، وأن يهيئ الرسائل ويبتغي الغايات. وكان في مقدوره أن يقود الجيوش، ويقنع الجمعيات، ويشرح صدور الأعيان، ويسيطر على رجال الدين، ويكبح جماح الحريم. وقد جعل الخدمة العسكرية شرطاً لامتلاك أكثر من الكفاف من الأملاك، وبهذا أقام الروح العسكرية المعنوية على أساس الدفاع عن الأرض

صفحة رقم : 5045

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

وتوسيع رقعتها، وأوجب على كل حر إذا دُعي لحمل السلاح أن يمثل كامل العدة أمام الكونت المحلي، وكان كل عامل نبيل مسؤولاً أمامه عن كفاية وحداته. وكان بناء الدولة يقوم على هذه القوة المنظمة يؤيدها كل عامل نفساني تخلعه عليها قداسة صاحب الجلالة الذي باركه رجال الدين، وفخامة الاحتفالات الإمبراطورية، والطاعة التقليدية للحكم القائم الموطن الدعائم. وكانت تجتمع حول الملك حاشية من النبلاء الإداريين ورجال الدين-رئيس خدم البيت، وقاضي القضاة وقضاة حاشية القصر، ومائة من العلماء، والخدم، والكتبة. وكان مما قوى إحساس الشعب باشتراكه في الحكم ما كان يعقده كل نصف عام من اجتماعات يحضرها الملاك المسلحون، يجتمعون كلما تطلبت اجتماعهم الشؤون الحربية أو غيرها في مدن ورمز، وفلنسين، وآخن، وجنيف وباربون... وكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة في الهواء الطلق. وكان الملك يعرض على جماعات قليلة من الأعيان أو الأساقفة ما عنده من الاقتراحات التشريعية، فكانت تبحثها وتعيدها إليه مشفوعة باقتراحاتها ثم يضع هو القوانين ويعرضها على المجتمعين ليوافقوا عليها بصياحهم؛ وكان يحدث في بعض الأحوال النادرة أن ترفضها الجمعية بالأئين أو القبايع الجماعي. وقد نقل إلينا هنكار Hincmar كبير أساقفة ريمس صورة دقيقة لشارلمان في هذه الاجتماعات، فقال إنه كان "يسلم على أكابر الحاضرين، ويتحدث إلى من لم يكن يراهم إلا قليلاً، ويظهر اهتماماً ظريفاً بالكبار، ويلهو مع الصغار". وكان يطلب إلى أسقف كل إقليم ورئيسه الإداري أن يبلغ الملك في هذه الاجتماعات عن كل حادثة هامة وقعت في إقليمه منذ الاجتماع السابق، ويضيف هنكار إلى أقواله السابقة أن "الملك كان يرغب في أن يعرف هل الأهلون في أي ركن من أركان مملكته قلقون مستاعون، وما سبب قلقهم واستيائهم" (22). وكان عمال الملك يواصلون نظام الاستعلامات الرومانية القديمة فيستدعون إليهم كبار المواطنين ويطلبون إليهم أن "يعطوا بيانات صحيحة"،

صفحة رقم : 5046

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

معززة بالإيمان عما في الإقليم الذي يزورونه من أملاك ترفض عليها الضرائب، وعن حالة النظام في هذا الإقليم وعما يقع فيه من الجرائم أو من فيه من المجرمين. وكانت شهادة جماعة الباحثين الذين يقسمون الإيمان تستخدم في أرض الفرنجة في القرن العاشر للفصل في كثير من المشاكل المحلية الخاصة بالأملاك العقارية أو الجرائم. وقد نشأ من هذه الجماعات، بعد تطورها على يد النورمان والإنجليز، نظام المحلفين القائم في هذه الأيام. وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات يحكم كل مقاطعة في الشؤون الروحية أسقف أو كبير أساقفة، وفي الشؤون الدنيوية قومن (Comes) (رفيق للملك أو كونت). وكانت جمعية محلية من الملاك تجتمع مرتين أو ثلاث مرات كل سنة في عاصمة كل مقاطعة لتبدي رأيها في حكومة الإقليم وتكون بمثابة محكمة استئناف فيه. وكان للمقاطعات الواقعة على الحدود المعرضة للخطر حكام من طراز خاص يسمونهم جراف graf أو مارجراف Margravc، أو مرخرزوج Markherzog، فكان رولان المرستفالي Roland of Maecesvalls مثلاً حاكم مقاطعة برتن Breton وكانت كل الإدارات المحلية خاضعة لسلطان "مبعوثي السيد" missi dominici - الذين يرسلهم شارلمان يحملون رغباته للموظفين المحليين، ويطلعون على أعمالهم، وأحكامهم، وحساباتهم، ويمنعون الربا، والاعتصاب، والمحاباة، واستغلال النفوذ، ويتلقون الشكاوي، ويردون المظالم، ويحمون "الكنيسة، والفقراء، والذين تحت الوصاية، والشعب أجمع" من سوء استعمال السلطة أو الاستبداد، وأن يعرفوا الملك بأحوال مملكته. وكان العهد الذي عين بمقتضاه هؤلاء المبعوثون بمثابة عهد أعظم للشعب وضع قبل أن يوضع العهد الأعظم Magna Garta لحماية أشراف إنجلترا بأربعة قرون. ومما يدل على أن هذا العهد كان يقصد به ما جاء فيه ما حدث لدوق إستريا Istria، إذ اتهمه المبعوثون بارتكاب عدة مظالم، واعتصاب الأموال، فأرغمه

صفحة رقم : 5047

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

الملك على أن يرد ما اختلسه، وأن يعوض كل مظلوم عما وقع عليه من ظلم، ويعترف علناً بجرائمه، ويقدم الضمانات التي تمنعه من تكرارها. وإذا ما غضضنا النظر عن حروب شارلمان كان هو أعدل الحكام الذين عرفتهم أوروبا منذ عهد ثيودريك القوطي وأكثرهم استنارة. وتعد القوانين الست والخمسون الباقية من تشريعات شارلمان من أكثر المجموعات القانونية طرافة في العصور الوسطى. فهي لا تكون مجموعة منتظمة، بل هي توسيع القوانين "الهمجية" الأقدم منها عهداً وتطبيقاً على الظروف والمطالب الجديدة. ولقد كانت في بعض تفاصيلها أقل استنارة من قوانين ليونبراند اللباردي: فقد أبقت على عادات الكفارة عن الجرائم الكبرى، والتحكيم الإلهي، والمحاكمة بالافتتال، والعقاب ببتن الأعضاء (24)، وحكمت بالإعدام على من يرتد إلى الوثنية، أو من يأكل اللحم في أيام الصوم الكبير وإن كان يسمح لرجال الدين أن يخففوا هذه العقوبة الأخيرة (25). ولم تكن هذه كلها قوانين، بل منها ما كان فتاوي، ومنها ما كان أسئلة موجهة من شارلمان إلى موظفيه، ومنها ما هو نصائح أخلاقية. وقد جاء في إحدى المواد: "يجب على كل إنسان أن يعمل بكل ما لديه من قوة وكفاية لخدمة الله وإتباع أوامره، لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يراقب كل إنسان في أخلاقه الخاصة" (26). وحاولت بعض المواد أن تقيم العلاقات الجنسية والزوجية بين أفراد الشعب على قواعد أكثر نظاماً مما كانت قبل، على أن الناس لم يطيعوا هذه النصائح كلها؛ ولكن القوانين والنصائح في مجموعها تتم عن جهود صادقة لتحويل الهمجية إلى حضارة.

وشرع شارلمان للزراعة، والصناعة، والشئون المالية، والتعليم، والدين، كما شرع لشئون الحكم والأخلاق. وكان حكمه في فترة انحطت فيها الحالة الاقتصادية في جنوبي فرنسا وإيطاليا إلى الحضيض من جراء سيطرة المسلمين على

صفحة رقم : 5048

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

البحر المتوسط. وفي هذا يقول ابن خلدون إن المسيحيين لم يكن في وسعهم أن يسيروا لوحاً فوق البحر (27)، وكانت العلاقات التجارية بأجمعها بين غربي أوروبا وأفريقية وشرقي البحر المتوسط غاية في الاضطراب. وكان اليهود وحدهم هم الذين يربطون النصفين المتعديين من البلاد التي كانت أيام حكم روما عالماً اقتصادياً موحداً. وبقيت التجارة قائمة في أوروبا الخاضعة لحكم الصقالبة وبيزنطية، وفي شمالها النيبوتوني. وكذلك كانت القناة الإنجليزية وكان بحر الشمال يموجان بالمتاجر، ولكن هذه التجارة الأخيرة أيضاً اضطرت أحوالها قبل موت شارلمان، وقد أوقعتها في هذا الاضطراب غارات أهل الشمال وقرصنتهم. وكاد أهل الشمال يغلقون ثغور فرنسا الشمالية، والمسلمون يغلقون ثغورها الجنوبية، حتى أضحت لهذا السبب جزيرة منفصلة عن العالم، وبلد زراعياً، وضمحلّت فيها طبقة التجار الوسطى، فلم تبق هناك طبقة تنافس كبار الملاك في الريف؛ وكان مما ساعد على قيام نظام الإقطاع في فرنسا هبات شارلمان للأراضي وانتصار الإسلام. وبذل شارلمان جهوداً جبارة لحماية الفلاحين الأحرار من نظام رقيق الأرض الأخذ في الانتشار. ولكن قوة الأشراف والظروف القاهرة المحيطة به أحبطت جهوده. وحتى الاسترقاق نفسه اتسع نطاقه وقتاً ما نتيجة لحروب الكارولنجيين ضد القبائل الوثنية. وكانت أهم موارد الملك مزارعه الخاصة التي كانت مساحتها تتسع من حين إلى حين نتيجة المصادرة، والهبات، وعودة بعض الأراضي إلى الملك ممن يموتون بغير ورثة، واستصلاح الأراضي البور. وقد أصدر للعناية بهذه الأراضي قانوناً زراعياً مفصلاً أعظم تفصيلاً يشهد بعنايته التامة في بحث جميع موارد الدولة ومصروفاتها. وكانت الغابات والأراضي البور، والطرق العامة، والمواني وجميع ما في الأرض من معادن ملكاً للدولة (28). وشجع ما بقي في البلاد من تجارة بكافة السبل؛ فبسطت الدولة حمايتها على الأسواق، ووضع

صفحة رقم : 5049

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

نظام دقيق للموازين والمقاييس والأثمان، وجففت المكوس، ومُنعت المضاربات على المحاصيل قبل حصادها، وأنشئت الطرق والجسور أو أصلحت، وأنشئ جسر عظيم على نهر الرين عند مينز، وظهرت المسالك المائية لتبقى مفتوحة على الدوام، واختطت قناة تصل الرين بالدانوب حتى يتصل بحر الشمال بالبحر الأسود. وحافظت الدولة على

ثبات النقد، ولكن قلة الذهب في فرنسا واضمحلال التجارة أدت إلى استبدال الجنيه الفضي بجنيه شارلمان المعروف باسم السوليدس Solidus. وامتدت جهود الملك وعنايته إلى كل ناحية من نواحي الحياة، فأسمى الرياح الأربع بأسمائها التي تعرف بها الآن؛ ووضع نظاماً إعانة الفقراء، وفرض على النبلاء ورجال الدين ما يلزمه من المال لهذا المشروع، ثم حرم التسول وجعله جريمة يعاقب عليها القانون (29). وهاله انتشار الأمية في أيامه حتى لا يكاد أحد يعرف القراءة والكتابة غير رجال الدين، كما هاله انعدام التعليم بين الطبقات الدنيا من هذه الطائفة، فاستدعى علماء من الأجانب لإعادة مدارس فرنسا إلى سابق عهدها؛ فأغرى بولس الشماس على أن يأتي إليه من منتي كسينو، وألكوين من يورك (782)، ليعلما في المدرسة التي أنشأها شارلمان في القصر الملكي بأخن. وكان ألكوين هذا (735-804) رجلاً سكسونياً، ولد بالقرب من مدينة يورك، وتعلم في مدرسة الكندرائية وهي المدرسة التي أنشأها الأسقف إجبرت في تلك المدينة، وقد كانت بريطانيا وأيرلندا في القرن الثامن متقدمتين من الناحية الثقافية عن فرنسا. ولما بعث أفا Offa ملك مرسية Mercia ألكوين في بعثة إلى شارلمان ألح شارلمان على ألكوين أن يبقى عنده، وسر ألكوين أن يخرج من إنجلترا حين كان "الدنمركيون يتلفون أرضها، ويدنسون الأديرة بما يرتكبونه فيها من الزنى" (30)، فأثر البقاء، وبعث إلى إنجلترا وغيرها من البلاد في طلب الكتب والمعلمين، وسرعان ما أضحت مدرسة القصر مركزاً نشيطاً من

صفحة رقم : 5050

قصة الحضارة - عصر الإيمان - العصور المظلمة - اضمحلال الغرب - فرنسا - شارلمان

مراكز الدرس، ومراجعة المخطوطات ونسخها، كما أضحت مركزاً لإصلاح نظم التربية إصلاحاً عم جميع المملكة. وكان من بين طلابها شارلمان نفسه، وزوجته ليوتجارد Liutgard، وأولاده وابنته جزيلا Gisela، وأمين سره اجنهارد Eginhard، وإحدى الراهبات، وكثيرون غيرهم، وكان أكثرهم شغفاً بالتعليم؛ فكان يحرص على العلم حرصه على تملك البلاد، يدرس البلاغة وعلوم الكلام، والهيئة؛ ويقول إجنهارد إنه بذل جهوداً جبارة ليتعلم الكتابة "وكان من عادته أن يحتفظ بالألواح تحت وسادته، حتى يستطيع في أوقات فراغه أن يمرن يده على رسم الحروف؛ ولكن جهوده هذه لم تلق إلا قليلاً من النجاح لأنه بدأ هذه الجهود في سني حياته" (31). ودرس اللاتينية بنهم شديد، ولكنه ظل يتحدث بالألمانية مع أفراد حاشيته؛ وقد وضع كتاباً في نحو اللغة الألمانية وجمع نماذج من الشعر الألماني القديم.

ولما ألح ألكوين على شارلمان، وبعد أن قضى في مدرسة القصر ثمة سنين، أن ينقله إلى بيئة أكثر منها هدوءاً، عينه الملك على كره منه رئيساً لدير تور (796)؛ وهناك حشد ألكوين الرهبان لينقلوا نسخاً من الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة والإنجيل التي قام جيروم أحد آباء الكنيسة اللاتين، ومن الكتب اللاتينية القديمة، بحيث تكون أكثر دقة من النسخ المتداولة وقتئذ. وحذت الأديرة الأخرى حذو هذا الدير، وبفضل هذه الجهود كانت كثير من أحسن ما وصل إلينا من النصوص القديمة من مخطوطات هذه الأديرة في القرن التاسع الميلادي؛ وقد احتفظ لنا رهبان العصر الكارولنجي بما لدينا من الشعر اللاتيني كله تقريباً عدا شعر كاتلس Gatullus، وتيبلس Tibullus، وبروبرتيوس Poptrius، وبما لدينا من النثر اللاتيني كله تقريباً ما عدا كتابات فارو Varro، وتاسنس Tacitns وأبوليوس (32) Apnleius. وكانت كثير من المخطوطات الكارولنجية جميلة الزخرفة يزيناها فن الرهبان وصبرهم الطويل،

صفحة رقم : 5051

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

وكان من آثار هذه الكتب المزخرفة التي أخرجتها مدرسة القصر أناجيل "فيينا" التي كانت أباطرة ألمانيا المتأخرون يقسمون عليها أيمان تتويجهم.

وأصدر شارلمان في عام 787 إلى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها "توجيهات لدراسة الآداب"، يلوم فيها رجال الدين على ما يستخدمونه من "اللغة الفظة" و "الألسنة غير المهذبة" ويحث كل كنيسة ودير على إنشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدين على السواء القراءة والكتابة. ثم أصدر توجيهات أخرى في عام 789 يدعو فيها مديري هذه المدارس أن "يحرصوا على ألا يفرقوا بين أبناء رقيق الأرض وأبناء الأحرار، حتى يمكنهم أن يأتوا ويجلسوا على المقاعد نفسها ليدرسوا النحو، والموسيقى، والحساب". وفي عام 805 صدرت تعليمات أخرى تهيب لهذه المدارس تعليم الطب، وتعليمات غيرها تندد بالخرافات الطبية. ومما يدلنا على أن أوامره لم تذهب أدراج الرياح كثرة ما أنشئ في فرنسا وألمانيا الغربية من مدارس في الكنائس والأديرة؛ فلقد أنشأ ثيودولف Theodulf أسقف أورليان مدارس في كل أبرشية من أسقفيته، رحب فيها بجميع الأطفال على السواء، وحرّم على القساوسة الذين يتولون التدريس أن يتناولوا أجوراً (33)، وذلك أول مثل للتعليم العام المجاني في تاريخ كله. ونشأت مدارس هامة، متصلة كلها تقريباً بالأديرة، في خلال القرن التاسع في تور، وأوكسير Auxer، وبافيا، وسانت جول St, Gall، وفلدا Fulda، وغنت Ghent وغيرها من المدن. وأراد شارلمان أن يوفر حاجة هذه المدارس إلى المعلمين، فاستقدم العلماء من أيرلندا، وبريطانيا، وإيطاليا، ومن هذه المدارس نشأت في المستقبل الجامعات الأوربية.

على أننا يجب أن لا نغالي في تقدير القيمة العقلية لذلك العهد. فلقد كان هذا البعث المدرسي أشبه ببقظة الأطفال منه بالنضوج الثقافي الذي كان قائماً وقتئذ في القسطنطينية، وبغداد، وقرطبة، فلم يثمر هذا البعث كتاباً كباراً من

صفحة رقم : 5052

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

أي نوع كان. وكتابات ألكوين الشكلي مملّة، مقبضة، خانقة؛ وليس فيها ما ينفي عنه تهمة التحذلق والتباهي بالعلم، وتدل على أنه إنسان لطيف يستطيع أن يوفق بين السعادة والتقي؛ وليس فيها ما يدل على هذا وينفي ذلك إلا بعض وسائله وأبيات من شعره. ولقد أنشأ كثير من الناس أشعاراً في أثناء هذه النهضة العلمية القصيرة الأجل، منها قصائد ثيودولف التي فيها قدر كاف من الجمال على طريقتها الضعيفة الخاصة بها. غير أن الأثر الأدبي الخالد الوحيد الذي خلفه ذلك العهد هو الترجمة المختصرة البسيطة لشارلمان التي كتبها اجنهارد. وهي تحذو حذو كتاب ستونيوس Seutonius حياة القياصرة Lives of the Caesars، بل الكتاب الأول ليقطف بعض فقرات من الثاني يصف بها شارلمان. على أننا يجب أن نغفر كل شيء للمؤلف الذي يصف نفسه في تواضع جم بأنه "همجي، لا يعرف إلا قليلاً من لسان الرومان" (34)، وما من شك رغم هذا الاعتراف في أنه رجل عظيم المواهب، لأن شارلمان عينه أستاذاً اقصره، وخازناً لببيت ماله، واتخذة صديقاً مقرباً له، واختاره ليشرّف على الكثير من العمائر في حكمه الإنساني العظيم، ولعله قد اختاره لتخطيطها.

وشيدت قصور للإمبراطور في أنجلهيم Ingelheim ونجمين Njimegen، وأقام في آخن عاصمته المحببة القصر والكنيسة الصغيرة الذائعي الصيت الذين تعرضوا لأكثر من ألف من الأخطار وظلا قائمين حتى دمرتهما قنابل الحرب العالمية الثانية. وقد أقام المهندسون المجهولون تلك الكنيسة على نمط كنيسة سان فيتال San Vitale برافنا وهي التي أقيمت على غرار الكنائس البيزنطية السورية؛ فكانت النتيجة أن وجدت كنيسة شرقية جانحة في الغرب. وقد أقيمت فوق البناء المثلث قبة مستديرة، وقسم البناء من الداخل عدة أقسام بطابقين من عمد مستديرة "وزينت بمصابيح من الذهب والفضة، وحظار، وأبواب من البرونز المصمت، وأعمدة وبوارق جيء بها من روما ورافنا" (35)، وينقش فسيفسائي ذائع الصيت في القبة.

صفحة رقم : 5053

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

وكان شارلمان سخياً غاية السخاء على الكنيسة، ولكنه مع هذا جعل نفسه سيدها، واتخذ من عقائدها ورجالها أدوات لتعليم الناس وحكمهم. وكانت كثرة رسائله متعلقة بشئون الدين، فكان يقذف الفاسدين من موظفيه والقساوسة الدنيويين بعبارات مقتبسة من الكتاب المقدس؛ وإن ما في أقواله من القوة لينفي عنه مظنة أن تقواه كانت خدعة سياسية. فقد كان يبعث بالمال إلى المسيحيين المنكوبين في البلاد الأجنبية، وكان يصر في مفاوضاته مع الحكام المسلمين على أن يراعوا العدالة في معاملة رعاياهم المسيحيين (36). وكان للأساقفة شأن كبير في مجالسه، وجمعياته، ونظامه الإداري، ولكنه كان ينظر إليهم، رغم احترامه الشديد لهم، على أنهم عماله بأمر الله، ولم يكن يتردد في أن يصدر أوامره لهم، حتى في المسائل المتعلقة بالعقائد أو الأخلاق. ولقد ندد بعبارة الصور و التماثيل حين كان البابوات يدافعون عنها، وطلب إلى كل قس أن يبعث إليه بوصف مكتوب لطريقة التعميد في أبرشيته، ولم تكن توجيهاته للبابوات أقل من هداياه لهم، وقضى على ما يحدث في الأديرة من تمرد، ووضع نظاماً للرقابة الصارمة على أديرة النساء ليمنع "الدعارة، والسكر، والشهه" بين الراهبات. سأل القساوسة في أمر وجهه لهم عام 811 عما يقصدون بقولهم إنهم يبنذون العالم على حين "أننا نرى" بعضهم يكذبون يوماً بعد يوم بجميع الوسائل، ليزيدوا أملاكهم، فتارة يتخذون التهديد بالنار الأبدية وسيلة يستخدمونها لأغراضهم الخاصة، وتارة يعدون الناس بالنعيم السرمدي لهذه الأغراض نفسها، وطوراً يسلبون السذج أموالهم باسم الله أو اسم أحد القديسين، ويلحقون بذلك أعظم الضرر بورتهم الشرعيين". على أنه رغم هذا قد أبقى لرجال الدين محاكمهم الخاصة، وأمر بأن يؤدي إلى الكنيسة عشر غلة الأرض، وجعل لرجال الدين الإشراف على شئون الزواج، والوصايا، وأوصى هو نفسه بثلاثي ضياعه لأسقفيات

صفحة رقم : 5054

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

مملكته (37)، ولكنه كان يطلب إلى الأساقفة بين الفينة والفينة أن يقدموا "هبات" قيمة لتساعد على الوفاء بنفقات الحكومة.

وقد أثمر هذا التعاون الوثيق بين الكنيسة والدولة فكرة من أجل الأفكار في تاريخ الحكم: ألا وهي استحالة دولة شارلمان إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي تستند إلى كل ما كان لروما الإمبراطورية والبابوية من هيبية، وقداسة، واستقرار. ولقد كان البابوات من زمن طويل يستنكرون خضوع أقاليمهم إلى بيزنطية التي لا تصد عنها غارة ولا تقر فيها أمناً، وكانوا يشاهدون خضوع البطارقة المتزايد إلى إمبراطور القسطنطينية ويخشون أن تضيق حريتهم هم أيضاً. ولسنا نعرف من الذي لاحت له فكرة تتويج شارلمان إمبراطوراً رومانياً على يد البابا أو منذ الذي وضع خطة هذا التتويج، وكل ما نعرفه أن الكويين، وثيودولف وغيرهما من الملتفين حوله قد تناقشوا في إمكانه، ولعلمهم هم الذين خطوا فيه الخطوة الأولى، أو لعل مستشاري البابا هم الذي فكروا في هذا الأمر. وقامت في سبيل تنفيذه صعاب شديدة: فقد كان إمبراطور الروم يلقب وقتئذ بلقب الإمبراطور الروماني، وكان أحق الناس من الوجهة التاريخية بذلك اللقب، ولم يكن للكنيسة حق معترف به في حمل الألقاب أو نقلها من شخص إلى آخر، ولربما كان منح اللقب لشخص منافس لبيزنطية سبباً في إشعال نار حرب عاجلة عوان بين المسيحيين في الشرق وإخوانهم في الغرب، حرب تترك أوروبا المخربة غنيمة سهلة للفتوح الإسلامية. غير أن الأمر قد سيره بعض التيسير إن إيريني جلست على عرش أباطرة الروم (797)، فقد قال البعض وقتئذ إنه لم يعد هناك إمبراطور روماني، وإن الباب أصبح مفتوحاً لكل من يطالب باللقب، فإذا ما نفذت هذه الخطة الجريئة قام مرة أخرى إمبراطور روماني في الغرب، تقوى به المسيحية اللاتينية وتتوحد، فتستطيع مقاومة انشقاق بيزنطية وتهديد المسلمين ولعل ما في اللقب الإمبراطوري من رهبة وسحر يمكن

صفحة رقم : 5055

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

أوروبا الهمجية من أن تعود أراجها خلال القرون المظلمة وترث حضارة العالم القديم وثقافته وتنتشر المسيحية في ربوعه.

وحدث في السادس والعشرين من ديسمبر عام 795 أن اختير ليو الثالث بابا؛ ولم يكن شعب روما يحبه، وكان يتهمه بعدة فعال خبيثة، ثم هاجمه العامة في الخامس والعشرين من إبريل عام 799، وأسأوا معاملته، وسجنوه في دير. لكنه هرب من سجنه، وفر إلى شارلمان في بادربورن وطلب إليه أن يحميه. وأحسن الملك استقباله، وأعادته إلى رومة مع حرس مسلح، وأمر البابا و متهميه أن يمثلوا أمامه في تلك المدينة في العام المقبل. ودخل شارلمان العاصمة القديمة بموكب فخم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام 800، واجتمعت في أول ديسمبر جمعية من الفرنجة الرومان، واتفقت على إسقاط التهم الموجهة إلى ليو إذا ما أقسم يميناً مغلظة على أنه لم يرتكبها. وأقسم ليو اليمين وتهيأت السبيل إلى إقامة احتفال فخم بعيد الميلاد. فلما أقبل ذلك اليوم ركع شارلمان للصلاة أمام مذبح القديس بطرس بالعباءة اليونانية القصيرة والصندلين، وهما اللباس الذي كان يرتديه كبراء الرومان، ثم أخرج ليو على حين غفلة ناجماً مطعماً بالجواهر ووضع على رأس الملك. ولعل المصلين كانوا قد علموا من قبل أن يفعلوا ما توجه عليهم الشعائر القديمة التي يقوم بها كبراء الشعب الروماني لتأييد هذا التتويج، فنادوا ثلاث مرات: "ليحي شارل الأقمح، الذي توجه الله إمبراطوراً عظيماً للرومان لينشر بينهم السلام!". ومسح رأس الملك بالزيت المقدس، وحيا البابا شارلمان ونادى به إمبراطوراً وأغسطس، وتقدم إليهم بمراهم الولاء التي ظلت محتفظاً بها للإمبراطور الشرقي منذ عام 476. وإذا جاز لنا أن نصدق اجتهارد، فإن شارلمان قد قال له إنه ما كان ليدخل الكنيسة لو أنه عرف أن ليو ينوي تتويجه إمبراطوراً. ولربما كان قد عرف الخطة بوجه عام، ولكنه لم يرض عن السرعة التي تمت بها والظروف المحيطة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

بها وقت إتمامها؛ ولعله لم يكن يسره أن يتلقى التاج من البابا، فيفتح بقبوله منه باباً للنزاع الذي دام قرناً طويلاً بين البابا والإمبراطور، وأيهما أعظم مكانة وأقوى سلطاناً: المعطي: أو أخذ العطية؛ ولعله فكر أيضاً فيما سوف يجره ذلك من نزاع مع بيزنطية في المستقبل. ثم أرسل شارلمان عدة رسائل وبعوث إلى القسطنطينية يريد بها أن يأسو الجرح الذي أحدثته هذه الفعلة، وظل زمناً طويلاً لا ينتفع بلقبه الجديد؛ حتى كان عام 802 فعرض الزواج على إيريني ليكون ذلك وسيلة يجعل بها لقبهما المشكوك فيهما شرعيين (39)، ولكن سقوط إيريني عن عرشهما أفسد هذه الخطة اللطيفة. وأراد بعد ذلك أن يقلل من خطر هجوم بيزنطية عليه فوضع خطة لعقد اتفاق ودي مع هارون الرشيد، وقد أيد هارون ما نشأ بينهما من حسن التفاهم بأن أرسل إليه عدداً من الفيلة ومفاتيح الأماكن المقدسة في بيت المقدس. وردّ الإمبراطور الشرقي على ذلك بأن شجع أمير قرطبة على عدم الولاء لبغداد، وانتهى الأمر في عام 812 حين اعترف إمبراطور الروم بشارلمان إمبراطوراً نظير اعترافه بأن البندقية وإيطاليا الجنوبية من أملاك بيزنطية. وكان لتتويج شارلمان نتائج دامت ألف عام، فقد قوى البابوية والأساقفة إذ جعل السلطة المدنية مستمدة من الهيئة الكنسية، وأتاحت حوادث عام 800 لجريجوري السابع وإنوسنت الثالث أن يقيما على أساسها كنيسة أقوى من الكنيسة السابقة، وقوت شارلمان على البارونات الغضاب وغيرهم لأنها جعلته ولياً لله في أرضه، وأيدت أعظم التأييد نظرية حق الملوك الإلهي في الحكم، ووسعت الهوة بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة اللاتينية، لأن أولهما لم تكن ترغب في الخضوع إلى كنيسة رومانية متحالفة مع إمبراطورية منافسة لبيزنطية. ولقد كان استمرار شارلمان في اتخاذ آخذ لا روما عاصمة له شاهداً على انتقال السلطة السياسية من بلاد البحر المتوسط إلى أوروبا الشمالية، ومن الشعوب اللاتينية إلى النيتون. وأهم من هذا كله أن تتويج شارلمان أقام الإمبراطورية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

الرومانية المقدسة عملياً وإن لم يقمها من الوجهة النظرية. وكان شارلمان ومستشاروه يرون أن سلطته الجديدة إحياء للسلطة الإمبراطورية القديمة، على أن الصبغة الجديدة الخاصة بهذا النظام لم يعترف بها إلا في عهد أوتو Otto الأول، كما أنها لم تصبح "مقدسة" إلا حين ضم فردريك باربروسا Frederik Barbarossa لفظ مقدس sacrum إلى ألقابه في عام 1155. وجملة القول أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت -على الرغم من تهديدها للعقول والمواطنين فكرة نبيلة، وحلماً من أحلام الأمن والسلام، وعودة للنظام والحضارة إلى عالم أنقذ من برائن الهمجية، والعنف، والجهل.

وأصبحت المراسيم الإمبراطورية تكتنف الإمبراطور في المهام الرسمية، فكان عليه أن يلبس أثواباً مزركشة، ذات مشبك ذهبي، وحذاءين مرصعين بالجواهر وتاجاً من الذهب والجوهر، وكان على زائريه أن يسجدوا أمامه لقبولاً قدمه أو ركبته، هذا ما أخذه شارلمان عن بيزنطية وما أخذته بيزنطية عن طيسفون. غير أن اجنهارد يؤكد لنا أن ثيابه-إذا استثنينا ما ذكرناه عنها أنفأ-لم تكن تختلف إلا قليلاً عن ثياب الفرنجة العادية: كانت تتألف من قميص من التيل، وسروال قصير لا شيء تحته، ومن فوق القميص والسروال القصير قناع من الصوف ربما كانت له أهداب من الحرير، وجورب طويل مربوط بشريطين يغطي ساقيه وحذاءين من الجلد في قدميه، وكان يضيف إليها في الشتاء معطفاً ضيقاً من جلود ثعلب الماء أو الفنك، وكان يحتفظ بسيف إلى جانبه لا يفارقه أبداً. وكان طول قامته ست أقدام وأربع بوصات، وكانت بنيته تناسب مع هذا الطول. وكان أشقر الشعر، شغد العينين، أشم الأنف،

صفحة رقم : 5058

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

له شاربان وليست له لحية "جليلاً مهيب الطلعة على الدوام" (40). وكان معتدلاً في طعامه وشرابه، يمقت السكر أشد المقت، جيد الصحة على الدوام مهما تعرض لتقلبات الجو ومهما قاسى من الصعاب. وكثيراً ما كان يخرج للصيد أو يمارس ضروب الرياضة العنيفة على ظهور الخيل، وكان سباحاً ماهراً، يحب الاستحمام في عيون أخن الدفينة. ولما كان يدعو الناس إلى الولايم، لأنه كان يفضل الاستماع إلى الموسيقى أو قراءة كتاب في أثناء الطعام. وكان يعرف قيمة الوقت كما يعرفها كل عظيم. وكان يستقبل زائريه ويستمع إلى قضاياهم في الصباح وهو يرتدي ثيابه أو يلبس حذائيه.

وكان من وراء مهابته وجلاله عاطفة قوية وهمة عالية، ولكنه كان يسخر عاطفته وهمته لتحقيق أغراضه ويوجههما بذكائه وثاقب بصره. ولم تستنفد حروبه التي تربي على نصف المائة قوته وحيويته. وكان إلى هذا كله شديد العناية بالعلوم والقوانين، والأداب، وعلوم الدين لا تقتصر حماسته لها على مر السنين، وكان يسوئه أن يبقى جزء من الأرض لم يستول عليه أو أي فرع من فروع العلم لم يضرب فيه بسهم. وكان شريف النفس من بعض الوجوه، وكان يزدري الخرافات، ويحرم أعمال المتنبيين أو العرافين، ولكنه صدق كثيراً من الأعاجيب الأسطورية، وبالغ في مقدرة الشرائع على إصلاح أخلاق الناس وعقولهم. ولقد كان لهذه السذاجة النفسية بعض المحاسن: لقد كان في تفكيره وحديثه صراحة وثيل قلماً نراهما في رجال الحكم.

وكان يسعه أن يكون قاسياً إذا تطلبت سياسة الدولة القسوة، وأشد ما كانت قسوته فيما بذله من جهود لنشر الدين المسيحي، ولكنه مع هذا كان عظيم الرأفة، كثير الإحسان، وفيماً مخلصاً لأصدقائه، ولقد بكى بالدمع عند وفاة أولاده، وبنته، والبابا هدریان. ويرسم لنا ثيودولف في قصيدة له عنوانها "حكم شارل" صورة لطيفة للإمبراطور في بيته، فيقول إنه إذا قدم من أعماله

صفحة رقم : 5059

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

أحاط به أبناؤه، فيخلع عنه ابنه شارل عباءته، ويأخذ ابنه نوبس سيفه، وتعانقه بناته الست، ويأتين له بالخبز، والخبز، والخبز، والأزهار، ويدخل الأسقف ليبارك طعام الملك، ويقترّب منه الكويّن ليبحث معه ما لديه من الرسائل، ويهرول إجنهارد الضئيل الجسم هنا وهناك كأنه نملة، ويأتيه بكتب ضخمة (41). وقد بلغ من حبه لبناته أن أقنعهن بعدم الزواج، وقال إنه لا يطيق فراقهن، ومن أجل هذا أخذن يواسين أنفسهن بالارتقاء إلى أحضان العشاق وجئن بعدة أبناء غير شرعيين (42). وقد قابل شارلمان هذه الأعمال منهن بنفس سمحة، لأنه هو نفسه قد جرى على سنة أسلافه، فاتخذ له أربع أزواج واحدة بعد الأخرى، وأربع عشيقات أو حظايا. ذلك أن حيويته الموفورة جعلته شديد الإحساس بمفاتن النساء، وكانت نساؤه يؤثرن أن يكون للواحدة منهن نصيب منه على أن يكون لها رجل آخر بمفردها. وقد ولدت له نساؤه نحو ثمانية عشر من الأبناء والبنات منهم أربعة شرعيون (43). وغض من في حاشيته ومن في روما من رجال الدين أبصارهم عن تحلل رجل مسيحي مثله من قيود الأخلاق المسيحية.

وكان شارلمان وقتئذ على رأس دولة أعظم من الإمبراطورية البيزنطية لا يعلو عليها في عالم الرجل الأبيض إلا دولة الخلفاء العباسيين. ولكن كل توسع في حدود الإمبراطوريات أو العلوم يخلق مشاكل جديدة. فلقد حاولت أوروبا الغربية أن تحمي نفسها من الألمان بإدماجهم في حضارتها؛ غير أن ألمانيا كان عليها في هذا الوقت أن تحمي نفسها من أهل الشمال ومن الصقالبة؛ وكان الملاحون من أهل الشمال قد أنشؤا لهم مملكة في جتلندة Jutland قبل عام 800 م وأخذوا يغيرون على سواحل فريزيا Frisia. وأسرع إليهم شارل من روما، وأنشأ الأساطيل والقلاع عند الشواطئ والأنهار، وأقام حاميات في الأماكن المعرضة للأخطار، ولما أغار ملك جتلندة على فريزيا عام 810 صدّها عنها، ولكن شارلمان هاله أن يشهد من قصره في نربونة بعد قليل من ذلك الوقت، إذا جاز لنا أن

صفحة رقم : 5060

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> شارلمان

نصدق أخبار راهب سانت جول، سفن القراصنة الدنمركيين في خليج ليون. ولعله قد تتبأ، كما تتبأ دقلديانوس من قبل، بأن إمبراطوريته الواسعة في حاجة إلى الدفاع السريع عنها في عدة مواضع في وقت واحد، فقسمها في عام 806 بين أولاده الثلاثة-بيبين، ولويس، وشارل. ولكن بيبن توفي عام 810، وشارل في عام 811، ولم يبق من هؤلاء الأبناء إلا لويس، وكان منهمكاً في العبادة انهماكاً بدا معه أنه غير خليق بأن يحكم عالماً مليئاً بالاضطراب والغدر. غير أن لويس رغم هذا قد رفع باحتفال مهيب في عام 813 من ملك إلى إمبراطور ونطق الملك الشيخ قائلًا: "حمداً لله يا إلهي إذ أنعمت عليّ بأن أرى بعين ولدي يجلس على عرشي" (44). وبعد أربع سنين من ذلك الوقت أصيب الملك الشيخ وهو يقضي الشتاء في آخن بحمى شديدة نتج عنها التهاب البلورة، وحاول أن يداوي نفسه بالاعتصار على السوائل، ولكنه توفي بعد سبعة أيام من بداية المرض بعد أن حكم سبعة وأربعين سنة وعاش اثنتين وسبعين (814)، ودفن تحت قبة كاتدرائية آخن، مرتدياً أثوابه الإمبراطورية. وما لبث العالم كله أن أسماه كارولس ماجنس Carolus Magnus أو كارل در جروس Karl der Grosse أو شارلمان Charlemagne (أي شارل العظيم)، ولما حل عام 1165 ومحا الزمان جميع ذكريات عشيقاته ضمته الكنيسة التي أحسن إليها الإحسان كله في زمرة الصالحين المنعمين.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

3- اضمحلال الكارولينجيين

كانت النهضة الكارولنجية فترة من فترات البطولة المتعددة في العصور المظلمة، ولولا ما اتصف به خلفاء شارلمان من عجز وما شجر بينهم من نزاع لكان من المستطاع أن تقضي هذه الفترات قبل مجيء أبلار بثلاثة قرون على ظلمات تلك

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

العصور، وعلى فوضى بارونات الإقطاع. وعلى النزاع الذي قام بين الكنيسة والدولة ومزقها شر ممزق، وعلى غارات النورمان، والمجر، والمسلمين التي أدى إليها هذا النزاع الأخرق. لكن رجلاً بمفرده، وحياء بمفرده لم يكفيا لإقامة حضارة جديدة. يضاف إلى هذا أن تلك النهضة القصيرة الأجل كانت نهضة كنسية ضيقة أشد الضيق، فلم يكن للمواطن العادي فيها نصيب، وما أقل من كان يعني بها من النبلاء، وما أقل من كان منهم يشغل نفسه بتعلم القراءة. وما من شك في أن شارل نفسه ملوم إلى حد ما على انهيار دولته. فلقد أفاء على رجال الدين من الثراء ما جعل سلطان الأساقفة، بعد أن رفعت يده القوية عنهم، يرجح سلطان الإمبراطور؛ ولقد اضطرت أسباب حربية وإدارية أن يمنح المحاكم والبارونات في الأقاليم قدراً من الاستقلال شديد الخطورة. ثم إنه جعل مالية الحكومة الإمبراطورية ذات الأعباء الجسام تعتمد على ولاء هؤلاء الأشراف الغلاظ واستقامتهم، وعلى ما تدره أراضيه ومناجمه من إيراد غير كبير، ولم يكن في وسعه أن يعمل ما عمله أباطرة الروم فينشئ بيروقراطية من الموظفين المدنيين مسئولين أمام السلطة المركزية دون غيرها، وقادرين على النهوض بأعباء الحكم مهما تكن شخصية الإمبراطور وأتباعه، فلم يكذبمضي على وفاته جيل واحد حتى أقبل رسل الإمبراطور الذين بسطوا سلطانه في الولايات أو تجاهل الولاة وجودهم، وألقى الأعيان المحليون عن كاهلهم سلطان الحكومة المركزية. وملاك القول أن حكم شارلمان كان عملاً جليلاً من أعمال العباقرة يمثل الرقي السياسي في عصر وفي رقعة من الأرض يعمهما الاضمحلال الاقتصادي. وإن الألقاب التي أطلقها المعاصرون لخلفائه عليهم لتكفي وحدها لأن تقص علينا قصتهم: لويس النقي Louis the Pious، وشارل الأصلع Charles the Bald، ولويس المتلعثم Louis the Stammerer وشارل البدين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينيين

Charles the Fat، وشارل الساذج Charles the Simple. فأما لويس "التقي" (814-840) فكان كأبيه طويل القامة، بهي الطلعة؛ وكان متواضعاً، رقيق الحاشية، خيراً كريماً، مفرطاً في اللين إفراط بولبوس قيصراً. وكان قد تربي على أيدي القساوسة فجعلته هذه التربية شديد الاهتمام بالمبادئ الأخلاقية التي كان يزاولها شارلمان باعتدال من ذلك أنه لم تكن له إلا زوج واحدة ولم يكن له قط حظايا، وأنه طرد من حاشيته عشيقاته وأبيه وعشاق أخواته، ولما احتجت أخواته، ولما احتجت أخواته على عمله هذا حبسهن في أديرة الراهبات. وأرغم القساوسة على أن يعملوا بأقوالهم، وأمر الرهبان أن يحيوا الحياة التي توجبها عليها قواعد البنكتين، وحاول أن يقضي على المظالم والاستغلال أينما وجد، وأن يصلح ما كان فاسداً من قبل. وقد أعجب الناس به لانحيازه إلى الضعفاء على الأقوياء في جميع الأحوال.

وأحس لويس أن عادت الفرنجة توجب عليهم تقسيم دولته فقسمها إلى ممالك يحكمها أبناؤه بيبين، ولوثير Lothaire، ولويس "الألماني" (وسنسميه لدفع فيما بعد). وقد رزق لويس من يوديث Judith زوجته الثانية ابناً رابعاً يعرف في التاريخ باسم شارل الأصلع؛ وكان لويس يحبه حباً لا يكاد يقل عن افتتان الأجداد بأحفادهم، ويريد أن يعطيه قسطاً من إمبراطوريته بعد أن يلغي التقسيم الذي عمله في عام 817، لكن أولاده الثلاثة الكبار عارضوا في هذا وشنوا على أبيهم حرباً داخلية دامت ثمانية أعوام. وأيدت كثرة النبلاء ورجال الدين هذه الفتنة، ثم خرجت عليه القلة التي ظلت موالية له عندما تآزمت الأحوال في روثفلد (القريبة من كلمار Colmar) والتي عرفت فيما بعد باسم لوجنفلد L(genfeld أي ميدان الأكاذيب. فلما رأى ذلك لويس أمر من بقي من أنصاره أن يتركوه وشأنه وأن يهتموا بحماية أنفسهم، ثم استسلم لأبنائه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينيين

(833)، فلما تم لهم ذلك سجنوا يوديث وجزوا شعرها، وأودعوا شارل الصغير في دير، وأمروا أباهم أن ينزل عن العرش وأن يكفر علناً عما فعل، وحيى بلويس إلى كنيسة بسواسون يحيط به ثلاثون أسقفاً، وأرغم في حضرة لوثير ابنه وخلفه على أن يخلع ملابسه حتى وسطه، وأن يسجد على قطعة من نسيج الشعر ويقراً جهرتاً بجريمته. ثم لبس مسوح الندم الرمادية اللون، وقضى سنة في أحد الأديرة. وحكمت فرنسا من تلك اللحظة أسقفية موحدة قامت بين الأسرة الكارلنجية المتفككة.

وإشماز الشعب من سوء معاملة لوثير لأبيه لويس؛ واستجاب كثيرون من النبلاء وبعض رجال الدين لنداء يوديث حين طالبت بالغاء قرار الخلع، ودب النزاع بين الأخوة الثلاثة، وأطلق بيبين ولدفع أباهما، وأجلساه على عرشه، وأعاد يوديث وشارل إلى أحضانه (834). ولم يثار لويس لنفسه، بل عفا عن كل من أساءوا إليه. ولما مات بيبين (838) قسمت الدولة تقسيماً جديداً لم يرض عنه لدفع، وهجم على سكسونيا، ونزل الإمبراطور الشيخ مرة أخرى إلى

ميدان القتال، وصد المهاجمين، ولكنه مرض من تعرضه لتقلبات الجو وهو عائد من الميدان، وتوفي بالقرب من إنجلهايم (Ingelheim 840). وكان من آخر الألفاظ التي نطق بها رسالة يصفح بها لدفع، ويدعو لوثير، وقد أصبح إمبراطوراً، أن يحمي يوديث وشارل.

وحاول لوثير أن ينزل شارل ولدفع منزلة الأتباع، ولكنهما هزماه عند فنتاي (Fonteney 841)، وأقسما عند استراسبرج يمين الولاة المتبادلة المشهورة بأنها أقدم وثيقة كتبت باللغة الفرنسية لكنهما وقعا مع لوثير في عام 843 معاهدة فردون، وقسموا فيما بينهم إمبراطورية شارلمان أقساماً ثلاثة تنطبق بوجه التقريب على إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا الحالية. فاختص لدفع بالأراضي المحصورة بين نهري الرين والإلب، واختص شارل بالجزء الأكبر من فرنسا وبولايات

صفحة رقم : 5065

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

الحدود الأسبانية، وأعطى لوثير إيطاليا والأراضي المحصورة بين الرين شرقاً، والشلد Scheld، والساعون Saone والرون غرباً. وسميت هذه الأراضي الغير متجانسة، والممتدة من هواندة إلى بروفانس باسم لوثير فكانت أرض بوثير، أو لوثرنجيا Lutheringia. أو لوثرنجار Lutharingar، أو لورين Lorraine. ولم تكن ذات وحدة جنسية أو لغوية، فكان لا بد أن تصبح ميداناً للقتال بين ألمانيا وفرنسا. وكثيراً ما استبدلت سيداً يسيد فيما تقلب عليها من نصر وهزيمة أريقت فيهما الدماء أنهاراً.

وفي خلال هذه الحروب الداخلية الكثيرة الأكلاف، والتي أضعفت الحكومة، وأنقصت السكان، والثروة، والروح المعنوية في أوروبا الغربية، غزت القبائل الإسكنديناوية في سعيها إلى التوسع وبسط السلطان بلاد فرنسا فاكنتسحتها بموجة همجية واصلت وأنمت الخراب والذعر اللذين جاء في أعقاب الهجرات الألمانية قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون. فبينما كان أهل السويد يتسربون إلى روسيا والنرويجيون يضعون أقدامهم في أيرلندا، والدنمركيون يفتحون إنجلترا، كان خليط من أهل إسكنديناوة، في وسعنا أن نسميهم الشماليين أو أهل الشمال، يغيرون على مدائن فرنسا القائمة على شواطئ البحار أو ضفاف الأنهار. واستحالت هذه الغارات بعد موت لويس التقي حملات قوية تقوم بها أساطيل مؤلفة من أكثر من مائة سفينة، يسيرها ملاحون محاربون. وقاست فرنسا في القرنين التاسع والعاشر سبعا وأربعين من هذه الهجمات الشمالية؛ ونهب المغيرون في عام 840 مدينة رون Rouen، وبدعوا مائة عام من الهجمات على نورماندي، وفي عام 843 دخلوا مدينة ناننت Nantes وذبخوا أسقفها وهو قائم للصلاة أمام مذبحه، وفي عام 844 صعّدوا في نهر الجارون Garonne إلى طلووشة Tculcuse. وفي عام 845 صعّدوا في نهر السين إلى باريس، ولكنهم تركوا المدينة وشأنها بعد أن أخذوا جزية مقدارها سبعة آلاف رطل من الفضة.

صفحة رقم : 5066

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

وبينا كان المسلمون يهاجمون روما استولى أهل الشمال على فريزيا في عام 846 وأحرقوا دوردرخت Dordrecht، ونهبوا ليموج Limoges. ثم حاصروا بوردو Berdeaux في عام 847، ولكنهم ردوا عنها وأعادوا الكرة عليها في عام 848، واستولوا عليها في هذه المرة، ونهبوها، وقتلوا أهلها، وأحرقوها عن آخرها. وفي العالم الذي تلاه وجهوا مثل هذه الضربات إلى بوفيه Beauvais وبايو Bayeux، وسانت لو St. Lu، ومو Meaux، وإيفرو Evreux، وتور Tours وفي وسعنا أن نصور ما حل بهذه البلاد من رعب إذا قلنا أن تور نهبت في أعوام 853، و856، و862، و872، و886، و903، و919(45)، وإن باريس نهبت في عامي 856، و861، وأحرقت في عام 865. وجهز الأساقفة في أورليان وشارتر Chartres جيشين صدوا بهما المغيرين (855)؛ ولكن القراصنة الدنمركيين خربوا أورليان في عام 856. وفي عام 859 اخترق أسطول شمال مضيق جبل طارق ودخل البحر المتوسط، ونهب المدن الواقعة على ضفاف الرون من مصبه حتى مدينة فالنس Valence شمالاً، ثم عبر خليج جنوا، ونهب بيزا وغيرها من المدن الإيطالية. ولما قاومتهم قلاع النبلاء الحصينة في أماكن متفرقة في طريقهم نهبوا أو أتلّفوا كنوز الكنائس والأديرة غير المحمية، وكثيراً ما أحرقوها بما فيها من مكتبات، ولم ينج القساوسة والرهبان من القتل في بعض الأحيان. وكان الناس في تلك الأيام الحالكة يدعون ربهم في صلواتهم قائلين: "اللهم أنقذنا من شر أهل الشمال" (46)! وكأنما كان المسلمون على موعد مع الشماليين فاستولوا على قورسقة وسردينية في عام 810، ونهبوا ساحل الرفييرا الفرنسي في عام 820، وخربوا أرل Arles في 842، واستولوا على ساحل فرنسا الواقع على البحر المتوسط وبقي في أيديهم حتى عام 972.

ترى ماذا كان يفعل الملوك والأشراف خلال هذه الأعوام الخمسين

صفحة رقم : 5067

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينيين

الملية بالتدمير والتخريب؟ فأما الأشراف فقد كان لديهم من المشاغل ما يكفيهم، ولم يكونوا يرغبون في أن يخفوا لمساعدة أقابليهم، ولم يستجيبوا إلا استجابات ضعيفة لما وجه إليهم من نداء للعمل الإجماعي. وأما الملوك فكانوا في شغل شاغل بحروبهم في سبيل التملك أو الاستيلاء على تاج الإمبراطورية، وكانوا أحياناً يشجعون الساحليين في غاراتهم على سواحل منافسيهم. وحدث في عام 859 أن اتهم هنكار كبير أساقفة ريمس شارل الأصلع علناً بالإهمال في الدفاع عن فرنسا. وخلف شارل فيما بين 877 و888 ملوك أكثر منه ضعفاً لوييس الثالث، وكارلومان، وشارل البدين. وتعاونت أحداث الزمان والمنايا فتوحدت مملكة شارلمان مرة أخرى تحت حكم شارل البدين، وأتيحت للإمبراطورية المحتضرة فرصة أخرى للدفاع عن حياتها. ولكن أهل الشمال استولوا على نجمين Nmegen وأحرقوها في عام 880، واتخذوا من كورتراي Courtrai وغنت قلاعاً لهم حصينة، وفي عام 881 أحرقوا لياج Li(ge، وكولوني، وبن Bonn وبروم Prum، وأخن؛ وفي 882 استولوا على تريير Trier، وقتلوا كبير أساقفتها الذي قاد المدافعين عنها؛ وفي السنة نفسها استولوا على ريمس، وأرغموا هنكار على أن يقاوم ويموت. وفي عام 883 استولوا على أمين Amiens، ولكنهم انسحبوا منها بعد أن أخذوا اثني عشر ألف رطل من الفضة من كارلومان. وفي عام 885 استولوا على رون، وساروا في النهر صعداً إلى باريس في سبعمائة سفينة عليها ثلاثون ألف رجل. وقاد حاكم المدينة الكونت أودو Odo أو أود Eudes، وأسقفها جزلان Gozlin المدافعين عنها، وقاوموا المغيرين مقاومة بأسلة. وظلت باريس مضروباً عليها الحصار ثلاثة عشر شهراً هاجم المدافعون عنها المحاصرين اثني عشر مرة؛ وانتهى الأمر بأن أدى شارل البدين الشماليين 7000 رطل من الفضة بدل أن يخف لإنتقاذ المدينة، وأذن لهم فوق ذلك أن يسيروا في نهر السين صعداً ويقضوا الشتاء في برغندية التي نهبوها نهباً

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

ترتضيه نفوسهم. ثم خلع شارل وتوفي عام 888، وأختير أودو ملكاً على فرنسا، وصارت باريس بعد ثبت قيمتها من الوجهة الحربية الفنية مقر الحكومة.

وحمل شارل الساذج الذي خلف أودو على العرش (895-923) إقليم السين والساعون من المغيرين، ولكنه لم يرفع يده ضد غارات الشماليين على بقية فرنسا، ثم لم يكتف بهذا بل أسلم إلى رولف Rolf أو رولو Rollo أحد زعماء النورمان في عام 911 أقاليم رون، وليزيو Lisenx، وإفرو Evreux. وكان النورمان قد استولوا عليها من قبل. ووافق النورمان على أن يؤدوا عنها للملك ما يؤديه أمراء الإقطاع عن أملاكهم، ولكنهم كانوا يسخرون منه وهم يقومون بمراسم الولاء التقليدية. وارتضى ليو أن يُعَمِّدَ، وحذا رجاله حذوه، ثم استقروا على مهل وأصبحوا زراعاً ومتحضرين. وهكذا بدأت نورمانديا بأن كانت ولاية في فرنسا فتحتها أهل الشمال.

ولقد وجد الملك الساذج حلاً لمشكلة باريس إن لم يكن لغيرها من المشاكل، ذلك أن النورمان أنفسهم سيصدون بعد ذلك الوقت من يحاولون دخول السين من المغيرين. أما في غير هذا الجزء من فرنسا فلم تنقطع غارات الشماليين، فنهب تشارتر في عام 911، وأنجير Angers في عام 919، ونهبت أكتين Aquitaine وأوفرن في عام 923، كما نهبت آرتوا وإقليم بوفيه في عام 924. وفي هذا الوقت نفسه تقريباً دخل المجر برغندية في عام 917 بعد أن خربوا جنوبي ألمانيا، واجتازوا الحدود الفرنسية، ثم اجتازوها راجعين دون أن يلقوا مقاومة، ونهبوا الأديرة القريبة من ريمس وسان Sens وأحرقوها (937)، واخترقوا كارجال الجراد الفتاك أكتين (951) وأحرقوا ضواحي كورتراي، وليون، وريمس (954)، ونهبوا برغندية على مهل. وأوشك صرح النظام الاجتماعي في فرنسا أن ينهار تحت هذه الضربات المتكررة التي كالتها له المالبيون والهون. وفي ذلك يقول أحد المجاميع الدينية المقدسة في عام 909.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> اضمحلال الكارولينجيين

لقد أفقرت المدن من السكان، وخربت الأديرة وحرقت، وأضحت البلاد في عزلة... وكما كان الناس الأولون يعيشون بغير قانون... فكذاك يفعل الآن كل إنسان ما يبدو حسناً في نظره غير آبه بالشرائع البشرية والدينية... فالأقوياء يظلمون الضعفاء، والعالم مليء بالعنف والقسوة على الفقراء، وأملاك الكنائس تنهب... ويلتهم الناس بعضهم بعضاً كما يفعل السمك في البحر (47).

وكان آخر الملوك الكارولينجيين - لويس الرابع، ولوثير الرابع، ولويس الخامس ملوكاً حسني النية، ولكنهم لم يكن لهم من القوة ما لا بد منه قائمة نظام دائم من ذلك الخراب الشامل. ولما مات لويس الخامس ولم يكن له أبناء (987)، بحث

أعيان فرنسا ورجال الدين فيها عن زعيم لهم من أسرة أخرى غير الكارولنجيين، حتى وجدوا هذا الزعيم المنشود من نسل مركيز من نوستريا Neustria يحمل ذلك الاسم العظيم الدلالة وهو روبرت القوي Robert the Strong (المتوفي عام 966). وكان أودو منقذ باريس ابن هذا المركيز؛ وكان هيو الأكبر Hugh the Great أحد أجداده (المتوفي 956) قد حصل بالشراء أو الحرب على الإقليم المحصور بين نورمنديا، والسين، واللوار كله تقريباً وكان فيه أميراً إقطاعياً، واجتمع له فيه من الثروة والسلطان ما لم يجتمع للملوك. وورث هيو كابيت Hugh Capet ابن هيو هذا جميع تلك الثروة وذاك السلطان؛ وورث، كما يلوح، العزيمة التي كسبتها. وعرض أدلبرو Adlbero كبير الأساقفة، بإرشاد العالم الداهية جربرت، أن يكون هيو كابيت ملكاً على فرنسا، فاختر لهذا المنصب بالإجماع (987) وبدأت بذلك الأسرة الكابيتية التي حكمت ابناً أو أباً أو حكم فروعها مملكة فرنسا إلى عهد الثورة الكبرى.

صفحة رقم : 5070

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

4- الآداب والفنون

1066-814

لعلنا قد غالينا في وصف ما أحدثته غارات الشماليين والمجر من أضرار، ذلك أن حشدها كلها في حيز قليل توخياً للإيجاز يجعل صورة الحياة في تلك، الأوقات قاتمة فوق ما تستحق، مع أنها لم تكن تخلو بلا ريب من فترات ساد فيها الأمن والسلام؛ فقد ظلت الأديرة تشاد خلال هذا القرن التاسع الرهيب، وكثيراً ما كانت مراكز للصناعة الناشطة، وازدادت مدينة رون قوة بفضل اتجارها مع بريطانيا رغم ما أصيبت به من غارات وحرائق؛ وسيطرت كولوني ومينز على التجارة المارة بنهر الرين، ونشأت في فلاندره مراكز غنية صناعية وتجارية بمدن غنت، وإيبرس Ypres، وليل Lile، ودويه، وأراس Arass، وتورناي Tournai، ودينان Dinant، وكمبريه، ولييج وفرنسين. وأصيبت مكتبات الأديرة بخسائر فادحة في كنوزها القديمة من جراء هذه الغارات، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس التي أنشئت فيها مدارس عملاً بقرار شارلمان قد دمرت، وإن كانت مكاتب قد بقيت في الأديرة أو الكنائس القائمة في فلدا، ولورسن Lorson، ورينشو Reichenau، ومينز، وتريير وكولوني، ولييج، ولأون Laon، وريمس، وكوربي Corbie، وفليري Fleury، وسانت دينس، وتور، وبببو Bobbio، ومونتي كسينو، وسانت جول... واشتهر دير البندكتيين في سانت جول بمن كان فيه من الكتاب، كما اشتهر بمدرسته وكتبها، وفيه كتب نتكر بلبولوس Notker Balbulus-الألكن- (840-912) ترانيم بدبعة ممتازة وسجل راهب سانت جول. وفيه ترجم نتكر لبيئو Notker Labeo-الغليظ الشفة- (950-1022) كتب بوثيوس، وأرسطو وغيرها من الكتب القديمة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

إلى اللغة الألمانية؛ وأعانت هذه التراجم- وهي من أول ما كتب بالنثر الألماني- على تثبيت تراكيب اللغة الجديدة وقواعدها.
وحتى في فرنسا الجريئة كانت مدارس الأديرة تضيء حلقة هذه العصور المظلمة. فقد افتتح ريمي الأوكسيري Remy of Auxerre مدرسة عامة في باريس عام 900، وأنشئت في القرن العاشر مدارس أخرى في أوكسير وكوربي، وريمس ولييج. وأسس الأسقف فليبير (Fulbert 960-1028) بمدينة تشارتر حوالي 1006 مدرسة أصبحت أشهر مدارس فرنسا كلها قبل أيام أبلار، ففيها وضع سقراط المبجل كما كان تلاميذه يسمونه قواعداً لتدريس العلوم، والطب، والآداب القديمة، بالإضافة إلى علوم الدين، والكتاب المقدس، والطقوس الدينية. وكان فليبير هذا رجلاً كريم الطبع، عظيم الإخلاص صبوراً صبراً أولى العزم من الرسل، محسناً متصدقاً إلى أقصى حد. ولقد تخرج في مدرسته قبل ختام القرن الحادي عشر- علماء أمثال جون السلزبوري John of Salisbury، ووليم الكنشي William of Conches، وبرنجانر التوري Berengar of Tours وجلبرت ده لابريه Gilbert de la Porr(a). وفي هذه الأثناء وصلت مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان أوج مجدها في كمبيني Compi(gne تارة وفي لأون تارة أخرى بفضل ما حباها به شارل الأصغر من عون وتشجيع.
وقد استدعى شارل إلى مدرسة القصر عام 843 علماء أيرلنديين وإنجليز في مختلف العلوم، كان من بينهم عالم من أعظم العقول المبتكرة وأعظمها جرأة في العصور الوسطى، رجل يبعث وجوده في ذلك الوقت الشك في صواب استنباط اسم "العصور المظلمة" حتى على القرن التاسع نفسه، بله غيره من القرون.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

ويكشف اسمه عن أصله كشفاً مضاعفاً، فهو جوهان اسكوتس إريوجينا Johannes Scotus Eriugina أي جون الأيرلندي المولود في إرين Erin. وسنسميه نحن إرجينا Erigena. وكفى. ويبدو أنه لم يكن من رجال الدين، ولكنه كان رجلاً متبحراً في العلوم، يجيد اللغة اليونانية، مغرماً بأفلاطون والآداب القديمة، حلو الفكاهة إلى حد ما. وتحدثنا إحدى القصص-التي بدو من سياقها كله أنها من مخترعات الأدباء- أن شارل الأصغر، كان يطعم معه في يوم من الأيام فسأله: ما الفارق بين الأبله والأيرلندي quid distat inter sottum et Scottum؟ فأجابته جون كما تروي القصة- : "المنضدة"(48). ولكن شارل رغم هذا كان يحبه حباً جماً، وكان يشهد محاضراته، وأكبر الظن أنه كان يستظرف إحداه. ويفسر جون العشاء الرباني في كتابه عن القربان المقدس بأنه عمل رمزي، ويتضمن هذا ارتيابه في وجود المسيح بحق في الخبز والخمر المقدسين. ولما أخذ الراهب الألماني جتسشولك Gottschalk يناهض بمبدأ الجبرية المطلقة وينكر تبعاً لذلك مبدأ حرية الإرادة في الإنسان. طلب هنكمار كبير الأساقفة إلى إريوجينا أن يرد عليه كتابه. فأجابته هذا إلى ما طلب وكتب رسالته المسماة الجبرية الإلهية De Divina praedestinatione (حوالي عام 851). وقد بدأها بإطراء الفلاسفة إطراءً عظيماً فقال: "من يشأ أن يبحث جاداً عن علل الأشياء جميعها ويحاول كشفها،

يجد جميع الوسائل الموصلة إلى العقيدة الصالحة الكاملة في العلم والتدريب اللذين يطلق عليهما اليونان اسم الفلسفة". وينكر الكتاب في واقع الأمر مبدأ الجبرية، ويقول الإرادة حرة عند الله وعند الإنسان، وإن الله لا يعرف الشيء، ولو عرفه لكان هو سببه. وكان رد إرجينا أكثر إحداداً من أقوال جتسشولك، وأنكره مجلسان من مجالس الكنيسة في عامي 855 و859، وأودع جتسشولك في دير قضى فيه بقية حياته أما إرجينا فقد حماه الملك.

صفحة رقم : 5073

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

وكان ميخائيل الألكن إمبراطور بيزنطية قد بعث إلى لويس النقي في عام 824 مخطوطاً يونانياً لكتاب يسمى الحكومة الكنوتية السماوية. ويعتقد المسيحيون المتدينون أن مؤلفه هو ديونيشيوس "الأريوباجي" Disnysius the Areopagite". وأحال لويس النقي المخطوط إلى دير سانت دنيس، ولكن أحداً ممن فيه لم يستطع ترجمة لغته اليونانية، فقام إرجينا بهذه المهمة إجابة لطلب الملك. وتأثر بالترجمة أعظم التأثر، وأعاد الكتاب إلى المسيحية غير الرسمية الصورة التي ترسمها الأفلاطونية الجديدة للكون المتولد أو المنبعث من الله في مراحل مختلفة أو درجات من الكمال أخذة في النقصان، والذي يعود ببطء وبدرجات متفاوتة إلى الله مرة أخرى. وأصبحت هذه الفكرة الرئيسية التي يدور حولها أعظم مؤلفات جون التقسيم الطبيعي (867). ففي هذا الكتاب نجد بين الكثير من السخف، وقبل أبلار بقرنين من الزمان، إخضاعاً جريئاً لعلوم الدين والوحي إلى العقل، ومحاولة للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية، وفيه يقر جون بصحة الكتاب المقدس؛ ولكنه يقول إنه لما كان معناه في كثير من أجزائه غامضاً، فإن الواجب يقضي بتفسيره حسبما يمليه العقل - ويكون ذلك عادة بفهم نصوصه على أنها رموز أو استعارات. ويقول إرجينا في هذا: "إن السلطان يُستمد أحياناً من العقل ولكن العقل لا يُستمد أبداً من السلطان، ذلك بأن كل سلطان لا يرضى عنه العقل السليم يبدو ضعيفاً، ولكن العقل السليم لا يحتاج إلى تأييد السلطان أياً كان نوعه لأنه يستند إلى قوته" (49). ويجب ألا يحتج بأراء آباء الكنيسة... إلا إذا كان لا بد لنا من الاحتجاج بأرائهم لتقوية حججنا أمام الناس الذين لا يحسنون الاستدلال، ولهذا يخضعون للسلطان لا للعقل" (50). فهذا هو ذا عصر العقل يتحرك في أرحام عصر الإيمان. ويعرف جون الطبيعة بأنها: "اسم عام يطلق على جميع الأشياء التي

صفحة رقم : 5074

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

تكون وغير التي تكون" أي على جميع الأجسام، والعمليات، والمبادئ، والعلل، والأفكار. وهو يقسم الطبيعة إلى أربعة أنواع من الكائنات.

(1) ذاك الذي يخلق ولكنه لا يُخلق- أي الله. (2) ذاك الذي يُخلق ويخلق- أي العلل الأولى، والمبادئ، والنماذج الأولى، والأفكار الأفلاطونية، والكلمة، وهي التي يتكون من عملياتها عالم الأشياء المفردة، (3) ذاك الذي يُخلق ولا يخلق- أي عالم الأشياء المفردة السالفة الذكر، (4) ذاك الذي لا يخلق ولا يُخلق- أي الله بوصفه الغاية النهائية التي تستوعب كل شيء. فالله هو كل شيء كائن بحق؛ لأنه يكون الأشياء وجميعها ويتكون من الأشياء جميعها". وليس ثمة عملية خلق في وقت بذاته، لأن هذا القول يتضمن تغييراً في الله. فإذا سمعنا أن الله قد أوجد كل شيء-، فيجب ألا نفهم من هذا القول إلا أن الله حال في كل شيء- أي يوجد بوصفه جوهر كل الأشياء" (51). "والله نفسه لا يدركه عقل من العقول، وليس الجوهر المكنون لكل شيء والذي خلقه الله مما يمكن إدراكه، وكل الذي نراه هو الأعراض لا الجوهر" (52)- أي صور الأشياء التي تتركها الحواس والعقول لا حقائقها التي لا تعرف ولا يمكن معرفتها كما يقول كانت Kant فيما بعد. وليست الخصائص المحسوسة في الأشياء متصلة في الأشياء نفسها، وإنما تتكون من الأشياء التي ندرکها بها. فإذا قيل لنا إن الله يرغب، ويحب ويختار، ويرى، ويسمع... فيجب ألا نفكر إلا في أن حقيقته وقوته اللتين لا يستطيع وصفهما يُعَيَّرَ عنهما بمعان تتفق معنا في طبيعتها"- أي موائمة لطبيعتنا، "حتى لا يجد المسيحي الحق النقي ما يقوله عن الخالق، فلا يقول شيئاً عنه ليعلم به النفوس الساذجة" (53). ولمثل هذا الغرض لا لشيء سواه نستطيع أن نتحدث عن الله كأنه ذكر أو أنثى، وليس "هو" هذا ولا ذاك (54). فإذا فهمنا لفظ "الأب" بمعنى المادة الخلاقة أو جوهر الأشياء جميعها، و"الابن"

صفحة رقم : 5075

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

على أنه الحكمة الإلهية التي تتكون أو تحكم بمقتضاها الأشياء كلها، والروح على أنه الحياة أو حيوية الخلق، إذا فهمنا هذه الثلاثة على هذا النحو جاز لنا أن نفكر في الله على أنه ثالث. وليست الجنة والنار مكانين، بل هما أحوال النفس، فالنار هي الشقاء المنبعث من الخطيئة، والجنة هي السعادة المنبعثة من الفضيلة والنشوة المنبعثة من الرؤيا الإلهية (إدراك الألوهية) التي تتكشف من الأشياء جميعها للنفس التقيّة (55). وليست جنة عدن مكاناً على الأرض، بل هي حالة كهذه من حالات النفس (56). والأشياء جميعها خالدة: فالحيوانات أيضاً، كما للآدميين، نفوس تعود إلى الموت بعد الله أو إلى الروح الخالق الذي انبعثت منه (57). والتاريخ كله إن هو إلا فيض من عملية الخلق إلى الخارج عن طريق الانبعاث، وموجة مدية لا تغلب نحو الداخل تجذب الأشياء جميعها في آخر الأمر إلى الله. لقد وجدت فلسفات شر من هذه الفلسفة وفي عصور النور، ولكن الكنيسة حسببتها تموج بالإلحاد والزندقة. ولهذا طلب نقولاس الأول إلى شارل الأصلع في عام 865 إما أن يبعث بجون إلى روما ليحاكم أو أن يفصله من مدرسة القصر، "حتى لا يستمر في تسميم الذين يسعون لطلب الخبز" (58). ولسنا نعرف نتيجة هذا الطلب، غير أن إنجليزياً من أهل مالزبري Malmsbury يروي "أن جوهان اسكوتس جاء إلى إنجلترا وإلى ديرنا، كما تقول الأخبار، وأن الأولاد الذين يعلمهم كانوا يتكلمون بأقلامهم الحديدية"، وأنه مات من أثر هذا العمل. وأكبر الظن أن هذه القصة حلم من أحلام تلميذ كان يتمنى تحقيقه. ولقد تأثر بارجينا فلاسفة من أمثال جليبرت، وأبلار، وجليبرت ده لابوريه على غير علم منهم، غير أنه بوجه عام قد نسي في غمار الفوضى الضاربة أطنابها في ذلك العصر المظلم. ولما أن رفع ستار النسيان عن كتابة في القرن الثالث عشر حكم مجلس سنس Sens بتحريمه (1225) وأمر البابا هونوريوس Honorius الثالث

صفحة رقم : 5076

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

بأن ترسل نسخة جميعها إلى روما وأن تحرق فيها. ووقف الفن الفرنسي في هذه الأوقات المضطربة جامداً لا يتحرك، فقد ظل الفرنسيون يشيدون كنائسهم على نظام الباسلغا رغم ما ضربه لهم شارلمان من أمثلة. وفي عام 966 أصبح أحد الرهبان والمهندسين الإيطاليين ويدعى وليم من أبناء فلبيانو Volpiano رئيساً لدير فيكامب F(camp) النورماني. وقد جاء معه من إيطاليا بكثير من أساليب الطراز النورماني والرومانسي، ويبدو أن أحد تلاميذه هو الذي بنى دير جوميج Jumi(ges) الكنسي (1045-1067)؛ وفي عام 1042 دخل رجل إيطالي آخر يدعى لانفرانك Lanfranc الدير النورماني في بك Bec، وسرعان ما جعله مركزاً علمياً نشطاً، يهرع إليه طلاب بلغوا من الكثرة ما اضطر القائمين عليه إلى إضافة أبنية جديدة له. وقد خطط لانفرانك هذه الأبنية، ولعله قد استعان على تخطيطها بمن هم أكثر منه خبرة بهذا العمل. ولم يبق حجر واحد من حجارة هذا البناء، ولكن دير الرجال في جائن (Abbaye aux Hommes at Gaen 1077-1081) لا يزال قائماً على اليوم يشهد بقوة الطراز الرومانسي الذي تطور في نورماندي على أيدي لانفرانك ومن جاء بعده. وشيدت في القرن الحادي عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء فرنسا وفلاندرز، زينها الفنانون بصور الجدران وبنقوش الفسيفساء والتماثيل. وكان شارلمان قد أمر بأن يطلى داخل الكنائس ويلون ليستفيد من ذلك المؤمنون؛ وزينت قصور آخن وأنجلهيم بالمظلمات، وما من شك في أن كثيراً من الكنائس قد حذت حذو هذه القصور. وقد دمرت آخر قطع من مظلمات آخن في عام 1944، ولكن نقوشاً شبيهة بما كان على جدرانها لا تزال باقية في كنيسة سان جرمان St, Germain في أوكسير. ولا تختلف هذه النقوش في شكلها عن النقوش التي تزدان بها مخطوطات ذلك العصر ولا عن طرازها أو حجمها.

صفحة رقم : 5077

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> الآداب والفنون

وقد كتب رهبان مدينة تور في عهد شارل الأصلع نسخة ضخمة ملونة من الكتاب المقدس وأهدوها إلى الملك، ولا تزال هذه النسخة محفوظة في قسم المخطوطات اللاتينية بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم 1. وأجمل من هذا المخطوط إنجيل "الوثير" الذي كتبه في ذلك الوقت رهبان تور أيضاً. كذلك أخرج رهبان ريمس في هذا القرن التاسع كتاب ترائيل "أوترخت Utrecht" الذائعة الصيت-وبتأليف هذا المخطوط من 108 ورقة من الجلد الرقيق ويحتوي على مزامير داود وعقيدة الرسل مزدانة بكثير من صور الحيوانات على اختلاف أنواعها وبعده لا يحصى من الأدوات وصور المهن والأعمال. وتصطبغ هذه الصور الحية بصبغة من الواقعية الشديدة بدلت فن التصوير الدقيق الذي كان من قبل جامداً مستمسكاً بالتقاليد.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> نشأة الأدواق

5- نشأة الأدواق

1066-987

وبرزت فرنسا التي كان يحكمها هيو كابت (987-996) فأصبحت وقتئذ أمة منفصلة عن غيرها، ولم تعد تعترف بسيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة عليها، ولم تعد قط إلى أوربا الغربية الوحدة التي وهبها إياها شارلمان اللهم إلا فترة قصيرة في أيام نابليون وهتلر. ولكن فرنسا التي كانت في أيام هيو كابت لم تكن فرنسا القائمة في أيامنا هذه؛ فقد كانت أكتين وبرغندية دوقيتين مستقلتين بالفعل، وظلت بورين بعدئذ سبعة قرون جزءاً من ألمانيا. وكانت فرنسا في ذلك الوقت موطناً لأجناس مختلفة ولغات متعددة: فكانت فرنسا الشمالية فلمنكية أكثر منها فرنسية، وكان في دمها عنصر ألماني كبير؛ وكان سكان نورماندي من الشماليين، وكانت بريطانيا كلتيه غير ذات صلة بسائر البلاد، يسيطر عليها لاجئون من بريطانيا؛ أما بروفانس فكانت في جنس أهلها ولغتهم "ولاية" رومانية غالية، كذلك كانت فرنسا المجاورة

صفحة رقم : 5079

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> نشأة الأدواق

لجبال البرانس قوطية، وقطالونيا الخاضعة من الوجهة الرسمية للملكية الفرنسية قوطية أيضاً كما يدل على ذلك اسمها "قطالونيا". وكان نهر اللوار يقسم فرنسا إلى إقليمين، مختلفين في الثقافات واللغات. وكان العمل الذي اضطلعت به الملكية الفرنسية هو مزج الأجناس واللغات المختلفة، لينشئوا من أكثر من عشر شعوب أمة واحدة؛ ولقد تطلب هذا العمل ثمانمائة عام. وأراد هيو كابت أن يهيئ الظروف لوراثة للعرش منظمة، فتزوج ابنه ربرت ملكاً معه في السنة الأولى من حكمه وبعد "ربرت التقى" (996-1031) من الملوك الأوساط غير المبرزين (60)، ولعل سبب اشتهاره بهذه المكانة الوسطى أنه كان يتجنب مجد الحروب. مثال ذلك أنه لما قام النزاع بينه وبين هنري الثاني إمبراطور ألمانيا بشأن الحدود عقد اجتماعاً معه وتبادل وإياه الهدايا، ووصل معه إلى اتفاق سلمي. وكان ربرت رءوفاً بالضعفاء والفقراء يحميهم قدر استطاعته من الأقوياء غير ذوي الضمير، ومثله في هذا كمثل لويس التاسع، وهنري الرابع، ولويس السادس عشر.

وقد أغضب الكنيسة بزواجه من برثا Bertha ابنة عمه (998)، وصبر على الحرمان وعلى سخرية الذين كانوا يعدونها ساحرة، ولكنه انفصل عنها آخر الأمر وعاش بعدئذ بائساً حزيناً إلى آخر أيام حياته. ويحدثنا المؤرخون أن الناس حزنوا عليه أشد الحزن عند مماته (61)، وشيت نار حرب للوراثة بين ولديه، انتصر فيها هنري الأول (1031-1060) أكبرهما، ولكنه لم ينل النصر إلا بمعونة ربرت دوق نورماندي. ولما انتهى هذا الصراع الطويل (1031-1039) كانت المملكة قد وصلت إلى درجة من الفقر في المال والرجال لم تقو معها على منع تقطع أوصالها بفعل النبلاء الأقوياء المستقلين. وانقسمت فرنسا حوالي عام 1000 م، بفعل كبار الملاك الذين كانوا يضمون إليهم تدريجياً ما يحيط بهم من الأراضي إلى سبع إمارات كبرى يحكم كلا منها كونت أو دوق. وهذه الأقسام هي أكتين، وطلوشة، وبرغندية، وأنجوا،

صفحة رقم : 5080

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> نشأة الأدواق

وشمبانيا، وفلاندرز، ونورمندي. وكان هؤلاء الأدواق أو الكونتات في جميع الحالات تقريباً ورثة زعماء أو قواد منحهم الملوك المروفنجيون أو الكارلونجيون ضياعاً جزاء لهم على خدماتهم الحربية أو الإدارية. وكان الملك قد أصبح يعتمد على هؤلاء الكبراء في تجهيز الجيوش وحماية ولايات الحدود؛ ولم يكن بعد عام 888 يسن القوانين للمملكة جميعها، أو يجبي منها الضرائب، بل كان الأدواق والكونتات يسنون القوانين، ويجبون الضرائب، ويشنون الحروب، ويفصلون في القضايا ويعاقبون، ويكادون يكونون سادة مستقلين في ضياعهم، لا يدينون للملك إلا بولاء أسمى، ولا يؤدون له إلا خدمة عسكرية ذات نطاق محدود. واقتصرت سلطة الملك في وضع القوانين، والفصل في القضايا، وفي الشؤون المالية، على ضياعه الملكية الخاصة، وهي التي سميت فيما بعد جزيرة فرنسا Ile de France وتشمل إقليمي الساعون والسين الأوسط الممتدين من أورليان إلى بوفيه ومن تشاتر إلى ريمس. وتقدمت نورمندي دون سائر الدوقيات المستقلة استقلالاً نسبياً بأن نمت نمواً سريعاً إلى أقصى حدود السرعة في قوتها وسلطانها، فلم يمض عليها قرن واحد بعد تسليمها لأهل الشمال حتى أصبحت أكثر ولايات فرنسا مغامرة ومخاطرة ولعل السبب في ذلك هو قربها من البحر وموقعها بين إنجلترا وباريس. وكان أهل الشمال وقتئذ مسيحيين متحمسين للمسيحية، لهم أديرة ومدارس أديرة، وكانوا يتناسلون باستهتار ما لبث أن دفع شبابا النورمنديين إلى إنشاء ممالك جديدة من الولايات القديمة. ذلك أن بحارة الشمال كانوا حكماً أقوياء لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية ولا راعون في الوصول إلى أغراضهم ضميراً، ولكنهم قادرون على أن يحكموا بيد من حديد شعباً مشاكساً، مضطرباً، مكوناً من الغالبيين والفرنجة، والشماليين. ولم يكن ربرت الأول (1028-1035) قد أصبح بعد دوقاً لنورمندي حين وقعت عينه في عام 1026 على هارلت Harlette ابنة

صفحة رقم : 5081

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> نشأة الأدواق

دباغ في فاليز Falaise. فلما رآها أضحت عشيقته العزيزة جرياً على إحدى السنن الدنمرقية القديمة، وسرعان ما أنجبت له ولداً يعرف عند معاصريه باسم وليم النغل William the Bastard وعندنا نحن باسم وليم الفاتح William the Conqueror. ولما اشتد على ربرت وخز ضميره لكثرة ما ارتكب من الذنوب غادر نورمنديّة في عام 1035 ليحج حجة التوبة إلى أورشليم، واستدعى قبل سفره أكابر الأعيان ورجال الدين وقال لهم: "أقسم بديني أنني لن أترككم دون أن أولي عليكم سيدياً؛ إنني لي ابناً نغلاً سيكبر بفضل الله، وإنني لقوي الرجاء في أن يكون من أحسن الناس صفات، ورجائي أن تقبلوه سيدياً عليكم؛ وليس يهكم قط أنه لم يولد من زواج شرعي فهذا لن يؤثر في قدرته على الحكم... أو في توزيع العدالة بين الناس. وهأنذا أعينه وارثاً لعرشي، وأخلع عليه من هذه اللحظة دوقية نورمنديّة بأكملها (62).

وتوفي ربرت في طريق إلى أورشليم، وحكم الأشراف وقتاً ما بالنيابة عن ابنه. ولما شبت فتنة في البلاد تحاول خلعها أخذها بوحشية ممزوجة بالكرامة، فقد كان رجلاً يجمع بين الدهاء والبسالة، بعيد النظر في وضعه خطط المستقبل، ملاكاً لأصدقائه، وشيطاناً على أعدائه. وكان يسمع تهكم الناس على مولده ويقبل هذا التهكم بصدر رحب، وكان من حين إلى حين يمضي بعض ما يكتب باسم وليم النغل Guielmus Nethus؛ ولكنه حين حاصر أنسون Alencon وعلق المحاصرون الجلود على جدرانهم إشارة إلى حرفة جده قطع أيدي من وقع في يديه من الأسرى وأرجلهم، وفقاً أعينهم، وقذف المدينة من مجانيقه بهذه الأعضاء. وأعجبت نورمنديّة بوحشيته وحكمه الصارم، وعمها الرخاء. فقد حد وليم من استغلال الأشراف للفلاحين، وأرضى أولئك الأشراف بالعطايا السنوية، وكان يعني عناية الأتقياء الصالحين بواجباته الدينية، وجلل أباه العار بإخلاصه لزوجته إخلاصاً لم يسبق

صفحة رقم : 5082

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> اضمحلال الغرب -> فرنسا -> نشأة الأدواق

له مثيل، وقد أولع بحب ماتلدة Matilda الجميلة ابنة بلدوين Baldwin كونت فلاندرز، ولم يؤثر فيه أن لها ولدين وزوجاً لا يزال على قيد الحياة وإن كان منفصلاً عنها. غير أنها ردت وليم وكالت له الإهانات وقالت "إنها تفضل أن تكون راهبة محجبة على أن تتزوج بنغل" (63)؛ ولكنه لم يرجع عن حبها، ونالها آخر الأمر وتزوجها رغم تشهير رجال الدين؛ وترتب على ذلك أن جرّد الأسقف مالجر Malger والأب لانفرانك رئيس الدير لأنهما ذما هذا الزواج، وحرق في صورة غضبه جزءاً من دير بك. ثم أفتح لانفرانك البابا نقولاس الثاني بأن يصادق على الزواج، وأراد وليم أن يكفر عما فرط منه فبنى في جائن دير الرجال النورمندي الذائع الصيت، وبفضل هذا الزواج ارتبط وليم بكونت فلاندرز، وكان قد وقع قبل ذلك الوقت في عام 1048 اتفاقاً مع ملك فرنسا. وبعد أن حمى جناحيه بهاتين الوسيلتين وزينهما شرع وهو في التاسعة والثلاثين من عمره في فتح إنجلترا.

صفحة رقم : 5083

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> ألفرد والدمرقيون

الباب العشرون

نهضة الشمال

1066-566

الفصل الأول

إنجلترا

1066-577

1- ألفرد والدمرقيون

1016-577

لم يلق فتح الإنجليز والسكسون والجوت لإنجلترا بعد واقعة دورهام (577Deorham) إلا مقاومة يسيرة، وما لبث الغزاة أن اقتسموا البلاد فيما بينهم؛ فأقام الجوت مملكة في كنت Kent، وأسس الإنجليز ثلاث ممالك في مرسية، ونورثميرلاندا، وأنجليا الشرقية East Anglia، وأنشأ السكسون ثلاث ممالك أخرى في وسكس Wessex، وإسكس

Essex، وسكس Sussex أي في سكسونيا الغربية، والشرقية، والجنوبية. وكانت هذه الممالك السبع الصغيرة وممالك أخرى أصغر منها هي التي تكون فيها "تاريخ إنجلترا" حتى جمع أجبرت Egbert ملك سكس معظمها بالقوة أو بالختل في مملكة واحدة تحت حكمه.
وقبل أن ينشئ ملك السكسون هذه المملكة الجديدة- مملكة الإنجليز -

صفحة رقم : 5084

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> ألفرد والدمنرقيون

بدأت غزوات الدمنرقيين التي اجتاحت البلاد من بحر إلى بحر وهددت المسيحية الناشئة فيها بإحلال وثنية همجية جاهلة محلها، وفي ذلك يقول السجل الإنجليزي السكسوني: "جاءت في عام 787 ثلاث سفن إلى سواحل سكسونيا الغربية... وقتلت الأهلين-وكانت هذه أولى سفن الدمنرقيين التي جاءت تطلب أرض شعب الإنجليز". وأغارت على نورثمبرلاند Northumberland في عام 793 حملة دنمرقية أخرى، وخربت دير لندسفارن Lindisfarne الشهير وذبحت رهبانه. وفي عام 794 دخل الدمنرقيون نهر وير Wear، ونهبوا ويرموث Wearmouth وجرو Jarrow حيث كان يكبح بك Bec العالم قبل خمسين سنة من ذلك الوقت. وفي عام 838 هاجم المغيرون أنجليا الشرقية East Anglia وكننت Kent، وفي عام 839 رابط أسطول للقراصنة مؤلف من 350 سفينة في نهر التاميز، بينما كان بحارته ينهبون كنتربري Canterbury ولندن. وفي عام 867-فتحت قوة من الدمنرقيين والسويديين مقاطعة نورثمبرلاند، وقتلت آلافاً من "الإنجليز"، وخربت أديرتها، وأتلفت ما فيها من دور الكتب أو شتتها. وخيمت الفاقة والجهالة على مدينة يورك وما حولها، وهي البلدة التي حبت شارلمان بالكويين؛ ولم يحل عام 871 حتى كان معظم إنجلترا الممتد في شمال نهر التاميز خاضعاً للمغيرين. واتجه جيش دنمرقي بقيادة جثرم Guthrum نحو الجنوب في ذلك العام نفسه ليهاجم رنج Reading عاصمة وسكس، والنقى إثلرد Ethelred مليكها وأخوه الأصغر ألفرد بالدمنرقيين عند أشدون Ashdown وهزموا المغيرين، ولكن إثلرد جرح جرحاً مميتاً في معركة ثانية عند مرتن Merton وولى الإنجليز الأديبار.
وجلس ألفرد على عرش سكسونيا وهو في الثانية والعشرين من عمره (871) ويصفه أسر Asser بأنه كان وقتئذ أمياً وillieratus، وقد يكون معنى هذا اللفظ أنه يجهل القراءة والكتابة أو أنه لا يعرف اللغة اللاتينية! ويبدو أنه كان مصاباً

صفحة رقم : 5085

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> ألفرد والدمنرقيون

بالصرع، وأنه أصيب بنوبة من نوبات الداء في يوم زفافه؛ ولكنه كان صياداً قوياً، وسيم الطلعة، رشيماً، يفوق أخوته في الحكمة والمهارة الحربية. فلما مضى شهر على تتويجه، زحف بجيشه الصغير على الدنمركيين الذين كانوا عند ولتن Wilton ولكنه هزم فيها هزيمة منكرة اضطرتته إلى شراء الصلح من عدوه لينقذ بذلك عرشه؛ غير أنه انتصر في معركة حاسمة عند إثنودون Ethandun (إدنجتون Edington الحالية) في عام 878 اجتاز بعدها نصف الجيش الدنمركي القناة الإنجليزية ليغير على فرنسا المستضعفة، أما بقية الجيش فقد وافق بمقتضى معاهدة ودمور Wedmore. على ألا يتجاوز رجاله شمالي إنجلترا الشرقي في البلاد التي سميت فيما بعد دين لو Danelaw. ويقول أسر وهو كاتب لا يوثق كل الثقة بأقواله إن ألفرد زحف بجيشه على أنجليا الشرقية "يقصد نهيبها"، وفتح البلاد، ونادى بنفسه ملكاً عليها وعلى مرسية بالإضافة إلى وسكس؛ ولعله كان يقصد بهذا الزحف أن يوحد إنجلترا لكي يقاوم بها الدنمركيين. فلما تم له ذلك وجه عنايته كأنه شارلمان صغير - إلى شئون الحكم وإعادة تنظيم البلاد. فنظم الجيش تنظيمًا جديدًا، وأنشأ عمارة بحرية، ووضع قانوناً موحداً لممالكه الثلاث، وأصلح نظام القضاء، وسن من القوانين ما يكفل حماية الفقراء، وأنشأ مدناً وبلداتاً جديدة؛ وأعاد بناء القديمة، وشاد "بالحجارة والخشب أبيهاً وغرفاً ملكية"، لموظفي حكومته الأخذين في الازدياد (2). وقد خصص جزءاً من ثمانية أجزاء من إيراد الدولة لإعانة الفقراء، وجزءاً آخر مثله للتعليم، وأنشأ في رندج عاصمة ملكه مدرسة في قصره، وجاد بالمال بسخاء على أعمال التعليم والدين التي تقوم بها الكنائس والأديرة. وكان يحزنه ويقض مضجعه أن يعود بذاكرته إلى أيام صباه حين كانت "الكنائس غاصة بالكنوز والكتب... قبل أن تخرب وتحرق" بفعل الدنمركيين، أما الآن: "فقد انحط التعليم بين الإنجليز انحطاطاً كانت نتيجته

صفحة رقم : 5086

قصة الحضارة - عصر الإيمان - العصور المظلمة - نهضة الشمال - إنجلترا - ألفرد والدنمركيون

أن عدداً قليلاً جداً منهم... هم الذين يستطيعون فهم طقوس دينهم باللغة الإنجليزية، أو ترجمة شيء منها إلى اللاتينية" (3). وقد بعث إلى البلاد الخارجية في طلب العملاء-بعث في طلي الأسقف أسر Asser من ويلز، وإرجينا Erigena من فرنسا، وكثيرين غيرهم-ليأتوا ويعلموا شعبه ويعلموه هو نفسه. وكان يؤسفه أنه لم يجد من قبل إلا قليلاً من الوقت يخصصه للقراءة، ولهذا فقد أقبل الآن على الدراسات الدينية والعلمية إقبال الرهبان. وقد ظل يلاقي صعوبة في القراءة، ولكنه كان "يأمر رجالاً يأمرون له ليلاً ونهاراً". وكاد أن يكون هو أول من أدرك ما للغات القومية من خطر متزايد قبل أن يدركه أحد غيره من الأوربيين، فعمل على أن تترجم بعض الكتب الأساسية الهامة إلى اللغة الإنجليزية، وجد هو نفسه في ترجمة كتاب سلوى الفلسفة The Consolation of Philosophy لبوينتيوس Boetius وكتاب العناية بالرعي Pastoral Care لجريجوري، وكتاب التاريخ العام Universal History لأوروسيو Orosius وتاريخ إنجلترا الكنسي Ecclesiastical History of England لبيد Bede؛ وعمل ما عمله شارلمان فجمع أغاني شعبه، وعلمها أولاده، وشارك المغنين في بلاطه في إنشادها. ووصلت غزوة دنمركية جديدة إلى كنت في عام 894؛ وبعث دنمركيو والدين لوالي الغزاة بالمدد، وعقد الوطنيون أهل ويلز والكلت، الذين لم يكن الإنجليز والسكسون قد تغلبوا عليهم بعد، حلفاً مع الدنمركيين وانقض إدوارد ابن ألفرد على معسكر القراصنة ودمره، وشتت أسطول ألفرد الجديد شمل الأسطول الدنمركي (899) وتوفي الملك بعد عامين من هذه الواقعة، ولم تكن سنه قد تجاوزت الثانية والخمسين. وليس في وسعنا أن نوازنه برجل جبار مثل شارلمان لأن الرقعة التي كانت مسرحاً لمغامراته رقعة ضيقة، ولكنه ضرب

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> ألفرد والدمرقيون

للأمة الإنجليزية بصفاته الأخلاقية-تقواه، واستقامته الخالية من التباهي، واعتداله، وجلده، وإخلاصه لشعبه، وشغفه بالاستزادة من التعليم-ضرب لها بهذه الصفات مثلاً، وبعث فيها روحاً، تلقته بأعظم الشكر ونسيتها بعد قليل. وقد أعجب بها فلنير إعجاباً لعله كان مسرفاً فيه إذ قال: "لست أظن أنه كان في العالم كله رجل أجدر باحترام الخلف من ألفرد الأكبر" (4).

وواصل الإسكندنيويين هجومهم على إنجلترا في أواخر القرن العاشر، فأغارت قوة من الفيكنج (القراصنة النرويجيين) بقيادة أولاف تريجفسون Olat Tryggvsson على سواحل إنجلترا في عام 991. وعجز الإنجليز بقيادة الملك إثلرد (987-1013) (الملقب بردلس Redeless أي غير المنتصح لأنه أبي أن يعمل بمشورة أعيان البلاد) ففتح الغزاة برشا سخية متتابعة 10.000، 16.000، 24.000، 36.000، 48.000، رطل من الفضة جمعها دينجلد Danegeld المخرب الوقح من أول ضريبة عامة فرضت على إنجلترا. وسعى إثلرد لكسب المعونة الأجنبية فشرع يفاوض نورمندية في عقد حلف معه، وتزوج إما Emma ابنة رتشارد الأول دوق نورمندية، ونشأت من هذا الزواج أحداث خطيرة وأدعى إثلرد أن الدنمركيين يأترون به ليقتلوه، ويقضوا على برلمان الأمة الويتاجمور Witenagemor فأمر بقتل كافة من في الجزيرة من الدنمركيين أينما وجدوا (1002). ولسنا نعلم إلى أي حد نفذ هذا الأمر بحذافيره، وأكبر الظن أن جميع من كانوا في إنجلترا من الذكور القادرين على حمل السلاح قد قتلوهم وبعض النساء، وكان من بين من قتلن منهن أخت سوين Sweyn ملك الدنمركية، وأقسم سوين أن يثأر لمقتلهما، فغزا في إنجلترا في عام 1003، وأعاد الكرة عليها بجميع قواه في عام 1013. وتخلّى نبلاء إثلرد عنه، ففر إلى نورمندية، وأصبح سوين ملك إنجلترا وسيدها. غير إن إثلرد عاد إلى الكفاح بعد موت سوين (1014)، وتخلّى عن الأعيان مرة أخرى، وعقدوا الصلح مع كنوت

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> ألفرد والدمرقيون

Cnut بن سوين (1015). ومات إثلرد في لندن وهي محاصرة، وحارب إدمند ذو الجانب الحديدي Edmund Ironside ببسالة ولكن كنوت تغلب عليه عند أسندون (1016Assandun). وارتضت إنجلترا بأجمعها كنوت ملكاً عليها، وتم بذلك للدنمركيين فتح إنجلترا.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

2- الحضارة الإنجليزية- السكسونية

1066-577

لم يكن هذا الفتح أكثر من فتح سياسي؛ فقد كانت أنظمة الإنجليز والسكسون، ولغتهم، وأساليب حياتهم قد تعمقت أصولها في إنجلترا خلال القرون الستة الماضية تعمقاً لا يستطيع معه فهم نظام الحكم في البلاد أو لغة الإنجليز أو أخلاقهم إلا بدراسة هذه الأصول. ولقد تبدلت في أثناء الفترات الخالية من الأحداث، بين حرب وحرب، وبين جريمة وجريمة، أساليب الحرث والزرع والتجارة، وبعثت الآداب بعثاً جديداً، وأقيم صرح النظام والقانون على مهل. وليس في التاريخ أساس لذلك القول الخداع وهو أن إنجلترا الإنجليزية السكسونية كانت جنة تنعم فيها عشائر الفلاحين الأحرار بالحياة القروية الديمقراطية. ذلك أن زعماء الجيش الإنجليزي السكسوني قد استولوا على الأرض الزراعية فلم يحل القرن السابع الميلادي حتى كان عدد قليل من الأسر يمتلك ثلثي تلك الأرض (5)، ولم يحل القرن الحادي عشر حتى كانت معظم البلدان ضمن أملاك الملك الخاصة أو أحد النبلاء أو الأساقفة. وفي أثناء الغزو الدنمرقي نزل كثير من الفلاحين عن أملاكهم في نظير حمايتهم، ولم يحل عام 1000 بعد الميلاد حتى كان معظمهم يؤدون إيجاراً من محصولهم أو من كدحهم إلى أحد السادة الملاك (6). وكانت هناك "اجتماعات للمدينة" و "اجتماعات للشعب"، و "اجتماعات المائة" وهي اجتماعات كانت مثابة جمعيات أو محاكم للمقاطعة، ولكن لم يكن يسمح بحضورها إلا لملاك الأراضي، وأخذت هذه الهيئات

صفحة رقم : 5090

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

يضعف سلطانها وتقل مرات اجتماعها بعد القرن الثامن، ويحل محل معظمها محاكم النبلاء في ضياعهم. وكانت معظم السلطة الحكومية بإنجلترا في يد الويتناجموت Witenagemot القومي- "مجلس العقلاء"- وهو جمعية صغيرة إلى حد ما تتألف من النبلاء، والأساقفة، وكبار وزراء التاج، وبغير موافقة هذا البرلمان الأبله لم يكن ملك إنجليزي يختار أو يبق على عرشه، أو يضيف قيراطاً إلى مزارعه الخاصة التي كان يستمد منها إيراده المستديم، ولم

يكن في وسعه أن يسن قانوناً، أو يصدر حكماً قضائياً، أو يشن حرباً، أو يعقد صلحاً إلا بموافقتة(7). وكان أعظم سند للملكية ضد هذه الهيئة الأرستقراطية هو ما كان بينها وبين الكنيسة من حلف غير رسمي. ذلك أن الدولة الإنجليزية قبل التفتح النورمندي وبعده كانت تعتمد على رجال الدين في كل ما يتصل بالتعليم العام، والنظام الاجتماعي، والوحدة القومية، وبالإدارة السياسية نفسها. وكان القديس دنستان رئيس دير جلاستنبوري Clastonbury كبير مستشاري الملكين إدمند (Edmund 940-946) وإدرد (946-955)، وقد حمى الطبقتين الوسطى والدنيا من النبلاء؛ وكان جريئاً في نقد الملوك والأمراء، ولذلك نفاه الملك إدوج (Edwig 955-959) من البلاد، ثم أعاده إدجر Edger (959-975) إليها، وهو الذي وضع التاج على رأس إدوارد الشهيد (Edward the Martyr 975-978)، وشاد كنيسة القديس بطرس في جلاستنبوري، وشجع الفنون والتعليم، وتوفي وهو كبير أساقفة كنتربري في عام 988. وكان أهل إنجلترا يجلونه ويعدونه أعظم قديسيهم قبل تومس أبكت (Thomes Becket). ونشأت الشرائع ببطء في هذه الحكومة المفككة. وقد وجدت في القانون الألماني القديم، بعد أن عدل لفظه وظروفه، كفيته. وبقيت في هذا القانون عادات تبرئة المتهم بشهادة شهود يقسمون بأنه بريء، كما بقيت فيه الدية،

صفحة رقم : 5091

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

والتحكيم الإلهي، ولكن عادة المحاكمة بالافتتال لم تكن معروفة فيه. وكانت الدية في القانون الإنجليزي (الإنجليزي) تختلف اختلافاً له دلالاته. فكانت دية الملك ثلاثين ألف ثرمزاً Thrimsas (نحو 13.000 دولار أمريكي)، ودية الأسقف 15.000، ودية النبيل أو رجل الدين ألفين، ودية الفلاح الحر 266. وكان القانون الإنجليزي سكسوني يقضي بأن يغرم الإنسان شلناً أو شلنين إذا تسبب في جرح إنسان جرحاً يبلغ طوله بوصة واحدة، وثلاثين شلناً إذا قطع جزءاً من أذن؛ على أننا يجب أن نضيف هنا أن الشلن الواحد كان يكفي لايتباع خروف. وكان قانون إثلبرت يعاقب الزاني بأن يؤدي إلى زوج من زنى بها غرامة ويتباع له زوجة أخرى(8). وكل من قاوم أمر محكمة من المحاكم نودي به "خارجاً على القانون" فتصادر أملاكه لصالح الملك، ويباح دمه. ولم يكن يسمح بالدية في بعض الحالات، وكانت توقع بدلاً منها عقوبات صارمة: الاسترقاق، والجلد، والإخفاء، وبتر اليدين أو القدمين، أو الشفة العليا، أو جدد الأنف، أو صلح الأذن، أو إعدام المذنب بشنقه، أو قطع رأسه، أو حرقه، أو رجمه، أو إغراقه في الماء، أو إلقائه في هوة سحيقة(9).

وكان النظام الاقتصادي شبيهاً بالقانون في بدائته، وكان أقل تقدماً منه في بريطانيا الرومانية. وكانت جهود كثيرة قد بذلت في تقطيع الغابات وتجفيف المناقع، ولكن إنجلترا كانت لا تزال في القرن التاسع تشغل نصفها الغابات، والمروج، والمناقع، وكانت الحيوانات البرية-الدبية، والحلايف، والذئاب-لا تزال تجوس خلال الغابات، وكان أكثر من يفلح الضياع هم الأسرى أو الأرقاء. وكان الاسترقاق في بعض الحالات مأل المذنبين أو المجرمين، وكان في وسع الأزواج أو الآباء أن يبيعوا أزواجهم أو أبنائهم إذا اضطرتهم الحاجة إلى بيعهم، وكان جميع أبناء الأمة أرقاء ولو كان آباءهم من الأحرار. وكان في مقدور السيد أن يقتل عبده متى أراد، وأن يضاجع أمته ثم يبيعها وهي حامل منه.

صفحة رقم : 5092

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

ولم يكن من حق العبد أن يرفع قضية إلى محكمة، وإذا قتله غريب ذهبت دينته القليلة إلى مالكة، وإذا أبق ثم قبض عليه كان يستطاع جلدته حتى يموت (10) وكانت أهم تجارة في برستل Bristol هي تجارة الرقيق. وكان سكان البلاد كلهم إلا القليلين منهم قرويين، فكانت البلدان كفوراً، والمدن بلداناً غير كبيرة فكانت لندن، وإكستر، ويورك، وتستستر، وبرستل، وجلوسستر، وأكسفورد، ونروج Norwich، وورستر، وونشستر كانت هذه كلها بلداناً صغيرة ولكنها نمت نمواً سريعاً بعد زمن ألفرد، ولما أن جاء الأسقف مليتس في عام 601 ليعظ في لندن لم يجد إلا "عددًا قليلاً من السكان الوثنيين" (11)، في البلدة التي كانت إحدى الحواضر في أيام الرومان، ثم عادت إلى النماء في القرن الثامن بفضل مركزها الحربي المشرف على نهر التاميز، حين أصبحت في عهد كنوت عاصمة البلاد القومية.

وكانت الصناعة تعمل عادة للسوق المحلية، غير أن صناعتي النسيج والتطريز كانتا أكثر تقدماً من سائر الصناعات، وكانتا تصدران منتجاتهما إلى بلاد القارة الأوروبية. وكانت وسائل النقل صعبة غير آمنة، والتجارة الأجنبية ضئيلة الشأن. وبقيت الماشية تستعمل أداة للتبادل حتى القرن الثامن، ولكن بعض الملوك سكوا في ذلك القرن نقوداً فضية، منها شلنات ومنها جنيهاً؛ وكانت أربعة شلنات في إنجلترا في القرن العاشر تكفي لشراء بقرة وتكفي ستة لشراء ثور (12). وكانت الأجور منخفضة بهذه النسبة نفسها، وكان الفقراء يسكنون في أكواخ خشبية ذات سقف من القش، ويعيشون على الخضر، أما خبز القمح واللحم فكانا طعام الأغنياء أو حفلات أيام الأحاد. وكان الأغنياء يزينون قصورهم

صفحة رقم : 5093

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

الساذجة الخشنة بستائر مصورة، ويدفنون أجسامهم بالفراء، ويحملون أثوابهم بالتطريز، ويزينون أنفسهم بالجواهر. ولم تكن العادات والأخلاق ظريفة متأنقة كما أضحت في بعض العصور المتأخرة من تاريخ إنجلترا، فنحن نسمع الشيء الكثير عن الخشونة والفظاظة، والوحشية، والكذب والغدر، والسرقعة وغيرها من العادات المتأصلة، ويعترف القراصنة النورمان الذين أغاروا على إنجلترا في عام 1066، ومنهم من لم يكونوا أبناء شرعيين، بأنهم دهشوا من انحطاط المستوى الخلفي والثقافي عند ضحاياهم. وكان جو إنجلترا الرطب يغري الإنجليز - السكسون بالإفراط في الطعام والشراب، وكانت "حفلة الجعة" عندهم من مستلزمات المجتمعات والأعياد. ويصف القديس بنيفاس الإنجليز في القرن الثامن وصفاً بهيجاً لا يخلو من المغالاة فيقول "إن المسيحيين والوثنيين على السواء يأبون أن تكون لهم زوجات شرعيات، ولا يزلون يعيشون عيشة الدعارة والزنى كما تعيش الخيل الصاهقة والحمر الناهقة" (13) وكتب في عام 756 إلى الملك إيثبولد Ethelbald يقول:

"لو أن احتقارك للزواج المشروع كان يهدف إلى الطهارة لكان أمراً محموداً، أما وأنتم منغمسون في الترف، وترتكبون الزنى مع الراهبات أنفسهن، فإن ذلك الاحتقار أمر مرذول يسربلكم العار... ولقد سمعنا أن نبلاء مرسية

كلهم تقريباً يحذون حذوكم، فيهجرون أزواجهم الشرعيات، ويرتكبون الفحشاء مع الزانيات والراهبات... خذوا حذركم من هذا... إذا كانت أمة الإنجليز... تحتقر الزواج المشروع، وتسارع إلى الزنى، فلا بد أن يؤدي هذا الاتصال إلى وجود شعب دنيء يحقر الله، وستجر الخراب والدمار على البلاد بهذا التهتك وهذه الأخلاق المرذولة". وكان من حق الزوج في القرون الأولى من حكم الإنجليز - السكسون أن يطلق زوجته متى شاء وأن يتزوج غيرها. وقد ندد مجمع هرتفورد Hertford

صفحة رقم : 5094

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

الديني (673) بهذه العادة، وعمل نفوذ الكنيسة بالتدريج على تثبيت قواعد العلاقة الزوجية، فارتفعت مكانة النساء ارتفاعاً عظيماً وإن لم يمنع هذا استرقاقهن في بعض الأحيان. ولم يكن النساء يتلقين إلا القليل من التعليم في الكتب، ولكن لم يجدن في ذلك ما يحول بينهن وبين تأثيرهن في الرجال واجتذابهم لهن. فكان الملوك يصبرون كثيراً على مغازلة النساء المنتشامخات، ويستشيرون زوجاتهم في السياسة العامة (15). وقد ظلت إتلفلد ابنة ألفرد، وهي ملكة ونائبة عن الملك، جيلاً من الزمان تحكم مرسية حكماً حازماً صالحاً، أنشأت فيه المدن، وأحكمت وضع الخطط الحربية، وانتزعت من الدنمركيين دربي، وليستر، ويورك. ويقول عنها وليم من أهل مالزبري إنها عانت مشقة كبيرة حين وضعت أول طفل لها، فأبى بعد ذلك عناق زوجها، وقالت إنه لا يليق بابنة ملك أن تستسلم لمتعة وقتية تؤدي بعد حين إلى تلك العواقب المتعبة" (16). وكانت تعيش في مرسية وقتند (حوالي 1040) جديفا Godgifa زوجة إيرل ليفريك Earl Leofric. ودارت حول اسمها جديفا Godiva الذي اشتهرت به فيما بعد كثير من القصص الممتعة الجذابة، وأقيم لها تمثال في كوفنتري Coventry . وعانى التعليم، كما عانى كل شيء سواه، الأمرين من جرّاء الفتح الإنجليزي-السكسوني، ثم أخذ ينهض من كبوته على مهل بعد أن اعتنق الفاتحون الدين المسيحي. فقد افتتح بندكت بسكوب Benedict Biscop مدرسة في دير ويرزموث Wearsmouth حوالي عام 660، كان بيد Bede من خريجها. وأنشأ إجبرت مدرسة ومكتبة في كنيسة يورك (735)، صارت أهم مركز للتعليم الثانوي في إنجلترا، وأضحت إنجلترا في النصف الثاني من

صفحة رقم : 5095

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

القرن الثامن بفضل هاتين المدرستين وغيرهما من المدارس حاملة لواء التعليم في أوروبا الواقعة شمال جبال الألب.

وينجلي إخلاص معلمي الأديرة وظرفهم في شخصية بيد الموقرة The Venerable Bede أعظم علماء زمانه (673-735) وقد لخص هو سيرته تلخيصاً متواضعاً فقال:

بيد خادم المسيح، قس دير الرسولين المباركين، بطرس ويولس، القائم في ويرزموث وجرو. وإذ كنت قد ولدت في إقليم ذلك الدير فقد أدخلني أهلي فيه وأنا في السبعة من عمري لأربي على يدي رئيسه المبجل بندكت بسكوب، ولقد قضيت حياتي كلها بعد ذلك الوقت في هذا الدير، وبذلت كل ما أستطيع من جهد لدراسة الكتاب المقدس، والمحافظة على السنن المتبعة وترتيل الأناشيد اليومية في الكنيسة، وكنت أستمتع على الدوام بتلقي العلم أو بالتدريس أو بالكتابة... حتى عينت شماساً في التاسعة عشرة من عمري، ثم أصبحت قساً في سن الثلاثين... وبقيت من هذه السن إلى التاسعة والخمسين عاكفاً على دراسة الكتاب المقدس والأعمال الآتية... (17).

وكلها باللغة اللاتينية، وتشمل تعليقات على الكتاب المقدس، ومواعظ، وثبتاً بالحوادث العالمية وتواريخها، ورسائل في النحو، والرياضيات، والعلوم، والدين، وأهم من هذا كله كتابه في التاريخ الكنسي للأمة الإنجليزية (731). ويختلف هذا الكتاب الأخير عن معظم تواريخ الأديرة في أنه ليس سجلاً، حافظاً للحوادث؛ وربما كان في الجزء الأخير منه متقلاً فوق ما يجب بأخبار المعجزات. وأن صاحبه على الدوام سريع التصديق لما لا يصح تصديقه، مدفوعاً إلى هذا بسذاجته البريئة الطاهرة، شأن العقل الحبيس من سن السابعة؛ ولكنه رغم هذا كله قصة واضحة خلابة، تسمو في أجزاء متفرقة منها إلى البلاغة

صفحة رقم : 5096

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

البسيطة، كما نرى ذلك في وصفه للفتح الأنجليسكوني (18). وكانت بيد رجلاً مفكراً حتى الضمير، يعني أشد العناية بتواريخ الحوادث، وهو في العادة دقيق فيما يورده منها؛ يعين المراجع التي يعتمد عليها، ويسعى للحصول على الشواهد من مصادرها الأولى، ويقتبس مما يستطيع الوصول إليه من الوثائق الصحيحة. ومن أقواله في هذا المعنى: "لست أريد أن يقرأ أبنائي أكتوبة واحدة" (19)، ونرجو أن يكون قصده بأبنائه تلاميذه الستمائة الذي علمهم. وقد توفي بعد ست سنين من كتابة سيرته الذاتية السالفة الذكر، والتي جمع في سطورها الختامية كل ما حوته تقوى العصور الوسطى من رقة وإيمان:

"وأتوسل إليك يا يسوع الرحيم أن تمن بفضلك على من عطفت عليه فأسفيتته من كلمات علمك العذبة بأن يقبل في يوم من الأيام عليك يا ينبوع الحكمة بأجمعها ويقف على الدوام أمام وجهك".

ويذكر بيد أن الناس في زمانه كانوا يتحدثون في إنجلترا بخمس لغات: الإنجليزية، والبريطانية (الكلتية)، والأيرلندية، والبكتية (الاسكتلندية)، واللاتينية. فأما الإنجليزية فكانت لغة الإنجليز (Angles)، ولكنها لم تكن تختلف عن اللغة السكسونية إلا قليلاً، وكان يفهمها الفرنجة، والنرويجيون والدنمركيون، فقد كان هؤلاء الأقوام الخمسة يتكلمون لهجات مختلفة من اللغة الألمانية، وقد نشأت الإنجليزية من اللغة الألمانية نفسها. وكان ثمة أدب أنجليسكوني جدير بالاعتبار من القرن السابع، وليس لنا مصدر نعتمد عليه في تقدير معظمه إلا قطع متفرقة منه لأن جزأه الأكبر قد اندثر بعد أن أدخلت اللاتينية في إنجلترا الحروف اللاتينية (واستبدلتها بحروف شمالي أوروبا التي كانوا يكتبون بها من قبل)، وبعد أن دمرت الفتوح الدنمركية كثيراً من دور الكتب، وحين غمرت الفتوح النورمندية اللغة الإنجليزية بفيض من اللغة الفرنسية. يضاف إلى هذا أن كثيراً من القصائد الأنجليسكونية كانت قصائد

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

وثنية، وكان يتناقضها جيلاً بعد جيل شعراء مغنون مستهترون بعض الاستهتار في حياتهم وحديثهم، وكان يحرم على الرهبان والقساوسة أن يستمعوا إليهم. ومع هذا فأكبر الظن أن راهباً من رهبان القرن الثامن هو الذي كتب أقدم قطعة بقيت لنا من الأدب الأنجليسكسوني وهي شرح منظوم لسفر التكوين ليس فيه من الإلهام كما في الأصل وقد وضع بين أبيات القصيدة ترجمة لقصة ألمانية تروي خروج آدم من الجنة. وهنا تسري في الشعر الحياة، ومن أكبر أسبابها أن الشيطان يصور في صورة الثائر المنفعل المتحدي، ولعل ملتن Milton قد وجد هنا لمحة بنى عليها وصفه للشيطان في قصيدته. ومن القصائد الأنجليسكسونية ما هو مرث؛ فقصيدته "الجانل" مثلاً تتحدث عن الأيام السعيدة الخالية في قصور الأشراف؛ أما الآن وقد مات النبيل "فقد أفقرت هذه الأرض الثابتة كلها" وأصبح "أكثر ما يثر الأشجان أن نتذكر أسباب السعادة" (20)؛ وليس ثمة تعبير عن هذه الفكرة أجمل من هذا التعبير لا نستثني من ذلك شعر دانتي نفسه. وأكثر ما تتغنى به هذه القصائد القديمة هو الحرب وهي حين تفعل هذا ممتعة قوية. و "أنشودة واقعة ملدون Maldon" (حوالي 1000) لا نرى في هزيمة الإنجليز شيئاً غير البطولة، والمحارب القديم برهتود Byrhted، وهو واقف أمام جسد سيده القتيل "بيث الشجاعة" في قلوب السكسون حين أحرق العدو بهم عبارات كعبارات مالوري Malory وتسبقها في الزمن:

كلما نقصت قورانا زادت أفكارنا صلابة، وقلوبنا حدة، وتضاعفت أمزجتنا. وها هو ذا أميرنا مزجى على الأرض؛ لقد قطعوه وأماتوه! ألا فلتحل الأحران والأشجان أبد الدهر بالرجل الذي يغادر وطيس القتال! لقد تقدمت بي السنون، ولكنني لن أبرح هذا المكان؛ إني أريد أن أرقد إلى جانب مولاي، إلى جانب الرجل الذي أعزه (21).
ونظن أن بيولف Beloulf أطول القصائد الأنجليسكسونية وأنبها قد،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

أُنشئت في القرن السابع أو الثامن، واحتفظ بها لنا مخطوط يرجع تاريخه إلى عام 1000 يوجد الآن في المتحف البريطاني. ويبدو أن أبياتها البالغ عددها 3183 بيتاً هي القصيدة بأكملها والشعر غير مقفى ولكنه موزون متجانسة أوائل ألفاظه، مصوغ في لهجة سكسونيا الغربية لا نستطيع أن نفهمها في هذه الأيام. والقصة نفسها كأنها عبث الأطفال، وخلصتها أن بيولف أمير القيط (القوط؟) في جنوبي السويد يعبر البحر ليطلق سراح هرناجار Hrothgar ملك الدنمرقة من التنين جرندل Grendel؛ وبعد أن يغلب جرندل وأم جرندل نفسها، يعود بطريق البحر إلا قيطلاند Geatland ويحكمها حكماً عادلاً مدة خمسين عاماً. ويظهر وقتئذ تنين ثالث يقذف باللهب ويعيث فساداً في أرض القيط، فيهاجمه بيولف، ويصاب في هذا الهجوم بجرح مميت، فيخف صديقه وجلاف Wiglaf إلى معونته ويتعاونان

على قتل التين. ويموت بيولف من أثر جرحه، وتحرق جثته على كومة الحريق. وليست القصة من السذاجة كما تبدو لنا من روايتنا هذه؛ فالتين الذي تتحدث عنه آداب العصور الوسطى يمثل الحيوان البري الذي يكمن في الغابات المحيطة بمدن أوروبا، وفي وسعنا أن ننفو عن خيال الناس الذين صور لهم الفزع هذه الوحوش في تلك الصورة الخرافية، ولقد نسجوا حولها كثيراً من الأقاويص يعبرون بها عن شكرهم للرجال الذين تغلبوا على هذه الوحوش حتى أمنت القرى والنجوع شرهم.

وبعض فقرات القصيدة مسيحية الصبغة لا تنسجم مع بقية أجزاءها، كأنما أراد ناشر رحيم من الرهبان أن يحفظ هذه القصيدة الوثنية الرائعة بأن يضيع في أجزاء متفرقة منها سطرأ يشعر بالتقي والصلاح. غير أن جو القصيدة وحوادثها جو وثني خالص وحوادث وثنية خالصة. ولقد كان الحب، والحياة، والمعارك الحربية على الأرض هي التي تعني بها أولئك "النساء الحسان والرجال البواسل"، ولم يكونوا يعنون بجنة هادئة وراء القبور. ويقول المؤلف في بداية القصيدة بعد

صفحة رقم : 5099

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

أن يدفن سلد Scyld الملك الدنمرقي كما يدفن قراصنة الشمال في قارب يدفع إلى البحر وهو خال من الملاحين: "لا يستطيع الناس أن يقولوا وهم واثقون من الذي تلقى هذا العبء". غير أن جو القصيدة ليس بالجو الوثني المرح، بل تسري فيها من أولها إلى آخرها روح نكدة، وأكثر من هذا أن تلك الروح نفسها لا تبرح الحفلة التي أقيمت في بهو هرثجار. وفي وسعنا أن نلمح ثانياً أبيات القصيدة المتدفقة وما فيها من طرب وتحسر أنين العازف على القيثارة: ثم جلس بيولف على مقعد بجوار البئر... وأخذ يتحدث عن جرحه، وعما يحس به من آلام شديدة أشرف من جرأنها على الموت؛ وأدرك أن منيته قد دنت... ثم طاف حول كومة الدفن رجال أبطال أقران حرب، يريدون أن يعبروا عن أجزانهم، وأن يرثوا الملك، وأن ينشدوا ويتحدثوا عن الرجل؛ فأخذوا يشيدون بكل ما أوتوا من قوة ببطولته في أثناء حياته، ويمتدحون أعماله الباسلة الجديدة... ويقولون إنه كان أعظم ملوك العالم رافةً ورحمةً، وأرقهم في معاملة شعبه، وأحرصهم على كسب الثناء... ومن أجل هذا كان خليقاً بالإنسان أن يثني على سيده وصديقه... وأن يحبه بكل قلبه، إذا ما حان أجله، وفارقت روحه جسده، وغادر هذا العالم.

وأكبر الظن أن بيولف أقدم ما بقي لدينا من القصائد في أدب بريطانيا، ولكن كيدمون Coedmon (المتوفى سنة 680) وهو أقدم الأسماء في هذا الأدب. ولسنا نعرفه إلا من فقرة طريفة في كتاب بيد، فقد جاء في كتاب التاريخ الكنسي (23) أنه كان في دير هوتبي Whitby أخ ساذج يجد في الغناء من الصعوبة ما يحمله على الهرب إلى مكان يختبئ فيه كلما جاء دوره في الغناء. وخيل إليه ذات ليلة وهو نائم مستقر في مرقده أن ملكاً قد جاءه وقال له: "غن لي شيئاً يا كيدمون!" فقال الراهب إنه لا يستطيع الغناء، فأمره الملك أن يغن، وحاول كيدمون الغناء، ولشد ما دهش من نجاحه، ولما استيقظ في

صفحة رقم : 5100

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

الصباح تذكر الأغنية، وأعاد غناءها؛ ولهذا أخذ يحاول قرض الشعر ونظم سفرى التكوين، والخروج، والأناجيل شعراً "صاعه" كما يقول بيد "بالفاظ عذبة تأخذ بمجامع القلوب". ولم يبق من هذه الأشعار كلها إلا أبيات قليلة ترجمها بيد إلى اللغة اللاتينية. وبعد عام من ذلك الوقت حاول سينولف Cynewulf (ولد حوالي عام 750) وهو شاعر مغن في بلاط نورثمبرلاند أن يخرج هذه الرواية إلى حيز الوجود بأنه ينظم عدة قصص دينية مختلفة- "المسيح" و "أندرياس Andreas" و "يوليانا"، ولكن هذه القصص تبدو، إذا ما قورنت بقصة بيولف المعاصر لها، ميتة لا حياة فيها لكثرة ما بها من الصناعة والمحسنات اللفظية.

ويجيء النثر الأدبي في جميع الآداب بعد الشعر في الترتيب الزمني، لأن العقل ينضج قبل أن تتفتح أزهار الخيال، مع أن الناس ينطقون بالنثر قروناً "وهم لا يعرفون" قبل أن ينسع لهم وقتهم أو يمكنهم غرورهم من أن يصوغوه فناً من الفنون. وأوضح شخصية في نثر إنجلترا الأدبي هي شخصية ألفرد، فتراجمه ومقدماته يضيف عليها الإخلاص والبساطة كثيراً من البلاغة، وهو الذي بذل من الجهد في نشر "ملف الأسقف Bishop's Roll" الذي كان محفوظاً عند قساوسة كنيسة ونشستر، فاستحال على يديه أقوى وأوضح أقسام السجل الأنجليكسوني أول كتاب قيم في النثر الإنجليزي. وليس ببعيد أن يكون معلمه أسر Asser هو الذي كتب الجزء الأكبر من حياة ألفرد، أو لعل هذه السيرة قد جمعت فيما بعد (حوالي عام 974)؛ ومهما من يكن من شأنها فهي مثل من أقدم الأمثلة على استعداد الإنجليز باللغة اللاتينية في الكتب التاريخية والدينية، على حين أن "القارة" الأوربية التي كانت لا تزال تستحي من أن تكتب هذه المؤلفات الكريمة باللغة "العامية".

ولقد وجد الناس بين مشاغل الشعر والحرب من النشاط والوقت ما يمكنهم

صفحة رقم : 5101

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية
السكسونية

من تصوير المعاني، وتجميل الأشياء ذات النفع المادي. فقد أنشأ ألفرد مدرسة للفن في أثلني Athelney، واستقدم إليها من جميع الأنحاء رهباناً يحذقون الفنون والصناعات، "ولم ينقطع في أثناءه حروبه الكثيرة" كما يقول أسر "عن أن يعلم عماله في صناعة الذهب وصناعه في جميع الحرف" (25) ولم يفتح دنستان Dunstan بأن يكون من رجال الحكم والقدسيين، فأخذ يمارس بجد صناعتي الحديد والذهب، وكان إلى هذا موسيقياً بارعاً صنع لكنيسة جلاستنبري أرغناً ذا مزامير. وقامت في البلاد الصناعات الفنية الدقيقة في الخشب، والمعادن، والميناء المقسمة، واشترك قاطعو الجواهر مع الحفارين في صنع الصلبان المنحوتة والمطعمة بالجواهر في رثول Ruthwetl وبيوكاسل Bewcasle (حوالي عام 700)، وصب تمثال من الشبه للملك كدولو Cadwailo (المتوفى سنة 677) ممتط صهوة جواد بالقرب من لدجيت Ludgate. وكانت النساء ينسجن أغشية الفراش، والأقمشة التي تزدان بها الجدران، والمطرزات، من الخيوط البالغة غاية الدقة (26). وزخرف رهبان وليشستر بالرسوم ذات الألوان الزاهية كتاب أدعية في القرن العاشر. وشادت ونشستر نفسها ويرك كنائس من الحجر منذ عام 635؛ وجاء بندكت بسكوب بالطراز اللباردي إلى إنجلترا من الكنيسة التي أقامها في ويرزموث عام 674؛ وأعدت كندريري في عام 950 بناء الكنيسة التي بقيت فيها من أيام

الرومان. وينقل لنا بيد أن كنيسة بندكت بسكوب قد ازدانت بالنقوش المصنوعة في إيطاليا، "وأن كل من دخلها، وإن كان جاهلاً لا يعرف شيئاً من العلوم والمعارف، لا يسعه أينما ولى وجهه إلا أن يتأمل مظاهر المسيح وقديسيه التي لا يبلى جمالها... وأن يذكر وهو يرى أمام عينيه صورة يوم الحساب أن من واجبه محاسبة نفسه حساباً عسيراً" (27). وقصارى القول أن القرن السابع قد شهد نهضة في البناء في بريطانيا؛ ذلك أن الأنجليسكون كانوا قد أتموا فتوحهم، والدنمركيون لم يبدعوها، وأصبح البناعون الذين كانوا من قبل بينون

صفحة رقم : 5102

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> الحضارة الإنجليزية السكسونية

بالخشب يجدون لديهم الموارد والعزائم التي تمكنهم من تشييد الأضرحة والمعابد بالحجارة. ولكننا يجب ألا ننكر أن بندكت قد استفاد من غالة البتائين، وصانعي الزجاج، وصانعي الذهب، وأن الأسقف ولفرد Wilfrid قد جاء بالمتالين والنقاشين من إيطاليا لزخرفة كنيسة التي شادها في هكسهام Hexham في القرن السابع؛ وأن إنجيل لندسفارن Lindisfarne (حوالي عام 730) ذا الزخرف الجميل كان من عمل رهبان أيرلنديين دفعهم فرط زهدهم أو حماسهم للتبشير إلى تلك الجزيرة القفرة القريبة من ساحل نورثمبرلاند. وقضى مجيء الدنمركيين على هذه النهضة القصيرة الأجل، ولم يواصل فن العمارة الإنجليزية العود إلى ما بلغه بعدئذ من العظمة والجلال حتى استقر سلطان الملك كنوت في إنجلترا على أساس مكين.

صفحة رقم : 5103

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

3- بين فتحين

1066-1016

لم يكن الملك كنوت فاتحاً وكفى، بل كان إلى هذا حاكماً قديراً. ولسنا ننكر أنه لوث بداية حكمه بأعمال القسوة: فقد طرد من البلاد أبناء إدمند إيرنسد Edmund Ironside وأمر بذبح أخي إدمند ليمنع بذلك عودة الملوك الأنجيسكون إلى العرش. لكنه لما رأى أن أرملة إثلرد وأبناءه لا يزالون أحياء في رون Rouen، تغلب على كثير من المشاكل بأن خطب إما Emma لنفسه (1017). وكانت هي وقتئذ في الثالثة والثلاثين من عمرها، وقبلت الخطبة وحصل كنوت بضربة واحدة على زوجة، وحلف مع دوق نورمنديّة أخي إما، وعلى عرش مكين أمين. وأصبح عرشه من تلك اللحظة نعمة على إنجلترا وبركة. فقد كبح جماح الأعيان المشاكسين الذين حطموا روح إنجلترا وفرقوا وحدتها، ووقى البلاد شر الغزاة في المستقبل، ووهبها أثني عشر عاماً من السلم غير المنقطعة واعتنق الملك الدين المسيحي، وشاد كثيراً من الكنائس، وأقام نصباً تذكاريّاً

صفحة رقم : 5104

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

أسندون Assndun إحياء لذكرى الأنجليسكون والدمرقيين الذين حاربوا في ذلك المكان، وحج بنفسه إلى قبر إدمند، ووعد بأن يتبع قوانين إنجلترا وأنظمتها القائمة فيها، ووفى بوعده فيما عدا حالتين اثنتين: فقد أصر على أن تكون حكومة المقاطعات التي أسدها الأعيان الأثوقراطيون تحت سيطرة عملائه هو، واستبدل بكبير الأساقفة وزيراً من غير رجال الدين ليكون كبير مستشاري التاج، وأنشأ طائفة من العمال الإداريين والموظفين المدنيين كان لهم الفضل في جعل حكومة البلاد ثابتة مستمرة، وكان عماله كلهم تقريباً، بعد سني حكمه الأولى المزعجة، من الإنجليز. وقد جمع بين تاجي الدنمرقة وإنجلترا، ثم أصبح في عام 1028 ملكاً على النرويج، ولكنه كان يحكم مملكته الثلاثية من مدينة ونشستر.

وكان الغزو الدنمرقي حلقة في سلسلة الغزوات الأجنبية الطويلة وفي الامتزاج العنصري للذين انتهيا بالفتح النورمندي وأنتجا آخر الأمر الشعب الإنجليزي. فقد امتزجت دماء الكلت والغالين، والإنجليز والسكسون والجوت، والدمرقيين والنورمان، بالزواج أو بغيره من الوسائل، فخلقت من البريطانيين أهل البلاد في زمن الرومان، وهم الذين ليست لهم ميزة ولا قدرة على الابتكار، خلقت منهم قرصنة عهد الملك إلزبت الصخابين، وفاتحي العالم الصامتين في القرون التالية. ولقد جاء الدنمريقيون إلى إنجلترا، كما جاء إليها الألمان وأهل الشمال، بحب للبحر يكاد يبلغ درجة الوجد والهيام، واستعداد لقبول دعوة البحر الغادرة إلى المغامرة والاتجار في أقاصي البلاد، أما من الجهة الثقافية فقد كانت غزوات الدنمريقيين كارثة على البلاد، وقف في أثنائها فن البناء فلم يخط خطوة إلى الأمام، وانحل فن زخرفة الكتب فيما بين عامي 750، 950؛ كما وقفت النهضة العلمية والأدبية التي شجعها ألفرد، وفعلت غزوات الشماليين ما فعلته في غالة نفسها فأخذت تقضي على أعمال شارلمان المجيدة.

صفحة رقم : 5105

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

ولو أن أجل كنوت طال لأمكنه أن يصلح الأضرار التي أنزلها مواطنوه بالبلاد، ولكن شئون الحرب والحكم تبلى الناس سراعاً، فلقد مات كنوت عام 1035 ولما يتجاوز سن الأربعين؛ وخلعت النرويج نير الدنمركيين على الفور، واضطر هارتكنوت Harthacnut بن كنوت الذي عينه قبل موته ولياً لعهدته أن يكرس كل جهوده لحماية الدنمرقة من غزو النرويجيين؛ وحكم ابن آخر من أبنائه يدعى هيرلت هيرفوت Herald Harefoot إنجلترا خمس سنين؛ ثم مات؛ وحكمها هارتكنوت عامين توفي بعدها سنة 1042، واستدعى من نورمنديا قبل وفاته ابن إثزل وإما الباقي على قيد الحياة، واعترف بهذا الأخ الأنجليسكوني غير الشقيق وارثاً لعرش إنجلترا.

ولكن إدورد المعترف (Edward the Confessor 1042-1066) كان غريباً عن البلاد بقدر ما كان أي دنمركي آخر غريباً عنها. فقد نقله أبوه إلى نورمنديّة وهو في العاشرة من عمره، وقضى ثلاثين عاماً في بلاط النورمنديين، وتربى على أيدي أعيانهم وقساوستهم ونشئوه على التقى والصرافة. وجاء الملك الجد إلى إنجلترا بلغته وعاداته الفرنسية وأصدقائه الفرنسيين، وأصبح هؤلاء الأصدقاء من كبار موظفي الدولة ورؤسائها الدينيين؛ وتلقوا هبات ملكية، وشادوا في إنجلترا قصورا نورمنديّة منيعة، ولم يخفوا ازدرأهم للغة الإنجليزية وأساليب الحياة الإنجليزية، وبدعوا الفتح النورمندي قبل وليم الفاتح بجيل من الزمان.

ولم يكن يستطيع في التأثير في الملك الرقيق المطواع إلا رجل واحد هو إيرل جدون Earl Godwin حاكم وسكس ومستشار الدولة الأول في عهد كنوت وهرلد وهارتكنوت وكان إيرل جدون واسع الثراء حكيماً، داهية في الديبلوماسية صبوراً عليها، فصيح اللسان، قوي الحجة، بارعاً في الأعمال الإدارية؛ فكان بذلك أول الساسة العظام من غير رجال الدين في التاريخ

صفحة رقم : 5106

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

الإنجليزي. وقد رفعت تجاربه في شئون الحكم منزلته فوق منزلة الملك نفسه. وأضحى ابنته إديت Edilh زوجة إدوارد، ولولا إن إدوارد لم يكن له خلف لكان من المحتمل أن يصبح جدون جد ملك من الملوك. ولما أن تزوج تستج Tostig ابن جدون يوديث Judith ابنة كونت فلاندرز، وأصبح سوين Soweyn ملكاً على الدنمرقة أنشأ إيرل جدون بهذه الصلات الزوجية حلفاً ثلاثياً جعله أقوى رجل في أوربا الشمالية كلها لا نستثنى من ذلك التعميم مليكه نفسه. لكن أصدقاء إدوارد النورمنديين أثاروا في نفسه عوامل الغيرة، فعزل دون، وفر الإيرل إلى فلاندرز، كما خرج ابنه هرولد Harold إلى إيرلندا وحشد فيها جيشاً ليقاثل به إدوارد المعترف (1051). ولم يكن أعيان الإنجليز راضين عن سيادة النورمنديين عليهم، فطلبوا إلى جدون أن يعود، ووعد بتأييد جنوده له. وغزا هرولد إنجلترا، وهزم جيوش الملك، ونهب ساحل إنجلترا الجنوبي الغربي وعاث في أرضه فساداً، ثم انضم إل والده وزحفاً معاً إلى أعالي نهر التاميز، وثار الشعب في لندن على حكامه واستقبل الغزاة بالترحاب، وفر الموظفون ورجال الدين النورمنديون، واجتمع وتناجور (مجلس) من أعيان الإنجليز وأساقفتهم، واستقبل جدون استقبال الظافرين؛ واسترد جدون سلطانه السياسي وما صودر من أملاكه (1052)، ولكنه مات بعد عام واحد بعد أن أنهكه الاضطراب والنصر.

وعُين هرولد إيرل وسكس، وخلف أباه في بعض ما كان له من سلطان. وكان وقتئذ في الحادية والثلاثين من عمره، وطول القامة، بهي الطلعة، قوي البنية، شهماً، مقداماً جريئاً، قاسياً في الحرب، كريماً في السلم شن حملة جريئة خاطفة على ويلز انتهت بضمها إلى إنجلترا، وقدم رأس جروفيد Gruffyodd زعيم ويلز هدية إلى الملك المسروق المروع (1063). وفي فترة هادئة من حياته العاصفة جاد بالمال الكثير لبناء كنيسة ولتأم (Watham، 1060) وإعانة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

الكلية التي نشأت من مدرسة هذه الكنيسة، واجهت أنظار إنجلترا كلها إلى هذا الشاب الذي لا يفترق في شيء عن أبطال الروايات.

وأهم ما حدث في عهد إدوارد من الناحية المعمارية هو الشروع في بناء دير وستمنستر (1055). وكان الملك قد ألف الطراز المعماري النورمندي أثناء حياته في رُون Rouen، فلما أمر ببناء الدير الذي أبح فيما بعد مزاراً مقدساً ومقبرة لعباقرة إنجلترا، أمر أو أجاز أن يقام على الطراز النورمندي الرومانسي على نسق كنيسة الدير العظيمة التي بدئ في تشييدها قبل ذلك الوقت بخمس سنين لا أكثر في جومييج Jumi(ges)، وكان هذا أيضاً فتحاً نورمندياً قبل أيام وليم. وكان بناء دير وستمنستر إيذاناً ببداية نهضة معمارية أوجدت في إنجلترا أجمل المباني الرومانسية في أوروبا بأجمعها.

وفي مقبرة وستمنستر دفن إدوارد في بداية سنة 1066 ذات الأحداث الجسام، واجتمع الويتنجامور في السادس من يناير واختار هرولد ملكاً على إنجلترا. وما كاد التاج يوضع على رأسه حتى جاءت الأخبار بأن وليم دوق نورمنديّة يطالب بالعرش ويستعد للحرب. وكانت حجة وليم أن إدوارد قد وعده في عام 1051 أن يوصي له بتاج إنجلترا جزاء له على إيوائه وحمايته في نورمنديّة ثلاثين عاماً. ويخيل إلينا أن هذا الوعد قد بذل حقاً (28)؛ ولكن إدوارد إما أن يكون قد نسيه، وإما أنه ندم على ما بذله، فأوصى قبل وفاته بقليل أن يخلفه هرولد على عرش إنجلترا. وسواء كان هذا أو ذاك فإن هذا الوعد لم تكن له قيمة إلا إذا أقره الويتان Witan، ولكن هرولد كما يقول وليم قد قبل منه مرتبة الروسية أثناء زيارة له في رون (في تاريخ لا نعرفه الآن)، فأصبح بذلك "رجل" وليم يدين له بالطاعة حسب قانون الإقطاع، وأنه وعد بأن يعترف به وارثاً لعرش إدوارد ويؤيده في المطالبة به. واعترف هرولد بهذا الوعد (29) ولكن قسّمه أياً كان لم يكن من شأنه في هذه المرة أيضاً أن يقيد الأمة الإنجليزية بشيء،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

فاختاره ممثلو الأمة بكامل حريتهم ملكاً عليهم، واعترزم هرولد أن يدافع عن ذلك الاختيار. ولجأ وليم إلى البابا، وحكم الكسندر الثاني بناء على مشورة هلدبراند Hildebrand بأن هرولد مغتصب، وحرمه هو ومناصريه من الكنيسة المسيحية، وأعلن أن وليم صاحب الحق الشرعي في عرش إنجلترا، وبارك غزوة وليم المرتقبة، وبعث إليه بعدم مدشن وخاتم يحتوي على شعرة من رأس القديس بطرس في داخل ماسة (30). وقد سر هلدبراند أن يجعل هذه الحادثة سابقة لتصرف البابوات في عروش الملوك وفي خلعهم، وطبق هذه السابقة بالفعل بعد عشر سنين من ذلك الوقت على

هنري الرابع ملك ألمانيا، ولم تكن ثمة صعوبة في استخدامها مع الملك جون عام 1213. وانضم لانفرانك رئيس دير بك إلى وليم في دعوة أهل نورمنديّة-أو على الأصح أهل جميع الأقطار-لشن حرب مقدسة على الملك المحروم. ولاقي هرولد في كهولته الأخيرة جزءاً ما ارتكبه في شبابه من آثام. ذلك أن أخاه تستج الذي نفاه الويتان من زمن بعيد لم يستدعه هرولد من منفاه بعد أن آل الأمر إليه، ولهذا انضم تستج إلى وليم، وحشد جيشاً في شمال البلاد، وأقنع هرولد هاردرادا Harald Hardrada ملك النرويج بأن ينضم إليه، ووعد في نظير ذلك بعرش إنجلترا. وبينما كانت عمارة وليم البحرية المؤلفة من 1400 سفينة تقلع من نورمنديّة إذ أغار تستج وهاردرادا على نورثمبرلاند. واستسلمت لها مدينة يورك، وتوج فيها هاردرادا ملكاً على إنجلترا، وأسرع إليه هرولد بمن معه من الجند وهزم الغزاة من الشمال عند جسر استامفورد Stamford Bridge (في 25 سبتمبر)، وقتل في هذه الواقعة تستج وهاردرادا، ثم اتجه هرولد نحو الجنوب ومعه قوة قليلة يعجز لقلتها عن الوقوف في وجه جيش وليم، وأشار عليه جميع ناصحيه بالتريث. ولكن وليم كان يحرق إنجلترا الجنوبية ويخربها تخريباً، وكان هرولد يحس بأن من واجبه أن يحمي الأرض التي خربها هو من قبل والتي أصبح

صفحة رقم : 5109

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> إنجلترا -> بين فتحين

يحبها اليوم. والتقى الجيشان عند سنلاك Senlac بالقرب من هيستجس (Hastings 14 أكتوبر) ونشبت بينهما معركة دامت تسع ساعات. واخترق أحد السهام عين هرولد فأعماه الدم، ووقع على الأرض ومزق فرسان النورمنديين جسمه تمزيقاً؛ فقطع أحدهم رأسه، وآخر ساقه، ونثر ثالث أحشاء هرولد في ميدان القتال. ولما رأى الإنجليز قائدهم يخر صريعاً ولوا الأدبار؛ وأعقبته هذه الهزيمة مذبحه وفوضى بلغ من هولهما أن الرهبان الذين كلفوا فيما بعد بالبحث عن جثة هرولد لم يعثروا عليها إلا بعد أن جاءوا إلى الميدان بإديت سوانزneck Edith Swansneck التي كانت عشيقته، فتبينت جثة عشيقها الميتورة الأطراف، ودفنت قطعها في كنيسة ولتأم التي بناها في حياته. ثم توج وليم الأول ملكاً على إنجلترا في يوم عيد الميلاد من عام 1066.

صفحة رقم : 5110

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ويلز

الفصل الثاني

فتح فرنطينس Frontinus وأجركولا Agrtcola بلاد ويلز وضماها إلى روما في عام 78 م. ولما انسحب الرومان من بريطانيا استردت ويلز حريتها، وخضعت على كره منه لحكم ملوكها. واحتل غربي ويلز مستعمرون أيرلنديون في القرن الخامس، ثم جاء إليها فيما بعد آلاف من البريطانيين فارين من الأنجليسكون الذين فتحول جزيرتهم. ووقف زحف الأنجليسكون أمام الحواجز القائمة عند حدود ويلز وأطلقوا على الشعب الذي لم يخضعوه اسم ويلهاس Wealhas- "الأجانب". ووجد الأيرلنديون والبريطانيون في ويلز سلالة كلتية من جنسهم، وسرعان ما امتزجت الطوائف الثلاثة وأضحت سمرو Cymru "أبناء وطن واحد". وصار هذا و اسمهم كما صار لفظ سمرو Cymru اسم بلادهم وكان هؤلاء الأقوام يقيمون نظامهم الاجتماعي كله على أساس الأسرة والعشيرة شأنهم في هذا شأن معظم الشعوب الكلتية-البريطانيين، والكورنيين Cornish - سكان كورنول الحالية)، والأيرلنديين، والجيليين Gaeis سكان شمالي إسكتلندة، وقد بلغ من حرصهم على هذا النظام أن يصبحوا يأنفون وجود دولة تضمهم ويرتابون أشد الارتباب في كل شخص أو شعب يجري في عروقه الدم الأجنبي. ولم يكن سخاؤهم وإكرامهم للضيف أقل قوة من نزعتهم القبلية، كما لم تكن شجاعتهم تقل عن عدم خضوعهم للنظام، ولا حياتهم الشاقة وجو بلادهم القارس يقلان عن حبههم للموسيقى والغناء والوفاء للأصدقاء، ولا فقرهم عن عاطفتهم القوية وخيالهم الواسع اللذين جعلوا من كل فتاة أميرة ومن نصف الرجال ملوكاً.

ولم يكن يعلو على منزلة الشعراء المنشدين إلا الملوك أنفسهم. ولم يكن هؤلاء

صفحة رقم : 5111

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ويلز

الشعراء هم عرّافي شعبيهم ومؤرخيه ومستشاري ملوكه فحسب، بل كانوا إلى ذلك شعراؤه. وقد خلد الزمان اسمين اثنين من هؤلاء الشعراء هما تليزن Talesin وأنورين Aneurin؛ وقد عاش كلاهما في القرن السادس الميلادي. وكان هناك مئات غيرهما، وعبرت القصص التي نسجوا بردها القناة الإنجليزية إلى بريطاني، ووصلت في صورة مصقولة إلى فرنسا. وكون هؤلاء المنشدون طبقة من الشعراء الدينيين، لم يكن يسمع لأحد أن ينتمي إليها إلا بعد مران صارم دقيق في معارفه. وكان كل من يريد الدخول في زميرتهم يسمى مابينوج Mabinog، وكان الموضوعات التي يرسها تسمى مابينوجي Mobinogi، ولهذا أطلق اسم مابينوجيون Mabinogion على ما بقي من قصصهم (31). ولا ترجع هذه القصص في صورتها الحالية إلى ما قبل القرن الرابع عشر، ولكن أغلب الظن أنها ترجع إلى ذلك الوقت الذي لم تكن فيه المسيحية قد دخلت بلاد ويلز. وهي قصص بدائية ساذجة ذات نزعة وثنية تشهد بأن الأهليين كانوا من عباد الطبيعة، مليئة بالحيوانات الغربية والحادثات المدهشة، يسودها جو نكد من النفي، والهزيمة، والموت؛ ولكنها ذات مزاج رقيق بعيد كل البعد عن الشهوانية والعنف اللذين نشهدهما في قصص الإدا Eddas الأيسلندية

Icelandic والساجا Sagas خرافات أهل الشمال، والنيبييلنجليد Nibelungelied. وقد نشأ في عزلة جبال ويلز أدب خيالي يفيض بالولاء للأمة، والإخلاص فيما بعد لعيسى ومريم. وكان لهذا الأدب شأن في نشأة الفروسية، والقصص العجيبة التي تتحدث عن الملك آرثر Arthur وفرسانه العشاق البواسل الذين أقسموا أن يقضوا على الوثنيين وقيموا دين المسيح".

ودخلت المسيحية ويلز في القرن السادس، وما لبثت بعد دخولها أن افتتحت المدارس في الأديرة والكنائس. وقد جاء الأسقف العالم أسر الذي كان أمين سر الملك ألفرد وكاتب سيرته من مدينة سانت دافد وكنيسته في مقاطعة بمبروك

صفحة رقم : 5112

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ويلز

Pembrokeshire. وتحملت هذه المزارات والمستقرات المسيحية الهجمات الأولى للقراصنة النورمنديين حتى طردهم الملك رودري الأكبر (Rhodri 844-878) وأنشأ في الجزيرة أسرة ملكية قوية. ووحّد الملك هيول الصالح (Hywel The Good 910-950) ويلز كلها ووضع لها قانوناً موحداً منظمًا. ولاقى جريفيد أب ليولين Grulfydd (Llywelyn 1309ab-1063) من النجاح أكثر مما كان يجب أن يلقاه؛ فلما أن هزم مرسية Mercia أقرب القاطعات الإنجليزية إلى ويلز، أعلن عليه هرولد، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على إنجلترا، حرباً دفاعية لصد عدوانه، وفتح بلاد ويلز، وضمها إلى بريطانيا (1063).

صفحة رقم : 5113

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

الفصل الثالث

الحضارة الأيرلندية

كانت أيرلندا في الفترة الواقعة بعد موت القديس بارتك والقرن الحادي عشر مقسمة إلى سبع ممالك، منها ثلاث في ألبستر Ulster، أما الباقية فهي كنوت Connought، ولينستر Leinster، ومنشستر Munster؛ وميث Meath. وكانت هذه الممالك تحارب بعضها بعضاً في أغلب الأوقات لأنها لم تستطع الانتقال إلى آفاق من الحياة أوسع من آفاقها الضيقة؛ ولكننا نسمع من بداية القرن الثالث الميلادي من غارات يشنها الأيرلنديون على السواحل البريطانية الغربية، وعن محلات أيرلندية في هذه السواحل. ويسمى الإخباريون هؤلاء المغيرين بالاسكتلنديين Scots-ويبدو أن هذا اللفظ لفظ أيرلندي معناه الجوالون، وإذا ذكر هذا اللفظ متصلاً بهذه الفترة من الزمن فمعناه الأيرلنديون. ولم تنقطع الحروب في أثنائها؛ وظلت النساء حتى عام 590 يطلبن إلى الإشتراك في القتال، والرهبان والقساوسة يدعون إليه إلى جانب غيرهم ممن هم أكثر اعتياداً له، وكان ثمة قانون يماثل في جوهره قوانين "البرابرة" الذين يسكنون القارة الأوروبية، ويشرف على تنفيذ البريهون Brehons-وهو قضاة من رجال القانون مدربون أحسن تدريب، كانوا منذ القرن الرابع يعلمون في مدارس الحقوق ويؤلفون رسائل قانونية باللغة الجيلية (Gaelic 33).

ونجت أيرلندا كما نجت اسكتلندا من الفتوح الرومانية، ولهذا فإنها لم تتح لها نعمة الاستمتاع بالقانون الروماني وبالحكومة المنظمة، فلم يفلح قانونها يوماً من الأيام في استبدال الأحكام القضائية بعبادات الثأر والانتقام، أو التأديب بالانفعال. وظلت الحكومة قائمة على الأساس القبلي، ولم فلق قط في

صفحة رقم : 5114

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

تحقيق الوحدة القومية أو النظرة القومية الشاملة.
وكانت الأسرة هي الوحدة التي يقوم عليها المجتمع وثبونه الاقتصادية. ويتألف من عدة أسر بطن، ومن عدة بطون عمارة، ومن عدة عمائر قبيلة. وكان المفروض أن جميع أفراد القبيلة أبناء رجل واحد، وأخذت كثير من الأسر تضيف اسم القبيلة التي تنتمي إليها UI أو 'O' (حفيد) للدلالة على نسبها، فأسرة أونيل مثلاً تقول إنها تنسب إلى نبال جلندبة Mial Glundubh ملك أيرلندا في عام 916. واتخذت أسر أخرى لنفسها اسم أبيها ولم تضف إليه إلا لفظ ماك Mac أي ابن. وكانت معظم الأراضي في القرن السابع ملكاً مشتركاً للبطون أو العمائر (34)، وكانت الأملاك الفردية الخاصة مقصورة على الأدوات والبضائع المنزلية (35)؛ ولكن الملكية الفردية انتشرت في البلاد قبل أن يحل القرن العاشر الميلادي، وسرعان ما نشأت طبقة أرستقراطية صغيرة العدد يمتلك أفرادها ضياعاً واسعة، كما نشأ عدد لا حصر له من الزراع الأحرار، وطبقة صغيرة من مستأجري الأرض، وطبقة أخرى من العبيد أصغر عدداً من أولئك المستأجرين (36). وظل الأيرلنديون في القرون الثلاثة التي أعقبت دخول المسيحية في البلاد (461-570) متأخرين عن الإنجليز من الناحيتين المادية والسياسية، أما من الناحية الثقافية فقد كانوا في أغلب الظن أرقى جميع الشعوب التي تسكن في شمال جبال البرانس والألب.

ويرجع هذا الاختلاف العجيب بين الناحيتين المادية والسياسية من جهة والناحية الثقافية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة: تدفق العلماء الغالبيين والبريطانيين الفارين من الغارات الألمانية في القرن الخامس، وازدياد الصلات التجارية بالبريطانيين والغالبيين، ونجاة أيرلندا قبل القرن التاسع من الهجمات الأجنبية، وقد افتتح فيها الرهبان، والقساوسة، والراهبات مدارس كثيرة مختلفة الأنواع والدرجات؛ منها مدرسة في كلونارد Clonard أنشئت في

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

عام 520 كانت تضم 3000 طالب (إذا أخذنا بأقوال المؤرخين المشايخين لوطنهم(37))؛ ومدارس أخرى في كلنماكنويس (Clonmacnois 544)، وكلنفرت (Clonfert 550)، وبنجور (Bangor 560). وكان عدد غير قليل من هذه المدارس يعد للطلاب مناهج تستمر اثني عشر عاماً تؤدي إلى درجة الدكتوراه في الفلسفة، وتشمل دراسات للكتاب المقدس، وأصول الدين، والأدب اللاتينية واليونانية القديمة، ونحو اللغة الجيلية وأدائها، وعلوم الرياضة والهيئة، والتاريخ والموسيقى، والطب والقانون(38). وكان ينفق على فقراء الطلبة ممن لا يستطيع أبائهم أن يعولوهم من الأموال العامة، لأن كثرة الطلبة كانت تعد نفسها لخدمة الدين، ولهذا لم يكن الأيرلنديون يضمنون بأي بذل في سبيل إعداد الطلاب لهذه المهنة. وظلت هذه المدارس تدرس اللغة اليونانية بعد أن كاد العلم بهذه اللغة يختفي من أوروبا الغربية بزم طويل. وقد درس الكوين في مدرسة كلنماكنويس، وفي أيرلندا تعلم جون اسكوتس إرجينا John Scotus Erigena اللسان اليوناني الذي جعله موضع إعجاب شارل الأصلع في فرنسا. وكان مزاج هذا العصر وأدابه يساعدان على نشأة الأقباصيص والروايات الغرامية، لكن بعض العقول كانت تتجه إلى العلوم الطبيعية في أماكن متفرقة من البلاد، نذكر من أصحاب هذه العقول دنجال Dungal العالم الفلكي، وفرجيل Fergil العالم في الهندسة النظرية الذي علم قومه أن الأرض كروية، ودكويل Dicuil العالم الجغرافي الذي أعلن كشف أيسلندا على أيدي الرهبان الأيرلنديين في عام 795؛ والذي أوضح شد الضوء في منتصف ليالي الصيف الأيرلندي بقوله إن في وسع الإنسان أن يجد وقتئذ من الضوء ما يمكنه من تنقية البراغيث من قميصه(39). وكان النحويين كثيرون العدد، وبكفي سبباً لهذه الكثرة أن علم العروض في أيرلندا كان في ذلك الوقت أكثر تعقيداً منه في أي مكان آخر. كذلك كان الشعراء كثيرون، وكانت لهم في المجتمع منزلة عالية،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

وكانوا في العادة بجمعون إلى قرص الشعر وكتابة التواريخ وظائف التدريس والمحاماة ويجتمعون في مدارس للشعر حول شاعر نابه، ولهذا ورثوا كثيراً مما كان للكهنة الدرويد Druid قبل دخول المسيحية في البلاد من سلطات وامتيازات خاصة. وظلت مدارس الشعراء هذه مزدهرة من القرن السادس إلى القرن السابع عشر دون انقطاع، وكانت تعتمد في العادة على ما تهيئه لها الكنيسة أو الدولة من أرضين(40). وازدان القرن العاشر بأربعة شعراء قوميين مشهورين: فلان ماك لونين Flanne Mac Lonin، وكنت Kenneth، وأهارتجان O, Hartigan، وإيوكيد أفلين Eochid 'Flainn، وماك لياج Mac Liage الذي اتخذ الملك بريان بورو Brain Boru شاعر بلاطه.

واتخذت قصص أيرلندة في ذلك العصر صورة أدبية، وكان جزء كبير من مادة هذه القصص متداولاً قبل أيام بتريك، ولكن الناس كانوا يتناقلونها شفويًا ثم صيغت وقتئذ في قالب من النثر الموزون، والشعر الغنائي وما من شك في أن شعراء ذلك العصر هم الذين وضعوها في قالبها الأدبي، وإن لم تصل إلينا مخططة إلا بعد القرن الحادي عشر. ومن هذه القصص طائفة متصلة الحلقات تخذ ذكرى آباء الشعب الأيرلندي الأسطوريين. فمنها طائفة "فنية Fenion" أو "أسيانية Ossianic" تقص في شعر حماسي مثير مغامرات البطل الخرافي فن ماك-كمهيل Finn Mac Cumhail وأبنائه وحفدته الفيانا Fianna أو للفنيين Flinains. وتعزو الروايات المتداولة معظم هذه القصائد إلى أسبان Ossian بن فن Finn، الذي عاش، كما تقول الروايات، ثلاثمائة عام ومات في أيام القديس بتريك، بعد أن وهب القديس قسطاً من عقله الوثني. وتدور طائفة حماسية من القصص حول كوشولين Cuchulain الملك الأيرلندي، الذي نشهده في مائة منظر داعر من مغامرات الحرب والحب. وأجمل قصة في هذه المجموعة تروي قصة ديردر Deirdre ابنة فليم Felim كبير شعراء الملك كونور Conor

صفحة رقم : 5117

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

ومضمونها أن قساً درويدياً يتنبأ لها ساعة مولدها بأنها ستسبب كثيراً من النكبات لبلادها ألستر؛ ويرفع الشعب عقيلته قائلاً: "فلتدبح"، ولكن الملك كونور يحميها من غضب الشعب، ويربيها، ويعتزم الزواج بها. وتزداد الفتاة جمالاً على مر الأيام، ثم تبصر ذات صباح الفتى ناأويز Naoise الوسيم بلعب الكرة مع غيره من الشبان، وتلتقط الفتاة كرة ألقيت خطأ وتعيدها إليه، و "ضغط على يدي وهو مبتهج". وتؤثر هذه الحادثة في عواطفها الناضجة فتزوج خادمها الخاصة قائلة: "أي مربيتي الرقيقة، إذا كنت تحبين لي الحياة، فاحلمي مني رسالة إليه، وقولي له أن يأتي ليتحدث إليّ سرّاً في هذه الليلة". ويقبل ناأويز ويغترف من حبها حتى يسكر، ثم يأتي إليها هو وأخواه إينل Ainnle وأردان Ardan في الليلة الثانية وينقلانها برضاها بطريق البحر إلى اسكتلندة. ويقع أحد ملوك اسكتلندة أسير هواها، فيخفيها الأخوة الثلاثة في شعاب الجبال، ثم يبعث الملك كونور بعد حين رسالة يقول فيها إنه يعفو عنهم جميعاً إذا عادوا إلى إيرين Erin. ويوافق ناأويز على طلب الملك مندفعاً إلى ذلك بحنينه إلى وطنه ومسارح صباه، وإن كانت ديردر تحذره عاقبة هذه العودة وتذره بألم الملك سيغدر به. وما كادوا يصلون إلى أيرلندة حتى هاجمهم جنود كونور؛ ويقاوم الأخوة قتال الأبطال، ولكنهم يخزون جميعاً صرعاً، ويطير لب ديردر من شدة الحزن، فتلقى بنفسها على الأرض وتمتص دماء حبيبها، وتنشد هذه الأغنية الحزينة:

بينما كان أعيان البا Alba (اسكتلندة) ذات يوم يقصفون ويمرحون

إذا طبع ناأويز في السر قبلة

على وجنة ابنة لورد دنترون Duntrone،

ثم بعث إليها بطيبة وثابة،

صفحة رقم : 5118

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

ظبية من ظباء الغاب وتحت قدميها خشف،

ثم أقبل عليها زائراً

وهو عائد من جيش إنفرنس Inverness،

فلما سمعت هذا، اكتوى قلبي بنار الغيرة،

ودفعت زور الصغير فوق الموج

ولم أبال هل قدر لي أن أحيأ أو أموت.

ونزلا إلى الماء في إثري

إينل وأردان، اللذان لم ينطقا قط بغير الحق

وجاء بي مرة أخرى إلى البر،

وهما فتیان يغلبان مائة من الأبطال،

وقطع لي ناأوبز عهداً صادقاً

وقسم بسلاحه ثلاث إيمان مغلظة

ألا يمس وجهي مرة أخرى

حتى يذهب من عندي غلى جيش الموتى.

يا ويلها، لو أنها سمعت في هذه الليلة

أن ناأويز مسجى في التراب

إذن لزرقت الدمع مدراراً

وليكيت معها سبع مرات.

وتختتم أقدم صيغة من صيغ قصة "ديردر ذات الأشجان" بخاتمة قوية في سذاجتها: "وكانت بالقرب منها صخرة كبيرة، وضربت برأسها الحجر فتحطمت جمجمتها ولاقت حتقها" (41). وكان الشعر والموسيقى وثيق الصلة في أيرلندا، شأنهما في غيرها من البلاد في حياة العصور الوسطى. فكانت الفتيات يغنين وهن ينسجن أو يعزان

صفحة رقم : 5119

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

أو يحلبن الأبقار؛ وكان الرجال يغنون وهم يفلحون الأرض أو يسيرون إلى ميدان القتال؛ والمبشرون يعزفون على القيثارة ليجمعوا حولهم مستمعيهم، وكانت أحب الآلات الموسيقية هي القيثارة، وكانت تتألف عادة من ستين وترأ يعزف عليها بالأنامل، وكانت التمبان timpan كماناً ذات سبعة أوتار تضرب بالريشة أو القوس؛ وكانت آلات موسيقى القرب تعلق في الكتف وتنفخ بالفم؛ ووصف جبر الدس كمبرنسس (1185Giraldus Cambrensis) العازفين الأيرلنديين على القيثارة بأنهم أحسن من سمع من العازفين، وهو إطاء عظيم القيمة لصدوره من ويلز المحبة للموسيقى.

وليس أجمل ما أثمره الفن الأيرلندي في ذلك العصر كأس أرداغ Ardagh الذائعة الصيت (حوالي عام 1000) التي اجتمعت فيها 354 قطعة من الفضة، والذهب، والكهرمان، والبلور، والميناء المقسمة، والزجاج بل إن أجمل منها "كتاب كلز Book of Kells وهو يحتوي الأناجيل الأربعة مخطوطة في القرن التاسع على الرق بأيدي ربان أيرلنديين في بلدة كاز من أعمال ميث Mcath أو في جزيرة أبونا Iona وهو الآن من أعظم ما تمتلكه كلية ترنتي Trinity College بدبلن. وجاء طراز تزيين الكتب البيزنطي والإسلامي إلى أيرلندا عن طريق الاتصال البطيء

بين الرهبان بعضهم ببعض مخترقين الحدود، وبلغ فيها درجة الكمال في فترة قصيرة من الوقت. ولم يكن لصور الإنسان والحيوان في تزيين الكتب بأيرلندا إلا شأن ضئيل، مثله في هذا كمثل الفن عند المسلمين، فقد كانوا يرون أن إنساناً أو حيواناً مهما بلغ لا يساوي نصف الحرف الأول. وكانت الروح السارية في هذا الفن هي أن يؤخذ حرف من الحروف أو شكل زخرفي واحد، ويمد فوق أرضية زرقاء أو ذهبية اللون بشكل فكه مبهج حتى يكاد يغطي الصفحة بتمامها في نسيج متشابك أشبه بالمتاهة. وليس في المخطوطات المسيحية المزخرفة ما يفوق كتاب كلز هذا، ويصفه

صفحة رقم : 5120

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

جرلد من كتاب ويلز - وهو الذي لا ينفك يظهر غيرته من أيرلندا - بأنه من عمل اللانكة المتخفين في أثواب البشر (42).

وإذ كان هذا العصر الذهبي في أيرلندا نتيجة لسلامتها من الغزوات الألمانية التي أرجعت سائر أوروبا مئات السنين إلى الوراء، فقد قضت عليه غزوات الشماليين التي قضت في فرنسا وإنجلترا خلال القرنين التاسع والعاشر على كل ما أحرزه هذا البلدان بفضل ما بذله شارلمان وألفرد من جهود جبارة. ولعله قد ترامى إلى أهل النرويج والدمرقة. وكانوا لا يزالون وثنيين - أن الأديرة الأيرلندية غنية بالذهب، والفضة، والحلي، وأن انقسام البلاد السياسي يجعلها عاجزة عن مقاومة أعدائها متحدة. وحدثت غزوة تجريبية في عام 795 ولكنها لم تسبب للبلاد خسارة تذكر، غير أيدت ما كان يشاع من عدم قدرة هذه الفريسة على صد الغزاة؛ ثم أعقبتها غزوات أخرى أكثر منها في عام 823 نهب فيها الغزاة كورك Cork وكلوين Gloyne، وخرّبوا دير بني بونجور Bangor وموفيل Mowille وذبحوا رجال الدين. ولم تكد تخلو سنة واحدة بعد ذلك العام الأخير من غزوة أو غزوات، استطاعت جيوش صغيرة بأسلة أن تصد فيها الغزاة من بعض الأحيان، ولكنهم كانوا يعيدون الكرة وينهبون الأديرة أينما حلوا. واستقرت جماعات من الغزاة الشماليين قرب شاطئ البحر، وأنشئوا مدائن دبلن، ولمرك Limerick، ووترفورد Waterford وفرضوا الجزية على نصف الجزيرة الشمالي. واتخذ ملكهم ثورجست Thorgest أرماغ Armagh مدينة القديس بتريك عاصمة لملكه الوثني، وتزوج زوجته الوثنية على مذبح كنيسة القديس كيران St, Kieran في كلونماكنيوس (43). وحارب ملوك أيرلندا متفرقين غزاة بلادهم، ولكنهم كانوا في الوقت عينه يحارب بعضهم بعضاً فقد قبض ملاخي Malachi ميث على ثورجست وأماته غرقاً (845)، ولكن أولاف الأبيض Olof the White أحد الأمراء النرويجيين أسس في عام 851

صفحة رقم : 5121

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

مملكة دبلن التي ظلت تابعة لأهل الشمال حتى القرن الثاني عشر. وقضت هذه الغزوات المتتابعة على عصر العلم والشعر، وأحلت محله عصر الحروب الطاحنة، وكان الجمود المسيحيون والوثنيون في خلاله ينهبون الأديرة ويحرقونها، ويتلفون المخطوطات القديمة ويشنتون ما تجمع من التحف الفنية خلال القرون الطوال، "ولم يمارس شاعر، أو فيلسوف، أو موسيقي فنه المعتاد في تلك البلاد" كما يقول مؤرخ أيرلندي قديم(44). وظلت الحال كذلك حتى ظهر آخر الأمر رجل كان له من القوة ما أمكنه أن يجمع شتات هذه الممالك ويؤلف منها أمة واحدة. كان يريان بورمها أو بورو (Brian Borumha or Boru 941-1094) أخاً لماهون ملك منستر King Mahon of Munster، وزعيم عمارة دلجاس Dalgas. وحارب الأخوان جيشاً دنمركياً بالقرب من تبريري (Tipperary 968) ومزقاه شر ممزق، ولم يرحموا فلوله المنهزمة؛ ثم استولوا على لمرك، وقتلوا كل من عثرا عليه فيها من الشماليين. ولكن اثنين من صغار الملوك-ملوي ملك دزمنند Molloy of Desmond ودونافان ملك هاي كاريبري Donanvan of Hy Garbery-خشياً أن يستولي الأخوان الزاحفان على مملكتيهما فعقدوا حلفاً مع المهاجرين الدنمركيين، واختطفوا ماهون وقتلوه (976). وأوقع بريان، وقد أصبح الآن ملكاً، هزيمة ثانية بالدنمركيين، وقتل ملوي. وصمم على توحيد أيرلندة كلها، ولم يتردد في إتباع أية وسيلة توصله إلى هذه الغاية، فتحالف مع الدنمركيين مالكي دبلن، وهزم بمعونتهم ملك ميث، وندى به ملكاً على أيرلندة كلها (1013). ولما استمتع بالسلم بعد حروب دامت أربعين عاماً، أخذ يعيد بناء الكنائس والأديرة، ويصلح الجسور والرق، وينشئ المدارس والكليات، ويقر النظام ويقضي على الجرائم. ولقد وصف الخلف ذو الخيال الواسع ما ساد البلاد من أمن بفضل هذه "السلم الملكية" في قصة كثيراً ما نراها في غير هذه المناسبة،

صفحة رقم : 5122

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> الحضارة الأيرلندية

فقالوا إنه كان في مقدور الفتاة المثقلة بالحلي والجواهر أن تطوف في أنحاء البلاد بمفردها دون أن يتعرض لها أي أحد بأذى. وحشد أهل الشمال بأيرلندة في هذه الأحداث جيشاً آخر، زحفوا به على الملك الطاعن في السن، والنقى بهم الملك الأيرلندي عند كلنتارف Clontarf القريبة من دبلن في يوم الجمعة الحزينة في الثالث والعشرين من إبريل عام 1014 وهزمهم، ولكن ابنه مروغ Murrogh قتل في أثناء المعركة ثم ذبح بريان نفسه في خيمته. وحلّت السلم- وهي الترف الذي لا يستمتع به إلا المحظوظون- في البلاد المنكوبة إلى حين، وانتعشت الفنون والآداب من جديد في القرن الحادي عشر، وظهر في خلاله كتاب لينستر the Book of Leinster وكتاب الترانيم وهما لا يكادان يقلان في جمال زخرفهما عن كتاب كلز نفسه. وكان للمؤرخين والعلماء شأن كبير في مدارس الأديرة، غير أن الروح الأيرلندية الشكسة لم تكن قد روضت بعد، فقد عادت الأمة فانقسمت على ممالك متعادية، وأنهكت قواها في الحروب الداخلية، ورأت حفنة من المغامرين من أهل ويلز وإنجلترا في عام 1172 أن من السهل عليها أن تفتح "جزيرة الدكاترة والقديسين" وإن لم تجد من السهل عليها أن تحكمها.

صفحة رقم : 5123

الفصل الرابع

اسكتلندا

1066-325

هاجرت في أوائل القرن الخامس قبيلة من الاسكتي Scotti الجبليين من شمالي أيرلندا إلى الجزء الجنوبي الغربي من اسكتلندا، وأطلقوا اسمهم على جزء من شبه الجزيرة ذي المناظر الجميلة الخلابة الواقع في شمال نهر التويد Tweed ثم على شبه الجزيرة كلها. وأخذت ثلاثة قبائل أخرى تنازعها على امتلاك "كلدونية Caledonia" القديمة هذه: البكت Picts وهي قبيلة كلتية استقرت فوق خليج فورث The Firth of Forth، والبريطانيون وهم الذين فروا أمام غزاة بريطانيا الأنجليسكون واستقروا بين نهر درونت Derwent وخليج كليد Firth of Clyde، والأنجلز Angles أو الإنجليز الضاريون بين نهر تين Tyne وخليج فورث. ومن هؤلاء كلهم تألفت الأمة الاسكتلندية: وهي أمة إنجليزية في لغتها، مسيحية في دينها، نارية في مزاجها كالأيرلنديين، عملية كالإنجليز، ماكرة، قوية الخيال ككل كلتي". وكان الأسكتلنديون كالأيرلنديين يستنكفون أن يتخول عن نظامهم القائم على صلة القرى، ولا يرغبون في أن يستبدلوا الدولة بالقبيلة. ولم يكن يضارع النزاع بين الطبقات في شدته إلا ولاؤهم للقبيلة، وفخرهم بولائهم لها، وشدة مقاومتهم لأعدائهم الأجانب. وعجزت روما عن فتح بلادهم، بل إن سور هديان الذي أقيم بين سلواي Solway والتين (120 م)، وسور أنطونينس بيوس Antoninus Pius، الذي يبعد ستين ميلاً نحو الشمال بين خليجي فورث وكليد (140)، وحروب سبتمئوس سيفيرس (Septimius Sverus 208) أو ثيودوسيوس (Theodosius 368)، بل إن هذه كلها لم تجد نفعاً في القضاء

صفحة رقم : 5124

على الغزوات المتكررة التي كان يشنها البكت الجياح من حين إلى حين على البريطانيين. وفي عام 617 استولى السكسون بقيادة إدون ملك نورثبريا على معقل البكت الجبلي الحصين وأطلقوا عليه اسم إد (و) نبرج Ed (w) inburgh (إدنبره)، وفي عام 844 ضم كنهث ماك ألبين Kenneth Mac-Alpin البكت والإسكتلنديين تحت

سلطانه؛ وفي 954 استردت القبائل إدينبره، واتخذتها عاصمة لها، وفي 1018 استولى ملكولم الثاني على لوثيان Lothian (الإقليم الواقع شمال نهر التويد)، وضمها إلى مملكة البكت والاسكتلنديين. وبدأ أن الكلت قد ضمنوا لأنفسهم السيادة على البلاد، ولكن غزو الدنمرقيين لإنجلترا دفع آلافاً من "الإنجليز" إلى جنوبي اسكتلندة، وتدفق بذلك عنصر أنجليسكسوني قوي إلى دماء الأسكتلنديين.

وجمع دنكان الأول (1034-1040) هذه الشعوب الأربعة كلها-البكت، والاسكت Scotts، والكلت البريطانيين، والأنجليسكسون-وكون منها مملكة واحدة هي مملكة اسكتلندة. ولما هزم الإنجليز دنكان عند درهام Durham مهدت هذه الهزيمة السبيل لقائده مكبث Macbeth، فطالب لنفسه بعرش البلاد لأن زوجته جروتش Gruoch كانت حفيدة كنيث الثالث. واغتال مكبث دنكان (1040)، وحكم البلاد سبعة عشر عاماً قتله بعدها ملكولم الثالث ابن دنكان. واغتيل من الملوك السبعة عشر الذين حكموا اسكتلندة بين عامي 844 و1075 اثنا عشر لأن ذلك العصر كان مليئاً بأعمال العنف والنزاع المرير طلباً للغذاء والماء، والحرية والسيادة. ولم تجد اسكتلندة في تلك السنين المليئة بالأحداث الجسام متسعاً من الوقت تمارس فيه ترف الحضارة ونعمها؛ فقد اغتصب المغيرون الشماليون جزائر أوركني Orkney وفارو Faroes، وشتلندة Shetland، وهيريد Hebrides؛ وقضت إنجلترا حياتها كلها مهددة بغارات قراصنة الشمال (الفيكنج Vikings) الشداد الذين كانوا يبسطون سلطانهم وينشرون بني جنسهم في أنحاء العالم الغربي.

صفحة رقم : 5125

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

الفصل الخامس

أهل الشمال

The Northmen

800 - 1066

The Kings' Saga

يلوح أن أهل الشمال كانوا من التيوتون الذين انتقل أسلافهم إلى بلاد السويد والنرويج بعد أن اخترقوا الدنمرقة وعبروا مضيق أسكجراك Skaggerak وكتجات Kattegat، وحلوا في البلدين محل الكلت الذين حلوا من قبل محل شعب شيبه بالابلانديين والإسكيمو(45). وأطلق زعيم قديم يدعى دان مكلاطي Dan Mikillati اسمه على الدنمرقة- ومعناها منقح دان أو ولايته؛ وتركت قبيلة أسويونس Suiones، إحدى القبائل القديمة التي وصفها تاسيتس Tacitus بأنها كانت تسيطر على شبه الجزيرة العظيمة، تركت هذه القبيلة اسمها في اسم بلاد السويد Sweden (اسفريج Sverige)، وفي اسم كثير من الملوك الذين يسمون اسوين Sweyn؛ وليس معنى لفظ النرويج (نورج Norge إلا الطريق الشمالي. وأصبح لفظ سكانى Scan) وهو الاسم الذي أطلقه بلني Pliny الأكبر على بلاد السويد اسكانديا Scandia في اللغة اللاتينية، ونشأ منه لفظ إسكنديناوة Scandinavia الذي يشمل الآن ثلاث أمم وثيقة الصلة في دمانها ذات لغات يفهم المتحدثون بها بعضهم بعضاً. وزادت خصوبة النساء أو زاد خيال الرجال في الأقطار الثلاثة على خصوبة التربة، فعمد الشبان أو غير الراضين عن مصيرهم إلى زوارقهم، وأخذوا يحومون حول السواحل يطلبون الطعام، أو العبيد، أو الأزواج، أو الذهب، ولم يكونوا الجوعهم يرعون قانوناً أو حدوداً للأقاليم، فاجتاح أهل

صفحة رقم : 5126

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

النرويج اسكتلندة، وأيرلندة، وأيسلندة وجرينلندة؛ وأهل السويد روسيا؛ والدنمركيون إنجلترا وفرنسا. ولا يسعنا لقصر أجل الحياة البشرية أن نذكر في هذه العجالة آلهة تلك البلاد وملوكها بالتفصيل؛ وحسبنا أن نقول هنا إن جورم (860-935) وهب دنمرقة وحدتها، وإن ابنه هارلد بلوتوث (صاحب السن الزرقاء) Harald (945-985) جعل المسيحية دينها، وإن سوين فورك بيرد ذا اللحية المتشعبة Sweyn Forkbeard (985-1014) فتح إنجلترا ورفع دنمرقة مدى جيل من الزمان إلى منزلة من دول أوروبا الكبرى. وجعل الملك أولاف اسكتوننج (994-1022) المسيحية دين السويد، ومدينتن أيسالا Uppsala عاصمة ملكة، وكانت بلاد النرويج في عام 800 مؤلفة إحدى وثلاثين إمارة، تفصلها بعضها عن بعض الجبال، والأنهار، والخلجان الطويلة الضيقة العميقة (الفيوردات)، ويحكم كلاً منها زعيم من المحاربين، وظلت كذلك حتى عام 850 حين زحف هلفدان الأسود Halfdan the Black أحد هؤلاء الزعماء من عاصمته ترندهم Trondheim وأخضع لحكمه معظم الزعماء الآخرين، وصار أول ملوك النرويج. وخرج على ولده هارلد هارفاجر Harald Haarfager (860-933) الزعماء المتمردون، ورفضت جيذا Gyda التي خطبها لنفسه الزواج به إلا بعد أن يفتح جميع بلاد النرويج، وأقسم ألا يقص شعره أو يمشطه حتى يتم هذا الفتح، وأتمه بالفعل في عشر سنين، وتزوج بعدها بجيدا وبتسع نساء غيرها. ثم قص شعره وسمى باسمه المميز له- "صاحب الشعر الأشقر" (46). وحكم هاكون الصالح Haakon the

(Good 935-961) أحد أبنائه الكثيرين بلاد النرويج حكماً صالحاً دام سبعاً وعشرين سنة، قال فيها أحد قراصنة البلاد إن "السلم طالت حتى أصبحت أخشى أن توافيني منيتي في شيخوختي وأنا على فراشي في عقر داري" (47).

صفحة رقم : 5127

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

وحكم هاكون آخر- الإيرل الأكبر The Great Earl النرويج حكماً حازماً دام ثلاثين عاماً (965-995)، ولكنه أغضب الزراع الأحرار في شيخوخته باتخاذهم محظيات لهم ثم إعادتهن بعد أسبوع أو أسبوعين فاستقدم أولئك الزراع الأحرار أولاف ثرجفسون Olft Tryggvsson ونادوا به ملكاً عليهم. وكان أولاف بن ترجف حفيد أحد أبناء هارلد ذا الشعر الأشقر. وكان "رجلاً شديداً المرح والمجون"- كما يقول سنوري الأيسلندي Snori of Iceland- طروباً، أنيساً، محباً للاجتماع بالناس، جواداً كريماً، متأنقاً في لباسه... بديناً، قوياً، أجمل الناس خلقاً وأعظم براعة في الرياضة البدنية من كل من سمعنا به من أهل الشمال" (48). وكان في مقدوره أن ينتقل على المجاذيف خارج سفينته والرجال يجذفون، ويلعب بثلاثة خناجر حادة الأطراف، ويقذف بحربتين في وقت واحد، و "يستطيع أن يحسن القطع بكلتا يديه بدرجة واحدة" (49). وكان كثير المنازعات والمغامرات، وقد اعتنق المسيحية وهو في الجزائر البريطانية، وأصبح أعظم دعائها قسوة، فلما جلس على عرش النرويج (995) هدم المعابد الوثنية، وشاد الكنائس المسيحية، وظل يعيش مع عدد من الزوجات. وقاوم الزراع الأحرار الدين الجديد أشد مقاومة، وأصروا على أن يقرب أولاف القربان إلى ثور Thor كما تقضي بذلك الشعائر القديمة، وأجابهم أولاف إلى ما طلبوا ولكنه عرض أن يقرب إلى ثور خير قربان يرتضيه وهو الزراع الأحرار أنفسهم، فلم يكن منهم إزاء ذلك إلا أن اعتنقوا الدين المسيحي. ولما استمسك واحد منهم يدعى راند Rand بدينه الوثني، أمر أولاف بشد وثاقه ودفع ثعباناً في حلقه بأن كوى ذيل الثعبان بالنار، فاندفع الثعبان إلى بطن راند وجنبه. وقضى على حياته (50). وخطب أولاف لنفسه سجرید Sigrid ملكة السويد، فوافقت على الخطبة، ولكنها أبت أن تتخلى عن دينها الوثني، فما

صفحة رقم : 5128

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

كان من أولاف إلا أن ضربها بقفازة في وجهها وقال لها: "وما الذي يرغمني على أن أتخذك زوجة وأنت عجوز شمطاء، سليطة كافرة؟". فردت عليه سجرید بقولها: "سيكون فعلك هذا سبباً في موتك يوماً من الأيام". وبعد سنتين من هذه الحادثة شن ملكا السويد والدنمرقة، إريك وإيرل النرويجي Eric Earg of Norway الحرب على أولاف،

وهزمه في معركة حربية حامية الوطيس بالقرب من روجن R(gen)، وألقى أولاف وهو بكامل عدته وسلاحه إلى اليم، ولم يظهر له أي أثر بعد (1000)، وقسمت بلاد النرويج على أثر ذلك بين الحليفين المنتصرين. وأعاد أولاف آخر يدعى القديس بلاد النرويج إلى وحدتها (1016)، كما أعاد النظام، وعدل في قضائه، وأتم تحويل البلاد إلى الدين المسيحي. ويصفه اسنوري Snori بقوله إنه "كان رجلاً صالحاً دمث الأخلاق إلى حد بعيد، لا يتكلم إلا قليلاً، سخياً، ولكنه شره في جمع المال" مدمن بعض الإدمان على الاستمتاع بالسراي (51). ومن أعماله أنه قطع لسان أحد الزراع الأحرار لأنه فضل الوثنية على المسيحية، وسمل عيني زارع آخر (52). وإتتمر الزراع به مع كنوت ملك الدنمرقة وإنجلترا، فسيرا عليه خمسين سفينة وطردا أولاف من النرويج (1028)؛ ولكن أولاف عاد إليها بجيش، وحرار لاسترجاع عرشه عند استكل ساند Stickleland، فهزم ومات متأثراً بجرأحه (1030). وشاد من جاء بعده من النرويجيين كنيسة في موضع المعركة تخليداً لذكره، واتخذوه القديس الشفيح للنرويج. واسترد ابنه ماجنس الصالح (Magnus the Good 1035-1047) مملكته، ووهبها قوانين عادلة وحكماً صالحاً. وحكم حفيده هارلد الصارم (Harald the Stern 1047-1066) حكماً عادلاً خالياً من الرحمة دام وليم النورمندي على إنجلترا. وحدث في عام 860 أن أعاد جماعة من الشماليين قدموا من النرويج

صفحة رقم : 5129

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

أو الدنمرقة كشف جزيرة أيسلندة، ولم يسوءهم كثيراً أن يجدوها شديدة الشبه ببلادهم في ضبابها وفي وادتها. وهاجرت جماعات من النرويجيين إلى الجزيرة في عام 874 فراراً مما كانوا يعانونه من استبداد هارلد هارفاجر، ولم يحل عام 934 حتى بلغ سكانها من الكثرة درجة لم تزد عليها في جميع تاريخها حتى الحرب العالمية الثانية. وكان لكل ولاية من ولاياتها الأربع ثجها thing أو جمعيتها، ثم أنشئ في عام 930 ثجها العام أو برلمانها الموحد وكان من أقدم الهيئات في تاريخ الحكم النيابي، ويفضله كانت أيسلندة في ذلك الوقت هي الجمهورية الوحيدة الكاملة الحرية في العالم كله. ولكن ذلك العنفوان وتلك النزعة الاستقلالية اللذين كانا سبباً في الهجرة إلى الجزيرة، وقيام هذا المجلس النيابي فيها، أضعفا من سلطان الحكومة العامة والقوانين المشتركة، فكان من أثر ذلك أن أصبح الأفراد الأقوياء الذين ثبتت أقدامهم في ضياعهم الواسعة أصحاب الأمر والنهي في أراضيهم، وما لبثوا أن جددوا في أيسلندة المنازعات التي جعلت بلاد النرويج شوكة في جانب ملوكها. وجعل الثلج العام (Alltging) المسيحية الدين الرسمي للبلاد في عام 1000. ولكن الملاك أولاف القديس ساء أشد الاستياء ما سمعه من أن أهل أيسلندة لا يزالون يأكلون لحم الخيل ويندون أطفالهم ولعل طول ليالي الشتاء وشدة بردها كانا السبب في نشأة أدب قوامه أساطير وأقاصيص لعلها تفوق من حيث الكم والكيف مثيلاتها من القصص والأساطير التي تروى في أرض الشماليين. وبعد ستة عشر عاماً من إعادة كشف أيسلندة شاهد أحد ربابنة السفن النرويجيين ويدعى جنجورن أفسون Gunnbjorn Uulfsson سواحل جرينلندة وأنشأ فيها ثورولد Thorwald وولده إرك الأحمر مستعمرة نرويجية عام 985 ثم كشف بجرن هرجلفسن Bjerue Herjulfsson لبرادور Labrador في عام 986، وفي عام 1000 نزل ليف Leif بن إرك الأحمر إلى القارة الأمريكية؛

صفحة رقم : 5130

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> قصص الملوك

ولسنا نعرف أكان الموضوع الذي نزل فيه هو لبرادور، أم نيوفاوندلند Newfoundland، أم رأس كد Cod؛ وقضى ليف إركسن Lief Ericsson الشتاء "في فنلند Vinland" (أرض الخمر) ثم عاد بعدئذ إلى جرينلند؛ وفي عام 1002 قضى أخوه ثورولد هو وثلاثون رجلاً عاماً في فنلندة. وتروي حاشية لا يتأخر تاريخها عن عام 1395 في "قصة أولاف ترجفسون" التي كتبها اسنري استرلوسون (Snorri Sturluson 1179-1241) قصة خمس حملات مختلفة شنها أهل الشمال على قارة أمريكا بين عامي 985 و1011. وقد جاء كرسنفر كولمبس Christopher Columbus، كما يقول هو نفسه، إلى أيسلندة، ودرس ما يتردد على لسان أهلها من أقوال على الدنيا الجديدة (53).

صفحة رقم : 5131

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

2- الحضارة الفيكنجية

(حضارة القراصنة الشماليين)

كان النظام الاجتماعي يقوم بين أهل الشمال، كما يقوم بين سائر الشعوب القديمة، على التأديب العائلي، والتعاون الاقتصادي، والإيمان الديني. وقد جاء فقرة من بيولف أن "لا شيء يقضي على وشائج القرى عند صاحب البصيرة" (54). وكان غير المرغوب فيهم من الأطفال يعرضون للموت، ولكن الطفل إذا ما قبله أبواه تلقى على أيديهم مزيجاً من التأديب والحب. ولم يكن عندهم أسماء أسر، بل كان كل ولد يكتفي بأن يضيف إلى اسم أبيه: أولاف هردسون، ماجنس أولافسون، هاكون ماجنسن. وكان أهل اسكنديناوة

صفحة رقم : 5132

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

قبل دخول المسيحية إلى البلاد بزمان طويل، إذا أرادوا أن يسموا طفلاً صبوا عليه ماء رمزاً لدخوله في حظيرة الأسرة.

وكان التعليم عندهم ذا صبغة عملية: فكانت البنات يتعلمن الفنون في المنزل، وكان منها عصر الجعة؛ أما الأولاد فكانوا يتعلمون السباحة، والمشي على مزلق الجليد، وأشغال الخشب والمعادن، والمصارعة، والتجديف، والآنزلاق، ولعبة الكرة والصولجان hockey (والاسم مشتق من الكلمة الدنمرقية hock ومعناها الخطاف)، والقنص، والرمي بالأقواس والسهام، والضرب بالسيوف، والطعن بالحراب، وكان القفز من ضروب الرياضة المحببة، وكان في وسع بعض النرويجيين أن يقفوا بكامل سلاحهم ودروعهم إلى أعلى من طول قامتهم، وأن يسبحوا في الماء عدة أميال؛ ومنهم من كان يسبق أسرع جواد (55). وكان كثيرون من الأطفال يتعلمون القراءة والكتابة، وبعضهم يتعلمون الطب أو القوانين. وكان الذكور والنساء على السواء مولعين بالغناء، ومن هؤلاء وأولئك من كانوا يعزفون على الآلات الموسيقية وهي عادة القيثارة. ونقرأ في إيدر أدا Elder Adda أن الملك جنار Gunnar كان يستطيع العزف على القيثارة بأصابع قدميه، ويستطيع بها أن يسحر الأفاعي.

وظل أغنياؤهم متعددي الزوجات حتى القرن الثالث عشر، وكان الآباء هم الذين يرتبون شئون الزواج، وكثيراً ما كان ذلك عن طريق الثراء، غير أن أحرار النساء كن يستطعن إلغاء هذا الترتيب (56). فإذا تزوجت الفتاة بغير إرادة والديها عد زواجها خروجاً عن القانون، وأباح القانون لأهلها أن يقتلوا. وكان في وسع الرجل أن يطلق زوجته متى شاء، فإذا لم يستطع أن يبرر الطلاق بأسباب قوية كان في مقدور أهلها أيضاً أن يقتلوه. وكان من حق الزوج والزوجة أن يطلق أحدهما الآخر إذا ما لبس الرجل ثياب النساء أو لبست المرأة ثياب الرجل-كان تلبس المرأة سراويل قصيرة، أو يلبس الرجل قميصاً مفتوحاً عند صدره. وكان

صفحة رقم : 5133

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

من حق الرجل أن يقتل دون أن يلقي عقاباً-أي دون أن يثير خصاماً دموياً-أي رجل يضبطه في علاقة غير شريفة بزوجته (57). وكان النساء يكدحن ولكنهن بقي لديهن من الأثاثة ما يكفي لأن يقتل الرجال بعضهم بعضاً من أجلهن، وكان الرجال ذوو السلطان في الحياة العامة أذلاء كما هي العادة في بيوتهن. ويمكن القول بوجه عام إن مكانة المرأة في اسكنديناوة الوثنية كانت أعلى منها في اسكنديناوة المسيحية (58). فلم تكن فيها أم الخطيئة بل كانت أم الرجال الأقوياء البواسل، وكان لها حق الثلث-وحق النصف بعد عشرين عاماً من زواجها في كل ما يكسبه زوجها من مال؛ وكان يستشيرها في أعمالها المالية، وكانت تختلط في بيتها مع الرجال بكامل حريتها. وكان العمل مما يشرف صاحبه، وكان لجميع الطبقات منه نصيب. وكان صيد السمك من الصناعات الكبرى، وصيد الحيوان من ضرورات الحياة لا من أسباب متعتها. ألا فليتصور القارئ ما استلزمه من كدح وقوة إرادة تقطيع غابات السويد وتذليل تربة منحدرات تلال النرويج المتجمدة وفلحها؛ وليست حقول القمح في منسوتا Minnesota إلا وليدة التربة الأمريكية ذلكها صبر النرويجيين. وكانت الصياح الكبيرة قليلة العدد، حتى لقد فاقت اسكنديناوة غيرها من البلاد في كثرة عدد ملاكها، من الزراعة الأحرار. وكان هناك من النأمين غير المكتوب يقلل من وقع الكوارث على أولئك الزراع: فإذا حرق بيت زارع عاونه جيرانه على بنائه من جديد، وإذا ما نفقت مواشيه بسبب المرض من "فعل الله" منحوه ما يعادل نصف ما خسره. وكان كل شمالي تقريباً ذا حرفة، وكان بارعاً بنوع خاص في التجارة، غير أن الرجل الشمالي كان متأخراً في استخدام الحديد الذي لم يدخل بلادهم إلا في القرن الثامن فلما دخلها صنعوا منه أنواعاً

مختلفة من العدد، والأسلحة، والزخارف، صنعوها قوية جميلة من البرونز، والفضة، والذهب (59)؛ وكثيراً ما كانت الدروع والسيوف المزخرفة

صفحة رقم : 5134

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

الجميلة النقش، والأقراط، والدبابيس، والسروج جميلة يتباهون بها. وكان بناء السفن الشماليون بينون الزوارق والسفن الحربية؛ ولم تكن هذه أكبر من سفن الأقدمين، ولكن يبدو أنها كانت أصلب منها، فكانت مستوية القاع ليزيدها ثباتاً، محددة في جوجؤها لتدمر سفن العدو؛ وكان غاطسها يتراوح بين أربع أقدام وست، وطولها بين ستين قدماً ومائة وثمانين، يدفعها الشراع حيناً والمجاديف في معظم الأحيان ويبلغ عددها في الجانب الواحد من جانبها عشرة مجاديف أو ستة عشر، أو ستين مجدافاً. وهذه السفن الساذجة هي التي حملت الرواد والتجار، والقراصنة، والمحاربين من أهل الشمال في أنهار روسيا منحدره فيها إلى بحر الخرز والبحر الأسود، وعبرت بهم المحيط الأطلنطي إلى أيسلندا وليرادور.

وكان الفيكنج يقسمون أنفسهم طبقات: الجارل Jarl والإيرل، وطبقة البندي Bondi أو الملاك الفلاحين، وطبقة العبيد، وكانوا يلقنون أبناءهم في صراحة (كما يفعل الحراس في جمهورية أفلاطون) أن انتماء كل إنسان على طبقته أمر قرره الآلهة لا يجروء على تبديله إلا غير المؤمنين (60). وكان الملوك يختارون ممن يجري في عروقهم الدم الملكي وولاية الأقاليم من طبقة الجارل. وهذا القبول الصريح للملكية والأرستقراطية، وهما من المستلزمات الطبيعية للحرب والزراعة، كان يسير معه جنباً إلى جنب نظام ديمقراطي عجيب يجعل من ملاك الأراضي مشرعين وقضاة في جمعيات محلية يعقدها أصحاب البيوت، وجمعيات قروية تعقد في الولايات، وجمعية قومية عامة أو برلمان. لقد كانت هذه الحكومة حكومة قوانين لا حكومة رجال فحسب، العنف فيها من الأمور الشاذة النادرة، والأحكام القضائية هي القاعدة العامة. نعم إن قصص تلك البلاد مليئة بحوادث الانتقام وما ينشأ عنه من خصام وإراقة للدماء، ولكن الافتداء حتى في عصر الفيكنج، عصر الدم والحديد، لقد أخذ يحل محل الانتقام الفردي، ولم يكن منهم من قانونه الوحيد هو النصر أو الهزيمة إلا قراصنة البحار. وكان

صفحة رقم : 5135

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

العقاب الصارم يستخدم لحمل أولئك الرجال، الذين غلظت طباعهم لطول كفاحهم مع الظروف، على الخضوع للسلم والنظام. فكان الزاني يعاقب بالإعدام شنقاً أو تطأه الخيل حتى يموت، وكان جزاء الحريق العمدة هو إحراق مرتكبه وهو مصلوب، ومن يقتل أحد أبويه يعلق من قدميه إلى جانب ذئب حي معلق بنفس الطريقة، والثائر على الحكومة

يشد إلى جوادين يسيران في اتجاهين متضادين حتى يمزق جسمه، أو يربط خلف ثور بري يجره حتى يقضي نحبه(61). ولعل في هذا العقاب الوحشي دليلاً على أن القانون لم يحل بعد محل الانتقام الشخصي، وكل ما في الأمر أنه جعله من حق المجمع نفسه. وحتى القرصنة نفسها قد تخلت عن مكانها للقانون، فاستقر اللصوص وأصبحوا تجاراً واستبدلوا الدهاء بالقوة؛ وجدير بالذكر أن كثيراً من مواد قانون أوربا البحري مأخوذة من قانون أهل الشمال منقولة عن حلف المدن الهانسية (Hanseatic League 62). وقد كتبت قوانين النرويج في عهد مجلس الصالح (1035-1047) على رق سمي بسبب لونه "الإوزة الشهباء". ولا يزال هذا الرق باقياً إلى الآن، ويحتوي على أوامر مستنيرة للإشراف على الموازين والمقاييس، ومراقبة، رجال الشرطة للأسواق والشعور، ومعونة الدولة للمرضى والمعوزين(63).

وقد عاون الدين القانون والأسرة على حل أولئك الحيوانات مواطنين صالحين. ولم تكن الآلهة التيوتونية مجرد أساطير لأهل الشمال، بل كانت أرباباً حقيقية تهاب وتحب، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالآدميين بالآلاف المعجزات وحوادث الغرام. ذلك أن النفوس البدائية في دهشتها ورعبها قد خولت جميع قوى الطبيعة ومجسماتها الكبرى إلى أرباب شخصية، يتطلب أفواهم أن يسترضي على الدوام استرضاء لا يقل أحياناً عن التضحية بالآدميين أنفسهم. وكان مجمع الآلهة مزدحماً بهم: كان فيه اثنا عشر إلهاً ذكراً، واثنتا عشرة إلهة أنثى؛ وكثير من مختلف المردة (الجوتون Jotun) وأرباب الأقدار (نورن Norm)،

صفحة رقم : 5136

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

ورسل الآلهة والساقون (الفلكيري Valkyries)، وبينهم عدد من العرافات، وصغار العفاريت، والساحرات. فأما الآلهة فلم يكونوا أكثر من آدميين مبكرين، يولدون مثلهم، ويجوعون، وينامون، ويمرضون، وينفعلون، ويحزنون ويموتون؛ ولا يفوقون الآدميين إلا في أحجامهم، وطول أعمارهم، وعظيم قواهم. ومن هؤلاء أودين Odin (وودن Woden الألماني) أبو الآلهة كلهم، الذي كان يسكن بجوار بحر آزوف (أزاق) Azof في أيم قيصر، وهناك أنشأ أسجارد Asgard أو حديقة الأرباب لأسرته ومستشاريه واشتدت إليه الرغبة في تملك الأرضين ففتح بلاد أوربا الشمالية. على أنه لم يسلم من التحدي ولم يكن قادراً على كل شيء، فقد عنفه لوكي Loki أشد التعنيف(64)، وتجاهله ثور Thor ولم يعبأ به. فأخذ يزرع الأرض في طلب الحكمة، واشترى بأحد عينيه جرة من ينبوع الحكمة. بم اختراع الحروف الهجائية، وعلم خلقة الكتابة، والشعر، والفنون، ووضع القوانين. وقبل أن تنتهي حياته على ظهر الأرض عقد جمعية من السويديين والقوط، وجرح نفسه في تسعة أماكن من جسمه، فمات ورجع أسجارد ليعيش فيها إلهاً.

وكان ثور في أيسلندة أعظم من أودين، فقد كان فيه إله الرعد، والحرب، والعمل، والقانون، وكلت السحب السوداء حاجبيه السوداوين، وكان الرعد صوته، والبرق مطرقة يلقى بها من السماء. وكان للشعراء الشماليين معه كثير من المزاح، كما يمزح اليونان مع هيفستوس Hephaestus وهرقل، ولعلمهم قد أخذوا منذ ذلك الوقت البعيد يتشككون في آلهتهم تشكك هومر في آلهته، وكانوا يتمثلونه في جميع أنواع المآزق والأعمال الشاقة المضنية، ومع هذا فقد بلغ من حب الأيسلنديين له أن واحداً من كل خمسة منهم تقريباً كان يغتصب اسمه ثورلف Throlf، ثورولد Thorwald، ثورشتين Thorstien...

وكان بلدور Baldur بن أودين عظيماً في القصص وأقل مقاماً من أودين وثور

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

فيما يلقاه من العبادة. كان "ذا بهاء في صورته وملامحه... وكان أرق الآلهة، وأكثرهم حكمة، وأفصحهم لساناً(65)؛ وكادت هذه الصفات تغري المبشرين الأولين بأن يقولوا إنه هو المسيح عينه، ويقال إنه رأى حلمًا مزعجاً ينبئه باقتراب منيته، ولما قص هذا الحلم على الآلهة طلبت الإلهة فرجا Frigga إلى جميع أنواع الجماد، والحيوان، والنبات، أن تقسم أغلظ الإيمان ألا يمسه أحدها بسوء، فكان جسده الفخم المجيد بعد هذا القسم يطرد جميع الأجسام المؤذية، وكان الآلهة يسلمون أنفسهم بأن يقذفوه بالحجارة والسهام، والفؤوس والسيوف، فكانت هذه الأسلحة كلها ترتد عنه، ولا تترك في جسده أثراً. غير أن فرجا قد فاتها أن تأخذ عهداً على "شجيرة صغيرة تدعى المقاس" ألا تمسه بسوء لأنها ظنتها أضعف من أن تؤذي إنساناً ما. فما كان من لكي الوقح المحب للوقية بين الآلهة إلا أن قطع منها عسلوجاً، وأقنع إلهاً كفيفاً أن يلقيه على بلدور، ونفذ العسلوج في جسده فقضى عليه، ثم ماتت زوجته نب Nep من فرط حزنها عليه، وحرقت جثتها مع بلدور وجواده المطهم على كومة واحدة(66).

وكان الفلكبري-الذين يختارون القتلى-هم الذين يحق لهم أن يحددوا أجل كل نفس. وكان الذين يموتون مينةً دنينةً يلفون في ممالك هل Hel، إلهة الموتى، أما الذين يموتون في ميدان القتال فيأخذهم الفلكبري إلى فلهلا Valhalla - "بهو الصفوة"، حيث يصبحون أبناء أودين فيعودون مرة أخرى ذوي قوة وجمال، يقضون نهارهم في حروب البسالة وليلهم في شرب الجعة. ثم أتى حين من الدهر (كما تقول الأساطير الشمالية المتأخرة) أعلنت فيه الجوتون-شياطين الاضطراب والدمار الرهيبة-الحرب على الآلهة، وقاتلها قتالاً ملكت فيه هذه وتلك عن آخرها. وفي هذا العصر، عصر غسق الآلهة، تهدم الكون كله: ولم يقتصر هذا الدمار على الشمس، والكواكب، والنجوم،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

بل شمل في النهاية الفلهلا نفسها وجميع من فيها من المحاربين والأرباب، ولم يبق إلا الأمل وحده-الأمل في أن مر الوقت البطيء سوف تنشأ منه أرض جديدة، وسماء جديدة، وعدالة خير من العدالة السابقة، وآلهة أعظم من أودين وثور. ولعل هذه القصة العظيمة ترمز إلى انتصار المسيحية، وإلى الضربات الشديدة التي كالتها المليكأن أولاف Olafs من أجل المسيح، أو لعل شعراء الفيكنج قد أخذوا يشكون في آلهتهم ويوارونهم التراب.

تلك أساطير عجيبة لا تفوقها في جمالها وفتنتها إلا أساطير اليونان. وكانت أقدم صورة وصلت إلينا منها هي صورتها في تلك القصائد العجيبة التي سميت خطأ باسم Edda. وخلاصة قصتها أن راهباً كشف في عام 1643 في مكتبة كبنهاجن الملكية مخطوطاً يحتوي عدداً من القصائد الأيسلندية القديمة، ووقع هذا الراهب في خطأ مزدوج فسامها إذا سيمند الحكيم The Edda of Saemund the Wise (حوالي عام 1033-1056) وهو عالم أيسلندي من رجال الدين. والباحثون الآن يجمعون على أن هذه القصائد قد كتبها في النرويج وأيسلندة، وجرينلندة كتاب غير معروفين في أوقات غير معروفة بين القرنين الثامن والثاني عشر، وأن سيمند ربما يكون قد جمعها ولكنه لم يؤلفها، وأن الإدالم

يكن اسمها. ولكن الزمن يقر الأخطاء كما يقر السرقات، ويوفق بين هذه الخطاء بأن يسمى القصائد الإدا الشعرية أو الإدا الكبرى. وهي في معظمها أغان قصصية عن الأبطال أو الآلهة الاسكنديناويين أو الألمان، وفيها نلتقي لأول مرة بسيجورد الفلنسي Sigurd the Volsung وغيره من الأبطال

صفحة رقم : 5139

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

الذكور والإناث والأوغاد الذين قدر لهم أن يتخذوا صورة أوضح من صورتهم هنا في الفولسنجساجا Volungasaga والنيبلنجنليد Nibelungenlied وأعظم قصائد الإدا قوة هي قصيد الفلسيا Voluspa التي تصف فيها البنية فولفا في صورة فخمة قاتمة خلق العالم، وأخرته المنتظرة ثم بعثه في آخر الأمر. وتختلف عن هذه القصيدة في الأسلوب "أغنية الواحد الأعلى" التي يصوغ فيها أودين، بعد أن يمر بمختلف الظروف ويلتقي بجميع أنواع الناس، ما تمليه عليه حكمته من الأمثال ليست كلها من الأمثال الخليفة بالآلهة: لقد طرقت أماكن كثيرة مبكراً فوق أو ما يجب أو بعد فوات الأوان، قيل أن تعد الجعة أو بعد أن استنفدها الشاربون(67)... خير أنواع السكر هو الذي يستعيد كل إنسان بعده قواه العقلية(68). يجب ألا يثق الإنسان بأقوال فتاة ولا بأقوال امرأة، لا الخطيئة قد غرست في صدورهن(69)؛... هذا ما حدث لي حين حاولت إغواء تلك الغادة الفطنة؛... ولم أكسب من هذه الغادة شيئاً(70)... النهار يمدح في المساء، والسيف بعد أن يجرب، والمرأة بعد أن تحرق جنتها(71)... كثيراً ما يعاقب الإنسان على الألفاظ التي يتحدث بها إلى غيره(72)... واللسان هو سم الرأس(73). تجنب النزاع مع من هو شر منك ولو اقتصر نزاعك معه على ثلاثة ألفاظ، وكثيراً ما يستسلم خير الرجلين إذا ما ضر به شرهما(74)... يجب أن يكون الإنسان حكيماً في اعتدال وألا يسرف في الحكمة... لا تدع إنساناً يعرف مصيره قبل حلوله، لأن عقله يأمن بذلك من المشاغل... إن ذا العقل قلما يبتهج قلبه خير البيوت بيتك ولو كان صغيراً(77)... وخير المناظر منظر مصطلى الإنسان ومنظر الشمس(78).

وأكبر الظن أن قصائد الإدا الكبرى قد ظلت يتناقلها الناس شفويًا حتى

صفحة رقم : 5140

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

القرن الثاني عشر، ثم دونت في ذلك القرن. وكانت الحروف الهجائية في عصر الفيكنج هي حروف أوروبا الشمالية كما كانت هي حروف ألمانيا وإنجلترا الأنجليسكونية. وكانت هذه الرموز؛ ومعناها الحرفي "الأسرار الخفية" الأربع والعشرون تكون أبجدية أساسها بوجه عام هو الحروف اليونانية واللاتينية المطبعية المائلة. وكان في وسع الأدب في ذلك العصر أن يستغني عن الحروف، ذلك أن الشعراء والمغنين كانوا يؤلفون قصائدهم، ويحفظونها عن

ظهر قلب، ويتلونها، ويتناقلها عنهم الناس شفويًا، وكانوا في هذه القصائد يتغنون بالآلهة التيوتونية و "عصر الأبطال" (من القرن الرابع إلى القرن السادس) الذي بسطت فيه الشعوب الألمانية سلطانها على أوروبا. وقد احتفظ استرلسون وغيره من الكتاب بقطع صغيرة من هذه الأغاني، وبكثير من أسماء الشعراء. وأشهر هؤلاء كلهم هو سجات ثوردارسون Sigvat Thordarsson الذي كان شاعراً ومستشاراً صريحاً في بلاط سانت أولاف. وكان شاعر آخر يدعى إجيل اسكلجرمسون (Egil Skallagrímsson 900-983)، أشهر رجال زمانه في أيسلندة-كان محارباً شجاعاً، وشريفاً فردي النزعة، وشاعراً جياش العاطفة، وقد فقد في كبر سنه أصغر أولاده إذ مات غريقاً، وكاد يقضي عليه الحزن لولا أن أفتعته ابنته بأن يستعيض عن ذلك بكتابة قصيدة. فعمل بإشارتها وكتب قصيدتها المعروفة باسم "تكل الابن" Sonartorrek التي يندد فيها بالآلهة ويتحداهم ويتهمهم بموت ولده. وهو يأسف لأنه لا يستطيع أن يعثر على أودين ليقاتله كما قاتل غيره من الأعداء. ثم يهدأ مزاجه حين يفكر أن الآلهة لم تسلط عليه الأحزان وكفى بل وهبته فوق ذلك ملكة الشعر، ثم يرضي بحظه فيعتزم أن يعيش ويعود إلى منزلته العالية في مجالس بلاده(79).

وما من شك في أن آداب ذلك العصر تغالى في وصف ما كان يسود مجتمع الفكينج من عنف، شأنها في ذلك شأن الصحافة والتاريخ اللذين يخدعان القارئ

صفحة رقم : 5141

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفينجية

بالتحدث عما هو شاذ غير عادي ويهملان سير الحياة البشرية السوى. لكننا لا ننكر أن الظروف القاسية التي كانت تعيش فيها اسكنديناوة في الزمن القديم اضطرت الأهلين إلى أن يخوضوا معركة حامية في سبيل العيش لا يبقى فيها إلا أصلبهم عوداً، ومن أجل هذا نشأ عندهم من عادات النزاع القديم والأخذ بالثأر والقرصنة غي المقيدة في البحار المفتوحة، نشأ من هذه العادات قانون أخلاقي على غرار قانون نيتشة يدين بالشجاعة التي لا ترعى مبدأ ولا ضميراً. قال فيكينج لصاحبه: "قل لي أي دين تؤمن به؟" فأجابه بقوله "إني أؤمن بقوتي". وأراد جولد هارلد Golq Harald أن يكون له على عرش النرويج، ورأى أن يناله بالقوة، لكن صديقه هاكون نصحه بقوله: فكر في أمرك واعرف هل تستطيع أن تبدل من قوة الرجولة ما يحقق مطعمك، لأن نيل هذه الغاية يتطلب من صاحبها أن يكون جريئاً، ثابتاً، لا يحجم عن فعل الخير أو الشر إذا كان فيه ما يوصله إلى مطلبه" (81). ومن هؤلاء الناس من كانوا يجدون في القتال لذة تكاد تنسيهم آلام جراحهم، ومنهم من كان يعترتهم وجد ونشوة في القتال تعرف عندهم باسم برسر كس جانجر berserksgangr أي "طريقة برسلك". وكان البرسركيون-أو أصحاب قمصان الدببة-مقاتلين يندفعون إلى قلب المعركة دون أن يكون على أجسامهم قمصان من الزرد، ثم يحاربون ويصرخون كالحيوانات المفترسة، ويعضون بأسنانهم على دروعهم وهم غضاب ثائرون، فإذا انقضت المعركة فقدوا وعيهم وخارت قواهم(82). وكانت الفلها لا محرمة على غير الشجعان، ومن يمتهن في القتال من أجل جماعته تغفر له جميع خطاياهم. وهكذا تعود "رجال الفيوردات" شطف العيش والألعاب العنيفة، ثم ساروا في سفانهم ذات المجاذيف يفتحون لهم ممالك في روسيا، وبميرانيا Pomerania، وفريزيا، ونورمندية وإنجلترا، وأيرلندة، وأيسلندة،

صفحة رقم : 5142

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> أهل الشمال -> الحضارة الفيكنجية

وجرينلندة، وإيطاليا، وصقلية. ولم تكن هذه المغامرات غارات تقوم بها جموع من الجند كجهاد المسلمين أو طوفان المجر، بل كانت بمثابة اندفاع حفنة متهورة من الرجال يرون كل ضعف جرمًا؛ وكل قوة عملاً صالحاً، يشتهون الأرض، والنساء، والثراء، والسلطان، ويشعرون أن من حقوقهم المقدسة أن يكون لهم نصيب من ثمار الأرض. ولقد بدءوا حياتهم قراصنة واختتموها ساسة وحكاماً. فمنهم رولو Rollo الذي وهب نورماندياً نظاماً مبدعاً خلاقاً، ومنهم وليم الفاتح الذي وهب إنجلترا هذا النظام نفسه، وروجر الثاني منشئه في صقلية. ولقد مزجوا دمهم الشمالي الجديد بدماء الشعوب التي أضعفتها الحياة الريفية الرتيبة فبعثوا فيها قوة ونشاطاً، إلا أن قلماً يفنى من لا يستحق الفناء، وإن احترق نفايات الزرع ليخصب تربة الأرض ويجعلها أصلح مما كانت للزرع الجديد.

صفحة رقم : 5143

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

الفصل السادس

ألمانيا

566 - 1106

1- تنظيم السلطة

لقد كانت غارات الشماليين المرحلة الأخيرة في غارات البرابرة التي تدفقت لأن عن مصير الألمان نفسها.

لقد أدى خروج تلك القبائل العظيمة- القوط، والوندال، والبرغنديين، والفرنجة، واللمبارد- إلى نقص سكان ألمانيا إلى حين، فتحرك الوند Wend الصقارية غرباً من ولايات البحر البلطي ليمثلوا ذلك الفراغ، وأصبح نهر الإلب قبل أن يحل القرن السادس الحد الجنسي، كما هو الآن الحد السياسي، بين العالم الصقليبي والعالم الغربي. فقد كان في غرب الإلب والسال Saale من بقي من القبائل الألمانية: السكسون في شمال ألمانيا الوسطى، والفرنجة الشرقيون في حوض الرين الأدنى، والثورنجيون بين هولاء وأولئك، والبافارايون Bavarians (الذين كانوا يسمون المكونيين من قبل) في حوض الدانوب الأوسط، والسوابيون Swabians (الذين كانوا يسمون السوفييين) على ضفاف نهر الرين والدانوب الأعلى وفيما بينهما، وعلى طول جبال جورا Jura الشرقية والألب الشمالية. ولم تكن في أوربا بلاد تسمى ألمانيا، بل كل ما كان فيها من قبائل ألمانية، وقد هبها شارلمان وقتاً ما وحدة منشؤها، الفتحة، ومستلزمات النظام المشترك، ولكن انهيار الإمبراطورية الكارولنجية فكك هذه الروابط، وظل الوعي القبلي والنزعة المحلية

صفحة رقم : 5144

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

يمنعان كل عامل يؤدي إلى المركزية حتى أيام بسمارك، ويضعفان قوة ذلك الشعب الذي يعاني الأمرين من جراء انحصاره بين أعدائه من جهة وبين جبال الألب والبحر من جهة أخرى. وأقامت معاهدة فردون (843) في واقع الأمر لويس أولدفيج Ludwgi حفيد شارلمان أول ملك على ألمانيا، وأضافت معاهدة مرسن (870Mersen) إلى أملاكه بلداً جديدة، وحددت ألمانيا بأنها الأرض المحصورة بين نهري الرين والإلب، تضاف إليها أجزاء من اللورين Lorraine، وأسقفيات ميوز، وورمز، واسبير Speyer. وكان لويس حاكماً وسياسياً من الطراز الأول، غير أنه له ثلاثة أولاد، قسمت مملكته بينهم جميعاً بعد وفاته، وضربت الفوضى أطناها في أنحاء البلاد عشر سنين أغار فيها الشماليون على مدائن الرين، واختير بعدها أرنلف Arnulf، وابن غير شرعي لكارلومان Carloman ابن لويس، ملكاً على "فرنسيا الشرقية" (887Wast Francia) ورد الغزاة على أعقابهم. ولكن لويس "الطفل" (899-911) الذي خلفه على العرش كان أصغر وأضعف من أن يصد المجر الذين اجتاحوا بافاريا (900) وكارنثيا (901)، وسكسونيا (906)، وثورنجيا (908)، وأليمانيا (909Alemannia)؛ وعجزت الحكومة المركزية عن حماية هذه الولايات، فكان على كل واحدة منها أن تدافع عن نفسها. وجهاز أدواق الولايات ما يحتاجونه من الجيوش بأن أقطعوا أتباعهم الأرض نظير قيامهم بالخدمة العسكرية، ونال الأدواق بفضل الجيوش المؤلفة على هذا النحو استقلالهم الفعلي عن التاج، وأنشئوا ألمانيا الإقطاعية. ولما مات لويس رفع الأعيان وكبار رجال الدين كتراد الأول دوق فرنكونيا (911-918) على عرش البلاد، وكانوا قد نجحوا في أن يكون لهم هم حق اختيار الملك. وأنهك كتراد قواه في النزاع مع

صفحة رقم : 5145

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

هنري دوق سكسونيا، ولكنه بلغ من الحصافة أن أوصي باختيار هنري ليخلفه على العرش. وصد هنري الأول، المسمى "بالصائد" لشغفه بصيد الطير، قبائل الوند الصقلية إلى نهر الأودر Oder وحصن ألمانيا لتقوى على صد المجر، وهزمهم في عام 933 ومهد بجهوده السبيل إلى أعمال ابنه المجيدة. وكان أتو الأول الأكبر (936-973) شارلمان ألمانيا. ولم يكن سنه حين جلس على العرش قد تجاوزت الرابعة والعشرين، ولكنه كان في هذه السن الصغيرة مليكاً بحق في مظهره ومخبره، وأحس بما للمراسم والرموز من عظيم الشأن فأقنع أدواق لورين، وفرنكونيا، وسوابيا، وبافاريا، بأن يؤلفوا حاشيته في حفل تتويجه الفخم في آخن على يد هيلدبرت Hildebert كبير الأساقفة، ولكن الأدواق ثاروا فيما بعد على سلطته المطردة النماء، وأغروا هنري أخاه الأصغر بأن يشترك معهم في مؤامرة تعمل لخلعه. وكشف أتو هذه المؤامرة، وقضى عليها، وعفا عن هنري، ثم انتمر هنري بهد مرة أخرى، وعفا عنه للمرة الثانية؛ وأقطع المليك الداهية دوقيات جديدة لأصدقائه وأقاربه، وأخضع الأدواق لسلطانه شيئاً فشيئاً. ولم يرث من جاء بعده من الملوك ما كان له من دهاء وعزيمة ماضية فاحترقت ألمانيا في العصور الوسطى بنار النزاع بين الإقطاع، والملكية. وانحاز الأساقفة الألمان إلى جانب الملك في هذا النزاع، فأصبحوا بذلك مساعديه ومستشاريه في الشؤون الإدارية، بل كان منهم في بعض الأحيان قواد جنده. وكان الملك يعين الأساقفة والرؤساء الأساقفة كما كان يعين غيرهم من موظفي الحكومة، فأصبحت الكنيسة الألمانية بهذه الوسيلة نظاماً قومياً بحتاً لا ترتبط بالبابوية إلا بأوهن الروابط. واتخذ أتو الدين المسيحي قوة لتوحيد البلاد فصهر به القبائل الألمانية وخلق منها دولة قوية.

صفحة رقم : 5146

قصة الحضارة - عصر الإيمان - العصور المظلمة - نهضة الشمال - ألمانيا - تنظيم السلطة

وهاجم أتو الوند استجابة لرغبة أساقفته، وحاول أن يرغمهم بالسيف على اعتناق المسيحية. وأرغم ملك الدنمرقة ودوق بولندة وبوهيميا على أن يعترفوا به سيدهم الإقطاعي. وكان يطمع في أن يتولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولهذا رحب بالدعوة التي وجهتها إليه أديلد الحسنة أرملة لوثير ملك إيطاليا لينقذها مما لحق بها من الإهانة على يدي برنجر الثاني المليك الجديد. وخلط أتو بمهارته بين السياسة والغرام، فغزا إيطاليا وتزوج بأديلد، وسمح لبرنجر أن يحتفظ بمملكته على أن تكون إقطاعاً له من التاج الألماني (951). وأبى الأشراف الإيطاليون أن يعترفوا بألماني إمبراطوراً لأن هذا يستلزم أن يكون هذا الإمبراطور سيدياً لإيطاليا، وبدأ وقتئذ بين الطرفين نزاع دام ثلاثة قرون. وخرج على كتراد وهو غائب عن ألمانيا ابنه لودلف وزوج ابنته كتراد فعاد أتو إلى ألمانيا لكيلا ينشأ عن محاولته أن يكون إمبراطوراً ألا يظل ملكاً. ولما أن غزا المجر ألمانيا مرة أخرى (954) رحب بهم لودلف وكتراد وأمدهم بمن يرشدهم في غزوهم. وقطع أتو دابر الفتنة، وعفا عن لودلف، وأعاد تنظيم جيشه، وأوقع بالمجر عند لخفلد Lechfeld القريبة من أجزبرج Augsburg هزيمة منكرة (955)، أفاءت على ألمانيا فترة طويلة من الأمن والسلام. وصرف أتو بعدئذ جهوده إلى شؤون البلاد الداخلية. فأعاد النظام إلى نصابه، وقضى على الجرائم، وأعاد ألمانيا المتحدة إلى الوجود، وجعلها أعظم دولة رخاء في تلك الأيام. وسنحت له الفرصة مرة أخرى لإنشاء الإمبراطورية حين استعانا البابا يوحنا الثاني عشر على برنجر (959). فغزا أتو إيطاليا على رأس قوة كبيرة، ودخل روما من غير قتال، وتوجه يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً رومانياً على الغرب في عام 962. ثم ندم البابا على فعلته، وأخذ يشكو من أن أتو لم يوف بما وعده به من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

إعادة إكسرخسية برافنا إلى البابوية. واتخذ أتو الخطوة المتطرفة الجريئة فزحف على روما، وعقد مجلساً دينياً من الأساقفة، وأقنعه بوجوب خلع يوحنا وتنصيب رجل من غير رجال الدين بابا مكانه باسم ليو الثامن (963). واقتصرت أملاك البابلي وقتئذ على دوقية روما وإقليم سايبينا، واندمجت بقية إيطاليا الوسطى والشمالية في إمبراطورية رومانية مقدسة أضحت إقطاعية من إقطاعات التاج الألماني. وكان ملوك ألمانيا يتخذون من هذه الحوادث حجة بينون عليها ادعاءهم أن إيطاليا جزء من ميراثهم، أما البابوات فكانوا يتذرعون بها للقول بأن أحداً لا يستطيع أن يكون إمبراطوراً رومانياً في الغرب إلا إذا توجه البابا.

ولما أحس أتو بقرب منيته أراد أن يتقي ما عسى أن يعقب موته من الفوضى فحمل البابا يوحنا الثالث عشر على أن يتوج ابنه أتو الثاني إمبراطوراً معه (967)، وزوج ابنه هذا بثيوفانو ابنة رومانوس Romanus الثاني إمبراطور بيزنطية (972)، وتحقق بذلك إلى وقت قصير ما كان يحلم به شارلمان من توحيد الإمبراطوريتين بطريق الزواج، ثم توفي أتو ولما يتجاوز الستين من عمره، ولكنه قام في هذه السنين القلائل بما لم يقم به ذوو الأعمار الطوال (973)، وحزنت عليه ألمانيا كلها وعدته أعظم ملوكها. وصرف أتو الثاني (973-983) جهوده في ضم إيطاليا الجنوبية إلى دولته ومات في هذه المحاولة منهوك القوى قبل الأوان. وكان أتو الثالث (983-1002) وقتئذ طفلاً في الثالثة من عمره، فحكمت البلاد أمه وجدته أدليد نائبتين عنه مدة ثمان سنين، وأدخلت ثيوفانو في أثناء نفوذها الذي دام ثمانية عشر عاماً بعض مظاهر الرقة البيزنطية إلى البلاط الألماني، وبث روح النهضة التي بدأها أتو في الآداب والفنون.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

ولما بلغ أتو السادسة عشرة من عمره (996) شرع يحكم البلاد بنفسه. وأثر فيه جربرت وغيره من رجال الدين، فعرض أن يتخذ روما عاصمة لملكه، ويجمع البلاد المسيحية كلها تحت سيادة الإمبراطورية الرومانية بعد أن يعيدها إلى الوجود ويشترك في حكمها الإمبراطور والبابا. وفسر أعيان روما ولباردية وسوقتها هذا العمل بأنه مؤامرة ترمي إلى إقامة حكم بيزنطي ألماني في إيطاليا، ولهذا وقفوا في وجه أتو، وأقاموا في البلاد "جمهورية رومانية" وقلم أتو أظفار الفتنة، وأعدم كرسنتيوس Crescentius زعيمها، ثم عين جربرت بابا في عام 999؛ ولكن حياة أتو التي لم تزد على اثنتين وعشرين سنة، وبابوية جربرت التي دامت أربع سنين، كانتا أقصر من أن تمكناه من تنفيذ سياسته بحذافيرها؛ يضاف إلى هذا أن أتو، وهو نصف قديس ولكنه رجل إلى حد ما، قد وقع فيحب استقانيا Stephania أرملة كرسنتيوس، ورضيت أن تكون عشيقته وسجينته، ولما أحس المليك الشاب أن الموت يسري في عروقه أخذ يبكي ويندم، حتى قضى نحبه في فيتربو Viterbo ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره (83).

وبذل هنري الثاني (1002-1024) آخر ملوك ألمانيا السكسون جهداً ليعيد إلى الملك قوته في إيطاليا وألمانيا، حيث قوى الحكم الغلامين الصغيرين سلطان الأذواق وجرأ عليهما الدول المجاورة لهما. وبدأ بنكراد الثاني (1024-1039) حكم الأسرة الفرنكونونية أو السالية من الأباطرة وقد أعاد السلام إلى إيطاليا وضم إلى ألمانيا مملكة برغندية أو أرييس Aales. ودفعته حاجة إلى المال إلى أن يبيع مناصب الأساقفة بأثمان عالية أنه عليها ضميره، فأقسم ألا يعود إلى بيع المناصب الدينية بالمال و "كاد يفلح في أن يبر بقسمه" (84). وبلغت الإمبراطورية في عهد ابنه هنري الثالث (1039-1056) ذروة مجدها وقد عرض في "يوم الغفران" من عام 1043 في كنستانس Constance أن يعفو عن كل من أساء إليه، وحض رعاياه أن يطهروا صدورهم من كل حقد ورغبة في الانتقام. وقد أفلح

صفحة رقم : 5149

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

بفضل مواظبه وقدوته الحسنة- ويفضل سلطانه في أغلب الظن- في أن يقضي على كثير من منازعات الأذواق، وتعاون مع "الهدنة الإلهية" في نشر ظل عهد ذهبي قصير الأجل على أوروبا الوسطى. وقد ناصر العلوم، وأنشأ المدارس، وأتم كنانس اسبير، ومينز، وورمز. ولكنه لم يكن قديماً عمل للسلام الدائم، فقد ظل يحارب المجر حتى اعترفت له بالسيادة الإقطاعية عليها، وخلص ثلاثة من المتنافسين على البابوية، وعين اثنين من البابوات واحداً بعد الآخر، ولم يكن في أوروبا كلها من يماثلها في سلطانه، ولكنه اندفع بسلطانه في آخر الأمر إلى الحد الأقصى فأثار بذلك مقاومة الأساقفة والأذواق جميعاً. غير أنه مات قبل أن تهب العاصفة، وخلف له هنري الرابع بابوية معادية، ومملكة مضطربة.

وكان هنري في الرابعة من عمره حين توج ملكاً في آخن وفي السادسة حين توفي أبوه وحكمت أمه واثنان من الأساقفة بالنيابة عنه حتى عام 1065 حين أعلن أن الغلام وهو في الخامسة عشرة قد بلغ سن الرشد، فوجد نفسه وقد آلت إليه سلطة إمبراطورية كقيلة بلا ريب أن تذهب يعقل أس شاب، وأصبح بطبيعة الحال يؤمن بالسلطة المطلقة، ويسعى لأن يحكم البلاد على هذا الأساس. وسرعان ما وجد نفسه في خصام أو حرب مع هذا أو ذلك من النبلاء الذين كادوا العجزه أن يقطعوا أوصال دولته. ذلك أن السكسون قد أغضبتهم الضرائب المفروضة عليهم، وأبوا أن يردوا أراضي التاج التي يدعيها لنفسه، وظل يحاربهم حرباً منقطعة دامت خمسة عشر عاماً (1072-1088)؛ ولما أن هزمهم في عام 1075 أرغم قوتهم الكبرى ومن فيها من أشم النبلاء أنوفاً وكبار الأساقفة الحربيين أن يمشوا حفاة مجردين من السلاح بين صفين من جنده، ويقدموا مراسم الاستسلام عند قدميه وفي تلك السنة نفسها أصدر البابا جريجوري السابع مرسوماً يعارض به حق غير رجال الدين في تعيين الأساقفة أو رؤساء الأديرة، واستمسك هنري بالسوابق المتبعة منذ مائة عام، ولم يشك مطلقاً في أن تعيين هؤلاء وأولئك من

صفحة رقم : 5150

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> تنظيم السلطة

حقه، وظل عشر سنين يحارب جريجوري حرباً دبلوماسية وعسكرية، لم تنته إلا بموته، وكانت من أشد الحروب هو لا في تاريخ العصور الوسطى. وانتهز نبلاء ألمانيا المتمردون المشاكسون هذا النزاع ليزيدوا سلطتهم الإقطاعية، وعاد السكسون الذين استنزلهم الملوك إلى ثورتهم. وانضم أبناء هنري إلى معارضيه وظل النزاع قائماً حتى نادى مجلس مينز بهنري الخامس ملكاً في عام 1098، وأسر الابن أباه وأرغمه على النزول عن العرش (1105) ثم فر الأب وخذ يحشد جيشاً جديداً، ولكنه مات في ليببيج في السنة السابعة والخمسين من عمره (1106)، ولم يجد البابا باسكال Paschal الثاني من حقه أن يمنح رجلاً محروماً مات دون أن يتوب دفنة مسيحية، ولكن أهل ليببيج تحدوا البابا والملك وشيعوا جنازة هنري الرابع في موكب ملكي فخم وواروه التراب في كنيستهم الكبرى.

صفحة رقم : 5151

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> الحضارة الألمانية

2- الحضارة الألمانية

566 - 1066

واستطاعت جهود الرجال والنساء الذين يفلحون الأرض وينشئون الأطفال أن تفتح ألمانيا وتهيئتها للحضارة. لقد كانت الغابات فيها ضخمة كثيفة إلى أقصى حد، تأوي إليها الوحوش الكاسرة، وتعوق الاتصال والوحدة، وقام أبطال مجهولون بتقطيع أشجار الغابات، ولعلمهم أسرفوا في هذا التقطيع، ودام الكفاح في سكسونيا بين الأهلين وبين الأشجار التي تنمو بطبيعتها كلما قطعت، والمناطق التي تنتشر الأوبئة - دام هذا الكفاح ألف عام ولم يكتب النصر فيه للإنسان إلا في القرن الثالث عشر. وتوالت الأجيال جيلاً بعد جيل والزراع والمجدون البواسل يطاردون الوحوش، وينقصون من أطراف البرابري القاحلة، ويدللون الأرض بالفأس والمحراث، ويغرسون أشجار الفاكهة، ويربون قطعان الماشية، ويعنون بالكرام، ويخففون من آلام وحدتهم بالحب والصلاة، والأزهار والموسيقى والجمعة. وكان المعدنون يستخرجون من الأرض والملح، والحديد،

صفحة رقم : 5152

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> الحضارة الألمانية

والنحاس، والرصاص، والحرف اليدوية القائمة في الضياع، والأديرة، والمنازل، تقرن الحذق الروماني إلى الألماني؛ والتجارة تنمو ويتردد نشاطها في الأنهار وتنساب إلى البحرين الأسود والبلطي. وكسب السكان المعركة العظيمة آخر الأمر؛ نعم إن الهمجية ظلت كامنة في شرايح البلاد وفي دماء الأهلين. ولكن الثغرة التي كانت قائمة بين فوضى القرن الخامس القبيلة ونهضة القرن العاشر التي بعثها أتو اجتيزت آخر الأمر، وصارت ألمانيا فيما بين 955 و1075 أكثر بلاد أوروبا رخاء، لا يضارها في هذه الناحية إلا شمالي إيطاليا التي أخذت القانون والنظام عن الملوك الألمان. وواصلت المدن الرومانية القديمة أمثال تريبير، ومينز، وكولوني تقدمها، ونشأت مدن جديدة حول مراكز الأساقفة في اسبير، ومجدبرج، وورمز، وبدأنا حوالي عام 1050 نسمع عن مدينة نورمبرج. وكانت الكنيسة مربية ألمانيا والقائمة على إدارة شئونها في ذلك العصر؛ فقد افتتحت مدارس- أو بالأحرى كليات في أديرة فلدا، وتجرنسي Tegernse، وريخنو Reichenau، وجندرسهايم Gandersheim وهلسهايم Hildesheim، ولورسخ Lorsch. ولما عين ربانوس موريوس (Rabanus Maurus 776-856) رئيساً لدير فلدا العظيم في بروسيا بعد أن أتم دراسته تحت رعاية ألكوين في تور، ورفع مكانة مدرسة هذا الدير وأذاع شهرتها في جميع أنحاء أوروبا حتى أضحت أما رؤوماً للعلماء ولأثنين وعشرين معهداً تنتسب إليها. وقد وسع مناهجها حتى شمل كثيراً من العلوم الطبيعية، وندد بالخرافات التي كانت تعزو الحوادث الطبيعية للقوى السحرية الخفية (85). ونمت دار الكتب في فلدا حتى أضحت من كبريات المكتبات العامة في أوروبا؛ وهي التي أخرجت لنا سوتونيوس Suetonius وناستوس، وأمينانوس مارسلنوس Ammianus Marcellinus. وثمة رواية غير موثوق بصحتها تعزو وإلى ربانوس أنشودة "جئت يا خالق الأرواح Veni Creator Spiritus" التي تتشد وقت

صفحة رقم : 5153

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> الحضارة الألمانية

تدشين البوابات والأساقفة والملوك (86)، وافتتح سانت برونو St. Bruno، الذي كان دوق لورين وكبير أساقفة كولوني ثم أصبح مستشاراً إمبراطورياً لأتو الأكبر، مدرسة في القصر الملكي ليدير فيها طبقة من الموظفين الإداريين، واستقدم العلماء وجاء بالكتب من بيزنطية وإيطاليا وكان هو نفسه يعلم فيها اللغة اليونانية والفلسفة. ولم تكن اللغة الألمانية قد نشأت لها آداب في ذلك الوقت؛ وكان القائمون بالكتابة كلهم تقريباً من رجال الدين، وكانت لغة الكتابة هي الألمانية. وكان أعظم شعراء العصر الألمان وهو ولفريد استرابو (Walafriid Strabo 809-849) وهو راهب سوابي في ريخنو. وكان وقتاً ما مريباً لشارل الأصلع في قصر لويس النقي في آخن. وقد وجد له في يوديث الحسنة الطموحة زوجة لويس نصيرة مستنيرة. ولما عاد إلى ريخنو ليتولى رئاسة ديرها صرف جهوده كلها في الدين، والشعر، وفلاحة البساتين، وقد وصف لنا في قصيدة له ممتعة في العناية بالحدائق De cultura hortorum كل عشب وزهرة من الأعشاب والأزهار التي كان يرببها ويشغف بها. وكان أعظم من ينافس في الأدب الألماني في تلك القرون راهبة تدعى هرسويدا Hroswitha، وهي واحدة من كثيرات من النساء اللاتي امتزجن في ذلك العصر بثقافتهن. ورقتهن. وقد ولدت حوالي عام 935، ثم دخلت دير البندكتيين في جندرسهايم Gandersheim. وما من شك في أن مستوى التعليم في ذلك الدير كان أرقى مما نتوقع، ذلك أن هرسويدا قد درست شعراء روما الوثنية، وعرفت كيف تكتب باللغة اللاتينية بأسلوب سلس واضح، وكتبت

بالشعر اللاتيني السداسي الأوتاد تراجم لبعض القديسين كما أنشأت ملحمة أصغر من هذه التراجم عن أتو الأكبر، ولكن كتبها التي خلدت ذكرها هي ستة مسرحيات نثرية من نوع المسلاة حدث فيها حدو ترنس Terence

صفحة رقم : 5154

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> الحضارة الألمانية

وتقول هي إن الغرض الذي كانت ترمي إليه من كتابتها هو "أن تجعل الهبة الصغيرة التي حباها بها الله، تخرج بدافع الإخلاص صوتاً ضئيلاً تحمد به الله" (87). وتقول إنه يحزنها ما في المسالي اللاتينية من بذاءة وثنية، وإنها تحب أن تعرض على القراء بدلاً منها مسالي مسيحية؛ ولكن مسرحياتها نفسها تدور حول حب دنس لا يكاد يخفي ما ينطوي عليه من شهوة جنسانية. وخير مسرحياتها القصيرة وهي مسرحية أبراهام، وفيها يغادر ناسك مسيحي صومعته ليعني بابنة أخ له يتيمة. ثم تفر الفتاة مع شخص أغواها لا يلبث أن يهجرها، فتصبح من العاهرات. ويقتفي أبراهام أثرها، ويدخل عليها حجرتها متخفياً، وتقبله، فتعرفه، وترتد عنه في خجل، ويدور بينهما حوار شعري رقيق يقنعها به أن تفلح عن حياة الرذيلة وتعود معه إلى بيتها. ولسنا نعرف هل مثلت هذه المسرحيات القصيرة أو لم تمثل، ذلك أن المسرحيات الحديثة لم تكن صدى لمسرحيات ترنس وأمثالها، بل نشأت من حفلات الكنيسة "وطقوسها الخفية" بعد أن امتزجت بها "مساخر" الممثلين الجائلين الصامته. ولم تكن الكنيسة موطناً للشعر، والتمثيل، وكتابة التاريخ فحسب، بل إنها فوق ذلك أمدت الفن بالموضوعات والمال. فقد تأثر الرهبان الألمان بالمثل البيزنطية والكارولنجية، وشجعتهم مناصرة الأميرات الألمانيات فأخرجوا في ذلك العصر عشرات العشرات من المخطوطات المزخرفة ذات الجمال الممتاز ويكاد برنولد Bernewald الذي كان أسقف هلدسهام من 993 إلى 1022 أن يكون في حد ذاته خلاصة لثقافة ذلك العصر: فقد كان مصوراً، وخطاطاً، وصانعاً للمعادن والفسيفساء، وحاكماً إدارياً، وقديساً. وقد جعل المدينة التي يعيش فيها مركزاً للفنون بمن جمع فيها من الفنانين على اختلاف أنواعهم ومواهبهم. وبفضل معونتهم، ويد الصناع أخرج صليباً محلاة بالجواهر، ومائلات من الذهب والفضة منقوشة عليها صورة لحيوان والنبات، وكأساً من كؤوس القربان

صفحة رقم : 5155

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> نهضة الشمال -> ألمانيا -> الحضارة الألمانية

مطعمة بجواهر قديمة تمثل واحدة منها ربات الجمال الثلاث عاريات كعادتهن (88). وكانت الأبواب الذائعة الصيت التي صنعها فنانونه لكنيستته أولى الأبواب المعدنية في العصور الوسطى التي صبت صباً بدل أن تصنع من ألواح مستوية ملصقة على الخشب. أما فن العمارة المحلية فلم يكن قد بدت فيه شواهد على تلك الأشكال الجميلة التي ازدانت بها المدن الألمانية في عصر النهضة؛ غير أن مباني الكنائس قد أخذت في ذلك الوقت تنتقل بالتدريج من الخشب إلى

الحجارة، واستوردت من لمبارديا الآراء الرومانسية الخاصة بالأجنحة، وأمكنة المرتلين، والصحن، والأبراج، وبدأت وقتئذ كنائس هيلدسهايم، ولورسخ، وومز، ومينز، وتريبير، واسبير، وكولوني. وكان النقاد الأجانب يشكون مما يتصف به هذا الفن الريني-الرومانسي من سقوف خشبية مستوية، وإفراط في الزخارف الخارجية، ولكن هذه الكنائس تعبر أصدق تعبير عما في الخلق الألماني من قوة وصلابة وعن روح ذلك العصر الذي يكافح أشد الكفاح ليرقى إلى مدارج الحضارة.

صفحة رقم : 5156

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> القديس بندكت

الباب الحادي والعشرون

صراع المسيحية

(1085-529)

الفصل الأول

القديس بندكت

حوالي 480-543

شهد عام 529 إغلاق مدارس أثينة الفلسفية كما شهد افتتاح مونتي كسينو Monte Cassino أشهر الأديرة في المسيحية اللاتينية. وقد ولد منشؤه بندكت النرسباني Benedict of Nursia في بلدة اسبليتو Spoleto ويبدو أن أبويه كانا من طبقة الأشراف الرومانية الأخذة في الانقراض. ولما أرسل إلى روما ليتعلم، هاله ما رآه فيها من الفساد الجنسي، أو أنه كما يقول البعض أحب ولم يفلح في حبه، ولما بلغ الخامسة عشر من عمره فر إلى مكان سحيق على بعد خمسة أميال من سبياكو Subiaco في التلال السبينية، واتخذ له صومعة في كهف أسفل هاوية وعاش فيها بضع سنين في عزلة الرهبان. وتحدثنا محاورات البابا جريجوري الأول كيف كافح بندكت كفاح الأبطال لينسي المرأة: "التي بعثت الشيطان ذكراها إلى قلبه، وألهب بها الذكرى نار الشهوة نفس عبد الله... حتى كادت تغلبه لذة الحب، وفكر في أن يهجر البرية ثم لطف الله به فعاد عقله فجأة إلى صوابه، وأبصر كثيراً في شجيرات العوسج والحسك تنمو بالقرب منه، فخلع ثيابه وألقى بنفسه في وسطها وأخذ يتمرغ فيها

صفحة رقم : 5157

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> القديس بندكت

مدة طويلة، فلما وقف على قدميه كان جلده قد تمزق وأصبح في حال يرثى لها، وهكذا داوى جراح نفسه بجراح قلبه!"

وبعد أن عاش في هذه البرية المتوحشة بضع سنين واشتهر بين الناس بزوهه وثباته على تقواه، ألح عليه رهبان أحد الأديرة القريبة منه أن يكون رئيساً لديرهم، ولما أنذرهم بأن حكمه سيكون صارماً، لم يزدهم ذلك إلا إصراراً على رأيهم، فلم يرد بدأ من إجابتهم على طلبهم والانتقال معهم إلى ديرهم. ولما قضى معهم أشهراً قليلة أخذهم فيها بأشد النظم دسوا له السم في النبيذ، فعاد إلى الحياة العزلة، ولكن بعض الشبان الأتقياء المخلصين جاءوا ليعيشوا بجواره، ويطلبوا هدايته، وجاء بعض الأباء بأبنائهم، ومنهم من كانوا من أهل روما نفسها، ليتلقوا عليه العلم، فلم يحل عام 520 حتى قام حوله اثنا عشر ديراً صغيراً بكل منها اثنا عشر راهباً. ولما رأى كثيرون من هؤلاء الرهبان القلائل أن حكمه صارم لا يطيقونه، انتقل مع أشد أتباعه إلى حماسة مونتي كسينو وهو تل يرتفع 1715 قدماً عن سطح البحر، ويطل على بلدة كسينوم Cassinum القديمة التي تبعد عن كيوا أربعين ميلاً جهة الشمال الغربي. وهناك هدم معبداً وثنياً، وأنشأ في مكانه (حوالي 529) ديراً ووضع أساس الحكم البندكتي الذي اهدت به فيما بعد معظم الأديرة في بلاد الغرب.

وكان رهبان إيطاليا وفرنسا قد أخطئوا حين حذوا حذو نساك الشرق وعزلتهم، لأن مناخ أوروبا الغربية ومناخ أهلها يجعلان هذا النوع من الحياة شاقاً عليهم مثبّطاً لعزيمتهم، فأدى ذلك إلى نكوص كثيرين منهم على أعقابهم؛ فلما جاء بندكت لم يحرم التنسك ولم ينتقد النساك، ولكنه رأى من الحكمة أن يجعل التنسك جماعياً لا فردياً، خالياً من التنافس والتظاهر، يخضع في كل خطوة من خطواته إلى رئيس أحد الأديرة، ويقف عند الحد الذي إذا تعدها أضر بصحة الجسم أو بالعقل.

صفحة رقم : 5158

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> القديس بندكت

ولم يكن يطلب، حتى ذلك الوقت، إلى من يدخلون الأديرة ليعيشوا فيها أن يقسموا أي قسم. فأحس بندكت أن الواجب يقضي على الطالب أن يقوم على خدمة راهب حديث العهد، ليتعلم منه بالتجربة ما يطلب إليه من حياة التقشف، فإذا ما أتم هذه التجربة لا قبلها أقسم الإيمان. وعليه بعد ذلك إذا شاء أن يتعهد كتابة بالبقاء في الدير على الدوام، وإصلاح أخلاقه، وطاعة رؤسائه؛ ثم يضع الراهب الجديد هذا القسم الكتابي بنفسه على المذبح، بعد أن يوقعه ويشهد عليه في احتفال رهيب. ولم يكن من حق الراهب بعد هذا الحفل أن يغادر الدير إلا بإذن رئيسه. وكان الرهبان هم الذين يختارون رئيس ديرهم، وكان عليه أن يستشيرهم في جميع الشؤون الخطيرة، ولكنه هو وحده الذي يتخذ القرار الأخير، وكان عليهم أن يطيعوه طاعة عمياء وهم صامتون. ولم يكن لهم أن يتكلموا إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة، وألا يمزحوا أو يضحكوا بصوت عال، وأن يمشوا وهم مطرقون بأبصارهم إلى الأرض. ولم يكن من حقهم أن يمتلكوا شيئاً "سواء كان كتاباً، أو لوحاً، أو قلماً، أو شيئاً على الإطلاق... بل يجب أن تكون كل الأشياء ملكاً مشاعاً" (3). وكان عليهم أن يغلفوا أو ينسوا كل ما شاهدوه من قبل من أحوال الملكية أو الاسترقاق. وكان من واجب رئيس الدير:

ألا يميز بين الأفراد في الدير... فلا يفضل الحر المولد عن من جاء من بين الأرقاء، إلا إذا كان لهذه التفرقة سبب معقول، إذ لا فضل لأحدنا على الآخر عند الله سواء كنا عبيداً أو أحراراً... لأن الله لا يعظم الأشخاص (4). ويجب على من في الدير أن يتصدقوا على كل من يطلب الصدقة، وأن يستضيفوا كل من يطلب الضيافة بقدر ما تتسع له موارد الدير، وأن "يستقبلوا كل من يأتون من الضيوف كأنهم هم المسيح نفسه" (5). ومن واجب كل راهب أن يعمل في الحقول أو الحوانيت، وفي المطبخ،

صفحة رقم : 5159

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> القديس بندكت

وحول البيت، وينسخ المخطوطات... ولم يكن الرهبان يأكلون شيئاً حتى منتصف النهار، وفي أيام الصوم الكبير لا يأكلون إلا حين تغرب الشمس، وكانوا في الفترة الواقعة بين منتصف سبتمبر وعيد الفصح يقتصرون على وجبة واحدة في اليوم، وفي أشهر الصيف تباح لهم وجبتان لأن النهار وقتن طويلاً. وكان النبيذ مباحاً أما لحم كل حيوان ذي أربع فكان محرماً عليهم. وكانت أوقات العمل أنوم تقطعها دعوة إلى الصلاة الجماعية. وتأثر بندكت بالمثل الشرقية فقسم اليوم إلى "ساعات كنسية" - أي ساعات للصلوات كما قررها قانون الكنيسة أو قررتها قواعدها. فكان على الرهبان أن يستيقظوا في الساعة الثانية صباحاً، ويذهبوا إلى المعبد القائم في الدير، ويرتلوا، أو ينشدوا "تسبيحة الليل" وهي قراءة من الكتاب المقدس، وأدعية، ومزامير، فإذا طلع الفجر اجتمعوا "لصلاة السحر" أو "تسبيحة الصباح". وفي الساعة السادسة يجتمعون للصلاة القائمة - صلاة الساعة الأولى، وفي التاسعة يجتمعون للصلاة الثالثة، وفي منتصف النهار يصلون الصلاة "السادسة"، وفي الساعة الثالثة يجتمعون للصلاة التاسعة؛ وفي الغروب يصلون صلاة المساء؛ وقبل الذهاب إلى الفراش يصلون صلاة النوم وهي الصلاة الختامية، وكان وقت النوم هو بداية الليل، وكان الرهبان يستغنون عن الضوء الاصطناعي وينامون بملابسهم العادية وقلماً كانوا يستحمون (6). وأضاف بندكت إلى هذه الأنظمة الصريحة بعض الإرشادات العامة التي يتبعها الرجل الكامل المسيحية.

1- يجب أولاً أن يحب الإنسان الله بكامل قلبه، وكامل روحه، وكامل قوته . 2- وعليه أن يحب جاره كما يحب نفسه (3) وعليه ألا يقتل.... وألا يزني... أو يسرق... أو يطمع... أو يشهد زوراً... (8) وعليه أن يعظم الناس جميعاً.... (11) وأن يهر جسمه.... (13) وأن

صفحة رقم : 5160

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> القديس بندكت

يحب الصوم... (14) وأن يعين الفقراء... (15) وأن يكسو العرايا... (16) وأن يزور المرضى... (30) وألا يتسبب في الأذى وأن يصبر عليه... (31) وأن يحب أعدائه... (33) وألا يكون مولعاً بكثرة الكلام... (61) وألا يرغب في أن يسمى قديساً... ولكن عليه أن يكون من القديسين... (71) وإذا اختلف مع أحد فعليه أن يصافيه قبل أن تغرب الشمس... (72) وألا يقنط من رحمة الله(7)...

وكان دير البندكتيين ملجأً يواسي المنكوبين في عصور الحرب والفوضى، والشك والتجوال، يلجأ إليه الفلاحون المعدومون أو المنكوبون، والطلاب الذين يتوقعون إلى مأوى هادئ، والرجال المتعبون من نزاع العالم وضجيجه، ويقول لهم: "تخلوا عن كبريائكم وحرينكم، تجدوا هنا الأمن والسلام". فلا عجب والحالة هذه إذا نشأت مائة دير مثله للبندكتيين في جميع أنحاء أوروبا، كل منها مستقل عن غيره من الأديرة، لا يخضع إلا للبابا وحده، وهي بمثابة جزائر شيوعية في بحر الفردية عجاج. وكانت القواعد والنظم البندكتية من أثبت وأبقى ما ابتدعته العقول في العصور الوسطى، وكان دير كسينو نفسه رمزاً لهذا البقاء، فقد نهبه اللمارد الهمج في عام 589؛ فلما انسحب اللمارد عاد إليه الراهبان، ثم دمره المسلمون في عام 884؛ فأعاد الراهبان بناءه؛ ونهبه الجنود الفرنسيون في عام 1799، وهدمته قنابل الحرب العالمية الثانية وقذائفها، حتى سوته بالأرض في عام 1944. وهاهو ذا اليوم (1948) يعيد بناءه مرة أخرى راهبان القديس بندكت بأيديهم، فهو كالشجرة الطيبة إذا قطعت نمت وازدهرت من جديد.

صفحة رقم : 5161

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

الفصل الثاني

بينما كان بندكت ورهبانه يعملون ويصلون أمنين مسالمين في مونتي كسينو، كانت الحرب القوطية (536-553) تجتاح إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها وتترك الفوضى والفاقة أينما حلت. واضطربت الحال الاقتصادية في المدن وحلت بها الفوضى وتدهورت النظم السياسية، ولم يبق في روما نفسها سلطة مدنية عدا سلطة مبعوثي الإمبراطورية، يؤيدهم تأييداً ضعيفاً جنود بعيدون عنهم لا يتقاضون مرتباتهم. ولما انهارت السلطات الدنيوية على هذا النحو بدا لكل ذي عينين وللأباطرة أنفسهم أن لا حياة للدولة إلا ببقاء النظام الكنسي، ولهذا أصدر جستنيان في عام 554 مرسوماً يطلب فيه أن "يختار الأساقفة والرجال المشهورون في كل ولاية الأشخاص اللائقين الصالحين لتصريف شؤون الحكومة المحلية" (8) ولكن جثة جستنيان لم تكذب تبرد في مئوها الأخير حتى أخضعت غزوات اللمبارد (568) شمالي إيطاليا مرة أخرى إلى الهمجية وإلى المذهب الأريوسي وهددت صرح الكنيسة كله وزعامتها في إيطاليا بأشد الأخطار. وخلقت هذه الأزمة رجلاً، وكان التاريخ مرة أخرى شاهداً بما للعبقرية من أثر عظيم.

ولد جريجوري في روما قبل موت بندكت بثلاث سنين، وهو ينتمي إلى أسرة عريقة من أعضاء مجلس الشيوخ. وقد قضى صباه في قصر جميل على سفح تل كنيلى Caelian. ولما توفي أبوه ورث عنه ثروة طائلة، وارتنقى بسرعة في سلم المناصب السياسية فكان في الثلاثة والثلاثين من عمره عمدة لروما، ولكنه لم يجد

صفحة رقم : 5162

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

في نفسه ميلاً للشئون السياسية؛ ولهذا فإنه حين أتم السنة التي يحق له فيها أن يتولى منصبه، وأيقن، كما يبدو من أحوال إيطاليا، ومما كان يردده الناس على الدوام، أن آخره العالم قد اقتربت (9)، أنفق معظم ثروته في إنشاء سبعة أديرة، ووزع ما بقي منها صدقات للفقراء، وتخلّى عن جميع مظاهر طبقته، وحول قصره إلى دير للقديس أندرو St. Andrew وصار أول راهب فيه، وأخذ نفسه بأشد أنواع الزهد صرامة، ولم يطعم في معظم أيامه إلا الخضر والفاكهة، وأكثر من الصيام إلى حد أنه لما أقبل يوم سبت النور الذي يحتم فيه الصيام خيل إلى من يراه أن صوم يوم واحد بعده سيقضي عليه لا محالة. غير أنه كان يذكر بالخير الثلاث سنين التي قضاها في الدير ويقول إنها أسعد سني حياته.

ثم انتزع من هذا الهدوء ليكون "شماساً سابغاً" في خدمة البابا بندكت الأول، ثم أرسله البابا بلاجيوس Pelagius الثاني سفيراً له في البلاط الإمبراطوري بالقسطنطينية. وظل بين الأعيب السياسة وأبهة القصور يعيش معيشة الراهب في عاداته، وطعامه وصلواته (10)، وإن كان مع ذلك قد خبر العالم وما فيه من مكر وخداع خيرة أفاد منها كثيراً. واستدعى مرة أخرى إلى روما عام 586 وعين رئيساً لدير القديس أندرو، ثم فشا في عام 590 طاعون دملي مروغ قضى على عدد كبير من أهل روما وكان بلاجيوس من ضحاياه، وبادر رجال الدين والشعب إلى اختيار جريجوري ليخلفه؛ وكان يعز على جريجوري أن يترك دير فكتب إلى إمبراطور الروم يرجوه ألا يوافق على

اختياره للمنصب الجديد، ولكن عمدة المدينة احتجز الرسالة، وبينما كان جريجوري يعد العدة للهرب، ألقى القبض عليه، وحمل بالقوة إلى كنيسة القديس بطرس حيث أقام جريجوري آخر، أو هكذا يقولون، بابا(11). وكان وقتئذ في الخمسين من عمره وقد دب الصلع في رأسه في هذه السن المبكرة وكان كبير الرأس أسمر اللون، أقني الأنف، خفيف شعر اللحية، أصداه، قوي

صفحة رقم : 5163

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

الإحساس، حلو الحديث، ماضي العزيمة، رقيق العاطفة؛ وكان تقشفه الشديد وتبعاته الكثيرة قد أثقلت صحته، فكان يشكو عسر هضم، وحمى بطيئة خفيفة، وداء النقرس. وعاش في القصر البابوي كما كان يعيش في الدير-يلبس ثوب الرهبان الخشن، ويأكل أرخص الأطعمة وأشدها خشونة، ويشارك مساعديه من الرهبان والقسيسين في حياتهم العامة. ولم يمنعه انهماكه في معظم أوقاته في مشاكل الدين والدولة من أن يوجه كلمة أو يقوم بعمل يشعران بالعطف والحنان. من ذلك أنه أبصر في يوم من الأيام شاعراً جوالاً على باب قصره ومعه أرغن وقرد، فأمر جريجوري الرجل بالدخول، وقدم له الطعام والشراب(13). ولم يكن ينفق إيرادات الكنيسة في تشييد صروح جديدة بل أنفقها في الصدقات، وفي الهبات للمعاهد الدينية في جميع أنحاء العالم المسيحي، وفي اقتداء أسرى الحروب. وكان يوزع على كل أسرة فقيرة في روما كل شهر قدرًا من الحبوب، والخبز، والجبن، والزيت والسمن، واللحم، والثياب، والمال. وكان عماله يحملون الطعام المطبوخ في كل يوم إلى العجزة والمرضى؛ وكانت رسائله غاية في الصرامة لرجال الكنيسة المهملين، ول كبار الحكام السياسيين، ولكنها كانت تفيض رقة وحناناً للمنكوبين: من فلاح يشتغل في أرض الكنيسة، إلى أمة تريد أن تدخل الدير، أو سيدة شريفة يؤنبها ضميرها على ما اقترفت من آثام. وعلى هذا النحو كان القس راعياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ، راعياً يعني بقطيعه، وكان للبابا الصالح الحق أن يؤلف كتابه المسمى Liber (590Pastoralis curae)، وهي كتاب موجز في النصائح يهديها إلى الأساقفة، صارت فيما بعد من المراجع المسيحية الهامة، ولم يمنعه مرضه الدائم وشيخوخته المبكرة من أن ينهك قواه في تصريف الشؤون الكنسية، والسياسة البابوية، والأعمال الزراعية، والخطط العسكرية، وتأليف الرسائل الدينية، والنشوة الصوفية، والاهتمام الشديد بالآلاف تفاصيل الحياة البشرية. وقد خلع على منصبه السامي

صفحة رقم : 5164

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

ما يتصف به الدين من تواضع، فلقب نفسه في أولى رسائله الباقية لدينا اليوم "خادم خدمة الله" servus servorum Dei، وقد ارتضى أعظم البابوات لأنفسهم هذا اللقب النبيل.

وامتازت إدارته لشئون الكنيسة بالاقتصاد الحكيم، والإصلاح الصارم الشديد، وقد بذل جهوداً جبارة في قمع التسري والمتاجرة بالرتب الكهنوتية بين رجال الدين، وأعاد النظام إلى الأديرة اللاتينية، ونظم علاقتها بالبابا وبرجال الدين من غير الرهبان. وأصلح قانون القديس ولعله كانت له يد في نشأة النشيد "الجريجوري"، وجمع ما كان قائماً في ضياع البابا من استغلال وقدم القروض من غير فائدة للزراع المستأجرين، ولكنه لم يتوان عن جمع إيرادات أملاك الكنيسة بالحزم والسرعة، وعرض بدهائه على اليهود الذين يعتقدون المسيحية أن يخفض لهم إيجار أملاك الكنيسة، وقبل للكنيسة الأراضي التي كان يهبها لها الأشراف الذي أقضت مضاجعهم مواعظه عن اقتراب نهاية العالم(14). وكان في هذه المشاغل كلها يقابل أعظم حكام زمانه ويناقشهم في الشؤون السياسية، يغلبهم في معظم الأحيان ويغلبونه في بعضها، ولكنه ترك في آخر الأمر سلطان الكنيسة وهيبة البابوية و "ميراث بطرس" (أي الولايات البابوية في إيطاليا الوسطى) ترك هذه كلها أعظم وأوسع رقعة مما كانت قبله. وقد اعترف من الوجهة الرسمية بسيادة إمبراطور الروم، ولكنه كان يتجاهل هذه السيادة من الوجهة العلمية؛ مثال ذلك أنه لما أن هدد دوق اسبيليتو مدينة روما وكان في حب مع نائب الإمبراطور في رافنا-عقد جريجوري صلحاً مع الدوق أن يستشير في ذلك نائب الإمبراطور أو الإمبراطور نفسه، ولما أن حاصر للمبارد مدينة روما اشترك جريجوري في تنظيم الدفاع عنها. غير أنه كان يأسف لكل دقيقة يقضيها في الشؤون الدنيوية، ويعتذر لجماعات المصلين لعجزه عن أن يلقي عليهم عظات تريح بالهم بين المتاعب الدنيوية التي

صفحة رقم : 5165

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

تشغل باله هو، وقد أسعده أن يوجه عنايته فيما أتيج له من سني الهدوء القلائل إلى نشر الإنجيل في أوربا، وأخضع لسلطانه أساقفة لمبارديا المتمردين، وأعاد المذهب الكاثوليكي السليم إلى أفريقية، وتلقى تحويل أسبانيا الأريوسية إلى المذهب الكاثوليكي، وكسب إنجلترا لهذا المذهب دون أن يكلفه ذلك أكثر من أربعين راهباً بعث بهم إليها. ولما أبصر وهو رئيس دير القديس أندر بعض الأسرى الإنجليز يعرضون للبيع في أحد أسواق الرقيق في روما دهش كما يقول بيد Bede ذو النزعة الوطنية:

"من بياض إهابهم، ووسامة وجوههم، وجمال شعرهم، فأخذ يتأملهم لحظة وجيزة، ثم سأل، كما يقولون، عن الإقليم أو البلد الذي جاء بهم منه. ولما قيل لهم إنهم جاءوا من بريطانيا، وإن هذه هي صورة أهلها، سأل مرة أخرى هل سكان تلك البلاد مسيحيون... فلما أجيب بأنهم كفرة من عباد الأوثان صاح هذا الرجل الصالح قائلاً... وا أسفاه! إنني ليحزنني أن يكون أولئك الناس الحسان ذوو الوجوه المشرقة من أتباع ملك الظلام، وأن تكون لأصحاب هذا المظهر الجميل عقول خالية من الجمال الداخلي". ثم سأل من أجل هذا مرة أخرى عن اسم أولئك الأقوام، فقيل له إن اسمهم الإنجليز Angles، فلما سمع هذا قال: "ألا ما أجدرهم بهذا الاسم لأن لهم وجوهاً كوجوه الملائكة، وخليق بأولئك الرجال أن يرتوا مع الملائكة ملكوت السموات(15)".

ثم تقول القصة بعدئذ- وهي أطرف من أن تصدق- أن جريجوري استأذن البابا بلاجيوس الثاني أن يذهب على رأس جماعة من المبشرين إلى إنجلترا، فلما أذن له البابا بذلك بدأ رحلته، ولكنه وقف عن مواصلة الرحلة حين سقطت جرادة على الصفحة التي كان يقرأها في الكتاب المقدس؛ فصاح من فوره لوكستا Locusta، "إن معنى هذا loca sta" أي أقم في مكانك(16).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

وشغلته بعد ذلك بقليل شئون البابوية ولكنه لم ينس إنجلترا، فلما كان عام 596 أرسل إليها بعثة برياسة أوغسطين كبير الرهبان في دير القديس أندرو. فلما وصلت البعثة إلى غالة عاد الرهبان أدرجهم، إذ روعتهم أقاصيص الفرنجة عن وحشية السكون، فقد قيل لهم إن "أولئك الملائكة" وحوش مفترسة، القتل عندهم أفضل من الأكل، متعطشون لدماء الأدميين، وأن أحب الدماء إليهم دماء المسيحيين. وعاد أوغسطين يحمل هذه الأخبار إلى روما، ولكن جريجوري أنبه على ما فعل وشجعه على العودة، وأرسله إلى إنجلترا مرة أخرى فأتى بالسلم في عامين اثنين ما فعلته روما بالحرب في تسعين عاماً ثم لم يلبث عملها أن عفت آثاره.

ولم يكن جريجوري فيلسوفاً دينياً مثل أوغسطين العظيم، كما أنه لم يكن من الكتاب الأساليب الجيدة مثل جيروم ذي الأسلوب الممتع الجذاب. ولكن كتاباته كان لها أعمق الأثر في عقلية الناس في العصور الوسطى، وكانت تعبر عن هذه العقلية أصدق تعبير؛ ولهذا فإن كتابات أوغسطين وجيروم تبدو إلى جانبها كأنها من أقلام اليونان والرومان الأقدمين. وقد خلف وراءه كتباً في الدين توائم عقلية الجماهير، حوت من السخف الكثير ما يحير الإنسان فلا يدري هل كان يؤمن هذا الإداري العظيم حقاً بما يكتبه، أو أنه لم يكن يكتب إلا ما يرى أن من الخير للنفوس الساذجة الأثيمة أن تؤمن به. وأعظم كتبه إمتاعاً هو ترجمته لحياة بندكت - وهي في واقع الأمر أنشودة ساحرة من التجليل لا يدعى فيها أنه حرص على تمييز الأوهام من الحقائق تميز الناقد البصير. وخير ثرائه الأدبي هو رسائله الثمانمائة، ففيها يكشف هذا الرجل المتعدد المواهب عن قدرته في مائة من الميادين، ويرسم دون أن يشعر صورة دقيقة لعقله وزمانه. وقد أحب الشعب محاوراته لأنه يعرض عليهم فيها أعجب القصص عن رؤى رجال الدين في إيطاليا، ونبوءاتهم. ومعجزاتهم، على أنها حقائق تاريخية. ففيها

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

يقرأ القارئ عن الحجارة الضخمة يحركها الناس بصلواتهم، وعن قديس يستطيع أن يتخفى عن أعين الخلق، وعن سموم تصبح عديمة الضرر بفعل علامة الصليب، وعن أطعمة تنزل وتتكاثر بفعل المعجزات. وعن مرضى يشفون من أمراضهم وأموات يعودون إلى الحياة. ويتكرر في هذه المحاورات ذكر المخلفات وما لها من قوة، ولكن أعجب ما فيها ما يذكره عن السلاسل التي قيل إن بطرس وبولس قد قيدها بها؛ وكان جريجوري يحرص على ذكر هذه السلاسل ويمجدها إلى حد العبادة، ويهدي برادة منها إلى أصدقائه؛ وقد كتب مع هدية من هذا النوع إلى صديق مصاب بالرمم: "الحرص على أن تضع هذه فوق عينيك باستمرار، لأن هذه الهدية بعينها قد أنت بكثير من المعجزات" (17).

وقصارى القول أن مسيحية الجماهير قد استحوذت على عقل البابا العظيم وقلمه. وكانت أعظم محاضراته في ميدان الدين هي كتابه Manga Moralla - وهو شرح لسفر أيوب في ستة مجلدات. وهو يروي هذه المسيحية على أنها تاريخ حقيقي في كل سطر من سطور، ولكنه بالإضافة إلى هذا يبحث في كل سطر عن معنى مجازي أو رمزي، ويختمها بقوله إنه يجد في سفر أيوب جميع آراء أوغسطين الدينية. ويعتقد أن الكتاب

المقدس هو كلمات الله بكل ما لهذا التعبير من معان، وأنه في حد ذاته نظام كامل من الحكمة والجمال، وأن على كل إنسان أن لا يضيع وقته ويفسد أخلاقه بقراءة الكتب الوثنية اليونانية والرومانية القديمة. على أن بعض آيات الكتاب المقدس في رأيها يكتنفها الغموض، وأنها كثيراً ما تصاغ في لغة شعبية تصويرية، ولهذا فهي في حاجة إلى أن تعني بتفسيرها عقول مدربة، والكنيسة وهي الأمانة على التقاليد المقدسة هي وحدها التي يحق لها أن تقوم بهذا التفسير والعقل الفردي أداة ضيقة مولعة بالتقسيم، لم توجد لتعالج الحقائق التي نسمو على الحواس، وإذا ما حاول العقل أن يدرك ما هو فوق مداركنا،

صفحة رقم : 5168

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

خسر كل شيء حتى ما يستطيع فهمه". وليس في مقدور أفهامنا أن نعرف الله، وكل ما في وسعنا أن نقول إنه ليس كذا وكذا ولكننا لا نستطيع أن نقول ما هو، و "يكاد كل ما يقال عن الله يكون غير خلاق به لمجرد أنه يمكن أن يقال عنه" (19) ولهذا لا يحاول جريجوري محاولة صريحة أن يثبت وجود الله، ولكنه يقول إن في وسعنا أن نشير إلى جودة بالتفكير في النفس البشرية: أليست هي القوة الحية وهادية الجسم؟ ثم يقول جريجوري: "وكثيراً ما رأى عدد كبير من الناس... في هذه الأيام أرواحاً تفارق أجسامها" (20). ومأساة الإنسان الكبرى هي أنه قد أفسدت فطرته بتأثير الخطيئة الأولى، فمالت به إلى الشر، وهذا التكوين الروحي الفاسد الأساس ينتقل من الوالد إلى الولد بفعل التناسل الجنسي، فإذا ما ترك الإنسان وشأنه أضاف ذنباً إلى ذنب واستحق بذلك العذاب الدائم. وليست النار اسماً على غير مسمى، بل هي هوة سحيقة تحت الأرض مظلمة لا قرار لها وجدت من يوم أن خلق العالم. وهي نار لا ينطفئ لهاها مجسمة، ولكن في مقدورها رغم ذلك أن تطهر الأرواح والأجسام؛ وهي أبدية ولكنها لا تقنى المذنبين أو تنقص من إحساسهم بالألم، ويضاف إلى الأهم في كل لحظة يقضونها متألّمين رعبهم مما ينتظرونه من آلام مقبلة، ومن مشاهدة ما يلاقه أحياناً هم المذنبون من هول العذاب، ويأسهم من النجاة، أو من السماح لهم بالفناء (21). وأوضح جريجوري بطريقة أقل إهاباً من هذه الطريقة قول أوغسطين عن المطهر الذي يتم فيه الموتى التكفير عن ذنوبهم التي عفا الله عنها. وهنا يفعل جريجوري ما يفعله أوغسطين فيطمئن أولئك الذين روعهم بتذكيرهم بنعمة الله وفضله، وشفاعة القديسين وثمار تضحية المسيح نفسه، وما للقاء الرباني من قوة خفية عجيبة في نجاتهم، وهي قوة في متناول جميع التائبين المسيحيين.

ولعل تعاليم جريجوري الدينية تنعكس عليها صحتها المعتلة كما تنعكس عليها فوضى زمانه. فأما صحته المعتلة فقد كتب عنها في عام 599 يقول "قضيت أحد

صفحة رقم : 5169

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

عشر شهراً قلماً غادرت فيها فراشي، ينتابني فيها النقرس والقلق المؤلم... إلى حد صرت أرجو معه النجاة بالموت"، وكتب في عام 600 مرة أخرى: "أنا الآن ملازم للفراش منذ عامين، وقد اشتد بي الألم إلى حد أكاد أعجز معه عن مغادرة سريري مدة ثلاث ساعات أحتفل فيها بالقداس. وأنا أحس في كل يوم بأنني على حافة القبر وأني في كل يوم أرد عنه". وكتب في عام 601: "لقد مضى زمن طويل لم أغادر فيه الفراش، وما أعظم اشتياقي إلى الموت" (22). وجاءه الموت في عام 604.

لقد كان جريجوري المسيطر على أواخر القرن السادس، كما كان جستنيان المسيطر على بدايته، وكان له في هذه الحقبة أثر في الدين لا يعلو عنه إلا أثر النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). ولم يكن جريجوري من رجال العلم ولا من المتبحرين في الدين، ولكن هذه البساطة هي التي جعلت له في عقول الناس أثراً أعظم من أثر أوغسطين الذي كان يهندي بهديه في تواضع فائن جذاب. أما من حيث الناحية العقلية فقد كان أول من تمثلت فيها عقلية العصور الوسطى أصدق تمثيل (23)، فبينما كانت يده تدبر شؤون إمبراطورية مشتتة، كان تفكيره منصرفاً إلى فساد الطبيعة البشرية وغواية الشياطين التي لا يخلو منها مكان على ظهر الأرض، وإلى نهاية العالم القريبة. وكان يخطب خطباً قوية في تلك العقائد الدينية المرعبة التي ظلت تعشى عقول الناس قروناً عدة، وكان يؤمن بجميع المعجزات الواردة في القصص الشعبية الخرافية، وبكل ما يعزى لمخلفات القديسين، وصورهم، وأورادهم من تأثير سحري، ويعيش في عالم مليء بالملائكة، والشياطين، والسحرة والأشباح وتجرد عقله من كل معنى يشعر بأن للعالم نظاماً قائماً على أساس العقل، وكان العلم في رأيه مستحيل الوجود في الكون، وكان الدين الرهيب هو وحده الذي بقي فيه. وقد ارتضت القرون السبعة التي جاءت بعد هذه النظرية، وحاول الفلاسفة المدسيون جهودهم أن يصورها بصورة

صفحة رقم : 5170

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري الأكبر

تتفق مع العقل، وكانت هي الأساس المونس الذي بنيت عليه المسلاة الإلهية. ولكن هذا الرجل بعينه الذي يؤمن بالخرافات وبيادر إلى تصديقها، والذي حطمت جسده تقواه المرعبة الرهيبية، هذا الرجل كان في قوة إرادته وفي قدرته على العمل رومانياً من الطراز القديم، لا يبتثي عن قصده، صارماً في أحكامه، حازماً، عملياً، محباً للنظام وإطاعة القانون، وضع للأديرة قانوناً، كما وهبها بندقية حكماً، أقام سلطة البابوية الزمنية، وحررها من سلطان الإمبراطورية، وصرف شؤونها بحكمة واستقامة جعلنا الناس يرون فيها ملاذاً يهرعون إليه في العصور العاصفة المقبلة. وقد اعترف بفضلته وقده من جاء بعده من البابوات ولقبه الخلف المعجب به "جريجوري العظيم".

صفحة رقم : 5171

الفصل الثالث

الشؤون السياسية للبابوية

867-604

ووجد البابوات الأولون الذين جاءوا بعده أن من أشق الأمور عليهم أن يستمسكوا بكل ما كان يستمسك به من أهداب الفضيلة، أو يحتفظوا بكل ما كان له من سلطان. بل ارتضت الكثرة الغالبة منهم أن تخضع لسلطان حكام الولايات أو للإمبراطور، وكثيراً ما لاقوا المهانة وهم يحاولون أن يقاوموا هذا السلطان. وكان الإمبراطور هرقل Heraclius يتوق إلى توحيد إمبراطوريته التي أنقذها من أعداء الفرس، فسعى إلى التوفيق بين الشرق ذي المذهب اليعقوبي-القاتل بأن ليس للمسيح إلهية واحدة، وبين الغرب المتمسك بمبادئ الكتلثة الأساسية والقاتل بأن للمسيح طبيعتين. ومن أجل هذا أصدر في عام 638 منشوراً يعرض فيه التوفيق بين المذهبين بالاعتقاد أن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة. ووافق البابا هونوريوس Honorius الأول على هذا الاقتراح وأضاف إلى ذلك قوله إن مسألة الإرادة الواحدة أو الإرادتين "مسألة اتركها للنحويين لأنها من المسائل القليلة الخطر" (24). ولكن رجال الدين في الغرب نددوا بموقفه هذا؛ ولما أصدر الإمبراطور كوستانس Constans الثاني منشوراً (648) يبدي فيه ميله إلى هذا المذهب رفضه البابا مارتن Martin الأول. فأمر الإمبراطور حاكم رافنا أن يقبض على البابا ويأتي به إلى القسطنطينية، ولما لم يذعن البابا لرغبة الإمبراطور نفي إلى شبه جزيرة القرم، وبقي فيها إلى أن مات في عام 655. ورفض المجلس المسكوني السادس الذي اجتمع في القسطنطينية عام 680 المذهب الجديد وحكم على البابا هونوريوس بأنه يحابي الخارجين على الدين (25)، ووافقت الكنيسة الشرقية التي آلمها استيلاء المسلمين على بلاد الشام

صفحة رقم : 5172

ولكن إذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الشرق، وما حل بيزنطية من الضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في أسية وأفريقية وأسبانيا، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط، وعجز القسطنطينية أو رافنا عن أن تحمي الولايات البابوية بإيطاليا من هجمات للمبارد، كل هذا اضطر إلى البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الأخذة في النماء والقوة. وخشن البابا استيفن الثاني (752-757) أن يستولي للمبارد على روما فيحيط ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك للمبارد، فاستغاث بالإمبراطور قسطنطين الخامس، ولكن الإمبراطور لم يغتنه، فولى البابا وجهه شطر الفرنجة، وأسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسية غاية في الخطر. فقد لي بيبين القصير نداءه، وأخضع للمبارد، ونفح البابوية "بهبة بيبين" التي أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى (756)؛ وبفضلها قامت سلطة البابوية الزمنية. وبلغت هذه السياسة البابوية ذروتها حين وضع ليو الثالث التاج على رأس شارلمان، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد البابوات. وهكذا أضحت أسقفية جريجوري الأول التي لا حول لها ولا طول من أعظم الدول في أوروبا. ولما مات شارلمان (814)، انقلبت عطية الفرنجة للكنيسة ظهراً لبطن، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان. وكان الأساقفة في بادئ الأمر أكثر الناس إفادة من ضعف الملوك الفرنسيين والألمان ومنازعاتهم ذلك أن رؤساء الأساقفة تحالفوا مع الملوك في ألمانيا، فنالوا بفضل هذا التحالف أملاكاً واسعة، وحصل الأساقفة والقساوسة على سلطات

صفحة رقم : 5173

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الشؤون السياسية للبابوية

إقطاعية كادوا يستقلون بها عن البابوات. ويلوح أن غضب الأساقفة الألمان واستياءهم من استبداد رؤسائهم كان هو منشأ "الأحكام البابوية الكاذبة"، وهي مجموعة الأحكام التي قوت فيما بعد سلطان البابوية، والتي كانت تهدف في بادئ الأمر إلى تقرير حق الأساقفة في أن يستأنفوا أحكام مطارنتهم إلى البابوات أنفسهم. ولسنا نعرف متى صدرت هذه الأحكام ولا أين صدرت، ولكن أغلب الظن أنها جمعت في مدينة متر عام 842. وكان واضعها قس فرنسي تسمى باسم إزدورس مركاتور Isidorus Mercator. وكانت هذه المجموعة غاية في البراعة تشمل بالإضافة إلى طائفة كبيرة من القرارات الموثوق بها الصادرة من المجامع الدينية أو البابوات، عدداً من المراسيم والخطابات تعزوها إلى البابوات مبتدئة من كلمنت الأول (91-100) إلى ملخيادس (311-314). وكان الغرض الذي تهدف إليه هذه الوثائق أن ما جرت عليه الكنيسة من تقاليد وعادات قديمة نقضي بالأ يخلع أي أسقف من منصبه، وألا يدعى أن مجلس من مجالس الكنيسة إلى الاجتماع، وألا يفصل أية مسألة من المسائل الكبرى، إلا بعد موافقة البابا. وتدل هذه الشواهد على أن البابوات جميعاً، حتى الأولين منهم، كانوا يدعون أنهم أصحاب السلطان العالمي المطلق بوصفهم خلفاء المسيح في الأرض. وكان البابا سلفستر الأول (314-335) يوصف في هذه الأحكام بأنه قد أصبحت له بمقتضى "هبة قسطنطين" السلطة الزمنية والدينية الكاملتين على جميع أوروبا الغربية، وأن "هبة بيبين" بناء على هذا لم تكن إلا استرداداً أعرج لحق مختلس، وبدا أن خروج البابا عن سيادة بيزنطية بنتويجه شارلمان لم يكن إلا تقريراً مرتقياً من زمن بعيداً لحق يرجع في أصله إلى مؤسس الإمبراطورية الشرقية نفسه. ومما يؤسف له أن كثيراً من الوثائق المزورة تنقل نصوصاً من ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس ومن المعروف أن جيروم قد ولد بعد ستة وعشرين عاماً من وفاة ملخيادس.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الشؤون السياسية للبابوية

ولقد كان في وسع كل من أوتي قدراً من العلم أن يكشف عن هذا التزوير، ولكن البحث العلمي كان قد انحط كثيراً خلال القرنين التاسع والعاشر، وكان مجرد القول بأن كثرة الادعاءات التي تعزوها هذه الأحكام البابوية إلى أساقفة روما الأولين قد صدرت من هذا البابا أو ذلك من البابوات المتأخرين، كان هذا القول وحده كافياً لإضعاف حجة النقاد، ولهذا ظل البابوات ثمانية قرون كاملة يفترضون صحة هذه الوثائق ويستخدمونها لتوطيد أركان سياستهم . وكان من المصادفات الطيبة أن كان ظهور "الأحكام الكاذبة" قبيل انتخاب شخصية من أعظم الشخصيات شأنًا في تاريخ البابوية، تلك هي شخصية نقولاس Nicholas الأول (858-867) وكان نقولاس قد تلقى تعليماً عالياً فذاً في قانون الكنيسة وتقاليدها، وتدريب على مهام منصبه السامي بأن كان مساعداً محبوباً لطائفة من البابوات. وكان يضارع جريجوري الأول والثاني العظيمين في قوة الإرادة، ويفوقها في سعة مطامعه ونجاحه في الوصول إليها. وقد أقام منطقته على قضيتين يقبلهما وقتئذ جميع المسيحيين: وهما أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وأن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس واحداً بعد واحد في تسلسل متصل، ثم استنتج من هاتين القضيتين استنتاجاً يقبله العقل وهو أن البابا، ممثل الله على ظهر الأرض، يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين-حكاماً كانوا أو محكومين-في شئون الدنيا والأخلاق إن لم تكن في جميع الشئون. ونشر نقولاس بفصاحته هذه الحجة السهلة، ولم يجروا أحد في البلاد المسيحية اللاتينية على معارضتها، وكل ما كان يرجوه الملك ورؤساء الأساقفة ألا يحملها محمل الجد أكثر مما يجب.

لكنه خيب رجاءهم: ذلك أنه لما أراد لوثير الثاني ملك لورين أن يطلق

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الشؤون السياسية للبابوية

زوجته ثيوثيرجا Thentherga ويتزوج عشيقه ولدردادا حقق الرؤساء الدينيون في مملكته رغبته، فلجأت ثيوثيرجا إلى البابا نقولاس، وأرسل للبابا مبعوثيه إلى متز لينظروا في الأمر. ونفخ لوثير أولئك المبعوثين برشا سخية ليؤيدوا الطلاق، وحمل كبير أساقفة تريير وكولوني هذا القرار إلى الهابا؛ ولكن نقولاس كشف ما فيه من تدليس، وأصدر قراراً بحرمان كبير الأساقفة، وأمر لوثير أن يطرد عشيقته ويعيد زوجته إلى عاصمته؛ فعصى لوثير الأمر وزحف على روما بجيشه. وأقام نقولاس ثمانى وأربعين ساعة صائماً مصلياً، وخانت لوثير على أثرها شجاعته فخضع لأوامر البابا.

وحدث أن هنكار كبير أساقفة ريمس وأعظم الرؤساء الدينيين في أوربا اللاتينية بعد البابا وحده عزل أسقفاً يدعى راثراد Ratherad من منصبه، فلجأ الأسقف إلى نقولاس (863)؛ فأعاد البابا النظر في قضيته، وأمر بإعادة راثراد إلى منصبه؛ ولما تردد هنكار في تنفيذ حكم البابا هدهد بأن يصدر قرار الحرمان على جميع أبرشيته، وهو قرار يقضي بوقف الصلوات في جميع كنائسها. واستشاط هنكار غضباً، ولكنه خضع. وكان نقولاس يكتب للملوك

ولرجال الدين كأنه صاحب السلطان الأعلى. ولم يجرؤ أحد على معارضته إلا فوتيوس بطريق القسطنطينية. وقد ثبت من التطورات المقبلة أن الأحكام التي أصدرها البابا كانت كلها تقريباً في جانب العدالة، وأن دفاعه الصارم عن الأخلاق الفاضلة كان هو السراج الوهاج الذي أنار دياجير الظلام والملجأ الحصين في ذلك العصر المنحل، وكانت سلطة البابوية عند وفاته معترفاً بها في أقاليم أوسع رقعة من التي كان يعترف بها فيها قبل أن يتولى شئونها.

صفحة رقم : 5176

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

الفصل الرابع

الكنيسة اليونانية

898-566

لم يكن في وسع بطارقة الكنيسة الشرقية أن يعترفوا بهذا السلطان الأعلى لأسقف روما لسبب واضح هو أنهم كانوا من زمن بعيد خاضعين لأباطرة الروم، وأن هؤلاء الأباطرة لم ينزلوا حتى عام 871 عن دعواهم بأن لهم السيادة على روما ومن فيها من البابوات. ولقد كان البابوات من حين إلى حين يوجهون النقد إلى الأباطرة، ويعصون أوامرهم، بل ويشهرون بهم؛ ولكن الأباطرة هم الذين كانوا يعينونهم في مناصبهم، ويخرجونهم منها، ويدعون المجالس الكنيسية إلى الانعقاد، وينظمون شئون الكنيسة بقوانين تسنها الدولة، وينشرون آراءهم وتوجيهاتهم الدينية على رجال الدين. ولكن ثمة ما يحد من سلطان الأباطرة الديني المطلق في العالم المسرحي الشرقي إلا سلطان الرهبان، ولسان البطريق، واليمين التي يقسمها الإمبراطور حين يتوجه البطريق بأن لا يبتدع بدعة ما في الكنيسة. وكانت أديرة الرهبان والراهبات منتشرة وفتتذ في القسطنطينية-بل في بلاد الشرق اليونانية على بكرة أبيها. وكان عدد هذه الأديرة في القسطنطينية وحدها يفوق عددها في الغرب، حتى لقد استحوذت نزعتة التنسك على بعض أباطرة بيزنطية أنفسهم، فكانوا يعيشون معيشة الزهاد بين ترف القصور، ويستمعون في كل يوم إلى القداس، ويتقشفون في طعامهم، ويندمون على خطاياهم كلما اقتربوها وكانت تقوى الأباطرة والأثرياء حين يموتون سبباً في اتساع الأديرة وكثرة عددها بما كان يهبه هؤلاء وأولئك لها من الهبات في أثناء حياتهم ويوصون لها به من المال بعد وفاتهم. وكان الرجال والنساء من أعلى

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

الطبقات إذا ما أخافتهم نذر الموت يسعون لدخول الأديرة، ويسترضون ربهم بما يهبونها من الأموال التي تعفى بعدئذ من الضرائب، ومنم من كانوا يعطون بعض أملاكهم لدير من الأديرة على أن يتقاضوا منه في نظير ذلك مرتباً سنوياً. وكانت أديرة كثيرة تدعى أن بها مخلفات لبعض القديسين الأجلاء، وكان الناس يعززون إلى الرهبان السيطرة على ما لهذه المخلفات من قدره على فعل المعجزات، ويقدمون إليهم المال راجين أن ينالوا من وراء استثماره لديهم أرباحاً طائلة لا يصدقها العقل. وقد شوه عدد قليل من الرهبان دينهم بكسلهم، وفسقهم، وتحزبهم، وشرهم، وإن كانت كثرتهم قد تمسكت بأهداب الفضيلة والسلام. وكان الرهبان جميعهم ينالون احترام الشعب، ويستمتعون بالثراء المادي، بل يستمتعون أيضاً بنفوذ سياسي لم يكن يسع إمبراطوراً ما أن يتجاهله. وكان ثيودور (759-826) رئيس دير استويودون Studion في القسطنطينية مثلاً أعلى في التقى والسلطان. وكانت أمه قد وهبته في طفولته إلى الكنيسة، فتطبع بجميع الطباع المسيحية إلى حد جعله يهنئ والدته أثناء مرضها الأخير باقتراب منيتها ومجدها. وقد وضع لرهبانه قانوناً للعمل، والصلاة، والعفاف، وتنمية مواهبهم العقلية لا يقل شأناً عن قانون القديس بندكت في الغرب، ودافع عن استعمال الصور الدينية، وأنكر أمام الإمبراطور ليو الخامس بمنتهى الجراءة أن من حق السلطة الزمنية أن تتدخل بأية صورة في الشؤون الكنسية. وقد نفى أربع مرات لعناده هذا ولكنه ظل في منفاه يقاوم محطمي الصور الدينية إلى يوم وفاته.

وأخذت الهوة بين المسيحية اللاتينية واليونانية تزداد بسبب ما كان بين المذهبين في هذه القرون من اختلاف في اللغة والطقوس والعقائد، وكان مثلهما في هذا كمثل جنس من أجناس الكائنات الحية انقسم في المكان وتنوع على توالي الأيام. فقد كانت الطقوس، والأثاث الكهنوتية، والأنية، والزخارف المقدسة في الكنيسة اليونانية أشد تعقيداً، وأكثر زخرفاً، وأعظم عناية بالناحية الفنية من

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

مثيلاتها في الغرب. فكان ذراعا الصليب اليوناني مثلاً متساويين، وكان اليونان يصلون وهم وقوف، أما اللاتين فكانوا يصلون راكعين؛ وكان اليونان يعمدون أطفالهم بأن يغمرهم في الماء المقدس، أما اللاتين فكانوا يرشون الماء عليهم؛ وكان الزواج محرماً على القساوسة اللاتين ومباحاً للقساوسة اليونان؛ وكان القسيسون اللاتين يحلقون لحاهم، أما اليونان فكانوا يرسلونها إرسالاً يخلع عليهم مظهر التفكير؛ وتخصص رجال الدين اللاتين في الشؤون السياسية، أما اليونان فتخصصوا في أمور الدين؛ وكانت الزندقة تنشأ على الدوام تقريباً في بلاد الشرق الذي ورث عن اليونان شعفهم بتحديد ما لا حد له؛ ولقد نشأت بأرمينية حوالي عام 660 من مبادئ الإلحاد الغنوطسية التي نادى بها بردسانس Bardesanes في بلاد الشام، ومن اتجاه الحركة المانوية نحو الغرب على ما يظن، شيعة من البولسيين Paulicians اشتق اسمها من اسم القديس بولس، لا تؤمن بالعهد القديم، ولا بالعشاء الرباني، ولا تقول بتعظيم

الصور المقدسة ولا برمزية الصليب. وانتقلت هذه الطوائف وهذه النظريات كما تنتقل بذور النبات من بلاد الشرق الأدنى إلى البلقان، وإيطاليا، وفرنسا. وصبرت صبر أولى العزم على أقسى أنواع الاضطهاد، ولا تزال بقاياها موجودة إلى الآن في طوائف الملخاني Molokhani، والخليستي Khlysti، والدخوبور Dukhobors. وكان الأباطرة أشد من الشعب إثارة للجدل القائم حول طبيعة المسيح الواحدة، وما من في أن الشعب لم يكن هو المسئول عن العبارة التي أدخلت على العقائد النيقية في طليطلة عام 589، والتي نقول إن الروح القدس ينبعث من الابن كما ينبعث من الأب، والتي لم تقبلها الكنيسة اليونانية. وزادت الهوة بين الكنيستين. لقد كانت العقيدة النيقية تحدث عن "الروح القدس الذي ينبعث من الأب"، ex patre procedit وظل هذا القول كافياً مدى 250 عاماً؛

صفحة رقم : 5179

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

ثم حدث في عام 589 أن غيره مجلس من مجالس الكنيسة عقد في طليطلة فجعله ex patri filioque procedit أي المنبعثة من الأب والابن. وارتضت غالبية هذه الإضافات، واعتنقها شارلمان وعض عليها بالنواجذ. واحتج رجال الدين اليونان وقالوا إن الروح القدس لا ينبعث من الابن بل ينبعث عن طريقه. ووقف البابوات بين هؤلاء وأولئك إلى حين، ولم تدخل هذه العقيدة رسمياً في المذهب اللاتيني إلا في القرن الحادي عشر. وقام في هذه الأثناء كفاح بين الإرادات أضيف إلى الكفاح بين الأراء، فقد كان من بين الرهبان الذين فروا من وجه محطمي الأصنام راهب يدعى إجناتيوس Ignathius ابن الإمبراطور ميخائيل الأول، واستدعت الإمبراطورة ثيودورا هذا الراهب في عام 840 وعينته بطريقاً. وكان رجلاً تقياً شجاعاً، شنع على قيصر بارداس Caesar Bardas رئيس الوزراء لأنه طلق زوجته وعاشر أرملة ابنه، ولما أصر بارداس على معايشة أرملة ابنه المحرمة عليه طرده إجناتيوس من الكنيسة، فما كان من بارداس إلا أن نفى إجناتيوس، ورفع على عرش البطريركية أعظم علماء ذلك العصر وأكثرهم تهديباً (855). كان فوتيوس (820-؟-891) يتقن علوم اللغة، والخطابة، والعلوم الطبيعية، والفلسفة؛ وكانت محاضراته التي يلقيها في جامعة القسطنطينية قد اجتذبت إليه طائفة من الطلاب المخلصين المتحمسين فتح إليهم مكتبته وبيته. وكان قبل أن يرقى إلى مقام البطريركية قد تم موسوعة في مائتين وثمانية بابا استعرض في كل واحد منها أحد الكتب المهمة ونقل نماذج منه. وبفضل هذه الموسوعة الضخمة بقيت لنا فقرات كثيرة من الأدب القديمة، وارتفع فوتيوس بفضل هذه الثقافة الواسعة فوق تعصب الشعب، الذي عجز عن أن يفهم السر في بقائه مرتبطاً برباط الود

صفحة رقم : 5180

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

والصداقة مع أمير كريت. واستاء رجال الدين في القسطنطينية حين رأوه يرتفع فجأة من بين العلمانيين إلى مقام البطريكية، وأرسل نقولاس الأول مبعوثيه إلى القسطنطينية لينظروا في الأمر، وقرر في رسائله إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث وإلى فوتيوس المبدأ القائل بأن أية مسألة خطيرة من المسائل الكنيسة لا يصح أن يفصل فيها في أي مكان من غير موافقة البابا. وعقد الإمبراطور مجلساً كنسياً أقر تعيين فوتيوس، وانضم مبعوثو البابا إلى المؤيدين، فلما عادوا إلى روما أنكروا عليهم نقولاس عملهم واتهمهم بأنهم قد خرجوا على التعليمات التي وجهها إليهم، وأمر الإمبراطور بأن يعيد إجناتيوس إلى منصبه، فلما تجاهل الإمبراطور هذا الأمر أصدر قراراً بحرمان فوتيوس (863). وهدد بارداس بأنه سوف يبعث جيشاً ليخلع نقولاس، ورد عليه نقولاس رداً بليغاً سخر فيه منه وأشار إلى خضوع الإمبراطور للمغيرين على أملاكه من الصقالبة والمسلمين:

"إنا نحن لم نغز كريت، ولم نقفز نحن صقلية من أهلها، ولم نخضع نحن بلاد اليونان، ولم تحرق الكنائس في ضواحي القسطنطينية، وبينما يفتح هؤلاء الوثنيون (أملاكك) ويحرقونها، ويخربونها، تبعث إلينا أيها المغتر تهددنا بهول جيوشك. إنك تطلق بارباس Barabbas وتقتل المسيح(27)".

ودعا فوتيوس والإمبراطور مجلساً كنسياً آخر إلى الانعقاد، وأصدر هذا المجلس قراراً بحرمان البابا (867) وشنع على "الحاد" الكنيسة الرومانية، ومن بينها اتبعات الروح القدس من الأب والابن، وحلق القساوسة للحاهم، وتحريم الزواج على رجال الدين. وأضاف فوتيوس إلى هذا قوله: "ولقد أصبحنا بفضل هذه العادات نرى في الغرب كثيرين من الأطفال لا يعرفون آباءهم".

وبينما كان الرسل اليونان يحملون هذا الهزل إلى روما إذ تبدل الموقف فجأة (867) بجلوس بازيل الأول على عرش الإمبراطورية. وكان بازيل قد قتل قيصر بارداس، وأشرف على اغتيال ميخائيل الثالث. ونادى فوتيوس أن

صفحة رقم : 5181

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الكنيسة اليونانية

الإمبراطور الجديد قاتل سفاح، ورفض أن يمنحه العشاء الرباني. ورد عليه بازيل بأن دعا مجلساً كنسياً إلى الانعقاد، ونفى فوتيوس، وأعاد إجناتيوس، ولما مات إجناتيوس بعد ذلك بقليل، استدعى بازيل فوتيوس؛ وأعاد مجلس كنسي إلى مقام البطريكية، ووافق البابا يوحنا السابع على هذا القرار (وكان نقولاس الأول قد مات). وبهذا تأجل إلى حين انشقاق للكنيستين الشرقية والغربية إحداهما عن الأخرى بموت بطلي هذا الانشقاق.

صفحة رقم : 5182

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

لم يكن أجل الحوادث في التاريخ الديني لهذه العصور وأعظمها خطراً هو النزاع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية، بل كان هو ظهور الإسلام وتحديه للمسيحية في الشرق والغرب على السواء. ذلك أنه لم يكد دين المسيح ثمار انتصاراته على الإمبراطورية الوثنية وعلى الشيع المسيحية الملحدة حتى انتزعت منه أعظم ولاياته عزة على الدين واستمساكاً به، انتزعتها منه في يسر مروع دين يحتقر فلسفة الإلهيات المسيحية والمبادئ الأخلاقية المسيحية. نعم إن البطارقة ظلوا في كراسيهم بأنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية بفضل تسامح المسلمين، ولكن مجد المسيحية قد زال من تلك الأقاليم، وكانت المسيحية الباقية فيها مسيحية مارقة قومية فقد قامت أرمينية، والشام، ومصر وسلطات كهنوتية مستقلة تمام الاستقلال عن القسطنطينية وروما. واحتفظت بلاد اليونان بدينها المسيحي لأن الرهبان قد انتصروا فيها على الفلاسفة، وكان الدير العظيم دير لافرا المقدس الذي أقيم على جبل أثوس Mt. Athos في عام 961 يضارع في عظمته البارثون بعد أن استحال كنيسة مسيحية. وكان لا يزال بأفريقية في القرن التاسع الميلادي عدد كبير من المسيحيين، ولكنهم كانوا يتناقصون تناقصاً سريعاً تحت حكم المسلمين. أما أسبانيا فقد كان الجزء الأكبر منها في عام 711 قد خرج من أيدي المسلمين، ذلك أن المسيحية ولت وجهها نحو الشمال بعد هزيمتها في أسية وأفريقية وواصلت فتوحها في أوروبا.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

وأوشكت إيطاليا أن تقع في أيدي المسلمين، ولكنها بعد أن أفانت منهم انقسمت بين المذهبين المسيحيين اليوناني واللاتيني، وكاد دير مونتي كسينو يقوم على الحد الفاصل بين المذهبين، وقد بلغت شهرة هذا الدير غايتها تحت حكم رئيسه دزيدورس (1058-1087). فقد جاء إليه من القسطنطينية ببابين فخمين من البرونز، ثم لم يكتف بهذا فجاء إليه أيضاً بصناع، زينوا داخله بالفسيفساء والميناء. والزخارف في المعادن والعاج والخشب. وكاد الدير يصبح جامعة علمية تدرس مناهج في النحو والأدب اليونانية والرومانية القديمة، والأدب المسيحية واللاهوت، والطب، والقانون. وأخرج الرهبان مخطوطات مزخرفة غاية في الإبداع على غرار النماذج البيزنطية، ونسخوا بخطهم الجميل كتب روما الوثنية القديمة، ومنها طائفة يرجع الفضل في بقائها حتى الآن إلى عمل هؤلاء الرهبان. وفي روما لم تنشأ الكنيسة في عهد البابا بنيفاس الرابع وخلفائه أن تظل الهياكل الوثنية أخذة في التهدم والانحلال بل شرعت تعيد بقاءها ليستخدمها المسيحيون ويعنوا بها، فدشن البانثيون لمريم العذراء ولجميع القديسين (609)، واستحال هيكل يانوس

كنيسة للقديس ديونيشيوس، وهيكل زحلي (ساترن) كنيسة المخلص. وجدد ليو الرابع (847-855) كنيسة القديس بطرس وزينها، وبفضل ازدياد سلطان البابوية، ومجيء الحجاج إلى تلك المباني، تمت حولها ضاحية من مختلف الأجناس واللغات اشتق اسمها من اسم نل الفاتيكان القديم. وكانت فرنسا وقتئذ أغنى البلاد التابعة للكنيسة اللاتينية. ذلك أن ملوك الأسرة المروفنجية لم يكونوا يرتابون في قدرتهم على ابتياع ملكوت السماوات بعد أن يستمتعوا بتعدد الزوجات وتقتيل الخصوم فأخذوا يهبون الأسقفيات الكثير من الأراضي والأموال. وكانت الكنيسة في فرنسا كما كانت في غيرها من البلدان تتلقى الوصايا من الكبراء التائبين والوارثات العابدات الصالحات؛ ولما حرم

صفحة رقم : 5184

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

شلبريك Chilperic هذه الهبات ألغى جنثرام Gunthram أمر التحريم بعد قليل. وكان من سخریات التاريخ أن رجال الدين في غالة كانوا كلهم تقريباً من العنصر الغالي الروماني، وبهذا كان الفرنجة الذين اعتنقوا الدين المسيحي يخرون سجداً تحت أقدام من فتحوا هم بلادهم ويردون إليهم بالهبات ما نهبوه منهم من الحروب(28). وكان رجال الدين أعظم العناصر قدرة في غالة، وأحسنهم تعليماً، وأقلهم فساداً في الأخلاق. وكادت معرفة القراءة والكتابة أن تكون محصورة فيهم وحدهم، وكانت الكثرة الغالبة منهم تجد صداقة مخلص في تعليم الشعب الذي كان يعاني الأمرين من شره كبرائه وملوكه، وفي تقييم أخلاقه، وإن كانت من بينهم أقلية صغيرة انغمست في الرذيلة. وكان للأساقفة القسط الأكبر من السلطة الزمنية والدينية في أبرشياتهم، وكانت محاكمهم الملجأ المفضل للمتقاضين في الشؤون الدينية وغير الدينية أيضاً. وكانوا أينما وجدوا يبسطون حمايتهم على اليتامى، والأرامل، والمعدمين، والأرفاء؛ وكانت الكنائس تنتشى المستشفيات في كثير من الأبرشيات، ومنها hotel de Dieu -"نزل الله"- الذي افتتح في باريس عام 651. وقد اشتهر سان جرمان St. Germain، أسقف باريس في النصف الثاني من القرن السادس في جميع أنحاء أوروبا بما بذله من الجهود في جمع الأموال وإنفاق ماله الخاص لتحرير العبيد. وقوى سيدونيبوس أسقف مینز جسر الرين. وهذب فليكس أسقف نانت مجرى اللوار، وأنشأ ديديبه Didier أسقف كاهور Cahor قنوات لنقل مياه الشرب، وكان سان أجوبار (St. Agobard 779-840) كبير أساقفة ليون نموذجاً صالحين في الدين، وعدواً لدوداً للخرافات، حرم المحاكمة بالمبارزة أو التحكيم الإلهي، كما حرم عبادة الصور، وتفسير الزوابع على أنها من أعمال السحر، وكشف عما في محاكمة الساحرات من أخطاء فكان بهذا "أكثر رؤوس ذلك الوقت صفاء"(29). وكان هنكار الأرسنقراطي كبير أساقفة ريمس (845-882) رئيساً لنحو

صفحة رقم : 5185

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

عشرين من المجالس الكنسية، وقد أقل ستة وستين كتاباً، وكان رئيس شارل الأصلع، وكاد ينشئ حكومة دينية في فرنسا.

واتصفت المسيحية في كل بلد بصفات أهله القومية، فأصبحت في أيرلندا صوفية، عاطفية، فردية النزعة، انفعالية؛ أدخلت فيها الجنيات، والشعر، وخيال الكلت العجيب الرقيق، وورث القساوسة قوى الدرويد السحرية، وأساطير الشعراء الغنائيين، وكان النظام القبلي في البلاد مساعداً على تفكك الكنيسة-حتى كادت كل جهة فيها يكون لها "أسقف" مستقل. وكان الرهبان فيها أكثر عدداً وأعظم نفوذاً من الأساقفة والقساوسة، وكان أولئك الرهبان يعيشون جماعات قلماً تزيد الواحدة منها على اثني عشر راهباً يقيمون في أديرة شبه منعزلة، معظمها مستقلة بشؤونها ومنتشرة في أنحاء الجزيرة، تعترف للبابا برياسة الكنيسة، ولكنها لا تخضع لإشراف خارجي من أي نوع كان. وكان الرهبان الأسبقون يعيشون في صوامع منفصلة، ويعمدون إلى التنسك والزهد، ولا يجتمعون إلا في أوقات الصلاة. وجاء بعدهم جيل آخر -"الطبقة الثانية من القديسين الأيرلنديين"- خرجوا على هذه التقاليد المصرية، فكانوا يدرسون مجتمعين ويتعلمون اللغة اليونانية، وينسخون المخطوطات، وينشئون المدارس لرجال الدين وغير رجال الدين. وتخرج في المدارس الأيرلندية في القرنين السادس والسابع عدد متتابع من جبابرة القديسين الذائعي الصيت انتقلوا منها إلى اسكتلندا، وإنجلترا، وغالة، وألمانيا، وإيطاليا، ليعلموا فيها المسيحية المظلمة ويعيدوا إليها الحياة. وقد كتب أحد الفرنجة في عام 850 يقول: "تكاد أيرلندا كلها تهرع إلى جماعات إلى سواحلنا ومعها حشدن الفلاسفة" (30). وهكذا انعكست الآية واستردّ الدين، فيعد أن طردت غارات الألمان غالة وبريطانيا العلماء من هذين البلدين إلى أيرلندا، أخذ المبشرون الأيرلنديون يلقون بأنفسهم على فاتحي إنجلترا الوثنيين من الإنجليز والسكسون،

صفحة رقم : 5186

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

والنرويجيين، والدنمركيين، وعلى المسيحيين الأميين نصف الهمج في غالة وألمانيا، يحملون الكتاب المقدس بإحدى يديهم والمخطوطات اليونانية والرومانية القديمة باليد الأخرى، ولا ح وقتاً ما أن الكلت سوف يستردون عن طريق المسيحية ما خسروه من الأراضي بالقوة. وبذلك كانت العصور المظلمة هي التي أشرقت فيها الروح الأيرلندية وتلألأت كما لم تتلألأ من قبل ولا من بعد.

وكان أعظم أولئك المبشرين هو سانت كولمبا St. Columba، نحن نعرف الشيء الكثير عنه من سيرته التي كتبها له (حوالي عام 976) آدمنان Adamnan أحد خلفائه في أيونا Iona. وقد ولد كولمبا في دنجال Donegal عام 521، وكان يجري في عروقه دم الملوك؛ وكان ما كان بوذا قديساً في وسعه أن يكون ملكاً. وبدا عليه وهو طالب في مدرسة موفيل Moville من الورك ما جعله معلمه يلقبه كولمبكيل Columbkille أي عماد الكنيسة. وأنشأ مذ كان في الخامسة والعشرين من عمره عدداً من الكنائس والأديرة أشهرها كلها ما كان منها في دري Derry، ودرو Durrow، وكلز Kells ولكنه لم يكن قديساً فحسب، بل كان فوق ذلك مكافحاً "قوي البنية. جهوي الصوت" (31)، سبب له تهوره كثيراً من النزاع ثم إلى الحرب مع الملك ديرمويد Diarmuid؛ ودارت بينهما آخر الأمر معركة قتل فيها، على حد قولهم، 5000 رجل. وانتصر فيها كولمبا ولكنه رغم انتصاره فر من أيرلندا (563)، وهو مصمم على أن يهدي إلى المسيحية من الأرواح بقدر من قتل في معركة كولدرفنا Cooldrevna. وأنشأ وقتئذ في جزيرة أيونا القريبة من شاطئ اسكتلندا الغربي ديراً من أعظم أديرة العصور الوسطى وأوسعها شهرة. ومن هذا الدير نشر هو ومريوده الإنجيل في جزيرة هبريده Hebrides، واسكتلندا، وشمال إنجلترا. وبعد أن هدى آلفا من الوثنيين إلى الدين المسيحي وزخرف ثلاثمائة "كتاب نبيل" مات وهو يصلي عند المذبح في الثامنة والسبعين من عمره.

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

وشبيهه به في روحه واسمه سانت كولمبان St. Columban المولود في لينستر Leinster حوالي عام 543. ولسنا نعلم عنه شيء حتى نجده وهو في الثانية والثلاثين من عمره يؤسس الأديرة في جبال الفوج بفرنسا. وكان من تعاليمه للمبتدئين من أتباعه في لكسويل Luxeuil:

يجب أن تصوم كل يوم، وتصلي كل يوم، وتعمل كل يوم، وتقرأ كل يوم؛ وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد، وفي مجتمع يتألف في كثير من الإخوان، حتى يتعلم التواضع من أحدهم والصبر من آخر والصمت من ثالث ودمائة الأخلاق من رابع... ويجب أن يأوى إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق (23). وكانت العقوبات صارمة، أكثر ما تكون بالجلد: ستة سياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمته أو نسي أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسم أثناء الصلاة أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشاء الرباني؛ وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسي أن يدعو الله قبل الطعام، وخمسون عقاب التأخر عن الصلاة، ومائة لمن يشترك في نزاع، ومائتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة (23). ولم يكن الناس يحجمون عن دخول الدير رغم هذا الحكم الإرهابي، فقد كان في دير مكسويل ستون راهباً، كثيرون منهم ينتمون إلى أسر غنية. وكانوا يعيشون على الخبز، والخضر، والماء؛ ويقطعون الغابات، ويحراثون الأرض، ويزرعون ويحصدون، ويصومون ويصلون. وهنا أقام كولمبان نظام "الحمد الذي لا ينقطع iaux perennis. فقد كانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الراهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين (34). وكانت ألف دير ودير شبيهة بدير لكسويل من المعالم البارزة في العصور الوسطى. ولم يكن المزاج الصارم الذي وضع هذه القواعد يجيز آراء غير هذه الآراء؛ ولهذا ألقى كولمبان، الذي يحرم النزاع، نفسه في نزاع متكرر مع الأساقفة الذين

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

يتجاهل سلطانهم، ومع الموظفين الزمنيين الذين لا يقبل تدخلهم في الشؤون الدينية ومع البابوات أنفسهم. ذلك أن الأيرلنديين كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب تقويم كانت تسير عليه الكنيسة في بادئ الأمر ولكنها غيرته في عام 343. ونشأ من ذلك نزاع بينها وبين القساوسة الغاليين، فلجأ هؤلاء إلى جريجوري الأكبر، ورفض كولمبان أوامر البابا وقال: "إن الأيرلنديين أعلم منكم بالفلك أيها الرومان"، وأمر جريجوري أن يقر طريقة الأيرلنديين في الحساب وإلا "فسيعد من الخارجين عن الدين وتبذره بازدرأ كنائس الغرب" (35). ثم طرد الأيرلندي المتمرد من غالة (609)، لتشهيره بأثام الملكة برنهلد Brunhild: ووضع بالقوة على ظهر سفينة مقلعة إلى أيرلندا؛ ولكن السفينة اضطرت إلى الاندفاع عائدة إلى فرنسا، وعبر كولمبان الأرض المحرمة عليه وأخذ يعظ أهل بافاريا الوثنيين. ولسنا

نعتمد أن كولمبان كان في حقيقة أمره رهبياً كما يبدو من حكمه وسيرته، فنحن نسمع أن السناجب كانت تجتم في اطمئنان على كتفيه وتدخل في قنوسه وتخرج منها(36). ثم ترك زميلاً له أيرلندياً ليؤسس (613) دير سانت جول St. Gall على بحيرة كنستانس، وعبر هو ممر سان جوثار St. Gothard Pass بعد أن عانى في سبيل ذلك الأمرين، وأسس دير بيبو Bobbio في لمباوديا عام 613 حيث توفي بعد عامين في صومعته المنعزلة التي كان يعيش فيها معيشة الزهد والتشف.

ويحدثنا ترتليان Tertullian عن وجود مسيحيين في بريطانيا في عام 208؛ كما يحدثنا بيد Bede عن وفاة سانت أولبان أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين. وقد شهد الأساقفة البريطانيون مجلس سرديقا (347Sardica)، كذلك ذهب جرمانوس Germanus أسقف أوكسير Auxerre إلى بريطانيا في عام 429 ليقضي فيها على الزنادقة البلاجيين(37). ويؤكد لنا وليم الملمز بري William of Malmesbury أن الأسقف أباد جيشاً من السكسون بأن جعل الذين هدام

صفحة رقم : 5189

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

من البريطانيين يصرخون "حمداً لله" في وجوههم(38). ثم ضعف شأن المسيحية البريطانية بعد أن كانت لها هذه القوة العظيمة، وأشرفت على الفناء بسبب غارات الأنجليسكيون، فلم تعد تسمع عنها شيئاً بعدئذ حتى دخل أتباع كولمبا نورثمبرلند في آخر القرن السادس، وحتى وصل أوغسطين ومعه سبعة آخرون من الرهبان من روما إلى إنجلترا. وما من شك في أن البابا جريجوري قد علم من قبل أن إنلبرت ملك كنت الوثي تزوج برتا Bertha الأميرة المروفنجية المسيحية. واستمع إنلبرت في لطف ومجاملة إلى أوغسطين، وظل غير مقتنع بحديثه، ولكنه أطلق له حرية الوعظ، وهياً له ولزملائه الرهبان الطعام والسكن في كنتبري. ثم استطاعت الملكة آخر الأمر (599) أن تقتنع الملك باعتناق الدين الجديد، وحذا حذوهما كثيراً من رعاياهما. وفي عام 601 بعث جريجوري بصورة الكاهن إلى أوغسطين فأصبح على رأس عدد من أساقفة كنتبري الأجلاء الممتازين. واصطنع جريجوري اللين مع من بقي في إنجلترا من الوثنيين وأجاز تحويل الهياكل القديمة إلى كنائس، بأن تحول عادة التضحية بالثيران في يسر ولطف على "ذبحها لإنعاشهم لمديح الله"(39)، وبهذا كان كل ما طراً على الإنجليز من تغيير هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله على حمد الله حين يأكلون لحم البقر.

وأدخل مبشر إيطالي آخر يدعى بولينوس panlinus المسيحية إلى نورثمبرلند (726). ذلك أن أرولد Oswald ملك نورثمبرلند دعا رهبان أيونا إلى المجيء على بلاده ليعظوا شعبه، وأراد أن يعينهم على أداء مهمتهم فمنحهم جزيرة لنسفارن Lindisfarne القريبة من ساحل إنجلترا الشرقي. وفيها أنشأ سانت إيدان (634St. Aidan) ديراً خلد اسمه بمن تخرج فيه من المبشرين المخلصين وبما أخرجهم من المخطوطات المزخرفة ذات الروعة. وهناك ترك سانت كيثرت (635-687St. Cuthbert) وراءه في دير ملروز Mlrose ذكريات طيبة أصبره، وتقواه، وفكاهته، وحسن إدراكه وبفضل صلاح هؤلاء الرجال

صفحة رقم : 5190

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

وأمثالهم، وبفضل ما كانوا ينعمون به من أمن وسلام وسط الحروب الكثيرة، أقبل عدد كبير من المنتصرين حديثاً والمنتصرات إلى أديرة الرجال والنساء التي قامت وقتئذ في إنجلترا. وقد رفع أولئك الرهبان من كرامة العمل، بكدهم المتواصل في الغابات والحقول على الرغم من انتكاسهم من حين على حين وعودتهم إلى أساليب عامة الناس. فترعموا هنا، كما ترعموا في فرنسا وألمانيا، ركب الحضارة في كفاحه ضد المناقع والأجام، وكما ترعموه في كفاحه ضد الأمية، والعنف والدعارة، والسكر، والشرب. وظل بيد أن من يدخلون الأديرة من الإنجليز قد زاد على الحد الواجب، وأن الأشراف قد أسرفوا في إنشاء الأديرة ليعفوا أملاكهم من الضرائب، وأن أراضي الكنيسة المعفاة من الضرائب قد استغرقت من أرض إنجلترا الزراعية فوق ما يجب أن تستغرقه؛ وأندر البلاد بأنه لم يبق من الجنود من يكفون لوقاية إنجلترا من الغزو(40). وسرعان ما أثبت الدنمركيون، ومن بعدهم النورمان حكمة الراهب وبعد نظره في شئون الدنيا.

ووجد النزاع سبيله إلى الأديرة نفسها، وعكر عليها صفوها، حين اصطدم الرهبان البندتيون المقيمون في جنوبي إنجلترا والذين اتبعوا الشعائر الرومانية والتقويم الروماني، بالرهبان الأيرلنديين والتقويم الأيرلندي والشعائر الأيرلندية في الشمال. وحسم سانت ولفريد St. Wilfrid بفصاحته في مجتمع هوتبي Whitby المقدس (664) هذا النزاع وهو من الوجهة الفنية التاريخ الصحيح لعيد الفصح في صالح روما. وقيل الرهبان الأيرلنديون على كره منهم هذا القرار، وأضحت الكنيسة الإنجليزية بعد وحدتها وما نالت من الحبوس والهيئات سلطة اقتصادية وسياسية، واضطلعت بدور رئيسي في تحضير الشعب وحكم الدولة.

وجاءت المسيحية إلى ألمانيا هدية من الرهبان الأيرلنديين والإنجليز. ذلك أن وليبرورد Willibrord الراهب النورثمبري الذي تلقى تعليمه في أيرلندا اجتاز هو واثنا عشر من أعوانه المغامرين بحر الشمال في عام 690، واتخذ

صفحة رقم : 5191

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

مقره الديني في أوترخت Utrecht، وظل أربعين عاماً يعمل لهداية الفريزيين إلى المسيحية. ولكن أولئك الملاك ذوي النزعة الواقعية رأوا في وليبرورد يد بيبين الأصغر حاميه ونصيره؛ ولم يكن يرضيهم أن يقال لهم إن جميع أسلافهم غير المعمدين مثوهم الجحيم. ويروي أن ملكاً فريزياً عرف هذا وهو يوشك أن يعمد، فامتنع عن التعميد وقال إنه يفضل أن يخلد مع آبائه(41).

وواصل رجل أقوى من وليبرورد هذه الحملة في عام 716. ذلك أن نبيلاً إنجليزياً وراهباً بندكتياً يدعى ونفريد (680؟-754) منحه البابا جريجوري الثاني اسم بنيفاس ولقبه خلفاؤه الصالحون لقب "رسول ألمانيا". وقد وجد ونفريد هذا بالقرب من فرتزلار Fritzlar في هس Hesse شجرة بلوط يعبدها الناس على أنها موطن لإله من الآلهة، فما كان منه إلا أن قطع الشجرة، ودهش الناس حين رأوا أنه ظل حياً فهرعوا إليه يطلبون التعميد. وأقيمت بعدئذ أديرة عظيمة في ريخنو (Reichenau 724)، وفلدا (Fulda 744)، ولورسوخ (Lorsch 763). وعين بنيفاس كبيراً لأساقفة مينز في عام 748، فنصب عدداً من الأساقفة ونظم الكنيسة الألمانية فجعلها أداة قوية لتقويم الأخلاق وتوطيد دعائم النظام الاقتصادي والسياسي. ولما أتم رسالته في هس وثورنجا، أراد أن يختم حياته بالاستشهاد في سبيل الدين، فدخل فريزيا يعتزم أن يتم العمل الذي بدأه وليبرورد. وبعد أن ظل يكدر في هذا العمل سنة أو نحوها هاجمه

الوثيون وقتلوه. وبعد عام من مقتله نشر شارلمان الدين المسيحي بين السكسون بالسيف والنار، ورأى الفريزيون المعاندين أن لا مناص من الخضوع، وتم بذلك فتح بلاد الذين فتحوا روما على أيدي المسيحية الرومانية. وكان آخر انتصارات الدين في أوروبا هو هداية الصقلية. وتفصيل ذلك أن رستسلاف Roslislav أمير مورافيا رأى المسيحية اللاتينية تدخل بلاده وتغفل في شعائرها لغة البلاد، فطلب إلى بيزنطية أن ترسل لبلاده مبشرين

صفحة رقم : 5192

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

يستخدمون اللغة العامية في عظاتهم وصلواتهم، فبعث إليه الإمبراطور بأخوين همامثوديوس Methodius وسيريل Cyril كانا نشأ في سلانيك، ولذلك كان من السهل عليهما أن يتكلمتا لغة الصقلية. ورحب بهما أهل البلاد ولكنهما وجدا أن الصقلية ليست لهم حروف هجائية يعبرون بها عن لغتهم تعبيراً كاملاً بالكتابة، وأن العدد القليل الذين يكتبون يستخدمون في كتابة حديثهم الحروف اليونانية واللاتينية. ولهذا ابتكر الحروف الهجائية الصقلية وطريقة كتابتها، وذلك باستخدام الحروف اليونانية مع التحسينات التي دخلت عليها نتيجة استخدام اليونان إياها حتى القرن التاسع، فكان حرف B ينطق كما ينطق V، H ينطق حرف I (وحرف E في الإنجليزية)، Ch ينطق الأسكتلنديون Ch، وابتكر حروفاً صقلية للأصوات التي لا تعبر عنها الحروف اليونانية. وترجم سيريل بهذه الحروف الهجائية الترجمة اليونانية السبعينية للعهد القديم ونصوص الطقوس اليونانية، وبدأ بهذا العمل لغة مكتوبة جديدة وأدباً جديداً. ونشأ وقتئذ بين المسيحية اليونانية واللاتينية نزاع تبغي به كلتاها أن تستحوذ على الصقلية، فاستدعى البابا نقولاس الأول سيريل ومثوديوس إلى روما، حيث تهرب سيريل، ومرض، ومات (859) أما مثوديوس فعاد إلى مورافيا كبيراً لأساقفتها من قبل البابا. وأجاز البابا يوحنا الثامن استخدام الطقوس الصقلية، ثم حرّمها استيفن الخامس، واكتسبت الكنيسة اللاتينية وشعائرها مورافيا، وبوهيميا، وسلوفاكيا (وهي التي تتألف منها دولة تشكوسلوفاكيا الحاضرة)، كما كسبت بعدئذ بلاد المجر وبولندا، أما بلغاريا، والصرب، وروسيا قد ارتضت الطقوس والحروف الهجائية الصقلية، وقدمت ولاءها للكنية اليونانية، وأخذت ثقافتها عن بيزنطية. ولقد تأثرت هذه التغييرات الدينية بالاعتبارات السياسية. ذلك أن اعتناق الألمان المسيحية كان يقصد بهم ضمهم إلى مملكة الفرنجة وربطهم وإياها برباط

صفحة رقم : 5193

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

وثيق. وفرض الملك هارولد بلوتوث (صاحب الناب الأزرق) الدين المسيحي على الدنمرقة (974)، ليكون جزءاً من الثمن الذي طلبه الإمبراطور أوتو الثاني للصلح. وانحاز بوريس Boris ملك بلغاريا إلى جانب الكنيسة اليونانية

(864) بعد أن ظل يداعب البابوية وقتاً ما، وكان انضمامه إليها لرغبته في الاحتواء بها من توسع ألمانيا، وجعل فلاديمير الأول روسيا بلداً مسيحية (988) ليستطيع الزواج بأنا Anna أخت بازيل الثاني إمبراطور الروم، وليحصل على جزء من بلاد القرم بآمنة لها (42) وظلت الكنيسة الروسية قرنين من الزمان تعترف بسلطان بطرق القسطنطينية، ثم أعلنت استقلالها عنه في القرن الثالث عشر، وأضحت الكنيسة الروسية بعد سقوط الإمبراطورية الشرقية (1453) ذلك الشأن الأكبر في العالم الأرثوذكسي اليوناني.

وكان الجنود المظفرون في هذا الفتح المسيحي لأوروبا هم الرهبان، كما كانت الراهبات هن الممرضات في هذه الحرب الدينية. ذلك أن الرهبان قد عاونوا الزراع على استصلاح الأراضي البور وزراعتها، وتقطيع أشجار الغابات وتنظيف الأرض من الأعشاب، وتجفيف المستنقعات، وإقامة الجسور على الجداول، وشق الطرق، ولقد أقاموا في البلاد مراكز للصناعة، وأنشئوا المدارس، ونظموا الصدقات، ونسخوا المخطوطات وجمعوا مكتبات متواضعة، وبثوا النظام الأخلاقي وروح الشجاعة والطمأنينة في نفوس الحائرين الذين انتزعوا من عاداتهم وشعائرهم أو بيوتهم القديمة. وكان بندكت الأنياني يكده، ويحفز، ويحصد بين رهبانه، كما ظل الراهب ثيودولف يسوق المحراث بالقرب من ريمس مدى اثنين وعشرين عاماً، وقد بلغ من إخلاصه في هذا العمل أن احتفظ بعد وفاته بهذا المحراث وكان موضعاً للإكبار والإجلال.

وكان الرهبان والراهبات يعودون إلى فطرتهم البشرية بين آونة وأخرى بعد أن يبقوا زمناً طويلاً مثلاً علياً للفضيلة، والخشوع، والجد، وكان لا بد من قيام

صفحة رقم : 5194

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

حملة في كل قرن تقريباً لرفع الرهبان مرة أخرى إلى المستويات العليا غير الفطرية التي شرعوا لأنفسهم قواعدها. كذلك كان بعض الرهبان ينهمكون في نوبات موقوتة من التقى والخشوع ثم يصبحون غير صالحين لنظام الرهينة بعد أن يففقوا من نشوتهم وتضعف حماسهم. ومن الرهبان والراهبات من كانوا ننورا جيء بهم إلى الأديرة وهم أطفال في سن السابعة أو بعدها، ومنهم من جيء بهم وهم رضع في المهد، وقد ظلت هذه النذور حرمان لا يحل النكث بها حتى أباحت القرارات البابوية في عام 1179 التحلل منها إذ بلغ الطفل الرابعة عشرة من عمره (43). وهال لويس التقى ما رآه من ضعف النظام في الأديرة الفرنسية فدعا في عام 817 إلى عقد جمعية قومية من رؤساء الأديرة والرهبان في آخن، وعهد إلى القديس بندكت الأنياني أن يقرر السير في جميع أديرة بلاده على القواعد التي وضعها القديس بندكت النورسياني St. Benedict of Nurcia. وأخذ بندكت الجديد يواصل العمل بجد، ولكن المنية وافته في عام 821، وما لبثت حروب الملوك أن أشاعت الفوضى في دولة الفرنجة، وخربت غارات النورمان، والمجر، والمسلمين مئات الأديرة، وهام الرهبان على وجههم في العالم غير الديني، ولما عاد بعضهم إلى أديرتهم بعد أن ارتدت موجة التخريب، جاءوا معهم إليها بطرائق الحياة في خارجها. يضاف إلى هذا أن السادة الإقطاعيين قد اغتصبوا الأديرة، وعينوا هم رؤساءها، واستولوا على إيراداتها، ولم يحل عام 900 حتى تدهورت أديرة الغرب، كما تدهورت الأنظمة كلها، إلا القليل الذي يستحق الذكر منها، في أوروبا اللاتينية إلى الدرك الأسفل من حياتها أثناء العصور الوسطى. وليس أدل على هذا الانحطاط من قول سانت أدو رئيس دير كلوني (المتوفى عام 942) "إن بعض رجال الدين في الأديرة وخارجها يستهترون بآبن العذراء استهتاراً يستيحيون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذاً للعبة والطهارة في حرمها المسور،

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> المسيحية تغزو أوروبا

لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى" (44). ومن دير كلوني جاءت حركة الإصلاح العظمى للأديرة. ذلك أن اثني عشر راهباً قد أنشئوا حوالي عام 910 ديراً في هذا المكان بين تلال برغندية يكاد يكون موضعه على الحدود الفاصلة بين ألمانيا وفرنسا. وفي عام 927 أعاد أدو رئيسه النظر في قواعده ليجعلها أشد صرامة من الناحية الأخلاقية وييسرها من ناحية الجهود الجسمية: فمنع التقشف الشديد، وأوصى بالاستحمام، ووفر الطعام، وأجاز شرب الجعة والنبيد، ولكنه شدد في الاستمساك بالإيمان القديمة التي يلتزم بها الرهبان الفقير، والطاعة، والعفة. وأنشئت أديرة أخرى على غرارها في أماكن أخرى من فرنسا، ولكنها لم تكن كالأديرة القديمة لكل منها قانونه الذي لا يقوم على أساس معروف، ولا يخضع إلا خضوعاً غير وثيق إلى أسقف محلي أو سيد من الأشراف، بل كانت الأديرة البندكتية الجديدة المتصلة بدير كلوني يحكمها رؤساء يخضعون لرؤساء دير كلوني وللبابوات. وانتشرت بزعامة مايول (954-994Mayeul، وأوديلو (994-1049Odilo)، وهيو (1049-1109Hugh) حركة تأخي الأديرة من فرنسا إلى إنجلترا، وألمانيا، وبولندا وهنغاريا، وإيطاليا، وأسبانيا، وانضمت كثير من الأديرة القديمة "إلى المجمع الكلوني"، فلم يحل عام 1100 حتى كان نحو ألفي دير تعترف بأن دير كلوني أبوها وحاكمها. وكانت السلطة المنظمة على هذا النحو البعيدة عن تدخل الدول ورقابة الكنيسة، سلاحاً جديداً في يد البابوية تسيطر به على رجال الدين في خارج الأديرة، ويسرت في الوقت نفسه إصلاح نظام الرهينة على أيدي الرهبان أنفسهم إصلاحاً ينطوي على الجرأة والشجاعة، فكبحت أيد قوية ما كان في الأديرة من اضطراب، وتعطل، وترف، وفساد أخلاقي، ومتاجرة بالدين وبالرتب الكهنوتية، وشهدت إيطاليا ذلك المنظر الغريب منظر راهب فرنسي في أراضيها، إذا دعى إلى إيطاليا ليصلح دير مونتي كسينو نفسه(45).

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

الفصل السادس

البابوية في الحضيض

كانت روما آخر المدن التي وصل إليها الإصلاح. ذلك أن أهل هذه المدينة كانوا على الدوام مشاكسين صعاب المراس حتى في الوقت الذي كان فيه النسر الإمبراطوري يبيض بمخليبه على الفيلق الضخمة يسيرها أينما شاء. أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكل ما كان يعتمد عليه البابوات هو جيش مرابط ضعيف، ومكانة منصبه السامية، ورهبة دينهم، ولهذا وجدوا أنفسهم سجناء في أيدي أرستقراطية تحسدهم على منزلتهم وأهلين يضعف من تقواهم قربهم من عرش بطرس. وكان الرومان أعز نفساً من أن يثأروا بالملوك كما كانوا أكبر من أن يرهيبهم البابوات لطول ما ألفوا صحبتهم والاختلاط بهم، فقد كانوا يرون في خلفاء المسيح في الأرض رجالاً مثلهم بمرضون، ويخطئون، ويأثمون، ويغلبون، فلم تعد البابوية في اعتقادهم حصناً حصيناً للنظام وملجأً عاصماً للنجاة، بل أضحت طائفة من العمال يجمعون الصدقات من أوروبا لمساكين روما. وكانت تقاليد الكنيسة تقضي بالأب اختار البابا بغير رضا رجال الدين في روما وأشرفها وجمهرة سكانها، وتفرق حكام أسبوليتو، وبنفنتوا، ونابلي، وتسكانيا، وأشرف روما شيعاً وأحزاباً كما كانوا في عهدهم القديم، وكان الحزب صاحب اليد العليا في المدينة بحبك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه. وقد عملوا جميعاً على تدهور البابوية في القرن العاشر إلى أخط مستوى وصلت إليه في تاريخها كلها.

من ذلك أنه في عام 878 دخل لامبير Lambert دوق اسبوليتو مدينة روما على رأس جيشه، وقبض على البابا يوحنا السابع، وحاول أن يرغمه بتجويعه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية. وفي عام 897 أمر البابا استيفن

صفحة رقم : 5197

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

السادس بأن تخرج جثة البابا فورموسوس (Formosus)، (891-896) من قبرها، وترتدي الملابس الأرجوانية، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة، ثم يحكم بإدانتها، وتجرد من ثيابها الكهنوتية، وتبتر على أعضائها وتلقى في نهر التيبر (46). وثار في العام نفسه ثورة سياسية في روما خلعت على أثرها استيفن من منصبه، وقتل في السجن خنقاً (47). وظل كرسي البابوية عدة سنين بعد ذلك الوقت لا ينال إلا بالرشا أو القتل، أو رغبات النساء ذوات القوام السامي والخلق الدنيء، وبقيت أسرة ثيوفيلكت Theophylact، أحد كبار الموظفين في قصر البابا، ترفع البابوات إلى كرسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها. واستطاعت ابنته مروزيا Marozia أن تتح في اختيار عشيقها سرجيوس الثالث لكرسي البابوية (904-911) (48)، كما أفلحت زوجته ثيودورا في تنصيب البابا يوحنا العاشر (914-928). وقد اتهم يوحنا هذا بأنه عشيق ثيودورا، ولكن هذا الاتهام لا يقوم عليه دليل قاطع (49)، وما من شك في أنه كان زعيماً ممتازاً في الشؤون الزمنية، لأنه هو الذي عقد الحلف الذي رد زحف المسلمين على روما في عام 916. وظلت مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد واحد حتى تزوجت جويدو Guido دوق تسكانيا؛ وأخذاً ياتمران لخلع يوحنا، وعملاً على قتل أخيه بطرس أمام عينيه، ثم زج البابا في السجن حيث مات بعد أشهر قليلة ميتة لا تُعلم أسبابها، ثم رفعت مريوزا في عام 931 يوحنا الحادي عشر (931-935) إلى كرسي البابوية، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا ابن لها غير شرعي من سرجيوس الثالث (50). وفي عام 923 سجن ابنها ألبريك Alberic يوحنا هذا في قلعة سان أنجيلو Sant' Angelo، ولكنه سمح له أن يصرف من سجنه شئون

البابوية الروحية، وظل ألبريك يحكم روما اثنتين وعشرين سنة، كان فيها الطاغية المسيطر "على جمهورية رومانية". وأوصى وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان Octavian

صفحة رقم : 5198

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

وحمل رجال الدين والشعب على أن يعدوه باختيار أكتافيان باباً بعد موت أجابتوس Agapetus الثاني. وتم له ما أراد، فأصبح حفيد مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهنك والدعارة في قصر لاتيران (Lateran) (51).

وعرف أتو الأول إمبراطور ألمانيا عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط بعد أن توجه يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً في عام 962. فلما عاد إلى روما في عام 963 بتأييد رجال الدين فيما وراء رجال الألب دعا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسي. واتهم الكرادلة يوحنا بأنه حصل على رشا نظير تنصيب الأساقفة، وأنه عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً، وأنه زنى بخليطة أبيه، وضاجع أرملة، وابنه أختها، وأنه حول قصر البابا إلى ماخور للدعارة. ورفض يوحنا أن يحضر أمام المجلس، أو أن يجيب عن هذه التهم، وخرج للصيد، فقرر المجلس خلعه، واختار بالإجماع مرشح أتو لكرسي البابوية، وكان هذا المرشح الذي أصبح البابا ليو الثامن (963-965) من غير رجال الدين. ولما عاد أتو إلى ألمانيا قبض يوحنا على زعماء الحزب الإمبراطوري في روما وبتر أعضائهم، وعمل على أن يعود إلى كرسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره (964) (52) ولما مات يوحنا (964) اختار الرومان بندكت الخامس لكرسي البابوية، وأغفلوا شأن ليو. فعاد أتو من ألمانيا، وخلع بندكت، وأعاد ليو، بهذا اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة في أن يلغوا إذا شاءوا اختيار أي بابا في المستقبل. ولما مات ليو عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر خليف له (965-972). ثم سجن أحد أشراف الرومان بندكت السادس (973-974)، وقتله خنقاً، وفر بنيفازيو فرنكون Bonifazio Francone، وكان قد نصب نفسه بابا شهراً من

صفحة رقم : 5199

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

الزمان، إلى القسطنطينية وحمل معه من كنوز البابوية كل ما استطاع أن يحمله. ثم عاد بعد تسع سنين من فراره، وقتل البابا يوحنا الثالث عشر (983-984)؛ وجلس على كرسي البابوية مرة أخرى، ومات ميتة هادئة في فراشه (985) ورفعت الجمهورية الرومانية رأسها من جديد، وأمسكت بزمام السلطة، واختارت كرسنتيوس Crescentius قنصلاً. فانقض أتو الثالث على روما بجيش قوي لا تستطيع مقاومته، وبتقويض من رجال الدين الألمان، ليقضي على الفوضى بتنصيب راعي كنيسته الخاصة بابا باسم جريجوري الخامس (996-999). وقضى الإمبراطور الشاب على

الجمهورية، وعفا عن كرسنتيوس، وعاد إلى ألمانيا. وما كاد يعود حتى أعاد كرسنتيوس الجمهورية، وخلع جريجوري (997). فما كان من جريجوري إلا أن أصدر قراراً بحرمانه، ولكن كرسنتيوس سخر منه، وعمل على أن يختار يوحنا السادس عشر بابا. فعاد أتو مرة أخرى، وخلع يوحنا، وسمل عينيه، وقطع لسانه، وجدع أنفه، أمر أن يطاف به في شوارع روما على ظهر حمار ووجهه نحو ذنبه. ثم قطعت رؤوس كرسنتيوس واثنى عشر من الزعماء الجمهوريين، وعلقت أجسادهم على أسوار سانت أنجليو (998)(53). وعاد جريجوري إلى كرسي البابوية، وظل جالساً عليه حتى مات مسموماً، في أغلب الظن، عام 998. وأجلس أتو في مكانه رجلاً أصبح من أتبه البابوات جميعاً. ولد جربرت Gerbert من أسرة وضيعة بالقرب من أورلاك Aurillac من أعمال أوفرنى Auvergne (حوالي عام 940)، ودخل وهو صغير السن أحد الأديرة. ثم سافر إلى أسبانيا عملاً بمشورة رئيس الدبر ليدرس علوم الرياضة، إلى أن كان عام 970 فأخذه بوريل Borel كونت برشلونة معه إلى روما، حيث أعجب البابا يوحنا الثالث عشر بعلم الراهب وأوصى به أتو الأول خيراً. وقضى جربرت عاماً في التدريس بايطاليا وكان أتو الثاني من بين طلابه في ذلك الوقت أو بعده. ثم انتقل إلى ريمس ليتلقى علم المنطق في مدرسة كنيستها، وسرعان ما نراه

صفحة رقم : 5200

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

رئيساً لتلك المدرسة (972-982). وكان يعلم طائفة من العلوم غربية في اختلافها تشمل شعراء اليونان والرومان الأقدمين؛ وكان يكتب باللاتينية كتابة ممتازة، وله عدة رسائل تكاد تضارع رسائل سيدونيوس Sidonius. وكان يجمع الكتب حينما ذهب، ويفوق ماله بغير حساب في نسخ صور من المخطوطات المحفوظة في دور الكتب المختلفة، ولعلنا مدينون بما لدينا من خطب شيشرون (54). وكان حامل لواء العالم المسيحي في علوم الرياضة، وأدخل في البلاد صورة جديدة من الأرقام "العربية"؛ وكتب عن المعد والاسطرلاب، وألف رسالة في الهندسة النظرية؛ واخترع ساعة آلية، وأرغناً يديره البخار (55). وقد بلغ من مهارته في كثير من العلوم المختلفة أن اشتهر بعد وفاته بأنه كانت له قوى سحرية (56).

ولما توفي أدلييرو (985) سعى جليبرت ليكون كبيراً لأساقفة ريمس، ولكن هيوكابت عين بدله أرنولف Arnulf، وهو ابن غير شرعي من البيت الكارولنجي. ولما أخذ برنولف ياتمر بهيو أصدر مجلس كنسي قراراً بخلعه على الرغم من احتجاج البابا، واختار جربرت رئيساً للأساقفة (991). ولكن قاصداً رسولياً أقتنع مجمعاً دينياً عقد في مواسون Moisson بعد أربع سنين من ذلك الوقت بفصل جربرت من منصبه. فما كان من العالم المستنزل إلا أن هرع إلى بلاط أتو الثالث في ألمانيا، حيث قوبل بأعظم مظاهر التكريم، وهياً عقل المليك الشاب لفكرة إعادة الإمبراطورية الرومانية واتخاذ روما عاصمة لها. وعينه أتو كبيراً لأساقفة رافنا، ثم عينه بابا في عام 999. وتسمى جربرت باسم سلفستر Sylvester الثاني، كأنما أراد أن يقول إنه سيصبح سلفستراً ثانياً لقسطنطين ثان يوحده العالم مرة أخرى؛ ولو أنه هو وأتو عاشا عشر سنين أخرى لكان من المحتمل أن يحققا حلمهما، لأن أتو ابن أميرة بيزنطية، وكان من المحتمل أيضاً أن يصبح جربرت ملكاً فيلسوفاً. ولكن المنية عاجلت جربرت في السنة الرابعة من جلوسه على

صفحة رقم : 5201

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

عرش البابوية، وتقول الإشاعة الرومانية إنه مات مسموماً، سمته استفانيا Stephanina عينها التي سمت أتو. وتدل الآمال التي كانت تخامرهما، كما تدل الحركات السياسية الدائبة على العمل في العالم حولهما، على قلة من كان فيه من المسيحيين الذين يعتقدون جادين أن العالم سينتهي في العام المتمم للألف بعد الميلاد. فقد حدث في بداية القرن العاشر أن أعلن مجلس كنسي أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل (57)، وظلت أقلية ضئيلة في نهاية ذلك القرن تؤمن بهذا القول وتستعد ليوم الحساب، أما الكثرة الغالبة فظلت تسير سيرتها المألوفة، وتعمل، وتلعب، وتأثم، وتصلي، وتحاول أن تطيل حياتها بعد سن الشيخوخة. ولسنا نجد شواهد على استيلاء الذعر على عقول الناس في عام 1000 بل إننا لا نجد زيادة في هبات الناس إلى الكنيسة (58).

وعادت البابوية سيرتها الأولى من الضعف والانحلال بعد موت جربرت، فأخذ أعيان تسكيولوم Tusculum متحالفين مع الأباطرة الألمان يشتركون مناصب الأساقفة، ويبيعون البابوية، ولما كانوا يحاولون التستر على عملهم هذا. وكان بندكت الثامن (1012-1024) الذي رشحه لهذا المنصب الأخير رجلاً ذكياً قوياً؛ ولكن بندكت (1032-1045) الذي عين بابا في الثانية عشرة من عمره دنس منصبه بحياة الفحش (59)، إلى حد جعل الشعب يثور عليه ويخرجه من روما. غير أنه عاد مرة أخرى بتأييد تسكيولوم، فلما أتعبه منصب البابوية باعها إلى جريجوري السادس (1045-1046) بألف (أو ألفي) رطل من الذهب. وأدهش جريجوري روما بأن كان البابا مثالياً أو أقرب ما يكون إلى المثالية. ويلوح أن الذي دفعه إلى ابتياع منصب البابوية هو رغبته الصادقة في أن يصلح شأنها ويحررها ممن كانوا يسيطرون عليها ولم يكن أمراء تسكيولوم راغبين في هذا الإصلاح، ولهذا أعادوا بندكت العاشر إلى كرسي البابوية، ولكن حزباً آخر رفع سلفستر الثالث إلى عرشها. واستعانت القساوسة

صفحة رقم : 5202

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> البابوية في الحضيض

الإيطاليون بالإمبراطور هنري الثالث ليقضي على هذه المهازل، فجاؤ إلى استتري Stuttri القريبة من روما وعقد فيها مجلساً كنسياً زج سلفستر في السجن، وقبل استقالة بندكت، وخلع جريجوري لاعترافه بأنه ابتاع منصب البابوية. وأقنع هنري المجلس بالأسبيل على انتشار الكنيسة من هذه الوهدة إلا بتتصيب بابا أجنبي تحت حماية الإمبراطور، واختير لهذا المنصب أسقف بامبرج Bamberg ولقب كلمنت الثاني (1046-1047)، ولكنه مات بعد عام واحد من اختياره، كما قضت على خليفته دسموس Damasus الثاني (1047-1048) الملاريا التي كانت وقتئذ تنتشر باستمرار من مناقع كمبانيا التي لم تجف. ثم وجدت البابوية آخر الأمر في ليو التاسع (1049-1054) رجلاً يستطيع أن يواجه مشاكلها بشجاعة، وعلم، واستقامة، وصلاح، فلما رأت روما نظيراً له من زمن بعيد.

صفحة رقم : 5203

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

الفصل السابع

إصلاح الكنيسة

(1054-2049)

ثلاث مشاكل داخلية كان يضطرب بها قلب الكنيسة في ذلك الوقت: وهي المتاجرة بالمناصب في محيط البابوية والأسقفية، والزواج أو التسري بين رجال الدين من غير الرهبان، ووجود حالات متفرقة من الدعارة بين الرهبان أنفسهم.

فأما المتاجرة بالمناصب الكنسية وخدماتها فقد كانت هي المظهر الكنسي لما يعاصره من فساد في الشؤون السياسية. ومن الناس الصالحين من كانوا هم أنفسهم مصدرًا لهذه المتاجرة، مثال ذلك أن أم جوبيرت النوجنتي Guibert of Nogen كانت شديدة الرغبة في أن تهيه الكنيسة، فقدمت المال لرؤسائها لكي جعلوه قسًا في إحدى الكنائس وهو في الحادية عشرة من عمره. وإذ كان الأساقفة في إنجلترا، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا يصرفون الشؤون الروحية والزمنية جميعاً، وكانوا يقطعون أرضين، وقرى، ومدناً في بعض الأحيان، ليستمدوا منها إيراداتهم، فقد كانوا ذور المطامع من الناس يقدمون مبالغ طائلة للرؤساء الزمنيين ليظفروا بهذه المناصب، وكان الشراهون من الرؤساء لا يتورعون عن ارتكاب كل مآثم للحصول على هذه الرشا. وحسبنا أن نذكر أن غلاماً في العاشرة من عمره عين رئيس أساقفة في نربونة Narbonne نظير مائة ألف صليدي(61)، وأن فيليب الأول ملك فرنسا كتب إلى رجل أخفق في الحصول على منصب رئيس أساقفة بواسيه في إخفاقه يقول: "أتركني أجني المال من منافسك، ثم حاول أن تسقطه باتهامه بابتتياع منصبه، وسترى بعد ذلك كيف نرضيه"(62). وكان ملوك فرنسا يتبعون السنة التي سنها شارلمان فيعينونهم بانتظام أساقفة سان Sens، وريمس، وليون، وتور، وبورج، Bourges، أما في

صفحة رقم : 5204

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

غيرها من المدن الفرنسية فكان الدوق أو الكونت هو الذي يعينهم(63). وأضحى كثير من مناصب الأساقفة ميراثاً لبعض الأسر الشريفة، تختص به الصغار من أولادها أو غير الشرعيين منهم؛ وكان أحد البارونات في ألمانيا يمتلك ثماني أسقفيات وبيورثها أبناءه(64). ويزعم أحد الكرادلة الألمان (حوالي عام 1048) أن الذين بيتاعون كراسي الأساقفة ومناصب الكنيسة قد باعوا الواجهات الرخامية في الكنائس، وألواح القرميد في سقفها، ليحصلوا من ثمنها على ما أدوه ثمناً لمناصبهم(65). وكان الذين ينالون المناصب بهذه الوسائل من رجال الدنيا لا من رجال الدين، يعيش الكثيرون منهم عيشة المترفين، ويشنون الحرب، ويغمضون أعينهم عن الرشاً في المحاكم الأسقفية(66)، ويعيشون أقاربهم في المناصب الكنسية، ويعبدون المال من دون الله، ويدينون له وحدة بالطاعة والولاء. ويقول البابا إنوسنت الثالث في وصف أحد رؤساء الأساقفة في نارين إنه لديه كيساً من المال في الموضع الذي كان جب أن يكون فيه قلبه(67). وقد أصبح ابتياع الكراسي الأسقفية أمراً مألوفاً يقبله الناس العاملين على أنه أمر عادي لا غضاضة فيه؛ أما المصلحون فأخذوا ينادون بأن سمعان المجوسي قد استحوذ على الكنيسة(68). وكانت المشكلة الأخلاقية بين رجال الدين العاديين تتأرجح بين الزواج والتسري. وكان زواج القساوسة في القرنين التاسع والعاشر أمراً مألوفاً في إنجلترا وغالة وشمالى إيطاليا، وكان البابا هدریان الثاني نفسه متزوجاً(69)؛ وكتب راثريوس Ratherius أسقف فيرونا (في القرن العاشر) يقول إن أساقفة أبرشيته كلهم تقريباً متزوجون، ولم يستهل القرن الحادي عشر حتى كانت العزوبة بين رجال الدين غير الرهبان من الأمور الشاذة النادرة(70). ومن الخطأ أن نعد زواج القساوسة مناقضاً للأخلاق الفاضلة وإن لم يتفق في كثير من الأحيان مع قوانين الكنيسة ومثلها العليا، ذلك أن زواجهم كان متفقاً مع عادات ذلك الوقت ومبادئه الأخلاقية؛ وكان القس المتزوج أسمى منزلة من القس العزب في مدينة ميلان(71)،

صفحة رقم : 5205

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

لأن ثانيهما كان يتهم بالتسري-جل إن الرأي العام كان يتسامح في التسري نفسه أي في اختلاط رجل غير متزوج بامرأة غير متزوجة اختلاطاً جنسياً منتظماً. ويلوح أن الكثرة الغالبة من القساوسة الأوربيين كانوا يحيون حياة لا غبار فيها من الناحية الأخلاقية، وإنا لنسمع طوال العصور الوسطى عن قساوسة وأساقفة يعيشون معيشة ظاهرة نقية مخلصين لمن يرعونهم، وإنا كنا لا ننكر أنه كان في أماكن متفرقة رجال شواذ يندي من فعالهم الجبين، فما هو ذا الأسقف بنيفاس يشكو إلى البابا زخاري Zachary في 742 أن الأسقفيات تعطي "للشاهين من غير رجال الدين، وللزائنين من القسيسين" (72)، وأن بعض الشماسة "يحتفظون بأربع سراري أو خمس" (73). وقد اتهم بيد الموقر في هذا القرن بعينه "بعض أساقفة" إنجلترا بأنهم يضحكون ويهزلون، ويروون الأفاصيص، ويمرحون، ويسكرون و... يحيون حياة الملذات والفسق" (74). وكثرت هذه التهم وأمثالها في أواخر الألف السنة الأولى بعد الميلاد؛ فما هو ذا رالف جلابر Ralph Glaber يصف قساوسة ذلك العهد بأنهم يشاركون أهله في فسادهم الخلقي، وها هو ذا راهب إيطاليا يدعى بطرس داميان (1007-1072) يعرض على البابا كتاباً يسمى Liber Gomorrhianus ويصف فيه بالمغالاة التي يتوقعها الإنسان من رجل متمسك بدينه، ما يرتكبه القساوسة من رذائل؛ وفي هذا الكتاب فصل عن "مختلف القضايا المتناقضة للطبيعة". ويطالب داميان في هذا الكتاب بقوة أن يحرم الزواج على رجال الدين.

وكانت الكنيسة من زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجته وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة سواء أدرك ذلك أو لم يدركه، وأنه سيميل من أجلهم إلى جمع المال أو المتاع، وأنه سيحاول أن ينقل كرسية أو مرتبه لأحد أبنائه، وأن هذا قد يؤدي إلى طبقة وراثية

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

من رجال الدين في أوروبا تشبه مثيلتها في بلاد الهند، وأن ما يضيفه هذا السلطان الاقتصادي على القساوسة ذوي الأملاك يزيد في قوتهم إلى الحد الذي تعجز معه البابوية عن السيطرة عليهم. ويضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله والكنيسة وبني الإنسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب، وأن يضيف عليه مستواه هذا المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه. وكانت عدة مجالس كنسية قد طالبت بفرض العزوبة على القساوسة؛ وكان واحد منها- هو الذي عقد في بافيا عام 1018- وقد أصدر قراراً يفرض فيه العبودية الدائمة والحرمان من الميراث على جميع أبناء القسيسين (75)، لكن رجال الدين ظلوا مع ذلك يتزوجون. ووجد ليو التاسع أن كرسي الرسول بطرس قد افتقر لكثرة ما يوصي به رجال الدين من أملاك الكنيسة لأبنائهم، ولإستيلاء الأعيان على ضياع الكنيسة، ومن سطو قطاع الطرق على الحجاج الذي يأتيون بالأدعية، والملتمسات، والنذور إلى روما، ولهذا وضع نظاماً لحماية الحجاج، وأعاد إلى الكنيسة ما خرج من أملاكها، وشرع يضطلع بهذا الواجب الثقيل، وأجب تحريم بيع المناصب الكهنوتية، وزواج القساوسة. وقد بدأ عمله بأن أحال أعمال البابوية الداخلية والإدارية إلى الراهب المتبذل الحضيف الذي أصبح فيما بعد جريجوري السابع، ثم غادر روما في عام 1049، معتزماً أن يتعرف بنفسه أخلاق رجال الدين وأعمال الكنائس في مدائن أوروبا الكبرى. وسرعان ما أعادت هيئته الشخصية، وصرامته غير المتكلفة، ما كان لرئيس الكنيسة الأعلى في قلوب الناس من إجلال؛ فأخفقت الرذيلة رأسها لمقدمه، وارتعت فرائص جدفري اللوريني الذي نهب الكنائس وتحدى الملوك حين أصدر البابا قراراً بحرمانه، وخضع صاغراً للجلد علناً أمام مذبح الكنيسة التي خربها في فردان، وتعهد بأن يصلح ما خربه منها، وأخذ يعمل في إصلاحها بيديه. وعقد ليو محكمة بابوية في كولوني، وقوبل فيها بجميع مظاهر

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

الإجلال من رجال الدين الألمان الذين كانوا يفخرون بوجود بابا ألماني ثم انتقل ليو إلى فرنسا ورأس محكمة في ريمس، وأخذ يفحص عن أخلاق رجال الدين وغير رجال الدين، وعن المناصب الكنسية، وانتهاج أملاك الكنيسة، وتحتل رهبان الأديرة من قوانينها، وانتشار الزندقة في البلاد. وأمر كل من حضر المحكمة من الأساقفة أن يعترف بخطاياهم، فأخذ كل منهم، واحداً بعد واحد، ومنهم رؤساء الأساقفة أنفسهم، يتهم نفسه. وأنبهم ليو أشد التائب، وأعفاهم من مناصبهم، وعفا عن بعضهم، وحرّم أربعة من حظيرة الدين، واستدعى غيرهم إلى روما ليكفروا علناً عن سيئاتهم. وأمر رجال الدين أن يخرجوا زوجاتهم وسرارهم، وأن يمتنعوا عن استعمال الأسلحة. ثم أصدر مجلس

روما فضلاً عن هذا قراراً يقضي بأن يختار رجال الدين وعامة الشعب الأساقفة ورؤساء الأديرة، وحرّم بيع المناصب الكهنوتية، ونهى رجال الدين عن أخذ الأجر نظير تقديم القرابين، أو عبادة المرضى، أو دفن الموتى. وأجرى مجلس عقد في مينز (1049) بإلحاح ليو، إصلاحات شبيهة بهذه الإصلاحات في ألمانيا. وعاد ليو إلى إيطاليا في عام 1050 ورأس مجلس فرشلي Vercelli وحرّم فيه آراء برنير التوري Beregner of Tours الخارجة على الدين.

ورد ليو بزيارته الطويلة الشاقة إلى شمالي أوروبا ما كان للبابوية من هيبة ومنزلة سامية، وأعاد الإمبراطور الألماني رئيساً للكنيسة الألمانية كما كان من قبل، وأرغم الأسقفيات الفرنسية والأسبانية على الاعتراف بسلطان البابا عليها، وخطأ بعض الخطوات في سبيل تطهير الكنيسة من الرشا والدعارة. ثم قام بحملات أخرى في ألمانيا وفرنسا في عامي 1051، 1052، ورأس جمعية كنيسة عظيمة في ورمز وأخرى في مانتو Mantua؛ ولما عاد آخر الأمر إلى روما اضطلع بذلك الواجب البغيض، وأجب حماية الولايات البابوية بقوة السلاح. ذلك أن الإمبراطور هنري الثالث كان قد وهبه دوقية بنفنتو؛ ولكن بندلف Pandulf

صفحة رقم : 5208

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> إصلاح الكنيسة

دوق كيو أبي أن يقر هذه المنحة واستولى على هذه الدوقية واستمسك بها معتمداً على تأييد النورمان أتباع ربرت جسكارد. وطلب ليو أن يرسل إليه جيش ألماني يساعده على طرد بندلف ولكنه لم يرسل إليه إلا سبعمائة رجل، ضم إليهم بعض الإيطاليين غير المدربين، وزحف بهم على النورمان، وكاد فرسانهم ودهم يبلغون ثلاثة آلاف من الفرصنة المهرة في الحروب. وأوقع النورمان بجيش ليو هزيمة منكرة، وأسروه، ثم ركعوا أمامه يطلبون إليه أن يعفو عنهم لأنهم قتلوا خمسمائة من رجاله. وساقوه بعدئذ إلى بنفنتو، حيث قدموا إليه ما يليق بمقامه من مجاملة وتكريم، ثم استبقوه سجيناً تسعة أشهر. وتحطم قلب ليو من الحزن وندم أشد الندم على امتشاق الحسام، فحرّم على نفسه أن يلبس غير الخيش، وأن ينام إلا على بساط وحجر، وكان يقضي اليوم كله إلا القليل منه في الصلاة. وأدرك النورمان أنه مشرف على الموت، وأطلقوا سراجه، ودخل روما بين تهليل الشعب وفرحه، وعفا عن جميع الذين حرّمهم، وأمر أن يوضع تابوت في كنيسة القديس بطرس. وجلس بجواره يوماً واحداً مات بعده عند المذبح وجاء العرج، والبكم، والمجذومون من جميع أنحاء إيطاليا ليلمسوا جثته.

صفحة رقم : 5209

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الانشقاق الأكبر من الشرق

حدث الانفصال النهائي بين الكنيستين اليونانية واللاتينية في عهد جلوس سانت ليو على كرسي البابوية. وبينما كانت أوروبا الغربية تتخبط في ظلمات القرنين التاسع والعاشر، وبؤسهما وجهالتهما، وكانت الإمبراطورية الشرقية تحت حكم أباطرتها المقدونيين (867-1057)، تستعيد بعض ما استولى عليه العرب من أملاكها، وتسترد زعامتها في جنوبي إيطاليا، وتزدهر فيها الآداب والفنون من جديد. واستمدت الكنيسة اليونانية من عودة الثراء والسلطان إلى الدولة البيزنطية قوة وكرامة، فأدخلت بلغاريا وبلاد الصرب في حظيرة الكنيسة الشرقية، وقاومت بشدة لم يسبق لها مثيل ما كانت تدعيه البابوية المنحطة المعدمة من سلطان دين مطلق على العالم المسيحي. وكان اليونان في ذلك العصر ينظرون إلى المعاصرين لهم من الألمان والأنجليسكسون على أنهم أقوام من الهمج الغلاظ، وأنهم طائفة من غير رجال الدين الأميين ديدنهم العنف وتترعمهم فئة فاسدة من رجال الدين. وكان رفض البابوية أن يكون الإمبراطور البيزنطي ملكاً على الفرنجة، واستيلاء البابوية على مقاطعة رافنا، وتتويج البابا لإمبراطور منافس لإمبراطور الشرق، واندفاع البابوية إلى إيطاليا اليونانية-كانت هذه الحوادث السياسية التي تحز في النفوس لا الاختلاف القليل بين العقائد هي التي شطرت العالم المسيحي شطرين أحدهما شرقي والآخر غربي.

ففي عام 1043 عين ميخائيل كرولاوريوس Cerularius بطريقاً للقسطنطينية. وكان كرولاوريوس هذا رجلاً من أسرة نبيلة، واسع الثقافة، حاد الذهن، قوي العزيمة. وكان في الأصل راهباً ولكن الذي رفع من شأنه

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> الانشقاق الأكبر من الشرق

هو تاريخه السياسي لا تاريخه الديني. فقد كان كبير وزراء الإمبراطورية، وكان من أصعب الأمور على نفسه أن يقبل منصب البطريرقية، لو أنها كانت تتطلب منه الخضوع إلى روما. وقد أذاع في عام 1053 رسالة باللغة اللاتينية كتبها راهب يوناني يلوم فيها الكنيسة الرومانية أشد اللوم لإرغامها رجال الدين على العزوبة مخالفة بذلك أفعال الرسل وتقاليد الكنيسة، ولاستعمالها خبزاً فطيراً في القربان المقدس، ولإضافة الفقرة القائلة بأن الروح القدس ينبعث من الأب والابن إلى العقيدة النيقية. وأغلق كرولاوريوس في ذلك العام نفسه جميع كنائس القسطنطينية التي تستخدم الشعائر اللاتينية، وحرّم جميع الفسائسة الذين يصرون على استخدامها. وبعث ليو، وكان وقتئذ في أوج سلطانه، برسالة إلى كرولاوريوس، يطلب أن يعترف البطريرك بسيادة البابوات، ويصم كل كنيسة ترفض هذا الاعتراف بأنها "جمعية من الخارجين على الدين، وجماعة من المنشقين، ومعبد للشيطان" (76). ثم أرسل ليو وهو في هذه الحالة

النفسية رسلاً إلى القسطنطينية ليناقتسوا الإمبراطور والبطريق في الفوارق التي تبعد فرعي المسيحية إحداهما عن الآخر. واستقبل الإمبراطور رسل البابا بالترحاب، ولكن كرولايوس أنكر عليهم حقهم في معالجة تلك المسائل. ثم مات ليو في شهر إبريل من عام 1054 وظل كرسي البابوية شاغراً مدة عام. حتى إذا كان شهر يولية أخذ المندوبون هذه المسألة على عاتقهم: ووضعوا على مذبح كنيسة أيا صوفيا قراراً بحرمان كرولايوس، فما كان من ميخائيل إلا أن عقد مجلساً يمثل المسيحية الشرقية على بكرة أبيها، وكرر هذا المجلس جميع شكاوي الكنيسة اليونانية من الكنيسة الرومانية، ولم تغفل فيها شكاواها من حلق اللحى، وشنع رسمياً على قرار المندوبين وعلى "كل ما كانت له يد في صياغته، سواء أكان ذلك بمشورتهم أم بصلواتهم نفسها" (77). وبذلك تم الاشتقاق بين الكنيستين.

صفحة رقم : 5211

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

الفصل التاسع

جريجوري السابع هلدبراند

(1073-1085)

كان من سوء حظ المسيحية أن وجدت فترة من الفوضى والضعف تفصل بين ولاية ليو التاسع وولاية بابا آخر من أقوى البابوات في تاريخ الكنيسة. وهلدبراند اسم ألماني يوحى بأن صاحبه من أصل ألماني، ويفسره معاصرو جريجوري بأن معناه الشعلة الخالصة. وقد ولد من أبوين ينتميان إلى أسرة وضيعة في قرية سوفانو Sovano الواقعة في مستنقعات تسكانيا (1023؟)، وتلقى تعليمه في دير سانت ماري القائم على تل الأفتنين في روما، ثم انضم إلى طائفة الرهبان البندكتيين. ولما أن خلع البابا جريجوري السادس من منصبه ونفي إلى ألمانيا في عام 1046 صحبه هلدبراند في منفاه ليكون راعياً خاصاً؛ وقد استفاد في السنة التي قضاها في كولوني الشيء الكثير عن ألمانيا، وكان ما تعلمه ذا فائدة كبيرة له الصراع الذي نشبت فيما بعد بينه وبين هنري الرابع؛ ولم يمض على عودته إلى روما إلا قليل من الوقت حتى جعله ليو التاسع مساعد شماس أصيل، وعينه مديراً للولايات البابوية، واختاره في الوقت نفسه مندوباً للبابا في فرنسا، وفي وسعنا أن ندرك من ارتقاء شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره إلى هذه المناصب العالية ما كان له من الكفاية في الشؤون السياسية والدبلوماسية وظل البابا فكتور الثاني (1055-1057) واستيفن التاسع (1057-1058)، يستخدمانه في المهام الكبرى؛ ولما ارتقى نقولاس عرش البابوية في عام 1059، وكان أكبر الفضل في ارتقائه إياه راجعاً إلى نفوذ هلدبراند نفسه، عين هذا الراهب الذي لا غنى عنه وزيراً للبابا مع أنه لم يكن قد أصبح قساً.

وكان هو الذي أقتع نقولاس ومجلس لاتران في عام 1057 بإصدار مرسوم

صفحة رقم : 5212

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

انتقل بمقتضاه حق انتخاب البابا إلى مجمع الكرادلة. وكان هدف هلدبراند من هذه الخطوة الحاسمة أن ينقذ البابوية من النبلاء الرومان والأباطرة الألمان، وكان الشاب الديني والحاكم السياسي قد وضع منذ ذلك الوقت المبكر خطته السياسية البالغة الأثر. وقد رأى أن ينقذ البابوية من السيطرة الألمانية بأن يغمض عينه من غارات النورمان وصلفهم في إيطاليا الجنوبية وأن يعترف بامتلاكهم ما انتزعوه من الأرض، ويوافق على مطامعهم، نظير تعهدهم له بحمايتهم الحربية. ورفع هلدبراند في عام 1073 إلى عرش البابوية بعد أن خدم ثمانية بابوات مدة خمس وعشرين سنة؛ ولقد قاوم هو هذا الاختيار لأنه كان يفضل أن يعمل من وراء هذا العرش، ولكن الكرادلة، والقساوسة، والشعب عامة نادوا قائلين: "إن القديس بطرس يريد أن يكون هلدبراند بابا!". ولهذا رسم قسيساً، ثم عين بابا، واتخذ لنفسه ذلك اللقب المبجل - جريجوري.

وكان قصير القامة، وعادي الملامح، حاد البصر، عزيز النفس، صلب الإرادة، قوياً في الحق، واثقاً من النصر، تلمهه وتشجذ همته أربعة أغراض: أن يتم ما بدأه ليو من تقويم أخلاق رجال الدين، وأن يضع حداً لتولي غيرهم المناصب الدينية، وأن يوحد أوربا كلها تحت سلطان كنيسة واحدة وجمهورية واحدة برياسة البابوية، وأن يوجه جيشاً مسيحياً إلى بلاد الشرق ليسترد الأرض المقدسة من الأتراك. وقد كتب في عام 1074 إلى أعيان برغنديّة وسافوي، وإلى الإمبراطور هنري الرابع، يرجوهم أن يجمعوا المال ويحشدوا الجند للقيام بحرب صليبية يعتزم أن يقودها بنفسه. فأما أعيان برغنديّة فلم يتحركوا لتلبية ندائه، وأما هنري فقد حال تززع مركزه فوق عرشه بينه وبين التفكير في حرب صليبية.

وكان مجلس لاتران المنعقد برياسة نقولاس الثاني وهدبراند في عام 1059 قد حرم من حظيرة الدين كل قس يحتفظ بزوجة أو سرية، ونهى المسيحيين

صفحة رقم : 5213

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

عن حضور القديس الذي يقيمه قس يعرفون أنه يحتفظ بامرأة في بيته، ولم يشأ كثيرون من أساقفة لمبارديا أن يشتتوا أسر قساوستهم فأبوا أن يذيعوا هذه القرارات، وأخذ بعض رجال الدين المعروفين في تسكانيا يدافعون عن مبدأ زواج القساوسة ويقولون إنه يتفق مع الأخلاق ومع قوانين الكنيسة، وبذلك أصبح تنفيذ هذا التشريع غير مستطاع، وتذرع الوعاظ الخارجون على الدين بالرأي القائل إن القساوسة الذين يعيشون "أثمين" لا يستطيعون القيام بمراسيم العشاء

الرباني الصحيحة فأخذوا ينادون متحمسين ببطلان هذه المراسم، مما اضطر البابوية إلى الرجوع في دعوتها هذه إلى جماهير المصلين (78). ولما أصبح هلدبراند هو جريجوري السابع (1073) تصدى لهذه المشكلة بعزيمة لا تنتهي ولا تعرف الملل، فجدد مجمع ديني عقد في عام 1074 قرارات 1059، وأرسل جريجوري هذه القرارات إلى جميع أساقفة أوروبا ومعها أمر صارم لهم بإذاعتها وتنفيذها بالقوة، وأباح لعامة الشعب ألا يطيحوا أمر من يخالفها من القساوسة. وكان لهذه الأوامر هي الأخرى رد فعل عنيف، فأعلن كثيرون من القساوسة أنهم يفضلون التخلي عن مناصبهم على التخلي عن أزواجهم، وعارض غيرهم في تنفيذ القرارات لأنها تفرض على الطبيعة البشرية قيوداً لا يقبلها العقل السليم، وتنبؤوا بأن تنفيذها سينشر الاختلاط الجنسي السري وأعلن أتو أسقف كنستانس بأن يحيد آراء قساوسته المتزوجين ويحميهم من العدوان، فما كان من جريجوري إلا أن أصدر قراراً بحرمانه، وأعفى رعاياه من إطاعة أوامره. وخطا جريجوري خطوة أخرى في عام 1075 فأمر أدواق سوابيا وكارنثيا، وغيرهم من الأمراء أن يلجئوا إلى القوة إذا دعت الضرورة لمنع من يقاومون أوامره من القساوسة من أداء واجبات مناصبهم: وإطاعة عدد من الأمراء الألمان، حرم كثيرون من القساوسة الذين أبوا أن يتخلوا عن أزواجهم من مناصبهم (79). ومات جريجوري دون أن يتم له النصر، ولكن إربان الثاني، وبسكال الثاني،

صفحة رقم : 5214

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

وكلستوس Calixtus الثاني أكدوا قراراته ونفذوها، حتى إذا كان عام 1215 أصدر مجلس لاتران برئاسة إنوسنت الثاني قراراً نهائياً بتحريم زواج القساوسة وأخذت هذه العادة بعد ذلك تزول. وبدأت مشكلة المناصب الدينية أبسط من مشكلة زواج القسيسين. فإذا سلمنا بأن المسيح قد أنشأ الكنيسة، وهو الرأي الذي يجمع عليه الملوك والبابوات، اتضح أن رجال الكنيسة، لا العلمانيين هم الذين يحق لهم أن يختاروا الأساقفة ورؤساء الأديرة، ولهذا كان من أكبر العار ألا يكتفي الملوك بتنصيب الأساقفة، بل أن يخلعوا عليهم فوق ذلك (كما يحدث في ألمانيا) عصا الأسقفية وخاتمها وهما الرمزان المقدسان للسلطة الروحية. ولكن الملوك كان لهم رأي لا يقل عن هذا وضوحاً. فما دام الأساقفة ورؤساء الأديرة يسلمون (كما يسلم معظم الأساقفة الألمان ورؤساء الأديرة منهم) أن الملوك قد وهبهم الأرض والدخل، وألقوا عليهم التبعات الزمنية، فقد يبدو خليقاً بهم وعدلاً حسب قوانين الإقطاع. أن يكون أولئك الرؤساء الدينيين-أو الأساقفة منهم في القليل-مدنيين بمناصبهم ولأنهم الزمني للملوك، كما ظلوا مدنيين بها في غير تدمر في عهد قسطنطين وشارلمان. فإذا ما عفوا عن هذا الخضوع وذاك الولاء خرجت نصف الأراضي الألمانية-التي منحت في السنين السابقة للأسقفيات والأديرة-عن سلطان الدولة (80)، وعماً اعتاد أن يؤديه لها أصحابها من واجبات وخدمات. وارتاب الأساقفة الألمان وكثيرون من الأساقفة للمبارد المنتمون إلى أصل ألماني والمدنيون بمناصبهم إلى الألمان في نيات جريجوري وظنوا أنه يسعى للقضاء على استقلالهم الكنسي النسبي وإخضاعهم لكرسي روما إخضاعاً تاماً. أما جريجوري نفسه فكان راضياً بأن يحتفظ الأساقفة بولائهم الإقطاعي للملك (81)، ولكنه لم يكن يرضى بأن يردوا الأراضي التي وهبها الملوك لهم (82)، ذلك أن قانون الكنيسة لا يجيز انتقال ملكية أراضي الكنيسة لغيرها. وشكا جريجوري من أن تعيين غير

صفحة رقم : 5215

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبران

رجال الدين في المناصب الكنسية قد نشأت عنه عظم المفساد الخاصة لبيع المناصب الكهنوتية، والانغماس في الشرور الدنيوية، والفساد الخلقي وهي الأثام التي ظهرت في الأبرشيات الألمانية والفرنسية، ولهذا كان يرى أن من الواجب إخضاع الأساقفة لسلطان البابا، وإلا صارت الكنيسة الغربية، كما صارت الكنيسة الشرقية، تابعاً ذليلاً للدولة. وكان من وراء هذا الصراع التاريخي صراع آخر هو صراع البابوية مع الإمبراطورية، وهل من حق هذه أو تلك أو توحد أوريا وتحكما. وكان الأباطرة الألمان يدعون أن سلطتهم هم أيضاً سلطة مقدسة لأنها من ضرورات النظام الاجتماعي. ألم يقل الرسول بولس إن السلطات القائمة مقدره من عند الله؟ أليسوا هم كما يقول البابوات أنفسهم ورثة إمبراطورية روما؟ فهم المدافعون عن حرية الجزء كما يدافع جريجوري عن وحدة الكل وعن النظام فيه؟ وكان يسوءهم هم أنفسهم قبل حركة الإصلاح الديني بزمان طويل - أن ينساب الذهب في شكل أجور وهبات الكنيسة بطرس - من ألمانيا إلى إيطاليا (83)؛ وكانوا يرون أن السياسة البابوية ليست إلا جهوداً تذلها روما اللاتينية لإعادة سيطرتها القديمة على البلاد التي تزدريها إيطاليا وتسميها بلاد الشمال التوتونية الهمجية. وكانوا يعترفون اعترافاً صريحاً بسلطان الكنيسة في الشؤون الروحية، ولكنهم يؤكدون سلطان الدولة في الشؤون الزمنية أو الدنيوية. وكان هذا يبدو في نظر جريجوري ثنائية مختلفة النظام، ويرى أن الاعتبارات الروحية يجب أن تعلو على الشؤون المادية كما تعلو الشمس على القمر (84)، ولهذا يجب أن تخضع الدولة للكنيسة - أن تخضع مدينة الإنسان لمدينة الله في جميع المسائل التي لها مساس بالعقيدة، أو التعليم، أو الأخلاق، أو العدالة، أو التنظيم الكنسي. ألم يعترف ملوك فرنسا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة اعترافاً ضمناً بأن السلطة الروحية مصدر السلطة الزمنية وصاحبة السيادة عليها، وذلك حين ارتضوا أن يمسحهم

صفحة رقم : 5216

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبران

البابوات أو يثبتهم في مناصبهم؟ إن الكنيسة بوصفها نظاماً إلهياً خليفة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية؛ ومن حق البابا وواجبه، بوصفه خليفة الله في أرضه، أن يخلع الملوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال (85). وقد تساءل جريجوري في رسالة كتبها وهو غاضب إلى هرمان Hermann أسقف متز: "منذا الذي يجهل أن الملوك والأمرء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله، ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر، ويرتكبون في الحقيقة جميع أنواع الجرائم... ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقلون عنهم - أي الشعب - جسعاً وعماية وعجرفة لا تطاق؟" (86) وقد بدا لجريجوري، من نظرتة إلى ما ساد أوريا من فرقة سياسية، وفوضى، وحروب، أن لا نجاه لها من هذا البؤس الذي خيم عليها دهوراً طويلاً إلا بقيام نظام عالمي تتخلى فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التي تعض عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية، أوربية في القليل، إن لم تكن عالمية.

وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوصول إلى هذه الغاية هي تحرر البابوية من السيطرة الألمانية، والخطوة الثانية هي إخضاع جميع الأساقفة للكرسي البابوي، إن لم يكن إخضاعاً تاماً، فالى الحد الذي يتحتم معه أن يكون الذين يختارونهم هم رجال الدين وشعب الأبريشة بإشراف أسقف يرشحه البابا أو المطران، وألا يصبح الاختيار نهائياً وقانونياً إلا إذا

أيده رئيس الأساقفة أو البابا نفسه(87). وبدأ جريجوري عمله برسالة وجهها (1073) إلى أسقف شالون Ch(lon أنذر فيها بأن يحرم فيليب أغسطس ملك فرنسا لأنه يبيع مناصب الأساقفة. ثم وجه في عام 1074 الرسالة عامة إلى الأسقفيات الفرنسية يدعوها إلى التشهير بجرائم الملك في حضرته، وأن يمتنعوا عن أداء جميع الخدمات الدينية في فرنسا إذ أبى فيليب أن يصلح شأنه(88). وظل غير رجال الدين رغم هذا يعينون في المناصب الدينية

صفحة رقم : 5217

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

ولكن الأساقفة الفرنسيين ساروا على حذر وتركوا النزاع يحسم في ألمانيا نفسها. واجتمع في فبراير من عام 1075 مجمع من الأساقفة الطليان في روما برياسة جريجوري، وأصدر قرارات تحرم بيع المناصب الكهنوتية، وزواج رجال الدين، وتعيين غيرهم في المناصب الكنسية. وأسرع جريجوري بعد صدور هذه القرارات إسراعاً عجيباً فحرم خمسة أساقفة للمتاجرة بالرتب الكهنوتية، وكان هؤلاء الخمسة من مستشاري هنري الرابع، ثم أوقف، أسقف بافيا وتورين، وخلع أسقف بياسنزا Piacenza وأمر هرمان أسقف بامبرج Bamberg بالحضور إلى روما ليبرئ نفسه من التهم الخاصة بالمتاجرة بالرتب الكهنوتية، ولما حاول هرمان أن يرشو رجال المحكمة البابوية خلعه جريجوري دون أدنى مجاملة، وطلب إلى هنري بأدب ولطف أن يرشح شخصاً يليق أن يخلفه أسقفاً لبامبرج. ولم يكتف هنري بترشيح أحد رجال حاشيته المقربين بل إنه خلع عليه عصا الأسقفية وخاتمها دون أن ينتظر موافقة البابا وذلك إجراء إن كان يتفق مع العادة المتبعة، فإن فيه تحدياً صريحاً لقرار مجمع روما المقدس. وكأنما أراد هنري أن يجعل رفضه مطالب جريجوري مما ظهر بتحديه هذا فعين أساقفة لابريشيات ميلان، وفرمو Fermo، وأسبيلتو وهي بلدان قريبة كل القرب من مقر البابا وظل المستشارون المحرومون موضع عطفه ورعايته.

وبعث جريجوري في شهر ديسمبر من عام 1075 برسالة احتجاج إلى هنري، وأمر حاملها بأن يضيفوا إليها رسالة شفوية يندرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع روما المقدس. فلما تلقى هنري الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان في ورمز (24 يناير سنة 1076) حضره أربعة وعشرون منهم، وتخلف عنه بعضهم. وقبل أن ينعقد المجلس اتهم هيو Hugh أحد الكرادلة الرومان جريجوري بالفسق، والقسوة، والسحر، وبأنه توصل إلى كرسي البابوية بالرشوة والعنف، وذكر الأساقفة بأن العادات التي ظلت سارية

صفحة رقم : 5218

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

من قرون طوال تتطلب ألا يكون اختيار البابا مشروطاً بموافقة إمبراطور ألمانيا، ولم يكن جريجوري قد طلب هذه الموافقة. وكان مما شجع الإمبراطور على المضي في خطته أنه أخضع منذ قليل فتنة قامت في سكسونيا فعرض على المجلس اقتراحاً بخلع البابا، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد في بياسنزا، وبعث هنري بهذا القرار إلى جريجوري مديلاً بهذه الحاشية المنتقاة: "من هنري الملك بأمر الله لا بالاعتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيف لا البابا" (89). وسلمت الرسالة إلى جريجوري في مجمع مقدس بروما (21 فبراير سنة 1076)؛ وأراد الأساقفة الحاضرون كلهم البالغ عددهم مائة أسقف وعشرة أساقفة أن يقتلوا الرسول، ولكن جريجوري حماه؛ وحرّم المجمع المقدس الأساقفة الذين وقعوا قرار ورمز، وأصدر البابا حكماً مثلثاً بحرمان هنري، ولعنته، وخلعه، وأعطى رعاياه من يمين الطاعة له (22 فبراير سنة 1076). ورد هنري على هذا بأن أقنع أساقفة أو ترخت بأن يصبو على جريجوري "الراهب الحانت" اللعنات من منبر الكنيسة وروعت أوروبا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً، وروعت أكثر من هذا بأن يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة. وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية، وسرعان ما تخلى الرأي العام عن الإمبراطور، وعادت سكسونيا إلى الثورة، ولما أن استدعى هنري أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان في ورمز ومينز أغفلت دعوته إغفالاً يكاد يكون تاماً. بل كان ما حدث هو نقيض هذا فقد وجد الأشراف الألمان في هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك فاجتمعوا في تريبور (Tribur) 16 أكتوبر سنة 1076، ووافقوا على حرمان الإمبراطور، وأعلنه أنه إذا لم يحصل على مغفرة سن البابا قبل اليوم الثاني والعشرين من شهر فبراير عام 1077 فإنهم سيرشون خلفاً له على العرش. وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبي البابا في

صفحة رقم : 5219

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

تريبور أن يجتمع مجلس في أوجزبرج في اليوم الثاني من فبراير عام 1077 برياسة البابا لتسوية شئون الكنيسة والمملكة.

ولجأ هنري إلى اسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معيناً. وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من ملكه، فبعث بالرسول إلى روما، يعرض على البابا أن يأتي هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة؛ ورد عليه جريجوري بأنه مزعم أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنري في روما. وبينما كان البابا في طريقه إلى تلك المدينة استضافته في مانتوا ماتلدا كونتة تسكانيا وصديقه ومؤيدته؛ وهنا عرف أن هنري قد دخل إيطاليا؛ وخشي جريجوري أن يحشد الملك جيشاً من سكان لمبارديا المعارضين للبابا، فلجأ إلى قصر ماتلدا الحصين في كانوسا Oanossa، القائم فوق جبال الأبنين بالقرب من ريجيو إميليا Reggio Emilia. وهناك في الخامس والعشرين من شهر يناير سنة 1077، وفي يوم من أيام الشتاء الذي لم تشهد إيطاليا مثيلاً له في برودته، أقبل هنري، كما يقول التقرير الذي بعث به جريجوري إلى الأمراء الألمان:

"بنفسه إلى كانوسا... وليس معه إلا عدد قليل من أفراد حاشيته... ووقف بباب القصر، وحافياً، وليس عليه إلا أثواب بالية من الصوف، يتوسل إلينا والخوف يملأ قلبه أن تغفر له ونعفو عنه. وظل يفعل هذا ثلاثة أيام رثاً فيها كل من حولنا لشقوته، وجاءوا يشفعون له بدموعهم وصلواتهم... فرفعنا آخر الأمر الحرمان عنه وقبلناه مرة أخرى في حظيرة الكنيسة أمنا المقدسة" (90).

ولم يكن تردد جريجوري طوال هذا الوقت ناشئاً من قسوة قلبه، بل إنه قد قرر مصالحة هنري دون أن يستشير الأمراء الألمان، وكان يعرف أنه إذا خرج هنري عليه بعد أن عفا عنه، ثم حرّمه مرة أخرى، فإن هذا الحرمان لن يكون له من الأثر ما كان لحرمانه الأول، ولن يؤيده الأشراف بنفس القوة التي أيده بها من قبل؛ ولن يسهل على العالم المسيحي أن يفهم كيف يأبى خليفة

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

المسيح أن يعفو عن هذا التائب الذليل. وكان هذا الحادث نصراً روحياً لجريجوري، ولكنه كان إلى جانب هذا نصراً دبلوماسياً رائعاً لهنري، فقد استعاد به عرشه من تلقاء نفسه وعاد جريجوري بعد ذلك إلى روما وقضى العامين التاليين في إصدار التشريعات الكنسية التي كانت تهدف قبل كل شيء إلى إرغام القساوسة على عدم الزواج. غير أن الأمراء الألمان نادوا برودلف أمير سوابيا ملكاً على ألمانيا (1077) وبدأ أن سياسة هنري قد أخفقت. لكنه بعد أن تحرر من اللعنة البابوية لقي عطفاً جديداً من الشعب الذي لم يكن شديد الحب للأشراف، فحشد جيشاً جديداً لتأييده، وظلت ألمانيا عامين كاملين تمزقها الحروب الداخلية. وظل جريجوري يتذبذب طويلاً، ثم أعلن تأييده لرودلف وحرّم هنري مرة أخرى، وحرّم على المسيحيين أن يخدموه، وعرض على من يتطوع تحت راية رودلف أن يغفر له خطاياهم (مارس سنة 1080)(19).

وفعل هنري ما فعله من قبل لم يتحول عند قيد شعره. فجمع في مينز مجلساً من الأعيان والأساقفة المواليين له؛ وخلع المجلس جريجوري، وأيد مجلس من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا عقد في بريكسن Brixen قرار الخلع، ونادى بجيبير Guibert كبير أساقفة رافنا بابا، وعهد إلى هنري أن ينفذ قراراته. واجتمع الجيشان المعاديان على ضفاف نهر السال Ssale في سكسونيا (15 أكتوبر سنة 1080)، وهزم هنري ولكن رودلف قتل في المعركة. وبينما كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له، دخل هنري إيطاليا، واخترق لمبارديا دون أن يلقى مقاومة، وجيش وهو يخترقها جيشاً آخر، وضرب الحصار على روما. واستغاث جريجوري بربرت جسكارد ولكن ربرت كان بعيداً عنه، فاستغاث بوليم الأول وكان جريجوري قد وافق على فتحه إنجلترا وأيد هذا الفتح، ولكن ولیم لم وثقاً من أنه لا يريد أن يفقد هنري حخته الملكية. ودافع أهل روما عن رئيسهم الديني دفاع الأبطال، ولكن هنري استطاع أن يستولي

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبراند

على جزء كبير من روما وفيه كنيسة القديس بطرس، وفر جريجوري إلى كاستلوسانتا أنجيلو Casllo Sant Angelo. واجتمع مجمع مقدس في قصر لاتران بدعوة من هنري، وخلع جريجوري وحرّمه، ونادى باسم بجيبير بابا باسم كلمنت الثالث (24 مارس سنة 1084)، وبعد أسبوع من ذلك الوقت توج كلمنت هنري إمبراطوراً، وظل هنري سيد روما عاماً كاملاً.

غير أن ربرت جسكارد عاد من حروبه مع بيزنطية في عام 1085، واقترب من روما على رأس جيش مؤلف من 36.000 رجل، ولم يكن عند هنري جيش يستطيع به ملاقاته هذه القوة، ففر إلى ألمانيا، ودخل ربرت العاصمة، وحرر جريجوري، ونهب روما، وخرب نصفها، وأخذ معه جريجوري إلى مونتي كسينو. واشتد غضب العامة في روما على النورمان غضباً لم يستطع معه البابا حليفهم أن يأمن على نفسه في ذلك المكان. وعاد كلمنت إلى روما متظاهراً بأنه البابا، وذهب جريجوري إلى سالرنو، وعقد فيها مجمعاً مقدساً آخر، وحرّم هنري مرة أخرى، ثم خارت قواه الجسمية والروحية وقال: "لقد كنت أحب العدالة وأمقت الظلم، ولهذا فإني أموت منفياً". ولم يكن قد تجاوز الثانية والستين من عمره، ولكن النزاع المرير الذي خاض غماره قد حطم أعصابه وهد قواه، ولم تترك له هزيمته الظاهرة على يد الرجل الذي عفا عنه في كانوسا رغبة في الحياة. ومات جريجوري في سالرنو في الخامس والعشرين من مايو عام 1085.

وبعد قلعه كان متطرساً فوق ما يجب في حبه العدالة، وملتحمساً فوق ما يجب في كرهه للظلم؛ وليس من حق الرجل العملي أن يرى ما في مركز عدوه من عدالة، بل إن ذلك من حق الفيلسوف وحده؛ ولقد استطاع إنوسنت الثالث بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجوري، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح، ولكنه حققه بروح أكثر اعتدالاً من روح جريجوري وبوسائل دبلوماسية أكثر من وسائله حكمة. ومع هذا فإن

صفحة رقم : 5222

قصة الحضارة -> عصر الإيمان -> العصور المظلمة -> صراع المسيحية -> جريجوري السابع هلدبران

إنوسنت لم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجوري، ولقد تعلق هلدبران بأعلى مما يستطيع إدراكه، ولكنه رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة قبل أيامه. ولقد انتصر في حربه العوان على زواج القسيسين، وهي الحرب التي لم يقبل فيها مهادنة، وبذلك أعد لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد. وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين في المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً، ولكن آراءه كانت لها الغلبة في النهاية، وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية. وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابوية إلى بسط سلطان البابوات على كل أبرشية في العالم المسيحي، وهو الذي وضع الخطة التي حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك. وسرعان ما رفعت هذه الانتخابات إلى عرش البابوية طائفة متسلسلة متصلة الحلقات، من الرجال الذين أدهشوا العالم بقوتهم وعظمتهم، ولم تمض على موت جريجوري عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم ونبلاؤه بإربان الثاني زعيماً لأوروبا جميعها في ذلك المزيج المؤلف من المسيحية، والإقطاع والفروسية، والاستعمارية، وهو المزيج المعروف عندنا باسم الحروب الصليبية.

صفحة رقم : 5223

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر

www.alsakher.com